



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عيد ميلاد
عمر الکرمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

السلامة القوية

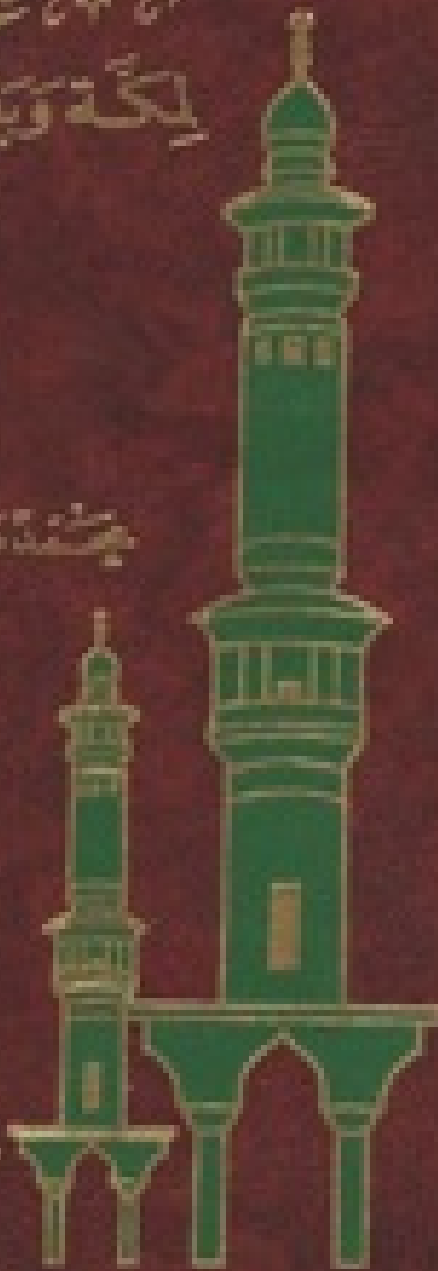
بركة وبيت الله الكريم

تأليف

مفتي دار الحديث الحسنية

المجلد الثاني

جميع حقوق محفوظة
تمت الطباعة في دار الحديث الحسنية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم

كاتب:

محمد طاهر الكردي المكي

نشرت في الطباعة:

دار خضر

رقم الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٢٨	التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم المجلد ٢
٢٨	اشارة
٢٨	[الجزء الثالث]
٢٨	عمارات حجر إسماعيل
٢٨	اشارة
٣٠	الرخامة الخضراء التي بالحجر
٣٢	نقش أرضية حجر إسماعيل
٣٣	الكتابة التي في أعلى جدار الحجر
٣٤	الحطيم و حجر إسماعيل و ما كتب عليه
٣٥	بيان جبهة بيت المقدس
٣٦	الرخامات الصفر التي على الشاذروان
٣٦	البنائة الخامسة و السادسة: بناء جرهم و العمالقة الكعبة
٣٦	اشارة
٣٧	الكعبة في عهد خزاعة
٣٨	البنائة السابعة: بناء قصى بن كلاب الكعبة
٣٨	ترجمة قصى بن كلاب
٤٠	البنائة الثامنة: بناء قريش الكعبة
٤٠	اشارة
٤٥	وضع رسول الله صلى الله عليه و سلم الحجر الأسود بيده في محله الكعبة
٤٩	الخلاصة في كيفية بناء قريش
٤٩	مميزات بناء قريش
٥٠	ترجمة الوليد بن المغيرة المخزومي

- ٥١ ترجمة قريش
- ٥٢ ترجمة باقوم الرومي
- ٥٨ البناية التاسعة: بناء عبد الله بن الزبير الكعبة
- ٥٨ اشارة
- ٥٨ حرب ابن الزبير رضى الله عنه
- ٥٩ حرب ابن الزبير و قتله
- ٦٠ الحرب بالمنجنيق
- ٦٠ الحرب بالدبابات
- ٦١ بناء ابن الزبير الكعبة
- ٦٣ بكاء عبد الله بن عمرو بن العاص على احتراق الكعبة
- ٦٨ سبب بناء ابن الزبير الكعبة على قواعد ابراهيم
- ٦٩ ما جاء فى صحيح مسلم عن بناء ابن الزبير و الحجاج الكعبة
- ٧٠ ابتداء هدم الكعبة و انتهاء بنائها فى عهد ابن الزبير
- ٧٠ باب الكعبة الغربى
- ٧٢ حكم استقبال القبلة عند هدم الكعبة المشرفة
- ٧٣ الخلاصة فى كيفية بناء ابن الزبير
- ٧٤ مميزات بناء ابن الزبير
- ٧٥ انين الكعبة من ضرب المنجنيق فى عهد ابن الزبير رضى الله تعالى عنه
- ٨٢ ترجمة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما
- ٨٧ اختلاف العلماء فى بعض المسائل الدينيه
- ٨٨ اختلاف الناس فى بعض الأمور الحيويه
- ٨٩ الاختلاف فى استعمال السكة الحديدية
- ٩٠ الاختلاف فى استعمال البخار فى الأسطول
- ٩٠ الاختلاف فى استعمال التدفئة و أنابيب الماء و تشييد المنازل العاليه

- الاختلاف فى استعمال الشوكة و السكين فى الأكل ٩٠
- الاختلاف فى لبس البنطلونات ٩٠
- الاختلاف فى استعمال النظارات ٩١
- الاختلاف فى استعمال أحواض الاغتسال ٩١
- الاختلاف فى استعمال المطابع ٩١
- الاختلاف فى أكل الملح و الموز و البطاطس و الطماطم ٩١
- الاختلاف فى قبول البنات فى المدارس ٩٢
- الاختلاف فى استعمال الكهرياء ٩٢
- الاختلاف فى استعمال السيارات و العربات ٩٢
- الاختلاف فى استعمال الشمسية ٩٢
- الاختلاف فى استعمال الصابون ٩٢
- الاختلاف فى بناء برج إيفل بباريس ٩٣
- الاختلاف فى الانتقال من الأحياء القديمة ٩٣
- الاختلاف فى تعليم البنات ٩٤
- البنية العاشرة: بناء الحجاج الثقفى الكعبة ٩٤
- اشارة ٩٤
- سبب بناء الحجاج الكعبة ٩٤
- الخلاصة فى كيفية بناء الحجاج الثقفى ٩٥
- ما كان من العمارة فى الجدار الذى بناه الحجاج ٩٦
- وجوب الطواف من وراء جدار الحجر ٩٦
- مميزات بناء الحجاج ٩٧
- ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفى ٩٧
- حكاية الحجاج مع الأعرابى ٩٩
- نقل الحجاج إلى العراق ٩٩

- ١٠٠ حكاية الحجاج مع الغضبان
- ١٠٢ البناية الحادية عشرة: بناء السلطان مراد الرابع للكعبة
- ١٠٢ اشارة
- ١٠٢ الخلاصة في كيفية بناء السلطان مراد الرابع
- ١٠٢ مميزات بناء السلطان مراد
- ١٠٣ التفصيلات الوافية عن بناء السلطان مراد الرابع للكعبة
- ١٠٥ حزام الكعبة الذي أرسله السلطان أحمد خان
- ١٠٧ صورة الاستفتاء الذي قدمه رضوان آغا لعلماء مكة الأعلام
- ١٠٧ جواب الشيخ أحمد بن محمد آق شمس الدين المدرس الحنفى
- ١٠٧ جواب الشيخ خالد بن أحمد المالكى
- ١٠٨ جواب السيد زين العابدين بن عبد القادر الطبرى الشافعى
- ١٠٨ صورة الاستفتاء الذي قدمه رضوان آغا لعلماء مكة
- ١٠٨ بخصوص هدم الجدار اليمانى كما ذكره العلامة أيوب صبرى فى مرآة الحرمين
- ١٠٩ جواب الشيخ خالد بن أحمد المالكى
- ١٠٩ جواب الشيخ عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى
- ١١٠ جواب الشيخ أحمد بن محمد آق المدرس
- ١١٠ جواب الشيخ عبد الله بن أبى بكر بن ظهيرة القرشى
- ١٣١ فوائد تتعلق بهذا الباب:
- ١٣٢ عدد حجرات الكعبة الظاهرة فى هذا البناء
- ١٣٣ قوة بناية السلطان مراد الرابع للكعبة
- ١٣٤ ترجمة السلطان مراد الرابع
- ١٣٥ بيان بأسماء السلاطين من آل عثمان الذين قاموا بتعمير الحرمين الشريفين
- ١٣٥ رفع الراية على قلاع الحرمين
- ١٣٦ الزمن الذى بين بنايات الكعبة

- ١٣٦ الجبال التي أخذت منها الحجارة لبناء الكعبة
- ١٣٩ بقاء الكعبة إلى قيام الساعة
- ١٤٠ الحجارات الرخام المكتوبة داخل الكعبة
- ١٤٣ الكتابة الموجودة على عقد باب الكعبة
- ١٤٤ تحليل الكعبة
- ١٤٧ الكراسى التي كانت موجودة في الكعبة
- ١٤٨ الكعبة المشرفة و هندستها
- ١٥٠ اختلاف بنايات الكعبة و ترميرها
- ١٥٢ صفة أشهر بنايات الكعبة المعظمة كيفية بناء إبراهيم عليه السلام
- ١٥٣ كيفية بناء قريش
- ١٥٤ كيفية بناء ابن الزبير
- ١٥٥ كيفية بناء الحجاج الثقفي
- ١٥٥ اشارة
- ١٥٦ سبب بناء الحجاج الكعبة
- ١٥٧ كيفية عمارة السلطان مراد الرابع
- ١٥٩ منظومة في صفة أشهر بنايات الكعبة
- ١٦٠ *** أسماء من بنى الكعبة
- ١٦١ صفة بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام الكعبة
- ١٦٣ صفة بناء قريش الكعبة قبل بعثة النبي صلى الله عليه و سلم بخمس سنين
- ١٦٤ صفة بناء الحجاج بن يوسف الثقفي الكعبة
- ١٦٥ صفة بناء السلطان مراد خان الرابع الكعبة و هو البناء الحالي الموجود اليوم
- ١٦٦ بيان ما وقع من العمارة في الكعبة المشرفة في عصرنا الحاضر و ذلك في عام (١٣٧٧) من الهجرة
- ١٦٩ (ختام المنظومة بالدعاء)
- ١٧٠ (ناظم هذه القصيدة)

- ١٧١ الحجر الأسود
- ١٧١ اشارة
- ١٧٢ أصل الحجر الأسود من الجنة
- ١٧٥ لون الحجر الأسود
- ١٧٧ علة تسمية الركن ب الحجر الأسود
- ١٧٧ تقبيل الأيدى عند استلام الركن
- ١٧٨ بقاء الحجر الأسود إلى يوم القيامة
- ١٧٩ الرد على من يقول بأن الحجر الأسود من النيازك
- ١٨١ الزحام على تقبيل الحجر الأسود
- ١٨٢ الترغيب فى استلام الركنين
- ١٨٣ ما يقال عند استلام الحجر الأسود
- ١٨٥ فضل الملتزم و الدعاء فيه
- ١٨٦ الحوادث التى مرت على الحجر الأسود
- ١٨٩ الرد على من يقول أن القرامطة استبدلوا الحجر الأسود
- ١٩١ أصل القرامطة و مذهبهم
- ١٩٧ المقالة فى أصل هذه الدعوة الملعونة و مبدئها
- ١٩٩ وضع الأطواق على الحجر الأسود
- ٢٠٠ تطويق الحجر الأسود بالذهب و الفضة
- ٢٠١ المحافظة التامة على قطع الحجر الأسود إن كسر منه شىء
- ٢٠١ شاذروان الكعبة
- ٢٠٢ اشارة
- ٢٠٤ حكم الشاذروان بالنسبة للطواف
- ٢٠٥ عدد مرات بناء الشاذروان و إصلاحه
- ٢٠٦ مقاس الشاذروان و عدد حجارتة و عدد الحلقات به

- ٢٠٧ الرخامات الصفر التي ب الشذروان
- ٢١١ منظومة السيوطى فى موافقات عمر رضى الله عنه
- ٢١١ ذرع ما بين مقام إبراهيم و بين الكعبة و ما حولها
- ٢١١ اشارة
- ٢١٢ صفة المقام
- ٢١٣ وصفنا ل مقام إبراهيم
- ٢١٦ موضع المقام
- ٢١٧ أرجح الأقوال فى موضع المقام
- ٢١٩ ما ورد فى كتاب شفاء الغرام عن موضع المقام فى الجاهلية و الإسلام
- ٢٢١ وضع المقام فى مكانه الحالى
- ٢٢٢ ترجمة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه
- ٢٢٢ اشارة
- ٢٢٤ فضل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه
- ٢٢٥ عمر بن الخطاب و بعض أعماله
- ٢٢٦ قتل عمر رضى الله عنه و ما قاله عند موته
- ٢٢٨ ترجمة المطلب بن أبى وداعة السهمى رضى الله تعالى عنه
- ٢٢٨ اهتمام عمر رضى الله عنه بأمر المقام
- ٢٣١ ترجمة عبد الله بن السائب العابدى رضى الله عنه
- ٢٣٢ ذرع مقام إبراهيم
- ٢٣٢ الذهب الذى على مقام إبراهيم
- ٢٣٣ تطويق المقام بالذهب و الفضة
- ٢٣٣ ما ذكره إبراهيم رفعت باشا فى كتابه مرآة الحرمين عن مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام و ما كتب عليه
- ٢٣٥ الأحجار الأثرية المفروشة خلف مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام
- ٢٣٥ التحقيق التام عن موضع المقام

- ٢٣٩ كسوة المقام
- ٢٤٠ الكسوة العراقية للكعبة
- ٢٤٠ وجوب صون المقام
- ٢٤٠ وضع المقام فى مقصورة
- ٢٤٢ فوائد وضع المقام فى مقصورة
- ٢٤٣ الرد على من يقول: أن المقام كان مدفونا
- ٢٤٣ اقتراح المؤلف فى مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام
- ٢٤٤ الأحجار الثلاثة التى صارت معجزة لرسل الله الثلاثة
- ٢٤٥ أول تفكير فى تاريخ الإسلام لنقل مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام عن موضعه الأصلى
- ٢٤٦ وضع زجاج على مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام و رفع المقصورة الحديدية التى كانت عليه
- ٢٤٨ تجديد مقصورة مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام
- ٢٥٦ المصلى الجديد بالمسجد الحرام
- ٢٥٦ قدم أبينا آدم عليه السلام
- ٢٥٧ أقدام إدريس و عيسى عليهما الصلاة و السلام
- ٢٥٨ تغيير سقف الكعبة و ترميمها فى العهد السعودى فى وقتنا الحاضر
- ٢٥٨ اشارة
- ٢٥٨ خلاصة الأمر الملكى للإصلاح
- ٢٥٩ الأخذ فى الأسباب لإصلاح الكعبة
- ٢٥٩ فتح الكعبة لأخذ القياسات
- ٢٦٠ البدء فى تجديد السقف الأعلى ل كعبة
- ٢٦٣ استبدال المربيع الخشبية التى بسطح الكعبة بالحديد
- ٢٦٤ وضع الرخام على سطح الكعبة
- ٢٦٤ صب الرصاص بين رخام سطح الكعبة
- ٢٦٥ وضع الرخام فى طنف السطح

- ٢٦٥ إصلاح فتحة باب الدرج الذى بالسطح
- ٢٦٥ تجديد السقف الثانى للكعبة مما يلى الأرض
- ٢٦٦ دهن ما بين السقف بالبوية
- ٢٦٦ تنقيل جدران الكعبة من الخارج
- ٢٦٧ العمل فى داخل الكعبة و ترميمها
- ٢٦٩ حضور جلالة الملك السابق سعود إلى الكعبة المشرفة
- ٢٧٠ إصلاح ميزاب الكعبة
- ٢٧١ إصلاح جانبى جدار باب الكعبة و عتبتها
- ٢٧٢ إصلاح درج الكعبة التى فى داخلها
- ٢٧٢ دهن أعمدة ابن الزبير التى بجوف الكعبة و وصفها
- ٢٧٣ فرش أرض الكعبة بالرخام
- ٢٧٤ الانتهاء التام من عمارة الكعبة
- ٢٧٤ نقل ما فى حجر إسماعيل من الأحجار و الأتربة و الأخشاب
- ٢٧٥ أسماء المشرفين على العمل و حضورهم يوميا فى الكعبة
- ٢٧٥ العمال الذين اشتغلوا فى عمارة الكعبة
- ٢٧٦ كلمة ختام
- ٢٧٦ الإذاعة تؤدى واجبها من فوق سطح الكعبة المشرفة
- ٢٧٧ الإذاعة السعودية تسأل مؤلف هذا الكتاب
- ٢٧٨ دعاء مؤلف هذا الكتاب المداع من فوق سطح الكعبة
- ٢٨٠ بعض الآيات و التكبيرات التى أذاعها مؤلف هذا الكتاب
- ٢٨٢ قراءة القرآن و الحديث فى جوف الكعبة (بعد الانتهاء من عمارتها)
- ٢٨٣ مقاييس الكعبة المشرفة و حدود المطاف قبل التوسعة السعودية و ما يتعلق بهما " مع بيان ارتفاعات بعض جبال مكة "
- ٢٨٣ اشارة
- ٢٨٤ قياسات الكعبة المعظمة

- ٢٨٥ المسافة بين الركن الأسود و اليماني مثلا:
- ٢٨٦ طول المسافة بالسلم بالدرج
- ٢٩١ مقدار الذراع و الميل و الفرسخ و نحوها
- ٢٩٢ سبب تسمية الميل بالميل
- ٢٩٢ ابتكارات الرسوم الأربع للكعبة
- ٢٩٣ شكل الكعبة من الخارج و الداخل
- ٢٩٥ وصف الكعبة و المسجد الحرام
- ٢٩٦ و للأديب المكي الشهير الأستاذ سراج الخراز في الكعبة المشرفة:
- ٢٩٦ قصيدة أمير الشعراء في البيت الحرام
- ٢٩٧ موضع الحطيم
- ٢٩٨ موضع خزائن الكعبة
- ٢٩٩ أركان الكعبة المعظمة
- ٣٠٠ أركان الكعبة الأربعة
- ٣٠٠ الحفرة التي عند باب الكعبة المشرفة
- ٣٠٤ سد الحفرة و ردمها
- ٣٠٥ الحجر المكتوب الذي في داخل الحفرة
- ٣٠٥ لماذا لم تكن الكعبة قطعة من الجوهر
- ٣٠٦ تسمية البيت الحرام بالكعبة
- ٣٠٦ الشمسيات التي كانت توضع على الكعبة
- ٣٠٩ هدايا الكعبة و معاليقها و أموالها
- ٣١٤ ما علق من الصحائف في الكعبة
- ٣١٤ اشارة
- ٣١٧ نص الكتاب الذي كتبه محمد بن أمير المؤمنين هارون الرشيد المعلق في جوف الكعبة
- ٣١٩ نص الكتاب الذي كتبه عبد الله بن أمير المؤمنين هارون الرشيد

- ٣٢١ عقاب المعتدى على مال الكعبة
- ٣٢٢ حكم التصرف فى مال الكعبة
- ٣٢٤ التعدى على أموال الكعبة و هداياها
- ٣٢٤ فضل النظر إلى الكعبة
- ٣٢٧ فضل الطواف بالبيت الحرام
- ٣٢٨ هيبة الكعبة و ما يقال عند النظر إليها
- ٣٢٨ تعظيم الكعبة فى الجاهلية
- ٣٣٣ تطيب الكعبة
- ٣٣٥ عدم خلو الكعبة من الطائفين
- ٣٣٦ الطواف فى الجاهلية
- ٣٣٧ الجلوس فى الحجر و المطاف فى الجاهلية
- ٣٣٨ استحباب الدخول فى الكعبة
- ٣٤٠ فضل دخول الكعبة المعظمة
- ٣٤١ آداب دخول الكعبة
- ٣٤٤ الصلاة فى داخل الكعبة
- ٣٤٤ صلاة النبى صلى الله عليه و سلم فى الكعبة
- ٣٤٦ عدد دخول النبى صلى الله عليه و سلم الكعبة بعد الهجرة
- ٣٤٨ منع بعض الناس عن دخول الكعبة
- ٣٤٩ أخذ الأجرة على دخول الكعبة
- ٣٥٠ المواضع التى صلى فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم حول الكعبة
- ٣٥١ أول من أدار الصفوف حول الكعبة
- ٣٥٢ مدة صلاة النبى صلى الله عليه و سلم إلى بيت المقدس
- ٣٥٣ أمر الكسوة الخارجية للكعبة المعظمة
- ٣٥٣ اشارة

- ٣٥٤ القسم الأول: كسوة الكعبة في العصر الجاهلي
- ٣٥٤ اشارة
- ٣٥٥ ترجمة تبع و هو أسعد الحميري
- ٣٥٨ القسم الثاني: كسوة الكعبة في الإسلام
- ٣٥٩ القسم الثالث: كسوة الكعبة في عصر بني أمية
- ٣٦٠ القسم الرابع: كسوة الكعبة في عصر العباسيين
- ٣٦٣ القسم الخامس: كسوة الكعبة في عصر المماليك البحرية و الشراكسة
- ٣٦٥ القسم السادس: كسوة الكعبة في عهد الدولة العثمانية
- ٣٦٥ اشارة
- ٣٦٨ كسوة الشريف الحسين بن علي
- ٣٧٠ جدول بيان الأيام التي كانت تكسى فيها الكعبة المعظمة
- ٣٧١ خاتمة مسألة الكسوة
- ٣٧٢ وصف ابن جبير كسوة الكعبة و عدد قطعها
- ٣٧٣ وصف صاحب كتاب "المحمل و الحج" كسوة الكعبة المشرفة
- ٣٧٣ الاحتفال بوصول كسوة الكعبة من الآستانة إلى مصر القاهرة
- ٣٧٤ وصف صاحب كتاب (المحمل و الحج) للاحتفال بمرور الكسوة في شوارع القاهرة
- ٣٧٤ وصف صاحب كتاب (مرآة الحرمين) للاحتفال بالكسوة في شوارع القاهرة
- ٣٧٥ إعداد قطر السكة الحديدية للمحمل و ركبته و أمتعته:
- ٣٧٦ اشارة
- ٣٧٦ الاحتفال بخروج المحمل و سفره:
- ٣٧٦ الاحتفال بدخول كسوة الكعبة إلى مكة المشرفة
- ٣٧٧ (الكسوة الداخلية للكعبة المشرفة)
- ٣٧٩ المحتويات
- ٣٨٧ [الجزء الرابع]

- ٣٨٧ الآيات المكتوبة على حزام الكعبة المشرفة
- ٣٨٩ كتابة أسماء الملوك فى كسوة الكعبة
- ٣٩١ الإشهاد الشرعى بتسليم كسوة الكعبة
- ٣٩٢ حكم التصرف فى كسوة الكعبة
- ٣٩٤ صورة وقفية السلطان خان على كسوة الكعبة
- ٣٩٨ كيفية تركيب كسوة الكعبة عليها
- ٣٩٨ برقع الكعبة المعظمة أى ستارة بابها
- ٤٠٠ خدم الكعبة و أغوات المسجد الحرام
- ٤٠٩ أغوات المسجد الحرام فى عصرنا هذا
- ٤٠٩ مبدأ الرق و الاسترقاق
- ٤١٠ صورة عقد عتق أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم
- ٤١١ اقتناء الجوارى
- ٤١٢ بيع الرقيق فى الآستانة
- ٤١٤ الاسترقاق
- ٤١٤ إحرام الكعبة فى موسم الحج
- ٤١٨ تجريد الكعبة من كسوتها عند تجديدها
- ٤٢٠ الكلام على من يهدم الكعبة فى آخر الزمان
- ٤٢١ ستر الكعبة المشرفة بالأخشاب
- ٤٢٣ مقدار ما استعمل من الأخشاب و العواميد لستر الكعبة
- ٤٢٣ عمد نطاق للكعبة المشرفة
- ٤٢٤ ستر الكعبة فى حرب ابن الزبير
- ٤٢٥ ما وجد فى الكعبة من الكتابات القديمة
- ٤٢٤ فرش أرض الكعبة بالرخام
- ٤٢٤ صفة المسامير التى كانت فى مال كعبة

- ٤٢٧ صفة باب الكعبة فى عهد الأزرقى
- ٤٢٨ وجود سقفين للكعبة
- ٤٢٩ كيفية وضع الكسوة على الكعبة الشريفة
- ٤٣٠ تفرقة الرجال عن النساء فى الطواف و فى المسجد الحرام
- ٤٣٠ الترغيب فى الحج و العمرة
- ٤٣٠ اشارة
- ٤٣١ أسرار الحج و مزاياه
- ٤٣٤ فضل العمرة
- ٤٣٤ إتيان العمرة فى شهر رجب
- ٤٣٦ العمرة الرجبية
- ٤٣٨ الزيارة الرجبية
- ٤٣٨ وجوب الحج و العمرة
- ٤٣٩ سنن الحج و العمرة فى المذهب الشافعى
- ٤٤٠ قصيدة أبى نواس فى التلبية
- ٤٤٠ [الميعات الزمانى و المكانى]
- ٤٤٢ خطب الحج
- ٤٤٢ دعاء عرفة
- ٤٤٥ أنواع النسك
- ٤٤٦ بعض فوائد فى المناسك على المذهب الشافعى
- ٤٤٧ اقتراح لمؤلف هذا التاريخ
- ٤٤٨ بعض أحكام الحج و العمرة على المذهب الشافعى
- ٤٥١ معنى الحج لدى الطوائف المختلفة
- ٤٥٢ لباس الإحرام فى الحج و العمرة
- ٤٥٢ اشارة

- ٤٥٣ الحكمة فى لباس الإحرام بالحج أو بالعمرة
- ٤٥٤ الأصنام التى كانت فى الكعبة أيام الجاهلية
- ٤٥٧ مشروعية الأذان و كفيته
- ٤٥٧ اشارة
- ٤٥٨ أذان بلال فوق الكعبة يوم فتح مكة
- ٤٥٩ أذان بلال بعد موت النبى صلى الله عليه و سلم
- ٤٦٠ عدد المؤذنين لرسول الله صلى الله عليه و سلم
- ٤٦٢ تحسين الصوت بالأذان
- ٤٦٤ الأذان الشرعى
- ٤٦٦ قصة الأذان
- ٤٦٧ المؤذنون و المؤقتون فى المسجد الحرام اليوم
- ٤٦٨ الكعبة المشرفة
- ٤٦٨ درج الكعبة الخارجية الموصلة إلى بطنها
- ٤٦٩ درج الكعبة الداخلية الموصلة إلى سطحها
- ٤٧١ عدد درج الكعبة التى بداخلها
- ٤٧١ وصف درج الكعبة فى عصرنا
- ٤٧٢ روازن الضوء فى سطح الكعبة
- ٤٧٢ الأعمدة الثلاثة التى بداخل الكعبة
- ٤٧٥ عدد أعواد سقف الكعبة
- ٤٧٥ الإصلاحات و الترميمات فى الكعبة المشرفة
- ٤٧٨ سطح الكعبة و أرضها من الداخل
- ٤٧٩ وصف رخام الكعبة فى عصر ابن جبیر
- ٤٨٠ غسل الكعبة المشرفة
- ٤٨٢ تلقى الناس لماء المطر تحت ميزاب الكعبة

- ٤٨٣ ميزاب الكعبة و عدده
- ٤٨٤ عمل باب الكعبة المشرفة
- ٤٨٨ عمل قفل و مفتاح لباب الكعبة
- ٤٨٩ و من الحكايات المناسبة لقفل الكعبة و مفتاحه ما يأتي:
- ٤٩١ الكتابة التي بأعلى باب الكعبة
- ٤٩٣ انتقال مفتاح الكعبة من شخص لآخر قبل الإسلام
- ٤٩٤ ترجمة شيبه بن عثمان و عثمان بن طلحة
- ٤٩٩ تاريخ سدانة الكعبة المشرفة
- ٤٩٩ اشارة
- ٤٩٩ السدانة قبل الإسلام
- ٤٩٩ قصي بن كلاب
- ٥٠٠ عبد الدار
- ٥٠٠ السدانة في الإسلام
- ٥٠٠ عثمان بن طلحة
- ٥٠١ شيبه بن عثمان بن أبي طلحة
- ٥٠٢ عبد الله بن شيبه الأعجم
- ٥٠٢ شجرة النسب
- ٥٠٢ محمد بن زين العابدين
- ٥٠٣ الطبقة الثانية
- ٥٠٤ عاداتهم
- ٥٠٤ ترجمة خالد بن عبد الله القسرى المتقدم ذكره
- ٥٠٨ كيس مفتاح الكعبة و الكراسى التي كانت في داخلها
- ٥١٠ وصف الكرسي الذي في الكعبة في وقتنا الحاضر
- ٥١٠ مواعيد فتح الكعبة في الجاهلية و الإسلام

- ٥١٢ وصف فتح الكعبة و دخول الناس فيها
- ٥١٤ الطواف و آدابه و شروطه
- ٥١٤ الأذكار المأثورة فى الطواف و آدابه
- ٥١٦ إباحة بعض الأمور فى الطواف
- ٥١٧ ذكر الله و قراءة القرآن فى الطواف
- ٥١٨ الدعاء و آدابه
- ٥٢١ بعض القصائد فى التضرع
- ٥٢٦ الطواف راكبا و دخول المواشى و الدواب المسجد الحرام
- ٥٢٨ قياس طوفة واحدة حول الكعبة
- ٥٣٠ عمارة المطاف و فرشته
- ٥٣٢ حدود المطاف بالأعمدة و الأساطين ثم إزالتها بتاتا فى عصرنا
- ٥٣٤ توسعة المطاف لأول مرة فى التاريخ
- ٥٣٥ مقدار المطافين القديم و الجديد و شكلهما
- ٥٣٦ الحج
- ٥٣٦ الحج فى الجاهلية و بعض عادات العرب فيه
- ٥٤٠ إنساء الشهور
- ٥٤١ معنى النسيء
- ٥٤٣ ذكر السنين التى يضرب بها المثل
- ٥٤٤ أمر الإفاضة فى الجاهلية و الإسلام
- ٥٤٥ ذكر من حج من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام
- ٥٤٨ ذكر من حج بالناس من عام فتح مكة إلى عام ثلاثمائة و خمس و ثلاثين من الهجرة
- ٥٥٥ ذكر بعض من حج من الخلفاء و الملوك
- ٥٥٧ حجة الوداع نقلا عن تاريخ الخميس
- ٥٦١ حجة الوداع نقلا عن كتاب مرآة الحرمين

- ٥٧٢ ما فى حجة الوداع من المعانى الجليلة
- ٥٧٣ خطبة حجة الوداع
- ٥٧٥ وقفه الجمعة بعرفات
- ٥٧٦ ذهاب النبى صلى الله عليه و سلم من منى إلى عرفات عن طريق ضب ثم رجوعه منها من طريق المأزمين
- ٥٧٦ نزول النبى صلى الله عليه و سلم فى غار جبل نمره فى الحج
- ٥٧٨ فائده مهمه
- ٥٨١ تنظيف طريق الحج من أشجار الشوك
- ٥٨١ حكم قطع شجر الحرم و نباته
- ٥٨٤ حكم نقل تراب الحرم و أحجاره
- ٥٨٥ الحوادث الواقعة فى الكعبه و المطاف
- ٥٨٦ الطواف بالبيت عراه
- ٥٨٨ دخول السيارات إلى المسجد الحرام فى زماننا
- ٥٨٩ ذكر بعض الحوادث المتفرقة
- ٥٩٠ بعض ما حصل بمكة و ما حولها من القتال و النهب
- ٥٩٦ الأمن و الأمان فى العهد السعودى
- ٥٩٧ بعض الأمور العجيبه التى وقعت بمكة
- ٦٠٢ ما وقع بمكة من الرخاء و الغلاء و القحط و الوباء
- ٦٠٥ و مما شاهدناه و رأيناه من الأحوال فى مكة المكرمة
- ٦٠٦ و مما شاهدناه و رأيناه أيضا من الأحوال فى مكة المكرمة
- ٦٠٦ التسعيرة و مقاومة الاحتكار
- ٦٠٩ إبطال المكوس و الجمارك
- ٦١٠ المراد بالمسجد الحرام و فضل الصلاة فيه
- ٦١١ مقدار فضل الصلاة فى المسجد الحرام بالحساب
- ٦١١ هل تتضاعف السيئات بالحرم أم لا؟

- ٦١٢ باب بنى شيبية
- ٦١٢ المسافة بين باب بنى شيبية و جبل الرحمة بعرفات
- ٦١٣ صلاة الجمعة فى المسجد الحرام
- ٦١٤ وحى صلاة الجمعة فى المسجد الحرام
- ٦١٧ كيفية الخطبة فى المسجد الحرام
- ٦٢٠ منبر المسجد الحرام
- ٦٢٢ اتخاذ المنبر لرسول الله صلى الله عليه و سلم
- ٦٢٤ حنين الجذع
- ٦٢٥ ترجمة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه
- ٦٢٥ اشارة
- ٦٢٨ نبذة عن عادات معاوية رضى الله تعالى عنه و هو خليفة
- ٦٢٩ بعض أعمال معاوية رضى الله تعالى عنه بمكة
- ٦٣٠ عدل معاوية و قوة سلطانه
- ٦٣٢ أبواب المسجد الحرام قبل توسعته فى زماننا
- ٦٣٣ أبواب المسجد الحرام
- ٦٣٤ نصب الخيام فى المسجد الحرام
- ٦٣٦ وجود المظلات فى المسجد الحرام
- ٦٣٧ مكتب توسعة المسجد الحرام
- ٦٣٧ توسعة المسجد الحرام فى العهد السعودى
- ٦٣٧ اشارة
- ٦٣٨ الزيادة الأولى: زيادة عمر فى المسجد الحرام
- ٦٣٨ الزيادة الثانية: زيادة عثمان فى المسجد الحرام
- ٦٣٩ الزيادة الخامسة: زيادة أبى جعفر المنصور
- ٦٤٠ الزيادة السادسة: زيادة محمد المهدي العباسى

- ٦٤١ سبب وجود سقنين للمسجد الحرام فى عمارة المهدي
- ٦٤٣ المسجد الحرام و ما أجرى فيه من زيادات فى العهود الماضية و العصر السعودى الزاهر
- ٦٤٣ البناء حول البيت
- ٦٤٣ بيت الله بعد ظهور الإسلام و توالى الزيادات
- ٦٤٣ (زيادة الخلفاء الراشدين و السلف)
- ٦٤٣ (الزيادة و العماره فى العصر الأموى)
- ٦٤٣ (الزيادة و العماره فى العصر العباسى)
- ٦٤٣ (عماره ملوك الشراكسة)
- ٦٤٤ (عماره سلاطين آل عثمان)
- ٦٤٤ تكسيه جدار العماره بالمرمر و الحجر الصناعى
- ٦٤٤ المتبقى من المبنى القديم
- ٦٤٤ مساحه المسجد الحرام بعد التوسعه و ما صرف عليه
- ٦٤٥ المطاف
- ٦٤٥ مقام سيدنا إبراهيم الخليل
- ٦٤٥ الميادين حول الحرم الشريف
- ٦٤٥ اشارة
- ٦٤٥ الزيادة التاسعة: زيادة صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود
- ٦٤٦ خلاصه ما تقدم من الزيادات فى المسجد الحرام
- ٦٤٨ بيان مساحه الزيادات فى المسجد الحرام
- ٦٥٠ ترجمه الوليد بن عبد الملك
- ٦٥٢ ترجمه المعتضد بالله
- ٦٥٢ سياسه المعتضد بالله العباسى فى الحكم
- ٦٥٥ وصف قصر الخليفه المقتدر بالله العباسى
- ٦٥٦ ترجمه المقتدر بالله

- ٦٥٧ ترجمة أبى جعفر المنصور
- ٦٥٧ تقدير المنصور للعلماء العاملين و الوعاظ
- ٦٥٩ اقتصاد المنصور
- ٦٦٠ اهتمام المنصور بعماله
- ٦٦٠ حاضرة الخلافة
- ٦٦٢ حكاية المنصور مع معن بن زائدة
- ٦٦٣ صفات المنصور و أخلاقه
- ٦٦٣ كيف كان يقضى وقته
- ٦٦٣ وفاة المنصور
- ٦٦٤ ترجمة أمير المؤمنين محمد المهدي
- ٦٦٤ اشارة
- ٦٦٥ بيعه المهدي
- ٦٦٧ بين المهدي و معن بن زائدة
- ٦٦٨ شىء من خطب المهدي
- ٦٦٩ من كرم المهدي
- ٦٧٠ شىء من مروءة المهدي و فضله
- ٦٧٠ أول صندوق للبريد
- ٦٧٢ وفاة المهدي
- ٦٧٢ ترجمة هارون الرشيد
- ٦٧٢ اشارة
- ٦٧٥ حضارة بغداد فى عهد الرشيد
- ٦٧٦ حج الرشيد و حبه للوعظ
- ٦٧٨ حكاية
- ٦٧٩ عهد الرشيد بالولاية لابنه المأمون

٤٨٠	حكاية هارون الرشيد مع الأعرابي
٤٨٢	وفاء هارون الرشيد
٤٨٢	ترجمة السلطان سليمان خان
٤٨٣	حكاية سليمان بن عبد الملك مع أبي حازم
٤٨٤	ترجمة الأمير سودون المحمدي
٤٨٤	فرش و تعمير المسجد الحرام
٤٨٤	فرش المسجد الحرام بالبطحاء و غيرها
٤٨٧	وضع الحصى و البطحاء فى المسجد الحرام
٤٨٨	فرش المسجد الحرام بالطبواب و الحجارة و الرخام
٤٨٨	دكة باب الزيادة
٤٨٨	المماشى التى بالمسجد الحرام
٤٨٩	تعمير المسجد الحرام فى الدولة العثمانية
٤٩٢	ذكر أساطين المسجد الحرام و قببه و شرفاته و أبوابه و منائره
٤٩٤	جدول عام فى ذكر أسماء من عمر المسجد الحرام من الخلفاء و السلاطين و الملوك و الكبراء
٤٩٤	ترجمة عبد الملك بن مروان
٤٩٩	ترجمة المتوكل على الله
٧٠١	ترجمة الأمير مقبل القديدي
٧٠١	ترجمة قايتباى ملك مصر
٧٠٢	ترجمة الأمير إبراهيم المهمندار
٧٠٣	وجود سقفين للمسجد الحرام قديما
٧٠٣	التعميرات و الترميمات الواقعة فى المسجد الحرام
٧١٣	التعميرات الواقعة فى نفس المطاف
٧١٤	المحتويات
٧٢٢	ملحق الصور

تعريف مركز القائمة باصفهان للتمريرات الكمبيوترية ٧٢٦

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم المجلد ٢

إشارة

سرشناسه : كردى، محمدطاهر، ١٩٠٣ - ١٩٧٩م.

عنوان و نام پديد آور : التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم / تاليف محمدطاهر الكردى المكى.

تاريخ وفات مؤلف: ١٤٠٠ هـ. ق

مشخصات نشر : بيروت : دارخضر، ٢٠٠٠م. ١٣٧٩ =

مشخصات ظاهري : ج ٦ (در سه مجلد).

يادداشت : كتابنامه.

موضوع : كعبه -- تاريخ.

موضوع : مسجد الحرام، مكة -- تاريخ.

موضوع : حج.

موضوع : مكة -- تاريخ.

رده بندي كنگره : DS٢٤٨/م٧ك٤٣

رده بندي ديويي : ٩٥٣/٨

شماره كتابشناسي ملي : ٣٠٩٨٥-٨١م

نام كتاب: التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم

نويسنده: كردى، محمد طاهر

زبان: عربى

تعداد جلد: ٣

سال چاپ: ١٤٢٠ هـ. ق

نوبت چاپ: اول

[الجزء الثالث]

عمارات حجر إسماعيل

إشارة

كان حجر إسماعيل عليه الصلاة و السلام مفروشا بالرمل و البطحاء كأرض المطاف، ثم فرش بحجارة بادية، فلما حج أمير المؤمنين

أبو جعفر المنصور سنة (١٤٠) أربعين و مائة دعا زياد بن عبيد الله الحارثي، و كان يومئذ أمير مكة فقال له: إنى رأيت الحجر حجارته

بادية فلا أصبحن حتى يستر جدار الحجر بالرخام، فدعا زياد بالعمال فعملوه على السرج قبل أن يصبح، ثم جدد رخامه المهدي.

و إليك جدولاً بالعمارات التى وقعت فى الحجر، عملناه بغاية الاختصار نقلاً عن تاريخ الغازي و غيره خوفاً من التطويل:

عدد/ اسم المعمر / السنة الهجرية / الملاحظات

١ / أبو جعفر المنصور / ١٤٠ / قالوا و هو أول من رخم الحجر

٢/ المهدي العباسي / ١٦١ / و لم يزل الرخام الذي عمله المهدي باقيا إلى أيام المتوكل

٣/ المتوكل العباسي / ٢٤١ / قلع رخام المهدي لتلفه و أبدله رخاما حسنا

٤/ المعتضد العباسي / ٢٨٣ / ألبس الحجر كله بالرخام

٥/ الوزير جمال الدين الجواد / ٥٥٠ / تقريبا عمره مرتين

٦/ الناصر العباسي / ٥٧٦ / فرش به بالرخام

٧/ المستنصر العباسي / ٦٢٩ / و قد أجرى أيضا إصلاحا في الكعبة المشرفة

٨/ الملك المظفر صاحب اليمن / ٦٥٥ / لما حج في هذه السنة عمل أيضا للكعبة بابا وقفلا

٩/ الملك الناصر ابن قلاوون / ٧٢٠ / و هو محمد بن قلاوون

١٠/ الملك الأشرف على بن شعبان / ٧٨١ / و ذلك بأمر الأميرين بركة و برقوق مدبري دولته

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٦

عدد/ اسم المعمر / السنة الهجرية / الملاحظات

١١/ الملك الظاهر برقوق / ٨٠١ / قال ابن فهد: و في السنة المذكورة عمر الأمير بيق رخام الحجر و الله أعلم

١٢/ القائد علاء الدين / ٨٢٢ / عمر كثيرا من رخام الحجر بالجس

١٣/ الأمير زين الدين / ٨٢٦ / الشهير بمقبل القديدي فإنه أصلح كثيرا من رخام أرض الحجر و جداره

١٤/ سودون المحمدي / ٨٣٨ / رمم الحجر و قلع جميع رخام الشاذروان و أبدله بغيره

١٥/ السلطان جقمق / ٨٤٣ / و قد أرسل لجدار الحجر كسوتين إحداهما لداخله و الثانية لخارجه فوضعتا عليه

١٦/ الأمير تنم / ٨٤٨ / قلع جميع رخام الحجر خلا الرخامة الخضراء، ثم فرش و أصلحه في شهرين

١٧/ السلطان قايتباي / ٨٨١ / غيروا رخام الحجر داخلا و خارجا و عملوا الرصاص بالمطاف حول الكعبة

١٨/ السلطان قانصوه الغوري / ٩١٦ / عمره عمارة حسنة محكمة و كتب على علو الحجر أسماء من عمره

١٩/ السلطان سليمان خان / ٩٤٠ /

٢٠/ السلطان مراد الرابع / ١٠٤٠ / و هو الذي بنى الكعبة المشرفة حينما هدمها السيل

٢١/ السلطان محمد الرابع / ١٠٧٣ /

٢٢/ السلطان عبد المجيد خان / ١٢٦٠ /

٢٣/ السلطان عبد العزيز خان / ١٢٨٣ / و هو صاحب الكسوة الداخلية التي أرسلها للكعبة الموجودة بداخلها إلى اليوم

٢٤/ الشريف الحسين بن / ١٣٣١ / عمره و أحكم بنيانه بعد أن كاد أن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٧

عدد/ اسم المعمر / السنة الهجرية / الملاحظات

على / ينهدم، و الشريف الحسين بن على هو ملك الحجاز الأسبق

و هنا يستحسن أن تأتي بشيء من بيان العمارة الواقعة في حجر إسماعيل في زمن السلطان عبد المجيد خان و ما بعده، لأن ذلك قريب عهد بعصرنا.

فقد قال الغازي في تاريخه: و في تحصيل المرام: و ممن عمره السلطان عبد المجيد خان سنة (١٢٦٠) ألف و مائتين و ستين أو التي بعدها أو التي قبلها، و حضر عند بنائه أمير مكة مولانا الشريف محمد بن عبد المعين بن عون و باشر بعض عمل من البناء الشريف، و كذلك عثمان باشا والي جدة و المفتيون و العلماء، و رده على ما كان إلى أن أتموه.

قال: و أخبرنا شيخنا العلامة «حسين» أنه رأى في أرض الحجر عند هذه العمارة أحجارا كبارا بعضها مشتبك ببعض، بينها وبين جدار البيت نحواً من ستة أذرع، وفي هذه العمارة وجد جدرا قصيرا ردم من حجارة البادية داخل البناء الذي هو الرخام دائر ما يدور الحجر، يدل على إنه هذا التحويط من زمن قريش.

ثم جاءت الملوك و حوطت عليه بهذا الرخام الموجود، و طول الأحجار الدائرة التي هي من أحجار البادية، قدر نصف ذراع ردم على بعضه. كذا أخبرني السيد عمر بن عقيل و أنه شاهد ذلك، أخبرني بحضرة شيخنا الشيخ حسين، بعد صلاة الظهر، بمدرسته التي بجانب باب القطبي في آخر شعبان سنة ثلاثة و ثمانين بعد المائتين و الألف. و في هذا التاريخ حصل تجديد نصف أرض الحجر من جهة مقام الحنفي و كان ابتداء العمل يوم الأحد لتسعة و عشرين خلت من شعبان و ذلك في دولة مولانا الشريف عبد الله بن محمد بن عون و سلطنة السلطان عبد العزيز خان. انتهى.

و في سنة ألف و ثلاثمائة و واحد و ثلاثين تحكمت جدار إسماعيل عليه السلام، بعد ما كان آويا إلى الانهدام و زمزم رخام أرضه و طرز ما هو منقوش على قبة بئر زمزم من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية و الطرة و ما على باب المنبر من الآيات الفرقانية و التاريخ بماء الذهب و جدد صباغ المقام المالكي و الحنبلي بألوان لطيفة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٨

و جرى تعمير الطباطب في الحرم الشريف من جميع المهمات ذكره في جريدة الحجاز. انتهى من تاريخ الغازي.

الرخامة الخضراء التي بالحجر

اعلم أن الرخامة الخضراء التي تحت ميزاب الكعبة بحجر إسماعيل لا يوجد مثلها لا في المسجدين الحرامين و لا في قطر من الأقطار، و لا مبالغة في قولنا هذا، و لونها لا يضرب إلى الخضرة الخالصة و إنما هو أخضر داكن أي خضرة مائلة إلى السواد قليلا، منقوشة بنقط خضراء خالصة اكتسبتها منظرا جميلا، كل ذلك من أصل الخلق، لا دخل للصناعة فيها بشيء.

و توجد بجانب الرخامة الخضراء المذكورة الشرقي و الغربي قطعتان من جنس هذه الرخامة و لونها، كل منهما على هيئة الدائرة، قطر كل منهما ٢٥ سنتيمترا، و كل واحدة منهما تبعد عن الرخامة التي تحت الميزاب مقدار مترين تماما، و الدائرة الغربية متصدعة إلى ثلاث قطع و الدائرة الشرقية متصدعة إلى قطعتين.

يقول ابن جبير الأندلسي في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) هجرية عن هذه الرخامة ما يأتي: و تحت الميزاب في صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم قبر إسماعيل عليه السلام، و علامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا شكل محراب متصل بها رخامة خضراء مستديرة و كلتاها غريبة المنظر فيهما نكت تنفتح عن لونها إلى الصفرة قليلا كأنها تجزيع و هي أشبه الأشياء بالنكت في البيدق من حل الذهب ...

إلى آخر كلامه. اه منها.

و لقد يظن كثير من الناس أن الرخامة الخضراء التي هي تحت ميزاب الكعبة بالحجر ما وضعت هناك إلا لتكون علامة على قبر إسماعيل عليه السلام، فهذا الظن ليس في محله فالرخامة لم توضع لهذا القصد، و إن كان قبر إسماعيل في الحجر، و إنما وضعت لسبب ستعرفه مما يأتي:

و هذا الحجر ليس بحجر واحد و إنما هو رخامتان من جنس واحد ملتصقان ببعضهما (فالقطة الأولى) بياضوية الشكل رأسها الأولى مما يلي الكعبة، و رأسها الأخرى مقطوعة، قطرها الصغير ٤٥ سنتيمترا، و قطرها الكبير ٦٤ سنتيمترا، و هي منفلقة إلى فلتتين، (و القطة الثانية) على شكل نصف دائرة قطرها ٧٩

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٩

ستيمترا منفلقة إلى أربع قطع، وفيها بعض انخفاض، و يحق لها أن تنخفض و تتصدع فلقد مضى عليها أكثر من ألف و مائة سنة و الناس يصلون فوقها.

(و حقيقة أمر الرخامتين) أن عبد الله بن عبيد الله بن عباس بن محمد الهاشمي أمر أن يقلع له لوح من رخام الحجر يسجد عليه «أى يصلى فوقه» فقلع له فى الموسم، فأرسل أحمد بن طريف مولى العباس بن محمد الهاشمي مكان ذلك اللوح برخامتين خضراوين من مصر هدية لحجر إسماعيل، و ذلك سنة إحدى و أربعين و مائتين، فجعلت الرخامة البيضاء الشكل على سطح جدار الحجر مقابل الميزاب أى فى وسط جدار الحجر، و جعلت الثانية تحت الميزاب تلى جدار الكعبة ثم فى سنة ثلاث و ثمانين و مائتين نقلت الرخامة البيضاء من جدار الحجر و جعلت مع الرخامة الثانية تحت الميزاب كما ذكره الأزرقى فى تاريخه.

و السبب الفنى فى اختيار هذه الرخامة بالذات لوضعها فى الحجر هو أن الإنسان ميال بطبيعته الغريزية إلى اقتناء الأحجار الكريمة و الجواهر الثمينة:

كالألماس و اللؤلؤ و المرجان و العقيق و الياقوت و الزبرجد و غيرها و على الأخص الملوك و الأمراء.

و كان من عادة هؤلاء فى الزمن السابق أن من يمتلك منهم شيئا نفيسا نادر الوجود و المثال بعته هدية إلى أشرف بقعة و مكان كالكعبة المعظمة، و حجر إسماعيل و المسجد الحرام و المسجد النبوى و المسجد الأقصى، فكان من جملة الهدايا هاتان الرخامتان النادرتان الجميلتان بعثهما أحمد بن طريف من مصر لتوضع إحداهما تحت ميزاب الكعبة داخل حجر إسماعيل، و توضع الثانية فوق جداره، ثم نقلت هذه فوضعت مع الأولى تحت الميزاب، و هما كذلك إلى الآن بحيث يظن الرائي أنهما قطعة واحدة.

و علته وضعهما تحت الميزاب علاوة على قلع اللوح الذى كان تحتها و الذى كان حاملا على بعثهما: هى أن ذلك الموضع أفضل مكان فى الحجر، فإنه يروى عن أبى هريرة و سعيد بن جبير و زين العابدين أنهم كانوا يلتزمون ما تحت الميزاب من الكعبة. و روى الأزرقى عن عطاء بن أبى رباح قال: «من قام تحت مشعب الكعبة فدعا، استجيب له و خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» و المشعب مجرى الماء و مسيله، أى تحت ميزاب الكعبة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٠

و عن ابن عباس قال: «صلوا فى مصلى الأخيار، و اشربوا من شراب الأبرار، قيل له: ما مصلى الأخيار؟ قال: تحت الميزاب، قيل: و ما شراب الأبرار؟ قال:

ماء زمزم».

و يروى عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال: «ما من أحد يدعو تحت الميزاب إلا استجيب له».

و روى الأزرقى أن النبى صلى الله عليه و سلم كان إذا حاذى ميزاب الكعبة و هو فى الطواف يقول: «اللهم إنى أسألك الراحة عند الموت و العفو عند الحساب».

فهذه الرخامة الخضراء التى تحت الميزاب تكون من أفخم الآثار العربية و أغلاها و أندرها و أبركها، فلو لا أنها من القدر و القيمة بمكان ما وضعها ولاة الأمر الأقدمون الذين هم فى القرون الثلاثة الأولى فى أشرف بقعة عند الكعبة المعظمة، فكانوا أعرف منا بنفائس الأشياء و جواهرها و اختيار الأمكنة لحفظها و صيانتها، و كانت أعمالهم الجليلة فى غاية الجودة و الإتيان تمر عليها مئات السنين و الأعوام، و هى على حالها ما أصابها تلف و لا خراب و لا تترشح عن مكانها فيكون قد مر على الرخامة الخضراء إلى عامنا هذا عام ١٣٧٦ للهجرة (١١٣٥) سنة و الله تعالى أعلم.

و نحن لم نقم بالكشف عما يوجد بالحجر و المطاف من الرخام النادر الوجود، فلو قمنا و بحثنا لعثرنا على أشياء ثمينة جدا مما يدلنا على عناية الملوك و السلاطين الأقدمين بهذا المكان المقدس، و البقعة الطاهرة المباركة، و ما ذكرنا تلك الرخامات الخضراء إلا

للمناسبة.

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى قيمة الرخامات الخضراء عند ذوى الخبرة من رجال الآثار القديمة، فإننا لا نبالغ إن قلنا أن قيمة بعضها قد تبلغ نحواً من ألف جنيه مصرى بل أكثر.

ولا نعتقد أن أحداً ممن كان قبلنا ولا ممن هو في عصرنا التفت إلى هذه الرخامة الخضراء ولا توصل إلى ملاحظاتها فيها، هذه الملاحظات الدقيقة الفنية فالحمد لله على التوفيق.

هذا ولم نر بمصر رخامة تشبه الرخامة الخضراء التي بحجر إسماعيل بمكة، مع أن مصر غنية بالزخارف والفنون الجميلة، إلا على رخامة صغيرة على شكل دائرة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١١

قطرها نحو خمس وعشرين سنتيمتراً وذلك في دار الآثار المصرية «الانتيكخانه» بقصر النيل بميدان إسماعيل باشا، وكانت هذه الرخامة موضوعة في إطار خشبي معلقه بجدار الرواق (٣٩) الخاص بالعصر اليوناني الروماني، على رخامة الحجر بمكة أجمل بكثير من هذه الرخامة الصغيرة، مع العلم بأن هذه محفوظة في غرفة خاصة بالدار، وتلك التي عندنا معرضة للشمس والهواء والسيول والأمطار وصلاة الناس فوقها منذ أكثر من ألف عام.

وبالسؤال من مدير الانتيكخانه عن أصل هذه الرخامة التي يحتفظونها بالدار، قال لنا «إنها نوع من الرخام الأخضر الثمين وهو من إيطاليا من العصر الروماني ولا يوجد بالدار غيرها ولو لا قيمتها التاريخية لم تبقيه الدار من ضمن محتوياتها القيمة». وكان ذلك حينما كنا بمصر سنة (١٣٦٩) هجرية.

نقش أرضية حجر إسماعيل

اعلم أن أرضية حجر إسماعيل عليه السلام مفروشة بالرخام المرمر الأصلي الجميل، و منقوشة بألوان الحجارة الظريفة المرمرية نقشا فنياً بديعاً بصورة هندسية دقيقة وقياسات محررة، على طراز المساجد العظيمة بمصر وغيرها، فإن من عادة المصريين أنهم يزخرفون مساجدهم الشهيرة بالرخام الملون لعدم تغير لونه مهما تقادم عهده، وهذا الرخام الملون النقي كالأصفر والأحمر والوردي والأخضر والأزرق والأصفر، قليل الوجود وغالب ما يوجد منه يكون صغير الحجم، أما الرخام الأبيض فيوجد منه شيء كثير بمختلف القياسات.

ولقد كان حجر إسماعيل عليه السلام، منقوشاً بالرخام الجميل من قديم الزمان، فلقد وصف العلامة ابن جبير رحمه الله تعالى نقش حجر إسماعيل في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) هجرية سنة ثمان وسبعين وخمسائة كما يأتي:

ودائر جدار الحجر رخام كله مجزع بديع الألصاق، فيه قضبان صفر مذهب و صنع منها في صفحة أشكال شطرنجية متداخلة بعضها على بعض و صفات محاريب، فإذا ضربت الشمس فيها لاح لها بصيص ولألاء يخيل للناظر إليها أنها ذهب يرتقى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٢

بالأبصار في شعاعه، وارتفاع جدار هذا الحجر الرخام خمسة أشبار ونصف وسعته أربعة أشبار ونصف.

قال: وداخل الحجر بلاط واسع يعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة، وهو مفروش بالرخام المجزع المقطع في دور الكعب إلى دور الدينار إلى ما فوق ذلك، ثم ألصق بانتظام بديع وتأليف معجز الصنعة، غريب الإلتقان، رائق الترصيع والتجزيع، رائع التركيب والوصف، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع، والخواتم والأشكال الشطرنجية وسواها على اختلاف أنواعها وصفاتها ما يقيد بصره حسناً، فكأنه تجليته في أزهار مفروشة مختلفات الألوان، إلى محاريب قد انعطفت عليها الرخام انعطاف القسي، وداخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة.

قال: و يازائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب، أحدث الصانع فيهما من التوريق الرقيق و التشجير و التقضيب ما لا يحدثه الصنع باليد في الكاغد قطعاً بالجلمين «و هو شيء يشبه المقص» فمرآهما عجب، أمر بصنعه على هذه الصفة أمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضىء بالله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف العباسي، رحمه الله تعالى، و يقابل الميزاب في وسط الحجر و في نصف جداره الرخامي رخامة قد نقشت أبداع نقش و حفت بها طرة منقوشة نقشا مكحلا عجيبا، فيه مكتوب مما أمر بعمله عبد الله و خليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين و ذلك في سنة (٥٧٦) ست و سبعين و خمسمائة.

قال: و الميزاب في أعلا الصفح الذي على الحجر المذكور و هو من صفر مذهب قد خرج إلى الحجر بمقدار أربعة أذرع وسعته مقدار شبر، و هذا الموضوع تحت الميزاب هو أيضا مظنة استجابة الدعوة بفضل الله تعالى، و كذلك الركن اليماني و يسمى المستجار ما يليه، و هذا الصفح المتصل به من جهة الركن الشامي، و تحت الميزاب في صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم قبر إسماعيل عليه السلام، و علامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا شكل محراب تتصل بها رخامة خضراء مستديرة و كلاهما غربيئة المنظر فيهما نكت تفتح عن لونها إلى الصفرة قليلا كأنها تجزيع، و هي أشبه الأشياء بالنكت تبقى في البيدق من حل الذهب فيه، و إلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر، رضى الله عنهما،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٣

و علامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر و نصف يتبرك الناس بالصلاة في هذين الموضعين من الحجر، و حق لهم ذلك لأنهما من البيت العتيق، انتهى من ابن جبير.

هذا ما وصف به ابن جبير أرضية حجر إسماعيل و نقشها، و أما كلامه عن قبر إسماعيل عليه الصلاة و السلام، و أمه هاجر فقد حققنا عن مكان دفنهما بالحجر في الصحائف المتقدمة.

أما نفس الجدار الدائر بالحجر، فإن في وسط الجدار من الداخل مما يواجه الكعبة صورة قبة بيت المقدس منقوشة على رخامة، و ذلك إشارة إلى أن بيت المقدس واقع في هذه الجهة، و بقية الرخامات التي بالجدار فمنقوشة نقشا خفيفا.

الكتابة التي في أعلى جدار الحجر

نقل ما كتب على رخام جدار حجر إسماعيل عليه الصلاة و السلام، من الأعلى من تاريخ الغازي، رحمه الله تعالى، فقد قال: و كتب في علوه في الرخام الأبيض اسم من عمل من الملوك و تاريخ عمارتهم و عمارته الأخيرة و صورة العمارة الأخيرة كما يأتي:

«بعد البسمة و إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت و إسماعيل (الآية) هذا الحجر الشريف و الحرم المنيف لما ظهر به الخلل و احتاج إلى الإصلاح و العمل أمر بإنشائه و تجديده و إحصائه و تشييده المفتقر إلى رحمة ربه المتضرع إليه في توفيقه و مغفرته ذنبه من يرى في الله بحسن الاعتقاد فملك المماليك و أنفذ حكمه في قاصي البلاد من ذلك إليه و عليه و تعطف و عاد بإحسانه لديه و تطف و ألهمه لعمارة هذا الحجر المشرف فهو السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري رزقه الله في الدارين السعد الدوري و نصره و أيده و أسعده قاصدا به وجه الله تعالى و نوى به خيرا و له سموا برحمته يوم إحسانه بحق محمد و آله و أصحابه و ذلك بتاريخ شوال أحد شهور سنة سبعة عشر و تسعمائة من الهجرة النبوية و ذلك بعد ترخيمه برسم المنصور في سنة أربعين و مائة و جده بعده الملك المظفر صاحب اليمن و جده الملك الناصر بن قلاوون في سنة عشرين و سبعمائة و الملك المنصور على بن شعبان في سنة إحدى و ثمانين و سبعمائة و الملك الظاهر برقوق في سنة إحدى و ثمانمائة و الملك الظاهر جقمق في سنة ثلاث و أربعين و ثمانمائة و الملك

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٤

الأشرف قايتباي في سنة ثمانية وثمانين وثمانمائة سقى الله عهدهم صوب الرحمة و الرضوان و أسكنهم فسيح الجنان و أدام أيام منشىء ذا الحجر العظيم و محا معالم هذا الحطيم صاحب القبلة خادم الحرمين الشريفين الفاتك في أعداء الله سيفه المرهف السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى أدامه الله لإقامه كل مقام محمود و أضحى به مهابط العامرين الركع و السجود و بمباشرة العبد الفقير الراجى عفو ربه القدير المقر بالمعاصى السيفى خير بك العلانى أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية و باش المماليك السلطانية و ناظر الحسبة المشرفة و شاد العمائر السلطانية أعز الله أنصاره و غفر الله لهم و لنفسه و لسائر معلميه و من أعانهم فيه و للوافدين و الطائفين و المشاهدين و لجميع المسلمين و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه أجمعين. انتهى.

و فى مرآة الحرمين مكتوب على الحجر قبالة الميزاب من الأعلى:

نعم المطاف ترابه فى عين أرمم أتمد

و يطوفه بالليل و الأسحار قوم هجد

الله بارك فرشه مع من بناه يخلد

زان المطاف بمرم ملك الأنام محمد

تم فى تاريخ للسلطان سليمان سنة ٩٤٠

و بعده:

لا سيما من نسلهم سلطاننا المستمجد

بزال صارم سيفه للظى الصلال محمد

الله خلد ملكه و العدل فيه مؤيد

كالبدر يشرق نوره إذ جن ليل أسود

و تاريخ للسلطان محمد خان سنة (١٠٧٣) و فى أول حائط الحجر فى الأعلى من الجهة الشرقية:

الحمد لله الذى جعل المطاف منورا

بضيا جبينه زين كالشمس أضحى

انتهى من تاريخ الغازى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٥

الحطيم و حجر إسماعيل و ما كتب عليه

قال فى كتاب مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى ما نصه:

الحطيم يطلق الآن على الجدار المطيف بالحجر و بذلك قال ابن عباس، و قيل:

إن الحطيم ما بين الحجر الأسود و مقام إبراهيم و زمزم و حجر إسماعيل أى البقعة المحصورة بين الكعبة و الحجر غربا و المقام و زمزم شرقا. و هذا ما حكاه الأزرقى عن ابن جريج، و فى كتب الحنفية أن الحطيم المكان الذى فيه الميزاب و ذلك أليق بالاستنتاج لأن ذلك المكان حطم من الكعبة و فصل منها و الأكثرون على القول الثانى.

و الحجر ما أطاف به الحطيم- الجدار- و قد ذكر الأزرقى: أن إبراهيم عليه السلام جعل الحجر إلى جنب البيت عريشا من أراك يقتحمه العنز و كان زربا لغنم إسماعيل و قد تقدم أن قريشا أدخلت فى الحجر أذرا من الكعبة حين بنتها لما قصرت عليهم النفقة الحلال التى أعدوها لعمارة الكعبة عن إدخال ذلك فيها، و أن الزبير أدخل ذلك فى الكعبة حين عمرها، و أن الحجاج أخرجه منها و استمر ذلك ليومنا، و على ذلك فبعض الحجر من الكعبة و بعضه ليس منها، و يدل لذلك ما فى الصحيحين عن عائشة رضى الله

عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة! لو لا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض و لجعلت لها بابا شرقيا و بابا غربيا و زدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشا استقصرتها حيث بنت الكعبة، و في رواية فإن بدا لقومك من بعدى أن بينوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع، و في مسلم عن عطاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو لا أن الناس حديث عهدهم بكفر و ليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت من الحجر خمسة أذرع، و ذكر عطاء أن ابن الزبير زاد في البيت خمسة أذرع من الحجر، و أنه بداء له أساس نظر إليه الناس فبنى عليه، و أما ما رواه الشيخان من حديث عائشة قالت: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الحجر أمن البيت؟ قال: نعم: قالت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة الخ، فلا يعارض ما ذكرنا من أن بعضه من البيت الآن حديث عائشة هذا مطلق و أحاديثها السابقة مقيدة، و المطلق يحمل على المقيد، و قد اختلف الفقهاء هل يصح الطواف من الحجر بعد السبعة الأذرع من البيت أم لا يصح التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٦

الطواف إلا من وراء الحطيم كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال كثيرون بالأول و قال آخرون بالثاني. و نذكر لك طرفا من عمارة الحجر فنقول: لما حج المنصور العباسي سنة ١٤٠ هـ. دعا زياد بن عبيد الله الحارثي أمير مكة و قال له: إنى رأيت الحجر بادية حجارته فلا أصبحن حتى يستر جداره بالرخام فدعا زياد بالعمال فرخموه ليلا على ضوء المصابيح، ثم جد المهدي رخامه سنة ١٦١ هـ. و لم يزل به حتى رث فقلع و ألبس رخاما جميلا- في عهد المتوكل العباسي سنة ٢٤١ هـ. و عمّر الحجر المعتضد العباسي سنة ٢٨٣ هـ و الوزير جمال الدين المعروف بالجواد في العقد الخامس بعد سنة ٥٠٠ هـ و عمّر قبله أيضا و في زمن الناصر العباسي سنة ٥٧٦ هـ.

و عمّره المستنصر العباسي و الملك المظفر صاحب اليمن، و الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٠ هـ و الأشرف شعبان سنة ٧٨١ هـ و ذلك بأمر الأميرين بركة و برقوق مدبري دولته، و عمّره أيضا الظاهر برقوق سنة ٨٠١ هـ و المكتوب على الحجر من الجهة الغربية تاريخ ٧٨٠ و ثبت كثير من رخام الحجر بالجيس في سنة ٨٢٢ هـ. و أصلح قسم كبير من رخام الجدار و أرض الحجر سنة ٨٢٦ هـ. و ذلك بأمر الأمير زين مقبل القديري، و عمّره السلطان جقمق سنة ٨٤٣ هـ. و قايتباي سنة ٨٨٠ هـ. و السلطان سليمان سنة ٩٤٠ هـ و السلطان محمد خان سنة ١٠٧٣ هـ. و قد تقدم لك وصف الحجر الآن و مقاسه في صحيفة ٢٦٦. و تزيد على ذلك أن فيه رخامة خضراء تحت الميزاب يقال أنها موضع قبر إسماعيل عليه السلام و الناس ينحرون هذه الرخامة للصلاة عندها، مع أن الصلاة إلى القبور أو عليها منهي عنها، و في الحديث الصحيح: (لعن الله اليهود و النصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) و أكثر المؤرخين على أنه مدفون بالحجر و يؤيد ذلك قول ضرار بن الخطاب:

لم يحظ بالحجر فيما مضى من البرية لا عرب و لا عجم
بعد ابن هاجر أن الله فضله إلا الزهير له التفضيل و الكرم

بيان جبهة بيت المقدس

و من لطيف الإشارات من الدولة العثمانية التركية، أنهم لما عمروا حجر إسماعيل عليه الصلاة و السلام جعلوا في وسط جدار الحجر من الداخل رخامة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٧

و رسموا عليها قبة جميلة و هي قبة بيت المقدس و ذلك إشارة إلى أن بيت المقدس يقع في هذه الجهة أي يقع في الجهة المقابلة لجدار حجر إسماعيل الذي هو على شكل نصف دائرة. و هذا صحيح لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يصلى إلى بيت المقدس قبل أن يؤمر بالصلاة إلى الكعبة، كان يصلى فيما بين الركن الأسود و الركن اليماني جاعلا الكعبة المشرفة أمامه بينه و بين

بيت المقدس فكان وجهه الشريف يقابل حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام. فما أبعد نظر الدولة التركية العثمانية و ما أحكم صنعتهم و أعمالهم.

الرخامات الصفرة التي على الشاذروان

أما الرخامات الصفرة الموضوعه بأعلى شاذروان الكعبة المشرفة عند بابها، فهي رخامات نفيسة جدا، نادرة الشكل و المثل كالرخامة الخضراء التي تحت ميزاب الكعبة المعظمة و لونها يضرب إلى الصفرة الخالصة، بل هي صفراء مائلة إلى الحمرة قليلا، يتخللها نقوش بديعة جدا، لونها أصفر فاقع أكسبت الرخامات حسنا و جمالا، كل ذلك من أصل الخلقة أيضا.

و هذه الرخامات ثمانية أحجار، متقاربة الأحجام، متلاصقة ببعضها، كل حجر منها مستطيل الشكل أكبرها طوله ٣٣ سنتيمترا، و عرضه ٢١ سنتيمترا، و كلها مرصوفة و موضوعة بأعلى الشاذروان في محل على هيئة المربع، طوله ٧٤ سنتيمترا، و عرضه كذلك و الظاهر أنها وضعت في محلها فوق الشاذروان حين عمارة المطاف، التي كانت سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة حسبما هو مكتوب بالنقر على الحجر الأزرق الذي تحت الرخامات الصفرة، و هو حجر ثمين من الرخام الأزرق الصافي، طوله ٦٩ سنتيمترا، و عرضه ٣٢ سنتيمترا، فيكون قد مضى على هذه الرخامات الصفرة و الرخامة الزرقاء إلى عامنا هذا ٧٣٦ سنة، و مضى على الرخامة الخضراء التي تحت الميزاب إلى عامنا هذا أيضا ١١٢٦ سنة.

فالرخامة الخضراء التي تحت الميزاب و الرخامات الصفرة التي على الشاذروان تكون من أفخم الآثار العربية و أغلاها و أندرها و أبركها، فلولا أنها من القدر و القيمة بمكان ما وضعها و لاء الأمر الأقدمون في أشرف بقعة عند الكعبة فكانوا أعرف منا بنفائس الأشياء و جواهرها و اختيار الأمكنة لحفظها و صيانتها.

انظر: صورة رقم ٧٥، للثمانية الأحجار الصفرة الظاهرة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٨

و كانت أعمالهم الجلييلة في غاية الجودة و الإتقان تمر عليها مئات الأعوام، و هي على حالها ما أصابها تلف و لا خراب، و نحن لم نقم بالكشف عما يوجد بالحجر و المطاف من الرخام النادر الوجود، فلو قمنا و بحثنا لعثرنا على أشياء ثمينه جدا مما يدلنا على عناية الملوك و السلاطين الأقدمين بهذا المكان المقدس، و البقعة الطاهرة المباركة، و ما ذكرنا تلك الرخامات الخضرة و الصفرة إلا للمناسبة. و قبل أن نختتم هذا الفصل نشير إلى قيمة الرخامات الخضرة و الصفرة عند ذوى الخبرة من رجال الآثار القديمة، فإننا لا نبالغ إن قلنا أن قيمة بعضها قد تبلغ نحو من عشرة آلاف جنيه مصرى. و لا نعتقد أن أحدا ممن كان قبلنا و لا ممن هو في عصرنا التفت إلى هاتين الرخامتين و لا توصل إلى ملاحظتنا فيهما، هذه الملاحظات الدقيقة الفنية، فالحمد لله على التوفيق. انتهى كل ذلك من كتابنا .. مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

و اليوم لا يوجد قط في جميع البلدان مثل هذه الرخامات الصفرة، فرحم الله الملوك و السلاطين الأقدمين حيث يهدون الأشياء النفيسة إلى الحرمين الشريفين.

البنية الخامسة و السادسة: بناء جرهم و العمالقة الكعبة

إشارة

جاء في تاريخ الغازي عن ذلك ما نصه: و أما بناء العمالقة و جرهم، فقد قال في الإعلام، ذكر الأزرقي بسنده إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال في خبر بناء إبراهيم الكعبة: ثم انهدم فبنتها العمالقة ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم، و ذكر الفاكهي بسنده إلى

على بن أبى طالب أنه قال: أول من بنى البيت إبراهيم ثم تهدم فبنتها جرهم ثم انهزم فبنتها العمالقة. قال السيد التقي: قلت: بهذا يقتضى أن جرهما بنت البيت الشريف قبل العمالقة والخبر الأول يقتضى أن العمالقة بنتها قبل جرهم و بها جزم المحب الطبرى فى القرى و ذكر المسعودى فى مروج الذهب أن الذى بنى الكعبة من جرهم هو الحارث بن مضاض الأصغر و أنه زاد فى بناء البيت و رفعه كما كان عليها بناء إبراهيم عليهما السلام و الله أعلم بحقيقته ذلك و قد تقدم من روايته الأزرقى خبر العمالقة ما يقتضى سبقهم على جرهم. انتهى من تاريخ الغازى.

نقول: إن بناء الكعبة المشرفة من عهد إبراهيم عليه الصلاة و السلام إلى قبل بناء قريش كان بالرضم فقط بدون طين و لا نورة، و لذلك كانت معرضة لسرعة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٩

الهضم و الخراب، ثم من بناء قريش إلى اليوم ما زال فن البناء فى تقدم حتى أصبح اليوم على ما نراه و بذلك يمكن البناء زمنا طويلا.

و اختلاف المؤرخين فى قبيلتي «جرهم و العمالقة» أيتهما كانت أسبق فى بناء الكعبة، كان سببه القبيلتين كانتا بمكة فى عصر واحد و جرت بينهما حروب.

و الله أعلم بحقيقته الحال.

أما نحن فرأينا الخاص: هو أن قبيلة جرهم قد تكون أسبق إلى بناء الكعبة من العمالقة، كما سبقوهم إلى الإقامة و السكن بمكة منذ وصول هاجر بابنها إسماعيل إليها، حتى إن إسماعيل عليه السلام لما كبر تزوج امرأة من جرهم فهم أصحابه و سكان الحرم يومئذ. و مع هذا فاختلافهم فى أسبقية العمالقة أو جرهم للبناء لا يتوقف عليه شىء.

الكعبة فى عهد خزاعة

كانت ولاية مكة بعد أبناء إسماعيل عليه الصلاة و السلام بيد جرهم، فلما استخفوا بحرمه البيت الحرام و طغوا و بغوا، سلط الله تعالى عليهم خزاعة فأجلوهم عن مكة فصارت ولاية مكة و أمر البيت الحرام بيد خزاعة، فبنت حول الكعبة المشرفة و حجر إسماعيل بناء يحفظها من السيول، فقد ذكر الإمام الأزرقى فى تاريخه عن محمد بن عبد العزيز ما نصه: إن وادى مكة سال فى الجاهلية سيلا عظيما و خزاعة تلى الكعبة و إن ذلك السيل هجم على أهل مكة فدخل المسجد الحرام و أحاط بالكعبة ورمى بالشجر بأسفل مكة و جاء برجل و امرأه ميتين فعرفت المرأة و كانت تكون بأعلا مكة يقال لها «فارة» و لم يعرف الرجل، فبنت خزاعة حول البيت بناء أداروه عليه و أدخلوا الحجر فيه ليحصنوا البيت من السيل، فلم يزل ذلك البناء على حاله حتى بنت قريش الكعبة، فسمى ذلك السيل «سيل فارة» و سمعت أنها امرأة من بنى بكر. انتهى من تاريخ الأزرقى.

نقول: إن أمر مكة كان بيد خزاعة، ثم صار بيد قصى بن كلاب الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم كما بينا ذلك فى محله، لكن خزاعة لم تبني الكعبة، و إنما أدارت حولها هذا البناء الذى ذكره الأزرقى ليحصنوها من السيل، و قصى بنى الكعبة و لم يتعرض للبناء الذى حولها الذى عملته خزاعة حتى إذا بنت قريش الكعبة لم يبق لبناء خزاعة من أثر كما هو صريح عبارة الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٠

و نرى أن ارتفاع بناء خزاعة حول الكعبة و حجر إسماعيل كان نحو قامه واحدة، أى بقدر ما يرتفع السيل فى ذلك الزمن فإنه لم يكن ليرتفع أكثر من ذلك لأن حول الكعبة كان منخفضا و واد، بخلاف زماننا كما هو مشاهد، أما ارتفاع الكعبة فعلى ما جعله إبراهيم عليه الصلاة و السلام أى تسعة أذرع، و كان لبناء خزاعة باب لاصق بالأرض كباب الكعبة و بابه مقابل لبابها فهذا هو المعقول لدى التأمل. و نرى أيضا: أن بين بناء خزاعة و الكعبة نحو نصف مقدار المطاف الآن، أى كانت خزاعة تطوف داخل البناء المحيط بالكعبة التى

عملته لتحسينها من السيل، إذ لا يعقل أن تلصقه بالكعبة كما لا يعقل أن تبعد به عنها كثيرا، فتأمل جيدا يظهر لك صواب ما قلناه إن شاء الله تعالى فإنك لا تجد هذا المبحث في كتاب. والله أعلم بالغيب.

البنية السابعة: بناء قصي بن كلاب الكعبة

جاء في تاريخ الغازي ما نصه: و أما بناء قصي فقال في الإعلام: ذكر الزبير بن بكار قاضي مكة في كتاب النسب أن قصي بن كلاب لما ولى أمر البيت جمع نفقته ثم هدم الكعبة فبناها بنيانا لم بينها أحد ممن بناها قبله مثلها و ذكر أبو عبد الله محمد بن عايد الدمشقي في مفاديه أن قصي بن كلاب بنى البيت الشريف و جزم بها الإمام الماوردي في الأحكام السلطانية فإنه قال فيها: أول من جدد بناء الكعبة من قريش لبعده إبراهيم قصي بن كلاب و سقفها بخشب الدوم و جريد النخل. انتهى من تاريخ الغازي.

و جاء في تاريخ الكعبة المعظمة عند الكلام على بناء قصي: أنه بناها على خمسة و عشرين ذراعا، و سقفها بخشب الدوم الجيد و بجريد النخل. اهـ.

يقول الفاسي رحمه الله تعالى: قوله أنه بناها على خمسة و عشرين ذراعا، فيه نظر، و نحن نقول: يمكننا أن نفسر هذا المقدار من الأذرع في الارتفاع فقط، لأن الزيادة في ارتفاع الكعبة لا بأس فيه، لكن الزيادة في الطول و العرض أى في قواعد إبراهيم عليه السلام التي هي الأساس ممنوعة منعاً باتاً، و لم تقع الزيادة في القواعد مطلقاً قط، في جميع البنايات التي وقعت في الكعبة زادها الله شرفاً و تعظيماً و مهابةً و تكريماً.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢١

و قصي هو الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم كان قبل الهجرة بنحو مائة و ثلاثين سنة، تولى أمر مكة فأطاعه قومه و كان يده أمور مكة الستة التي هي: الحجابة و الرفادة و السقاية و الندوة و اللواء و القيادة، و هو الذي جمع قومه بطون قريش و أمرهم أن يبنوا بيوتهم حول الكعبة و قسم جهاتها بينهم. و ستأتى ترجمته مفصلة إن شاء الله تعالى.

ترجمة قصي بن كلاب

لما كان قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم، و هو قد بنى الكعبة المشرفة بعد جرحهم، صار من الواجب علينا ذكر شيء من ترجمته ملخصاً من كتاب "حياة سيد العرب" للشيخ حسين عبد الله باسلامة و من تاريخ الأزرقى رحمهما الله تعالى و إليك شيء من ذلك:

قصي اسمه زيد و يقال له مجمع لأنه جمع قبائل قريش بعد تفرقها، و هو ابن كلاب و اسمه حكيم و لقب بكلاب لأنه كان يصطاد بها، و اسم أمه فاطمة بنت سعد بن سيل (و في الأزرقى: فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سيل) و نظن أن عمرو سقط سهواً من كتاب حياة سيد العرب.

فلما هلك كلاب ترك قصيا و أخاه زهرة مع أمهما فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سيل، ثم تزوجت أمهما فاطمة على ربيعة بن حرام القضاعي و قصي فطيم أو على سن الفطام و أما أخوه زهرة فرجل بالغ، فاحتمل ربيعة زوجته فاطمة مع ولدها قصي إلى بلاده من أرض بنى عذرة من أشراف الشام، و تخلف زهرة في قومه، و شب قصي في حجر ربيعة لا يعلم لنفسه أباً غير ربيعة و لا ينتمى إلا إليه، فلما صار غلاماً يفعه سابه رجل من قضاة فعيه بالدعوة و قال له:

لست منا و إنما أنت فينا ملصق، فدخل على أمه و قد وجد في نفسه مما قال له القضاعي فقالت له: يا بني صدق إنك لست منهم و

لكن رهطك خير من رهطه و آباؤك أشرف من آبائه و إنما أنت قرشى و أخوك و بنو عمك بمكة و هم جيران بيت الله الحرام، فأجمع قصى على الخروج إلى قومه و اللحاق بهم و كره الغربة في أرض قضاة، فقالت له أمه: يا بني لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج في حاج العرب فإنى أخشى عليك أن يصيبك بعض البأس. فبقى حتى خرج حاج قضاة، فخرج معهم حتى قدم مكة فلما فرغ من الحج أقام

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢

بها، و كان رجلا جليلا نسيبا فعرفت قريش قدره و فضله و عظمته و أقرت له بالرياسة و السؤدد، و كان أبعدا رأيا و أصدقها لهجة و أوسعها بدلا و أبينها عفافا.

فخطب قصى إلى حليل بن حبشية بن سلول الخزاعي ابنته حبي فعرف حليل نسبه و رغب في الرجل فزوجه، و حليل يومئذ يلي الكعبة و أمر مكة، فأقام قصى معه حتى ولدت حبي لقصى عبد الدار و هو أكبر ولده، و عبد مناف، و عبد العزى، و عبدا بنى قصى.

فكان حليل يفتح البيت فإذا اعتل أعطى ابنته حبي المفتاح فإذا اعتلت أعطت المفتاح زوجها قصيا أو بعض ولدها فيفتحه، فلما حضرت حليلا الوفاء نظر إلى قصى و إلى ما انتشر له من الولد من ابنته فرأى أن يجعلها في ولد ابنته فدعا قصيا فجعل له ولاية البيت و أسلم إليه المفتاح و كان يكون عند حبي، فلما هلك حليل أبت خزاعة أن تدعه و ذاك أخذوا المفتاح من حبي فمشى قصى إلى رجال من قومه من قريش و بنى كنانة و دعاهم إلى أن يقوموا معه في ذلك و أن ينصروه و يعضدوه فأجابوه إلى نصره، و أرسل قصى إلى أخيه لأمه رزاح بن ربيعة و هو ببلاد قومه من قضاة يدعوهم إلى نصره و يعلمه ما حالت خزاعة بينه و بين ولاية البيت و يسأله الخروج إليه بمن أجابه من قومه، فقام رزاح في قومه و أجابوه إلى ذلك، فخرج رزاح بن ربيعة و معه إخوته من أبيه حن و محمود و جلهمة بنو ربيعة بن حرام فيمن تبعهم من قضاة في حاج العرب مجتمعين لنصر قصى و القيام معه.

فلما اجتمع الناس بمكة خرجوا إلى الحج فوقفوا بعرفة و بجمع و نزلوا منى، و قصى مجمع على ما أجمع عليه من قتالهم بمن معه من قريش و بنى كنانة و من قدم عليه مع أخيه رزاح من قضاة، فلما كان آخر أيام منى أرسلت قضاة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصى ما جعل له حليل و عظموا عليهم القتال في الحرم و حذروهم من الظلم و البغى بمكة و ذكروهم ما كانت فيه جرهم و ما صارت إليه حين ألدوا فيه بالظلم و البغى، فأبت خزاعة أن تسلم ذلك فاقتتلوا بمفضى مأزى منى، قال: فسمى ذلك المكان المفجر لما فجر فيه و سفك فيه الدماء «و المفجر معروف إلى اليوم بمنى» فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعا، و حاج العرب من مصر و اليمن مستكفون ينظرون إلى قتالهم.

ثم تداعوا إلى الصلح و دخلت قبائل العرب بينهم و عظموا على الفريقين سفك الدماء و الفجور في الحرم، فاصطلحوا على أن يحكموا بينهم رجلا من العرب فيما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٣

اختلفوا فيه، فحكموا يعمر بن عوف بن كعب بن عامر، و كان رجلا شريفا فقال لهم موعدكم فناء الكعبة غدا، فلما اجتمع إليه الناس بفناء الكعبة قام يعمر بن عوف فقال: ألا إنى شدخت ما كان بينكم من دم تحت قدمي هاتين فلا تباعة لأحد على أحد في دم، و إنى قد حكمت لقصى بحجابه الكعبة و ولاية أمر مكة دون خزاعة لما جعل له حليل و أن يخلى بينه و بين ذلك، و أن لا تخرج خزاعة عن مساكنها من مكة.

فسلمت ذلك خزاعة لقصى و عظموا سفك الدماء في الحرم، و افترق الناس، فولى قصى بن كلاب حجابه الكعبة و أمر مكة و جمع قومه من قريش من منازلهم إلى مكة يستعز بهم و تملك على قومه فملكوه و خزاعة مقيمة بمكة على رباعهم و سكناتهم لم يحركوا و لم يخرجوا منها فلم يزالوا على ذلك حتى الآن.

فكان قصى أول رجل من بنى كنانة أصاب ملكا و أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة و الرفادة و السقاية و الندوة و اللواء و القيادة،

فحاز قصى شرف مكة و أنشأ دار الندوة، و فيها كانت قريش تقضى و لم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصى إلا ابن أربعين سنة للمشورة، و كان يدخلها ولد قصى أجمعون.

و قبل قصى كانت القبائل من عمالقة و جرهم و خزاعة و قريش و غيرهم، يسكنون فى شعاب مكة و يتركون حول الكعبة احتراماً لها و تعظيماً لشأنها فلا يجترئ أن يبني أحد بجوارها داراً و لا جداراً.

فلما آل الأمر إلى قصى بن كلاب و استولى على مكة و على مفتاح الكعبة من خزاعة، جمع قومه بطون قريش و أمرهم أن يبنوا حول الكعبة بيوتاً من جهاتها الأربعة حيث كانوا يقطنون بظاهر مكة و لا يقيمون بها إلا نهاراً و لا يدخلونها على جنباً، فإذا أمسوا خرجوا إلى الحل، فقال لهم قصى: إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس و لم تستحل قتالكم و الهجوم عليكم، فبدأ قصى أولاً فبنى دار الندوة، ثم قسم باقى الجهات بين القبائل من قريش فبنت دورها حول الكعبة المعظمة و قد تركوا للطائفتين مقدار المطاف الآن و جعلوا ارتفاع بيوتهم أقل من ارتفاع الكعبة احتراماً و تعظيماً لها.

و فى قصى حين جمع قومه يقول القائل:

أبوكم قصى كان يدعى مجعابه جمع الله القبائل من فهر

و أنتم بنو زيد و زيد أبوكم به زيدت البطحاء فخرا على فخر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٤

و قصى هو أول من حفر بئراً يقال له العجول كان موضوعها فى دار أم هانئ بنت أبى طالب بالحزورة «باب الوداع» و قد دخلت هذه البئر مع دار أم هانئ فى المسجد الحرام فى زيادة المهدي، على أن قصيا حفر آباراً عديدة بمكة و كان الماء بها غزيراً و الناس يشربون من آبار خارجة عن الحرم، و البئر المنسوبة إلى جبير بن مطعم التى عند مسجد الراية بالجودية أول من حفرها قصى ثم دثرت.

انتهى كل ذلك ملخصاً من تاريخ الأزرقى و من حياة سيد العرب.

قال إبراهيم رفعت باشا فى الجزء الأول من كتابه «مرآة الحرمين» بصحيفة ١٥٢: كان ظهور قصى بن كلاب حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى. فعلى هذا القول و إذا قدرنا أيضاً أن قصيا ظهر سنة (٤٥٠) ميلادية يكون ظهوره قبل الهجرة بمائة و ثلاثين سنة و هذا هو المعقول، و لكن التقدير المضبوط الله أعلم به.

البنية النامنة: بناء قريش الكعبة

إشارة

نذكر أولاً سبب بناء قريش الكعبة نقلاً عن تاريخ الغازى، رحمه الله تعالى فقد قال فيه ما نصه: و أما بناء قريش الكعبة، فقال فى الإعلام: قال خاتمة الحفاظ و المحدثين الشيخ محمد الصالحى، رحمه الله تعالى، فى كتاب «سبيل الهدى و الرشاد فى سيرة خير العباد» و هو أحسن كتاب للمتأخرين و أبسطه فى السيرة النبوية: أن امرأة جمرت الكعبة بالبخور فطارت شرارة من مجمرتها فى ثياب الكعبة فاحترق أكثر أخشابها و دخلها سيل عظيم فتصدعت جدرانها بعد توهينها فأرادوا أن يشدوا بنيانها و يرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شأوا، و كان البحر قد رمى بسفينته إلى ساحل جدة لتاجر رومى اسمه باقوم و كان بناء نجارا فخرج الوليد بن المغيرة فى نفر قريش إلى جدة فابتاعوا خشب السفينة و كلموا باقوم الرومى أن يقدم معهم إلى مكة فقدم إليها و أخذوا أخشاب السفينة أعدوها لسقف الكعبة الشريفة. قال الأعمى: كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم و يحمل فيها الرخام و الخشب و الحديد مع باقوم إلى الكنيسة التى أحرقتها الفرس بالحيشة فلما بلغت قريب مرسى جدة بعث الله عليها ريحا فحطمتها. انتهى.

قال ابن إسحاق: و كان بمكة قبطنى يعرف بنجر الخشب و تسويته فوافقهم أن يعمل لهم سقف الكعبة و يساعده باقوم. انتهى ما فى الإعلام.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٥

و إن شاء الله تعالى سندكر ترجمه باقوم الرومى بعد ترجمه الوليد بن المغيرة فى آخر هذا المبحث.

ثم قال الغازى أيضا: و فى الجامع اللطيف روى أن امرأة ذهبت تجمر الكعبة فطارت شرارة من مجمرتها فاحترقت كسوتها و كانت ركاما بعضها فوق بعض فحصل فى الأحجار تصدع و وهن ثم تواترت السيول بعد ذلك فجاء سيل عظيم فدخل البيت فازداد تصدع الجدران ففزعت قريش لذلك فزعا شديدا و هابوا هدمها و خافوا إن مسوها أن ينزل عليهم العذاب فبينما هم على تلك الحال يتشاورون إذ أقبلت سفينة من الروم حتى إذا كانت بمحل يقال له الشعبية بضم الشين المعجمة و هى يومئذ ساحل مكة قبل جدة انكسرت فلما انكسرت السفينة بالشعبية و بلغ ذلك قريشا فقصدوها و اشتروا أخشابها و أذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من المتاع على أن لا يعشروهم، قال: و كانوا قبل ذلك يعشرون من دخلها من تجار الروم و كانت الروم تعشر قريشا إذا دخلوا بلادهم و يروى أن قريشا لما هابوا هدمها قال الوليد: إن الله لا يهلك من يريد الصلاح فارتقى على ظهرها و معه الناس ثم هدم فلما رأوه سالما تابعوه. و فى بعض الروايات أن قريشا كلما أرادوا هدم البيت بدت لهم حية فاتحة فهاها فبعث الله طيرا أعظم من النسر فغرز مخاليبه فيها و ألقاها نحو أجياد فهدمتها قريش و بنوها بحجارة الوادى. انتهى.

ثم قال الغازى: و فى الإعلام: و كانت حية عظيمة تخرج من بئر الكعبة التى يطرح فيها ما يهدى إلى الكعبة تشرف على جدار الكعبة لا يدنو منها أحد إلا نشت و فتحت فهاها و كانوا يهابونها و يزعمون أنها تحفظ الكعبة و هداياها و أن رأسها كراس الجدوى و ظهرها و بطنها أسود و أنها قامت فيها خمسمائة سنة.

قال ابن عيينة: فبعث الله طائرا فاخطفها و ذهب بها فقالت قريش نرجو أن يكون الله تعالى رضى لنا بما أردنا فعلة فأجمع رأيهم على هدمها و بنائها. قال ابن هشام: فتقدم عائذ بن عمران بن مخزوم و هو خال النبى صلى الله عليه و سلم، فتناول حجرا من الكعبة فوثب من يده حتى رجع إلى مكانه فقال: يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنائها من مالكم إلا حلالا طيبا ليس فيه مهر بغى و لا ربا و لا مظلمة. ثم إن قريشا اقتسمت جوانب البيت فكان شق الباب لبني زهرة و بنى عبد مناف و ما بين الركن الأسود و الركن اليمانى لبني مخزوم و من انضم إليهم من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٦

قريش و كان ظهر الكعبة لبني جمح و بنى سليم و كان شق الحجر لبني عبد الدار و بنى أسد بن عبد العزى و بنى عدى بن كعب و جمعوا الحجارة و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ينقل معهم حتى انتهى الهدم إلى الأساس فأفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة فضربوا عليها بالمعول فخرج برق يكاد أن يخطف البصر فانتهوا عند ذلك الأساس. انتهى.

ثم قال الغازى: و فى تحصيل المرام حتى انتهى بهم الهدم إلى أساس إبراهيم عليه السلام، فأفضوا إلى حجارة كالأسنمة إلى أسنمة الإبل فأدخل رجل بمن كان يهدم عتله بين حجرين ليقلع بها بعضها فلما تحرك الحجر انتفضت مكة أى تحركت بأسرها و أبصر القوم برقة خرجت من تحت الحجر كادت تخطف بصر الرجل فانتهوا عن ذلك الأساس. انتهى من تاريخ الغازى.

جاء فى تاريخ الكعبة المعظمة: قال الزبير بن عبد المطلب فيما كان من أمر الحية التى كانت قريش تهاب ببيان الكعبة لها ما يأتى:

عجبت بأن تسلط العقاب على الثعبان و هى لها اضطراب

و قد كانت يكون لها كشيخ و أحيانا يكون لها و ثاب

إذا قمنا إلى التأسيس شدت تهيبنا البناء و قد تهاب

فلما أن خشينا الرجز جاءت عقاب تتلثب لها انصباب

فضمتها إليها ثم خلت لنا البيان ليس لها حجاب
فقمنا حاشدين إلى بناء لنا منه القواعد و التراب
غداة نرفع التأسيس فيه و ليس على مساوينا ثياب
أعز به المليك بنى لؤى فليس لأصله منهم ذهاب
و قد حشدت هناك بنو عدى و مرة قد تقدمها كلاب
فبوأنا المليك بذاك عزاو عند الله يلتمس الثواب

و جاء فى تاريخ الأزرقى عند ذكر بناء قريش الكعبة ما نصه: حدثنى جدى قال: حدثنا مسلم بن خالد الزنجى عن ابن أبى نجيح عن
أبيه قال: جلس رجال من قريش فى المسجد الحرام فىهم حويطب بن عبد العزى و مخرمه بن نوفل فتذاكروا ببيان قريش الكعبة و ما
هاجهم على ذلك و ذكروا كيف كان بناؤها قبل ذلك قالوا: كانت الكعبة مبنية برضم يابس ليس بمدر و كان بابها بالأرض و لم
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٧

يكن لها سقف و إنما تدلى الكسوة على الجدر من خارج و تربط من أعلى الجدر من بطنها و كان فى بطن الكعبة عن يمين من
دخلها جب يكون فيه ما يهدى إلى الكعبة من مال و حليه كهيئة الخزائن و كان يكون على ذلك الجب حية تحرسه بعثها الله منذ زمن
جرهم و ذلك أنه عدا على ذلك الجب قوم من جرهم فسرقوا مالها و حليتها مرة بعد مرة فبعث الله تلك الحية فحرس الكعبة و ما
فيها خمسمائة سنة فلم تزل كذلك حتى بنت قريش الكعبة و كان قرنا الكبش الذى ذبحه إبراهيم خليل الرحمن معلقين فى بطنها
بالجدر تلقاء من دخلها، يخلقان و يطيبان إذا طيب البيت فكان فيها معاليق من حلية كانت تهدى إلى الكعبة فكانت على ذلك من
أمرها، ثم إن امرأة ذهبت تجمر الكعبة فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها و كانت الكسوة عليها ركاما بعضها فوق بعض
فلما احترقت الكعبة توهنت جدرانها من كل جانب و تصدعت و كانت الخرف الأربعة عليهم مظلمة و السيول متواترة، و لمكة سيول
عوارم فجاء سيل عظيم على تلك الحال فدخل الكعبة و صدع جدرانها و أخافهم ففزعت قريش فزعا شديدا و هابوا هدمها و خشوا
إن مسوها أن ينزل عليهم العذاب.

قال: فىنا هم على ذلك يتناظرون و يتشاورون إذ أقبلت سفينة للروم حتى إذا كانت بالشعبية و هى يومئذ ساحل مكة قبل جدة
انكسرت فسمعت قريش فركبوا إليها فاشترى خشبها و أذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاعهم على أن لا يعشروهم،
قال: و كانوا يعشرون من دخلها من تجار الروم كما كانت الروم تعشر من دخل منهم بلادها، فكان فى السفينة رومى نجار بناء يسمى
«باقوم» فلما قدموا بالخشب مكة قالوا: لو بنينا بيت ربنا فأجمعوا لذلك و تعاونوا عليه و توافدوا فى النفقة و ربعوا قبائل قريش أرباعا ثم
اقترعوا عند هبل فى بطن الكعبة على جوانبها، فطار قدح بنى عبد مناف و بنى زهرة على الوجه الذى فيه الباب و هو الشرقى، و قدح
بنى عبد الدار و بنى أسد بن عبد العزى و بنى عدى بن كعب على الشق الذى يلى الحجر و هو الشق الشامى، و طار قدح بنى سهم و
بنى جمح و بنى عامر بن لؤى على ظهر الكعبة و هو الشق الغربى، و طار قدح بنى تيم و بنى مخزوم و قبائل من قريش ضموا معهم
على الشق اليمانى الذى يلى الصفا و أجياد. نقول: باقوم المذكور هو بالقاف، و بعضهم ينطقها بالخاء، و اليونانيون يقولون «باكاموس»
و سيأتى إن شاء الله تعالى الكلام على ذلك عند ترجمة باقوم المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٨

ثم قال الأزرقى: فنقلوا الحجارة و رسول الله صلى الله عليه و سلم يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي ينقل معهم الحجارة على رقبته فىنا
هو ينقلها إذ انكشفت نمره كانت عليه فنودى: يا محمد عورتك، و ذلك أول ما نودى و الله أعلم، فما رؤيت لرسول الله صلى الله
عليه و سلم عورة بعد ذلك و لبع رسول الله من الفزع حين نودى، فأخذ العباس بن عبد المطلب فضمه إليه و قال: لو جعلت بعض
نمرتك على عاتقك تفيك الحجارة، قال: ما أصابنى هذا إلا من التعرى، فشد رسول الله صلى الله عليه و سلم إزاره و جعل ينقل

معهم و كانوا ينقلون بأنفسهم تبرا و تبركا بالكعبة. فلما اجتمع لهم ما يريدون من الحجارة و الخشب و ما يحتاجون إليه عدوا على هدمها، فخرجت الحية التي كانت فى بطنها تحرسها سواد الظهر، بيضاء البطن، رأسها مثل رأس الجدى، تمنعهم كلما أرادوا هدمها. فلما رأوا ذلك اعتزلوا عند مقام إبراهيم و هو يؤمئذ بمكانه الذى هو فيه اليوم فقال لهم الوليد بن المغيرة: يا قوم أستم تريدون بهدمها الإصلاح؟ قالوا: بلى، قال: فإن الله لا يهلك المصلحين و لكن لا تدخلوا فى عمارة بيت ربكم إلا من طيب أموالكم و لا تدخلوا فيه مالا من ربا، و لا مالا من ميسر، و لا مهر بغي، و جنبوه الخبيث من أموالكم فإن الله لا يقبل إلا طيبا ففعلوا ثم وقفوا عند المقام فقاموا يدعون ربهم و يقولون: اللهم إن كان لك فى هدمها رضا فأتمه و أشغل عنا هذا الثعبان. فأقبل طائر من جو السماء كهيئة العقاب ظهره أسود و بطنه أبيض، و رجلاه صفروان و الحية على جدر البيت فآغرة فاها، فأخذ برأسها ثم طار بها حتى أدخلها أجساد الصغير. فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله سبحانه و تعالى قد رضى عملكم و قبل نفقتكم فاهدموه.

فهابت قريش هدمه و قالوا: من يبدأ فيهدمه؟ فقال الوليد بن المغيرة- سنذكر ترجمة الوليد ابن المغيرة فى آخر هذا المبحث- أنا أبدؤكم فى هدمه، أنا شيخ كبير فإن أصابنى أمر كان قد دنا أجلي و إن كان غير ذلك لم يرزأنى، فعلا البيت و فى يده عتله يهدم بها، فترزع من تحت رجله حجر فقال: اللهم لم ترع؟ إنما أردنا الإصلاح و جعل يهدمه حجر حجرا بالعتله فهدم يومه ذلك فقالت قريش: إنا نخاف أن ينزل به العذاب إذا أمسى. فلما أمسى لم تر بأسا، فأصبح الوليد بن المغيرة غاديا على عمله، فهدمت قريش معه حتى بلغوا الأساس الأول الذى رفع عليه إبراهيم و إسماعيل القواعد من البيت، فأبصروا حجارة كأنها الإبل الخلف لا يطبق الحجر منها ثلاثون رجلا، يحرك الحجر منها فترتج جوانبها، قد تشبك بعضها ببعض، فأدخل الوليد بن المغيرة عتله بين الحجرين فانفلقت منه فلقه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٩

عظيمة فأخذها أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم فنزت من يده حتى عادت فى مكانها و طارت من تحتها برقة كادت أن تخطف أبصارهم و رجفت مكة بأسرها، فلما رأوا ذلك أمسكوا عن أن ينظروا ما تحت ذلك فلما جمعوا ما أخرجوا من النفقة قلت النفقة عن أن تبلغ لهم عمارة البيت كله، فتشاؤروا فى ذلك فأجمع رأيهم على أن يقصروا عن القواعد و يحجروا ما يقدرون عليه من بناء البيت و يتركوا بقيته فى الحجر عليه جدار مدار يطوف الناس من ورائه. ففعلوا ذلك و بنوا فى بطن الكعبة أساسا يبنون عليه من شق الحجر و تركوا من ورائه من فناء البيت فى الحجر ستة أذرع و شبرا، فبنوا على ذلك، فلما وضعوا أيديهم فى بنائها قالوا: ارفعوا بابها من الأرض و اكبسوها حتى لا تدخلها السيول و لا ترقى إلّا بسلم و لا يدخلها إلا من أردتم، إن كرهتم أحدا دفعتموه، ففعلوا ذلك و بنوها بساف من حجارة، و ساف من خشب بين الحجارة حتى انتهوا إلى موضع الركن، فاختلفوا فى وضعه و كثر الكلام فيه، و تنافسوا فى ذلك. فقالت بنو عبد المناف و زهرة: هو فى الشق الذى وقع لنا. و قالت تيم و مخزوم: هو فى الشق الذى وقع لنا. و قالت سائر القبائل: لم يكن الركن مما استهمنا عليه.

فقال أبو أمية بن المغيرة: يا قوم إنما أردنا البر، و لم نرد الشر فلا تحاسدوا، و لا تنافسوا فإنكم إذا اختلفتم تشنت أموركم، و طمع فيكم غيركم و لكن حكموا بينكم أول من يطلع عليكم من هذا الفج. قالوا: رضينا و سلمنا، فطلع رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالوا: هذا الأمين قد رضينا به، فحكموه، فبسط رداءه ثم وضع فيه الركن فدعا من كل ربع رجلا فأخذوا بأطراف الثوب فكان من بنى عبد مناف عتبة بن ربيعة و كان فى الربع الثانى أبو زمعة بن الأسود، و كان أسن القوم، و فى الربع الثالث العاصى بن وائل، و فى الربع الرابع أبو حذيفة بن المغيرة فرفع القوم الركن و قام النبى صلى الله عليه و سلم على الجدر ثم وضعه بيده فذهب رجل من أهل نجد ليناول النبى صلى الله عليه و سلم حجرا ليشد به الركن، فقال العباس بن عبد المطلب: لا! فناول العباس النبى صلى الله عليه و سلم حجرا فشد به الركن فغضب النجدى حيث نحى، فقال النجدى:

و اعجابه لقوم أهل شرف و عقول و سن و أموال عمدوا إلى أصغرهم سنا، و أقلهم مالا فرأسوه عليهم فى مكرتهم و حوزهم كأنهم

خدم له. أما والله ليفوتنهم سبقا و ليقسمن عليهم حظوظا و جدودا و يقال: إنه إبليس.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٠

فبنوا حتى رفعوا أربعة أذرع و شبرا، ثم كبسوها و وضعوا بابها على هذا الذرع و رفعوها بمدماك خشب و مدماك حجارة حتى بلغوا السقف. فقال لهم باقوم الرومي: أتحبون أن تجعلوا سقفها مكبسا أو مسطحا؟ فقالوا: بل ابن بيت ربنا مسطحا. قال: فبنوه مسطحا و جعلوا فيه ست دعائم في صفيين في كل صف ثلاث دعائم من الشق الشامي الذي يلي الحجر إلى الشق اليماني و جعلوا ارتفاعها من خارجها من الأرض إلى أعلاها ثمانية عشر ذرعا و كانت قبل ذلك تسعة أذرع فزادت قريش في ارتفاعها في السماء تسعة أذرع آخر، و بنوها من أعلاها إلى أسفلها بمدماك من حجارة و مدماك من خشب، و كان الخشب خمسة عشر مدماكا و الحجارة ستة عشر مدماكا و جعلوا ميزابها يسكب في الحجر و جعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي يصعد منها إلى ظهرها، و زوقوا سقفها و جدرانها من بطنها و دعائمها و جعلوا في دعائمها صور الأنبياء، و صور الشجر، و صور الملائكة، فكان فيها صورة إبراهيم خليل الرحمن، شيخ يستقسم بالأزلام، و صورة عيسى بن مريم و أمه، و صورة الملائكة عليهم السلام أجمعين ...

فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم البيت، فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاها بماء زمزم ثم أمر بثوب و أمر بطمس تلك الصور، فطمست. قال: و وضع كفيه على صورة عيسى بن مريم و أمه عليهما السلام و قال: امحوا جميع الصور إلا- ما تحت يدي فرفع يديه عن عيسى بن مريم و أمه و نظر إلى صورة إبراهيم فقال: قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام، ما لإبراهيم و للأزلام، و جعلوا لها بابا واحدا فكان يغلق و يفتح، و كانوا قد أخرجوا ما كان في البيت من حلية و مال و قرني الكبش و جعلوه عند أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي و أخرجوا هبل و كان على الجب الذي فيه نصبه عمرو بن لحي هنالك و نصب عند المقام حتى فرغوا من بناء البيت فردوا ذلك المال في الجب و علقوا فيه الحلية و قرني الكبش و ردوا الجب في مكانه فيما يلي الشق الشامي و نصبوا هبل على الجب كما كان قبل ذلك و جعلوا له سلما يصعد عليه إلى بطنها و كسوها حين فرغوا من بنائها حبرات يمانية. انتهى.

و لقد ورد في صحيح البخاري، نقل رسول الله صلى الله عليه و سلم الحجارة للكعبة في بناء قريش، في باب مناقب الأنصار في باب بنان الكعبة بما نصه: عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: لما بنيت الكعبة ذهب النبي صلى الله عليه و سلم و عباس ينقلان التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣١

الحجارة، فقال عباس للنبي صلى الله عليه و سلم: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة فخر إلى الأرض، و طمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: إزارى إزارى فشد عليه إزاره.

حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار و عبيد الله بن أبي يزيد قالوا: لم يكن على عهد النبي صلى الله عليه و سلم حول البيت حائط كانوا يصلون حول البيت حتى كان عمر، فبنى حوله حائط قال عبيد الله: جدره قصير فبناه ابن الزبير. انتهى. و مسألة سقوط النبي صلى الله عليه و سلم مغشيا عليه لانكشاف عورته، قد وردت في الصحيحين فعن جابر بن عبد الله، رضى الله تعالى عنهما، قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ينقل معهم الحجارة للكعبة و عليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخي لو حلت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة، قال: فحلته فجعله على منكبيه، فسقط مغشيا عليه، فما رؤى بعد ذلك عريانا صلى الله عليه و سلم. رواه البخاري و مسلم.

قال شيخنا المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في شرحه على كتابه «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري و مسلم» عند هذا الحديث في الجزء السادس من الكتاب المذكور ما يأتي:

(فإن قيل): كيف الجمع بين حديث المتن و ما ذكره ابن إسحاق في السيرة من أنه عليه الصلاة و السلام تعرى و هو صغير عند حلیمه، فلنكمه لاكم فلم يعد يتعرى بعد ذلك.

(أجيب) بأنه إن ثبت ما ذكره ابن إسحاق، حمل على نفى التعرى لغير ضرورة عادية، وحمل الذى فى حديث المتن على الضرورة العادية و النفى فيها على الإطلاق، أو يتقيد بالضرورة الشرعية كحالة النوم مع الزوجة أحيانا. و فى هذا الحديث منع التعرى بحضرة الناس إلا ما رخص فيه شرعا من رؤية الزوجات لأزواجهن عراة، و فيه أيضا أنه عليه الصلاة و السلام صانه الله على كل ما يستقبح قبل البعثة كما صانه عن ذلك بعدها. ثم قال رحمه الله تعالى: و كان عمره صلى الله عليه و سلم فى ذلك الوقت خمسا و ثلاثين سنة، و قيل كان ذلك قبل المبعث بخمس عشرة سنة، و قيل: كان عمره عليه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٢

الصلاة و السلام إذ ذاك خمس عشرة سنة. انتهى باختصار من الجزء السادس من كتاب زاد المسلم المذكور.

قال الأزرقى: حدثنى جدى قال: حدثنا داود بن عبد الرحمن عن ابن أبى نجيح عن أبيه عن حويطب بن عبد العزى قال: كانت فى الكعبة حلق أمثال لجم البهم يدخل الخائف فيها يده فلا يريه أحد، فجاء خائف ليدخل يده فاجتذبه رجل فشلت يده فلقد رأيت فى الإسلام و إنه لأشل.

حدثنى جدى قال: حدثنا داود بن عبد الرحمن عن ابن جريج قال: سأل سليمان بن موسى الشامى عطاء بن أبى رباح و أنا أسمع أدركت فى البيت تمثال مريم و عيسى قال: نعم أدركت فيها تمثال مريم مزوقا فى حجرها عيسى ابنها قاعدا مزوقا. قال: و كانت فى البيت أعمدة ست سوارى وصفها كما نقطت فى هذا الترييح:

قال: و كان تمثال عيسى بن مريم و مريم عليهما السلام، فى العمود الذى يلى الباب. قال ابن جريج: فقلت لعطاء: متى هلك؟ قال: فى الحريق فى عصر ابن الزبير و قلت: أعلى عهد النبى صلى الله عليه و سلم كان؟ قال: لا أدرى و إنى لأظنه قد كان على عهد النبى صلى الله عليه و سلم. قال له سليمان: أفرايت تماثيل صور كانت فى البيت، من طمسها؟ قال: لا أدرى غير أنى أدركت من تلك الصور اثنين درسهما و اراهما و الطمس عليهما. قال ابن جريج: ثم عاودت عطاء بعد حين فخط لى ست سوارى كما خطت ثم قال: تمثال عيسى و أمه عليهما السلام فى الوسطى من اللاتى تلى الباب الذى يلينا إذا دخلنا. قال ابن جريج: الذى خط هذا الترييح و نقط هذا النقط.

حدثنى جدى قال: حدثنا داود بن عبد الرحمن عن عمرو بن دينار قال: قال:

أدركت فى بطن الكعبة قبل أن تهدم تمثال عيسى بن مريم و أمه. انتهى كل ما تقدم من تاريخ الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٣

وضع رسول الله صلى الله عليه و سلم الحجر الأسود بيده فى محله الكعبة

جاء فى تاريخ الأزرقى عند آخر الكلام على بناء قريش الكعبة فى مسألة اختصامهم، أى القبائل ترفع الحجر الأسود لوضعه فى محله فى الكعبة ثم رضوا بحكم رسول الله صلى الله عليه و سلم ما خلاصته:

قال أبو أمية بن المغيرة: يا قوم إنما أردنا البر، و لم نرد الشر فلا تحاسدوا، و لا تنافسوا. فإنكم إذا اختلفتم تشتت أموركم، و طمع فيكم غيركم، و لكن حكموا بينكم أول من يطلع عليكم من هذا الفج. قالوا: رضينا و سلمنا، فطلع رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالوا: هذا الأمين قد رضينا به، فحكموه، فبسط رداءه ثم وضع فيه الركن فدعا من كل ربع رجلا فأخذوا بأطراف الثوب (و ذكر الأزرقى أسماءهم) فرفع القوم الركن و قام النبى صلى الله عليه و سلم على الجدر ثم وضعه بيده، فبنوا حتى رفعوا أربعة أذرع و شبرا ثم كبسوها و وضعوا بابها مرتفعا على هذا الذرع .. إلى آخر الكلام.

و أبو أمية بن المغيرة المذكور هو الذى اقترح على قريش حين اختلفت على بنيان البيت و قال: يا معشر قريش لا تنافسوا و لا تباغضوا

و لكن جزؤوا البيت أربعة أجزاء ثم ربعوا القبائل فلتكن أرباعا ثم اقترعوا عند هبل في بطن الكعبة على جوانبها فاختص كل قوم بجانب منها (وقد ذكر الأزرقى أسماءهم).

وفي ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا وضعت الركن بيدي يوم اختلفت قريش في وضعه. و عن ابن أبي تجراء عن أمه قالت: أنا أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع الركن بيده، فقلت: لمن الثوب الذي وضع فيه الحجر؟ قالت: للوليد بن المغيرة، ويقال: حمل الحجر في كساء طاروني كان للنبي صلى الله عليه وسلم. والوليد بن المغيرة هو الذي أول من ارتقى على جدر البيت عند هدمه و معه الفأس فقال: اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح ثم هدم فهمدت قريش معه بعد ذلك، والوليد بن المغيرة أيضا هو الذي أدخل عتله بين حجرين من الأساس الأول للبيت الذي رفع عليه إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت فانفلقت منه فلقه عظيمه فأخذها أبو وهب بن عمرو فنزت من يده حتى عادت في مكانها، والوليد بن المغيرة أيضا هو الذي قال لقريش: لا تدخلوا في عمارة بيت ربكم إلا من طيب أموالكم فلا تدخلوا فيه مالا من ربا ولا ميسر ولا مهر بغى ففعلوا حسب كلامه، وقيل قائله أبو أحيحة سعيد بن العاصي والله تعالى أعلم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٤

والوليد بن المغيرة هو أيضا كان أول من خلع الخف والنعل فلم يدخل البيت بهما إعظاما له و ذلك حينما فرغت قريش من بنائه فجرى ذلك سنة.

وقيل اسم القائل: حكموا بينكم من يطلع من هذا الباب حين اختلفت قريش في وضع الركن، هو أبو حذيفة بن المغيرة، وهو أيضا من نفر الذين رفعوا الثوب الذي وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الحجر الأسود و أبو حذيفة بن المغيرة هو الذي قال لقريش حين بناء الكعبة ارفعوا بابها من الأرض حتى لا يدخل عليكم إلا بسلم فإنه لا يدخل عليكم إلا من أردتم. انتهى مختصرا من الأزرقى.

قال الأزرقى: حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن الوليد بن كثير عن يعقوب بن عتيبة قال: اجتمع عند معاوية بن أبي سفيان، وهو خليفة نفر من قريش منهم جعدة بن هبيرة، و عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، و الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، و عبد الله بن زمعة بن الأسود، فتذاكروا أحاديث العرب فقال معاوية: من الرجل الذي نزا الحجر من يده حين حفر أساس البيت حتى عاد مكانه؟ قالوا: من أعلم من أمير المؤمنين بهذا. قال: على ذلك، ليس كل العلم و عيناه و لا حفظناه. لقد علمنا أمورا فنسيناها، قالوا جميعا: هو أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، قال معاوية: كذلك كنت أسمع من أبي و كان حاضرا في ذلك اليوم: قال: فمن قال حين اختلفت قريش في بنيان مقدم البيت: يا معشر قريش لا تنافسوا و لا تباغضوا فيطمع فيكم غيركم و لكن جزءوا البيت أربعة أجزاء ثم ربعوا القبائل فلتكن أرباعا؟ قالوا: إنه أبو أمية بن المغيرة، قال: هكذا كنت أسمع أبي يقول. قال: فمن القائل حين اختلفت قريش في وضع الركن حكموا بينكم أول من يطلع من هذا الباب؟ قال: أبو حذيفة بن المغيرة.

قال: نعم! قال: فمن نفر الذين رفعوا الثوب حين وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

جدك عتبة بن ربيعة أحدهم، قال: كذلك كنت أسمع أبي يقول. قال: فمن كان من الربع الثاني؟ قالوا: أبو زمعة بن الأسود بن المطلب قال: كذلك كنت أسمع أبي يقول. قال: فمن كان في الربع الثالث؟ قالوا: أبو حذيفة بن المغيرة. قال:

كذلك كنت أسمع أبي يقول. قال: فمن كان في الربع الرابع؟ قالوا: أبو قيس بن عدي السهمي، قال: هذه واحدة قد أخذتها عليكم العاصي بن وائل، قال:

فمن قال يا معشر قريش لا تدخلوا في عمارة بيت ربكم إلا طيبا من كسبكم؟

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٥

قالوا: أبو حذيفة بن المغيرة، قال: هذه أخرى قد أخذتها عليكم القائل هذا و المتكلم به أبو أحيحة سعيد بن العاصي، قال: فأسكت

القوم.

جاء في مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا ما يأتي:

لما اختلفت قريش فيمن يضع الحجر الأسود في محله حين بنائهم الكعبة ورضوا أن يحكموا بينهم أول رجل من باب المسجد، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرضوا به، فوضعه في ثوب و أخذ كل قبيلة بناحية حتى إذا بلغوا به موضعه أخذه هو بيده الشريفه و وضعه فيه ثم بنى عليه. و في ذلك يقول هبيرة بن وهب:

تشاجرت الأحياء في عضل حطه جرت طيرهم بالخس من بعد أسعد

تلاقوا بها البغضاء بعد مودة و أوقد نارا بينهم شر موقد

فلما رأينا الأمر قد جد جده و لم يبق شيء غير سل المهند

رضينا و قلنا العدل أول طالع يجيء من البطحاء من غير موعد

فجاجنا هذا الأمين محمد فقلنا رضينا بالأمين محمد

بخير قريش كلها أمس شيمه و في اليوم مهما يحدث الله في غد

فجاء بأمر لم ير الناس مثله أعم و أرضى في العواقب و اليد

أخذنا بأطراف الرداء و كئنا له حقه من رفعه قبضة اليد

و قال ارفعوا حتى إذا ما علت به أكفهم و افي به خير مسند

و كل رضينا فعله و صنيعه فأعظم به من رأى هاد و مهتد

و تلك يد منه علينا عظيمة يروح بها هذا الزمان و يفتدى

قال ابن كثير في تفسيره رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ما نصه:

ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمدد طويله، و قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس سنين، و قد نقل معهم في الحجارة و له من العمر خمس و ثلاثون سنة، صلوات الله و سلامه عليه دائما إلى يوم الدين.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: و لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا و ثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنان الكعبة و كانوا يهمون بذلك، ليسقفوها و يهابون هدمها، و إنما كانت رضما فوق القامة فأرادوا رفعها و تسقيفها، و ذلك أن نفرا سرقوا كنز الكعبة و إنما كان يكون في بئر جوف الكعبة، و كان الذي

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٦

وجد عنده الكنز دويك مولى بنى مليح بن عمرو من خزاعة فقطعت قريش يده، و يزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك، و كان البحر قد رمى بسفينه إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها، و كان بمكة رجل قبلى نجار فهيا لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها، و كانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة و كانت مما يهابون، و ذلك أنه كان لا يدنوا منها أحد إلا احزألت و كشت و فتحت فاها فكانوا يهابونها، فبينا هي يوما تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث الله تعالى إليها طائرا فاخطفها فذهب بها، فقالت قريش: إنا لنرجوا أن يكون الله قد رضى ما أردنا، عندنا عامل رفيق و عندنا خشب و قد كفانا الله الحية، فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها و بنائها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران ابن مخزوم فتناول من الكعبة حجرا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيها مهر بغي و لا بيع ربا و لا مظلمة أحد من الناس، قال ابن إسحاق: و الناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم.

قال: ثم إن قريشا تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم و قبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي و لبني أسد ابن عبد العزى بن قصي و لبني عدى بن كعب ابن لؤى و هو الحطيم، ثم إن الناس هابوا هدمها و فرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدوكم في هدمها، فأخذ المعول ثم قام عليها و هو يقول: اللهم لم ترع، اللهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة و قالوا ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً و رددناها كما كانت، و إن لم يصبه شيء فقد رضى الله ما صنعنا، فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله فهدم و هدم الناس معه، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس أساس إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، أفوضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً، قال: فحدثني بعض من يروى الحديث أن جلا من قريش ممن كان يهدمها، ادخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٧

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن يعنى الحجر الأسود فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا و تخالفوا و أعدوا للقتال، ففرت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم و بنو عدى ابن كعب بن لؤى على الموت، و أدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا «لعقة الدم»، فمكثت قريش على ذلك أربع ليالي أو خمسا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا و تناصفوا، فزعم أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم و كان عامئذ أسن قريش كلهم قال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه، ففعلوا فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما رآه قالوا: هذا الأمين رضينا هذا محمد، فلما انتهى إليهم و أخبروه الخبر قال صلى الله عليه و سلم: هلم إلى ثوبا، فأتى به فأخذ الركن يعنى الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده صلى الله عليه و سلم ثم بنى عليه، و كانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل أن ينزل عليه الوحي الأمين، فلما فرغوا من البنيان و بنوها على ما أرادوا، قال الزبير بن عبد المطلب فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها:

عجبت لما تصوبت العقاب إلى الثعبان و هى لها اضطراب

و قد كانت يكون لها كشيخ و أحيانا يكون لها وثاب

إذا قمنا إلى التأسيس شدت تهيبنا البناء و قد تهاب

فلما أن خشينا الرجز جاءت عقاب تتلب لها انصباب

فضممتها إليها ثم خلت لنا البنيان ليس لها حجاب

فقمنا حاشدين إلى بناء لنا منه القواعد و التراب

غداة نرفع التأسيس منه و ليس على مساوينا ثياب

أعز به المليك بنى لؤى فليس لأصله منهم ذهاب

و قد حشدت هناك بنو عدى و مرة قد تقدمها كلاب

فبوأنا المليك بذاك عزاء عند الله يلتمس الثواب

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٨

قال ابن إسحاق: و كانت الكعبة على عهد النبي صلى الله عليه و سلم ثمانى عشر ذراعاً، و كانت تكسى القباطى ثم كسيت بعد البرود، و أول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف. انتهى كل ذلك من تفسير ابن كثير، رحمه الله تعالى.

نقول: و السبب الذى دفع بنى عبد الدار إلى إحضار جفنة مملوءة بالدم و إدخال أيديهم فيها و تعاقدهم مع بنى عدى بن كعب بن

لؤى على الموت، هو أن بنى عبد الدار هم من أشرف قريش، فإنهم من ذرية قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي صلى الله عليه وسلم وقصي كان ملكا على مكة المشرفة وبيده أمر البيت الحرام، وقد خلف من الأولاد أربعة وهم: (١) عبد مناف، وهو الجد الثالث لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) وعبد الدار، وهو سادن البيت الحرام وبيده مفتاح الكعبة، ومن ولده عثمان بن طلحة، وهو الذى أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة ولابن أخيه شيبه بن عثمان بن أبى طلحة رأس الشيبين، وقال: «خذوها يا بنى أبى طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم» (٣) وعبد العزى، وهو جد الأسديين ومنهم أم المؤمنين خديجة، رضى الله تعالى عنها (٤) وعدى، ومنه قريش الظواهر.

وحيث إن بنى عبد الدار هم سدن الكعبة وبيدهم مفتاحها، فقد رأوا أنهم أولى الناس برفع الحجر الأسود ووضعه فى محله من البيت، وأخذتهم الحمية والحماسة لذلك واستعدوا لقتال من يمنعهم عن رفع الركن الأسود، وتعاهدوا مع بنى عدى بن كعب على الموت على جفنة الدم، واختيارهم لبنى عدى بن كعب فى المعاقدة، لأنهم شركاؤهم فى شق الحجر وهو الحطيم، عندما جزأت قريش الكعبة كما تقدم بيانه، لكن هذه الغمة قد انجلت وانكشفت بفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعظيم حكمته، حيث رضى الجميع به حكما وقاموا باتباع رأيه السديد، وكفى الله عباده القتال.

الخلاصة فى كيفية بناء قريش

فخلاصة الكلام المتقدم كما ذكرناها فى كتابنا «مقام إبراهيم عليه السلام» المطبوع بمصر: هى أن قريشا بنت الكعبة قبل بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بخمس سنين على الأشهر، أى سنة خمس وثلاثين من ولادته عليه الصلاة والسلام، ولقد اشترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قريش فى بناء بيت الله المعظم فكان يحمل الحجارة على التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٩

كتفه ولما وصل البناء إلى محل الحجر الأسود اختلفوا فيما بينهم على من يضعه فى مكانه ثم اتفقوا على أن يضعه النبي الأمى الأمين فوضعه صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة وأحكم محله كما هو مفصل فى كتب السير، ثم إن قريشا نقصوا من عرض الكعبة من جهة الحجر ستة أذرع وشبرا لقلبة النفقة الحلال التى جمعوها لعمارتها وأداروا على الحجر جدارا قصيرا يطوف الناس من ورائه، وجعلوا بابها مرتفعا عن الأرض وكبسوه بالحجارة حتى لا تدخل السيول فيها وحتى يدخلوا فيها من شأؤوا ومنعوا من أرادوا وجعلوا الباب مصراعا واحدا وأبقوا فيها جب الكعبة، أى خزانتها التى يلقى فيها ما يهدى إليها، وجعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفين فى كل صف ثلاث دعائم، وجعلوا لها سقفا وميزابا من الجهة الشمالية مصبة على حجر إسماعيل عليه السلام، وكانت قبل ذلك بلا سقف، وجعلوا ارتفاعها من الأرض إلى السماء ثمانية عشر ذراعا، وجعلوا لها ركنين، ولم يجعلوا لها أركانا من جهة الحجر بل جعلوها مدورة على صفة بناء إبراهيم عليه السلام، وكان الناس كذلك يبنون بيوتهم مدورة تعظيما للكعبة. فأول من بنى بيتا مربعا حميد بن زهير فقالت قريش: ربع حميد بيتا إما حياة وإما موتا. وبعد أن تم بناؤها كسوها كسوة معتبرة.

وسبب بناء قريش للكعبة: أن امرأة منهم أجمرت الكعبة فطارت شرارة مجمرتها فى كسوتها فاحترقت وتصدعت وتوهنت جدارنها من كل جانب، وكانت الكعبة قبل بناء قريش مبنية برضم يابس ليس بمدرد، تدلى الكسوة على الجدر من خارج وتربط من أعلى الجدر من باطنها. فبنتها قريش بالطين والذى بناها لهم اسمه «باقوم الرومى» وقد بنت قريش الكعبة من جبل حراء ومن جبل ثبير ومن المقطع، ومن قافية الخندمة، ومن جبل عند الثنية البيضاء فى طريق جدة، ومن جبل بأسفل مكة يقال له مقلع الكعبة، ومن مزدلفة من حجر بها يقال له المفجر كما فى تاريخ الأزرقى، وفيه قال مسلم بن خالد: ولم يثبت أنها بنيت من غير هذه الأجل.

- ١- بنت قريش الكعبة المعظمة قبل بعثه رسول الله صلى الله عليه و سلم بخمس سنين على الأشهر. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٠
- ٢- كان عليه الصلاة و السلام، يبنى معهم و يحمل الحجارة على عاتقه.
- ٣- و بنت قريش الكعبة المعظمة على أساس بناء إبراهيم عليه الصلاة و السلام.
- ٤- و نقصوا من عرض الكعبة من جهة حجر إسماعيل ستة أذرع و شبرا، كما هي عليه اليوم.
- ٥- و زادوا في ارتفاعها من الأرض إلى السماء فصار ثمانية عشر ذراعا.
- ٦- و جعلوها مدورة من جهة حجر إسماعيل فقط كما كانت في بناء إبراهيم عليه السلام.
- ٧- و أبقوا فيها جب و خزانها كما كانت.
- ٨- و أداروا على حجر إسماعيل جدارا قصيرا، و كان في بناء إبراهيم من شجر الأراك.
- ٩- و رفعوا باب الكعبة عن الأرض و كبسوه بالحجارة، حتى لا تدخلها السيول و لا يدخلها كل إنسان.
- ١٠- و جعلوا بابها مصراعا واحدا يقفل و يفتح.
- ١١- و جعلوا لها سقفا و ميزابا لتصريف مياه الأمطار من سطحها يكون مصبها في الحجر.
- ١٢- و جعلوا في داخل الكعبة ست دعائم في صفين في كل صف ثلاث دعائم من الشق الشامي الذي فيه حجر إسماعيل إلى الشق اليماني.
- ١٣- و جعلوا في داخلها من الركن الشامي درجة من خشب من الركن الشامي يصعد فيها إلى ظهرها.
- ١٤- و بنوها بالطين و كانت من قبل مبنية بالرضم، بناها لهم باقوم الرومي، و كسوها كسوة جميلة، و كانت الكسوة على الكعبة من قبل هذه البناية و من بعدها.
- ١٥- و زوقوا سقفها و جدرانها من بطنها و دعائمها، و رسموا في دعائمها صور الأنبياء و الملائكة و الشجر، فلما كان يوم الفتح أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بطمس تلك الصور فطمست.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤١

ترجمة الوليد بن المغيرة المخزومي

الوليد بن المغيرة هو عم أبي جهل، كان من عظماء قريش و كان ميسور الحال في سعة من العيش مات كافرا، و لما بنت قريش الكعبة و هابوا من هدمها، كان هو أول من بدأ في هدمها، فأخذ المعول ثم قام على الكعبة و هو يقول: اللهم لم ترع اللهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس في تلك الليلة و قالوا: ننظر إن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت، و إن لم يصبه شيء فقد رضى الله ما صنعنا فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله فهدم و هدم الناس معه، و هو الذي قال: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنیان الكعبة من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيها مهر بغى و لا يبيع ربا و لا مظلمة أحد من الناس. و قيل: قائل ذلك هو أبو وهب بن عمرو ابن عائذ و هو خال عبد الله و والد النبي صلى الله عليه و سلم و الله تعالى أعلم.

و لما بعث الله عز و جل نبينا محمدا صلى الله عليه و سلم إلى الناس كافة ليخرجهم من الظلمات إلى النور، و جهر بالدعوة الى عبادة الله تعالى و ترك الأصنام، ناصبته قريش العدا و استهزؤا به و آذوه، فكان منهم الوليد بن المغيرة المذكور، و من العجيب أنه كان عاقلا- فطنا ذكيا لبيبا، و مع ذلك لم يرشده عقله إلى الخير و المبادرة إلى الإيمان بالله و رسوله. لقد سمع مرة القرآن من رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال لقومه بنى مخزوم: و الله لقد سمعت من محمد آتفا كلاما ما هو من كلام الإنس و لا من كلام الجن، و إن له لحلاوة و إن عليه لطلاوة، و إن أعلاه لمثمر و إن أسفله لمغدق، و إنه يعلو و لا يعلو.

فقال قريش: صبا و الله الوليد، لتصبأن قريش كلها، فقال أبو جهل أنا أكفيكموه، فتوجه و قعد حزينا و كلمه بما أحماه، فقام الوليد فأتاهم فقال:

ترعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يهوس، و تقولون أنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن، و ترعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى الشعر قط، و ترعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهم لا، ثم قالوا فما هو؟ ففكر قليلا ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل و أهله و ولده و مواليه، فارتجج النادى فرحا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٢

إن الوليد لو مضى على تأمله و تفكره لهداه عقله إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه و سلم، و لكن استحوذ عليه الشيطان فنكص على عقبيه و استمسك بدين قومه، و اشتدت عداوته لرسول الله صلى الله عليه و سلم، و كثر فساده و صد عن سبيل الله فضل و أضل و لذلك اشتد غضب الله عليه فأنزل في شأنه بعض آيات في سورة المدثر، فقال عز شأنه و جل جلاله: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَ بَنِينَ شُهُودًا وَ مَهَدْتُ لَهُ تَمَهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِنِيدًا سَأَرْهُقُهُ صِعُودًا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ أَذْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصَلِّيهِ سِقْرًا وَ أَنْزَلَ أَيْضًا فِي حَقِّهِ بَعْضَ آيَاتِ فِي سُورَةِ الْقَلَمِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى: وَ لَا تَطْعُ كُلَّ حَلَاْفٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَ جَلَّ: إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطوم.

لم يزل الوليد بن المغيرة على كفره و طغيانه، لا يرتدع و لا يعتبر و لا ينزجر و لا يفتكر، حتى وافاه الأجل المحتوم و أنه لما حضرته الوفاة جزع جزعا شديدا، و كان عنده أبو جهل، فقال له ما جزعك يا عم؟ فقال الوليد: و الله ما بي من جزع من الموت و لكن أخاف أن يظهر دين ابن أبي كبشة، فقال له أبو سفيان:

لا تخف، إنى ضامن أن لا يظهر. ثم مات الوليد و كان موته بمكة في السنة الأولى من الهجرة.

فانظر عافانا الله و إياك من الأمراض الظاهرة و الباطنة و الحسية و المعنوية، إلى هذا الضلال المبين الذى ذهب اليه الوليد بن المغيرة، و إلى عظيم كفره و شدة كراهيته لدين الإسلام، و لرسول السلام إلى جميع الأنام، عليه أفضل الصلاة و أتم السلام أنه في حال احتضاره لا يجزع لموته و مفارقة أهله و أولاده، و لكنه يجزع و يخاف من ظهور الإسلام، إنه يصرح بذلك في لحظة مفارقتة للدينا، بدلا من أن يندم و يتوب و يستغفر، فالحمد لله الذى شرح صدورنا للإسلام و زين فى قلوبنا الإيمان و الخير و التقوى، و كره إلينا الكفر و الفسوق و العصيان، اللهم صل و سلم و بارك على عبدك و نبيك سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٣

ترجمة قريش

العرب صفوة البشر و قريش قلب العرب و صفوتها، و لا- يمكننا الإسهاب فى بيان فضلها و أنسابها و قبائلها، لأن ذلك يحتاج إلى مؤلف خاص، و إنما نذكر عن قريش نبذة يسيرة لمناسبة بنائها الكعبة المشرفة ملخصا من كتاب العقد الفريد و غيره فنقول: كانت قريش تدعى النضر بن كنانة، و كانوا متفرقين فى بنى كنانة، فجمعهم قصى بن كلاب الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم من كل أوب إلى البيت فسموا قريشا، و التقريش: التجميع، و يسمى لذلك قصى بن كلاب مجمعا، قال فيه الشاعر:

قصى أبو كم من يسمى مجمعا به جمع الله القبائل من فهم

و كانت قريش تسمى آل الله و جيران الله و سكان الله، و فى ذلك يقول عبد المطلب بن هاشم:

نحن آل الله فى ذمته لم نزل فيها على عهد قدم

إن للبيت لربا مانعا من يرد فيه بإثم يخترم

لم تزل لله فينا حرمة يدفع الله بها عنا النقم

و لقد ورد في فضل قريش جملة أحاديث منها: قوله صلى الله عليه وسلم: «الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها، وفجارها أمراء فجارها، وإن أمرت عليكم قريش عبدا حبشيا مجدعا فاسمعوا له وأطيعوا ما لم يخير أحدكم بين إسلامه و ضرب عنقه، فإن خير بين إسلامه و ضرب عنقه فليقدم عنقه». رواه الحاكم في المستدرک و البيهقي في سننه.

و قوله عليه الصلاة و السلام: «قدموا قريشا و لا تقدموها» و قوله صلوات الله و سلامه عليه: «إن الله تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، و اصطفى من ولد إسماعيل كنانة، و اصطفى من كنانة قريشا، و اصطفى من قريش بنى هاشم، و اصطفاني من بنى هاشم» و قوله عليه الصلاة و السلام: «إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خير فرقهم و خير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني في خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسا و خيرهم بيتا».

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٤

هذا و لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء قريش الكعبة، فكان ينقل الحجارة مع قريش، كما حضر بناءها نخبه من رؤساء قريش و وجهائها منهم الوليد بن المغيرة، و هو أول من علا الكعبة و هدمها و قال: اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح، ثم تبعته قريش فهدموا معه بعد أن هابوا هدمها أولا، و أبو جهل و قد حضر بناء ابن الزبير أيضا و ستأتي ترجمته، و العباس ابن عبد المطلب، و أبو أمية بن المغيرة، و عتبة بن ربيعة، و أبو زمعة بن الأسود ابن المطلب، و العاص بن وائل، و أبو حذيفة بن المغيرة، و أبو وهب بن عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم، و أبو سفيان، و أبو أحيحة سعيد بن العاص.

و غيرهم ممن لم نبحت عن أسمائهم حيث لم نقصد حصرهم، و إنما ذكرنا هؤلاء للعلم بهم في الجملة، و لم نتعرض لتراجمهم حتى لا يطول بنا الكلام.

و في الأزرقى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعثمان بن طلحة يوما و هو بمكة يدعو إلى الإسلام و مع عثمان مفتاح الكعبة فقال صلى الله عليه وسلم: «لعلك ستري هذا المفتاح يوما بيدي أصنعه حيث شئت» فقال عثمان: لقد هلكت قريش يومئذ و ذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل عزت و عمرت يومئذ يا عثمان» اه.

ثم لما كان يوم الفتح أخذ صلى الله عليه وسلم المفتاح من عثمان بن طلحة ففتح الكعبة و دخلها ثم لما خرج و المفتاح في يده دعا عثمان و دفعه إليه و قال: خذوها يا بنى طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم.

و لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف و حاصرها ثم رجع قبل فتحها طلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف فقال: (اللهم اهد ثقيفا و ائت بهم مسلمين).

و مثل ذلك في قريش اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون. و مثله حين فتح مكة بل عزت قريش.

ترجمة باقوم الرومي

كان باقوم الرومي نجارا بانبا يتجر جهة ساحل عدن، فحمل في سفينة خشبا فلما وصل إلى الشعيبة قبل جدة تبعد عنها مرحلتين، و هي معروفة إلى اليوم، انكسرت السفينة فسمعت بها قريش فاشترتوا خشبها لسقف الكعبة، و أذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة ليبيعوا ما معهم من المتاع على أن لا يعشروهم، و اتفقوا مع باقوم أن يقدم معهم مكة و بينى لهم الكعبة بنيان الشام، فلما بنوا الكعبة و بلغوا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٥

السقف قال لهم باقوم: أتحبوا أن تجعلوا سقفها مكبسا أو مسطحا فقالوا: بل ابن بيت ربنا مسطحا فبنوا مسطحا، و معنى مكبسا: محدبا كالقبة.

هذا جزء من ترجمة باقوم الرومي، ثم رأينا أن الأستاذ الكبير وزير المعارف المصرية الأسبق، قد كتب عن «باقوم الرومي» قصة طريقة

حلوة بقلمه البليغ و بلون من الأدب الرفيع، في الجزء الثاني من كتابه «على هامش السيرة» بعنوان «حديث باخوم» بالخاء المعجمة. قال حفظه الله تعالى بعد أن ذكر في الحكاية ما دار من الحديث بين القوم و القسيس عند اجتماعهم للسمر جزءا يسيرا ما يأتي:

و هنا تكلم «باخوم» فخفت الأصوات و أنصت الناس، و كان «باخوم» شيخا من شيوخ القرية، قد عرف بطول الصمت خارج الكنيسة و كثرة الصلاة إذا كان فيها، كما عرف بالوقار و الأناة إذا تحرك أو تكلم، و كما عرف بهذه الهيبة التي كانت تفيض على وجهه، و هذه المحبة التي كانت تجذب إليه الناس.

و كان «باخوم» رجلا- قد طوف في الأرض أول شبابه فأكثر التطويف و لم يكن يلم بقرئته إلا ليمكث فيها العام أو بعض العام، ثم يرتحل عنها فيغيب عنها الأشهر حيناً، و العام حيناً آخر، و ربما امتدت غيبته فبلغت العامين، و لكنه كان ينتهي دائما بالعودة إلى قريته و الإقامة فيها حيناً. و كان لا يعود إلا و معه فضل من مال يبر به خاصته و ذوى قرباه، و يحسن به إلى الفقراء و البائسين، و شىء من الطرف النادرة يتحف به الأغنياء و أصحاب اليسار.

و كان قد نشأ عاملا- يرافق البنائين حتى تعلم صناعتهم، و أحسن من فنونهم ما يحسن أهل القرى، و كان ذلك لم يكفه و لم يغنه، فارتحل إلى المدن فوجد فنه شيئا، ثم أخذ يتنقل بفنه من مدينة إلى مدينة، و من إقليم إلى إقليم حتى جاب أرض مصر كلها. و كان كلما أحسن من فنه شيئا طمع في أن يضيف إحسانا إلى إحسان، و يرقى بفنه من طور إلى طور، حتى تسامع الناس به، و دعاه الأغنياء و أصحاب الثراء، في إقليمه و في غير إقليمه ليشرف على ما كانوا يريدون أن يشيدوا من الدور و القصور و كأنه قد عرف ما كان عند المصريين من فن البناء، و حذق من ذلك ما كانوا يحذقون. ثم لم يكفه ما عرف، و لم يرضه ما أتقن فأبعد في الرحلة و تجاوز مصر إلى غيرها من البلاد المجاورة، و لكنه استبقى عادته و حفظ لقرئته عهدا، فكان يبعد في الرحلة و يطيل الغيبة حتى يستئس أهل القرية من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٦

عودته، و يظنوا أنه قد هلك في بعض الطريق، أو عدت إليه عاديات الدهر في بعض أقطار الأرض، و لكنهم يرونه ذات يوم و قد أقبل عليهم مع الصباح أو مع المساء، هادئ النفس دائما و قورا في حركاته و كلامه دائما، طويل الصمت خارج الكنيسة كثير الصلاة إذا كان فيها، يحمل فضلا من مال يبر به الفقراء و البائسين، و شيئا من الطرف يتحف به الأغنياء و الموسرين، و قد كان أول أمره يحب الفن و يكلف بالعمارة و البناء و لكن إلحاحه في السفر و تجوئيه للآفاق قد أضافا إلى هذا الحب الفنى شيئا آخر، هو حب الرحلة في نفسها و الكلف بزيارة البلاد المختلفة و الإلمام بالأجيال المتباينة من الناس.

فكان يرتحل للبناء أول الأمر، ثم أصبح يرتحل لا- لشىء إلا لأن نفسه لا تستطيع أن تسلو عن الرحيل، و كان في أول أمره ينتهز الفرص و يتلمس العلل و المعاذير لما كان يزعم من رحلة أو يعتزم من سفر، فكان يصحب القوافل إلى هذا الوجه أو ذاك من وجوه الأرض. و لكنه انتهى آخر الأمر إلى أن يستقل بتدبير أمره و يهوى أسفاره لا يلتمس لذلك علة و لا ينتحل له معذرة، و لا يصحب هذه القافلة أو تلك، و إنما يعود من رحلة إلى بلدة فلا يكاد يستقر في قريته حتى ينبئ الناس بأنه مرتحل إلى بلد آخر، يسميه لهم تسمية العالم به الملم من أمره بما لا يعرفون.

و قد عاد إليهم ذات مرة من بعض أسفاره في بلاد الروم، فلما أقام فيهم شهرا أو بعض شهر أنبأهم بأنه يريد أن يركب هذا البحر الذي لا- يركبه الناس إلا- قليلا و أن يرى ما ينبث على سواحه من المدن، و من يعيش حوله من أجيال الناس، و قد سمع من أمر هذه الأجيال و تلك المدن أعاجيب، منها ما يقبله العقل و منها ما لا يستطيع الإنسان له تصديقا. و هو يعلم على كل حال أن شرقي هذا البحر و غير بعيد من ساحله تقوم مدينة قديمة، يسكنها قوم صالحون يعرفون المسيح و يؤمنون به و يخلصون لدينه، و قد امتحنوا في دينهم بأعظم الشر و أشنع النكر فصبروا على المحنة و ثبتوا للخطب و اصطلوا النار التي حرقهم بها اليهود تحريقا. و هو يعلم أن قيصر قد رق لهؤلاء الناس و غضب لما أصابهم من الشر، فأنجدهم و أغاثهم و ثار لهم من اليهود. و هو يريد أن يزور هذه المدينة، و يرى

هؤلاء الناس الصالحين الذين عذبوا في الدين، و يود لو استطاع أن يقيم لهم كنيسة و يترك في مدينتهم تلك أثرا يتقرب به إلى الله.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٧

و كان أهل القرية يسمعون حديثه، فمنهم من يزين له المضى فيما عزم عليه، و منهم من يصده عن ذلك و يرغبه في لين العيش و استقرار الحياة، و لكنه كان يسمع لأولئك و لهؤلاء، و لا يرد على أولئك و لا على هؤلاء رجح الحديث، و إنما كان يمشى في تدبير أمره كما قدر هو أو كما قدر الله له، لا كما أرادته الناس عليه.

و أصبح القوم ذات يوم فإذا «باخوم» قد تهيأ للرحلة كما تعود أن يفعل و إذا هو يفارقهم، فتتصل غيبته و تتصل، و تمشى الأعوام دون أن يسمعو من أمره شيئا، حتى يستئسوا من عودته ثم تمشى الأعوام و قد تسلوا عنه و كادوا ينسونه، و جعلوا لا يتحدثون عنه إلا قليلا، و جعلوا إذا ذكروه رقت أحاديثهم عنه، و حسن ذكروهم له، و كثر إشفاقهم عليه كدأب الناس حين يذكرون فقيدا كريما كانوا يحبونه و يؤثرونه، ثم حالت بينهم و بينه الخطوب، فأخذوا يتعزون عنه و يذكرونه ذكرا جميلا.

ثم يتسامع أهل القرية ذات يوم بأن «باخوم» قد عاد إليهم بعد أن غاب عنهم عشر سنين، فينكرون أول الأمر ثم يعرفون بعد أن يروا صاحبهم كعهدهم به إلا أن السن قد تقدمت به، و ظهر أثر ذلك في هذا الشيب الذي جلل رأسه، و في هذا الهدوء الذي عظم حظه منه، و في هذا الصمت الذي اشتد إمعانه فيه، و في شيء آخر جديد لم يكونوا ينتظرونه منه، و هو إعلانه إليهم أنه لن يرحل عن قريته بعد هذه المرة، بل سيظل بينهم يشاركهم في الحياة حتى يقضى الله فيه بما يشاء.

و كان أهل القرية يكلفون بحديث «باخوم» و يشغفون بالاستماع له، و ليس من شك في أن أولى الجد منهم كانوا ينتظرون أن تنقضى هذه الدعابة بين الفتیان و أبيهم القسيس الشيخ ليطلبوا إلى «باخوم» أن يطرهم بشيء من أبناء رحلته الطويلة الأخيرة فإنه لم يقص عليهم منها شيئا.

و لم يطمئن أهل القرية قط إلى محدث أو قاص كما اطمأنوا إلى هذه الرحالة من أبناء قريتهم، فقد كانوا يعرفون فيه الصدق و الأمانة و التواضع و الاعتدال و لم يعرفوا قط أنه تزيد أو تكثر أو اعتر بما رأى أو شهد و ما كان أكثر ما رأى و ما شاهد فلما سمع أهل القرية صوته تدانوا منه، و أصغوا إليه، و كف الفتیان عن دعابتهم و رددوا ضحكهم إلى صدورهم و لم يتموه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٨

و كان «باخوم» يتكلم بصوت هادئ غليظ بعض الشيء، عميق أشد العمق كأنه يأتي من أقصى ضميره، فكانت الكلمات التي يحملها هذا الصوت الرزين العميق إلى آذانهم لا- تكاد تبلغ آذان القوم حتى تنفذ منها مسرعة إلى قلوبهم، و تستقر فيها و تملؤها عجا و إعجابا، قال باخوم: «أما أنا فقد رأيت الشيطان، ما أشك في ذلك و لا أرتاب و رأيت في قصة غريبة وقعت لي في رحلتي هذه الأخيرة منذ عامين» و سكت قليلا، ثم استأنف حديثه قائلا: «نعم منذ عامين، و قد امتلأت بها نفسى حتى كأنها لم تقع إلا أمس و قد اتصل بها قلبي فطمع في تجددتها أشد الطمع، و رجا تكررها أشد الرجاء، حتى كأنها ستكون غدا، و هي آخر ما رأيت من أسفارها من عجيب الأمر، و ما أرى إلا- أنها آخر ما سارى في حياتي من عجيب الأمر، إلا أن تمتد بي الأيام إلى أكثر مما أقدر و ما يقدر أمثالي لأنفسهم من السن.

«و ما أشد ما أتمنى ذلك، و ما أشد ما أحرص عليه، لا لأنى أحب الحياة أكثر مما يحبها الناس، أو أرغب في البقاء أكثر مما يرغب فيه الناس، بل لأنى موقن بأن لهذه القصة شأنا، و بأنها قد أنبأت عن شيء سيكون، و ما أشد شوقى إلى أن أشهد تحقيق هذا النبأ، و ظهور هذا الحدث العظيم».

و تصور أيها القارئ أثر هذه الجمل التي كانت تصدر عن «باخوم» ملتبهة، فتحرق قلوب المستمعين له تحريقا، تصور أثر هذه الجمل في تشويق أهل القرية إلى هذه القصة التي سيطرفهم بها هذا الشيخ. و إنهم ليريدون أن يتعجلوه، و لكنه مطرق مغرق في الصمت، و قد اتصلت أبصارهم به، و تعلق قلوبهم بشفتيه، و لبث هو على صمته حيناً، و قد سكن الليل و سكت النسيم، كأنما تريد الأرض و

السماء و هذه النجوم المتألقة، و هذا النيل الذى يسعى هادئا من بعيد، أن تستمع له و تستمتع بحديثه، كما يستمع له هؤلاء الفلاحون فى قرية من قرى الصعيد.

قال باخوم بعد ساعة: « كان ذلك منذ عامين حين انتهت بى الأسفار إلى مكة، تلك القرية التى تسمعون ذكرها أحيانا حين تفد علينا قوافل قريش تحمل إلى مصر تجارة اليمن و الهند. فقد ألممت بها، و إن لى من أهلها لبعض الصديق و كنت أريد أن أفضى فيها أشهراً ثم أرحل مع قافلتهم إلى اليمن لأبلغ تلك المدينة الصالحة التى يسكنها قوم صالحون قد فتنوا فى المسيح، فصبروا على الفتنة، و كنت أريد أن أقيم لهم كنيسة و أترك فيها أثرا باقيا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٩

«فما أفضى فى مكة شهرا و بعض الشهر حتى يتوسل إلى بعض الصديق من قريش فى أن أبني له دارا، فلا أمتنع عليه، و إنما أجيئه إلى ما أراد و فاء ببعض ما بيننا من المودة، و أداء لبعض ما لهؤلاء الناس على من حق. و قد صحبتهم فى سفر شاق بعيد فحمونى و حاطونى و رفقوا بى و وفوا لى بدمتهم، و أكدوا لى صادقين أنهم سيبلغوننى نجران إذا ارتحلوا إلى اليمن، و سيردوننى إلى ما منى إذا عادوا إلى بلاد الروم، فلم يكن بد إذا من أن أستجيب لصديقى فأقيم له داره التى أراد أن بينها.

و ما هو إلا- أن يكون التنافس بين القوم فهؤلاء نفر من سراتهم و عظمائهم يتوسلون إلى فى مثل ما توسل إلى ذلك الصديق فيه و كلهم يعظم لى الأجر، و يهدى إلى ما استطاع من الخير. و إنى لفى ذلك أجيب منهم من أستطيع إجابته راضيا مسرورا يارضاء هؤلاء القوم الكرام، و بمعاودة المهنة بعد أن طال إهمالى لها و اعراضى عنها، و إذا خاطر يخطر للملأ من قريش ذات ليلء و هم يسمرون فيفكرون فيه ثم يفكرون ثم يستأنفون به، ثم يعودون إليه، ثم يؤخرونه ثم يستأنفون النظر فيه، ثم يفضون إلى به على أنه شىء يريدونه و تتمناه قلوبهم و لكنهم لا يجروون عليه. يشفقون أن يكون فى الإقدام عليه ما يغضب آلهتهم، و يجر عليهم ما يكرهون. رأوا بيتهم ذاك الذى يقدسونه و يعبدون ربهم فيه قد طال عليه العهد و بعدت به الأيام، و ظهر عليه الوهن، و تعرض لأخطار السيل، و اجترأ عليه اللصوص فسرقوا بعض ما فيه من متاع فتساءلوا ألا يكون من الخير أن يهدموا بناء هذا القديم و يقيموا لربهم بيتا جديدا فخما متينا، يلائم مكانته فى قلوبهم، و يلائم ثروتهم هذه التى تزداد من يوم إلى يوم، و يلائم هذه الدور التى أخذوا يقيمونها لأنفسهم فخمة متينة، قد يسرت لهم فيها أسباب الترف و النعيم، و لكنهم يفكرون و لا يعزمون يخشون ألا يرضى ربهم عما لا بد لهم منه من هدم البيت إن أرادوا له تجديدا و كان يزيد خوفهم و إشفاقهم و يملأ قلوبهم فزعا و هلعا كلما هموا بالإقدام أن حية كانت تظهر كل يوم فتسعى على جدران البيت صاعدة هابطة دائرة من حوله. و كان منظرها بشعا مخيفا، و كانت إذا دنا منها و إن اتخذت شكلا رهيبا، لا يراه من يدنو منها حتى يرتد عنها مذعورا. فكانوا يخشون أن تكون هذه الحية حارسا لهذا البناء و كانوا يقدرون أنهم إن أتوا رأيهم و أنقذوه لم يدنو من البيت ليأخذوا فى الهدم حتى تردهم عنه مدحورين و إنهم لفى أنديتهم حول البيت ذات يوم و إذا الحية قد خرجت من مخبئها و جعلت تزحف كدأبها، و جعلوا هم ينظرون إليها مروعين، و إذا عقاب تهوى من السماء فتأخذ

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٠

الحية من ذنبها، ثم ترتفع بها فى السماء و هم ينظرون و يعجبون، و قد غابت عنهم العقاب. فما يشكون فى أن ربهم قد أذن لهم فى أن ينفذوا ما عزموا عليه و قد أحسوا بعد هذا الحادث شجاعه و إقداما، و جعلوا يدبرون أمرهم بينهم، و يدبرون ما لا بد من تدبيره لبناء هذا البيت.

«و إنهم لفى ذلك و إذا الأنباء تصل إليهم ذات صباح بأن سفينة من سفن الروم قد طغى عليها البحر، و عبث بها الموج، و قصفت بها الريح ثم دفعتها إلى الساحل القريب، فيسرعون إلى البحر، و أسرع معهم، و يرون السفينة و قد عطبت، و اضطر أهلها من الروم و المصريين إلى أشد الخوف و أعظم الهلع، لأنهم دفعوا إلى غير مأمون و وقعوا إلى أرض ليس لهم فيها جار. و لكن قريشا يلقون أصحاب السفينة أحسن لقاء و يؤمنونهم على أنفسهم و أموالهم، و لا يرضون حتى يشتروا منهم هذه السفينة التى أدركها القطب، و

يقولون لى: «إنا نستطيع أن نتخذ من خشب هذه السفينة لبيت ربنا سقفا» و لم يرتابوا بعد ذلك فى أن ربهم قد أذن لهم بهدم البيت و تجديده، ألم يرسل العقاب إلى تلك الحية فتخطفها، ألم يرسل إليهم هذه السفينة منها للبيت سقفا، ألم يرسلنى إليهم لأبنى لهم هذا البيت كما نقيم البناء فى مدن الروم، و كذلك تمت كلمتهم على إنفاذ ما دبروا. و لم أتردد أنا فى أن أكون من بناء البيت عندما يحبون. و كنت أنظر إليهم و إلى ما كانوا يرون و يقدرون فى شىء من العطف عليهم و الابتسام لهم، فهم أصحاب سذاجة لم يألفوا من الحضارة ما ألفنا، و لم يبلوا من خطوب الأمام ما بلونا.

فأيسر شىء يدفعهم إلى التفاؤل، و أيسر شىء يردهم إلى التشاؤم، و أيسر شىء يدعوهم إلى الإقدام، و أيسر شىء يضطرهم إلى الإحجام. و لكنى لم ألبث أن أحسبت ما يحسون من روع، و شاركتهم فيما كان يملك قلوبهم من تردد و اضطراب. حضرتهم ذات يوم و قد أظافوا ببيتهم و جعل بعضهم يؤكد لبعض تقادم العهد به، و إلحاح الزمان عليه، و حاجته إلى التجديد. و يسعى شيخ من شيوخهم حتى يمس حجرا من أحجار البيت ناتئا بعض الشىء فيجذبه بيديه فيجذب، و قد بعد الشيخ بهذا الحجر عن البيت شيئا و هو يحمله فى يده. و لكن ماذا نرى؟ نرى هذا الحجر يفصل عن يد الشيخ، و يمضى وحده فى الهواء حتى يرتد إلى مكانه من البيت كأحسن ما يمكن أن يستقر فى موضعه. و لست أخفى عليكم أنى لم أكن أقل القوم ارتياعا و اضطرابا حين رأيت هذا المنظر البديع، بل ما أشك فى أنى كنت أشدهم ارتياعا و اضطرابا، و أعظمهم حيرة و أعجزهم عن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥١

الفهم و التأويل. ذلك أن هذا الحديث قد روعهم شيئا و لكنه لم يذهب بصوابهم و لم يخرجهم عن أطوارهم و ما أسرع ما فهموا و ما أحسن ما أولوا فقد قال قائلهم: «يا معشر قريش أقدموا على أمركم، و لكن احذروا أن تنفقوا فى هذا البناء مالا جراما، لا تدخلوا فيه من كسبكم إلا طيبا. لا تدخلوا فيه مهر بغي، و لا بيع ربا، و لا مظلمة أحد من الناس».

«ثم غدوا إلى البيت يريدون هدمه، و قد صمموا على ذلك، و لكنهم على تصميمهم لا يجروون، فيندبون شيئا منهم فيرقى إلى البيت، و يبدأ فى الهدم و هو يقول فى لهجة ساذجة كان لها فى نفسى أبلغ الأثر و أبعده: «اللهم لا ترع، إنما نريد الخير». و كان القوم ينظرون إليه معجبين به، مشفقين عليه من إقدامه دون أن يشاركوه فيما أخذ فيه، و إنما أجمعوا أمرهم بينهم أن ينتظروا ليلتهم، حتى إذا أصبحوا رأوا، فإن كان قد نزل بالشيخ مكروه أو ألم به خطب، علموا أن ربهم غاضب، فأصلحوا ما هدم الشيخ و تركوا البيت على حاله. و إن غدا عليهم سالما موفورا علموا أن ربهم راض، فمضوا فى الهدم و أقاموا البناء.

و أصبح الشيخ سليما معافى، فقد أعلى عمله و غدوا معه حتى هدموا البيت.

ثم جعلوا يجمعون الأحجار يسعون فى جمعها بأنفسهم لا يستأجرون لذلك أحدا، و لا يكون ذلك إلى رقيق يرون النهوض بذلك حقا عليهم و شرفا يبقى لهم فى أعقابهم. و أخذت أنا أبنى لهم البيت أقيمه على أسسه القديمة التى لم يمسوها.

و لهم فى هذا البيت حجر يعظمونه و يكرمونه، و يرونه هبة لهم من ربهم فلما بلغ البناء إلى حيث يجب أن يوضع هذا الحجر اختلف القوم بينهم. أيهم يضعه موضعه، فكلهم ابتغى لنفسه هذه المأثرة، و كلهم حرص عليه أشد الحرص، و إذا اختلفهم يستحيل إلى خصومه، و إذا خصومتهم تبلغ من الشر أقصاه، و إذا هم يتلاصون و يتناذرون و يؤذن بعضهم بعضا بالحرب، و قد وقف البناء، و فسد الأمر بين القوم فسادا عظيما، و أقاموا على ذلك أياما و ليالى، و تحالف بعضهم على الشر، فجاءوا بجفنة قد ملئوها بالدم و غمسوا فيها أيديهم و هم يقسمون ليستأثرن بهذا الشرف أو ليموتن من دونه. ثم يجتمع الملاء منهم صباح يوم فيتناهون و يتناصحون، ثم يشير عليهم شيخ منهم بأن يحكموا فى هذه الخصومة أول داخل عليهم من باب من أبواب المسجد يسمونه باب بنى شيبه. فلا يلبثون أن يدخل عليهم من الباب رجل شاب لم يروا أجمل منه طلعة، و لا أعظم منه هيبه، و لا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٢

أحسن منه سيرة فى قومه. سمعت من أنبائه الشىء الكثير، و لكنى استيقنت أنه رجل عظيم الخطر حين رأيتهم ينظرون إلى مقدمه

مبتهجين و يصيحون: «هذا الأمين، قد رضينا، هذا محمد قد سلمنا» ثم يعرضون عليه الخصومة، فما رأيت وقارا كوقاره، و ما رأيت أناة كأناته، و ما رأيت هدوءا كهدهوء نفسه و ما رأيت رجلا أرفق منه بقومه، و أعطف منه عليهم، و أثر منه لهم بالخير. و انظروا إلى قضائه فيهم، فسترون كما أرى أنه لم ينتج عن تفكير إنسان، و إنما كان إلهاما من الله.

«نزع الأمين رداءه فألقاه على الأرض، ثم وضع الحجر في وسطه ثم قال لقومه: «ليتدب من كل ربع من أرباع قريش رجل» فلما اجتمع أربعة نفر يمثلون قومه كلهم، قال: «ليأخذ كل واحد منكم بزوايه من زوايا الرداء»، ففعلوا و اشتركت قريش كلها في رفع الحجر، و تقسمت قريش كلها هذا الشرف العظيم قسمه سواء عدلا، حتى إذا انتهوا إلى البناء آثره ربه بخلاصة هذا الشرف و خير ما في هذه المكرمة، فيأخذ الحجر بيده و يضعه في موضعه و القوم راضون فرحون قد اطمأنت قلوبهم إلى هذا العدل، و استبشروا بما كف عنهم من الشر، و بما عصم لهم من الأنفس و حقن لهم من الدماء و هنا استيقنت أنى رأيت رجلا- هو أحب خلق الله إلى الله و أكرمهم عليه. و لكنى لم ألبث أن رأيت شخصا يجب أن يكون أبغض خلق الله إلى الله، و شرهم عنده مكانة كان رجلا شيخا حسن الطلعة جميل المنظر، عليه وقار و له سمه، و لم أكن قد رأيت في القوم قط و ما كان شكله ملائما لأشكالهم و لا زيه مشاكلا لأزيائهم و لكنى رأيت فجأة لا أدري من أين جاء أنجم من الأرض أم هبط من السماء؟

أقبل هذا الشيخ النجدى يناول الأمين حجرا يثبت به الركن الأسود في موضعه فيقبل رجل من عموه الأمين فيأبى على هذا النجدى و ينحيه و يدفع إلى الأمين الحجر الذى يشد به البناء، هنالك غضب الشيخ النجدى فقال له الأمين:

«إنه ليس بينى معنا فى هذا البيت إلا من كان منا» فجعل النجدى يقول: «يا عجباً لقوم أهل شرف و عقول و سن و أموال عمدوا إلى أصغرهم سنا و أقلهم مالا، فرأسوه عليهم فى مكرتهم و حرزهم كأنهم خدم له أما و الله ليفوتتهم سبعا، و ليقسمن بينهم حظوظا و جدودا».

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٣

«و تسمع قريش حديث النجدى فتسخط عليه و تثور به، و تريد أن تلحق به الأذى، و لكننا نظر فلا نجد أحدا و نبحت فما نعرف إلى أين ذهب، كما لم نعرف من أين جاء».

و يقول قائلنا حين استيأسنا منه: «هذا و الله إبليس أراد أن تكون له فى بيت ربنا يد، فرد عن ذلك مدحورا». ثم سكت «باخوم» و أطرق فأطال الإطراق، كأنه يستعيد فى نفسه هذه القصة التى سحر بها قلوب سامعيه و ألباهم. و لكن القسيس الشيخ يسأل «باخوم» فى صوته الهادئ المحطم: «و نجران يا بنى أذهبت إليها، أأقمت فيها الكنيسة التى كنت تريد أن تقيمها؟ قال باخوم: «لا يا أبانا، قنعت ببناء هذا البيت لهذا الحى من قريش و ما أدري لماذا استيقنت نفسى منذ ذلك اليوم بأن سيكون لهذا البيت و لهذا الأمين شأن»، قال القسيس: «فإنك تسمى هذا الأمين محمدا» قال باخوم: «نعم! يسميه قومه محمدا، و يسمونه أحمد، و يكونه أبا القاسم، و يتحدثون عنه بالأعاجيب» قال القسيس فى شىء من الحيرة و الدهول: «أحمد، أحمد» أليس يمكن أن يكون هذا النبى الذى بشر به المسيح؟

و تفرق القوم من ليلتهم، و إن فى قلب كل واحد منهم لأثرا قويا باقيا لهذا الحديث. قال محدثى: و العجب أن أكثر المصريين يجهلون أن لهم فى بناء الكعبة يدا و أنهم قد اشتركوا فيه، مع الأمين الذى أصبح بعد سراجا منيرا أخرج الله به الناس من الظلمة إلى النور. انتهى.

انتهت هذه القصة اللطيفة التى صاغها فى قالب من «الأدب الرفيع» أديب الشرق و وزير المعارف المصرية سابقا الدكتور «طه حسين» و لقد رأيت أنه حفظه الله تعالى قد كتب فى هذه القصة اسم «باقوم» الذى بنى الكعبة الغراء لقريش بالخاء هكذا «باخوم».

فأرأينا أن نتصل بحضرته لسؤاله عن هذا الاسم هل هو «باقوم» (بالقاف) أم «باخوم» (بالخاء)، فكتبنا إلى حضرته بمصر خطابا بذلك، فأجابنا بما يفيد أنه يجوز كتابة هذا الاسم بالخاء و القاف و الكاف، و إليك نص خطابه نثبه هنا لما فى ذلك من الفائدة الجليلة فى هذا المعنى، و هو هذا:

سيدى الأستاذ الكريم

تلقيت كتابك الذى تسألنى فيه عن ذلك الذى بنى الكعبة لقريش و الذى سميته أنا (باخوم) و سماه مؤرخوا العرب (باقوم).

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٤

و لك الحق كل الحق فيما رويت عن مؤرخى العرب، و لكن هذا الاسم مصرى قديم عرفه التاريخ لأول مرة فى القرن الرابع للمسيح فهو أول من أنشأ نظام الاعتزال فى صحراء مصر و الانقطاع للعبادة المسيحية.

و اسمه فى لغة اليونانيين و الرومانيين «باكوموسى» بالكاف و عربه المؤرخون العرب بالقاف. و لكن الاسم شاع بعده فى مصر و لم يزل شائعاً بين إخواننا المسيحيين الى الآن و المصريين يجعلونه «باخوم» يضعون الخاء موضع الكاف، و قد آثرت هذا الاسم لأنه عندى أقرب إلى النطق القبطى القديم و ملائم للنطق القبطى الشائع إلى الآن.

فاختر بين الكاف و الخاء و القاف إن شئت. فستكون إن شاء الله موفقاً مقاربا. و أنا أرجو أن تتفضل فتقبل أصدق تحياتى.

فى ١٧ اكتوبر سنة ١٩٥٧ طه حسين

البنية التاسعة: بناء عبد الله بن الزبير الكعبة

إشارة

لا بد أن نأتى بمقدمة صغيرة عن خلافة و محاربة عبد الله بن الزبير، رضى الله عنه و عن أبيه أحد المبشرين بالجنة، ثم نأتى بتفصيل للكعبة المعظمة شرفها الله تعالى فنقول:

حرب ابن الزبير رضى الله عنه

جاء فى كتاب «الإمامة و السياسة» ما يأتى:

قال: ذكروا أن مسلم بن عقبة لما فرغ من قتال أهل المدينة يوم الحره مضى إلى مكة المشرفة يريد ابن الزبير حتى إذا كان بقديد حضرته الوفاة فدعا الحصين بن نمير فقال له: إن أمير المؤمنين عصانى فيك فأبى إلا استخلافك بعدى فلا ترسلن بينك و بين قريش رسولا تمكنه من أذنيك إنما هو الوقاف ثم الثقاف ثم الانصراف. و هلك مسلم بن عقبة فدفن بالثنية قال: و سمع بهم عبد الله بن الزبير فأحكم مراصد مكة فجعل عليها المقاتلة و جاءه جند أهل المدينة و أقبل ابن نمير حتى نزل على مكة و أرسل خيلا فأخذت أسفلها و نصب عليها العرادات و المجانيق و فرض على أصحابه عشرة آلاف صخرة فى كل يوم يرمونها بها فقال الناس:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٥

انظروه لئلا يصيبه ما أصاب الفيل. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: و كان بمكة معتمرا قدم من الطائف لا تظن ذلك لو كان كافرا بها لعوقب دونها فأما إذا كان مؤمنا بها فسيقتلى فيها فكان كما قال و حاصروهم لعشر ليال بقين من المحرم سنة أربع و ستين فحاصروهم بقيه المحرم و صفر و شهرى ربيع يغدون على القتال و يروحون حتى جاءهم موت يزيد بن معاوية فأرسل الحصين بن نمير إلى ابن الزبير أن ائذن لنا نطوف بالبيت و نصرف عنكم فقد مات صاحبنا فقال ابن الزبير: هل تركتم من البيت إلا مدره و كانت المجانيق قد أصابت ناحية من البيت الشريف فهدمته مع الحريق الذى أصابه قال: فمنعهم أن يطوفوا بالبيت فارتحل الحصين حتى إذا كان بعسفان تفرقوا و تبعهم الناس يأخذونهم حتى كانت الراعية من غنمها لتأتى بالرجل منهم مربوطا فيبعث بهم إلى المدينة و أصاب منهم أهل المدينة حين مروا بهم ناسا كثيرا فحبسوا بالمدينة حتى قدم مصعب بن الزبير عليهم من عند عبد الله بن الزبير فأخرجهم إلى الحره ف ضرب أعناقهم و كانوا أربعمائه و أكثر قال: و انصرف ذلك الجيش إلى الشام مغلولا و باع أهل المدينة لابن الزبير بالخلافة و

كان ابن عباس بمكة يومئذ فخرج إلى الطائف فهلك بها سنة سبعين و هو يومئذ ابن أربعة و سبعين سنة رضى الله عنه. انتهى من كتاب الإمامة و السياسة.

حرب ابن الزبير و قتله

و جاء فى «كتاب الإمامة و السياسة» أيضا ما يأتى:

قال: و ذكروا أنه لما تمت البيعة لعبد الملك بن مروان من أهل العراق و أتاه الحجاج بن يوسف فقال: يا أمير المؤمنين إنى رأيت فى المنام كأنى أسلخ عبد الله بن الزبير فقال له عبد الملك: أنت له فاخرج إليه فخرج إليه الحجاج فى ألف و خمسمائة رجل من رجال أهل الشام حتى نزل الطائف و جعل عبد الملك يرسل إليه الجيوش رسلا حتى توافى الناس عنده قدر ما يظن أنه يقدر على قتال عبد الله بن الزبير و كان ذلك فى ذى القعدة سنة اثنتين و سبعين فسار الحجاج من الطائف حتى نزل منى فحج بالناس و عبد الله بن الزبير محصور بمكة ثم نصب الحجاج المنجنيق على أبى قبيس و نواحي مكة كلها فرمى أهل مكة بالحجارة. فلما كانت الليلة التى قتل فى صبيحتها جمع عبد الله بن الزبير القرشيين فقال لهم: ما ترون؟

فقال رجل منهم من بنى مخزوم: و الله لقد قاتلنا معك حتى ما نجد مقاتلا لئن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٦

صبرنا معك ما نريد على أن نموت معك و إنما هى إحدى خصلتين إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا و لك و إما أن تأذن لنا فنخرج فقال عبد الله: قد كنت عاهدت الله أن لا يبايعنى أحد فأقبله بيعته إلا ابن صفوان. قال ابن صفوان: و الله إنا لنقاتل معك و ما وفيت لنا بما قلت و لكن خذنى لحفيظة أن لا أدعك عند مثل هذه حتى أموت معك فقال رجل آخر: اكتب إلى عبد الملك. فقال له عبد الله:

و كيف؟ أأكتب إليه من عبد الله أبى بكر أمير المؤمنين فو الله لا يقبل هذا منى أبدا أم أكتب إليه لعبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير، فو الله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلى من ذلك. قال عروة أخوه و هو جالس معه على السرير: يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة فقال له عبد الله: من هو أسوتى. قال:

الحسن بن على بن أبى طالب، خلع نفسه و بايع معاوية فرفع عبد الله رجله و ضرب عروة حتى ألقاه ثم قال: يا عروة قلبى إذا مثل قلبك و الله لو قبلت ما تقولون ما عشت إلا قليلا و قد أخذت الدنيا و ما ضربته بسيف إلا مثل ضربته بسوط لا أقبل شيئا مما تقولون. قال: فلما أصبح دخل على بعض نسائه فقال:

اصنعى لى طعاما فصنعت له كبدا و سناما قال: فأخذ منها لقمه فلاكها ساعة فلم يسغها فرماها و قال: اسقونى لبنا فأتى بلبن فشرب ثم قال: هيئوا لى غسلا قال:

فاغتسل ثم تحفظ و تطيب ثم تقلد سيفه و خرج و هو يقول:

و لا ألين لغير الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

ثم دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق و هى عمياء من الكبر قد بلغت من السن مائة سنة فقال لها: يا أماه ما ترين قد خذلتى الناس و خذلتى أهل بيتى؟

فقلت: يا بنى لا يلعبن بك صبيان بنى أمية، عش كريما و مت كريما. فخرج فأسند ظهره إلى الكعبة و معه نفر يسير فجعل يقاتل بهم أهل الشام فيهمهم و هو يقول: و يلمه فتحا لو كان له رجال. قال: فجعل الحجاج يناديه قد كان لك رجال و لكنك ضيعتهم. قال: فجاءه حجر من حجارة المنجنيق و هو يمشى فأصاب قفاه فسقط فما درى أهل الشام أنه هو حتى سمعوا جارية تبكى و تقول:

وا أمير المؤمنين فاحتروا رأسه فجاؤا به إلى الحجاج و قتل معه عبد الله بن صفوان بن أمية و عمارة بن عمرو بن حزم ثم بعث

برؤوسهم إلى عبد الملك و قتل لسبع عشرة ليلة مضين من جمادى الأولى سنة ثلاث و سبعين. قال أبو معتر: ثم أقام الحجاج بالمدينة عاملا عليها و على مكة و الطائف ثلاث سنين يسير بسيرته فيما يقولون قال: فلما مات بشر بن مروان و كان على الكوفة و البصرة كتب إليه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٧

عبد الملك أن سر إلى العراقيين و احتل لقتلهم فإنه قد بلغنى عنهم ما أكره و استعمل عبد الملك على المدينة يحيى بن حكيم بن أبي العاص. انتهى من الكتاب المذكور.

جاء في كتاب الأدب الجديد بصحيفة ١٦٤ ما نصه:

بويج عبد الله بن الزبير بالخلافة بعد موت يزيد و أنشأ حزبا سياسيا له مكانته أُرهب الأمويين و خضع له الحجاز و اليمن و مصر و العراق و كاد يتم له فى الشام، و بقى عبد الله خليفة تسع سنين يولى الولاية، و يجبى الخراج، و كان أخوه مصعب سنده الأول، و آثر بقاء الحكومة فى الحجاز مسaire للخلفاء الراشدين و ظل كذلك حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان فذهب بنفسه إلى العراق و قتل مصعب ابن الزبير، و سير الحجاج بن يوسف إلى الحجاز فحاصر عبد الله حتى قتل سنة ٧٣ هجرية. انتهى من الكتاب المذكور.

الحرب بالمنجنيق

جاء فى كتاب التراتيب الإدارية فى الجزء الأول ما نصه: قال الخفاجى فى نسيم الرياض: المنجنيق (بفتح الميم) آلة لرمى العدو بحجارة كبيرة بأن يشد سوار مرتفعة جدا من الخشب يوضع عليها ما يراد رمية ثم تضرب سارية توصله لمكان بعيد جدا و كانت هذه الآلة قديما قبل اختراع المدافع و البارود. اه و فى السير أنه صلى الله عليه و سلم حاصر أهل الطائف و رامهم بالمنجنيق. قال ابن هشام: و حدثنى من أثق به أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أول من رمى فى الإسلام بالمنجنيق أهل الطائف و بذلك جزم أيضا السيوطى فى أوائله فقال: أول من رمى بالمنجنيق فى الإسلام فى غزوة الطائف، و فى الكامل لابن الأثير أشار به سلمان الفارسى، و فى نور النبراس حديث نصب المنجنيق على أهل الطائف هو مرسل و هو فى الترمذى كذلك و قال ضعيف و لكن هو فى البيهقى من رواية أبى عبيد. و فى الميزان فى ترجمه عبد الله بن حراس أن له عن العوام عن إبراهيم التميمى عن أبيه أن النبى صلى الله عليه و سلم نصب المنجنيق على أهل الطائف.

(أقول): صنع المنجنيق و حفر الخندق و إيجاد الدبابات من علم الآلات الحربية التى عرفها العرب و دونوا فيها. و قال ابن الأكفانى فى إرشاد القاصد: علم الآلات الحربية علم يتبين منه كيفية إيجاد الآلات الحربية كالمجانيق و غيرها و منفعتها شديدة الفناء فى حماية المدن و دفع الأعداء و لموسى بن شاکر فيه كتاب مفيد. اه. و ذكر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٨

الجاحظ فى البيان و التبيين أن جذيمة الأبرش التنوخى آخر ملوك قضاة بالحيرة هو أول من اتخذ المنجنيق و وضعه على الحصون. انتهى من الكتاب المذكور.

الحرب بالدبابات

جاء فى كتاب التراتيب الإدارية فى الجزء الأول ما نصه: الدبابة (بفتح الدال المهملة مخففة عن تاء التأنيث) آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال فيدبون إلى الأسوار ينقبون. قال فى القاموس: الدبابة تتخذ للحروب فيدفع فى أصل الحصن فيشنون و هم فى جوفها. اه. و هى بيت صغير تعمل للحصون يدخلها الرجال فينقبون من داخلها و يكون سقفها حرزا لهم من الرمي. اه. و فى كتاب نفحة الحدائق و الخمائل فى الابتداء و الاختراع للأوائل أول دبابة صنعت فى الإسلام دبابة صنعت على الطائف حين حاصرها رسول

الله صلى الله عليه وسلم.

(وقلت) في طبقات ابن سعد لدى الكلام على وفد ثقيف و لم يحضر عروة ابن مسعود ولا غيلان بن سلمة حصار الطائف كانا بجرش يتعلمان صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات فقدموا وقد انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطائف فنصبا المنجنيق و العرادات و الدبابات الخ. (قلت) الجرش كما في القاموس بلد بالأردن و كزمر مخلاف باليمن منه الأديم و العرادات. قال فيه أيضا: شيء أصغر من المنجنيق و في كتاب أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن الطلاع في السير أول من رمى بالمنجنيق رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت دبابه ثم رجعوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه. انتهى من الكتاب المذكور.

بناء ابن الزبير الكعبة

قيل: كان سبب بناء عبد الله بن الزبير، رضى الله تعالى عنهما، هو أن رجلا في أيام الحصار بمكة أوقد نارا في بعض الخيام المضروبة في المسجد الحرام، فطارت شرارة في الخيمة فمشى الحريق حتى أخذ في كسوة الكعبة المشرفة، فاحترقت و احترق الركن الأسود أيضا و ذلك سنة (٦٤) أربع و ستين هجرية.

وقيل: إن الحصين بن نمير لما حاصر ابن الزبير في مكة بعد وقعة الحرّة بالمدينة الكائنة في آخر سنة (٦٣) ثلاث و ستين هجرية بأمر يزيد بن معاوية، رموا البيت

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٩

الحرام بالمنجنيق و رموا مع الأحجار بالنار و النفط و مشاقات الكتان و غير ذلك من المحروقات، فاحترقت ثياب الكعبة و أخشاب البيت، و أخذوا يرتجزون و يقولون:

خطارة مثل الفنيق المزدترمي بها أعواد هذا المسجد

و الخطارة بتشديد الطاء المنجنيق.

وقيل في الحصين بن نمير:

ابن المنير بثس ما تولى قد أحرق المقام و المصلى

ولنذكر ما جاء عن بناء ابن الزبير في صحيح مسلم، فقد جاء في كتاب الحج في باب نقض الكعبة و بنائها ما نصه: حدثنا هناد بن السرى، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرني ابن أبي سليمان عن عطاء قال: لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجرئهم أو يحربهم على أهل الشام، فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس أشيروا عليّ في الكعبة أنقضها ثم أبني بنائها أو أصلح ما و هي منها، قال ابن عباس: فإنني قد فرق لى رأى فيها، أرى أن تصلح ما و هي منها و تدع بيتا أسلم الناس عليه و أحجارا أسلم الناس عليها و بعث عليها النبي صلى الله عليه وسلم.

فقال ابن الزبير: لو كان أحدكم احترق بيته ما رضى حتى يجده فكيف بيت ربكم، إنى مستخير ربي ثلاثا ثم عازم على أمرى، فلما مضى الثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها، فتحاماه الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء، حتى صعد رجل فألقى منه حجارة فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة فستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه، و قال ابن الزبير: إنى سمعت عائشة تقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «لو لا أن الناس حديث عهدهم بكفر و ليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمس أذرع و لجعلت لها بابا يدخل الناس منه و بابا يخرجون منه» قال: فأنا اليوم أجد ما أنفق و لست أخاف الناس، قال: فزاد فيه خمس أذرع من الحجر حتى أبدى أسا نظر الناس إليه فبنى عليه البناء، و كان طول الكعبة ثمانى عشرة ذراعا، فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع، و جعل له بابين أحدهما يدخل منه و الآخر يخرج

منه، فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان أن يخبره بذلك، و يخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٦٠

تطليخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاد في طوله فأقره، و أما ما زاد من الحجر فرده إلى بنائه، و سد الباب الذي فتحه. فنقضه و أعاده إلى بنائه.

حدثني محمد بن حاتم حدثنا محمد بن بكر أخبرنا ابن جريج قال: سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير و الوليد بن عطاء يحدثان عن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة قال عبد الله بن عبيد: وفد الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته، فقال عبد الملك: ما أظن أبا خبيب «يعنى ابن الزبير» سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها، قال الحارث: بلى أنا سمعته منها، قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن قومك استقصروا من بنيان البيت، و لو لا حدثه عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدى أن بينوه فهلمى لأريك ما تركوا منه، فأراها قريبا من سبعة أذرع» هذا حديث عبد الله ابن عبيد و زاد عليه الوليد بن عطاء، قال النبي صلى الله عليه و سلم: و لجعلت لها بايين موضوعين في الأرض شرقيا و غربيا، و هل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟

قالت: قلت: لاء قال: تعززا أن لا يدخلها إلا من أرادوا، فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها، يدعونه يرتقى حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط، قال عبد الملك للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم، قال: فنكت ساعة بعصاه، ثم قال: وددت أنى تركته و ما تحمل. انتهى من صحيح مسلم.

نقول: فمن تأمل هذا الحديث المذكور ظهر منه معجزة لرسول الله صلى الله عليه و سلم بوضوح لا خفاء فيه، فقوله لعائشة رضى الله تعالى عنها: «فإن بدا لقومك من بعدى أن بينوه فهلمى لأريك ما تركوا منه، فأراها قريبا من سبعة أذرع» دليل على أن الله تعالى قد أطلعه بأن بيته الحرام سيبنى بعده، و أن الذى بينه هو عبد الله بن الزبير بن العوام و هو ابن أسماء أخت عائشة بنت أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنهم أجمعين، فلقد بناه ابن الزبير سنة (٦٤) أربع و ستين هجرية، أى بعد وفاة خالته عائشة رضى الله تعالى عنها بست سنين، لأنها ماتت في رمضان سنة (٥٨) ثمان و خمسين هجرية.

فمن معجزاته صلى الله عليه و سلم أنه أخبر زوجته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها بأن البيت الحرام سيبنى بعد موته، و أراها ما تركته قريش من عرض الكعبة من جهة حجر إسماعيل و مقداره أكثر من ستة أذرع، و أخبرها بأنه لو بنى البيت بنفسه لجعل له بايين موضوعين في الأرض بابا شرقيا و بابا غربيا.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٦١

لقد أخبر صلى الله عليه و سلم عائشة رضى الله عنها بكل ذلك، لتخبر هى قومها بعد موته برغبته عن كيفية بناء البيت الحرام، و بالفعل فقد أخبرت رضى الله عنها بذلك بعضهم و لحكمة يريدنا الله تعالى سمع منها هذا الوصف ابن أختها عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عن الجميع، فلما ولى أمر مكة و احترق البيت الشريف أيام حصاره بها، قام ببنائه على الصفة التى سمعها من خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، فما أعظمها من معجزة باهرة وقعت بعد موته صلى الله عليه و سلم بثلاث و خمسين سنة، و عبد الله بن الزبير هو أول مولود فى الاسلام بالمدينة بعد الهجرة فكبر الصحابة حين ولد، و حنكه رسول الله صلى الله عليه و سلم بتمره مضغها ثم تفل فى فيه فكان أول شيء دخل فى جوفه ريق النبي صلى الله عليه و سلم.

أما قوله عليه الصلاة و السلام لعائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها «إن قومك استقصروا من بنيان البيت» فقد عرف ذلك بالمشاهدة، فإنه صلى الله عليه و سلم حينما بنت قريش الكعبة كان بينى معهم، و ذلك قبل البعثة بخمس سنين. و إليك تفصيل بناء ابن الزبير للكعبة المشرفة:

(التاسع) ممن بنى الكعبة المشرفة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما و سببه كما جاء فى تاريخ الأزرقى: أخبرنى محمد بن يحيى عن الواقدى عن عبد الله بن جعفر الزهرى قال: سألت أبا عون متى كان احتراق الكعبة؟ قال: يوم السبت لليالى خلون فى شهر ربيع الأول قبل أن يأتينا نعى يزيد بن معاوية بتسعة و عشرين يوماً، و جاء نعيه فى هلال شهر ربيع الآخر ليلة الثلاثاء سنة أربع و ستين، قلت: و ما كان سبب احتراقها؟ قال: جاءنا موت يزيد، توفى لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة أربع و ستين، و كانت خلافته ثلاث سنين و تسعة أشهر، و الحصين بن نمير يومئذ عندنا، و كان احتراقها بعد الصاعقة التى أصابت أهل الشام بعشرين ليلة، قال أبو عون: ما كان احتراقها إلا منا، و ذلك أن رجلا منا و هو مسلم ابن أبى خليفه المذحجى كان هو و أصحابه يوقدون فى خصاص لهم حول البيت فأخذ ناراً فى زج رمحه فى النفط، و كان يوم ريح فطارت منها شرارة فاحترقت الكعبة حتى صارت إلى الخشب، فقلنا لهم: هذا عملكم رميتم بيت الله عز و جل بالنفط و النار، فأنكروا ذلك.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٦٢

حدثنى محمد بن يحيى قال: قال الواقدى: حدثنى رباح بن مسلم عن أبيه قال: كانوا يوقدون فى الخصاص، فأقبلت شرارة هبت بها الريح، فاحترقت ثياب الكعبة و احترق الخشب.

حدثنى محمد بن يحيى قال: قال الواقدى: حدثنى عبد الله بن يزيد عن عروة ابن أذينة قال: قدمت مكة مع أبى، يوم احترقت الكعبة، فرأيت الخشب قد خلصت إليه النار، و رأيتها مجردة من الحريق و رأيت الركن قد اسود فقلت: ما أصاب الكعبة؟ فأشاروا إلى رجل من أصحاب الزبير فقالوا: هذا احترقت الكعبة فى سببه، أخذ ناراً فى رأس رمح له فطارت به الريح فضربت أستار الكعبة فيما بين الركن اليمانى إلى الركن الأسود.

حدثنى محمد بن يحيى عن الواقدى عن سعيد بن عبد العزيز عن رجل من قومه قال: نصبنا المنجنيق على أبى قبيس و اعتنقته الرجال، و قد ألجأنا القوم إلى المسجد فبنوا خصاصاً حول البيت فى المسجد و رفاقاً من خشب تكنهم من حجارة المنجنيق، فكنت أراهم إذا أمطرونا عليهم الحجارة يكونون تحت تلك الرفاف، قال: فوهن الرمي بحجارة المنجنيق فهى تنقض.

حدثنا محمد بن يحيى عن الواقدى عن رباح بن مسلم عن أبيه قال: رأيت الحجارة تصك وجه الكعبة من أبى قبيس حتى تحرقها، فلقد رأيتها كأنها جيوب النساء، و ترتج من أعلاها إلى أسفلها، و لقد رأيت الحجر يمر فيهوى الآخر على إثره فيسلك طريقه حتى بعث الله عليهم صاعقة بعد العصر فاحترق المنجنيق و احترق تحته ثمانية عشر رجلاً من أهل الشام، فجعلنا نقول: قد أظلم العذاب، فكنا أياماً فى راحة حتى عملوا منجنيقاً آخر فنصبوه على أبى قبيس.

حدثنى محمد بن إسماعيل بن أبى عبيدة قال: حدثنى أبو النضر هاشم بن القاسم الليثى عن مولى لابن المرتفع عن ابن المرتفع قال: كنا مع ابن الزبير فى الحجر فأول حجر من المنجنيق وقع فى الكعبة فسمعنا لها أنينا كأنين المريض آه آه.

حدثنى جدى حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرتنى عجوز من أهل مكة كانت مع عبد الله ابن الزبير بمكة فقلت لها: أخبرينى عن احتراق الكعبة كيف كان؟ قالت: كان المسجد فيه خيام كثيرة فطارت النار من خيمة منها فاحترقت الخيام و التهب المسجد حتى تعلقت النار بالبيت فاحترق، قال عثمان: و بلغنى أنه لما قام جيش الحصين بن نمير أحرق بعض أهل الشام على باب

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٦٣

بنى جمح و المسجد يومئذ خيام و فساطيط، فمشى الحريق حتى أخذ البيت، فظن الفريقان كلاهما أنهم هالكون فضعف بناء الكعبة حتى أن الطير ليقع عليه فتتناثر حجارته. انتهى من الأزرقى.

بكاء عبد الله بن عمرو بن العاص على احتراق الكعبة

قال الأزرقى فى تاريخه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى جدى أحمد بن محمد و إبراهيم بن محمد الشافعى عن مسلم بن خالد عن ابن خيثم عن عبيد الله بن سعد أنه دخل مع عبد الله بن عمرو بن العاص المسجد الحرام و الكعبة محرقة، حين أدبر جيش الحصين بن نمير، و الكعبة تنتثر حجارها فوقف و معه ناس غير قليل فبكى حتى إنى لأنظر إلى دموعه تحدر كحلا- فى عينيه من إثم كانه رؤوس الذباب على و جنتيه فقال: يا أيها الناس و الله لو أن أبا هريرة أخبركم أنكم قاتلوا ابن نبيكم بعد نبيكم و محرقو بيت ربكم لقتلتم ما من أحد أكذب من أبى هريرة، أنحن نقتل نبينا و نحرق بيت ربنا؟ فقد و الله فعلتم لقد قتلتم ابن نبيكم و حرقتم بيت الله فانظروا النعمة فو الذى نفس عبد الله بن عمرو بيده ليلبسكم الله شيعا و ليذيقن بعضكم بأس بعض يقولها ثلاثا، ثم رفع صوته فى المسجد فما فى المسجد من أحد إلا و هو يفهم ما يقول، فإن لم يكن يفهم فإنه يسمع رجوع صوته فقال: أين الآمرون بالمعروف و الناهون عن المنكر؟ فو الذى نفس عبد الله بن عمرو بيده لو قد ألبسكم الله شيعا و أذاق بعضكم بأس بعض، لبطن الأرض خير لمن عليها ألم يأمر بالمعروف و لم ينه عن المنكر.

و قال الأزرقى فى تاريخه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى جدى أحمد بن محمد عن سعيد بن سالم عن ابن جريج قال: سمعت غير واحد من أهل العلم ممن حضر ابن الزبير حين هدم الكعبة و بناها، قالوا: لما أبطأ عبد الله ابن الزبير عن بيعه يزيد بن معاوية و تخلف خشى منهم، لحق بمكة ليمتنع بالحرم و جمع مواله و جعل يظهر عيب يزيد بن معاوية و يشتمه و يذكر شره الخمر و غير ذلك و ينشط الناس عنه، و يجتمع الناس إليه فيقوم فيهم بين الأيام فيذكر مساوى بنى أمية فيطلب فى ذلك فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فأقسم أن لا- يؤتى به إلا مغولا فأرسل إليه رجلا من أهل الشام فى خيل من خيل الشام، فعظم على ابن الزبير الفتنة و قال: لأن يستحل الحرم بسبيك، فإنه غير تاركك و لا تقوى عليه، و قد لج فى أمرك و أقسم أن لا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٦٤

يؤتى به إلا مغولا، و قد عملت لك غلا من فضة، و تلبس فوقه الثياب، و تبر قسم أمير المؤمنين، فالصلح خير عاقبه و أجمل بك و به، فقال: دعونى أياما حتى أنظر فى أمرى. فشاور أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فأبت عليه أن يذهب مغولا و قالت: يا بنى عش كريمما و مت كريما، و لا تمكن بنى أمية من نفسك فتلعب بك، فالموت أحسن من هذا، فأبى عليه أن يذهب إليه فى غل، و امتنع فى مواله و من تألف إليه من أهل مكة و غيرهم، و كان يقال لهم: الزبيرية.

فبينما يزيد على بعثة الجيوش إليه، إذ أتى يزيد خبر أهل المدينة و ما فعلوا بعامله و من كان معه بالمدينة من بنى أمية و إخراجهم إياهم منها إلا من كان من ولد عثمان بن عفان، فجهز إليهم مسلم بن عقبه المرمى، فى أهل الشام، و أمره بقتال أهل المدينة، فإذا أفرغ من ذلك سار إلى ابن الزبير بمكة، و كان مسلم مريضا، فى بطنه الماء الأصفر فقال له يزيد: إن حدث بك الموت، فول الحصين بن نمير الكندى على جيشك، فسار حتى قدم المدينة فقاتلوه أهل المدينة فظفر بهم و دخلها، و قتل من قتل منهم، و أشرف فى القتل، فسمى بذلك مسرفا، و أنهب المدينة ثلاثا، ثم سار إلى مكة، فلما كان ببعض الطريق حضرته الوفاة، فدعا الحصين بن نمير فقال له: يا بردعة الحمار، لو لا أنى أكره أن أتزود عند الموت معصية أمير المؤمنين ما وليتك، أنظر إذا أقدمت مكة فاحذر أن تمكن قريشا من أذنك فتبول فيها، لا تكن إلا الوقاف، ثم التقاف، ثم الانصراف، فتوفى مسلم المسرف، و مضى الحصين بن نمير إلى مكة، فقاتل ابن الزبير بها أياما، و جمع ابن الزبير أصحابه فتحصن بهم فى المسجد الحرام و حول الكعبة، و ضرب أصحاب ابن الزبير فى المسجد خياما و رفاقا يكتنون فيها من حجارة المنجنيق و يستظلون فيها من الشمس، و كان الحصين بن نمير قد نصب المنجنيق على أبى قبيس و على الأحرمر- و هما أخشبا مكة- فكان يرميهم بها فتصيب الحجارة الكعبة، حتى تحرقت كسوتها عليها، فصارت كأنها جيوب النساء، فوهن الرمي بالمنجنيق الكعبة، فذهب رجل من أصحاب ابن الزبير يوقد نارا فى بعض تلك الخيام، مما يلى الصفا بين الركن الأسود و الركن اليمانى، و المسجد يومئذ ضيق صغير، فطارت شرارة فى الخيمة فاحترقت، و كانت فى ذلك اليوم رياح شديدة، و الكعبة يومئذ مبنية ببناء قريش مدامك من ساج، و مدامك من حجارة من أسفلها إلى أعلاها، و عليها الكسوة، فطارت الرياح بلهب

تلك النار فاحترقت كسوة الكعبة و احترق الساج الذي بين البناء، و كان احتراقها يوم السبت لثلاث ليال خلون من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٦٥

شهر ربيع الأول قبل أن يأتي نعي يزيد بن معاوية بسبعة و عشرين يوماً، و جاء نعيه في هلال شهر ربيع الآخر ليلة الثلاثاء سنة أربع و ستين، و كان توفي لأربع عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة أربع و ستين، و كانت خلافته ثلاث سنين و سبعة أشهر. فلما احترقت الكعبة و احترق الركن الأسود فتصدع، كان ابن الزبير بعد ربطه بالفضة، فضعت جدارات الكعبة، حتى أنها لتنقض من أعلاها إلى أسفلها، و تقع الحمام عليها، فتتناثر حجارتها و هي مجردة متوهنة من كل جانب، ففرغ لذلك أهل مكة و أهل الشام جميعاً، و الحصين بن نمير مقيم محاصر ابن الزبير، فأرسل ابن الزبير رجلاً من أهل مكة من قريش و غيرهم، فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد، و رجال من بني أمية، إلى الحصين، فكلموه و عظموا عليه ما أصاب الكعبة و قالوا: إن ذلك كان منكم رميتوها بالنفط. فأنكروا ذلك و قالوا: قد توفي أمير المؤمنين فعلى ما ذا تقالت؟ ارجع إلى الشام حتى تنظر ماذا يجتمع عليه رأى صاحبك- يعنون معاوية بن يزيد- و هل يجمع الناس عليه؟ فلم يزالوا حتى لان لهم، و قال له عبد الله بن خالد بن أسيد: أراك تتهمني في يزيد، و لم يزالوا به حتى رجع إلى الشام.

فلما أدبر جيش الحصين بن نمير، و كان خروجه من مكة لخمسة ليال خلون من ربيع الآخر سنة أربع و ستين، دعا ابن الزبير وجوه الناس و أشرفهم و شاورهم في هدم الكعبة، فأشار عليه ناس غير كثير بهدمها، و أبى أكثر الناس هدمها، و كان أشدهم عليه إباء عبد الله بن عباس، و قال له: دعها على ما أقرها رسول الله صلى الله عليه و سلم فإنى أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم فيتهاون الناس في حرمتها، و لكن ارقعها، فقال ابن الزبير: و الله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه و أمه، فكيف أرقع بيت الله سبحانه، و أنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله، حتى إن الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارته، و كان ممن أشار عليه بهدمها جابر بن عبد الله- و كان جاء معتمراً- و عبيد بن عمير و عبد الله بن صفوان بن أمية، فأقام أياماً يشاور و ينظر ثم أجمع على هدمها، و كان يحب أن يكون هو الذى يردها على ما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم على قواعد إبراهيم، و على ما وصفه رسول الله صلى الله عليه و سلم لعائشة رضى الله عنها، فأراد أن يبينها بالورس و يرسل إلى اليمن فى ورس يشتري له، فقيل له: إن الورس يرف و يذهب، و لكن ابنها بالقصة، فسأل عن القصة، فأخبر أن قصة صنعاء هى أجود القصة، فأرسل إلى صنعاء بأربعمائة دينار يشتري له بها قصة و يكتري عليها، و أمر بتنجيح ذلك، ثم سأل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٦٦

رجالا- من أهل العلم من أهل مكة، من أين أخذت قريش حجارتها؟ فأخبروه بمقلعها، فنقل له من الحجاره قدر ما يحتاج إليه. فلما اجتمعت الحجاره و أراد هدمها خرج أهل مكة منها إلى منى، فأقاموا بها ثلاثاً فرقا من أن ينزل عليهم عذاب لهدمها، فأمر ابن الزبير بهدمها، فما اجتراً أحد على ذلك. فلما رأى ذلك، علاها هو بنفسه فأخذ المعول و جعل يهدمها و يرمى بحجارتها، فلما رأوا أنه لم يصبه شىء، اجتروا فصعدوا يهدموها. و أرقى ابن الزبير فوقها عبيدا من الحبش يهدمونها، رجاء أن يكون فيهم صفة الحبشى الذى قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

يخرّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، قال: و قال مجاهد: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: كأنى به أصيلع، أفيدع قائم عليها يهدمها بمسحاته، قال مجاهد: فلما هدم ابن الزبير الكعبة، جئت أنظر، هل أرى الصفة التى قال عبد الله بن عمرو؟ فلم أرها فهدموها و أعانهم الناس، فما ترجلت الشمس حتى ألصقتها كلها بالأرض من جوانبها جميعاً، و كان هدمها يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة أربع و ستين، و لم يقرب ابن عباس مكة حين هدمت الكعبة حتى فرغ منها، و أرسل إلى ابن الزبير لا تدع الناس بغير قبلة، انصب لهم حول الكعبة الخشب، و اجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها و يصلون إليها، ففعل ذلك ابن الزبير، و قال ابن الزبير: أشهد لسمعت عائشة رضى الله عنها تقول:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن قومك استقصروا في بناء البيت، وعجزت بهم النفقة، فتركوا في الحجر منها أذرعاً، و لو لا حداثة قومك بالكفر، لهدمت الكعبة و أعدت ما تركوا منها، و لجعلت لها بايين موضوعين بالأرض، باباً شرقياً يدخل منه الناس، و باباً غربياً يخرج منه الناس، و هل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟

قالت: قلت: لا، قال: تعززا أن لا يدخلها إلى من أرادوا فكان الرجل إذا كرهوا أن يدخلها، يدعونه أن يرتقى حتى إذا كاد أن يدخل، دفعوه فسقط، فإن بدأ لقومك هدمها، فهلمى لأريك ما تركوا من الحجر منها، فأراها قريباً من سبعة أذرع.

فلما هدم ابن الزبير الكعبة و سواها بالأرض، كشف عن أساس إبراهيم فوجدوه داخل في الحجر نحو من ستة أذرع و شبر، كأنها أعناق الإبل أخذ بعضها بعضاً، كتشبيك الأصابع بعضها ببعض، يحرك الحجر من القواعد فتحرك الأركان كلها، فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً من وجوه الناس و أشرفهم و أشهدهم على ذلك الأساس، قال: فأدخل رجل من القوم كان أيدياً، يقال له:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٦٧

عبد الله بن مطيع العدوي، عتله كانت في يده في الركن من أركان البيت، فترعزت الأركان جميعاً، و يقال إن مكة كلها رجفت رجفة شديدة حين زعزع الأساس، و خاف الناس خوفاً شديداً حتى ندم كل من كان أشار على ابن الزبير بهدمها، و أعظموا ذلك إعظاماً شديداً و أسقط في أيديهم، فقال لهم ابن الزبير:

اشهدوا، ثم وضع البناء على ذلك الأساس، و وضع حدات الباب، باب الكعبة على مدامك على الشاذروان اللاصق بالأرض، و جعل الباب الآخر بإزائه في ظهر الكعبة مقابله، و جعل عتبه على الحجر الأخضر الطويل الذي في الشاذروان الذي في ظهر الكعبة قريباً من الركن اليماني، و كان البناء بينون من وراء الستر، و الناس يطوفون من خارج.

فلما ارتفع البنيان إلى موضع الركن، و كان ابن الزبير حين هدم البيت، جعل الركن في ديباجة و أدخله في تابوت و أقفل عليه و وضعه عنده في دار الندوة، و عمد إلى ما كان في الكعبة من حلية فوضعها في خزائن الكعبة، في دار شيبه بن عثمان، فلما بلغ البناء موضع الركن أمره ابن الزبير بموضعه، فنقر في حجرين: حجر من المدامك الذي تحته و حجر من المدامك الذي فوقه، بقدر الركن و طوق بينهما، فلما فرغوا منه، أمر ابن الزبير ابنه عباد بن عبد الله ابن الزبير و جبير بن شيبه بن عثمان أن يجعلوا الركن في ثوب، و قال لهم ابن الزبير: إذا دخلت في الصلاة، صلاة الظهر، فاحملوه و اجعلوه في موضعه، فأنا أطول الصلاة، فإذا فرغتم فكبروا حتى أخفف صلاتي، و كان ذلك في يوم شديد الحر، فلما أقيمت الصلاة كبر ابن الزبير و صلى بهم ركعة، خرج عباد بالركن من دار الندوة و هو يحمله و معه جبير بن شيبه بن عثمان، و دار الندوة يومئذ قريبة من الكعبة، فخرقا به الصفوف حتى أدخلاه في الستر الذي دون البناء، فكان الذي وضعه في موضعه هذا عباد بن عبد الله ابن الزبير، و أعانه عليه جبير بن شيبه، فلما أقروه في موضعه و طوبق عليه الحجران كبروا فخفف ابن الزبير صلاته، و تسامع الناس بذلك، و غضبت فيه رجال قريش، حين لم يحضرهم ابن الزبير، و قالوا: و الله لقد رفع في الجاهلية حين بنته قريش، فحكموا فيه أول من يدخل عليهم من باب المسجد، فطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعله في ردائه، و دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل قبيلة من قريش رجلاً فأخذوا بأركان الثوب ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في موضعه و كان الركن قد تصدع من الحريق بثلاث فرق، فانشطت منه شظية كانت عند بعض آل شيبه بعد ذلك بدهر طويل، فشدته ابن الزبير بالفضة، إلا تلك الشظية من أعلاه-

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٦٨

موضعها بين في أعلى الركن - و طول الركن ذراعان، قد أخذ عرض جدار الكعبة، و مؤخر الركن في داخله الجدر، مضرس على ثلاثة رؤوس، قال ابن جريج: فسمعت من يصف لون مؤخره الذي في الجدر، قال بعضهم: هو مورد، و قال بعضهم: هو أبيض.

قالوا: و كانت الكعبة يوم هدمها ابن الزبير ثمانية عشر ذراعاً في السماء، فلما أن بلغ ابن الزبير ثمانية عشر ذراعاً، قصرت بحال الزيادة التي زاد من الحجر فيها، و استسمح ذلك إذ صارت عريضة لا طول لها. فقال: قد كانت قبل قريش تسعة أذرع، حتى زادت قريش

فيها تسعة أذرع طولاً في السماء، فأنا أزيد تسعة أذرع أخرى، فبناها سبعة وعشرين ذراعاً في السماء، وهي سبعة وعشرون مدماكاً، و عرض جدارها ذراعان، وجعل فيها ثلاث دعائم، وكانت قريش في الجاهلية، جعلت فيها ست دعائم، وأرسل ابن الزبير إلى صنعاء فأتى من رخام بها يقال له البلق، فجعله في الروازن التي في سقفها للضوء، وكان باب الكعبة قبل بناء ابن الزبير مصراعاً واحداً، فجعل له ابن الزبير مصراعين طولهما أحد عشر ذراعاً من الأرض إلى منتهى أعلاهما اليوم، وجعل الباب الآخر الذي في ظهرها بإزائه على الشاذروان الذي على الأساس مثله، وجعل ميزابها يسكب في الحجر، وجعل لها درجة في بطنها في الركن الشامي من خشب معرجة يصعد فيها إلى ظهرها، فلما فرغ ابن الزبير من بناء الكعبة، خلقها من داخلها وخارجها من أعلاها إلى أسفلها، وكساها القباطي، وقال: من كانت لي عليه طاعة فليخرج فليعتمر من التنعيم، فمن قدر أن ينحر بدنه فليفعل، ومن لم يقدر على بدنه فليذبح شاة، ومن لم يقدر فليصدق بقدر طولها، وخرج ماشياً وخرج الناس معه مشاة حتى اعتمروا من التنعيم، شكراً لله سبحانه، ولم ير يوماً كان أكثر عتيقاً ولا أكثر بدنه منحورة و شاة مذبوحة ولا صدقة من ذلك اليوم، ونحر ابن الزبير مائة بدنة، فلما طاف بالكعبة استلم الأركان الأربعة جميعاً، وقال: إنما كان ترك استلام هذين الركنين الشامي والغربي، لأن البيت لم يكن تاماً، فلم يزل البيت على بناء ابن الزبير إذا طاف به الطائف استلم الأركان جميعاً ويدخل البيت من هذا الباب ويخرج من الباب الغربي، وأبوابه لاصقة بالأرض حتى قتل ابن الزبير رحمه الله.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٦٩

ثم قال الأزرقى: قال ابن جريج: وكان باب الكعبة الذي عمله ابن الزبير طوله في السماء أحد عشر ذراعاً، فلما كان الحجاج نقض من الباب أربعة أذرع و شبرا، وعمل لها هذين البابين وطولهما ستة أذرع و شبرا.

قال الأزرقى: حدثنا محمد بن يحيى عن الواقدي عن موسى بن يعقوب عن عمه عن الحارث بن عبد الله بن وهب بن زمعة قال: ارتحل الحصين بن نمير من مكة لخمس ليالى خلون من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين، وأمر ابن الزبير بالخصاص التي كانت حول الكعبة فهدمت، وبالمسجد فكس ما فيه من الحجارة والدماء، فإذا الكعبة متوهنة ترتج من أعلاها إلى أسفلها، فيها أمثال جيوب النساء من حجارة المنجنيق، وإذا الركن قد اسود واحترق وتفلق من الحريق، فرأيته ثلاث فرق، فشاور ابن الزبير الناس في هدمها، فأشار عليه جابر بن عبد الله وعبيد بن عمير بهدمها، وأبى ذلك عليه ابن عباس، وقال: أنا أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم وتبنى، فيتهاون الناس بحرمتها فلا أحب ذلك، أخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن شرحبيل بن أبي عون عن أبيه قال: رأيت الحجر قد انفلق واسود من الحريق، فأنظر إلى جوفه أبيض كأنه الفضة، وقد كان شاور المسور بن مخرمه بن نوفل قبل أن يموت بهدمها وبنائها، فأشار عليه بذلك.

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن عبد الله بن محمد عن أبيه عن جده أنه سمع عبد الله بن عمر يسأل نائل بن قيس الجذامي عن الأساس، فقال نائل: اتبعنا الأساس في الحجر، فوجدنا أساس البيت وأصلاً بالحجر كأنه أصابع هذه، وشبك بين أصابعه فسمعت ابن عمر يكبر ويحمد الله عز وجل على ذلك.

أخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن محمد بن عمرو عن أبي الزبير قال:

سمعت عبد الرحمن بن سابط يقول: دعانا ابن الزبير خمسين رجلاً من قريش فنظرنا إلى الأساس فإذا هو واصل بالحجر، مشبك كأصابع يدي هاتين، وشبك بين أصابعه، فقال ابن الزبير: اشهدوا ثم بنى. قال عبد الرحمن بن سابط: فجلست مع ابن عباس فأخبرته فقال ابن عباس: ما زلنا نعلم أن من البيت في الحجر.

حدثنا محمد بن يحيى عن الواقدي عن إبراهيم بن موسى عن عكرمة بن خالد المخزومي قال: هدم ابن الزبير البيت حتى سواه بالأرض وحفر أساسه وأدخل الحجر فيه، وكان الناس يطوفون من وراء الستر ويصلون إلى موضعه، وجعل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٧٠

الركن في تابوت، في رقة من حرير. فأما ما كان من حلى البيت و ما وجد فيه من ثياب أو طيب فإنه جعله عند الحجبة في خزانه الكعبة حتى أعاد بناءها، قال عكرمة: فرأيت الحجر الأسود فإذا هو ذراع أو يزيد، و أخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن شرحبيل بن أبي عون عن أبيه قال: لما هدم عبد الله بن الزبير البيت ندم كل من كان أشار عليه و أعظموا ذلك.

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن سليمان بن داود بن الحصين عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس أنه أبى علي ابن الزبير هدمها، و قال: أخاف أن يأتي بعدك من يهدمها، ثم يأتي بعد ذلك آخر، فإذا هي تهدم أبدا و تبنى. فسكت عبد الله بن الزبير و لم يقرب ابن عباس مكة حتى فرغ منها.

و أخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن إبراهيم بن موسى عن عكرمة بن خالد قال: لما بنى ابن الزبير الكعبة انتهى به إلى الأساس الأول و أدخل الحجر فيها. فلما انتهى إلى موضع الركن الأسود جاء به ابن الزبير و ولده حتى رفعوه و وضعوه بأيديهم في ساعة خالية تحروا بها غفلة الناس نصف النهار في يوم صائف.

و أخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن عبد العزيز بن المطلب عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن أبي جعفر قال: ابن الزبير وضعه و ولده نصف النهار في حر شديد، فرأيت قريشا غضبوا في ذلك. و أخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن ابن جريج عن خلاد بن عطاء عن أبيه و كان يعمل في البيت محتسبا قال: و كان الركن في تابوت مقفل عليه فلما كان وقت وضعه و قد نقر له حجران طويق بينهما، ثم أدخل فيه، فلما فرغ من ذلك خرج ابن الزبير في يوم صائف نصف النهار فأشار إلى جبير بن شيبه الحنظلي فأدخله في موضعه و بنى عليه، قال عطاء أبو خلاد: و أنا حاضر ذلك.

و أخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن ابن جريج عن منصور بن عبد الرحمن الحنظلي عن مسافع الحنظلي قال: لما بنى ابن الزبير البيت حتى بلغ موضع الركن تواعد الحجبة، قال مسافع: و أنا فيهم، فلما دخل ابن الزبير في الصلاة حسب الظهر، خرج الحجبة بالركن من الصفوف و أنا فيهم، فرفعناه، فجاء حمزة بن عبد الله ابن الزبير و أخذ بطرف الثوب فرفع معنا، و أخبرني مسافع أن الركن أخذ عرض الضفير، ضمير البيت.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٧١

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن ابن جريج و عبد الله بن عمر بن حفص عن منصور بن عبد الرحمن الحنظلي عن أمه قالت: كان الحجر الأسود قبل الحريق مثل لون المقام فلما احترق اسود، قال: فلما احترقت الكعبة تصدع بثلاث فرق فشدده ابن الزبير بالفضة. و أخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن علي بن زيد عن أبيه عن جده قال:

رأيت ابن الزبير هدمها كلها فلما بنى و فرغ، خلق جوفها بالعنبر و المسك و لطح جدرها من خارج بالمسك و سترها بالديباج، و أدخل الحجر فيها ورد الركن الأسود في موضعه، و كان قد انكسر بثلاث فرق من الحريق الذي أصاب الكعبة، و كان الركن عند ابن الزبير في بيته في صندوق عليه قفل، فلما بلغ البناء موضع الركن، جاء ابن الزبير حتى وضعه هو بنفسه و شده بالفضة فهو مشدود بالفضة و اعتمر من خيمة جمانة ماشيا، فرأى الناس أن قد أحسن ابن الزبير، و لبي حتى نظر إلى البيت. انتهى من تاريخ الأزرقى. و المراد بخيمة جمانة موضع التنعيم.

سبب بناء ابن الزبير الكعبة على قواعد إبراهيم

و السبب الذي دعا عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أن يبنى الكعبة على أساس بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام هو الحديث الذي سمعه من خالته عائشة رضى الله عنها الذي يتضمن أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يتمنى أن يبنى الكعبة على قواعد إبراهيم كما سيأتي بيانه و هو:

جاء في تاريخ الأزرقى ما نصه: و حدثني محمد بن يحيى قال: حدثني هشام بن سليمان المخزومي عن ابن جريج عن عبد الله بن

عبيد بن عمير عن الوليد عن عطاء بن حباب أن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة وفد على الملك بن مروان في خلافته فقال له عبد الملك بن مروان: ما أظن أبا خبيب، يعنى ابن الزبير سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها، قال الحارث: أنا سمعته منها، قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن قومك استقصروا في بناء البيت، و لو لا حدثه عهد قومك بالكفر أعدت فيه ما تركوا منه، فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع» و زاد الوليد في الحديث، و جعلت لها بايين موضوعين بالأرض بابا شرقيا و بابا غربيا، و هل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟ قالت: قلت: لا، قال: تعززا لئلا يدخلها أحد إلا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٧٢

من أرادوا، فكانوا إذا كرهوا أن يدخلها الرجل يدعونه يرتقى، حتى إذا كاد أن يدخل يدفعونه فيسقط، قال عبد الملك: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم، قال:

فكنت بعصاه ساعة ثم قال: إني وددت أنى تركته و ما تحمل. اه.

ثم قال الأزرقى: حدثنى جدى قال حدثنى مالك بن أنس عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الصديق أخبر عبد الله بن عمر عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألم ترى أن قومك حين بنوا البيت استقصروا عن قواعد إبراهيم؟ قالت: فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعدهم؟ قال: لو لا حدثان قومك بالكفر لفعلت. قال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أراه ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم. انتهى من تاريخ الأزرقى.

ما جاء فى صحيح مسلم عن بناء ابن الزبير و الحجاج الكعبة

و لقد ورد بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما فى صحيح مسلم فى كتاب الحج، و هذا نص ما جاء فيه:

و حدثنى محمد بن حاتم حدثنى ابن مهدي حدثنا سليم بن حيان عن سعيد، يعنى ابن ميناء قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول: حدثنى خالتي (يعنى عائشة) قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة لو لا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض و جعلت لها بايين بابا شرقيا و بابا غربيا و زدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة.

حدثنا هناد بن السرى حدثنا ابن أبي زائدة أخبرنى ابن أبي سليمان عن عطاء قال: لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجزئهم أو يجزبهم على أهل الشام فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس أشيروا على فى الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما و هى منها؟ قال ابن عباس: فإنى قد فرق لى رأى فيها أرى أن تصلح ما و هى منها و تدع بيتا أسلم الناس عليه و أحجارا أسلم الناس عليها و بعث عليها النبى صلى الله عليه وسلم، فقال ابن الزبير: لو كان أحدكم احترق بيته ما رضى حتى يجده فكيف بيت ربكم إنى مستخير ربي ثلاثا ثم عازم على أمرى، فلما مضى الثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها، فتحاماه الناس أن ينزل بأول الناس

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٧٣

يصعد فيه أمر من السماء حتى صعده رجل فألقى منه حجارة فلما لم يره الناس أصابه شىء، فتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة فستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه، و قال ابن الزبير: إنى سمعت عائشة تقول: إن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لو لا- أن الناس حديث عهدهم بكفر و ليس عندى من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمس أذرع و لجعلت لها بابا يدخل الناس منه و بابا يخرجون منه، قال: فأنا اليوم أجد ما أنفق و لست أخاف الناس، قال: فزاد فيه خمس أذرع من الحجر حتى أبدى أسا نظر الناس إليه، فبنى عليه البناء، و كان طول الكعبة ثمانى عشرة ذراعا، فلما زاد فيه استقصره فزاد فى طوله عشر

أذرع و جعل له بايين أحدهما يدخل منه و الآخر يخرج منه، فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك و يخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك أنا لسنا من تلطخ ابن الزبير فى شىء أما ما زاد فى طوله فأقره و أما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه و سد الباب الذى فتحه فنقضه و أعاده إلى بنائه.

حدثنى محمد بن حاتم حدثنا محمد بن بكر أخبرنا ابن جريج قال: سمعت عبد الله بن عبيد بن عمر و الوليد بن عطاء يحدثان عن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة قال عبد الله بن عبيد: وفد الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان فى خلافته فقال عبد الملك: ما أظن أبا خبيب (يعنى ابن الزبير) سمع من عائشة ما كان يزعم، أنه سمعه منها، قال الحارث: بلى أنا سمعته منها، قال: سمعتها تقول ماذا؟

قال: قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن قومك استقصروا من بنى البيت، و لو لا حدائثهم بالشرك أعدت ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدى أن بينوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع، هذا حديث عبد الله بن عبيد، و زاد عليه الوليد بن عطاء قال النبى صلى الله عليه و سلم: و لجعلت لها بايين موضوعين فى الأرض شرقيا و غربيا، و هل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟ قالت: قلت: لا، قال: تعززا أن لا يدخلها إلا من أرادوا، فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدعونه يرتقى، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط، قال عبد الملك للحارث:

أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم، قال: فنكت ساعة بعصاه ثم قال: وددت أنى تركته و ما تحمل. انتهى من كتاب صحيح مسلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٧٤

ابتداء هدم الكعبة و انتهاء بنائها فى عهد ابن الزبير

قال الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى: و كان هدم الكعبة يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة أربع و ستين، أما الفراغ من بنائها فلم يذكره الأزرقى فى تاريخه.

و فى تاريخ الكعبة المعظمة: كان الفراغ من عمارة البيت فى سابع من رجب سنة خمس و ستين.

و لقد وقع خلاف عند بعض المؤرخين فى عمارة الكعبة هل كانت سنة (٦٤) أو سنة (٦٥)، و نحن لم نبحث عن هذه المسألة بحثا دقيقا لندلى برأينا، و ليس فى ذلك من بأس.

جاء فى تاريخ الخميس فى الجزء الثانى: و كان ابتداء حصار الحجاج ليلته هلال ذى القعدة سنة (٧٢) اثنتين و سبعين من الهجرة، و فى أسد الغابة حصاره أول ليلة من ذى الحجة (٧٢) من الهجرة، و ذكر القولين فى الرياض النضرة، و حج الحجاج بالناس تلك السنة و وقف بعرفة و عليه درع و مغفر و لم يطوفوا بالبيت و لا بين الصفا و المروة، و نصب الحجاج منجنيقا على جبل أبى قبيس كذا فى أسد الغابة، و حاصره ستة أشهر و سبع عشرة ليلة على ما ذكر ابن جرير، و رمى به أحمث الرمى و ألح عليه بالقتال من كل جانب و حبس عنهم الميرة و حصرهم أشد الحصار، و كان يرمى بالمنجنيق من أبى قبيس فيصيب الكعبة حجارة المنجنيق لكون ابن الزبير مكثنا بالمسجد، و فى نهاية ابن الأثير أن ابن الزبير كان يصلى فى المسجد الحرام و أحجار المنجنيق تمر على أذنه و ما يلتفت كأنه كعب راتب، أى منتصب. انتهى من تاريخ الخميس.

باب الكعبة الغربى

لا- يخفى أنه يوجد الآن للكعبة المشرفة باب واحد فقط مرتفع عن الأرض بمقدار مترين، و هذا الباب فى وجه الكعبة من الجهة الشرقية، و لم يكن للكعبة بابان إلا فى بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما، فإنه لما بناها جعل لها بايين أحدهما فى الجهة الشرقية و الآخر فى الجهة الغربية، أحدهما للدخول و الآخر للخروج، و لم يجعلهما مرتفعين بل أصقهما بالأرض لسهولة الدخول و الخروج،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٧٥

كل ذلك فعله ابن الزبير رضى الله عنهما تحقيقاً لرغبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بموجب الحديث الذى سمعه من خالته عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنهما، كما رواه الأزرقي فى تاريخه عن الحارث بن عبد الله المخزومي فإنه سمعها تقول: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن قومك استقصروا فى بناء البيت، و لو لا حداثه قومك بالكفر أعدت فيه ما تركوا منه، فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها قريباً من سبعة أذرع، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وجعلت لها بايين موضوعين على الأرض، باباً شرقياً يدخل الناس منه و باباً غربياً يخرج الناس منه» اهـ.

و لقد جاء معنى هذا الحديث فى الصحيحين و نصه: «لو لا- حداثه قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه الصلاة و السلام، فإن قريشا استقصرت بناءه و جعلت له خلفاً» رواه البخارى و مسلم عن عائشة رضى الله عنها- و هذا لفظ البخارى- و هناك روايات أخرى بهذا المعنى أيضاً.

ثم جاء الحجاج بن يوسف الثقفى فنقض ما زاده عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه و عن أبيه الزبير بن العوام أحد المبشرين بالجنة، و عن أمه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما فمن ذلك أنه سد الباب الغربى بظهر الكعبة الذى فتحه ابن الزبير للخروج منه، و رفع الباب الشرقى الأسمى عن الأرض، كما قدمنا بيان ذلك مفصلاً.

نذكر هنا بمناسبة إلقاء ستارة الكعبة المعظمة عنها عند تعمير و تجديد سقفيها الأعلى و الأدنى فى وقتنا هذا كما بينا ذلك فى محله، و ظهور ردف الباب الغربى فى ظهر الكعبة، أى ظهور العود الغليظ الذى وضع بأعلى الباب ثم بنى فوقه إلى السطح، و ظهور علامات تحديد الباب أيضاً فى نفس هذا البناء الموجود فى وقتنا هذا الذى هو بناء السلطان مراد الرابع للكعبة من سلاطين آل عثمان، فكان قياس العلامات الظاهرة لهذا الباب الغربى حيث قمنا بأنفسنا بأخذه كما يأتى:

طول الباب (٣١٨) سنتيمتراً، و عرضه (١٧١) سنتيمتراً، و ارتفاعه عن الأرض من الشاذروان (١٢٢) سنتيمتراً.

فقد ظن بعض الناس من ظهور هذه العلامات أن هذا هو نفس الباب الغربى الذى فتحه عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما فى ظهر الكعبة الغراء.

فلبيان الحقيقة نقول و بالله تعالى التوفيق فهو الهادى إلى سواء الطريق، أن بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما للكعبة سنة (٦٤) أربع و ستين من الهجرة،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٧٦

و بناء الحجاج الثقفى لها من جهة حجر إسماعيل مع سد بابها الغربى و رفع بابها الشرقى عن الأرض سنة (٧٤) أربع و سبعين هجرية دام هذان البناءان قائمين إلى أن جاء السيل الكبير فى زمن السلطان مراد خان الرابع من سلاطين آل عثمان، فدخل المسجد الحرام فهدم الكعبة، حتى لم يبق منها إلا جزء يسير من جدارها فقرروا هدم ما بقى خوفاً من وقوعه بغتة.

فبناها السلطان مراد الرابع المذكور بناية قوية محكمة سنة (١٠٤٠) ألف و أربعين هجرية، فكان بقاء بناية ابن الزبير رضى الله عنهما و بناية الحجاج دام تسعمائة و ست و سبعين سنة، و لا بد فى هذه السنوات الطويلة قد حصلت فيها عدة مرات ترميمات و إصلاحات.

و الردف أى العود الغليظ الموجود إلى زماننا هذا فوق موضع الباب الغربى، مع وجود علامة تحديد الباب فى نفس البناء، كل هذا يحدد لنا موضع الباب الغربى الذى فتحه ابن الزبير رضى الله عنه لأن طول هذا الباب كطول الباب الشرقى، و عرضه ينقص عن عرض الباب الشرقى بمقدار سبع و عشرين سنتيمتراً.

و أما ارتفاع هذا الباب عن الأرض فهو ينقص عن ارتفاع الباب الشرقى بمقدار سبعين سنتيمتراً تقريباً.

فإذا تأملنا نجد أن ابن الزبير قد ألصق البابين الشرقى و الغربى بالأرض، فجاء الحجاج الثقفى بعده و رفع الباب الشرقى بمتريين عن الأرض، و سد الباب الغربى سداً تاماً.

فعليه تكون العلامة الظاهرة على ارتفاع الباب الغربى من ظهر الكعبة المشرفة مغلوطا غير صحيح مطلقا، وهذا الغلط جاء من العمال الذين بنوا الكعبة فى أيام السلطان مراد المذكور، فإنهم لما وصلوا بالبناء إلى جهة الباب الغربى أرادوا المحافظة على محله كما كان قديما، فبنوا ما يشبه الباب الذى عمله ابن الزبير، ثم سدوه بالحجارة الشبيكية كما سدده الحجاج الثقفى، لكنهم غلطوا فى رفعه عن الأرض بمقدار متر وربع متر، و كان سد هذا الباب فى بناء السلطان المذكور فى اليوم الثالث والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة و هى سنة (١٠٤٠) ألف و أربعين هجرية.

فاعتقاد البعض أن الجدار الذى بظهر الكعبة هو من بناء ابن الزبير باق إلى الآن لوجود ردف الباب الغربى و علاماته هو اعتقاد غير صحيح، لأن السلطان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٧٧

مراد خان الرابع قد بنى الكعبة المشرفة من جميع الأطراف فى العام المذكور، و أما الاعتقاد بأن موضع الباب الغربى الذى فتحه ابن الزبير هو المحل الذى فيه الردف و العلامات فهذا صحيح لا شك فيه، غير أننا نقول: إن الباب لم يكن مرتفعا عن الأرض فى بنائه بل كان لاصقا بالأرض، بأس إن قلنا إنه كان مرتفعا عن الأرض بمقدار شبر واحد أو شبرين.

بقى علينا أمر دقيق جدا ظهر لنا فى الباب الغربى، و هو: أن الردف «بضم الراء» الذى فوق الباب الغربى، أى العود الغليظ الذى على الباب، هل هو من بناء السلطان مراد المذكور وضعوه سنة (١٠٤٠) حين البناء، أم هو من بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنه؟ الذى نعتقد أنه من بناء عبد الله بن الزبير فهو الذى وضعه فيه سنة (٦٤) أربع و ستين هجرية، و الذى يدلنا على ذلك هو ما لا حظناه فى العود الغليظ من الغصن و التجعد الكثير، بما يشبه الرجل العجوز الذى بلغ من الكبر ما تجعد منه وجهه و تكرمش جلده، لأنه معرض للمطر و إن كان وراء كسوة الكعبة. و الله تعالى أعلم بالغيب.

(فإن قيل): لم لم ينكسر هذا العود بمرور السنين عليه؟

(نقول): لم ينكسر لأنه ليس عليه ثقل يذكر، فهو فوقه بناء و تحته بناء أيضا فهو فى نفس البناء منذ أن سد الحجاج هذا الباب. فلما كان بناء السلطان مراد فى السنة المذكورة (١٠٤٠) من الهجرة رأوه صالحا للبقاء فوضعوه فى ظاهر البناء، فإن كل شىء من خشب أو حجر يخرج من الكعبة عند تعمیرها يعاد إليها ثانيا إذا كان صالحا للبقاء، كما عملنا نحن ذلك عند تجديد سقفها فى عصرنا هذا سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف هجرية.

فعليه يكون هذا العود الذى فوق الباب الغربى فى ظهر الكعبة المشرفة و الأعواد الثلاثة القائمة فى جوفها الواصلة إلى سقفها الأول، هى من وضع و بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما فتكون هذه الأعواد الأربعة أعوادا أثرية ثمينة جدا لأمرين: أولا لقدمها، و لكل شىء قديم قيمة خاصة، و ثانيا: أنها منسوبة لبيت الله الحرام و هذه النسبة لا يستهان بها، و قد كتبنا هذا المبحث بعد النظر الدقيق على الكعبة المشرفة و هى مجردة عن ثوبها يحيط بها الأخشاب من جميع الجهات لأجل تعمیرها و ذلك فى شهر رجب عام (١٣٧٧) هجرية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٧٨

فالحمد لله على توفيقاته العظيمة المتواليه، و الشكر له على نعمه الوافرة المتتالية، و صلى الله على نبينا محمد و على آله و صحبه و سلم.

حكم استقبال القبلة عند هدم الكعبة المشرفة

إذا هدمت الكعبة من جميع الجهات «لا قدر الله تعالى» حتى لم يبق لها جزء قائم، فكيف يكون حكم الصلاة إليها و الحالة هذه؟ فهل نقول أن الصلاة جائزة إذا استقبل المصلى محلها و هواءها كمن صلى إليها و هو فى مكان مرتفع عنها كجبل أبى قبيس؟ أم نقول أن

حكم الصلاة إليها في هذه الحالة هو حكم الصلاة على سطح الكعبة من حيث وجود الشاخص أو عدمه، فلا بد من صحة الصلاة على سطحها من وجود الشاخص بين يدي المصلي، و مثل حكم الصلاة إليها في الحالة المذكورة حكم الطواف بها.

الظاهر لنا والله تعالى أعلم: لا بد من صحة الصلاة و الطواف من وجود نفس الكعبة أو وجود جزء منها، فإذا هدمت كلها حتى لم يبق منها جزء قائم «لا قدر الله تعالى ذلك» فلا بد من صحة الصلاة و الطواف عندئذ من وجود شاخص على محل الكعبة و موضعها تماما، هذا إذا كان المصلي عند الكعبة بالمسجد الحرام بحيث يمكن له مشاهدة ذاتها، أما إذا كان المصلي بعيدا عنها و في البلدان الأخرى فالظاهر عدم اشتراط وجود الشاخص عندئذ.

و نستدل على ما ذكرناه بما جاء في تاريخ الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى بأن ابن عباس رضى الله عنهما أرسل إلى عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما، عندما هدم الكعبة حتى ألصقها كلها بالأرض من جميع جوانبها يقول له: «لا تدع الناس بغير قبلة انصب لهم حول الكعبة الخشب و اجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها و يصلون إليها» ففعل ذلك ابن الزبير. اه.

جاء في هامش الجزء الرابع من صحيح مسلم طبعه الآستانة عند الحديث الخاص باحتراق البيت الحرام و بناء ابن الزبير له و جعله عليه الأعمدة و عليها الستور ما نصه:

قوله: فجعل ابن الزبير أعمدة فستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه، المقصود بهذه الأعمدة و الستور أن يستقبلها المصلون في تلك الأيام و يعرفوا موضع الكعبة،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٧٩

و لم تزل تلك الستور حتى ارتفع البناء و صار مشاهدا للناس فأزالها لحصول المقصود بالبناء المرتفع من الكعبة. اه نووى. انتهى.

و بعض العلماء يرى أنه إذا هدمت الكعبة، لا قدر الله تعالى، حتى لم يبق منها شيء، فإن المصلي يتوجه إلى محلها و هوائها، و لا يشترط وجود الشاخص.

و الله تعالى أعلم.

الخلاصة في كيفية بناء ابن الزبير

فخلاصة الكلام المتقدم كما ذكرناها في كتابنا «مقام إبراهيم عليه السلام» المطبوع بمصر هي:

أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما بعد أن استخار الله تعالى ثلاثة أيام هدم الكعبة كلها حتى ألصقها و سواها بالأرض و كشف عن أساس إبراهيم عليه السلام فوجده داخل في حجر إسماعيل نحو من ستة أذرع و شبر فبناها على أساسه و على ذرعه للدليل استند عليه و هو الحديث الذى سمعه من خالته عائشة رضى الله عنها، و هو جاء في صحيح مسلم فى كتاب الحج فى باب نقض الكعبة و بنائها عن سعيد بن ميناء قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول: حدثتني خالتي (يعنى عائشة) قالت:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة لو لا قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض و جعلت له بايين بابا شرقيا و بابا غربيا و زدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة فلما بناها ابن الزبير زاد فى طولها إلى السماء حتى صار سبعا و عشرين ذراعا ليتناسب مع عرضها و جعل لها بايين لاصقين بالأرض من جهتي الشرق و الغرب أحدهما يدخل منه و الآخر يخرج منه، و جعل طول كل منهما أحد عشر ذراعا و جعل لكل منهما مصراعين و جعل للكعبة أربعة أركان و قد كان لها ركنان فقط الركن الأسود و الركن اليماني فكانت أركانها الأربعة تستلم فى زمانه حتى قتل رضى الله تعالى عنه، و جعل لها درجة فى بطنها فى الركن الشامى من خشب معرجة يصعد فيها إلى ظهرها و حلاها بالذهب و جعل فى سطحها ميزابا يسكب فى الحجر. قيل:

إن ابن الزبير بنى الكعبة بالقصة بفتح القاف أى الحص أتى بها من صنعاء و قيل: إنه بناها بالرصاص المذاب المخلوط بالورس و هو نبت أصفر يزرع باليمن و يصبغ به.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٨٠

(فإن قيل): لم كانت أركان الكعبة تستلم في زمانه و لم تكن تستلم قبل ذلك و لا بعد وفاته؟

(فتقول و الله تعالى أعلم): لما كان بناء قريش لم يتم على قواعد إبراهيم عليه السلام، حيث نقصوا من عرض الكعبة من جهة الحجر ستة أذرع و شبرا و جعلوا هذا الجدار الذي من جهة الحجر مدورا ليس فيه ركنان لم يستلم أحد من الصحابة سوى الركنين الأسود و اليماني اقتداء به صلى الله عليه و سلم و لعدم وجود أربعة أركان للكعبة.

فلما بنى عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما الكعبة على أساس إبراهيم صلوات الله و سلامه عليه و جعل لها أربعة أركان رأى باجتهاده و اجتهاد بعض كبار الصحابة الموجودين في زمانه أن يستلموا جميع أركان الكعبة ما دامت أقيمت على قواعد إبراهيم كما كان يتمنى النبي صلى الله عليه و سلم بناءها على قواعد.

فلما قتل ابن الزبير رضى الله عنهما و هدم الحجاج ما زاده ابن الزبير في الكعبة فبناها على أساس قريش ترك الناس استلام أركانها الأربعة و لآزموا استلام الركنين فقط الأسود و اليماني كما كان ذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لا يزال الناس كذلك إلى أن تقوم الساعة.

هذا ما فهمناه مما ورد في صحيح البخارى في كتاب بدء الخلق بعد قصة مجيء إبراهيم عليه السلام بهاجر و إسماعيل إلى مكة و بنائه للبيت الحرام. فقد جاء فيه أن أبى بكر أخبر عبد الله بن عمر عن عائشة: ألم تر أن قومك بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟ فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال:

لو لا حدثان قومك بالكفر فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه و سلم، ما أرى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم. اه.

فمن قول ابن عمر رضى الله عنهما استنتجنا ما ذكر و الله تعالى أعلم. و هذا الحديث في صحيح مسلم أيضا في كتاب الحج.

هذا فلما فرغ عبد الله بن الزبير من بناء الكعبة خلق جوفها بالعنبر و المسك و لطح جدارها بالمسك من الخارج من أعلاها إلى أسفلها و سترها بالديباج و قيل بالقباطى: و هى ثياب من كتان تعمل بمصر و كان ذلك اليوم مشهودا لم ير يوما كان أكثر عتقا و لا أكثر بدنة منحورة و لا شاء مذبوحة من ذلك اليوم، و خرج

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٨١

ابن الزبير ماشيا حافيا و خرج معه كثير من قريش مشاء حتى وصلوا إلى مسجد عائشة بالتنعيم فأحرموا بالعمرة شكرا لله تعالى على ما وفقهم لبناء بيته الحرام على الصفة التى بناها إبراهيم عليه الصلاة و السلام.

و سبب بناء ابن الزبير الكعبة أن رجلا- فى أيام الحصار أوقد نارا فى بعض الخيام المضروبة فى المسجد الحرام فطارت شرارة فى الخيمة فمشى الحريق حتى أخذ فى كسوة الكعبة فاحترقت و احترق الركن الأسود أيضا و ذلك سنة أربع و ستين هجرية.

قال فى الجامع اللطيف: القباطى بفتح القاف جمع قبطية بضم القاف، و هو ثوب رقيق أبيض من ثياب مصر، كأنه منسوب إلى القبط بكسر القاف و الضم فيه من تغيير النسب، و الضم فيه خاص بالثياب، و أما فى الناس فقبطى بكسر القاف لا غير. اه.

و فى تاريخ الكعبة: قال الفاكهى من طريق أبى أويس عن موسى بن ميسرة، أنه دخل الكعبة بعد ما بناها ابن الزبير فكان الناس لا يزدحمون فيها يدخلون من باب و يخرجون من آخر. انتهى.

مميزات بناء ابن الزبير

١- أول من باشر هدم الكعبة هو ابن الزبير فعلاها بنفسه فأخذ المعول و جعل يهدمها و يرمى بحجارتها ثم تبعه الناس.

٢- نصب ستارة من الخشب حول الكعبة و جعل عليها الستور يشتغل العمال من ورائها و يطوف الناس خارجها.

- ٣- بنى عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما الكعبة على أساس إبراهيم عليه السلام.
- ٤- و أرجع ما نقصته قريش من جدار الكعبة من جهة الحجر إلى محله الأول فبناه على أساس سيدنا إبراهيم بالضبط.
- ٥- و زاد فى ارتفاع الكعبة من الأرض للسماء على ما زادته قريش، فصار ارتفاعها سبعا و عشرين ذراعا.
- ٦- و جعل لها بابين الباب الشرقى للدخول، و الباب الغربى للخروج.
- ٧- و جعل البابين لاصقين بالأرض غير مرتفعين. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ٢-٣؛ ص ٨١ و جعل لكل من البابين مصراعين، و جعل طول كل منهما أحد عشر ذراعا.
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٨٢
- ٩- و جعل للكعبة أربعة أركان، أى لم بين جدارها من جهة الحجر مدورا كبناء قريش، بل جعل فيه ركنين.
- ١٠- و كانت الأركان الأربعة تستلم فى زمانه حتى قتل رضى الله عنه.
- ١١- و جعل فى داخلها فى الركن الشامى درجة معرجة من الخشب و حلاها بالذهب، يصعد منها إلى سطحها كما جعل ميزابا فى السطح يسكب فى الحجر.
- ١٢- و جعل فى داخلها ثلاث دعائم. و كانت فى بنايه قريش ستة.
- ١٣- و بناها بالجص و قيل بالرصاص المخلوط بالورس.
- ١٤- و لما فرغ من بنائها خلق جوفها و جدارها الخارجى من أعلاها إلى أسفلها بالعبر و المسك و كساها بالدباج و قيل بالقباطى.
- ١٥- و بعد الفراغ من ذلك كله أكثروا من العتق و من نحر البدنة و الشياه و تصدقوا بكل ذلك شكرا لله على هذا التوفيق ثم خرج ابن الزبير ماشيا حافيا إلى التنعيم و خرج معه كثير من قريش فأحرموا بالعمرة.
- ١٦- و كان ذلك سنة (٦٤) أربع و ستين هجرية و قيل خمس و ستين. و الله تعالى أعلم.

أنين الكعبة من ضرب المنجنيق فى عهد ابن الزبير رضى الله تعالى عنه

لما تحصن عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما مع أصحابه فى المسجد الحرام، و نصب الحصين بن نمير المنجنيق على جبل أبى قبيس و جبل الأحمر و هو قعيقعان الذى نسميه الآن «بجبل هندی»، صار الرمي على ابن الزبير و أصحابه، فكانت الحجارة تصيب الكعبة، و عند وقوع أول حجر عليها من المنجنيق سمع من كان حولها منها أنينا و تأوها كما يصدر من المريض.

فنجب أن نتكلم هنا على هذا المعنى نسأل الله التوفيق فيه، حيث لم نر من تكلم من المؤرخين فنقول:

جاء فى تاريخ الإمام الأزرقى ما نصه: حدثنى محمد بن إسماعيل بن أبى عبيدة قال: حدثنى أبو النضر هاشم بن القاسم الليثى عن مولى لابن المرتفع قال:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٨٣

كنا مع ابن الزبير فى الحجر، فأول حجر من المنجنيق وقع فى الكعبة سمعنا لها أنينا كأنين المريض آه آه. انتهى.

و جاء فى تاريخ الخميس بصحيفة ١٦٦ من الجزء الأول ما نصه: و فى المواهب اللدنية قال عليه الصلاة و السلام للعباس بن عبد المطلب: يا عم لا ترم منزلك أنت و بنوك غدا حتى آتيك فإن لى فيكم حاجة فلما أتاهم اشتمل عليهم بملاءته ثم قال: يا رب هذا عمى و صنو أبى و هؤلاء أهل بيتى فاسترهم من النار كسترى إياهم بملاءتى هذه، قال: فأمنت أسكفة الباب و حوائط البيت فقالت: آمين آمين آمين. رواه ابن غيلان و أبو القاسم حمزة و السهمى و رواه ابن السرى و فيه فما بقى فى البيت مدرة و لا- باب إلا آمن. انتهى من تاريخ الخميس.

و جاء فى تاريخ الأزرقى أيضا عند بناء الكعبة: فهدمت قريش معه، أى مع الوليد بن المغيرة حتى بلغوا الأساس الأول الذى رفع عليه

إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت فأبصروا حجارة كأنها الإبل الخلف لا تطيق الحجر منها ثلاثون رجلا يحرك الحجر منها فترتج جوانبها قد تشبك بعضها ببعض، فأدخل الوليد بن المغيرة عتله بن الحجرين فانفلقت منه فلقه عظيمة فأخذها أبو وهب ابن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم من يده حتى عادت في مكانها و طارت من تحتها برقة كادت أن تخطف أبصارهم و رجفت مكة بأسرها، فلما رأوا ذلك أمسكوا عن أن ينظروا ما تحت ذلك. انتهى منه.

والخلف بفتح فكسر، المخاض و هي الحوامل من النوق كما في المصباح و في مكان آخر قال الأزرقى: إن الذي أدخل العتلة هو عبد الله بن مطيع العدوى.

اه. فقد يجوز أن كلا منهما أدخل عتله فيه في الأساس. و قال الأزرقى عند بناء ابن الزبير رضى الله عنهما الكعبة: عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: رأيت ابن الزبير هدم الكعبة و أراهم أساسا داخلا في الحجر آخذ بعضه بعضا كلما حرك منه شيء تحرك كله فبنى عليه الكعبة. انتهى.

و جاء في تاريخ الغازى: و في تحصيل المرام، نقلا عن الحلبي قال: و في روايته كشف له عن أساس إبراهيم عليه الصلاة و السلام فوجده داخلا في الحجر ستة أذرع و شبر و أحجار ذلك الأساس كأنها أعناق الإبل حجارة حمرا آخذا بعضها في بعض مشتبكة كتشبيك الأصابع و أصاب فيه قبر أم إسماعيل فدعى عبد الله بن الزبير خمسين رجلا من وجوه الناس و أشرافهم و أشهدهم على ذلك الأساس

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٨٤

و أدخل عبد الله بن مطيع العدوى عتله كانت بيده في ركن من أركان البيت فتزعزت الأركان كلها فارتج جانب البيت و رجفت مكة بأسرها رجفة شديدة و طار منه بوقه فلم يبق دار من دور مكة إلا دخلت فيه ففزعوا. انتهى من تاريخ الغازى.

نقول: معنى قوله: «آخذ بعضه بعضا» و قوله فيما تقدم: «قد تشبك بعضها ببعض» إن هذه الحجارة العظيمة من أساس البيت، قد تشبك بعضها ببعض بقدرة الله تعالى لا بالصناعة البشرية من النحت و التقوير، بمعنى أن الملائكة حينما كانت تقذف بالصخور في أساس البيت جعل الله عز و جل هذه الصخور لينه كالعجين فاشتبك بعضها ببعض بحيث لا يفصل شيء منها، كما ألان الله تعالى الحديد لنيبه داود عليه الصلاة و السلام. و قوله: كلما حرك منه شيء تحرك و تزعزت الأركان كلها، هذه ميزة خاصة لأساس بيت الله الحرام، و يفهم من هذا أمران:

الأول: سهولة تحرك جميع الأركان و هي ثقيلة من الصخور العظام.

الثانى: اتصال أجزائها ببعض كالقطة الواحدة تماما و هذان الأمران لا يجتمعان قط في بنیان البشر، فلا شك أن هذه خصوصية للكعبة الغراء زادها الله شرفا و تعظيما.

نقول: إن أنين الكعبة من الحجارة التى كانت تصيها عند الرمي بالمنجنيق فى حرب الحجاج مع ابن الزبير لا يستغرب لأن ذلك من الآيات التى يخوف الله بها عباده ليرتدعوا. قال صلى الله عليه و سلم: إن للكعبة لسانا و شفقتين و قد اشتكت فقالت: يا رب قل عوادى و زوارى، فأوحى الله أنى خالق بشرا خشعا سجدا يحنون إليك كما تحن الحمامة إلى بيضها. رواه الطبرانى عن جابر رضى الله عنه. و هذا الجذع الذى كان يخطب عليه النبى صلى الله عليه و سلم بمسجده بالمدينة المنورة، قد حن و أن أنين الصبى و ذلك حينما تحول النبى عليه الصلاة و السلام عنه إلى المنبر الذى صنعوه له.

قال السهوى رحمه الله تعالى فى كتابه «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» فى أول الجزء الثانى ما نصه: رويانا فى صحيح البخارى عن ابن عمر قال: كان النبى صلى الله عليه و سلم يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحن الجذع فأثاه فمسح يده عليه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٨٥

و فيه عن جابر أن النبى صلى الله عليه و سلم، كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول

الله ألا نجعل لك منبرا، قال: إن شئتم.

فجعلوا له منبرا، فلما كان يوم الجمعة رفع إلى المنبر فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فضمه إليه وهو يش أنين الصبي الذي يسكن.

قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها. انتهى من كتاب وفاء الوفا.

فانظر رحمك الله بعين البصيرة والاستبصار، تجد أن أنين الكعبة المعظمة هو للعظة والاعتبار، وأنين الجذع هو للحنين إلى النبي الكريم المختار، وكل ذلك آيات من آيات الله تعالى ليزداد الذين آمنوا إيمانا.

وأما ما تقدم كثير، كالحجر الذي كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث كما ورد ذلك في صحيح مسلم، وبقرة بنى إسرائيل التي تكلمت فقالت: «إني لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث» والحديث أوله «بينما رجل راكب على بقرة..»

الخ» كما ورد ذلك في البخاري ومسلم، وفي هذا الحديث أيضا كلام الذئب للراعي، وقد ذكرنا نص هذا الحديث في الكلام على نطق فيل أبرهه لعبد المطلب.

وقد ذكر صاحب كتاب «النطق المفهوم من أهل الصمت المعلوم» أشياء كثيرة مما يشبه ما تقدم، وهو كتاب عجيب قيم، يبحث عن نطق بنى آدم، ونطق الحيوان، ونطق الحشرات، ونطق الحشرات، ونطق النباتات والجمادات من كل جنس ونوع، والحق يقال أنه كتاب فريد في باب، لا نظن أن أحدا ألف كتابا على نسجه ومثاله، وهو كتاب مطبوع بمطبعة الحلبي بمصر في سنة (١٣٠٨) هجرية.

ونقول أيضا: إن أنين الكعبة وسماع بعضهم أنينها كالمريض آه، آه، وقولها:

آمين آمين آمين ليس في ذلك من غرابه، فإنه للعظة والذكرى والاعتبار، والله تعالى قادر على كل شيء.

وإذا ثبت للرحم النطق والكلام وهو مصدر وليس بجسم، فلا يمتنع التأوه والكلام من الكعبة المشرفة ففي الصحيحين «الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعته الله».

ومثل ذلك شهادة أطراف الإنسان على صاحبها كما في صريح الآية الكريمة في سورة ياسين: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٨٦

كَانُوا يَكْسِبُونَ وكما في صريح الآية التي في سورة فصلت وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ* حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* وَقَالُوا لِيُجْلِدَهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

فالله عز شأنه إذا كان قادرا على إنطاق أطراف الإنسان عليه، قادر على إنطاق الكعبة المشرفة، على أن سماع نطقها لا يحصل لكل الناس ولا لكل من جلس حولها، وإنما للبعض دون البعض بحسب قوة إيمانهم وصلاحهم.

فلقد كان بعض الأحجار تسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن عصا موسى عليه السلام التقت ما صنعه سحره فرعون بعد أن صارت حية تسعى ثم رجعت كما كانت.

ففي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن ينزل على الوحي. ورواه الترمذي والإمام أحمد عن جابر بن سمره، وفي بعض الروايات «كان يسلم على قبل أن أبعث» ونعتقد أن هذا التسليم كان حقيقة أنطقه الله تعالى كما أنطق الجذع وذلك معجزة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم ولا نبحت عن كيفية نطق الحجر وهو جماد فإن الله أعلم بها.

وما أحلى البيتين الآتين قالهما بعض الفضلاء على لسان الحجر الناطق وهما:

أنا الحجر المسلم كل حين على خير الورى فلى البشارة

و نلت فضيلة من ذى المعالى خصصت بها «و إن من الحجارة»

و مما يلحق بأنين الكعبة المشرفة كلامها، فقد جاء فى كتاب "القرى لقاصد أم القرى" للإمام الطبرى بصحيفة (٢٣٨) ما نصه: عن وهيب بن الورد قال: كنت فى الحجر تحت الميزاب بعد العشاء الآخرة فسمعت من تحت الأستار «إلى الله أشكو و إليك يا جبريل ما ألقى من الناس من التفككه حولى بالكلام» أخرجه الأرقى و أخرجه الإمام أبو بكر فى مسألة الطائفين بزيادة. و لفظه: يا جبريل أشكو إلى الله ثم إليك ما يفعل هؤلاء الطائفون حولى من تفكهم فى الحديث و لفظهم و سهوهم. قال وهيب: فأولت أن البيت شكا إلى جبريل. انتهى منه.

أما خبر حنين الجذع الذى كان يخطب عليه صلى الله عليه و سلم فمشهور: و ذلك أن النبى عليه الصلاة و السلام كان يخطب على هذا الجذع، فلما اتخذوا له المنبر بثلاث

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٨٧

درجات من أثل الغابة و خطب النبى صلى الله عليه و سلم يوم الجمعة على هذا المنبر سمع الناس لذلك الجذع صوتا كصوت العشار و هى الناقة التى أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر.

جاء فى تاريخ الخميس: و فى خلاصة الوفاء اضطربت تلك السارية كحنين الناقة الخلوج أى: التى انتزع ولدها، قال عياض: حديث حنين الجذع مشهور و الخبر به متواتر أخرجه أهل الصحيح و رواه من الصحابة بضع عشر، و فى رواية أنس حتى ارتج المسجد لخواره، و فى رواية: أن كائين الصبى، و فى رواية سهل:

و كثر بكاء الناس لما رأوا به، و فى رواية المطلب: حتى تصدع و انشق حتى جاءه النبى صلى الله عليه و سلم فوضع يده عليه فسكت. و فى حديث بريدة قال النبى صلى الله عليه و سلم: إن شئت أردك إلى الحائط الذى كنت فيه تنبت لك عروقتك و يكمل خلقكك و يجددك لك خوصكك و ثمرك، و إن شئت أغرسك فى الجنة فىأكل أولياء الله من ثمرك. ثم أصغى له النبى صلى الله عليه و سلم يسمع ما يقول فقال: بل تغرسنى فى الجنة فىأكل منى أولياء الله فأكون فى مكان لا أبلى فيه- يعنى فى الجنة- فسمعه من يليه فقال النبى صلى الله عليه و سلم: قد فعلت ثم قال: قد اختار دار البقاء على الفناء. أوردته فى الشفاء. انتهى مختصرا من تاريخ الخميس، و فى هذا القدر كفاية.

فأنين الكعبة و سلام الحجر و حنين الجذع، لو لم يكن على الحقيقة لما سمع الناس منهم ذلك بأذانهم، و أما الكيفية فالله تعالى أعلم بها و هو على كل شىء قدير.

و أما ما تقدم فى بناء قريش و بناء ابن الزبير الكعبة، من أنهم لما وصلوا فى الحفر إلى الأساس و أدخل الوليد بن المغيرة عتلته بين حجرين انقلعت منه فلقه فأخذها رجل فزت من يده حتى عادت فى مكانها و طارت منها برقه كادت تخطف الأبصار فترعزت أركان البيت كلها و ارتجت جوانب البيت و رجفت مكة بأسرها رجفة شديدة و طار منها برقه فلم يبق دار من دور مكة إلا دخلت فيه ففزع أهلها. فلا تظن أن زعزت الأركان و الرجفة لمكة كانت من تصادف حصول زلزلة أرضية فى وقت البناء كالزلازل التى تكون فى بقاع الأرض، لأن مكة شرفها الله تعالى و صانها من كل سوء هى محفوظة من الزلازل فلم يحدثنا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٨٨

التاريخ قط عن حصول زلزلة فيها، و كيف تكون فى مكة زلزلة و هى محاطة كلها بالجبال الراسيات الضاربات عروقتها فى تخوم الأرض.

فالزعزعة و الرجفة التى حصلت عند وصولهم إلى أساس إبراهيم عليه الصلاة و السلام، إنما كانت بإرادة الله تعالى إشارة إلى أنهم واقفون على نفس الأساس الأصيل للكعبة فليبنوا عليه و لا- يتعرضوا له مطلقا، لذلك خافوا و فرغوا و لم يمسه بشىء بل بنوا فوقه البيت الحرام.

و أما نزو الفلقة التي انفصلت من أساس الكعبة المشرفة من يد الرجل الذي أخذها و رجعوها إلى مكانها و موضعها الأول، فلا عجب في ذلك، لأن هذه الفلقة قطعة من الأساس الأول للبيت الحرام فلا بد أن ترجع إلى مكانها منه فلا غرابة إذا و ثبت القطعة بنفسها من يد الرجل فرجعت إلى موضعها حتى يكون الأساس الأول محفوظا لا يمس أحد، و من هنا نعلم أنه ليس على وجه الأرض شيء من أساس الكعبة و أنه محفوظ بقدره الله تعالى، لأنه أساس عمله الملائكة بقذف الصخور إلى تخوم الأرض في بناء إبراهيم عليه الصلاة و السلام فلا يمكن أن يفصل منه أى جزء منها كان صغيرا، أما بناء الكعبة فهو من أحجار هذه الجبال الظاهرة فإن هدمت و تلفت هذه الأحجار يستبدل بغيرها عند تجديد بنائها، و يدفن التالف منها في أرض المسجد الحرام حرمة لها لأنها كانت من الكعبة. و بمناسبة كلامنا المتقدم أن مكة شرفها الله تعالى محفوظة من الزلازل، رأينا أن نكتب لمرصد حلوان بمصر عن مسألة الزلازل في الحجاز، لأن هذا المرصد هو من المراصد العالمية المهمة، فكتبنا خطابا لمدير المرصد في الثامن عشر من شهر شعبان سنة ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، الموافق للسابع من شهر فبراير سنة ألف و تسعمائة و ثمان و خمسين ميلادية و هذا نص الخطاب:

بسم الله الرحمن الرحيم حضرة السيد الكريم مدير مرصد حلوان بمصر، حفظه الله تعالى

بعد التحية: بما أن مرصد حلوان هو أهم مراصد العالم، لذلك كتبنا لسيادتكم هذا نرجو التكرم بإفادتنا عما يأتي:

١- هل إذا حصل في الحجاز زلزال يعرف ذلك بمرصد حلوان بدقة أم لا؟

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٨٩

٢- و هل سلسلة الجبال الموجودة بالحرمين الشريفين يمنع حدوث الزلازل بهما أم لا؟

٣- إن لم تمنع سلسلة الجبال حصول الزلازل بالحرمين الشريفين. فهل من الممكن أن نعرف أقدم زلزلة و أقربها حصلت بهما، و كم عدد الزلازل التي حدثت فيهما منذ قديم الزمان إلى اليوم. نرجو إفادتنا عن الأسئلة الثلاثة خدمة للعلم. و لسيادتكم الشكر. و تفضلوا بقبول فائق الاحترام.

المخلص

محمد طاهر الكردي الخطاط

فورد إلينا جواب مدير مرصد حلوان بمصر في الرابع و العشرين من شهر فبراير سنة ألف و تسعمائة و ثمان و خمسين ميلادية، تحت رقم (٣٢٥) و هذا نص جوابه:

بسم الله الرحمن الرحيم حضرة السيد الكريم محمد طاهر الكردي، حفظه الله تعالى

تحية مباركة و بعد: ردا على خطابكم بتاريخ ١٨-٧-١٣٧٧ هـ أتشرف بأن أنهى إلى سيادتكم بالردود الآتية:

١- إذا حدث في الحجاز أو أية جهة أخرى على سطح الأرض زلزال و كان شديدا نوعا لسجلته آلات الزلازل بمرصد حلوان و لأمكن تحديد هذا الزلزال بالدقة.

٢- ليس لسلاسل الجبال في أى مكان القوة لمنع انتقال الهزات التي تحدثها الزلازل.

٣- أن الأراضي المقدسة بشبه الجزيرة العربية قد حباها الله سبحانه و تعالى بأرض هادئة مستقرة بعيدة عن مناطق الزلازل التي تحدث من آن لآخر على طول الساحل اليمنى.

٤- إن أهم الزلازل التي حدثت بالمنطقة المشار إليها هي اثنان:

الأول: حدث في ١١ يناير سنة ١٩٤١ عند النقطة ١٧ درجة شمالا و ٤٣ درجة شرقا.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٩٠

و الثانى: في ٤ فبراير سنة ١٩٤١ عند النقطة ١٦ درجة شمالا و ٤٣ درجة شرقا.

و كلاهما يبعد نحو ٥٠٠ كيلومترا عن مكة المكرمة. و تفضلوا بقبول فائق الاحترام.

مدير معهد الأرصاد بحلوان بمصر

نقول: و مثل زعزعة أركان الكعبة و ارتجاجها في بناء قريش و بناء ابن الزبير، رضى الله تعالى عنهما، تحركها مرارا في آخر القرن السادس الهجرى، و ذلك كما رواه الغازى في تاريخه المخطوط بخط يده، رحمه الله تعالى، في الجزء الأول بصحيفة (٥٦٤) فإنه قال: و في سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة بعد خروج الحاج من مكة هبت ريح سوداء عمت الدنيا «أى جميع مكة» و وقع على الناس رمل أحمر، و وقع من الركن اليماني قطعة و تحرك البيت الحرام مرارا، كذا في إتحاف الورى بأخبار أم القرى. انتهى ما ذكره الغازى.

نقول: إن تحرك الكعبة مرارا في هذه الحادثة قد تكون إشارة و آية يخوف الله بها عباده ليتوبوا إليه و يرجعوا عما كانوا عليه من الظلم و الفساد، فإن الله تعالى لطيف بعباده لا يعجل بالعقوبة علينا.

جاء في تاريخ الغازى أن الفاكهى قال: حدثنى أبو على الحسن بن مكرم، حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنى أبو بكر بن حبيب، قال: جاورت بمكة فعابت اسطوانة من أساطين البيت فأخرجت و جىء بأخرى ليدخلوها مكانها فطالت عن الموضع و أدرتهم الليل و الكعبة لا تفتح ليلا فتركوها مائلة ليعودوا غدا فيصلحوها، فجأؤوا من غد فأصابوها أقوم من قدح. انتهى.

قال: و هذا غريب و فيه كرامة للبيت، اه. انتهى من تاريخ الغازى، و القدح بكسر القاف، السهم.

نقول: إن وقوع مثل هذا الأمر ليس ببعيد عن بيت الله الطاهر المطهر المنور لأنه عامر بالملائكة على الدوام، و ليس بعجيب على أمر الله الذى إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٩١

و الفاكهى المذكور هو محمد بن إسحاق الفاكهى من أهل القرن الثالث الهجرى و له مؤلف خاص في تاريخ مكة توجد منه نسخة في إحدى خزائن أوروبا كما هو مذكور في حاشية أخبار مكة للأزرقى.

و جاء في تاريخ الغازى نقلا عن درر الفرائد ما نصه: و في سنة (٤١٠) عشر و أربعمائة قتل بمكة هادى المستجلى و كان ظهر في آخر أيام الحاكم العيىدى صاحب مصر و صار يدعو إلى عبادة الحاكم. فحكى عنه أنه سب الرسول صلى الله عليه و سلم، و بصق على المصحف الشريف و سار في البوادي يدعو إلى أن قتله الله تعالى و ذلك أنه لما وصلها و نزل على أبى الفتوح و أعطاه الذمام و صار يطوف بالكعبة فكلما رآه المجاورون مضوا إلى أبى الفتوح و ذكروا له شأنه و أنه لا يستتاب فقال: هذا قد نزل على و أعطيته الذمام فقالوا: لا يصح أن يعطى الذمام فدافعهم أبو الفتوح فاجتمع الناس عند باب الكعبة و ضجوا إلى الله تعالى و بكوا فقضى الله تعالى بإرسال ريح سوداء حتى أظلمت الدنيا و صار للكعبة نور كنور النبراس و لم يزل كذلك يرى ليلا و نهارا على حالة واحدة مدة سبعة عشر يوما فلما رأى أبو الفتوح ذلك أمر بالغريم و غلام له مغربى فضربت أعناقهما و صلبا و لم يزل المغاربة يرجمونهما بالحجارة حتى سقطا إلى الأرض فجمعوا لهما حطبا و أحرقوهما. كذا في درر الفرائد.

قال الغازى: و في تاريخ ابن فهد بعد قوله و أعطيته الذمام فقالوا: إن هذا سب و بصق فسأله عن ذلك فأقر به و قال: قد تبت فقال المجاورون: توبة هذا لا تصح و قد أمر النبى صلى الله عليه و سلم بقتل ابن خطل و هو متعلق بأستار الكعبة و هذا لا يصح أن يعطى الذمام و لا ينبغى إلا قتله. انتهى.

قال في المنجد: ترس الشمس قرصها، يقال: غاب ترس الشمس. اه.

هذا و لقد يشبه ما تقدم الحجر الذى فر و هرب بثوب نبى الله تعالى و كلمه موسى، عليه الصلاة و السلام، فصار يجرى وراءه حتى أمسكه و أخذ منه ثوبه و ضربه، و قصته مشهورة في كتب التفسير و الحديث و التاريخ، و لنذكر بعض ما ورد في ذلك من الأحاديث الصحيحة فنقول: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «كان بنو إسرائيل يغتسلون عراه ينظر بعضهم إلى بعض و كان موسى، عليه الصلاة و السلام يغتسل وحده، فقالوا: و الله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر

الحجر بثوبه فخرج موسى في أثره يقول:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٩٢

ثوبى يا حجر! ثوبى يا حجر! حتى نظر بنو إسرائيل إلى موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً، رواه البخارى و مسلم فى صحيحهما.

قال شيخنا شارح زاد المسلم رحمه الله تعالى: و فى الصحيحين بعد ذكر هذا الحديث قال أبو هريرة: والله إنه بالحجر لندب، بالحجر ستة أو سبعة ضرب موسى بالحجر. و فى روايه مسلم حذف ياء النداء من لفظ ثوبى يا حجر فى المرتين. و الأدر الذى له أدره بالضم، و هى انتفاخ الخصية. اه.

و فى البخارى عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى جلده شىء استحياء منه، فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص أو أدره و إما آفه، و إن الله عز و جل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها و إن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه و طلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملاء من بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله و برأه مما يقولون و قام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه و طفق بالحجر ضرباً بعصاه، فو الله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، قال فذلك قوله عز و جل: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا. انتهى.

فالحديث الشريف صريح اللفظ لا يحتاج إلى تفسير و شرح، و نحن نعتقد أن فرار الحجر بثوب نبي الله موسى عليه الصلاة و السلام، كان حقيقة لا مجازاً كما هو ظاهر للمتأمل، و لا نسأل كيف فر الحجر و مشى و هو جماد و كيف أمسك ثوبه و لا نسأل كيف يؤثر العصا فى الحجر حتى تترك به ندباً عديده، و لا نسأل أيضاً كيف يضرب موسى عليه السلام حجراً جماداً بعصاه فهل يؤدب الحجر و هل هو يتألم من الضرب. فنحن نؤمن بكل ما جاء و ثبت عن رسول الله صلى الله عليه و سلم من غير بحث و لا تحقيق، فما فهمناه نحمد الله و ما لم نفهمه نفوض أمره إلى الله تعالى.

و مثل ما تقدم عن الجمادات، نقوله فيما يروى عن نطق الحيوانات، كمنلة و هدهد نبي الله سليمان عليه السلام، الذى ورد فى القرآن الكريم ذكرهما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٩٣

صراحه فى أول سورة النمل من آية حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ... إلى آخر الآيات التى فيها قصة النملة و الهدهد.

و كالبقرة و الذئب اللذين تكلما، فقد جاء فى الصحيحين و اللفظ لمسلم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: «بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها، التفت إليه البقرة فقالت: إنى لم أخلق لهذا و لكنى إنما خلقت للحرث. فقال الناس: سبحان الله تعجباً و فرعاً بقرة تتكلم، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: فإنى أؤمن به أنا و أبو بكر و عمر. فقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم، بينا راع فى غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاء فطلبه الراعى حتى استنقذها منه فالتفت إليه الذئب فقال له: من لها يوم السبع يوم ليس لها راع غيرى، فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: فإنى أؤمن بذلك أنا و أبو بكر و عمر و ما هما ثمه» إلى غير ذلك مما يشبه ما تقدم، فافهم هذا المبحث فإنك لا تجده فى غير هذا.

أما من تكلم فى المهد كما جاء فى القرآن الكريم و الحديث الصحيح فيما رواه الشيخان «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة .. الخ» فإننا لا نريد إطالة الكلام بذكرهم.

و فيما تقدم كفاية لأولى الألباب، و الله الهادى للصواب و إليه المرجع و المآب، اللهم إنى آمنت بكل ما أنزلت على عبدك و نبيك

«محمد» صلى الله عليه وسلم، إيماناً صادقاً بيقين تام، فاجعلني من السعداء المقربين و ألحقني بعبادك الصالحين، واختم لي بخير يا أرحم الراحمين. اللهم وإنى أسألك الراحة عند الموت والعفو عند الحساب، والستر في الدنيا والآخرة لى ولأهلى و ذرىتى و أحببى بفضلك و رحمتك يا رب العالمين، و صلى الله و سلم على النبى الأمى و على آله و صحبه أجمعين.

ترجمة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما

جاء فى الجزء الثانى من تاريخ الخميس ما خلاصته: يكنى عبد الله بن الزبير ابن العوام أباً بكر، و يكنى أيضاً أباً خبيب، أمه أسماء ذات النطاقين بنت أبى بكر الصديق و هو أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة بعد الهجرة و كان قد صحب النبى صلى الله عليه و سلم، و هو صبى و حفظ عنه أحاديث فمات النبى صلى الله عليه و سلم، و له ثمان سنين بل تسع كذا وقع فى دول الإسلام و مورد اللطافة و الرياض النضرة و غيرها يعنى ذكر خلافة عبد الله بن الزبير بعد خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية و هو الأنسب بالتاريخ. و أما فى حياة الحيوان و بعض كتب التواريخ فذكرت خلافة ابن الزبير بعد خلافة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٩٤

عبد الملك بن مروان فقال و هو السادس فخلع و قتل. و فى حياة الحيوان: بويح لابن الزبير بالخلافة بمكة لسبع بقين من رجب سنة أربع و ستين فى أيام يزيد بن معاوية.

و فى سيرة مغلطاي: بويح عبد الله بن الزبير فى رابع جمادى الآخرة بالحجاز و ما والاها. انتهى. و بايعه أهل العراق و مصر و بعض أهل الشام و بايع خلق كثير من العرب الضحاك بن قيس الفهري و ولى دمشق فقدم إليه مروان بن الحكم مع خدمه و حواشيه و انضم إليه عبيد الله بن زياد و قد هرب من نيابة العراق خوفاً من القتل لما فعل بالحسين ثم التقى الضحاك و مروان و كان المصاف بتل راهط بمرج دمشق فقتل خلق كثير و قتل الضحاك.

و فى الرياض النضرة: بويح ابن الزبير بالخلافة سنة أربع و ستين و قيل سنة خمس و ستين بعد موت معاوية بن يزيد و اجتمع على طاعته أهل الحجاز و اليمن و العراق و خراسان و حج بالناس ثمانى حجج. و فى البحر العميق: أقام عبد الله بن الزبير الحج للناس سنة ثلاث و ستين قبل أن يبايع له فلما بويح له حج ثمانى حجج متوالية. انتهى.

ثم قال صاحب تاريخ الخميس: و فى شفاء الغرام: ولى مكة عبد الله بن الزبير بعد أن لقي فى ذلك عناء شديداً سببه أن أهل المدينة لما طردوا منها عامل يزيد عثمان بن محمد بن أبى سفيان و غيره من بنى أمية الأولد عثمان بن عفان بعث إليهم يزيد مسلم بن عقبة المرى و يسمى مسرفاً بإسرافه فى القتل بالمدينة و بعث معه اثنى عشر ألفاً فيهم الحصين بن نمير السكونى و قيل الكندى ليكون على العسكر أن عرض لمسلم موت فإنه كان عليلاً فى بطنه الماء الأصفر فأمر يزيد مسرفاً إذا بلغ المدينة أن يدعو أهلها إلى طاعة يزيد ثلاثة أيام فإن أجابوه و إلا قاتلهم فإذا ظهر عليهم أباحها ثلاثاً ثم يكف عن الناس و يسير إلى مكة لقتال ابن الزبير.

و فى حياة الحيوان: فى سنة ستين دعا ابن الزبير إلى نفسه بمكة و عاب يزيد بشرب الخمر و اللعب و التهاون بالدين و أظهر ثلمه و منقصته فبايع ابن الزبير أهل تهامة و الحجاز فلما بلغ ذلك يزيد ندب له الحصين بن نمير السكونى و روح بن زنباع الجذامى و ضم إلى كل واحد جيشاً و استعمل على الجميع مسلم بن عقبة المرى و جعله أمير الأمراء و لما ودعهم قال: يا مسلم لا تردن أهل الشام عن شىء يريدونه بعدوهم و اجعل طريقك على المدينة فإن حاربوك فحاربهم فإن ظفرت بهم فأبجها ثلاثاً. فسار مسلم حتى بلغ المدينة فنزل الحره بظاهر المدينة بمكان يقال

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٩٥

له حره و اقم فخرج أهل المدينة و عسكروا بها و أميرهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة بن أبى عامر الراهب فدعاهم مسلم ثلاثاً فلم يجيبوه فقاتلهم فغلب أهل المدينة و انهزموا و قتل أمير المدينة عبد الله بن حنظلة و سبعمائه من المهاجرين و الأنصار و قتل منهم

معقل الأشجعي و عبد الله بن يزيد المازني مع عبد الله بن حنظلة الغسيل و هؤلاء من الصحابة و دخل مسلم المدينة و أباحها ثلاثة أيام و ذلك في آخر سنة ثلاث و ستين.

و في شفاء الغرام: قتل من أولاد المهاجرين ثلاثمائة نفر و جماعة من الصحابة و كانت الوقعة بمكان يقال له حرة و أقم كما سبق لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث و ستين من الهجرة ثم سار مسلم إلى مكة لقتال ابن الزبير و لما كان بالمشلل مات و دفن بثنية المشلل ثم نبش و صلب هناك و كان يرمى كما يرمى قبر أبي رغال دليل أبرهة المدفون بالمغمس، و المشلل على ثلاثة أميال من قديد بينهما خيمتي أم معبد و قيل مات بثنية هرشي بفتح أوله و سكون ثانيه مقصورة على وزن فعلى هضبة ململمة في بلاد تهامة لا تبت شيئاً على ملتقى طريقي الشام و المدينة و هي من الجحفة يرى منها البحر و الطريق من جنبتيها كذا في معجم ما استعجم. قال الشاعر:

خذ أبطن هرشي أو قفاها فإنه كلا جانبي هرشي لهن طريق

و مات مسلم بن عقبة بعد أن قدم على عسكره الحصين بن نمير فسار الحصين بالعسكر حتى بلغ مكة لأربع بقين من المحرم سنة أربع و ستين و قد اجتمع على ابن الزبير أهل مكة و الحجاز و غيرهم و انضم إليه من انهزم من أهل المدينة و كان قد بلغه خبر أهل المدينة و ما وقع لهم مع مسلم هلال المحرم سنة أربع و ستين مع المسور بن مخرمة فلققه منه أمر عظيم و اعتد هو و أصحابه و استعدوا للقتال و قاتلوا الحصين أياماً و تحصن ابن الزبير و أصحابه في المسجد حول الكعبة و ضرب أصحاب ابن الزبير في المسجد خياماً و رفاقاً يكتنون بها من حجارة المنجنيق و يستظلون بها من الشمس و كان الحصين بن نمير على أبي قبيس و على الأحمر و كان يرميهم بالحجارة و تصيب الحجارة الكعبة فوهنت.

و في الوفاء: حاصر مكة أربعة و ستين يوماً جرى فيها قتال و دقت الكعبة بالمجانيق يوم السبت ثالث ربيع الأول و أخذ رجل قبسا في رأس فطارت به الريح فاحترق البيت. و في أسد الغابة في هذا الحصر احترقت الكعبة و احترق فيها قرن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٩٦

الكبش الذي فدى به إسماعيل بن إبراهيم الخليل و كان معلقاً في الكعبة و دام الحرب بينهم إلى أن فرج الله عن ابن الزبير و أصحابه بوصول نعي يزيد بن معاوية و مات يزيد في منتصف ربيع الأول سنة أربع و ستين و كان وصول نعيه ليلته الثلاثاء لثلاث مضي من شهر ربيع الآخر سنة أربع و ستين و كان بين وقعة الحرة و بين موته ثلاثة أشهر. و قال القرطبي: دون ثلاثة أشهر و بلغ نعيه ابن الزبير قبل أن يبلغ الحصين و بعث إلى الحصين من يعلمه بموت يزيد و يحسن له ترك القتال و يعظم عليه أمر الحرم و ما أصاب الكعبة فمال إلى ذلك و أدبر إلى الشام لخمس ليال خلون من ربيع الآخر سنة أربع و ستين بعد أن اجتمع بابن الزبير في الليلة التي تلي اليوم الذي بلغه فيه نعي يزيد و سأل ابن الزبير أن يبايع له هو و من معه من أهل الشام على أن يذهب معهم ابن الزبير إلى الشام و يؤمن الناس و يهدر الدماء التي كانت بينه و بين أهل الحرم فأبى ابن الزبير ذلك.

و في حياة الحيوان: تحصن منه ابن الزبير بالمسجد الحرام و نصب الحصين المنجنيق على أبي قبيس و رمى به الكعبة المعظمة فيناهم كذلك إذ ورد الخبر على الحصين بموت يزيد بن معاوية فأرسل إلى ابن الزبير يسأله الموادة فأجابه إلى ذلك و فتح الأبواب و اختلط العسكران يطوفان بالبيت فينا الحصين يطوف ليله بعد العشاء إذ استقبله ابن الزبير فأخذ الحصين بيده و قال له سرا: هل لك في الخروج معي إلى الشام فأدعو الناس إلى بيعتك فإن أمرهم قد مرج و لا أحداً أحق بها اليوم منك و لست أعصى ههنا فاجتبد ابن الزبير يده من يده و قال: و هو مجهر بقوله دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام. فقال الحصين:

كذب الذي قال إنك من دهاة العرب أكلمك سرا و تكلمني علانية و أدعوك إلى الخلافة و تدعوني إلى الحرب ثم انصرف بمن معه من أهل الشام.

و قيل: بايعه الحصين ثم بايعه أهل الحرمين و جرت فتن كبار و اقتتل الناس على الملك بالشام و العراق و الجزيرة بعد موت يزيد و

بايع أهل دمشق بعد يزيد ولده معاوية بن يزيد و قيل بويح لابن الزبير بعد رحيل الحصين بالخلافة بالحرمين ثم بويح بها في العراق و اليمن و غير ذلك حتى كاد الأمر أن يجتمع عليه فولى في البلاد التي بويح له فيها العمال و في شوال سنة سبع و ستين كان طاعون الجارف و هو طاعون كان في زمن ابن الزبير مات في ثلاثة أيام في كل يوم سبعون ألفا و مات فيه لأنس بن مالك ثلاثة و ثمانون ابنا و مات لعبد الرحمن بن أبي بكر أربعون ابنا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٩٧

ثم قال صاحب تاريخ الخميس: و في المختصر و لم يزل ابن الزبير يقيم للناس الحج من سنة أربع و ستين إلى سنة اثنتين و سبعين، و لما ولي عبد الملك بن مروان في سنة خمس و ستين منع أهل الشام من الحج من أجل ابن الزبير و كان يأخذ الناس بالبيعة له إذا حجوا، فضج الناس لما منعوا الحج، فبنى عبد الملك الصخرة و كان الناس يحضرونها يوم عرفه و يقفون عندها، و يقال إن ذلك كان سببا للتعريف في مسجد بيت المقدس و مساجد الأمصار. و ذكر الحافظ في كتاب نظم القرآن أن أول من سن التعريف في مساجد الأمصار عبد الله بن عباس. انتهى.

ثم قال أيضا صاحب تاريخ الخميس: يروى أن عبد الملك بن مروان بعث الحجاج في سنة اثنتين و سبعين إلى ابن الزبير، و كان الحجاج لما وصل من عند عبد الملك نزل الطائف فكان يبعث منه خيلا إلى عرفه و يبعث ابن الزبير خيلا إلى عرفه فيقتلون بها فتنهزم خيل ابن الزبير و تعود خيل الحجاج بالظفر. ثم استأذن الحجاج عبد الملك في منزله ابن الزبير فأذن له فنزل الحجاج بئر ميمون و معه طارق بن عمر و مولى عثمان و كان عبد الملك قد أمد الحجاج بطارق لما سأله النجدة أي الشجاعة و الحرب على ابن الزبير فقدم طارق في ذي الحجة و معه خمسة آلاف و كان مع الحجاج ألفان و قيل ثلاثة آلاف من أهل الشام فحاصروه و كان ابتداء حصار الحجاج ليلة هلال ذي القعدة سنة اثنتين و سبعين من الهجرة. و في أسد الغابة: حصاره أول ليلة من ذي الحجة سنة اثنتين و سبعين من الهجرة و ذكر القولين في الرياض النضرة و حج الحجاج بالناس تلك السنة و وقف بعرفة و عليه درع و مقفر و لم يطوفوا بالبيت و لا بين الصفا و المروة و نصب الحجاج منجنيقا على جبل أبي قبيس كذا في أسد الغابة و حاصره سنة أشهر و سبع عشرة ليلة على ما ذكر ابن جرير و رمى به أحم الرمي و ألح عليه بالقتال من كل جانب و حبس عنهم الميرة و حصرهم أشد حصار و كان يرمى بالمنجنيق من أبي قبيس فيصيب الكعبة حجارة المنجنيق لكون ابن الزبير مكتنا بالمسجد. و في نهاية ابن الأثير أن ابن الزبير كان يصل في المسجد الحرام و أحجار المنجنيق تمر على إذنه و ما يلتفت كأنه كعب راتب أي منتصب. انتهى كل ذلك من تاريخ الخميس.

و من المقام: هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي، و أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنه، و أبوه الزبير بن العوام أحد المبشرين بالجنة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٩٨

ولد عبد الله المذكور عام الهجرة، و هو أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة، و كانت اليهود تقول: قد أخذناهم فلا يولد لهم بالمدينة و ولد. فكبر الصحابة حين ولد، و عن أمه أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة، قالت: فخرجت و أنا متم فأتيت المدينة، و نزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه و على آله و سلم فوضعت في حجره، ثم دعا بتمر فمضغها ثم تغل في فيه فكان أول شيء دخل في جوفه ريق النبي صلى الله عليه و سلم، ثم حنكه بالتمر ثم دعا له و برك عليه ثم مسح و سماه عبد الله ثم أمره أبوه الزبير أن يبائع النبي صلى الله عليه و سلم و هو ابن سبع أو ثمان فتبسم رسول الله صلى الله عليه و سلم حين رآه و بايعه، و لقد وصفه ابن عباس، رضى الله عنهما فقال: إنه عفيف الإسلام، قارئ القرآن، أبوه حوارى رسول الله صلى الله عليه و سلم و أمه بنت الصديق، و جدته صفية عمه رسول الله صلى الله عليه و سلم و عمه أبيه خديجة بنت خويلد. و عن عمرو بن دينار قال: ما رأيت مصليا أحسن صلاة من ابن الزبير.

و عن مجاهد: ما كان باب من العبادة إلا تكلفه ابن الزبير، و لقد جاء سيل بالبيت فرأيت ابن الزبير يطوف سباحة، و لقد حفظ ابن الزبير عن النبي صلى الله عليه و سلم و هو صغير و حدث عنه بجملة من الحديث و عن أبيه و عن أبي بكر و عمر و عثمان و خالته عائشة و سفيان بن زهير و غيرهم، و هو أحد العبادة و أحد الشجعان من الصحابة، و يكنى بأبي خبيب بولده.

و شهد ابن الزبير، وقعة اليرموك مع أبيه الزبير، و شهد فتح إفريقية و كان البشير بالفتح إلى عثمان و شهد الدار و كان يقاتل عن عثمان، ثم شهد وقعة الجمل مع عائشة و كان على الرجال ثم اعتزل حروب على و معاوية، ثم بايع لمعاوية فلما أراد أن يبايع ليزيد امتنع و تحول إلى مكة و عاذ بالحرم، فأرسل إليه يزيد سليمان أن يبايع له فأبى و لقب نفسه عائذ الله، فلما كانت وقعة الحره و فتك أهل الشام بأهل المدينة ثم تحولوا إلى مكة فقاتلوا ابن الزبير، و احترقت الكعبة أيام ذلك الحصار ثم جاءهم الخبر بموت يزيد بن معاوية فتوادعوا و رجع أهل الشام و بايع الناس عبد الله بن الزبير بالخلافه فلما مات مروان قام عبد الملك بن مروان و جهز الحجاج إلى ابن الزبير فقاتله إلى أن قتل ابن الزبير في جمادى الأولى سنة ثلاث و سبعين من الهجرة، انتهى باختصار من الإصابة في تمييز الصحابة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٩٩

و ذكر الإمام ابن كثير في تاريخه ترجمه وافية مطولة لعبد الله بن الزبير في آخر الجزء الثامن، فمما ورد فيه: عن ثابت البناني قال: كنت أمر بعبد الله بن الزبير و هو يصلى خلف المقام كأنه خشبة منصوبة.

و عن يحيى بن وثاب قال: كان ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد و تصعد لا تراه إلا جذم حائط و قال غيره: كان ابن الزبير يقوم ليله حتى يصبح و يركع ليله حتى يصبح و يسجد ليله حتى يصبح، و عن ابن المنكدر قال: لو رأيت ابن الزبير يصلى كأنه غصن شجرة يصفقها الريح يقع هاهنا و هاهنا. قال سفيان: كأنه لا يبالي به و لا يعده شيئا. و حكى بعضهم لعمر بن عبد العزيز أن حجرا من المنجنيق وقع على شرفة المسجد فطارت فلقه منه فمرت بين لحيه ابن الزبير و حلقة، فما زال عن مقامه و لا عرف ذلك من صورته، فقال عمر بن عبد العزيز: لا إله إلا الله جاء ما وصفت. و كان إذا دخل في الصلاة خرج من كل شيء إليها، و لقد كان يركع فيكاد الرخم أن يقع على ظهره و يسجد فكأنه ثوب مطروح.

و روى أنه كان يوما يصلى فسقطت حية من السقف فطوقت على بطن ابنه هاشم، فصرخ النسوة و انزعج أهل المنزل و اجتمعوا على قتل تلك الحية فقتلواها و سلم الولد، فعلوا هذا كله و ابن الزبير في الصلاة لم يلتفت و لا درى بما جرى حتى سلم. و كان يواصل الصوم سبعا يصوم يوم الجمعة و لا يفطر إلا ليلة الجمعة الأخرى، و يصوم بالمدينة و لا يفطر إلا بمكة، و يصوم بمكة فلا يفطر إلا بالمدينة، و قال بعضهم: لم يكن يأكل في شهر رمضان سوى مرة واحدة في وسطه. و قال خالد بن أبي عمران: كان ابن الزبير لا يفطر من الشهر إلا ثلاثة أيام. و قال بعضهم: كان ابن الزبير لا يناع في ثلاث: في العبادة و الشجاعة و الفصاحة.

و قال ليث عن مجاهد: لم يكن أحد يطبق ما يطيقه ابن الزبير من العبادة و قد ثبت أن عثمان، رضى الله عنه جعله في النفر الذين نسخوا المصاحف و كان صيتا إذا خطب تجاوبه الجبلان: أبو قيس، و زوراء.

و كانت ولاية ابن الزبير في سنة أربع و ستين و حج بالناس فيها كلها، و بنى الكعبة في أيام ولايته و كساها الحرير، و كانت كسوتها قبل ذلك الأنطاع و المسوح، و كان يطيب الكعبة حتى كان يوجد ريحها من مسافة بعيدة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٠٠

و كان مقتله على الصحيح المشهور يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى سنة ثلاث و سبعين، و أمه لم تعش بعده إلا مائة يوم و كانت أمه قد أتت عليها مائة سنة لم تسقط لها سن و لم يفسد لها بصير، رضى الله عنه و عن أبيه و أمه و عن أصحابه أجمعين. انتهى باختصار من تاريخ ابن كثير.

و جاء في تاريخ الخميس ترجمته مطولة نلخص منه هذه النبذة أيضا:

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي، يكنى أبا حبيب، و أمه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق، و أبوه الزبير أحد المبشرين بالجنة، و في الرياض النضرة: بويح ابن الزبير بالخلافة سنة أربع و ستين و قيل سنة خمس و ستين بعد موت يزيد بن معاوية و أجمع على طاعته أهل الحجاز و اليمن و العراق و خراسان و حج بالناس ثمانى حجج و في البحر العميق أقام عبد الله بن الزبير الحج للناس ثلاث و ستين قبل أن يبايع له فلما بويح له حج ثمانى حجج متوالية.

انتهى من تاريخ الخميس.

و جاء في تاريخ الخميس عن شجاعه ابن الزبير رضى الله تعالى عنه:

قال هشام بن عروة: لما كان قبل قتل ابن الزبير بعشرة أيام دخل على أمه أسماء و هى شاكية فقال لها: كيف تجدينك يا أمه؟ قالت: ما أجدنى إلا- شاكية فقال لها: إن فى الموت لراحة، فقالت: لعلك تمنيت لى ما أحب أن أموت حتى يأتى عليك أحد طرفيك إما قتلت فإن حسبك و إما ظفرت بعدوك فقرت عيني، قال عروة: فألثفت إلى عبد الله فأضحك، و لما كان اليوم الذى قتل فيه دخل على أمه أسماء فقالت له: يا بنى لا تقبلن منهم خطه تخاف على نفسك الذل مخافة القتل فو الله لضربه بسيف فى عز خير من ضربه بسوط فى ذل، فاتاه رجل من قريش فقال: ألا نفتح لك الكعبة فتدخلها، فقال عبد الله: من كل شىء تحفظ أخاك إلا من حتفه، و الله لو وجدوكم تحت أستار الكعبة لقتلوكم، و هل حرمة المسجد إلا كحرمة البيت، قال: ثم شد عليه أصحاب الحجاج، فقال عبد الله: أين أهل مصر، قالوا: هم هؤلاء من هذا الباب لأحد أبواب المسجد، فقال لأصحابه:

اكسروا أغماد سيوفكم و لا تميلوا عنى، قال: فأقبل الرعيل الأول فحمل عليهم و حملوا معه و كان يضرب بسيفين فلحق رجلا فضربه فقطع يديه فانهمزوا و جعل يضربهم حتى أخرجهم من باب المسجد، ثم دخل عليه أهل حمص فشد عليهم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٠١

و جعل يضربهم حتى أخرجهم من باب المسجد، ثم دخل عليه أهل الأردن من باب آخر فقال: من هؤلاء؟ فقيل: أهل الأردن فجعل يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من المسجد، ثم انصرف فأقبل عليه حجر من ناحية الصفا فوقع بين عينيه فنكس رأسه و فى الصفوة فأصابته أجرة فى مفرقه ففلقت رأسه فوقف قائما و هو يقول:

و لسنا على الأعقاب تدمى كلومناو لكن على أقدامنا تقطر الدما

و فى الرياض النضرة: ثم اجتمعوا عليه فلم يزالوا يضربونه حتى قتلوه و مواليه جميعا، و لما قتل كبر عليه أهل الشام، فقال عبد الله بن عمر: المكبرون عليه يوم ولد، خير من المكبرين عليه يوم قتل، و فى الرياض النضرة روى أنه لما اشتد الحصار بابن الزبير قامت أمه أسماء يوما فصلت و دعت و قالت: اللهم لا تخيب عبد الله بن الزبير و ارحم ذلك السجود و التحنث و الظمأ فى تلك الهواجر. و كان قتله يوم الثلاثاء لسبع عشرة أو ست عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث و سبعين من الهجرة و هو ابن اثنتين أو ثلاث و سبعين سنة كذا أخرجه صاحب الصفوة. انتهى من تاريخ الخميس.

قال أمير الشعراء أحمد شوقي بك رحمه الله تعالى فى كتابه «دول العرب و عظماء الإسلام» فى خلافة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ما نقتطف من قوله ما يأتى:

ابن الزبير و كفى تعريفاً إن الشريف يلد الشريفاً

أبوه هضبة العلا السماء و أمه فى الشرف السماء

مستقبل الأيام بالصيام و متعب الظلام بالقيام

و أخوف الناس إذا الليل دجاو أشجع الناس إذا تدججا

و أظهر المعاهدين ذمة و أكبر المجاهدين هممة

ثم قال أمير الشعراء بعد عدة أبيات ما يأتى:

فجاء أمه، و من كأمه لعلها تحمل بعض همه
و البيت تحت قسطل الحجاج وخيله أو اخذ الفجاج
فقال ما ترين فالأمر لك للموت أمضى أم لعبد الملك
قالت بنى ولد القوام وابن العتيق القائم الصوم
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٠٢ انظر فإن كنت لدين ثرت فلا تفارق ما إليه سرت
أو كانت الدنيا قصارى همتك فبئس أنت كم دم بدمتك
الحق بأحرار مضوا فأحسنوا فالموت من ذل الحياة أحسن
و لا تقل هنت بوهن من معى فليس ذا فعل الشريف الألمعى
و مت كريما أو ذق هوانا و عبث الغلمان من مروانا
أنت إلى الحق دعوت صحبكا فاقض كما قضوا عليه نجبكا
و لا تقل إن مت مثلوا بى و طاف أهل الشام بالمصلوب
هيئات ما للسلخ بالشاة ألم و رب جذع فيه للحق علم
و عانقته فأحست درعا قالت أضقت بالمنون ذرعا
مثلك فى ثيابه المشمره جاهد لا فى الخلق المسمره
لا تمض فيها و أرق منها الجسد و امض بلا درع كما يمضى الأسد
فنزع الشرة عنه و انطلق فى قله يلقى العديد فى الحلق
فمات تحت المرهفات حرالم يأل خير الأمهات برا
و عبد الله بن الزبير، رضى الله تعالى عنهما، و أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنهما و عن جميع صحابه رسول الله
صلى الله عليه و سلم أجمعين، مدفونان فى مقبرة المعلا بمكة المشرفة و قبرهما معروفان إلى اليوم بجهة شعبة النور و قد وقفنا عليهما
أن قبريهما بجوار بعضهما لا يبعدان عن بعضهما إلا بنحو خمسة عشر مترا، و كل قبر منهما عليه جدار قصير من الجهات الأربعة و
فتحة للباب رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

اختلاف العلماء فى بعض المسائل الدينية

بمناسبة اختلاف عظماء الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى هدم و تجديد بناء الكعبة المعظمة فى عهد عبد الله بن الزبير رضى الله
تعالى عنهما كما تقدم بيانه و تفصيله، فإنه لما أراد بناء الكعبة بعد احتراقها، دعا ابن الزبير وجوه الناس و أشرافهم و شاورهم فى هدم
الكعبة و تجديد بنائها، فأشار عليه قليل من الناس بهدمها و بنائها ثانيا، و أبى أكثر الناس هدمها حرمة لها، و كان أشد الناس إباء عليه
عبد الله بن عباس، رضى الله تعالى عنهما، فإنه قال له: دعها على ما أقرها
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٠٣
عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم، فإنى أخشى أن يأتى بعدك من يهدمها فلا تزال تهدم و تبنى فيتهاون الناس فى حرمتها و لكن
أرقعها.

فقال ابن الزبير: و الله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه و أمه، فكيف أرقع بيت الله سبحانه و تعالى، و أنا أنظر إليه ينقض من أعلاه
إلى أسفله حتى أن الحمام ليقع عليه فتتناثر عليه حجارتة.

فكان ممن أشار عليه بهدمها جابر بن عبد الله، و عبيد بن عمير، و عبد الله بن صفوان بن أمية، فأقام ابن الزبير أياما يشاور و ينظر ثم

أجمع على هدمها فهدمها و بناها.

لهذه المناسبة نذكر في هذا المبحث شيئاً يسيراً من المسائل التي اختلف العلماء فيها، فمن أصاب بعد الاجتهاد فله أجران، و من أخطأ بعد الاجتهاد فله أجر واحد، لأن أئمة المسلمين و علماءهم منزهون عن الهوى و الأغراض النفسانية، في الحكم على المسائل الدينية و الأمور الشرعية، التي لم يرد فيها نص صريح في الكتاب و السنة.

فمن أشار بهدم الكعبة المشرفة من كبار الصحابة، إنما يريد تقويتها و تجديد بنائها بعد أن رأى ما حل بها من الوهن و تناثر حجارتها، و من أشار بترقيعها و ترميمها و عدم هدمها، نظر إلى حرمتها و عدم العبث فيها بالهدم و البناء خوف التهاون بحرمتها في المستقبل، و لا يخفى أن كلا الفريقين من كبار الصحابة و فضلائهم و من أشرف قريش أولى الحل و العقد، و لكل من الفريقين وجهة معقولة. و إن ما قام به ابن الزبير رضى الله تعالى عنه، من الهدم و البناء لهو عين الصواب.

و من قبل اختلف كبار الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، في جمع القرآن الكريم و كتابته، و ذلك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه و سلم، و في عهد أبي بكر، رضى الله تعالى عنه، فقد روى البخارى في صحيحه عن عبيد بن السباق: أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضى الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقاء القرآن، و إنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن و إنى أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٠٤

شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه و سلم قال عمر: هذا و الله خير، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك و رأيت فى ذلك الذى رأى عمر، قال أبو بكر:

إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك و قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه و سلم فتتبع القرآن فاجمعه، فو الله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: هو و الله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله صدر أبى بكر و عمر، رضى الله عنهما، فتتبع القرآن أجمعه من العسب و اللخاف و صدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمه الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ... حتى خاتمه براءة، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنهما. انتهى.

فانظر رحمك الله كيف أن أبا بكر و زيد بن ثابت لم يجمعا القرآن و يكتباه كما أشار عليهما عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، إلا بعد التروى و التفكير و الجدل، و إنه و الله لهو خير عمل قاموا به. و لقد فصلنا مسألة جمع القرآن الكريم فى كتابنا «تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه» و هو مطبوع بمصر فارجع إليه إن شئت.

فاختلاف الأئمة و نشأة المذاهب كانت من قبيل هذا الباب، و انظر كيف أنهم اختلفوا قديماً فى مسألة أخذ الأجره على كتابة القرآن و تعليمه، و أخذ الأجره على الأذان و الإمامة، و اختلفوا فى حكم بيع دور مكة.

ثم انظر كيف اختلف العلماء فى العصور القريية، فى حكم شرب قهوة البن، و فى شرب دخان التتن و التبناك، و فى استعمال الساعات الزمنية التى تبين الأوقات، و فى استعمال التليفونات، و غير ذلك. فبعضهم قال بالتحريم و بعضهم قال بالجواز.

و نحن لا- نريد سرد جميع المسائل التى اختلفوا فيها، فإن ذلك مما يطول شرحه و يخرجنا عن المقصود، و إنما أتينا بهذا لتنبية الأذهان و العلم به فى الجملة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٠٥

و مما يلحق بالمبحث المتقدم و يستحسن الإتيان به و إن كان ما تقدم من المسائل الدينية و ما سنذكره من الأمور الدنيوية المحضه، ما ذكرته إحدى مجالات الهلال التي تصدر بمصر، القاهرة في عصرنا، لم نعلم رقمها و تاريخ صدورها لفقدان غلافها و أوائل أوراقها منها، و نظن أن تاريخ صدورها كان في عام (١٩٣٠) من الميلاد أو بعده بعام، فقد كتب الأستاذ «أمير بقطر» في هذه المجلة مقالة بعنوان:

«لكل جديد لدعة» هذا نصها:

لكل جديد لدعة في بعض الأحيان، و لدعة في غيرها، و ليست المبادئ و العادات و التقاليد وحدها هي التي يصعب نبذها و التمسك بسواها، فإن للأشياء المادية المحسوسة سلطانا على صاحبها و سيادة قوية السواعد، شديدة المراس، كثيرة البطش. يقول علماء النفس: أن الإقلاع عن عادة ألفها الإنسان و الرجوع عن رأى معروف من العورة بمكان عظيم، لأنه يدعو إلى اعتناق مبدأ جديد و اتباع عادة جديدة، و اعتناق هذا المبدأ أو اتباع هذه العادة يتطلب تفكيراً و موازنة و ترجيح مبدأ على مبدأ و عادة على عادة في هذا كله من العناء و النصب و التعب ما لا يخفى، و المرء بطبيعته ميال إلى الراحة و الكسل، و قل من لا يهوى الخلود إلى السكينة و من يرغب في عناء التفكير حبا في البحث عن الحقيقة و الجرى وراء الأصلاح، ما لم يكن الدافع ضرورة قصوى، اقتصادية أو اجتماعية، انقاء لشر، أو خشية الوقوع في خطر، أو دفاعاً عن النفس.

يقول الرياضيون: إن أقرب مسافة بين نقطتين الخط المستقيم، غير أن الذين يجدون في كل جديد لدعة، يزعمون أن النقطة أو المكان الذي هم فيه هو أقرب مسافة بين نقطتين، كما يزعم الفلاسفة و الساسة أن الخط المتعرج المنحني أقرب هذه المسافات، لأن اللف و الدوران في نظر الفلاسفة أقرب طريق إلى الحقيقة، و في نظر الساسة أقرب طريق إلى نيل المراد، و الجمود في نظر الأصوليين أقرب طريق إلى كل مكان في الوجود.

إن في تاريخ التمدن الإنساني فترات تقهقر فيها البشر خطوات إلى الوراء، و مراحل شلت فيها أعمالهم، و أصاب كبد مشروعاتهم سهام الفشل و الخيبة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٠٦

و يعزو أحد علماء الكيمياء سبب هذا التقهقر و ذاك الفشل إلى مرض معد يصيب العقول و يتفشى بين الناس بسرعة البرق، و يدعى نيوفوبيا و هو يشبه الهيدروفوبيا، غير أن المرضين و إن اتفقا في الأعراض يختلفان في الأسباب. ففي حالة المرض الثاني يقال إن العليل عند رؤية الماء يعتربه الخوف و الحنق الشديد، و في الحالة الأولى تظهر عليه علامات الانقلاب و التأفف و أعراض الاستياء الشديد عند رؤية كل جديد، و هذا الداء كثير الانتشار و متى أزمّن لا يعرف له بين العقاقير من دواء غير السم الزعاف. و من المشاهد أن الناس جميعهم يحملون جراثيم هذا الداء و كلنا عرضة لظهور أعراض خفيفة منه «و طفح» بسيط من جرائمه. و تمتاز عصور عن عصور و بلاد عن بلاد بتفشييه بصفة عدوى سريعة الانتقال، غير أن أسلم طريقة للوقاية منه هي استعمال «مصل» التريية العلمية التي تدعو للتفكير و البحث و قبول الآراء الحديثة.

الاختلاف في استعمال السكة الحديدية

كتب أحد أعضاء البرلمان الإنجليزي في مارس سنة (١٨٢٥) الكتاب الآتي تعليقا على أول اقتراح في البرلمان لإنشاء أول خط حديدي في إنجلترا:

لقد اتضح لي في ختام الأمر أن صاحب الاقتراح ذاهب العقل لا مشاحه، فقد كان زبد الغيظ يفور من فمه كما تفور القدرور، و هو يقترح إدخال تلك الآلة الجهنمية ذلك الوحش الضارى، الذي يحمل ثمانين طنا من السلع، و يزجج عباد الله بدخان الكثيف بين

منشستر و ليفربول. و الحمد لله فقد خنق ذلك الشيطان الملعون في مهده، إذ جاءت أصوات الأغلبية الساحقة ضده و انسحب أصحاب الاقتراح غير مأسوف عليهم.

الاختلاف في استعمال البخار في الأسطول

و من قبيل هذا الخطاب ما حدث في مجلس النواب الإنجليزي، فإنه عندما اقترح نائب إدخال البخار في الأسطول، قام نائب آخر متنفضا و خاطب صاحب الاقتراح و هو يتدفق غضبا قائلا:
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٠٧
إننا عندما ننخرط في سلك البحرية يا حضرة النائب المحترم، نعرض ذواتنا لخطر الحرب و نذهب متأهين لمعانقه رقاب المنايا، تقطيعا و نسفا و رميا برصاص البنادق و شظايا القنابل، و لكننا يا حضرة النائب المحترم نأبى أن نغلى غليا و نحن على قيد الحياة.

الاختلاف في استعمال التدفئة و أنابيب الماء و تشييد المنازل العالية

و لما أن أدخلت نظم التدفئة و أنابيب الماء و شيدت المنازل العالية ذات الأدوار العديدة في «روما» استشاط سفيكا الحكيم الرومانى غيظا، و نقم عليها و أعلن سخطه على رؤوس الملاء قائلا: إنها خطر داهم على الأخلاق و تهديم للفضيلة و تحسر على الماضى، و أبان كيف أن الأقدمين كانوا يعيشون أحرارا نبلاء تحت سقوف من القش، فى حين أن العصريين عبيد أرقاء تستر ذلتهم قصور عمادها المرمر و الرخام، و جدرانها المنقوشة بالذهب الوهاج.
و لو أتيح لهذا الحكيم أن يبعث من قبره اليوم و يشاهد إحدى ناطحات السحاب التى يتجاوز عدد طبقاتها المائة فى نيويورك لغته اللاتينية.

الاختلاف في استعمال الشوكة و السكين فى الأكل

و حدث فى الجيل السابع عشر للميلاد أن رجلا دخل محلا حاملا معه آلة شيطانية و هى شوكة الأكل المعروفة، و لما أن عرف عنه أنه يستعملها للقبض على قطع اللحم بدلا من أصابعه كان موضع الهزء و السخرية. و عد عمله هذا مجونا و إهانة للعناية الربانية و قالوا: «كيف يجرو أمرؤ أن يخجل من لمس طعام بإصبعه».
و من أسخف و أغرب ما سمعناه منذ سنوات، أن مدرسة أجنبية للبنات فى مصر كانت تشجع الفتيات (المصريات) على الأكل بأصابعهن بدلا من السكين و الشوكة، بدعوى المحافظة على التقاليد الشرقية، ألا يعلم أصحاب ذلك المعهد أن الشوكة لم تهبط على أوروبا من السماء، و أن مصر كغيرها من البلدان، لها حق التمتع بمزايا الميراث الاجتماعى فى حدود المعقول أيا كان منشؤه و نوعه، و أن الاستعانة بالآلات على اختلاف أنواعها لمن الفروق الهامة بين الهمجية و المدنية.
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٠٨

الاختلاف فى لبس البنطلونات

و لما اعتنق البلغاريون المسيحية، عقد رجال الدين مجلسا للبحث، فى هل تتفق السراويل التى يلبسها أهالى بلغاريا مع الدين الجديد الذى تدينوا به، و ذلك لأن السراويل (البنطلونات) كانت غير معروفة عند المسيحيين فى بادئ الأمر، و قد انقلبت الآية اليوم فإن بعض المسيحيين الذين ينشرون دينهم فى آسيا و أفريقيا، يشجعون معتنقى المسيحية على ارتداء السراويل تشبها بهم سواء أكان ذلك يلائم جو البلاد أم لا يلائمه.

و في عصر شكسبير كان يقوم الرجال بأدوار السيدات في رواياتهم، كما يفعل الآن طلبة مدارسنا في كثير من الأحوال، و لما أن ظهرت في فرنسا سنة (١٦٢٩) ميلادية «بدعة جديدة» و هي أن يقوم النساء بالأدوار النسائية أخذ المتفرجون في الصفيير و الزمر و ضرب الممثلين و الممثلات ببذور البرتقال.

الاختلاف في استعمال النظارات

و من أفكه القول ما وقع في إنجلترا عند ظهور النظارات تحت إشراف الجمعية الملكية، فقد طعن بعضهم في الزي الجديد و قالوا: إنه مفسدة للأخلاق، و أن النظارة تعد المساواة بين من يلبسها و من لا يلبسها من الرجال، و أضافوا إلى هذا أن المرأة لا يمكنها أن تضع نظارة على عينيها لأسباب تتعلق بالجمال و الحكمة، و بهذا تعد المساواة بين الرجل و المرأة. و أذاع قسيس مشهور بيانا أعلن فيه أن في النظارات اعتداء جريئا على الأخلاق، لأن فيها قلبا للحقائق المرئية بالعين المجردة، و وضع الأشياء وضعاً غير طبيعي لما تشعه عليها من ضوء كاذب.

الاختلاف في استعمال أحواض الاغتسال

و في منتصف القرن التاسع عشر للميلاد أقبل الناس في أمريكا على شراء سلعة جديدة، و هي أحواض الحمامات «بانيو» لاستعمالها في المنازل، و ما كادت تأتي إلى عالم الوجود حتى هجاها رجال الأقلام و الصحافة، بألسنة حداد، و قالوا: إنها مدعاة للبخ و الإسراف و منافية لمبادئ الديمقراطية، و زاد الأطباء في الطنبور نغمة فادعوا أنها خطر يهدد الصحة العامة و نادوا بمقاطعتها، و استعان المعارضون

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٠٩

بالحكومة كالمعتاد، و طلبوا منها مصادرة هذه البدعة أو تضييق نطاقها، بفرض ضريبة جسيمة على أصحابها و إجبارهم على استخراج رخص رسمية قبل السماح لهم بالانتفاع بها، و فعلا بلغت الضريبة على الحوض الواحد في ولاية «فرجينيا» ثلاثين ريالاً، و حرمت بلدية بوستن استعمال هذه الأحواض تحريماً باتاً شرعياً إلا إذا أشار الأطباء على أحد بها.

الاختلاف في استعمال المطابع

و عند ظهور الكتب المطبوعة لأول مرة لم يقبل الناس على شرائها، حتى أفهموا غشا و تضليلاً أنها مخطوطات، و طعن العلماء الطليان على الطباعة طعناً جارحاً، و قالوا إنها بدعة همجية ألمانية و نادى كهنتهم «لنهدم كيان الطباعة أو تهدم هي كياننا». و لما دخلت المطبعة إلى تركيا في زمن السلطان أحمد الثالث، أفتت مشيخة الإسلام بجواز استعمالها، إلا أنه بقي طبع المصحف ممنوعاً، ثم عادت الدولة العثمانية فمنعت المطبعة، ثم جاء السلطان عبد الحميد الأول فأعادها، و جاء السلطان محمود فاهتم بها أكثر، و يقال إنه في سنة (١١٢٩) هجرية أفتى شيخ الإسلام بالآستانه عبد الله أفندي بجواز طبع الكتب غير الدينية، و قيل: بل إنه أفتى بجواز الطباعة.

الاختلاف في أكل الملح و الموز و البطاطس و الطماطم

و عند وصول السفينة الأولى إلى إنجلترا محملة ملحاً لم يقبل على شراء الملح أحد فألقى في اليم. و الموز على حلاوته كان «مضغاً» في الأفواه عند أول ظهوره في لندن، فلم يتيسر لتجاره أن يوزعوه بأى ثمن. و أخيراً حاولوا توزيعه مجاناً على صعاليك المدينة و فقرائها فأبوا، و أخيراً ترك في مكانه يتسرب إليه الفساد.

و البطاطس فى بدء عهد إنجلترا بها أعدمت بدعوى أنها ضارة بالمجتمع الإنسانى. أما الطماطم فديست بالأقدام، لأن فيها إفسادا لأخلاق الأمة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١١٠

الاختلاف فى قبول البنات فى المدارس

منذ سبعين عاما أى فى حوالى سنة (١٨٥٠) ميلادية لم تقبل البنات فى أميركا سوى كليه واحده، و لم تقبل امرأة فى مطعم إلا مصحوبه بذويها، و لم يكن لامرأة حق التصويت فى بلاد العالم كلها، و منذ عهد قريب لما أن ألفت السيدات الحجارة على البرلمان الإنجليزى احتجاجا على حرمانهن من حق الانتخاب، صاح أحد النواب متهكما: «زوجوا الأوانس منهن فيكفن عن المطالبة بحقوقهن».

الاختلاف فى استعمال الكهرباء

و الكهرباء عند بدء إدخالها فى عواصم المديرىات فى مصر لم تقبل على الرحب و السعة من جميع السكان على السواء، فقبل عنها فى بعض الدوائر أنها تذهب بالبصر و تلحس نور العين، و قيل عنها فى أوساط أخرى أنها تعرض المباني و المنازل لخطر الحريق، و تباهى بعض ذوى البنايات الفخمة من أعداء الجديد، بأنهم محافظة على التقاليد يرفضون بتاتا إدخال البدعة الغربية فى منازلهم، و قد رفض الكهنه فى كثير من الكنائس أن يجعلوا للشموع و القناديل الزيتية مزاوحا، فبقيت الكهرباء ردحا من الزمن محرما غير أننى أذكر أن تلك العقبات التى وضعت فى سبيل هذا الاختراع العجيب لم تك إلا حواجز من الهشيم، حيث أقبل الناس جميعا فيما بعد على استعمال الكهرباء، و أضيئت بها الكنائس فبددت غياهب الظلمات فيها، و اختفت أمام شموعه الساطعة أصوات المحتجين من ذوى العمائم السوداء.

الاختلاف فى استعمال السيارات و العربات

و لا أزال أذكر أيضا أن بعض الأعيان فى عواصم المديرىات على غناهم الوافر و ثرواتهم الطائلة ظلوا زمنا طويلا يترددون فى استعمال العربات و الأوتوموبيلات، و داموا يمتطون ظهور الحمير البيضاء المقصوصة الشعر المكسوة سرجها بالقטיפه الحمراء يخترقون شوارع المدينة الكبرى، فيقف لهم الناس إجلالا على الجانبين، و هم يفاخرون أنهم لا يزالون على عهدهم الماضيه و أن ظهر الدابة أكثر و جاهه و أعز جانبا و أرفع مقاما من متكآت العربه و مساند الأوتوموبيل، و أن خطوة الحمار

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١١١

الهادئة و مشيته الوئيدة الناعمة، أصح للمعدة و الأمعاء من رجة السيارة و سرعتها الخاطفة، و صعودها و هبوطها و حركاتها البهلوانية الشيطانية و جموحها الذى لا يكبح.

الاختلاف فى استعمال الشمسية

فى أوائل القرن الثامن عشر للميلاد أدخلت الشمسية «أى المظلة» إلى أوروبا، فاستقبلها الناس عند ظهورها بجميع مظاهر السخرية و الاستهزاء، بل لما ظهرت لأول مرة فى شوارع لندن أخذ المارة يرشقون حاملها بالحجارة، ثم فيما بعد ألفها الناس و أدركوا منافعها.

الاختلاف فى استعمال الصابون

جاء في كتاب «صفحات من تاريخ الكويت» تأليف الأستاذ يوسف بن عيسى الفناعي ما نصه: و كانوا- أى أهل الكويت- إذا أكلوا العصيدة مسحوا أيديهم بأرجلهم، و كانوا لا يستعملون الصابون إلا من مدة قليلة، و أذكر بهذه المناسبة النادرة التالية و هي:

دخل رجل اسمه عيسى أبو عبود على المرحوم الأخ أحمد، فوجده يغسل يده بالصابون بعد العشاء فقال له متأسفاً: آفا عليك يا أحمد تغسل يدك بالصابون؟

فأجابه أحمد أن الأخ يوسف يغسل يده بالصابون مثلي، فرد عليه عيسى بشدة:

حاشا على ذلك الوجه أن يغسل يده بالصابون. انتهى من الكتاب المذكور.

فانظر رحمك الله إلى مثل هذا التعصب الشديد، و اعلم أن كثيرا من بدو الأعراب و بدو اليمن يفعلون ذلك أيضا، أى يمسخون أيديهم فى وجوههم أو فى ذراعهم أو فى أرجلهم بعد الأكل الذى فيه الدسم كاللحم و السمن و الشحم، و لا يغسلون أيديهم و يقولون كيف يغسلون أيديهم من نعمه الله. و هذه حالة قديمة العهد ترجع إلى العصور الأولى من نشأة الإنسان و لكن هذه الحالة تزول سريعا من البدو و الأعراب إذا خالطوا أهل المدن.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١١٢

الاختلاف فى بناء برج إيفل بباريس

لما أراد «جوستاف إيفل» بناء البرج العظيم فى باريس عاصمة فرنسا الذى سمي فيما بعد باسمه «برج إيفل» وجد عقبات كثيرة فى مشروعه هذا و قام ضده كثيرون و نسبوه إلى الجنون، بل قدموا فيه مذكرة رسمية قالوا فيها ما يأتى:

«نحن جماعة الكتاب و المصورين و النحاتين و المهندسين و عشاق باريس الذين يغارون على جمالها، نحتج بكل قوانا و نعرب عن مزيد اشمئزازنا باسم الذوق الفرنسى و الفن الفرنسى، بل باسم تاريخ فرنسا كله المعرض الآن للاحتقار بسبب إقامة برج إيفل الشنيع المنظر الذى لا فائدة منه على الإطلاق فى قلب عاصمتنا الجميلة».

هذا ما كتبه حساده و معارضو مشروعه، لكن الرجل لم يحفل بهم لأنه كان قوى الإيمان بفائدة مشروعه العظيم، فبدأ بإنشاء البرج فى سنة (١٨٨٧) سبع و ثمانين و ثمانمائة و ألف من الميلاد، و أكمل بناءه فى سنة (١٨٨٩) ميلادية، و بعد سنة من إكمال بنائه فتح للجمهور.

ثم إنه فى سنة (١٩٠٣) من الميلاد أنشئت فى هذا البرج إدارة للتلغراف و اللاسلكى و هو من أكبر المحطات اللاسلكية فى العالم، و قد زاد إيراد البرج فى السنة الأولى من حياته على نفقة بنائه، و لا تزال إيراداته عظيمة جدا، و قد بلغت نفقات بناء هذا البرج سبعة ملايين و ثمانمائة ألف فرنك فى ذلك الوقت، و بلغ عدد الذين زاروه يوم الاحتفال بافتتاحه (٢٣٢٠٠) شخص.

و يبلغ عمق أساسه خمسة عشر مترا، و يبلغ ارتفاعه ثلاثمائة متر، و يبلغ وزن الحديد الذى فيه من أساسه إلى قمته سبعة ملايين كيلو غرام، و استنفذ فى رسوم تصميماته خمسة عشر ألف متر مربع من ورق الرسم.

الاختلاف فى الانتقال من الأحياء القديمة

و لم يغب عن ذاكرتى المنازعات و الخصومات التى كانت تقوم بين الآباء و أبنائهم فى أعرق الأسر و أكرمها، و لم تك هذه الحروب الشعواء إلا صراعا بين أب محافظ يريد أن يقضى البقية الباقية من حياته فى منزل أجداده فى ذلك الحى القديم، الذى هجره ذووه و لم يبق فيه إلا الفقراء و متوسطو الحال، و بين ولد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١١٣

يرغب فى الانتقال إلى أحد الأحياء الجديدة حيث يقطن «ذوات» البلد و حيث تكثر المنازل الحديثة التى تتوافر فيها الشمس المضيئة و

الهواء النقي و المرافق الحديثة، و الحمامات المجهزة بالأحواض و الأنابيب التي يجرى بها الماء الساخن و البارد، و الغرف الصحية المطلة على الحدائق الغناء.

الاختلاف في تعليم البنات

و يقول أمين سامى باشا فى مؤلفه «التعليم فى مصر» إن الأهالى فى أول الأمر كانوا عقبه كؤودا فى طريق تعليم بنينهم، أما تعليم البنات فلم يصادف تسهيلات فى أول الأمر، حتى اضطر محمد على باشا إلى إصدار أمره بشراء عشر جوار سودانيات صغيرات السن لتلقى فن الولادة و معهن اثنان من أغوات حرم القصر ليتعلما فن الطب و الجراحة. و ليست العقبات التي صادفها محبذو تعليم البنات بعيدة العهد، فإن إحصاءات سنة (١٩٣٠) ثلاثين و تسعمائة و ألف ميلادية فقط تدل على أن عدد الطالبات فى مدارس وزارة المعارف الثانوية لم يتجاوز (٣٩٦) مقابل (١٤٨٧٧) من الطلبة الذكور.

و قد لاقى كلوت بك فى مدرسة قصر العين الأمرين لأن الأهالى كانوا يعارضون فى تشريح الجثث و يعدونه اعتداء على حرمة الموتى.

و عند إنشاء مدرسة روض الأطفال فى قصر الدوبارة بمصر منذ سنوات تعبت ناظرة المدرسة كثيرا فى إقناع الوزارة بأن قبول البنين و البنات للتعليم تحت سقف واحد من تلك المدرسة لا عيب فيه لأنهم أطفال أبرياء لا تتجاوز سنهم السادسة.

إلى هنا انتهى مقاله أمير بقطر فى مجلة الهلال. و أمثال هذا كثير و فيما تقدم الكفاية.

نقول: إن ما تقدم من الأمور المختلفة و قد حكم الناس بادئ الأمر فيها بالرفض، ثم أجمعوا على قبولها و استعمالها، لو أنهم ترووا فى الحكم و نظروا بإمعان، لوصلوا إلى نتيجة حسنة و حكم مرضى فى جميع الحالات، و فيما ذكرناه درس مهم واضح، و الدنيا عبر و دروس و المعتبرون أنواع شتى، و كل يأخذ نصيبه بقدر استعداده.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١١٤

البنية العاشرة: بناء الحجاج الثقفى الكعبة

إشارة

(العاشرة) ممن بنى الكعبة الغراء: الحجاج بن يوسف الثقفى.

قال الإمام الأزرقى فى تاريخه بعد أن ذكر بناء عبد الله بن الزبير إلى أن قتل، رضى الله تعالى عنه و عن أبيه ما نصه: و دخل الحجاج مكة فكتب إلى عبد الملك بن مروان أن ابن الزبير زاد فى البيت ما ليس منه و أحدث فيه بابا آخر فكتب إليه يستأذنه فى رد البيت على ما كان عليه فى الجاهلية، فكتب إليه عبد الملك بن مروان أن سد بابها الغربى الذى كان فتحه ابن الزبير و إهدام ما كان زاد فيها من الحجر و أكبسها به على ما كانت عليه فهدم الحجاج منها ستة أذرع و شبرا مما يلى الحجر و بناها على أساس قريش الذى كانت استقصرت عليه و كبسها بما هدم منها و سد الباب الذى فى ظهرها و ترك سائرهما لم يحرك منه شيئا فكل شىء فيها اليوم بناء ابن الزبير إلا الجدار الذى فى الحجر فإنه بناء الحجاج و سد الباب الذى فى ظهرها و ما تحت عتبة الباب الشرقى الذى يدخل منه اليوم إلى الأرض أربعة أذرع و شبر كل هذا بناء الحجاج، و الدرجة التى فى بطنها اليوم و البابان اللذان عليها اليوم هما أيضا من عمل الحجاج.

سبب بناء الحجاج الكعبة

يظن بعضهم أن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لم يأمر الحجاج بهدم ما زاده ابن الزبير في الكعبة إلا للخصومة التي كانت بينهما، ولكن هذا الظن ليس في محله و يبعد على جميع المسلمين بالأخص أهل القرن الأول الذين هم خير القرون أن تمتد أيديهم إلى بيت الله الحرام بالهدم و البناء اتباعا لهوى النفس و نكالا بالخصم بل أنهم لا يجروون على بنائه و تعميره إلا في حالة الاضطرار و النهاية القسوى و بعد الاستشارة و استفتاء العلماء.

و حقيقة الأمر: أن عبد الملك بن مروان ما أمر الحجاج بذلك إلا ظنا منه أن ابن الزبير لما احترقت الكعبة في أيام حصاره هدمها و بناها على حسب رغبته و اجتهاده و يدل على ذلك ما ذكره الإمام الأزرقى في تاريخه فإنه قال: فلما فرغ الحجاج من هذا كله - أى بناء الكعبة - وفد بعد ذلك الحارث بن عبد الله بن أبي التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١١٥

ربيعه المخزومي على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك: ما أظن أبا خبيب - يعنى ابن الزبير - سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها في أمر الكعبة، فقال الحارث: أنا سمعته من عائشة قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: سمعتها تقول: قال لى رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن قومك استقصروا في بناء البيت و لو لا حدثه عهد قومك بالكفر أعدت فيه ما تركوا منه فإن بدا لقومك أن بينوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: و جعلت لها بابين موضعين على الأرض بابا شرقيا يدخل الناس منه، و بابا غربيا يخرج الناس منه، قال عبد الملك بن مروان: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا سمعت هذا منها، قال: فجعل ينكت منكسا بقضيب في يده ساعة طويلة ثم قال: وددت و الله أنى تركت ابن الزبير و ما تحمل من ذلك. انتهى من الأزرقى.

فهذا دليل واضح أن عبد الملك ما كان يعلم أن ابن الزبير بنى الكعبة بموجب الحديث الذى سمعه من خالته عائشة رضى الله عنها، فلما ثبت ذلك كله عنده و تحقق لديه ندم على فعله فإذا تأملت في الحديث المذكور لمع لك بارق المعجزة النبوية ففى قوله صلى الله عليه و سلم لعائشة: فإن بدا لقومك أن بينوه فهلمى لأريك الخ ...

معجزة باهرة على أن الكعبة ستبنى بعد وفاته و فى إخباره لها بذلك بالأخص إشارة إلى أن بناءها يكون فى حياتها و أن الذى سينبئها هو من أقاربها عبد الله بن الزبير هو ابن أختها أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه، و قد تحقق كل ذلك و كلتا الإشارتين تحققتا بعد موته صلى الله عليه و سلم بثلاث و خمسين سنة.

جاء فى الجزء الثانى من شرح كتاب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم» عند حديث: «لو لا حدثه قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته ... الخ» ما نصه: و لما أراد هارون الرشيد أن يهدم البيت و يعيده على هيئة ابن الزبير الموافقة لأساس إبراهيم عليه الصلاة و السلام، حسب رغبة نبينا صلى الله عليه و سلم نهاه إمامنا مالك بن أنس عن ذلك سدا للذريعة، و قال له: ناشدتك الله لا تجعل بيت الله ألعوبة للملوك، كلما جاء ملك نقضه و بناه، فتزول هيئته من قلوب الناس، فانتهى هارون الرشيد عن ذلك و استحسّن إشارة مالك رحمه الله تعالى و جزاه عن الإسلام خيرا، ما أشد تحريه و اتباعه للسنة، و ما أحسن عمله بسد الذرائع الذى هو من أصول مذهبه القويم. انتهى من الكتاب المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١١٦

الخلاصة فى كيفية بناء الحجاج الثقفى

فخلاصة الكلام المتقدم كما ذكرناها فى كتابنا «مقام إبراهيم عليه السلام» المطبوع بمصر هى: أن الحجاج الثقفى بعد محاصرة ابن الزبير و قتله كتب إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يخبره أن ابن الزبير زاد فى الكعبة ما ليس منها و أحدث فيها بابا آخر و استأذنه فى رد ذلك على ما كان عليه فى الجاهلية فكتب إليه عبد الملك أن يسد بابها الغربى و يهدم ما زاده فيها ابن الزبير من

الحجر و يكسبها على ما كانت عليه ففعل الحجاج ذلك و هدم من الكعبة ستة أذرع و شبرا مما يلي الحجر فقط و بناها على أساس قريش و ترك سائرهما لم يحرك منها شيئا و بذلك اتسع الحجر و جعل لها أربعة أركان على هيئة بناء ابن الزبير و سد الباب الغربي الذى فى ظهرها و نقض من طول الباب أربعة أذرع و شبرا فصار طوله ستة أذرع و شبرا و رفع الباب الشرقى عن الأرض و ذلك سنة أربع و سبعين هجرية.

ولا- تظن أن الحجاج حسد ابن الزبير على بنائه الكعبة أو أراد محو آثار بنائه لأنه وقف فى وجهه و حاربه كلا، فإن امتداد الأيدى بالتلاعب ببيت الله تعالى لن يكون من أحد من المسلمين لغرض نفسانى و معاندة لخصم و إنما إخباره عن بناء ابن الزبير رضى الله عنهما للكعبة لأمر المؤمنين عبد الملك بن مروان واجب لأنه نائبه فى الحجاز فلا بد أن يخبره بكل ما حدث من الأمور. و يدل على ما ذكر ما جاء فى صحيح مسلم فى كتاب الحج فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك و يخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تليخ ابن الزبير فى شىء الخ ... فهذه الجملة من الحجاج تدل على حكمه بصواب بناء ابن الزبير الكعبة لكن عبد الملك بن مروان لم يرض بذلك.

فكل شىء فيها من بناء ابن الزبير رضى الله عنه، إلا الجدار الذى فى الحجر فإنه من بناء الحجاج و كذلك ما تحت عتبة الباب الشرقى إلى الأرض و الدرج الموصلة لسقف الكعبة على داخلها و البابان اللذان عليهما هما أيضا من بناء و عمل الحجاج و لقد بقيت الكعبة على عمارة الحجاج إلى زمن السلطان مراد كما سياتى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١١٧

و كان حجر إسماعيل فى بناء إبراهيم عليهما السلام و فى بناء ابن الزبير صغيرا و مقداره فيهما واحدا أما فى بناء قريش و فى بناء الحجاج فكان واسعا و مقداره واحدا بالصفة التى هو عليها اليوم لأن الحجاج بنى الكعبة بالصفة التى بنتها قريش و هى كانت نقصت من الكعبة من جهة الحجر ستة أذرع و شبرا و بذلك اتسع الحجر.

ما كان من العمارة فى الجدار الذى بناه الحجاج

قال الغازى فى تاريخه عند ذكر ما وقع من التعميرات فى الكعبة: فمن ذلك عمارة فى الجدار الذى بناه الحجاج لانفتاحه من وجه الكعبة و دبرها، ذكر ذلك إسحاق بن أحمد الخزاعى أحد من روى عن الأزرقى فى تاريخه و نص كلامه: و أنا رأيتها و قد عمر الجدار الذى بناه الحجاج مما يلي الحجر فانفتح من البناء الأول الذى بناه ابن الزبير مقدار نصف إصبع من وجهها و من دبرها و قد رضم بالحصص الأبيض و قد رأيتها حين جردت الكعبة فى آخر ذى الحجة سنة ثلاث و ستين و مائتين. انتهى من تاريخ الغازى.

وجوب الطواف من وراء جدار الحجر

و جاء فى كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة» ما نصه: قال النووى فى شرح مسلم: و قد ذكروا أن هارون الرشيد سأل مالك بن أنس عن هدمها وردها إلى بناء ابن الزبير للأحاديث المذكور فى الباب فقال مالك: ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك لا يشاء أحد إلا نقضه و بناه فتذهب هيئته من صدور الناس ثم قال النووى: قال أصحابنا- يعنى علماء الشافعية- ست أذرع عن الحجر مما يلي البيت محسوبة من البيت بلا خلاف و فى الزوائد خلاف فإن طاف فى الحجر و بينه و بين البيت أكثر من ستة أذرع ففيه و جهان لأصحابنا أحدهما يجوز الظواهر هذه الأحاديث و هذا هو الذى رجحه جماعات من أصحابنا الخراسانيين، و الثانى لا يصح طوافه فى شىء من الحجر و لا على جداره، و لا يصح حتى يطوف خارجا من جميع الحجر و هذا هو الصحيح و هو الذى نص عليه الشافعى، و قطع به جماهير أصحابنا العراقيين رجحه جمهور

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١١٨

الأصحاب، و به قال جميع علماء المسلمين سوى أبي حنيفة فإنه قال: إن طاف في الحجر وبقى في مكة أعاده و إن رجع من مكة بلا إعادة أراق دما و أجزاء طوافه، و احتج الجمهور بأن النبي صلى الله عليه و سلم طاف من وراء الحجر، و قال: «لتأخذوا مناسككم» ثم أطبق المسلمون عليه من زمنه صلى الله عليه و سلم إلى الآن و سواء كان كله من البيت أم بعضه فالطواف يكون من ورائه كما فعل النبي صلى الله عليه و سلم و الله أعلم. اهـ.

مميزات بناء الحجاج

- الحقيقة ليس في بناء الحجاج الثقفى من مميزات، لأنه هدم بأمر عبد الملك ما عمله ابن الزبير فيها و بناها بالصفة التى بنتها قريش، و لا بأس أن نذكر مميزات بنائه زيادة فى الإيضاح و لنمش كما سبق على و تيرة واحدة، و هذه هى المميزات:
- (١) بنى الحجاج الكعبة على صفة بناء قريش.
 - (٢) هدم الحجاج ما زاده ابن الزبير رضى الله عنه و هو ستة أذرع و شبر، من جدارها الذى جهة الحجر و لم يتعرض لهدم ما بقى منها.
 - (٣) و جعل للكعبة أربعة أركان كما فعله ابن الزبير.
 - (٤) و رفع بابها الشرقى عن الأرض و كبس داخل الكعبة كما فعلته قريش.
 - (٥) و نقص من طول الباب أربعة أذرع و شبرا.
 - (٦) و سد الباب الغربى الذى بظهر الكعبة و الذى فتحه ابن الزبير.
 - (٧) و كان بناء الحجاج على أساس بناء قريش، ما عدا جدار الكعبة الذى جهة الحجر فقد أبقاها بركنين كما فعله ابن الزبير، و لم يجعله مدورا كما فعلته قريش.
 - (٨) تكون الدرجة الداخلية للكعبة من عمل الحجاج لأنها كانت فى الجدار الذى هدمه، كما تكون عتبة الباب الشرقى إلى الأرض من عمل الحجاج أيضا لأنه هو الذى رفع الباب عن الأرض.
 - (٩) و كان ذلك سنة (٧٤) أربع و سبعين للهجرة.

ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفى

قال المسعودى فى كتابه مروج الذهب: إن أم الحجاج الفارعة بنت همام بن عروة ابن مسعود الثقفى كانت تحت الحارث بن كلدة الثقفى الطائفى حكيم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١١٩

العرب، فدخل عليها مرة سحرا فوجدها تتخلل فبعث إليها بطلاقها، فقالت: لم بعثت إلى بطلاقى؟ هل لشيء رابك منى؟ قال: نعم، دخلت عليك فى السحر و أنت تتخللين فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرهه، و إن كنت بت و الطعام بين أسنانك فأنت قدرة، فقالت: كل ذلك لم يكن، لكنى تخللت من شظايا السواك. فتزوجها بعده يوسف بن أبى عقيل الثقفى فولدت له الحجاج مشوها لا دبر له، فنقب عن دبره.

و ذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد أن الفارعة المذكورة كانت زوجة المغيرة بن شعبه، و أنه هو الذى طلقها لأجل الحكاية المذكورة فى التخلل، و ذكر أيضا أن الحجاج و أباه كانا يعلمان الصبيان بالطائف ثم لحق الحجاج بروح بن زنباع الجذامى وزير عبد الملك بن مروان فكان فى عديد شرطته، ثم إن عبد الملك بن مروان قلده أمر عسكره. اهـ.

و لقد كان الحجاج من حفاظ القرآن المعدودين و هو الذى أمر أن يضعوا للحروف المشبهة علامات، و دعا نصر بن عاصم الليثى و يحيى بن يعمر العدوانى لهذا الأمر فاخترعا نقط الحروف الهجائية لتميز بعضها عن بعض كالدال و الذال و الفاء و القاف ليأمنوا

اللبس و الاشتباه و التصحيف.

و أخبار الحجاج كثيرة، و هو الذى بنى مدينة واسط و هى واقعة بين البصرة و الكوفة و فرغ من بنائها سنة ست و ثمانين، و قيل ثمان و سبعين و بها مات و دفن و عفى قبره و أجرى عليه الماء، و كانت وفاته سنة خمس و تسعين، و عمره أربع و خمسون سنة. انتهى باختصار من تاريخ القاضى ابن خلكان.

و قد ذكر الإمام ابن كثير فى تاريخه ترجمة طويلة للحجاج بن يوسف فى الجزء التاسع فمما ورد فيه: أنه خطب فذكر القبر، فما زال يقول إنه بيت الوحدة و بيت الغربية حتى بكى و أبكى من حوله، و كان مولد الحجاج سنة تسع و ثلاثين، و نشأ شابا لييبا فصيحاً بليغاً حافظاً للقرآن. قال بعض السلف: كان الحجاج يقرأ القرآن كل ليلة، قال عقبه بن عمرو: ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض إلا الحجاج و إياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس، و كانت فيه شهامة عظيمة، و كان كثير قتل النفوس التى حرمها الله بأدنى شبهة، و كان ناصيبا يبغض عليا و شيعة، هوى فى آل مروان بنى أمية، و كان جبارا عنيدا، و كان حريصا على الجهاد و فتح البلاد، و كان فيه سماحة بإعطاء

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٢٠

المال لأهل القرآن، فكان يعطى على القرآن كثيرا، قال عمر بن عبد العزيز: ما حسدت الحجاج عدو الله على شىء حسدى إياه على حبه القرآن و إعطائه أهله عليه، و قوله حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لى فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل. و لما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ يقول:

يا رب قد حلف الأعداء و اجتهدوا بأنتى رجل من ساكنى النار

أيحلفون على عمياء و يحهم ما علمهم بعظيم العفو غفار

فأخبر بذلك الحسن فقال: بالله إن لينجون بهما، و زاد بعضهم فى ذلك:

إن الموالى إذا شابت عبيدهم فى رقهم عتقوهم عتق أبرار

و أنت يا خالقي أولى بذا كرم ما قد شبت فى الرق فأعتقنى من النار

و لما مات الحجاج لم يعلم أحد بموته، حتى أشرفت جارية فبكت فقالت: ألا إن مطعم الطعام و ميثم الأيتام و مرمل النساء و مفلق الهام و سيد أهل الشام قد مات ثم أنشأت تقول:

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا اليوم يأمننا من كان يخشانا

و مات بواسطة و عمره خمس و خمسون سنة، و أجرى عليه الماء لكيلا- ينبس و يحرق، و زعموا أن الحجاج لما مات لم يترك إلا ثلاثمائة درهم و مصحفا و سيفا و سرجا و رحلا و مائة درع موقوفة، قال عوف: ذكر الحجاج عند محمد بن سيرين فقال: مسكين أبو محمد إن يعذبه الله فبذنبه، و إن يغفر له فهنيئا له، و إن يلق الله بقلب سليم فهو خير منا، و قد أصاب الذنوب من هو خير منه. فقيل له: ما القلب السليم؟ قال: أن يعلم الله تعالى منه الحياء و الإيمان و أن يعلم الله الحق، و أن الساعة حق قائمة، و أن الله يبعث من فى القبور. و قال أحمد بن أبى الحوارى: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: كان الحسن البصرى لا يجلس مجلسا إلا ذكر فيه الحجاج فدعا عليه قال: فرآه فى منامه، فقال له: أنت الحجاج؟

قال: أنا الحجاج، قال: ما فعل الله بك؟ قال: قتلت بكل قتيل قتلت ثم عزلت مع الموحدين، قال: فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه و الله تعالى أعلم. انتهى باختصار من تاريخ ابن كثير.

جاء فى مجلة الاعتصام التى تصدر بالقاهرة بتاريخ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦ ما يأتى:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٢١

ابن المسيب و الحجاج: صلى الحجاج بجوار ابن المسيب فرآه يرفع قبل الإمام و يضع رأسه كذلك فلما سلم أخذ بثوبه حتى فرغ من

صلاته و دعا به ثم رفع نعله على الحجاج فقال: يا سارق يا خائن تصلى هذه الصلاة؟ لقد هممت أن أضرب بها وجهك، و كان الحجاج حاجا فرجع إلى الشام و جاء واليا على المدينة و دخل من فوره إلى المسجد قاصدا مجلس ابن المسيب فقال له: أنت صاحب الكلمات؟

قال: نعم أنا صاحبها، قال: جزاك الله من معلم و مؤدب خيرا، ما صليت بعدك إلا ذاكرا قولك.

حكاية الحجاج مع الأعرابي

و مما هو معدود من حلم الحجاج: أنه لقي رجلا بظاهر الكوفة فسأله رأيه في الحجاج، فقال الرجل: زعموا أنه من ثمود و كفى بسوء سيرته شرا، فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين، قال الحجاج: أتعرفني؟ قال: لا! قال: أنا الحجاج. فقال الرجل: أتعرفني أيها الأمير، أنا مولى بنى عامر أجن في الشهر ثلاث مرات و هذا اليوم اشتد الصراع على، فضحك الأمير و عفا عنه. اه. خرج الحجاج ذات يوم فأصحر و حضر غداؤه فقال: «اطلبوا من يتغدى معنا» فطلبوا فلم يجدوا إلا أعرابيا في شملة، فأتوه به. فقال له: «هلم» قال له:

«قد دعاني من هو أكرم منك فأجبت» قال: «و من هو» قال: «الله تبارك و تعالى دعاني إلى الصيام فأنا صائم» قال: «صوم في مثل هذا اليوم على حر» قال:

«صمت ليوم هو أحر منه» قال: «فأفطر اليوم و تصوم غدا». قال: «أو يضمن لى الأمير أن أعيش إلى غد» قال: «ليس ذلك إلى». قال: «فكيف تسألنى عاجلا بأجل ليس لى إليه سبيل» قال: «إنه طعام طيب» قال: «و الله ما طيبه خبازك و لا طباخك، و لكن طيبته العافية» قال الحجاج: «تالله ما رأيت كالיום».

نقل الحجاج إلى العراق

جاء فى كتاب «سيف بنى مروان الحجاج الثقفى» تأليف الأستاذ عبد الرزاق حميدة ما يأتى:

يروى تاريخ الأدب أن عبد الملك نقل الحجاج من الحجاز إلى العراق بعد وفادة وفدها عليه و معه إبراهيم بن محمد بن طلحة، و كان الحجاج قد استخلصه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٢٢

لنفسه و قربه و عظم منزلته، فلما دخل عليه لم يبدأ بشىء بعد السلام إلا أن قال له: «قدمت عليك أمير المؤمنين برجل الحجاز لم أَدع له بها نظيرا فى الفضل و الأدب و المروءة و حسن المذهب، مع قرابة الرحم و عظم قدر الأبوة، و ما بلوت منه فى الطاعة و النصيحة و حسن المؤازرة، و هو إبراهيم بن محمد بن طلحة، و قد أحضرته بابك ليسهل عليه أذنك و تعرف له ما عرفته. فقال: «أذكرتنا رحما قريبة، و حقا واجبا».

ثم أذن عبد الملك لإبراهيم و أجلسه على فراشه، و ذكر له مدح الحجاج، ثم سأله حاجته، فأجابه محمد بن طلحة: «يا أمير المؤمنين، إن أول الحوائج، و أحق ما قدم بين يدى الأمور ما كان لله فيه رضا، و لحق نبيه، صلى الله عليه و سلم أداء، و لك فيه و لجماعة المسلمين نصيحة، و عندى نصيحة لا- أجد بدا من ذكرها، و لا- أقدر على ذلك إلا و أنا خال». فقال له: دون أبى محمد! يعنى الحجاج، فقال له إبراهيم:

نعم».

فأمره عبد الملك أن يخرج. ثم قال: يا ابن طلحة. نصيحتك، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد عمدت إلى الحجاج فى تغطرسه و تعجرفه، و بعده من الحق، و قربه من الباطل، فوليته الحرمين، و هما ما هما، و بهما ما بهما من المهاجرين و الأنصار، و الموالى و الأخيار، يطؤهم

و يسومهم الخسف و يحكم فيهم بغير السنة، بعد الذى كان، من سفك دماهم، و ما انتهك من حرمهم، ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله، فكيف إذا جاشاك محمد صلى الله عليه و سلم غدا للخصومة بين يدي الله تعالى! أما و الله لن تنجو إلا بحجة تضمن لك النجاة. فأربع على نفسك أو دع».

و كان عبد الملك متكنا فاستوى جالسا، و كأنه راعه أن يكون هذا رأى ابن أبى طلحة فى الحجاج و هو ولى نعمته، و صاحب رأى الحسن فيه. و الذى مدحه أمام عبد الملك بما جعله خير أهل الحجاز.

فقال له: كذبت و منت فيما جئت به. و لقد ظن بك الحجاج ظنا لم نجده فيك، قم، فأنت المائن الحاسد! قال: فقلت و الله ما أبصر شيئا، فلما خطر الستر لحقنى لاحق، فقال: احبسوا هذا، و أذن للحجاج، فدخل، فلبث مليا و لا شك أنهما فى أمرى. ثم خرج الإذن لى. فدخلت فلما كشف لى الستر، إذ أنا بالحجاج خارج، فاعتقنى. و قبل ما بين عينى، و قال: «أما إذا جزى الله

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٢٣

المتواخين خيرا بفضل توصلهما، فجزاك الله عنى أفضل الجزاء. فو الله لئن سلمت لك لأرفعن ناظريك، و لأعلن كعبك، و لأتبعن الرجال غبار قدميك».

قال: فقلت فى نفسى إنه ليسخر بى، فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى من مجلسى الأول. ثم قال: «يا ابن طلحة: هل أعلمت الحجاج بما جرى أو شاركك أحد فى نصيحتك؟ فقلت: لا و الله، و لا أعلم أحدا أظهر يدا عندى من الحجاج، و لو كنت محاييا أحدا بدينى لكان هو، و لكن آثرت الله و رسوله و المسلمين». قال: علمت أنك لم ترد الدنيا، و لو أردتها لكانت لك فى الحجاج، و لكن أردت الله و الدار الآخرة، و قد عزلته عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما. و أعلمته أنك استزلتني له عنهما استقلالاً لها. و وليته العراقين و ما هنالك من الأمور التى لا يدحضها إلا مثله، و إنما قلت له ذلك ليؤدى ما يلزمه من ذمامك، فإنك غير ذام لصحبته مع يده عندك».

قال: فخرجت مع الحجاج، و أكرمنى أضعاف إكرامه.

حكاية الحجاج مع الغضبان

جاء فى كتاب الإمامة و السياسة ما يأتى:

قال: و ذكروا أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لما خرج على الحجاج، جمع أصحابه و فيهم عبد الرحمن بن ربيعة بن الحارث بن نوفل و بنو عون بن عبد الله و عمرو بن موسى بن معمر بن عثمان بن عمرو و فيهم محمد بن سعد بن أبى وقاص، فقال لهم: ما ترون؟ قالوا: نحن معك فاخلع عدو الله و عدو رسوله فإن خلعه من أفضل أعمال البر فخلعه و أظهر خلعه فلما أظهر ذلك قدم عليهم سعيد بن جبير فقالوا له: إنا قد حبسنا أنفسنا عليك، فما رأى؟ قال: رأى أن تكفوا عما تريدون فإن الخلع فيه الفتنة و الفتنة فيها سفك الدماء و استباحة الحرم و ذهاب الدين و الدنيا. فقالوا: إنه الحجاج و قد فعل ما فعل فذكروا أشياء و لم يزالوا به حتى سار معهم و هو كاره، قال: و انتهى الخبر إلى الحجاج، فقيل له: إن عبد الرحمن قد خلعتك و من معه، فقال: إن معه سعيد بن جبير و أنا أعلم أن سعيدا لا يخرج و إن أرادوا ذلك فسيكفيهم عنه فقيل له: إنه رام ذلك ثم لم يزالوا به حتى فتونه و سار معهم. فبعث الحجاج الغضبان الشيباني ليأتيه بخبر عبد الرحمن بن الأشعث من كرمان و تقدم إليه أن لا يكتمه من أمره شيئا فتوجه الغضبان إلى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٢٤

عبد الرحمن فقال له عبد الرحمن: ما وراءك يا غضبان؟ قال: شر طويل تغد بالحجاج قبل أن يتعش بك ثم انصرف من عنده فنزل رملة كرمان و هى أرض شديدة الحر فضرب بها قبة و جلس فيها فيينا هو كذلك إذ ورد أعرابي من بكر بن وائل على قعود فوقف عليه و قال: السلام عليك فقال له الغضبان: السلام كثير و هى كلمة مقولة قال الأعرابي: من أين أقبلت؟ قال: من الأرض الذلول.

قال: و أين تريد؟ قال: أمشى فى مناكبها و أكل من رزق الله الذى أخرج لعباده منها. قال الأعرابى: فمن غلب اليوم؟ قال الغضبان: المتقون. قال: فمن سبق؟

قال: حزب الله الفائزون. قال الأعرابى: و من حزب الله؟ قال: هم الغالبون فعجب الأعرابى من منطقته و حضور جوابه ثم قال: أتقرض؟ قال الغضبان: إنما تقرض الفأرة. قال: أفتنشد؟ قال: إنما تنشد الضالة. قال: أفتسجع؟ قال إنما تسجع الحمامة. قال: أفتنطق؟ قال: إنما ينطق كتاب الله. قال: أفتقول؟ قال:

إنما يقول الأمير. قال الأعرابى: تالله ما رأيت مثلك قط. قال الغضبان: بل رأيت و لكنك نسيت. قال الأعرابى: فكيف أقول؟ قال: أخذتك القول فى العاقول و أنت قائم تبول. قال الأعرابى: أتأذن لى أن أدخل عليك؟ قال الغضبان:

و راؤك أوسع لك قال الأعرابى: قد أحرقتنى الشمس. قال الغضبان: الآن يضىء عليك الفىء إذا غربت قال الأعرابى: إن الرمضاء قد أحرقت قدمى. قال الغضبان: بل عليهما تبرد. قال الأعرابى: إن الوهج شديد. قال الغضبان: ما لى عليه سلطان. قال الأعرابى: إنى و الله ما أريد طعامك و لا شرابك. قال الغضبان: لا تعرض بهما فو الله لا تدوقهما، قال الأعرابى: و ما عليك لو ذقتهما؟

قال الغضبان: نأكل و نشبع فإن فضل شىء من الأكرياء و الغلمان فالكلب أحق به منك. قال الأعرابى: سبحان الله. قال الغضبان: نعم. من قبل أن يطلع رأسك و أضراسك إلى الدنيا. قال الأعرابى: ما عندك إلا ما أرى، قال الغضبان: بلى عندى هراوتان اضرب بهما رأسك حتى ينتثر دماغك. قال الأعرابى: إنا لله و إنا إليه راجعون، قال الغضبان: أظلمك أحد؟ قال الأعرابى: ما أرى، ثم قال الأعرابى: يا آل حارث بن كعب، فقال الغضبان: بسئ الشيخ ذكرت، قال الأعرابى: و لم ذلك؟ قال الغضبان: لأن إبليس يسمى حارثا. قال الأعرابى: إنى لأحسبك مجنوناً، قال الغضبان: اللهم اجعلنى من خيار الجن، قال الأعرابى: إنى لأظنك حرورياً. قال الغضبان: اللهم اجعلنى ممن يتحرى الخير. قال الأعرابى:

إنى لأراك منكراً. قال الغضبان: إنى لمعروف فيما أوتى، فولى عنه و هو يقول:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٢٥

إنك لبذخ أحقق و ما أنطق الله لسانك إلا بما أنت لاق و عما قليل تلتف ساقك بالساق. فلما قدم الغضبان على الحجاج قال له أنت شاعر. قال: لست بشاعر و لكنى خبير، قال: أعراف أنت؟ قال: بل و صاف. قال: كيف وجدت أرض كرمان. قال الغضبان: أرض ماؤها و شل و سهلها جبل و ثمرها دقل و لصها بطل، إن كثر الجيش بها جاعوا و إن قل بها ضاعوا قال: صدقت. أعلمت من كان الأعرابى؟ قال: لا قال: كان ملكاً خاصمك فلم تفقه عنه لبذخك. اذهبوا به إلى السجن فإنه صاحب المقالة تغد بالحجاج قبل أن يتعش بك. و أنت يا غضبان قد أندرك خصمك على نطق لسانك، و من الذى به دهاك؟ قال الغضبان: جعلنى الله فداك أيها الأمير، أما إنها لا تنفع من قيلت له و لا تضر من قيلت فيه.

فقال الحجاج: أجل، و لكن أتراك تنجو منى بهذا؟ و الله لأقطعن يديك و رجلك، و لأضربن بلسانك عينيك. قال الغضبان: أصلح الله الأمير قد أزانى الحديد، و أوهن ساقى القيود، فما يخاف من عدلك البرىء، و لا يقطع من رجائك المسىء. قال الحجاج: إنك لسمين. قال الغضبان: القيد و الرتعة، و من يك ضيف الأمير يسمن. قال: إنا حاملوك على الأدهم. قال الغضبان: مثل الأمير أصلحه الله يحمل على الأدهم و الأشقر. قال الحجاج: إنه لحديد. قال الغضبان: لأن يكون حديداً خير من أن يكون بعيداً. قال الحجاج: اذهبوا به إلى السجن، قال الغضبان: «فلا يستطيعون توصية و لا إلى أهلهم يرجعون» فاستمر فى السجن إلى أن بنى الحجاج خضراء و اسط، فقال لجلسائه: كيف ترون هذه القبة؟ قالوا ما رأينا مثلاً قط. قال الحجاج: أما أن لها عيباً فما هو؟ قالوا: ما نرى بها عيباً. قال: سأبعث إلى من يخبرنى به، فبعث، فأقبل بالغضبان و هو يرسف فى قيوده و لما مثل بين يديه قال له: يا غضبان كيف تبني هذه؟ قال:

أصلح الله الأمير نعمت القبة حسنة مستوية. قال: أخبرنى بعيبها. قال: بنيتها فى غير بلدك، و لا يسكنها ولدك، و مع ذلك لا يبقى بناؤها، و لا يدوم عمرانها، و ما لا يبقى و لا يدوم، فكأنه لم يكن. قال الحجاج: صدق، ردوه إلى السجن.

فقال الغضبان: أصلح الله الأمير قد أكلنى الحديد، و أوهن ساقى القيود، و ما أطيق المشى. قال: احمלוه فلما حمل على الأيدي قال: «سبحان الذى سخر لنا هذا و ما كنا له مقرنين» قال: أنزلوه. قال: «رب أنزلنى منزلا مباركا و أنت خير المنزلين» قال الحجاج: جروه. قال الغضبان و هو يجر: «بسم الله مجراها و مرساها إن ربي لغفور رحيم» قال الحجاج: اضربوا به الأرض فقال: «منها التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٢٦

خلقناكم و فيها نعيدكم و منها نخرجكم تارة أخرى» فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه ثم قال: و يحكم قد غلبنى و الله هذا الخبيث أطلقوه إلى صحفى عنه. قال الغضبان: «فاصفح عنهم و قل سلام» فجا من شره بإذن الله و كانت براعته فيما انطلق على لسانه.

البناء الحادية عشرة: بناء السلطان مراد الرابع الكعبة

إشارة

(الحادى عشر) ممن بنى الكعبة الغراء، السلطان مراد الرابع من سلاطين آل عثمان، و ستأتى صورته عند ترجمته فى آخر هذا المبحث إن شاء الله تعالى. و قد بناها على صفة ما بناها الحجاج الثقفى سواء بسواء، بدون زيادة أو نقص. فلقد بقى بناء الحجاج للكعبة إلى زمن السلطان مراد الرابع، ثم هدمت بسبب السيل العظيم الذى دخل المسجد الحرام، فبناها السلطان مراد المذكور فى سنة (١٠٤٠) هجرية، فكان بين بناء الحجاج و بين بناء السلطان مراد (٩٦٦) سنة، و طبعا قد حصل تعميرات و إصلاحات فى الكعبة فى بحر هذه المئات السنوات كما سيأتى بيانه فى التعميرات الواقعة فى الكعبة الشريفة. و إليك صورة المسجد الحرام عند دخول هذا السيل العظيم فيه و تخريبه الكعبة المشرفة و هى صورة منقولة من كتاب "مرآة الحرمين" لأيوب صبرى باشا التركى الذى ألفه باللغة التركية فى ربيع الأول سنة (١٢٩٩) هجرية رحمه الله تعالى رحمة واسعة و هى هذه:

انظر: صورة رقم ٧٦، الكعبة و قد هدمها السيل سنة ١٠٣٩ هـ

الخلاصة فى كيفية بناء السلطان مراد الرابع

إن سبب عمارة السلطان مراد الرابع هو أنه فى الساعة الثانية من صباح يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان عام ألف و تسع و ثلاثين، نزل مطر عظيم بمكة المكرمة و ضواحيها لم يسبق له نظير، فدخل السيل المسجد الحرام و وصل إلى ارتفاع مترين عن قفل باب الكعبة. و فى عصر اليوم التالى أى يوم الخميس سقط الجدار الشامى من الكعبة بوجهيه، و انجذب معه من الجدار الشرقى إلى حد الباب الشامى، و لم يبق سواه و عليه قوام الباب، و من الجدار الغربى من الوجهين نحو

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٢٧

السدس، و من هذا الوجه الظاهر فقط منه نحو الثلثين، و بعض السقف و هو الموالى للجدار الشامى.

و يقول محبنا و جارنا المؤرخ الثقة الشيخ عبد الله الغازى الهندى المكى رحمه الله تعالى فى تاريخه: و هذا الذى سقط من الجانب الشامى هو الذى بناه الحجاج الثقفى، و سقطت أيضا درجة السطح. اه كلامه، فقله هذا صحيح مطابق للحقيقة. ثم أمر السلطان مراد رحمه الله تعالى ببناء الكعبة المشرفة، فتم بناؤها فى شهر رمضان سنة أربعين و ألف على صفة بناء الحجاج رحمه الله تعالى، فعمارة السلطان مراد للكعبة هى العمارة الأخيرة إلى يومنا هذا.

مميزات بناء السلطان مراد

ليس في بناء السلطان مراد الرابع الكعبة من شيء يخالف البناءات السابقة حتى يمتاز عنها، بل إنه بناها على الصفة التي كانت سابقا و هي صفة بناء الحجاج الذي بناها كما بنتها قريش، لكن لا بأس أن نذكر هنا طرفا من كيفية بنائه لها لنمشي كما سبق على وتيرة واحدة. و هو هذا:

- ١- بنى السلطان مراد الكعبة كما كانت سابقا سواء بسواء من غير زيادة شيء أو نقص منها أى بنى على الأساس السابق تماما، فإنه لما هدم بقية الكعبة لم يتعرض لهدم أصلها أبدا، بل بنى على نفس الأساس الأول.
- ٢- كانت عمارة السلطان للكعبة سنة (١٠٤٠) هجرية.
- ٣- بين عمارة السلطان مراد و بين عمارة الحجاج للكعبة (٩٦٦) سنة.
- ٤- كان أول ما هدم من الكعبة بسبب السيل في آخر يوم الخميس عشرين من شعبان سنة (١٠٣٩).
- ٥- كان ابتداء العمل في العمارة بعد تمام الهدم في ضحى يوم الأحد ٢٣ جمادى الثانية سنة (١٠٤٠) ففي هذا اليوم بنى أساس بعض الجدران بحضور أمير مكة و كبار الناس. و سبب تأخرهم في الشروع في البناء اشتغالهم بإحضار الآلات و الأدوات من الخارج فالمواصلات لم تكن كأيامنا هذه، كما كانوا يشتغلون بتنظيف المسجد من آثار السيل و هدم الكعبة و لم تكن لديهم الآلات الميكانيكية لسرعة العمل.
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٢٨
- ٦- هدموا الكعبة كلها، لكن لم يصلوا في الهدم إلى الأساس بل إلى المدماك الذى على وجه الأرض ليكون العمل عليه حتى لا يزيد البناء و لا ينقص.
- ٧- هدموا باقى أحجار الأركان و ما بينها ما عدا الحجر الأسود فقد أبقوه فى محله و لم يحركوه عن محله أبدا، و ذلك يوم الثلاثاء ثالث جمادى الثانية سنة (١٠٤٠).
- ٨- رفعوا حجر الركن اليماني الذى هو محل الاستلام و وضعوه داخل الستارة الخشبية التى أداروها على الكعبة، و ذلك فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الثانية سنة (١٠٤٠) و فى هذا اليوم أيضا قلعوا أحجار الشاذروان.
- ٩- نصبوا ساترا من الخشب حول الكعبة ليشغل العمال خلفها كما عمل ابن الزبير رضى الله عنهما، و كان الشروع فى عمل الساتر يوم الخميس ٢٦ من رمضان سنة (١٠٣٩)، ثم فى يوم الأربعاء غرة شعبان سنة (١٠٤٠) رفعوا جميع الستائر التى نصبوها حول الكعبة.
- ١٠- حصل استفتاء للعلماء فى وضع الساتر حول الكعبة هل يجوز وضعه أم لا؟
- ١١- استغرقت عمارتها نحو ستة أشهر.
- ١٢- كان الانتهاء من عمارة كل ما يتعلق بالكعبة فى اليوم الثانى من ذى الحجة سنة (١٠٤٠).
- ١٣- وضعوا الحجر الذى يستلمه الناس بالركن اليماني فى محله الأول، و ذلك فى يوم الاثنين غرة رجب سنة (١٠٤٠).
- ١٤- أصلحوا ما حول الحجر الأسود إصلاحا تاما، و كان البدء فى إصلاح ما حوله يوم الثلاثاء التاسع من شهر رجب سنة (١٠٤٠) و تمام عمله كان فى منتصف ليلة الجمعة ثانى عشر رجب من السنة المذكورة.
- ١٥- و أنهم لم يهدموا الكعبة إلى أساسها و إنما هدموا إلى المدماك الذى على وجه الأرض فقط ثم بنوا على هذا المدماك.

التفصيلات الوافية عن بناء السلطان مراد الرابع للكعبة

نحمد الله تعالى أن قيض لنا رجالا من كبار العلماء كالعلامة الشيخ محمد بن علان المكي صاحب التصانيف القيمة فى تقييد أعمال بناء السلطان مراد الرابع للكعبة يوما بيوم حيث كان موجودا فى ذلك الحين بمكة و معاصرا للسلطان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٢٩

المذكور، فيحق لنا أن نطلق على البيانات التي سجلها العلامة المذكور و تناقلها المؤرخون «يوميات ابن علان المكي عن بناء الكعبة». وهذه البيانات طويلة التفصيل تقع في أكثر من خمسين صفحة، لكن في ذكرها فائدة كبيرة، و يعلم العالم الشرقي و الغربي شدة عناية المسلمين ببيت الله الحرام و بلده الأمين، من أول وضع البيت الشريف و تأسيسه إلى قيام الساعة، فسبحان الواحد القهار الذي بيده ملكوت السموات و الأرض، و الذي سخر من شاء لما شاء، فهو على ما يشاء قدير.

و لما كان الشيخ عبد الله الغازي رحمه الله تعالى ذكر هذه البيانات في تاريخه المسمى «إفاداة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» و تاريخه هذا يعد من أوسع كتب التاريخ عن مكة المشرفة، و هو بين أيدينا نطالع فيه على الدوام، و لما كان المذكور رحمه الله تعالى صديقا و محبا لنا بل كان لنا بمثابة الوالد الشفوق، و كان يسكن معنا في محل واحد بباب الزيادة بمكة، فقد أحببنا نقل ما نحتاجه من تاريخه في غالب أبحاث كتابنا هذا.

فقد ذكر الغازي في تاريخه رحمه الله تعالى و أحسن جزاءه و ألحقنا به على الإيمان الكامل غير مفتونين و لا فاتنين ما نصه: و أما بناء السلطان مراد فسببه سقوط الجدار الشامي و الجدار الشرقي إلى حد الباب، و الجدار الغربي نحو ثلثيه من البيت الشريف، و كان ذلك بعد عصر يوم الخميس لعشرين من شعبان سنة تسع و ثلاثين و ألف.

قال العصامي: و في يوم الأربعاء تاسع عشر شعبان سنة تسع و ثلاثين و ألف نشأت على مكة و أقطارها سحابة غريبة مدلهمة الأهاب حالكة الجلباب، فلم تزل تجتمع إلى وقت الزوال، فأبرقت و أرعدت و أرخت غزاليها و أغدقت و استمرت تهطل ساعتين و درجتين فأقبل السيل من سائر النواحي و تلم السد الذي يلي جبل حراء المسمى جبل النور ثلثة كبيرة، و علا عليه فدخل المسجد الحرام و ساق ما وجد على طريقه من جمال و رجال و مال و أحمال و غير ذلك، و أخرج الدور و استخراج ما فيها من الأثاث و غيره، و هدم غالبيتها، فامتأ المسجد الحرام ماء و أهلك الرجال و الأطفال، و كان أكثر الهالكين الأطفال الذين بقروون القرآن مع فقهاءهم، و تعلق بعضهم بالأماكن المرتفعة، و ارتفع على بعض السلاسل الحرمية، فوصل الماء إليهم و أهلك الجميع، و كان من هلك به خمسمائة من بني آدم خاصة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٣٠

و من الحيوان كثيرا. ثم بات المطر يهطل إلى نصف الليل، فلما كانت آخر ساعة قبل المغرب من يوم الخميس العشرين من الشهر المذكور، سقط جانب الحجر من البيت، فسقط جميع ما بناه الحجاج منها، و من الجانب الشرقي إلى حد الباب، و من الجدار الغربي نحو النصف أيضا، و لله الأمر من قبل و من بعد. انتهى.

و قال العلامة السنجاري رحمه الله في منائح الكرم: إنه في عام ألف و تسعة و ثلاثين في دولة الشريف مسعود بن إدريس بن حسن بن أبي نمى والي مكة كان سقوط البيت الشريف، و ذلك أنه كان يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة وقع مطر شديد و دخل المسجد الحرام، و أغرق أمة من الناس.

قال الشيخ محمد علي بن علان الصديقي: و يقدر من مات في الليل و النهار نحو ألف إنسان، و بات تلك الليلة السيل بالمسجد إلى الصبح و دخل البيوت و أخرج أمتعة العالم إلى أسفل مكة و بلغ الماء في الحرم إلى طوق القناديل.

قال الشيخ محمد المذكور: و كان ابتداء المطر في الساعة الثانية من اليوم المذكور و ما زال المطر يكثر و يقل إلى قبيل العصر، فاشتد و نزل مع المطر برد كثير، قال ابن علان: و ذكر لي بعض الناس أنه ذاق ماء ذلك البرد فكان مالحا أو مرا، و لما أن أصبح الصباح ثانی يوم المطر، نزل مولانا الشريف و أمر بفتح سرب باب إبراهيم بحضرته و (السرب بفتحيتين، بيت في الأرض كما في المختار و هو ما نسميه اليوم بالسرداب) و خرج الماء إلى أسفل مكة. فلما كان عصر يوم الخميس قبيل الغروب نهار عشرين من شعبان سقط الجانب الشامي من الكعبة بوجهيه، و أخذ معه من الجدار الشرقي إلى حد الباب، و من الغربي من الوجهين نحو السدس. هذا و الذي سقط من الجانب الشامي هو الذي بناه الحجاج بن يوسف الثقفي، و كانت لها وقعة عظيمة مهيلة، فنزل مولانا الشريف مسعود بنفسه و

أمر بالتنظيف و إفراز الحجارة بعد أن رفع الميزاب و ما وجده من قناديل الذهب المعلقة، و كانت عشرين قنديلا، أحدها مرصع باللؤلؤ و غيره من المعادن، و وضعت فى بيت الشيخ جمال الدين بن قاسم الشيبى الحجبى، بعد أن ضبط ذلك بحضرة صاحب مكة، فأخذه إلى منزله بالصفاء و هو من أوقاف السلطان مراد خان على الحجاز، فوضعه فى مخزن و ختم عليه بخاتم صاحب مكة مولانا الشريف مسعود، و أجلس عليه حرسا كل ذلك قبل الغروب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٣١

حزام الكعبة الذى أرسله السلطان أحمد خان

قال العلامة أحمد الأسدى رحمه الله فى أخبار الكرام: و حصل قبل ذلك بسنين عديدة تشقق بالجدار الشامى ثم ازداد فى زمن السلطان أحمد والد السلطان مراد فرغ إليه ذلك، و أنه يحتاج للتعمير، فأرسل حينئذ السلطان أحمد حزاما يشد به البيت الشريف و أنفق عليه نحو ثمانين ألف دينار. و ذكر السيد أحمد دحلان فى السالنامة الحجازية أن السلطان أحمد بن السلطان محمد بن مراد بن سليم الثانى بن سليمان بن سليم الدول فاتح مصر، أراد أن يجعل حجارة الكعبة المعظمة ملبسة واحدا بالذهب و واحدا بالفضة، فمنعه شيخ الإسلام المولى محمد بن سعد الدين، و قال له: هذا يزيل حرمة البيت، و لو أراد الله سبحانه و تعالى لجعله قطعة من الياقوت فكف عن ذلك. انتهى.

و ذكر السنجارى أيضا فى حوادث سنة ألف و عشرين قصة الحزام الذى أرسله السلطان أحمد خان مفصلا فنذكرها أولا ثم نذكر بناء البيت الشريف من الكتاب المذكور، قال رحمه الله: و فى أيام السلطان أحمد خان وقع عمل نطاق الكعبة المشرفة، و ملخص ذلك كما ذكره شيخ مشائخنا العلامة شهاب الدين أحمد بن علان الصديقى، أنه لما بلغ حضرة السلطان أحمد خان ما أصاب الجدارين الشرقى و الغربى و جدران الحجر من التصدع أراد هدم البيت الشريف، فمنعه من ذلك علماء الروم، و قيل له يمكن حفظ هذه الجدران بنطاق يلم هذا التشعث، فجعلوا النطاق من النحاس الأصفر و غلفوه بالذهب مكتوب فيه بالرسم «لا إله إلا الله محمد رسول الله» و فى بعضها «لا إله إلا الله محمد حبيب الله» إلى غير ذلك من الألفاظ الحسنة و الآيات الشريفة مثل «حسبنا الله و نعم الوكيل» و وصل به أمير الحاج المصرى سادس ذى الحجة الحرام سنة ألف و عشرين، فأمر مولانا الشريف بأن يتلقى ذلك علماء مكة و رؤساؤها و مشائخ زواياها من الحجون بعد صلاة العصر، فتوجهوا إلى ذلك المحل و لا قوا الجمال المحملة للنطاق.

فإن أمير الحاج جعل النطاق فى صندوق من خشب و حملوه على صفته المحفنة بين جملين، فدخلوا بهم مكة بعد صلاة العصر على أربعة و عشرين بعيرا و الزفاف بين أيديهم و العلماء أمامهم حتى وصلوا به إلى باب السلام، و كان الشريف قد أمر بفراغ دار الميرزا مخدوم لرئيس العمارة حسن باشا، فنزل الدار المذكورة و وضعت الأحمال بيت الله الحرام يوم السابع، ثم رفعت إلى قاعة الكتب من دار الشيخ

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٣٢

عبد الكريم القطبى عند باب الفهود، و حضر قاضى مكة السيد محمد و قاضى المدينة إسماعيل، و قاضى بيت المقدس سابقا العلامة القاضى المنقارى المقدسى، و شيخ الحرم إسماعيل آغا، و أمين جدة محمد بيك، و أمراء الحج الثلاثة المصرى و الشامى و اليمانى، و مفتى السادة الحنفية الشيخ عبد الرحمن المرشدى و أخوه القاضى أحمد، و القاضى نجم الدين المالكى و مفتى السادة الشافعية محمد بن علان. و جاء فاتح البيت الشريف و فتح البيت فدخل المعمار و رأى الخلاف و خرج و استأذن الشريف فيما جاء بصدده، فأذن له الشريف بقوله: ما أمركم به السلطان فافعلوه لا آمركم و لا أنهاكم، و فى الثانى و العشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة شرعوا فى تركيب هلال المنبر و كانوا قد وصلوا به و بقنديل الكعبة و ميزاب جديد من حضرة الأبواب العالية، و كان أعلا المنبر مبني بالآجر، فهدم ذلك و جعلوا له ألواحا ركب فيها بالفضة المطلية بالذهب و تم عمله فى الرابع و العشرين من ذى الحجة، و فى اليوم

الخامس والعشرين منها فتحوا الكعبة و وضعوا الميزاب الجديد على العتيق و شدوه ربطا، و فى الحادى و العشرين ركبوا السقايل حول الكعبة و ذبح المعمار أربعين شاة و تصدق بها عدد أبواب المسجد الحرام، و شرعوا فى النطاق السفلى ليلة السبت ثانى محرم سنة ألف و اثنين و عشرين و أتموه فى الليلة بعده و وضعوا له أعمدة ركبوا أسفلها فى الشاذروان بالرصاص، و فى ليلة الأحد شرعوا فى النطاق العلوى إلى أن أتموه. انتهى.

رجوع إلى قصة بناء البيت، قال السنجارى: و لما كان يوم السبت ثانى عشرين شعبان نزل مولانا الشريف إلى الحرم و اجتمع إليه علماء البلد و حضر أعيان الناس و حضر حسين آغا الشاوش من قبل صاحب مصر محمد باشا فوقع السؤال من مولانا الشريف عن عمارة ما و هى من الكعبة المشرفة هل يؤمر بالمسارعة إلى عمارتها و يعمر فى الحال ولى الأمر الذاب عن سرحها؟ و من أى مال يكون التعمير، بمال قناديل الكعبة أم بمال غير ذلك؟ و كان من حاضرى المجلس الشيخ خالد البصرى المالكى و القاضى عبد الله بن أبى بكر الحنبلى، و القاضى أحمد بن عيسى المرشدى الحنفى و غيرهم من علماء مكة، فانعقد رأى الجماعة بالمبادرة بعمارتها من مال الكعبة و يعرض الأمر على الأبواب و لا يمنع أحد من المسلمين أن يعمرها من ماله إذا لم يكن فيه شبهة و أن ذلك لا يتوقف على العرض على السلطان. و لما أجمع رأى الحاضرين على هذا أمر مولانا الشريف أن يكتب صورة سؤال و يضع العلماء عليه خطوطهم ليعث به إلى الأبواب ثم قاموا من ذلك

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٣٣

المجلس و فرش لهم بساط فى باب الرحمة، قال فى تحصيل المرام: الآن يعرف هذا الباب بباب الشريف، لأن الشريف سرور كان يخرج من هذا الباب إلى بيته الذى بأجباد، و طلبوا منى كتاب الشيخ أحمد بن حجر الهيتمى المسمى بالمناهل العذبة فى إصلاح ما و هى من الكعبة فأحضرته لهم فأخذ مولانا الشيخ تاج الدين المالكى و جلس يقرأ عليهم عشرة أيام و الحاضرون يسمعونه فلما وصلوا إلى المطلوب كتبوا سؤالا- كما قلناه أولا من المبادرة إلى العمارة بمن له على الحرمين الشريفين إماره و أن ذلك يعمر من مال البيت الشريف و يكتب بذلك الواقع إلى الأبواب، قال ابن علان: ثم ظهر لى أن المخاطب بالعمارة إنما هو سلطان الزمان و ناشر العدل و الأمان سلطان الإسلام و المسلمين و كان إذ ذاك مولانا السلطان مراد خان أعزه الله، فراجعت بعض الفقهاء المفتين و عرضت عليه ما يؤخذ منه ذلك فأبى الرجوع، فرجعت عما رأيت من الأمر الموافق لهم و ألغيت الرسالة المسماة بنشر ألوية التشريف بالإعلام و التعريف عن له عمارة ما سقط من البيت الشريف، فاتفق أن مولانا الشريف أمر بتغيير السؤال لأمر اقتضى ذلك، فغير بعبارة أخرى و كتب الجماعة كما كتبوا أولا و كتبت عليه و المخاطب بهذا العرض إلى عمارة الكعبة الغراء سلطان الإسلام المكرم مولانا السلطان مراد خان ثم نائبه مولانا الشريف، و هذا السؤال و ما معه من العروض أرسل صحبة أحمد جادوش من جماعة حسين آغا و معه النورى على سنجدار اليمن، و كان خروجهم يوم الاثنين الرابع و العشرين من شعبان. و فى يوم الثلاثاء الثانى و العشرين من رمضان ورد من مصر آغا و معه النورى على سنجدار اليمن و أخبرا بوصول الآغا رضوان بيك معمار أعلى المسجد و أنه خلفه، فدخل رضوان بيك و معه السيد هيزع و معه قفطان لمولانا الشريف و ذلك ليلة الجمعة خامس عشرين رمضان. قال ابن علان:

فأحيط على الكعبة بخشب و خصت و ألبست ثوبا من الدولى الأخضر فوق الخشب و الخصف و كان لباسها لهذا الثوب سابع شوال من السنة المذكورة و صار الناس يطوفون حوله على هذه الحالة بعد أن توجه القاصد بالخبر على الأبواب السلطانية. قال من الأراج المسكى: أرسل الشريف مسعود إلى جدة لتحصيل خشب يجعل على الكعبة لسترها إلى أن يشرعوا فى العمارة، فوصل الخشب من جدة فى آخر شهر رمضان و حصلوا خشبا آخر من مكة و ستروا جميع ما سقط منها و جعلوا بابا لطيفا من خشب فى الجهة الشرقية. انتهى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٣٤

قال العلامة الحلبي فى السيرة: و لما وصل الخبر إلى صاحب مصر جمع العلماء و الفقهاء و عرض عليهم ذلك فاتفق رأيهم على

المبادرة بعمارته و تعيين لذلك من الصناجق رضوان بيك المعمار، فورد مكة صحبة مولانا السيد محمد أفندي قاضي المدينة المنورة و قد عين لذلك.

قال الإمام علي بن عبد القادر الطبري في تاريخه: إن الأمير رضوان بيك دخل مكة يوم السابع عشر من شوال و معه القفطان و دخل السيد محمد المذكور في سادس عشر ربيع الثاني متوليا قضاء المدينة و عمارة الكعبة و كان وروده مكة من البحر و معه قائمة سلطانية و خلعة عثمانية فقرأت القائمة بالحطيم و حضر مولانا قاضي مكة و السيد عبد الكريم بن إدريس نائب مولانا الشريف. ثم طلعا بالخلعة إلى مولانا الشريف فلبسها بالمعابدة لمرض منعه من الظهور و الحضور. انتهى.

و لما كان ليلة الثلاثاء من عشرين ربيع الثاني انتقل مولانا الشريف مسعود إلى رحمة الله و دفن بالمعلاة بقبة السيدة خديجة رضي الله عنها، و تولى مكانه الشريف عبد الله بن حسين بن نمي، هذا هو جد العبادلة و به يسمون العبادلة و ذوى عبد الله، فخلع عليه الأمير رضوان بيك قفطان الولاية بنظر القاضي محمد قاضي المدينة، و لما كان يوم السبت ثالث عشر جمادى الثانية و قيل يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى حضر مولانا القاضي و رضوان بيك المعمار و المعلم علي بن شمس الدين المكي المهندس و المعلم محمد علي بن زين الدين و أخوه المعلم عبد الرحمن، فعرض عليهم بناء الكعبة المشرفة، فالتموا بناءها على الوجه الأكمل، فسجل القاضي ذلك عليهم، ثم ذكر المعلم محمد علي بن زين الدين أن مراده نصب أخشاب حول البيت و يجعل عليها ستورا يمنع من مشاهدة الهدم، فاختلف رأى الحاضرين فمنهم المبيح و منهم المانع و من المانعين الشيخ محمد بن علان و له رسالة في منع وضع الساتر لوجه الكعبة. و انقضى المجلس على الاتفاق على نصب الساتر، و أفتى بالجواز جماعة من الأعيان: كالشيخ خالد المالكي و الشيخ عبد العزيز الزمزمي مفتي الشافعية و غيرهما. انتهى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٣٥

صورة الاستفتاء الذي قدمه رضوان آغا لعلماء مكة الأعلام

كما ذكره العلامة أيوب صبرى في مرآة الحرمين ما قولكم، رضى الله عنكم و نفع بعلمكم المسلمين في بناء البيت الشريف زاده الله شرفا و كرما، هل يجب ستره عن أعين الناس لأجل البناء و الفعال حفظا للحرمة و رعاية لزيادة الأدب و إن ضاق الحال بالطائفتين على وجه أفضل، أم يجوز بناؤه مكشوفاً من غير حائل و ستره لأجل أن ذلك فيه كمال الرفق بالمعلمين و البنائين من حيث التمكن من البناء على وجه المطلوب؟ و هل الستر من حيث هو واجب أم مندوب مستحب أم كيف الحال؟ بينوا لنا ذلك.

جواب الشيخ أحمد بن محمد آق شمس الدين المدرس الحنفى

الحمد لله ربنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا فى أمرنا، لا ريب فى كون ستر البيت الشريف زاده الله شرفا و تعظيما حال بنائه مندوبا إليه و ذلك غير مانع عن حصول كمال فضيلة الطواف و لا يمنع أيضا من المشاهدة، و أما بناؤه مكشوفاً من غير ستره فغير لائق بوجه من الوجوه و ليس هو من الأدب، و الله سبحانه و تعالى أعلم و هو المسئول أن يستر عيوبنا و يغفر ذنوبنا. حرره الفقير أحمد بن محمد آق شمس الدين المدرس الصديقى الحنفى.

جواب الشيخ خالد بن أحمد المالكي

الحمد لله ستر البيت عن أعين الناظرين حال بنائه مندوب ندبا متأكدا لا واجبا و الطواف وراء الستر ليس هو مفضولا، بل الستر قام مقام البيت فلا يمنع من كمال فضيلة الطواف بل و لا يمنع من المشاهدة لأن كسوة البيت جعلت لمنع أعين الناظرين إليها و هذا الستر كذلك بل هذا أكد لأن النظر إلى البيت حال بنائه أفضح من النظر إليه مستورا، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

نمقه الحقير إلى الله خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المالكي الجعفرى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٣٦

جواب السيد زين العابدين بن عبد القادر الطبرى الشافعى

الحمد لله ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ستر البيت الشريف عند الشروع فى بنائه بل و عند الشروع فى مقدمات ذلك كهدم ما يحتاج إلى هدمه منه مندوب إليه و مما ينبغى و ليس بواجب و ذلك لاقتداء بفعل عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما، و من كان فى عصره من أجلاء الصحابة، رضى الله عنهم، فإنه لما أن عمر الكعبة الشريفه جعل عليها ساترا بإشارة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، و قد نقل ذلك العلامة الأزرقى فى عدة مواضع من تاريخه فقال فى أثناء باب ما جاء فى بناء ابن الزبير للكعبة ما نصه: فهدموا و أعانهم الناس فما ترجلت الشمس حتى ألصقها كلها بالأرض من جوانبها جميعها و كان هدمها يوم السبت للنصف من جمادى الآخر سنة أربع و ستين و لم يقرب ابن عباس مكة حتى هدمت الكعبة و حتى فرغ منها و أرسل إلى ابن الزبير لا تدع الناس بغير قبلة و انصب لهم حول الكعبة أخشابا و اجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها و يصلوا إليها ففعل ذلك ابن الزبير. انتهى.

و قال فى موضع آخر ما نصه: و كان بناؤون يبنون من وراء الستر و الناس يطوفون من خارج. انتهى.

و قال فى موضع آخر ما نصه: و نصب الخشب حول البيت ثم سترها و بنوا من وراء الستر. انتهى.

فهذه النصوص كلها صريحة فى أن الساتر المذكور مندوب إليه و ليس فيها دلالة على أنه إنما كان عند الشروع فى البناء بل يحتمل أنه جعل عند الشروع فى مقدمات ذلك كالهدم و هو الظاهر اللائق بحرمه البيت الشريف التى أمرنا بها و لا شك أنه لو هدم و بنى من غير وجود ساتر بينه و بين الأعين لسقطت هيئته من قلوب كثير من الناس ممن لا ينظر إلا إلى الصور و يترتب عليه هتك حرمة. و قد أجمع العلماء على استحباب كسوة الكعبة و استمرارها عليها و القصد من ذلك سترها عن الأعين لما يلزم على عده من المحذور المذكور فليكن هذا الساتر كذلك بل أولى لأن رؤية الكعبة المشرفة منهدمه منشقة أفضح من رؤيتها مجردة عن أثوابها و من زعم أن الساتر المذكور مما لا ينبغى فعله فقد حاد عن طريق الصواب و أخطأ من وجوه عديدة لا يسعها هذا الجواب، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٣٧

حرره الفقير زين العابدين بن عبد القادر الحسينى الطبرى الشافعى أمام المقام الشريف.

كذا فى مرآة الحرمين لأيوب صبرى قال السنجارى: ثم وقع اجتماع ثانى بالحطيم مع جملة الأعيان المذكورين و سأل مولانا الشريف عبد الله بن حسن فى هدم الجدار اليمانى فإنه كان قائما فدار الكلام ثم اقتضى الحال بالإشراف عليه من خلف الخشب و الإشراف على بقية الجدران فأشرف غالب الجماعة و معهم مولانا الشريف و نصب المعلمون الميزان فوجدوه خارجا عن الميزان قدر أربعة أذرع فاقتضى رأى الجماعة إلى هدم بقية الجدارين الشرقى و الغربى ثم ينظر فى اليمانى فإن زاد فى الميل هدم و إلا فلا، و انصرف الناس على هذا رأى بعد أن سجل ذلك و بعد يومين من هذا المجلس رفع سؤال إلى العلماء مضمونه إذا شهد المهندسون بخراب الجدر اليمانى هل يهدم أم لا؟

صورة الاستفتاء الذى قدمه رضوان آغا لعلماء مكة

بخصوص هدم الجدار اليمانى كما ذكره العلامة أيوب صبرى فى مرآة الحرمين

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين و مرجع الخاص و العام من المسلمين و قطع بوجودهم دابر المفسدين و عمر بهداهم شعائر الإسلام

للمهتدين في الجدار اليماني من البيت الشريف زاده الله تشريفا و تعظيما، الذي يظهر في بادى النظر للعوام أنه مستقيم و الحال أنه مائل داخل أعلاه و بارز أسفله من رأس الركن الذي على الحجر الأسود إلى المدماك الذى تحت الحجر الأسود نصف ذراع و من نحو نصف الجدار المذكور ذراع كامل و من محل وصول الميزان فى المدماك المذكور إلى أرض المكان قدر الميل ثلث ذراع أيضا فيكون الميل من رأس الركن إلى أرض المطاف نصف ذراع و ثلث ذراع و من قرب الحجر الأسود المحل الثانى فى الوزن ذراع كامل و من المحل الثالث فى الوزن الذى بالقرب من وسط الجدار ذراع و ثلث، كل ذلك بذراع القماش الحديد و قد ظهر كل ما ذكر أعلاه من الميل فى الأماكن الموزونة بالمشاهدة لكل من حضر من العلماء و المهندسين و المعلمين و غيرهم، و شهد أرباب الخبرة من المهندسين و المعلمين و العارفين ببناء عقارات الجدار المذكور و ما كان مثله خصوصا من المنحوت إذا مال نحو سدس ذراع يجب هدمه و لا يجوز بقاؤه سواء كان ذلك فى محل مملوك أو محل موقوف أو مال يتيم و إنهم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٣٨

يوجبون ذلك و ذكروا أن هدم الجدار اليماني من البيت من أوجب الواجبات لما فى هدمه من المصالح الواجبة فى تعظيم البيت الشريف زاده الله تعالى شرفا و لما فى بقاءه من خلاف ذلك نعوذ بالله منه فهل يجوز لمن له ولاية العمارة من جانب السلطنة العثمانية خلد الله دولتها و أيد صولتها أن يهدم هذا الجدار اليماني المذكور ليقمه و يقيم بناء البيت الشريف جميعه على الوجه الذى يليق به من إتقان العمارة و تحسينها الواجب ذلك فى حق البيت الشريف زاده الله تعالى مهابة و تكريما و زاد من عظمه و أكرمه تشريفا و تعظيما أم لا- يجوز ذلك و الحال ما ذكر أم كيف الحال؟ بينوا ذلك بيانا شافيا أثابكم الله الجنة بمنه و جزاكم عن الإسلام و المسلمين خيرا.

جواب الشيخ خالد بن أحمد المالكي

حيث كان الحائط المذكور بالصفة المذكورة عن العدول المذكورين فى السؤال و أرباب الخبرة من أهل الصناعة و غيرهم فهدمه و تجديده أولى بل متعين لأنه أحق من الهدم الصادر من سيدنا عبد الله بن الزبير لأن قضية ابن لاذير كانت محتاجة إلى الترميم فقط كما أشار إليه هو رضى الله تعالى عنه و هذه محتاجة إلى الهدم و البناء سيما مع الانهدام و الهدم الكائنين فى الثلاثة الأرباع إذ ابن الزبير رضى الله عنه و من خالفه فى القضية يقولون بالهدم فى قضيتنا أولى و الله سبحانه و تعالى أعلم ...

نمقه الفقير خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المالكي الجعفرى.

جواب الشيخ عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى

الحمد لله و لا- حول و لا- قوة إلى بالله حيث كان الجدار المذكور من البيت الشريف زاده الله تعالى تشريفا و تعظيما بالجملة المشروحة فى السؤال المشاهدة للعمل من الرجال و شهد بخراجه أرباب الخبرة الموثوق بهم فى كل حال الذى يغلب على الظن فيهم عدم تهتمته فى هدم ما كان حالى من البقاء و لا غرض لهم فى تخريب أدنى جزء منه خوفا من الله يوم اللقاء فهدمه بعد تحقق ما ذكر جائز بل واجب على من فوض له السلطان الأعظم خلد الله سعاداته و أيد سيادته و أقام به شعائر الدين و قطع بسيطه رقاب المعتدين عمارة بيت الله العظيم و إعادته على الأسلوب القديم و بناء جدرانه على ما كانت عليه و إحكامها بكل وجه يمكنه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٣٩

التوصل إليه فذلك من أعظم شعائر الإسلام و بقاء ما كان خرابا منه على حاله مع إمكان إزالته من موجبات شرور الفجرة الطغام و قد صرح علماؤنا رضى الله عنهم بجواز هدم ما تحقق خرابه من البيت الحرام و ما نصوا عليه لا يجوز مخالفته و من خالف أقوال العلماء كان ممقوتا عند الله و خلقه أعادنا الله من ذلك و سلك بنا أحسن المسالك و الله سبحانه و تعالى أعلم.

حرره الفقير عبد العزيز بن محمد الزمزمي الشافعي.

جواب الشيخ أحمد بن محمد آق المدرس

الحمد لله ربنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا، لا ريب في أن الواجب على كل مسلم تعظيم هذا البيت الشريف زاده الله من التعظيم و التكريم و التبجيل و التشريف و قد شاهدنا نحن و الجم الغفير من العلماء و الولاة حقيقة ما ذكر في السؤال من الجواب و لم يزل يبلغنا كل يوم الثقاة السالكين منهم الصواب أنه يتداعى إلى السقوط ما لم يتداركه أمره مع شهادة المعلمين الموثوق بهم بخراجه و بقاءه من بنائه إلى حال سقوطه ألف عام إلا خمسة و عشرين عام أو في معجزة و لما أراد الله خراجه خرب و إذا تحقق ما ذكر و لم يكن إبقاء شىء منه على حاله بمال و جب هدمه بغاية الإجلال و الإعظام و مزيد التوقير و الاحترام و شكرت مساعى من فوضت إليه هذه الخدمة الجليلة المقدر من قبل من فوض له ذلك مولانا السلطان العظيم الفخار دامت سلطنته العظمى ما دام الفلك الدوار و يجتهد على عمارته و إعادته على الأسلوب الحسن و بناء جدرانته على ما كانت عليه مهما أمكن و غير لائق البقاء ما كان خرابا على حاله مع إمكان إزالته و قد نص العلماء على جواز هدم ما تحقق خراجه من البيت الشريف إذا لم يكن بقاءه نسأل الله تعالى أن يوفقنا و من تشرف بهذه الخدمة إلى ما يحبه و يرضاه و يكون عوننا لكل منا في أولاه و أخراه و أن يرينا الحق حقا و يرزقنا اتباعه و يرينا الباطل باطلا و يوفقنا لاجتنابه. و الله أعلم.

نمقه الفقير أحمد بن محمد بن آق شمس الدين المدرس الصديقى الحنفى السهروردى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٤٠

جواب الشيخ عبد الله بن أبي بكر بن ظهيرة القرشي

الحمد لله ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. نعم جوابى كذلك سلك الله بالقائم بخدمة هذا البيت الشريف أحسن المسالك.

الفقير الحقير عبد الله بن أبي بكر بن ظهيرة القرشى الحنبلى. انتهى ما فى مرآة الحرمين.

قال ابن علان: و فى ضحى يوم السبت خامس عشرين جمادى الأول فتح مقام إبراهيم و وضعت فيه الكسوة الشريفة و فى يوم الأحد سادس عشرين شهره وصلوا فى الهدم إلى باب الكعبة فرفعوا الباب و وضعوه فى بيت السيد محمد أفندى شيخ حرم المدينة المشرفة. و فى ضحى يوم الأحد ثالث عشر جمادى الآخر رمى أساس الجدار الشامى و بعض أساس الجدار الغربى مما يلى الحجر، بكسر الحاء، و حضر صاحب مكة مولانا السيد عبد الله بن حسن و غيره من الأعيان و باشر مولانا الشريف شيئا من العمل و تبعه الأعيان فى ذلك، و فى هذا اليوم وضعوا عتبة الباب ثم شرعوا فى البناء و هيئت القراءة فى المقامات الأربعة و ذبح ثور و كبشين على باب السلام و كذا على باب الصفا و كذا على باب الزيادة و كذا على باب إبراهيم. و فى يوم الأحد غرة رجب وضع الحجر اليمانى فى ركنه بعد أن صمخ بالعنبر و المسك و بخر بالعود. و فى السابع من رجب حضر مولانا الشريف و بعض أبناء عمه و جملة من الأعيان و أرباب العمارة و أرادوا قلع الحجر الأسود لتمكينه فى محله على وجه الكمال، فما أمكن، و غاية ما قدروا عليه رفع الحجر الذى فوقه و أخبرنى مولانا الشيخ عبد العزيز الزمزمى و كان حضر هذا المجلس معهم أنه رأى باطن الحجر و أن لونه أشهب و أنه مربع كتربيعة مفتاح الدار. و فى التاسع من رجب جعلوا أخشابا ستروا بها ما حاذى الحجر الأسود ثم أخرجوا الحجر الأعلى و نقلوه إلى محل آخر و أخذ المعلم عبد الرحمن بإصبع الحديد ما أطاف بالحجر مما كان عليه من الفضة و الجير و الخارج يتلقاه السيد محمد بن الشريف عبد الله صاحب مكة بمحرمة فى يده فبينما هم كذلك و كان من بيده المعول قرض بلا تأن فإذا الحجر الأسود تشظى نحو أربع شظايا من وجهه و تفارقت منه و كادت أن تسقط فعند ذلك حضر السيد محمد على بن بركات فلما رأى ما أهاله من الأمر

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٤١

الشديد، قال: يا أمه الإسلام إن أخرج الحجر الأسود تفرقت أجزاءه ولا والله تقدرين على ضمها وجمعها و يترتب على ذلك أمر عظيم أصلحوا هذا الذي انزعج منه. فقال المعلم محمد بن شمس الدين: الحجر الذي عليه الحجر الأسود خارج وفي بقائه خلل لأنه ركن البيت و عليه عتبة الباب فأمر ناظر العمارة للمعلم ابن شمس الدين باتباع قوله و هو مصمم على رفع الحجر عن مكانه، ثم وافق على ذلك قهرا ثم شرعوا في إصلاح ما تكسر منه و إصاقه و أصلحوا ما خرج منه بعد تعب كثير، و كان إتمام العمل ليلة الجمعة بعد مضي نصفها، و بعد إتمام العمل رفعوا الأخشاب المانعة من تقبيل الحجر الأسود و أسفر الحجر عن محياه و قبله المسلمون و حياه. و في خامس عشرين رجب أزيل الخشب الساتر لوجه البيت فظهرت جهة الباب، و في غرة شعبان و كان يوم الأربعاء رفع جميع الساتر و في ثاني شعبان ركبوا الميزاب في سطح الكعبة و حضر لتركيبه جماعة من الأكابر، و بعد النصف من شعبان شرعوا في تركيب السقف الأول إلى أن تم، ثم شرعوا في تركيب السقف الثاني فتم يوم السبت سادس عشرين شعبان، و في ضحى يوم الجمعة غرة رمضان ألبست الكعبة الشريفه ثوبها، و كان ذلك بعد الشروق، و في يوم الاثنين رابع رمضان أتموا ترضيم سطح الكعبة، و في يوم الثلاثاء ثاني عشر رمضان شرعوا في هدم ظاهر الحجر، بكسر الحاء، ثم شرعوا في ترميم الحرم و إصلاحها تماما، و ما هل هلال ذى القعدة إلا و قد تم إصلاح جميع الحرم و لله الحمد. و انتهى العمل في عشر من ذى القعدة و فرشت الحصبا و حصل السرور لجميع أهل الإسلام، بذلك انتهى ملخصا من رسالة الإمام على بن عبد القادر الطبري ذيل بها كتابا له سماه الأقوال المعلمة في وقوع الكعبة المعظمة.

انتهى ما في منائح الكرم.

و قال الطبري في الإتحاف: و في تاسع شوال تخلخلت أحجار أخرى و تحركت الفضة التي فيها فجاؤا بالمعلم محمود الدهان الساكن برباط ربيع فنظر بعد رفع الفضة فإذا الحجر التصقت أجزاءه و تحتها خلا بحيث من أراد قلع بعضه تمكن من ذلك، فصنع مركبا ملأ به ما اتصل به من الخلل بين الحجارة و عمل ذلك بعد صلاة الظهر إلى ما بعد الصلاة منه في يومين، و في أول ذى الحجة عند الظهر دهن الحجر بدهان و طلاه بالسندورس فصلح متخللة، و في يوم العشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة عمل فيه عملا يسيرا و أصلح ما يحتاج فيه الإصلاح كل ذلك بعمل محمود الدهان. انتهى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٤٢

و رأيت رسالة للشيخ محمد على بن علان الصديقي الشافعي في عمارة البيت الشريف المسمى بأبناء المؤيد الجليل مراد ببناء بيت الوهاب الجواد، فأحبت أن أخص منها أشياء من هذا الموضوع فإن فيها فوائد لم يذكرها المؤرخون.

قال الشيخ ابن علان رحمه الله: سقط من البيت الشريف الجدار الشامي بوجهيه و انجبد معه من الجدار الشرقي إلى حد الباب الشامي و لم يبق سواه و عليه قوام الباب و من الجدار الغربي من الوجهين نحو السدس و من هذا الوجه الظاهر فقط منه نحو الثلثين و بعض السقف و هو الموالي للجدار الشامي و سقطت درجة السطح و كان سقوطه كذلك بعيد العصر يوم الخميس العشرين من شعبان سنة تسع و ثلاثين و ألف، و نقل ما فيها من القناديل إلى بيت السادن و علق باقي أخشاب سقفه خوفا عليه من السقوط. و استمرت أبنية الكعبة الباقية على ما هي عليه لم يجعل في محل الساقط ما يستر الباقي من أخشاب و نحوها حتى تكرر دخول البس بالحمام اللاتي تقصدنها من المسجد إلى داخل الكعبة و تنجيس أرض الكعبة بدماء الحمام و تقدير أرضها بفضلات الحمام من الريش و الأرجل. فلما تكرر ذلك و تكرر الكلام منا مع غير واحد من جماعة الشريف و من غيرنا أيضا أمر صاحب مكة بعد أن استعان على ذلك بإغاء جدة، فأرسل له بأعواد و آلات أخر و أمر أن يستر ذلك، فجاء مهندس مكة على بن شمس الدين بأخشاب من جذوع النخل و قطع نصف العرض من طرف الجذع و وضع رأس كل في رأس الآخر و ربطه بالزواير ثم بالمسامير الحديد و جعله تحت الشاذروان و نقر فيه لأخشاب سواص و زنانير سمرها في هذه الأخشاب و جعلها أطواقا ثلثة تطيف بالكعبة لتمسكها و صفح ما بين أعواد السواص

من جهة الجدار الساقطة إلى أعلا البيت و ستر به البيت كله، و كان شروعهم في ذلك يوم الخميس ٢٦ من رمضان في صبح النهار و إتمامه في يوم الأحد ٢٣ من شوال و صبغوا لذلك ثوبا دوليا صبغوه بالأخضر و ركبوا فيه الطران الذي كان على الكعبة بعد أن وصلوه و خيطوه بمكانه و ألبسوه الكعبة صبح يوم الخميس لسابع شوال.

و قد ألفت لهذا العمل مؤلفا خاصا سميته فتح الكريم الفتح في حكم ما سد به البيت الحرام من حصر و خشب و ألواح، و بينت فيه عملهم البنيان و عدد الأعواد و بيان أصحابها و الحصر المسدود بها باقى العمل و أصحابها. و كل ذلك أيضا مبسوط في تاريخنا الكبير و تقتصر في هذه العجالة على التلخيص و زيد المقالة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٤٣

و في يوم الثلاثاء ٢٢ من شوال وصل من الديار المصرية و معهم قاصد من العرب صحبته الذي أرسله صاحب مصر ليعمل السد المذكور الذي عمله صاحب مكة إلا أنه من أصل البيت من غير زيادة أصلا و هو رضوان آغا، و صحبته السيد على بن هيزع و جماعة آخرون هجانون و مع الآغا رضوان قفاطين السلطانية و براءات خاقانية لصاحب مكة بتوليته شرافه مكة و المدينة و أعمالهما و كان دخوله بمكة يوم السبت ٢٦ من شهر شوال فألبس الشريف الخلع السلطانية و أعطاه المكاتب المنيفة فقرأها في الحرم الشريف بعد أن عربها القاضي أحمد بن آق شمس الدين المدرس بالمرادية.

و شرع رضوان في تنظيف المسجد من الطين الذي غشيه و ملأه، و كان انتهاء عمله بالمسجد الحرام من قطع الطين و غربلته و إخراج بعض حصى المسجد منه و فرش فيه يوم الثلاثاء ٢٩ من ذى القعدة الحرام و مع هذا فقطع أيضا أرض الشارع فإنها علت و نظف بركة المصرى من الطين الذى امتلأ فى أسفلها من السيل و سوى أرض المدرج عند جمرة العقبة و أصلح بعض خراب فى العين بالبنا و التثقيب و رضم أحجارا و جدت فى حفر الشارع وراء جدر المسجد الشرقى و استمر فى هذه الأعمال إلى سادس ذى الحجة فحفر عن أرض المروء و بنى الجدار الشامى من زقاق القرارة النازل عليها.

و أرسلوا فى أوائل ذى القعدة قاصدا آخر لطلب آلات لعمارة الكعبة من الأخشاب و غيرها.

و لما كان أواخر ذى القعدة وصل المركب الذى جهزه صاحب مصر لعمل سد الكعبة و فيه من الآلات كما ذكر لى كاتب جده المحروسه الشهاب أحمد بن على القباني (٩٨) سوحيا مجوز و سبعة و ستون سوحيا مفرد و أربعة و عشرون سوبر و تسعة و خمسون زنارا و عشرة قرايا و قاضن و اثنا عشر لوح خشب بكر و دوامس و محمسات و مائتا عصى شون و كورتين كبار بلدى محلول و ثلاثة عشر حبلا بهروزيا و سحيفا و مائتا مكنل أعلاف و مائة سرفانية و هى المكاتل التى تحمل على ظهور الجمال و ثلاثة و عشرون أقتاب جمال و سبع فراد ليف سلب مفتول و أربع ربط قتب و خمس قرمان تركية و خمسة و عشرون مسحاء و ثمانون لوجا و هو نحاس مدور للبكر و ثلاث عشرة قفه مسامير و اثنين و عشرين قضيب حديد معجز هذه آلات سد الكعبة و وصل جملة من النجارة من مصر أيضا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٤٤

و فى يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الثانى أمر الأمير رضوان بتنظيف المصنع السلطانى و هو بلصق بركة الشامى فى المعلاة، و أن يهيا ليوضع فيه الحطب و الفحم و حجر النورة و تصليح مصانعها و دفع لكل من أصحاب حجر النورة و الحطب و الفحم ثمننا عينه فى قنطار كل بإشارة على بن شمس الدين المهندس فاستقلوه و لم يرضوا به.

و جئت للأمير رضوان إلى منزله و أعطيته رسالتي (فتح القدير فى الأعمال التى يحتاج إليها من جعل له الملك على البيت ولاية التعمير) و سألتنى الأمير رضوان عن حكم الحطب و الفحم و حجر النورة و آلات عمارة الكعبة إذا امتنع أصحابها من الثمن الذى عينه ابن شمس الدين أيجوز أن يؤخذ بثمينه و إن لم يرضوا به؟ فقلت:

لا يجوز مال المسلم إلا برضاه و أخذ شىء على الوجه المذكور حرام و ما طلب فيه صاحبه مما ذكر ثمننا معينا إن لم يرض إلا به و لم

يرض بما دفعتموه له ففى غيره عنه غنى و المنفق فى الخير لا ينبغي فيه المماحكة خصوصا البيت السعيد و أخذ ما لم يرض صاحبه بما يدفع له حرام و واجب تنزيه بيت الله من الحرام تعظيما لحرمان الله و من يعظم حرمان الله فهو خير له عند ربه، و انصرفت عنه، و بلغنى أنه أُلزم أصحاب الآلات المذكورة بالحكم أن يرضوا بما يدفع لهم مما قال ابن شمس الدين فالتزموا بذلك و الحكم لله.

و فى يوم الثلاثاء (٢١) من ربيع الثانى وصل الخبر بدخول غراب ابن سويدان جدّة المحروسه و فيه من آلات العمارة كما أملاه على كاتب جدّة المحروسه الشهاب القبانى خمسمائة لوح دبسى و مائة زنار و خمسۀ عشر كريك عشيم و ثلاثمائة لاطه و أربعة تراكه و تسعون سواحى مجوز و سوحى مفرد و قرايا واحد و مائتا تمساح رصاص و خمسۀ عشر قنطارا حديدا خاما و عشره قناطير مسمار و ثمانية سحل ليف و ألف و أربعمائه عصى شون و مائة و أربعون قتب جمال و خمسۀ قناطير صلب و ثلاثمائة طست و سطل من النحاس.

و فى يوم الأربعاء شرع النجارون فى شغل الأخشاب التى يطيفون بها من الطواف على قدر حاجتهم و يكون أخذه من الطواف نحو ستة أذرع من جدار البيت إلى الطواف من جهاته كلها و قطعوا أطراف رؤوس الخشب كما تقدم فى عمل ما سد به الكعبه و استمر فى هذا الدائر القرافى و يجعل عليه من صفائح الخشب ما يمنع من وصول الناس للعملة و شرعوا فى هذا العمل فى زيادة باب إبراهيم أمام رباط الخوزى و عملوا أيضا تحت الرواق بين الزيادة المذكورة و صحن المسجد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٤٥

و نشروا أيضا لاطات من الأخشاب ألواحا تحت الرباط المذكور مما يلى وجه الكعبه.

و فى يوم السبت سد فم العتبة من تحت ريع الملك الأشرف قانصوه الغورى بعد أن نظفت بإفراج التراب الذى جمعه السيل فيها منذ نظفها حسن باشا عام عشرين و ألف لما وضع حزام البيت و ميزابه و أخرج منها حسن باشا فيما قيل عشرين ألف حمار و كان ابتداء فتحها من جهة باب الزيادة تحت الشيخ عبد الكريم القطبى مفتى الحنفية سابقا و نظفوا أيضا من تحت باب العتبة من ريع الغورى ما يليه من الدبل الذى يجرى فيه الماء المجتمع من العتبة من جهة الغلق و أعمالها و هو دبل ينصب آخره بقرب حوش خدام المسجد فى رأس الزقاق الذى ينفذ على مقبرة الشبيكة و يحاذى باب دبل العتبة البازان السفلى و كان يستقى منه ثم دمر من السيل الواقع عام ٣٩ و الله يعمر من يعمره و يجرى فيه الماء كما كان ينتفع به فقراء ذلك المكان.

و فى ٢٧ ربيع الثانى وصلوا بأول الأحجار الكبار التى اقتطعوها للكعبه الشريفه من جبل الشبيكة قرب الشيخ محمود و طول الحجر نحو ذراع و نصف و سمكه نحو ذراع فجىء بثلاثة منه و وضعت بقرب باب العمرة.

و فى يوم الأربعاء حضر مولانا السيد محمد الناظر على العمارة و الأمير رضوان و شيخ الحرم المكى مولانا شمس الدين عتاق و المهندس على بن شمس الدين و أطافوا بالكعبه و على بن شمس الدين يحسن هدم ما بقى من الجدر و يقول إن أحجارها تكلس بعضها و كان من كلام السيد أن لا يرفع من أحجارها حجرا إلا بعد ظهور اضطراره للهدم و احتياجه الحاجه التامة و بالتحليف مع ذلك لمدعى ذلك فى شىء من أحجارها تعظيما لبيت الله تعالى و احتراماً له، و تفتت بعض الأحجار و تأكل أطرافه لا يضر إذا كان البناء ثابتاً و انصرفوا على ذلك.

و فى يوم الجمعة هلال جمادى الأولى شرع العملة فى تبريح أحجار الكعبه فرصوا الصغار منها فيما بين صف الحنفية الأول و حاشية المطاف و نقل العتالون الأحجار الكبار و فرقوها فى صحن المسجد و نقلوا الجباب إلى ما تحت السلیمانية من الأروقه الغربية، و هكذا إلى قرب باب الزيادة. و شرع الحجارون فى نحت الأحجار الجدد التى قطعوها لإكمال البناء بها و كان نحتهم تحت المدرسة الباسطية وراء مقام الحنفى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٤٦

و فى ضحوه اليوم المذكور دعى فاتح البيت و سئل عن قائمه قناديل البيت فقال: لا قائمه لها عندى أصلا و أحضر كتبه الحرم فقال

كل منهم ما حضرنا ذلك ولا عندنا فيه شيء فدعى عبد الرحمن بن أبي البقا فأحضر دفترا بخط أخيه عقيل فيه ضبطها في عام تسعة عشر وألف أيام قضاء السيد محمد أفندي بمكة ودفتر آخر بخط عبد الرحمن نفسه فيه ضبطها في موسم سنة (١٠٣٧) سبع و ثلاثين و ألف على عهد ولاية شريف مكة الشريف أحمد بن عبد المطلب و حاصله أن عدة قناديل الذهب تسعة عشر و أن قناديل الفضة ثلاثة و ثلاثون، فقال الفاتح: ما أطالب إلا بما تضمنه الخط الثاني دون الأول لأن البيت كان بيد السادن قبلي و قال الثلاثة و الثلاثون الفضة ليست كذلك كلها بل معظمها هكذا و فيها نحاس مموه بالفضة و فيها زجاج و تكسر بعضه فاقضى رأى المذكورين تأخير البحث فيها إلى الاجتماع على صاحب البلاد الشريف و يبرز فيها رأيه المنيف.

و في يوم الاثنين صعد السيد محمد بن السيد محمود الحسين قاضي المدينة المنورة و ناظر العمارة الشريفة و الأمير و قاضي مكة المكرمة و شيخ حرمها و فاتح البيت و آغا جدة إلى صاحب مكة و طلبت القناديل فأحضرت من بيت الفاتح و قرئ الدفتر المكتوب على عهد الشريف أحمد بن عبد المطلب و فيه عدة القناديل و ضبط وزن كل و مجموع قناديل الذهب منها تسعة عشرة قنديلا فوجدت في العدد كذلك من غير نقص و وجدت قناديل الفضة كذلك أي ثلاثة و ثلاثون كما هو مكتوب و تسلم القناديل كلها بالديوان الشريف بحضور من ذكر مولانا شيخ الحرم و ناظره و انصرفوا.

ثم اجتمعت بالمهندس فرأيته والها والعا بهدم الجدار اليماني الباقي بعد الهدم بالسييل و أنه لا يحسن عملا إلا بذلك فخوفته من انتهاك الحرمه و أنه لا يجوز أن يهدم منه إلا ما دعت الضرورة إليه أو الحاجة الحاقه و السلطان إنما أناب في عمل ما تهدم دون هدم القائم، و أمر عمل الكعبة هدمًا و بناء موقوف على ما يصدر من رأى السلطان و رأيته مصرا على هدم الجدار المذكور و جميع ما بقى من جدر الكعبة و بنيتها على خيط عمله، ثم اجتمعت على السيد محمد الناظر على العمارة فبعد أن ذكرت له ما ذكر و نقولا آخر في منع ما لم تثبت الضرورة أو الحاجة الحاقه إلى هدمه و قلت له: إن بناء الكعبة تابع لهندسة جبريل و ظل السكينة الذي بنى عليه الخليل و أعانه عليه إسماعيل لا خيط العملة، فقال: الأمر كما ترون و لا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٤٧

نهدم منها إن شاء الله تعالى إلا ما ثبت بالضرورة ضرورية هدمه أو حاق الحاجة إليه و ما بقى ندعه على ما هو عليه حتى يسقط فيهيء الله له من يقوم بعمارته و ألفت رسالة سميتها إيضاح تلخيص بديع المعاني في بيان منع هدم جدار الكعبة اليماني أعطيت نسخة منها للسيد محمد ناظر العمارة و أخرى لقاضي مكة المكرمة و أخرى لشيخ حرمها.

و في عاشر جمادى الأولى شرعوا في كشط الحصى عن وجه الأرض من محاذاة الوقادين إلى محاذاة دكة الفقيه النزيلي و قد أعدوا ذلك لوضع النورة و تخميرها فيها و أسفل منها و أداروا عليها أخشابا أقاموها ثم سمروها في خشب معترض بها و قد شرعوا في وقيد النورة في المصانع من ١٨ شهر ربيع الثاني.

و في خامس عشر جمادى عمل النشارون في نشر الخشب و الحجارة في قطع الأحجار من جبل الشبيكة و النحاتون في نحتها و إصلاحها و الحماره في نقل النورة على ظهور الحمير إلى المحل المهيأ لها و ينقلونها و هي حجارة و يصفونها في المحل المذكور من المسجد.

و في يوم الثلاثاء ثامن عشر جمادى الأولى اجتمع بالمسجد الحرام الأمير رضوان على مولانا السيد محمد و دار الكلام بينهما في الشروع في عمارة الكعبة فقال السيد: ننتظر المعمارية و العملة الواصلين لذلك من مصر و رأى رضوان البدار من غير انتظار و انفض المجلس على أن يشرعوا يوم السبت (٢٢) من الشهر المذكور في وضع الأخشاب المطيفة بالبيت الآخذة بقدر ستة أذرع من الطواف ثم رأوا تأخير العمل للأخشاب إلى يوم الأحد لأنه يوم شريف كان فيه بدء العالم.

و في صبيحة (٢٣) يوم الأحد اجتمع على صاحب بلد الله الحرام السيد و الأمير و جمع من الشرفاء و ناس من الفقهاء و حضر قاضي بلد الله الحرام مولانا حسين أفندي و ناظر المسجد الحرام مولانا شمس الدين عتاق و استؤذن الشريف في مباشرة عمارة الكعبة

الشريفة فأذن فيها و في أن يطاف من الدائر بها بأخشاب قدر ستة أذرع و سمكه نحو قامته الأولى فأذن به و عينوا لمباشرة العمل على بن شمس الدين و محمد زين فقالا: نتولى عمل البيت و عمارته لكن بشرط إطاعة الناظرين بتوسعة أجر العمال فقال رضوان: نفعل ذلك، فأحضروا ثلاث خلع واحدة لرئيس التجارين المعلم سليمان الصحراوي المصري و واحدة لابن شمس الدين و أخرى لابن زين، و تفرق الجمع و حمل جماعة الأمير آلات العمارة من الجبال

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٤٨

و المسامير و السطول و الحلل إلى سقاية العباس و ذبحوا أغناما يسيرة على بعض الأبواب و شرعوا في وضع الأخشاب المطيفة و تسميرها.

و في اليوم المذكور شرع النجارون أيضا في عمل سقالة من الخشب يصعد عليها البنا إلى جدر الكعبة و جعلوا مبدأها مما يسامت الباب الغربي للكعبة و ذلك بأن تقام أخشاب و يسمر بينها عوارض و ترمى عليها أخشاب طوال يوضع طرفها الثاني على عوارض أخرى على قوائم تحتها و هكذا إلى جدر سطح الكعبة، و بعد انتهائها تسمر في الطول خشب عوارض بعرض السقالة و مجموع ما سمر (٧٢) منه و صعد عليها العتالة فأنزلوا بعض الأحجار ثم في الحال صعدوا عليها بالأحجار و كل من الحجارين في نحتهم و النشارين في نشرهم على حالهم.

و في يوم الثلاثاء شرعوا في إصلاح الأحجار الساقطة من البيت و نحت ما يحتاج للإصلاح منها.

و في عصر يوم الأحد هلال جمادى الآخرة صعد السيد و رضوان فرأيا سطح البيت و جداره الباقية و ألقى عندهم على بن شمس الدين أنه لا بد من هدمها و السيد و كل أمر ذلك إلى الله تعالى.

و في صبيحة يوم الاثنين اجتمع كل من مولانا السيد و الأمير بالحطيم و حضر السيد على بن بركات فصعد معه الأمير إلى سطح الكعبة و أراه المكان و أرسل إلى مولانا السيد محمد و أنا بقبة الشراب المعروفة بقبة الفراشين و أشار إلى بأن أصدع إلى سطح الكعبة و أرى ما هنالك و توجهت لذلك فأشار على الأمير و السيد على بانتظار وصولي فجلسوا فوصلت فرأيت سقف البيت مفارقة لجدار اليماني نحو خمسة أصابع و رأيت انصداعا في الجدار الذي يحذو الباب و بمحاذاة من الجدار الغربي فقال لى الأمير و نحن على السطح: ماذا ترون؟ فقلت: هذه الأحجار المفارقة و الخربة و الشعثة تزال لتحقق الضرر فيها و يقتصر على الأمر الضروري فقال المهندس: هذا الذي بأعلاها إنما حدث من انبعاج أسفلها فتأثر هذا منه، ثم عدنا إلى السيد فسألني، فأخبرته بما رأيت و بما قلت و زدت حيث أن هدم باقي الجدار يتوقف على ثبوت أن ذلك الأمر عن انبعاج الأسفل، فقال الأمير: وزن بعض البناء الجدار من محل الحزام فرأى خروجاً على أن ما تحت الحجر الأسود تحتاج إلى الإصلاح. و تكلم رضوان، فقلت له: أنا رجل من أهل العلم و أتكلم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٤٩

بمقتضى العلم و لا أبالي مما يلحقني في ذلك من الأعراض الدنيوية و الحق على النفوس ثقيل، و انصرفت.

و في يوم الجمعة اجتمع في الحطيم ملك البلاد و السيد عبد الله و ولده محمد و أحمد و أشرف آخرون و ناظر العمارة مولانا السيد محمد الحسين الأنقوري النائب في ذلك مناب السلطان الأعظم و مولانا الأفندي حسين الشهير بمتولى زاده، و مولانا ناظر المسجد الحرام شمس الدين عتاقى و الأمير رضوان، و حضر جمع من فقهاء البلد الحرام و أعيانه منهم خالد المالكي و عبد العزيز الزمزمي و القاضي أحمد بن آق شمس الدين المدرس بالمرادية المفتي الحنفي و تاج الدين المالكي و أحمد بن جعفر الواعظ و الفقير إلى الله تعالى. فدار الكلام في جواز هدم باقي الجدار الباقية بعدما انهدم من السيل و المنع منه، فمال جمع إلى ما قال المهندس من هدمه و ملت إلى تحريم هدم ما لم تدع ضرورة أو حاجة حاقة و نحوت منحى ابن عباس في المنع من ذلك، و دخلوا البيت الحرام و خرجوا و طال الكلام و الجدل بين قاضى مكة المكرمة و بين الأمير فقال مولانا السيد الناظر على العمارة لابن شمس الدين و لابن زين: إن كنتم صادقين في دعواكما خراب هذه الجدار و أنها لا صلاحية فيها للبقاء فاحلفا على وفق دعواكما و أيد ذلك قاضى مكة و قام و

مشى إلى الحجر الأسود و قال: تقدما إلى الحجر فامتنعا عن الحلف و قالوا: إن هدمتم فاهدموا و إلا فاتركوا، نحن لا نحلف ثم اقتضى رأى مولانا السيد أحمد و الحاضرين من أن نهدم ما بقى من الجدار الشرقى و من الجدار الغربى و يبقى اليمانى و يصمد بما يحرسه من السقوط من دراية و إمامة و بينى الساقط و المهدم ثم ينظر بعد لحال الجدار اليمانى فيعامل بما يبدو فيه، و رضوا كلهم بذلك و حكم به القاضى الشرعى و انفصل المجلس عليه و كتب صورته القاضى أحمد بن عيسى بن مرشد نائب أفندى مكة بأمره و انصرفوا على ذلك.

و فى يوم السبت شرع العمل فى إخراج باقى خشب السقف و فى ضحوة النهار شرعوا فى هدم الجدار الشرقى مما يحاذى البيت. و فى يوم الأحد شرعوا فى هدم الجدار الغربى و نقض الأخشاب التى عملت فى محل الجدار الساقطة بالسيل و فيه عزم البناء على هدم الجدار اليمانى و زعموا أنه ضرورى الهدم و نظموا فى ذلك سؤالا كتب لهم عليه بالجواز خالد المالكى التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٥٠

و عبد العزيز الزمزمى و القاضى أحمد المدرس و عبد الله الحنبلى و قالوا: المفتى أسير السؤال.

و فى يوم الأحد المذكور نصبوا البكرات و أخرجوا بها عمودين من العمدة الثلاثة التى عليها بساتل أخشاب السقف و وضعوهما عند محل الحجارين أمام الباسطية و هما سالمان سوى يسير من رأس أحدهما الذى يلى الأرض تأكل بالمياه عند غسل البيت و عند دخول بعض السيول لجوفه و أما البساتل التى عليها فمنها ما رأوه منكسرا فألقوه مع رث خشب البيت بين سقايه العباس و فيه الشراب و منها ما ليس كذلك فوضعه فى حاشية المطاف مما يقارب مقام الحنفى إلى محاذة ما بين اليمانيين. و فيه هدموا بعض الجدار الشرقى و رموا أحجاره من أعلا الجدار إلى ما أطاف به الخشب من الطواف و تركوا حمل العتالين له من أعلا الجدار و حملوه من وجه الأرض.

و فى يوم الاثنين شرعوا فى هدم الجدار اليمانى الذى أفتاهم بجواز هدمه من ذكرنا و الأمر لله الواحد القهار.

و فى يوم الثلاثاء أخذوا فى هدم باقى الجدار. و فى يوم السبت نصبوا أخشابا بطول شبائك مقام إبراهيم عليه السلام، من الجوانب ما عدا جانب الباب و سمروها و نقلوا إلى ذلك الكسوة الحمراء و السوداء فجعلوا حزمتين أسفل و عليهما البرقع و من فوقهما حزمتان أخريان. و فيه وصلوا بالهدم إلى ما فوق عتبة الباب العليا و تعسر عليهم إخراج بعض أحجار الهدم حتى عالجا بالمعاول و الصفايح الحديد فى حجر من الجدار اليمانى من الظهر فما تم خروجه إلا بين صلاتى العصر و المغرب، و كان للعمل عند إلقائه من محله جلبه ملأت المسجد صراخا.

و فى يوم الأحد قلعوا العتبة التى على أعلى الباب و وضعوها عند العمدة بمحل نحاتى الأحجار و أخرجوا درفتى باب الكعبة الشريفة و حملوها على الرؤوس واحدة بعد الأخرى و وضعوهما فى الخلوذة التى تحت بيت مرزا مخدوم مسكن ناظر العمارة و كان ذلك ضحوة النهار.

و فيه قلعوا أحجار الشاذروان و هى رخام فيها حلق نحاس مموه بالذهب لإدخال البريم فيها، و هو بموحدة فراء فتحية بوزن فعيل، الحبل المبروم الذى يحيط به أسفل كسوة الكعبة و فيها مسامير لإلصاقها بما تحتها و كان ذلك من عمل مولانا السلطان أحمد خان بمباشرة حسن بن مراد شيخ الحرم المكى حينئذ.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٥١

و فيه رفعوا الحجر الذى فيه الركن اليمانى الذى هو محل الاستلام للطائف و ألقوا حجر الركن فى داخل ما أطاف عليه الأخشاب من الطواف و هدموا باقى أحجار الأركان و ما بينهما و ما أبقوا سوى الحجر الأسود و ما فوقه و ما تحته و ما بجانيه و نصبوا أخشابا على ظهر الحجر الأسود و سمروا طرفها الأعلى و كأنه لمنع أن يرقى أحد من ذلك المحل إلى العمل.

و فيه ابتدءوا فى طحن الجص فى المصنع السلطانى عند بركة الشامى و تم أيضا مطابخ الجير للأعمال السلطانية، و قد كان الجير يؤتى

به أحجارا على ظهر الحمير إلى داخل المسجد و تطفى عند باب القبلة، ثم تركوا ذلك و صاروا يطفونه عند مطبخه و يأتون به دقيقا. و فى يوم الخميس نظفوا أسفل الجدر و وجهها لصحة أساسها و كمال أحكامه بحيث منع البنائين مما أرادوا من هدمه و قربوا بعض الأحجار إلى محل البناء.

و فى يوم الخميس نظفوا أسفل الجدر و وجهها لصحة أساسها و كمال أحكامه بحيث منع البنائين مما أرادوا من هدمه و قربوا بعض الأحجار إلى محل البناء.

و فى يوم الجمعة اجتمعوا على السيد محمد ناظر العمارة الشريفة فأكرمنا على عادته بالطيب و غيره أكرمه الله و ذكر لنا أنه وقع فى سره أن انقلاب ماء زمزم عما كان فيه من المرارة إلى الحلاوة علامة على أن ما صنع بالبيت من الهدم حسن و فيه التفاؤل بصلاح الحال و بالحلاوة بعد المرارة، و كان صلى الله عليه و سلم يحب الفال الحسن.

و أشرت على مولانا السيد محمد ناظر العمارة بأن يأمر البناء بغسل الأحجار قبل البناء بها لاحتمال عروض ما ينجسها من هذه المدة من هر أو كلب أو طير، و قد صرح الفقهاء بندب غسل حصا الحمار لذلك، و أيضا فقد قال تعالى:

وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ فَاسْتَحْسِنْ ذَلِكَ و أشار به عليهم ففعلوا لكن فى كبار الأحجار المنحوتة دون أحجار الوجه الثانى و الحشو و كأنهم استثقلوا ذلك و غسلوها بالماء الحلو دون ماء زمزم لأنهم زعموا أنه يؤثر فى إضعاف الجص و الجير.

و فى يوم السبت نحت الحجارون من محل استلام الناس للركن اليمانى قدر أصابع قالوا لأن من فوّه كان قد انفلقت منه قديما فلقة، فنحتوا فى بطن الحجر ما يساوى تلك الفلقة المفقودة، و إن فات لذلك لمس ما تشرف بأيدي الأنبياء و الصحابة و التابعين و العلماء و الصالحين من وجه ذلك الركن.

و فى يوم الأحد ٢٣ جمادى الآخرة شرعوا فى وضع الأحجار فى بناء الكعبة، و وضعوها على الأساس من بعض الأطراف، و حملت فيه أحجارا على كاهلى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٥٢

تشرفا بذلك و اتباعا لسيد الخلائق صلى الله عليه و سلم و رأيت البناء يعملون فى الجانب الشامى و هذا المدماك غير معدود من مداميك الكعبة المعدودة، لأنه وراء الشاذروان وعدة المداميك فوّه إلى منتهى سمكها فى بناء ابن الزبير (٢٥) مدماك، و قد بنيت فى هذا البناء كذلك.

و فى التاريخ المذكور سئلت عن الخشب البارز من الكعبة: أيجوز أن يتخذ منه مسابح أم لا؟ فأجبت بأن ما صلح منه لإعادته إليها و جب ذلك فيه على الوجه الممكن و لو بأن تجعل نشارته مع الطين و الخشبة فيه مكان اللبن فى جدارها و ما لا تقع فيه البتة دفن فى موضع منها أو فى المسجد صونا له عن الابتذال و قياسا على دفنه صلى الله عليه و سلم للجذع الذى يخطب عنده ثم تركه للمنبر، و أيضا ففى عمل ذلك منه تعريض للامتهان فإنه إذا انقطع سلك تعرض للابتذال. و الله أعلم.

و فى يوم الاثنين وضعت العتبة السفلى التى بسمت الشاذروان و فى أسفل جدار البيت من وجهه دبل صغير، قال على بن شمس الدين أنه رأى ذلك من الجانب الشامى و ما وقف على منتهاه و لا عرف منتهاه فدك فى هذا البناء و قال: إن الخلل الذى لحق الجدار منه.

و فى يوم الثلاثاء جاءوا بالأحجار التى اقتطعوها من الجبل الشيبكى وراء مشهد العارف بالله الشيخ محمود بن إبراهيم بن أدهم نفع الله بهما و نحتوها و أصلحوها عند مقام المالكى و حملوها العتالة إلى قرب جدار الكعبة و هذا المدماك هو الذى يستره الشاذروان.

ثم اجتمع الناس فى الحطيم للدعاء، و جاء مولانا الشريف و معه أولاده و ناظر المسجد الحرام و رضوان فدعى لمولانا السلطان مراد على العادة ثم لمولانا الشريف ثم لبقية المسلمين و كان رضوان أمر بعض أتباعه أن يعد فى عشرين حلة نورة، و فى عشرين مكتلا حجارة، فلما أتم الدعاء توجه الشريف و من ذكر أجمع إلى الكعبة الشريفة و حمل المذكورون ما ذكر تبركا و اتباعا، و دعوا لمولانا السلطان و عادوا إلى محمل الدعاء من الحطيم فأخرج الأمير رضوان من جيبه رقعة صغيرة فيها أسماء من يريد إلباسهم الأتواب و هم:

مولانا الشريف صاحب مكة، و قاضى الشرع و ناظر المسجد الحرام و حاكم البلد السياسى القائد جوهر بن ياقوت الحسنى و فاتح البيت الحرام كل خلعة خلعة، و ألبسوا من أفتاهم بجواز هدم الكعبة من الجدر القائمة أثوابا، فالحنبلى أخذوا منه قطنية بيضاء و الحنفى أخذوا منه صوفا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٥٣

له و ألبسوهما و وضعوا كلا منهما بدل الثوب عشرة غروش، و أما الشافعى و المالكى فلما طلب منهما كاللذين قبلهما لم يجدا شيئا فأخذ لكل منهما صوفا أحمر و ألبس الشافعى و لم يحضر المالكى فقبضه له أحمد بن جعفر الرومى ثم أعاد أبو السرور العجمى الدعاء لمن ذكر أولا و انصرفوا، و أمر عند كل مقام من المقامات الأربعة أن يقرأ جماعة القرآن، فلما أتم كل ما عليه أدخلوا جوف الكعبة و ختموا فيما بقى من وسطها القرآن الشريف و دعوا لمولانا السلطان و أعطى كل قارئ نحو الثلاثين محلقا و فيه ذبحوا أربعة ثيران و بعض الغنم. و فى وقت الضحى تشرفت بنقل الأحجار الشريفة على كاهلى إلى البنية المنيفة و دك بها البناء باطن الجدر. و فى يوم الأحد شرعوا فى المدماك الثانى و سمكه (٢٢) قيراطا من ذراع العمل، و بدءوا فيه من الجانب الشرقى و فيه صبوا رصاصا على وجه أسفل الجدار اليمانى لىساوى المتآكل منه باقى الجدار فى سمته.

و فى يوم الاثنين غرة رجب الحرام وضعوا الحجر الذى بطرفه محل استلام الطائفين من الركن اليمانى و كان طرف الحجر الذى تحته انكسر من أعلاه فوضع محل ذلك من الرصاص المذاب ما يساوى به مع باقى الأحجار سمته، و كان تمام وضع الحجر و تسويته عند العصر من اليوم المذكور و جاء الفاتح بقليل من الصندل المذاب فى زبدية و صمخ به محل الاستلام و ما يقاربه، و فيه وضعوا حجر الركن الغربى الشامى و نصبوا أحجار الجدار الشامى، و فيه قال مراد آغا ناظر العمارة للبناء عبد الرحمن بن زين: أتقن بناءك فإن هؤلاء البناء يذهبون و لا يبقى من البناء بمكة إلا- أنت و ينسب إليك كل ما يظهر فى البناء من خلل. و دعاه لهذا القول أنه رأى الحجارة المنحوتة ليست فى التلاحم على غايته بخلافها فى بناء ابن الزبير رضى الله تعالى عنه، فإنه لا يكاد بين الحجرين فيه. و فى عملهم هذا بين الحجرين نحو نصف إصبع و ذلك مظنة لدخول ماء السيل منه و إن كحل وجهه بالجص فقد ينحل عند مكث السيل مع أن جدار ابن الزبير رضى الله تعالى عنه كان ذا وجهين.

و فى يوم الثلاثاء كمل نصب أحجار المدماك الثانى من جوانبه الأربعة و شرعوا فى دك ما وراء ذلك.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٥٤

و فى يوم الأربعاء كنت واقفا مع مولانا السيد محمد الناظر على العمارة المطهرة على سقايل البناء مما يلى جهة اليمن فأخبرته أنى شرعت فى قراءة صحيح البخارى روائية بعد صلاة العصر من أوائل شهر جمادى الآخرة فأشار بأن يختم فى داخل البيت و ندعو عقب ختمه لمولانا سلطان الإسلام و المسلمين فيكون ختم فى البيت كل من القرآن و صحيح البخارى، و دعى لمولانا السلطان عقب كل منهما. و فيه حملت النورة و الأحجار و دك بها الجدار اليمانى. و فيه عملوا حديدة نحو ذراع على هيئة الخفاف قالوا ليحكموا له الغلاف الذى يريدونه الحجر الأسود.

و فى يوم الخميس وضعت عتبة الباب الشريف بمحلها و فى الحجر نقب مستدير من ظاهرها إلى نحو نصفها ثم بعد ذلك هو مشقوق إلى آخر الحجر على صورة نصف الدائرة نقر ذلك ليخرج ما قد يتحصل فى داخل الكعبة من السيل عن و كف السقف أو نحوه.

و فى يوم الخميس بعد الظهر نقلت العتالة العمدة الثلاثة من محلها السابق و ردف.

باب الكعبة العليا إلى وسط الكعبة و جعلت بعضها على بعض فى منتصف الكعبة و جعلت طرفا مما يلى الجدار اليمانى و آخر مما يلى الشامى قالوا ليتمكن من العمدة عند الوصول إلى محلها من غير تعب و وضعوا عليها يوم السبت صفائح الخشب و ستموا أطرافها حفظا لها من نجاسة طير و وسخ عمارة.

و فى يوم السبت عمل البناء الأحجار على المدماك الثالث و زرع سمك أحجاره عشرون قيراطا و فيه الباب الشريف الشرقى، و فيه

رسموا باب الكعبة الغربية و هو بحذاء الباب الشرقي في الجدار الغربي.

و في يوم الأحد أكمل نصب الأحجار المنحوتة في المدماك الثالث من جميع جهاته ما عدا محل الحجر الأسود. و فيه نجر النجارون الأخشاب الصحيحة من البيت و أصلحوها، فعادت حسنة المظهر في غاية الجودة. و فيه موه الصايغ الفضة المصنح بها النحاس المجعول غلافا للحجر الأسود.

و في يوم الاثنين انتهى الدك ما كان بين الجدار و ما في أصل الكعبة من الرضم و على وجهه الرخام المفروش من جانب اليمن. و فيه أدخلوا الحجرين الشيكين المنفور ما بينهما بقدر موضع الحجر الأسود، و أحدهما راكب على الثاني، فدخلوا بهما على العتالة إلى محاذة الحجر الأسود من المحيط به الخشب، و أدخلوا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٥٥

بين الحجرين ما أعدوه للحجر الأسود و قاسوه و عرفوا عملهم و أمروا الصانع بإتمام تمويه الذهب في باقى اليوم، فقال: ما يتيسر إلا في غد و شرع البناء في المدماك الرابع و زرع سمكه ثمانية عشر قيراطا بدؤوا فيه من الجانب الشامي.

و في يوم الثلاثاء بعد الإشراق جاء السيد محمد الناظر على العمارة و ولده و الأمير رضوان و معهم ما أعدوه للحجر الأسود من المصفح بالفضة المموهة بالذهب فجاءوا بصفائح من خشب مسمر بعضها إلى بعض في أعواد من ورائها، فسدوا بذلك ما كان مفتوحا بحذاء الحجر الأسود لتقبيله و قلع الحجر الذى على الحجر الأسود المطبق على أعلاه و المطيف به طرفه من الجانب اليماني، فوضعوا أخشابا على طرف جدر الكعبة و دحرجوا عليها ذلك الحجر حتى نزل إلى حذاء الكعبة، فحملة العتالة و أبرزوه، ثم وصل الشيخ عبد العزيز الزمزمى مع فاتح البيت ثم مولانا العلامة شيخ الحرم المكى و قاضى مكة حسين أفندى، و كان حاضرا مصطفى آغا جدة و كاتب البندر المذكور الشهاب أحمد القباني، ثم حضر مولانا الشريف صاحب مكة و معه ولداه محمد و السيد أحمد و السيد على بن بركات و آخرين من السادة الأشراف، فلما رفع الحجر الكبير الذى على ظهر الحجر الأسود و قصد ابن شمس الدين رفعه من محله و رفع الحجر تحته فأخذ عبد الرحمن بن الزين البنا إصبعاً من حديد و صار يقلع به ما ظهر على الحجر الأسود من فضة و جير فقرص به في وسط الحجر و اتكأ، فإذا انقطع وجه الحجر الأسود و انقشر عما تحته و تفرقت فيما بينها و كادت تسقط فسقط في أيدي القوم. و دعا السيد على بن بركات فقال لهم: يا أمة الإسلام تحروا فإنكم إن أخرجتم الحجر الأسود من مكانه تفرقت أحجاره، و لا- و الله تقدرتون على جمعها و إعادة الحجر كما كان فيحصل ضرر شديد، و سكتنا في أمر هدم الجدران و وكلنا ذلك إلى ذمكم.

و أما هذا فلا نسكت عليه، و ابن شمس الدين و ابن زين يابيان إلا في رفعه و رفع الحجر من تحته و لو جرى ما جرى، و يدعيان أن الحجر تحته خارج عن ميزان عمله، و أنه محل الركن و له اتصال بالباب، و هو محل التردد إلى البيت فلا يمكن بقاؤه. فقال السيد على: بفرض ما يقول البناء المتقنون يعقدون العقود و بينون عليها القصور و يعتقون الجدر الخراب و بينون ما يريدون. فلما رأى الأمير رضوان أن تفقش أجزاء الحجر أمرهما بما قال السيد على و أطاعا ورد الحجر الذى تحته في الحال بعتبه إلى بيته، و أمرا أن يجعلوا من فوق الحجر حجرا يعتقه و يكون عليه مدار العمل ثم و قد بسطت الكلام في هذا المقام في كتابي العمل المفرد من فضل و تاريخ

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٥٦

الحجر الأسود و لون ما يستتر من الحجر الأسود بالعمارة في قدر الكعبة أبيض بياض حجر المقام و ذرع طوله نصف ذراع بذراع العمل و عرضه ثلث ذراع و نقص منه قيراط في بعضه قالوا لتأكل المحل منه و سمكه أربعة قيراط و عليه سيور من فضة واحد من أول ما غاب من رأسه من جهة الباب مستدير إلى مثله مما يلي الجانب اليماني في وسط سمكه و عليه سيران من فضة محيطان بعرضه إلى طرف السير من الوجه الثاني، و في عرض الحجر ثلاثة شطوب مستطيلة واحد من جهة الباب و آخر من جهة الركن اليماني و سرى إلى آخر الحجر من هذا الجانب.

و الثالث في الوسط سوا و بعد الاتفاق على بقاءه عمل مركب يلصق به ما تفرق عنه من أجزائه، فطبخوا عنبرا و لاذنا فقلت لهم: ضعوا فيه لسكا فمغ من ذلك ابن شمس الدين و طبخوا ذلك طبختين مرتين و أعادوا به الفتات من الحجر إليه، و غسلوه بعده بالماورد الأزدى. و باشر في ذلك مولانا الشريف و ولده و السيد على و باقى الأكاير الحاضرين. و بعد إتمام اللصاق جاءوا بالطوق الذى صنعوه للحجر الأسود و قاسوا إذا كان يمكن عمله على الحجر مع بقاءه، فأروا إمكانه ثم أعرضوا عنه بالمرء، ثم قرأت الفاتحة لمولانا السلطان و انصرف القوم. و قبيل صلاة العصر دخلت حذاء الحجر الأسود عند السيد الناظر و الأمير رضوان فأخبروا أن الأحجار ما التصقت بما لصقت به و أن اللصاق ذاب من حر الشمس و أن معلما وعدهم أن يصلح ذلك بالليل ففرحوا.

و فى ليلة الأربعاء سرجوا شموعا كثيرة بعضها على جدر الكعبة و ثلاث مركبات منها أمام الحجر الأسود. و جاء الجمال محمد بن يوسف الحكاك أحد الوقادين بالمسجد الحرام و بوابيه و معه ابن بهاء الدين الملتانى و كان أبوه نجار المسجد فغسل الوقاد الأحجار بعد قلعها بالزيت الطيب ثم بالماء الحار عن الإذن و العبر الذى ألصق به أحجاره أولا و فعل ذلك و على حذاء الحجر ستارة تمنع رؤية العمل و ركب قلفونية و اسبيداجا بعلبكيا و سندورسا و أضاف إليه مسكا و عنبرا لطيب العرف و قليل من الفحم للسواد. و أخبرنى الوقاد أن عدة فلق الحجر الكبار نحو ثلاثة عشر، و الكبار منها أربعة، و الباقي صغار بالنسبة إليها و شرع فى الإلصاق بذلك المركب بعد نحو سدس الليل و أتم العمل عند مضى نصف الليل.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٥٧

و فى صبيحة الأربعاء، دخلت فرأيت الأحجار عادت بحسن اللصاق إلى ما كانت عليه فى الجملة، إلا أنه حدث الآن نتوء فى بعض الأحجار حال وضعه فصار خارجا عن سطح الحجر فيؤلم من يسجد على الحجر سيما من غير ترو. و أخبرنى الجمال الوقاد أن لون ما انكشفت عنه الأحجار من الحجر الأسود أخضر زيتى، و قال غيره: فيه شوب صغيرة كالمحجب بالزعفران.

و فى صبيحة اليوم المذكور قاس سليمان النجار ما بقى بين أعلا الحجر الأسود و الحجر الذى فوقه و قطع ذلك ليأخذ النحاس بقدره من الطوق الذى أرادوه فيصفح بالفضة و يموه بعده بالذهب. و فيه بنى البناء فى المدماك الثالث من الجانب اليمانى و الجانب الغربى، و أتم البناء المدماك الثانى بأعلى دكة البيت سوى الحجر الذى فى حذاء الحجر الأسود.

و فى ليلة الخميس جاءوا بحرف لسد ما بين الحجر الأسود و الذى فوقه و سمكه ذلك نحو أربع أصابع و عليها فضة و أرادوا إلحام طرف الفضة بطرف الحجر الأسود و أن يكون ذلك لمصب مذاب الفضة على أطراف الحجر فأبى الذى عمل اللصاق منه، و قال: إن فعلنا ذلك تفككت الأحجار الملتصقة و لا يقدر على إعادتها فتركوا ذلك و أخذوا فى حك الفضة بالمبرد عن أطراف الحجر. و من عجيب آيات الحجر أنه يؤتى بالمبرد صحيحا قويا فما هو إلا- أن يبرد به قليلا- تلف و أثر ذلك فى يد العامل فتركوا البرد و قطعوا تلك الفضة بالقدوم، و أخبرت أن المتحصل من الفضة ليلتد نحو ثلاثة دراهم، و كذا المتحصل قدر ذلك أول يوم من قلعها. و فى يوم الخميس شرعوا أيضا فى العمل المذكور فى الحجر و أخذ البناء فى بناء الأحجار التى فوق الحجر الأسود و بجوانبه، و أتموا بها المداميك الموازية لها و شرع باقى البناء من الركن الغربى إلى اليمانى فبنوا باقى الجدار و دكوا باطنه.

و فى ليلة الجمعة حضر كل من مولانا السيد و الأمير إلى فناء البيت و أسرجوا الشموع و حضر الوجيه ابن زين لسد ما بين الحجر الأسود و الحجر الذى من فوقه فأخذ خشبة سمكها أربعة أصابع بطول ذلك و عرضه وضعها بداخل ذلك المكان، بعد أن ملأه بالجص فأحكم عملها فيه ثم ضرب النجارون مسامير الفضة فى الصفيحة الفضة المموه بالذهب على وجه الخشبة و بقيت فضة من طوقه الأول من أسفل الحجر نحو ثلثه و عمل بالفضة المموه بالذهب ما عدا من ذلك، و تم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٥٨

عملهم بعد مضي نحو ثلث الليل و حضره شيخ الحرم و السيد على بن بركات و السيد أحمد بن مولانا الشريف و استحسنا ذلك و رفع الحجاب للطائفين عن تقبيل الحجر عند نصف الليل، فقبل الناس الحجر و حمدوا الله تعالى. و بعد صلاة الحنفى الصبح أعاد النجارون سد ما فتحوه من المطيف من الخشب إلى هذا المكان لعمله، فعاد كما كان و تم عملهم ذلك عند طلوع الشمس، و ألبس كل من الصايغ و هو على اليماني صبي قاسم بن مهار و من الصايغ فى إصاق أجزاء الحجر و هو ابن بهاء الدين الملتاني خلعه و امتنع عن ذلك محمد الحكاك فيما قال لى. و قد حكيت هذه القضية و جعلت لها تاريخا من قولى:

الحجر الأسود مازال سناه نورا

و فضله و مجده عن النبي مأثورا

شاهد صدق للذى قبله لا زورا التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم ؛ ج ٢-٣ ؛ ص ١٥٨

يأتى قيامه له عينان خذ مسطورا

محمدًا قبله فاسأل به خبيرًا

فزاد فى تشريفه و زاده تشهيرا

و هو يمين الله فى أرض له مشهورا

و كم لو آ رفعة أتاحه منشورا

لما بنوا البيت الذى به أنلنا النورا

و جددوه كله و عمروا تعميرا

و رمموا بعنبرو أكثروا العبيرا

مع لاذن به أصلحو الحجر المذكورا

فألصقوا أحجاره و حبروا تحبيرا

لما بدا الصدع بدامن إصبع مدورا

دار على جوانب مذهب منها الجيرا

و فضة دارت به من قدم تدويرا

شدا بن زيد يده عليه إذا ديرا

تفتت أحجاره عن بعضه تكسيرا

و بعد إصاق لها و أتقنوا الأمورا

ساج عبير عنبرو قد ذكا عبيرا

و كان ما قد جبروا يفارق التحبيرا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٥٩ أتا هم معلمكم بصنع ذا مخبورا

فقال لا بأس و ذأ أعيده مجبورا

ألم صدعه بما يذهب التكسيرا

سر بهذا سيدزاد به سرورا

كذاك رضوان الأمير أكرم به أميرا

لأن فى ذا خدمة لله يعطى النورا

فواعده أن يجبى و تابعًا مذكورا

قبيل عتمه فجامعتنا أجورا
و المير و الأمير قدبالنور زاد النورا
جاؤوا بشمع عدة و نوروا التنويرا
و حجرا قد ستروا بثوبهم تستيرا
وقت اصطناع صانع قد أتنن الجبورا
جا بآلات بهاقد لصق المكسورا
أجزاؤه كأنها ما قد شكت تكسيرا
عادت كما كانت سوافاسأل فتى بصيرا
كأنه الآن و قدلم به الكسورا
هو قبل صدع ما ترى صدعا و لا فطورا
فانصر إلهى سيدى سلطاننا المنصورا
مراد خان لم يزل بعزه مشهورا
و لا يزال ملكه فى عزه محبورا
عمر بيت رينا فزاده تعميرا
و الحجر الأسود قد جبره تجبيرا
أن تبغ عام صنعه و يومه المبرورا
صبح الثلاثاء تاسع من رجب شهورا
و ختم أمر صنعه فى جمعه ميرورا
ثانى عشر رجب و اليد رضاء النورا
عند انتصاف ليله ثم عطا سرورا
و عامه لا يا أخى تاريخه المسطورا
و كان أمر الله قدرا يا أخى مقدورا
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٦٠ ذى أنه أرخ لهاذا العمل المذكورا

ثم الصلاة أبدأت نور الديجورا
على النبى محمد من أسس الخيورا
و آله و صحبه من ألبسوا الحيورا
و وارث و تابع و من أنيل نورا
ما زال بيت الله فى أعلا السنا معمورا
و فى يوم السبت شرعوا فى وضع أحجار المدماك الخامس و ذرع سمكه ثمانية عشر قيراطا و ابتدأوا فيه من الجانب الشامى و أتموا
نصب أحجار الجانب كلها فيه و باقى الجهات فى اليوم بعده.

و فيه جاؤوا بالقبان لتقبين ما يحتاجون إلى إدخاله فى البناء من الحديد فإنهم جعلوا فى طرف كل ركن حديدة معكوسة الرأس من
الطرفين و نقروا لرأسها فى الأحجار و أدخلوها فى ذلك و صبوا عليها الآتك و من هذا المدماك عملوا الحديد دون ما تحته من
المداميك.

وفيه شرع النجارون في نجر أخشاب الدفن و هي أربعة أدوار بقدر بناء البيت أجمع فنقروا أطراف الخشب و ألصقوا البعض البعض و جعلوا لكل دفين طوقين واحد وراء آخر و هو من الداخل من وراء الحجر الشيكى المنحوت الموجه به وجه الجدار من الخارج من فوق الباب فأخذوا لذلك ما صلح من دفنها التي كانت فيها و كملوا الباقي بما كان في سقف البيت.

و في يوم الأحد و فيما قبله وصلت أخشاب ساج أخذت من بيوت جدة المعمورة لسقف البيت الشريف. و في يوم الاثنين نحت الحجارون الحجر الكبير الذي على طرفه الحجر الأسود و هو الذي أراد ابن شمس الدين تحيته عن مكانه و أبى الله إلا إبقاءه فبقى.

و فيه جاءت أخشاب من ساج من جدة. و فيه شرعوا في المدماك السادس و ذرع سمكه ثمانية عشر قيراطا من الجانب الشرقي من جهة الباب و تم نصب أحجاره و عملوا في الغربي و دكوا ما وراء الوجه من الجدار اليماني. و فيه و فيما قبله عمل النجارون قواعد لتوضع على العمدة من أعلاها تحت السقف.

و في هذه الأيام صارت الحمر تدخل في المسجد إلى محل تخمير النورة عند مقام الحنبلي و على ظهورها النورة و البطحاء و إدخال البهيمة التي لا يؤمن تلويثها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٦١

المسجد بغير ضرورة حرام و بها مكروه صرح به أصحابنا و ما ذكر ليس من الضرورة في شيء لإمكان وضعها عن البهائم عند باب المسجد و حمل العملة له من ثم، و لكن الأمر لله.

و في يوم الأربعاء شرعوا في المدماك السابع و ذرع سمكه سبعة عشر قيراطا و فيه صعد السيد نائب السلطان في العمارة الشريفة و الأمير رضوان إلى سطح المسجد و رأيا ما يحتاج للبياض من قبه فعزموا على الشروع فيه يوم السبت.

و في يوم الخميس بنوا من المدماك السابع الجدار الغربي و شرعوا في اليماني منه و ابتدؤوا منه بما يحاذي أعلى الركن الأسود و فيه أتم الحجارون نحت الحجر الذي عليه الحجر الأسود.

و في يوم السبت عمل المبيضون في بياض قب سطح المسجد و كان قد ييضه حسن باشا لما جاء بالحزام من قبل مولانا السلطان أحمد بن محمد فيما أحب.

فعملوا في هذا اليوم أربع قبب بدأوا مما يلي باب العمرة، و أخبرت بأن كل قبة تبيض بثلاثة أرباب من الجص و قد بلغني أن جملة ما أنفق في ثمن الجص في عمارة الكعبة و تبيض المنائر و القبب فوق أربعة آلاف دينار و في الخشب فوق سبعة آلاف.

و فيه شرع البناء في المدماك الثامن و ذرع سمكه سبعة عشر قيراطا أيضا و نصف قيراط و بدأوا فيه من الجانب الشامي. و في يوم الأحد أتموا المدماك الثامن و كان انتهاء دكه بعد الظهر.

و في يوم الاثنين ألصقوا باب الكعبة الخشب المصفح بالفضة المصطنعة بالتحلية صورة و آلات متلاصقة و أنه من عمل السلطان عليه الرحمة و الرضوان، و كذلك الخشبة التي في أعلاها الباب الشريف فيها و بها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم.

و جاؤا بالباب الشريف الذي كان أولا و هو من عمل السلطان سليمان فأوقفوا الدرفتين و تركوا وضع درف الباب العليا عليها إلى وقت ضحوه النهار حتى عمل الحدادون سكرجات حديد لأعلى الباب و أسفله و حضر وقت إقامته مع الناظر على العمارة مولانا السيد و الأمير رضوان و أفندى مكة حسين و شيخ الحرم و مؤلف هذا التاريخ و فاتح البيت و بعض خدام البيت.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٦٢

و فيه شرع البناء في المدماك التاسع و ذرع سمكه سبعة عشر قيراطا و بدأوا فيه من الركن العراقي ثم من الغربي. و الفقير و لله الحمد و المنة يحمل الأحجار و النورة في هذا العمل من الضحوه الكبرى إلى الظهر كل يوم طالبا ثواب الله تعالى حقيقه لنا بمنه.

و في يوم الثلاثاء أتم الحدادون السكرجات فوضعت التحتيتان في محلها من عتبة الباب السفلى بعد أن بنيت بالنورة و صغار الأحجار

ثم بالأقنونة و وضع الرخام الذى على وجهه الباب عليها و نقر فى الرخام لمحل السكرتين بقدرهما حتى لا يتحرك الباب منها من مكانه و وضعوا درف الباب العليا و فتحوا الباب الشريف فانفتح كما كان و وضع على الباب الشريف قفله و كان وضعه مع أذان الظهر.

و فى يوم الأربعاء شرعوا فى المداك العاشر و ذرع سمكه ستة عشر قيراطا و نصف قيراط.

و فى صبح الخميس نظف العملة ما على أمام البيت من الجباب و غيره و رفع العتالة كبار الأحجار الباقية فيه و ذلك إلى حد المعجنة فرفعوا الأخشاب التى كانت مطيفة بذلك المكان و جعل منتهى الأخشاب إلى حد المعجنة و أحكم سدها بما يمنع الوصول إلى ما ورائها من ذلك المكان. و فيه شرعوا فى المداك الحادى عشر و ذرع سمكه ثمانية عشر قيراطا و ابتدأوا فيه من جهة الحجر. و بعد العصر نظفت أرض الكعبة مما يلى بابها الشرقى من وراء العمدة المجعلولة بنسق الكعبة و ذلك مما بها من خشب و آلات و ذلك ليختم فى صبيحة النهار بعده صحيح البخارى فإنه قارب التمام و أن الختم يكون تمه حينئذ.

فلما كان بعد فراغى من درس التفسير بعد العشاء أرسل إلى مولانا السيد محمد الناظر على العمارة و قال: إن الأمير رضوان أرسل إلى عند صلاة العشاء أن جمعا من فقهاء مكة أنكروا ختم صحيح البخارى بالكعبة بأنه لم يسبق إلى ذلك فأرسل إليه السيد يقولون بحرمة ذلك أم بكرهته؟ فقال: سألتهم فقالوا: لا و إنما هذا أمر ما سبقت به عادة، فقال السيد: هذا لا يمنع فهلم رجلا منكم يقرأ الصحيح و يختمه عن جوف الكعبة و ما فى الخير إلا خير و ترك فعل الشئ فيما سلف لا يقتضى المنع منه إذا لم يرق للمنع وجه، ثم التقى السيد معه بعد صلاة ركعتى الطواف عند المقام و طال بينهما الكلام قال السيد: إن الحامل له على

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٦٣

موافقتهم ما فى نفسه من أفتاكم بالحق أنه لا يجوز هدم جدار الكعبة القائمة الصحيحة قال: و انفصل الأمير معه على إرسال المفتاح صبيحة و افترقا و ذهبت إلى منزلى و راجعت المواد فإذا هى شاهدة عدل بجواز قراءة السنة فى جوف الكعبة و لا سند لمن غير من وجه الحق إلا- الحسد فتمت و قمت عند السحر و كتبت سؤالا- فى ذلك و أنه هل يمنع من أراد من أهل العلم بالحديث من ختم صحيح البخارى بالبيت الحرام و الدعاء بعده لمولانا السلطان بالنصر و لمولانا الشريف بالتأييد و للمسلمين أجمعين؟ فكتب حينئذ على ضوء الشمعة صاحبنا الفهامة أحمد بن محمد الخطيب الحضرمى الشافعى ما حاصله لا شبهة أن علم الحديث النبوى أفضل العلوم بعد علم التفسير و قراءته قرينة و أفضل أماكن القرب الكعبة و لا مساغ لإنكار ذلك بعدما علم أنه من أفضل العلوم. و كتب أيضا حينئذ كذلك الشيخ الحاسب الفرضى محمد بىرى الحنفى و زاد: و إن كنا لم نسمع بمثله. و كتب مولانا القاضى شهاب الدين أحمد بن شمس الدين المدرس الحنفى المفتى و زاد: و غير جميل المنع من قراءة ألفاظ رسول الله صلى الله عليه و سلم فى بيت الله تعالى. و توجهت بعد صلاة الشافعى الصبح إلى مولانا السيد و أريته كتابة الباقيين على نور العلم السالمين من ظلمة الحسد فأشار بأن أعود له بعد صلاة الحنفى ففعلت فأرسل إلى الأمير رضوان و طلب مفتاح ما أطاف بالبيت فأرسل به مع بعض أتباعه و قال: هذا المفتاح، فقال السيد: نحن ما نريد نتحدث فى جوف الكعبة بكلام الناس و لا بسيرة الملوك و أخبارهم بل نقرأ كلام سيد المرسلين و حبيب رب العالمين صلى الله عليه و سلم و ندعو عقب ذلك لمولانا السلطان و الشريف و المسلمين، فنزل السيد و ولده و نزلت صحبتهم فلما كنا عند منتهى الدرجة لمنزله إذا بالمنتصبين فى منع ذلك حسدا و هم خالد و عبد العزيز و تاج الدين المالكى و أحمد بن جعفر الرومى و على بن خالد واقفون ثم سألهم السيد عن حاجتهم بعد أن بدأهم بالسلام فأعلموه أنها إنكار عليه و على هذا الخير الذى خصصنا به فتكلم عليهم السيد و أثخن و قال لهم: إنكم متعصبون و انقلبوا و لم ينالوا من مرادهم شيئا و ردهم الله بغيظهم فدخلنا الكعبة الشريفة و صلينا ركعتين فحضر مولانا العارف بالله تعالى الشيخ تاج الدين النقشبندى و مولانا الأفندى الأعظم حسين و نائبه مفتى الحنفية و مولانا شيخ الحرم عتاقى زاده و جمع كثير من العلماء و عدد من الأتقياء الفلحاء و جلسنا فيما يلى الباب عند هذا مجتمع درفتيه من وراء العمدة و دخل كثير من الناس و شرعت فى صحيح البخارى من باب ما يجوز فى تفسير التورينة و كتب الله

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٦٤

بالعربية و غيرها إلى آخر الكتاب، و دعونا أجمعين بالنصر لسلطان الإسلام و المسلمين و بعد تمام القراءة و الدعاء خرجنا إلى خارج البيت مما أطاف به الأخشاب من الجانب الغربى فقسمنا فيه الطيب و البخور و الريحان و كان يوما مشهودا، و ألفت مؤلفا سميته القول الحق و النقل الصريح بجواز أن يقرأ فى جوف الكعبة الحديث الصحيح.

و فى يوم السبت يوم عيد المعراج أصبح ابن شمس الدين من جدّه و قد عين لسقف الكعبة من خشب الساج من بيوت جدّه و ارتكب فى جمعه ما يجازيه الله عليه فى عرصات القيامة فكم أخرج بيتا و هدم وقفا و البيت فى غنى عن ذلك، و قد كان بغير سقف فى بناء إبراهيم عليه السلام و قد ألهم الله قريشا و هم فى الجاهلية أن لا يدخلوا فى البيت شيئا غصبيا و أن إخراج أذرع منها إلى الحجر أهون من إدخالهم ذلك فيه فانتبه أيها النبيه.

و فيه شرعوا فى المداك الثانية عشر و ذرع سمكه ستة عشر قيراطا.

و فى يوم الأحد شرعوا فى عمل خشب السقف و نشر صفائحه و أخبرنى شيخ المعلمين للنجارة أنه أربع فجوات كل فجوة اثنان و عشرون عودا فيكون مجموع أعوده ثمانية و ثمانين عودا عدد ما كان فيها أولا و على الأعود صفائح أخشاب مسمره عليها من ظهرها. و فى يوم الاثنين شرعوا فى المداك الثالث عشر و ذرع سمكه ستة عشر قيراطا أيضا. و فيه شرعوا فى بسط رخام السطح على وجه الأرض ليأخذوا قياسه و رقموا ما بين الحجر و ما يليه كما فعل نظيره فى الأحجار المنحوتة من أحجار المداميك.

و فى يوم الثلاثاء رفعوا السرادق الذى كان على أحجار الكعبة. و فيه أتموا المداك الثالث عشر و منه الشروع فى النصف الثانى من مداميك الكعبة.

و فى يوم الأربعاء هلال شعبان رفعوا الستارة عن الأخشاب التحتية و طووها إلى نحو نصفها من أسفلها فظهرت غرة وجه البيت الشريف و حمد الله الناس على كشف ما ستر عنهم. و فيه عمل النجارون للقواعد على العمدة من أعلاها ما أحسنوا فى صنعه و نقروا فى كل منها ما سعتة عشرة قيراط. و فيه أشار على مولانا السيد محمد الناظر على العمارة أن أصنع تاريخا يكون فيه بناء البيت على وفق المراد فأنشأت فى ذلك قولى:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٦٥ خير بيت فى البرايا و العباد كعبة لله فى أم البلاد

ما لها بعد ضريح المصطفى من شبيهه فى كمال و انفراد

عمر السلطان سلطان الورى ناصر للشرع مولانا مراد

عمر الكعبة كلا يرتجى فيه برا من كريم خير هاد

عمر البيت و أحياه بنى كله لله مولانا مراد

قام فى الخدمة فى ذا سيدحاكم الشرع على وفق السداد

فى بلاد المصطفى و اسم له كسمى جداله خير العباد

إن ترم تاريخ عام كملت بحروف كعقود لليجاد

مع جواد قد أتى تاريخه جدد البيت على وفق المراد

و فى يوم الجمعة بسط المرخمون باقى النصف الثانى من رخام السطح للكعبة.

و فى يوم السبت رفعوا باقى النصف الثانى من الستارة و طووها إلى منتهاها و صارت الكعبة بادية من غير سترة يمنع عن رؤيته محياها. و فيه شرعوا فى المداك السابع عشر و ذرع سمكه و سمك السادس عشر خمسة عشر قيراطا كما أن ذرع سمك كل من الرابع عشر و الخامس عشر أربعة عشر قيراطا و نصف.

و فى يوم الأحد عادوا لتبييض قب سطح المسجد بعد تركهم لذلك ثلاثة أيام.

وفي يوم الثلاثاء وصلوا إلى المدماك الذي عليه بساتل أخشاب السقف الأول و هي ثلاثة و فيه وصل كاتب جدء المحروسه الشهاب أحمد القباني و معه بعض أخشاب السقف الباقي و وصل بالبستل قطعة من دقل مركب نحو ثلثه حمل من جدء على عجلتين مقدمين و مثلهما مؤخرين و جرت باثني عشر جملا و أدخلت القطعة من باب الصفا حملها اثنا عشر رجلا و وضعوها أمام مقام المالكي.

و فيه شرع المبيضون في بياض منارة باب الحزورة و ربطوا أعواد الحبال بدور المنارة و أرخوا حبالا على قدر سمت عملهم حتى أتموا بياضها في نحو خمسة أيام.

و في يوم الأربعاء رجع الشهاب القباني إلى جدء لباقي الدقل و هما قطعتان منه وصلت إحداهما إلى الرغامه في طريق جدء و الأخرى بجدء مظنة وصولهما لمكة إلى بعد مضي جمعة من نزوله.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٦٦

و بقي من مداميك البيت نحو ستة، و ذرع سمك كل من المدماك الثامن عشر و التاسع عشر خمسة عشر قيراطا.

و في يوم الخميس ركبو أربع بكرات بحبالها لتطليح أخشاب البساتل لسقف الكعبة.

و في يوم الجمعة عاشر شعبان شرع المرخمون في ترصيص رخام الوزرة من الكعبة من جهاتها كما في نظيره من رخام سطح الكعبة.

و في يوم السبت أصعدوا بالدوار على البكرة الخشبية الكبيرة التي جاءت من جدء و وضعوا طرفها على الجدرين الشرقي و الغربي و فيه شرعوا في بناء الشاذروان بدأوا فيه من تحت الحجر الأسود. و فيه عند العصر أقاموا واحدا من العمد للكعبة بالدوار و أجلسوه على القاعدة من الحجر و جعلوا على الحجر الذي تحته طوقا من حديد صبوا فيه الرصاص المذاب ليربط بينه و بين العمود الخشبي.

و في يوم الأحد أقاموا العمود الثاني و الثالث بما أقيم به العمود الأول.

و في يوم الاثنين وصلت الخشبتان الباقيتان بجدء و طريقها، فإحداهما حملت على خمسة عشر جملا و ألقينا عند باب إبراهيم، و دخل بها الحمال فأصعدهما العملة و الناس بالدوار إلى طرف الجدار للكعبة.

و في يوم الثلاثاء وضعوا البستل الأول من البساتل للسقف الأول في محله من الجدر ثم الآخرين منها و بنوا على المدماك المحيط بها و هو المدماك العشرون و ذرع سمكه تسعة قراريط و هو أصغرها ذرعا.

و في يوم الأربعاء تم بناء المدماك العشرين و تم الشاذروان من الجدار اليماني و من الجدار الشرقي.

و في يوم الخميس بنى المدماك الحادي و العشرون.

و في يوم السبت دهنوا عمد الكعبة الثلاثة بالجير و الزعفران و طلوا ذلك بغير الجلود و أنكره شيخ الحرم بأن غر الجلود يصنع من فضلات جلود الميتة و أعضائها و ربما يكون فيه شيء من أجزاء الخنزير و لصاق الدهان ممكن بالطيب الطاهر من الصمغ و السندورس. و قال كذلك إسماعيل الدهان و كان دهان العمد في أيام، و أخبرني المباشر بعمل ذلك محمود الهندي أنه عمل في ذلك بخمسة و عشرين رطلا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٦٧

من غر الجلود و بعشرة أرتال من الأشراس الشامي ألصق به ست طاقات بفته على العمد ثم صبغها بلون العمد ثم دهنها بستة أرتال سندورس و رطل دهن نطف.

و فيه بنى المدماك الثاني و العشرون خشب الأول التحتي سوى شقه منه من جهة الحجر، بكسر المهملة منها يكون رأس درجة السطح.

و فيه بنى المدماك الثالث و العشرون و ذرع سمك كل من المدماك الحادي و العشرون إلى الرابع و العشرون أربعة عشر قيراطا.

و فيه رفعوا الستارة الخضراء بعد أن طووها بأعلى الخشب المستدير ببناء الكعبة.

و في يوم الثلاثاء وضعوا البساتل الثلاثة للسقف الثاني على أعلى البساتل بحزم خشب على حذاء العمد جوف الكعبة.

وفيه بنوا المدماك الرابع والعشرين الذى فيه البساتل العليا وعند غروب الشمس صعد السقا و على ظهره الوعل إلى ظهر الكعبة فصب من الوعل الماء على أخشاب السقف التحتى لتنظيفه.

وفى يوم الأربعاء أتموا المدماك الرابع والعشرين و فيه عمل المرخمون عملهم و النشارون فى صفائح السقف الثانى و النجارون فى عمل خشبه و عدة خشبه كالسقف تحته.

وفيه ابتدؤوا وضع الأهله النحاس المموهه بالذهب على قبب سطح المسجد قيل و كلفه كل واحد عملا و غيره سبعة ذهب و عدتها نحو الثلاثين، و حوضوا حوضا من النورة لما يدك به الآجر على خشب سقف البيت و جاءوا بآجر لذلك و لا يخفى ما فيه، فإنه يصطنع بالسرجين و النار لا تطهر عند الأئمة الثلاثة، و إنما تطهر عند الإمام أبى حنيفة فى رواية عنه فينبغى تنزيه بيت الله تعالى و أن لا يدك إلا بالطاهر المتفق على طهره من صغار الأحجار كما كان، و كان الأولى لو وضعوا لذلك آجرا طاهرا خالصا من الشبهه، و من يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب.

وفى يوم الخميس شرعوا فى المدماك الخامس و العشرين و ذرع سمكه ثلاثة عشر قيراطا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٦٨

وفى يوم السبت نقل النجارون خشب السقف الثانى و شرع البناء فى وضعها فوضعها و عمل النجارون فى شغل قطع درج السطح للكعبة و هى ست مرات تدور دوران درج المنارة، و لما ركبوها حاروا فى أمرها حتى أرشدهم لوضعها مهندس مصر عبد الرحمن. و فى يوم الأحد دكوا السطح بالآجر المذكور و الحكم لله على ظهر خشب السقف و تم السقف الثانى فأخرج الأمير الكسوة الحمراء من المقام الإبراهيمى فنشرت عند باب أجياد بصحن المسجد و خيط متقطعها و أخرجت الكسوة السوداء من المقام و وضعت فى سبيل المؤيد شيخ و بعد العصر أدخلت الكسوة الحمراء التى لسقفه و وضعت فيه فى حلق صغار حددت فى هذه العمارة و ركبت لتغنى عن دق المسامير بجوانب الكسوة و بطنها.

وفى يوم الاثنين خيط باقى الكسوة الحمراء فيه دك البناء السطح بعد أن تركوا عملها مدة و عملوا فى الجانب اليمانى.

وفى يوم الثلاثاء ترك المبيضون بياض قبب السطح و بيضوا داخل البيت من تحت سقفه إلى محل الوزرة عوض الرخام الذى كان فيه أولا- و طبقوا بأحجار شبيكية ما كانوا تركوه من المداميك العليا طريقا للعملة فى صعودهم إلى سطح البيت و أتموا دك المداميك إلى محاذاة الحجر الشبيكى.

وفى يوم الأربعاء طنف بالآجر المذكور الجدر من الجوانب الأربع و فى وقت الضحى منه جاء العملة بالميزاب و هو من خشب فى ذرع نحو ثلاثة أذرع و نصف البارز منه مصفح بالفضة المملأة بالذهب و اللازورد مكتوب فيه اسم مهديه مولانا السلطان أحمد خان، عليه الرحمة و الرضوان، و كان وصوله لمكة عام عشرين و ألف مع حزام البيت، فجاؤوا يحملونه من بيت رضوان، فلما وصلت الحملة إلى أسفل السقالة نزل مولانا السيد محمد ناظر العمارة فتلقاه و حملة على مقدم رأسه و نزل لذلك شيخ الحرم و الأمير رضوان، فحملوه حتى أوصلوه لمحله من الجدار و أسلموه للبناء، و بعد تمام عمله و بنائه دعى لمولانا السلطان بالتأييد و النصر و لصاحب مكة بالإعانة و انصرف القوم و ما تصدق عند ذلك بدافق و قد كان حسن باشا لما وضعه فى عمارته لمولانا السلطان أحمد كشح الذهب و الفضه على؟؟؟ شكر الله على هذه المنه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٦٩

وفى يوم الخميس صعد المبيضون إلى سطح الكعبة فييضوا الطنف الآجر أجمع بدأوا فيه بالجانب الشرقى من الحجر- بالفتح- إلى الحجر- بكسر الحاء-، ثم من اليمانى حتى أتموا بياضه أجمع فى عصر ذلك اليوم، و ذلك قدر أحد و ثمانين ذراعا.

وفى يوم الجمعة هلال رمضان عند طلوع الشمس أخرجت الكسوة السوداء و نشرت أمام باب الصفا و ما يقاربه ثم حمل كل ربع فى حملة و صعد بها إلى السطح ثم فتح الفاتح المقام الإبراهيمى و أخرج منه البرقع فصعد به الأمير رضوان إلى أعلى السطح و أرسلت

شقو الكسوة من الجوانب الأربع بدئ بالشرق منها و أرسل البرقع إلى حذاء الباب من أعلاه، ثم شمردت الكسوة من باقى الأركان و نزل الأمير و أحضرت عشر خلع لمولانا صاحب مكة اثنتان ثم للحاكم السياسى القائد جوهر بن ياقوت، ثم لفتاح البيت، ثم لاثنين من شواويش الأمير رضوان، ثم لواحد من جماعة السيد، ثم لابن زين و أخيه، ثم لابن شمس الدين، ثم لسليمان شيخ النجارين. و بعد انفضاض المجلس عاد ففتح البيت إلى السيد محمد الناظر و هو بالحطيم و عاد الأمير رضوان فجاءوا بخلعة ألبسوها شيخ خدام الكعبة و بعد عصر اليوم ألبسوا شيخ الحجارين المصارية خلعاً.

و فى يوم السبت فرشوا رخام سطح البيت عليه من وقت الضحى.

و فى يوم الأحد أتموا عمل الشاذروان من الجهة الغربية و هى آخر جهات عمله و كان قد تكسر من رخامه عشرة فأبدلوها برخام جديد وضعوه فى الجانب الغربى.

و فى يوم الثلاثاء صعد جمع من المرخمين إلى سطح الكعبة و معهم لاقوننة، و شرع النجارون فى تفكيك أخشاب السقايل.

و فيه شرع البناء فى تهيئته أحجار لبناء مقدم مقام الحنبلى و محرابه لعنق الأول جدا، و تم عمل المبيضين لداخل الكعبة، و شرع المرخمون فى نصب رخام الوزرة و ابتدأ عملهم من الجانب اليمانى من جهة الحجر الأسود.

و فى يوم الأربعاء شرع مهندس مصر فى هدم الجدر القبلى من مقام الحنبلى، و كان حجره شميسيا فأبدل بالشيكى و أتموا فيه معظم العمل.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٧٠

و فى يوم السبت عاد المبيضون إلى قبب سطح المسجد و توجه كل من السيد و الأمير و المهندس المصرى و ابن شمس الدين إلى دار أم المؤمنين خديجة، رضى الله عنها، فعرفوا ما يحتاج منها للعمارة، و قد ذكرت أعمالها كلها فى كتابى النضحات الأريحية فى متعلقات بيت أم المؤمنين السيدة خديجة، و فيه هدموا مقدم المقام المالكى و كان حجر شميسيا فأبدلوه بالشيكى.

و فيه تم نصب درجة السطح للكعبة. و فى يوم الأحد نظفوا باطن الحجر و جوانبه عما كان فيه، و شرعوا فى بناء جداره و باشره المهندس عبد الرحمن المصرى و معه فالح الطباطبى و ابتدأوا فى عمله من الجانب العراقى فهدموا منه أربع تركيبات إلى الأرض و انكشف تحت الرخام حجر صوان شيكى لعله من أحجار الكعبة التى أخرجت من بناء ابن الزبير لها فى عمل الحجاج فإن الأزرقى ذكر أنه دفن ذلك فى جوف الكعبة و الذى وجد فى باطنها أحجار صغار مرضومة.

و فى يوم الثلاثاء عمل البناء فى الحجر و هدم جداره شيئاً فشيئاً كلما هدموا شيئاً بنوا ما وراءه.

و فيه زادوا من سمك الجدار القبلى لمقام الحنبلى فزادوا مسافة، و كذا زادوا مثل ذلك فى مقام المالكى و كان تمام بناء وجه جدار الحجر يوم الخميس.

و فى يوم السبت وضعوا أحجار رفرقة عليه بمكانها و هى منقورة فيها أسماء من له فى الحجر عمارة من خليفة أو ملك، و كل ذلك من عمارة الملك الأشرف قانصوه الغورى فى أوائل القرن العاشر، و قد بسطت ذلك فى كتابى تنبيه ذوى النهى و الحجر على فضائل و أعمال الحجر، و فقدت منه رخامة فأبدلت برخامة ملساء.

و فى يوم الأحد شرع البناء فى هدم وجه الجدار الباطنى المحاذى للكعبة و بدأوا فيه من الجانب الغربى ليتصل العمل بعضه ببعض.

و فيه عمل المرخمون فى الوزرة و قد جاودوا على ترخيم كل ذراع منه بثلاثين محلقاً.

و فى يوم الاثنين شرعوا فى بناء جدار قدر قامه من أسفل درجة سطح الكعبة و تم وجه الجدار للحجر الباطن.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٧١

و فى يوم الأربعاء شرع المرخمون فى ترخيم وزرة الجدار الشرقى و عمل الحدادون لدرجة باب السطح باباً.

و فى يوم الخميس كمل المهندس المصرى ما بين مسافات جدار الحجر عند الظهر. و أحضر المعلم محمود الهندى إلى الحجر

الأسود و جعلت ستارة و أقطع من الحجر فيما قال لى ثلاثة عشر قطعة كبارا و الصغار جدا كثير فجمع بعضها ببعض بمركه الذى صنعه لذلك و جعلها فى باطنه و ألصق الكبار على وجه الحجر و يقال: أنه فقد من الحجر ثلاثة أحجار و العلم عند الله.

و فى يوم الجمعة عمل المرخمون فى جوف الكعبة عملهم، و عند العصر كتبوا محضرا أرسلوه إلى عزيز مصر فيه شهادة المكين بحسن عمارة البيت المعادة.

و فى يوم السبت سدوا الباب الغربى بحجارة شبيكية و تمت عند الغروب و بقى من وجهه الباطن و من دكه قليل و فتحوا من حينئذ الباب الشرقى و قد قارب الترخيم التمام.

و فى يوم الأحد تم دك الباب الغربى و ترخيم الوزرة و ما بقى إلا ترخيم أرضها فإن رخامها و إن لم يقلع من محله إلا أنه تأثر فى الجملة فشرع فيه المرخمون.

و فى يوم الأربعاء فتحوا باب الكعبة لباقى الترخيم و فيه زاد البناءون من سمك مقام المالكى مدماك و كان تمام عمله عند العصر من هذا اليوم.

و فيه جد المرخمون فى عملهم و بعد صلاة العصر أتموا ذلك.

و فى يوم السبت الثامن من شوال حضر المرخمون إلى الحجر فصبوا خشبتين فى عرض باب الحجر و نصبوا خيمة وسطه فرخموها وجه جدار الحجر على أتم الوجوه و شرعوا فى ترميم المتكسر من رخام الطواف بإخراج القطع المتكسرة و إبدالها بسالم من ذلك.

و فى يوم الأحد بنى البناء ما بين السلیمانية و بيت مرزا مخدوم جدارا مستقيلا بالحجر الغشيم و أعلاه بالشبيكى المنحوت و عجنوا النورة لعملهم ذلك تحت أروقة باب الزيادة التى بين المصحفين.

و فيه شرع المنقلون فى تكحيل صفة المطاف و ممشى باب السلام و باب الزيادة و باب العمرة و باب إبراهيم و باب الحزورة و باب الصفا و فرشاة الأبواب فى أيام عديدة عيت فى أصله.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٧٢

و فى يوم الأحد دخلت الحمر على ظهورها الحصى الذى يفرش به المسجد الحرام و كبته عند مقام الحنبلى و ما يحاذيه و دخولها مع عدم أمن تلوينها المسجد بالببول و الروث حرام لا سيما و لا ضرورة إليه و ترك فرش الحصى عليه كله أهون من تنجيسه و إبقاء أثر النجس فيه فإنهم لم يتبعوا ذلك و لا غسلوا أثره و الأمر لله.

و فيه عاد المعلم محمود الهندى فأصلح فى الحجر الأسود كما فعل فى رمضان قال لأن أجزاء الحجر لا تمكث مع المركب فلا بد من تفقدها و إلا تذهب أجزاء الحجر و كان عمله المذكور عند صلاة الظهر و تم عمله ثانى يوم فى الوقت المذكور من اليوم قبله.

و فى يوم الأربعاء أتم المبيضون بياض قبب الجانب الشامى من قبب السطح و لم يبق سوى قبب زيادة باب الزيادة الشامية و يبضوا منارة باب العمرة فى يوم و نصف.

و فيه أصلح النجارون خلل درجة الكعبة بإبدال الخشبتين و بإبدال درجة من درجها.

و فيه أصلح المرخمون باب الحجر الشرقى بقلعه و إبدال الخراب بالصالح و قلعوا الرخام المتكسر فى المعجنة.

و فى يوم السبت تم إصلاح درجة الكعبة و جرت بعد العصر إلى محلها.

و فى يوم الأحد غره ذى القعدة الحرام فتحت الكعبة و صعد المرخمون لجلء رخام الوزرة. و فيه يبضوا قبب زيادة باب الزيادة.

و فى يوم الجمعة شرع المرخم ينقر فى حجر من رخام الكعبة تاريخا لعمارة الكعبة، صاغ ألفاظه مولانا السيد محمد بن السيد محمد الحسين الأنقورى نائب السلطان فى عمارة البيت الشريف و صورته «بسم الله الرحمن الرحيم ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم،

تقرب بتجديد هذا البيت العتيق إلى الله سبحانه و تعالى خادم الحرمين المحترمين و سائق الحجاج بين البرين و البحرين السلطان مراد

خان بن السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان خلد الله ملكه و أيد سلطنته في أواخر شهر رمضان المبارك المنتظم في سلك شهور سنة أربعين و ألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل التحية».

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٧٣

و في يوم الأربعاء أخذوا الأقونة جعلوها تحت جدر طنفس السطح لئلا يدخل ماء المطر فيها إلى الخشب تحتها فتعمل فيه الأرضة. و فيه جدد النجارون أخشابا للمحكمة الشرعية.

و في يوم السبت تم تبيض منارة باب الزيادة و عمل المرخمون في جلاء رخام الشاذروان.

و فيه أدخلوا الحمر المسجد لنقل بعض أوساخ طاهرات منه و صارت تروث فيه و تبول و الحكم لله و ما ندرى ما نقول.

و فيه شرعوا في بياض منارة الملك الأشرف قايتباي و أتموها في يومين و قليل.

و في يوم الخميس تم نقر التاريخ.

و في يوم الجمعة جرى به إلى بيت السيد الناظر على العمارة و فيه عمل النجارون كرسيا ليصعد منه للكعبة و يعقد عليه الخدمة حال خياطة شيخهم لثوبها.

و في يوم السبت أعطى الحجر المنقور فيه التاريخ للدهان فحلاه بالذهب و أتم عمله.

و في يوم الاثنين حضر مولانا الشريف و مولانا السيد محمد و السيد حسين و ولداه و مولانا السيد محمد الناظر على العمارة و مولانا

الأفندي و شيخ الحرم و الأمير و جرى من بيت شيخ الحرم بنحو سخاتين و بعد الدعاء فتحت الأولى فأقمنها منها عشرون قنديلا من

الذهب العين واحد مصطنع باللؤلؤ و الثانية أخرج منها ثلاثون قنديلا من الفضة فدعاء الأمير فاتح البيت محمد الشيبى و أسلمه ذلك

بحضرة الجمع و أشهد عليه أنه تسلم ذلك و صار في ضمانه ثم دعا شيخ الوقادين فجاء ليعلقها في أماكنها ثم جرت الدرجة إلى

الباب و صعد مولانا الشريف و أولاده و الأمير.

و فيه بنى المرخمون الحجر الذي نقر فيه التاريخ قبالة الباب الشرقى.

و في يوم السبت حضر شيخ الحرم و أولاده مولانا الشريف و الأمير و الفاتح و بعض الخدام للبيت فأصعدوا سطولا من ماء زمزم و

غسلوا بذلك الكعبة و بخروها و انصرفوا في ضحوه النهار.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٧٤

و في يوم الاثنين جلا المرخمون من وجه الحجر - بكسر الحاء - ما عليه من الزيت الحلو و الغبار و كذا أعادوا الجلاية في آخر النهار.

و في يوم الخامس و العشرين من ذى القعدة جاء ابن شمس الدين و فالح فكحلوا بالنورة ما بين الفضة المصفح بها الخشب في خذى

الباب و كحلوا كل ما كان يحتاج إلى التكحيل.

و في يوم هلال ذى الحجة أصلحوا الحجر الأسود و دهنوه بسواد و سندروس.

و في ثانى الشهر عملوا محل شعل النار عند الأهلة و الأعياد من أعلا مقام الشافعى و كان قد سقط في أثناء السنة فأصلح في هذا اليوم

و هو آخر عملهم في هذا البيت الحرام و المسجد المحرم زيد من الإجلال و الإحترام. انتهى ما نقل من رسالة الشيخ ابن علان

الصديقى.

قال في تحصيل المرام: و هذا البناء هو الباقي لعصرنا و هو من أجل مفاخر بنى عثمان جمل الله بدولتهم الزمان، و نظم الفاسى في

شفاء الغرام:

بنى الكعبة الغراء عشر ذكرتهم و رتبهم حسب الذى أخبر الثقة

ملائكة الرحمن آدم ابنه كذاك خليل الله ثم العمالقة

و جرهم يتلوهم قصى قريشهم كذا ابن زبير، ثم حاج لاحقة

و ذيله بعضهم بقوله:
 و خاتمهم من آل عثمان بدرهم مراد المعالي أسعد الله شارقه
 و بيت آخر:
 و من بعدهم من آل عثمان قد بنى مراد حماه الله من كل طارقة
 و قال العلامة على بن عبد القادر الطبرى فى الأرج المسكى و قد كنت نظمت أسماء من عمّر البيت الشريف فقلت:
 بنى البيت خلق و بيت الإله مدى الدهر من سابق يكرم
 ملائكة، آدم، ولده خليل، عمالقه، جرهم
 قصى، قريش، و نجل الزبيرو حجاج بعدهم يعلم
 و سلطاننا الملك المرتضى مراد هو الماجد المكرم المنعم
 أدام الإله لنا ملكه و أبقاه خالقنا الأعظم
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٧٥
 و نظم العلامة محمد على بن علان الصديقى ثلاثة أبيات جمع فيها بناء الكعبة المعظمة و هى هذه:
 بنى الكعبة الأملاك، آدم، ولده شيث، إبراهيم، ثم العمالقة
 و جرهم قصى مع قريش و تلوهم هو ابن زبير، ثم حجاج لاحقه
 و من بعد هذا قد بنى البيت كله مراد بن عثمان فشيده رونقه
 ذكر السيد أحمد دحلان فى سالنامته و للقاضى تاج الدين المالكى مؤرخا لعمارته و ممتدحا معمرها بقوله:
 هنيئا لملك خصه الله و اجتبى و صداه للبيت العتيق مجده
 بنى البيت بعد ابن الزبير و لم يفزسواه بهذا الفخر لا زال سعده
 مليك أقام الله أيام ملكه و لا زال خفاقا مدى الدهر بنده
 مليك ملوك الأرض طرا عبيده تدين له شرقا و غربا و جنده
 مليك حباه الله فخرا و سؤددا وصيتا مداه لا ينال وحده
 بتعمير بيت الإله على يدي من اختاره رب العلى دام رشده
 فدونك تاريخا لعام بنائه و فيا بضبط العام حين تعده
 مراد بنى بيت الإله و زاده سناء بهاء يزدهى زيد مجده
 و له رحمه الله تاريخها نثرا أسس بنيانه على تقوى من الله و هدى ثم نظمه فقال:
 تاريخه أسس بنيانه على هدى تقوى من الله
 ذكره العلامة نور الدين الموسوى فى كتاب نزّه المجالس.

فوائد تتعلق بهذا الباب:

الفائدة الأولى: قال السنجارى فى منائح الكرم: لطيفة بل منقبة شريفة مما تفرد به شيخ مشايخنا العلامة خاتمة المحققين الشيخ محمد بن علان الصديقى المكى رحمه الله أنه قرأ البخارى فى جوف الكعبة بطرفه فى مدة هذه العماره كما رأيت به بخطه و هو مما لا يتفق لغيره من الأئمة. انتهى.

أقول: ذكر الشيخ أحمد الشماخ فى ترجمه الشيخ عبد الله البصرى أنه أقرأ فى جوف الكعبة الشريفة صحيح البخارى سنة تسع و مائة و

ألف، و كان في داخلها عمارة و كذلك أقرأه في داخلها مرة أخرى سنة تسع عشرة و مائة و ألف، و كان أمر بتجديد بابها مولانا السلطان أحمد و القائم بذلك صاحب جدة و شيخ الحرم التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٧٦ الشريف و كذلك أقرأ مسند الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله جميعه في الروضة الشريفة عند رأس الجناح المعظم صلى الله عليه و سلم، في ست و خمسين مجلسا و ذلك في سنة ألف و مائة و إحدى و ثلاثين. مما قيل في تاريخ هدم السيل للكعبة المشرفة، و بناء السلطان مراد الرابع لها ما يأتي:

اعلموا أن الله بكل شئ عليم هذه الآية تتضمن بحساب الأجد على تاريخ وقوع هدم الكعبة و هو سنة (١٠٣٩) ألف و تسعة و ثلاثين هجرية، و في تاريخ الهدم قال الإمام فضل الطبري:

سئلت عن سيل أتى و البيت منه قد سقط متى أتى قلت لهم تاريخه كان غلط (١٠٣٩) هـ

و قال بعضهم في هدم الكعبة أيضا:

لا غرو أن الذنب أوجب مامما أرى و رأيته منى فقط فأخذت من تاريخه من هجرة و حسبته فوجدت صحته غلط (١٠٣٩) هـ

و قيل في تاريخ بناء السلطان مراد المذكور للكعبة بعد السيل المذكور:

مراد بنى بيت الإله و زاده سناء بهاء يزدهى زيد و قيل أيضا في ذلك:

تاريخه أسس بنيانه على هدى تقوى من الله

عدد حجارات الكعبة الظاهرة في هذا البناء

بناء الكعبة المشرفة بهذا الشكل الحالى هو من بناء السلطان مراد الرابع من سلاطين آل عثمان، بناها رحمه الله تعالى و أحسن إليه سنة (١٠٤٠) أربعين و ألف من الهجرة بسبب السيل الكبير الذى دخل المسجد الحرام فهدمها، و لم تزل هذه البناية قائمة إلى اليوم على أحسن حال، فهي بناية قوية متينة ثابتة الأركان و البنيان و لله الحمد، و هي مبنية بالحجارات الكبيرة السوداء المشوبة بالزرقة، المأخوذة من نفس جبال مكة القوية الصخرية الصماء.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٧٧

و مثل هذه الحجارة يسمونها عندنا بمكة «الحجر الشيبكى» نسبة إلى جبل الشيبكى بقرب الشيخ محمود بجرول الذى كانوا يقطعون الحجارة منه للكعبة، و نعتقد أن جبل الشيبكى هو الذى نسميه الآن بجبل الكعبة لأن حجارتها تقطع منه لصلابتها.

و حجارات الكعبة فيها الكبير و الصغير، فأكبر حجاراتها طوله (١٩٠) مائة و تسعون سنتيمترا، و عرضه (٥٠) خمسون سنتيمترا، و رأسه (٢٨) ثمانية و عشرون سنتيمترا، و يطلق البنائون بمكة على رأس الحجر «مخ الحدة» بفتح الحاء المهملة. و أصغر حجاراتها طوله نحو (٥٠) خمسون سنتيمترا، و عرضه (٤٠) أربعون سنتيمترا تقريبا.

و لقد انتهزنا فرصة تجريد الكعبة كلها من كسوتها عند تجديد و عمارة سقفها، فأحصينا جميع حجاراتها الشيبكية الجبلية صغیرها و كبيرها، الظاهرة من خارجها فقط مما يلى ثوبها و كسوتها، و ذلك في يوم الاثنين الثامن و العشرين من شهر رجب سنة (١٣٧٧) سبع

و سبعين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة، فوجدنا عدد حجاراتها الظاهرة فقط من أعلى السطح إلى نفس الشاذروان في أرض المطاف كما يأتي في هذا الجدول:

عدد الحجارة بالأرقام/ عدد الحجارة بالكتابة/ ملحوظات

٤١٩/ أربعمائة و تسعة عشر/ في جميع الجدار الشرقي للكعبة الذي فيه الباب.

٤٤٩/ أربعمائة و تسعة و أربعون/ في جميع الجدار الغربي للكعبة الذي يظهرها.

٤٢٨/ أربعمائة و ثمانية و عشرون/ في جميع الجدار الجنوبي الذي هو بين الركن الأسود و الركن اليماني.

٣١٨/ ثلاثمائة و ثمانية عشر/ في جميع الجدار الشمالي الذي فيه الميزاب على حجر إسماعيل.

فتكون جملة الحجارة الشيبكية الجبلية الظاهرة من خارج الكعبة المشرفة من أعلاها إلى أسفلها ما عدا حجارة الشاذروان هي (١٦١٤) ألف و ستمائة و أربعة عشر حجرا، من الحجارات الشيبكية الجبلية السوداء.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٧٨

و اعلم: أن هذا العدد هي للحجارات الظاهرة من خارج جدران الكعبة التي هي من وراء كسوتها السوداء، أما الحجارات التي هي مبنية مع نفس الجدران فلا يمكن عدّها مطلقا لعدم ظهور شيء منها، و الذي يغلب على ظننا أنه يوجد في بناء الكعبة أضعاف هذا العدد من الحجارة، لأن عرض جدارها تسعون سنتيمترا- أى ما يقارب مترا واحدا- فبناء عرض جداره بهذا القياس لا بد أن يحتوى على شيء كثير من الحجارة. أما حجارة الشاذروان البيضاء فقد ذكرنا عددها عند الكلام على مبحث الشاذروان فراجعه في محله.

قوة بناء السلطان مراد الرابع للكعبة

لقد ذكرنا فيما تقدم أن خليل الله إبراهيم عليه أفضل الصلاة و التسليم كان بنى الكعبة بالرضم أى حجارة بعضها فوق بعض من غير طين و لا نورة ثم بنتها كذلك من أتى من بعده، فلما كانت بناية قريش بنتها بالطين و الحجارة الصغيرة و كذلك كان بناء عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما، و بناية الحجاج الثقفى غفر الله تعالى لنا و له و عفا عنا و عنه.

أما بناية السلطان مراد خان الرابع فلقد كانت بالحجارة الصماء الطويلة و بالجص و النورة البلدية التي من مكة المكرمة، و كانت الحجارة التي بنيت بها من الجبال الشديدة الصلابه التي بمكة، و كان بعض الحجارة طولها مترا واحدا و بعضها نصف متر و بعضها أقل و بعضها أطول كما بينا و أحصينا عدد حجارتها، و كما هذه البناية المحكمه ظاهرة للعيان أمام أنظار الناس.

إنه إلى عامنا هذا عام (١٣٨٤) ألف و ثلاثمائة و أربع و ثمانين قد مر على بنيته للكعبة (٣٤٤) ثلاثمائة و أربع و أربعين سنة لم تخرج منها قطعة صغيرة من الحجارة لا من أسفلها و لا من أعلاها من جهة السقف، و لو لا أن سقف الكعبة محمل على أعواد خشبية لم يحتج السقف إلى تجديد في زماننا هذا، لذلك نعتقد أن هذه البناية ستدوم إلى نحو ألفى سنة أيضا أى إلى قيام الساعة إن شاء الله تعالى و الله تعالى أعلم.

اللهم زد بيتك هذا تشريفا و تعظيما و مهابة و تكريما و اجعل بلدك الأمين فى أمن و أمان و رضاء و اطمئنان و اجعل أهله من المغفورين المقبولين لديك و اجعلهم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٧٩

من الآمين يوم الفزع الأكبر من غضبك و النار آمين يا رب العالمين، و صلى الله تعالى و سلم على النبي الأمين و على آله و صحبه أجمعين.

انظر: صورة رقم ٧٧، للكعبة المشرفة الموجودة اليوم، بناية السلطان مراد الرابع

انظر: صورة رقم ٧٨، السلطان مراد الرابع أحد مجددى بعض بناء الكعبة المشرفة

ترجمة السلطان مراد الرابع

ولد الغازي السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد ابن السلطان محمد سنة ألف وثمانية عشرة هجرية، وقيل سنة ألف و إحدى وعشرين، تولى السلطنة وبيع له باتفاق الآراء من العلماء والوزراء في يوم الأحد رابع عشر ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين و ألف، وكان عمره يومئذ إحدى عشر سنة و سبعة أشهر، وقيل أربعة عشرة سنة و هو السابع عشر من سلاطين آل عثمان، وأعظمهم شجاعة و قوة و هممة و يلقب بفتح بغداد، و هو الذي غزا بلاد العجم لأن سلطانها الشاه عباسا كان قد أخذ كثيرا من البلدان التابعة لآل عثمان حتى أخذ بغداد أيضا فجرد السلطان مراد جيشا عظيما لمحاربتة و توجه هو بنفسه لقتاله و ذلك سنة ألف و أربع و أربعين ففتح بلاد العجم، ثم توجه بنفسه أيضا لفتح بغداد سنة ثمان و أربعين و ألف ففتحها بعد أن حاصرها أربعين يوما و دخلها العسكر ثم دخلها السلطان في أثرهم و قتلوا من العجم نحو ثلاثين ألفا و أسروا من رؤسائهم كثيرا و بذلك ضعفت شوكت العجم و زالت قوتهم. و كان السلطان مراد رحمه الله تعالى كثير الإحسان لأهل الحرمين و أمر مصر و غيرها من الجهات بإجراء حبوبهم و إرسال غلات أوقافهم و كان يحثهم بذلك على الدوام. و كان أيضا كثير الالتفات إلى أخبار الرعية مطلقا، و كان كثير البحث عن أحوال ولاء البلدان لا- يغفل عنهم بحيث صار الولاية لا يجاوزون حدا، و في زمانه وقع السيل العظيم بمكة المشرفة سنة تسع و ثلاثين و ألف و دخل المسجد الحرام و بسببه انهدمت الكعبة المعظمة، فقام بتعميرها و بنائها سنة أربعين و ألف هجرية، و هذا من أعظم مناقبه و أفخر أعماله، و هو الذي أمر بإبطال القهاوى في جميع ممالكه و منع شرب الدخان و استعمال النشوق، و كان يجازى على ذلك. و لقد كان بطالا من الأبطال قوى الجأش متين الساعد، ذكر أنه أرسل إلى مصر درقة نحو إحدى عشرة طبقة ضربها بعود فثبت فيها و أصدر أمره إلى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٨٠

العساكر المصرية بإخراج العود منها و أن من أخرجه يزداد في علوفته فحاولوا إخراجة فعجزوا عن ذلك، ثم إنه أرسل أيضا قوسا إلى مصر و أصدر أمره إلى العساكر بجر هذا القوس و زيادة علوفه من يفعل ذلك فحاولت العساكر جره فلم يقدرُوا، ثم علق الدرقة بالديوان السلطاني بمصر و علق القوس بباب زويلة.

توفى السلطان مراد رحمه الله تعالى في شوال سنة ألف و تسع و أربعين هجرية، و عمره ثمانية و عشرون عاما، و قيل إحدى و ثلاثون، و مدة ولايته سبعة عشر سنة، و دفن في تربة والده السلطان أحمد خان رحمهما الله تعالى.

انتهى ملخصا من خلاصة الأثر بصحيفة (٣٣٦) و من الفتوحات الاسلامية بصحيفة (١٣٠) في الجزء الثاني، و من قاموس الأعلام بصحيفة (٤٢٥٤) في الجزء السادس تأليف شمس الدين سامي و هو باللغة التركية، و لقد جاءت ترجمته أيضا في صحيفة (٥٤٨) من كتاب نقد التواريخ باللغة التركية.

و جاء في كتاب تحفة الخطاطين باللغة التركية أن السلطان المذكور رحمه الله تعالى كان شاعرا و كان خطاطا يكتب الخط الحسن حتى اشتهر بذلك، و أن السيد إبراهيم زاده أفندي الذي كان في زمانه نظم قصيدة ذكر فيها كثيرا من آثاره الخطية و ما له من البراعة التامة في الخط.

و نحن لهذه المناسبة ذكرنا ترجمة صغيرة لهذا السلطان و وضعنا صورته في صحيفة ٢٧٥ من كتابنا تاريخ الخط العربي و آدابه المطبوع بمصر.

و لقد جاء ترجمة السلطان مراد المذكور في كتاب «تلخيص التاريخ العثماني المصور» و هو كتاب صغير به بعض رسوم السلاطين، فنحن نذكر هنا منه نبذة تضاف إلى ترجمته هنا و هي: جلس السلطان مراد الرابع المذكور على تخت الملك سنة (١٠٣٢)، و هو في الثانية عشرة من عمره، فأصبحت إدارة الملك في يد والدته «ماه بيكر» الملقبة بكوسم سلطان، فلما بلغ أشده أخذ زمام السلطنة بيده و

صار يتجول بنفسه في الليل متنكرا و منع الفحش و شرب الخمر و ضرب على أيدي الظالمين و العابثين بالفساد، و في سنة (١٠٤٩) توفي السلطان مراد المذكور بعلة النقريس و هو في سن الثلاثين، فكانت مدة سلطنته ستة عشر عاما. انتهى من الكتاب المذكور. فكانه عمر الكعبة المشرفة و هو في سن العشرين بنفسه لا بواسطة والدته، فسبحان واهب المكرمات لمن يشاء رحمه الله تعالى رحمة الأبرار و جزاه عن أعماله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٨١

العظيمة خير الجزاء. و بعد أن انتهى من عمارة الكعبة المشرفة في سنة (١٠٤٠) ألف و أربعين هجرياً جدد في هذه السنة المذكورة أيضا عمارة مسجد مزدلفة كما هو مكتوب في محرابه و قد قرأناه بأنفسنا حينما ذهبنا إلى مزدلفة في شهر صفر سنة (١٣٨٤) هجرياً و هي العمارة الموجودة في زماننا هذا، لكن في سنة (١٣٧٧) هجرياً زادوا في ارتفاع مسجد مزدلفة بمقدار قامه واحدة تقريبا، و يا ليتهم ما زادوا في ارتفاعه شيئا ليرى الحاضرون في المشعر الحرام الحجاج الذاهبون إلى عرفات و الراجعون منها.

بيان بأسماء السلاطين من آل عثمان الذين قاموا بتعمير الحرمين الشريفين

- ١- السلطان سليمان خان الأول بن السلطان سليم.
- ٢- السلطان سليم خان الثاني بن السلطان سليمان.
- ٣- السلطان مراد خان الثالث بن السلطان سليم.
- ٤- السلطان محمد خان الثالث بن السلطان مراد خان.
- ٥- السلطان أحمد خان الأول بن السلطان محمد.
- ٦- السلطان مراد خان الرابع بن السلطان أحمد.
- ٧- السلطان مصطفى خان الثاني بن السلطان محمد.
- ٨- السلطان عبد الحميد خان الأول بن السلطان أحمد.
- ٩- السلطان محمود خان الثاني بن السلطان عبد الحميد.
- ١٠- السلطان عبد المجيد خان بن السلطان محمود.
- ١١- السلطان عبد العزيز خان بن السلطان محمود.
- ١٢- السلطان عبد الحميد خان الثاني بن السلطان عبد المجيد.
- ١٣- السلطان محمد رشاد خان الخامس.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٨٢

رفع الراية على قلاع الحرمين

منذ قيام سلاطين آل عثمان العظام بخدمة الحرمين المحترمين المستوجبة للافتخار و استمرار إجراء الأحكام الشرعية باسم السلطنة السنية فيها و قيام الجنود العثمانيين بالمحافظة على أرواح و أموال سكان البلدين المذكورتين لم ترفع الراية العثمانية لا على القلاع و لا على الثكنات العسكرية إلى تاريخ اليوم (١٢٩٦).

إن عدم رفع الراية على القلاع الشاهانية بالحرمين الشريفين في الواقع كان من مقتضيات مراسم الاحترام للبلاد المقدسة. و لكن نظرا لعدم وجود أي علامة تدل على الحكومة التي تحكم فيها و هي قبله كافة الموحدين و نظرا لأن هذا موجب لمحاذير عديدة في المستقبل قررت الحكومة العثمانية رفع الراية على القلاع و الثكنات بمكة المكرمة و المدينة المنورة بعد أن اقترن هذا القرار بتصويب

من السلطان عبد العزيز خان. انتهى مترجما من كتاب مرآة مكة المكرمة لأيوب صبرى من المجلد الأول صحيفة (٥٠). ولا يستبعد من سلاطين آل عثمان شدة احترامهم للحرمين الشريفين، فإن الناظر اليوم إلى بناء المسجد الحرام القديمة الموجودة في زماننا هذا، يجد أن جميع أروقة المسجد الحرام وقبابها أقل ارتفاعا من ارتفاع الكعبة المشرفة، وذلك احتراما لها، رحمهم الله تعالى جميعا.

وانظر إلى الحكاية الآتية: فلقد أراد أيضا السلطان أحمد بن السلطان محمد بن مراد بن سليم الثانى من سلاطين آل عثمان أن يهدم الكعبة حين تصدع جدارها الشرقى وجدارها الغربى و بينها و يجعل حجارها ملبسة واحدا بالذهب و واحدا بالفضة فمنعه العلماء من ذلك و قالوا: يمكن حفظ هذه الجدران بنطاق يلم هذا الشعث فعمل لها نطاقا من النحاس الأصفر مغلفا بالذهب، و أنفق عليه نحو ثمانين ألف دينار، و جرى تركيبه عليها فى أواخر عام العشرين بعد الألف و أوائل العام الذى بعده كما جاء ذلك فى الملحقات التى بآخر الجزء الأول من تاريخ الأزرقى المسمى «أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار» المطبوع بالمطبعة الماجدية بمكة المكرمة سنة (١٣٥٢) هجرية و الذى منع السلطان أحمد المذكور من عمل ذلك هو شيخ الإسلام محمد بن سعد الدين، و قال له: إن هذا يزيل حرمة البيت، و لو أراد الله سبحانه و تعالى لجعل بيته الحرام قطعة من الياقوت. فكف السلطان عن التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٨٣

ذلك. انتهى من كتابنا "مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام" المطبوع بمطبعة الحلبي بمصر.

و مما يروى عن أحد سلاطين آل عثمان الأتراك: أنه لما ذهب لينام فى غرفه نومه ليلا وجد فيها مصحفا معلقا على جدارها، فوقف عند المصحف بأدب و احترام و لم ينم إلى أن أصبح، و قد نسينا اسم هذا السلطان. إن جميع سلاطين آل عثمان، رحمهم الله تعالى كان إيمانهم قويا راسخا لا يميلون إلى سفاسف الأمور و إلى الفسق و الفجور، و كانوا يحترمون العلم و أهله و الصالحين و الفضلاء، لذلك تولاهم الله بعنايته و رعايته ففتح لهم الفتوحات و نصرهم على أعدائهم نصرا مبينا.

الزمن الذى بين بنايات الكعبة

لا- نريد الخوض فى بيان السنوات التى كانت بين كل بناية من البنائات السابقة للكعبة المعظمة بيت الله الحرام، من بناء آدم عليه السلام إلى آخر البنائات التى مضى الكلام عليها، لأن ذلك يرجع إلى العصور الأولى البعيدة التى لا تدرك، فمن يعلم كم مضى ما بيننا و بين آدم من آلاف السنين أو ملايين السنين، إلا الله جل جلاله خالق الأرض و السموات، فهو تعالى وحده علام الغيوب، يعلم ما كان و ما يكون، هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شىء عليم، يعلم ما يلج فى الأرض و ما يخرج منها و ما ينزل من السماء و ما يعرج فيها و هو معكم أينما كنتم و الله بما تعملون بصير.

و إنما نذكر ما بين أشهر البنائات الخمسة من السنوات و هى: بناء إبراهيم عليه السلام، و بناء قريش، و بناء ابن الزبير، و بناء الحجاج، و بناء السلطان مراد الرابع فنقول:

اعلم أن بين بناء إبراهيم عليه السلام لبيت المقدس، أى تجديده له و بين بنائه للكعبة أربعين سنة كما هو الحديث الصحيح، و بين بنائه للكعبة و بين بناء قريش لها (٢٦٤٥) سنة خمس و أربعين و ستمائة و ألفين من السنين، كما نقله البخارى فى تاريخه عن الحلبي، و بين بناء قريش و بين بناء ابن الزبير اثنتان و ثمانين سنة، و بين بناء ابن الزبير و عمارة الحجاج الثقفى عشر سنين، و بين عمارة الحجاج و عمارة السلطان مراد الرابع تسعمائة و ست و ستين سنة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٨٤

الجبال التى أخذت منها الحجارة لبناء الكعبة

حينما بنى آدم عليه السلام الكعبة ضرب جبريل بجناحه الأرض فأبرز عن أس ثابت على الأرض السفلى فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة ثلاثون رجلا.

فبناء من خمسة أ جبل من: لبنان، و طور زيتاء، و طور سيناء، و الجودي، و حراء حتى استوى على وجه الأرض كما فى الأزرقى. قال الثعالبي: طور زيتاء و طور تيناء هما جبلان ببيت المقدس. اه. أما لبنان فجبل بقرب الشام و يقال له جبل الأولياء. انتهى من شرح عامود النسب و هو كتاب مخطوط غير مطبوع.

قال فى مختار الصحاح: و الجودي جبل بأرض الجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام. انتهى. و أما طور سيناء فبمصر، و حراء بمكة.

جاء فى نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى أن عبد الله بن عمر قال: أربعة أ جبال مقدسة بين يدي الله تعالى: طور تيناء، و طور زيتاء، و طور سيناء، و طور تيماناء. فأما طور تيناء فدمشق، و أما طور زيتاء فبيت المقدس، و أما طور سيناء فهو الذى كان عليه موسى عليه السلام، و أما طور تيماناء فمكة اه.

نقول: (إن قيل): كيف أمكن إتيان الصخور من تلك البلاد إلى مكة؟

(فالجواب): أنه ما دام النقل كان بواسطة الملائكة فلا يستحيل ذلك عليهم، و هذا قوم لوط عليه السلام لما لم يؤمنوا به و لم يسمعوا إلى نصيحته رفع جبريل قراهم على جناحيه و كانت خمس مدائن إلى السماء ثم أسقطها مقلوبة على الأرض.

(و إن قيل): إذا كان جبريل عليه السلام ضرب الأرض بجناحه حتى ظهر أساس الكعبة على الأرض السفلى فى بناء آدم عليه السلام ثم قذفت الملائكة بالصخر فيه، فكيف بقيت هذه الجبال على حالتها و لم تفن من قذف الملائكة صخورها فى أساس البيت الواصل إلى تخوم الأرض السفلى؟

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٨٥

(فالجواب): علم ذلك عند ربي فهو علام الغيوب، فمن يعلم كيف كانت حالة الأرض و الجبال فى بدء خلقها و فى عهد آدم عليه السلام، فلا يعلم بحقيقة كل شىء إلا الله سبحانه و تعالى.

(و إن قيل): ما سبب حفر الملائكة لأساس بيت الله الحرام فى عهد آدم عليه الصلاة و السلام إلى الأرض السفلى مع أن العادة جرت أن يجعل أساس البيوت تحت الأرض إلى نحو مترين أو ثلاثة أو خمسة؟

(فالجواب): الله أعلم بكل ذلك أيضا ليس لنا أن نحكم بالعقل و التخمين، لكن لا يبعد أن يكون ذلك لتشريف كل أرض من الأرضين السبعة، كما لا يبعد أن يكون ذلك لا تجاه السكان المؤمنين من كل طبقة من الأرض إلى الكعبة فى صلاتهم سواء كانوا من الجن أو من غيرهم من المخلوقات التى لا يعلم بهم إلا الخلاق العظيم. و الله تعالى أعلم.

و فى ما ذكره الإمام الأزرقى فى تاريخه ما يؤيد كلامنا هذا، فإنه روى عن مجاهد قال: إن هذا الحرم حرم ما حداؤه من السموات السبع و الأرضين السبع، و إن هذا البيت رابع أربعة عشر بيتا فى كل سماء بيت و فى كل أرض بيت، و لو وقع وقع بعضهن على بعض. اه.

(و إن قيل): ما سبب أخذ الحجارة لبناء الكعبة من جبال البلدان المذكورة مع أن الحجاز فيها من الجبال ما لا يعد و لا يحصى، بل إن نفس مكة و ما حولها كلها جبال؟

(فالجواب): ليكون لهذه البلدان و الجبال شرف المساهمة فى بناء بيت الله الحرام، و لتعود ذلك بالبركة إليها من دون البلدان الأخرى.

(و إن قيل): لما ذا لم تؤخذ الصخور و الأحجار لأساس الكعبة و بنائها من جبل أبى قبيس كما أخذت من الجبال المذكورة مع أنه أول جبل وضع على وجه الأرض و أنه جبل عظيم صلب الحجارة؟

(فالجواب): الله تعالى أعلم بذلك فإنه لم يتكلم أحد على هذه المسألة لا من العلماء ولا من المؤرخين. هذا ما ظهر لنا من المعاني في هذا المبحث. والله تعالى أعلم بحقيقة كل ذلك فهو جل جلاله لا تخفى عليه خافية.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٨٦

و أما الجبال التي أخذت منها الحجارة لبناء الكعبة في عهد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فخمسة أيضا: حراء، و تبير، و لبنان، و طور سينا، و الجبل الأحمر.

وقيل هي الخمسة الجبال التي أخذت منها الصخر في عهد آدم عليه السلام و قد تقدم ذكرها.

(فإن قيل): كيف أخذت الملائكة من هذه الجبال الخمسة لبناء أساس الكعبة في عهد إبراهيم عليه السلام بينما أنهم قد ملأوا أساسها في عهد آدم عليه السلام بصخور هذه الجبال؟

(فالجواب): أن قذف الصخور في الأساس الأول في عهد آدم كان إلى الأرض السفلى، و لما جاء طوفان نوح رفعت الكعبة و محى أثر محلها، و لا يبعد أن تكون الأرض ارتفعت أيضا من الطوفان إلى زمن إبراهيم الخليل، و كان قذف الصخور عند بنائه للبيت حينما بوأ الله له مكانه إلى ظهور أساس آدم على وجه الأرض، و ربما كان عمق هذا الأساس الثاني أساس إبراهيم نحو مائة متر. و الله تعالى أعلم بالغيب.

و أما الجبال التي أخذت منها الصخور لبناء الكعبة في عهد قريش، و في عهد ابن الزبير، فهي من نفس جبال مكة لا غير كما جاء في تاريخ الأزرقى أن قريشا أخذت حجارة الكعبة حين بنتها من سبعة جبال و هي: حراء، و تبير، و المقطع، و قافية الخندمة، و جبل عند الثنية البيضاء التي في طريق جدة، و جبل مقلع الكعبة، و من المفجر بين منى و مزدلفة و كل هذه الجبال داخل حدود الحرم. قال الأزرقى: فهذه الجبال السبعة التي يعرفها أهل العلم من أهل مكة أنها مقلع الكعبة: قال مسلم بن خالد: و لم يثبت عندنا أنها بنيت من غير هذه الأجل. انتهى.

فقوله: و لم يثبت عندنا أنها بنيت من غير هذه الأجل، أى في بناء قريش و ابن الزبير فقط.

و من أراد بيان مواقع هذه الجبال فليراجع تاريخ الأزرقى عند الكلام على ما جاء في مقلع الكعبة.

(فإن قيل): لماذا لم تبني قريش الكعبة و لم بينها ابن الزبير من نفس الجبال التي بناها منها آدم و إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام؟

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٨٧

(فالجواب): إن وضع الأساس الأول لآدم و وضع الأساس الثاني لإبراهيم من جبال بعض البلدان كان بواسطة الملائكة للنبيين الكريمين، فلا صعوبة عليهم في نقل الصخور الكبار من البلاد البعيدة إلى مكة المشرفة، مع إمكان رؤية الملائكة و التحدث معهم للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

أما في بناء قريش و ابن الزبير فلا يحتاج الأساس إلى قذف الصخور فيه، لأنه ثابت و ظاهر أمام أعينهم فهم يركزون بناءهم عليه، فلا يحتاجون إلا إلى الحجارة العادية في بناء البيوت فأتوا بها من جبال مكة القريبة إليهم، و هؤلاء لم يكونوا أنبياء حتى تخدمهم الملائكة و حتى يمكن التفاهم بينهم.

فقريش أخذت الحجارة لبناء الكعبة من الجبال السبعة المذكورة كما نفهم، و الله تعالى أعلم لصلابة أحجارها فما كل جبل تصلح حجاراته للبناء و هم بالخيار من أى جبل شاءوا أخذوا الحجارة منه.

أما ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما، فقد أحب أن يبنى الكعبة من حيث بنتها قريش كما هو صريح عبارة الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى فإنه يروى عن ابن جريج: أنه لما أراد ابن الزبير هدم الكعبة سأل رجالاته من أهل العلم من أهل مكة من أين كانت قريش أخذت حجارة الكعبة حين بنتها فأخبر أنهم بنوها من الجبال السبعة المتقدم ذكرها، و هذه الجبال السبعة لا تخرج عن حدود الحرم.

هذا ما فتح الله به علينا في هذا المبحث فالحمد لله أولا و آخرا و ظاهرا و باطنا. و نسأله الهداية و التوفيق و الرحمة و الإحسان، و العفو

و الغفران، و العفو و العافية آمين يا أرحم الراحمين، و صلى الله على النبي الأُمى و على آله و صحبه و سلم.

بقاء الكعبة إلى قيام الساعة

إذا تأملت و تفكرت وجدت أن هذه الكعبة المشرفة أعظم دليل على وجود الله و وحدانيته و قدرته و عظمته و قهره و سلطانه حيث أنها منذ الآف السنين و الأعوام قائمة محاطة بالتعظيم و الإجلال من جميع أجناس البشر و ستبقى كذلك حتى قيام الساعة كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم. فقد روى الشيخان و النسائي عن أبي هريرة رضى الله عنه، قال: يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة. و أخرج أحمد عن ابن عمرو نحوه و زاد و يسلبها حليها و يجردها من كسوتها فلكأنى أنظر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٨٨

إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته أو معوله. و روى الأزرقى عن أبي هريرة يحدث أبا قتادة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: يبايع للرجل بين الركن و المقام و لن يستحل هذا البيت إلا أهله فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب تأتي الحبش فيخربونه خرابا لا يعمر بعده أبدا و هم الذين يستخرجون كنزه.

جاء فى تاريخ الأزرقى ما خلاصته: عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة. و عن عبد الله بن عمرو بن العاصى أنه كان يقول: كأتى به أصيلع أفيدع قائما عليها يهدمها بمسحاته، قال مجاهد: فلما هدم ابن الزبير الكعبة جئت أنظر هل أرى الصنعة التى قال عبد الله بن عمرو: فلم أرها. و عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يحال بينكم و بينه فكأنى أنظر إليه حبشيا أصيلع أصييع قائما عليهما يهدمها بمسحاته. و عن حفصة رضى الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: ليؤمن هذا البيت حبش حتى إذا كانوا بببءاء من الأرض خسف بأوسطهم و ينادى أولهم آخهم فخسف بهم فلا يبقى إلا الشريد الذى يخبر عنهم، فقال رجل لجدى: أشهد ما كذبت على حفصة و لا كذبت حفصة على رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال أمية: فلما جاء جيش الحجاج لم نشك أنهم هم حبش، و قال صلى الله عليه و سلم: اتركوا الحبشة ما تركتكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة. انتهى من الأزرقى.

قال شيخنا المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى رحمه الله تعالى فى شرحه على كتابه «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم» فى الجزء الخامس عند الكلام على حديث «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة» ما يأتى:

قال ابن الجوزى: (فإن قيل): ما السر فى حراسة الكعبة من الفيل و لم تحرس فى الإسلام مما صنع بها الحجاج و القرامطة و ذو السويقتين؟

(فالجواب): أن حبس الفيل كان من أعلام النبوة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم و دلائل رسالته لتأكد الحجة عليهم بالأدلة التى شوهدت بالبصر قبل الأدلة التى ترى بالبصائر. اه.

قال شيخنا رحمه الله تعالى: و قد تقدم ما هو كالجواب لما أشار إليه ابن الجوزى فى هذا الكلام و هو ما سقناه من أن عدم أمن الحرم فى قرب الساعة إنما

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٨٩

وقع لإرادة الله تعالى خراب الدنيا و لا بد منه لمصير أهل الجنة دار الكرامة، جعلنا الله و من نجه من أهلها و متعنا فيها بالنظر إلى ربنا جل و علا و مصير أهل الكفر إلى النار دار الإهانة، أعادنا الله تعالى منها و من الكفر و كلما يجر إليه. انتهى المراد من الشرح المذكور.

و قوله هنا: «و قد تقدم ما هو كالجواب الخ...» يشير إلى كلامه الذى ذكره قبل هذه الجملة و هو: و لا ينافى تخريب ذى السويقتين

الكعبة قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا... الخ لأن الأمن باق للحرم إلى قرب القيامة و خراب الدنيا، فحينئذ يأتي ذو السويقتين فيخربها. انتهى.

نقول: إن من أعظم الأسرار الإلهية أنه لم يرد في التاريخ قط و لم يسمع أبدا منذ بدء الخليقة أن أحدا من الجبابرة أو الملوك ادعى أن الكعبة الشريفه و ما حولها من المطاف ملكه أو ملك أجداده بل إن المشركين مع ما نصبوا حولها من الأصنام كانوا يقرون بأنها بيت الله الحرام و يطوفون بها و يعظومونها.

و ليس في قدرة أحد أن يبنى بيتا مثله يخلد إلى الأبد و يبقى أساسه من أول الدنيا إلى آخرها، و لقد بنى بعضهم مثله فكان ما له سرعة الخراب و الزوال و كان جزاؤه الهلاك و الوبال. فإن أبرهه بنى بيتا في صنعاء اليمن لم يبن مثله سماه القليس، طوله في السماء ستون ذراعا و أنفق عليه من الأموال ما لا يقدر، يريد بذلك جرف حاج العرب عن بيت الله الحرام إلى القليس، فجاءه رجلان من العرب فتغوطا فيه فغضب أبرهه من ذلك و قال: لا أنتهى حتى أهدم بيتهم الذى بمكة. فساق الفيل إلى بيت الله الحرام ليهدمه فمنعه الله تعالى و سلط عليهم طيرا أبابيل حتى هلك هو و جميع جيشه و قصته مشهورة، ثم إن العباس بن الربيع الحارثى الذى ولاه أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور اليمن هدم القليس فأصاب منه مالا كثيرا و كنزا عظيما، و قد جاء وصف القليس و قصة أبرهه في تاريخ الأزرقى فراجع إن شئت.

و ذكر الغازى في تاريخه: أن أحد أجداد خالد بن برمك بنى بيتا عارض به الكعبة و جعل حول أروقته ثلاثمائة و ستين مقصورة يسكنها خدامه و قوامه و كان من يليه يسمى برمكا يعنى والى مكة فكان أهل مملكته يحجونه و يطوفون به. و ذكر أيضا أن ظالم بن أسعد بنى لغطفان بيتا على قدر الكعبة فكانوا يحجونه إليه، فأغار عليهم زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالما و هدم بناءه. اه ملخصا من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٩٠

تاريخ الغازى فسبحان الذى جعل بيته الحرام فى بلده الأمين، و غمره بالبركات و الخيرات، و أحاطه بالأنوار و الأسرار، و الحمد لله الذى من أهله و جيرانه و حفنا بلطفه و عفوه و غفرانه.

الحجارات الرخام المكتوبة داخل الكعبة

توجد فى داخل الكعبة تسعة أحجار من الرخام مكتوبة بالخط الثلث بالحفر على الحجر إلا حجرا واحدا فإنه مكتوب بالخط الكوفى لا بالحفر على الحجر، و إنما كل حرف و كل كلمة تتكوّن من عدة قطع من الرخام الملون الثمين ملصقة بعضها إلى جانب بعض على قاعدة الخط الكوفى المربع، و كل هذه الأحجار مكتوبة بعد القرن السادس للهجرة، كما يظهر فى تواريخها الآتية، ثم وضع فى داخلها فى وقتنا هذا حجر واحد كتب فيه تاريخ عمارة سقفى الكعبة و ترميمها، التى وقع فى عصرنا كما ذكرنا ذلك مفصلا فى هذا الكتاب، و بذلك صار عدد الأحجار المكتوبات فى باطن الكعبة المشرفة تسع أحجار كلها من الرخام الأبيض، و قد أحصيناها بحسب ترتيب وضعها فى جدار الكعبة، مبتدئين فى عدها و ذكرها من يمين الداخل من الباب، و كل هذه الرخامات مرتفعة عن رخام أرض الكعبة بمقدار (١٤٤) مائة و أربعة و أربعين سنتيمترا، ما عدا الحجر العاشر الموضوع فوق عقد باب الكعبة من الداخل فإنه يرتفع بأكثر من مترين. و إليك نص الكتابة الموجودة فى كل حجر منها كما يأتى و هو:

(الحجر الأول) يقع فى الجدار الشرقى على يمين الداخل من باب الكعبة، و ليس فى هذا الجدار الشرقى حجر مكتوب غير هذا الحجر، و طوله تسعون سنتيمترا، و قد كتب فيه ما يأتى:

«بسم الله الرحمن الرحيم، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، أمر بتجديد ترخيم داخل البيت مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى خلد الله ملكه يا رب العالمين، بتاريخ مستهل رجب الفرد عام أربع و ثمانين و ثمانمائة من الهجرة».

(و الحجر الثاني) يقع في وجه جدار باب الدرجة الداخلية للكعبة الموصلة إلى سطحها، وهذه الدرجة في الركن الذي على يمين الداخل و يسمى «بالركن الشمالي» و ليس في جدار الكعبة الشامي حجر مكتوب غير هذا الحجر، و طول التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٩١

هذا الحجر تسعة و خمسون سنتيمترا، و عرضه ستة و أربعون سنتيمترا، و قد كتب فيه ما يأتي:

قد بدا التعمير في بيت الإله قبله الإسلام و البيت الحرام

أم خاقان الوري مصطفى خان دام بالنصر العزيز المستدام

بادرت صدقا إلى التعمير ذإنما كان بإلهام السلام

و ارتجت من فضله سبحانه أن يجازيها به يوم القيام

قال تاريخا له قاضي البلده عمرته أم سلطان الأنام

بمباشرة أحمد بيك شيخ الحرم المكي، في سنة تسع و مائة و ألف هـ.

(و الحجر الثالث) يقع على يمين الجدار الغربي، أي الجدار الذي خلف الكعبة المقابل لبابها، و طول هذا الحجر تسعة و ثلاثون سنتيمترا، و عرضه ثلاثون سنتيمترا. و قد كتب فيه ما يأتي:

«أمر بعمارة البيت المعظم الإمام الأعمم أبو جعفر المنصور، المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله أقصى آماله، و تقبل منه صالح أعماله في شهور سنة تسع و عشرين و ستمائة و صلى الله على سيدنا محمد و آله و سلم».

(و الحجر الرابع) يقع في الجدار الغربي أيضا، أي الجدار الذي خلف الكعبة، و هذا الحجر مربع تقريبا طوله مائة و اثنان سنتيمترا، و عرضه خمسة و تسعون سنتيمترا.

في وسط هذا الحجر مربع، و في وسط المربع دائرة كبيرة قطرها سبعون سنتيمترا، كتب فيها ما يأتي:

«أمر بتجديد رخام هذا البيت المعظم العبد المفتقر إلى رحمة ربه، يوسف بن عمر بن علي رسول. اللهم أيده بعزيز نصرتك، و اغفر له ذنوبه برحمتك».

و كتب في زاوية المربع اليمنى من الأعلى كلمة «يا رحمن» و في اليسرى كلمة «يا رحيم». و كتب في زاوية اليمنى من تحت كلمة «يا كريم» و في اليسرى «يا غفار» و يدور بهذا المربع أربعة أسطر. كتب في السطر الأعلى «بسم الله الرحمن الرحيم رب أوزعني». و كتب في السطر الأيمن «أن أشكر نعمتك التي أنعمت على و علي والدي». و كتب في السطر الأسفل «و أن أعمل صالحا ترضاه».

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٩٢

بتاريخ شوال سنة. و كتب في السطر الأيسر «ثمانين و ستمائة». و صلى الله على سيدنا محمد و آله».

قال في تاريخ الكعبة روى الفاسي في شفاء الغرام: إن رخام الكعبة عمر سنة (٥٥٠) خمسين و خمسمائة، و هذه العمارة من جهة الوزير جمال الدين الأصبهاني المعروف بالجواد وزير صاحب الموصل. و من ذلك أنه جدد رخام الكعبة بأمر الملك المظفر صاحب اليمن، و اسمه مكتوب على رخامة في وسط الجدار الغربي من الكعبة و ذلك في شوال سنة (٦٨٠) ثمانين و ستمائة. قال ابن فهد: و هو أول ملك كتب اسمه في الكعبة. انتهى من تاريخ الكعبة.

(و الحجر الخامس) يقع في الجدار الغربي أيضا، أي الجدار الذي خلف الكعبة، في مواجهة الداخل من الباب، و هذا الحجر مربع ضلعه اثنان و ستون سنتيمترا، و قد كتب فيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» و ذلك بالخط الكوفي المربع، و لفظ الجلالة مكتوب في وسط المربع بالحجارات الحمراء الغامقة، و من عجيب أمر هذه الرخامة أنك إذا وقفت أمامها لا تعرف ما فيها من الكتابة، و إذا بعدت عنها قليلا قرأتها بوضوح تام. لكن اختلف هذا الأمر بعد رفعها من جدار الكعبة عند ترميمها في عصرنا الحاضر، فإنهم لما وضعوها في محلها ثانيا بالجدار لم توضع بصفة فنية كأول مرة لذلك لا يظهر فيها الآن ذلك السر العجيب، و صارت تقرأ من القرب

كما تقرأ من البعد، كما أن لفظ الجلالة صار مكتوبا في الوسط بالحجارات السوداء أى بعكس المرة السابقة.

و هذا الحجر ليس قطعة واحدة وإنما هو يتألف من عدة قطع من الرخام الملون الممتاز النادر، فيوجد فيه من الرخامات البيضاء (٨٢) قطعة، و من الرخامات السوداء (٨٣) قطعة، و من الرخامات الخضراء (٣) قطع، و من الرخامات الحمراء الغامقة (٨) قطع، و قطعة واحدة بنية اللون، و كلها قطع صغيرة.

و لقد أردنا أخذ صورة هذه اللوحة الكوفية بعد رفعها من جدار الكعبة، لكن لم تتمكن من ذلك لتفرق قطع أحجارها الصغار، ثم بعد جمعها ثانية و وضعها في محلها بالجدار، لم نتجاسر بأخذ صورتها من داخل الكعبة تأدبا و احتراماً و تعظيماً.

و نحن لم نهتد في بادئ الأمر إلى هذه اللوحة العجيبة، فإننا عندما عدنا الأحجار المكتوبة في جدران الكعبة المعظمة كان عددها «كذا» فلما رجعنا لعددها بعد أيام صارت زائدة عن العدد الأول، فصرنا نكرر عددها فأحيانا تنقص لوحة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٩٣

واحدة و أحيانا تزيد لوحة واحدة، حتى طرأ علينا الشك بل إن أحد أصدقائنا من سدنة الكعبة اتهمنا بالوسواس لكثرة عدنا لهذه الأحجار فقد عدناها أكثر من اثني عشر مرة. و أخيرا هدانا الله تعالى إلى الكتابة الموجودة في هذه اللوحة، ففي إحدى المرات أردت الخروج من الكعبة فعند وصولي قرب بابها التفت إلى الورا لأ-كلم أحد العمال الموجودين بها، إذا ببصرى يقع على هذه اللوحة و قد ظهرت الكتابة بها واضحة جلية، فمشيت صوبها بدون أن أرفع بصرى عنها، حتى قربت منها اختفت الكتابة، ثم بعدت عنها إلى موضعي الأول عند الباب إذا بالكتابة تظهر ظهورا تاما، ثم قربت منها فإذا بالكتابة تخفى، فتحقق لدينا أن الإنسان إذا بعد عن هذه اللوحة ظهرت الكتابة التي فيها، و إذا قرب منها اختفت الكتابة، ثم أريتها لبعض الإخوان فتعجبوا من هذا الأمر غاية العجب، و لما كنا واثقين بأن هذه اللوحة لو قلعت من موضعها فإن هذا السر الموجود فيها يذهب بتاتا، فقد حذرنا العامل المختص بقلع الرخامات و تنظيفها ثم وضعها في أماكنها، أن لا-يمس هذه الرخامة و لا يقلعها من محلها مطلقا، فإن قلعها فإنه لن يقدر على إرجاعها كسابق وضعها فيختفى منها هذا السر العجيب الذي اكتشفنا في وقتنا هذا. و لكن مع الأسف الشديد كان هذا العامل معتدا بنفسه و مهارته، فقلع هذه اللوحة ثم أرجعها إلى مكانها الأول، لكن بغير الوضع السابق و الترتيب الأول، فاختفى عنها ذلك السر العجيب اختفاء تاما و صارت الكتابة التي فيها تقرأ من القرب و البعد على حد سواء، و كان أمر الله قدرا مقدورا.

و نحن نعتقد أنه لم ينتبه من السابق إلى أمر هذه الرخامة أحد مطلقا، حتى نفس سدنة الكعبة الذين بيدهم مفتاحها و يكثر دخولهم فيها، لا يعرفون عن هذه الرخامة أنها مكتوبة بل إن الشيخ حسين عبد الله باسلامة صاحب كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة» رحمه الله تعالى لم يكتشف الكتابة التي في هذه الرخامة، فإنه قال في كتابه المذكور عند الكلام على ألواح الرخام المكتوبة في داخل الكعبة إن عدد هذه الألواح سبعة، ثم ذكر نص ما هو مكتوب في كل لوحة منها، فلو أنه اهتدى إلى هذه اللوحة التي كتب فيها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بالخط الكوفي المربع لذكرها و أشار إليها، بل لتكلم عنها قبل جميع الألواح لما لها من القيمة الفنية الممتازة و سر تركيبها العجيب فرحم الله من كتبها و ركبها و من قرأها بل و من قلعها أيضا فإنه قلعها بحسن نية. و الحمد لله الذي وفقنا لاكتشافها و تسجيل سرها العجيب.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٩٤

(و الحجر السادس) يقع في الجدار الغربي أيضا، أى الجدار الذى يقع خلف الكعبة، و هذا الحجر مربع ضلعه اثنان و سبعون سنتيمترا، و فى هذا الحجر أربعة أسطر، كل سطر مقسم إلى قسمين، بينهما فاصل على صفة أبيات الشعر.

و إليك ما كتب على هذا الحجر:

ففى السطر الأول مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. تقرب بتجديد هذا البيت المعظم العتيق إلى الله.

و في السطر الثاني مكتوب: سبحانه و تعالى، خادم الحرمين و سائق الحجاج بين البحرين و البحرين السلطان بن السلطان مراد خان. و في السطر الثالث مكتوب: ابن السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان، خلد الله تعالى ملكه و أيد سلطنته، في آخر شهر رمضان المبارك.

و في السطر الرابع مكتوب: المنظم في سلك شهور سنة أربعين بعد الألف من الهجرة النبوية عليه أفضل التحية. (و الحجر السابع) يقع في الجدار الغربي أيضا، أي الجدار الذي خلف الكعبة، و طول هذا الحجر ثلاثة و سبعون سنتيمترا، و عرضه تسعة و ثلاثون سنتيمترا، و في هذا الحجر أربعة أسطر كتب فيها ما يأتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، ربنا تقبل منا، أمر بتجديد سقف البيت الشريف، و جميع داخل الحرم و خارجه، مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان، خلد الله خلافته، سنة سبعين و ألف».

(و الحجر الثامن) يقع في الجدار الغربي أيضا، أي الجدار الذي خلف الكعبة، و طول هذا الحجر ثمانية و سبعون سنتيمترا، و عرضه ستة و أربعون سنتيمترا، و قد كتب فيه ما يأتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، تقرب إلى الله بتجديد رخام هذا البيت المعظم المشرف، العبد الفقير إلى الله تعالى السلطان الملك الأشرف أبو النصر برسباي، خادم الحرمين الشريفين، بلغه الله آماله، و زين بالصالحات أعماله، بتاريخ سنة ست و عشرين و ثمانمائة».

(و الحجر التاسع) يقع فوق عقد باب الكعبة من داخلها، مرتفع عن أرض الكعبة بأكثر من مترين، و طوله ثلاثة أمتار تقريبا، و عرضه نحو نصف متر.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٩٥

و هو ليس بحجر واحد، بل إنه ثلاثة أحجار أو أربعة.

و قد كتب عليها بعض جمل صغيرة بالخط الكوفي لم تتمكن من قراءتها عند إخراجها من محلها و وضعها بالأرض، لكثرة أشغالنا، بحيث نسينا أمرها حتى رفعت ثانية فوضعت في محلها الأصلي فوق الباب من الداخل.

نقول: لقد انتهينا و لله الحمد من نقل جميع الرخامات المكتوبة التي في داخل الكعبة المشرفة، في اليوم الثامن من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف هجرية، بعد أن أخرجناها من داخل الكعبة عند تجديد سقفيها و ترميم داخلها في شهر شعبان من العام المذكور.

و لقد أخذنا صورتها الفوتوغرافية في التاريخ المذكور أيضا، بعد أن أخرجناها من الكعبة المشرفة و وضعناها بقرب منبر المسجد الحرام، ثم أرجعناها إلى داخل الكعبة لتوضع في محلاتها عند الترميم، و لو لا ذلك لما تجاسرنا بأخذ صورها من داخل بيت الله الحرام. فالحمد لله على توفيقاته المتتالية و نعمائه المتواليه.

و هذه الصور موجودة في مكتب مشروع التوسعة لم تتمكن من أخذها مع الأسف، كما لم تتمكن من أخذ صور الأحجار في داخل الكعبة المشرفة لتعذر ذلك علينا.

الكتابة الموجودة على عقد باب الكعبة

و أما ما هو مكتوب فوق عقد باب الكعبة من الخارج فهو هذا: مكتوب بأعلى باب الكعبة سطران بخط الثلث الواضح الجميل على ألواح من الذهب الخالص.

(فالسطر الأول) مكتوب فيه قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِنَاكَ مَبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.

(و السطر الثاني) مكتوب فيه ثلاثة أبيات و هي:

لقد رقم الحنكار بابا لبيته له كل مخلوق يصلى و يسجد

و خلف ذخر الأجر من بعد جده بنى ملك عثمان أحمد يحمده

فقل فيه مدحا ما استطعت مؤرخا «بتجديده بالبيت قد فاز أحمد»

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٩٦

أى أنه حصل تجديد خدور باب الكعبة فى سنة (١١١٨) ثمان عشرة و مائة و ألف فى عهد السلطان أحمد خان الثالث أحد سلاطين آل عثمان.

و لم نر من أشار و وضح ما هو مكتوب بأعلى باب الكعبة، و قد وفقنا الله تعالى إلى قراءة كل ذلك بعد أن سعدنا على سلم طويل من الخشب حتى وصلنا فوق باب الكعبة و قرأنا كل ذلك و كتبناه، و ذلك فى خامس يوم من شوال سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف، و قد تكلمنا على ذلك بتفصيل تام فى مبحث «عمل باب للكعبة المشرفة» فراجعه إن شئت.

تحلية الكعبة

المكانة المشرفة السامية للكعبة المشرفة فى قلوب الناس جاهلية و إسلاما لا لتحليتها بالذهب و الفضة بل هى لذاتها التى أودعها الله فيها سواء بنيت بالحجارة المرضومة أم بالإسمنت المسلح لأنها بيت الله و قبله المسلمين و ما بنيت إلا بأمر الله سبحانه و تعالى الغنى عن العالمين.

و أن ما نراه فيها من التحلية و الهدايا بالنقدين و نفيس الجواهر، إنما هو من قبيل التشرف بخدمتها و احترامها رجاء التقرب إلى الله تعالى و طلب رحمته و مغفرته، و ليس فى ذلك من بأس فهذا خليل الله إبراهيم صلوات الله عليه و سلامه عليه و على نبينا و جميع الأنبياء و المرسلين و آل كل منهم أجمعين، لما أمره الله عز و جل ببناء الكعبة المشرفة حفر فى باطنها على يمين من دخلها حفرة كالبئر عمقها ثلاثة أذرع تكون خزائن لها يلقى فيها ما يهدى إليها، فالإهداء إليها مطلوب و الأجر عليها من الله ثابت مضمون.

و لئن كان مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر بن عبد القادر الكردى المكى كاتب مصحف مكة المكرمة عاجزا عن إهداء الذهب و الفضة للكعبة المشرفة، فإنه يسأل الله العظيم الحليم الكبير المتعال أن يتقبل منه خدماته لهذه الكعبة الطاهرة المقدسة من الناحية العلمية و التاريخية و أن يسعده و ذريته سعادة أبدية فى الدنيا و الآخرة من كافة الوجوه و أن يختم حياته على الإيمان الكامل و على نظافة و طهارة و راحة تامة عند الموت و أن لا يميته حتى يقر عينه بأهله و أولاده و كافة أصدقائه و مشايخه و أن يغنيه و من يلوذ به عن سواه بفضل الواسع إنه سميع مجيب الدعاء أمين. و صلى الله و سلم على النبى الأسمى الأمين و على آله و صحبه أجمعين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٩٧

فقول و بالله التوفيق:

١- أول من حلى الكعبة فى الجاهلية بالذهب عبد المطلب بن هاشم جد النبى صلى الله عليه و سلم، و ذلك أنه أمر فى المنام أن يحفر زمزم فى موضعها الذى هى فيه فجاء بالمعول و معه ابنه الحارث ليس له يومئذ ولد غيره فحفر حتى بدا له الطى طى البئر كبر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب و هما الغزالان اللذان دفنتهما جرحم حين خرجت من مكة و وجد فيها أسيفا و دروعا و سلاحا ثم حفر حتى أنبت الماء فى القرار ثم بحرهما حتى لا ينزف ثم بنى عليها حوضا فكان هو و ابنه ينزعان فيملآن ذلك الحوض فيشرب منه الحاج.

فضرب عبد المطلب الأسياف على باب الكعبة و ضرب فوقه أحد الغزالين و جعل الغزال الآخر فى جب الكعبة الذى يجعل فيه ما يهدى إليها. هذا ما ذكره الأزرقى.

٢- تحلية عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما، فإنه بعد أن أتم بناء الكعبة جعل عليها و على أساطينها صفائح الذهب و ذلك سنة أربع و ستين من الهجرة و هو أول من حلى الكعبة فى الإسلام.

٣- تحلية عبد الملك بن مروان باب الكعبة بالذهب كما ذكره الشيخ حسين باسلامة فى مؤلفه نقلا عن الفاسى و ذلك فى العمارة التى عملها بالمسجد الحرام سنة خمس و سبعين.

٤- تحلية الوليد بن عبد الملك بن مروان. قال الغازى نقلا عن الأزرقى:

أرسل الوليد بستة و ثلاثين ألف دينار يضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب و على أساطينها و على الميزاب و على أركانها من الداخل. اهـ.

و قال أيضا نقلا عن شفاء الغرام: إن الوليد صرف فى ميزاب الكعبة و سقفاها ما كان فى يد نبي الله سليمان عليه الصلاة و السلام، من ذهب و فضة و كان قد احتمل على بغل قوى فتفسخ تحتها فضرب منها الوليد حلية الكعبة و كانت قد احتملت إليه من طليظة من جزيرة الأندلس و كانت لها أطواق من ياقوت و زبرجد. انتهى.

و الظاهر أن ذلك كان سنة إحدى و تسعين حينما أمر بتوسيع المسجد الحرام، و كان إذا عمل المساجد زخرفها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٩٨

٥- تحلية الخليفة العباسى الأمين محمد بن هارون الرشيد فإنه أرسل بثمانية عشر ألف دينار ليضرب بها صفائح الذهب على باب الكعبة و جعل مساميرها و حلقتى الباب و أعتابه من الذهب كما ذكره الأزرقى، و لم نر فى أى سنة أرسل تلك الدنانير لتحلية الكعبة، و الأمين محمد تولى الخلافة بعد موت أبيه فى سنة إحدى و تسعين و مائة و اسمه محمد و لقبه الأمين.

٦- تحلية المتوكل العباسى جعفر بن المعتصم بن الرشيد فإنه لما بلغه من حجة الكعبة أن زاويتين من زواياها تآكل ذهبهما أرسل المتوكل إلى إسحاق بن سلمة الصايغ بذهب و أمره بعمل ذلك فكسر إسحاق تلك الزوايا و أعادها من الذهب و عمل منطقة من فضة ركبها فوق إزار الكعبة من الداخل عرضها ثلثا ذراع، و جعل لها طوقا من الذهب متصلا بهذه المنطقة، و ألبس عتبة الباب الخشب بالفضة. قال إسحاق: فكان مجموع الزوايا و الطوق الذهب ثمانية آلاف مثقال و منطقة الفضة و ما على الباب و ما حلى به المقام سبعين ألف درهم. انتهى ما ذكره الأزرقى.

بويح المتوكل بالخلافة فى أواخر سنة (٢٣٢) و قتل سنة سبع و أربعين و مائتين.

٧- تحلية المعتضد العباسى أحمد المعتضد بالله بن طلحة بن المتوكل المذكور كتب الحجة إليه أن أحد الولاة بمكة قلع أيام الفتنة سنة (٢٥١) إحدى و خمسين و مائتين ما على عضادتى باب الكعبة من الذهب فضربه دنانير و صرفها على الفتنة فكانوا يسترون العضادتين بالدجاج.

و أن عامل مكة سنة (٢٦٨) ثمان و ستين و مائتين قلع أيضا أيام الفتنة مقدار الربع من الذهب من أسفل باب الكعبة و ما على أنف الباب من الذهب و استعان به على دفع تلك الفتنة و جعل بدل ما أخذه فضة موهة بالذهب فإذا تمسح الحجاج به أيام الحج انكشفت الفضة فأمر المعتضد بإعادة جميع ذلك. ذكره الفاسى فى شفاء الغرام.

و الخليفة المعتضد المذكور هو الذى زاد فى المسجد الحرام بإدخال دار الندوة فيه جهة باب الزيادة و بنى عنده المنارة و ما يتبعه من الأروقة و السقوف و دامت عمارته ثلاث سنوات و كان ذلك سنة (٢٨١) إحدى و ثمانين و مائتين و قد توفى سنة (٢٨٩).

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ١٩٩

٨- تحلية المقتدر العباسى أبو محمد، على المقتدر بالله بن المعتضد بالله، و ذلك أنه فى سنة (٣١٠) عشر و ثلاثمائة أمر عامله على مكة أن يلبس جميع الأسطوانة الأولى التى تلى باب الكعبة الذهب لأن التى تليها ملبسة بصحائف الذهب و بقيتها مموها. ذكره ابن فهد.

وقال الغازي نقلا عن الفاسي: أن أم المقتدر العباسي هي التي أمرت غلامها (لؤلؤا) أن يتوجه إلى مكة و أن يلبس جميع أسطوانات البيت الشريف ذهابا ففعل ذلك في سنة عشر و ثلاثمائة. انتهى.

والمقتدر ولي الخلافة سنة (٢٩٥) ثم خلع ثم أعيد ثم خلع ثانيا ثم أعيد ثالثا و استمر حتى قتل في شوال سنة (٣٢٠).

٩- تحلية الوزير جمال الدين المعروف بالجواد الأصبهاني وزير «مودود بن زنكي» صاحب الموصل أنفذ رجلا من جهينة يقال له الحاجب و ذلك سنة (٥٤٩) تسع و أربعين و خمسمائة إلى مكة و معه خمسة آلاف دينار ليعمل بها صحائف الذهب و الفضة في أركان الكعبة من الداخل. اهـ.

بعض المؤرخين يقول: أنفذ الوزير جمال الدين حاجبه، و بعضهم يقول: أنفذ رجلا من جهينة يقال له الحاجب و هو ما ذكر الشيخ حسين باسلامة رحمه الله تعالى في كتابه «تاريخ الكعبة».

قال أستاذنا المرحوم يوسف أحمد الخطاط الكوفي الشهير مفتش الآثار العربية بمصر في كتابه «المحمل و الحج» عن الوزير جمال الدين المذكور أنه هو الذي جدد مسجد الخيف بمنى، و بنى حجر إسماعيل و زخرف الكعبة و بنى المسجد الذى على عرفات و عمل بعرفات مصانع الماء و بنى سورا على المدينة إلى غير ذلك من الأعمال النافعة المجيدة.

و وصى إذا مات أن يدفن بالمدينة المنورة فمات سنة (٥٥٩) تسع و خمسين و خمسمائة فحمل إليها عن طريق مكة و دفن بجوار قبر النبي صلى الله عليه و سلم، بينه و بين القبر الشريف نحو خمسة عشر ذراعا، و نودى فى كل بلد نزله بالصلاة عليه و لما أرادوا الصلاة عليه بالحلة أنشد شاب:

سرى نعشه فوق الرقاب و طالماسرى جوده فوق الركاب و نائله

يمر على الوادى فتثنى رماله عليه و بالوادى فتثنى أرامله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٠٠

و من أراد زيادة الاطلاع على أعمال الوزير المذكور فعليه بمراجعة صحيفه ٦٨ من الجزء الثانى من كتاب ابن الوردى. انتهى ملخصا. و الوزير جمال الدين المذكور، رحمه الله تعالى، هو الذى قام بعمل باب الكعبة مصفحا بالذهب و الفضة باسم الخليفة العباسي المقتفى لأمر الله سنة (٥٥١) و قد جعل الوزير جمال الدين باب الكعبة القديم بعد قلعه تابوتا لنفسه يدفن فيه كما ذكرنا ذلك عند الكلام على باب الكعبة المشرفة. فانظر رحمك الله إلى قوة إيمانه و اعتقاده و إلى إجماع الناس على حبه و الدعاء له حتى بعد موته. اللهم وفقنا لما تحبه و ترضاه آمين.

١٠- تحلية الخليفة العباسي المقتفى لأمر الله، فقد عمل بابا للكعبة بالذهب و الفضة بواسطة الوزير جمال الدين المتقدم ذكره و ذلك سنة (٥٥١) إحدى و خمسين و خمسمائة.

١١- تحلية الملك المظفر صاحب اليمن حلاها بستين رطلا من الفضة ضربها صفائح على باب الكعبة، و ذلك لما حج سنة (٦٥٩) تسع و خمسين و ستمائة.

١٢- تحلية الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر، فإنه عمل بابا للكعبة و حلّاه المعظمة بخمس و ثلاثين ألف درهم سنة (٧٣٣) ثلاث و ثلاثين و سبعمائة.

١٣- تحلية الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فإنه عمل بابا للكعبة و أصلحوا تحلية هذا الباب مرارا و ذلك سنة (٧٦١) إحدى و ستين و سبعمائة.

١٤- تحلية الملك الأشرف شعبان حفيد الملك محمد بن قلاوون صاحب مصر، فإنه حلى باب الكعبة فى سنة (٧٧٦) ست و سبعين و سبعمائة، ذكره الغازي نقلا عن الفاسي.

١٥- تحلية ناظر الحرم الشريف بيرم خوجه، فإنه حلى الكعبة بالفضة المطلية بالذهب، فمقدار الفضة التى طليت بها ألف و ستمائة

قفلة، و مقدار الذهب الذي حلى بها سبعون أفلوريا. ذكره الغازي نقلا عن ابن فهد، و لم يبين السنة التي حصل ذلك فيها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٠١

١٦- تحلية السلطان سليمان خان القانوني، فقد عمل بابا للكعبة و حلّاه بحلية كثيرة من الفضة و الذهب، كما عمل ميزاب الكعبة المحلى بالذهب و ذلك سنة (٩٦٤) أربع و ستين و تسعمائة. و قد تكلمنا عنه عند ميزاب الكعبة.

قال الغازي في تاريخه نقلا عن السنجاري: و قدر ما فيه من الذهب ألف و مائتين و ثمانين أشرفيا بعمله تاريخه، و من الفضة نحو أربعة قناطير تعجز قليلا.

اه.

١٧- تحلية السلطان مراد خان الرابع، فإنه عمل بابا للكعبة المشرفة و ذلك بعد بنائه لها بسبب السيل الذي هدمها بخمس سنين، و قد حلى الباب بالفضة و الذهب فكان وزن الفضة مائة و ستة و ستون رطلا، و وزن الذهب البندقي ألف دينار، و قد ركبوا الباب على الكعبة في ثلاثة أيام حتى صار محكما ثابتا، و كان عمله سنة (١٠٤٥) خمس و أربعين و ألف.

١٨- تحلية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل السعود مؤسس المملكة العربية السعودية، رحمه الله تعالى، فإنه أمر بتجديد باب الكعبة المشرفة مصفحا بالذهب و الفضة و بعد انتهاء عمل الباب ركب في الكعبة باحتفال عظيم و ذلك في ٢٣ ذى القعدة سنة (١٣٧٠) سبعين و ثلاثمائة و ألف و قلع الباب القديم الذي عمله السلطان مراد الرابع.

و نختم هذا الفصل بأن كل من حلى ميزاب الكعبة بالنقدين أو جعل منهما طوقا للحجر الأسود يعتبر أنه ممن عمل في تحلية الكعبة المشرفة.

الكراسي التي كانت موجودة في الكعبة

بمناسبة الكلام على الكرسي الذي كان في الكعبة المشرفة زمن عمر رضى الله تعالى عنه، نذكر هنا جلوس رسول الله صلى الله عليه وسلم أحيانا على الكرسي، فلقد جاء في الجزء الأول من كتاب «التراتب الإدارية و العمالات و الصناعات و المتاجر و الحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلية» تأليف العلامة الحافظ المحدث الشهير الشيخ عبد الحي الكتاني الفاسي، المطبوع بالمطبعة الأهلية بدررب الفاسي بالرباط ببلاد المغرب الأقصى سنة (١٣٤٦) هجرية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٠٢

جاء في هذا الكتاب بعنوان «اتخاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكرسي» بصحيفة ٩٧ من الجزء الأول ما نصه:

ذكر الدارقطني في العلل من حديث علي قال: كنت آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كل غداة إذا تنحج دخلت، و إذا سكت لم أدخل، قال: فخرج إلى فقال: حدث البارحة أمر، سمعت خشخشة في الدار و ذكر قصة فيها، فإذا بجرول للحسن تحت كرسي لنا، و في المشرع الروي: الكرسي هو الذي يجلس عليه و قيل: لا يفضل عن مقعد القاعد.

ذكر جلوس النبي صلى الله عليه وسلم على الكرسي في صحيح مسلم و سنن النسائي و النص لمسلم عن حميد بن هلال قال: قال أبو رفاعه العدوي: انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم و هو يخطب فقلت: يا رسول الله رجل غريب يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، قال:

فأقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم و ترك خطبته حتى انتهى إلى، فأتى بكرسي حسب قوائمه حديثا، قال: فقعد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم و جعل يعلمني مما علمه الله ثم أتى خطبته فأتى آخرها.

(و قلت): الحديث المذكور غفل السيوطي في الجمع و الهندي في الكنى فاقصرنا على عزوه للطبراني في الكبير و أبي نعيم، مع أنه كما علمت في مسلم و أخرجه البخاري في الأدب المفرد، و فيه جلوسه صلى الله عليه وسلم على كرسي قوائمه من حديد حتى في

المسجد و الناس ينظرون، ففيه جواز ذلك و أنه لا يعد مذموما و قد قربت مرة إلى رجل من الصالحين كرسيا لجلوسه فأبى و رأى أنه من التشبه المذموم.

و قد ترجم البخارى فى الأدب المفرد باب الجلوس على السرير، فذكر قصة جلوس معاوية على سرير، و قول أبى قره: جلست مع ابن عباس على سرير، و قول أبى جمره: كنت أقعد مع ابن عباس فكان يقعدنى على سريره فقال لى:

أقم عندى حتى أجعل لك سهما من مالى فأقمت عنده شهرين، و قصة جلوس أنس مع أمير البصرة الحكم على سرير، و قصة أبى رفاعه العدوى السابقة عن مسلم، و فيها فأتى بكرسى خلت قوائمه من حديد، قال حميد: و لكن زاد أراه خشبا أسود حسبته حديدا فقعده عليه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٠٣

و عن موسى بن دهقان قال: رأيت ابن عمر جالسا على سرير عروس عليه ثياب حمر، و عن عمران بن مسلم قال: رأيت أنسا جالسا على سرير واضعا إحدى رجله على الأخرى. و الله أعلم.

و قد ذكر المبرد فى الكامل فى قصة حبس عمر بن الخطاب للحطية على هجوه للزبرقان قال: إن عمر دعا بكرسى فجلس عليه، و دعا بالحطية فأجلس بين يديه، و دعا بأله القطع يوهمه أنه عامل على قطع لسانه الخ... القصة.

و فى سنن النسائي عن عبد خير قال: شهدت عليا دعا بكرسى فقعده عليه، ثم دعا بماء فى تور فغسل يديه ثلاثا الخ.. القصة.

و فى تاريخ الوزير جودت باشا التركي نقلا عن تاريخ واصف أفندى التركي:

أن سيدنا يوسف عليه السلام كان يجرى الأحكام و هو جالس على كرسية، و أن سيدنا سليمان عليه السلام كان ينفذ الأحكام أيضا و هو على كرسى مرتفع، و أن سيدنا معاوية اتخذ لنفسه دائرة خصوصية كان يجلس فيها على كرسى مثل التخت و يجرى الأحكام. اه.

و أخرج أبو نعيم فى الحلية عن يحيى بن أيوب عن الكنانى رسول عمر إلى هرقل، و كان يقال له جثامة بن مساحق بن الربيع بن قيس الكنانى قال: جلست فلم أدر ما تحتى فإذا تحتى كرسى من ذهب فلما رأيته نزلت عنه، فضحك فقال لى: لم نزلت عن هذا الذى أكرمناك به؟ فقلت: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم ينهى عن مثل هذا.

انظر ترجمة جثامة بن مساحق من فضائل الصحابة من كثر العمال. فانظر كيف جلس على الكرسى أولا ثم نزل عنه، لا لأنه كرسى، بل لما رآه من ذهب، فلو وجدته من غيره مما يباح استعماله لاسترسل جالسا عليه. و الله أعلم.

انتهى من الكتاب المذكور.

الكعبة المشرفة و هندستها

لقد نشرنا مقالة مهمة عن اتجاه المسلمين إلى الكعبة المعظمة فى صلواتهم أينما كانوا فى جريدة البلاد السعودية التى تصدر بمكة المكرمة و ذلك بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية سنة (١٣٧١) للحجرة بعنوان (الكعبة المشرفة و هندستها) و لما كانت هذه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٠٤

المقالة فريدة فى بابها دقيقة فى معناها، أحببنا ذكرها و إعادة نشرها مع ما جاءنا من الجواب عليها من مصلحة المساحة المصرية، حبا فى نشر العلم و تنوير الأذهان، فلنذكر أولا نص مقالتنا فى الجريدة المذكورة و هو:

الكعبة المعظمة: هى قبله المسلمين يتجهون إليها فى صلواتهم أينما كانوا من بقاع الكرة الأرضية، قال الله تعالى: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ و قال أيضا: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، و قال صلى الله عليه و سلم: «ينزل الله عز و جل على هذا البيت كل يوم و ليلة عشرين و مائة رحمة، ستون منها للطائفين، و أربعون للمصلين و عشرون للناظرين».

ولما كانت لهذه الكعبة التي بناها خليل الله إبراهيم عليه السلام منزلة سامية في قلوب كافة المسلمين كان حقا علينا أن ندرسها من كافة النواحي الدينية والتاريخية. ولقد خطرت في بالنا نقطة دقيقة مهمة أحببنا عرضها على أنظار إخواننا المسلمين وهي: أن إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين بنى هذه الكعبة الغراء على الأساس الذي عرفه الله تعالى أن بينها عليه فبناها حسب الأمر الإلهي «فهل يدل اتجاه أركانها وموضع بابها على نفس الجهات الأربع وهي الشرق والغرب والجنوب والشمال» أم لا؟.

نرجو من حضرات العلماء الأجلاء وأرباب الهندسة والفلك «إفادة دقيقة مبنية على القواعد العلمية والآلات الفلكية العصرية على وجه الضبط واليقين لا- على الحدس والتخمين، كما نرجو منهم بيان موقع جبل حراء وجبل الرحمة بعرفات من الكعبة المشرفة بالضبط وبيان مواقع الحارات والشوارع بمكة المكرمة بالنسبة لجهة الكعبة المشرفة، بمعنى إلى أى درجة يكون ميل كل حارة إلى الجهات الأربع وموقع الكعبة من الجهات أيضا».

ولقد ذكر بعض العلماء «أن بعض البلدان يصلون إلى جهة باب الكعبة، وبعض البلدان يصلون إلى الجهة المقابلة للباب، وبعض البلدان يصلون إلى جهة الميزاب، وبعض البلدان يصلون إلى الجهة المقابلة للميزاب» ولكن لا ندري هل ذكروا ذلك في باب الظن أو اليقين ومن رأينا أن ذلك راجع إلى أهل الهندسة وأهل الفلك، فعسى أن نطلع على إفادتهم المبنية على القواعد والأصول المرعية، وليس ذلك بمستنكر فإن لله عز وجل حكما دقيقة قد تهتدى إلى شيء منها

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٠٥

عقول البشر وقد تتيه فيها. ففي نتيجة الحكومة المصرية رسم يبين اتجاه القبلة في مدينة القاهرة مع بيان درجة انحراف القبلة من الجنوب نحو الشرق ودرجة سمتها من الشمال نحو الشرق أيضا، كما في مصلحة المساحة المصرية خبراء يعرفون اتجاه القبلة في أى مكان بالديار المصرية.

وهذا هرم الجيزة الأكبر بمصر، فإن الذين بنوه أقاموا بنيانه على أساس عجيب ودقة متناهية، فقد ذكر علماء الآثار أن الهرم الأكبر الذي هو البناء الوحيد في العالم من نوعه هو أدق بناء في العالم من حيث توجيه زواياه نحو الجهات الأصلية، ومما يزيد في شأنه من هذه الناحية أن زوايا قاعدته تواجه بالضبط الشمال والشرق والجنوب والغرب، وأن انعكاسات الشمس عن أوجه الهرم تشير بالدقة إلى الأيام التي يحدث فيها الانقلاب الشتوي والاعتدال الربيعي والانقلاب الصيفي والاعتدال الخريفي، وقد قام في السنوات الأخيرة كثير من العلماء بدراسات وافية عن تاريخ الهرم وهندسة بنائه لا نرى لازما لسرد ما توصلوا إليه وإنما ذكرنا ما تقدم تنبيهها للوعى العلمي واستنهاضا لهمم العلماء في النظر إلى ما وضعه الله تعالى من خفايا الأمور والأسرار في مخلوقاته كما قال عز شأنه في محكم كتابه العزيز: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ* فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، نسأل الله الهداية والتوفيق آمين.

انتهى نص مقالتنا في الجريدة، ولندكر الآن إجابة مصلحة المساحة المصرية عليها، وهذا نصها:

«حضرة الأستاذ محمد طاهر الكردي الخطاط بالمعارف العامة بمكة المكرمة، السلام عليكم ورحمة الله. بالإشارة إلى خطابكم المؤرخ ٢١ رجب سنة (١٣٧١) الموافق ١٦ أبريل سنة (١٩٥٢) نرجو الإحاطة بأننا قمنا بدراسة موضوع الأسئلة الواردة في مقالكم عن تاريخ الكعبة الشريفة وهندستها من واقع الأعمال التي قامت بها مصلحة المساحة أخيرا بمكة المكرمة، وفيما يلي الرد عما يدخل في اختصاص هذه المصلحة:

١- تبين من الأعمال المساحية التي عملت أخيرا أن أركان الكعبة الشريفة لا تتجه إلى اتجاه معين، وأن حوائطها ليست متعامدة تماما، وتختلف أطوالها عن بعضها البعض، كما تميل هذه الحوائط عن الجهات الأربع بحوالي (٥٧) درجة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٠٦

٢- يقع غار حراء في الشمال الشرقي من نقطة وسط الكعبة، و ينحرف اتجاهه عنها بنحو (٤٢) درجة من الشمال و هو على خط عرض ٢٢ ٢٧ ٢١ شمالا، و خط طول ٣٩ ٥١ ٣٠ درجة شرقا. و يقع جبل الرحمة في الجنوب الشرقي من نقطة وسط الكعبة و ينحرف اتجاهه عنها بنحو ٦٤ درجة من الجنوب نحو الشرق و هو على خط عرض ٢١ ٢١ ٨ درجة شمالا و خط الطول ٣٩ ٥٨ ٢٧ درجة شرقا. و أما نقطة وسط الكعبة و هي نقطة تقابل قطريها فتقع على خط عرض ٢١ ٢٥ ١٥ درجة شمالا، و خط الطول ٣٩ ٤٩ ٣١ شرقا. و مرفق بهذا لوحة مكة مقياس ١٠٠ / ١، مبنيا عليها مواقع الأمكنة المذكورة مؤشرا عليها بالخط الأحمر.

٣- و قد قمنا بتبيان الاتجاه نحو الكعبة من الشمال الحقيقي نحو الشرق بالدرج على حافة لوحة المسجد الحرام و ما حوله مقياس ١ / ٥٠٠ المرفقة بهذا بحيث يمكن تعيين الاتجاه نحو الكعبة في أى مكان و ذلك بتوصيل خط من نقطة منتصف الكعبة إلى هذا المكان و مده حتى يقابل حافة اللوحة فيكون الدرج المبين بها عند نقطة التقابل هو مقدار انحراف الكعبة في هذا المكان من الشمال نحو الشرق. و ينحرف الشمال المغناطيسى عن الشمال الحقيقي في مكة المكرمة بدرجتين نحو الشرق، فإذا أريد استعمال البوصلة يطرح هذا المقدار من الانحراف الحقيقي المستخرج من اللوحة فيكون الناتج هو مقدار انحراف الكعبة عن الشمال المغناطيسى للمكان المطلوب.

٤- و نظرا لأن المسافة بين نقطة منتصف الكعبة و كل من الباب أو الميزاب أو أى مكان آخر بها صغيرة جدا تكاد لا تذكر إذا ما قورنت ببعدها المسافة بين الكعبة و أى بلد من البلدان الأخرى التى تقام بها الصلاة فإن هذه المسافة لا تؤثر في اتجاه المصلى، و على ذلك تصبح الكعبة كلها كأنها نقطة واحدة بالنسبة للمصلى في أى بلد آخر.

هذا هو نص إجابة مصلحة المساحة المصرية، و حيث أن هذه الإجابة هي من الأهمية بمكان بالنسبة لكل مسلم فقد رأينا من اللازم أن نضعها في مؤلفاتنا كلها و بالله التوفيق. انتهى من كتاب إرشاد الزمرة لمناسك الحج و العمرة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٠٧

اختلاف بنايات الكعبة و تعميرها

لقد تقدم أن الكعبة المعظمة بنيت إحدى عشرة مرة، منذ بناء الملائكة و آدم عليه السلام إلى بناء السلطان مراد بن السلطان أحمد عام ألف و أربعين من الهجرة، فإذا دققنا النظر رأينا أن ما وقع لبيت الله الحرام من البنائات الإحدى عشرة منذ آلاف السنين و الأعوام ليس بشيء يذكر، و إن مكته سليما قائما دهرًا طويلا ما هو إلا كرامة له، و سر اختصه الله به فلو كثر خرابه و تعميره كل وقت لأدى ذلك إلى تهاون الناس باحترامه و تعظيمه.

أما اختلاف البنائات فيه بالصفة التى ذكرناها فيما تقدم فليس فى ذلك بأس ما دام البناء لم يخرج عن الأساس الأول و لم يتحول عن قواعد إبراهيم عليه السلام، فاتباع الأساس هو الشرط الأول، أما البناء على صفة مخصوصة فإنه لم يرد من الشارع، فهذه قرينة نقصت من طوله من جهة الحجر لقلبة النفقة الحلال التى جمعوها لبنائه و طولت من ارتفاعه و رفعت بابه عن الأرض و سقفته و لم يكن له سقف، و قد كان النبي صلى الله عليه و سلم يشغل معهم فى بنائه و هو حينئذ فى الخامسة و الثلاثين من عمره الشريف.

ثم نقض عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما بناء قريش و بنى الكعبة على الصفة التى تمنها رسول الله صلى الله عليه و سلم فإنه قال لعائشة رضى الله عنها: «يا عائشة لو لا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه و ألزقته بالأرض و جعلت له بايين بابا شرقيا و بابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم» رواه البخارى فى صحيحه، فموجب هذا الحديث الذى سمعه ابن الزبير من خالته عائشة بنى الكعبة بعد احتراقها تحقيقا لأمنية النبي صلى الله عليه و سلم و رغبته و جعل له بايين لاصقين بالأرض أحدهما للدخول و الآخر للخروج، و جعل لها أربعة أركان بعد أن كان لها ركنان فقط و كان إذا طاف استلم الأركان الأربعة جميعا و قال: إنما كان ترك استلام هذين الركنين الشامى و الغربى لأن البيت لم يكن تاما «أى أن جداره الذى من جهة الحجر كان مدورا من غير

أركان» فلم تزل الأركان الأربعة حتى قتل رضى الله عنه و جعل فى بطنه درجةً من خشب يصعد منها إلى سطحها و جعل ارتفاعها من الأرض للسماء سبعة و عشرين ذراعاً.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٠٨

قال الأزرقى فى تاريخه: و كانت الكعبة يوم هدمها ابن الزبير ثمانية عشر ذراعاً فى السماء، و لما أن بلغ ابن الزبير بالبناء ثمانية عشر ذراعاً قصرت بحال الزيادة التى زاد من الحجر فيها و استسمح ذلك إذ صارت عريضة لا طول لها فقال: قد كانت قبل قريش تسعة أذرع حتى زادت قريش فيها تسعة أذرع طولاً فى السماء فأنا أزيد تسعة أذرع أخرى فبناها سبعة و عشرين ذراعاً فى السماء. اهـ.

و الحقيقة أن ابن الزبير قد أحسن فى زيادة ارتفاعها للسماء و حتى يكون ارتفاعها ملائماً لطولها و عرضها و بذلك يكون شكل الكعبة جميلاً، و لا حرج فى الزيادات المستحسنة اللاتئة ما دام البناء على قواعد إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام. و لما قتل ابن الزبير و دخل الحجاج الثقفى مكة استأذن من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أن يرد الكعبة على ما كانت عليه فى الجاهلية فأمره عبد الملك أن يهدم ما زاده ابن الزبير و أن يسد بابها الغربى، و يجعلها كسابق عهدنا ظناً منه أن ابن الزبير إنما بناها على حسب رغبته و اجتهاده، فلما تبين له أنه بناها للحديث السابق الذى سمعه من خالته عائشة رضى الله عنها، ندم على هدمها وردّها على البنيان الأول و جعل ينكت منكساً بقضيب فى يده ساعةً طويلةً ثم قال: وددت و الله لو أنى تركت ابن الزبير و ما تحمل من ذلك.

فأنت ترى أن هذه البنايات كلها مبنية على أساس إبراهيم عليه السلام أما الزيادات التى حصلت فيها فإنما هى زيادات فى صفة البناء لا فى الأساس و القواعد.

أما بناء الكعبة لخراب أصابها فإنه يجب بناؤها و تعميمها و إصلاحها إذ لا يعقل تركها على خرابها و هى قبله المسلمين و بيت الله المعظم، و فيما يأتى من قول عبد الله بن الزبير دليل واضح على هذا، و ناهيك بعبد الله بن الزبير الذى أبوه من العشرة المبشرين بالجنة و أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عن الصحابة أجمعين، فقد روى الأزرقى فى تاريخه: أن ابن الزبير لما أراد أن يهدم الكعبة و بينها دعا وجوه الناس و أشرفهم و شاورهم فى هدمها فأشار عليه ناس غير كثير بهدمها و أبى أكثر الناس هدمها، و كان أشدهم عليه إباء عبد الله بن عباس فقد قال له: دعها على ما أفرها عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم فإنى أخشى أن يأتى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٠٩

بعدك من يهدمها فلا تزال تهدم و تبنى فيتهاون الناس فى حرمتها و لكن أرقعها، فقال ابن الزبير: و الله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه و أمه فكيف أرقع بيت الله سبحانه و أنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله حتى أن الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارتها، ثم أجمع على هدمها و كان يجب أن يكون هو الذى يردّها على ما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم على قواعد إبراهيم و على ما وصفه رسول الله صلى الله عليه و سلم لعائشة رضى الله عنها. اهـ.

و لما عزم على هدمها خرج أهل مكة منها إلى منى فأقاموا بها ثلاثة أيام خوفاً من أن ينزل عليهم عذاب لهدمها، و لم يقرب ابن عباس مكة حين هدمت حتى فرغ منها و أرسل إلى ابن الزبير يقول له: لا تدع الناس بغير قبلة انصب لهم حول الكعبة الخشب و اجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها و يصلون إليها ففعل ابن الزبير ذلك.

و لقد أراد أمير المؤمنين هارون الرشيد أو أبوه المهدي أو جده المنصور أن يهدم الكعبة و يردّها إلى بناء ابن الزبير لكنه حينما سأل إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه عن ذلك منعه و قال له: ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل بيت الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمه إلا هدمه و بناه فتذهب هيئته من صدور الناس.

و لقد أراد أيضاً السلطان أحمد بن السلطان محمد بن مراد بن سليم الثانى من سلاطين آل عثمان أن يهدم الكعبة حين تصدع جدارها

الشرقي و جدارها الغربي و بينها و يجعل حجارته ملبسة واحدا بالذهب و واحدا بالفضة فمنعه العلماء من ذلك و قالوا يمكن حفظ هذه الجدران بنطاق يلم هذا الشعث فعمل لها نطاقا من النحاس الأصفر مغلفا بالذهب و أنفق عليه نحو ثمانين ألف دينار و جرى تركيبه عليها في أواخر عام العشرين بعد الألف و أوائل العام الذي بعده كما جاء ذلك في الملحقات التي بآخر الجزء الأول من تاريخ الأزرقى المسمى «أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار» المطبوع بالمطبعة الماجدية بمكة المكرمة سنة (١٣٥٢) هجرية و الذي منع السلطان محمدا من ذلك هو شيخ الإسلام المولى محمد بن سعد الدين و قال له: هذا يزيل حرمة البيت و لو أراد الله سبحانه و تعالى لجعله قطعة من الياقوت، فكف السلطان عن ذلك، كما ذكره الغازي نقلا عن السالنامة الحجازية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢١٠

فالكعبة المشرفة إذا حدث فيها خلل أو صدع أو حرق أو وقوع بعض جدرانها و حجارته، فإنه تجب المبادرة إلى تعمیرها و إصلاحها إصلاحا تاما محكما من المال الحلال و بشتى مواد البناء الطاهرة من حجارة و طين و نورة و إسمنت و حديد و غير ذلك، فإن الله تعالى يحسن إلى المصلحين و يأجرهم على أعمالهم، و هذا الوليد بن المغيرة قال لقريش حينما أرادوا بناء الكعبة و لكنهم هابوا هدمها:

أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل نريد الإصلاح، قال: فإن الله لا يهلك المصلحين، ثم ارتقى الوليد على جدار البيت و معه الفأس فقال: اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح ثم هدم و هدمت قريش معه.

و لو أراد الله تعالى أن لا يمسه مخلوق بالتعمير و الإصلاح لجعلها قطعة واحدة من الجواهر الثمينة و الأحجار الكريمة، لا ترحزها الرياح و لا يؤثر فيها حدثان الزمان، حتى يرث الله الأرض و من عليها و هو خير الوارثين، و لكنه جل جلاله و تقدست أسماؤه وضع بيته الحرام بمكة و خص من شاء من عباده برفع قواعده و تعميره، و توجه بالهيبة و الجلال حتى يطوف به السعداء من أهل الأرض كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

و لقد خص الله تعالى بيته الحرام بالمهابة و التعظيم، و الإجلال و التكريم، و أحاطه بالأسرار القدسية، و الأنوار الإلهية، يقف عنده الزائر خاشعا خاضعا، و يطوف به الجبار ذليلا متواضعا، و يقوم لديه المذنب منكسرا باكيا، و يتتهل المضطر إلى الله أمامه راجيا داعيا فعندها تستجاب الدعوات و تقال العثرات و تسكب العبرات. قال بعض الفضلاء:

في البيت أنواع فضل لست أحصرها و صاحب البيت أدرى بالذي فيه

من جاءه خائفا من سوء زلته فإن للبيت ربا سوف يحميه

و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا رأى البيت يقول: «اللهم زد هذا البيت تشريفا و تعظيما و تكريما و مهابة و زد من شرفه و كرمه ممن حجه و اعتمره تشريفا و تعظيما و تكريما و برا». و كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا رأى البيت قال: اللهم أنت السلام و منك السلام فحينما ربنا بالسلام.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢١١

صفة أشهر بنايات الكعبة المعظمة كيفية بناء إبراهيم عليه السلام

بنى إبراهيم عليه الصلاة و السلام الكعبة بحجارة بعضها فوق بعض من غير طين و لا- جص، و حفر في باطنها على يمين من دخلها حفرة عميقة كالبر يلقى فيها ما يهدى إليها تكون خزائنه لها، و كان عمقها ثلاثة أذرع كما ذكره الأزرقى، و لم يجعل للكعبة سقفا و لا بابا من خشب أو غيره و إنما ترك لمكان الباب فتحة في جدارها الشرقي للدلالة على وجه البيت.

فأول من جعل للكعبة بابا يغلق أسعد الحميري، و هو من تبع أحد ملوك اليمن قبل البعثة بزمن بعيد، و هو أول من كساها كسوة كاملة و نحر عندها.

و السبب في بنائها بتلك الكيفية أنهم كانوا على الفطرة لا يعرفون الخيانة و لا السرقة، و ما كان عندهم من الأموال و الذهب و الفضة ما يسرق، و ما كانوا يسكنون في تلك العصور الأولى كما نسكن نحن في البيوت المنيعة و القصور المشيدة.

و قد كان بناء إبراهيم للكعبة من خمسة جبال من طور سيناء و طور زيتاء و لبنان و الجودي و حراء.

فطور زيتاء و طور تيناء: هما جبلان ببيت المقدس قاله الثعالبي. أما لبنان:

فجبل بالشام و يقال له جبل الأولياء. اه من شرح عامود النسب و هو مخطوط غير مطبوع.

و كانت الملائكة تأتيه بالحجارة من تلك الجبال، فكان هو بينى و إسماعيل يناوله الحجارة، فبناها على أساس آدم و هذا الأساس حجارته من جبل حراء كانت الملائكة تأتي بها و تقذف فيه و هو المسمى بالقواعد، و قد جعل إبراهيم عليه السلام للكعبة ركنين فقط: الركن الأسود و الركن اليماني و لم يجعل لها أركاناً من جهة الحجر بل جعلها مدورة على هيئة نصف دائرة كجدار الحجر، و جعل الحجر إلى جنبها عريشا من أراك تقتحمه غنم إسماعيل فكان زربا لغنمه، و جعل الباب لاصقا بالأرض و غير مبوب، و جعل ارتفاعها من الأرض في السماء تسعة أذرع، و جعل عرض جدار وجهها الذي فيه الباب اثنين و ثلاثين ذراعا، و عرض

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢١٢

الجدار المقابل له إحدى و ثلاثين ذراعا، و عرض الجدار الذي فيه الميزاب جهة الحجر اثنين و عشرين ذراعا و عرض الجدار المقابل له عشرين ذراعا. و ما ذكره صاحب كتاب تاريخ الكعبة المعظمة بأن إبراهيم عليه السلام جعل لها بايين هو و هم منه، و الصواب أنه جعل لها بابا واحدا فقط كما يظهر ذلك عند التأمل في كتب التاريخ.

و قد يتساءل بعضهم: لم بنى سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام الكعبة المعظمة بالرضم من غير طين و لا جص و لم لم يجعل لها سقفا من الخشب أو غيره، و لم لم يجعل لها بايين أحدهما للدخول و الآخر للخروج، و لم جعل حجر إسماعيل مدورا، و جعله من شجر الأراك و لم بينه بالرضم، و لماذا ما كسى البيت الحرام بعد الفراغ من بنائه؟.

(فالجواب) و الله تعالى أعلم بالصواب: هو أن إبراهيم صلوات الله و سلامه عليه بنى الكعبة الغراء بالرضم من غير طين و لا جص و من غير سقف و لا- باب لأن ذلك العصر القديم لم يكن فيه شيء من وسائل البناء و أسباب الحضارة فمن أين يأتي بالأدوات الحديدية المختلفة لحفر الأرض و خلط الطين و نشر الخشب و دق المسامير؟

و ما دام لم يكن بمكة سوى إبراهيم و ابنه عليهما الصلاة و السلام، و نفر من قبيلة جرهم، و ما دام باطن الكعبة ترابا و جدرانها من حجارة الصخور، فلا لزوم لعمل سقف لها و لا لعمل باب يغلق عليها، كما لا لزوم لعمل مدخلين فيها للدخول و للخروج لقلّة السكان بمكة.

و أما جعله حجر إسماعيل مدورا كما هو الآن فليتناسب شكله شكل جدار الكعبة المقابل للحجر الذي كان مدورا أيضا و لينتهي إليه حدود البيت. و أما جعله من شجر الأراك من غير أن يجعله مبنيا بالرضم فليعلم أنه تابع للبيت و من حدوده من غير أن يدخل في ذات بنائه.

و لم يكس البيت لأنه لم يؤمر بذلك، ثم لم تكن مكة عامرة بالناس إنما بها نفر من جرهم و ما كانوا يعرفون صناعة النسيج في ذلك الزمن حتى يخطوا له ثوبا.

و على كل حال فالأنبياء عليهم الصلاة و السلام لا يعملون شيئا مما له مساس في الدين إلا بأمر الله تعالى. هذا ما ظهر لنا و الله أعلم بالغيب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢١٣

و أما قريش فقد بنت الكعبة قبل بعثته رسول الله صلى الله عليه و سلم بخمس سنين على الأشهر، أى سنة خمس و ثلاثين من ولادته عليه الصلاة و السلام.

و لقد اشترك رسول الله صلى الله عليه و سلم مع قريش فى بناء بيت الله المعظم فكان يحمل الحجاره على كتفه و لما وصل البناء إلى محل الحجر الأسود اختلفوا فيما بينهم على من يضعه فى مكانه ثم اتفقوا على أن يضعه النبى الأمى الأمين فوضعه صلى الله عليه و سلم بيده الشريفة و أحكم محله كما هو مفصل فى كتب السير، ثم إن قريشا نقصوا من عرض الكعبة من جهه الحجر ستة أذرع و شبرا لقله النفقة الحلال التى جمعوها لعمارتها و أداروا على الحجر جدارا قصيرا يطوف الناس من ورائه، و جعلوا بابها مرتفعا عن الأرض و كبسوه بالحجاره حتى لا تدخل السيول فيها و حتى يدخلوا فيها من شاءوا و يمنعوا من أرادوا، و جعلوا الباب مصراعا واحدا و أبقوا فيها جب الكعبة: أى خزانتها التى يلقى فيها ما يهدى إليها، و جعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفين فى كل صف ثلاث دعائم، و جعلوا لها سقفا و ميزابا من الجهه الشماليه مصبه على حجر إسماعيل عليه السلام، و كانت قبل ذلك بلا سقف و جعلوا ارتفاعها من الأرض إلى السماء ثمانية عشر ذراعا، و جعلوا لها ركنين و لم يجعلوا لها أركانا من جهه الحجر بل جعلوها مدوره على صفة بناء إبراهيم عليه السلام، و كان الناس كذلك يبنون بيوتهم مدوره تعظيما للكعبة، فأول من بنى بيتا مربعا حميد بن زهير فقالت قريش: ربيع حميد بيتا إما حياة و إما موتا، و بعد أن تم بناؤها كسوها كسوه معتبره.

و لقد كان أول من جعل للكعبة سقفا بعد إبراهيم عليه السلام، قصى بن كلاب فإنه سقفها بخشب الدوم الجيد و جريد النخل حين بناها، ثم صارت بعده بلا سقف إلى أن بنتها قريش فسقفتها بخشب الدوم و جريد النخل أيضا، و قصى بن كلاب هو الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم.

و كان سبب بناء قريش للكعبة أن امرأة منهم أجمرت الكعبة، أى بخرتها، و المجرمة المبخرة، فطارت شراره من مجمرتها فى كسوتها فاحترقت و تصدعت و توهنت جدرانها من كل جانب، و كانت الكعبة قبل بناء قريش مبنية برضم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢١٤

يابس ليس بمدر تدلى الكسوه على الجدر من خارج و تربط من أعلى الجدر من باطنها فبنتها قريش بالطين و الذى بناها لهم اسمه «باقوم الرومى».

كيفية بناء ابن الزبير

أما عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما فإنه بعد أن استخار الله تعالى ثلاثة أيام هدم الكعبة كلها حتى ألصقها و سواها بالأرض و كشف عن أساس إبراهيم عليه السلام فوجده داخلا فى حجر إسماعيل نحو من ستة أذرع و شبر فبناها على أساسه و على ذرعه لدليل استند عليه و هو الحديث الذى سمعه من خالته عائشه رضى الله عنها، و هو جاء فى صحيح مسلم فى كتاب الحج فى باب نقض الكعبة و بنائها عن سعيد بن ميناء قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول: حدثتني خالتي - يعنى عائشه - قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يا عائشه لو لا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض و جعلت لها بايين، بابا شرقيا و بابا غربيا، و زدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة. فلما بناها ابن الزبير زاد فى طولها إلى السماء حتى صار سبعا و عشرين ذراعا ليتناسب مع عرضها، و جعل لها بايين لاصقين بالأرض من جهتي الشرق و الغرب أحدهما يدخل منه و الآخر يخرج منه، و جعل طول كل منهما أحد عشر ذراعا و جعل لكل منهما مصراعين، و جعل للكعبة أربعة أركان و قد كان لها ركنان فقط الركن الأسود و الركن اليماني، فكانت أركانها الأربعة تستلم فى زمانه حتى قتل رضى الله تعالى عنه، و جعل لها درجة فى بطنها فى الركن الشامى من خشب معرجه يصعد فيها إلى ظهرها و حلاها بالذهب، و جعل فى سطحها ميزابا يسكب فى الحجر، قيل إن ابن الزبير بنى الكعبة بالقصه، بفتح القاف، أى الجص أتى بها من صنعاء، و قيل إنه بناها بالرصاص المذاب المخلوط بالورس: و هو نبت أصفر يزرع

باليمن و يصنع به.

(فإن قيل): لم كانت أركان الكعبة الأربعة تستلم في زمانه، و لم تكن تستلم قبل ذلك و لا بعد وفاته؟

(فتقول و الله تعالى أعلم): لما كان بناء قريش لم يتم على قواعد إبراهيم عليه السلام حيث نقصوا من عرض الكعبة من جهة الحجر نحو ستة أذرع لم يستلم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢١٥

رسول الله صلى الله عليه و سلم الركنين اللذين من جهة الحجر فلم يستلمها أحد من الصحابة اقتداء به صلى الله عليه و سلم.

فلما بنى عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما الكعبة على أساس إبراهيم صلوات الله و سلامه عليه رأى باجتهاده و اجتهاد بعض كبار الصحابة الموجودين في زمانه أن يستلموا جميع أركان الكعبة ما دامت أقيمت على قواعد إبراهيم كما كان يتمنى النبي صلى الله عليه و سلم بناءها على قواعد.

فلما قتل ابن الزبير رضى الله عنهما و هدم الحجاج ما زاده ابن الزبير من الكعبة فبناها على أساس قريش ترك الناس استلام أركانها الأربعة و لانزموا استلام الركنين فقط الأسود و اليماني كما كان ذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لا يزال الناس كذلك إلى أن تقوم الساعة.

هذا ما فهمناه مما ورد في صحيح البخارى في كتاب بدء الخلق بعد قصة مجيء إبراهيم عليه السلام بهاجر و إسماعيل إلى مكة و بنائه

للبيت الحرام. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ٢-٣؛ ص ٢١٥

د جاء فيه أن ابن أبي بكر أخبر عبد الله بن عمر عن عائشة رضى الله عنهم زوج النبي صلى الله عليه و سلم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: ألم ترى أن قومك بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟ فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال: لو لا حدثان قومك بالكفر، فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه و سلم ما أرى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا- أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم. اه. فمن قول ابن عمر رضى الله عنهما استتجنا ما ذكر و الله تعالى أعلم. و هذا الحديث في صحيح مسلم أيضا في كتاب الحج.

هذا فلما فرغ عبد الله بن الزبير من بناء الكعبة خلق جوفها بالعنبر و المسك و لطح جدارها بالمسك من الخارج من أعلاها إلى أسفلها و سترها بالديباج و قيل بالقباطى، و هى ثياب من كتان تعمل بمصر و كان ذلك اليوم يوما مشهودا لم ير يوم كان أكثر عتقا و لا أكثر بدنة منحورة و لا شاء مذبوحة من ذلك اليوم، و خرج ابن الزبير ماشيا حافيا و خرج معه كثير من قريش مشاة حتى وصلوا إلى مسجد عائشة بالتعميم فأحرموا بالعمرة شكرا لله تعالى على ما وفقهم لبناء بيته الحرام على الصفة التى بناها إبراهيم عليه الصلاة و السلام.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢١٦

و سبب بناء ابن الزبير الكعبة أن رجلا- في أيام الحصار أوقد نارا في بعض الخيام المضروبة في المسجد الحرام فطارت شرارة في الخيمة فمشى الحريق حتى أخذ في كسوة الكعبة فاحترقت و احترق الركن الأسود أيضا و ذلك سنة أربع و ستين هجرية.

كيفية بناء الحجاج الثقفى

إشارة

أما الحجاج بن يوسف الثقفى فإنه بعد محاصرة ابن الزبير و قتله كتب إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها و أحدث فيها بابا آخر و استأذنه في رد ذلك على ما كان عليه في الجاهلية فكتب إليه عبد الملك أن يسد

بابها الغربى و يهدم ما زاد فيها ابن الزبير من الحجر و يكبسها على ما كانت عليه، ففعل الحجاج ذلك و هدم من الكعبة ستة أذرع و شبرا مما يلي الحجر فقط و بناها على أساس قريش و ترك سائرهما لم يحرك منها شيئا و بذلك اتسع الحجر و جعل لها أربعة أركان على هيئة بناء ابن الزبير و سد الباب الغربى الذى فى ظهرها و نقص من طول الباب أربعة أذرع و شبرا فصار طوله ستة أذرع و شبرا، و رفع الباب الشرقى عن الأرض و ذلك سنة أربع و سبعين هجرية.

و لا- تظن أن الحجاج حسد ابن الزبير على بنائه الكعبة أو أراد محو آثار بنائه لأنه وقف فى وجهه و حاربه كلا، فإن امتداد الأيدى بالتلاعب ببيت الله تعالى لن يكون من أحد من المسلمين لغرض نفسانى و معاندة لخصم، و إنما إخباره عن بناء ابن الزبير رضى الله عنهما للكعبة لأمر المؤمنين عبد الملك بن مروان واجب لأنه نائبه فى الحجاز فلا بد أن يخبره بكل ما حدث من الأمور، و يدل على ما ذكر ما جاء فى صحيح مسلم فى كتاب الحج فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك و يخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبد الملك أنا لسنا من تلطخ ابن الزبير فى شىء الخ .. فهذه الجملة من الحجاج تدل على حكمه بصواب بناء ابن الزبير الكعبة لكن عبد الملك بن مروان لم يرض بذلك.

فكل شىء فيها من بناء ابن الزبير رضى الله عنه إلا الجدار الذى فى الحجر فإنه من بناء الحجاج و كذلك ما تحت عتبة الباب الشرقى إلى الأرض و الدرج الموصلة لسقف الكعبة من داخلها و البابين اللذان عليها هما أيضا من بناء و عمل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢١٧

الحجاج، و لقد بقيت الكعبة على عمارة الحجاج إلى زمن السلطان مراد كما سيأتى.

و كان حجر إسماعيل فى بناء إبراهيم عليهما السلام، و فى بناء ابن الزبير صغيرا و مقداره فيهما واحدا أما فى بناء قريش و فى بناء الحجاج فكان واسعا و مقداره فيهما واحدا بالصفة التى هو عليها اليوم، لأن الحجاج بنى الكعبة بالصفة التى بنتها قريش و هى كانت نقصت من الكعبة من جهة الحجر ستة أذرع و شبرا و بذلك اتسع الحجر.

سبب بناء الحجاج الكعبة

يظن بعضهم أن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لم يأمر الحجاج بهدم ما زاده ابن الزبير فى الكعبة إلا للخصومة التى كانت بينهما، و لكن هذا الظن ليس فى محله، و يبعد على جميع المسلمين و بالأخص أهل القرن الأول الذين هم خير القرون أن تمتد أيديهم إلى بيت الله الحرام بالهدم و البناء اتباعا لهوى النفس و نكالا- بالخصم، بل إنهم لا يجروون على بنائه و تعميره إلا فى حالة الاضطرار و النهاية القصوى و بعد الاستشارة و استفتاء العلماء.

و حقيقة الأمر: أن عبد الملك بن مروان ما أمر الحجاج بذلك إلا ظنا منه أن ابن الزبير لما احترقت الكعبة فى أيام حصاره هدمها و بناها على حسب رغبته و اجتهاده و يدل على ذلك ما ذكره الإمام الأزرقى فى تاريخه فإنه قال: فلما فرغ الحجاج من هذا كله، أى بناء الكعبة و قد بعد ذلك الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك: ما أظن أبا خبيب، يعنى ابن الزبير سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها فى أمر الكعبة، فقال الحارث: أنا سمعته من عائشة، قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: سمعتها تقول:

قال لى رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن قومك استقصروا فى بناء البيت و لو لا حدثه عهد قومك بالكفر أعدت فيه ما تركوا منه فإن بدا لقومك أن بينوه فهلمى لأريك ما تركوا منه، فأراها قريبا من سبعة أذرع، و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: و جعلت لها بابين موضوعين على الأرض: بابا شرقيا يدخل الناس منه و بابا غربيا يخرج الناس منه» قال عبد الملك بن مروان: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢١٨

سمعت هذا منها. قال: فجعل ينكت منكسا بقضيب في يده ساعة طويلة ثم قال: وددت و الله أنى تركت ابن الزبير و ما تحمل من ذلك. انتهى من الأزرقى.

فهذا دليل واضح أن عبد الملك ما كان يعلم أن ابن الزبير بنى الكعبة بموجب الحديث الذى سمعه من خالته عائشة رضى الله عنها، فلما ثبت ذلك عنده و تحقق لديه ندم على فعله، فإذا تأملت فى الحديث المذكور لمع لك بارق المعجزة النبوية، ففى قوله صلى الله عليه و سلم لعائشة: «فإن بدا لقومك أن بينوه فهلمى لأريك الخ...» معجزة باهرة على أن الكعبة ستبنى بعد وفاته، و فى إخباره لها بذلك بالأخص إشارة إلى أن بناءها يكون فى حياتها و أن الذى سينبئها هو من أقاربها فإن عبد الله بن الزبير هو ابن أختها أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه و قد تحقق كل ذلك، و كلتا الإشارتين تحققتا بعد موته صلى الله عليه و سلم بثلاث و خمسين سنة.

كيفية عمارة السلطان مراد الرابع

أما عمارة السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد من سلاطين آل عثمان، فسببها أنه فى الساعة الثانية العربية من صباح يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان عام ألف و تسع و ثلاثين نزل مطر عظيم بمكة المكرمة و ضواحيها لم يسبق له نظير، فدخل السيل المسجد الحرام و وصل إلى ارتفاع مترين عن قفل باب الكعبة، و فى عصر اليوم التالى أى يوم الخميس سقط الجدار الشامى من الكعبة بوجهيه و انجذب معه من الجدار الشرقى إلى حد الباب الشامى و لم يبق سواه و عليه قوام الباب، و من الجدار الغربى من الوجهين نحو السدس و من هذا الوجه الظاهر فقط منه نحو الثلثين و بعض السقف و هو الموالى للجدار الشامى.

و يقول محبنا و جارنا المؤرخ الثقة الشيخ عبد الله الغازى الهندى المكى رحمه الله تعالى فى تاريخه: و هذا الذى سقط من الجانب الشامى هو الذى بناه الحجاج الثقفى و سقطت أيضا درجة السطح. اه كلامه، فقولته هذا صحيح مطابق للحقيقة.

ثم أمر السلطان مراد رحمه الله تعالى ببناء الكعبة المشرفة فتم بناؤها فى شهر رمضان سنة أربعين و ألف على صفة بناء الحجاج رحمه الله تعالى، فعمارة السلطان مراد للكعبة هى العمارة الأخيرة إلى يومنا هذا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢١٩

و اعلم أن بين بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة و بين بناء قريش (٢٦٤٥) ألقى سنة و ستمائة و خمسا و أربعين سنة، كما نقله البخارى فى تاريخه عن الحلبي.

أما بين بناء قريش و بين بناء ابن الزبير، فاثنتان و ثمانون سنة، و بين بناء ابن الزبير و عمارة الحجاج الثقفى عشر سنين، و بين عمارة الحجاج و عمارة السلطان مراد تسعمائة و ست و ستون سنة.

و من أراد الوقوف على تفاصيل عمارات الكعبة كلها فليراجع كتب التاريخ، فإننا لم نذكر هذه الخلاصات لبعض العمارات إلا للمناسبة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين (و بعد) فيقول محمد طاهر بن عبد القادر بن محمود الكردى المكى الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة و واضع التفسير المكى غفر الله تعالى له و لوالديه و للمسلمين كافة، أنه لما كانت الأنفس المهذبة تميل عادة إلى الشعر، و تستحلى سماع القريض و إنشاده خصوصا ما كان منه سهلا مستملحا فقد عملنا منظومة لطيفة فى صفة أشهر البنايات للكعبة المعظمة، و أشهرها خمسة و هى:

١- بناية خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و السلام.

٢- بناية قريش.

٣- بناية عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما.

٤- بناءة الحجاج بن يوسف الثقفى .

٥- بناءة السلطان مراد خان الرابع من سلاطين آل عثمان .

ثم أضفنا إليها ما وقع فى زماننا هذا من تجديد سقفى الكعبة المعظمة «الأعلى و الأدنى» و ترميمها من الداخل و الخارج، و كان ابتداء العمل فى بيت الله الحرام فى اليوم الثامن عشر من شهر رجب سنة (١٣٧٧) ه ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، و ذلك تنفيذاً لأمر حضرة صاحب الجلالة ملكنا المعظم، الملك سعود بن عبد العزيز الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية وفقه الله تعالى و أعزه، حيث بلغه حصول تصدع فى سقفى الكعبة المشرفة و خلل فى أعواد السقفين، فأمر بتشكيل هيئة علمية مضافاً إليها بعض المهندسين المعماريين، و بعد رفع القرار منهم لجلالته بضرورة المبادرة للإصلاح و آرائهم فى طريقة العمل .

أمر جلالتة حفظه الله تعالى وزير الدولة الشيخ محمد عوض بن لادن بتنفيذ القرار المشار إليه بجد و إخلاص، فباشرنا هذا العمل المبرور بهمة و نشاط ليلاً و نهاراً، و قد كان الناس من أهل مكة و غيرهم من المقيمين بها يبادرون فى خدمة بيت الله الحرام بنقل الحجارة و رفع التراب و الأخشاب، بإخلاص عظيم و فرح كبير، مسبحين و مهللين و مكبرين فى غدوهم و رواحهم .

و لقد تشرف صاحب هذه المنظومة محمد طاهر الكردى الخطاط و ولده عبد الرحمن الكردى بالخدمة و البناء قليلاً فى الكعبة المطهرة، و بالوقوف على العمل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢١

فيها يوماً فيوما حتى انتهاء العمارة، كما فصلنا بيان كل ذلك فى كتابنا «التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم» الذى سنطبعه قريباً إن شاء الله تعالى .

و كان انتهاء العمل فى الكعبة المشرفة تماماً فى اليوم الثامن و العشرين من شهر شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية. و بمناسبة الانتهاء من عمارة سقفى الكعبة المشرفة، ما عدا بعض الأعمال الخفيفة، دعا ملكنا «سعود» حفظه الله تعالى، سفراء و وزراء الدول العربية و الإسلامية لحضور الاحتفال بانتهاء العمل فى الكعبة المعظمة .

و فى صباح يوم الأحد الثانى عشر من شعبان من السنة المذكورة حضر إلى المسجد الحرام ملكنا المعظم «سعود» و بصحبته جمع كبير من العلماء و الأمراء و الوزراء و السفراء و كثير من أهل مكة و غيرهم، فدخلوا الكعبة المعظمة وصلوا فيها و كل واحد دعا ربه بما أراد و أحب، و قد عطر ملكنا، حفظه الله تعالى، و الحاضرون جدران الكعبة بالعطر الأصلى الغالى، ثم ألقى ملكنا أدام الله توفيقه خطبة قصيرة من جوف الكعبة حمد الله و أثنى عليه على ما وفقه لعمارة بيته الحرام، و قد تشرف صاحب هذه المنظومة و مؤلفها بتعطير جدار الكعبة، شرفها الله تعالى، و كان يقرأ فى جوف الكعبة مده و جود الناس بها فى هذا اليوم فى ميكروفون الإذاعة بعض الآيات القرآنية المناسبة للمقام مع التسييح و التهليل و التكبير. و الحمد لله رب العالمين .

و يظن بعض الناس أنه حصل فى جدران الكعبة المشرفة تصدع و تشقق و خلل، كلاً إن جدران الكعبة مبنية بالحجارة القوية الصماء المأخوذة من جبال مكة المشرفة، قد يبلغ طول بعض حجارتها متراً واحداً مع العرض المناسب، و بعضها أقل من المتر، كما بينا ذلك فى تاريخنا المذكور، بل لقد بينا عدد ما يوجد فى بناء جدران الكعبة من الحجارات من الجهات الأربعة. إن بناء جدران الكعبة المعظمة قوية متينة إلى أقصى حد، إن بناها سيبقى و يدوم، إن شاء الله تعالى، إلى ألف سنة. و هذا البناء الحالى الموجود اليوم هو بناء السلطان مراد خان الرابع أحد سلاطين آل عثمان الأتراك، رحمه الله تعالى و أجزل أجره و ثوابه، بناها فى سنة (١٠٤٠) ألف و أربعين هجرية حينما سقطت الكعبة بسبب السيل العظيم الذى دخل المسجد الحرام، كما بينا كل ذلك بالتفصيل التام فى تاريخنا المذكور .

إن بناءة الكعبة الحالية لا يؤثر فيها ضرب المدافع .

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢٢

نسأل الله تعالى أن يتقبل من جلالة ملكنا المعظم هذا العمل الجليل و أن يعمر قلبه بالإيمان و التقوى، كما نسأله عز شأنه أن يجعل هذا العمل المبرور فاتحة خير و يمن و أمن و رخاء علينا و على كافة البلاد الإسلامية بفضلله و رحمته آمين.

و نسأله و هو أكرم مسؤول أن لا- يشقينا بعد أن أسعدنا بخدمة بيته المطهر، و أن يجعلنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا، بفضلله و عظيم رحمته آمين، و صلى الله على سيدنا محمد أبي القاسم الأمين و على آله و صحبه أجمعين.

في ١٨ شعبان سنة ١٣٨٦ هـ.

أول كانون الأول سنة ١٩٦٦ م

المؤلف محمد طاهر الكردي المكي الخطاط بوزارة المعارف و عضو اللجنة التنفيذية لعمارة الكعبة و توسعة المسجد الحرام بمكة المكرمة

منظومة في صفة أشهر بنايات الكعبة

بسم الله الرحمن الرحيم
 الحمد لله الذي هدانا لهذا لو كنا
 نشكره شكر الذليل المفتقر إلى العزيز و الغني المقتدر
 سبحانه جل تعالى الله من التجا إليه لا ينساه
 ثم صلاته مع السلام على النبي و آله الكرام
 (و بعد) هذى نبذة لطيفه و طرفه بديعة ظريفه
 في صفة البنا لبيت الله تعظيمه فرض بلا تناهى
 كنا طبعنا هذه المنظومة ثم أعدنا طبعها منظومه
 من بعد أن زدنا عليها نظما ببعض أبيات تزيد الفهما
 و قد جعلنا حجمها صغير الكن حوت من أمرها كثيرا
 و ما رأينا في بناء الكعبة منظومة تكون كالقلادة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢٣ فنحمد الله على التوفيق فقد أرانا مسلك الطريق

إيماننا أقوى من الصخر الأصم يعجز عن تعبيره جرى القلم
 فالقلب عامر بذكر الله و الفكر سابح بآي الله
 تحدثا بنعمة الله لنا لقد ذكرنا ما تراه علنا
 و نستعيد الله من شر الحسد و غمز ناقد و نافث العقد
 نسأله زيادة التوفيق حتى نجوز كامل الطريق
 أعنى الصراط المستقيم إذ ورد في أول القرآن نعم ما ورد
 فمن هداه الله للصراط كان سعيدا وافر النشاط
 ما أحسن الإيمان و التوفيقا و العلم و اليقين و التحقيق
 فالعالم العامل مجلى الظلم و العلم نور من أجلّ النعم

و أن نكون في نشاط مستمر لطاعة الله العزيز المقتردر
و قوة خارقة للعادة حتى تؤدي واجب العباده
عساه أن يقبلنا بفضلته و أن يثيبنا بجوده بذله
فإنه رب عظيم الشأن كثير عفوه واسع الإحسان
فكيف لا نحسن ظننا به و الله عند ظن عبده به
و هل لنا رب سواه نلجأ إليه - كالا - إليه نلجأ
سبحان من أطعم عبده و لا يطعمه العبد، فجل و علا
فهو الذي أنفق ما أنفقه مذ خلق الكون، فما أخلقه
ما نقص الإنفاق شيئا منه و الخير و الرزق جميعا منه
هل يعقل النقص لمن يقول للشيء «كن» فجل من يقول
سبحانه المهيمن الرزاق الملك العظيم و الخلاق
فالحمد لله الذي هدانا لدينه الحق، فقد أنجانا
من ظلمات الجهل و الضلال و زادنا في العلم و النوال

*** أسماء من بنى الكعبة

لقد بنى بيت الإله الأكرم عشر و واحد مضوا من قدم
ملائك الرحمن، ثم آدم ثم ابنه شيث، كما قد يعلم
ثم خليل الله إبراهيم صلواتنا عليه و التسليم
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢٤ كذا العماليق، و أيضا جرهم ثم قصي، فقريش، يفهم
و ابن الزبير، و كذا الحجاج و في مراد الرابع، انبلاج
لم بين بيت الله غير من ذكر أسماءهم معروفة لم تستر
هذا الذي روى لنا التاريخ و نحن نروى ما روى التاريخ
و العلم عند الله سبحانه الذي نعم النصير و هو خير منقذ

لقد ذكرنا نحن في تاريخنا بيان وصف ما بنوه من بنا
مفصلا بناء كل منهم فانظره فيه فهو حقا مغنم
لأنه «تاريخنا قويم» محرر منقح فخيم
لكن هنا اقتصرنا الوصف الخمسة من البناء قطفا
لأنها شهيرة في الكتب فائقة الوصف بغير حجب
ثم أضفنا حادث التجديد لسقف بيت ربنا الحميد
في عصرنا هذا و شاهدناه و قد خدمناه، تعالى الله
فخذ إليك وصف ما ذكرنا من البناءات لتروى عنا

صفة بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الكعبة

قد أمر الله الخليل بالسفر من زوجته «سارة» دفعا للضرر
 سافر إبراهيم بإسماعيل وأمه «هاجر» كن نبيلاً
 أتى إلى مكة من بلاده وذا قضاء الله في مراده
 على البراق ركبوا يدلهم جبريل للطريق إذ يؤمهم
 وضعهم مكان بيت الله ممثلاً دوماً لأمر الله
 يقول ربي إنني أسكنت ذريتي وههنا وضعت
 فالطف بهم و أجمعهم بالناس لتذهب الوحشة باستئناس
 و ارزقهم من ثمرات الروض ليشكروا رب السما والأرض
 و بعد ذا عاد إلى بلاده يرشده الله إلى سداه
 لم يكتشف قبل خليل الله مكة فافهم يا رفيع الجاه

ترك هاجر و إسماعيل بمكة قاما بها نزيلاً
 و كان عندهم جراب تمر و قربة الماء بهذا القفر
 و ليس في مكة أنس و بشر في ذلك العصر و لا فيها أثر
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢٥ لماء أو بناء أو حيوان و ذاك تقدير من الرحمن
 إلا عضاء الشوك في واديهاتسقى من الأمطار في ناديه
 و الشوك و السعدان فيها يكثر ليومنا هذا بها منتشر
 و حيث أن الماء منها قد نفذ و عطش إسماعيل حتى ما رقد
 و وصلت حالته للموت و أمه قد حكمت بالفوت
 فقد سعت بين الصفا و المروه لسبع مرات، لها من حكمه
 عسى ترى شخصاً لديه الماء أو مطراً يأتي به السماء
 فسمعت صوتاً فقالت أسمع صوتك فأدركني عسك تنفع
 فجاء جبريل لها و ضرباً برجله الأرض لكيما تشربا
 فنبتت زمزم فوق التراب ثم أحاطتها بجمع التراب
 خوف انسياب الماء فوق الأرض فوقف مكانها «كالحوض»
 لو أنها قد تركتها تجرى كانت معينا كالعيون تجرى
 كما أتى ذلك في الحديث من قول خير الرسل المبعوث
 فشربت مع ابنها و رويت و شكرت خالقها و قويت
 و بعث الله إليها نفران جرهم كيما يقيموا زمرا
 نشأ إسماعيل فيما بينهم يخرج للصيد دواماً معهم
 ثم تزوج لديهم فافهم برعلة بنت مضاض الجرهمي
 جاءته باثني عشر ابناً و هم تناسلوا و كثروا و حكموا

فعمرت مكة من ذاك الزمن و أصبحت «أم القرى» نعم الوطن
صارت شهيرة لدى الأجناس يؤمها للحج كل الناس
فيها من الخيرات و الأرزاق و النعم العظمى من الرزاق
و كل ذا من دعوة الخليل كما هو الصريح فى التنزيل

ثم أتى إبراهيم للزيارة عدة مرات فخذ أخباره
كيما يرى ولده الحبيبان النجيب ينجب النجيبا
ثم أتى إليه أمر الله أن يبنى الكعبة بيت الله
قد بوأ الله له مكانه فقر عيننا إذ رأى إحسانه
فقام بينى بيته الحراماتم دعا لحجه الأناما
ساعده فى ذاك إسماعيل و هو النبى الصادق النبيل
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢٦ و الحجر الأسود فيه وضعافى ركنه المعروف خيرا صنعا

حتى إذا طال به الجدران و ما أتم حده البنيان
قام على المقام و هو ارتفعابه، فأكمل البناء و أبدعا
و رسخت قدمه على الحجر ليومنا هذا يرى فيه الأثر
و كل ذا معجزة الخليل مكرمه من ربنا الجليل
لم يبن بالطين و لا بالجص و إنما بالرضم جافى القص

و بعد أن تم له البناء و قد بدا للكعبة البهاء
و النور و الطهر مع الجلال طافوا به كأمر ذى الجلال
أذن فى الناس أذان الحج فالمسلمون بادروا للحج
ليشهدوا منافعا و ليوفوا نذورهم و حوله يطوفوا
و من يعظم حرمت الله فإن ذاك من تقى الإله
و إن جبريل الأمين ذهب مع الخليل إبراهيم المجتبى
إلى المشاعر العظام كى يرى مناسك الحج فيتبعه الورى
و فى البخارى جاء بالتفصيل بناء بيت ربنا الجليل
تراه فى كتاب بدء الخلق فانظره و اتبع طريق الحق
بناه حسب ما بناه آدم فكم به طافت قديما أمم
بناه بالرضم بغير طين و قد أتى تعظيمه فى الدين
حفر فى باطنه خزانة لكل ما يهدى له صيانه
و جعل الحجر إلى جانبه مدورا كما هو الآن به
و جعل الباب بلصق الأرض و قاسه بالطول ثم العرض
و ما له سقف و لا ميزاب و لا له باب و لا بواب

واعلم بأن الله جل شأنه أكرم بيته و أعلا شأنه من سالف العصور و الأزمان حتى تقوم ساعة الزمان أحاطه بأروع الأسرار و حفه بالعز و الإكبار و خصه بهيبة و عظمه ما للملوك مثله من عظمه و جاء في الحديث ما معناه ينزل الله تعالى الله لبيته المحفوف بالكرامة في كل يوم بل و كل ليله التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢٧ عشرين رحمة مضافا لمائه ينالها قوم هم خير فئه منقسم للطائفتين نصفهاو للمصلين يخص ثلثها و الناظرون البيت يأخذوناعشرين و هو سدسها يقينا فكيف و هو قبلة الأنام و مركز الإيمان و الإسلام فبيت ربي قائم العماد إليه ترنوا أعين العباد *** انظر: صورة رقم ٧٩، باب غرفة بئر زمزم و صورة رقم ٨٠، الحجر الأسود حينما قلعنا عنه الطوق الفضى القديم و صورة رقم ٨١، المؤلف يريد تقبيل الحجر الأسود و صورة رقم ٨٢، مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام

صفه بناء قريش الكعبة قبل بعثة النبي صلى الله عليه و سلم بخمس سنين

و قبل بعثة النبي قد بنت قريش الكعبة حين و هنت فجمعوا من أطيب الأموال حتى يقيموها من الحلال و جنبوها كل مال خبثا من شبهة أو غيرها ملوثا فلا ربا فيه و لا ما جمعامن ميسر أو مهر بغى و ضعا فانظر إلى فعل قريش و هي في جهالة ففضلهم لا يختفى و بعد جمعهم لمال طيب من خير كسب و حلال طيب قاموا إلى بنائها و شمروا عن ساعد الجد بخير ظفروا فنقصوا من الأساس الأول جدارها الشامي بغير جدل فاتسع الحجر بذاك النقص و كان قبل ضيقا كالخرص و جعلوا ارتفاعها إلى السماو رفعوه ضعف ما تقدا و عملوا أيضا لها ركنين كسابق العهد بغير مين و قد أداروا حائطا بالحجر مدورا مكلا بالطهر و سقّفوها خشبا ملائما و وضعوا داخلها دعائما ست دعائم على صفيين مذكورة حقا بدون مين و عملوا الدرج من داخلها ليصعد الناس بها لسطحها

و ركبوا الميزاب فوق السطح مصبه في الحجر خوف النضح
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢٨ و رفعوا الباب عن الأرض كما تراه في زماننا معلما
 و كان مصراعا بدون شك فافهم و قاك الله عيش الضنك
 ثم كسوها كسوة جميلة لاثقة فازوا بذى الفضيله
 و حضر البناء سيد البشر مستسهلا في كتفه حمل الحجر
 فرفع الركن إلى محله بيده و قد رضوا بحله
 صلى عليه ربنا و سلما ما دامت الأرض و ما دام السما
 و فى البخارى و مسلم ورد بنا قريش فاحفظن ما ورد
 *** صفة بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما الكعبة
 و ابن الزبير بعدهم بناها حين و هت و ضعفت قواها
 على أساس ما بنى الخليل حيث له قد ثبت الدليل
 فى عام أربع و ستين بنى و شكر الله على هذا البنا
 و ستر الكعبة بالأخشاب عند البنا فجاء بالصواب
 فزادها طولا إلى السماء سبعا و عشرين بلا امتراء
 و جعل الأركان فيها أربعة كانت إلى مماته مستلمه
 و وضع الميزاب فوق سطحها موضعها الأول من مصبها
 يصعد فوق سطحها بالدرجة عملها من خشب معرجه
 و جعل البابين مصراعين كليهما بالأرض لاصقين

فبابها الشرقى للدخول و بابها الغربى للأفول
 و أنه جعل فى باطنها أعمدة ثلاثة تحملنها
 فلا تزال هذه داخلها ليومنا هذا على محلها
 عطرها بعنبر و مسك داخلها و خارجا بالمسك
 ثم كساها كسوة معتبرة لاثقة بالكعبة المطهره
 و هللوا و كبروا تكبيراً و أعتقوا و نحروا كثيرا
 و خرجوا لمسجد التنعيم لعمرة تكملته النعيم
 هذا البنا ثم بناء الثقفى قد وردا فى (مسلم) فاستكشف
 ففى «كتاب الحج» جا وصفهما و جاء فى التاريخ أيضا فافهما

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢٩

صفة بناء الحاج بن يوسف الثقفى الكعبة

ثم بناها الثقفى الحاج بينهما قد وقع اللجاج

بأمر عبد الملك المروان فقام بينها بلا توان
فهدم الجدار صوب الحجر ثم بناها كقريش فادر
فاتسع الحجر كما قد كانوا وسع الناس به مكانا
و سد بابها الذى فى ظهرها و رفع الباب الذى فى وجهها
أبقى لها الأركان لم يغير أربعة كانت و ما زالت ترى
و قد بنى فى بطنها ذاك الدرج بحجر و ليس فيه من حرج
بنيانه كان لعام أربع من بعد سبعين فأرخ و اسمع
ثم ابن مروان لهدمها ندم بعد دليل ابن الزبير أن علم

صفة بناء السلطان مراد خان الرابع الكعبة و هو البناء الحالى الموجود اليوم

و آخر البناء جاء بالوصف فى عام أربعين بعد الألف
بسبب السيل الذى قد دخلا للمسجد الحرام حتى وصلا
لقفل باب الكعبة المشرفة فوقعت منها الجدار متلفه
فقام بالتعمير سلطان الورى مراد بن أحمد فحررا
من آل عثمان الكرام النجبا فقد روى التاريخ عنهم عجا
و ستروها بستارة الخشب عن أعين الناس و ذا عين الأدب
حتى إذا ما تمت العماره قاموا برفع خشب الستاره
فكان ما بناه وفق ما بنى الثقفى الحجاج فاذا بالمنى
من غير ما زيادة أو نقص روى لنا التاريخ ذا بالنص
و منذ ذاك العصر حتى يومنا ما قد جرى شىء لبيت ربنا
إلا باصلاح و بالترميم يا فوز من عمر بالتكريم
أحاطه الله بثوب العظمة و قد حمى حدوده و حرمة
فهذه خلاصة مختصره جاء تك فى منظومه مسطره
تنبيك عن بناء بيت الله قره عين المؤمن الأواه
و من أراد أن يرى التفصيلا بنفسه و يحفظ المنقولا
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٣٠ فليقرأ التاريخ حتى ينظر ابعينه على الذى قد غبرا

و الحمد لله الذى وفقنا لوضع «تاريخ قويم» حسنا
تاريخ «مكة و بيت الله» محرر الضبط به نباهى
فلم يؤلف مثله تاريخ منقح فيا له تاريخ
فيه من الأبحاث و الأخبار ما فيه فاشكر نعمه الغفار
تحدثا نقول هذا بالنعم فالشكر لله يزيد فى النعم

فالبلد الأمين أعنى «مكة» أم القرى و قد يقال «بكة»
أجدر ما يخدم من بلاد لأنها شريفة التلاد
قد اعتنى بها كثير الناس من خلفا و من ملوك الناس
و كيف لا، و من أتاها أمانا من أقام مخلصا نال المنى
فبيت ربنا عظيم القدر و نوره سار كضوء البدر
قد وضع الله من الأسرار فيه فلا تخفى على الأبرار
أحاطه بالبر و الإجلال و كيف و هو بيت ذى الجلال
من جاءه و كان حقا مؤمنا بالله و الرسول كان آمنا
و الحسنات عنده بالضعف و الله يعطى من يشاء بالألف
فهو الكريم الواسع الإحسان ذو الطول و الفضل عظيم الشأن
لا يقنط المذنب من رحمته لا يكتفى الغنى من نعمته
سبحانه من خالق عظيم جل تعالى الله من حلیم
من سلم الأمر إليه سلما و من دعاه مخلصا ما ندما
*** انظر: صورة رقم ٨٣، الكعبة المشرفة و حولها ألوف المصلين

بيان ما وقع من العمارة فى الكعبة المشرفة فى عصرنا الحاضر و ذلك فى عام (١٣٧٧) من الهجرة

باسم الإله الخالق العظيم تبارك اسم ربنا الكريم
من استوى فى عرشه كما استوى من غير بحث لا و لا كيف استوى
ثم صلاة الله و السلام على الذى أرسله السلام
نبينا «محمد» ما ساء قطمن الذى عليه جبريل هبط
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٣١ و آله و صحبه الكرام ذوى التقى و قادة الأنام

(و بعد) هذا رجز منظوم موضح بيانه مفهوم
يبحث عن مسألة التجديد لسطح بيت ربنا المجيد
بيت عتيق طاهر الأركان بناه إبراهيم خير بان
صلى عليه الله ما دام البناء طاف طائف حوالى البناء
و حيثما كان البناء من البشر بالطين و النورة و الما و الحجر
لا بد أن يحدث فيه الخلل و الضعف فالاصلاح حتما أفضل
فلو أراد الله ذو الجلال لبيته المحفوف بالجلال
أن لا تمسه أيادى البشر و لا تضره سيول المطر
جعله من معدن تخين أو لؤلؤ أو جوهر ثمين
لكنما عادات دنيا لها قواعد تسير فى نظامها

فبيت ربي حف بالأسارو بالبيها و وافر الأنوار
 قد ابتناه أمم و عمروا و أصلحوا خرابه و اعتمروا
 عدة مرات كما تقدم ما يانها فاحفظه كيما تنمنا
 من ذاك ما وقع في زماننا تجديد سقف البيت حيث و هنا
 فاجتمع الناس مع العمال و سعدوا فوق السطوح العالى
 لبيت رب العزة العظيم الملك القدوس، الرحيم
 بعد صدور الأمر بالتعمير يوافر الأجره للأجير
 من المليك الصالح الكريم (سعود) ذى الخيرات و التفخيم
 فنفذ الأمر الكريم العالى «محمد بن لادن» المفضل
 فى صبح يوم الجمعة الثامن عشر من رجب الفرد و فى عام أغر
 سبع و سبعين و ثلثمائة و ألف عام عدها و أثبت
 فبعد وضعهم ستارة الخشب على جوانب البيت و ذاك فى رجب
 حالا أتى «الأمير فيصل» الذى ولى عهد للبلاد الجهد
 بدأ بالهدم قليلا فنزل و ترك الناس يتمون العمل
 فأهل مكة و أهل مصر و غيرهم فاعلم بدون حصر
 قاموا بكشف السقف و الأطراف مما يلى جدران اللطاف
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٣٢ و قلعوا حجارة الرخام و كشفوا الأخشاب بالتمام
 و اشتغلوا بهمة و عزم و نية صادقة و حزم
 و ذكرهم كلمة الشهادة بأدب فنعم هذى العاده

و بعد ذاك وضعوا الأعواد للسقف الأعلى راقبوا السداد
 تعداده إحدى و عشرون أتى عودان أيضا فى الجدار ثبنا
 تمتد بين الجدر الشرقى و بين جدر الكعبة الغربى
 ثم أتوا بخشب الألواح و فرشوا فوقها يا صاح
 و سمك كل لوحة من الخشب مقدار بوصتين يا أخوا العرب
 و فوق ذاك فرشوا المشمعا و فوقه قماش قلع وضعوا
 و فوق هذا القلع رمل مختلط بنورة محبوكة و منضبط
 و فوق هذا وضعوا الآجرا قوالبا قوالبا محصورا
 أتوا بطوبه من «العاقول» مما يلى مدينة «الرسول»
 و فوق الآجر أتوا بالطين مختلطا بالنورة الثخين
 و فوقه حجارة الرخام ناصعة البياض كالغمام
 و صب بينها الرصاص الذائب يبقى كما شاء الإله الغالب

و السقف الآخر أزالوا خشبه حيث رأوا قدمه و عطبه
 أعواده ثلاثة غلاظنذكرها ليفهم الحفاظ
 عودان منها صالحان للبقاؤ الثالث التالف إذ تشققا
 و ذا هو العود الذى فى الوسطفاعرف مكانه بدون غلط
 فأبدلوا هذا بعود صلب عود غليظ و قوى صعب
 تمتد هذى كامتداد الأولى بين الجدارين ترى موصولا
 و فوقها قد فرشوه بالخشب نظيفة مرصوفة جنبا لجنب
 و ليس فى خشب هذا السقف طين و لا طوب فهذا و صفى
 سببه وقوع ماء المطر للسقف الأعلى لا لهذا فأشكر
 و دهنوا السقفين بالقطران للحفظ من سوس و من ديدان
 ثم أعادوا دهنه بالبوية بيضاء مثل القطن أو كالشمعة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٣٣ فى يوم الاثنين لعشرين رجب وزده واحدا ترى فيه العجب
 اشتغل العمال بالتنقيب حبا لبيت ربنا الجليل
 فعملوا من الجهات الأربعة طائفة طائفة موزعه
 من خارج البيت من الجدران من سطحه للأرض خذ بيانى
 فنقبوا بين الحجار ما و هى من التراب و الحصا حتى استوى
 فملأوا الفراغ باللاقونه و الجص و الرمل كذاك النوره
 حتى أتموا سائر الجهات فرجعوا بوافر الهبات

ثم أتوا بعد صلاة الجمعة ثالث شعبان لجوف الكعبة
 قاموا يزيلون من الجدران الجص و النوره بالإحسان
 و أخرجوا كل الرخام الدائر بالجدران إذ لها كالساتر
 ثم أعادوه كما قد كانا ما غيروا لحجر مكانا
 لأن كل ما من البيت خرج يصبان حتما ليس فيه من حرج
 و الارتفاع للرخام فأدر ثلاث أمتار و نصف متر
 و بعدها إلى علو السقف منقل بنوره كالعرف
 تسع رخامات بها كتابه و الباقي موضوع بلا خلايه
 أما رخام نفس أرض البيت ما قلعه لاستواء السميت
 لكنهم قد وضعوا رخاما فوق رخام الأرض «استلهاما»
 و أصلحوا درجه إصلاحا كيما ينالوا الفوز و الفلاحا
 و اشتغلوا بالليل و النهار لسرعة الانجاز و العمار
 و دهنوا أخشاب هذا السقف ببوية الزيت اعتمد لوصفى
 و بعد الانتهاء أعادوا كسوته من داخل و خارج مثبتة

و قد أناروا داخلا بالكهربا والكهربا حديث عهد نصبا
 كيما يروا فى ضوئها و يعملوا بالجد و النشاط حيث اشتغلوا
 فبيت ربى ليس فيه منفذ للضوء غير الباب، نعم المنفذ
 و البيت زاهر البها و النور لذكر رب العزة الغفور
 و الحق أنه بنى بناينا تقبل الله لنا البناينا
 و كان يوم انتهاء الكعبة أمنن علينا ربنا بالتوبه
 ثامن و العشرين من شعبان لا تأسن من رحمة الرحمن
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٣٤ من بعد ألف و ثلاثمائة سبع و سبعين مضت للهجره
 و جاء للكعبة حتى ينظر املكنا و الأمرأ و الوزرا
 صلوا بها و حمدوا الوها باو قد دعوا ربهم التوبا
 و سبحوا و هللوا و كبروا فى جوفها و الجدران عطروا
 و خرجوا مستبشرين فرحاكل يهنئ أخاه مرحا
 فكان هذا أعظم الأعياد قد عمت الأفراح فى البلاد
 أقامت الحكومه السنيه للناس جمعا حفلة بهيه
 و أكرمت كل الذين اشتغلوا فى بيت رب البيت فيه عملوا
 و أجزلت عطاء كل السدنه حجاب بيت الله نعم السدنه
 تقبل الله الكبير المتعال بفضله العظيم خالص الفعال

(ختام المنظومه بالدعاء)

يا رب من أخلص للبلاد و خدمه العباد فى ذا الوادى
 وفقه و انصره و شد أزره و من نوى الشر احتمله وزره
 و كل من بغى و من تزدقا حوله عنا مغربا و مشرقا
 و انصر ملوك المسلمين كلهم و رؤساءهم و من واصلهم
 و اهلك طغاة المشركين الكفرة و من يريدهم فأهلك عسكره
 يا رب و ارفع رايه الإسلام على ربوع الأرض بالسلاام
 و انشر على بلادنا الأمانا و الخير و الرخاء و الإحسانا
 يا رب أنت المحسن العظيم و إنك الرحمن و الرحيم
 لقد دعوناك و أنت المرتجى فاقبل دعا الذى أتاك و ارتجا
 و لنختم المنظوم بالصلاة على نبينا الشريف الذات
 «محمد» من كان يرفع الحجر فى كتفيه حجرا بعد حجر
 عند بناء البيت فى زمانه كذا خليل الله فى أوانه
 عليهما الصلاة و السلام و الأنبياء و هم الكرام
 و آلهم و صحبهم جميعا و كل من تابعهم مطيعا

انظر: صورة رقم ٨٤، قطعة خطية كتبها مؤلف هذه المنظومة سنة ١٣٥٧ هـ

(ناظم هذه القصيدة)

(و بعد) هذا رجز منظوم مستملح مستظرف مفهوم
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٣٥ فى صفة البناء و التعمير لبيت رب العزة الكبير
و إنه نظم عظيم الشأن بلا مثيل ما له من ثان
نظمه طاهر الكردي لقبه الخطاط و المكي
كتبها بخطه الجميل حفظ من حاسده الثقليل
يا رب و اغفر لمحمد طاهرو لأبيه و هو عبد القادر
و اغفر لأمه و لبنيه و امنحه من فضلك ما يغنيه
و استره يا رب و وسع رزقه من غير طغيان و حقق عتقه
و افتح عليه فى العلوم و العمل حتى ترى عليه آثار العمل
و اجعله ممن قد أقام الشرع و قد أقام الصلوات جمعا
يا رب من برك لا يستغنى أفض على عبدك يا ذا المن
من كل خير باطنا و ظاهرا و اجعله فى الدارين حقا طاهرا
أعماله من الهوى مجردة يرجو من الله بلوغ مقصده
و العفو و الراحة عند الموت و الرزق و الخير و حسن البخت
و الستر و الصحة ثم العافية و نعماء و ابله و وافية
يسأله الثبات جوف القبر و الفوز بالجنة يوم الحشر
و الأمن و الأمان فى الدارين و اليسر فى أموره بالهين
و أن يكون قلبه و نفسه كاسمه و أن يدوم أنسه
و ستر الله له عيوبه و والديه و عفا ذنوبه
و جعل الباقي من حياته أحسن ما مر إلى مماته
و اختتم حياته بخير حال يا حى يا قيوم ذا الجلال
و اغفر لكل المسلمين ذنبهم «يا ربنا» و أصلح لهم أحوالهم
فأنت «يا رب» غنى عناو عن جميع الخلق فاعف عنا
و الحمد لله فى البدء و فى الختام و الشكر لله على الدوام
فكم له من نعم لا تحصى تزداد بالشكر كما جا نصفا
فهو الكريم المحسن العظيم خالقنا الرحمن و الرحيم
الملك القدوس و السلام المؤمن المهيمن العلام
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٣٦ و أشرف الصلاة و السلام على النبى و آله الكرام
«محمد» من لا نبى بعده أيدى الله تعالى وحده
فهو الذى أشرقت الدنيا به و فاح فى الأرجاء عرف طيبه

قد تمت الرسالة اللطيفة منظومة في الكعبة الشريفة
 نكرر الصلاة والتسليما على النبي وآله تكريما
 والحمد لله جزيل الحمد رب العباد ذي الثنا والمجد
 قد كان نظم هذه «الرساله» بمكة التي بها «الرساله»
 في عام ألف و ثلاثمائة سبع و سبعين مضت للهجره
 أبياتها خمس و خمسون و زديها ثلاثمائة عدا تجد
 إلى هنا منظومتي قد انتهت و صححت أبياتها فانظمت

*** نظم هذه الأرجوزة اللطيفة، محمد طاهر بن عبد القادر بن محمود الكردي المكي الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة و مؤلف «التفسير المكي» غفر الله تعالى له و لوالديه و لجميع المسلمين و المسلمات و المؤمنين و المؤمنات آمين.
 نظمها بمكة المشرفة في رمضان المبارك بعد الانتهاء من تجديد سقف الكعبة المشرفة. سبحان ربك رب العزة عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين سنة ١٣٨٠ هـ.

الحجر الأسود

إشارة

الحجر الأسود و يقال له «الركن» باعتبار أنه موضوع في الركن الأهم من البيت الحرام، و هو الركن الذي يبتدئ الطواف منه، و هو الركن الشرقي، و ارتفاعه من أرض المطاف متر واحد و نصف المتر ليتمكن كل إنسان من تقبيله ما عدا الطفل الصغير، و لونه أبيض ما عدا ما يظهر منه فإنه مسود من أثر الحريق الذي وقع في الكعبة في عهد قريش و ابن الزبير، و الذي يظهر منه بعض قطع صغيرة و هو محاط بطوق من الفضة الخالصة السمكة. و طوله نحو ذراع داخل في بنيان الكعبة فما كان داخل البنيان فهو أبيض مورد، و ما ظهر منه من القطع

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٣٧

المتكسر فهو مسود من الحريق المتقدم. هكذا جاء وصفه في كتاب «الإشاعة لأشراط الساعة» عن محمد بن نافع الذي رآه حينما قلعه القرمطي في سابع ذي الحجة سنة سبع عشرة و ثلاثمائة. بل ذكروا في التاريخ أن مقدار طول الحجر الأسود نصف ذراع بذراع العمل و عرضه ثلث ذراع و نقص منه قيراط في بعضه قالوا لتأكل ذلك منه و سمكه أربعة قرايط و عليه سيور من فضة و في عرضه ثلاثة شطوب مستطيلة. انتهى.

و جاء في تاريخ الأزرقى عند الكلام على بناء ابن الزبير للكعبة، قال عكرمة:

فأريت الحجر الأسود فإذا هو ذراع أو يزيد. انتهى منه و هذه هي الحقيقة التي لا مرأى فيها.

و جاء فيه أيضا بصحيفة ١٣٦ و طول الركن ذراعان قد أخذ عرض جدار الكعبة و مؤخر الركن داخله في الجدر مضرس على ثلاثة رؤوس. قال ابن جريج:

فسمعت من يصف لون مؤخره الذي في الجدر قال بعضهم: هو مورد و قال بعضهم: هو أبيض. اه.

نقول: و الذي يظهر منه الآن في زماننا و نستلمه و نقبله ثمانى قطع صغار مختلفة الحجم أكبرها بقدر التمرة الواحدة، تساقطت منه حين الاعتداءات عليه من بعض الجهال و المهووسين في الأزمان السابقة، و قد كان عدد القطع الظاهرة منه خمسة عشر قطعة و ذلك منذ

خمسین سنة أى أوائل القرن الرابع عشر للهجرة، ثم نقصت هذه القطع بسبب الإصلاحات التى تحدثت فى إطار الحجر الأسود، فما صغر ورق حجمه عجن بالشمع و المسك و العنبر و وضع أيضا على الحجر الكريم نفسه، و لقد زاد سواد هذه القطع من كثرة وضع العطورات و الخلق عليه دائما و أبدا و الله تعالى أعلم.

و فى زمن ابن جبير الأندلسى أى فى سنة (٥٧٨) كان فى الحجر الأسود الكريم أربع قطع ملصقة بسبب قلع القرامطة له و كسره، هكذا مذكور فى رحلة ابن جبير.

و أمر الحجر الأسود يرجع إلى عهد إبراهيم الخليل، عليه الصلاة و السلام، فإنه لما كان بينى البيت المعظم و ابنه إسماعيل ينقل له الحجارة على رقبته و يناوله و وصل إلى موضع الركن الأسود، قال إبراهيم لإسماعيل: أبغنى حجرا أضعه هاهنا يكون للناس علما يتدؤون منه الطواف، فذهب إسماعيل يطلب له حجرا و رجع و قد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٣٨

جاءه جبريل بالحجر الأسود، و كان الله عز و جل استودع الركن أبا قبيس حين أغرق الله الأرض زمن نوح، و قال: إذا رأيت خليلي بينى بيتي فأخرجه له، فقال إسماعيل: يا أبى من أين لك هذا؟ قال: جاءنى به من لم يكلنى إلى حجر ك جاء به جبريل، فلما وضع جبريل الحجر فى مكانه بنى عليه و هو حينئذ يتلألاً تلاًلاً من شدة بياضه، فأضاء نوره شرقا و غربا، و يمنا و شاما، فكان نوره يضىء إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية من نواحي الحرم، و إنما شدة سواده لأنه أصابه الحريق مرة بعد مرة فى الجاهلية و الإسلام، فإنه احترق باحتراق الكعبة حتى اسود، و توهنت من ذلك الكعبة زمن قريش فقاموا على هدمها و بنائها، ثم احترق أيضا فى عصر ابن الزبير رضى الله عنهما، باحتراق الكعبة فتفلق ثلاث فلق، فشدته ابن الزبير بالفضة حينما بنى الكعبة، فسواده كان من الحريق.

هذا ما ذكره الأزرقى فى تاريخه، فيفهم من هذا أن الحجر الأسود لم يكن من جنس حجارة البيت، بل و لا- من جنس باقى الحجارات، كما يفهم أيضا مما ذكر من أن الله تعالى استودع الحجر الأسود جبل أبى قبيس حينما عم الطوفان الأرض فى زمن نوح، عليه الصلاة و السلام. إن الحجر الأسود كان فى الكعبة فى بناياتها السابقة لبناء إبراهيم، أى فى بناء الملائكة و فى بناء آدم و فى بناء ابنه شيث، عليهم الصلاة و السلام، و على كل حال سواء ثبتت البنايات السابقة المذكورة أم لم تثبت فقد أتى به جبريل عليه الصلاة و السلام من حيث كان.

أصل الحجر الأسود من الجنة

جاء فى أول تاريخ الأزرقى عن وهب بن منبه: أن الله تعالى لما تاب على آدم عليه الصلاة و السلام، أمره أن يسير إلى مكة فطوى له الأرض و قبض له المفاز فصار كل مفازة يمر بها خطوة، و قبض له ما كان فيها من مخاض ماء أو بحر، فجعله له خطوة، فلم يضع قدمه فى شىء من الأرض إلا صار عمراناً و بركة حتى انتهى إلى مكة، و كان قبل ذلك قد اشدت بكأوه و حزنه لما كان فيه من عظيم المصيبة، حتى أن كانت الملائكة لتحزن لحزنه و لتبكي لبكائه، فعزاه الله تعالى بخيمة من خيام الجنة و وضعها له بمكة فى موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٣٩

و تلك الخيمة ياقوته حمراء من يواقيت الجنة فيها ثلاثة فناديل من ذهب من تبر الجنة فيها نور يلهب من نور الجنة و نزل معها «الركن» و هو يومئذ ياقوته بيضاء من ربض الجنة ... إلى آخر كلامه، أى من أرض الجنة.

و جاء فيه من رواية عبد الله بن لبيد أنه قال: بلغنى أن ابن عباس قال: لما أهبط الله سبحانه آدم عليه السلام إلى الأرض أهبطه إلى موضع البيت الحرام، و هو مثل الفلك من رعدته، ثم أنزل عليه الحجر الأسود- يعنى الركن- و هو يتلألاً من شدة بياضه، فأخذه آدم عليه السلام، فضمه إليه أنسا به، ثم نزلت عليه العصا فقبل له: تخط يا آدم، فتخطا فإذا هو بأرض الهند و السند فمكث بذلك ما شاء

الله، ثم استوحش إلى الركن، فقيل له: احجج، قال: فحج فلقيته الملائكة، فقالوا: بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام. انتهى من تاريخ الإمام الأزرقى.

وقد جاء فيه جملة روايات بهذا المعنى، اكتفينا بما ذكر خوف الإطالة.

ولقد ورد في نزول الركن من الجنة بعض أحاديث نسردها هنا وهو: روى الترمذى وأحمد والحاكم وابن حبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «إن الركن والمقام ياقوتان من ياقوت الجنة طمس الله تعالى نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب».

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك والنساء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الحجر الأسود من الجنة»، وروى أحمد وغيره: «الحجر الأسود من الجنة وكان أشد بياضا من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك» وروى الطبرانى فى معجمه الكبير عن ابن عباس «الحجر الأسود من حجارة الجنة وما فى الأرض من الجنة غيره وكان أبيض كالماء ولو لا ما مسه من رجس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا برئ». وروى ابن خزيمة فى صحيحه عن ابن عباس «الحجر الأسود ياقوته يضاء من ياقوت الجنة وإنما سودته خطايا المشركين يبعث يوم القيامة مثل أحد يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا».

وروى الخطيب بإسناد ضعيف «الحجر يمين الله فى الأرض يصفح بها عباده». وجاء فى تاريخ الأزرقى عن مجاهد أنه قال: «الركن من الجنة ولو لم يكن من الجنة لفى». وجاء فيه أيضا عن عطاء عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أنه قال: ليس فى الأرض من الجنة إلا الركن الأسود والمقام فإنهما جوهرتان من

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٤٠

جوهرة الجنة، ولو لا ما مسهما من أهل الشرك ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله عز وجل.

وجاء فيه أيضا عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل يبعث الركن الأسود له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق. وجاء فيه أيضا: عن عبد الملك بن جريج عن أبيه أنه قال: كان سلمان الفارسى قاعدا بين الركن وزمزم والناس يزدحمون على الركن فقال لجلسائه: هل تدرون ما هو؟ قالوا: هذا الحجر، قال: قد أرى ولكنه من حجارة الجنة أما والله نفس سلمان بيده ليحيئن يوم القيامة له عينان ولسان وشفتان يشهد لمن استلمه بالحق.

وجاء فيه أيضا عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أكثرنا من استلام هذا الحجر فإنكم توشكون أن تفقدوه بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا وقد فقدوه إن الله عز وجل لا يترك شيئا من الجنة فى الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة.

وجاء فيه أيضا عن عكرمة قال: إن الحجر الأسود يمين الله فى الأرض فمن لم يدرك بيعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح الحجر فقد بايع الله ورسوله.

وجاء فيه أيضا عن يوسف بن ماهك قال: قال عبد الله بن عمرو: إن جبريل عليه السلام نزل بالحجر من الجنة وأنه وضعه حيث رأيتم وإنكم لم تزالوا بخير ما دام بين ظهرانيكم فتمسكوا به ما استطعتم فإنه يوشك أن يجيء فيرجع به من حيث جاء به. وفى كتاب الإضاءة فى أشراف الساعة عن ابن عمر، رضى الله عنهما، قال: لا تقوم الساعة حتى يرفع الركن والمقام ورؤيا النبي فى المنام. إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى الركن الأسود.

قال فى الجامع اللطيف: معنى كون الحجر الأسود يمين الله فى الأرض: أن من صافحه كان له عند الله عهد، وقال فيه: ونقل عن المحب الطبرى أن كل ملك إذا قدم عليه الوافد قبل يمينه فنزل الحجر منزلة يمين الملك ولله المثل الأعلى.

اه.

على أنه لو لم يرد فى الحجر الأسود شيء من الأحاديث، لكفى له شرفا كونه فى ركن بيت الله المعظم، وإجماع الناس على احترامه

و تعظيمه آناء الليل و أطراف النهار جاهلياً و إسلاماً، و فيه يقول أبو طالب:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٤١ و بالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحي و الأصائل

انظر: صورة رقم ٨٥، الحجر الأسود خاليا من الطوق الفضى القديم ١٣٧٥ هـ

فحجر في بيت الله الحرام، جاء به جبريل و وضعه إبراهيم الخليل، ثم وضعه خاتم الأنبياء نبينا محمد صلى الله عليه و سلم بيده فيه أيضاً، و قبله هو و الأنبياء و المرسلون، و الأصفياء و المتقون، و يتمسح به عامة الناس من جميع الأجناس منذ وجوده بالبيت إلى أن تقوم الساعة، لجدير بكل احترام و تعظيم، و تقبيل و تسليم.

على أن هذا الركن الكريم سواء كان من الجنة أو من الأرض، فهو حجر لا يضر و لا ينفع، و ما اكتسب هذا الشرف و الإحترام إلا من الأديان السماوية، و انظر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كيف يخاطب هذا الحجر الكريم حين تقبيله و يقول: «و الله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر و لا تنفع و لو لا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقبلك ما قبلتك» و فى رواية «كان عمر بن الخطاب إذا بلغ موضع الركن قال: أشهد أنك حجر لا تضر و لا تنفع و أن ربي الله الذى لا إله إلا هو، و لو لا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يمسحك و يقبلك ما قبلتك و لا مسحتك».

و من الأسرار الدقيقة: أن أهل الجاهلية على كثرة عبادتهم للأحجار و الأصنام لم يرد قط فى التاريخ أنهم عبدوا الحجر الأسود أو حجر المقام أو نفس الكعبة.

و نرى و الله تعالى أعلم أن ذلك كان لحكمة إلهية جلية و هى: أن الله تعالى لم يقدر فى سابق الأزل عبادة هذه الأشياء المقدسة حتى لا- تدخل ضمن قوله عز شأنه فى آخر سورة الأنبياء: **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ* لَوْ كَانَ هُوَآءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ** فتأمل.

ثم إن فى تقبيل المسلمين و استلامهم للحجر الأسود نقطة دقيقة أخرى و هى:

أن تقع أفواههم موضع فم رسول الله صلى الله عليه و سلم و فم الأنبياء الذين قبله، عليهم الصلاة و السلام، و أن تلمس أيديهم ما لمستة أيديهم الشريفة من هذا الحجر المكرم، و أى مسلم إذا خطرت بباله هذه النقطة لا يبادر بتقبيله و استلامه.

قال بعض العلماء المحدثين فى هذا المعنى و قد قبل الحجر الأسود مرارا:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٤٢ لدى الحجر المقبل فى طواف بيت الله نلت لدى دخولى

من التقبيل ما أرجو لنفسى به أمنا يدوم مع الوصول

لتقبيل الرسول له فأعظم بشيء مسه بدن الرسول

صلاة دائمة عليه بها أعطى الفلاح مع القبول

ثم للحجر الأسود مغزى خاص و رمز تعبدي، ذلك أن المسلمين إذا أتوا من كل فج عميق لأداء فريضة الحج، فطافوا ببيت الله الحرام و اجتمعوا على تقبيل هذا الحجر الأسود، فكأنهم بذلك يبايعون الله و رسوله و يقدمون لهما الطاعة و الإيمان بهما، و فى هذا نهاية الخضوع و الامتثال.

و أيضاً أن فى الطواف بالبيت و استلام الركن الأسود، إشعار بالوحدة الإسلامية و استمساك بالرابطة المحمدية، فالمسلمون فى حالة البعد يتوجهون فى صلاتهم إلى هذا البيت الحرام، و فى حالة القرب و الوصول يطوفون حوله يعوذون برب هذا البيت، و يلتفون حول ركنه المنيع، القائم فى السلام مقام الراية فى الحرب، و لسان حالهم يقول: **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ*** و لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و أولئك هم المفلحون. و ما أجمل و أبهى منظر الطائفين حول البيت الحرام و هم يهللون و يكبرون و يدعون ربهم بنية خالصة و قلب خاشع خاضع، فإنهم و

الحالة هذه يشبهون الملائكة الذين يطوفون حول العرش يسبحون بحمد ربهم. فالحمد لله على نعمة الإيمان و الإسلام و كفى بها من نعمة.

و من أدق الأسرار التي قد تغيب عن الكثيرين: أن بقعة الكعبة و ما حولها من المطاف طاهرا نقياً لا تخلوا لحظة واحدة من ليل أو نهار من العبادة، لا أثر للعصيان و ارتكاب الذنوب في هذه البقعة منذ قديم الزمان جاهلياً و إسلاماً إلى قيام الساعة، لذلك تفضل على جميع البقاع، فهنيئاً لأهلها و لمن وصل إليها و لمن عرف مكانتها و قدسيتها و طهارتها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٤٣

لون الحجر الأسود

لا يمكن أن نصف لون الحجر الأسود الكريم عن مشاهدته بسبب دخوله الآن في بناء نفس الكعبة المشرفة اللهم إلا ما يظهر لنا اليوم من بعض قطعه و هي سوداء بسبب الحريق الذي أصابه و لكن نصف لونه من الأحاديث الواردة و من ما جاء في التاريخ. أما طوله فقد تقدم عن عكرمه أنه رأى الحجر الأسود في بناء ابن الزبير الكعبة فإذا هو ذراع أو يزيد كما جاء في تاريخ الأزرقى.

أما الأحاديث فقد تقدم جملة منها، و نأتى هنا بحديث واحد فقط و هو يكفى. فقد روى الإمام أحمد و غيره أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «الحجر الأسود من الجنة و كان أشد بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك».

و لا يخفى أنه صلى الله عليه و سلم قد رأى نفس الحجر الأسود بأكمله حينما كان يحمل الحجارة على كتفه الشريف عند بناء قريش الكعبة، و هو الذي وضعه في محله بيده الشريفة حينما حكمته قريش في شأن وضعه و رفعه لمحله فحكم بما أَرْضَى الجميع.

و أما التاريخ، فقد جاء في تاريخ الإمام الأزرقى عند بناء ابن الزبير الكعبة عن شرحبيل عن أبي عون عن أبيه قال: رأيت الحجر الأسود قد انفلق و اسود من الحريق فأنظر إلى جوفه أبيض كأنه الفضة. اه. و جاء فيه أيضاً عند هذا البناء عن منصور بن عبد الرحمن الحجبى عن أمه قالت: كان الحجر الأسود قبل الحريق مثل لون المقام، فلما احترق اسود. قال: فلما احترقت الكعبة تصدع بثلاث فرق فشدّه ابن الزبير بالفضة. انتهى.

و نقول أيضاً: أما في زماننا هذا الذي نكتب هذا التاريخ فيه و هو عام (١٣٧٦) فليس في الحجر الأسود، أى في القطع الصغيرة الظاهرة منه شىء من البياض مطلقاً و لا- مثقال ذرة، أما ما كان من الحجر الكريم الداخلى في بناء الكعبة فهو كله أبيض لا شك فيه ما عدا رأسه فقد اسود من الحريق المتقدم كما هو مذكور هنا. و الله تعالى أعلم.

و قال ابن جبير في رحلته التي كانت سنة ثمان و سبعين و خمسمائة عن مشاهدته للحجر الأسود حينما وصل إلى مكة في السنة المذكورة ما يأتى:

و في القطعة الصحيحة من الحجر الأسود مما يلى جانبه الذى يلى يمين المستلم له إذا وقف مستقبلاً نقطة بيضاء صغيرة مشرقاً تلوح كأنها خال في تلك الصفحة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٤٤

المباركة و في هذه الشامة البيضاء أثر أن النظر إليها يجلو البصر. انتهى كلام ابن جبير رحمه الله تعالى.

و جاء في كتاب «الإشاعة لأشراط الساعة» عند الكلام على قلع القرامطة الحجر الأسود في سنة (٣١٧) من الهجرة ما يأتى:

و قال محمد بن نافع الخزاعى: تأملت الحجر الأسود و هو مقلوع فإذا السواد في رأسه فقط و سائر أبيض، و طوله قدر عظم الذراع. اه. و جاء في الجامع اللطيف لابن ظهيرة القرشى ما يأتى:

قال القاضى عز الدين بن جماعة: و قد رأيت أول حجاتي سنة ثمان و سبعمائة و به نقطة بيضاء ظاهرة لكل أحد، ثم رأيت البياض بعد ذلك قد نقص نقصاً بيناً.

انتهى.

وقال العلامة ابن خليل المتوفى في منسكه الكبير: وقد أدركت في الحجر الأسود ثلاث مواضع بيضاء نقيه في الناحية التي إلى باب الكعبة المعظمة إحداها وهي أكبرهن قدر حبة الذرة الكبيرة، والأخرى إلى جنبها وهي أصغر منها، والثالثة إلى جنب الثانية وهي أصغر من الثانية تأتي قدر حبة الدخن ثم إنى أتلمح تلك النقط فإذا هي كل وقت في نقص. انتهى بنصه. انتهى من الجامع اللطيف. نقول: لا- يبعد أن يكون نقص بياض النقط التي كان بالحجر الأسود في قول ابن جماعة و ابن خليل تفسيراً لكلامه صلى الله عليه وسلم المتقدم «... و كان أشد بياضا من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك» والله تعالى أعلم.

ذكر صاحب كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة» قال: قال ابن علان: و لون ما استتر من الحجر الأسود بالعمارة في جدر الكعبة أبيض بياض المقام يعنى مقام الخليل إبراهيم صلى الله عليه وسلم و ذرع طوله نصف ذراع بذراع العمل و عرضه ثلث ذراع و نقص منه قيراط في بعضه و سمكه أربعة قرايط و عليه سيور من الفضة واحد من أول ما غاب من رأسه من جهة الباب مستديرا إلى مثله مما يلي الجانب اليماني في وسط سمكه و عليه سيران من فضة محيطان بعرضه إلى طرف السير من الوجه الثاني ... إلى آخر كلامه. و ابن علان المذكور هو العلامة الشيخ محمد بن علان الصديقي، و كان حاضرا بمكة في عمارة السلطان مراد الرابع للكعبة سنة (١٠٤٠) أربعين و ألف من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٤٥

الهجرة، فعليه يكون قد شاهد نفس الحجر الأسود في هذه العمارة فهو يخبر هنا عن مشاهدته، و قوله: «أن ما استتر من الحجر الأسود بالعمارة في جدر الكعبة أبيض بياض مقام إبراهيم الخليل» هو معقول و صحيح و مطابق للحقيقة، لأن الحجر الأسود طويل نحو ذراع، و هو داخل في بناية ركن الكعبة و ما كان ظاهرا منه في صدر الإسلام إلا رأسه، كما لا يظهر منه في عصرنا هذا إلا بعض قطع صغيرة و قد اسود رأسه من أثر حريق الكعبة في عهد قريش و في عهد ابن الزبير، فهذه القطع الصغيرة الظاهرة اليوم كسرت من رأسه المحترق، فيكون ما دخل من الحجر الأسود في بناية الكعبة أبيض بياضا يشبه بياض حجر مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام الموجود أمام الكعبة المشرفة بجوار بئر زمزم، لم يتأثر المستتر منه بالاحتراق و لا بالشمس و الهواء و لا بغير ذلك، لأنه مستور و محفوظ غير ظاهر.

فقول ابن علان عن لون الحجر الأسود مطابق لما رواه الإمام الأزرقى في تاريخه: عن منصور بن عبد الرحمن الحجبي عن أمه قالت: كان الحجر الأسود قبل الحريق مثل لون المقام فلما احترق اسود، قال: فلما احترقت الكعبة تصدع بثلاث فرق فشدته ابن الزبير بالفضة. انتهى من الأزرقى.

و لا يمكن الإخبار بلون ما كان مستورا من الحجر الأسود إلا عن مشاهدته، و لا تمكن المشاهدة إلا إذا هدم من الكعبة مكان الحجر لا سمح الله، و هذا لا يكون إلا نادرا بعد مرور مئات السنين و الأعوام، فالعلامة الشيخ محمد بن علان أخبر بذلك عند مشاهدته للحجر الأسود في العمارة الكبيرة للكعبة عندما هدمها السيل في زمن السلطان مراد الرابع. و كان يحضر على الدوام عند الكعبة لمشاهدة بنائها و كتابة مذكراته و يومياته عن بنائها و عندما وصل الإصلاح في مكان الحجر الأسود كان يقف عنده مع الأمير رضوان و ناظر الحرم، و أن المذكور قرأ جزءا من صحيح البخارى في جوف الكعبة عند انتهاء بنائها و عمارتها التي حصلت في زمنه.

و للعلامة ابن علان المذكور تأليف قيمة، منها: كتاب «القول الحق و النقل الصريح بجواز أن يقرأ في جوف الكعبة الحديث الصحيح» و منها: «العمل المفرد في فضل و تاريخ الحجر الأسود» و منها «أنباء المؤيد الجليل مراد ببناء بيت الوهاب الجواد» و منها «شرح رياض الصالحين» و هو أربع مجلدات، و منها «شرح كتاب

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٤٦

الأذكار» و هو أربع مجلدات أيضا، و غير ذلك من المؤلفات رحمه الله تعالى و أحسن جزاءه.

علة تسمية الركن ب الحجر الأسود

تقدم أن لون الركن الشريف أبيض مودد، و كان في عهد إبراهيم عليه السلام يتلأأ من شدة بياضه و قد أضاء نوره الجهات الأربع، ثم طمس الله نوره ليتمكن التقرب منه.

و لم نر أحدا ذكر علة لتسميته بالحجر الأسود، و نحن نذكر هنا ما قد فتح الله به علينا بفضل الواسع فنقول:

١- قد يكون سمي بذلك من باب أسماء الأضداد، أو من سيادته على جميع الأحجار.

٢- و قد يكون بسبب اسوداد رأسه من أثر الحريق الذي حصل للكعبة في الجاهلية و الإسلام.

٣- و قد يكون تسميته بذلك بسبب خطايا بني آدم و ما مسه من رجس الجاهلية. كما جاء ذلك صريحا في بعض الأحاديث المتقدمة، لكن هذا أمر معنوي لا يمكن إدراكه بالعقل، فيكون من قبيل الفسق و الفجور يذهبان بنور الإيمان من وجه الإنسان.

٤- سمي الركن «بالحجر الأسود» من ابتداء الأمر من قديم الزمان، بدون نظر إلى علة، على قاعدة الأسماء لا تعلق. و الله تعالى أعلم.

تقبيل الأيدي عند استلام الركن

قال الإمام الأزرقي في تاريخه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي حدثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج عن عطاء قال: رأيت عبد الله بن عمر و أبا هريرة و أبا سعيد الخدري و جابر بن عبد الله إذا استلموا الحجر قبلوا أيديهم، قال ابن جريج: قلت له: و ابن عباس؟ قال: و ابن عباس حسبت كثيرا.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي حدثنا عبد الله بن يحيى السهمي قال:

رأيت عطاء بن أبي رباح و عكرمة بن خالد و ابن أبي مليكة يطوفون بعد العصر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٤٧

و يصلون و رأيتهم يستلمون الركن الأسود و اليماني و يقبلون أيديهم و يمسحون بها و جوههم و ربما استلموا و لا يمسحون بها أفواهم و لا جوههم.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي حدثنا عيسى بن يونس بن أبي إسحاق عن عبد الله ابن أبي زياد قال: رأيت عطاء و مجاهدا و سعيد بن جبير إذا استلموا الركن قبلوا أيديهم.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي عن الزنجي عن ابن جريج قال: قال عمرو بن دينار: جفا من استلم الركن و لم يقبل يده، قال ابن جريج: و أخبرت أن النبي صلى الله عليه و سلم كان إذا طاف على راحلته يستلم الركن بمحجنه ثم يقبل طرف المحجن.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي حدثنا سفيان أنه سمع حميد بن حيان قال: رأيت سالم بن عبد الله إذا استلم يده على خده أو جبهته قال سفيان:

و رأيت أيوب بن موسى إذا استلم الركن يضع يده على جبهته أو على خده.

حدثنا أبو الوليد قال حدثني جدي عن سفيان عن عبد الكريم عن مجاهد قال:

لا بأس أن تستلم الحجر من قبل الباب. انتهى من تاريخ الأزرقي.

نقول: و من عادة أهل مكة إلى يومنا هذا أن بعضهم إذا صافح إنسانا قبل يد نفسه، و الظاهر أن هذه العادة قديمة العهد ناشئة من تقبيل الأيدي إذا استلموا الحجر الأسود كما تقدم. و الله تعالى أعلم.

جاء في كتابنا «إرشاد الزمرة لمناسك الحج و العمرة» عند الكلام على سنن الطواف ما نصه: التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛

سنن الطواف كثيرة منها أن يستقبل الطائف الحجر الأسود قبل البدء بالطواف إذا كان المطاف خالياً، وأن يستلمه بيده اليمنى ثم يقبله بفمه قبله خفيفة ثم يضع جبهته عليه و يفعل ذلك في كل مرة، فإن عجز عن التقبيل بيده اليمنى فباليسرى، فإن عجز عن استلامه استلمه بنحو عود ثم قبل ما استلم به، فإن عجز عن استلامه أشار إليه بيده أو بشيء فيها ثم قبل ما أشار به، ولا يشير بالفم إلى التقبيل، ولا يزاحم للتقبيل بل تحرم المزاحمة والاستلام إن آذى غيره أو تأذى غيره، ولا يستحب للنساء في الطواف استلام ولا تقبيل للحجر الأسود والركن اليماني إلا عند خلو المطاف.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٤٨

(و منها) أن يستلم الركن اليماني بيده و يقبل يده بعد استلامه، فإن عجز عن استلامه أشار إليه بيده أو بشيء فيها لكن لا يقبل ما أشار به للركن اليماني، و ظاهر كلام النووي و غيره تقبيل ما أشار به إليه أيضا، أما الركن الشامي و الركن العراقي فلا يسن تقبيلهما و لا استلامهما.

قال البجيرمي في حاشيته: و قد ثبت أنه صلى الله عليه و سلم قبل الحجر الأسود و ثبت أنه استلمه بيده ثم قبلها، و ثبت أنه استلمه بمحجنه فقبل المحجن، و لم يثبت أنه صلى الله عليه و سلم قبل الركن اليماني و لا قبل يده حين استلمه، و لم يستلم الركنين المقابلين للحجر، أي الركن الشامي و الركن العراقي، اه. فالركن العراقي جهة باب العمرة و الشامي جهة باب الزيادة كما هو ظاهر في رسم الكعبة، اه.

ثم ذكرنا هناك في كتابنا المذكور بقیة سنن الطواف و لم نأت بها لعدم تعلقها بهذا المبحث.

بقاء الحجر الأسود إلى يوم القيامة

يتعلق أمر هذا الحجر الأسود الكريم ببيت الله الحرام، فإنه منذ بنائه الأول أتى بهذا الحجر فوضعه في ركنه، إذن فهو مرتبط به و يبقى ببقائه إلى يوم القيامة، و يدل على ذلك ما يأتي: روى الأزرقى في تاريخه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «أول ما يرفع الركن و المقام و رؤيا النبي في المنام» و فيه أيضا عن عائشة رضی الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أكثروا استلام هذا الحجر فإنكم توشكون أن تفقدوه بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا و قد فقدوه، إن الله عز و جل لا يترك شيئا من الجنة في الأرض إلا- أعاده فيها قبل يوم القيامة». و فيه أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «إن الله تعالى يرفع القرآن من صدور الرجال و الحجر الأسود قبل يوم القيامة».

و جاء في كتاب الإشاعة لأشراط الساعة عن ابن عمر رضی الله عنهما قال:

«لا- تقوم الساعة حتى يرفع الركن» و جاء فيه أيضا عن أبي هريرة رضی الله عنه قال: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة» رواه الشيخان و أخرج أحمد عن ابن عمر نحوه و زاد «و يسلبها حليها و يجردها من كسوتها، فلكنأني أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته أو معوله» و معنى السويقتين: تصغير الساقين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٤٩

أي دقيق الساقين، و الأصيلع تصغير أصلع و هو صغير الرأس، و الأفيدع تصغير الأفع و هو من في يديه اعوجاج.

و في تاريخ الأزرقى أيضا عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم قال: «أترك الحبشة ما تركتكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة».

إلى غير ذلك مما ورد من الأحاديث التي سننشرها أيضا في المناسبة الآتية إن شاء الله تعالى.

و هذه الأحاديث و إن كان أكثرها في تخريب الكعبة فإنها تشمل الحجر الأسود أيضا لتعلقه بها تعلقا شديدا فهو معها منذ بنائها الأول و يكون فيها إلى قيام الساعة، و الظاهر من الأحاديث المتقدمة أن الحجر الأسود يرفع من الكعبة قبل تخريبها، و رفعه علامة لقيام

الساعة، والله تعالى أعلم.

نقول: و من مميزات الحجر الأسود أنه مهما قبلته الأفواه و مسحته الأيدي لا يتغير شكله و صورته و لا ينحت منه شيء مطلقا، فهو أصلب من الحديد بآلاف المرات، إنه ليس كالأحجار العادية، بل فيه سر إلهي يشرفه عن جميع الأحجار حسا و معنى، و لو كان قابلا للإنحاث و التفتت لرأيناها متغير الصورة و الشكل، و كيف لا يكون الحجر الأسود كذلك و قد أتى به جبريل عليه السلام و وضعه في محله المعلوم خليل الله إبراهيم عليه أفضل الصلاة و التسليم، و قبله الأنبياء عليهم الصلاة و السلام و الأولياء الكرام، و الصالحون العظام، كما قبله ملايين الملايين من البشر، و لمسوه و مسحوه بأيديهم، من العهد الإبراهيمي إلى عهدنا هذا، و يكون كذلك إلى قيام الساعة. فالحمد لله رب العالمين الذي من علينا بالإيمان و العلم و التوفيق.

الرد على من يقول بأن الحجر الأسود من النيازك

لم نسمع مطلقا أن أحدا في العصور الغابرة و الأزمان السابقة قال إن الحجر الأسود من النيازك أي يشبه الصواعق أو النجوم المتبلورة الساقطة من السماء، و إنما سمعنا في عصرنا هذا من يتوهم ذلك و يذهب هذا المذهب، و منهم أستاذنا الكبير الفاضل الأستاذ يوسف أحمد مفتش الآثار العربية سابقا بمصر و محيي الخط الكوفي هناك في عصرنا الحاضر، فإنه يقول في كتابه «المحمل و الحج» بصحيفة ١٠٣ ما نصه:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٥٠

«و لا ندري إن كان الحجر الأسود وصل إلى العرب من طريق النيازك أي:

ما يرى في السماء كنجوم متساقطة كما في المنجد، أو من طريق آخر». اهـ.

و يقول أيضا في صحيفة ١٠٤ ما خلاصته:

«إن إبراهيم عليه الصلاة و السلام وضع الحجر الأسود إما أن يكون تذكارا لصدعه بأمر ربه ببناء البيت المعظم، و إما أن يكون للعهد الذي أخذه على نفسه و ولده بجعل هذا البيت مثابة للناس، و إما أن يكون قد أقامه حجة عليه و على ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم إلى الله تعالى، و جعل لونه أسود لسهولة تعيينه و تحديده مكانه». انتهى كلامه.

هكذا يقول الأستاذ يوسف أحمد رحمه الله تعالى عن الحجر الأسود و قوله غير صحيح كما سنبين ذلك، و المذكور نعرفه حق المعرفة و أنه من خيار الناس و أفاضلهم و لا يتهم بزيف أو فساد رأي، و لا يقدر في حقه إذا أخطأ في هذه المسألة فإنه لم يطلع على ما ورد من الأحاديث في حق الحجر الأسود، كما أنه لم يطلع على ما رواه المؤرخون عن بناء إبراهيم الخليل الكعبة و وضع الحجر الأسود فيه أو اطلع و لم يقتنع بقولهم، فلو اطلع على كل ذلك لما قال عنه ما قال، فالأستاذ يوسف رحمه الله تعالى نظر إلى الحجر الأسود كما ينظر إلى بعض الآثار القديمة، فكتب عنه ما بدا له عن طريق الاستنتاج، فنفسه متشعبة بالأبحاث الأثرية، فكم تقلبت بين يديه مئات الأحجار القديمة عندما كان مفتشا للآثار بمصر ليبدى رأيه فيها و يقيد ملاحظاته عليها.

لكن لما كان الحجر الأسود المبارك الميمون غير تلك الأحجار العادية، و جب علينا أن نبين الحقيقة حتى لا يبقى أدنى شبه لدى أحد من الناس، و ليرتفع عن توهم ذلك الشك و الالتباس فنقول و بالله التوفيق:

إننا نرد قول الأستاذ الذي جاء بصحيفة ١٠٤ من كتابه المذكور «من أن إبراهيم عليه الصلاة و السلام لم يضع الحجر الأسود في البيت إما تذكارا لقيامه ببنائه، و إما للعهد الذي أخذه على نفسه و ولده بجعل هذا البيت مثابة للناس، و إما لإقامة الحجة عليهم بأن هذا البيت قد انتقل من ملكهم إلى الله تعالى».

فنقول: إن كل ذلك ليس بصحيح و غير معقول و لا- يليق أن يصدر منه كأستاذ كبير، فما معنى أن يضع الحجر الأسود في البيت كتذكار لبنائه، أو جعله فيه ليكون مثابة للناس، فهل إذا لم يضعه لا يكون مثابة لهم، مع أن الله سبحانه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٥١

و تعالى هو الذى جعله كذلك كما فى الآية الكريمة: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً فَكَيْفَ غَابَتْ عَنْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الصَّرِيحَةُ، و أما قوله جعله لانتقال البيت من ملكهم إلى ملك الله تعالى فهذه أسمح مما تقدم، ألم يقرأ قوله تعالى: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ فَبَيْتَ اللَّهِ بَيْنَهُ خَلِيلَ اللَّهِ بِأَمْرِ اللَّهِ، كيف يعقل أن يدعى ملكيته، ثم يقول: «و قد جعل إبراهيم لون الحجر أسود لسهولة تعيينه و تحديد مكانه» هذا القول لا أصل له مطلقاً، فالحجر الأسود كان أشد بياضاً من الثلج حينما وضعه إبراهيم عليه الصلاة و السلام فى البيت و أنه كان يتلألأ نورا حتى أضاء مسافات الحرم البعيدة من كل الجهات كما هو مذكور فى الأحاديث المتقدمة، و أنه لم يسود إلا من حريق البيت الذى وقع فى الجاهلية و الإسلام.

و لا- يخفى أن خليل الله إبراهيم ما بنى البيت الحرام إلا- بأمر الله و ما وضع الحجر الأسود إلا بأمره تعالى أيضا و من هنا جاء الأمر بتقبيل الحجر الأسود و استلامه، و لم يطلب منا استلام حجارة الكعبة المشرفة، ثم إن حجارتها قد تتغير و تتبدل كلما هدمت و بنيت و لكن الحجر الأسود لم يتبدل و لن يتبدل إلى يوم القيامة، فتأمل فمسألة دينية كهذه أما كان الأجدر بالأستاذ المذكور أن يرجع إلى الكتاب و السنة بدل أن يسترسل فى وهمه و تخيلاته؟

و أما ما جاء بصحيفة ١٠٣ من كتابه المذكور من قوله: «و لا ندرى إن كان الحجر الأسود وصل إلى العرب من طريق النيازك أو من طريق آخر» فقولته هذا خلط و خطأ محض، فالحجر الأسود جاء به جبريل لإبراهيم عليهما الصلاة و السلام حين بناء البيت و أنه نزل من الجنة كما هو مذكور فى الأحاديث المتقدمة، فأين حرمة حجر جاء به جبريل أمين الوحي من حجر يؤخذ من الأرض؟ و من قال أن الحجر الأسود من النيازك فقولته مردود بالأدلة التالية:

- ١- ما ورد فيه من الأحاديث بأنه من الجنة، و قد تقدم ذكرها.
- ٢- أنه لم يسمع قط من يقول بذلك لا فى الجاهلية و لا فى الإسلام.
- ٣- لو لم تكن ميزة خاصة للحجر الأسود لما وضعه إبراهيم عليه السلام فى بيت الله الحرام، و تلك الميزة هى كونه من الجنة أتى به جبريل الأمين و وضعه فى بيت الله بأمر الله.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٥٢

٤- لو كان الحجر الأسود من النيازك كالصواعق الحديدية لذاب و فنى من كثرة لمس الناس له هذه الآلاف السنين، كما هو الشأن فى المواد الحديدية كما روى الأزرقى عن مجاهد أنه قال: «الركن من الجنة و لو لم يكن من الجنة لفنى». بهذه الأدلة القوية يبطل قول القائل أن الحجر الأسود أصله من النيازك.

ثم من أين لإبراهيم عليه الصلاة و السلام أن يفتش فى وقت البناء فى البرارى و القفار و السهول و الصخار على حجر نزل من النيازك كالصاعقة ليضعه فى «بيت الله الحرام المعظم» و ليس بمكة كلها فى أيامه غير نفر من قبيلة جرهم، ثم لماذا يضع فى الكعبة المشرفة حجر أصله من الصواعق و هل له حرمة تبرر أن يستلمها الأنبياء و جميع الناس هذه الآلاف السنين؟ كلا ثم كلا.

و إنما المعقول أن يكون للحجر الأسود ميزة خاصة بأن يكون نزل من الجنة حتى يستحق أن يوضع فى بيت الله الحرام المطهر، و ليكون بمثابة يمين الله فى الأرض يقبله المؤمنون إخلاصاً و طاعة و إيماناً برب العالمين.

و لئن افتخر الغربيون بما لديهم من الآثار القديمة، فإنه يحق للعرب بل للمسلمين قاطبة أن يفتخروا بهذا الحجر الأسود المبارك الذى مرت عليه آلاف السنين و قبله و استلمه الأنبياء و المرسلين، و عموم المسلمين و عامة الناس من كافة الطبقات و الأمم.

و فيما تقدم كفاية للمنصف العادل و المؤمن الصادق و الله الهادى إلى سواء الطريق.

و إننا نكرر القول بأن الأستاذ يوسف أحمد الذى يقول فى كتابه المتقدم أن الحجر الأسود ربما كان من النيازك الساقطة من السماء رجل صاحب دين و استقامة و فضل و كرم لا يتهم بالزيف و الإلحاد، فإنى أعرفه حق المعرفة و اجتمعت به كثيرا بمصر و أعرف ابنه

المحترم أيضا، ولكنه قال ذلك عن حسن قصد ونية حسنة فقد غلبت عليه في هذه المسألة مهنة الاشتغال بالآثار القديمة ففاته أن يتحقق منها من الوجهة العلمية والدينية، وقد قيل في المثل: «لكل جواد كبوة و لكل عالم هفوة» فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فردوس جناته و غفر لنا و له ألحقنا به على حسن الخاتمة و صالح الأعمال إنه بعباده لطيف خبير.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٥٣

و بمناسبة ذكر النيازك الساقطة من السماء، نذكر الحكاية التي أوردها ابن بطوطة في رحلته و هذا نصها: و سألتني السلطان «أى سلطان بركى» في هذا المجلس فقال لى: هل رأيت قط حجرا نزل من السماء؟ فقلت: ما رأيت ذلك و لا سمعت به، فقال لى: إنه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعا رجالا و أمرهم أن يأتوا بالحجر فأتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة له بريق قدرت أن زنته تبلغ قنطارا، و أمر السلطان بإحضار القطاعين فحضر أربعة منهم، فأمرهم أن يضربوه، فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثروا فيه شيئا من أمره، ثم أمر برد الحجر إلى حيث كان. انتهى من ابن بطوطة.

و مثل هذا ما جاء في الجزء الثاني من تاريخ الخميس: أنه في سنة اثنتين و ثلاثين و أربعمائه وقع ببلاد خوزستان قطعة حديد من الهواء وزنها مائة و خمسون طنا فكان لها دوى عظيم أسقط منها الحوامل، فأخذها السلطان و أراد أن يعمل منها سيفا فكانت الآلات لا تعمل فيها و كل آلة ضربوها بها تكسرت. انتهى من الكتاب المذكور.

الزحام على تقبيل الحجر الأسود

يسن تقبيل الحجر الأسود اقتداء برسول الله صلى الله عليه و سلم لكن بشرط أن لا يؤذى المستلم غيره فإن حصل ذلك حرم تقبيله لحدوث الضرر له أو لغيره، و عندئذ يكفي أن يشير إلى الحجر الأسود بيده و يقبل يده.

جاء في تاريخ الأزرقي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لعمر بن الخطاب: «يا عمر إنك رجل قوى و إنك تؤذى الضعيف فإذا رأيت خلوة فاستلمه و إلا فكبر و امض». و جاء فيه أيضا عن هشام بن عروة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يستلم إذا وجد فجوة فإذا اشتد الزحام كبر كلما حاذاه. و جاء فيه أيضا عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقول: إذا وجدت على الركن زحاما فلا تؤذ و لا تؤذى.

و جاء فيه أيضا: كان طاووس قل ما استلم الركنين إذا رأى عليهما زحاما. قال ابن عباس: لا تؤذ مسلما و لا يؤذيك إن رأيت منه خلوة فقبله أو استلمه و إلا فامض.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٥٤

و أما ما يكون من الحجاج في موسم الحج من ازدحامهم الشديد على تقبيل الحجر الأسود، و أنهم لا يبالون بحصول الأذى لهم أو لغيرهم، فإننا نرى لهم نوع عذر في ذلك فإنهم قد أتوا من بلاد بعيدة يقصدون هذا البيت المقدس أفلا يحق لهم أن يقبلوا الحجر الأسود و لو مرة واحدة لكل فرد منهم حتى تلمس شفتاه موضع شفتي رسول الله صلى الله عليه و سلم، و حتى لا تبقى حسرة في قلب من رجع إلى بلده و لم يستلم الحجر الأسود المبارك و لم يعرف شكله.

و الذى نذهب إليه و الله تعالى أعلم أنه بدأ التراحم على الركن منذ ظهور الإسلام من عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم لما ورد في تقبيله من الأحاديث، و قد أفرد الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى في تاريخه فصلا لذلك فقال: (الزحام على استلام الركن الأسود و الركن اليماني) فجاء فيه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه كان لا يدع الركن الأسود و الركن اليماني أن يستلمهما في كل طواف أتى عليهما قال:

و كان لا يستلم الآخرين. اه.

نقول و الله تعالى أعلم: إن عدم استلام الركنين الآخرين «العراقي و الشامي» كان لعدم وجودهما في بناء قريش الكعبة فإنها بنت

جدارها المقابل لحجر إسماعيل مدورا ليس فيه الركنان المذكوران كما كان ذلك في عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أيضا، فلما بنى ابن الزبير رضى الله عنهما الكعبة جعل لهذا الجدار ركنين «العراقى و الشامى» فصار للكعبة أربعة أركان فلما بناها الحجاج جعلها كذلك.

و جاء فيه أيضا: أن ابن عمر رضى الله عنهما كان لا يدع الركنين «أى الركن الأسود و الركن اليمانى» فى كل طواف طاف بهما حتى يستلمهما، لقد زاحم على الركن مرة فى شدة الزحام حتى رجع فخرج فغسل عنه ثم رجع فعاد يزاحم فلم يصل إليه حتى رجع الثانية فخرج فغسل عنه، ثم رجع فما تركه حتى استلمه.

و جاء فيه أيضا: عن سالم بن عبد الله يقول: إن عبد الله بن عمر كان لا يترك استلام الركنين فى زحام و لا غيره حتى رأته زاحمنا عنه يوم النحر و أصابه دم فقال: قد أخطأنا هذه المرة، و جاء فيه أيضا: عن طلحة بن يحيى قال: سألت القاسم بن محمد عن استلام الركن فقال: استلمه و زاحم عليه يا ابن أخى فقد رأيت ابن عمر يزاحم عليه حتى يدمى، و جاء فيه أيضا: عن هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لعبد الرحمن ابن عوف: كيف صنعت يا أبا محمد فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٥٥

استلام الحجر، و كان قد استأذنه فى العمرة فقال: كلا قد فعلت استلمت و تركت، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: أصبت. انتهى كل ذلك من الأزرقى.

فعليه نرجو الله سبحانه و تعالى العفو و الغفران فى ازدحام الحجاج و غيرهم على تقبيل الحجر الأسود خصوصا و أنهم يرضون بطيب خاطر بحصول الأذى لهم فى سبيل ذلك، و أنهم يعدون أنفسهم سعداء إذا فازوا بتقبيله و هو كذلك إن شاء الله، ففضل الله العظيم و رحمته واسعة.

(تنبيه) إن ما عمله عبد الله بن عمر رضى الله عنهما من محافظته على استلام الركنين فى كل طوفة طاف بهما و أنه لا يتركهما حتى فى شدة الزحام، هذه خصوصية له لا يطلب من أحد أن يزاحم على الركنين اقتداء به، فهو رضى الله عنه من أجلاء الصحابة له اجتهاده و عمله فإنه كان شديد المحافظة على كل ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه و سلم و تتبع أفعاله. فقد جاء فى زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم عند حديث «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل» أن الزبير بن بكار قال: كان ابن عمر يحفظ ما سمع من رسول الله صلى الله عليه و سلم و يسأل من حضر إذا غاب عن قوله و فعله و كان يتتبع آثاره فى كل مسجد صلى فيه، و كان يعترض براحلته فى طريق رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم عرض ناقته فيه و كان لا يترك الحج، و كان إذا وقف بعرفة يقف فى الموقف الذى وقف فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم.

و فى الزهد للبيهقى بسند صحيح عن عمر ابن محمد بن يزيد بن عبد الله بن عمر سمعت أبى يقول: ما ذكر ابن عمر رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا بكى و لا مر على ربهم إلا غمض عينيه. انتهى من زاد مسلم من الجزء الرابع. فرجل هذا حاله يجب أن نعتبر بحاله رضى الله عنه و عن جميع الصحابة.

الترغيب فى استلام الركنين

يستحب أن يستقبل الإنسان الحجر الأسود بوجهه فيستلمه بيمينه أولا أى يمسحه بها ثم يقبله قبله خفيفة من غير صوت و يسجد عليه بوضع الجبهة، فإن عجز عن التقبيل لزحمة أو غيرها اقتصر على استلامه بيده اليمنى أى يمسحه بيده ثم يقبلها، فإن عجز عن الاستلام أشار بيده أو أشار بما فيها من نحو خشبة أو عصا ثم يقبل ما أشار به من يده أو غيره.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٥٦

جاء فى تاريخ الأزرقى عن ابن جريج أنه قال: و أخبرت أن النبى صلى الله عليه و سلم كان إذا طاف على راحلته يستلم الركن

بمحجنه ثم يقبل طرف المحجن، و المحجن العصا المنعطفة الرأس، هذا بالنسبة للحجر الأسود. وفي الأزرقى أيضا عن عباد بن جعفر قال: رأيت ابن عباس رضى الله عنهما جاء يوم التروية و عليه حلة مرجلا رأسه فقبل الركن الأسود و سجد عليه، ثم قبله و سجد عليه ثلاثا. اه.

ذكر الغازى فى تاريخه عند الكلام على بناء السلطان مراد أنه فى يوم الاثنين غرة رجب الحرام سنة (١٠٤٠) وضعوا الحجر الذى بطرفه محل استلام الطائفين من الركن اليمانى و كان طرف الحجر الذى تحته انكسر من أعلاه فوضع فى محل ذلك من الرصاص المذاب ما يساوى به مع باقى الأحجار سمتا و كان تمام وضع الحجر و تسويته عند العصر من اليوم المذكور و جاء الفاتح بقليل من الصندل المذاب و ضمخ به محل الاستلام و ما يقاربه. انتهى من الغازى.

أما إلصاق قطع الركن اليمانى و تسميرها الذى ذكره ابن جبير فى رحلته، فقد كان فى عهد الفاطميين فى سنة (٥٥٩) تسع و خمسين و خمسمائة عندما تضعع الركن، كما جاء ذلك فى تاريخ مكة للسباعى بصحيفة ١٤٧.

و جاء فيه أيضا بصحيفة ١٥١ نقلا عن الدحلان فى وقائع سنة (٥٩٢) اثنتين و تسعين و خمسمائة أن ريحا سوداء عظيمة عصفت بمكة عند خروج الحجاج منها و كان فيها رمل أحمر أصاب الناس و سقطت أحجار من ركن الكعبة اليمانى، و ينقل أبو شامة فى ذيل الروضتين أن الذى سقط من الركن قطعة واحدة، و أن الكعبة تحركت مرارا و أن ذلك لم يعهد من قبل. انتهى منه.

و جاء فى شفاء الغرام للفاسى: قال ابن الأثير فى أخبار سنة (٥١٥) خمس عشرة و خمسمائة، فيها تضعع الركن اليمانى من البيت الحرام، زاده الله شرفا و انهدم بعضه، و ذكر مثل ذلك المؤيد صاحب حماه فى أخبار سنة خمس عشرة و خمسمائة.

و قال أبو عبيد البكرى فى كتابه المسالك و الممالك: و حدث جماعة أن فى سنة (٤٣٣) ثلاث و ثلاثين و أربعمائة انكسرت من الركن اليمانى فلقه قدر إصبع و غفل الناس عن سدها فصارت عند قوم من أهل مكة من الحسينيين فوق و بء

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٥٧

عظيم بمكة عام و موت و كان لا يلبث المريض فوق ثلاثة أيام، و هلك فى أهل الدار الذى اتهم أن الفلقة فيها ثمانية عشر إنسانا، فرأى بعض الصالحين المجاورين من أهل خراسان فى نومه أن يتفقد ما ذهب من الكعبة و يرد فيرفع الله عنهم الوباء فردت إلى موضعها فارتفع الوباء. انتهى من شفاء الغرام.

نقول: الظاهر مما تقدم أن حجر الركن اليمانى الذى يقع فيه الاستلام قديم يرجع عهده إلى بناء عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما، فهو الذى نقض البيت كله ثم بناه بناء جديدا، أما الحجاج الثقفى فإنه هدم من جداره الذى فى حجر إسماعيل ستة أذرع و شبرا ثم بناه و ترك سائر جدرانها، فبقى الركن اليمانى كما هو لم يحصل فيه شىء.

و قد بقيت هذه البناية على ما هى عليه إلى زمن السلطان مراد الرابع الذى بنى الكعبة من جديد سنة (١٠٤٠) أربعين و ألف من الهجرة و اضطروا إلى نقل حجر الركن اليمانى من موضعه للإصلاح و البناء.

فعلى ما تقدم يكون حجر الركن اليمانى يقع فيه الاستلام يرجع عهده إلى بناء ابن الزبير فلذلك و لحرمة نفس الركن إذا وقعت منه قطعة أرجعوا إلى محلها و أحكموا إصلاحها بالمسامير و الرصاص زيادة فى التحفظ. و الله تعالى أعلم.

ما يقال عند استلام الحجر الأسود

قال العلامة محب الدين الطبرى فى كتابه «القرى لفاصد أم القرى» فيما يقال عند استلام الركن الأسود ما نصه:

عن ابن جريج قال: أخبرت أن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه و سلم قال: يا رسول الله كيف نقول إذا استلمنا؟ قال: قولوا: باسم الله و الله أكبر إيمانا بالله و تصديقا لإجابة محمد صلى الله عليه و سلم. أخرجه الشافعى.

و عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان إذا استلم الركن قال: بسم الله و الله أكبر، أخرجه أبو ذر و الأزرقى. و عنه أنه كان إذا استلم

الحجر قال: اللهم إيماناً بك، ووفاء بعهدك و تصديقاً بكتابتك و سنة نبيك، و يصلى على النبي صلى الله عليه و سلم و يستلمه. و عن على عليه السلام أنه كان إذا استلم الحجر قال: الله أكبر اللهم إيماناً بك و تصديقاً بكتابتك و اتباعاً لستك و سنة نبيك. أخرجهما أبو ذر.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٥٨

و عن عبد الكريم بن أبي أمية قال: يقال عند استلام الركن اليماني: اللهم إجابته دعوة نبيك و اتباع رضوانك و على سنة نبيك صلى الله عليه و سلم.

و عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب كان يقول إذا كبر لاستلام الحجر: باسم الله و الله أكبر على ما هدانا الله لا إله إلا الله وحده لا شريك له آمنت بالله و كفرت بالطاغوت و اللات و العزى، و ما يدعى من دون الله، إن وليي الله الذي نزل الكتاب و هو يتولى الصالحين. أخرجهما الأزرقى. انتهى من كتاب الطبرى المذكور.

قال العلامة الشيخ ابن علان فى يومياته المذكورة فى الجزء الأول من تاريخ الغازى و فى آخر الجزء الأول من تاريخ الأزرقى ما نصه: و فى يوم الأحد ٢٩ جمادى الثانية سنة (١٠٤٠) ألف و أربعين هجرية شرعوا فى وضع المدماك الثانى و سمكه ٢٢ قيراطا ثم صبوا الرصاص على وجه أسفل الجدار اليماني لىساوى المتآكل منه باقى الجدار فى سمته.

و فى يوم الاثنين غرة رجب من السنة المذكورة وضعوا الحجر الذى بطرفه محل استلام الطائف من الركن اليماني، و كان طرف الحجر الذى تحته انكسر من أعلاه فوضع فى محل ذلك من الرصاص المذاب ما يساوى به باقى الأحجار سمتا، و وضعوا حجر الركن الغربى الشامى و نصبوا أحجار الجدار الشامى. انتهى المراد منه.

أما الركن اليماني فيستحب أن يستلمه بيده ثم يقبل يده، و لا يستحب تقبيل الركن المذكور، و لا يخفى أنه فرق بين الركنين، ففضل الركن الأسود أعظم من الركن اليماني، لأن الركن اليماني ليس فى مزيه سوى أنه ركن البيت الثانى من عهد إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، و أما الركن الأسود فهو الركن الأول من ذلك العهد أيضاً، و فيه مزيه أخرى و هى وجود الحجر الأسود فيه، يقول ابن جبير فى رحلته التى كانت سنة (٥٧٨) من الهجرة أنه انصدعت قطعة من الركن اليماني فسمرت بمسامير فضة و أعيدت كأحسن ما كانت عليه و المسامير فيها ظاهرة. اه.

نقول: إن مسامير الفضة لا زالت إلى عصرنا هذا موجودة، فإننا ذهبنا إلى الكعبة المشرفة لرؤية مسامير الركن اليماني، صباح يوم الأربعاء التاسع عشر من ربيع الأول عام ستته و سبعين و ثلاثمائة و ألف فوجدنا فيه أكثر من ثلاثين مسمارا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٥٩

من الفضة رأس أكبرها كحدقة عين الإنسان و أصغرها كحبة العدس، و فى الركن اليماني عدة قطع انكسرت من حجارته الأصلية القديمة فأعيدت إلى محلاتها و ألصقت فيها إصاقا محكما بالمسامير الفضة و الرصاص.

روى الأزرقى عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال: على الركن اليماني ملكان موكلان يؤمنان على دعاء من يمر بهما و أن على الأسود ما لا يحصى. أخرج الحاكم أنه صلى الله عليه و سلم قال: ما انتهيت إلى الركن اليماني قط إلا وجدت جبريل عليه السلام، عنده فقال: قل يا محمد قلت: و ما أقول؟ قال: قل: اللهم إني أعوذ بك من الكفر و الفاقة و مواقف الخزى فى الدنيا و الآخرة، ثم قال جبريل عليه السلام:

إن بينهما سبعين ألف ملك فإذا قال العبد هذا قالوا آمين. و أخرج أبو داود: ما مررت بالركن اليماني إلا و عنده ملك ينادى يقول: آمين آمين، فإذا مررت به فقولوا: اللهم آتنا فى الدنيا حسنة و فى الآخرة حسنة و قنا عذاب النار. و جاء فى تاريخ الأزرقى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ما مررت بالركن اليماني إلا وجدت جبريل عليه قائما. و جاء فى أيضا عن عثمان «ابن ساج» قال: و بلغنى عن عطاء قال: قيل يا رسول الله رأيتناك تكثر استلام الركن اليماني، قال: فقال إن كان قاله ما أتيت

عليه قط إلا- و جبريل قائم عنده يستغفر لمن استلمه. و جاء فيه أيضا عن مجاهد أنه قال: من وضع يده على الركن اليماني ثم دعا استجيب له قال: قلت له: قم بنا يا أبا الحجاج فلنعمل ذلك ففعلنا ذلك.

و فى تاريخ الأزرقى أن عبيد بن عمير قال لابن عمر رضى الله عنهما: إنى أراك تراحم على هذين الركنين، فقال: إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن استلامهما يحط الخطايا حطا. و أخرج الترمذى حديثا عن عبد الله بن عمر بهذا المعنى أيضا. و أخرج الإمام أحمد و ابن حبان فى صحيحه عن ابن عمر أيضا عن النبى، صلى الله عليه وسلم قال: مسح الحجر الأسود و الركن اليماني يحط الخطايا حطا. و أخرج القاضى عياض فى الشفاء أن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما من أحد يدعو عند هذا الركن الأسود إلا استجاب الله له. و روى ابن ماجه و الحاكم عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: استقبل النبى صلى الله عليه وسلم الحجر ثم وضع شفتيه عليه يبكى طويلا ثم التفت فإذا هو بعمر بن الخطاب يبكى فقال: يا عمر ههنا تسكب العبرات.

و روى الأزرقى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٦٠

و جل يبعث الركن الأسود له عينان يبصر بهما و لسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق.

فضل الملتزم و الدعاء فيه

الملتزم: هو ما بين الحجر الأسود و باب الكعبة، قال ابن عباس: الملتزم و المدعى و المتعوذ ما بين الحجر و الباب، قال الأزرقى: ذرع الملتزم و هو ما بين باب الكعبة و حد الركن الأسود أربعة أذرع.

و المستجاب: هو ما بين الركن اليماني و الباب المسدود الذى فى ظهر الكعبة. قال مجاهد: قال معاوية بن أبى سفيان: من قام عند ظهر البيت فدعا استجيب له و خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

روى القاضى عياض فى الشفاء عن ابن عباس، رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما دعا أحد بشيء فى هذا الملتزم إلا استجيب له». قال مجاهد: رأيت ابن عباس و هو يستعيز ما بين الركن و الباب، و قال أيضا: ما بين الركن و الباب يدعى الملتزم و لا يقوم عبد ثم فيدعو الله، عز و جل بشيء إلا استجاب له، و عن عطاء عن ابن عباس قال: من التزم الكعبة ثم دعا استجيب له، فليل له: و إن كانت استلامه واحدة؟ قال: و إن كانت أو شكك من برق الخلب. و معنى الخلب بضم الخاء و فتح اللام المشددة الذى لا مطر فيه. و عن مجاهد ألقى خديك بالكعبة و لا تضع جبهتك، و عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال: طفت مع عبد الله بن عمرو فلما جئنا دبر الكعبة قلت: ألا تتعوذ؟ قال:

أعوذ بالله من النار ثم مضى حتى استلم الحجر فقام بين الركن و الباب ثم وضع صدره و وجهه و ذراعيه و كفيه بسطا و قال: هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل.

انظر: صورة رقم ٨٦، و يشير السهم إلى الملتزم و هو حائط الكعبة.

نقول: مما لا شك فيه أن الله تعالى يستجيب دعاء المضطر أينما كان و لو فى رؤوس الجبال أو فى وسط البحار، فإنه تعالى أمر بالدعاء بصريح آية: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ و آية: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً فَإِنِ الدَّعَاءُ هُوَ عَيْنُ الْعِبَادَةِ، فإذا دعا العبد ربه فى أى موضع كان بذله و انكسار، فقد أقر بوحدانيته و قدرته و فضله و إحسانه، و كرمه و حلمه و عفوه و غفرانه، و من أقر

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٦١

بكل ذلك لربه كان إليه أقرب و بنيل مطالبه و زوال بلائه حقيق و أجدر، فإنه تعالى وحده هو المرتجى و الملتجأ، و أنه كاشف الهم و الكرب، و أنه أرحم الراحمين.

فمن التجأ إلى الله الكبير المتعال بقلب خالص و عزم صادق، فى أى مكان كان، صار جديرا باستجابة دعائه و قبول تضرعه و كشف

غمته، فكيف بالإنسان إذا دعا ربه و هو عند بيته الحرام، و بين الركن و المقام و المشاعر العظام، أنه أولى باستجابة دعوته و الفوز بعفوه و رحمته. اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبنا و رحمتك أرجى من أعمالنا. رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ.

الحوادث التي مرت على الحجر الأسود

لا نريد أن نأتى هنا عن أصل الحجر الأسود و لا عن وضعه فى البيت الحرام و لا عن تقبيله و استلامه و فضله و احترامه لأن كل ذلك تقدم بيانه، و إنما نحب أن نذكر هنا باختصار ما مر عليه من الحوادث من حريقه و قلعه و التعدى عليه بكسر جزء منه للاحتفاظ به للتبرك أو للتذكار.

و لنبدأ من صدر الإسلام، أما ما كان قبله من أن جرهما أو بنى إباد بن نزار حين أخرجوا من مكة أخذوا الحجر الأسود فدفنوه فى بئر زمزم أو غيره فدلتهم على موضع دفنه جدء امرأة قصى بن كلاب، فإننا لم نطمئن إلى هذا الخبر الذى رواه بعضهم، و لئن كان هذا الخبر صحيحا فتكون هذه الواقعة هى الأولى و الأخيرة للحجر الأسود، قبل الإسلام و الله تعالى أعلم فنقول و بالله تعالى التوفيق و هو حسبى و نعم الوكيل و لا حول و لا قوة إلا بالله.

١- أن الحجر الأسود حدث فيه تصدع بسبب حريق الكعبة الذى وقع فى عهد ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما سنة أربع و ستين من الهجرة، لأن الحجر احترق معها حتى تشطب ثلاث فرق، و لذلك ربطه و شده ابن الزبير بالفضة فيكون هو أول من ربطه بها، و هذه أول حادثه وقعت للحجر الأسود.

أما حريق الكعبة فى زمن قريش فلم يكن الحريق قويا شديدا كما وقع فى عهد ابن الزبير، بسبب أن الكعبة قبل بناء قريش كانت مبنية بالرضم فقط، فكانت الثياب التى هى بمثابة الكسوة توضع عليها تسدل سدا على جدارها و لم يكن لها سقف حتى يكون فيها أخشاب تزيد النار التهابا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٦٢

لذلك لم يحدث على الحجر الأسود فى هذا الحريق شىء مطلقا و لو حدث فيه شىء لجاء ذكره فقد كان الحجر الكريم فى بناء قريش ظاهرا لجميع الناس، و ذلك لما بنت قريش الكعبة و اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود فى محله، جاء رسول الله صلى الله عليه و سلم و لم يبعث بعد فبسط رداء ثم وضع الركن بيده فوجه و قال لهم: «لتأخذ كل قبيلة بناحية الثوب، ثم قال: ارفعوه جميعا» ثم ارتقى النبى صلى الله عليه و سلم على جدار الكعبة و رفع القوم إليه الركن فوضعه صلى الله عليه و سلم بيده الشريفه فى موضعه.

فمن هنا نستنتج أنه لو كان فى الحجر شىء لكان ظاهرا لجميع الناس و لبادروا بإصلاحه و لذكر ذلك فى التاريخ.

٢- ثم فى زمن هارون الرشيد كانت الفضة التى ربط بها ابن الزبير الحجر الأسود قد تزلزلت و تخلخلت، فأمر هارون الرشيد رحمه الله تعالى سنة (١٨٩) تسع و ثمانين و مائة بالحجارة التى بينها الحجر الأسود أن تنقب بالماس فنقبت من فوقها و من تحتها ثم أفرغ فيها الفضة.

٣- ثم لما جاء أبو طاهر القرمطى مكة و عمل فيها هو و أصحابه أمورا منكرا ضرب بعضهم الحجر الأسود بدبوس فكسره ثم قلعه و ذهبوا به معهم إلى بلادهم هجر و هى قرية مشهورة من أعمال البحرين، و ذلك سنة (٣١٧) سبع عشرة و مائة من الهجرة فمكث عندهم حتى آخر سنة (٣٣٩) تسع و ثلاثين و ثلاثمائة فأتى به سنبر بن الحسن القرمطى إلى مكة فوضعه بيده فى محله من الكعبة يوم النحر من السنة المذكورة قبل حضور الناس من منى للطواف و السعى، و قال سنبر بعد رد الحجر الأسود: أخذناه بقدره الله ورددناه بمشيئة الله، و نظر الناس إلى الحجر فتيئوه و قبلوه و استلموه و حمدوا الله تعالى على ذلك، و قد عمل القرامطة على الحجر ضبة من الفضة تضبط الشقوق التى حدثت عليه يوم قلعه، فكانت مدة مكثه عند القرامطة بالأحساء اثنتين و عشرين سنة إلا أربعة أيام، قال

الفاقي: و قد بذل بحكم التركي مدبر الخلافة بيغداد للقرامطة على رد الحجر الأسود خمسين ألف دينار فأبوا و قالوا: أخذناه بأمر و لا نرده إلا بأمر، و قيل: إن المطيع العباسي اشتراه بثلاثين ألف دينار من القرامطة، و قال ابن فهد: إن أبا القاسم المسناني ذكر أن المقتدر العباسي اشتراه من أبي سعيد الجنابي بثلاثين ألف دينار ورد هذه الرواية، هذا ما جاء في كتاب تاريخ الكعبة المعظمة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٦٣

و نحن نقول و الله تعالى أعلم بالغيب: أن مسألة شراء الحجر الأسود بثلاثين ألف دينار أو أكثر أو أقل غير صحيح في رأينا، و الصحيح عندنا ما قاله القرامطة لبحكم التركي حينما بذل لهم خمسين ألف دينار «أخذناه بأمر و لا نرده إلا بأمر» و الدليل على صحة رأينا: هو أن سنبريا بن الحسن القرمطي هو الذي أتى بالحجر الأسود إلى مكة و وضعه بيده في محله الأصلي من الكعبة بحضور أمير مكة يومئذ، فلو أنه حصل شراء الحجر الأسود لدفعه القرامطة إلى من اشتراه، و كان الذي اشتراه منهم هو الذي يأتي به إلى مكة و يضعه بنفسه في موضعه من الكعبة. هو رأينا و الله تعالى أعلم بغيبه.

و سبب أخذ القرامطة الحجر الأسود ثم رده ثانيا إلى الكعبة: هو أنهم عزموا على تحويل الحج إلى بلادهم «هجر» و صرف الناس عن الكعبة إليهم لذلك حافظوا على الحجر الأسود لديهم و ضبوه بالفضة، فلما مكث عندهم اثنتين و عشرين سنة بدون فائدة و مات أبو طاهر القرمطي رئيس القرامطة ردوا الحجر الأسود إلى مكة و وضعوه في محله من الكعبة.

و لزيادة الإيضاح نذكر ما قاله البتوني رحمه الله في كتابه «الرحلة الحجازية» عن القرامطة و أخذهم الحجر الأسود و هو: و في أيام المقتدر العباسي ظهرت في العراق طائفة القرامطة و هم قوم ينسبون إلى موالاة محمد ابن الحنفية بن علي كرم الله وجهه، و يكفرون من لم يكن على مذهبهم. و أول من ظهر منهم أبو طاهر القرمطي و قد بنى دارا في هجر «بفتحتين» و هي قرية مشهورة من أعمال البحرين، سماها دار الهجرة، و أراد أن ينقل الحج إليها، لذلك كان يقصد الطرق الموصلة إلى مكة و يفتك بحجاج بيت الله الحرام، فانقطع الحج في أيامه خشية منه، و سار القرمطي إلى مكة في عسكر كثيف أيام الحج و دخل بخيله و رجه إلى الحرم و وضع السيف في الطائفين و العاكفين و الركع السجود على بغته منهم، و قتل في مكة و شعابها نحو ثلاثين ألفا و اقتلع باب الكعبة و جرده مما كان عليه من صفائح الذهب و أخذ جميع ما في خزينة بيت الله الحرام من المجوهرات الثمينة، و اقتلع الحجر الأسود من مكانه و انصرف به إلى بلاده بعد أن هدم قبة زمزم، و بقي مكان الحجر خاليا يتبرك الناس بمحله.

و بعد موت أبي طاهر رأى قومه أن من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة إلى بلادهم، فقام سنبر بن الحسن القرمطي بالحجر إلى مكة و كان يحيط به برواز من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٦٤

الفضة يضبط بعض القطع التي تكسر منه حين قلعه فوضع في مكانه على الحالة التي تراه عليها الآن. انتهى من كتاب الرحلة الحجازية. فهذه نبذة وافية عن أخذ القرامطة الحجر الأسود المكرم.

فالحمد لله على هدايته لنا للإسلام و الشكر له على جعله لنا من سكان بلده الأمين و بيته الحرام، و صلى الله و سلم على رسوله النبي الأمي و على آله المطهرين الكرام و صحابته البررة الفخام.

٤- ثم إن حجة البيت الشريف قلعوا الحجر الأسود منه الذي أتى به سنبر القرمطي ليجعلوا له طوقا جديدا من الفضة، فعملوا له ذلك و شدوه به شدا محكما كما كان قديما حينما عمله ابن الزبير، رضى الله عنهما فكان فيه من الفضة ثلاثة آلاف و سبعة و تسعون درهما و نصف درهم و ذلك بعد إرجاع سنبر الحجر بيضعة أشهر، أي في سنة (٣٤٠) أربعين و ثلاثمائة.

٥- أخذ داود بن عيسى بن فليته أمير مكة طوق الحجر الأسود الذي كان به و ذلك قبيل عزله سنة (٥٨٥) خمس و ثمانين و خمسمائة.

٦- و في سنة (٣٦٣) ثلاث و ستين و ثلاثمائة بينما الناس في وقت القيلوله و شدة الحر و ما يطوف إلا رجل أو رجلان، إذ جاء رجل

عليه طمران مشتمل على رأسه فدنا من الركن الأسود و ضربه بالمعول ضربة شديدة حتى خفته الخفته التي فيه ثم رفع يده ثانيا يريد ضربه فابتدره رجل من أهل اليمن رآه و هو يطوف قطعنه طعنه عظيمة بالخنجر حتى أسقطه فأقبل الناس من نواحي المسجد فنظروه فإذا هو رجل رومى جاء من أرض الروم، و قد جعل له مال عظيم على إخراج الركن و إحضاره معه، ثم أخرجوه من المسجد الحرام و جمعوا حطبا كثيرا فأحرقوه بالنار. اه. ذكره ابن فهد القرشي في إتحاف الوري.

٧- و في سنة (٤١٣) ثلاث عشرة و أربعمائه قام رجل فقصد الحجر الأسود فضربه ثلاث ضربات بدبوس و تبخش وجه الحجر من تلك الضربات و تساقطت منه شظايا مثل الأظفار و تشقق و خرج أسمر يضرب إلى صفرة محببا مثل الخشخاش، ثم جمع بنوا شيبه الفتات و عجنوه بالمسك و الشمع و حشوا الشقوق و طلوا من ذلك. اه. ذكره الفاسي، قال الشيخ باسلامه رحمه الله تعالى في كتابه «تاريخ الكعبة»: و ذكر ابن الأثير هذه القصة في إخبار سنة (٤١٤) و ساق القصة بتمامها و قال: كان هذا الرجل من ملاحدة المصريين الذين استغواهم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٦٥

الحاكم العبيدي قال: و بعد أن ضرب الرجل الحجر الأسود بالدبوس قال: إلى متى يعبد هذا الحجر و لا محمد و لا على يمنعني عما أفعله فإنني أريد اليوم أن أهدم هذا البيت.

قال: و خافه الحاضرون و تراجعوا عنه و كاد أن يفلت، و كان على باب المسجد عشرة من الفرسان على أن ينصروه، فاحتسب رجل من أهل مكة و ثار به فوجأه بخنجر و احتوشه الناس فقتله ثم تكاثروا عليه فقطعوه و أحرقوه بالنار و قتل جماعة ممن شاركوه و عاونوه و أحرقوا بالنار، و كان الظاهر منهم عشرين رجلا غير ما خفى منهم فثارت الفتنة فأطفأها أمير مكة يومئذ أبو الفتوح، ثم إن بنى شيبه جمعوا ما سقط من الحجر الأسود و عجنوه بالمسك و اللك و حشوا الشقوق و طليت من ذلك. انتهى. و اللك بضم اللام هو ما يسمى بمصر الشمع الأحمر و هو الشمع الذي يختم به على الظروف و الطرود البريدية. ذكر البتوني في كتابه «الرحلة الحجازية» عن هذه الحكاية أنها وقعت في سنة (٤١١) ثم قال:

و يزعمون أن الحاكم بأمر الله الفاطمي هو الذي كان أرسل ذلك الرجل حتى إذا كسر الحجر الأسود أمكنه تحويل وجهه المسلمين عن الكعبة إلى مسجده بجوار باب الفتوح بالقاهرة. اه.

٨- و في منائح الكرم: أنه في عشر التسعين و تسعمائة جاء رجل أعجمي بدبوس في يده فضرب الحجر الأسود، و كان حاضرا الأمير ناصر جاوش فوجا ذلك الأعجمي بالخنجر فقتله.

٩- و في تاريخ مكة للأستاذ السباعي بصحيفة ٣٤٣ عند الكلام على بناء السلطان مراد للكعبة سنة (١٠٤٠) أنه في أثناء عملهم فيما يحيط بالحجر الأسود انفلت الحجر إلى أربع شظايا فهالهم ذلك و أزعجهم فبادروا إلى جمع الشظايا بمركب عجنوه بالعنبر و اللادن فتماسك إلى أمد غير طويل ثم تكك فعالجوه بمركب من قلفونية و اسبيداج و سندروس و مسك فتماسك أمدًا ثم عاد إلى التفكك فجيء بالمعلم محمود الدهان فاتخذ له مركبا خاصا تماسكت به القطع تماسكا تاما.

١٠- و في آخر شهر محرم سنة (١٣٥١) إحدى و خمسين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة في عصرنا الحاضر جاء رجل فارسي من بلاد الأفغان فاقطع قطعة من الحجر الأسود و سرق قطعة من ستارة الكعبة و قطعته فضة من مدرج الكعبة الذي

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٦٦

هو بين بئر زمزم و باب بنى شيبه، فشر به حرس المسجد الحرام فاعتقلوه ثم أعدم عقوبه له، كما أعدم من تجرأ قبله على الحجر الأسود بقلع أو تكسير أو سرقة حيث أصبح حكم الإعدام على أمثال هؤلاء سنة متبعة.

ثم إنه في آخر ربيع الثاني حضر جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ملك المملكة العربية السعودية رحمه الله تعالى، من الطائف إلى مكة لوضع تلك القطعة موضعها من الحجر الأسود فعمل الأخصائيون معجونا لتثبيت تلك القطعة ثم أخذها جلالته و

وضعها بيده في محلها. انتهى كل ذلك مختصرا من تاريخ الكعبة المعظمة.

فيعلم مما تقدم سبب ظهور القطع الصغيرة من الحجر الأسود الكريم، والحمد لله بعد الحادث الأخير إلى عامنا هذا لم يقع عليه شيء، وقد وضعت حكومتنا الموقفة على الحجر الأسود جنديا خاصا لحراسته يقف بجواره فلا يفارقه، كما وضعت أيضا جنديا على مقام إبراهيم عليه السلام، فكل جندي يقف على الحراسة ساعة واحدة أو ساعة ونصف ثم يأتي غيره فيقف هذه المدة ثم يأتي غيره وهكذا ليلا ونهارا.

الرد على من يقول أن القرامطة استبدلوا الحجر الأسود

من المعروف في التاريخ أن أبا طاهر القرمطي وافى مكة في سابع ذي الحجة سنة سبع عشرة و ثلاثمائة، و فعل فيها هو وقومه أمورا منكرة، و أمر أبو طاهر جعفر بن أبي علاج البناء بقلع الحجر الأسود فقلعه لأربع عشرة خلت من ذي الحجة من السنة المذكورة، و ذهب به معه إلى بلاده هجر و بقي موضعه من الكعبة المعظمة خاليا يضع الناس فيه أيديهم للتبرك ثم إن سنبر بن الحسن القرمطي وافى مكة بالحجر الأسود سنة تسع و ثلاثين و ثلاثمائة فوضعه بيده في موضعه من الكعبة و قال: أخذناه بقدر الله و رددناه بمشيئة الله، و ذلك يوم النحر من السنة المذكورة الخ ...

فبعض المغفلين يظن أن القرامطة استبدلوا الحجر الأسود بحجر آخر حينما رده إلى الكعبة، فهذا الظن في غير محله، و هو مردود بأمرين تاريخي و ديني، فالأمر التاريخي: أن التقى الفاسي ذكر في شفاء الغرام بعد أن ساق قصة القرامطة، ورد سنبر القرمطي الحجر الأسود، و وضعه بيده في موضعه بالكعبة ما نصه:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٦٧

«و نظر الناس إلى الحجر فتبينوه و قبلوه و استلموه و حمدوا الله تعالى، و كان رد الحجر الأسود في موضعه قبل حضور الناس لزيارة الكعبة يوم النحر، و كانت مدة كينونته عند القرمطي و أصحابه اثنتين و عشرين سنة إلا أربعة أيام، هذا معنى كلام المسبحي. اهـ.»
فقوله: و نظر الناس إلى الحجر فتبينوه و قبلوه الخ .. صريح في أن الناس لم يستلموه إلا- بعد التحقق منه و التثبت من عدم تغييره و تبديله، و لا يخفى أن مدة إقامة الحجر الأسود عند القرامطة هي اثنتان و عشرون سنة، و هذه المدة لا تحتمل موت جميع أهل مكة الذين أخذ الحجر الأسود أمام أعينهم، ثم إن الحجر الأسود له مميزات خاصة ما كانت خافية على أهل ذلك العصر، و إن خفي علينا الآن بسبب الطوق الفضى العظيم المضروب عليه حتى إنه لا يظهر منه اليوم إلا بعض قطع صغار و هي ثمانية قطع.

جاء في كتاب الإشاعة لأشراط الساعة أن محمد بن نافع الخزاعي قال:

تأملت الحجر و هو مقلوع فإذا السواد في رأسه فقط و سائر أبيض و طوله قدر عظم الذراع. اهـ. و رؤيته للحجر كانت حينما قلعه القرمطي، و انظر في صحيفه (١٢٦) كيف يصفه بعضهم أيضا.

و أما الأمر الديني: فقد روى الأزرقى عن عائشة رضی الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أكثروا استلام هذا الحجر فإنكم توشكون أن تفقدوه بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا و قد فقدوه إن الله عز و جل لا يترك شيئا من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة».

و روى أيضا عن عثمان أنه قال: و حدثت عن مجاهد أنه قال: «كيف بكم إذا أسرى بالقرآن و رفع من صدوركم و نسخ من قلوبكم و رفع الركن»، قال عثمان: و بلغني عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: «أول ما يرفع الركن و القرآن و رؤيا النبي صلى الله عليه و سلم في المنام». و روى أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «إن الله تعالى يرفع القرآن من صدور الرجال و الحجر الأسود قبل يوم القيامة».

و روى أيضا عن يوسف بن ماهك أنه قال: «إن الله تعالى جعل الركن عيد أهل هذه القبلة، كما كانت المائدة عيدا لبني إسرائيل و

إنكم لن تزالوا بخير ما دام بين ظهرانيكم، وإن جبريل وضعه في مكانه يأتيه فيأخذه من مكانه».

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٦٨

وجاء في كتاب «القرى لقاصد أم القرى» للإمام الطبري عن ابن مسعود أنه قال: أكثرنا من زيارة هذا البيت قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه، وأكثرنا من تلاوة القرآن قبل أن يرفع، قالوا: هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: يسرى عليها ليلا فتصبح صفرا أو قفرا حتى ينسوا لا إله إلا الله فيقولون كما نقول قولاً و نتكلم به، و يرجعون إلى شعار الجاهلية و كلامهم. أخرجه الأزرقى. انتهى من الطبري.

و جاء في الإشاعة في أشراف الساعة: عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال:

«لا تقوم الساعة حتى يرفع الركن و المقام و رؤيا النبي في المنام». أخرجه السجزي. و قد تقدم بعض الأحاديث في هذا المعنى. فيعلم من كلام النبي صلى الله عليه و سلم المتقدم: أن الحجر الأسود نفسه يبقى في موضعه من الكعبة إلى يوم القيامة، فيرفع عندئذ بواسطة الملائكة، فلا يفقد بطريقة السرقة و لا بالاعتداء.

هذا ما يؤمن به المسلمون و هم أدري بأمور دينهم، و لا عبرة بكلام غيرهم من أهل الشك و الشرك و من أهل النفاق و الشقاق. بقى علينا من بحث الحجر الأسود نقطة مهمة يجب ذكرها، و هى: أن الأستاذ يوسف أحمد مفتش الآثار العربية سابقا بالديار المصرية و محيي الخط الكوفى هناك فى عصرنا الحاضر، رحمه الله، يقول فى كتابه المحمل و الحج بصحيفة (١٠٣) ما نصه: «و لا ندرى إن كان الحجر الأسود وصل إلى العرب من طريق النيازك أو من طريق آخر» و يقول فى صحيفة (١٠٤) من الكتاب المذكور ما ملخصه: «إن إبراهيم عليه الصلاة و السلام وضع الحجر الأسود إما أن يكون تذكارا لصدعه بأمر ربه ببناء البيت المعظم، و إما أن يكون للعهد الذى أخذه على نفسه و ولده بجعل هذا البيت مثابة للناس، و إما أن يكون قد أقامه حجة عليه و على ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم إلى الله تعالى، و جعل لونه أسود لسهولة تعيينه و تحديده مكانه». اه. هكذا يقول الأستاذ يوسف أحمد رحمه الله تعالى عن الحجر الأسود فى كتابه المذكور.

و نحن مع احترامنا للأستاذ يوسف أحمد رحمه الله كأحد مشايخنا الذين أخذنا عنهم الخط العربى حين إقامتنا بمصر، و أنه رجل من خيار الناس و أفاضلهم، لا؟؟؟ نا إلا أن نرد قوله بيانا للحقيقة فنقول: يظهر لنا أن الأستاذ يوسف أحمد لم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٦٩

يطلع على ما ورد من الأحاديث فى حق الحجر الأسود، و أنه لم يقتنع بما رواه المؤرخون عن كيفية وضع إبراهيم عليه السلام له و إلا لما قال ما قال عنه فى كتابه، بل إنه نظر إلى الحجر الأسود كما ينظر إلى بعض الآثار القديمة فكتب عنه ما بدا له على طريقة الاستنتاج، و نحن لا نتهمه قط، و هو رجل الاستقامة و الفضل و الذكاء، و إنما نلتمس له العذر لأن نفسه متشعبة بالأبحاث الأثرية، فكم تقلبت بين يديه مئات الأحجار القديمة عندما كان مفتشا للآثار بمصر ليبدى رأيه فيها و يقيد ملاحظاته عليها، لكن لما كان الحجر الأسود المبارك غير تلك الأحجار، و جب علينا أن نبين حقيقته حتى لا يبقى أدنى شبهة لدى أحد من الناس فنقول:

لما بلغ إبراهيم عليه الصلاة و السلام فى بناء البيت إلى موضع الحجر الأسود جاء به جبريل عليه السلام، فوضعه فى مكانه و بنى عليه إبراهيم و هو حينئذ يتلألأ تالؤلأ من شدة بياضه فأضاء نوره شرقا و غربا و يمنا و شاما فكان نوره يضىء إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية من نواحي الحرم، و إنما كان سواده من خطايا بنى آدم، كما جاء فى الحديث و هذا أمر معنوى لا يدركه كل فرد، و قد اسود أيضا من إصابته بالحريق مرة بعد مرة فى الجاهلية و الإسلام كما تقدم بيانه فى بناء قريش و بناء ابن الزبير الكعبة.

فالحجر الأسود ليس من النيازك كما يظنه الأستاذ يوسف أحمد، و إنما هو و المقام ياقوتتان من يواقيت الجنة نزل بهما جبريل عليه السلام، و لو لا أن الله تعالى أطفأ نورهما لأضاء ما بين السماء و الأرض كما جاء ذلك صريحا فى بعض الأحاديث، قال ابن عباس: «و لو لا- أن الله طمس ضوء الحجر الأسود لما استطاع أحد أن ينظر إليه». و قال مجاهد: «الركن من الجنة و لو لم يكن من الجنة

لغنى».

و كما أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، رفع قواعد البيت بأمر الله، فقد وضع الحجر الأسود فيه بأمره عز شأنه أيضاً، لا للعل التي ذكرها الأستاذ يوسف أحمد، قال عكرمة: «إن الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح الحجر فقد بايع الله ورسوله». وقال ابن عباس: «الركن يمين الله في الأرض يصفح بها عباده كما يصفح أحدكم أخاه».

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٧٠

و لقد جاء في فضل الحجر واستلامه أحاديث كثيرة لا لزوم لسردها حتى لا يطول الكلام، نسأل الله التوفيق والهداية للصواب.

انظر: صورة رقم ٨٧، الحجر الأسود و تظهر منه ثمانى قطع فى زماننا اليوم

أصل القرامطة و مذهبهم

حيث أن هؤلاء الطائفة لهم ذكر فى كتابنا هذا عند اقتلاعهم الحجر الأسود و انتهاكهم لحرمة مكة و البيت الحرام، نذكر هنا طرفا عن أصلهم و أخبارهم.

فقد جاء فى تاريخ الخميس عن القرامطة عند الكلام على خلافة المقتدر بالله ما يأتى:

و فى المواقف: لقبوا بالقرامطة لأن أولهم الذى دعا الناس إلى مذهبهم رجل يقال له حمدان قرمط، و هى إحدى قرى واسط، لقبوا بسبعة ألقاب:

(١) بالقرامطة لما مر، (٢) و بالباطنية لقولهم بباطن الكتاب دون ظاهره، فإنهم قالوا للقرآن ظاهر و باطن و المراد منه باطنه لا ظاهره المعلوم من اللغة و نسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر، (٣) و بالحرمية لإباحتهم الحرمات و المحارم، (٤) و بالسبيعة لأنهم زعموا أن النطقاء بالشرايع أى الرسل سبعة آدم و نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد و محمد المهدي سابع النطقاء، (٥) و بالبابية إذ تبع طائفة منهم بابك بن عبد الكريم الحرمى فى الخروج بأذربيجان، (٦) و بالمحمره للبسهم الحمره فى أيام بابك، (٧) و بالإسماعيلية لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق و هو أكبر أبنائه.

و فى الملل و النحل لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني لهم ألقاب كثيرة على لسان كل قوم، فبالعراق يسمون الباطنية و القرامطة و المزدكية، و بخرسان التعلية و الملحده و هم يقولون: نحن إسماعيلية لأننا نميز عن فرق الشيعة بهذا الاسم و بهذا الشخص. انتهى من تاريخ الخميس.

و لقد تكلم الخضرى رحمه الله تعالى فى كتابه «محاضرات الخضرى» عن بعض الطوائف و منهم القرامطة، نذكر هنا طرفا من أخبارهم نقلا عن الكتاب المذكور باختصار فنقول:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٧١

ظهر فى أواخر دولة المعتمد بالله بن المتوكل بن المعتصم المتوفى لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة (٢٧٩) تسع و سبعين و مائتين من الهجرة، رجل بسواد الكوفة قدم إليها من نواحي خوزستان و كان يظهر الزهد و التقشف و يأكل من كسبه و يكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدة و أعلم الناس أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت، و كان يزداد فى أعين الناس نبلا بما يظهره من الزهد ثم مرض. و كان فى القرية رجل يلقبونه «بكرميته» لحرمة عينيه و هو بالنبطية أحمر العين فحمل هذا المريض إلى منزله و وصى أهله بالإشراف عليه و العناية به فلم يزل مقيما عنده حتى برئ فكان «كرميته» يدعو الناس إلى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكره (جمع آكار بالثديد و هو الحراث) و كان يأخذ من كل من دخل فى مذهبه دينارا بزعم أنه للإمام، و اتخذ من أهل القرية نقباء اثني عشر، فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التى أخبرهم أنها مفروضة عليهم.

و كان للهيصم فى تلك النواحي ضياع فوقف على تقصير أكرته فى العمارة، فسأل عن ذلك فعلم بخبر الرجل فوجه فى طلبه فأخذ و

جاء به إليه فحبسه و اشتغل بشره فرقت إحدى جوار الهيصم للرجل فأخذت مفتاح الحجر التي حبس فيها من تحت رأس الهيصم و فتحت الباب و أخرجه ثم أعادت المفتاح إلى مكانه، فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل فلم يجده، و شاعت تلك الحادثة في الناس فافتتنوا به و قالوا رفع ثم ظهر في ناحية أخرى، و أشيع بين الناس أنه لا يمكن أحدا أن يناله بسوء فعظم في أعينهم و مع ذلك فإنه خاف على نفسه و خرج إلى الشام و أطلق على نفسه اسم الرجل الذي آواه و هو «كرميتة» ثم خفف فقيل قرمط و لمن تبعه القرامطة ثم إنه فشا مذهب القرامطة في سواد الكوفة و السلطان لاه عنهم، لا يفكر في تغيير شيء مما هم عليه حتى كان منهم ما كان من الكوارث العظمى التي حلت بالأمة الإسلامية و حتى أخيفت السبل و قطع طريق الحاج.

ثم ظهر بالبحرين رجل يقال له أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، و جنابة من ساحل فارس يدخل إليها في المراكب في خليج من البحر الفارسي و بين المدينة و البحر ثلاثة أميال، و قبالتها في وسط البحرين جزيرة خارك، نشأ بها أبو سعيد هذا و كان رقاقا فنفي عن جنابة فخرج إلى البحرين فأقام بها تاجرا و جعل يستميل التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٧٢

العرب إلى نحلته فاستجاب له أهل البحرين و ما والاها و قوى أمره فقتل ما حوله من أهل القرى و فعل كذلك بالقطيف و أظهر أنه يريد البصرة و أقبل إليها بجموعه في سنة (٢٨٧) سيع و ثمانين و مائتين، فأرسل إليه المعتضد جيشا فهزمه أبو سعيد الجنابي و قتل الأسرى، ثم سار الجنابي بعد الواقعة إلى «هجر».

و أيضا أرسل المعتضد بالله العباسي جيشا يقوده مولاة شبل غلام أحمد بن محمد الطائي إلى الكوفة لمحاربة هؤلاء المارقين الذين انتشر مذهبهم و كثر أتباعهم، فظفر بهم شبل غلام أحمد الطائي، و أسر رئيسا لهم يقال له أبو الفوارس و قدم به على المعتضد، فسأله المعتضد: هل تزعمون أن روح الله تعالى و أرواح أنبيائه تحل في أجسادكم فتعصمكم من الزلزل و توفقكم لصالح العمل؟ فقال: يا هذا إن حلت روح الله فينا فما يضرك و إن حلت روح إبليس فما ينعكك فلا- تسأل عما لا- يعينك و سل عما يخصك. فقال المعتضد: ما تقول فيما يخصني؟ قال: أقول إن رسول الله صلى الله عليه و سلم مات و أبوكم العباس حي فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك، ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر و هو يرى موضع العباس و لم يوص إليه، ثم مات عمر و جعلها شورى في ستة أنفس و لم يوص إليه و لا أدخله فيهم. فيما تستحقون أنتم الخلافة و قد اتفق الصحابة على دفع جدك عنهم؟ فأمر به المعتضد فقتل.

و لما تابع جيش المعتضد إلى من بسواد الكوفة سعى داعية قرمط زكرويه بن مهرويه في استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم و بايعوا سنة (٢٩١) ابن زكرويه المسمى يحيى و المكنى بأبي القاسم و لقبوه الشيخ و زعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق و زعم لهم أن له بالبلاد مائة ألف تابع و سمي أتباعه الفاطميين. فقصدهم شبل مولى المعتضد المذكور من ناحية الرصافة فاغتروه و قتلوه و أحرقوا مسجد الرصافة و اعترضوا كل قرية اجتازوا به حتى بلغوا بلاد الشام و كانت إذ ذاك في حوزة خمارويه بن أحمد بن طولون و ينوب عنه فيها طعج بن جف فقَاتلهم مرارا فهزموه.

هذا ما كان من أمر هؤلاء القرامطة في حياة المعتضد بالله، فقد ظهوروا في ثلاثة مواضع، بالبحرين و العراق و الشام، و قد توفى المعتضد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة (٢٨٩) و كان ولي عهده ابنه المكتفى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٧٣

و في أيام المقتدر بالله بن المعتضد الذي بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفى في ذي القعدة سنة (٢٩٥) خمس و تسعين و مائتين، كان رئيس القرامطة أبو طاهر سليمان الجنابي بن أبي سعيد الحسن الجنابي الذي تقدم ذكره و الذي قتل سنة (٣٠١) إحدى و ثلاثمائة، و كان قد استولوا على هجر و الأحساء و القطيف و سائر بلاد البحرين، فلما تولى أبو طاهر تتابعت غزواته إلى جهة البصرة و كانت أشد غزواته لها سنة (٣١١) فإنه سار إليها في ألف و سبعمائة من القرامطة و دخلها و قتل حاميتها و وضع السيف في أهلها و أقام

بها سبعة عشر يوماً يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان ثم عاد إلى بلده، و توجه منها إلى طريق الحاج ليلقاهم عند رجوعهم إلى مكة، فأوقع بالقافلة العظمى من الحجاج القتل والنهب وأخذوا جمالهم وأمتعتهم وأموالهم والنساء والصبيان ومن نجا منهم مات من الجوع والعطش في موضعه ثم عاد أبو طاهر إلى هجر، فطلب أمير المؤمنين المقتدر بالله من أبي طاهر أن يطلق من عنده من أسرى الحاج فأطلقهم، و طلب ولاية البصرة والأهوار فلم يجبه المقتدر.

ثم خرج الحجاج من بغداد يريدون الحج فسار معهم جعفر بن ورقاء الشيباني وكان على أعمال الكوفة وطريق مكة ومع ألف رجل من بني شيبان و سار معهم أيضاً قواد السلطان بستة آلاف رجل، فلقاهم أبو طاهر القرمطي فهزمهم فرجعوا إلى الكوفة فتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة ثم دخلها وأقام بها ستة أيام ثم عاد إلى «هجر» بعد أن حمل معه ما قدر على حمله من الأموال فخاف أهل بغداد أن يهجم عليهم أبو طاهر.

و في سنة (٣١٥) سار أبو طاهر نحو الكوفة أيضاً واستولى عليها، ثم قصد الأنبار واستولى عليها أيضاً وهزم جيش المقتدر، وجاء شخص إلى علي بن عيسى الوزير وأخبره أن في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكتب أبا طاهر بالأخبار، فأحضره وسأله فاعترف وقال: ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم ولا بد لله من حجة في أرضه وإمامنا محمد بن فلان بن فلان بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب ولسنا كالأفضة والاثني عشرية الذين يقولون بجهلهم أن لهم إماماً ينتظرونه ويكذب بعضهم لبعض فيقول قد رأيتته وسمعتته وهو يقرأ ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطى من العمر ما يظنونه فقال له الوزير: قد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٧٤

خالطت عسكرينا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك؟ فقال: وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع مني أن أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم؟ لا أفعل ذلك فأمر به فضرب ضرباً شديداً ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاثة أيام.

ثم سار أبو طاهر وعثى في أرض الجزيرة نهباً وقتلاً إلا من اعتصم منه بالأمان والفدية وجيوش السلطان لا تؤثر فيها أثراً وتخاف أن تقدم عليه فلما تم له ما أراد من الجزيرة عاد إلى الكوفة ومنها دخل هو وأصحابه البرية بعد أن خافوا السبل وأهلكوا العدد الجم.

و كانت هذه الانتصارات سبباً في ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ويكتم اعتقاده خوفاً فأظهروا اعتقادهم واجتمع منهم بسواد الكوفة أكثر من عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم رجلاً يعرف بحريث بن مسعود واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها في جمع كثير وولوا أمرهم رجلاً يعرف بعيسى بن موسى وكانوا يدعون إلى المهدي و سار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج وصرف عمال السلطان على السواد وسار حريث إلى أعمال الموفقى وبنى بها داراً سماها دار الهجرة واستولى على تلك الناحية فكان أصحابه يذهبون ويقتلون ويسبون.

فأرسل المقتدر إلى حريث بن مسعود ومن معه هارون بن غريب وإلى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة صافياً البصرى فأوقع كل منهما بمن أرسل إليه من القرامطة وأسرى منهم خلق كثير وقتل أكثر ممن أسروا وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء كتب عليها «و نريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين» فأدخلت بغداد منكوسةً واضمحلت أمر من السواد منهم وكفى الله الناس شرهم وإن كان ذلك مما يعجل بخراب القرى وإتلاف المزارع.

و في سنة (٣١٧) سبع عشرة و ثلاثمائة فعل أبو طاهر ما هو أشنع وأدهى وذلك أنه سار بجنده إلى مكة فوافها يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه و قلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف فسألوه في أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فقتلهم أجمعين و قلع باب البيت وطرح القتلى في بئر زمزم و دفن الباقيين في المسجد الحرام حيث قتلوا بغير غسل ولا كفن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٧٥

ولا صلى على أحد منهم، وأخذ كسوة البيت فقسّمها بين أصحابه ونهب دور مكة. ولم يحصل في التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت إلى هذا الحد حتى أن المهدي عبيد الله العلوي لما علم ذلك كتب إلى أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه و يلعنه و يقيم عليه القيامة يقول: قد حققت على شيعتنا و دعاء دولتنا اسم الكفر و الإلحاد بما فعلت، و إن لم ترد على أهل مكة و على الحجاج و غيرهم ما أخذت منهم و ترد الحجر الأسود إلى مكانه و ترد كسوة الكعبة فأنا برىء منك في الدنيا و الآخرة فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود و استعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فردّه و قال: إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة و أموال الحجاج و لا أقدر على منعهم. انتهى كل ذلك من كتاب محاضرات الخضرى.

و قصة قتل أبى سعيد الجنابى الذى تقدم ذكره مذكورة فى تاريخ الخميس فقد جاء فيه ما نصه: و فى سنة (٣٠١) قتل أبى سعيد الجنابى رأس القرامطة قتله مملوك له صقلبى راوده فى الحمام ثم خرج فاستدعى قائدا من أصحاب الجنابى فقال: السيد يطلبك فلما دخل قتله و خرج فطلب آخر فقتله حتى قتل أربعة من رؤسائهم و استدعى الخامس فلما دخل فظن لذلك فأمسك بيد الخادم و صاح الناس و صاح النساء فقتلوه. انتهى منه. و جاء فيه أيضا أنه فى سنة اثنتين و ثلاثين و ثلاثمائة مات الطاغية القرمطى أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد الجنابى فى هجر بالجدري لا رحمه الله. انتهى.

بقيت هنا مسألة صغيرة عنهم و هى: لماذا تمادت القرامطة فى طغيانهم و أغوائهم بدون أن تقضى عليهم جيوش أمير المؤمنين الذى كان فى زمنهم نقول:

إن أمير المؤمنين أو من ينوب عنه فى البلدان ما قصرُوا فى محاربتهم و لكن لم يكن فى ذلك الزمن الأسلحة الحديثة و لا الطائرات و لا الأوتومبيلات و لا أساطيل البحر و البر، كما لم يكن لديهم الراديو و التلغراف و التليفون و وسائل المخابرات السريعة ليقموا المارقين و الخارجين سريعا قبل استفحال أمرهم. فإلى أن يرسلوا رسولا إلى جهة ليأتى بالخبر اليقين و الأمر الحازم و الإمدادات من مال و أسلحة و جيش و طعام يسرع الباغون و الخارجون عن الطاعة بتنفيذ خططهم التى رسموها فيستولوا على بعض البلدان و يتقوا بما يأخذونه منها من المال و الأمتعة و الرجال، ثم إذا التقى هؤلاء بجيش الخليفة فالحرب سجال و النصر بيد الله ينصر من يشاء و هو القوى العزيز. هذا رأينا و الله تعالى أعلم بالغيب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٧٦

اللهم أعز الاسلام و المسلمين و اجمع كلمتهم و شتات أمرهم، و وفقهم لاتباع دينك القويم و صراطك المستقيم، و أهلك الكفرة و المشركين، و اخذلهم أينما كانوا، و اضرب عليهم الذلة و المسكنة و الضعف و الهوان، و أعفُ عَنَّا و اغفرْ لَنَا و ارحمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

آمين، و صلى الله و سلم على النبى الأمى و على آله و صحبه أجمعين.

بعد أن كتبنا جميع ما تقدم، عثرنا على كتاب مطبوع بمصر اسمه «كشف أسرار الباطنية و أخبار القرامطة» لمؤلفه العلامة محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى من أهل القرن الخامس للهجرة، عن الباطنية و القرامطة، فرأينا أن ننقل منه بعض الصحائف المهمة، ليطلع المسلمون كيف تكون الدسائس من أعداء الإسلام، و كيف يغوى الدخلاء و المنافقون الجهلاء ضعاف العقول، حتى أنهم مهما أتوا من الحيل و الطرق الشيطانية، فلا يقدرّون أن ينالوا من الدين الإسلامى الحنيف شيئا، لأنه دين قوى متين، تكفل الله العزيز الحميد بحفظه إلى قيام الساعة، كما هو صريح قوله: يُرِيدُونَ لِيطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. و إليك ما جاء فى الكتاب المذكور:

بسم الله الرحمن الرحيم، قال محمد بن مالك رحمه الله عليه: اعلموا أيها الناس المسلمون، عصمكم الله بالإسلام و جنبنا و إياكم طرق الآثام، و أصلحكم و أرشدكم، و وفقكم لمرضاته و سدّدكم إنى كنت أسمع ما يقال عن هذا الرجل الصليحي كما يسمعون، و ما يتكلم به عليه من سىء الإذاعة و قبح الشناعة، فإذا قال القائل: هو يفعل و يصنع، قلت: أنت تشهد عليه غدا، فيقول: ما شهدت و لا

عانت بل أقول كما يقول الناس.

فكنت أتعجب من هذا أولاً، ولا أكاد أصدق ولا أكذب، ما قد أجمع عليه الناس ونظقت به الألسن، فتارة أقول هذا ما لا يفعله أحد من العرب والعجم، ولا سمع به فيما تقدم من سالف الأمم، إنما هذه عداوة له من الناس للمآل الذي بلغه من غير أصل ولا أساس، و كنت كثيراً ما أسمع يقول: «حكّم الله لنا على من يظلمنا ويرمينا بما ليس فينا». فرأيت أن أدخل في مذهبه، لأتيقن صدق ما قيل فيه من كذبه، ولأطلع على سرائره وكتبه، فلما تصفحت جميع ما فيها وعرفت معانيها رأيت أن أبرهن على ذلك ليعلم المسلمون عمدة مقالته، وأكشف

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٧٧

لهم عن كفره و ضلالته، نصيحة لله وللمسلمين، وتحذيراً ممن يحاول بغض هذا الدين، والله موهن كيد الكافرين. فأول ما أشهد به وأشرحه، وأبينه للمسلمين وأوضحه أن له نواباً يسميهم الدعاء المأذونين، وآخرين يلقبهم المكليين تشبيهاً لهم لكلاب الصيد، لأنهم ينصبون للناس الحبائل، ويكيدونهم بالغوائل، وينقبضون عن كل عاقل، ويلبسون على كل جاهل، بكلمة حق يراد بها الباطل، يحضونه على شرائع الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام، كالذي ينثر الحب للطير ليقع في شركه، فيقيم أكثر من سنه يمعنون به وينظرون صبره ويتصفحون أمره، ويخدعون بروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم محرفة، وأقوال مزخرفة، ويتلون عليه القرآن على غير وجهه، ويحرفون الكلم عن مواضعه، فإذا رأوا منه الانهماك والركون والقبول والإعجاب بجميع ما يعلمونه والانقياد بما يأمرونه، قالوا حينئذ: اكشف عن السرائر، ولا ترض لنفسك ولا تتقنع بما قد قنع به العوام من الظواهر، وتدير القرآن ورموزه، واعرف مثله ومثله، واعرف معاني الصلاة والطهارة، وما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم بالرموز والإشارة، دون التصريح في ذلك والعبارة، فإنما جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة، لمثولات محجوبة، فاعرف الصلاة وما فيها، وقف على باطنها ومعانيها، فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه.

فيقول: عم أسأل؟ فيقولون: قال الله تعالى: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فالزكاة مفروضة في كل عام مرة، وكذلك الصلاة من صلاها مرة في السنة، فقد أقام الصلاة بغير تكرار، وأيضاً فالصلاة والزكاة لهما باطن، لأن الصلاة صلاتان، والزكاة زكاتان، والصوم صومان، والحج حجان، وما خلق الله سبحانه من ظاهر إلا وله باطن، يدل على ذلك ودروا ظاهر الأئمة وباطنه، وقُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ.

ألا ترى أن البيضة لها ظاهر و باطن، فالظاهر ما تساوى به الناس وعرفه الخاص والعام، وأما الباطن فقصر علم الناس به عن العلم به، فلا يعرفه إلا القليل، من ذلك قوله: وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وقوله: وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وقوله:

وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم والصلاة والزكاة سبعة أحرف، دليل على محمد وعلى صلى الله عليهما، لأنهما سبعة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٧٨

أحرف، فالمعنى بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلى، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة. فيوهمون على من لا يعرف لزوم الشريعة والقرآن و سنن النبي صلى الله عليه وسلم فيقع هذا من ذلك المخدوع بموقع الاتفاق و الموافقة، لأنه مذهب الراحة والإباحة، يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله، و يبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله، فإذا قبل منهم ذلك المغرور هذا، قالوا له: قرب قربانا يكون لك سلماً ونجوى، ونسأل مولانا يحط عنك الصلاة و يضع عنك هذا الإصر فيدفع اثني عشر ديناراً، فيقول ذلك الداعي: يا مولانا! إن عبدك فلان قد عرف الصلاة ومعانيها فاطرح عنه الصلاة وضع عنه هذا الإصر، وهذا نجواه اثنا عشر ديناراً، فيقول: اشهدوا أني قد وضعت عنه الصلاة و يقرأ له: وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة يهثوثونه، ويقولون: الحمد لله الذي وضع عنك وزرك الذي أنقض ظهرك.

ثم يقول له ذلك الداعي الملعون بعد مدة: قد عرفت الصلاة و هي أول درجة، و أنا أرجوا أن يبلغك الله إلى أعلى الدرجات، فاسأل و ابحث فيقول: عم أسأل؟ فيقول له: سل عن الخمر و الميسر اللذين نهى الله تعالى عنهما أبو بكر و عمر لمخالفتهم على على و أخذهما الخلافة دونه، فأما ما يعمل من العنب و الزبيب و الحنطة و غير ذلك فليس بحرام، لأنه مما أنبتت الأرض و يتلو عليه: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ إِلَى آخِرِ الآيَةِ، و يتلو عليه: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

و الصوم الكتمان فيتلو عليه: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ يُرِيدُ كِتْمَانَ الأئمة في وقت استتارهم خوفا من الظالمين و يتلو عليه: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنْسِيًّا فلو كان عنى بالصيام ترك الطعام، لقال فلن أطعم اليوم شيئا فدل على أن الصيام الصموت فحينئذ يزداد ذلك المخدوع طغيانا و كفرا و ينهمك إلى قول ذلك الداعي الملعون لأنه أتاه بما يوافق هواه و النفس أمارة بالسوء.

ثم يقول له: ادفع النجوى تكون لك سلما و وسيلة حتى نسأل مولانا يضع عنك الصوم فيدفع اثني عشر دينارا فيمضى به إليه فيقول: يا مولانا! عبدك فلان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٧٩

قد عرف معنى الصوم على الحقيقة فأبح له الأكل برمضان، فيقول له: قد وثقت و أمنت على سرائرنا؟ فيقول له: نعم، فيقول: قد وضعت عنه ذلك.

ثم يقيم بعد ذلك مدة فيأتيه ذلك الداعي الملعون، فيقول له: قد عرفت ثلاث درجات فاعرف الطهارة ما هي، و معنى الجنابة ما هي في التأويل، فيقول: فسر لي ذلك، فيقول له: اعلم أن معنى الطهارة طهارة القلب، و أن المؤمن طاهر بذاته، و الكافر نجس لا يطهره الماء و لا غيره، و أن الجنابة هي موالاة الأضداد أصدقاء الأنبياء و الأئمة، فأما المنى فليس بنجس، منه خلق الله الأنبياء و الأولياء و أهل طاعته، و كيف يكون نجسا و هو مبدأ خلق الإنسان، و عليه يكون أساس البنيان فلو كان التطهير منه من أمر الدين لكان الغسل من الغائط و البول أوجب لأنهما نجسان، و إنما معنى: وَ إِن كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا معناه: فَإِنْ كُنْتُمْ جَهْلَةً بِالْعِلْمِ الْبَاطِنِ فَتَعَلَّمُوا و اعرفوا العلم الذي هو حياة الأرواح كالماء الذي هو حياة الأبدان قال الله تعالى: وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ. و قوله: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ فلما سماه الله بهذا دل على طهارته، و يوهمون ذلك المخدوع بهذه المقالة، ثم يأمره ذلك الداعي أن يدفع اثني عشر دينارا و يقول: يا مولانا! عبدك فلان قد عرف معنى الطهارة حقيقة و هذا قربانه إليك فيقول: اشهدوا أني قد حللت له ترك الغسل من الجنابة.

ثم يقيم مدة فيقول له هذا الداعي الملعون: قد عرفت أربع درجات و بقي عليك الخامسة، فاكشف عنها فإنها منتهى أمرك و غاية سعادتك و يتلو عليه:

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ فيقول له: ألهمني إياها و دلني عليها، فيتلو عليه: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ. ثم يقول له: أتحب أن تدخل الجنة في الحياة الدنيا فيقول: و كيف لي بذلك؟ فيتلو عليه: وَ إِن لَنَا لِلْمَآخِرَةِ وَ الْأُولَى و يتلو عليه: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

و الزينة هاهنا ما خفي على الناس من أسرار النساء التي لا يطلع عليها إلا المخصوصون بذلك، و ذلك قوله: وَ لَا يُؤْيِدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ و الزينة مستورة غير مشهورة ثم يتلو عليه: وَ حُورٌ عِينٌ* كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ فمن لم ينل الجنة في الدنيا لم ينلها في الآخرة، لأن الجنة مخصوص بها ذوو الألباب،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٨٠

و أهل العقول دون الجهال، لأن المستحسن من الأشياء ما خفي، و لذلك سميت الجنة جنه لأنها مستجنه، و سميت الجن جنا

لاختفائهم عن الناس، و الجنة المقبرة لأنها تستر من فيها، و الترس المجن لأنه يستتر به، فالجنة هاهنا ما استتر عن هذا الخلق المنكوس، الذين لا- علم لهم و لا عقول فحينئذ يزداد هذا المخدوع انهماكا و يقول لذلك الداعي الملعون: تلتطف في حالي، و بلغني إلى ما شوقتنى إليه، فيقول: ادفع النجوى اثني عشر دينارا تكون لك قربانا و سلما، فيمضى به فيقول: يا مولانا! إن عبدك فلان قد صحت سريرته و صفت خبرته، و هو يريد أن تدخله الجنة، و تبلغه حد الأحكام، و تزوجه الحور العين، فيقول له: قد وثقت و أمنت؟ فيقول: يا مولانا! قد وثقت و أمنت و خبرته، فوجدته على الحق صابرا و لأنعمك شاكرا.

فيقول: علمنا صعب مستصعب، لا- يحمله إلا- نبي مرسل، أو ملك مقرب، أو عبد امتحن الله قلبه بالإيمان، فإذا صح عندك حاله فاذهب به إلى زوجتك فاجمع بينه و بينها، فيقول سمعا و طاعة لله و لمولانا، فيمضى به إلى بيته فيبيت مع زوجته حتى إذا كان الصباح قرع عليهما الباب و قال: قوما قبل أن يعلم بنا هذا الخلق المنكوس، فيشكر ذلك المخدوع و يدعو له، فيقول له: ليس هذا من فضلي هذا من فضل مولانا، فإذا خرج من عنده تسمع به أهل هذه الدعوة الملعونة فلا يبقى منهم أحد إلا بات مع زوجته كما فعل ذلك الداعي الملعون.

ثم يقول له: لا- بد لك أن تشهد المشهد الأعظم عند مولانا فادفع قربانك فيدفع اثني عشر دينارا و يصل به، و يقول: يا مولانا! إن عبدك فلان يريد أن يشهد المشهد الأعظم و هذا قربانه، حتى إذا جن الليل و دارت الكؤوس و حميت الرؤوس و طابت النفوس أحضر جميع أهل هذه الدعوة الملعونة حريمهم، فيدخلن عليهم من كل باب و أطفالا و السرج و الشموع و أخذ كل واحد منهم ما وقع عليه في يده ثم يأمر المقتدى زوجته أن تفعل كفعل الداعي الملعون و جميع المستجيبين، فيشكره ذلك المخدوع على ما فعل له، فيقول له: ليس هذا من فضلي، هذا من فضل مولانا أمير المؤمنين فاشكروه و لا- تكفروه، على ما أطلق من وثاقتكم، و وضع عنكم أوزاركم، و حط عنكم آصاركم، و وضع عنكم أثقالكم، و أحل لكم بعض الذي عليكم جهالككم و ما يُلقاها إلا الذين صبروا و ما يُلقاها إلا ذو حظ عظيم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٨١

قال محمد بن مالك رحمه الله تعالى: هذا ما اطلعت عليه من كفرهم و ضلالتهم، و الله تعالى لهم بالمرصاد، و الله تعالى على شهيد بجميع ما ذكرته، مما اطلعت عليه من فعلهم و كفرهم و جهلهم، و الله يشهد على بجميع ما ذكرته عالم به، و من تكلم عليهم بباطل فعليه لعنة الله و لعنة اللاعنين و الملائكة و الناس أجمعين، و أخزى الله من كذب عليهم، و أعد له جهنم و ساءت مصيرا، و من حكى عنهم بغير ما هم عليه فهو يخرج من حول الله و قوته إلى حول الشيطان و قوته، فأديت هذه النصيحة إلى المسلمين حسب ما أوجبه الله على من حفظ هذه الشهادة، فإن الله سبحانه أمر بحفظ الشهادة و مراعاتها و أدائها إلى من لم يسمعها، قال الله سبحانه و تعالى: سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيَسْئَلُونَ اللَّهَ أَسْأَلُهُ أَنْ يَتَوَفَّانَا مُسْلِمِينَ، و لا ينزع عنا الإسلام بعد إذ آتانا الله بمنه و رحمته.

المقالة في أصل هذه الدعوة الملعونة و مبدئها

و قد رأيت أيها الناس وفقنا الله و إياكم للصواب، و جنبنا و إياكم طرق الكفر و الارتياب، أن أذكر أحبال هذه الدعوة الملعونة لثلاث يميل إلى مذهبهم مائل، و لا يصبوا إلى مقاتلتهم لبيب عاقل، و يكون في هذا القدر من الكلام في هذا الكتاب إنذارا لمن نظره، و أعذارا لمن وقف عليه و اعتبره.

(باب) اعلموا يا إخواني في الإسلام أن لكل شيء من أسباب الخير و الشر و النفع و الضر و الداء و الدواء أصولا، و للأصول فروعا، و أصل هذه الدعوة الملعونة التي استهوى به الشيطان أهل الكفر و الشقوة، ظهور «عبد الله بن ميمون القداح» في الكوفة، و ما كان له من الأخبار المعروفة، و المنكرات المشهورة الموصوفة، و دخوله في طريق الفلسفة و استعماله الكتب المزخرفة، و تمشيته إياها على الطغام، و مكيدته لأهل الإسلام.

و كان ظهوره في سنة ست و سبعين و مائتين من التاريخ للهجرة النبوية، فنصب للمسلمين الحبال، و بغى لهم الغوائل، و لبس الحق بالباطل، و مكر أولئك هو يبور و جعل لكل آية من كتاب الله تفسيراً، و لكل حديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم تأويلاً، و زخرف الأقوال، و ضرب الأمثال، و جعل لآي القرآن شكلاً يوازيه، و مثلاً يضاهيه، و كان الملعون عارفاً بالنجوم متضلعا بجميع العلوم يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم و الله متم نوره و لو كره الكافرون فجعل أصل دعوته

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٨٢

التي دعاها، و أساس بنيتها التي بناها، الدعاء إلى الله و إلى رسوله و يحتج بكتاب الله و معرفته مثله و ممثوله، و الاختصاص لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بالتقديم و الإمامة و الطعن على جميع الصحابة، بالسب و الأذى و قد روى عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: «لعن الله من سب أصحابي» و قال عليه السلام: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» و قال صلى الله عليه و سلم: «من سب أصحابي فقد سبني، و من سبني فقد سب الله، و من سب الله كبه الله على وجهه في النار» فأفسد بتمويه قلوب الجهال، و زين لهم الكفر و الضلال، و له شرح يطول فيه الخطاب غير أنني أختصر و فيما أشرحه كفايةً و اعتباراً لأولى الألباب و الأبصار.

و كان هذا الملعون يعتقد اليهودية و يظهر الإسلام، و هو من اليهود من ولد الشلعلع من مدينة بالشام يقال لها سلمية، و كان من أخبار اليهود و أهل الفلسفة الذين عرفوا جميع المذاهب، و كان صائغاً يخدم (شيعة) إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، و كان حريصاً على هدم الشريعة المحمدية، لما ركب الله في اليهود من عداوة الإسلام و أهله، و البغضاء لرسول الله صلى الله عليه و سلم فلم ير وجهاً يدخل به على الناس حتى يردهم عن الإسلام ألطف من دعوته إلى أهل بيت رسول الله صلى الله عليه و سلم، و كان قد خرج في أيام قرمط البقار، و كان اسمه أو لقبه لأنه كان يقرمط في سيره إذا مشى، و لذلك نسب أهل مذهبه و مذهب ابن ميمون إلى قرمط، لأنهما اجتماعاً و عملاً ناموساً يدعوان إليه، و كانا يعرفان بالنجوم و أحكام الأزمان، فدلها الوقت على تأسيس ما عملاه، فخرج ميمون إلى الكوفة و أقام بها مدة، و له أخبار يطول شرحها، مما كان منه و من علي بن فضل و المنصور صاحب مسور و أبي سعيد الجنابي و أنا أشرح ذلك عند انتهائي إليه إن شاء الله تعالى، و أما قرمط البقار فإنه خرج إلى بغداد فقتل هنالك لا رحمه الله.

(باب) ذكر ما كان من القداح و عقبه لعنه الله و من تعلق بسببه و دخل في ضلالته و مذهبه، و كان أول أولاده عبيد و هو المهدي ثم «محمد» و هو القائم ثم «الظاهر» إسماعيل المنصور ثم «المعز» ثم «العزیز» ثم «الحاكم» ثم «الظاهر» ثم «معد المستنصر» هؤلاء الذين ينسبون إليه إلى عصرنا هذا، فانتسبوا إلى ولد الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، و انتحلهم إليه انتحال كاذب، و ليس لهم في ذلك برهان، و أهل الشرف ينكرون ذلك فإنهم لم يجدوا لهم في

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٨٣

الشرف أصلاً مذكوراً، و لا عرفوا لهم في كتاب الشجرة نسباً مشهوراً، بل الكل يقصيه عن الشرف و ينفيه عن النسب، إلا من دخل معهم في كفرهم و ضلالته، فإنه يشهد لهم الزور، و يساعدهم في جميع الأمور، و قد زعموا أنهم من ولد محمد إسماعيل بن جعفر الصادق و حاش لله ما كان لمحمد إسماعيل من ولد، و لا عرف ذلك من الناس أحد، بل هم كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

الدليل على ذلك و على بطلان ما ذكروه أنهم يقولون معدا المستنصر بن الظاهر ابن الحاكم ابن العزيز ابن المعز ابن المنصور ابن القائم ابن المهدي و هو عبيد بن ميمون، ثم يقولون ابن الأئمة المستورين من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق، فإذا سألتهم سائل عن هؤلاء المستورين حادوا عن الجواب، و كان للسائل لهم الارتباب، و قالوا هم أئمة قهروا فتستروا، و لم يؤمروا بإظهارهم و لا ذكرهم لأحد، و هذا من أعظم الشواهد على بطلان ما ذكروه و انتسبوا إليه.

و الدليل على أنهم من ولد اليهود، استعمالهم اليهود في الوزارة و الرئاسة، و تفويضهم إليهم تدبير السياسة ما زالوا يحكمون اليهود في

دماء المسلمين و أموالهم، و ذلك مشهور عنهم يشهد بذلك كل أحد.

(باب) خروج ميمون القداح من سلمية إلى الكوفة و قد ولد عبيد و هو الذى يسمونه عبيد الله المهدي فأقاما بالكوفة مدة طويلة حتى تهيأ لهما ما كانا يطلبان، و إلى أن أجابهما إلى ذلك تسعة رهط يفسدون فى الأرض و لا يصلحون، منهم على بن فضل الجدنى اليماني، و أبو القاسم بن زاذان الكوفى المسمى المنصور عند كونه فى اليمن فى مسور، و أبو سعيد الجنابى صاحب الأحساء و البحرين، و أبو عبد الله الشيعى صاحب كتامة فى الغرب، و الحسن بن مهران المسمى بالمقنع الخارج فيما وراء النهر من خراسان، و محمد بن زكريا الخارج فى الكوفة، و لا بد أن أذكر أصح خبر كل واحد منهم مختصرا إن شاء الله تعالى.

(باب) ذكر أبى سعيد الجنابى لعنه الله كان فيلسوفا ملعونا ملك البحرين و اليمامة و الأحساء، و ادعى فيها أنه المهدي القائم بدين الله، فاستفتح .. و دخل مكة، و قتل الناس فى المسجد الحرام، و منع الناس من الحج، و اقتلع الركن و راح به إلى الأحساء، و قال فى ذلك شعرا:

و لو كان هذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٨٤ لأننا حججنا حجة جاهلية مجللة لم نبق شرقا و لا غربا

و إنا تركنا بين زمزم و الصفا جناز لا تبغى سوى ربها ربا

و له لعنه الله أشعار بالقدر فى ذلك تركتها اختصارا، و كان دخوله مكة سنة سبع عشرة و ثلاثمائة و قتل فيها ثلاثة عشر ألفا عليه لعنة الله.

انتهى من كتاب كشف الأسرار الباطنية و أخبار القرامطة، المطبوع بمصر ١٣٥٧ على حساب ناشره و مصححه السيد عزت العطار، و هو كتاب يقع فى أربع و أربعين صحيفة، و نحن نقلنا من صحيفه ١١ إلى صحيفه ٢١ و تركنا الباقي حتى لا يطول بنا الكلام.

وضع الأطواق على الحجر الأسود

سبب وضع الأطواق الفضية على الحجر الأسود و ربطه بالفضة الخالصة، هو حصول تصدع و تشطيب فيه و كان أول حدوث ذلك فى أيام خلافة ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما بسبب حريق الكعبة المعظمة الذى حصل فى أيام الحصار، و ذلك أن رجلا أوقد نارا فى بعض الخيام المضروبة فى المسجد الحرام فطارت شرارة فى الخيمة فمشى الحريق حتى أخذ فى كسوة الكعبة فاحترقت و احترق الركن الأسود أيضا و ذلك سنة (٦٤) أربع و ستين هجرية، فتصدع الحجر الأسود بثلاث فرق، فربطه ابن الزبير بالفضة، ثم وقع على الركن جملة حوادث مما تقدم ذكرها زادت من تصدعه و تفلقه، لذلك كان أمراء المؤمنين و السلاطين الأقدمون لا يلمسون الحجر الكريم فى عمارتهم للكعبة إلا برفق و حذر، حتى أنه فى عمارة السلطان مراد الرابع التى حصلت سنة (١٠٤٠) تركوا الحجر الأسود فى محله خوفا من تفرق أجزائه و أحكموا البنيان حوله إحكاما.

هذا سبب وضع أطواق الفضة على الحجر الأسود، و لنذكر هنا عدد ما وضع عليه من الأطواق و اسم واضعها غير ناظرين إلى اختلاف أشكالها و وزن أحجامها فنقول و بالله التوفيق:

١- عبد الله بن الزبير رضى الله عنه: و هو أول من ربط الحجر بالفضة لما أصابه الحريق فى عهده سنة (٦٤) أربع و ستين من الهجرة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٨٥

٢- هارون الرشيد: و ذلك عندما اعتمر سنة (١٨٩) تسع و ثمانين و مائة من الهجرة حيث تزلزلت الفضة التى حول الركن، فأمر بالحجارة التى بينها الحجر الأسود أن تنقب فنقبت بالماس من فوقها و من تحتها ثم أفرغ فيها الفضة.

٣- القرامطة: فإنهم لما أتوا مكة فى سابع ذى الحجة سنة (٣١٧) سبع عشرة و ثلاثمائة و فعلوا بها أمورا منكرا عظيمة، قلعوا الحجر الأسود من موضعه، ضربه أحدهم بديبوس فقلعه من محله لأربع عشر خلت من ذى الحجة من السنة المذكورة فذهبوا به إلى بلادهم،

ثم فى يوم النحر سنة (٣٣٩) تسع و ثلاثين و ثلاثمائة ردوه إلى محله، وافى به سنبر بن الحسن القرمطى، فإنه لما جاء بفناء الكعبة و معه أمير مكة أظهر الحجر الأسود من سفظ (و هو وعاء كالقفة) و عليه ضبة فضة قد عملت من طوله و عرضه تضبط الشقوق التى حدثت عليه بعد اقتلاعه، فوضع سنبر الحجر بيده فى محله و شده الصانع بالجص الذى أحضره معه لهذا الغرض، ثم قال سنبر: أخذناه بقدره الله ورددناه بمشيئة الله.

٤- سدنء الكعبة: ثم فى سنة (٣٤٠) ثلاثمائة و أربعين من الهجرة أى بعد إرجاع سنبر الحجر الأسود ببضعه أشهر قلعه الحجة آل الشيبى و عملوا له طوقا من فضة أحكموه عليه إحكاما و كان فيه ثلاثة آلاف و سبعة و تسعون درهما و نصف من الفضة.

٥- و فى سنة (٥٨٥) خمس و ثمانين و خمسمائة أخذ أمير مكة داود بن عيسى بن فليته الحسنى طوق الحجر الأسود قبيل عزله من مكة و لم نقف نحن على من وضع بدله طوقا آخر.

٦- و فى سنة (١٠٩٧) سبع و تسعين و ألف فى أوائل ربيع جعل شيخ الحرم «و لم نعرف اسمه» على الحجر الأسود طوقا من الفضة، و الظاهر أن أحمد باشا الذى أصلح الشاذروان و أمر بالحجر السماق فوضع تحت الركن الأسود مما يلى الأرض كما جاء بصحيفة ١٤٧ من تاريخ الكعبة.

٧- السلطان عبد المجيد خان: أرسل فى سنة (١٢٤٨) ثمان و ستين و مائتين و ألف طوقا من الذهب الخالص للحجر الأسود وزنه نحو عشر أقات فجعلوه عليه بعد أن قلعوا الطوق القديم، و قد كان فى غاية الإتقان من النقش و الزخرفة و كتب عليه آية الكرسي و غيرها من الآيات و هذه أول مرة طوق الحجر الأسود بالذهب.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٨٦

٨- السلطان عبد العزيز خان: أرسل فى سنة (١٢٨١) إحدى و ثمانين و مائتين و ألف طوقا من الفضة فجعل على الحجر الأسود بعد أن قلع الطوق الذهب المذكور.

٩- السلطان محمد رشاد خان: أرسل فى سنة (١٣٣١) إحدى و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة طوقا من الفضة فجعل على الحجر الأسود، و قد بقى هذا الطوق على الحجر إلى سنة (١٣٧٥) هجرية.

١٠- مليكنا المعظم، الملك سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية: أمر حفظه الله تعالى بعمل طوق جديد من الفضة الخالصة، ففى يوم الأربعاء الثانى و العشرين من شهر شعبان قبيل صلاة المغرب وضع هذا الطوق الملك سعود المذكور بيده الكريمة على الحجر الأسود و قد كنت أنا محمد طاهر الكردي مؤلف هذا الكتاب واقفا بجواره ممسكا بالطوق الجديد لتثبته على الركن الأسود بعد أن قلعنا الطوق الفضى القديم الذى كان وضعه السلطان محمد رشاد خان المذكور.

و لا يفوتنا أن نسجل فى تاريخنا هذا أن والد الملك سعود المذكور الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس الدولة السعودية رحمه الله تعالى و أحسن مثواه، كان قد أصلح جزءا فى طوق الحجر الأسود القديم الذى قلعناه و ذلك سنة (١٣٦٦) هجرية و بالدعاء بالرحمة و الغفران لهذا الملك الراحل الصالح المصلح، و بالتوفيق و العز و التأييد لابنه العظيم مليكنا الملك سعود نختم هذا الفصل، و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم، سبحانه ربك رب العزة عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

تطويق الحجر الأسود بالذهب و الفضة

أول من طوق الحجر الأسود بالفضة عبد الله بن الزبير رضى الله عنه و سببه أن الكعبة احترقت فى أيامه، فاحترق الركن الأسود معها، و انصدع ثلاث فرق، فشده ابن الزبير بالفضة. روى أبو عون عن أبيه قال: رأيت الحجر قد انفلق و اسود من الحريق فأنظر إلى جوفه أبيض كأنه الفضة، قال ابن جريج: فسمعت من يصف لون مؤخره الذى فى الجدر، قال بعضهم: هو مورد، و قال بعضهم:

هو أبيض، ثم فى سنة ألف و مائتين و ثمان و ستين هجرية طوقه بالذهب السلطان

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٨٧

عبد المجيد خان، و هي أول مرة طوق الحجر الأسود بالذهب، ثم في سنة ألف و مائتين و إحدى و ثمانين طوقه بالفضة السلطان عبد العزيز خان، ثم في سنة ألف و ثلاثمائة و إحدى و ثلاثين غيرت تلك الفضة بالفضة التي هي عليه الآن و ذلك في زمن السلطان محمد رشاد خان، رحمه الله تعالى ثم جرى إصلاح في طوق الحجر، و ذلك سنة ألف و ثلاثمائة و ست و ستين هجريه، و إليك صورة الحجر الأسود و هو مطوق بالفضة، و هو عدة قطع كما هو ظاهر في الرسم.

انظر: صورة رقم ٨٨، للحجر الأسود أخذت منذ أربعين سنة تقريبا

و قد تكسر لاعتداء بعض المجرمين عليه عدة مرات كما جاء ذلك في التواريخ، و قد ظهرت منه في هذه الصورة خمسة عشر قطعة، و لكن الذي هو ظاهر منه في أيامنا هذا قطع قليلة و سببه اعتداء بعضهم عليه في عصرنا الحاضر أيضا فتطيرت منه شظايا عندئذ. ثم جمع ما تكسر و خلط ببعض الأجزاء من نحو الشمع و أعيد إلى موضعه، بعد أن لقي المعتدى الجزاء الصارم. لهذا أحيط هذا الحجر الكريم بالفضة صونا له و لم يترك منه إلا بعض قطع صغار يقبله الناس. على أن نفس الحجر الأسود بأكمله داخل في بناء الكعبة المشرفة.

نقول: و للحجر الأسود مغزى خاص و رمز تعبدي و حكمة بالغة، ذلك أن المسلمين الذين يأتون لأداء فريضة الحج و شهود المنافع في تلك البقاع الطاهرة، إذا طافوا ببيت الله الحرام و قبلوا هذا الحجر الأسود و استلموه بأيديهم، فكأنهم بذلك يصفحون الله عز و جل، و يقدمون له الطاعة و الإيمان به و برسوله. و قد قال عكرمة: «إن الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله صلى الله عليه و سلم فمسح الحجر فقد باع الله و رسوله» و في هذا نهاية الخضوع و الامتثال لأمر الله تعالى.

و في الطواف بالبيت و استلام الحجر الأسود إشعار بالوحدة الإسلامية و استمساك بالرابطة المحمدية فالمسلمون في حالة البعد يتوجهون في صلاتهم إلى هذه القبلة الحريمة، و في حالة القرب و الوصول يطوفون حولها يعوذون برب هذا البيت و يلتفون حول ركنه الأسود القائم في السلام مقام الراية في الحرب و لسان حالهم يقول: «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَ كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَ لَتَكُنَّ مِنْكُمْ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٨٨

أُمَّهُ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

و في تقبيل المسلمين و استلامهم للحجر الأسود نقطة دقيقة، و هي أن تقع أفواههم موضع فم رسول الله صلى الله عليه و سلم و أن تلمس أيديهم ما لمست يده الشريفة من هذا الحجر المكرم، و أي مسلم إذا خطرت بباله هذه النقطة لا يبادر بتقبيله و استلامه؟ ...

المحافظة التامة على قطع الحجر الأسود إن كسر منه شيء

(و اعلم) بأنه لو اعتدى سفيه أو مخبول على الحجر الأسود المكرم، فضربه بشيء حتى انكسر منه بعضه، فإنهم يحافظون على تلك الأجزاء و الفتات تمام المحافظة، بأن يعجنوه بمواد من الشمع الأحمر و العطر و بعض الأجزاء فيضعونه في محله أيضا، فما كان منه متفتتا أو قطعاً صغيرة كالنواة مثلا- يعجن و لا- يظهر منه شيء ثم يلصق بمحل الحجر الأسود فيرجع إليه، و ما كان منه قطعاً كبيرة كالليمونة مثلا فيعجن و يوضع في محله أيضا لكنهم يبرزون منه جزءا ليكون ظاهرا للناس ليقبلونه، فهذا هو سبب ظهور بعض القطع من الحجر الأسود، مع العلم بأن جرم الحجر الأسود كله داخل في باطن ركن الكعبة المعظمة، و لذلك يختلف ظهور أجزاء الحجر الأسود المتكسرة في بعض الأزمنة.

إشارة

قال في المصباح المنير ما نصه:

الشاذرون (بفتح الذال) من جدار البيت الحرام وهو الذى ترك من عرض الأساس خارجا و يسمى تآزيرا لأنه كالإزار للبيت. انتهى منه.

فالشاذرون الموجود الآن فى داخل بناء الكعبة المشرفة هو من بناء السلطان مراد الرابع عند بنائه الكعبة سنة (١٠٤٠) ألف و أربعين هجرية كما تقدم تفصيل ذلك، وليس مرادنا أن السلطان المذكور هو الذى اخترع وضع الشاذرون فى الكعبة، بل إن الشاذرون كان موجودا منذ القدم فى البناية السابقة كما سيأتى بيان ذلك مفصلا فى هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٨٩

فالشاذرون: هو الحجارة المائلة الملتصقة بأسفل الكعبة المحيطة بها من جوانبها الثلاثة، أما الجانب المقابل لحجر إسماعيل ففيه كدرجة واحدة مسطحة يقف عليها بعضهم للتضرع و الدعاء ملصقا بطنه بالكعبة و رافعا يديه فوق رأسه، و هى بطول جدار الكعبة و ارتفاعها عن الأرض أحد عشر سنتيمترا و عرضها أربعون سنتيمترا.

و اختلف فى الشاذرون هل هو من البيت أم لا كما سيأتى الكلام عنه.

و السبب الذى لم يوضع الشاذرون فى هذه الجهة هو أن هذه الجهة من جدار الكعبة إلى نحو منتصف حجر إسماعيل هى حدودها حينما بناها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام فنقصتها قريش حين بنائها. و كذلك لم يوضع الشاذرون أسفل باب الكعبة بل فيه كدرجة واحدة مسطحة أيضا يقف عليها الناس للتضرع فى الملتم و طول هذه الدرجة ثلاثة أمتار و خمس و أربعون سنتيمترا.

و نحن لم نر فى التاريخ شيئا مذكورا عن أول من عمل الشاذرون للكعبة المشرفة، و لكن الأستاذ البتونى ذكر فى "رحلته الحجازية" عند الكلام على شكل الكعبة بصحيفة ١٠٥ شيئا عن الشاذرون نقله هنا بنصه، قال رحمه الله تعالى:

"و الشاذرون معناه ما يحيط بالسلسيل، و كانوا يطلقونه فى العمارات المصرية القديمة على محيط النافورات التى كانت فى وسط القاعات الكبرى، و على ظنى أنه هنا من أثر عمارة الحجاج، أقامه ليقى جدار البيت المعظم من تأثير الأمطار و السيول التى كانت و لا تزال تنزل بكثرة إلى المطاف، و دليلنا على ذلك إنما هو لفظه الفارسى الذى لا بد أن يكون من وضع عملة من الفرس استحضرهم الحجاج بن يوسف لعمارته. و لا يبعد أن يكون ذلك من عهد ابن الزبير، و يؤيده ما ورد فى الأغانى من أن ابن سريج سئل عن تعلم الغناء على القاعدة التى كان يغنى عليها مع أنها ما كانت معروفة عند العرب، فقال: إنه تعلمها من عملة الفرس كان ابن الزبير استحضرهم لبناء الكعبة، و كانوا يتغنون بأغنية لطيفة فأخذها عنهم و أضاف نغماتها على النغمات العربية و غنى بها. و على كل حال فالشاذرون و الميزاب لفظان أعجميان، و لم يرد ذكرهما على مدته صلى الله عليه و سلم." انتهى ما أورد الأستاذ محمد لبيب البتونى فى الرحلة الحجازية.

قال العلامة ابن خلدون فى مقدمته عن الشاذرون، عند الكلام على المساجد و البيوت العظيمة فى العالم ما يأتى:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٩٠

و يعرض هنا إشكال قوى، لمنافاته لما يقوله الفقهاء فى أمر الطواف، و يحذر الطائف أن يميل على الشاذرون الدائر على أساس الجدر من أسفلها، فيقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجدر إنما قامت على بعض الأساس و ترك بعضه و هو مكان الشاذرون، و كذا قالوا فى تقبيل الحجر الأسود لا بد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوى قائما لثلا يقع بعض طوافه داخل البيت، و إذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير و هو إنما بنى على أساس إبراهيم، فكيف يقع هذا الذى قالوا؟

و لا مخلص من هذا إلا بأحد أمرين: إما أن يكون الحجاج هدم جميعه و أعاده و قد نقل ذلك جماعة، إلا أن العيان فى شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين و تحيير أحد الشققين من أعلاه عن الآخر فى الصنعة يرد ذلك، و إما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على

أساس إبراهيم من جميع جهاته، وإنما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم، وهذا بعيد ولا محيص من هذين والله تعالى أعلم. انتهى من مقدمة ابن خلدون.

أما بناء الشاذروان وأنه من نفس البيت: فلم نر من تكلم عنه الكلام الشافي من العلماء والمؤرخين، فبعضهم قال أنه من الكعبة، وبعضهم قال ليس من الكعبة كما سيظهر فيما سيأتي.

والذي نجح إليه أن الشاذروان من الكعبة، ونستدل على هذا بما جاء في تاريخ الإمام الأزرقى المتوفى في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، فقد قال عند ذكر بناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ما نصه: فلما هدم ابن الزبير الكعبة وسواها بالأرض كشف عن أساس إبراهيم فوجدوه داخلًا في الحجر نحوًا من ستة أذرع وشبر كأنها أعناق الإبل آخذ بعضها بعضًا كشييك الأصابع بعضها ببعض يحرك الحجر من القواعد فتتحرك الأركان كلها، فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً من وجوه الناس وأشرفهم وأشهدهم على ذلك الأساس، قال:

فأدخل رجل من القوم يقال له عبد الله بن مطيع العدوى عتله كانت في يده في ركن من أركان البيت فتزعزت الأركان جميعاً، ويقال: أن مكة كلها رجفت رجفة شديدة حين زعزع الأساس وخاف الناس خوفاً شديداً حتى ندم كل من كان أشار على ابن الزبير بهدمها وأعظموا ذلك إعظاماً شديداً وأسقط في أيديهم. فقال لهم ابن الزبير: اشهدوا. ثم وضع البناء على ذلك الأساس و وضع

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٩١

حدات الباب باب الكعبة على مدماك على الشاذروان اللاصق بالأرض وجعل الباب الآخر بإزائه في ظهر الكعبة مقابله وجعل عتبه على الحجر الأخضر الطويل الذي في الشاذروان الذي في ظهر الكعبة قريباً من الركن اليماني وكان البناءون يبنون من وراء الستر والناس يطوفون من خارج، فلما ارتفع البنيان إلى موضع الركن ... إلى آخر الكلام. اهـ.

وقال في تاريخه أيضاً عند الكلام على سيول وادي مكة في الجاهلية ما نصه:

عن محمد بن عبد العزيز أن وادي مكة سال في الجاهلية سيلاً عظيماً وخزاعة تلي الكعبة وأن ذلك السيل هجم على أهل مكة فدخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة ورمى بالشجر بأسفل مكة وجاء برجل وامرأة ميتين فعرفت المرأة كانت تكون بأعلا مكة يقال لها "فارة" ولم يعرف الرجل، فبنت خزاعة حول البيت بناء أداروه عليه وأدخلوا الحجر فيه ليحصنوا البيت من السيل، فلم يزل ذلك البناء على حاله حتى بنت قريش الكعبة، فسمى ذلك السيل سيل فارة وسمعت أنها امرأة من بني بكر. اهـ.

فعلى هذا يكون أصل الشاذروان من عمل خزاعة وحذت قريش حذوها فأبقت الشاذروان حين بنائها الكعبة. والله تعالى أعلم. انتهى كل ذلك من تاريخ الإمام الأزرقى رحمه الله تعالى وجزاه عنا خير الجزاء لتأليفه هذا التاريخ المهم عن أخبار مكة الذي أصبح عمدة لدى العلماء والمؤرخين.

ونستنتج من كلام الأزرقى جملة أمور، منها:

(١) أن أصل الشاذروان هو من عمل خزاعة حينما كان أمر الكعبة إليها، بنته حولها ليحصنوها من السيل وأن هذا البناء بقي على حاله حتى بناء قريش للكعبة.

(٢) أن الشاذروان كان في بناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، بدون شك، وأن الشاذروان اللاصق بالأرض هو على نفس الأساس الأول الذي كشفه ابن الزبير، وإن لم يأت ذكره في بناء قريش للكعبة، والحجاج الثقفي لم يتعرض للشاذروان مطلقاً حينما هدم الكعبة، فإنه هدم منها ما زاده فيها ابن الزبير وهو الجانب الذي من جهة حجر إسماعيل وسد الباب الغربي، ورفع

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٩٢

الباب الشرقي عن الأرض كما كان في بناء قريش، وترك بقية الكعبة على بناء ابن الزبير.

(٣) أن عتبة الباب الشرقي وعتبة الباب الغربي كانتا مرفوعتين عن الأرض بنحو شبر ولم تكونا متساويتين بالأرض، كما هو ظاهر من

صريح عبارة الأزرقى المتقدمة.

(٤) تأكد ابن الزبير من ظهور أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام ودعوته خمسين رجلا من أشرف الناس وأعيانهم ليشهدوا على ذلك، وهو ما يطلب شرعا في كل أمر مهم، نفيًا عن التهمة والشك.

(٥) حجب البناء عن أعين الناس بوضع الستارة حول الكعبة والناس يطوفون من خارجها، وفي ذلك فائدتان: ستر البناء من فضول أعين الناس حتى لا يحصل تهاون بحرمة الكعبة، وقيام البناء على هدوء وسكينة بدون تشويش واعتراض.

ومثل هذا يحدث في عصرنا في البلدان الأخرى عند إقامة التماثيل وبناء الصور الرمزية ونحوهما.

(٦) اختيارهم عند بناء الكعبة الأحجار الثمينة الجميلة لوضعها فيها كما جاء في صريح العبارة "وجعل عتبه على الحجر الأخضر الطويل الذى فى الشاذروان" وهم أهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون، ومنها أخذ الولاة والسلاطين أن يضعوا الأحجار الكريمة الثمينة على الكعبة وما حولها، كالرخامة الخضراء تحت ميزاب الكعبة الموضوع في سنة إحدى وأربعين ومائتين، و كالرخامات الصفرة الموضوع بأعلى الشاذروان الذى فوق الحفرة التى عند باب الكعبة حين عمارة المطاف سنة إحدى وثلاثين وستمائة كما هو مكتوب على الحجر الأزرق الذى تحت الرخامات الصفرة، و كالحجر الأحمر الصغير الموضوع فى باطن الحفرة المذكورة، فمثل هذه الأشياء لم توضع إلا لقيمتها الثمينة و لندرة وجودها. و ستتكلم عنها إن شاء الله تعالى بعد هذا الفصل.

هذا ما ظهر لنا عن الشاذروان والله تعالى أعلم بالصواب، ولا نظن أن أحدا كتب عنه بمثل ما كتبنا فالحمد لله على توفيقاته و نعمائه. التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٩٣

حكم الشاذروان بالنسبة للطواف

بقى علينا أن نذكر ما قاله العلماء والمؤرخون عن الشاذروان تكملته للبحث من جميع الوجوه:

فقد جاء فى كتاب "الفرقة على المذاهب الأربعة" للعلامة الشيخ عبد الرحمن الجزيرى عند الكلام على تعريف القبلة ما نصه:

وليس من الكعبة الحجر ولا الشاذروان وهما معروفان لمن كان بمكة وسيأتى بيانهما فى كتاب الحج إن شاء الله تعالى، فمن كان بمكة واستقبل الحجر أو الشاذروان فأن صلاته لا تصح عند ثلاثة من الأئمة وخالف الحنابلة فانظر مذهبهم تحت الخط (ثم ذكر مذهبهم فقال): الحنابلة قالوا أن الشاذروان وستة أذرع من الحجر وبعض ذراع فوق ذلك من الكعبة، فمن استقبل شيئاً من ذلك صحت صلاته.

انتهى من كتاب الفقه المذكور، ولم يذكر فى كتاب الحج عن الحجر والشاذروان إلا بيان حكم الطواف بالنسبة إليهما فلم نر ما يوجب نقل كلامه هنالك.

أما قول المؤرخين عن الشاذروان، فهو يتلخص فيما ذكره المؤرخ الكبير الشيخ عبد الله الغازى فى تاريخه، وهذا نصه.

(الفائدة الخامسة) فى ذكر شاذروان الكعبة: قال الفاسى فى شفاء الغرام أما شاذروان الكعبة فهو الأحجار الملاصقة بالكعبة التى عليها البناء المسنم المرخم فى جوانبها الثلاثة الشرقى والغربى واليمانى وبعض حجارة الجانب الشرقى لا بناء عليه وهو شاذروان أيضا.

وأما الحجارة الملاصقة بجدار الكعبة الذى يلى الحجر فليست شاذروانا لأن موضعها من الكعبة بلا ريب.

والشاذروان هو ما نقصته قريش من عرض جدر أساس الكعبة حتى ظهر على الأرض كما هو عادة الناس فى الأبنية أشار إلى ذلك الشيخ أبو حامد الإسفرائينى وابن الصلاح والنوى ونقل ذلك عن جماعة من الشافعية وغيرهم كالمحب الطبرى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٩٤

و ذكر أن الشافعية أشار إلى ذلك فى الأم ونقل عنه أنه قال: إن طاف عليه أعاد الطواف. انتهى.

وقد اختلف العلماء فى حكم الشاذروان فذهب الشافعية وأصحابه إلى وجوب الاحتراز منه وعدم أجزاء طواف من لم يحترز منه و

هو مقتضى مالك على ما ذكر ابن شاش و ابن الحاجب و شارحه الشيخ خليل و تلميذه صاحب الشامل و غيرهم من متأخري المالكية و أنكر ذلك بعض متأخري المالكية و لم يثبت في المذهب.

و مذهب الحنابلة أن الاحتراز منه مطلوب إلا أن عدم الاحتراز لا يفسد الطواف.

و مذهب أبي حنيفة أنه ليس من البيت على مقتضى ما نقل القاضي شمس الدين السروجي من الحنفية عنهم و هو اختيار جماعة من محققى العلماء على ما ذكر القاضي عز الدين بن جماعة.

قال الفاسي: قلت: ينبغي الاحتراز منه لأنه إن كان من البيت كما قيل فالاحتراز منه واجب و إلا فلا محذور في ذلك كيف و الخروج من الخلاف مطلوب و هو هنا قوى. و الله أعلم.

قال: و لم أدر متى كان ابتداء البناء في الشاذروان و لم بين مرة واحدة و إنما بنى دفعات منها في سنة اثنين و أربعين و خمسمائة و لم أدر ما بنى منه في هذه السنة، و منها في نيف و ثلاثين و ستمائة على ما ذكر ابن خليل في منسكه و منها في آخر عشر الستين و ستمائة أو في أوائل عشر السبعين و ستمائة لأن القاضي بدر الدين بن جماعة ذكر أنه رأى الشاذروان في سنة ست و خمسين و ستمائة و هي مصطبة يطوف عليها بعض العوام و رآه في سنة إحدى و ستين و قد بنى عليه ما يمنع من الطواف عليه على هيئته اليوم هكذا نقل عنه ولده عز الدين فيما أخبرني به عنه خالي.

و ذكر القاضي عز الدين بن جماعة فيما أخبرني عنه خالي أيضا أن ارتفاع الشاذروان عن أرض المطاف في جهة باب الكعبة ربع ذراع و ثمن ذراع، و عرضه في هذه الجهة نصف و ربع، و ذكر الأزرقى أن طول الشاذروان في السماء ستة عشر إصبعا و عرضه ذراع و قد نقص عرضه كما ذكر الأزرقى في بعض الجهات، و أفتى المحب الطبري عالم الحجاز في وقته بوجوب إعادة مقداره على ما ذكره

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٩٥

الأزرقى و له في ذلك تأليف نحو نصف كراس سماه استقصاء البيان في مسألة الشاذروان. انتهى ما ذكره الفاسي.

و في تحصيل المرام: و أخرج عبد الله بن الزبير لما بنى الكعبة الشاذروان و قيل:

أخرجته قريش لأجل استمسك البناء و ثباته. قال: فعلى هذا القول يكون الشاذروان من البيت و هو قول جمهور الشافعية و جمهور المالكية. و قال أبو حنيفة:

إنه ليس من البيت لأنه لم يرد حديث صحيح أنه من البيت إلا من عموم قوله صلى الله عليه و سلم لعائشة: إن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم فقال الجمهور: إن الاقتصار شامل للحجر و الشاذروان و خص أبو حنيفة الحجر دون الشاذروان.

انتهى ما في تاريخ الغازي، و مما تقدم يظهر للقارئ الكريم أصل الشاذروان و حقيقته.

عدد مرات بناء الشاذروان و إصلاحه

تقدم أن الشاذروان كان في بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنه، و الله تعالى أعلم كم مرة حصل في الشاذروان بناء أو إصلاح إلى زمن الإمام الأزرقى، و من زمنه إلى زمن التقى الفاسي و بينهما نحو ستمائة سنة كما قاله الشيخ حسين باسلامة صاحب تاريخ الكعبة المعظمة رحمهم الله جميعا، فيكون عدد مرات بناء الشاذروان و إصلاحه بعضه أو كله كما يأتي تقريبا:

(١) كان الشاذروان في بناء عبد الله بن الزبير سنة أربع و ستين هجرية.

(٢) طلى على الشاذروان الجص و المرمر في أيام جد الأزرقى كما صرح بذلك في تاريخه في نهاية الجزء الأول.

(٣) بنى بعض الشاذروان في سنة (٥٤٢) كما قاله الفاسي.

(٤) و قد بنى أيضا في سنة (٦٣٦) كما ذكره الفاسي أيضا.

٥) و قد بنى أيضا في سنة (٦٦١) كما ذكره الفاسى أيضا.

٦) و قد بنى أيضا في سنة (٦٧٠) تقريبا كما ذكره الفاسى أيضا.

٧) و قد بنى أيضا في سنة (٨٣٨) عمره سودون المحمدى كما ذكره ابن فهد.

٨) و قد بنى أيضا في سنة (٨٤٦) فى شهر محرم كما ذكره ابن فهد أيضا.

٩) و قد بنى أيضا في سنة (١٠٤٠) مع بناء الكعبة المشرفة زمن السلطان مراد رحمه الله تعالى و جزاه خير الجزاء، و قد شرعوا فى بناء

الشاذروان فى اليوم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٩٦

الحادى عشر من شعبان من السنة المذكورة، و أتموا بناءه فى اليوم الثالث من رمضان من السنة المذكورة أيضا.

١٠) و قد بنى أيضا فى سنة (١٠٩٨) أصلحه أحمد باشا و أمر بالحجر السماق فوضع تحت الركن الأسود مما يلى الأرض، كما ذكره السنجارى.

هذا مختصر ما وقفنا عليه فى بناء و إصلاح شاذروان الكعبة سواء كان ذلك الجزء منه أو لجميعة، و قد عددنا ذلك بالأرقام حتى الرقم العاشر، و لكن ليس المراد أنه حصل البناء و الإصلاح فى الشاذروان عشر مرات - كلا- فربما كان أكثر من ذلك، و إنما نحن لم نقف فيه على أكثر مما ذكرناه. و الله تعالى أعلم بالغيب.

و لا يخفى أن صفة البناء تختلف فى كل عصر و زمان، و صفة بناء الشاذروان على الكعبة فى زماننا هى معروفة و مشاهدة لأعيننا، و أما صفته فيما مضى من عصر الصحابة فالله تعالى أعلم بها، و على أى صفة كان بناؤه فهو شاذروان، و ما ذكره الفاسى عند بنائه فى أوائل عشر السبعين و ستمائة بقوله: هى مصطبة يطوف عليها بعض العوام ثم بنى عليه ما يمنع الطواف عليه على هيئة اليوم، دليل على أن صفة بنائه كانت تختلف.

و نحن إلى يومنا هذا نستعمل عمل الشاذروان فى غالب المنازل و البيوت الكبيرة من الخارج أى من الشارع صونا لها من مياه الأمطار و عجالات العربات، بل إننا نستعمله فى جميع أماكن الوضوء المبلطة بالطباطب و فى جميع الأحواض و الحنفيات و هو الذى نسميه بلغة البنائين "الإفريز" بكسر الهمزة و الراء و إسكان الفاء و الزاى، و طول هذا الإفريز فى أماكن الوضوء و نحوها شبر واحد أو أقل، و قد يكون أطول فى بعض المحلات، و هذا العمل شائع من قديم الزمان فى الحجاز و فى غير الحجاز، و هو موجود بمصر فى زماننا هذا فى جميع المساجد و الجوامع عند أماكن الوضوء فهو كما يقول صاحب الرحلة الحجازية كان مستعملا فى العمارات المصرية القديمة على محيط النافورات.

مقاس الشاذروان و عدد حجراته و عدد الحلقات به

قال الإمام النووى فى تهذيب الأسماء و اللغات: الشاذروان هو بناء لطيف جدا ملصق بحائط الكعبة، و ارتفاعه عن الأرض فى بعض المواضع نحو شبرين و فى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٩٧

بعضها نحو شبر و نصف، و عرضها فى بعضها نحو شبرين و نصف و فى بعضها نحو شبر و نصف. انتهى من تاريخ الكعبة.

و جاء فيه: و ذكر إبراهيم رفعت باشا فى مرآة الحرمين أن ارتفاع الشاذروان فى الجهة الشمالية (٥٠) سنتيما فى عرض (٣٩) و من الجهة الغربية ارتفاعه (٢٧) سنتيما فى عرض (٨٠) و من الجهة الجنوبية ارتفاعه (٢٤) سنتيما فى عرض (٨٧) و من الجهة الشرقية ارتفاعه (٢٢) سنتيما فى عرض (٦٦). انتهى من تاريخ الكعبة.

قال مؤلف مرآة الحرمين المذكور: و قد حققته بالمقاس من حجراتي الأربع "أى سنة ١٣١٨ و ١٣٢٠ و ١٣٢١ و ١٣٢٥ هجرية."

و حجارة الشاذرون في عصرنا الحاضر كلها من حجر الرخام الأبيض القوى الصلب، و هي متفاوتة الحجم منها الصغير و الكبير و المتوسط، و قد بنى الشاذرون على دفعات مرارا عديدة و على صفات مختلفة كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى.

أما عدد حجارة الشاذرون التي حول الكعبة في القرن الثالث من الهجرة أى:

في عهد الإمام الأزرقى فهو ثمانية و ستون حجرا في ثلاثة من جوانبها كما ذكره في تاريخه "أخبار مكة" و قد بين بالتفصيل كل ذلك رحمه الله تعالى و جزاه عن المسلمين خيرا.

و أما عدد حجارتها في عهدنا هذا فهو أربعة و ستون حجرا بجعل الرخامات الصفر التي عددها ثمانية أحجار حجرا واحدا باعتبار أنها متلاصقة بجوار بعضها فحسبناها كالحجر الواحد، أما لو جعلناها كما هي ثمانية أحجار فإنه يكون عدد حجارة الشاذرون حينئذ واحدا و سبعين حجرا، و هذه الحجارات الصفر موضوعة بأعلى الحفرة التي عند باب الكعبة و سنتكلم عنها إن شاء الله تعالى بعد هذا الكلام و قد ذكرناها أيضا في كتابنا "مقام إبراهيم عليه السلام" المطبوع بمطبعة مصطفى البابى الحلبي و شركاه بمصر القاهرة.

و أما حلقات الشاذرون فهي حلقات مثبتة قوية من النحاس الأصفر جعلت لربط كسوة الكعبة الخارجية فيها حتى لا تتحرك و ترتفع بفعل الهواء، و عدد هذه الحلقات حول الكعبة في الشاذرون ثمانية و أربعون حلقة كما قاله المرحوم إبراهيم رفعت باشا في كتابه "مرآة الحرمين" و المذكور توفى في عهدنا هذا قريبا رحمه الله تعالى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٩٨

أما عدد هذه الحلقات في أيامنا فهو إحدى و أربعون حلقة و قد نقصت هذه الحلقات عن أيام مؤلف مرآة الحرمين المذكور لتقدم العهد عليها فتتخلخل عن أماكنها ثم تخرج و لا يوضع بدلها، و محلات الحلقات الخارجة ثابتة واضحة في حجارة الشاذرون. و قد وقفنا الله لعد حجارة الشاذرون و عد الحلقات الموجودة بها، في يوم السبت حادى عشر محرم الحرام عام ألف و ثلاثمائة و ستة و سبعين من الهجرة فحمد الله على توفيقاته المتواليه و نعمائه المتتاليه و نسأله المزيد من كل ذلك بفضلله و منه و رحمته و إحسانه إنه حلیم كريم و بر رحيم.

الرخامات الصفر التي ب الشذرون

موضوع على شاذرون الكعبة بأعلى الحفرة التي عند باب الكعبة، رخامات صفر نفيسة جدا، نادرة الشكل و المثال، لونها لا يضرب إلى الصفرة الخالصة و إنما هو أصفر مائل إلى الحمرة قليلا، تتخللها نقوش بديعة جدا، لونها أصفر فاقع أكسب الرخامات حسنا و جمالا، كل ذلك من أصل الخلقه.

و هذه الرخامات ثمانية أحجار، متقاربة الأحجام، متلاصقة ببعضها كل حجر منها مستطيل الشكل أكبرها طوله ٣٣ سنتيمترا، و عرضه ٢١ سنتيمترا، و كلها مرصوفة و موضوعة بأعلى الشاذرون في محل على هيئة المربع، طوله ٧٤ سنتيمترا و كذلك عرضه.

و الظاهر أنها وضعت في محلها فوق الشاذرون حين عمارة المطاف التي كانت سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة حسبما هو مكتوب بالنقر على الحجر الأزرق الذى تحت الرخامات الصفر و هو حجر ثمين من الرخام الأزرق الصافى، طوله ٦٩ سنتيمترا، و عرضه ٣٢ سنتيمترا فيكون قد مضى على هذه الرخامات الصفر و الرخامة الزرقاء إلى عامنا هذا، عام ١٣٨٧ من الهجرة (٧٥٦) سنة. و الله تعالى أعلم.

انظر: صورة رقم ٨٩، للثمانية الأحجار الصفر الظاهرة

فهذه الرخامات الصفر التي على الشاذرون تكون من أفخم الآثار العربية و أغلاها و أندرها، فلو لم تكن من القدر و القيمة بمكان لما وضعها ولاة الأمر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٩٩

الأقدمون في أشرف بقعة عند الكعبة المعظمة، وهم أهل القرون الثلاثة الأولى، فكانوا أعرف منا بنفائس الأشياء و جواهرها و اختيار الأمكنة لحفظها و صيانتها و كانت أعمالهم الجليئة في غاية من الجودة و الإتقان تمر عليها مئات السنين و الأعوام، و هي على حالها ما أصابها تلف و لا خراب و لا تتزحزح عن مكانها.

و نحن لم نقم بالكشف عما يوجد بالحجر و المطاف من الرخام النادر الوجود، فلو قمنا و بحثنا لعثرنا على أشياء ثمينة جدا مما يدلنا على عناية الملوك و السلاطين الأقدمين بهذا المكان المقدس و البقعة الطاهرة المباركة، و ما ذكرنا هذه الرخامات الصفر إلا للمناسبة.

و قبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى قيمة الرخامات الصفر عند ذوى الخبرة من رجال الآثار القديمة، فإننا لا نبالغ إن قلنا: أن قيمة بعضها قد تبلغ نحواً من ألف جنيه مصرى بل أكثر.

و لا نعتقد أن أحدا ممن كان قبلنا و لا ممن هو في عصرنا التفت إلى هذه الرخامات، و لا توصل إلى ملاحظاتها فيها، هذه الملاحظات الدقيقة الفنية فالحمد لله على التوفيق.

و اعلم أنه كان بعض رخامات صفراء و خضراء و حمراء و غيرها من الرخامات الثمينة النادرة الوجود في الدنيا موجودة في داخل الكعبة المشرفة، على أرضها و على جدرانها إلى سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية. فلما كان في هذه السنة حصل تجديد سقف الكعبة المشرفة كما حصل فرش أرض الكعبة المشرفة من الداخل بالرخام فهذا الفرش غطى على بعض الرخامات الثمينة في أرض الكعبة المشرفة، مع العلم بأن جميع أحجار الشاذروان الرخامية البيضاء الصلبة القوية النادرة الوجود هو من عمل و بناء السلطان مراد الرابع من سلاطين آل عثمان الأتراك.

فإنه رحمه الله تعالى بنى الشاذروان عندما بنى الكعبة المعظمة سنة (١٠٤٠) ألف و أربعين هجرية. رحمه الله تعالى و رضى عنه و جعل الجنة مسكنه و مأواه بفضلته و رحمته آمين.

و نرى أن الحكمة من وجود الشاذروان أسفل الكعبة المعظمة، و الله تعالى أعلم، أولاً أن تكون بناية بيت الله الحرام بكيفية خاصة تمتاز عن بقية بناء بيوت البشر، و ثانياً أن وجود الشاذروان أسفل الكعبة يمنع من التصاق الطائفين بالبيت

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٠٠

الحرام، و هذا هو الأدب اللائق بالطائفين الكرام، و لو لم يكن الشاذروان موجوداً بالكعبة لالتصق الطائفون بها و احتكوا بكسوتها أشد الاحتكاك، عند كثرة الزحام وقت الطواف، و هذا يؤدي حتماً إلى تمزق كسوتها تمزقاً بالغاً، و ليس ذلك من اللائق ببيت الله الحرام.

هذا ما نراه من الحكمة، و الله تعالى أعلم بالغيب.

مع العلم بأن حجارات هذا الشاذروان هي من حجارة المرمر الأصلية القوية و المتينة جدا و في هذا الشاذروان بعض قطع من حجاراته الصفراء تعد تحفة نادرة لا يوجد مثلها لدى الملوك مطلقاً، لأنها منقوشة نقشا طبيعياً و مزخرفة زخرفة خلقية من وسطها و أعماقها، و عدد هذه الحجارة ثمانية و هي واقعة فوق الشاذروان بجوار باب الكعبة. و قد تكلمنا عنها بالتفصيل في الجزء الثالث من هذا الكتاب (صفحة ١٧) كما تكلمنا عنها في كتابنا المطبوع "مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام".

قال الله سبحانه و تعالى: **وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**، قال بعضهم عند هذه الآية: يحتمل أن تكون من تبعيضه أو زائدة في الإثبات على مذهب الأخصش أو بمعنى فى، و كل بعيد، و الأقرب أنها بمعنى عند. اهـ. و المقام هو بفتح الميم من قام يقوم: موضع القيام، و أما المقام بالضم فهو من أقام يقيم.

و اختلفوا فى المراد بالمقام فقيل: المسجد كله مقام إبراهيم، و قيل: الحرم كله مقام إبراهيم و قيل: جميع مشاهد الحج كمنى و مزدلفة و عرفه، و قيل: المقام هو الحجر الذى وضعته زوجته إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه، و قيل: مقام إبراهيم

هو الحجر الذى قام عليه إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة، و كان يرتفع به كلما ارتفع البناء و إلى هذا أشار صاحب نظم عمود النسب بقوله:

و كلما طال البناء ارتفعابه المقام فى الهوا و رفعا

به القواعد و فيه قدم تشبهها للهاشمى قدم

و حين بالحج الخليل أذناو فى كلا أذنيه إصبعا ثنى

أيضا كأطوال الجبال ارتفعابه و كل من يحج أسمعا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٠١

فهذا القول الأخير هو الصحيح المعول عليه حيث يفهم من الآية أنه مقام مخصوص و ذلك بالنظر إلى الأمر بالصلاة عنده، أما بالنظر إلى معناه اللغوى فإنه يصدق بجميع الأماكن التى قام عليها إبراهيم عليه السلام، و من تأمل قوله تعالى:

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ظَهَرَ لَهُ ذَلِكَ جَلِيًّا.

و يؤيد صحة هذا القول الأخير: ما حدث جابر عن حجة النبى صلى الله عليه و سلم قال "لما طاف النبى عليه الصلاة و السلام قال له عمر: هذا مقام أبينا قال: نعم. قال: أفلا نتخذة مصلى؟ فأنزل الله عز و جل: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى. و فى روايه "أن رسول الله صلى الله عليه و سلم مر بالمقام و معه عمر، فقال: يا رسول الله أليس هذا مقام أبينا إبراهيم قال: بلى، أفلا نتخذة مصلى؟ قال: لم أؤمر بذلك فلم تغب الشمس حتى نزلت الآية. " و فى البخارى عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب "وافتت ربي فى ثلاث أو وافقتى ربي فى ثلاث قلت: يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى فنزلت: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ... الخ الحديث." و عن جابر أنه قال "استلم رسول الله صلى الله عليه و سلم الركن، فرسل ثلاثا و مشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فجعل المقام بينه و بين البيت فصلى ركعتين."

قال ابن كثير فى تفسيره: و هذا قطعة من الحديث الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث حاتم بن إسماعيل.

فبالخلاصة: أن مقام إبراهيم عليه السلام هو الحجر الذى كان يقوم عليه لبناء البيت الحرام لما ارتفع جداره، و كان إسماعيل يناوله الحجارة فيضعها بيده و كلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة و هو واقف عليه حتى انتهى إلى وجه البيت. و نحن نجزم بهذا القول جزماً أكيدا الأمرين:

(الأمر الأول): لقد أجمعت الأمة المحمدية أن المراد بآية: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى أن يكون حجر المقام الموجود الآن بقرب بئر زمزم أمام الكعبة بين المصلى و بين الكعبة و هذا المقام هو الذى غاصت فيه قدما إبراهيم الخليل صلوات الله و سلامه عليه كما هو ظاهر عند رفع الستارة التى تغطيه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٠٢

(و الأمر الثانى): أن حجر المقام هذا هو الذى كان يرتفع بإبراهيم صلى الله عليه و سلم حين بنائه الكعبة كما جاء ذلك صريحا فى صحيح البخارى فى كتاب بدء الخلق بعد باب قصة أجوج و مأجوج و هو أمر معقول و معجزة واقعة فى محلها، و ذلك أن طول إبراهيم الخليل كان كأمثالنا فلو لم يجعل الله له هذا المقام المقدس معجزة يرتفع و يمشى به فى الهواء كيفما شاء سيدنا إبراهيم حين البناء فكيف كان يكمل بناء البيت إذا ارتفع جدارانه عن القامة و ليس عنده سلم يقف عليه و لا أخشاب أو أدوات النجارة ليعمل له كرسي أو مصعدا يصعد عليه و يبنى فإن الدنيا كانت فى أوائل عهدها لم تتقدم فى وسائل العمران بعد.

فما دام البيت بيت الله عز و جل فهو ييسر لخليله سبيل البناء و قد جعل له هذا المقام بمنزلة سقالة البنائين يتوصل به إلى ما ارتفع عنه من الجدار ليتم بناءه تكرمه و معجزة لخليله و صفيه و قد ألان له حجر المقام حتى غاصت فيه قدماه معجزة أخرى و ليكون ذلك

آية و دلالة تبقى إلى يوم القيامة في محله الأول عند بيته المحرم و نستدل من أثر القدمين في المقام أن سيدنا إبراهيم لم يكن يلبس نعلا في رجليه عند بناء البيت و الله تعالى أعلم بالغيب.

فعلم مما ذكر أن المراد بالمقام الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه الصلاة و السلام لبناء البيت لا- الحجر الذي وضعت زوجته ابنة إسماعيل تحت قدمه حين غسلت رأسه.

فالسنة: أن تكون الصلاة خلف المقام بأن يكون المقام بين المصلى و الكعبة، و لا تشترط مقابلة عينه و محاذاته، لأن حجم المقام الذي هو الحجر صغير نحو ذراع لا يكفي أن يكون مصلى لشخص واحد، فمن صلى وراء المقام فقد أتى بالسنة و إن لم يقف خلف الحجر بالتمام، لأن ما قارب الشيء يعطى حكمه، فهذا كالإمام و المأمومين فهؤلاء و هم جمع كبير يطلق عليهم أنهم صلوا كلهم وراء الإمام. فلو اشترطنا على المصلى مقابلة عين الحجر للزم أن يصلى الناس خلفه فردا فردا لصغره، و في ذلك من الحرج و المشقة ما لا يخفى.

انظر: صورة رقم ٩٠، مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام

و لقد نزل المقام و الركن مع أينا آدم عليه السلام من الجنة و هما ياقوتتان من يواقيتها، فقد روى الترمذى و أحمد و الحاكم و ابن حبان أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٠٣

"إن الركن و المقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله تعالى نورهما، و لو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق و المغرب." و لقد كان من معجزات إبراهيم عليه السلام أن صار الحجر تحت قدميه رطبا فغاصت فيه قدماه، و قد بقى أثر قدميه ظاهرا فيه من ذلك العصر إلى يومنا هذا و إن تغير عن هيئته الأصلية بمسح الناس بأيديهم قبل وضع الحجر في المقصورة النحاسية، و العرب تعرف ذلك في جاهليتها قال أبو طالب عم النبي صلى الله عليه و سلم في قصيدته اللامية المشهورة التي قالها حين تحالفت قريش على بنى هاشم في أمر النبي عليه الصلاة و السلام و أول هذه القصيدة:

و لما رأيت القوم لا ودّ عندهم و قد قطعوا كل العرى و الوصائل

و ثور و من أرسى تبيرا مكانه و راق لبر في حراء و نازل

و بالبيت حق البيت من بطن مكة و بالله إن الله ليس بغافل

و بالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحى و الأصائل

و موطن إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل

فيكون هذا الحجر المقام، و الحجر الأسود أقدم أثر محترم لدى المسلمين بالاتفاق، إذ بينا و بين إبراهيم عليه السلام نحو أربعة آلاف سنة.

و مما هو جدير بالذكر و الالتفات: أن العرب في جاهليتها مع عبادتهم الأحجار و بالأخص حجارة مكة و الحرم، لم يسمع عنهم أن أحدا عبد الحجر الأسود، أو حجر المقام مع عظيم احترامهم لهما و محافظتهم عليهما.

و لقد تأملنا في سر ذلك و سببه، فظهر لنا أن ذلك من عصمة الله تعالى فإنهما لو عبدا من دون الله في الجاهلية، ثم جاء الإسلام بتعظيمهما باستلام الركن الأسود، و الصلاة خلف المقام، لقال المنافقون و أعداء الدين أن الإسلام أقر احترام بعض الأصنام، و أنه لم يخلص من شائبة الشرك، و لتمسك بعبادتهما من كان يعبد أحدهما من قبل.

فلهذا حفظ الله تعالى هذين الحجرين الكريمين من أيام إبراهيم عليه السلام إلى يوم القيامة من عبادة أهل الجاهلية لهما، كما حفظ بيته الحرام من عبادتهم أيضا، و لا يخفى أن هذه نقطة دقيقة لا يتنبه لها كل أحد.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٠٤

منظومة السيوطى فى موافقات عمر رضى الله عنه

بمناسبة ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لرسول الله صلى الله عليه و سلم عن اتخاذ المقام مصلى نقول: فأمر الله سبحانه و تعالى باتخاذ مصلى و نزل فى ذلك آية: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى.

إن موافقات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه للوحى كثيرة جمعها الجلال السيوطى فى منظومة سماها "قطف الثمر فى موافقات عمر" و هى منظومة مطبوعة وحدها، و هى أيضا موجودة فى كتاب "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم" بالجزء الخامس و نحن نقلها منه و هى هذه بأكملها:

الحمد لله و صلى الله على نبيه الذى اجتباه
يا سائلى و الحادثات تكثر عن الذى وافق فيه عمر
و ما يرى أنزل فى الكتاب موافقا لرأيه الصواب
خذ ما سألت عنه فى أبيات منظومة تأمن من شتاب
ففى المقام و أسارى بدر و آيتى تظاهر و ستر
و ذكر جبريل لأهل الغدرو آيتين أنزلا فى الخمر
و آية الصيام فى حل الرفث و قوله نساؤكم حرث يبث
و قوله لا يؤمنون حتى يحكموك إذ بقتل أفتى
و آية فيها لبدر أو به و لا تصل آية فى التوبة
و آية فى النور هذا بهتان و آية فيها بها الاستئذان
و فى ختام آية فى المؤمنين تبارك الله بحفظ المتقين
و ثلثه من فى صفات السابقين و فى سواء آية المنافقين
و عددوا من ذاك نسخ الرسم لآية قد نزلت فى الرجم
و قال قولاً هو فى التوراة قد نبهه كعب عليه فسجد
و فى الأذان الذكر للرسول رأيت فى خبر موصول
و فى القرآن جاء بالتحقيق ما هو من موافق الصديق
كقوله هو الذى يصلى عليكم أعظم به من فضل
و قوله فى آخر المجادلة لا تجد الآية فى المخاللة
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٠٥ نظمت ما رأيت منقولاً و الحمد لله على ما أولى

ذرع ما بين مقام إبراهيم و بين الكعبة و ما حولها

إشارة

لقد ذرعنا فى أول جمادى الأولى سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف، ما بين شاذروان الكعبة و بين أول شباك مقام إبراهيم عليه السلام المقابل للكعبة و للحفرة التى عندها، فكان القياس أحد عشر متراً.
و أما قياس ما بين المقام و بين الكعبة و ما حولها بالأذرع، فقد جاء فى الجزء الأول من تاريخ الفاسى المسمى "شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام" ما نصه:

روينا عن الأزرقى بالسند المتقدم في تاريخه أنه قال: و ذرع ما بين الركن الأسود إلى مقام إبراهيم عليه السلام تسعة و عشرون ذراعا و تسعة أصابع، و ذرع ما بين الكعبة من وسطها إلى المقام سبع و عشرون ذراعا، و ذرع ما بين شاذروان الكعبة إلى المقام ست و عشرون ذراعا و نصف، و من الركن الشامي إلى المقام ثمانية و عشرون ذراعا و سبع عشرة إصبعًا، ثم قال: و من المقام إلى حرف بئر زمزم أربع و عشرون ذراعا و عشرون إصبعًا. انتهى.

ثم قال القاضي عز الدين بن جماعة فيما أخبرني به عند خالي: و من صدر الشباك الذي داخله المقام إلى شاذروان الكعبة عشرون ذراعا و ثلثا ذراع و ثمن ذراع يعني بذراع الحديد المتقدم ذكره، و قد حررنا بعض ما حرره الأزرقى في هذا المعنى فكان ما بين ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود و بين الركن اليماني من أركان الصندوق الذي فيه المقام من داخل الشباك الذي فيه الصندوق أربعة و عشرون ذراعا إلا سدس ذراع، و كان ذرع ما بين وسط جدار الكعبة الشرقي إلى وسط الصندوق المقابل له اثنين و عشرين ذراعا إلا ربع ذراع، و كان ما بين ركن الكعبة الشامي الذي يلي الحجر، بسكون الجيم و ركن الصندوق الشامي ثلاثة و عشرون ذراعا، و كان مما بين ركن الصندوق الشرقي إلى ركن البيت الذي فيه بئر زمزم المقابل له خمسة عشر ذراعا إلا ثلث ذراع، و كل ذلك بذراع الحديد المتقدم ذكره. و لم نجد شيئًا مؤلفًا عن مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام. و الله سبحانه و تعالى وفقنا لوضع كتاب عن ذلك اسمه "مقام إبراهيم عليه السلام" و هو مطبوع بمطبعة الحلبي بمصر.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٠٦

صفة المقام

كنا نعتقد أن مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام الموجود في باطن الصندوق الخشبي و المغطى بستارة حريرية مكتوبة منقوشة، و الذي يحيط بجوانبه الأربعة شباك من الحديد المضروب باللون الأخضر المقابل لباب الكعبة المعظمة، هو حجر كبير لا يمكن أن يحمله أقل من بضعة رجال، و كنا نظن أن ما بقى من أثر قدمي خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و السلام شيء يسير بقدر ما يظهر أقدام الإنسان في الأرض الترابية، و لكن جاء الأمر بعكس ما كنا نعتقد و نظنه بعد مشاهدتنا له برؤية العين، و ذلك في اليوم السابع و العشرين من شهر شعبان سنة ألف و ثلاثمائة و سبع و ستين هجرية، كما سنبين ذلك.

و قبل أن نذكر كلامنا يجب أن نسوق عبارات المؤرخين فيه لمقارنته عباراتنا بعباراتهم، و نسأل الله التوفيق و الهداية إلى الصواب، فإنه لا حول و لا قوة إلا بالله.

قال الإمام الأزرقى المتوفى في حدود الأربعين بعد المائتين من الهجرة في كتابه القيم النفيس "أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار" في الجزء الثاني بصحيفة (٢٩) عند ذكر ذرع المقام ما نصه: قال أبو الوليد- يعني نفسه- و ذرع المقام ذراع، و المقام مربع سعة أعلاه أربعة عشر إصبعًا في أربعة عشر إصبعًا من أسفله مثل ذلك، و في طرفيه من أعلاه و أسفله طوقا ذهب، و ما بين الطوقين من الحجر من المقام بارز بلا ذهب عليه، طوله من نواحيه كلها تسعة أصابع و عرضه عشرة أصابع عرضًا في عشرة أصابع طولًا، و ذلك قبل أن يجعل عليه هذا الذهب الذي هو عليه اليوم من عمل أمير المؤمنين المتوكل على الله، و عرض حجر المقام من نواحيه أحد و عشرون إصبعًا، و وسطه مربع، و القدمان داخلتان في الحجر سبعة أصابع و دخولهما منحرفتان، و بين القدمين من الحجر إصبعان، و وسطه قد استدق من التمسح به، و المقام في حوض من ساج مربع حوله رصاص ملبس به، و على الحوض صفائح رصاص ملبس بها و من المقام في الحوض إصبعان، و على المقام صندوق ساج مسقف و من وراء المقام ملبس ساج من الأرض في طرفيه سلسلتان تدخلان في أسفل الصندوق و يقفل فيهما قفلان. انتهى كلام الإمام الأزرقى في تاريخه المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٠٧

و قال ابن جبير الأندلسي في رحلته، و كان قد حج سنة ثمان و سبعين و خمسمائة ما نصه: و هذا المقام الكريم الذي داخل هذا القبو

هو مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وهو حجر مغشى بالفضة وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار، وسعته مقدار شبرين، وأعلى أوسع من أسفله، وأثر القدمين وأثر الأصابع بين، ثم قال: لموضع المقام قبة مصنوعة من حديد موضوعة جانب قبة زمزم فإذا كان في أشهر الحج وكثر الناس رفعت القبة الخشب ووضعت قبة الحديد. انتهى كلام ابن جبير الأندلسي.

وروى الثقي الفاسي في شفاء الغرام عن القاضي عز الدين بن جماعة أنه قال:

حررت لما كنت مجاورا بمكة سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة مقدار ارتفاع المقام عن الأرض فكان سبعة أثمان الذراع وأعلى المقام مربع من كل جهة ثلاثة أرباع الذراع، وموضع غوص القدمين ملبس بالفضة، وعمقه من فوق الفضة سبعة قراريط ونصف قيراط من ذراع القماش المستعمل بمصر. انتهى كلام ابن جماعة كما رواه الفاسي.

وقال الشيخ حسين بن عبد الله باسلامة المتوفى في عصرنا في كتابه "تاريخ عمارة المسجد الحرام" بصحيفة (١٥١) ما نصه: وأما صفة حجر المقام ومقاسه فهو حجر رخو من نوع حجر الماء ولم يكن من الحجر الصوان، وهو مربع على وجه الإجمال، ومساحته ذراع يد في ذراع يد طولاً وعرضاً وارتفاعاً أو نحو خمسين سنتيمتراً في مثلها طولاً وعرضاً وارتفاعاً، وفي وسطه أثر قدمي إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، وهي حفرتان على شكل بيضوي مستطيل قد حفرهما الناس بمسح الأيدي ووضع ماء زمزم فيهما مرات عديدة فنتج من كثرة مرور الأيدي محو أثر القدمين واستبدل موضعهما حفرتان كما دلت على ذلك الروايات المتقدمة في أول الباب، وقد رأيت حجر المقام بعيني سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف بصحبة المرحوم صاحب الفضيلة رئيس السدنة في تلك السنة الشيخ محمد صالح بن أحمد بن محمد الشيبني فوجدته مصفحاً بالفضة وهو موضوع على قاعدة وشكله مربع كما وصفته ولونه بين البياض والسواد والصفرة ورأيت أثر القدمين.

وهنا أذكر زيادة على ما تقدم ما ورد في أثر القدمين من الأخبار والروايات، فروى الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عن ابن الجوزي أنه قال: وإن أثر قدميه يعني إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في المقام كرقم الباني، ولم تزل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٠٨

آثار قدمي إبراهيم حاضرة في المقام معروفة عند أهل مكة حتى قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل

وفي موطأ ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن أنس قال: رأيت المقام فيه أصابع إبراهيم وأخمص قدميه غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم. وأخرج الطبري في تفسيره عن قتادة في هذه الآية: وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ أنه قال:

إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه قال: ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيها فما زالوا يمسخونه حتى اخلولق وانمحي. انتهى كلام الشيخ حسين باسلامة في تاريخه المذكور.

وصفنا ل مقام إبراهيم

هذا ما ذكره هؤلاء المؤرخون عن صفة مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام نقلناه بالحرف الواحد من غير أن نشرحه أو نعلق عليه بحاشية اكتفاء بذكاء أولى العلم والمعرفة، واعتماداً على ما سنوضحه هنا من التفصيل التام والبيان الدقيق فنقول وبالله التوفيق:

إننا لما شرعنا في تأليف كتابنا هذا عن مقام إبراهيم عليه السلام وما كان أحد سبقنا إلى مثله من قبل، حصلت عندنا رغبة شديدة وميل عظيم إلى مشاهدة نفس المقام الكريم، فالتمسنا فتح مقصورة المقام لنا من حضرة صاحب السمو الملكي ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير المعظم "سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل" حفظه الله فصدر أمر سموه الكريم بفتح مقصورة مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي هو أمام الكعبة المشرفة لننظر إليه ونكتب عنه الحقيقة بالتفصيل التام خدمة للدين والعلم، ليعرف المسلمون حقيقة المقام الكريم الذي هو مستور عن أعينهم فنقول:

إنه في صباح يوم الأحد السابع والعشرين من شعبان سنة ألف و ثلاثمائة و سبع و ستين هجرية جاء إلى المسجد الحرام السادن الثاني لبيت الله المعظم صاحب السعادة الشيخ عبد الله ابن المرحوم الشيخ عبد القادر الشيبى صحبة ابنه الفاضل الشيخ عبد العزيز لغسل الكعبة المشرفة حسب العادة و لفتح مقام إبراهيم عليه السلام لنا، فدخلنا أولاً بيت الله الحرام و تشرفنا بغسل داخله بالزمرم بعطر، التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٠٩

و كان معنا صاحب السعادة الشيخ محمد صالح قزاز ابن المرحوم عبد الرحمن قزاز مدير شؤون الحج، و حضرات الأفاضل الكرام السيد هاشم نائب الحرم رئيس مجلس إدارة الحرم، و الشيخ عمر عبد الجبار رئيس شرطة الحرم، و الشيخ صالح باخطمه رئيس القسم الإدارى بالأمن العام و السيد عبد الله ابن المرحوم السيد محمد على الدباغ، و الشيخ عبد الله ابن الشيخ أحمد الباز، و بعض الخدمه الخاصة، ثم بعد انتهائنا من غسل الكعبة المعظمة توجه بنا سادنها سعادة الشيخ عبد الله الشيبى المذكور إلى مقصورة مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام ففتحها بحضور مندوب رئاسة القضاء الشيخ عبد العزيز العقيلي و حضور الشيخ عبد الله ابن المرحوم الشيخ أمين ميرداد و حضور الجماعة المذكورين و حضور جمع غفير من أهل مكة و الحجاج القادمين إليها.

و بعد تنظيف المقام من الأتربة و الغبار دخلت أنا محمد طاهر الكردى المكي الخطاط مؤلف هذا الكتاب إلى داخل الصندوق الذى فيه نفس حجر مقام إبراهيم عليه السلام لإجراء البحث الدقيق عليه و مكثت فى داخل الصندوق نحو ساعة و نصف، أى تسعين دقيقة تقريباً و حجر المقام الشريف بهيئته بين يدي ثم طلبت من صديقنا الشيخ عمر عبد الجبار المذكور أن يجلس بجانبى داخل الصندوق ليساعدنى فى مسك الأوراق و ضبط القياسات فجلس بجوارى ملتصقاً بى لضيق الصندوق، و قد جلس أماننا جمع كثير و من ذكرنا أسماءهم يشاهدون أبحاثنا الدقيقة حول المقام الكريم.

و إليكم بيان ذلك بالتفصيل التام و التحقيق الكامل بتوفيق الله تعالى:

لقد وجدنا حجر مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام مثبتاً فوق قاعدة صغيرة من الرخام المرمر بقدر قياس نفس المقام الشريف طولاً و عرضاً. و أما ارتفاعها فثلاثة عشر سنتيمتراً، و قد استمسك المقام بهذه القاعدة، بواسطة الفضه التى تحيط بنفس المقام مع جزء من هذه القاعدة، حتى صار المقام ثابتاً فيها ثبوتاً قوياً بحيث لا يمكن تحريكه قط.

انظر: صورة رقم ٩١ بالفوتوغرافيا لمقصورة مقام إبراهيم عليه السلام يوم فتحها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣١٠

ثم إن هذه القاعدة الصغيرة ثابتة ثبوتاً محكماً جداً فى وسط قاعدة كبيرة من الرخام المرمر أيضاً تشبه البركة طول ضلعها من جميع الجهات متر واحد، و ارتفاعها من الأرض ستة و ثلاثون سنتيمتراً و لون الرخامتين أبيض.

و يحيط بهذه القاعدة الكبيرة صندوق من الخشب كهيئته الهرم الرباعى ارتفاعه نحو القامة، و ليس به منافذ مطلقاً سوى الباب الذى يرى منه المقام الكريم، و هو فى الجهة الشرقية، و هذا الصندوق ملبس كله من الظاهر بصفائح الفضه مكتوب عليه من الجهة الشرقية فقط ما يأتى:

"بسم الله الرحمن الرحيم و به الهداية إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً و هدى للعالمين* فيه آيات بينات مقام إبراهيم و من دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً" كتبه الحافظ إسماعيل الزهدى أدرنوى خوجه، كتبه عام ألف و مائتين و ثمان و عشرين.

و باب الصندوق مصفح من الظاهر بالفضه أيضاً، و قد كتبت عليه هذه العبارة: صاحب الخيرات و الحسنات سلطان البرين و فاتح الحرمين الغازى السلطان محمود خان بن عبد الحميد خان، دام ملكه سنة ألف و مائتين و ثمان و عشرين هجرية.

و الذى يظهر لنا من هذه العبارة: أن الذى أمر بتلييس هذا الصندوق بصفائح الفضه هو السلطان محمود خان المذكور، و أما الصندوق من الداخل فهو خشب عادى بلونه الطبيعى لا أثر فيه لكتابة أو نقش.

و هذا الصندوق مغطى كله من قمته إلى الأرض بكسوة من الحرير مكتوب فيها بعض آيات قرآنية كتبها مؤلف هذا الكتاب سنة ألف و ثلاثمائة و ثمان و أربعين، و صنعت بدار الكسوة بمكة المشرفة في السنة المذكورة، و من هذه السنة إلى الآن لم تغير الكسوة، ثم يحيط بهذا الصندوق الشباك الحديد المضروب باللون الأخضر من الجهات الأربع.

أما مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام: فهو حجر ليس بصوان لونه ما بين الصفرة و الحمرة، و هو إلى البياض أقرب، و يمكن أن يحمله أضعف الرجال.

فقد روى الإمام الأزرقى في الجزء الثاني من تاريخه صحيفة (٢٨) أن أمير المؤمنين المهدي حج سنة ستين و مائة فنزل دار الندوة، ف جاء عبيد الله بن عثمان بن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣١١

إبراهيم الحجبي بالمقام مقام إبراهيم في ساعة خالية نصف النهار مشتملا عليه، فقال للحاجب: ائذن لي على أمير المؤمنين فإن معي شيئا لم يدخل به على أحد قبله و هو يسر أمير المؤمنين. فأدخله عليه فكشف عن المقام فسر بذلك و تمسح به و سكب فيه ماء ثم شربه و قال له: اخرج و أرسل إلى بعض أهله فشرّبوا منه و تمسحوا به ثم أدخل فاحتمله و رده مكانه و أمر له بجوائز عظيمة و أقطعه خيفا بنخله يقال له ذات القويح فباعه من منيرة مولاة المهدي بعد ذلك بسبعة آلاف دينار. اه.

و أما حجم حجر المقام الكريم: فهو يشبه المكعب، ارتفاعه عشرون سنتيمترا، و طول كل ضلع من أضلاعه الثلاثة من جهة سطحه ستة و ثلاثون سنتيمترا و طول ضلعه الرابع ثمانية و ثلاثون سنتيمترا، فيكون مقدار محيطه من جهة السطح مائة و ستة و أربعين سنتيمترا. و أسفل المقام أوسع بقليل من أعلاه، فيكون مقدار محيطه من جهة القاعدة نحو: مائة و خمسين سنتيمترا.

و في هذا الحجر الشريف غاصت قدما خليل الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام مقدارا كبيرا إلى نصف ارتفاع الحجر، فعمق إحدى القدمين عشرة سنتيمترات، و عمق الثانية تسعة سنتيمترات، و لم نشاهد أثرا لأصابع القدمين مطلقا فقد انمحي من طول الزمن و مسح الناس بأيديهم، و أما موضع العقبين: فلا يتضح إلا لمن دقق النظر و تأمل، و حافة القدمين الملبستين بالفضة أوسع من بطنهما من كثرة مسح الناس بأيديهم.

و طول كل واحدة من القدمين من سطح الحجر و الفضة سبعة و عشرون سنتيمترا، و عرض كل واحدة منهما أربعة عشر سنتيمترا، أما قياسهما من باطن القدمين من أسفل الفضة النازلة فيهما، فطول كل واحدة منهما اثنان و عشرون سنتيمترا، و عرض كل واحدة منهما أحد عشر سنتيمترا.

و ما بين القدمين فاصل مستدق نحو سنتيمتر واحد و قد استدق هذا الفاصل من أثر مسح الناس له بأيديهم للتبرك، و كذلك اتسع طول القدمين و عرضهما من أعلاهما بسبب المسح أيضا و مع أنه قد مر على حجر المقام الشريف أكثر من أربعة آلاف سنة، فإن معالمه و هيئة القدمين واضحة لم تتغير و لم تتبدل، و تبقى كذلك إلى يوم القيامة، مصداقا لقوله تعالى: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣١٢

و حجر المقام كله ملبس بالفضة الخالصة، فلا تظهر حقيقة الحجر إلا من باطن حفرة القدمين و جوانبهما، و أن باطنهما غير مستو، بل فيهما بعض نتوءات صغيرة، و قد كتب على الفضة حول القدمين من سطح المقام آية الكرسي بخط الثلث الواضح الجميل، و كتب عليها من الجوانب بخط الثلث أيضا ما يأتي: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا و لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاءً و هِدَاةً إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * و آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً و إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثم كتب بعد ذلك: "أمر بتجديد صحيفة القدم الشريف ابتغاء لمرضاة الله تعالى، و محبة لصاحبه مولانا السلطان مصطفى خان ابن السلطان محمد خان دام عزه و نصره سنة (١١١٣) سنة ألف و مائة و ثلاثة عشر" و يوجد على الفضة شيء من النقش أما ما نزل من الفضة في حفرة القدمين، فليس عليه شيء لا من الكتابة و لا من النقش.

ولما كان المقام الشريف ملبسا كله بالفضة و ثابتا ثبوتا قويا لا يتحرك لم يظهر لنا هل فيه شطب و كسر أم لا و نحمد الله تعالى أن وفق سلاطين المسلمين و ملوكهم للعناية و الاهتمام بهذا المقام الإبراهيمي الشريف، و يحق للمسلمين و العرب أن يفتخروا بهذا المقام الأثري القديم المقدس.

و الذى نستنتج من رؤيتنا للقدمين الشريفين أن سيدنا إبراهيم لم يكن يلبس نعلا فى رجله حال بناء البيت، بل كان حافيا لأن الأرض كانت نظيفة طاهرة لا توجب لبس النعل و نحوه، حيث لم يكن بمكة فى زمنه عليه الصلاة و السلام سوى جماعة قليلة من قبيلة جرهم. و لقد كان طول سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله و سلامه عليه كطول الرجل العادى فى زماننا، لا بالطويل و لا بالقصير، و لذلك كان نبينا محمد يشبه جده إبراهيم صلى الله و سلم عليهما و على جميع الأنبياء و المرسلين فقد ورد فى صحيح البخارى فى كتاب بدء الخلق عند وصف موسى و إبراهيم عليهما السلام صريح قول نبينا محمد صلى الله عليه و سلم ضمن الأحاديث مرارا (فمنها) قال: "و رأيت إبراهيم و أنا أشبه ولده به ... الخ،" ("و منها") و أنا أشبه ولد إبراهيم به ... الخ، ("و منها") أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ... الخ "يعنى نفسه صلى الله عليه و سلم.

و لقد ذكر بعض العلماء: أن قدم نبينا محمد يشبه قدم إبراهيم الخليل صلوات الله و سلامه عليهما، و إلى ذلك أشار ناظم عمود النسب بقوله:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣١٣ و كلما طال البناء ارتفعابه المقام فى الهوا و رفعا به القواعد و فيه القدم تشبهها للهاشمى قدم

و هو حق لا شك فيه لما تقدم من الأحاديث الصحيحة، و لما يدل عليه شكل القدمين اللتين على المقام الكريم. و كان أبو جهم بن حذيفة القرشى الذى حضر بناء الكعبة المعظمة مرتين: فى بناء قريش، و فى بناء ابن الزبير يقول: ما رأيت شيئا يشبه قدم النبى صلى الله عليه و سلم بقدم إبراهيم التى كنا نجدها فى المقام. اه.

و قال قوم من بنى مدلج و هم من أشهر العرب معرفة بالقيافة بالآثار و العلامات لعبد المطلب جد النبى صلى الله عليه و سلم حينما كفله بعد وفاة أمه آمنة: احتفظ بمحمد فإننا لم نر قدما أشبه بالقدم التى فى مقام إبراهيم منه. فكان عبد المطلب يحبه حبا شديدا لا يأكل طعاما إلا يقول: على بابى صلوات الله و سلامه عليه و على آله و أصحابه و أنصاره و أزواجه و ذريته. نقول: و يا ليتنا كنا فى زمانه صلوات الله و سلامه عليه حتى نكون من جملة خدمه و حملة نعله الشريف و الحمد لله الذى أسعدنا بالإيمان به و بمحبته و محبة آله و أصحابه كلهم.

موضع المقام

اختلف العلماء فى موضع المقام، فقد أخرج البيهقى فى سننه عن عائشة رضى الله عنها أن المقام كان فى زمن رسول الله صلى الله عليه و سلم و زمان أبى بكر مصلقا بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب، و نقل المحب الطبرى عن الإمام مالك فى المدونة أنه قال: كان المقام فى عهد إبراهيم عليه السلام فى مكانه اليوم، و كان أهل الجاهلية ألقوه بالبيت خيفة السيل فكان كذلك فى عهد النبى صلى الله عليه و سلم و أبى بكر فلما ولى عمر رده. و روى الأزرقى عن ابن أبى مليكة أن موضع المقام الآن هو موضعه فى الجاهلية و فى عهد النبى صلى الله عليه و سلم و الخليفين بعده إلى أن السيل ذهب به فى خلافة عمر رضى الله عنه فجعل فى وجه الكعبة حتى قدم عمر فرده إلى مكانه بمحضر من الصحابة رضى الله عنهم. و روى السنجارى فى كتابه "مناجى الكرم عن الإمام النووى" أنه قال: هذا الموضع الذى فيه المقام اليوم هو الموضع الذى كان فيه فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣١٤

الجاهلية و فى زمن رسول الله صلى الله عليه و سلم و بعده إلى عصرنا لم يتغير. إلا أنه جاء السيل زمن عمر رضى الله عنه- و ذكر

القصة- ثم قال: و هو الآن في الموضع الذي كان فيه.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: و كان المقام في عهد إبراهيم عليه السلام لزق البيت إلى أن أخره عمر رضى الله عنه إلى المكان الذي هو فيه الآن أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن عطاء وغيره و عن مجاهد أيضا و قد أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عيينة قال: كان المقام في صقع البيت في عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم فحوله عمر فجاء سيل فذهب به فرده عمر إليه.

قال سفيان: لا- أدرى أكان لا صفا بالبيت أم لا. قال الحافظ ابن حجر بعد ذكر ما تقدم: و لم ينكر الصحابة فعل عمر و لا من جاء بعدهم فصار إجماعا، و كان عمر رأى أن بقاءه يلزم منه التضييق على الطائفين و المصلين فوضعه في مكان يرتفع به الحرج و تهيأ له ذلك لأنه الذي كان أشار باتخاذ مصلى. و قال الحافظ عماد الدين بن كثير في تفسيره في سورة البقرة عند قوله تعالى: وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى مَا نَصَّه: و قد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما و مكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، و كان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك و لهذا- و الله أعلم- أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف و ناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، إنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحد الأئمة المهديين و الخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم و هو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله صلى الله عليه و سلم: " اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر و عمر " و هو الذي نزل القرآن بوفاته في الصلاة عنده، و لهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين. و جاء في تفسير ابن كثير أيضا في سورة النساء عند آية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا أَنْ ابْنِ مَرْدَوَيْهِ روى من طريق الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس في هذه الآية " أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما فتح مكة و أخذ من عثمان بن أبي طلحة مفتاح الكعبة و فتح بابها و غمس بالماء التماثيل التي كانت فيها أخرج مقام إبراهيم و كان في الكعبة فألزقه في حائط الكعبة ثم قال: يا أيها الناس هذه القبلة " ... الخ و الرواية المذكورة بكاملها في المجلد الثاني من التفسير بصحيفة (٤٩٢) فليراجعه من شاء

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣١٥

فإننا نقلنا منه هذه الجملة بصورة مختصرة نستشهد بأن المقام كان في الكعبة.

و ذكر العمرى في مسالك الأبصار أن موضع المقام كان موضع الخلق، أى الحفرة الملاصقة للكعبة. ثم قال: و صلى الله عليه و سلم عنده حين فرغ من طوافه ركعتين و أنزل الله تعالى عليه: وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ثُمَّ نَقَلَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي هُوَ فِيهِ الْآنَ وَ ذَلِكَ عَلَىٰ عَشْرِينَ ذِرَاعًا مِنَ الْكَعْبَةِ ... الخ، و ذكر ابن سراقه ما نصه: أن ما بين الباب يعنى باب الكعبة و مصلى آدم عليه و على نبينا الصلاة و السلام حين فرغ من طوافه و أنزل الله عليه التوبة أرجح من تسعة أذرع، و هناك كان موضع مقام إبراهيم، و صلى النبي صلى الله عليه و سلم عنده حين فرغ من طوافه ركعتين و أنزل عليه: وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ثُمَّ نَقَلَهُ إِلَى اللَّهِ عَلَيْهِ و سلم إلى الموضع الذي هو فيه الآن و ذلك على عشرين ذراعا من الكعبة لثلا ينقطع الطواف بالمصلين خلفه ثم ذهب به السيل في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أسفل مكة فأتى به و أمر عمر برده إلى الموضع الذي وضعه فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم. اه من تاريخ عمارة المسجد الحرام.

أرجح الأقوال في موضع المقام

لقد ذكرنا هذه الأقوال في موضع المقام بنصها و لفظها من غير تعليق عليها، ثم رأينا أن نأتى هنا بأرجح الأقوال على رأينا و ما نميل إليه فنقول و بالله العون و التوفيق.

إذا لا- حظت ما تقدم عن حد المسجد الحرام قديما، و أن مكان البيت كان ربوة مرتفعة عن الأرض ذات الرمال و الحصى، و أن إبراهيم عليه السلام ما بنى الكعبة بالطين و لا بالجص و إنما رضمها رضمًا و لم يسقفها، و تصورت أن أهل الجاهلية كانوا يجلسون في ظل الكعبة و يقعدون حولها يتذكرون شؤونهم العامة، و أنه لم يكن جينثد للمسجد الحرام على صغره سور و لا حائط حتى بنى عمر بن الخطاب جدارا قصيرا بعد أن زاد فيه و وسعه.

ظهر لك أن أرجح الأقوال المتقدمة و أقربها إلى الصواب هو ما رواه البيهقي في سننه من أن المقام كان في زمن النبي صلى الله عليه و سلم و زمن أبي بكر ماصقا بالبيت حتى آخره عمر بن الخطاب و ما ذكره أيضا ابن حجر العسقلاني في فتح الباري بأن المقام كان في عهد إبراهيم عليه السلام لثق البيت إلى أن آخره عمر إلى المكان التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣١٦

الذي هو فيه الآن، و ما قاله أيضا ابن كثير في تفسيره بأن المقام كان ماصقا بجدار الكعبة قديما و مكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر، و كان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، و أنه آخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ... الخ كلامه المتقدم و هو كلام حسن جيد للغاية، و ما ذكره ابن كثير أيضا في تفسيره من روايته ابن مردويه أن مقام إبراهيم كان في الكعبة فأخرجه رسول الله صلى الله عليه و سلم فألزقه في حائط الكعبة و ذلك حينما دخل الكعبة يوم فتح مكة.

و لقد رجحنا هذه الأقوال الأربعة مما تقدم، لأن المعقول أن إبراهيم عليه السلام لا بد أن يضع الحجر الذي قام عليه في بناء البيت الحرام بلزقه و جواره لا أن يضعه بعيدا عن البيت حينما اتفق و هو ياقوته من يواقيت الجنة و مقامه الذي كان يقوم عليه و أيضا لا بد أن الله تعالى أمره بحفظه و عدم التفريط فيه حيث يأتي في آخر الزمان خاتم النبيين محمد صلى الله عليه و سلم فيؤمر هو و أمته بالصلاة عنده و قبلتهم البيت المعظم. و يؤيد كلامنا هذا ما جاء في الجزء الثاني من تاريخ الأزرقى أن إبراهيم عليه السلام قام على المقام حينما أذن في الناس بالحج، فلما فرغ من التأذين أمر بالمقام فوضعه قبله فكان يصلى إليه مستقبل الباب ثم كان إسماعيل بعده يصلى إليه إلى باب الكعبة ... الخ.

فلدى التأمل في هذه النقطة يظهر جليا أن إبراهيم عليه السلام جعل الحجر الذي قام عليه لبناء الكعبة بلصقها و لا يبعده عنها بمسافة أذرع مخصوصة إلا لسبب و أى سبب لذلك في أيامه و أيضا أن أهل الجاهلية كانوا ألصقوا المقام بالبيت خيفة السيل بل وضعوه في جوف الكعبة حتى أخرجه رسول الله صلى الله عليه و سلم منها فألزقه في حائطها كما تقدم بيان ذلك، فما الذى يدعو أهل الجاهلية إلى إبعاد ذلك الحجر الأثرى المحترم عن الكعبة و وضعه في هذا المحل الذى هو عليه الآن كما فى رواية السنجاري المتقدمة و لا أحد منهم يتعبد عنده، بل لو أبعدوه عن البيت لكان المعنى أنهم لم يعتبروه و لم يحترموا حيث رموه فى آخر ساحته عند أبواب بيوتهم المحيطة بالبيت، و كيف يقع ذلك منهم و هم الذين يعتقدون أنه ذلك الحجر المقدس الذى عليه أثر قدمى إبراهيم الخليل عليه السلام، و قد قال أبو طالب فيه و فى الحجر الأسود:

و بالحجر المسود إذ يمسخونه إذا اكتنفوه بالضحى و الأصائل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣١٧ و موطئ إبراهيم فى الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل فلما جاء الإسلام أكد احترامهما و جعل لهما مغزى خاصا و رمزا تعبديا و إن كان الحجر الأسود أعظم حرمة من المقام، فإنه يمين الله فى الأرض و إنه يبعث يوم القيامة و له عينان يبصر بهما و لسان ينطق به يشهد لمن استلمه بالحق كما ورد ذلك. و قد تقدم أن الحجر الأسود و المقام هما من ياقوت الجنة.

و فى الأزرقى عن مجاهد أنه قال: يأتى يوم القيامة الركن و المقام كل واحد منهما مثل أبى قبيس يشهدان لمن وافاهما بالموافاة. اه. فيكون الحجر الأسود و المقام من أقدم الأحجار الأثرية الدينية المحترمة، حيث مر عليهما آلاف السنين و الأعوام، و سيبقيان فى

موضعهما ياذن الله حتى قيام الساعة، ففي الأزرقى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكثرنا استلام هذا الحجر فإنكم توشكون أن تفتقدوه، بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا وقد فقدوه، إن الله عز وجل لا يترك شيئاً من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة).
و في الأزرقى أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "إن الله تعالى يرفع القرآن من صدور الرجال والحجر الأسود قبل يوم القيامة."

ما ورد في كتاب شفاء الغرام عن موضع المقام في الجاهلية والإسلام

نحب أن نذكر هنا زيادة في الإيضاح ما ذكره الفاسى في كتابه "شفاء الغرام" مفصلاً عن موضع المقام في الجاهلية والإسلام، فقد جاء في الجزء الأول منه ما نصه:

روينا عن الأزرقى بالسند المتقدم إليه قال: حدثني جدى قال: حدثنا عبد الجبار ابن الورد قال: سمعت ابن أبى مليكة يقول: موضع المقام هو هذا الذى هو به اليوم هو موضعه في الجاهلية وفي عهد النبى صلى الله عليه وسلم و أبى بكر و عمر رضى الله عنهما، إلا أن السيل ذهب به في خلافة عمر فجعل في وجه الكعبة حتى قدم عمر فرده بمحضر من الناس.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣١٨

و ذكر الأزرقى ما يوافق قول ابن أبى مليكة في موضع المقام عن عمرو بن دينار و سفيان بن عيينة و روى الفاكهى عن عمرو بن دينار و سفيان بن عيينة مثل ما حكاها عنهما الأزرقى بالمعنى.

و نقل المحب الطبرى فى القرى عن مالك ما يخالف ذلك لأنه قال: و قال مالك فى المدونة: كان المقام فى عهد إبراهيم صلى الله عليه وسلم فى مكانه اليوم و كان أهل الجاهلية ألصقوه بالبيت خيفة السيل، فكان كذلك فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم و عهد أبى بكر، فلما ولى عمر رده بعد أن قاس موضعه بخيوط قديمة قيس بها حين أخروه.
انتهى.

ثم قال المحب: و فى هذا مناقضة ظاهرة لما ذكره الأزرقى عن ابن أبى مليكة و سياق لفظ حديث جابر الصحيح الطويل و ما روى نحوه شهد لترجيح قول ابن أبى مليكة، و ذلك قوله: ثم تقدم إلى مقام إبراهيم و قرأ: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، فجعل المقام بينه و بين الكعبة، و المتبادر إلى الفهم منه عند سماع هذا اللفظ أنه لم يكن حينئذ ملصقا بالبيت، لأنه لا يقال فى الصرف تقدم إلى كذا فجعله بينه و بين كذا إلا فيما يمكن أن يقدمه أمامه و أن يخلفه خلفه، و إن كان ملصقا تعين التقديم لا غير. انتهى باختصار.

و قد ذكرنا فى أصل هذا الكتاب بقية كلام المحب و كلاماً لمالك فى المعنى و بينا ما فيه الصواب و الله أعلم.

و ذكر موسى بن عقبه فى مغازيه، و أبو عروبة فى الأوائل له و الفاكهى فى كتابه ما يوافق ما ذكره مالك فى أن المقام كان فى وجه الكعبة لاصقا فى الجاهلية، قال موسى بن عقبه: فإن قال فيما روينا عنه و كان زعموا أن المقام لاصق فى الكعبة فأخره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكانه هذا. انتهى.

و ذكر ذلك فى خبر فتح مكة، و أما أبو عروبة فإن قال فيما روينا عنه حدثنا سلمة قال: حدثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن حميد الأعرج عن مجاهد قال:

كان المقام إلى جنب البيت و كانوا يخافون عليه من السيول و كان الناس يصلون خلفه. انتهى باختصار لقصة رد عمر للمقام إلى موضعه الآن و ما كان بينه و بين المطلب ابن أبى وداعة السهمى فى موضعه الذى حرره المطلب، و قال أبو عروبة أيضاً: حدثنا سلمة قال: حدثنا عبد الرزاق قال: إن ابن جريج قال: سمعت عطاء

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣١٩

وغيره من أصحابنا يزعمون أن عمر رضى الله عنه أول من رفع المقام فوضعه فى موضعه الآن و إنما كان من قبل الكعبة. انتهى.
و أما الفاكهى فقال: حدثنا عبد الله بن أبى سلمة قال: حدثنا عبد الجبار بن سعيد عن ابن أبى سبرة عن موسى ابن سعيد عن نوفل بن معاوية الديلى قال:

رأيت المقام فى عهد عبد المطلب ملصقا بالبيت مثل البهار، و روى الفاكهى بسنده إلى عبد الله بن سلام خبرا فيه أذان إبراهيم على المقام للناس بالحج فلما فرغ أمر بالمقام فوضعه قبلته فكان يصلى إليه مستقبل الباب، و فيه أن النبى صلى الله عليه و سلم قدم مكة من المدينة فكان يصلى إلى المقام و هو ملصق بالكعبة حتى توفى رسول الله صلى الله عليه و سلم.
و قال الفاكهى حدثنا الزبير بن أبى بكر قال: حدثنا يحيى بن محرر بن توبان عن سليم عن ابن جريج عن عثمان بن أبى سليمان عن سعيد بن جبير أنه قال:

كان المقام فى وجه الكعبة و إنما قام إبراهيم عليه حين ارتفع البنيان فأراد أن يشرف على البناء، قال: فلما كثر الناس خشى عمر ابن الخطاب أن يطؤوه بأقدامهم فأخره إلى موضعه الذى هو به اليوم حذاء موضعه الذى كان قدام الكعبة.
و قال الفاكهى: حدثنا يعقوب بن حميد ابن كاسب قال: حدثنا عبد العزيز بن محرر عن هشام بن عروة عن أبيه قال عبد العزيز: أراه عن عائشة أن المقام كان فى زمن النبى صلى الله عليه و سلم إلى سقع البيت. قال الفاكهى: و قال المكيون: كان بين المقام و بين الكعبة ممر العنز. انتهى.

و ليس فيما ذكره مالك و ابن عقبة و أبو عروبة و الفاكهى من كون المقام كان عند الكعبة بيان موضعه عند الكعبة، إلا أن فى الخبر الذى رواه الفاكهى عن سعيد بن جبير مما يفهم منه تقريب بيان موضع المقام عند الكعبة، إلا أن فيه ما يقتضى أن موضعه الآن هذا موضعه الذى كان به قدام الكعبة، و المقام الآن فى جوف الصندوق الذى فى جوف الشباييك الأربعة المتقدم ذكرها، و يحاذى الصندوق الذى فيه المقام من وجه الكعبة ذراعان بالحديد و نحو خمسة قراريط بذراع الحديد أيضا المقدم ذكره، و الذراعان هما نصف الحفرة المرخمة الملاصقة لثا ذروان الكعبة و نصف الحفرة المشار إليه هنا هو النصف الذى يلي الحجر، بسكون الجيم، و ما زاد على الذراعين من القراريط التى هى كمال ما يحاذى الصندوق الذى فيه المقام و هى إلى طرف الحفرة مما يلي الحجر، بسكون الجيم، و إذا كان كذلك فيكون موضع المقام عند الكعبة تخميناً. و الله أعلم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٢٠

و فيما بين نصف الحفرة مما يلي الحجر، بسكون الجيم و القراريط الزائدة على الذراعين، لأن ذلك يحاذى الصندوق الذى فيه المقام الآن، و إذا كان كذلك فهو يوافق قول من قال أن موضع المقام الآن حذاء موضعه عند الكعبة. و الله أعلم.

و ذكر الفقيه محمد بن سراقه العامرى فى كتابه دلائل القبلة فى موضع المقام عند الكعبة ما يخالف قول من قال: إن موضعه الذى بحذاء موضعه عند الكعبة، و نص ما ذكره ابن سراقه و من الباب يعنى باب البيت إلى مصلى آدم عليه السلام حين فرغ من طوافه و أنزل الله عليه التوبة و هو موضع الخلق من إزار الكعبة أرجح من تسعة أذرع، و هناك كان موضع مقام إبراهيم عليه السلام و صلى صلى الله عليه و سلم عنده حين فرغ من طوافه ركعتين و أنزل الله عليه: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ثُمَّ نَقَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي هُوَ فِيهِ الْآنَ وَ ذَلِكَ عَلَى عَشْرِينَ ذِرَاعًا مِنَ الْكَعْبَةِ لَثَلَا يَنْقَطِعُ الطَّوْفُ بِالْمُصَلِّينَ خَلْفَهُ أَوْ يَتْرَكَ الصَّلَاةَ خَلْفَهُ لِأَجْلِ الطَّوْفِ حِينَ كَثُرَ النَّاسُ وَ لِيَدُورَ الصَّفُّ حَوْلَ الْكَعْبَةِ وَ يَرَى الْإِمَامُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ. ثم حملة السيل فى أيام عمر و أخرجه من المسجد فأمر عمر رضى الله عنه برده إلى موضعه الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه و سلم فيه و بين موضع الخلق و هو مصلى آدم و بين الركن الشامى ثمانية أذرع. انتهى.

و قد سبق بعض ما ذكرناه عن ابن سراقه فى الباب الثامن من هذا الكتاب عند بيان مصلى آدم عليه السلام، و هذا يقتضى اتخاذ موضع مصلى آدم و موضع الخلق و موضع المقام عند الكعبة و هو على مقتضى ما ذكر ابن سراقه فى ذرع ما بينه و بين ركن الكعبة الذى

يلي الحجر، بسكون الجيم، يكون على ذراعين وثلثي ذراع بالحديد من طرف الحفرة إلى جهة الحجر، بسكون الجيم، و على هذا فيكون موضع المقام عند الكعبة خارجا عن الحفرة في مقدار ذراعين و ثلثي ذراع، و على مقتضى ما قيل من أن موضعه اليوم حذاء موضعه عند الكعبة، يكون موضعه عند الكعبة في مقدار نصف الحفرة التي تلى الحجر، بسكون الجيم، و الله أعلم بالصواب.

و أما الموضع الذي ربط فيه المقام عند الكعبة لما ذهب به السيل فقد بينه الفاكهي لأنه قال: فصل و ذكر عن بعض المكيين، أن الموضع الذي ربط عنده المقام في وجه الكعبة بأستارها إلى أن حج عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرده و ذلك أن يقصد الطائف من الحجر الشامي في حجارة شاذروان الكعبة إلى أن يبلغ

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٢١

الحجر السابع فإذا بلغ الحجر السابع فهو موضعه و إلا فهو التاسع من حجارة الشاذروان أيضا. انتهى.

و ذكر الفاكهي في موضع آخر من كتابه ما يقتضى أن هذا علامة للموضع الذي ذكر عبد الله بن السائب المخزومي أنه رأى النبي صلى الله عليه و سلم يصلى عنده يوم فتح مكة و ذكر الأزرقى مثل ذلك و الله أعلم. و ما ذكره ابن سراقه من أن النبي صلى الله عليه و سلم رد المقام إلى موضعه الآن يشهد له ما ذكره ابن عقبة، و ما سأذكره مخالف لما ذكره سعيد بن جبير و عطاء و غيرهم من أن عمر رضى الله عنه أول من رده إلى موضعه الآن و ذكر الفاكهي خبرا يقتضى أن الولاة حولته إلى مكانه هذا، و هذا يفهم أن الذي رده غير عمر رضى الله عنه.

فيتحصل فيمن رده إلى موضعه الآن ثلاثة أقوال: أحدها: أنه النبي صلى الله عليه و سلم، و الثاني: أنه عمر، و الثالث: غير عمر و الله أعلم. و المشهور أنه عمر ورد الخبر الذي ذكره الفاكهي عن سعيد بن جبير ما يفهم أن رد عمر للمقام إلى موضعه الآن لثلاث تطؤه الناس و المعروف أن رد عمر له إلى موضعه الآن لكون السيل المعروف بسيل أم نهشل، أزاله عن موضعه الأول و الله أعلم. و ذكر الفاكهي خبرا يقتضى أن رجلا من آل عابدين عبد الله بن مخزوم قال: قال لعمر: أنه يعلم موضع المقام الأول و المعروف أن الذي قال ذلك لعمر هو المطلب بن أبي وداعة السهمي كما ذكر الأزرقى و الفاكهي و غيرهما. و الله أعلم.

و ما ذكره ابن سراقه في ذرع ما بين موضع المقام الآن و وجه الكعبة لا يستقيم لنقص ما ذكره ابن سراقه في ذلك عما ذكره الأزرقى فيه نقصا كثيرا و الذراع الذي حرر به ابن سراقه ذراع اليد، و كذلك الأزرقى و فيما ذكره ابن سراقه نظر من غير هذا الوجه، و ذكر ابن جبير في أخبار رحلته ما يقتضى أن الحفرة المرخمة في وجه الكعبة علامة موضع المقام في عهد الخليل عليه السلام، إلى أن رده النبي صلى الله عليه و سلم إلى الموضع الذي هو الآن مصلى و في هذا نظر لأن موضع المقام الآن هو موضعه في عهد الخليل عليه السلام من غير خلاف علم في ذلك، و أما الخلاف ففي موضعه اليوم هل هو موضعه في زمن النبي صلى الله عليه و سلم كما ذكر ابن أبي مليكة أو لا كما قال مالك. و الله أعلم.

و في كلام ابن جبير نظر من وجه بيناه في أصل هذا الكتاب و الله أعلم، و لم أر في تاريخ الأزرقى ذكر السنة التي رد فيها عمر المقام إلى موضعه هذا لما غيره

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٢٢

عنه السيل، و هو سنة سبع عشرة من الهجرة على ما ذكره ابن جرير و كذا ابن الأثير في كامله، و قيل: سنة ثمان عشرة. ذكره ابن حمدون في تذكرته. و الله أعلم بالصواب. انتهى كل ذلك من شفاء الغرام.

وضع المقام في مكانه الحالي

كان وضع مقام إبراهيم عليه السلام في مكانه الذي هو فيه الآن من عمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، و ذلك أنه جاء سيل أم نهشل في خلافته سنة سبع عشرة من الهجرة إلى مكة من أعلاها، فدخل المسجد الحرام و كان سيلا عظيما بحيث اقتلع

المقام من موضعه و ذهب به، فلما جف الماء و جدوه بأسفل مكة، فأتى به و ألصق في وجه الكعبة و ربط بأستارها، و كان عمر يومئذ بالمدينة، فلما بلغه ذلك هاله الأمر و ركب من ساعته فزعا إلى مكة، فدخلها بعمرة في رمضان من السنة المذكورة، فلما دخل المسجد الحرام و وقف على حجر المقام قال: أنشد الله عبدا عنده علم في هذا المقام. فقال المطلب بن أبي وداعة السهمي رضي الله عنه: أنا يا أمير المؤمنين عندي علم بذلك، فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر، فأخذت قدره من موضعه إلى الركن و من موضعه إلى باب الحجر، و من موضعه إلى زمزم بمقاط و هو عندي في البيت، فقال له عمر: فاجلس عندي، و أرسل إليها، فأتى بها فمدها فوجدها مستوية إلى موضعه هذا، فسأل الناس و شاورهم، فقالوا: نعم هذا موضعه، فلما استثبت ذلك عمر رضي الله عنه أمر به، فأعلم ببناء تحت المقام ثم وضعه، فهو في مكانه هذا إلى اليوم. اه من الأزرقى باختصار.

و المقاط بالكسر: جبل مثل القماط فهو مقلوب منه، و القماط: جبل يشد به قوائم الشاة عند الذبح و كذا ما يشد به الصبي في المهد. اه من مختار الصحاح.

و لقد أمر عمر بن الخطاب المطلب بن أبي وداعة بالجلوس عنده زيادة في الاحتياط و الثبوت، و لأن ذلك أذعى للتصديق و نفى الشبهة و إن كان المطلب بن أبي وداعة لا يتهم في كلامه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٢٣

ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

إشارة

قال صاحب كتاب "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري و مسلم" في الجزء الخامس عن ترجمته رضي الله تعالى عنه ما نصه: و أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ألفت التأليف في ترجمته، و لتبرك بقليل منها فأقول: هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح ابن عدى بن كعب القرشي العدوي أبو حفص، و أمه خنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم. قال الزبير: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أشرف قريش و إليه كانت السفارة في الجاهلية و ذلك أن قريشا كانت إذا وقعت بينهم حرب أو بينهم و بين غيرهم بعثوه سفيرا و إن نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر رضوا به و بعثوه منافرا و مفاخرا. أسلم بعد أربعين رجلا و إحدى عشرة امرأة فكان إسلامه عزا ظهر به الإسلام بدعوة النبي صلى الله عليه و سلم فقد أخرج أبو يعلى من طريق أبي عامر العقدي عن خارجة عن نافع عن ابن عمر قال: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل ابن هشام و كان أحبهما إلى الله عمر بن الخطاب. و أخرجه عبد بن حميد و أخرجه الدارقطني عن أنس رفعه:

اللهم أعز الدين بعمر أو بعمر بن هشام في حديث طويل فأجاب الله تعالى دعاءه في عمر رضي الله عنه. قال ابن عبد البر في الاستيعاب: و شهد عمر بدرا و بيعة الرضوان و كل مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه و سلم و توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو عنه راض. و قال ابن الأثير في أسد الغابة: شهد عمر بن الخطاب مع رسول الله صلى الله عليه و سلم بدرا واحدا و الخندق و بيعة الرضوان و خيبر و الفتح و حنينها و غيرها من المشاهد و كان أشد الناس على الكفار فلما أسلم كان إسلامه فتحا على المسلمين و فرجا لهم من الضيق، قال عبد الله بن مسعود: و ما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمر.

و أخرج أحمد من رواية صفوان ابن عمرو عن شريح بن عبيد قال: قال عمر:

خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه و سلم فوجدته سبقني إلى المسجد فقامت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أتعجب من تأليف القرآن فقلت: هذا و الله شاعر كما قالت قريش قال: فقرا: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ فقلت:

كاهن قال: وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ حتى ختم السورة قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع. و هو رضى الله عنه أحد فقهاء التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٢٤

الصحابه و ثانى الخلفاء الراشدين و أحد العشرة المشهود لهم بالجنة و أول من سمي أمير المؤمنين و ولى الخلافة بعد أبى بكر بويح له بها يوم مات أبو بكر رضى الله عنه باستخلافه له سنة ثلاث عشرة فصار بأحسن سيرة أنزل نفسه من مال الله منزلة رجل من الناس و فتح الله له الفتوح بالشام و العراق و مصر، و دون الدواوين فى العطاء و رتب الناس فيه على سوابقهم و كان لا يخاف فى الله لومة لائم، و هو الذى نور شهر الصوم بصلاة الإشفاع فيه و أرخ التاريخ من الهجرة الذى بأيدى الناس إلى اليوم و هو أول من اتخذ الدرّة و كان نقش خاتمه "كفى بالموت واعظا يا عمر" و كان آدم شديد الأدمه طوالا كثر اللحية أصلح أعسر أسير يخضب بالحناء و الكتم هكذا ذكره زر بن حبيش، و مكث فى الخلافة عشر سنين و نصفاً حتى قتل شهيدا قتله غلام المغيرة بن شعبه العليج، له خمسمائة و تسعة و ثلاثون حديثا اتفق البخارى و مسلم على عشرة منها و انفرد البخارى بتسعة و مسلم بخمسة عشر. روى عنه أبناؤه عبد الله و عاصم و عبيد الله و علقمة بن وقاص، و عن ابن عمر مرفوعا أن الله جعل الحق على لسان عمر و قلبه، و لما دفن قال ابن مسعود:

ذهب اليوم بتسعة أعشار العلم. استشهد فى آخر سنة ثلاث و عشرين و دفن فى الحجرة النبوية فى أول سنة أربع و عشرين و هو ابن ثلاث و ستين و صلى عليه صهيب، و كان رضى الله عنه من المحدثين أى الملهمين فى الصحيحين من رواية عائشة و أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر. و قد تقدم هذا الحديث فى حرف اللام فى الجزء الثانى من متن زاد المسلم. و موافقاته رضى الله عنه للوحى كثيرة جمعها الجلال السيوطى فى منظومة سماها قطف الثمر فى موافقات عمر و هاهى بتمامها:

الحمد لله و صلى الله على نبيه الذى اجتبه

يا سائلى و الحادثات تكثر عن الذى وافق فيه عمر التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ؛ ج ٢-٣؛ ص ٣٢٤

و ما يرى أنزل فى الكتاب موافقا لرأيه الصواب

خذ ما سألت عنه فى آيات منظومة تأمن من شتات

ففى المقام و أسارى بدرو آيتى تظاهر و ستر

و ذكر جبريل لأهل الغدرو آيتين أنزلا فى الخمر

و آية الصيام فى حل الرفث و قوله نساؤكم حرث يبث

و قوله لا يؤمنون حتى يحكموك إذ بقتل أفتى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٢٥ و آية فيها لبدر أو به و لا تصل آية فى التوبة

و آية فى النور هذا بهتان و آية فيها بها الاستئذان

و فى ختام آية فى المؤمنين تبارك الله بحفظ المتقين

و ثلث من فى صفات السابقين و فى سواء آية المنافقين

و عددوا من ذاك نسخ الرسم لآية قد نزلت فى الرجم

و قال قولاً هو فى التوراة قد نبهه كعب عليه فسجد

و فى الأذان الذكر للرسول رأيته فى خبر موصول

و فى القرآن جاء بالتحقيق ما هو من موافق الصديق

كقوله هو الذى يصلى عليكم أعظم به من فضل

و قوله فى آخر المجادلة لا تجد الآية فى المخالفة

نظمت ما رأيته منقولاً والحمد لله على ما أولى اه

أقول: و مما هو صريح منها في موافقة ما أنزل في القرآن ما أخرجه البخارى في كتاب التفسير من صحيحه في تفسير سورة البقرة في باب: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ عن أنس قال: قال عمر: وافقت الله في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى، زاد في كتاب الصلاة في باب ما جاء في القبلة فنزلت: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ و قلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب قال: و بلغني معاتبه النبي صلى الله عليه و سلم بعض نسائه فدخلت عليهن قلت:

إن انتهيتن أو لبيدكن الله رسوله صلى الله عليه و سلم خيراً منكن حتى أتيت إحدى نسائه قالت: يا عمر أما في رسول الله صلى الله عليه و سلم ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت فأنزل الله: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ الْآيَةَ، و نزل القرآن بموافقتة أيضاً في أسارى بدر و في تحريم الخمر و من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم ضرب صدر عمر بن الخطاب لعنه الله عنه حين أسلم ثلاث مرات و هو يقول:

اللهم أخرج ما في صدره من غل و أبدله إيماناً يقولها ثلاثاً. و من حديثه أيضاً قال:

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن الله جعل الحق على لسان عمر و قلبه. و روى من حديث عقبه بن عامر و أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: لو كان بعدى نبي لكان عمر.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٢٦

و قصة إسلامه رضى الله تعالى عنه على يد أخته فاطمة بنت الخطاب المكناة أم جميل و لقبها أميمة رضى الله تعالى عنها زوج سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة خبرها عجب، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه أبو نعيم في طريقه و من طريق إسحاق بن عبد الله عن أبان بن صالح عن مجاهد عن ابن عباس قال: سألت عمر عن إسلامه قال: خرجت بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام فإذا فلان بن فلان المخزومي فقلت له: أرغبت عن دين آباءك إلى دين محمد قال: قد فعل ذلك من هو أعظم عليك حقاً منى قال: قلت: و من هو؟ قال: أختك و ختنك قال: فانطلقت فوجدت الباب مغلقاً و سمعت همهمة قال: ففتح لي الباب فدخلت فقلت: ما هذا الذي أسمع؟ قالت:

ما سمعت شيئاً فما زال الكلام بيننا حتى أخذت برأسها فقلت: قد كان ذلك على رغم أنفك، قال: فاستحييت حين رأيت الدم و قلت: أروني الكتاب فذكر القصة بطولها. و روى الواقدي عن فاطمة بنت مسلم الأشجعية عن فاطمة الخزاعية عن فاطمة بنت الخطاب أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول "لا- تزال أمتي بخير ما لم يظهر فيهم حب الدنيا في علماء فساق و قراء جهال و جابرة فإذا ظهرت خشيت أن يعمهم الله بعقاب" فأنسأله تعالى أن لا يعمنا و جميع من نحبه بذلك العقاب.

و مناقبه رضى الله عنه جمه و الحكايات عنه في عبادته و سيرته و زهده و شدته في الدين ممتعة لو ذكرناها لطلال بنا الحديث و خرجنا عن المقصود. و بالله تعالى التوفيق و هو الهادي إلى سواء الطريق. انتهى من الكتاب المذكور.

فضل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

و لقد جاءت أحاديث صحيحة كثيرة في فضل عمر بن الخطاب رضى الله عنه، في الصحيحين و غيرهما تقتصر على بعضها على سبيل التبرك لا على سبيل الحصر و التعداد:

فقد جاء في صحيح البخارى في باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم في باب مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه: عن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، قال: استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه و سلم و عنده نسوة من قريش يكلمنه و يستكثرنه عاليةً أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٢٧

فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب، فقال عمر: فأنت أحق أن يهين يا رسول الله ثم قال عمر: يا عدوات أنفسهن أتهبنتي ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن: نعم أنت أظف وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إيها يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فيحك. انتهى منه.

وفى البخارى أيضا: عن ابن أبي مليكة أنه سمع ابن عباس يقول: وضع عمر على سريره فتكفنه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعنى إلا رجل أخذ منكى فإذا على فترحم على عمر وقال: ما خلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك، و أيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أنى كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر. وخرجت أنا وأبو بكر وعمر.

وفيه أيضا: عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: صعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحد ومعهم أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فضر به برجله قال: اثبت أحد فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيدان.

وفيه أيضا: عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر، زاد زكرياء بن أبى زائدة عن سعد بن أبى سلمة عن أبى هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أمتى منهم أحد فعمرو. انتهى منه.

وفيه أيضا: عن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة قال: لما طعن عمر جعل يألم، فقال له ابن عباس و كأنه يجزعه: يا أمير المؤمنين ولئن كان ذاك لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنت صحبتته، ثم فارقتك وهو عنك راض، ثم صحبت أبو بكر فأحسنت صحبتته ثم فارقتك وهو عنك راض، ثم صحبت صحبتهم فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقهم وهم عنك راضون قال: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاه فإنما ذاك من الله تعالى من به على، وأما ما ذكرت من صحبة أبى بكر ورضاه فإنما ذاك من الله جل ذكره من به على وأما ما ترى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٢٨

من جزعى، فهو من أجلك، وأجل أصحابك، والله لو أن لى طلاع الأرض ذهبا، لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه. انتهى من البخارى.

ونكتفى بهذا القدر، ففضل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم معروف، وما من مسلم إلا وهو يحبهم محبة عظيمة أكثر من نفسه وأولاده، كيف وهم قد فازوا بمشاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسعدوا بخدمته وخدمة هذا الدين السمح الحنيف. اللهم صل على عبدك ونبيك "محمد" وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار، وأزواجه المصونات الطاهرات أمهات المؤمنين، وسلم تسليما كثيرا.

عمر بن الخطاب وبعض أعماله

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل على حمص عمير بن سعد، فلما مضت السنة، كتب إليه عمر أن أقدم علينا، فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشيا حافيا عكازته بيده وأدواته ومزودة وقصعته على ظهره فلما نظر إليه عمر قال له: يا عمير أجدبنا أم البلاد بلاد سوء فقال: ولمه يا أمير المؤمنين وقد جئت إليك بالدنيا أجزها بقرباها، فقال له: وما معك من الدنيا قال: عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا إن لقيته ومزود أحمل فيه طعامى وأداة أحمل فيها ماء لشرايى ولطهورى، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع

لما معى فقام عمر من مجلسه إلى قبر رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبى بكر رضى الله عنهما فبكى و دعا ثم عاد إلى مجلسه فقال: ما صنعت فى عملك يا عمير؟ فقال: أخذت الإبل من أهل الإبل و الجزية من أهل الذمة عن يد و هم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء و المساكين و أبناء السبيل فو الله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شىء لآتيتك به.

فقال عمر: عد إلى عملك يا عمير قال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردنى إلى أهلى فأذن له فأتى أهله فبعث عمر رجلا يقال له حبيب بمائة دينار و قال له:

اختبر لى عميرا و أنزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله أهو فى سعة أم فى ضيق فإن كان فى ضيق فادفع إليه الدنانير فأتاه حبيب فنزل عليه ثلاثة أيام فلم ير له عيشا إلا- الشعير و الزيت فلما مضت الثلاثة الأيام دفع إليه الدنانير و قال: قد بعث بها أمير المؤمنين إليك فدعى بفرو خلق لامراته فجعل يصير منها الخمسة الدنانير و الستة و السبعة و يبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدها فقدم حبيب على عمر

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٢٩

و قال: جئتكم يا أمير المؤمنين من عند أزهى الناس و ما عنده من الدنيا قليل و لا كثير و لما رجع عمير من عند أهله أمر له عمر بوسقين من طعام و ثوبين فقال: يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما و أما الوسقان فلا حاجة لى بهما فعند أهلى صاع من بر و هو كافيه حتى أرجع إليهم.

و روى أن عمر رضى الله عنه صر أربعمئة دينار و قال لغلام: اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح ثم تربص عنده فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع فذهب بها الغلام إليه و قال له: يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: اجعل هذه فى بعض حوائجك فقال: وصله الله و رحمته ثم دعا بجارية و قال لها: اذهبي بهذه السبعة إلى فلان و بهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدها فرجع الغلام إلى عمر و أخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال: انطلق بها إلى معاذ بن جبل و انظر ما يكون من أمره، فمضى إليه و قال له كما قال لأبى عبيدة بن الجراح ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة فرجع الغلام و أخبر عمر فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض رضى الله عنهم أجمعين.

قتل عمر رضى الله عنه و ما قاله عند موته

جاء فى صحيح البخارى فى فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه و سلم فى باب مناقب عثمان بن عفان رضى الله عنه: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن حصين عن عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة، وقف على حذيفة بن اليمان و عثمان بن حنيف، قال: كيف فعلتما أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق، قالوا: حملناها أمرا هى له مطيقة، ما فيها كبير فضل، قال: انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق قال: قالوا:

لا، فقال عمر: لئن سلمنى الله لأدعن أرا من أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدى أبدا، قال: فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب، قال: إنى لقاتم ما بينى و بينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب، و كان إذا مر بين الصفين قال استوا، حتى إذا لم ير فيهن خلل تقدم فكبر، و ربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلنى أو أكلنى الكلب حين طعنه فطار العالج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يمينا و لا شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٣٠

رجل من المسلمين طرح عليه برنسا، فلما ظن العالج أنه مأخوذ نحر نفسه، و تناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلى عمر، فقد رأى الذى أرى، و أما نواحى المسجد فإنهم لا يدرون، غير أنهم قد فقدوا صوت عمر و هم يقولون:

سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس انظر من قتلني فجال ساعة، ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصنع، قال: نعم، قال: قاتله الله لقد أمرت به معروفا الحمد لله الذى لم يجعل ميتتى بيد رجل يدعى الإسلام، قد كنت أنت و أبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، و كان أكثرهم رقيقا، فقال: إن شئت فعلت، أى إن شئت قتلنا، قال: كذبت بعد ما تكلموا بلسانكم و صلوا قبلتكم و حجوا حجكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه و كأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقاتل يقول: لا بأس، و قائل يقول:

أخاف عليه، فأتى ببيد فشربه فخرج من جوفه ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جوفه فعلموا أنه ميت فدخلنا عليه و جاء الناس يشنون عليه، و جاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله صلى الله عليه و سلم و قدم فى الإسلام ما قد علمته، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة. قال: وددت أن ذلك كفاف لا-على و لا-لى، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض قال: ردوا على الغلام، قال: ابن أخى أرفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك، و أتقى لربك، يا عبد الله بن عمر انظر ما على من الدين، فحسبوه فوجدوه ستاً و ثمانين ألفاً أو نحوه، قال: إن وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم، و إلا فسل فى بنى عدى بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش، و لا تعدهم إلا غيرهم، فأدعنى هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام، و لا تقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرا، و قل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلم و استأذن، ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكى، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام و يستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسى، و لأوثرن به اليوم على نفسى، فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال:

ارفعونى، فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك قال: الذى تحب يا أمير المؤمنين أذنت قال: الحمد لله ما كان منى شىء أهم إلى من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملونى ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لى فأدخلونى، و إن ردتى ردونى إلى مقابر المسلمين، و جاءت أم المؤمنين حفصة و النساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه، فبكت عنده ساعة، و استأذن الرجال فولجت

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٣١

داخلا لهم فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا: أوصى يا أمير المؤمنين استخلف، قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء نفر أو الرهط الذين توفى رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو عنهم راض، فسمى عليا و عثمان و الزبير و طلحة و سعدا و عبد الرحمن، و قال يشهدكم عبد الله بن عمر، و ليس له من الأمر شىء، كهيئته التعزية له، فإن أصابت المرأة سعدا فهو ذاك، و إلا فليستن به أيكم ما أمر، فإنى لم أعزله عن عجز و لا-خيانه، و قال: أوصى الخليفة من بعدى، بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، و يحفظ لهم حرمتهم، و أوصيه بالأنصار خيرا الذين تبوؤا الدار و الإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، و أن يعفى عن مسيئهم، و أوصيه بأهل الأمصار خيرا فإنهم ردة الإسلام و جباة المال و غيظ العدو، و أن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم، و أوصيه بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب و مادة الإسلام أن يؤخذ من حواشى أموالهم و يرد على فقرائهم، و أوصيه بدمه الله و ذمه رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يوفى لهم بعهدهم، و أن يقاتل من وراءهم و لا يكلف إلا طاقتهم، فما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى، فسلم عبد الله بن عمر، قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قلت: ادخلوه. فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: قد جعلت أمرى إلى على، فقال طلحة: قد جعلت أمرى إلى عثمان، و قال سعد: قد جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه و الله عليه و الإسلام لينظرن أفضلهم فى نفسه فأسكت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلى و الله على أن لا آلو عن فضلكم قال: نعم، فأخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه و سلم و القدم فى الإسلام ما قد علمت، فالله عليك، لأن أمرتك لتعدلن، لأن و أمرت عثمان لتسمعن و لتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: أرفع يدك يا عثمان فبايعه فبايع له على، و ولج أهل الدار

فبايعوه. انتهى من البخارى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٣٢

ترجمة المطلب بن أبى وداعة السهمى رضى الله تعالى عنه

المطلب بن أبى وداعة السهمى رضى الله تعالى عنه الذى أخذ قياس موضع مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام من موضعه إلى الركن الأسود، و من موضعه إلى باب الحجر، و من موضعه إلى بئر زمزم كما تقدمت قصته.

أخذ هذا القياس "بالمقاط" بكسر الميم، جبل مثل القمط فهو مقلوب منه، و القمط، بكسر القاف جبل يشد به قوائم الشاة عند الذبح، و كذا ما يشد به الصبى فى المهد، كما جاء فى مختار الصحاح.

و المطلب السهمى صحابى جليل روى عن النبى صلى الله عليه و سلم بعض أحاديث و ذكره ابن سعد فى مسلمة الفتح. و قال الواقدي: نزل المدينة و له بها دارا و بقى دهرا.

و قال أبو عبيد: له صحبة و روى عن النبى صلى الله عليه و سلم و حديثه فى مسند أحمد بسند صحيح إلى عكرمة بن خالد عن المطلب بن أبى وداعة قال: رأيت النبى صلى الله عليه و سلم يسجد فى النجم ... الحديث، و فى آخره قال المطلب: فلا أدع السجود فيها أبدا. انتهى ملخصا عن الإصابة فى تمييز الصحابة.

قال الإمام الأزرقي فى تاريخه عند الكلام على ما جاء فى القيام فى الطواف ما نصه:

حدثنا أبو الوليد، حدثنى أحمد بن ميسرة المكي، قال: حدثنا عبد المجيد بن أبى رواد قال: سألت أبى عن القيام فى الطواف فقال: كان عبد الكريم بن أبى المخارق أول من نهانى عن ذلك، قال: أخذت بيده فاحتبسته لأسأله عن شىء فأنكر على ذلك نكرة شديدة و وعظنى فيه بأشياء قال: فبعثنى ذلك على مسألته، فأخبرت أن المطلب بن أبى وداعة خرج نحو البادية ثم قدم فرأى ناسا قياما فى الطواف يتحدثون فأنكر ذلك ثم قال "اتخذتم الطواف أنديئة. قال أبى: ثم سألت نافعا مولى ابن عمر، فقلت: هل كان ابن عمر يقوم فى الطواف؟ فقال:

لا- رأيت قائما فيه حتى يفرغ منه، إلا- عند الحجر و الركن اليماني فإنه كان لا يدعهما أن يستلمهما فى كل طواف طاف. انتهى من الأزرقي.

نقول: يكفى المطلب بن أبى وداعة السهمى شرفا أن أمير المؤمنين عمر رضى الله تعالى عنهما وضع مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام فى موضعه على القياس الذى أخذه المطلب السهمى رضى الله عنه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٣٣

و انظر إلى حكمه البارى جل جلاله، فى إلهام المطلب بن أبى وداعة ليأخذ قياس موضع المقام قياسا محررا تاما بجبل احتفظ به عنده فى بيته، و ذلك خوفا أن يذهب به السيل فلا يعرف موضعه بالضبط كما أخبر هو بذلك عن نفسه عندما تحدث مع عمر بن الخطاب رضى الله عنهما. فتأمل رحمك الله فى قوله تعالى:

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ لَتَرَى الْحِكْمَةَ رَبَّانِيَةً جَلِيَّةً وَاضِحَةً كَالشَّمْسِ الْمَشْرِقَةِ.

اهتمام عمر رضى الله عنه بأمر المقام

فإن قيل: لماذا لما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه و هو بالمدينة أن السيل المسمى "بسيل أم نهشل" اقتلع المقام من محله و ذهب به إلى أسفل مكة، ركب من ساعته فرعا و أتى مكة.

نقول: إن مقام إبراهيم عليه السلام شأنه خطير، أليس الله تعالى قال في حقه: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَقَالَ: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ فَهُوَ مَقَامٌ مَقْدَسٌ لَا يَسْتَهَانُ بِأَمْرِهِ، وَهُوَ كَالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ يَرْتَبِطُ أَمْرُهُمَا بِالْكَعْبَةِ الْمَشْرُفَةِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، فَخَلِيقٌ بِعَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنْ يَحْضُرَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ سَرِيعًا عِنْدَمَا بَلَّغَهُ خَيْرَ السَّبِيلِ الَّذِي اقْتَلَعَ الْمَقَامَ مِنْ مَحَلِّهِ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى أَسْفَلِ مَكَّةَ أَلَيْسَ أَنْ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَتَمَنَّى أَنْ يَجْعَلُوا الْمَقَامَ مُصَلًّى قَبْلَ نَزُولِ آيَةٍ: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، فَكَيْفَ لَا يَبَادِرُ بِالْحَضُورِ إِلَى مَكَّةَ لِيَنْظُرَ بِنَفْسِهِ فِي أَمْرِهِ.

حدث جابر عن حجة النبي صلى الله عليه وسلم وقال: لما طاف النبي صلى الله عليه وسلم قال له عمر: هذا مقام أبينا. قال: نعم. قال: أفلا نتخذة مصلى؟ فأنزل الله عز وجل وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى.

وفي رواية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالمقام ومعه عمر، فقال: يا رسول الله أليس هذا مقام إبراهيم؟ قال: بلى. قال: أفلا نتخذة مصلى. قال: لم أؤمر بذلك. فلم تغب الشمس حتى نزلت الآية.

وفي البخاري عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: وافقت ربي في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث. قلت: يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ... إلى آخر الحديث.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٣٤

والذي جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يهتم بشأن المقام فيركب من ساعته فزعا قاصدا مكة أربعة أمور: الأمر الأول: خوفه على المقام الكريم هل حدث فيه خدش أو كسر من أثر السيل الذي جره إلى أسفل مكة أم لا، وهو المقام المقدس المحترم، مقام بنى الكعبة خليل الله "إبراهيم" عليه الصلاة والسلام.

الأمر الثاني: لا بد من وقوف ولى أمر المسلمين وأمامهم بنفسه على هذا الأمر الخطير، فلو أرسل مندوبا من طرفه من المدينة ليأتيه بخبر المقام، لكان عليه أن ينتظر مندوبه نحو عشرين يوما بالدواب ذهابا وإيابا حتى يرجع إليه من مكة فيخبره عن أمر المقام، لأن المسافة بين مكة والمدينة سير الإبل نحو عشرة أيام.

وهذا مما لا يشفى غليله، ولم يكن في أيامه رضى الله تعالى عنه "لا سلكى" حتى يتخبر مع مكة برقيا بالتلغراف.

الأمر الثالث: لو فرضنا أنه أرسل من طرفه مندوبا إلى مكة، وانتظر رجوعه بالخبر اليقين، ثم يرسله ثانيا إلى مكة ليلعب عامله عليها أوامره التي يجب اتباعها في شأن المقام، لاستلزم ذلك مدة لا تقل عن ثلاثين يوما في حالة الإسراع. ففي كل هذه الأيام قد تنقطع الصلاة خلف المقام، وقد أمرنا الله تعالى بالصلاة خلفه، فإن لم تنقطع الصلاة فلا بد من حصول التشويش بين المصلين خلفه والطائفتين حول البيت حيث أن المقام لما أتوا به من جهة المسفلة جعلوه في وجه البيت وربطوه بأستاره. فعليه رأى عمر رضى الله عنه اختصارا للوقت المبادرة بالسفر بنفسه إلى مكة ليرجع كل شىء على ما كان عليه قبل هجوم السيل واقتلعه للمقام.

الأمر الرابع: أن اقتلاع السيل للمقام وذهابه إلى أسفل مكة لأمر يوجب التشويش والاهتمام العظيم، لأن محله كان من عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد خليفته أبى بكر رضى الله تعالى عنه، وعمر قد لا يعرف بالضبط نقطة محله وموضعه، وقد لا يعرفها بالضبط أيضا أحد من أهل مكة، وهو رضى الله عنه الحريص كل الحرص على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم خطوة خطوة، والمحافظ على كل شىء كان في زمنه عليه الصلاة والسلام، فلا يدرى هل يجد عند أحد الصحابة بمكة علما تاما وقياسا محررا عن محل المقام أم لا.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٣٥

كل هذا كان يشغل ذهن عمر وفكر عمر رضى الله تعالى عنه وأكرمه بوسع فضله وإحسانه، وكل هذا دفع عمر دفعا ليبادر بالسفر فزعا من ساعة ما بلغه خبر السيل الذي هجم على المسجد الحرام فاقتلع المقام من محله وذهب به.

وصل عمر رضى الله عنه إلى مكة في رمضان سنة سبع عشرة من الهجرة محرما بعمرة، وقد نزل في دار ابن سباع، فلما دخل المسجد

الحرام و قد غيى موضع المقام و عفاه السيل، دعا عمر بالناس فقال: أنشد الله عبدا عنده علم فى هذا المقام فقال المطلب بن أبى وداعة السهمى: أنا يا أمير المؤمنين عندى علم بذلك، فقد كنت أخشى عليه هذا فأخذت قدره من موضعه إلى الركن ... إلى آخر القصة المتقدمة.

فلما استوثق عمر من خبر المطلب بن أبى وداعة، و استثبت ذلك بعد سؤاله الناس أيضا و مشاورتهم أمر بالمقام فوضع فى محله المضبوط المحرر بإجماع الصحابة و على مرأى و مشهد منهم.

روى الأزرقى فى تاريخه عن عبد الله بن صفوان أنه قال: أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه عبد الله بن السائب العابدى و عمر نازل فى دار ابن سباع، بتحويل المقام إلى موضعه الذى هو فيه اليوم، قال: فحوله ثم صلى المغرب، و كان عمر قد اشتكى رأسه، قال: فلما صليت ركعة جاء عمر فصلى ورائى.

قال: فلما قضى صلاته قال عمر: أحسنت. فكنت أول من صلى خلف المقام حين حول إلى موضعه. و روى الأزرقى أيضا عن عبد الله بن السائب و كان يصلى بأهل مكة: قال: أنا أول من صلى خلف المقام حين رد فى موضعه هذا، ثم دخل عمر و أنا فى الصلاة فصلى خلفى صلاة المغرب. انتهى.

نقول: لقد استنتجنا مما تقدم ما يأتى:

(١) أن سيل أم نهشل الذى اقتلع المقام من محله، كان إما فى شهر رمضان أو فى أواخر شعبان، حيث أنه بعد مجيء السيل مباشرة كتبوا إلى عمر رضى الله تعالى عنه عن أمر اقتلاع المقام، فوصول الكتاب إليه مع الرسول حامل الكتاب يحتاج إلى نحو عشرة أيام بسير الدواب، و وصول عمر إلى مكة يحتاج إلى عشرة أيام أيضا، فصار ما بين مجيء السيل إلى المسجد الحرام و وصول عمر رضى الله عنه إلى مكة عشرون يوما، و كان وصوله فى شهر رمضان سنة (١٧) من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٣٦

الهجرة، و مع الأسف لم يذكر فى التاريخ يوم مجيء السيل و لا يوم دخول عمر مكة.

(٢) لم يذكر فى التاريخ هل عند وصول عمر رضى الله عنه محرما بالعمرة طاف و سعى أو لا أم أنه قدم أمر المقام على ذلك و نحن نرى أنه رضى الله تعالى عنه قدم الطواف و السعى أولا حتى يتحلل من إحرامه أولا ثم ينظر فى أمر المقام، لأن تحية المسجد الحرام الطواف و الطواف للمحرم يعقبه السعى، و لا يعقل أن عمر رضى الله عنه يدخل المسجد الحرام و هو محرم فيترك الطواف و السعى و يبدأ بأمر المقام.

(٣) أن اجتماع عمر رضى الله تعالى عنه بالناس فى المسجد الحرام بشأن المقام و التثبيت من محله كان بعد صلاة العصر أو قبل المغرب بنحو ساعة أو أقل، بدليل ما ذكره الأزرقى من قول عبد الله بن صفوان.

(٤) أن عمر رضى الله تعالى عنه لم يضع نفسه المقام فى موضعه، و إنما أمر عبد الله بن السائب العابدى الذى كان يصلى بأهل مكة بتحويل المقام إلى موضعه فحوله المذكور ثم صلى المغرب بالناس، فكان هو أول من صلى خلف المقام حين رده إلى موضعه، فلما صلى ابن السائب ركعة جاء عمر فصلى ورائه، و تأخر عمر عن اللحاق بالإمام ابن السائب فى أول الصلاة كان لعذر من شكايه رأسه، و هذا أيضا هو السبب فى عدم وضعه المقام بنفسه فى محله، كما هو صريح عبارة الأزرقى.

(٥) معنى قول عمر رضى الله تعالى عنه لعبد الله بن السائب العابدى أمام أهل مكة: أحسنت، و ذلك بعد الفراغ من الصلاة، أى لقد أحسنت فى الإحرام بالصلاة بدون أن تنتظر حضورى.

و يؤخذ من إقرار عمر بهذا الأمر و رضائه به، أن الإمام الراتب للصلاة أولى بالتقدم للصلاة بالناس من ولى المسلمين.

نعم لو أحب ولى الأمر التقدم للصلاة بالناس فهو عندئذ أحق بالتقدم من الإمام الراتب، لأن الولاية و الغزل راجع إليه. و الله تعالى أعلم.

فإن قيل: لم أمر عمر رضى الله عنه عبد الله بن السائب بوضع المقام إلى محله بعد الثبوت و التحرى عن موضعه و لم يأمر غيره بذلك؟.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٣٧

نقول: لأن عبد الله بن السائب صحابى جليل و قد كان شريك رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الجاهلية.

ولأنه كان من قراء القرآن المهرة و عنه أخذ أهل مكة القراءة كما سيأتى ذلك فى ترجمته.

فكانوا فى صدر الإسلام يفضلون أهل القرآن لأنهم كانوا يعملون بما يعلمون قال عمر رضى الله عنه "أما إن نبيكم صلى الله عليه و سلم قال: إن الله سبحانه يرفع بهذا القرآن أقواما و يضع به آخرين" رواه الأزرقي فى تاريخه و رواه مسلم فى صحيحه.

(٦) أن عمر رضى الله تعالى عنه لما عرف محل المقام و ثبت عنده ذلك بحضور الصحابة العدول رضى الله تعالى عنهم أمر ببناء تحت المقام ثم وضعه عليه كما تقدم بيان ذلك، فلا يزال المقام مرتفعا فوق رخامه بيضاء إلى يومنا هذا، و مقدار ارتفاعه عن الأرض نحو نصف متر تقريبا.

فيكون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه هو أول من وضع المقام على بناء مرتفع عن الأرض و قد أحسن صنعا بذلك أثابه الله تعالى عليه، لأن حجر المقام مقدس مكرم، و لأن الله تعالى أمرنا بالصلاة عنده، فينبغى رفعه عن الأرض نحو ذراع أو أكثر فلا يلقى به على الأرض، و على ذلك جرت العادة إلى يومنا هذا. فرضى الله عن عمر بن الخطاب الذى قال فى حقه رسول الله صلى الله عليه و سلم "إن الله جعل الحق على لسان عمر و قلبه" رواه أحمد و الترمذى و غيرهما. و قال أيضا "لقد كان فيما قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر" رواه البخارى و مسلم، و محدثون بفتح الدال المشددة أى ملهون.

ترجمة عبد الله بن السائب العابدى رضى الله عنه

نذكر هنا ترجمته ملخصا من كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة، و من كتاب الاستيعاب فى أسماء الأصحاب، و هى كما يأتى:

هو عبد الله بن السائب بن أبى السائب، و اسم أبى السائب صيفى بن عائذ ابن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشى المخزومى القارى. كان عبد الله من قراء القرآن، أخذ عنه أهل مكة القراءة، و عليه قرأ مجاهد و غيره من قراء أهل مكة،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٣٨

فلهذا كان يصلى بأهل مكة و لهذا أمره أمير المؤمنين عمر رضى الله تعالى عنه بتحويل المقام إلى موضعه كما تقدمت الإشارة إليه.

و قد روى مسلم لعبد الله بن السائب حديثا من رواية محمد بن عباد ابن جعفر عنه أنه شهد النبى صلى الله عليه و سلم فى الفتح قرأ فى صلاة الصبح سورة المؤمنين ...

الحديث، و علقه البخارى لعبد الله بن السائب و أسنده فى التاريخ، و أسند البخارى بسند صحيح من طريق ابن أبى مليكة رأيت عبد الله بن عباس وقف على قبر عبد الله بن السائب.

و أخرج له أبو داود و النسائى من رواية عطاء عنه شهدت العيد مع النبى صلى الله عليه و سلم ... الحديث، و حديث: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول بين الركنتين: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ... الآية. اه.

و من حديث عبد الله بن السائب هذا قال: شهدت رسول الله صلى الله عليه و سلم صلى الصبح بمكة فافتتح بسورة المؤمنين فلما أتى على ذكر موسى و هارون أخذته سعة فرجع.

قال هشام بن محمد الكلبي: و كان شريك رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الجاهلية عبد الله بن السائب.

و قال الواقدي: كان شريك رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الجاهلية السائب بن أبى السائب.

وقال غيرهما: كان شريك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية قيس بن السائب وقد جاء بذلك كله الأثر.

وكان عبد الله بن السائب يسكن مكة وتوفي بها قبل قتل ابن الزبير بيسير كما في الاستيعاب.

وقال في الإصابة: مات عبد الله بن السائب بمكة في إمارة ابن الزبير وصلى عليه ابن عباس رضى الله تعالى عن الجميع.

انتهى ذلك ملخصا من الكتابين المذكورين بتصريف وزيادة.

فيفهم من الرواية السابقة: أن المقام كان في موضعه الآن قبل سيل أم نهشل، وعمر رضى الله عنه ما وضعه إلا موضعه الأول، وهذا

يوافق قول ابن أبي مليكة، وقول العمري، وقول ابن سراقه، وقد تقدمت أقوالهم، وسواء كان المقام

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٣٩

قبل السيل في مكانه الآن أم لا، فقد وضعه أحد الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد السيل المذكور

في المكان الذى هو فيه الآن بعد مشاورة الصحابة رضى الله عنهم وإجماعهم على موافقته، فنحن مأمورون باتباعهم والتمسك

بطريقتهم.

ولئن كان عمر آخر المقام إلى هذا المكان الذى هو فيه الآن مخافة التضييق على الطائفتين والمصلين كما ذكره ابن حجر العسقلاني

في قوله المتقدم، فقد أصاب عمر عين الحق، ووفق أعظم توفيق، وهذا يعد من مناقبه العظمى، فلو لم يؤخر المقام إلى موضعه هذا

كيف كان اليوم حال الطائفتين مع المصلين وراء المقام وهو بجوار الكعبة. ولو كان عمر في زماننا ورأى هذا الازدحام العظيم في

المطاف، والمسجد الحرام على اتساعه الكبير يموج بألاف الحجاج موج البحر، لأمر بتأخير المقام إلى أبعد من ذلك. والله تعالى

أعلم.

والحقيقة أن فضائل عمر رضى الله عنه لا تعد، ومناقبه لا تحصى ومن الذى يحصى مناقب رجل ينزل القرآن وفق رأيه حتى هنا في

اتخاذ المقام مصلى. وكفاه شرفا قوله صلى الله عليه وسلم: "لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يكن فى أمتى أحد فإنه

عمر،" وقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه،" ومعنى: جعل هنا: أجرى، فجزاه الله وجميع صحابه

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ووفقنا لاتباعهم، وحشرنا فى زميرهم آمين.

ذرع مقام إبراهيم

قال الإمام الأزرقى فى تاريخه: قال أبو الوليد: و ذرع المقام ذراع، و المقام مربع سعة أعلاه أربعة عشر إصبعا فى أربعة عشر إصبعا و

من أسفله مثل ذلك و فى طرفيه من أعلاه و أسفله طوقا ذهب و ما بين الطوقين من الحجر من المقام بارز بلا ذهب عليه، طوله من

نواحيه كلها تسع أصابع و عرضه عشر أصابع عرضا فى عشر أصابع طولاً و ذلك قبل أن يجعل عليه هذا الذهب الذى هو عليه اليوم

من عمل أمير المؤمنين المتوكل على الله و عرض حجر المقام من نواحيه إحدى و عشرون إصبعا، و وسطه مربع و القدمان داخلتان

فى الحجر سبع أصابع و دخولهما منحرفتان، و بين القدمين فى الحجر إصبعا و وسطه قد استدق من التمسح به و المقام فى حوض

من ساج مربع حوله رصاص ملبس به و على الحوض صفائح

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٤٠

رصاص ملبس بها و من المقام فى الحوض إصبعا و على المقام صندوق ساج مسقف و من وراء المقام ملبن ساج فى الأرض فى

طرفيه سلسلتان تدخلان فى أسفل الصندوق و يقفل فيهما بقفلان. انتهى من تاريخ الأزرقى.

الذهب الذى على مقام إبراهيم

قال الإمام الأزرقى فى تاريخه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى جدى قال:

سمعت عبد الله بن شعيب بن شيبه بن جبير بن شيبه يقول: ذهبنا نرفع المقام في خلافة المهدي فانتلم قال: و هو من حجر رخو يشبه السنان فخشينا أن يتفتت أو قال يتداعى فكتبنا في ذلك إلى المهدي فبعث إلينا بألف دينار فضببنا بها المقام أسفله و أعلاه و هو الذهب الذى عليه اليوم، قال: سمعت يوسف بن محمد العطار يحدث عن عبد الله بن شعيب نحوه، قال: و لم يزل ذلك الذهب عليه حتى ولى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله فجعل عليه ذهباً فوق ذلك الذهب أحسن من ذلك العمل فعمل فى مصدر الحج سنة ست و ثلاثين و مائتين فهو الذهب الذى عليه اليوم و جعل فوق ذلك الذهب الذى كان عمله المهدي و لم يقلع عنه، و أخبرنى غير واحد من مشيخة أهل مكة قالوا: حج المهدي أمير المؤمنين سنة ستين و مائة فنزل دار الندوة فجاء عبد الله بن عثمان بن إبراهيم الحجبي بالمقام مقام إبراهيم فى ساعة خالية نصف النهار فستحل عليه فقال للحاجب: ائذن لى على أمير المؤمنين فإن معى شيئاً لم يدخل به على أحد قبله و هو يسر أمير المؤمنين فأدخله عليه فكشف عن المقام فسر بذلك و تمسح به و سكب فيه ماء ثم شربه و قال له: أخرج و أرسل إلى بعض أهله فشربوا منه و تمسحوا به ثم أدخل فاحتمله وردة مكانه و أمر له بجوائز عظيمة و أقطعه خيفاً بنخله يقال له: ذات القوبع فباعه من منيرة مولاة المهدي بعد ذلك بسبعة آلاف دينار. انتهى من الأزرقى.

تطويق المقام بالذهب و الفضة

أول من طوق مقام إبراهيم عليه السلام، أى الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت الحرام بالذهب، أمير المؤمنين محمد المهدي العباسى، و ذلك سنة مائة و إحدى و ستين، فإنه لما بلغه أن المقام قد مر عليه زمان طويل، و يخشى عليه أن يتفتت أو يتداعى بعث بألف دينار فضببوه بها، ثم فى سنة مائة و تسع و سبعين التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٤١ رأى هارون الرشيد أن الفضة التى ضبب بها الحجر تخلخلت، فأمر بضبطه و إصلاحه فثقب الحجر بالماس و سكب فيه فضة، ثم إن أمير المؤمنين جعفر المتوكل أمر أن يجعل فوق ذلك الذهب ذهب أحسن منه، فضببوه به و أحكموا شده و ضبطه، و ذلك سنة ست و ثلاثين و مائتين، ثم إن الحجبة سدن البيت الحرام ذكروا لعامل مكة على بن الحسن العباسى أن المقام تسلت أحجاره و يخشى عليه، فأمر أن يعمل له طوقان طوق من ذهب و طوق من فضة، و ذلك فى المحرم سنة ست و خمسين و مائتين فأحضر المقام إلى دار الإمارة و أذبت له العقاقير بالزئبق و شد بها شداً جيداً حتى التصق، و كان قبل ذلك سبع قطع، و كان الذى شده بيده فى السنة المذكورة بشر الخادم مولى أمير المؤمنين المعتمد العباسى ثم حمل المقام بعد تركيب الطوقين عليه و لصقه و شده إلى موضعه و كان ذلك يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول سنة ست و خمسين و مائتين. قال الفاسى: و هذا ملخص ما ذكره الفاكهى. و روى صاحب كتاب إتحاف فضلاء الزمن: أن إبراهيم بيك عمّر المقام و جدد ما كان محتويًا على موضع قدم إبراهيم عليه الصلاة و السلام بالفضة المطلية بالذهب، و صب الرصاص بين الفضة و الحجر، حتى أحكموا الفضة، و شدوا أحجار القدم، و ذلك فى سنة ألف و مائة و اثنتى عشرة هجرية.

ما ذكره إبراهيم رفعت باشا فى كتابه مرآة الحرمين عن مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام و ما كتب عليه

١- مقام إبراهيم. هو مقامه المعروف بالمسجد الحرام و هو أقوى الأقوال. قال تعالى: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ و نرى أن الآية صريحة فى أن المصلى بعض المقام، أى موضع القيام و الحجر لا يصلح أن يكون مصلى لصغره فالمقام مكان غيره أكبر منه و لعل الحجر المعروف الآن بمقام إبراهيم كان موضوعاً فى مكان قيامه علامة عليه ملخص من الفقرة الأولى ص ٢٤٢ و ٢٤٣ مرآة الحرمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٤٢

٢- قياس المقام، الحجر و تحليته. قال القاضي عز الدين بن جماعة: حررت لما كنت مجاورا بمكة سنة ٧٥٣ مقدار ارتفاع المقام عن الأرض فكان ٧/٨ الذراع و أعلى المقام مربع من كل جهة ٣/٤ الذراع و موضع غوص القدمين ملبس بالفضة و عمقه من فوق الفضة سبع قراريط و نصف من ذراع القماش المستعمل في مصر. اه.

و أول ما حلّى المقام في خلافة المهدي العباسي لأنه رفع فانتلم لرخاوة حجره فكتب الحجة إلى المهدي يعرفونه بذلك و أنهم يخشون عليه أن يفتت فبعث المهدي في سنة ١٦١ بألف دينار أو أكثر فضيبوا بذلك المقام من أعلاه و أسفله فلما كان في خلافة المتوكل زاد في تضييب المقام سنة ٢٣٦ و مقدار ما زاده ٨٠٠٠ مثقال من الذهب و ٧٠٠٠٠ درهم من الفضة و كان ذلك فوق حليته الأولى. ثم إن جعفر بن الفضل عامل مكة و محمد بن جاثم قلعا حلية المتوكل و ضرباها دنائير ليستعينا بها على ما قيل في حرب إسماعيل بن يوسف العلوي الذي خرج و أفسد بمكة و الحجاز في سنة ٢٥١ و لم تزل حلية المهدي على المقام إلى أن قلعت عنه في محرم سنة ٢٥٦ لأجل إصلاحه لأن الحجة ذكروا لعامل مكة على بن الحسن العباسي أن المقام و هي و تسلت أحجاره و يخشى عليه و سألوه في تجديد عمله و تضييبه حتى يشتد فأجابهم لسؤالهم و زادهم ذهباً و فضة إلى حليته الأولى فعمل له طوقان من ذهب فيهما ١٩٩٢ مثقال و طوق من فضة و أحضر المقام إلى دار الأمان و أذبت له العقاقير بالزئبق و شد بها شدا جيدا حتى التصق و كان قبل ذلك سبع قطع زال عنها الالتصاق لما قلعت الحلية عنه سنة ٢٥٥ أو ٢٥٦ لأجل إصلاحه و كان الذي شده بيده في هذه السنة بشر الخادم مولى أمير المؤمنين المعتمد العباسي و حمل المقام بعد لصقه و تركيب الحلية عليه لشده إلى موضعه و كان ذلك في يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ٢٥٦. اه الفقرة الثانية مرآة الحرمين.

٣- موضع المقام و المصلى خلفه. قال التقى الفاسي: روى الأزرقى عن ابن أبي مليكة أن موضع المقام الآن هو موضعه في الجاهلية و في عهد النبي صلى الله عليه و سلم و الخليفين رضى الله عنهما بعده إلا أن السيل سيل أم نهشل سنة ١٧ ه ذهب به في خلافة عمر رضى الله عنه فجعل في وجه الكعبة الجهة الشرقية إلى منها الباب الخ ... منقول من تاريخ الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٤٣

قال التقى الفاسي: المقام الآن تحت قبة عالية من خشب قائمة على أربعة أعمدة دقيقة من حجارة منحوتة بينها أربعة شبابيك من حديد بين كل عمودين شباك و من الجهة الشرقية يدخل إلى المقام و القبة مزخرفة من باطنها بالذهب، و مما يلي السماء مبيضة بالنورة. و أما المصلى الذي هو خلف المقام فعليه ظل قائمة على أربعة أعمدة، منها عمودان عليهما القبة إذ هي متصلة بالقبة و الظلة مزخرف سقفها من الباطن بالذهب و مبيض أعلاه بالنورة و أحدث وقت صنع فيه ذلك شهر رجب سنة ٨١٠ ه و اسم الملك الناصر فرج صاحب الديار المصرية و الشامية مكتوب فيه بسبب هذه العمارة، و اسم الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر مكتوب في الشباك الشرقي بسبب عمارته له في سنة ٧٢٨ ه و مقام إبراهيم في وسط القبة بين شبابيكها الأربعة الحديدية و يحيط بالمقام قبة من الحديد مقصورة مثبتة في الأرض برصاص مصبوب بحيث لا يستطيع قلع القبة التي فوقه إلا بالمعاول و شبهها و لعل هذه القبة الحديدية هي التي كانت توضع فوقه عند قدوم الحجاج إلى مكة صونا له لكونها أشد تحملا للازدحام و الاستلام على ما ذكره ابن جبير في رحلته سنة ٥٧٩ ه و قد ذكر ما يدل على أن المقام لم يكن ثابتا بل كان تارة يجعل في الكعبة و تارة في موضعه الآن في قبة من خشب فإذا كان الموسم أبدل بها القبة الحديدية.

قال التقى الفاسي: و ما عرفت حتى جعل المقام ثابتا في القبة على صفته التي هو عليها الآن و أما القبة التي فوق القبة الحديدية التي في جوفها المقام، فأظن أن الملك المسعود صاحب اليمن و مكة أول من بناها. اه.

و قد جدت قبة المقام في سنة ٩٠٠ ه و كذلك في سنة ١٠٤٩ ه و نقشها بالذهب في ١٠٧٢ ه سليمان بك والي جدة و مكة من قبل السلطان محمد كزلار سلطان مصر و قد رأيت مكتوبا على القبة من الجهة الجنوبية أمر بتجديد هذا المقام الشريف - كلام كثير - الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري عن نصره في ١٥ رجب سنة ٩٠٠ ه و مكتوبا عليها في الجهة الغربية المقابلة لباب الكعبة أمر

بتجديد هذا المقام المعظم، السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان و على الجهة الشمالية بقيه أجداده سنة ١٠٤٩ هـ و قد قست المسافة التي بين المقصورة التي على المقام و جدار الكعبة الذى فيه الباب من الوسط فإذا هي ١٥ / ٤٠ مترا و دخلت المقصورة مع المطوف فوضع من ماء زمزم على أثر القدمين و شربنا منه فى التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٤٤

حجتنا هذه سنة ١٣١٨ هـ و كان خليقا بى و بالمطوف أن نتجنب التبرك بالآثار و الشرب من مواطن الأقدام و أن ندع هذه البدعة جانبا و لا- نفعل عند هذا الأثر سوى ما فعله رسول الله صلى الله عليه و سلم من الصلاة عنده امتثالا لأمر الله تعالى: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ و لكن كنت فى هذا الوقت لما تنضج معلوماتى الدينية فى الحج و مشاعره و لم أكن وقفت تمام الوقوف على تأثير البدع السىء فى الدين و قد دعانى الإنصاف إلى ذكر الواقع و دعانى البصر بالدين إلى إنكار ما حصل.

الأحجار الأثرية المفروشة خلف مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام

جاء فى تاريخ الغازى ص ٢٢٠ من الجزء الأول:

و نقل العلامة ابن خليل فى منسكه الكبير أن الحجرين الكبيرين المفروشين خلف المقام الذى يقف المصلى عليهما قد صلى عليهما بعض الصحابة.

و فى منائح الكرم و فى سنة (١٠٨٨) ورد بعض المغاربة من البحر فى أواسط شعبان المعظم بحجر سماق طوله ذراعين و شىء، و طلعه إلى مكة على عجل زعموا أنهم أخذوه من بعض كنائس النصارى، و أنهم بذلوا للمغاربة دراهم لها صورة فامتنعوا من ذلك و أرسلوه ليجعلوه فى الحرم، و أرادوا وضعه خلف مقام سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام.

و رفع أحد الحجرين الموضوعين هناك فى مصلى الإمام الشافعى، فرفع فى ذلك سؤال إلى مفتى مكة فى هذا العصر و هو الشيخ عبد الله بن المنلا- فروخ الحنفى، فذكر لى أنه أجابهم بما ذكر المنلا- رحمه الله السندى عن بعض من أدركه من أئمة المقام أن الحجرين المفروشين خلف المقام اللذين يقف المصلى عليهما قد صلى عليهما بعض الصحابة، انتهى كلام المنلا، فأمر نائب الحرم الشريف فدفن ذلك الحجر فى المسجد فدفن خلف مقام الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه. ثم فى سنة ١٠٩٨ يوم الثلاثاء ثانى محرم أمر أحمد باشا بإصلاح نصوص اختلت فى الشاذروان و أمر بالحجر السماق المدفون بإخراجه فوضعه تحت الركن الأسود مما يلى الأرض و دفن ما كان فى ذلك الموضع من الرخام بعد قلعه. انتهى. انتهى من تاريخ الغازى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٤٥

التحقيق التام عن موضع المقام

لقد تقدم من الكلام ما فيه الكفاية عن مقام خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و السلام، غير أن الله سبحانه و تعالى فتح علينا فهم مسألة دقيقة عنه و هى:

أن المشهور لدى المؤرخين و جميع الناس أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه هو الذى وضع المقام فى هذا المحل الآن الذى هو أمام باب الكعبة بجوار بئر زمزم، و ذلك عند ما ذهب سيل أم نهشل بالمقام. و هذا كلام صحيح لا شك فيه.

غير أن عمر رضى الله عنه ما وضع المقام إلا فى نفس المحل الذى كان فيه قبل أن يذهب به سيل أم نهشل، أى وضعه فى الموضع الذى كان المقام فيه فى عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم و فى عهد خليفته أبى بكر رضى الله تعالى عنه بدليل ما رواه الإمام الأزرقى أن عمر لما حضر من المدينة إلى مكة لأجل وضع المقام فى محله و دخل المسجد الحرام وقف عنده و قال: "أنشد الله عبدا عنده علم فى هذا المقام" فقال المطلب بن أبى وداعة السهمى رضى الله عنه: أنا يا أمير المؤمنين عندى علم بذلك، فقد كنت أخشى

عليه مثل هذا الأمر، فأخذت قدره من موضعه إلى الركن و من موضعه إلى باب الحجر و من موضعه إلى زمزم بمقاط و هو عندي في البيت. فقال له عمر: فاجلس عندي و أرسل إليها، فأتى بها فمدتها فوجدها مستوية إلى موضعه هذا، فسأل الناس و شاورهم فقالوا: نعم هذا موضعه، فلما استثبت ذلك عمر أمر به فأعلم ببناء تحت المقام ثم وضعه فهو في مكانه هذا إلى اليوم. اه.

فظاهر كلام الأزرقي و صريح عبارته أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لم يضع المقام في محله الذى هو فيه اليوم باجتهاد من نفسه، و إنما وضعه في محله الأول بعد السؤال ممن يعرف محله تمام المعرفة، و بعد أن أحضر الصحابي الجليل المطلب بن أبى وداعة السهمي رضى الله عنه الحبل الذى قاس به موضع المقام من كل جهة قبل أن يذهب به سيل أم نهشل و قد ألهم الله تعالى المطلب بن أبى وداعة أن يأخذ القياس فربما يحتاجون إليه في مثل هذا اليوم و قد وقع تخمينه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٤٦

فعمر رضى الله تعالى عنه و أرضاه بعد أن عرف محل المقام على قياس المطلب بن أبى وداعة، سأل أيضا الصحابة العدول الحاضرين معه عند الكعبة المشرفة فشهدوا بأن هذا هو موضع المقام، فعندئذ أمر ببناء تحت المقام ثم وضعه في محله على هذا البناء.

فإن قيل: لم يسأل عمر الصحابة رضى الله عنهم جميعا عن موضع المقام و محله الأصلي، و هو الذى يعرف محله حق المعرفة فإنه ليس بغريب عن مكة، بل هو الذى قال: "يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى" فنزلت آية:

وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فُجَاءَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى حَسَبِ مَا كَانَ يَرْجُو وَ يَتَمَنَّى، فغير معقول أن لا يعرف عمر محل المقام بالضبط؟

نقول: نعم إن عمر رضى الله تعالى عنه يعرف موضع المقام حق المعرفة ما في ذلك شك، و لكنه أراد بسؤال أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم أمرين مهمين دقيقين:

الأمر الأول: تكريمهم باستشارتهم و محافظته على اعتبارهم و مقامهم، و حتى لا يقال إنه يقطع الأمور بدون أخذ رأيهم و موافقتهم، و الاستشارة سنة مؤكدة في جميع الأمور، و هى في الأمور المهمة الدينية أشد طلبا و أكد.

و الأمر الثانى: أن عمر رضى الله عنه سأل صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم في المسجد الحرام عن موضع المقام و محله و هو أعرف منهم بذلك، حتى يتثبت من الأمر بشهادة غيره و يظهر ذلك كالشمس في رابعة النهار لمن حضر من الصحابة الكرام في المسجد الحرام، فلا يتهمه أحد من المنافقين و الأعداء أنه وضع المقام هنا بدون أخذ رأى الصحابة و لا استشهاد أحد منهم.

فعمله هذا رضى الله تعالى عنه هو عين الصواب و عين الحكمة، و لقد وافق الحاضرون من أجلاء الصحابة رضى الله عنهم ممن شهد بدرا و أحدا و غيرهما من المشاهد، على أن موضع المقام و محله هو ما ذكره المطلب بن أبى وداعة السهمي رضى الله تعالى عنه، فأمضى عمر شهادتهم و وافق على رأيهم و حكمهم، فكان ذلك إجماعا تاما منهم رضى الله عنهم أجمعين، فنحن مأمورون باتباعهم و التمسك بطريقتهم.

و انظر أيها القارئ الكريم رحمتنا الله و إياك، كيف خدم صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم ديننا الحنيف السليم من كل شائبة، و كيف أنهم حافظوا على أصوله و فروعه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٤٧

و مسائله و أموره، فرضى الله عنهم و أرضاهم و وفقنا لاتباع سنتهم، فكلهم كالنجوم الزاهرة بأيهم اقتدينا اهتدينا.

و انظر إليهم رضى الله عنهم كيف جمعوا القرآن العظيم لأول مرة في التاريخ و قد كان مفرقا في الألواح و العظام و صدور الرجال، ما جمعه اعتمادا على أن أحدهم يقول: عندي آية كذا أو سورة كذا و كلهم أتقياء عدول، بل جمعه آية آية بشهادة الشهود، فلقد كان زيد بن ثابت رضى الله عنه لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان.

أخرج ابن أشتة في المصاحف عن الليث بن سعد قال: أول من جمع القرآن أبو بكر و كتبه زيد، و كان الناس يأتون زيد بن ثابت

فكان لا يكتب آية إلا بشاهدى عدل ... الخ، وأخرج ابن أبي داود من طريق هشام ابن عروة عن أبيه:

أن أبا بكر قال لعمر و لزيد: اقعدا على باب المسجد فمن جاء كما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه. اه. انظر كتابنا المطبوع " تاريخ القرآن و غرائب رسمه و حكمه."

هكذا كانت الصحابة رضى الله عنهم يحتاطون فى كل شىء من أمور ديننا الحنيف الذى اختاره الله تعالى لنا كما هو صريح قوله: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ.**

بقيت علينا مسألة دقيقة يجب أن نعرفها بصورة واضحة، وهذه المسألة تشمل على ثلاث أحوال:

الحالة الأولى: أين كان المقام فى عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟

الحالة الثانية: أين كان المقام فى الجاهلية؟

الحالة الثالثة: أين كان المقام فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

(أما فى الحالة الأولى) فالذى نراه أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن فرغ من بناء البيت وضعه إما داخل الكعبة أى فى الحفرة التى حفرها فى بطنها على يمين الداخل و كان عمقها ثلاثة أذرع لتكون بمثابة الخزانة يوضع فيها ما يهدى للكعبة، و إما وضعه لزق الكعبة عند بابها، فلا يعقل أنه وضعه فى محله اليوم بقرب زمزم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٤٨

بعيدا عن الكعبة بمسافة أذرع بدون سبب، و أى سبب لذلك و لم يأمره الله تعالى بالتوجه إليه حين الصلاة كما أمر الأمة المحمدية بذلك.

فإذا علمنا أن حجر المقام ياقوته من يواقيت الجنة كالحجر الأسود، و أن خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام قام عليه حين بناء الكعبة، و قام عليه أيضا حينما أذن فى الناس بالحج كما أمره الله تعالى، و أن قدميه راسختان على هذا المقام و أنه من الآيات البينات كما فى صريح الآية.

علمنا أن إبراهيم لا يفرط فى هذا المقام المكرم و يبعده عن الكعبة إلى جهة زمزم، بل إنه بعد أن انتهى من غرضه منه حفظه فى الحفرة التى فى باطن الكعبة أى فى الجب، ليبقى دهرا طويلا حتى يأتى نبي آخر الزمان سيدنا "محمد" صلى الله عليه وسلم حيث يأمره الله تعالى بالصلاة عنده، هكذا أطلع الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام بعد أن بنى البيت ما سيكون فى شأن المقام فى آخر الزمان، و هكذا حفظ لنا إبراهيم مقامه الكريم المقدس الذى فيه أثره الخالد كما أمره الله تعالى، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يفعلون شيئا فى أمور الدين إلا بوحي و إلهام من الله الملك العزيز العلام.

ثم إن إسماعيل عليه الصلاة والسلام لم يحرك المقام و لم يخرج من جوف الكعبة، لأنه يعرفه حق المعرفة فلماذا يخرج من موضعه و هو لم يؤمر بالصلاة خلفه، و إنما حافظ عليه محافظة تامه و كذلك أولاده من بعده.

(أما فى الحالة الثانية) فإنه لما مر على بناء إبراهيم عليه السلام للبيت نحو ألفى سنة تقريبا و اشتهر أمر المقام و وجود أثر القدمين فيه و كثر الناس بمكة و أطرافها، صار أهل الجاهلية فى شوق عظيم لرؤية هذا المقام المقدس كما أن المسلمين اليوم فى شديد الشوق لرؤيته و هو محجوب تحت الصندوق و الستارة الكثيفة، فكانوا أحيانا يخرجونه من جوف الكعبة فيضعونه بلزقها عند الباب، أى فى محل الحفرة الموجودة بالجانب الأيمن من الباب، فيشاهدونه جميعا و يحترمونهم أشد الاحترام، كيف لا، و هو التراث العربى المقدس الباقي لهم من بنى الكعبة الأول إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، و أحيانا يرجعونهم إلى جوف الكعبة أيضا بحسب ما تقتضيه المصلحة و خوفا عليه من السيول.

و لا- يعقل أنهم إذا أخرجوا المقام من جوف الكعبة أن يضعوه فى محله اليوم بقرب زمزم، أى فى آخر حدود المسجد الحرام فى

ذلك العهد قبل الإسلام، و ما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٤٩

الداعى لإبعاده عن الكعبة و هم لا يصلون عنده، بل إنهم لا يعرفون الصلاة و كفيئتها، فعبادتهم كانت للأصنام، و الأصنام بكثرة عند الكعبة و ما حولها.

و من المعجزات الباهرات أن أهل الجاهلية مع عبادتهم للأوثان و الأصنام بمختلف أنواعها، لم يسمع قط أنهم عبدوا حجر المقام أو الحجر الأسود أو الكعبة، و هذا سر من الأسرار الدقيقة لا يخفى على العلماء العاملين و ذوى الأبواب.

(و أما الحالة الثالثة) فقد قيل كان المقام فى أول عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم أى قبل فرض الصلوات الخمس بلزق البيت عند الباب أى فى محل الحفرة، و قيل: كان المقام فى داخل الكعبة فلما كان يوم فتح مكة أخرجه رسول الله صلى الله عليه و سلم منها فوضعه بلزق الكعبة أى فى محل الحفرة أيضا، فلما أنزل الله تعالى عليه: **وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُضَمًّا** نقله صلى الله عليه و سلم إلى الموضع الذى هو فيه الآن بقرب زمزم، لئلا ينقطع الطواف بالمصلين، و حتى لا يحصل ضيق على الطائفين و المصلين.

فبقى المقام فى محله الذى هو فيه اليوم فى عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم و فى عهد أبى بكر و فى عهد عمر رضى الله تعالى عنهما، فلما جاء سيل أم نهشل فى عهد عمر ذهب بالمقام إلى أسفل مكة، فأتوا به و ربطوه بأستار الكعبة عند الحفرة المذكورة، و أرسلوا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبرونه بذلك، فركب من ساعته فرعا و أتى مكة فوضع المقام فى محله هذا الذى هو فيه اليوم بعد أخذ رأى صحابه رسول الله صلى الله عليه و سلم و التثبت التام عن محله و موضعه و لم ينكر أحد منهم فعل عمر و لا من جاء بعدهم فصار ذلك إجماعا.

فعلم من كل ما تقدم أن محل المقام الذى هو فيه الآن عند زمزم، هو محله الأصلى الذى كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم و فى عهد أبى بكر و فى عهد عمر رضى الله تعالى عنهم أجمعين، و جزاهما الله تعالى عن الأمة المحمدية خير الجزاء، و إلى عهدنا هذا لم يتغير موضعه و لن يتغير إلى أن تقوم الساعة إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: إن المقام بعد الإسلام كان ينقل من محله فيوضع أحيانا فى جوف الكعبة؟

نقول: نعم حصل ذلك مرتين:

الأول: فى زمن القرامطة سنة (٣١٧) للهجرة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٥٠

و الثانى: فى زمن ابن جبير كما ذكره فى رحلته حينما وصل مكة للحج سنة (٥٧٩) للهجرة، كما سنذكر ذلك الآن.

و لكن إذا أخرج المقام من الكعبة فإنه لا يوضع إلا فى موضعه الأصلى الأول، و لم يسمع قط أن المقام إذا أخرج من الكعبة يوضع فى غير محله و يصلى عنده فلو حصل هذا لذكره أصحاب التواريخ بدون شك.

و إليك تفصيل الحالتين المذكورتين:

فالمرة الأولى: أنه لما كانت فتنة القرامطة و وصلوا إلى مكة فى اليوم السابع أو اليوم الثانى من ذى الحجة سنة (٣١٧) سبع عشرة و ثلاثمائة، و حملوا معهم الحجر الأسود إلى بلادهم حين رجوعهم، أرادوا أيضا أن يحملوا معهم "مقام إبراهيم" عليه الصلاة و السلام، فغيبه حجة الكعبة و سدنتها فى بعض شعاب مكة، فلما سكنت فتنتهم و رجعوا إلى بلادهم، أحضرته السدنة فوضعه فى محله الأصلى المعروف لدى كافة الناس.

و المرة الثانية: لما كان المقام فى القرن السادس لم يكن ثابتا فى موضعه الأصلى الذى هو بجوار بئر زمزم، فإنهم كانوا يرفعونه أحيانا لسبب من الأسباب فيضعونه فى جوف الكعبة فى مدخل درجتها الموصلة إلى سطحها و يقفون عليه باب الدرجة. فإذا أحضروه منها وضعوه فى محله الأصلى و لا يضعونه فى محل آخر مطلقا.

و كان للمقام قبتان:

إحداهما: قبة من الخشب توضع عليه في غير أوقات الحج.

و ثانيتهما: قبة من الحديد توضع عليه في وقت موسم الحج، لكون هذه القبة الحديدية أحمل و أقوى للازدحام و الاستلام، كما ذكره ابن جبير رحمه الله تعالى في رحلته و ذلك حسبما رآه عند وصوله إلى مكة للحج في شهر رجب سنة (٥٧٩) تسع و سبعين و خمسمائة هجرية.

فمهما رفعوا المقام في جوف الكعبة فإنه عند إخراجه منها يضعونه في محله الأصلي، و لم يذكر في التاريخ قط أن المقام وضع في مكان غير مكانه الأصلي، فموضعه هو المحل الذي وضعه فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم، و إلى عهدنا هذا لم يتغير محله هذا و لن يتغير إن شاء الله تعالى حتى قيام الساعة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٥١

و اعلم أيها القارئ الكريم رحمتنا الله تعالى و إياك و جعل الجنة مأوانا و مأواك، أن هذا المبحث النفيس الفريد لا تجده في كتاب غير هذا الكتاب، فالحمد لله الذي ألهمنا لكتابته بفضل العظم الواسع، و ذلك في اليوم الثالث عشر و الرابع عشر من شهر رجب سنة ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، و صلى الله و سلم على خاتم الأنبياء نبينا "محمد" كما صلى و سلم على أبي الأنبياء "إبراهيم" و على جميع الأنبياء و المرسلين و آل كل منهم و صحابته أجمعين، و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

كسوة المقام

يظهر و الله تعالى أعلم أن وضع الكسوة على المقام من اختراع دولة آل عثمان فقد كان من عادة سلاطينهم أن يكسوا مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام الذي هو بجوار الكعبة بكسوة سوداء مطرزة بأسلاك الفضة المموهة بالذهب على شكل ستارة باب الكعبة المعظمة و توضع هذه الكسوة على التابوت الخشبي الذي هو داخل الشباك الحديد فوق حجر المقام، و كانت هذه الكسوة تأتي سنويا مع كسوة الكعبة من مصر زمن الدولة العثمانية، و أحيانا كانت تأتي كسوة المقام في كل خمس سنين مرة، ثم انقطعت كسوة المقام منذ سنوات عديدة إلى اليوم، و الكسوة التي على المقام الآن هي قديمة لها أكثر من سبعة عشر سنة.

و الحقيقة أن وضع كسوة فوق المقام تحجب الحجر المكرم بدعة منكرة ما فعلتها الصحابة و لا التابعون و لا من بعدهم، و إنما حدث ذلك في زمن الدولة العثمانية، على أنه لو كان تحتها ضريح لقلنا تلك عادة جارية، و لو كان تحتها سر من الأسرار، أو كان المقام يتأثر من ضوء الشمس و القمر لقلنا: يجب ستره حتى لا ينكشف السر و لا يتضرر المقام من الضوء.

أما و حيث كان تحتها ذلك الحجر المكرم المحترم الذي قال الله تعالى في حقه:

وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، و قال جل جلاله: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ يَجِبُ رَفْعُ السِتَارَةِ عَنْهُ لِيَنْظُرَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ الْمَقْدَسِ الَّذِي أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالصَّلَاةِ خَلْفَهُ، و ليعرفوا أنه حجر لا غير، فتغطية المقام بالكسوة توقع الناس في الجهل بحقيقته، و توجب لهم الوسواس و انشغال البال في تصور شكله و هيئته.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٥٢

فحبذا لو رفعت الستارة عن المقام و رفع التابوت الخشبي الذي فوقه، ثم يعمل صندوق من الزجاج الشفاف القوي، و يوضع فوق المقام و يربط ربطا جيدا، حتى لا يحركه السيل إذا دخل إليه، و بذلك يصير المقام ظاهرا للناس، محفوظا من وصول الأيدي و الأتربة إليه، و لا شك أن هذا عمل جليل يحمداه كافة المسلمين.

و يستحسن أيضا إحاطة المقصورة من الداخل من جهاتها الأربع بألواح الزجاج و إنارتها ليلا بالمصابيح الكهربائية ليكون منظرها جميلا جدا خصوصا في وقت الحج، و لتكون المقصورة نظيفة من الغبار و محفوظة من وصول الخطابات و الأوراق التي يرميها العوام

و الجهلة من الحجاج فيها.

الكسوة العراقية للكعبة

جاء في كتاب مدارس مكة للأستاذ ناجي معروف البغدادي ما نصه:

ذكر أن ابن جبير في رحلته كسوة الكعبة يوم النحر سنة (٥٧٩) هجرية فقال: سبقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الأمير العراقي إلى مكة على أربعة جمال، تقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوادية و الرايات على رأسه، و الطبول تهز وراءه. فوضعت الكسوة على السطح المكرم أعلى الكعبة، فلما كان يوم الثلاثاء ثالث عشر من الشهر المبارك المذكور، اشتغل الشيبون بإسبالها خضراء يانعة، تقيد الأبصار حسنا، في أعلاها رسم أحمر واسع مكتوب في الصفح إلى المقام الكريم حيث الباب المكرم و هو وجهها المبارك بعد البسملة، إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِنَكَّةَ ... الآية.

و في سائر الصفحات اسم الخليفة و الدعاء له، و تحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صفراء بيض، فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن و ذكر الخليفة أيضا، فكملت كسوتها و شمرت أذيالها الكريمة صونا لها من أيدي الأعاجم و شدة اجتذابها و قوة تهافتهم و انكبابهم عليها، فلاح للناظرين منها أجمل منظر، كأنها عروس جللت في السندس الأخضر. اه منه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٥٣

وجوب صون المقام

منذ أن أمر الله عز و جل بالصلاة خلف المقام في قوله: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ و جب علينا أن نتعهده بالحفظ و الوقاية بكل الوسائل المصونة له كما نحافظ على الحجر الأسود، و لنا في أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أسوة حسنة، فقد اهتم و فزع و هو بالمدينة حينما بلغه أن السيل اقتلع المقام من موضعه، و ركب من ساعته حتى قدم مكة و أصلح من شأن المقام كما تقدمت الإشارة إليه، و أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما حين هدم البيت جعل الحجر الأسود في ديباجة و أدخله في تابوت و أقفل عليه و وضعه عنده في دار الندوة، فلما بلغ البناء موضع الركن أمر بوضعه فيه كما ذكره الأزرقى في تاريخه، و ما ذاك إلا محافظة عليه و حرصا على صيانتها، فالمقام مثله يجب صونه، و هؤلاء أهل الجاهلية كانوا وضعوه في جوف الكعبة حرمة له و حرصا عليه كما تقدم بيان ذلك، بل حتى بعد الإسلام كان المقام يجعل أحيانا في جوف الكعبة كما ذكره الفاسى في شفاء الغرام عن ابن جبير الأندلسى. و لئن كان المقام في صدر الإسلام موضوعا على الأرض ظاهرا للناس فقد كان ذلك العصر المبارك عصر دين و علم و أمانة و شرف و أخوة و اتئلاف فلا خوف على المقام و لا على غير المقام، أما في عصورنا المظلمة التي فسد فيها الزمن و ظهرت الفتن و قلت الأمانات و كثرت الخيانات و انتشر الدجالون و المحتالون فكيف لا يخاف على المقام و غير المقام؟ فكم من مرة تعدى أهل الخبال و الإجرام على الحجر الأسود فضره بالحديد حتى خرج منه بعض القطع فليس ببعيد إذا أن يتعدى على المقام بعض أهل الجرأة و الإفساد ممن أغواهم الشيطان بسرقة أو تكسيره إذا لم يكن في حرز مكين.

وضع المقام في مقصورة

كان المقام في أرض المطاف من أيام إبراهيم عليه السلام إلى ما بعد الإسلام معروضا في أرض المطاف تأتي عليه السيول و الأمطار و معرضا للمس و اللمس فلا بد بمرور هذه الأحقاب الطويلة و العصور البعيدة أن يتغير نوعا ما و أن تتسع فتحتا القدمين و أن تتمح آثار أصابع الخليل إبراهيم عليه السلام خصوصا و قد أظهر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٥٤

الإسلام فضله و ازدحم الناس على استلامه و إن لم يؤمروا بذلك ما لم يحفظ في مكان لا- تصل إليه الأيدي، لذلك عملت له مقصورة عليها قبة و وضعت فوق المقام فبذلك صار في حرز مكين مأمون العاقبة، و لقد كان حجر المقام موضوعا على كرسى ملبس بصفائح الرصاص، ثم في سنة إحدى و أربعين و مائتين أمر أمير المؤمنين محمد المستنصر بالله بإبدال صفائح الرصاص بصفائح فضة، كما ذكر ذلك الإمام الأزرقى في تاريخه أخبار مكة.

و لم يعرف بالضبط أول من وضع له تابوتا، غير أنه قيل: إن أقرب وقت صنع فيه ذلك سنة عشر و ثمانمائة، بمعنى أنه صنعت للمقام مقصورة ثابتة لا تنتقل و لا تتحرك، و إلا فقد كانت للمقام قبة قبل هذا التاريخ، فقد ذكر ابن جبير الأندلسى في رحلته- و قد حج سنة خمسمائة و ثمانية و سبعين للهجرة- صفه المقام، ثم قال: لموضع المقام قبة مصنوعة من حديد موضوعة إلى جانب زمزم، فإذا جاءت أشهر الحج و كثرت الناس رفعت القبة الخشب و وضعت القبة الحديد. اه.

ثم إننا رأينا على أحد أعمدة المقام كتابة تدل على تجديد عمارته سنة ثمان و خمسين و ثمانمائة، و ذكر ابن فهد في تاريخه: أنه في سنة ثمان و عشرين و سبعمائة عمّر ابن هلال الدولة الشبائيك الحديد المطيفة بالمقام. اه، ثم تجدد سقف المقام و قبة سنة تسعمائة ثم تجدد تعمير المقام سنة تسعمائة و خمسة عشر، و قام بتعميره محمد بن عبد الله الرومى بأمر الملك الأشرف قانصوه الغورى، ثم تجدد تعمير المقام بأمر الملك سليمان خان ابن السلطان سليم خان كما هو مكتوب في أعلى المقام المواجه لباب الكعبة و الملك سليمان هذا هو الذى أهدى للمسجد الحرام المنبر الرخام الموجود به الآن، ثم تجدد تعميره سنة إحدى و ألف، ثم تجدد تعميره بأمر السلطان مراد بن أحمد خان سنة ألف و تسع و أربعين، ثم إن الأغا محمد كزلار السلطان محمد بن إبراهيم خان أنفق على نقش قبة بالذهب و الألوان، و ذلك سنة ألف و اثنتين و سبعين، و لما حصل خلل في رفرق المقام جدده محمد بيك سنة ألف و تسع و تسعين ثم إبراهيم بيك قام بتعمير جميع المقام و بنى أرضه بالرخام، و غير القبة و نقشها بالذهب، و شد حجر المقام و أحكمه بالفضة، و جدد موضع قدم إبراهيم عليه السلام بالفضة المطلية بالذهب، و ذلك سنة ألف و مائة و اثنتى عشرة، ثم إن محمد أفندى المعمار غير صندوق حجر المقام و أبدله بخشب و جلى صفائحه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٥٥

الأولى ثم أعاده، و ذلك سنة ألف و مائة و ثلاث و ثلاثين، ثم إن السلطان عبد العزيز العثمانى زاد في ارتفاع قبة المقام نحو ذراع و نصف، و أمر بترميم المسجد الحرام، و ذلك سنة ألف و مائتين و تسع و سبعين، و لا ندرى هل عمل فيه أحد بعده شيئا أم لا؟. جاء في هامش تاريخ الأزرقى المطبوع بالمطبعة الماجدية بمكة المشرفة سنة ١٣٧٥ ه سبغ و خمسين و ثلاثمائة و ألف من الجزء الثانى عند ذكر ذراع المقام ما نصه: و فى عام ألف و مائتين و خمس و عشرين للهجرة حج سعود عبد العزيز الحجة السابعة، قال ابن بشر: و فى تلك الحجة كشف سعود القبة التى فوق صخرة مقام إبراهيم، و صارت الصخرة و القدمان الشريفتان بارزتين، و رآها الناس من أهل مكة و غيرهم، و رأيتها و هى صخرة بيضاء مربعة، طولها نحو الذراع و عليها سبيكة صفراء لا أدرى أذهب أم صفر مستديرة بالصخرة مكتوب فى السبيكة:

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا و لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاءً و هَدَاءً إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * و آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً و إِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا و مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ و عَلَى الْقَدَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ تَرَابٌ، و لا رأيت ما حو اليهما، و بين السبيكة و رأس الصخرة التى فيها القدمان نحو أربع أصابع. اه. باللفظ من هامش تاريخ الأزرقى.

و فى زماننا هذا، و نحن فى القرن الرابع عشر للهجرة، المقام موجود فى داخل تابوت خشبى عليه ستارة من الحرير مكتوب فيها آيات قرآنية و يحيط بالتابوت شبائيك نحاسية مثبتة على أربعة أعمدة بغاية الضبط و الإحكام، و على السقف قبة صغيرة ظريفة.

و لا ندرى من بنى هذه المقصورة بشكلها الحاضر هل هى من تعميرات إبراهيم بك التى أجراها سنة ألف و مائة و اثنتى عشرة، أم من إصلاحات السلطان عبد العزيز من سلاطين آل عثمان فى زيادة ارتفاع قبة المقام كما ذكرناه؟ أم بنيت فيما بعد ذلك؟ و الظاهر

أن سعود عبد العزيز المتقدم ذكره حينما كشف قبة المقام سنة (١٢٢٥) خمس و عشرين و مائتين و ألف لم يهدم مقصورة المقام كلها و لم يتعرض للشبائيك الحديدية، و إنما أزال القبة و سقف المقام و رفع الستارة و التابوت التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٥٦

الخشبي الذي فوق حجر المقام فقط كما يعلم ذلك لدى التأمل. و الله تعالى أعلم.

فوائد وضع المقام في مقصورة

لوضع المقام في مقصورة أو نحوها لا تصل إليه أيدي الناس ثلاث فوائد:

الأولى: وقايته من التلف و التغيير بسبب احتكاك الناس به و مسحهم له، و بسبب الأمطار و الأتربة و الأهوية و غيرها، و لو كان محفوظا أيام الجاهلية داخل شيء لما تكسر و لما احتاج إلى إصلاح و شد كما تقدم بيان ذلك عند تطويق المقام بالذهب أو الفضة.

الثانية: حفظه من سرقة أو تكسيه ممن لا-ديانة له و لا-عقل كما حدث للحجر الأسود مرارا. و أشهر الحوادث في ذلك حادثة القرامطة الذين استولوا على مكة سنة ثلاثمائة و سبعة عشر هجريه و قتلوا فيها يوم التروية ثامن ذى الحجة الحجاج قتلا و طرحوهم في بئر زمزم ثم أرادوا أخذ المقام فلم يظفروا به، لأن سدن الكعبة أخفوه في شعاب مكة فاغتاظوا من ذلك و قلعوا الحجر الأسود و أخذوه معهم إلى بلدتهم (هجر) بالبحرين ثم في سنة (٣٣٩) تسع و ثلاثين و ثلاثمائة ردوا الحجر الأسود إلى مكة، و ذلك في خلافة المطيع لله الفضل بن المقتدر. و قال العلامة ابن ظهيرة القرشي رحمه الله في كتابه (الجامع اللطيف) ما نصه: و يروى أن رجلا يهوديا أو نصرانيا كان بمكة يقال له جريج فأسلم ففقد المقام في ذات ليلة فوجد عنده و كان أراد أن يرسله إلى ملك الروم فأخذ منه و قتل.

الثالثة: حفظ الناس من الوقوع في البدعة إذا استلموه أو مسحوه بأيديهم فإن مسح المقام أو تقبيله و كذلك الأعتاب و الأبواب و الشبائيك و إدخال الأيدي في حلقاتها بدعة لم يأت به الدين الحنيف و لم يفعلها أحد من الصحابة و التابعين و لا من العلماء و الصالحين، و إنما السنة الصلاة خلف المقام فقط من غير مسحه أو تقبيله، اللهم إلا الركن الأسود و الركن اليماني فإنه يسن مسحهما و استلامهما.

فقد روى الأزرقى في تاريخه أن عبيد بن عمير قال لابن عمر: إني أراك تراحم على هذين الركنين، فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: (إن استلامهما يحط الخطايا حطا) و روى فيه أيضا عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم (أنه كان لا يدع

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٥٧

الركن الأسود و الركن اليماني أن يستلمهما في كل طواف أتى عليهما، قال:

و كان لا يستلم الآخرين) و روى فيه أيضا عن عكرمة قال: (كان عمر بن الخطاب إذا بلغ موضع الركن قال: أشهد أنك حجر لا تضر و لا-تنفع و أن ربى الله الذى لا-إله إلا-هو، و لو لا-أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يمسحك و يقبلك ما قبلتك و لا مسحتك).

على أنه يشترط في مسحهما و تقبيلهما عدم حصول الأذية و الضرر، فقد روى الأزرقى في تاريخه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لعمر بن الخطاب: (يا عمر إنك رجل قوى و إنك تؤذى الضعيف فإذا رأيت خلوة فاستلمه، و إلا فكبر و امضى) و روى فيه أيضا عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقول: إذا وجدت على الركن زحاما فلا تؤذ و لا تؤذ.

فينبغي للمسلم أن يكون على بصيرة من أمر دينه القويم، و أن يتبع منهج السلف الصالح الذين مشوا على الصراط المستقيم، حتى لا يقع فيما يقع فيه العوام و الجهلة، و إذا أمكنه إرشاد أحد بالتى هى أحسن لم يحرم من الأجر و الثواب، فالدال على الخير كفاعله.

فإن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر إذا كان باللفظ و اللين كان أسرع إلى القبول و الامتثال، و إذا كان بالعنف و الغلظة كان

أدعى إلى النفور و العناد، قال الله تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

الرد على من يقول: أن المقام كان مدفونا

يقول الأستاذ محمد لبيب البتونى فى كتابه "الرحلة الحجازية" بصحيفة ١٢٥ من الطبعة الثانية عن حجر مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام ما نصه:

"و كان هذا الحجر قبل الإسلام موضوعا بالمعجن إلى جوار الكعبة ثم أبعد عنها بعد الفتح حتى لا يكون هناك أثر للوثنية بالمرّة، و دفن بمكانه الحالى، و بنى عليه فيما بعد القبة الحالية. و يقولون إن تحته آله البناء التى كان يعمل بها إبراهيم فى الكعبة. "اه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٥٨

نقول: المعجن هو الحفرة الواقعة فى أرض المطاف على يمين باب الكعبة المشرفة و كان حجر المقام فى هذه الحفرة، لكن قوله "ثم أبعد عنها بعد الفتح حتى لا يكون هناك أثر للوثنية بالمرّة" غير صحيح مطلقا، فالمقام لم يبعد عن الحفرة لمحو آثار الوثنية، و البعد بين الحفرة التى كان فيه المقام و مكانه الحالى الذى هو فيه إلى اليوم لا يتجاوز أحد عشر مترا، فالذى يعبد فى الحفرة يعبد هنا أيضا فهذه المسافة القصيرة لا تطرد العابد عن وثنه، لكن لم يسمع فى التاريخ قط أن العرب فى جاهليتها عبدوا حجر المقام أو الحجر الأسود أو الكعبة مع أنهم كانوا يعبدون الأحجار، و هذا سر من الأسرار الإلهية و كرامه واضحة للحجرين الشريفين و الكعبة المقدسة، على أنهم كانوا يحترمون كل ذلك و يقدسونه بدون عبادة لأحد منها.

و أما قوله "و دفن بمكانه الحالى" غير صحيح أيضا، فإن حجر المقام لم يدفن تحت الأرض مطلقا فى الجاهلية و لا فى الإسلام، بل كان موضوعا فى أرض المطاف أحيانا و فى جوف الكعبة أحيانا أخرى، ثم فى مكانه الحالى.

و أما قوله "و يقولون أن تحته آله البناء التى كان يعمل بها إبراهيم فى الكعبة" هذا القول أيضا لا صحة له أبدا، لأن إبراهيم عليه الصلاة و السلام لم يبن الكعبة بالطين و لا بالنورة و الجص، و إنما بناه بالرضم أى بحجارة بعضها فوق بعض كما أوضحنا ذلك فى محله، فمثل هذا البناء لا يحتاج إلى آلات و أدوات كما لا يخفى.

فما هذا القول إلا وهم و خيال لا حقيقة لهما، و انظر كيف جعل الله عز شأنه هذه الأحجار و هذا البناء البسيط محرمة مقدسة لدى جميع العالم، و جعل لها فى قلوب المؤمنين مكانة سامية، فسبحانه من إله عظيم الشأن واسع الفضل و الإحسان لا إله إلا هو العزيز الغفار.

اقترح المؤلف فى مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام

لقد كان مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام فى الجاهلية و صدر الإسلام مكشوبا بدون غطاء يراه الخاص و العام، و منذ نحو خمسة قرون عندما كان الحجاز و جميع الممالك الإسلامية تحت حكم الدولة التركية العثمانية، و من هذا التاريخ جعلت الحكومة التركية صندوقا خشبيا على نفس مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام و جعلت على هذا الصندوق ستارة من الحرير الجيد منقوشة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٥٩

بالذهب و الفضة عليها بعض الآيات القرآنية فأصبح هذا الشكل كأنه تابوت وضع على مقبرة.

فنترح رفع هذا الصندوق الخشبي و ما عليه من الستارة ليكون المقام الكريم مكشوبا يراه جميع الناس من أهل البلاد و الحجاج و أن يجعل فى داخل مقصورة المقام زجاج سميكة يحيط بالمقصورة من جميع الجهات بحيث لا يكون له منفذ لدخول الغبار و رمى الأوراق فيه ليحفظ هذا المقام الكريم من كل شىء، و أن تجعل فى داخل المقصورة لمبات كهربائية قوية تنير هذا المقام الكريم ليلا، و بذلك يكون المقام تحت أنظار المسلمين كافة، فإنه لا معنى لحجبه و ستره عن أعين الناس.

الأحجار الثلاثة التي صارت معجزة لرسول الله الثلاثة

بمناسبة الكلام على حجر المقام الذى صار معجزة خالدة لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، نذكر هنا على سبيل الاستطراد الحجر الذى فر بثوب موسى كليم الله و صار معجزة له أيضا صلى الله عليه وسلم، وكذلك نذكر الحجر الذى كان يسلم على نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم فنقول:

جعل الله عز وجل معجزات أنبيائه دلالة وبرهانا على صدق دعواهم حتى يستسلم قومهم للإيمان بهم، وسخر لهم ما شاء من أنواع الجمادات حتى يفهم العقلاء وخواص البشر ما لهم من المكانة السامية والمنزلة العليا عند الله عز وجل.

فإن الإنسان إذا كان فى شك من أمر ثم رأى آية من الآيات اطمئن إليها وصدق من جاء بها.

ولقد خص الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بكثير من المعجزات وأنواع شتى من خوارق العادات مما لا يعد ولا يحصى، فلقد وقع من الأمور شئ كثير وسيقع جميع ما أخبرنا به واحدة فواحدة حتى تقوم الساعة.

فكم من المغيبات ذكراف بعضها مضى وبعض سيرى

ومعجزات المصطفى ليست تعدو فى الشفا منها كثير قد ورد

ونحن هنا لا نريد بيان معجزات الأنبياء، ولكن نريد ذكر الأحجار الثلاثة التى كانت معجزة للأنبياء الثلاثة الذين ذكرناهم عليهم الصلاة والسلام.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٦٠

فأما حجر مقام إبراهيم خليل الله فقد ذكره الله تعالى بقوله: **وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُضِلًّا** وهو واقع أمام الكعبة المشرفة بقرب بئر زمزم، وهو حجر مربع الشكل طوله نحو ذراع وسياتى وصفه بالتفصيل قريبا إن شاء الله تعالى.

وأما حجر موسى كليم الله فقد ذكره الله تعالى بقوله: **وَ إِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ.**

وهذا الحجر طوله نحو ذراع ومربع الشكل أيضا، ومعنى مربع أى مكعب له أربعة أوجه وهو الحجر الذى فر بثوب موسى عليه الصلاة والسلام حينما وضعه عليه وأراد الغسل، فقد روى البخارى فى كتاب بدء الخلق عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن موسى كان رجلا حيا ستيلا لا يرى من جلده شئ استحياء منه فأذا من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدره وإما آفة وإن الله أراد أن يبرأه مما قالوا للموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول:

ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملاء من بنى إسرائيل فأراه عريانا أحسن ما خلق الله وأبراه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فو الله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا فذلك قوله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً انتهى.

فتأمل أن النبى صلى الله عليه وسلم ليحلف بأن الحجر لندبا من أثر ضربه وهذه معجزة أخرى فإن المعروف أن الحجر يكسر العصا لأنها لينه ولكن هنا عصا موسى أثر فى الحجر وتركت فيه علامات الضرب كما أن ارتفاع حجر المقام بإبراهيم لبناء البيت معجزة وأثر قدميه فيه معجزة ثانية، ولا نتكلم عن معجزة عصا موسى لأننا نحن فى صدد معجزة الحجارات فقط.

وأما سلام الحجر على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهو ثابت كما فى قوله: **"إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث"** رواه مسلم وأحمد والترمذى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٦١

قال العلماء: سلام هذا الحجر على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان خاصا بقبل البعثة كما هو صريح الحديث، و أما بعد البعثة فإن كثيرا من الأحجار كانت تسلم عليه.

و لم يحفظ من هذه الأحجار الثلاثة شيء سوى حجر المقام ليكون آية خاصة لإبراهيم عليه السلام و ذلك مصداقا لقوله تعالى: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ.

و إذا تأملنا أيضا قوله: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ نجد أن كل ذلك منقبه لجنس الأحجار فإنها لما تشرفت بخدمة أنبياء الله تعالى حصل لها شرف القبول و التكريم، فكيف إذا بالمؤمنين الذين آمنوا بهم و آزرهم و نصرهم لا شك أن لهم شرفا كبيرا و قدرا رفيعا.

(و اعلم) أن سلام الأحجار على النبي صلى الله عليه وسلم سلام حقيقي و قدرة الله تعالى صالحه على ذلك. و مثله ارتفاع المقام و نزوله و مشيه بإبراهيم في الهواء حول الكعبة. و مثله هروب حجر موسى بثوبه ثم وقوفه أمام الملائكة من بني إسرائيل ثم نداء موسى للحجر و طلبه ثوبه منه بقوله: ثوبى حجر ثوبى حجر ثم تأديبه للحجر بأن ضربه بعصاه حتى ظهر فيه أثر العصا، كل ذلك وقع من هذه الحجارة على الحقيقة معجزة و كرامة للأنبياء عليهم الصلاة و السلام.

و ما حنين الجذع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيد حينما جعلوا له منبرا فقد كان الجذع يصيح صياح الصبي و يئن أنيه بل يقول جابر بن عبد الله رضى الله عنهما:

سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت. و انظر حديثه في حنين الجذع من صحيح البخارى في كتاب بدء الخلق في باب علامات النبوة في الإسلام.

و مما يلحق بما تقدم ما رواه البخارى في كتاب بدء الخلق في الباب المذكور أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم ثم يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودى ورائى فاقتله، و جاء في صحيح مسلم حديث بهذا المعنى أيضا فالحديث الثابت يدل صراحة أن الحجر يتكلم بكلام يسمعه الناس و يفهمونه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٦٢

و فى صحيح البخارى فى كتاب بدء الخلق فى الباب المذكور أيضا عن علقمة عن عبد الله قال: كنا نعد الآيات بركه و أنتم تعدونها تخويفا ... إلى أن قال:

فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم و لقد كنا نسمع تسبيح الطعام و هو يؤكل.

فمعجزات الأنبياء عليهم الصلاة و السلام لا تنحصر، و فى ما تقدم كفاية للمؤمن العاقل، فلا تسمعن إلى قول من يؤول ذلك نسأل الله السلامة من الفتن ما ظهر منها و ما بطن، فثبت اللهم قلوبنا على دينك و اشرح صدورنا لطاعتك و عبادتك آمين يا رب العالمين.

أول تفكير فى تاريخ الإسلام لنقل مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام عن موضعه الأصلي

لقد فكرت حكومتنا السعودية فى نقل مقام إبراهيم عليه الصلاة و التسليم عن موضعه الأصلي الذى يبعد عن باب الكعبة المعظمة بمقدار اثنى عشر مترا، و تأخيره عن موضعه الأول إلى ما يقابله بمقدار الأمتار المذكورة تقريبا لتوسعة المطاف، و ذلك فى سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف هجرية بعد الانتهاء من تجديد سقف الكعبة المعظمة.

لقد عزمت الحكومة فى نقل هذا المقام الكريم عزا ما أكيدا حتى أنها بنت مقصورة جديدة عند باب بنى شيبه بمقدار المقصورة الأولى التى فى داخلها حجر المقام، ثم رجعت و أبطلت هذه الفكرة و هدمت هذه المقصورة الجديدة فى أسرع وقت بعد أيام من بنائها و ذلك فى يوم الأحد الموافق ٢٥ شوال سنة (١٣٧٧) هجرية تنازلا على رأى العام، فإن جميع الناس فى داخل المملكة و فى خارجها لم يرتضوا ذلك، قائلين: إن هذا المقام الكريم وضعه نبينا "محمد" صلى الله عليه وسلم فى هذا المحل المعروف أو وضعه أمير

المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فيه، لا يجوز نقله من محله الأصلي و وضعه فى مكان آخر، و لا ينبغي لنا ذلك و نحن فى آخر الزمان مغمورين فى بحر الفتن و الشرور و الفساد.

ثم إن بعض العلماء فى المملكة السعودية رأى أنه لا بأس بنقل مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام من محله الأصلي و تأخيره إلى محل آخر توسعه للناس فى حال

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٦٣

الطواف، و رأى بعضهم عدم جواز نقله من محله الأصلي مطلقا، فألف بعضهم فى جواز نقله مؤلفا، كما ألف بعضهم فى عدم جواز نقله مؤلفا أيضا، فظهر فى محرم سنة (١٣٧٨) هجرية رسالة صغيرة مطبوعة اسمها "مقام إبراهيم" عليه الصلاة و السلام و هل يجوز تأخيره عن موضعه عند الحاجة لتوسيع المطاف. ألفها الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى مدير مكتبة الحرم المكى، حكم فى رسالته هذه بجواز نقل المقام عن موضعه.

ثم إن فضيلة الشيخ سليمان بن عبد الرحمن بن حمدان، قام فألف كتابا فى الرد على رسالة المعلمى اليمانى المذكور، و سماه (نقض المبانى من فتوى اليمانى و تحقيق المرام فيما يتعلق بالمقام) و قد طبع هذا الكتاب فى محرم سنة (١٣٨٣) هجرية بالقاهرة.

ثم إن سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتى المملكة العربية السعودية ألف كتابا فى الرد على كتاب الشيخ سليمان بن عبد الرحمن المذكور، سماه (نصيحة الإخوان ببيان بعض ما فى نقض المبانى لابن حمدان من الخبط و الخلط و الجهل و البهتان) و فى آخر هذا الكتاب تلى رسالة أخرى اسمها (الجواب المستقيم فى جواز نقل مقام إبراهيم) لسماحة المفتى المذكور أيضا.

ثم ظهر كتاب رابع اسمه (سبيل السلام فى إبقاء المقام) لفضيلة الشيخ إبراهيم نياس الكاولخى شيخ الإسلام بجمهورية السنغال، برهن فيه على وجوب إبقاء المقام الكريم فى محله الأصلي كما هو ظاهر من عنوان كتابه.

هذه هى الكتب التى ظهرت عن شأن نقل مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام فى زماننا هذا عند توسعه المطاف لأول مرة فى هذا التاريخ، و لم يكن فى العصور الماضية من يخوضون فى هذه المسألة مطلقا منذ ظهور الإسلام إلى اليوم، و مما يجدر بالذكر أن حكومتنا السعودية إلى وقت طبع هذا التاريخ القويم، لم تبد رأيا حاسما فى مسألة نقل مقام إبراهيم عليه الصلاة و التسليم من محله، و الظاهر أنها صرفت النظر عنه و خيرا ما فعلت، فإنه و إن رأى بعضهم جواز نقل المقام الكريم من محله إلى محل آخر توسعه للناس، فبقاؤه فى محله الأصلي أولى و أفضل، لمرور أربعة عشر قرنا عليه، و لثلا نثير تبلبل أفكار المسلمين فى جميع الأقطار، و نحن فى زمان الفتن و الشرور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٦٤

نسأل الله تعالى أن يحفظنا من الفتن ما ظهر منها و ما بطن، و أن يؤلف بين المسلمين و ينصرهم على أعدائهم، و أن يختم حياتنا على الإيمان التام و اليقين الكامل و العمل الصالح، و نحن على طهارة و نظافة، براحة تامة، فى أبرك الأوقات و أشرق الساعات، و فى بلده الطاهر الأمين، بفضل و رحمته آمين.

وضع زجاج على مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام و رفع المقصورة الحديدية التى كانت عليه

لقد قررت رابطة العالم الإسلامى التى تعقد فى موسم الحج من كل عام رفع المقصورة الحديدية التى كانت موضوعة فوق مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام منذ مئات السنين، و بوضع بدلا عنها زجاج قوى جميل على نفس المقام الكريم مع بقاءه فى محله الأصلي من غير تحريكه و لا زحزحته عن موضعه أبدا، و نرى أن هذا القرار هو نعم القرار، فيه راحة المسلمين بتوسعة المطاف، مع بقاء المقام الكريم فى محله الأصلي القديم.

و لقد نشر هذا القرار فى الصحف المحلية، فقد ذكرت جريدة المدينة المنورة الصادرة بتاريخ ٨ صفر سنة ١٣٨٥ هجرية عن قرار

المجلس ما يأتي:

أعلنت الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة أن المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي قد اتخذ في جلسته الحادية عشرة المنعقدة بتاريخ ٢٥ ذى الحجة ١٣٨٤ قرارا خاصا بمقام إبراهيم عليه السلام، و فيما يلي نصه:

تفاديا لخطر الزحام أيام موسم الحج و حرصا على الأرواح البريئة التي تذهب في كل سنة تحت أقدام الطائفين الأمر الذي ينافي سماحة الشريعة الإسلامية و يسرها و عدم تكليفها النفس البشرية أكثر مما في وسعها يقرر المجلس الموافقة على المشروع الآتي و رفعه إلى الجهات السعودية المختصة ...

الحمد لله وحده و الصلاة و السلام على من لا نبي بعده. أما بعد: فبناء على ما من الله تعالى به على حكومته هذه المملكة العربية السعودية من التوفيق لتوسعة الحرمين الشريفين توسعة لم يسبق لها مثيل في التاريخ الإسلامي و بناء على ما أفاء الله على هذه البلاد المقدسة في عهد هذه الحكومة الرشيدة من الخير العظيم و الفضل العميم و ما يسره من توطيد الأمن في ربوع هذه الديار الإسلامية و تيسير

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٦٥

السبل لأداء فريضة الله على عباده في الحج إلى بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس و أمنا فقد أصبح عدد من يؤم البيت الحرام لأداء هذه الفريضة أضعافا مضاعفة عن ما كان عليه في الماضي حتى صار المسجد الحرام رغم هذه التوسعة العظيمة يضيق بالوافدين إليه و من المأمول إن شاء الله أن يزداد عدد الحجيج في المستقبل عاما بعد عام، و إن أشد ما يقع الزحام و الضيق الآن بعد توسعة المطاف هذه التوسعة الكبيرة التي شكرها المسلمون جميعا لحكومة هذه البلاد في الجزء من المطاف الذي يقع بين الركن الذي فيه الحجر الأسود، و بين مقام إبراهيم و يحصل بسبب ذلك الزحام للطائفين على اختلاف أنواعهم، من الحرج و المشقة ما الله تعالى به عليم. كما يقع الخلل في هذه العبادة الشريفة و هي الطواف الذي هو أحد أركان الحج التي لا يتم الحج إلا بها، لفقدان ما يطلب به في هذه العبادة من الخشوع و الخضوع و التذلل لله تعالى و صدق التوجه إليه حتى أن المرء لينسى من شدة الزحام و المضايقة، أن في عبادة الله عز و جل لا- يهتم إلا- بتخليص نفسه و تخليص من معه إن كان معه من يحتاج إلى التخليص من الضعفة و الخصام و المشاتمة و العراك و المضاربة بالأيدى، بل لقد زاد الأمر على ذلك و أدى إلى الموت الزؤام و إزهاق بعض الأرواح من الضعفة و الشيوخ و النساء دهسا بالأرجل كما حصل ذلك في السنوات الأخيرة و في هذه السنة بالذات حيث قد مات في المطاف بسبب الزحام عدد من الأنفس، و قد ارتفعت هذه الشكوى إلى الله تعالى ثم إلى ولاة الأمور في هذه المملكة من كل من شاهد بعيني رأسه هذه الأخطار العظيمة و المضار الجسمية التي تلحق الطائفين في هذا الجزء من المطاف مطالبين و ملحين بوجود إيجاد حل سريع لهذه المشكلة التي هي على جانب كبير من الأهمية و الخطورة و على ضوء هذه الحوادث البالغة الخطورة و التي لا يجوز لأهل العلم و حماة الشريعة الإسلامية السكوت عليها، و التغاضي عنها لأن من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم فقد طلب سماحة رئيس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ طرح هذه القضية على بساط البحث في جلسة المجلس المنعقدة في مساء يوم الاثنين الموافق (٢٤-١٢-١٣٨٤) هجرية أن يبدى حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء المجلس التأسيسي آراءهم فيه على هدى نصوص كتاب الله تعالى و سنة رسوله صلى الله عليه و سلم و أحكام الشريعة السمحة التي جاءت بالخير و الرحمة و رفع الضيق و الحرج عن هذه الأمة الإسلامية. و بعد البحث و المذاكرة و تداول الرأي بين الجميع تقرر الموافقة بإجماع الآراء على ما يأتي:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٦٦

١- بالنظر لما تدعو إليه الضرورة في أيام مواسم الحج من توسعة المطاف في الجزء الذي بين الحجر الأسود و مقام إبراهيم فإنه يجب على الفور حلا لهذه المشكلة العظيمة إزالة جميع الزوائد الموجودة حاليا في هذا الجزء من المطاف كالهيكلة القائم على مقام إبراهيم عليه السلام و كالعقد المسمى باب بنى شيبه لأن جميع هذه الزوائد لا تمت إلى مقام إبراهيم بأى صلة، كما أن الهيكلة الموجودة

حالياً فوق مقام إبراهيم لم يكن موجوداً في صدر الإسلام إنما هو من المحدثات التي أحدثت في القرون الوسطى كما هو مدون في كتب التاريخ و معظم الزحام إنما ينشأ من وجود هذه الزوائد التي لا ضرورة لبقائها بل بإزالتها يزول عن الطائفين و القائمين و الركع السجود الكثير من الضيق و الحرج و المشقة و ذلك عملاً بمقتضى قوله تعالى: **وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** و قوله تعالى: **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ التَّيْسِيرَ** و قوله تعالى: **يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا** و حديث: (يسروا و لا- تعسروا) و غيره من الأحاديث الشريفة الواردة في هذا المعنى.

٢- و أن يجعل مقام إبراهيم عليه السلام بدلاً من الهيكل الحالى بعد إزالته صندوق من البلور السميكة القوى على قدر الحاجة فقط، و يكون مدوراً و بارتفاع مناسب لئلا يتعثر به الطائفون، و بذلك تحصل التوسعة لهذا الجزء من المطاف و يزول كثير من الحرج و المشقة و الضيق كما يتسنى للكثير من العامة رؤية مقام إبراهيم من غير أن تصل أيديهم إليه و معرفة المقام على حقيقته و أن الحجر الذى كان يقوم عليه إبراهيم عند رفع القواعد من البيت لأن كثير من العوام يظنون أن بداخل الهيكل الموجود حالياً قبراً لإبراهيم عليه السلام.

٣- أن يتقدم بالتماس باسم رابطة العالم الإسلامى إلى حكومة جلاله الملك فيصل المعظم رجاء تنفيذ جميع ما ذكر على الفور و قبل حلول موسم الحج القادم، و بالله التوفيق. انتهى من الجريدة المذكورة.

هذا ما قررته رابطة العالم الإسلامى بشأن مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام الذى هو أمام باب الكعبة المعظمة، و إننا نأمل أن نضع صورة القاعدة الزجاجية البلورية فى آخر هذا الكتاب إذا تمكنا من أخذ صورتها، إن شاء الله تعالى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٦٧

تجديد مقصورة مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام

كنا اقترحنا فى كتابنا "مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام" المطبوع بمطبعة مصطفى البابى الحلبي و أولاده بمصر فى سنة (١٣٦٨) هجرية لأول مرة، و ذلك بصحيفة ١٣١ بأن ترفع الحكومة السعودية الستارة و التابوت الخشبى من فوق المقام الكريم، و تغطيه بغطاء زجاجى قوى سميكة، و تقدمنا أيضاً بهذا الاقتراح إلى الجهات المختصة.

ثم قام مشروع توسعة المسجد الحرام بعد ذلك أى فى سنة (١٣٧٥) هجرية إلى وقتنا هذا و قد أوشك على الانتهاء، و الآن و ما زال المشروع قائماً عازمت حكومتنا السعودية على كشف مقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام و رفع الستارة و التابوت الخشبى أى الصندوق من فوق، و إزالة المقصورة الحديدية عنه توسعة للمطاف لراحة الطائفين، و وضع غطاء زجاجى عليه، ليظهر هذا المقام الشريف الكريم لكافة الناس مدى الأيام و الأعوام.

و بالفعل فقد نجح اقتراحنا و لله الحمد، و ذلك بعد تسعة عشر عاماً من طبع كتابنا المذكور، فلكل أجل كتاب، و لكل شىء وقت معلوم، لقد بقى هذا المقام الكريم بجوار الكعبة المعظمة منذ آلاف السنين معجزة ظاهرة خالدة، و كرامه و ذكرى لخليل الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام، و زيادة فى تكريمه و تشريفه أمرنا الله تبارك و تعالى أن نصلى عند مقامه الشريف، كما جاء ذلك صريحاً فى سورة البقرة فى قوله تعالى: **وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** و هو واقع أمام باب الكعبة المعظمة، فالناس يصلون عنده منذ نزول هذه الآية الكريمة إلى قيام الساعة فما أعظم هذه المنقبة و ما أعظم هذه الذكرى لخليل الله تعالى صلى الله عليه و سلم، و إذا تأملت فى قوله تعالى فى سورة آل عمران: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِيكِهِ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ** * فيه آياتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ظهر لك فضل البيت الحرام و مقام إبراهيم عليه السلام، فما أكرم خليل الله تعالى على ربه عز و جل.

إذا تأملت في هاتين الآيتين الكريمتين تسبح في آفاق بعيدة من ملكوت الله تعالى، و يظهر لك كثير من دقائق الأمور الخافية على غيرك.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٦٨

فلقد أحسنت حكومتنا السعودية في كشف هذا المقام الكريم، و وضع غطاء زجاجي عليه، مع المحافظة على محله الأصلي و عدم زحزحته عنه، ليظهر للعالم الإسلامي حقيقة هذا المقام الكريم، فإن العوام يظنون هذا المقام عبارة عن موضع قبر خليل الله إبراهيم عليه أفضل الصلاة و السلام و التسليم، و بعضهم يظن أن موضع صلاته و عبادته، و ليس الأمر كذلك بل إنه عبارة عن حجر من جنس الرخام، طلع فوقه سيدنا إبراهيم صلوات الله و سلامه عليه، ليني عليه بيت الله الكريم بعد أن ارتفع جدرانها، فإنه ما كان يستطيع البناء و هو واقف على الأرض فكان هذا المقام بمثابة السلم و السقالة الخشبية التي يعملها بناؤون للوقوف عليه عند البناء، و لم يكن في وقته صلى الله عليه و سلم بمكة من يعرف صنع السلالم و السقالات، لقله الناس و قرب عهدهم بالإقامة و السكنى بها، و المعيشة البدائية و عدم معرفتهم لأمر الحضارة و المدينة. فكان هذا المقام الكريم إذا صعد عليه سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة و التسليم للبناء، ينتقل به بأمر الله تعالى يمينا و شمالا، و يرتفع به إلى الأعلى و ينزل به إلى الأرض حسب طلبه و رغبته. فلما أكمل صلى الله عليه و سلم بناء الكعبة المعظمة، أمر الله تعالى أن يؤذن في الناس بالحج، فقام صلى الله عليه و سلم مرة أخرى على هذا المقام الكريم فأذن في الناس بالحج، أي نادى في الناس بالحج إلى هذا البيت الحرام، كما جاء ذلك صريحا في قوله تعالى في أوائل سورة الحج: **وَ أذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** لما أمره الله تعالى بالأذان قال عليه الصلاة و السلام: يا رب كيف أبلغ الناس و صوتي لا ينفذهم، فقال له جل جلاله: ناد و علينا البلاغ، فقام على حجر المقام فقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه، فبلغ صوته أرجاء الأرض و أسمع من في الأرحام و الأصلاب، و أجابه كل من كتب الله تعالى له أن يحج إلى يوم القيامة: **لبيك اللهم لبيك**. و الله على كل شيء قدير "فمعجزات الأنبياء عليهم الصلاة و السلام كثيرة لا تعد و لا تحصى، و إلى بناء البيت الحرام و الأذان على المقام، أشار صاحب عمود النسب رحمه الله تعالى بقوله:

و كلما طال البناء ارتفعابه المقام في الهوا و رفعا

به القواعد و فيه القدم تشبهها للهاشمي قدم

و حين بالحج الخليل أذناو في كلا أذنيه إصبعا ثني

أيضا كأطوال الجبال ارتفعابه و كل من يحج أسمعا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٦٩

فلما قام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام على حجر مقامه غاصت قدماه الشريفتان فيه غوصا عميقا بمقدار نصف ارتفاع الحجر تقريبا، ليقى هذا الأثر المبارك الشريف إلى قيام الساعة، و لقد حافظ سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله و سلامه عليه على حجر المقام بعد انتهائه من بيت الله الحرام و أذانه في الناس بالحج، فوضعه في أشرف مكان و أكثره أمنا، و وضعه عند بيت الله الحرام الذي لا- تمتد إليه يد بسوء، فكان في داخل الكعبة المعظمة، و أحيانا كانت قريش تضعه بجوارها ملاصقا لها، آلاف السنين حتى جاء الإسلام فلما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالصلاة عنده، أخره إلى منتهى المطاف من جهة باب الكعبة، حتى يتمكن المصلون عنده من الصلاة بدون تشويش و يتمكن الطائفون أيضا من الطواف بدون التعثر بالمصلين، فرضى الله تعالى عنمن كان السبب في تأخيره إلى محله اليوم، فلو بقى المقام بجوار الكعبة إلى اليوم فكيف كانت حالة الطائفين و المصلين عنده، و نحن نرى هذا الازدحام العظيم في المطاف في مواسم الحج في زماننا هذا.

و اعلم أن قدمي خليل الله إبراهيم تشبهان تماما قدمي نبينا "محمد" صلوات الله تعالى و سلامه عليهما و على جميع الأنبياء و المرسلين و آل كل واحد منهم و صحابتهم أجمعين، كما أثبتته العلماء الأعلام، و كما تقدم هنا من قول القائل:

به القواعد و فيه القدم تشبهها للهاشمى قدم

أما ما يرى من توسع فتحى القدمين فى حجر المقام الكريم، فقد حصل ذلك من كثرة مسح الناس له بأيديهم للتبرك منذ آلاف السنين. و قد كانت آثار أصابع قدمى الخليل عليه الصلاة و السلام ظاهرة واضحة على المقام الكريم حتى بعد ظهور الإسلام، فقد جاء فى موطأ ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: رأيت المقام فيه أصابع إبراهيم و أخصم قدميه غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم. اه. و لقد أشار أبو طالب عم نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم إلى هذا المقام و الحجر الأسود الشريفين، فى قصيدته اللامية المشهورة التى أولها:

و لما رأيت القوم لا ودّ عندهم و قد قطعوا كل العرى و الوصائل

قال هذه القصيدة حين تحالفت قريش على بنى هاشم فى أمر النبى صلى الله عليه و سلم، و أشار أبو طالب إلى الحجر الأسود و المقام فى قصيدته المذكورة بقوله:

و بالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتفوه بالضحى و الأصائل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٧٠ و موطئ إبراهيم فى الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل

و اعلم أن سيدنا إبراهيم خليل الله تعالى بانى البيت الحرام، لم يكن عند بنائه الكعبة المعظمة و قيامه على هذا المقام، يلبس فى رجليه نعلان لأنه فى أقدس بقعه مباركة و أطهر مكان، إذ كانت أرض مكة و ما حولها من حدود الحرم و ما بعدها أيضا، طاهرة نظيفة تغسلها الأمطار من الغبار و أوراق الأشجار البرية، فلم يكن بمكة فى أيامه صلى الله عليه و سلم تلك الأيام الغابرة أناس، إلا نحو ثلاثين بيتا متباعدة فى الجبال و المغارات حول الكعبة المشرفة، و لم تكن لديهم من الحيوانات إلا القليل من الغنم لا تتجاوز الخمسين رأسا، و كلها كانت لقبيلة جرهم، فكيف تتنجس الأرض فلا روث و لا نجاسة. ثم بعد سنوات من إقامة سيدنا إسماعيل بن خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة و السلام ازداد سكان مكة بلد الله الأمين، شيئا فشيئا بالتدرج، من بلاد اليمن أولا لقربها من مكة، ثم من غيرها من جميع أطراف الأرض بمرور الأيام و الأعوام خصوصا بعد انتشار الإسلام، حتى امتلأت مكة المكرمة شرفها الله تعالى فى عصرنا هذا من جميع الأجناس، و نحن بيننا و بين زمان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام أكثر من أربعة آلاف سنة.

و الذى يدلنا أن سيدنا إبراهيم عليه أفضل الصلاة و التسليم، كان عند بنائه للبيت الحرام حافيا لا يلبس نعلان، هو وجود آثار أصابعه صلى الله عليه و سلم و أخصم قدميه فى حجر مقامه الكريم، و قد كانت ظاهرة واضحة فيه إلى ما بعد ظهور الإسلام، كما يدل عليه الرواية المتقدمة عن أنس رضى الله تعالى عنه، و كما يدل عليه أيضا قول أبى طالب فى قصيدته اللامية و قد تقدم ذكره و هو:

و موطئ إبراهيم فى الصخرة رطبة على قدميه حافيا غير ناعل

ف قوله: "حافيا غير ناعل" صريح بذلك من غير شك، و أبو طالب هو عم نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم و هو من سادات العرب و وجهاء مكة، بيننا و بينه اليوم ألفان من الأعوام، و بينه و بين سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام مثل ذلك بل أكثر.

و اعلم أيضا أن الحجر الأسود و المقام هما ياقوتتان من يواقيت الجنة، أنزلهما الله تعالى إلى الأرض تكرمه لبيته الحرام، و لخليله عليه السلام، و لعباده المؤمنين الكرام، بعد أن أخفى سرهما و نورهما عن الناس، و لو لا ذلك لملا الدنيا نورا و بهاء، و لما تمكن الناس من النظر إليهما تماما لشدة صفاء نورهما و لقوة و هج إشعاعهما، فسبحان الذى جعل لبعض الأشياء فضلا و كرامة. و يفهم هذا جليا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٧١

من معنى قوله صلى الله عليه و سلم: "لو أن امرأة من نساء أهل الجنة أشرفت إلى الأرض لملاأت الأرض من ريح المسك و لأذهبت ضوء الشمس و القمر" رواه الطبرانى، هذا ما نعتقه و الله سبحانه و تعالى أعلم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "إن الركن و المقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله تعالى نورهما و لو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق و المغرب" رواه الترمذى و أحمد و الحاكم و ابن حبان رحمهم الله تعالى.

و إليك البيان بالتفصيل عن إزالة المقصورة الحديدية القديمة لمقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، و رفع الستارة و الصندوق الخشبي من فوقه، و وضع الزجاج القوى عليه، مع شباك حديدي جديد، أى مقصورة حديدية جديدة بدلا عن الأولى:

و لقد أنيط هذا العمل بمكتب مشروع توسعه المسجد الحرام بمكة المكرمة برئاسة سعادة الشيخ محمد صالح القزاز، فابتدؤوا فى العمل من صباح يوم السبت الموافق الحادى عشر من شهر رجب سنة (١٣٨٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و ثمانين هجرية، فأحاطوا مقصورة المقام الكريم بالأخشاب من جميع الجهات الأربعة و جعلوا فيها بابا للدخول و الخروج، و هذه الإحاطة بالأخشاب تمكن العمال من الاشتغال فى المقام بدون تشويش من الناس الذين يجتمعون عنده، فلا يدخل عليهم من باب الأخشاب إلا العمال و الخدم، و بعض الأشخاص من الموظفين الكبار، و الفضلاء من العلماء و الوجهاء، و لقد دخلناه مع الداخلين و لله الحمد، لنكتب عنه هذا المبحث الفريد فى كتابنا هذا الذى يطبع الآن فى بيروت، و فى كتابنا الآخر أيضا المطبوع بمصر و هو كتاب "مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام" عند إعادة طبعه قريبا للمرة الثانية إن شاء الله تعالى، و هذه هى المرة الثانية فى حياتنا ندخل هذا المقام الكريم، و أما المرة الأولى فقد دخلناه منذ عشرين عاما أى فى سنة (١٣٦٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و ستين هجرية، و ذلك بأمر ملكى عندما بدأنا فى تأليف كتابنا "مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام" فالحمد لله رب العالمين، و صلى الله و سلم على جميع الأنبياء و المرسلين. و بمناسبة إحاطة المقام الكريم بالأخشاب نقول: إن سيدنا عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما هو أول من أحاط الكعبة المعظمة بالأخشاب عند بناءه لها، و ذلك سنة (٦٤) أربع و ستين من الهجرة، حرمة للكعبة المعظمة أولا، و ليتمكن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٧٢

العمال من الاشتغال فى البناء براحة تامة بدون تشويش عليهم من الناس المجتمعين، فصار الناس يتبعون سنته فى البناءات المحترمة المهمة إلى يومنا هذا، فنعمت البدعة هذه البدعة الحسنة، و رضى الله تعالى عن صحابة رسول الله صلى الله عليهم أجمعين.

ثم إنه فى اليوم المذكور و هو يوم السبت ١١ رجب من السنة المذكورة أزالوا باب بنى شيبه و هو العقد القائم خلف مقام إبراهيم عليه أفضل الصلاة و التسليم، و بجوار بئر زمزم و المنبر، و هو الذى كان يسمى قديما منذ صدر الإسلام بباب السلام، و الذى يسن الدخول منه إلى المسجد الحرام، فقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يدخل منه إلى المسجد الحرام و يخرج منه أيضا، و قد كان باب بنى شيبه حد المسجد الحرام من الجهات الثلاثة، فى زمن رسول الله صلى الله عليه و سلم و زمن أبى بكر رضى الله عنه، و ما وراء ذلك هو من زيادات الخلفاء أمراء المؤمنين، رضى الله تعالى عنهم، و سمى هذا الباب بباب بنى شيبه لوقوع دورهم فى مواجهته، و كذلك دخول و خروج رسول الله صلى الله عليه و سلم منه إلى المسجد الحرام لوقوع داره فى جهته أيضا، فمحل باب بنى شيبه الذى أزيل اليوم هو حد المسجد الحرام و حد المطاف القديم أيضا، و مرادنا بالقديم هو الذى حصل فيه الزيادة اليوم فى زماننا لأن المسجد الحرام كان هو المطاف القديم سواء بسواء، فلما زاد الخلفاء فى المسجد الحرام عملوا حدا للمطاف القديم، و فى زماننا هذا زادوا فى المطاف القديم و وسعوه لكثرة الناس. بينا ذلك بالتفصيل التام فى هذا الكتاب، و لقد تكلمنا عن باب بنى شيبه فى غير هذا المحل من هذا الكتاب (و بعد إزالة باب بنى شيبه وضع مكانه رخام أسود إشارة إلى محله).

ثم إنه فى يوم الأحد ١٢ رجب سنة ١٣٨٧ هجرية قاموا بإزالة المقصورة الحديدية المحيطة بالمقام الكريم على صاحبها أفضل الصلاة و التسليم، و هذه المقصورة القديمة أى نفس الشباك الحديدى طولها ثلاثة أمتار و عرضها مثل ذلك، و ارتفاعها مثل ذلك، و مساحة المصلّى الذى يلى المقصورة مثل ذلك أيضا أى ثلاثة أمتار.

ثم فى يوم الاثنين ١٣ رجب من السنة المذكورة قاموا برفع ما بقى من الأنقاض و الأحجار و الأتربة حتى بلغوا الأساس القديم، و لقد وجدوا أن المقام الشريف مركب على قاعدة من الحجر المربع طوله خمسون سنتيمترا و عرضه مثل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٧٣

ذلك، قد جس هذا الحجر بأربعة أسافين من الحجارة الضخمة، تشببتا له حتى لا يتزحزح عن مكانه، فلم يمس العمال هذا الحجر بسوء

بل لم يزل في مكانه و هذا الحجر ينزل عن سطح أرض المطاف بنصف متر، و يظن الذي رأى هذا الحجر أنه من وضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضی الله تعالى عنه و الله تعالى أعلم.

فقولنا "حتى بلغوا الأساس القديم" أي: بلغوا جوانب الأساس من غير أن يمسوا نفس الأساس، و من غير أن يحركوا نفس حجر المقام الكريم، فكل شيء قديم بقى على ما هو عليه.

و لقد وجدوا في هذا المحل قطعة من خشب الساج القوى طولها ٢٧ سنتيمترا و عرضها ١٦ سنتيمترا و سمكها، أي غلظها اثنين من السنتيمترات مكتوب فيها حفرا بالحديد ما يأتي:

"سلطان عبد العزيز خان حضر تلى زمان سلطنلى إماره مكة مكرمه الشريف عبد الله باشا حضر تلى، حقى باشا زاده أحمد عزت باشا حضر تلى.

جدد ... مهندس عبد العزيز نظارت معمارى محمد صديق كابللى معرفتلى خليل إبراهيم ... معلمى رصاص مصرى محمد بن إبراهيم سنة ١٢٨١ هـ صفر."

انتهى ما كان مكتوبا على القطعة الخشبية، و هذا النوع من الخشب يقال له "الساج" و هو نوع لا يوجد أقوى منه من الأخشاب، فلا يدخل فيه السوس و لا يأكله التراب، فإذا نظرنا إلى تاريخ وضع هذه القطعة الخشبية في المقام الكريم و هو سنة (١٢٨١ هـ) و إلى هذه السنة التى وقع فيها إصلاح المقام الكريم، و هى سنة (١٣٨٧ هـ) رأينا أنه قد مر على هذه القطعة الخشبية أكثر من مائة عام، و هى سليمة سالمه من السوس و التآكل كما رأيناها بأنفسنا.

و الكلمات التى لم تتمكن من قراءتها فى هذه القطعة الخشبية وضعنا بدلا عنها بعض النقط كما تراها هنا، لأن هذه الكتابة مكتوبة باللغة التركية و بحروف عربية، بخلاف اللغة التركية فى عصرنا اليوم فإنهم يكتبونها بالحروف اللاتينية، فلقد استبدلت الأتراك الحروف العربية بالحروف اللاتينية بعد الحرب الأولى، أى:

من سنة (١٣٤١) ألف و ثلاثمائة و إحدى و أربعين هجرية تقريبا، أى بعد سقوط الخلافة الإسلامية من أيديهم.

(و اعلم) أن القطعة الخشبية من الساج التى وجدت فى داخل المقام الكريم، لم توضع هناك منذ يوم وضع المقصورة الحديدية القديمة فوق المقام الشريف، و إنما

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٧٤

وضعت فيه فى زمن حكم السلطان عبد العزيز خان من آل عثمان الأتراك سنة (١٢٨١) هجرية كما هو مذكور صريحا فى القطعة الخشبية، فالسلطان عبد العزيز خان رحمه الله تعالى و أحسن إليه، أمر فى هذه السنة المذكورة بتطويق الحجر الأسود بالفضة، كما أمر بترميم المسجد الحرام، و أمر أيضا بزيادة رفع قبة مقصورة المقام الكريم، فرفعوها نحو ذراع و نصف، حتى لا تمس الرفارف التى حول المقصورة من الأعلى رؤوس الناس فأراد القائم على هذه الأعمال فى المسجد الحرام تسجيل هذا العمل للسلطان المذكور، فوضع القطعة الخشبية المذكورة بعد أن كتب عليها التاريخ مع الجملة المذكورة، فى أشرف مكان و آمنه و هو داخل مقام سيدنا إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة و السلام. و الله تعالى أعلم، فرحم الله تعالى المتقدمين منا و رحمتنا إذا عدنا إليهم بفضله و كرمه آمين.

ثم فى يوم الثلاثاء ١٤ رجب من السنة المذكورة رفعوا الغطاء الداخلى الذى كان موضوعا فوق المقام الشريف، و هو صندوق خشبي عليه ستارة من الحرير المكتوب، ثم عملوا حول المقام الكريم من الأرض إلى أعلاه، قاعدة من الرخام تحيط به، و هى على شكل سداسى تقريبا، طولها مائة و ستون سنتيمترا، و عرضه مائة و عشرة سنتيمترا، و ارتفاعه خمسة و سبعون سنتيمترا، و الصندوق المذكور كله ملبس بالفضة، و قد كتب عليها بعض آيات قرآنية، و نحن ذكرناها بالتفصيل فى كتابنا المطبوع بمصر و هو كتاب "مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام" و فيه بيانات كثيرة عن هذا المقام الكريم فليرجع إليه من شاء.

ثم فى يوم الأربعاء ١٥ رجب من السنة المذكورة، صار يشتغل العمال بتكميل تركيب القاعدة الرخامية الجديدة المذكورة، و الرخام لونه أسود مأخوذ من جبال تبعد عن مكة المشرفة بنحو مائة كيلومتر.

ثم فى يوم الخميس ١٦ رجب من السنة المذكورة وضعوا قاعدة نحاسية مدورة مثقوبة من وسطها زنتها ستمائة كيلو، و الثقب على قدر ما يظهر المقام الكريم فقط، و قطر الثقب أربعون سنتيمترا، و فوق القاعدة النحاسية وضعوا الغطاء الزجاجى على نفس المقام الكريم، ثم ركبوا عليه المقصورة الحديدية الجديدة و هى الشبايك، و هى أصغر حجما من المقصورة القديمة الأولى، فطولها متر واحد و ستون سنتيمترا، و عرضها متر واحد و عشرة سنتيمترات، و ارتفاعها إلى هلالها ثلاثة أمتار، أى أن حجم المقصورة الجديدة أصغر من المقصورة القديمة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٧٥

لتوسعة المطاف، و قد اشتغلوا يوم الخميس إلى منتصف ليلة الجمعة فى العمل فى الإصلاح و تثبيت المقصورة فى الأرض.

ثم فى يوم الجمعة ١٧ رجب من السنة المذكورة، عملوا فى تنظيف ما حول المقام الكريم مما بقى من آثار العمل و الشغل، حتى صار المكان فى نظافة تامة ليس فيه أثر للأتربة و الغبار، و الحمد لله رب العالمين.

ثم فى يوم السبت ١٨ رجب من السنة المذكورة، رفعوا الأخشاب التى أحاطوا بها مقصورة المقام الكريم فى ابتداء العمل، ثم بعد عصر هذا اليوم المذكور صار الاحتفال برفع الستارة عن مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام، و ذلك بحضور جلالة الملك المعظم فيصل بن عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية، و بحضور السادة الأمراء و العلماء و الوزراء، و أعضاء المجلس التأسيسى لرابطة العالم الإسلامى، و أعيان البلاد و فضلائها و جمع غفير من الناس. ثم قبل غروب الشمس من اليوم المذكور بنحو ساعة، حضر إلى المسجد الحرام جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود سعود فطاف بالبيت الحرام ثم قصد المقام فصلى عنده ركعتى الطواف، ثم قام يكشف الستارة عن غطاء هذا المقام الكريم إيذانا بانتهاء العمل فيه، و ترك الناس يوالون الصلاة عند هذا المقام الكريم كما كانوا، عملا بقوله تعالى: **وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ** ثم أعطى جلالتة مفتاح المقصورة الجديدة لآل الشيبى سدنة الكعبة المعظمة و قد عملوا للمقصورة الجديدة قفلا جديدا، فالحمد لله الذى أرانا هذه التجديدات و التوسيعات العظيمة فى المسجد الحرام و فى البلد الحرام، و وفقنا لتأليف أعظم تاريخ لمكة المكرمة و أصح تاريخ لمقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام، و الكتابان مطبوعان بفضله و رحمته و إحسانه و منته.

انظر: صورة رقم ٩٢، الكعبة المعظمة

انظر: صورة رقم ٩٣، المقصورة الجديدة لمقام إبراهيم عليه السلام

انظر: صورة رقم ٩٤، المقصورة الحديدية الجديدة لمقام إبراهيم عليه السلام

و إليك بعض البيانات أيضا عن تجديد مقصورة المقام الكريم و الغطاء الزجاجى بالتفصيل:

لقد قام مشروع توسعة المسجد الحرام بمكة المكرمة، بعمل الغطاء الزجاجى لمقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام، فى فرنسا فى مصنع خاص هناك لعمل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٧٦

الكريستال "أى لصنع البللور" فصنعوا هذا الغطاء بصفة خاصة تناسب لهذا المقام الشريف، و قد استغرق صنع هذا الغطاء ستة آلاف ساعة، و إليك وصف هذا الغطاء:

(١) شكله كالقبة نصف كرة، فى أعلاها فى الوسط حلقة جميلة كالسدادة من نفس البللور.

(٢) وزنه ألف و سبعمائة و خمسون كيلو جراما.

(٣) و ارتفاعه متر واحد و ثلاثون سنتيمترا.

(٤) وسمكه وغلظه عشرون سنتيمترا من كل الجهات.

(٥) وقطره من أسفله من الداخل أربعون سنتيمترا.

(٦) وقطره من أسفله من الخارج ثمانون سنتيمترا.

(٧) محيط دائرته من أسفله متران و واحد و خمسون سنتيمترا.

(٨) و القاعدة النحاسية التي فوقها الغطاء البللورى زنتها ستمائة كيلو جراما.

(٩) و لهذا الغطاء الزجاجى البللورى قاعدة نحاسية خاصة مخروطية من الوسط، موضوعة على القاعدة الرخامية السوداء للمقام الكريم، ثم وضع هذا الغطاء البللورى فوق القاعدة النحاسية زيادة فى تثبيته و تقويته، فصار المقام الكريم له منظر جميل و هو يرى بوضوح من الغطاء البللورى.

إننا أخذنا جميع هذه المعلومات مع الشكر من سعادة الشيخ صالح باخطمة مساعد المدير العام لمكتب مشروع توسعة المسجد الحرام، ككل الله تعالى أعمالنا و أعمالهم بالنجاح و التوفيق التام بفضلهم و إحسانه آمين، و الحمد لله رب العالمين، و صلى الله و سلم على سيدنا "محمد" و على آله و أصحابه أجمعين.

(و لنختم) هذا المبحث الفريد بما يأتى:

إن أهل مكة الكرام يحق لهم أن يحتفلوا اليوم بتجديد مقصورة مقام سيدنا خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و السلام، يحق لهم أن يحترموا و يعظموا هذا المقام الكريم، و أن يفتخروا ببقاء هذا الأثر العظيم الخالد فى بلدهم المقدس منذ آلاف السنين.

إن إبراهيم صلوات الله و سلامه عليه، هو الذى بنى فى بلدهم الأمين بيت الله الحرام، و هو الذى اكتشف بلدهم "مكة" و أسكن فيها من ذريته ابنه إسماعيل و أمه هاجر عليهما الصلاة و السلام، و لأجلهما نبع ماء زمزم فى بلدتهم و ما يزال

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٧٧

موجودا عندهم إلى قيام الساعة، فكأن سيدنا إسماعيل عليه الصلاة و السلام أب العرب قاطبة.

فلما بنى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام الكعبة المعظمة، قام فوقف على مقامه المذكور فارتفع به فى الهواء، فصار يؤذن فى الناس بالحج، فصار الناس من تلك العصور البعيدة يقصدون من كل فج عميق بلدتهم الطاهرة "مكة" للحج و العمرة، فى أيام معلومات فى مواسم الحج من كل عام، و أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام حرم مكة فى حدودها المعروف إلى اليوم، و صيرها بلدا آمنا، و هو الذى دعا بالخير و الرزق و البركة كما جاء ذلك صريحا فى الكتاب و السنة. فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، فى سورة البقرة: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بئسَ المصيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَ تُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يَزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.**

و قال عز و جل فى سورة إبراهيم: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسِيءْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.**

إلى غير ذلك مما لو ذكرناه لطال بنا المقام، فأنت إذا تأملت هذه الآيات المباركة علمت أن الله تعالى لم يعامل كفار أهل مكة كعاملته لكفار غيرهم فى دار الدنيا، بل إنه عز و جل بمحض فضله و رحمته يمتعهم فى الدنيا ثم يعذبهم بما يستحقون فى الآخرة، كما هو مبرع قوله تعالى هنا فى هذه الآيات: **قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بئسَ المصيرُ.**

هكذا ميز الله تبارك و تعالى أهل بيته الحرام و أهل بلده الأمين "مكة المكرمة" عن جميع الأجناس، أفلا يحق لهم أن يحتفلوا بآثار الأنبياء عليهم الصلاة و السلام

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٧٨

التي لديهم فى بلدتهم المقدسة، و أن يفتخروا بتواضع بهذه الأمور التي شرفهم الله تعالى بها، و أن يكونوا سادة الناس و أفضل الأجناس؟ بلى و الله إنه ليحق لهم كل ذلك رغم أنف الحسدة، الذين ينكرون الحق و لا يقرون بالفضل لغيرهم. نسأل الله تبارك و تعالى لهم و لكافة المسلمين القبول و التوفيق و الرحمة و الإحسان، إنه تعالى واسع الفضل و عميم الإحسان، و أن يجعل مكة و المدينة و سائر بلاد المسلمين، فى أمن و أمان و خير و رخاء، و أن يعاملنا بما هو أهله لا بما نحن أهله، إنه سبحانه و تعالى مجيب الدعاء آمين.

ثم بعد كتابة ما تقدم شرح الله تعالى صدرنا لعمل منظومة مختصرة فى تجديد مقصورة المقام الكريم، و إليك هذه الأرجوزة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كثير الحمدو الشكر لله بغير عد

ثم الصلاة و السلام السرمدى على نبينا الحبيب "أحمد"

خير البرية نبي الرحمة و خير شافع لهذى الأمه

و آله و صحبه الكرام قادتنا فى حالك الظلام

(و بعد) هذه نبذة منظومه لطيفة رائعة مفهومه

تبحث عن تجديد شباك المقام أعنى مقام من له خير مقام

و هو خليل الله إبراهيم صلى عليه ربنا الكريم

مقامه هذا أمام الكعبة إذ كان حقا بانبا للكعبة

هذا المقام فى الكتاب ذكراو منذ أعصر تراه سترا

قد وضعوه داخل الصندوق و فوقه الشباك بالتحقيق

فلا يرى المقام فى المقصوره لأنه كالأطرفة المحصوره

مرت عليه حقب من الزمن و هو بداخل الستور قد سكن

لا يعرف الناس عن المقام غير قليل من ذوى الأفهام

ثم بدا للملك السعودى "الفیصل" المحنك المجدود

أن يكشف المقام للأنام ليعرفوا حقيقة المقام

فأصدر الأمر و بذل العطاليعملوا من الزجاج كالغطا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٧٩ يوضع فوق حجر المقام و فوق الشباك بانتظام

يظهر للناس و يبقى سالما لا تصل الأيدى إليه دائما

و حضر المليك يوم السبت و إنه شهيم كبير البخت

للمسجد الحرام فى الأصيل ثامن عشر رجب الجزيل

من عام سبع و ثمانين يلى ألف و ثلاثمائة مكمل

و شاهد المقصوره الجديده موضوعه محكمة سديده

فوق المقام للمقام منظرله جمال الشكل و هو بهر

فحمد الناس له هذا العمل والله لا يضيع للعبد العمل
 قد حفل الناس بهذا اليوم فيا له من مشهد و يوم
 فالحمد لله على التمام والشكر للتوفيق والإنعام
 هذى خلاصه عن المقام وقد ذكرنا وافر الكلام
 نثرا قبيل هذه المنظومه بكلمات دائما مفهومه
 ثم الصلاة والسلام العاطر على النبي وهو حقا طاهر
 وآله وصحبه الأبرار والتابعين منهج الأخيار
 وكل من مشى على آثارهم وإننى أمشى على أقدامهم
 يا رب واختم لى بخير العمل عند الممات و بخير الأمل
 و آخر الدعاء لنا يا ربنا الحمد لله فقد زال العنا

المصلى الجديد بالمسجد الحرام

لقد ذكرنا فى هذا الكتاب إزالة المقامات الأربعة التى كانت للشافعية و الحنفية و المالكية و الحنابلة، و كل مقام عبارة عن مصلى،
 أزيلت و انتهى الأمر. ثم إنه فى سنة (١٣٨٦) ألف و ثلاثمائة و ست و ثمانين هجرية، بنت الحكومة السعودية مصلى واحدة فقط فى
 المسجد الحرام، بجوار بئر زمزم و المنبر و بقرب المقام، ليصلى تحتها بعض الناس فى وقت الظهيرة، فطول هذه المصلى ستة أمتار و
 نصف متر، و عرضها ثلاثة أمتار و ٦٥ سنتيمترا، و ارتفاعها ثلاثة أمتار و عشرة سنتيمترات، و هى تحتوى على اثنى عشر من الأعمدة.
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٨٠
 فحبذا لو بنى فى كل جهة من جهات المسجد الحرام مصلى مثل هذه المصلى، ليصلى الناس تحتها اتقاء لحرارة الشمس.

قدم أينا آدم عليه السلام

و بمناسبة الكلام على حجر مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام الذى غاصت فيه قدماه، نقول: ذكر ابن بطوطة فى رحلته التى كانت
 سنة (٧٢٥) خمس و عشرين و سبعمائة من الهجرة أنه يوجد فى أعلى جبل سرنديب بالهند قدم أينا آدم عليه الصلاة و السلام فقد
 قال فيها ما نصه: و بمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم و يصعدون منها ميلين إلى أعلا الجبل حيث القدم، و أثر القدم الكريمة قدم
 أينا آدم صلى الله عليه و سلم فى صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح و قد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها
 منخفضا و طولها أحد عشر شبرا، و أتى إليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام و ما يليه و جعلوه فى كنيسة بمدينة
 الزيتون و يقصدونها من أقصى البلاد، و فى الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب و اليواقيت و
 الجواهر فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر و لم نجد نحن بها إلا يسير حجيرات و ذهب أعطيناها
 الدليل، و العادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها إلى القدم غدوة و عشيا و كذلك فعلنا. انتهى كلام ابن بطوطة.
 نقول: إن ما ذكره ابن بطوطة فى رحلته من أن طول قدم أينا آدم عليه الصلاة و السلام أحد عشر شبرا هو معقول ليست فيه مبالغه،
 فقد روى الشيخان و الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: "خلق الله آدم على صورته و
 طوله ستون ذراعا ثم قال: اذهب فسلم على أولئك النفر و هم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك و تحية
 ذريتك فذهب فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك و رحمة الله فزادوه و رحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فى
 طول ستين ذراعا فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن."

فإذا قارنا طول قامة آدم عليه الصلاة والسلام و هو ستون ذراعا كما في هذا الحديث الصحيح مع طول قدمه و هو أحد عشر شبرا نجد بينهما نسبة معقولة و تناسبها مقبولا. و الله تعالى أعلم بالغيب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٨١

و نقول أيضا: إننا لا نجزم بصحة غوص قدم أبينا آدم عليه الصلاة والسلام في الصخرة إلا إذا كان هناك نص صريح به و لا نفيه أيضا فإن ذلك من الجائر. و أما ما يشاع من أن نبينا محمدا صلى الله عليه و سلم إذا مشى غاصت قدماه في الصخرة فليس له أصل، فقد قال العزيزي في شرحه على الجامع الصغير في الجزء الثالث عند حديث "كان صلى الله عليه و سلم أحسن الناس صفة و أجملها ... الخ" ما نصه: قال العلقمي:

تنبيه، قال صاحبنا العلامة محمد بن يوسف الدمشقي: ذكر كثير من المدّاح أن النبي صلى الله عليه و سلم كان إذا مشى على الصخر غاصت قدماه فيه، و لا وجود لذلك في كتب الحديث البتة. انتهى منه، جاء في كتاب "تاريخ المساجد الأثرية" للأستاذ حسن عبد الوهاب بصحيفة "٢٥٦" من الجزء الأول عند الكلام على مدرسة قايتباي بالقرافة الشرقية ما نصه: و يجاور قبر قايتباي قبة صغيرة نحاسية مذهبة تحتها حجر أسود به أثر قدمين يقال أنهما للنبي صلى الله عليه و سلم، كما يوجد بجوار القبر الآخر قبة أخرى خشبية على شكل مسلة بها حجر عليه أثر قدم يقال أنه قدم الخليل إبراهيم عليه السلام. و كلاهما غير صحيح، لأنه يوجد بمصر أقدام أخرى متفاوتة المقاس، كما توجد أقدام منها في القدس و الطائف و القسطنطينية. و كذلك في الأقطار الإسلامية أقدام منسوبة إلى آدم بالهند، و الخليل بالحرم المكي، و موسى بظاهر دمشق، و عيسى ببيت المقدس.

و قد نص جماعة من حفاظ المحدثين على ما استفاض و اشتهر خصوصا على ألسنة الشعراء و المدّاح من أن قدم النبي صلى الله عليه و سلم غاصت في الحجر لا أصل له، كما أن للإمام السيوطي إجابة على سؤال رفع إليه عن هذه الأقدام بأنه لم يقف في ذلك على أصل و لا سند و لا رأى من خرج في شيء من كتب الحديث، كما أنكره كثير من العلماء و أثبت بعضهم، و قيل عن هذه الأحجار: إن السلطان قايتباي اشتراها و أوصى بجعلها عند قبره. انتهى من الكتاب المذكور.

و حيث لم يثبت غوص قدم النبي صلى الله عليه و سلم لم يثبت أيضا ما يقال إنه بلحف مسجد الخيف بمنى في غار المرسلات حجر به أثر رأس النبي صلى الله عليه و سلم، كما في صحيفة ٣٦٦ من تاريخ القطبي و لم يثبت أيضا ما يقال أنه بقرب دار أبي بكر أو دكانه بمكة حجر مبنى في الجدار في وسطه حفرة مثل محل المرفق يزعمون أن النبي صلى الله عليه و سلم اتكأ عليه فغاص مرفقه الشريف في ذلك الحجر كما في صحيفة (٣٦١) من التاريخ المذكور على أن غوص أقدام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أهون معجزاتهم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٨٢

و أسهلها و لكن لا يمكن إثباته إلا بدليل واضح، و لم يثبت ذلك إلا لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث غاصت قدماه عند الكعبة المعظمة إلى اليوم و الذي أمرنا الله تعالى بالصلاة عنده كما في صريح آية: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ. و إن شاء الله تعالى سيأتي الكلام عن أبينا آدم و أمنا حواء عليهما الصلاة والسلام ربما عند الكلام على مدينة جدة فراجع إن شئت.

أقدام إدريس و عيسى عليهما الصلاة والسلام

يقول مؤلف "الرحلة الحجازية" فيها عند الكلام على المسجد الأقصى بصحيفة (١٦٥) ما يأتي:

و على ظهر الصخرة من جهة الشرق آثار اثني عشر قدما كان النصراني في القرون الوسطى ينسبونها إلى عيسى عليه السلام، فلما تغلب المسلمون على بيت المقدس قالوا إنها آثار قدمي رسول الله صلى الله عليه و سلم حين سار عليها ليلة الإسراء، و مع ما هي عليه من عدم النظام و أنها على خط مستقيم تقريبا و هو ما لا يمكن السير عليه لفتحة ما بين الرجلين، فإنها تكاد يكون شكلها واحدا و هو ما لا

ينطبق على شكل القدمين، خصوصا و أنها أصغر بكثير من الأقدام المنسوبة له صلى الله عليه و سلم مما ذكرناه في صحيفة (١٢٥) من هذا الكتاب. و من هذا و ذاك ترى أنها كلها موضوعة لا أثر لها من الصحة، يؤيد ذلك أنه لم يرد في ديننا الحنيف ما يشير إلى شيء من ذلك بالمرء، و بجوار هذه الأقدام أثر قدم آخر ينسبونه إلى إدريس عليه السلام، و يوجد بجانب الصخرة من الجهة الغربية بجوار الدرابزين خزانة من الفضة فيها قطعة من الحجر عليها أثر قدم ينسبونه أيضا إلى نبينا صلوات الله و سلامه عليه و فيها أيضا بعض شعرات من لحيته الشريفة. انتهى من الكتاب المذكور.

و إليك ما ذكره مؤلف الكتاب المذكور بصحيفة (١٢٥) التي أشار إليها فإنه قال فيها: و يزعم النصارى أنه "أى القدم الذى بقبة الصعود بجبل الزيتون بالقدس الشريف" لعيسى عليه السلام و هم يقدسونه و يحترمونه، و من ذاك أتى احترام المسلمين لآثار تلك الأقدام التى ينسبونها إلى النبى صلى الله عليه و سلم، كما نراه فى قبة السيد البدوى بطنطا، و فى جامع المؤيد و مسجد قايتباى بالقاهرة، و فى قبة الآثار النبوية فى الآستانة، و فى خزانة الآثار النبوية بقبة الصخرة ببيت المقدس، و فى مسجد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٨٣

إبراهيم بحبرون، و على صخرة بيت المقدس آثار أقدام غير منتظمة يدعون أنها آثار الرسول صلى الله عليه و سلم عندما أسرى، و إلى جوارها أثر قدم ينسبونه إلى سيدنا إدريس عليه السلام، و المسلمون هناك يقدسونها جميعا كما يقدسون أثر قدم عيسى عليه السلام التى تراها فى محراب على يمين منبر المسجد الأقصى، و يقول النصارى: إن المسلمين فصلوها عن أختها التى فى قبة الصعود و وضعوها بمكانها هذا، و يقال أن فى (محطة قدم) التى فى جنوب دمشق أثر أقدام غائصة فى الصخرة ينسبونها إلى موسى عليه السلام و ذكرها ابن جبير فى رحلته، و قد رأيت فى الفصل الرابع و الثلاثين من كتاب محاضرة الأوائل للسكتوارى أن أول موضع أهبط الله فيه آدم جبل سرنديب و فيه أثر قدم آدم عليه السلام غائص فى الصخرة طوله سبعون شبرا الخ ... انتهى من الرحلة الحجازية.

تغيير سقف الكعبة و ترميمها فى العهد السعودى فى وقتنا الحاضر

إشارة

فى أول محرم الحرام سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبعة و سبعين هجرية، حصل للسقف الأعلى لبيت الله الحرام خراب يحتاج إلى تغييره كله، و أن سقفه الأدنى الذى هو من الخشب فقط قد تلف من فعل الأرضة و السوس، و أن جدرانها تحتاج إلى ترميم، و كل ذلك يحتاج إلى المبادرة لإصلاحه.

فأمر الملك السابق سعود بن عبد العزيز بتشكيل هيئة علمية و هيئة فنية من المهندسين المعماريين، للنظر فيما وقع بالكعبة المطهرة، و هم: الشيخ عبد الملك بن إبراهيم رئيس هيئات الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و الشيخ عبد الله بن جابر، و السيد علوى بن عباس المالكى المدرس بالمسجد الحرام، و الشيخ محمد بن على الحر كان، و الشيخ محمد بن لادن مدير الإنشاءات العمومية، و الشيخ محمد صالح القزاز، و المعلم الشيخ حسين عجاج، و المهندسين الفنيين طارق الشواف و طه القرملى. فقاموا بالكشف الدقيق و دخلوا الكعبة المعظمة فى صباح يوم السبت السابع من شهر المحرم من السنة المذكورة، و وجدوا الأمر كما ذكر، و رفعوا قرارهم بذلك و على الإثر صدر الأمر إلى مدير الإنشاءات العمومية صاحب المعالى الشيخ محمد بن عوض بن لادن الحضرمى، بالقيام بعمارة سقفى الكعبة المشرفة و تغييرهما و تجديدهما، و بترميم ما يحتاج إلى ترميمه من الداخل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٨٤

و الخارج، بحيث تكون الكعبة كأنها عادت جديدة من قوة العمارة و متانة الشغل و العمل.

- و خلاصة الأمر الملكي الصادر في أواخر شهر المحرم سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبعة و سبعين هجرية، القاضي بعمارة سقفى الكعبة المطهرة و ترميمها و إصلاحها هي فيما يأتي:
- (١) رفع السقف الأعلى للكعبة المشرفة بتاتا و تجديد عمارته.
 - (٢) تجديد السقف الأدنى لقدم أخشابه و تأكلها.
 - (٣) عمل "ميدة"، "بكر الميم، بين السقفين تحيط بجميع جدرانها.
 - (٤) ترميم الجدران الأصلية ترميما جيدا.
 - (٥) إصلاح الرخام المحيط بجدران الكعبة من باطنها.
 - (٦) ترميم و إصلاح الدرج التي في باطن الكعبة المؤدية إلى سطحها.
 - (٧) يجب مراعاة عدم بروز شيء من التعمير و الإصلاح عن الكعبة المشرفة و جدرانها و أطرافها.
 - (٨) عدم تذهيب أو تفضيض أو تمويه سقف الكعبة المطهرة.
 - (٩) جميع الترميم و التعمير يكون بالمواد البلدية.
 - (١٠) جميع ما يصرف على الكعبة المعظمة يكون من الكسب الحلال الطيب.
- هذه هي خلاصة الأمر الملكي، و بموجبه جرى العمل في الكعبة المشرفة كما يأتي تفصيله.

الأخذ في الأسباب لإصلاح الكعبة

و قد بدؤوا في ليلة السبت الحادى و العشرين من جمادى الثانية سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف هجرية، من بعد صلاة العشاء بساعة واحدة، أقاموا أخشابا حول الكعبة المشرفة لستر العمارة فيها عن أعين الناس، فما زالوا يشتغلون بإقامته الأخشاب حولها من هذه الليلة المذكورة إلى يوم الاثنين الثالث و العشرين من الشهر المذكور، حتى سترت الكعبة عن أعين الناس تماما من أرض المطاف إلى سطح الكعبة، بل إلى ما فوق السطح بنحو متر واحد و نصف المتر، ما عدا موضع

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٨٥

الحجر الأسود و موضع الركن اليماني فلم يطوقوهما بالأخشاب بل جعلوهما مكشوفين ليتمكن الناس من استلامهما، و أما جدار حجر إسماعيل عليه السلام فلم يحيطوه بالأخشاب، و إنما أحاطوا الكعبة من هذه الجهة من داخل الحجر أى من فتحته الشرقية و الغربية و جعلوا الممر الموصل إلى الكعبة و إلى السقائل التي عملوها من جهة الحجر للصعود منها إلى سطحها جسرا من الخشب عرضه نحو مترين، ممتدا من جانب منبر المسجد الحرام من يمينه على استقامة واحدة إلى جهة الجدار الشرقى للكعبة، و جعلوا باب الجسر بجانب باب المنبر، و أوقفوا على بابه طائفة من الجنود للمحافظة على نظاف الصعود إلى الكعبة، فلا يصعدا كل واحد حرصا على مصلحة العمل و الشغل، و جعلوا هذا الجسر الخشبي مرتفعا على أرض المطاف بنحو قامتين، فكان الطائفون يطوفون حول الستارة الخشبية المحيطة بالكعبة فإذا وصلوا عند المنبر، مروا تحت هذا الجسر ليموا طوافهم.

مع العلم بأنهم قد أنزلوا ثوب الكعبة من فوقها و طووه و جعلوه أسفل المطاف، أى تحت الشاذروان حتى لا يتلف و لا يتسخ، فلما انتهت عمارة الكعبة جعلوه عليها. و لقد تكلمنا عن ستر الكعبة بالأخشاب حين عمارتها مفصلا تفصيلا تاما في مبحث آخر فراجع إن شئت.

فتح الكعبة لأخذ القياسات

ثم إنه في صباح يوم السبت المذكور فتح سدنة الكعبة المشرفة بابها لأخذ قياس باطنها من جميع الجهات على الوجه المطلوب

بواسطة المهندسين المصريين المنتدبين للعمل في الكعبة، فتشرف بالدخول فيها الشيخ محمد بن لادن مدير الإنشاءات العامة، و الشيخ محمد صالح باخظمة المدير المساعد لمكتب مشروع توسعة المسجد الحرام، و الشيخ عبد الله بن سعيد مدير العمل و العمال بالمكتب المذكور، و الشيخ عبد القادر نائب الحرم و كيل مدير إدارة الحرم، و مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر بن عبد القادر الكردي عضو اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام و اثنان من المهندسين المصريين فقط.

فبعد صلاة ركعتين فيها و التضلع إلى الله سبحانه و تعالى، قاموا بالنظر إلى المواضع التي تحتاج إلى الإصلاح و الترميم، و أخذ قياس باطنها من جميع جهاتها الداخلية، و قياس بابها و ما بين الأعمدة الثلاثة التي وضعها عبد الله بن الزبير رضى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٨٦

الله تعالى عنهما و غير ذلك، فلما أتموا عملهم بأدب و احترام لائقين ببيت الله الحرام، خرجوا منه لأخذ الاستعداد للإصلاح و التعمير، و لقد انتظروا إلى ما بعد النصف من رجب بعد أن أحضروا الأخشاب و الأعواد و البطحاء و النورة و جميع الأدوات و الآلات اللازمة للبناء و التعمير فوضعوها في المسجد الحرام، ثم بدؤوا في العمل و التعمير كما سيأتي بيانه.

و رب سائل يقول: ما سبب تأخير العمل في الكعبة المشرفة إلى هذا الوقت و قد صدر الأمر الملكي بالتعمير من شهر محرم من السنة المذكورة فنقول: سبب التأخير كان انتظارا لبرودة الجو و اعتدال الهواء و دخول فصل الشتاء، أما في الأشهر الأولى للعام الهجرى المذكور فالحر عندنا شديد لا يمكن معه عمارة سقفي الكعبة و ليس هناك ساتر يقي العمال من الشمس. و إليك وصف العمارة المذكورة مع العلم بأن العمل كان في الكعبة المشرفة من المغرب إلى بعد نصف الليل، و لقد مدوا فوق الأخشاب التي تستر سطح الكعبة المشرفة عن أعين الناس أسلاك الكهرباء، ثم علقوا فوقها المصابيح الكهربائية للإضاءة ليلا وقت الشغل.

انظر: صورة رقم ٩٥، الكعبة محاطة بالخشب لتجديد سقفها

البدء في تجديد السقف الأعلى ل كعبة

فلما كان ضحى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رجب من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية، ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين الموافق للثامن عشر أيضا من شهر الدلو سنة (١٣٣٦) ألف و ثلاثمائة و ست و ثلاثين شمسية، و الموافق للسابع من شهر فبراير سنة (١٩٥٨) ألف و تسعمائة و ثمان و خمسين ميلادية، حضر إلى المسجد الحرام ولى عهد المملكة العربية السعودية صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود - جلاله الملك حاليا-، نيابة عن أخيه الملك السابق سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن و قد كان غائبا في مدينة الرياض و لم يستطع الحضور بنفسه لمرض ألم به و كان برفقه سمو الأمير فيصل و سمو الأمير الحسن بن محمد الخامس ولى عهد المملكة المغربية، يحف بهما الأمراء و العلماء و الوزراء، و بعد أن تشرف الجميع بدخول بيت الله الحرام و الصلاة و الدعاء في جوفه، صعدوا من السقالة الخشبية إلى سطح البيت الحرام، و ذلك في الساعة الرابعة العربية من صباح يوم الجمعة المذكورة أى قبل الصلاة بنحو ساعتين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٨٧

و كان في استقبال سموه على سطح الكعبة المشرفة الشيخ محمد بن لادن (بكسر الدال) المعجزة و سكون النون مدير الإنشاءات العمومية، و الشيخ محمد صالح القزاز مدير مكتب مشروع التوسعة، و الشيخ محمد صالح بن عبد الله باخظمة "بضم فسكون" المدير المساعد للمكتب المذكور، و الشيخ عبد الله بن سعيد مدير العمل و العمال بالمكتب المذكور أيضا، و الشيخ محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي "الخطاط" مؤلف هذا التاريخ و هو عضو في اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام، و كثير من الفضلاء الذين حضروا مبكرين.

ثم إن سمو الأمير "فيصل" حفظه الله تعالى و أدام توفيقه أخذ بيده مطرقة فسمى الله تعالى و أثنى عليه و بدأ بهدم جزء قليل من

إفريز سطح الكعبة المشرفة إيذانا ببدء الهدم والإصلاح، فتبعه كافة الحاضرين بالهدم وقلع رخام السطح، وهو يسبحون الله تعالى و يكبرونه و يحمّدونه، و كان مؤلف هذا التاريخ يقرأ جهرا بعض الآيات القرآنية و يردد كثيرا هذه الجملة "اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح و أنت تحب المصلحين".

ثم إن سمو الأمير "فيصل" نزل من سطح الكعبة المعظمة مع حاشيته و من حضر معه، و بقى الناس يرفعون أنقاض الهدم من حجارة و رخام و نورة و خلافها إلى أن قرب وقت صلاة الجمعة فنزل الجميع استعدادا للصلاة ثم عاودوا العمل من بعد صلاة العصر إلى قبيل المغرب و هم في حالة التسييح و التكبير و التهليل، و قد تشرف مؤلف هذا الكتاب بالعمل مع الناس في رفع أنقاض السطح نسأل الله القبول و العفو و العافية و الستر في الدارين بفضلته و رحمته.

هذا و لقد حضر إلى سطح الكعبة المعظمة مندوب دائرة الإذاعة العربية السعودية تلميذنا الفاضل النقيب الأستاذ عباس فائق الغزاوي، لتسجيل تسييح الناس و تهليلهم حين العمل، و تسجيل مشاعرهم و فرحهم بعمارة بيت الله الحرام التي لا تقع إلا نادرا بعد مئات السنين، فسجل مندوب الإذاعة شيئا من كلمات بعض الفضلاء من فوق سطح الكعبة المشرفة، و قد سجل المذكور لمؤلف هذا الكتاب محمد طاهر بن عبد القادر الكردي كلمته التي ارتجلها على السطح إجابة على سؤاله هذا "ما هو تاريخ الإصلاحات التي أدخلت على الكعبة الشريفة؟"

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٨٨

فأجابه إجابة مختصرة لأن الوقت لا يتسع للتطويل و صلاة الجمعة في انتظارنا، فأذاع عنا هذه الجملة الآتية:

لقد حصلت إصلاحات كثيرة في بناية الكعبة المشرفة منذ بنائها الأول في عهد خليل الله "إبراهيم" عليه الصلاة و السلام، لأنها من بناء البشر و عمل الإنسان، و هذا معرض للخراب و قابل للإصلاح، فلو أراد الله عز شأنه ألا تمتد إليها أيدي البشر لخلقها قطعة واحدة من الجوهر فلهذا فإنه كلما حصل في الكعبة شيء من الخراب كما هو العادة في البنايات بادر الخلفاء و السلاطين و الملوك و ذوا الشأن في إصلاحه قبل أن يتفاقم، فإذا احتاج الأمر إلى تجديد بنائها كلها بادروا إلى ذلك، و أجروا الإصلاحات و العمارات بأنفسهم بكل أدب و احترام.

و لقد بنيت الكعبة المشرفة إحدى عشرة مرة، فأول من بناها على الأشهر خليل الله "إبراهيم" عليه الصلاة و السلام منذ أربعة آلاف سنة تقريبا، و آخر من بناها السلطان مراد خان الرابع رحمه الله تعالى، بعد أن هدمها السيل العظيم الذي دخل المسجد الحرام، و كان ذلك سنة ألف و أربعين من الهجرة، و هي هذه البناية الموجودة الآن، ثم حصلت بعده إصلاحات و ترميمات متعددة.

و أما إصلاحها في هذا اليوم المبارك و في هذه اللحظة اللطيفة، فإنه لتغيير سقفها الأعلى و بعض ما يحتاج إلى الإصلاح من الداخل و الخارج، و ذلك بحضور سمو الأمير فيصل ولي العهد المعظم و رئيس مجلس الوزراء، و بصحبته ضيفه الكريم سمو الأمير الحسن بن محمد نجل جلالة ملك المغرب، و بوجود بعض الشخصيات البارزة و الجمهور الكريم و وجود المشرف العام على مشروع توسعة المسجد الحرام و عمارة الكعبة المشرفة، و وجود مدير مكتب التوسعة.

و إن شاء الله تعالى عما قريب سنطبع الكتاب الذي شرعنا في تأليفه عن تاريخ بلد الله الأمين و بيته المطهر و توسعة المسجد الحرام، و سينشر هذا الكتاب بحول الله تعالى في أنحاء العالم الإسلامي، ليقفوا على الحقيقة التامة و المعلومات الصحيحة الوافية، نسأل الله تعالى القبول و الرضا و الفوز بالجنة و النجاة من النار بفضلته و رحمته.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، و تب علينا إنك أنت التواب الرحيم، و صلى الله على سيدنا "محمد" و على آله و صحبه و سلم.

انتهت إجابتنا على سؤال مندوب الإذاعة السعودية.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٨٩

و لقد كان الشغل ليلا و نهارا في الكعبة المشرفة منذ ابتداء العمارة فيها إلى انتهائها من داخلها و خارجها، و ذلك حتى انتهوا من العمل سريعا، و لهذا فقد مدوا أسلاك الكهرباء على سطح الكعبة و علقوا عليها المصابيح الكهربائية للإنارة على العمال في الليل، و بعد الانتهاء من العمارة من خارج الكعبة المشرفة و عند إرادة العمل في جوفها أدخلوا المصابيح الكهربائية أيضا في داخلها للإنارة على العمال ليلا و نهارا، لأنه ليس في الكعبة المعظمة منافذ لدخول الضوء غير بابها، و النور الذي يدخل من الباب لا يكفي لإنارة جميع الجهات في باطنها، لذلك كان العمال الذين يشتغلون في داخلها في حاجة شديدة لإيقاد المصابيح الكهربائية ليلا و نهارا. و هذه هي أول مرة توضع المصابيح الكهربائية في الكعبة المشرفة في التاريخ. و بعد انتهاء العمارة رفعت جميع المصابيح من الكعبة بتاتا لعدم الحاجة إليها، فإن الكعبة المعظمة لا تفتح ليلا مطلقا إلا للضرورة القصوى جدا و هي نادرة الوقوع، أما إذا فتحت في طرفي النهار فإن الضوء الذي يدخل من بابها يكفي الناس الذين يدخلونها للصلاة و الدعاء و التضرع.

و في ليلة السبت التاسع عشر من شهر رجب من السنة المذكورة اشتغل الناس أيضا إلى نصف الليل في رفع أنقاض السقف الأعلى، حتى لم يبق شيء و كشف السقف كشفا تاما، و كانت الحجارة و النورة و الأخشاب القديمة التي تخرج من السقف ترمى في داخل حجر إسماعيل تحت الميزاب و هذه الجهة كما قلنا محاطة أيضا بالأخشاب لستر العمل عن أعين الناس.

و قد جرى رفع الأنقاض و كشف السقف في وقت قصير و بغاية السرعة لأن العمل كان من كافة الناس من أهل مكة و فضلائها و غيرهم ممن كان موجودا بها من جميع الأجناس، فكانوا جميعا يشتغلون في بيت الله الحرام بغاية الفرح و السرور و هم يسبحون الله تعالى و يذكرونه، و يحمدهونه على ما أنعم عليهم من خدمة بيته المطهر، فلو كان الشغل من جانب العمال فقط الذين يأخذون أجرا يوميا على عملهم لما انتهى العمل بهذه السرعة.

ثم في صباح يوم السبت المذكور ابتدؤوا في تركيب الميدات على الحيطان الأربعة في كل جانب ميده واحدة، و عملوا في تنظيف الأمكنة و الجدران، و باشر المهندسون في عمل وزن السقف بآلة هندسية خاصة لتكون جهة ميزاب الكعبة المشرفة مائلة و منخفضة قليلا عن الجهات الأخرى لنزول مياه الأمطار و سيلانها

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٩٠

من الميزاب إلى حجر إسماعيل عليه الصلاة و السلام، و قد عملوا الترتيبات اللازمة لتركيب أعواد السقف، و قد اشتغلوا في هذا العمل لغاية منتصف ليلة الأحد، و قد أحضروا جميع هذه الأعواد الطوال الغلاظ من مدينة جدة.

ثم في صباح يوم الأحد عشرين رجب من السنة المذكورة ابتدؤوا في تركيب أعواد السقف، و قرب المغرب انتهوا من تركيبها، ثم ابتدؤوا في ربط الأعواد بجدران الكعبة بالحجر و النورة البلديّة.

و عدد أعواد هذا السقف أحد و عشرون عودا غليظة قوية، رؤوسها في الجدار الشرقي و في الجدار الغربي، و عودان آخران وضع عود تحت رؤوس هذه الأعواد في الجدار الشرقي، و عود وضع تحت رؤوسها الأخرى في الجدار الغربي، و بهذين العودين يكون جميع أعواد هذا السقف ثلاثة و عشرون عودا، طول كل واحدة من هذه الأعواد عشرة أمتار و أربعين سنتيمترا و بعضها عشرة أمتار و عشرة سنتيمترا، بما في ذلك الركوز على الجدران، و تحت هذه الأعواد في الوسط كمرتان منفصلتان رأساهما في الجدار الشمالي و في الجدار الجنوبي، الكمرة الأولى لحمل السقف الأعلى و الكمرة الثانية لحمل السقف الأسفل، طول كل واحدة من الكمرتين اثنا عشر مترا و عشرين سنتيمترا، بما في ذلك مقدار الركوز و الركوب على الجدار.

أو بعبارة أخرى يفهمها المعلمون في البناء نقول: إن حامل السقف من الوسط هو حمال رئيسي من الخشب المسمى "دوجلس"، يضم الدال الممدودة و سكون الجيم عرض (٢٦ * ٢٦) و محمل بالدكم على العمدان الأصلية الوسطى، و تحته فرش مثله على العمدان الراسية.

هذه العبارة كتبناها عن لسان المعلمين المصريين الذين اشتغلوا في بناء الكعبة المشرفة.

و في ليلة الاثنين الحادى و العشرين من رجب من السنة المذكورة فرشوا فوق أعواد السقف ألواح الخشب الطويلة التى سمك الواحدة منها بوصتان، و قد تم فى هذه الليلة تطبيق جميع هذه الألواح الخشبية فوق الأعواد على أحسن ما يرام. ثم بدأوا فى صباح هذا اليوم ببناء الحائط القصير المحيط بالسطح، و يسمى "بالإفريز" كما يسمى أيضا "بالطنف" و هو يرتفع عن رخام السطح بنحو ثمانين سنتيمترا، و قد أحكموا بناءه إحكاما جيدا بالإسمنت و النورة البلدية و الحجارات، التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٩١

و قد تشرف أيضا بالبناء فى هذا المحل محمد طاهر بن عبد القادر الكردى مؤلف هذا التاريخ مع ولده "عبد الرحمن الكردى" أنبته الله نباتا حسنا و أسعده فى الدنيا و الآخرة بفضلته و رحمته، كما بدأوا أيضا فى صباح هذا اليوم بتثقيب جدران الكعبة المشرفة بعمال آخرين كما سنفصل ذلك إن شاء الله تعالى قريبا.

و فى ليلة الثلاثاء الثانى و العشرين من شهر رجب من السنة المذكورة، أتموا بناء الحائط القصير المحيط بالسطح المسمى "بالإفريز" و أحكموا بناءه تماما.

ثم بدأوا فى صباح هذا اليوم بأخذ الاستعداد اللازم لتجديد السقف الثانى للكعبة المقابل لأرضها كما سيأتى تفصيله. لذلك فإنهم لم يشتغلوا فى السقف الأعلى "أى السطح" فى هذا اليوم الذى هو يوم الثلاثاء الثانى و العشرين من رجب، و لا فى يوم الأربعاء و لا فى يوم الخميس أيضا.

و كان بناء الحائط الدائر بالسطح المسمى "بالطنف" و "بالإفريز" بالطوب الأحمر "الآجر" الذى أتوا به من مصنع العاقول بالمدينة المنورة، و هو مصنع عظيم مجهز بالآلات الميكانيكية و الأدوات الحديثة، يخرج القوالب الطوب الممتازة الجيدة القوية، فبنوا هذا الإفريز من هذا الطوب و الآجر الممتاز بالنورة البلدية و الإسمنت، و قد وضعوا هذا الطوب مرصوصة بجانب بعض، لكن بين كل طوبة و طوبة فجوة صغيرة حشوها بالنورة.

و طول الواحدة من هذا الآجر ٢٢ سنتيمترا، و عرضها ١١ سنتيمترا، و سمكها ٦ سنتيمترات.

و لا ندرى بالضبط كم وضعوا من هذا الطوب "الآجر" فى إفريز السطح، و نعتقد أنه لا يزيد عن خمسمائة طوبة، و فى غرة شعبان وضعوا أسفل هذا الإفريز الرخامات كما سيأتى بيانه.

استبدال المرايع الخشبية التى بسطح الكعبة بالحديد

كانت كسوة الكعبة المشرفة الخارجية تربط بأعلى سطحها فى مرايع خشبية عددها أربعة، فى كل جهة من السطح خشبة واحدة مثبتة فى طنف السطح، أى فى الإفريز، و المرايع هى أربعة أعواد مربعة الشكل طول كل منها بطول السطح التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٩٢

فالكسوة تربط على هذه الأعواد ثم تسدل على الكعبة. هذه هى العادة فى ربط الكسوة من قديم الزمان.

فلما كانت عمارة سقفى الكعبة فى العهد السعودى استبدلت هذه المرايع الخشبية القديمة التى بسطح الكعبة بأسياخ حديدية قوية، و كيفية ذلك كما يأتى:

أنهم لما بدأوا فى صباح يوم الاثنين الحادى و العشرين من شهر رجب سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، فى بناء الحائط القصير المحيط بسطح الكعبة المشرفة المسمى "بالطنف" كما يسمى أيضا "بالإفريز" وضعوا فى الليلة التالية و هى ليلة "الثلاثاء" الثانى و العشرين من رجب، الأسياخ الحديدية لتعليق أستار الكعبة عليها بدلا عن المرايع الخشبية التى كانت تستعمل لهذا الغرض، و عدد هذه الأسياخ ثمانى قطع، فى كل جهة من الجهات الأربعة للسطح قطعان من الأسياخ، قد غرز طرفا كل واحدة منهما فى باطن الإفريز حتى خرجا من الجهة الأخرى و عكفا عليها، و محيط كل قطعة من هذه الأسياخ الثمانية ١٠ سنتيمترات، و زيادة فى

تقوية هذه الأسياخ ربطوها بقطع من الأسياخ الصغيرة تسمى "كانات"، أي حاملات، قياس (١٤ ملي) و عدد هذه الكانات ثمانية و أربعون قطعة، كل قطعة مغروزة في جدار الإفريز تحمل الأسياخ الثخينة و ممسكة لها حتى لا تنتهي من ثقل الكسوة ثم في يوم الجمعة الخامس و العشرين من شهر رجب من السنة المذكورة و هي سنة (١٣٧٧) هجرية، دهنوا أولا، ألواح خشب السطح بالبوية الحمراء الممزوجة بالسلفون الذي يمنع وصول الأرضة و السوس للخشب، ثم فرشوا فوق البوية الحمراء قماش القلع "بكسر القاف و سكون اللام" المسمى "بالمشمع" و لونه أخضر و هو قماش يعمل منه الخيام لمتانته و قوته، فرشوا هذا القماش على جميع السطح من فوق ألواح الخشب، ثم فرشوا فوق هذا القماش طبعه من الجبس الأبيض، ثم وضعوا فوق الجبس الأبيض طبقة واحدة من قوالب الطوب الأحمر القوى و هو "الآجر" و قد أحضروه من مصنع العاقول الذي يبعد عن المدينة المنورة بنحو نصف ساعة أو أقل بالسيارة، و قد أنشئ هذا المصنع من بضعة أعوام.

ثم في يوم السبت السادس و العشرين من شهر رجب من السنة المذكورة، وضعوا فوق قوالب الطوب أي الآجر الخلطة و هي الطين المخلوطة بالنورة البلدية الممتازة بصفه محكمة و قاعدة هندسية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٩٣

ثم في يوم الأحد السابع و العشرين من شهر رجب من السنة المذكورة فرشوا فوق هذه الخلطة حجارة الرخام أي المرمر الأبيض الممتاز، و قد انتهوا من فرش الرخام على السطح ليلة الثلاثاء التاسع و العشرين من رجب من السنة المذكورة.

وضع الرخام على سطح الكعبة

قلنا أنهم وضعوا في يوم الأحد السابع و العشرين من شهر رجب من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية حجارات الرخام أي المرمر الأبيض فوق سطح الكعبة المشرفة، و نذكر هنا الآن صنع هذه الرخامات و عددها و هي كما يلي:

فرش سطح الكعبة المعظمه بنفس الرخام الأبيض الذي كان عليه سابقا، و ذلك بعد تنظيفه و إصلاح أطرافه لكن بعضهم أخذ من هذه الرخامات القديمة شيئا للتبرك فنقص بذلك رخام السطح، لهذا فإنهم بعد وضعهم الرخام القديم فوق السطح ثانيا وضعوا رخاما جديدا بدلا عما نقص منه.

و عدد رخامات السطح القديمة و الجديدة هو (٢٢٤) مائتان و أربعة و عشرون رخامة، و هذا غير رخامات إفريز السطح التي سيأتي بيانها، و جميع رخامات السطح مربعة الشكل، ما عدا أربعة و أربعين رخامة فمستطيلة و هي التي تحيط بالمربعات في أواخر السطح، و الرخامات المربعة طول بعضها (٦٦) سنتيمترا في عرض (٥٦) سنتيمترا، و طول بعضها (٧١) سنتيمترا في عرض ٦٠ سنتيمترا. فيكون عدد جميع رخامات السطح ما بين صغير و كبير، مع جميع رخامات إفريز السطح التي سيأتي بيانها هو (٢٨٢) مائتان و اثنتان و ثمانون رخامة.

صب الرصاص بين رخام سطح الكعبة

ثم في يوم الاثنين الثامن و العشرين من رجب من السنة المذكورة، ابتدؤوا يشتغلون في صب الرصاص بين فجوات رخام السطح لشدة الاستمساك و الثبوت، مع اشتغالهم أيضا في جهات أخرى من السطح فأحضروا جميع الأدوات اللازمة لصب الرصاص فوق سطح الكعبة المشرفة، و أوقدوا "دافور الكاز" فلما اشتغل وضعوا فوقه الإناء الذي بداخله قطع الرصاص النظيف، فلما ذاب الرصاص صاروا يأخذون منه في وعاء خاص شيئا فشيئا و يصبونه بحذر و عناية في

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٩٤

أطراف الرخامات، أي في الفجوات التي تركوها بينها لصب الرصاص، و لا بد أن تكون هذه الفجوات بين الرخام ناشفة يابسة ليس

بها رطوبة الماء، لأن الرصاص المذاب إذا وصل إليه شيء من الماء يتطاير فيحدث لمن حوله أضرارا بليغة من الحروق. وقد أحكموا صب الرصاص بين رخامات سطح الكعبة إحصاءاً تاماً لئلا تتسرب مياه الأمطار إلى باطنها، وكان صب الرصاص بواسطة المعلمين من أهل مكة.

وضع الرخام في طنف السطح

ثم في ليلة الأربعاء الأول من شهر شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية، ابتدؤوا في وضع الرخام في أسفل الإفريز المحيط بالسطح، أي أنهم وضعوا هذا الرخام ملصقا برخام السطح مرتفعا عنه على جدار الإفريز "الطنف" بمقدار خمسة وعشرين سنتيمترا في الجهات الأربعة، ثم من فوق هذه الرخامات إلى أعلى الطنف "الإفريز" عملوه بالنورة. وقد قلنا فيما تقدم أن هذا الإفريز قد بنى بالطوب الأحمر "الآجر" قبل وضع هذه الرخامات عليه، فالذي عملوه في غرة شعبان هو وضع هذا الرخام في أسفله فقط، لجمال منظر رخام السطح من جميع جهاته. وعدد الرخامات الموضوعه على إفريز السطح "الطنف" فقط من الجهات الأربعة هو (٥٨) ثمانية وخمسون رخامة وهذه الرخامات كلها مستطيلة الشكل، و طول بعضها (٥٦) سنتيمترا، وبعضها (٦٠) سنتيمترا، وبعضها (٧٠) سنتيمترا. أما عرضها فلا يختلف مطلقا فكلها متساوية العرض ومقداره (٢٥) سنتيمترا. فإذا جمعنا عدد رخامات هذا الإفريز مع عدد رخامات نفس السطح التي تقدم الكلام عنها، كان مجموع الرخامات فوق سطح الكعبة هو (٢٨٢) مائتان واثنان وثمانون رخامة. التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٩٥

إصلاح فتحة باب الدرج الذي بالسطح

ثم عندما فرشوا ألواح الخشب فوق أعواد السطح الأعلى في يوم الاثنين الحادي والعشرين من رجب من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية، أصلحوا فتحة باب الدرج الذي بأعلى السطح، أصلحوها من نفس خشب الكعبة القديم الصالح الذي لم يطرأ عليه السوس والأرضة، وفتحة الباب واقعه في الركن الشامي من السطح أي فوق الدرج الذي يبطن الكعبة تماما، تبعد عن الجدار الشرقي بمر واحد، وعن الجدار الشامي الذي فيه الميزاب بعشرين سنتيمترا. و أبدلوا غطاء هذه الفتحة القديم بغطاء من الخشب السميك، وجعلوا عليه تليسة جديدة من المعدن، و طول هذا الغطاء (١٨٥) مائة وخمسة وثمانون سنتيمترا وعرضه (١١٠) مائة وعشرة سنتيمترات، أما طول نفس فتحة الدرجة فهو (١٢٧) مائة وسبعة وعشرون سنتيمترا، و عرضها (١٠٤) مائة وأربعة سنتيمترات، أي أن قياس الغطاء أكبر من نفس الفتحة وهذا هو المعقول، حتى لا تجد المياه منفذا لتسربها إلى باطن الكعبة. فإذا أقفلت فتحة الدرج بهذا الغطاء فلا تنزل من مياه الأمطار إلى جوف الكعبة قطرة واحدة.

تجديد السقف الثاني للكعبة مما يلي الأرض

و في صبح يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر رجب سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، فتح سدنة الكعبة بابها، فأدخل العمال في جوفها الأعواد الطوال لتركيبتها بعضها ببعض، أي لعمل السقايل حتى تصل من أرض الكعبة إلى السقف الخشبي، أي السقف الثاني المقابل لأرض الكعبة، وذلك لإصلاح ما عطب و تآكل من أخشابه، بعد أن رفعوا قناديل الكعبة المعلقة، و بعد أن رفعوا ستارها الداخلية الحمراء.

ثم فى يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة نظروا إلى أخشاب هذا السقف فوجدوها كلها تالفة تحتاج إلى تغييرها واستبدالها بأخشاب جديدة قوية، أما أعواد هذا السقف التى تحمل هذه الأخشاب و عددها ثلاثة أعواد، فقد وجدوها صالحة جيدة ما عدا العود الثانى الذى بالوسط فقد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٩٦

كان مكسورا، فأخرجوا هذا العود المكسور بعد أن نشره بالمنشار إلى ثلاث قطع، ثم استبدلوا هذا العود بعود مثله، قوى غليظ فوضعوا مكانه، و العودان الآخران القديمان بقيا على حالهما لم يغيرا مطلقا لقوتهما وصلابتهما.

و هذه الأعواد الثلاثة كلها قوية صلبة و غليظة جدا، طول كل واحدة منها عشرة أمتار و خمسة عشر سنتيمترا، و قطر كل منها أربعين سنتيمترا، و تمتد رؤوس هذه الأعواد الثلاثة من الجدار الشرقى للكعبة إلى الجدار الغربى، أى كامتداد رؤوس أعواد السقف الأول. و فى صباح يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة قاموا بكنس داخل الكعبة المشرفة و تنظيفها و إخراج ما تساقط فيها من الأخشاب القديمة و المسامير و الأحجار و الأتربة، و رموا كل ذلك فى داخل حجر إسماعيل عليه السلام فى جهة الميزاب.

ثم بعد تركيب العود الجديد الذى وضع فى مكان العود المكسور، قاموا بتطبيق ألواح الخشب الجديدة المتينة فوق هذه الأعواد الثلاثة و سمروها عليها بعد مسحها و تنظيفها حتى صارت ناعمة، و سمك كل لوحة من هذه الأخشاب الجديدة بوصة واحدة أو بوصتان (نحن نشك فى ذلك) و لم يوضع فوق هذه الأخشاب شىء من الطين أو الرخام غير أنهم ضربوه بالبوية الزيتية كما سيأتى تفصيله إن شاء الله تعالى. و بهذا ينتهى تجديد هذا السقف الثانى، و انتهاء العمل فيه كان فى ليلة الجمعة الخامس والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة، و لهذا السقف بابان صغيران، أحدهما من الجهة الشرقية و ثانيهما من الجهة الجنوبية، يتوصل إليهما من باطن درج الكعبة الداخلية.

و السبب فى عدم وضع طين أو حجر أو رخام فوق خشب هذا السقف، هو عدم الاحتياج إلى ذلك لأنه ليس سطحها للبيت الحرام، فسطحه هو السقف الأول الذى يلي السماء، فلا تدخل مياه الأمطار إلى هذا السقف الثانى، فالسطح هو الذى يتلقى المياه، و إنما عملوا هذا السقف محافظة على الوضع القديم منذ صدر الإسلام من وجود سقفين للكعبة مع العلم بأنه لا يوضع فى هذا السقف شىء أبدا. و الله تعالى وحده الذى يعلم حكمه حدوث هذا السقف الثانى، فهو علام الغيوب لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٩٧

دهن ما بين السقف بالبوية

ثم ابتدؤوا فى يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة فى دهن ما بين السقفين أى على الأعواد و الأخشاب بالقطران الأسود لحفظها من السوس و الأرضة، و بعد الانتهاء من ذلك تركوه حتى يجمد القطران و ينشف. ثم فى اليوم السادس من شهر شعبان من السنة المذكورة، دهنوا من بين السقفين خشب السقف العلوى بالبوية البيضاء.

تنقيـل جدران الكعبة من الخارج

لم يحصل و لله الحمد تصدع و تشقق فى جدران الكعبة المشرفة مطلقا لا من الخارج و لا من الداخل، و إنما الذى حصل هو و هن فى النورة التى بين حجاراتها من خارجها، فظهر بينها مفاجأة بعرض الإصبع، و هذا هو الذى يحتاج إلى التنقيـل و هو إصلاح ما بينها و ملئها بالنورة و الجص، و أما ما حصل من داخل الكعبة فهو و هن أيضا فى بعض الرخامات المكسوة بها الجدران، و هذا أيضا يحتاج إلى إصلاح و ترميم، خصوصا ما حدث الآن عند تعمير السقفين من الخدوشات.

و أما السقفان "الأعلى و الأدنى" فقد تصدعا و ظهر فيهما التلف و التآكل و الحمد لله الذى هدانا لتجديدهما تجديدا تاما كاملا. أما نفس جدران الكعبة المعظمة فقوية و متينة و ضخمة البناء و لله الحمد، و نعتقد أنها تمكث سليمة صحيحة كما هي عليه الآن نحو ألف عام، و كيف لا تكون كذلك و عرض بنائها، أى "سمك جدرانها" متر واحد، و حجاراتها من الصخور الصماء القوية، يبلغ طول بعضها مترين و مترا و ما بين ذلك، و قد بنيت بإخلاص و حسن نية و من المال الحلال مع التكبير و التهليل و التسييح و التقديس.

ففى صباح يوم الاثنين الحادى و العشرين من رجب من السنة المذكورة، باشر المعلمون و العمال فى تنقيح جدران الكعبة من الخارج من جهاتها الأربعة من أعلى السطح إلى الشاذروان بأرض المطاف مع استمرار الشغل و التعمير فى السطح بواسطة عمال آخرين، و التنقيح كلمة عربية. قال فى مختار الصحاح فى مادة "نقل": "و قد نقل ثوبه من باب نصر أى رقعته، و أنقل خفه أى أصلحه، و نقله أيضا تنقيلا. اه. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ٢-٣؛ ص ٣٩٨

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٩٨

و جميع هؤلاء المعلمين و العمال من أهل مكة ليس فيهم غريب مطلقا، لأنهم أعرف من غيرهم بصنعة التنقيح يتقنونه إتقان تاما من سابق العصور، و عددهم تسعة و عشرين شخصا أسماؤهم كما يأتى:

(١) عبد القادر مجلد، (٢) سعيد درويش، (٣) سليمان لبان، (٤) عبد الكريم مجلد، (٥) عبد الشكور خيمي، (٦) إبراهيم مجلد، (٧) محمد حنفى، (٨) عبد السلام خيمي، (٩) معتوق خياط، (١٠) محمود صابر، (١١) جمال فارسى، (١٢) عبد الرحمن على، (١٣) أحمد حريرى، (١٤) سراج بنون، (١٥) عبد الله حريرى، (١٦) محمد عبد الرحمن، (١٧) عبد الجبار منشى، (١٨) محمد رفيع، (١٩) عبد الله أبو عسيده، (٢٠) سعيد تنو، (٢١) عبد المطلب عبد الله، (٢٢) عبد الجليل عصلوب، (٢٣) سليم هبو، (٢٤) عبد الوهاب خيمي، (٢٥) محمد صابور، (٢٦) سليمان حمزة جلال، (٢٧) أحمد مده، (٢٨) يحيى عبد الشكور، (٢٩) حسن إسماعيل.

هؤلاء هم المنقلون المكيون الذين اشتغلوا فى تنقيح جدران الكعبة المطهرة زادها الله تعالى شرفا و تعظيما.

و التنقيح عبارة عن تلمية ما بين حجارات الكعبة المشرفة من الفراغ و الفجوات بمعجون "اللاقونه" أولا ثم يحشونه من الظاهر بالجص و النورة البلدية و الإسمنت.

و اللاقونه هى معجون يصنع من النورة و القطن مخلوطا بزيت السمسم، يدقون الجميع دقا ناعما عدة ساعات حتى يختلط الجميع بعضه ببعض خلطا جيدا، و يمتزج مزجا تاما حتى يصير كالمعجون، فعندئذ يأخذون منه بأصابعهم و يحشون الفراغ و الفجوات التى بين الحجارات، و يضعون أيضا مع اللاقونه غلاظ المسامير لشدة التماسك، و بعد تلمية الفراغات و الفجوات باللاقونه، يضعون عليها معجون الجص و النورة و الإسمنت، ثم يملسونه تلميسا جيدا ناعما حتى يتساوى التنقيح بمستوى الحجارات، بهذه الصفة كانت التنقيح فى جدران الكعبة المشرفة.

و قد وجدنا فى الجدار الشرقى للكعبة الذى فيه الباب ثلاث فتحات دائرية و مثلها فى الجدار المقابل له، قطر دائرة كل فتحة نحو أربعين سنتيمترا، و كل واحدة منها متباعدة عن أختها بنحو مترين، و كلها تبعد عن السطح بمقدار مترين تقريبا، يعنى أن هذه الفتحات موضع رؤوس أعواد السقف الثانى، و كانت هذه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٣٩٩

الفتحات مسدودة بصفائح الرصاص، فعند التنقيح أخرجت هذه الصفائح من الفتحات و سدت بالحجارة و النورة.

هذا و لقد انتهوا من عمل تنقيح جدران الكعبة المشرفة فى يوم الأحد خامس شعبان سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، و كان ابتداء عملهم فيه كما قلنا يوم الاثنين الحادى و العشرين من شهر رجب من السنة المذكورة، و الحمد لله رب العالمين.

ثم بدؤوا في العمل داخل الكعبة المشرفة من الترميم والإصلاح بعد صلاة الجمعة في اليوم الثالث من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية.

و كان قبل ذلك أى عند عمارة السقف الثانى للكعبة قد رفعوا ستارتها الحريية الحمراء التى بداخلها، كما رفعوا جميع القناديل و الطاسات المعلقة فى جوفها محافظة عليها، و كان ذلك فى يوم الاثنين الحادى و العشرين من شهر رجب من السنة المذكورة، بعد أن عملوا فى هذا اليوم أيضا السقايل الخشبية فى جوف الكعبة للصعود عليها وقت الشغل، و هذه السقايل تبدأ من أرض الكعبة إلى أن تصل إلى السقف.

و كان قد عملوا صندوقين كبيرين طول كل منهما مترا واحدا و نصف متر، و عرضه ثمانون سنتيمترا، و ارتفاعه كذلك، عملوا هذين الصندوقين لحفظ قناديل الكعبة و ستارتها الداخلية فيهما، و كان عدد هذه القناديل و الطاسات المعلقة فى جوفها ما بين صغير و كبير نحو ثمانون قنديلا كما عدناها بأنفسنا، على أن هذه القناديل الثمينة لا تسرح و لا تستعمل، و إنما هى هدايا للكعبة تجب المحافظة عليها.

و الشغل فى جوف الكعبة المعظمة يكون فيما يأتى:

(١) إخراج الجبس و النورة القديمة من أعلى جدران الكعبة إلى أسفل ثم إصلاحها.

(٢) إخراج الرخامات المحيطة بجدرانها إلى ارتفاع ثلاثة أمتار و نصف متر ثم وضعها فى أماكنها بعد تنظيفها و إصلاحها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٠٠

(٣) إصلاح المدرج التى بداخل الكعبة الموصلة إلى سطحها من أن تخرج درجة واحدة عن موضعها.

(٤) إصلاح عتبة الكعبة من داخلها مع الباب.

هذه هى الأعمال التى تحتاج إلى الإصلاح و الترميم فى داخل الكعبة المشرفة، مع أنه لم يمس حجارات بناء الكعبة المشرفة بشيء من الترميم و الإصلاح مطلقا، لا من الجدران الخارجية و لا من الجدران الداخلية، لقوة ذات البناء و متانته، فلم يخرج حجر واحد من محله للإصلاح و الترميم.

فبدؤوا بالعمل فى جوف الكعبة المطهرة أولا بإخراج الرخامات التى كسيت بها جدران الكعبة من الجهات الأربعة إلى ارتفاع ثلاثة أمتار و نصف متر و جميع هذه الرخامات منقوشة نقشا خفيفا لا يلهى الناظرين إليها، و غالبا منقوش بشيء من أنواع الثمار، كالعنب و الموز و التين، و بين هذه الرخامات ثمانية رخامات عليها كتابات بينها فى مبحث خاص فراجع إن شئت.

فأخرجوا جميع هذه الرخامات و وضعوها بجهة الركن اليماني لا فى أرض المطاف، و إنما وضعوها فوق الممر الخشبي الدائر بالكعبة من الجهات الأربعة و المرتفع عن أرض المطاف إلى باب الكعبة فى جميع الجهات ليسهل الدخول و الخروج إليها، بل يوجد مثله ثلاث ممرات أو أربعة، كل واحد فوق الآخر إلى علو السطح، عملوا ذلك حينما عملوا السقايل الخشبية من خارج الكعبة جهة حجر إسماعيل عليه الصلاة و السلام الموصلة إلى سطحها، و ذلك فى أوائل شهر رجب سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية كما تقدم بيانه.

ثم بدؤوا بعد إخراج الرخامات التى بجوف الكعبة، فى إخراج الجبس و النورة القديمة، من أعلا جدرانها إلى أسفلها من الجهات الأربع، ثم أدخلوا جميع أدوات العمارة و آلات الشغل فى جوف الكعبة، فقاموا بوضع الرخامات القديمة التى أخرجوها من جدرانها فى نفس أماكنها و محلاتها، و كذلك الرخامات المكتوبة فقد وضعوا كل رخامة منها فى موضعها تماما بدون تغيير، فثبتوا كل ذلك فى الجدران تثبيتا تاما، و قد زادوا رخامة واحدة كبيرة كتبوا عليها تاريخ هذه العمارة و وضعوها فى الجدار الجنوبي الذى هو بين الركنين، و سيأتى إن شاء الله تعالى نص ما كتب على هذه الرخامة عند مبحث الرخامات المكتوبة التى بداخل الكعبة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٠١

كما قاموا بترميم الحيطان، أى الجدران، و تنقيها بالمونة البلدية النظيفة الممتازة بالجبس و النورة، فكانوا يشتغلون بأدب و احترام و إخلاص و صدق نية، تقريبا إلى رب هذا البيت الكريم و رب العرش العظيم، و كانوا فى حالة ذكر و تسبيح و تهليل طول الوقت، لا يتكلمون بكلام الدنيا إلا- ما هو ضرورى بقدر اللزوم و ما هو فى مصلحة العمل، و كان كثير من الفضلاء و الكبراء يحملون أوانى الطين و النورة و الحجارة و الماء بأنفسهم إلى البنائين، و لقد تشرف و سعد إن شاء الله تعالى بخدمة الكعبة المعظمة مؤلف هذا التاريخ، محمد طاهر بن عبد القادر الكردى المكى الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة مع ولده "عبد الرحمن" فاشتغلنا بحمل الحجارة و النورة و بنينا شيئا قليلا فيها على سبيل التبرك بالخدمة، مع التشرف بحضورنا يوما فى الكعبة المشرفة للوقوف على العمل، فالحمد لله الذى وفقنا لهذا و هو تعالى أكرم من أن يردنا خائبين، و لقد انتهى المهم من الأعمال فى داخل الكعبة فى يوم السبت الحادى عشر من شعبان من السنة المذكورة و فى أثناء هذه المدة، أى فى السادس من شعبان من السنة المذكورة، دهنوا خشب السقف الثانى من داخل الكعبة بالبوية السلقون البرتغالى و هم على السقايل الخشبية، و السلقون هو بوية بين الأحمر و الأصفر و الزرنيخى. أما الأشغال الكثيرة فقد دام فيها إلى نهاية شعبان من السنة المذكورة كما سنبين ذلك فيما يأتى.

حضور جلالة الملك السابق سعود إلى الكعبة المشرفة

قلنا أن الأعمال المهمة الكبيرة كوضع الرخامات كلها فى أماكنها و إصلاح جدران الكعبة من داخلها، قد انتهت فى يوم السبت الحادى عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة و هى سنة ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، و لم يبق إلا الأشياء الصغيرة و هى ستنتهى شيئا فشيئا كما سيأتى بيان كل ذلك.

لهذا فقد اعتبروا هذا اليوم هو يوم الانتهاء من عمارة سقفى الكعبة المشرفة و من إصلاح و ترميم باطنها، لذلك فقد حضر جلالة الملك السابق "سعود بن عبد العزيز آل سعود" من الرياض إلى مكة المكرمة و دخل الكعبة المطهرة فى آخر اليوم المذكور قبل المغرب بنصف ساعة للإشراف على وضع آخر حجر من الرخام فى جدار الكعبة المشرفة و هو الحجر الذى نقش فيه اسمه و تاريخ هذه العمارة، و حتى ينظر بنفسه إلى هذه العمارة التى كان هو الأمر بها، و كان مؤلف هذا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٠٢

الكتاب "محمد طاهر بن عبد القادر الكردى المكى" فى مده مكث جلالتة فى الكعبة يهمل و يكبر و يسبح الله تعالى فى ميكرفون الإذاعة السعودية الذى وضعه فى داخل الكعبة عند بابها، فكانت هذه التهليلات و التسيحات تذاع على العالم الإسلامى فى كافة الأرجاء.

ثم إنه بعد صلاة المغرب من ليلة الأحد الثانى عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية قاموا بزيلون الأخشاب و السقايل التى حول الكعبة من الخارج و التى ركبوها عند ابتداء العمل فى تجديد سقفى الكعبة، فاشتغلوا فى إزالتها من بعد صلاة المغرب حتى الفجر فأزالوها كلها من حول الكعبة المشرفة، ما عدا الممر الخشبى الذى يبتدىء من عند المنبر و ينتهى إلى باب الكعبة، مع الطريق الخشبى الممتد أمام باب الكعبة إلى ركن الحجر الأسود، فبقيت الستارة الخشبية فى هذه الجهة فقط، لكن لا إلى سطح الكعبة و إنما إلى علو قامه واحدة، و ذلك لحجب أعين الناس عن إتمام الشغل الباقى داخل الكعبة، فبقيت الكعبة المشرفة مكشوفة بدون ستارة ظاهرة بحجارتها أمام الناس من فجر يوم الأحد إلى وقت الضحى العالى من هذا اليوم، ثم إنه قبل الظهر بساعتين من هذا اليوم ألبسوا الكعبة ثوبها من الخارج حسب العادة، و بهذا يعد العمل فى الكعبة الشريفة منتها تقريبا.

ثم فى صباح يوم الأحد المذكور الثانى عشر من شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية، الذى يعد فيه انتهاء العمل من الكعبة، حضر جلالة الملك "سعود بن عبد العزيز" إلى المسجد الحرام و طاف بالكعبة ثم دخل فيها و صلى ركعتين بعد أن فرش

مؤلف هذا الكتاب سجدته لجلالته ليصلى عليها، و كان معه الأمراء و الوزراء و العلماء و السفراء و الأعيان، و بعد أن صلوا في الكعبة و دعوا و تضرعوا إلى الله تعالى قام جلالة الملك و من بمعيته بتعطير جدران الكعبة المشرفة و قد بدى في وجوههم الفرح و السرور، ثم إن جلالته ألقى كلمة من جوف الكعبة عند بابها بواسطة الإذاعة السعودية، موجهة لشعبه الكريم و العالم الإسلامي يبشرهم فيها بتعمير بيت الله الحرام و الانتهاء منه و هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و على آله و من والاه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٠٣

(أما بعد) فإننا نحمد الله سبحانه و تعالى على ما أنعم به علينا من عمارة بيته الحرام هذا البيت الذي جعله الله مثابة للناس و أمنا، و نسأله القبول و المزيد من فضله و التوفيق، و ندعوه بدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) و نرف هذه البشرية من موقفنا هذا من جوف الكعبة المطهرة إلى عموم المسلمين في مشارق الأرض و مغاربها، و نسأله تعالى أن يهدينا و يلهمنا رشدنا و يتقبل منا، و أن يجمع كلمة المسلمين و العرب على ما يصلح دينهم و دنياهم إنه سميع مجيب.

ثم بعد أن انتهى جلالته من خطابه الكريم من ميكروفون الإذاعة و هو واقف عند باب الكعبة المشرفة من الداخل استأذن من جلالته أحد سدة الكعبة الفضلاء و هو الشيخ طلحة الشيبى في إلقاء كلمة نيابة عن جميع سدة الكعبة بمناسبة الانتهاء من عمارتها، فأذن له جلالته فألقى خطبة قصيرة لطيفة تناسب هذا المقام الكريم.

و بعد ذلك خرج جلالته و من حضر بمعيته من الكعبة المشرفة إلى القصر الملكي العامر بمكة المكرمة، فأمر أن تقام حفلة كبرى بعد ظهر هذا اليوم، و هو يوم الأحد، الثانى عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية، فحضر هذه المأدبة الكبرى جمع كبير من الأمراء و الوزراء و العلماء و السفراء و من وجهاء البلاد و أعيانها، بمناسبة الانتهاء من تعميم الكعبة المشرفة.

ثم أمر جلالته بإقامة مأدبة أخرى في اليوم التالى، و هو يوم الاثنين الثالث عشر من شعبان، خاصة للمعلمين و العمال و البنائين و المباشرين و كل من ساهم في عمارة الكعبة المشرفة و المسجد الحرام، ابتهاجا بتعمير بيت الله الحرام فأقيمت هذه المأدبة بالطابق الثانى من عمارة المسعى، و قد نحروا لهذه المأدبة عشرة من الإبل و ذبحوا خمسين شاة، مع بضعة أكياس من الرز.

ثم أمر جلالته بطبع نشرة صغيرة عن ذكرى عمارة الكعبة المشرفة و انتهائها في اليوم الثانى عشر من شعبان سنة ألف و ثلاثمائة و سبعة و سبعين هجرية، فطبعت هذه النشرة بمطابع دار الأصفهاني و شركاه بجدة، بإشراف مؤلف هذا التاريخ محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط غفر الله تعالى له و لوالديه و لعموم المسلمين آمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٠٤

و لقد حضر جلالة الملك السابق في الكعبة المشرفة قبل وضع كسوتها الداخلية عليها ليرى الشغل في ترميمها و إصلاحها، و لم توضع الكسوة الداخلية الحمراء في سقف الكعبة و جدرانها الداخلية إلا في مساء يوم الثلاثاء الرابع عشر من شعبان من السنة المذكورة و هي سنة "١٣٧٧" هجرية، و انتهوا من وضعها في يوم الأربعاء الخامس عشر من شعبان، بعد أن خاطوا منها ما يحتاج إلى الخياط.

إصلاح ميزاب الكعبة

و في يوم الخميس التاسع من شعبان سنة "١٣٧٧" ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين للهجرة، قاموا بإصلاح ميزاب الكعبة المشرفة الذى عمله السلطان عبد المجيد خان بن السلطان محمود خان أحد سلاطين آل عثمان رحمه الله تعالى، عمله في سنة (١٢٧٣) ألف و مائتين و ثلاث و سبعين هجرية، و هو الميزاب الموجود على الكعبة في عصرنا الحاضر، و من قدمه يرى كأنه جديد و هو متين و قوى للغاية، و هذا الميزاب هو من الذهب الخالص النظيف، مبطن من الداخل بالفضة الخالصة السميكة، يعنى أن الذهب محيط بالفضة من

بطنه و جانبيه، أما علو الميزاب فهو مفتوح لا غطاء عليه، و بين الذهب و الفضة خشب سميكة من جانبيه و بطنه الأسفل، و كل ذلك مسمر بمسامير من الذهب الخالص.

و هذا الميزاب على شكل المستطيل، على وجهه قطعة من الذهب الخالص مدلاة متحركة إلى الأمام و الخلف و تسمى هذه القطعة " باللسان " و تسمى أيضا " بالبرقع " و قياس هذا الميزاب كما يأتي:

طول الميزاب ٢٥٨ سنتيمترا- مائتان و ثمانية و خمسين سنتيمترا- بما هو داخل في جدار الكعبة و عرض بطنه ٢٦ سنتيمترا- ست و عشرون سنتيمترا- و ارتفاع كل من جانبيه ٢٣ سنتيمترا- ثلاثة و عشرون سنتيمترا- و دخوله في جدار السطح ٥٨ سنتيمترا- ثمانية و خمسون سنتيمترا- و المقدار الذي دخل في جدار الكعبة عليه حجر كبير غليظ طوله خمسة أشرار و عرضه شبران- أى طوله متر واحد و عشرون سنتيمترا تقريبا، و عرضه نصف متر تقريبا- و مثبت في الجدار ثبوتا جيدا قويا لا يتزحزح شعرة واحدة مطلقا كأنه جبل راسخ كما جربناه ذلك بأنفسنا، فرحم الله من عمله و من وضعه و من أصلحه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٠٥

و لقد كتب على جوانب الميزاب و لسانه على الذهب تاريخ عمله و تجديده بخط الثلث الجميل البديع ما يأتي:

كتب على لسان الميزاب المعلق بوجهه ما يأتي " بسم الله الرحمن الرحيم " و تحت البسملة كلمة " يا الله. " و كتب على يمين الميزاب ما يأتي " جدد هذا الميزاب المنير لوجه الله الكريم الخبير، سلطان البرين و البحرين، المفتخر بخدمة الحرمين الشريفين، السلطان الغازي عبد المجيد خان بن السلطان الغازي. " ...

و كتب على شمال الميزاب ما يأتي " محمود خان بن السلطان عبد الحميد خان، بعدما و هن الميزاب الذي جدده جده السلطان الأعلى أحمد خان عليه رحمة المنان سنة (١٠٢١) هـ اللهم رب هذا. " ...

و كتب تحت الميزاب ما يأتي " البيت الحرام، أيد ببقاء دولته الإسلام، ما طاف بيتك الأنام، و احفظه من جميع الآلام، بجاه نبينا " محمد " عليه الصلاة و السلام، و هذا التجديد سنة ثلاث و سبعين و مائتين و ألف هجرية. "

هذا ما كتب على الميزاب نقلناه بأنفسنا من الميزاب، في صبح يوم السبت التاسع عشر من رجب سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبعة و سبعين هجرية، و ذلك عند تجديد سقفى الكعبة، و كنا نقف عند الميزاب على الممر الخشبي الذي عمل مع السقايل الخشبية التي حول الكعبة عند ابتداء هذه العمارة، و لو ذلك لما تمكنا من الوقوف على ما كتب على هذا الميزاب، و بهذه الكيفية أيضا أمكن إصلاح هذا الميزاب كما سنبين موضع إصلاحه فيما يأتي:

و هذا الميزاب كما قلنا إنه قوى متين للغاية ليس في ذاته أى خراب، و لكن ما يحتاج فيه للإصلاح هو المسامير التي هي من الفضة الخالصة الواقعة على أطراف الميزاب من الأعلى لمنع جلوس الحمام عليها، فقد اعوجت من طول الزمان فأخرجوها و عملوا مسامير مثلها من الفضة أيضا و وضعوها في محلها الأصلي من الميزاب و أخرجوا أيضا الخشب الذي على قاعدة الميزاب و بطنه، لأنه تلف من طول الزمان و استبدلوه بخشب قوى جديد، و لم يعملوا في الميزاب من الإصلاح شيئا غير ما ذكرناه من استبدال الخشب و المسامير و ذلك في اليوم التاسع من شهر شعبان من السنة المذكورة سنة " ١٣٧٧ " هجرية و الذي قام بإصلاح الميزاب صانع محترم من أهل مكة اسمه الشيخ محمد نشار، أحسن الله إليه و إلينا بوابل نعمه و خيراته، و فضله و إحسانه إنه بعباده لطيف خبير أمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٠٦

إصلاح جانبي جدار باب الكعبة و عتبتها

ثم في ليلة الجمعة السابع عشر من شعبان سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، أخرجوا باب الكعبة أى المصراعين الذين يسميان في عرفنا " بالدرفتين " فأصلحوا الجدار الذي وراءهما، و بعبارة أخرى يفهمها المعلمون أصلحوا أكتاف الباب من

الجانبيين، و جددوا تجليد العتبة العليا التي فوق الباب من داخل الكعبة بخشب من النوع الجيد السميك. كما أخرجوا الأبيات المكتوبة على ألواح من الذهب الخالص و المثبتة على الخشب الذي فوق عتبة الباب العليا من خارج الكعبة، فأصلحوا هذه الألواح الذهبية و سمروها ثانيا في مكانها الأول، و لقد أخذنا لهذه الأبيات صورة فوتوغرافية بعد أن أخرجنا الألواح الذهبية و وضعناها عند منبر المسجد الحرام و بعد أن أخذنا لها الصورة أرجعناها في محلها. ثم في يوم الأحد التاسع عشر من شعبان من السنة المذكورة، عملوا عتبة باب الكعبة السفلية، أى البسطه التي عند مدخل الباب و فرشوها بالرخام الأبيض الذي أخرج من جدار داخل الكعبة، و وضعوا فوق هذا الرخام قضيبين من الحديد على شكل نصف دائرة، لتمشى عليهما عجلتا مصراعى الباب ليسهل فتحهما و قفلهما.

إصلاح درج الكعبة التي في داخلها

و في يوم الأحد التاسع عشر من شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية أصلحوا الدرج إلى داخل الكعبة الموصل إلى سطحها، و هذا الدرج نصفه الأسفل من الرخام أى إلى علو ثلاثة أمتار و نصف متر، ثم ما كان من الدرج بعد هذا فهو من ألواح الخشب السميك الثخين إلى أن تصل إلى السطح. فرموا الدرجات الرخامية بالنورة و الإسمنت، و أصلحوا من الدرجات الخشبية و الساتر الخشبي الذي وراءها ما يحتاج إلى إصلاح، مع العلم بأنهم لم يغيروا درجة واحدة و لم يرفعوا شيئا عن مكانه، لا من الدرجات الرخامية و لا من الدرجات الخشبية، و إنما أصلحوا ما يحتاج إلى إصلاحه فقط لا غير. و نحن قد تكلمنا في مبحث آخر عن هذا الدرج فلا نكرر الكلام هنا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٠٧

دهن أعمدة ابن الزبير التي بجوف الكعبة و وصفها

لقد تكلمنا في مبحث آخر عن الأعمدة الثلاثة التي هي من خشب الساج القوى المتين، و التي وضعها عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما في جوف الكعبة حين عمارته لها ليحمل سقفها، و الباقية في داخلها إلى يومنا هذا. و هنا نتكلم عنها من جهة شكلها و صفتها بالتحقيق التام، حيث رأيناها من أسفلها إلى أعلاها، بواسطة السقايل التي عملت في وقتنا الحاضر لعمارة سقفي الكعبة المشرفة و ترميم باطنها، فوصفنا لها يكون عن مشاهدة بأعيننا و التحقيقات التامة التي عملناها عنها بأنفسنا. فالحمد لله على هذه التوفيقات العظيمة المتتالية علينا من فضله الواسع، كما أننا نتكلم عنها فيما جرى فيها من ترميمها و دهانها و هو كما يأتي:

إنه في يوم السبت الخامس و العشرين من شعبان سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، بدؤوا في تنظيف هذه الأعمدة الثلاثة التي وضعها عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما في داخل الكعبة لحمل السقف، فنظفوها من أعلاها إلى أسفلها، ثم في المواضع المتآكلة و الأخرق الظاهرة فيها، بسبب مرور أكثر من ألف و ثلاثمائة عام عليها، معجون الجبس المختلط بالزيت أو السبيداج يعجن بالزيت المغلى و هو زيت الكتان و يوضع عليه قليل من السلقون لينشف سريعا، ثم يسد به الأخرق و الأشطاب و الفجوات التي على الأخشاب، ثم يسوى بسطح الخشب و يصنفر حتى يكون ناعما في الشكل ثم يدهن بعد ذلك بأى لون كان. ثم إنهم في يوم الأحد السادس و العشرين من شهر شعبان من السنة المذكورة، دهنوا هذه الأعمدة الثلاثة بالبوية الزيتية البنية. هذا ما حصل في هذه الأعمدة الثلاثة المباركة الأثرية القيمة، من دهنها بالبوية بعد معجون السبيداج و لم يكن فيها غير ذلك، و إليك فيما يأتي وصف هذه الأعمدة:

طول هذه الأعمدة الثلاثة التي وضعها عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما في الكعبة هو كما يأتي:

س / متر

٣ / ٧ طول العمود الأول الذى هو مما يلي حجر إسماعيل عليه الصلاة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٠٨

و السلام.

٠ / ٧ طول العمود الثانى بالوسط.

١٢ / ٧ طول العمود الثالث المقابل لباب الكعبة مما يلي الحجر الأسود.

٤٤ / ٠ قطر كل عامود من هذه الأعمدة الثلاثة المذكورة.

مع العلم بأن هذا القياس هو من رخام أرض الكعبة إلى رأس كل عمود، أما مقدار ما هو مغروز على أرض الكعبة فلم نطلع عليه، ربما كانت هذه الأعمدة مغروزة نحو نصف متر أو أقل أو أكثر الله تعالى أعلم به، و تحت أسفل كل عمود من هذه الأعمدة الثلاثة قاعدة مربعة منقوشة ضلعها (٧٥) سنتيمترا، و يوجد على رأس كل عمود من هذه الأعمدة الثلاثة جلبة "بضم الجيم: " من الحديد الثخين، سمك بوصة واحدة في عرض أربع بوصات. و معنى الجلبة في عرفنا الطوق من الحديد، رأينا كل ذلك بأعيننا و قسنا كل ذلك بأنفسنا.

و اعلم بأن فوق كل عمود من هذه الأعمدة الثلاثة تاج من الخشب الجيد، و فوق كل تاج كابولى طوله متران و ٤٠ * ٢٥ سنتى، و الكابولى عبارة عن ألواح من الساج الهندى. و مركب على هذا الكابولى العود الذى تحت الأعواد الثلاثة للسقف الثانى، الذى أحد طرفيه فى الجدار الشمالى جهة حجر إسماعيل، و طرفه الثانى فى الجدار الذى بين الركنين، و هذا العود موضوع فوق الكابولى على صورة الارتكاز لا على صورة الحمل، و قياس التيجان الثلاثة التى على الأعمدة الثلاثة هو كما يأتى:

س / متر

٥٠ / ٠ ارتفاع كل تاج من التيجان الثلاثة.

٥٥ / ٠ عرض أعلى كل تاج.

٤٠ / ٠ عرض أسفل كل تاج.

و هذه التيجان الثلاثة مزخرفة و هى تشبه التيجان الرخامية التى توضع على رؤوس الأعمدة الرخامية التى فى المساجد و غيرها. و لقد استنتجنا من شكل هذه التيجان الخشبية أنها عملت بالهند، أو صنعها العمال الهندود بمكة المكرمة، فى عمارة السلطان مراد الرابع رحمه الله تعالى للكعبة المشرفة سنة (١٠٤٠) ألف و أربعين هجرية. و الله تعالى أعلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٠٩

ثم إنه فى يوم السبت الخامس و العشرين من شهر شوال من السنة المذكورة (١٣٧٧) هجرية، وضعوا على كل عمود من هذه الأعمدة الثلاثة، ثلاثة أطواق من الفضة على قدر القامة فقط، ففى أسفل كل عمود طوق واحد، و فوق ذلك بقليل طوق ثانى، و فوق ذلك بقليل على قدر القامة طوق ثالث، و عرض كل طوق من هذه الأطواق التسعة سبعة سنتيمترات تقريبا، ما عدا الثلاثة الأطواق العليا فعرض كل منهما ضعف ذلك.

فرش أرض الكعبة بالرخام

ثم فى يوم الأحد السادس و العشرين من شهر شعبان المعظم من السنة المذكورة (١٣٧٧) هجرية، فرشوا أرض الكعبة الغراء بالرخام من غير أن يقلعوا من الرخام القديم شيئا، أى فرشوا فى أرضها رخاما جديدا فوق الرخام القديم، فكان ارتفاع الرخام الجديد عن القديم بمقدار خمسة سنتيمترات تقريبا.

و يا ليت أنهم لم يفرشوا رخاما جديدا فوق الرخام القديم لثلاثة أمور:

(الأول): أن الرخام القديم هو من أجود الرخام وبعضها نادر الوجود.

(الثاني): عدم حصول أى خراب فى الرخام القديم، بل إنه قوى و سليم و جميل للغاية.

(الثالث): أن أرض الكعبة من داخلها علت بمقدار خمسة سنتيمترات أو أكثر بسبب فرش الرخام الجديد فوق الرخام القديم، و لكن قد كان ذلك و لا حيلة لنا، و نحن ذكرنا هذا الأمر لتسجيل ما حصل فى تاريخنا هذا.

الانتهاء التام من عمارة الكعبة

فى ليلة الاثنين السابع و العشرين من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، رفعوا الجزء الصغير الباقي من الستارة الخشبية التى تقابل وجه الكعبة من خارجها، فرفعوا فى هذه الليلة هذا الجزء من الستارة الخشبية، بحيث ما جاء الصباح إلا و لم يبق منها شىء مطلقا، لانتهاء العمل من الكعبة المشرفة فلم تبق هناك حاجة للستارة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤١٠

ثم فى صباح يوم الاثنين المذكور، علقوا قناديل الكعبة فى مكانها الأول بين الأعمدة بجوف الكعبة المطهرة، ثم كنسوها و نظفوها من أثر الشغل و العمل و كان مؤلف هذا الكتاب يتشرف بالكنس و التنظيف أيضا. و بذلك انتهى العمل فى الكعبة المشرفة داخلها و خارجها تمام الانتهاء، فلم يبق فيها شىء يحتاج إلى الإصلاح مطلقا، فالحمد لله رب العالمين.

ثم إنه فى يوم الثلاثاء الثامن و العشرين من شعبان من السنة المذكورة، قام سدنة الكعبة المشرفة بغسلها غسلا جيدا بماء زمزم المعطر حسب العادة المتبعة فى كل عام فى مثل هذا اليوم من هذا الشهر و قد تشرف أيضا مؤلف هذا التاريخ محمد طاهر الكردى الخطاط بغسل الكعبة مع الحاضرين، نسأل الله رضاه و عفوه و عافيته. و بهذا انتهينا من كل شىء فى الكعبة المطهرة زادها الله تعالى شرفا و تعظيما و مهابة و تكريما. و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

نقل ما فى حجر إسماعيل من الأحجار و الأتربة و الأخشاب

قلنا فيما تقدم أنهم كانوا يجمعون التراب و الأحجار و الأخشاب القديمة و غيرها، مما يخرج من سقفى الكعبة المشرفة و ما حولها و ما فى داخلها، فى حجر إسماعيل من جهة الميزاب، بعدما كانوا يضعونها فى الزنايل و هى القفاف المعمولة من الخوص، يوضع فيها التراب و الأحجار و نحوها ثم يحمل و يرمى فى مكان ماء، و احتراما للشغل فى الكعبة المطهرة غلفوا كل قفة من ظاهرها بقماش أبيض.

و بعد أن تجمع الشىء الكثير فى حجر إسماعيل مما خرج من الكعبة و قد انتهت عمارتها، نقلوا كل ذلك إلى جهة الصفا موضع السعى أمام درج الصفا و على جانبها الأيمن، فى أربعة مواضع أو ستة، كل موضع بنى على شكل مستطيل أجوف قائم من الأرض إلى السماء فى علو بضعة أمتار، نقلوه بواسطة أكياس من الخيش توضع فيها الأتربة و الأحجار و الأخشاب و النورة و المسامير القديمة التى خرجت من الكعبة فى عمارتها، ثم يصلون بها إلى جهة درج الصفا فيطرحونها فى المواضع المبنية المذكورة، و هذه المواضع ليس لها منافذ إلا من رؤوسها فكانوا يرمونها فيها من رؤوسها.

كل ذلك حرمة لما خرج من الكعبة و لثلاث يفتتن بها العوام، كما كان يفعل الأقدمون ذلك عند عمارة الكعبة المشرفة، كعبد الله بن الزبير حينما وضع ما

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤١١

خرج من الكعبة عند عمارته لها فى باطنها و كبسه فيه، و كذلك السلطان مراد الرابع حينما عمّر الكعبة الغراء وضع ما خرج منها فى

نفس المسجد الحرام في الدكتين اللتين في باب الزيادة.

أسماء المشرفين على العمل و حضورهم يومياً في الكعبة

و مما يجب التنويه عنه ذكر الرجال المشرفين على هذه العمارة و حضورهم يومياً في الكعبة المشرفة ما عدا سدنة الكعبة المشرفة الفضلاء فهؤلاء كانوا يفتحون الكعبة المشرفة يومياً و يجلسون أمام بابها و أسماؤهم كما يأتي:

(١) المعلم الكبير وزير الدولة الشيخ محمد عوض بن لادن، بكسر الدال المهملة، مدير الإنشاءات العمومية.

(٢) سعادة الشيخ عبد الله بن خثلان، أمين العاصمة و نائب رئيس اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام.

(٣) سعادة الشيخ محمد صالح القرزاق، مدير مكتب مشروع توسعة المسجد الحرام.

(٤) سعادة الشيخ عبد الله بن سعيد، عضو اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام، و مدير العمل و العمال بمكتب مشروع التوسعة.

(٥) مؤلف هذا التاريخ، محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط عضو اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام، و مدير قسم التأليف و الآثار التاريخية بمكتب مشروع التوسعة.

هؤلاء كانوا يحضرون يومياً للإشراف على العمارة، و يجلسون أحياناً فوق سطحها إذا كان العمل في السطح، و أحياناً يجلسون في داخل الكعبة أو أمام بابها مع سدنتها الفضلاء إذا كان العمل في داخلها أو حولها.

أما سعادة الشيخ محمد صالح باخطة المدير المساعد لمكتب مشروع التوسعة، فقد كان يحضر إلى الكعبة المشرفة بعض الأحيان، حيث لا يتمكن من الحضور يومياً لكثرة أشغاله بالمكتب المذكور.

و أما الذين يحضرون من أهل مكة و غيرهم من مختلف أجناس العالم الإسلامي، بل و من جميع أطراف المملكة العربية السعودية إلى الكعبة المشرفة في مختلف الأيام و الأوقات، للنظر إلى كيفية العمل فيها، و للتشرف بالخدمة في حمل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤١٢

شئ من الأحجار و الطين و الأخشاب و نحوها و لو زمتنا قصيراً، فهؤلاء كثيرون مدفوعون بالعوامل الدينية و التشرف بالخدمة الذاتية، لهذا البيت الكريم الذي جعله الله مثابة للناس و أمناً، و أطعم أهله من الجوع و آمنهم من الخوف، كما هو في صريح القرآن العظيم و كيف لا يتشوق الناس إلى رؤية عمارة هذا البيت الحرام، الذي يطوفون حولها آناً الليل و أطراف النهار، و يتضرعون عنده إلى رب هذا البيت الكريم و رب العرش العظيم و رب السموات و الأرض، عسى أن يتداركهم بلطفه و رحمته و عفوه و غفرانه و فضله و هو سبحانه و تعالى بعباده لطيف خبير.

فعمارة البيت الحرام لا تقع كل سنة مرة، و لا تقع في العمر مرة، و إنما تقع بعد مئات السنين مرة واحدة، ففوات مشاهدة عمارتها لمن وقعت في زمانه، و هو حاضر بمكة المشرفة، حسرة و أي حسرة.

نسأل الله العلي العظيم الكبير المتعال أن يوفقنا و يقبلنا، و أن يعفو و يغفر لكل من شاهد عمارة بيته و قام بخدمته و لمن حصل له عذر فلم يتمكن من المشاهدة و الخدمة، فإنه تعالى قادر على أن يغفر لجميع المؤمنين و المؤمنات و أن يبدل سيئاتهم حسنات، و أن يعطي كل سائل مسألته من غير أن ينقص من ملكه مثقال ذرة، و كيف يتصور نقصان شئ من ملك من يقول للشئ "كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ و إليه ترجعون."

سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد، يحيى و يميت، و هو على كل شئ قدير. اللهم صل على محمد و على آل محمد و سلم تسليماً كثيراً.

العمال الذين اشتغلوا في عمارة الكعبة

لقد اشتغل في عمارة الكعبة المشرفة بداخلها و سقفيها و جانبها، معلمون و مهندسون و عمال عاديون من كافة الطبقات، و أغلب المهندسين و العمال الفنيين هم من أهل مصر، ثم من أهل مكة خصوصا المنقلون الذين اشتغلوا بتنقيح جدران الكعبة هؤلاء كلهم من أهل مكة، أما العمال العاديون فمن كافة أجناس المسلمين المقيمين بمكة المشرفة منهم من اشتغل بالأجر اليومية و هم الفقراء و منهم من اشتغل احتسابا لله تعالى، كما اشتغل و خدم و لو زمنا يسيرا بعض فضلاء أهل البلاد ابتغاء وجه الله تعالى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤١٣

و الجميع كانوا يشتغلون بأدب و احترام لا يفتقون بيت الله الحرام، و غالبهم لا يشتغل إلا و هو على وضوء كامل و كانوا لا يتكلمون بأمر الدنيا إلا بقدر الحاجة، و أكثرهم يشتغل و هو يسبح الله تعالى و يذكره و يدعو و يستغفره و كانوا في نشوة عظيمة من الفرح و النشاط، و السرور و الإخلاص، و كيف لا و هم في أشرف بقعه و أقدس مكان على وجه الأرض.

"ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، و تب علينا إنك أنت التواب الرحيم، و اعف عنا و اغفر لنا و ارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين."

كلمة ختام

و مما يجب علينا ذكره في هذا المقام التحدث بالطفاف بالله سبحانه و تعالى، و توفيقه التام في عمارة بيته الحرام، و ذلك بأنه لم يحدث و لله الحمد أية حادثة لأحد ممن يشتغل في هذه العمارة الشريفة منذ ابتداء العمل إلى يوم انتهائه، بل إنه لم ينزل في أيام العمل مطر مطلقا على مكة المكرمة، فلو نزل المطر و العمل جار في سقف الكعبة و هو مكشوف لحصل ضرر في الطين و النورة و الشغل الطرى، لكن الله جل جلاله تداركنا بتوفيقه الكبير، و تدارك العمال الذين يشتغلون في الكعبة بالطف و المعونة التامة، حتى انتهى كل شيء على ما يرام و لله الحمد. فالحمد لله على نعمائه العظمى و الطافه الخفية. و إن شاء الله تعالى سندكر هذه البناية مع جميع بنايات الكعبة في منظومة خاصة.

الإذاعة تؤدي واجبها من فوق سطح الكعبة المشرفة

قامت مديرية الإذاعة السعودية بأداء واجبها في نشر أخبار تغيير سقف الكعبة المشرفة أولا فأولا و خطوة خطوة، فأرسلت مندوبا من طرفها إلى المسجد الحرام لإذاعة الأخبار عن مباشرة العمل في تغيير سقف الكعبة، فوصل مندوبها الأستاذ "عباس فائق الغزاوي" فرقى إلى سطح الكعبة و وقف على السقايل الخشبية المحيطة بجوانب الكعبة المشرفة في انتظار حضرة صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم الأمير "فيصل بن عبد العزيز" آنذاك للبدء في تعمير بيت الله الحرام، و قد اجتمع على سطحه الأعلى المهندسون و العمال و بعض الناس من كافة الطبقات من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤١٤

المكيين و غيرهم و من ضمنهم مؤلف هذا الكتاب "محمد طاهر بن عبد القادر الكردي" عفا الله تعالى عنهما. فلما كانت الساعة الرابعة العربية بحسب توقيت مكة المكرمة، الموافقة للساعة التاسعة و النصف الإفريقية، أي قبل صلاة الجمعة بساعتين و نصف ساعة، من اليوم الثامن عشر من شهر رجب سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف هجرية قمرية، و ١٨ من شهر الدلو سنة (١٣٣٦) هجرية شمسية، و ٨ من شهر فبراير سنة (١٩٥٨) ميلادية، حضر صاحب السمو الملكي الأمير "فيصل" المذكور إلى المسجد الحرام، فتشرف بدخول الكعبة المعظمة أولا و صلى فيها ركعتين، ثم صعد إلى سطح الكعبة المطهرة من الخشب المدرج المعمول كالسلالم لصعود الناس و العمال من خارج الكعبة من فوق حجر إسماعيل إلى أعلى الكعبة، فبدأ سموه الكريم بهدم جزء صغير من إفريز سطح الكعبة الشريفة من جهة الركن الغربي بمطرقة في يده و بعد ذلك تتابع الناس بالهدم و قلع رخام السطح.

و كانت الإذاعة السعودية تواصل أخبار العمل، و تسأل كبار الموجودين فوق السطح عن شعورهم فيما يجرى ببيت الله الحرام من التعمير و الإصلاح، فيجيبون و قد أخذتهم نشوة الفرح و العزيمة الصادقة في خدمة البيت الحرام "كلنا نحب الإصلاح و تعمير الخراب الواقع في الكعبة المطهرة قبله عموم المسلمين كافة."

و لقد أظهر التسجيل الذي حصلت عليه الإذاعة أصوات الجمهور من عليه طبقات البلاد، الذين أخذوا يشاركون في الإصلاح بحماس منقطع النظير، و إخلاص عظيم و أدب تام لائق ببيت الله الحرام، و كانوا و هم يشتغلون يرددون كلمتى الشهادة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" و يقرؤون آية: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ و كانوا يقولون "اللهم إنا لا نريد إلا- الإصلاح و إنك تحب المصلحين."

فكان ذلك تسجيلا تاريخيا استغرقت إذاعته ساعة و نصف ساعة من فوق سطح الكعبة المشرفة.

الإذاعة السعودية تسأل مؤلف هذا الكتاب

ثم توجه مندوب الإذاعة الأستاذ عباس فائق الغزاوى إلى مؤلف هذا الكتاب "محمد طاهر الكردي" و هما فوق سطح الكعبة المشرفة فسأله ما يأتى:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤١٥

س: ما هو تاريخ الإصلاحات التى أدخلت على الكعبة المشرفة؟

ج: فأجبنا على سؤاله إجابة مختصرة، لأن الوقت لا يتسع للتطويل و صلاة الجمعة فى انتظارنا، فأذاع عنا هذه الجملة الآتية و هى: لقد حصلت إصلاحات كثيرة فى بناية الكعبة المشرفة منذ بنائها الأول فى عهد خليل الله "إبراهيم" عليه الصلاة و السلام، لأنها من بناء البشر و عمل الإنسان، و هذا معرض للخراب و قابل للإصلاح، فلو أراد الله عز شأنه أن لا تمتد إليها أيدى البشر لخلقها قطعة واحدة من الجوهر.

فعلى ذلك فإنه كلما حصل فى الكعبة شىء من الخراب كما هو العادة فى البنائات، بادر الخلفاء و السلاطين و الملوك و ذوا الشأن فى إصلاحه قبل أن يتفاقم، فإذا احتاج الأمر إلى تجديد بنائها كلها بادروا إلى ذلك، و أجروا الإصلاحات و العمارات بأنفسهم بكل أدب و احترام.

و لقد بنيت الكعبة المشرفة إحدى عشرة مرة، فأول من بناها على الأشهر خليل الله "إبراهيم" عليه الصلاة و السلام منذ أربعة آلاف سنة تقريبا، و آخر من بناها السلطان مراد خان الرابع رحمه الله تعالى بعد أن هدمها السيل العظيم الذى دخل المسجد الحرام و كان ذلك سنة ألف و أربعين من الهجرة، و هى هذه البناية الموجودة الآن، ثم حصلت بعده إصلاحات و ترميمات متعددة.

و أما إصلاحها فى هذا اليوم المبارك و فى هذه اللحظة اللطيفة فإنه لتغيير سقفها الأعلى و بعض ما يحتاج إلى الإصلاح من الداخل، و ذلك بحضور سمو الأمير (فيصل) ولى العهد المعظم و رئيس مجلس الوزراء، و بصحبته ضيفه الكريم سمو الأمير "الحسن بن محمد" نجل جلالة ملك المغرب، و بوجود بعض الشخصيات البارزة و الجمهور الكريم و وجود المشرف العام على مشروع توسعة المسجد الحرام و عمارة الكعبة المشرفة، و وجود مدير مكتب التوسعة.

و إن شاء الله تعالى عما قريب سنطبع الكتاب الذى شرعنا فى تأليفه عن تاريخ بلد الله الأمين و بيته المطهر و توسعة المسجد الحرام، و سينشر هذا الكتاب بحول الله تعالى فى أنحاء العالم الإسلامى ليقفوا على الحقيقة التامة و المعلومات الصحيحة الوافية، نسأل الله تعالى القبول و الرضى و الفوز بالجنة و النجاة من النار بفضل و رحمته.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤١٦

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، و تب علينا إنك أنت التواب الرحيم، و صلى الله على سيدنا "محمد" و على آله و صحبه و

سلم.

انتهت إجابتنا على سؤال مندوب الإذاعة السعودية.

و بهذا تكون الإذاعة السعودية قامت بواجبها لأول مرة في نشر أخبار عمارة الكعبة المقدسة من فوق سطحها، و بهذا يحق لها أن تفتخر على جميع إذاعات العالم و لقد وقعت الإذاعة من سطحها ثلاث مرات:

(١) في صباح يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رجب سنة ألف و ثلاثمائة و سبعة و سبعين هجرية، لمناسبة الابتداء في هدم سقف الكعبة.

(٢) في صباح يوم السبت التاسع عشر من شهر رجب من السنة المذكورة، لمناسبة الابتداء في عمارة السقف.

(٣) في مساء يوم الاثنين الحادي و العشرين من شهر رجب من السنة المذكورة و ذلك قبيل المغرب، لمناسبة إذاعة دعاء عام شامل لجميع المسلمين في أقطار المعمورة، تلاه مؤلف هذا الكتاب "محمد طاهر الكردي" غفر الله له و لوالديه و للمسلمين آمين و طبعا بعد انتهاء هذه العمارة الشريفة لن تتكرر إذاعتها لشيء من الأخبار من فوق سطح الكعبة المعظمة.

اللهم كما قدرت في سابق الأزل بعمارة بيتك المحرم و توسيع المسجد المكرم، فعمر قلوبنا بطاعتك و نور بصائرنا بنور معرفتك، و وسع على أهل بلدك الأمين و سائر بلاد المسلمين، من الرزق الحلال الواسع و الخير العميم، فإنك واسع الفضل و الإحسان يا عزيز يا كريم، و صلى الله على نبينا "محمد" و على آله و صحبه.

دعاء مؤلف هذا الكتاب المذاع من فوق سطح الكعبة

و في يوم الاثنين الحادي و العشرين من شهر رجب سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة رأينا أن ننتهز وجودنا فوق سطح الكعبة المعظمة و وجود العمال و فضلاء أهل البلاد و كلنا نشغل في العمل لتجديد سطحها، أن نتضرع إلى الله الحميد المجيد، و أن ندعوه بدعاء شامل عام لجميع المسلمين، أن يصلح أحوالنا و أن يعم بلاد المسلمين كافة بالخير و الرخاء و الأمن و الأمان، فإن الدعاء إذا صدر من قلب سليم خاشع و في يوم ميمون و وقت مبارك

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤١٧

كان ذلك أدعى للاستجابة، و هل نجد أفضل بقعة من نفس بيت الله الحرام و فوق سطحه المرفوع.

و في يوم الاثنين المبارك و قبيل المغرب، و نحن نشغل في تجديد سقفه الأعلى المعمور، رفعنا أكف الضراعة و الابتهاج إلى الله الملك العزيز الكبير المتعال بقلب خاشع، نحن ندعوا و جميع الحاضرين يرددون معنا الدعاء و يؤمنون على ما نقول، و لقد بدأنا بالحدِيثين القدسيين الشهيرين، حيث يكون لهما وقع كبير في نفوس السامعين، و ختمناهما بالدعاء الشامل لعموم المسلمين حسبما يأتي:

و لقد أذيع الحدِيثان مع الدعاء من الإذاعة السعودية في صباح يوم الأحد الثاني عشر من شهر شعبان سنة ألف و ثلاثمائة و سبعة و سبعين من الهجرة و إليك كل ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر الغفاري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم فيما يروى عن الله تبارك و تعالى أنه قال: "يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسي و جعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادى كلكم جائع إلا- من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل و النهار و أنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني و لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادى لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادى لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك

من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه."

و روى الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول:

"قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتنى و رجوتنى غفرت لك على ما كان منك و لا أبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤١٨

لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة."

بسم الله الرحمن الرحيم قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ و لَمْ يُولَدْ* و لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا و ارزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ و الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ و مَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ و بئسَ الْمَصِيرُ* و إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ و إِسْمَاعِيلُ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا* و يُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ و بَيْنَ و يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ و يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا نستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم و نتوب إليه. شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولوا العلم قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد و هو على كل شيء قدير.

اللهم لك الحمد كالذى نقول و خيرا مما نقول، اللهم لك الحمد حمدا يوافق نعمك و يكافى مزيدك و كرمك. الحمد لله الذى هدانا لهذا و ما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله.

اللهم إنا ندعوك و نحن نخدم بيتك الحرام، و نشغل بتجديد سقفه المرفوع، فى هذا اليوم الأغر.

اللهم إنك أمرتنا بدعائك، و وعدتنا بإجابتك، و قد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا.

اللهم إنا ندعوك فى هذه اللحظة المباركة، و نحن على سطح بيتك الحرام، و نتضرع إليك و أنت الملك القدوس السلام و نطمع فى برك و إحسانك و رحمتك، و أنت البر الرحيم الكبير المتعال.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤١٩

اللهم إنا نسألك إيمانا كاملا، و يقينا صادقا، و قلبا خاشعا، و لسانا ذاكرا، و رزقا حلالا و اسعا، و علما غزيرا نافعا، و توبة قبل الموت، و راحة عند الموت، و مغفرة و رحمة و عفوا عند الحساب.

اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك، و تحول عافيتك، و فجاءة نعمتك، و جميع سخطك.

اللهم إنا نسألك رضاك و الجنة، و نعوذ بك من سخطك و النار.

اللهم يا من لا تنفعه الطاعة و لا تضره المعصية، هب لنا ما لا ينفعك، و اغفر لنا ما لا يضرك يا واسع المغفرة.

اللهم نور قلوبنا و قبورنا، و بصائرنا و أبصارنا، أغننا بحلالك عن حرامك، و بطاعتك عن معصيتك، و بفضلك عن سواك.

اللهم حبب إلينا الإيمان و زينه فى قلوبنا، و كره إلينا الكفر و الفسوق و العصيان، و اجعلنا من الراشدين.

اللهم استرنا فى الدنيا و الآخرة بسترِكَ الذى لا ينكشف، و اجعلنا من التوابين المتطهرين.

اللهم اختم لنا بخاتمة أهل الخير و السعادة، و هون علينا سكرات الموت، حتى لا نجد له تعباً و لا نصبا، و اجعل موتنا على شهادة و طهارة و نظافة، بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم يسر أمورنا، و اشرح صدورنا، و نور قلوبنا، و افتح لنا أبواب رحمتك و فضلك، يا مجيب الدعوات يا الله.

لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات و رب الأرض رب العرش الكريم. اللهم لا تدع لنا في مقامنا هذا ذنبا إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا كربا إلا كشفته، ولا فسادا إلا أصلحته و لا مريضا إلا شفيته، و لا شاكيا إلا عافيته، و لا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٢٠

اللهم أعز الإسلام و المسلمين، و وفقهم للتمسك بالدين، و ارفع عنهم التنازع و الشقاق و النفاق، و اهدهم إلى الخير و محاسن الأخلاق، و أكثر فيهم من العلماء العاملين، و الأتقياء المخلصين، و الأبرار المقربين.

اللهم أهلك الكفرة و المشركين، و اجعل بأسهم بينهم إلى يوم الدين، و فرق كلمتهم، و شتت شملهم، و دمر ديارهم يا رب العالمين. اللهم وفق ملوك المسلمين و رؤساءهم و أمراءهم و وزراءهم إلى الخير و الطريق المستقيم، و وفقهم لخدمة رعاياهم و بلادهم و اقدف في قلوبهم الخوف منك، حتى يتعدوا عن الظلم و الاستبداد، و نور بصائرهم حتى يروا طريق الرشاد و وجههم إلى كل ما ينفع العباد و البلاد، و أن قلوبهم للضعفاء و الفقراء، و أرشدهم إلى المصالح العامة و الخاصة، و اجعل المحبة متبادلة بينهم و بين شعوبهم و رعاياهم، و توجههم بتاج العز و الكرامة، و انصرهم على أعداءهم يا رب العالمين.

اللهم تقبل هذا العمل المبرور، عمارة بيتك المطهر، و عمارة المسجدين الحرامين بمكة و المدينة، من عبدك الخاضع لجلالك و أمرك، الذي وليته على عبادك، خادم الحرمين الشريفين "سعود بن عبد العزيز" و وفقه لنصرة دينك القويم و خدمة العباد و البلاد، و توجه بتاج العز و الكرامة، و وفق أخاه و ولي عهده "فيصل بن عبد العزيز" إلى طرق الخير و الرشاد، و ارحم اللهم عبدك مؤسس المملكة السعودية الأول "عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود" الذي فكر قبل كل أحد في توسعة المسجدين الحرامين و وضع لهما خطتهما.

اللهم اغفر له و ارحمه و تجاوز عنه و اجزه عن الإسلام خير الجزاء، و وفق اللهم جميع أمرائنا و وزرائنا و المسؤولين في دوائرنا و أمورنا لخدمة العامة و الخاصة في جميع مرافق الحياة.

اللهم اجعل هذا البلد الأمين، و بلد خاتم المرسلين، و جميع بلاد المسلمين، آمنة رخيئة عامرة بالتقوى و الخيرات، و اسقمهم غيثا مغيثا هنيئا مريئا و لا تجعلهم من القانطين.

اللهم أنبت لنا الزرع، و أدر لنا الضرع، و أنزل علينا من بركات السماء، و أنبت لنا من بركات الأرض. و اكشف عنا من الغلاء و البلاء، و الأمراض و الوباء، ما لا يكشفه غيرك، و لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك و لا يرحمنا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٢١

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا و لا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا و لا تحملنا ما لا طاقة لنا به، و اعف عنا و اغفر لنا و ارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

اللهم صل و سلم و بارك على عبدك و نبيك الذي أرسلته رحمة للعالمين، سيدنا "محمد" خاتم الأنبياء و المرسلين كما صليت و سلمت و باركت على خليلك "إبراهيم" الذي رفع قواعد هذا البيت الحرام، و على جميع الأنبياء و المرسلين، و آلهم و صحبهم أجمعين. سبحان ربك رب العزة عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

بعض الآيات و التكميرات التي أذاعها مؤلف هذا الكتاب

و في ضحى يوم الأحد حادى عشر من شهر شعبان سنة ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، رأينا أن نتشرف بإذاعة بعض الآيات القرآنية الواردة في حق بيت الله الحرام، مصحوبة بالتكبير و التهليل، كل ذلك لمناسبة انتهاء عمارة الكعبة المشرفة و تليسها ثوبها بحضور جلالة الملك المعظم.

فقبل حضور جلالته بدقائق معدودة صعدا إلى منبر المسجد الحرام و تلونا هذه الآيات الآتية أمام ميكروفون الإذاعة الذي وضع فوق المنبر الرخامي و إليك نص الآيات مع التهليل و التكبير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَ أَمْنَا وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ ارزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَ بئْسَ الْمَصِيرُ* وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَ تَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢٢

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ* رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* رَبَّنَا إِنِّي أَسِيءْتُكَ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ* رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَ مَا نُغْلِي وَ مَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ* الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ* رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ* رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ، وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ* وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَ أذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يُذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَيْمِهِ الْأَنْعَامَ فَكُلُوا مِنْهَا وَ اطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ* ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ* ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظِمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَ أَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ* حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ* ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظِمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ* لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر و لله الحمد.

سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم.

شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم* و إنا على ذلك من الشاهدين يا رب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٢٢٣

لا- إله إلا- الله وحده لا- شريك له، له الملك و له الحمد و هو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات و رب الأرض رب العرش الكريم.

الحمد لله الذي هدانا لهذا و ما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله. الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا كما يحب ربنا و يرضى، ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

سبحان الله و بحمده سبحان الله العظيم. حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت و هو رب العرش العظيم. لا إله إلا الله و لا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين و لو كره الكافرون، لا إله إلا الله صدق وعده و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده. اللهم صل على محمد و على آل محمد كما صليت على إبراهيم و على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَ لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرَارًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَ لَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اعْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . انتهى .

قراءة القرآن و الحديث في جوف الكعبة (بعد الانتهاء من عمارتها)

مما لا شك فيه أن الإنسان إذا عمل عملاً عظيماً فريداً من الناحية الشرعية أو من الناحية الاجتماعية، فإنه يكاد يطير من الفرح و السرور، كما و أن أية أمه إذا انتصرت على أخرى في الحرب تقيم لذلك الزينات و الحفلات و الولائم .

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٢٤

و من هنا استحب شرعاً سجود الشكر عند تجدد نعمة أو اندفاع نعمة، كما هو عند الشافعية و الحنابلة و الحنفية، أما المالكية فقالوا سجدة الشكر مكروهة و إنما المستحب عند حدوث نعمة أو اندفاع نعمة صلاة ركعتين .

هذا و إن عماره الكعبة و المسجدين الحرامين، أحق بإظهار الفرح و السرور و عمل الخيرات و الصدقات، لذلك لما انتهى و فرغ عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه و عن أبيه أحد المبشرين بالجنة من بناء الكعبة زادها الله شرفاً و تعظيماً و مهابةً، فى سابع عشر من رجب سنة (٦٥) خمس و ستين قال "من كانت لى عليه طاعة فليخرج فليعتمر من التمتع فمن قدر أن ينحر بدنه فليفعل و من لم يقدر على بدنه فليذبح شاة و من لم يقدر فليصدق بقدر طوله" ثم خرج ابن الزبير ماشياً حافياً و خرج الناس معه مشاةً حفاة حتى اعتمروا من التمتع شكراً لله سبحانه و تعالى، و لم ير يوماً كان أكثر عتيقاً و لا أكثر بدنه منحورة و لا شاة مذبوحة و لا صدقة من ذلك اليوم، و نحر ابن الزبير رضى الله عنهما مائة بدنه كما هو مذكور فى تاريخ الأزرقى .

و لما أرسل أمير المؤمنين المتوكل على الله شيخ الصنائع إسحاق بن سلمة الصايغ و أرسل معه أكثر من ثلاثين رجلاً إلى مكة المكرمة و معهم كثير من الذهب و الفضة و الرخام و الآلات، لوضع الذهب على الزوايا الداخلية للكعبة، و عمل منطقة من فضة توضع فوق إزار الكعبة فى تربيعها كلها منقوشة مؤلفة جليلاً نائثه، و عمل طوق من ذهب منقوش تتصل بمنطقة الفضة، و تلبس الرخام المنقوش الذى كان فى أعلى هذه المنطقة الفضية بالذهب الرقيق الذى يتخذ للسقوف و تغيير خشبة عتبة الكعبة بقطعة من خشب الساج و تلبسها صفائح الفضة .

إلى غير ذلك من الإصلاحات فى مكة و فى الكعبة المشرفة و فى المسجد الحرام و فى منى، فلما فرغ إسحاق بن سلمة المذكور من جميع الأعمال فى النصف من شعبان سنة (٢٤٢) اثنتين و أربعين و مائتين، دخلوا الكعبة المعظمة فطيبوا جدرانها و أرضها، و أحضر لهم الحجة فى ذلك اليوم أجزاء القرآن الكريم ففترقوها بينهم و قرأوا فيها حتى ختموا القرآن و أجافوا باب الكعبة عليهم - أى ردوه عليهم - عند فراغهم من ختم القرآن، فدعوا و دعا من حضر الطواف و ضجوا بالتضرع و البكاء إلى الله عز و جل، و دعوا لأمير المؤمنين و لولاه عهد المسلمين و لأنفسهم و لجميع المسلمين، فكان يومهم مشهوراً شريفاً حسناً كما حكاه الإمام الأزرقى .

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٢٥

و لا يخفى أن الثلاثة القرون الأولى فى الإسلام هم خير القرون بنص الحديث الصحيح .

ولما انتهوا من بناء الكعبة المشرفة حسب أمر السلطان مراد الرابع في سنة (١٠٤٠) أربعين و ألف، ختم العلامة خاتمة المحققين الشيخ محمد بن علان الصديقي المكي صحيح البخارى فى جوف الكعبة مما يلى بابها الشرقى فى جمع من العلماء و الفضلاء فى صبيحة النهار و كان أمير مكة يومئذ معهم، كما ذكره الشيخ عبد الله الغازى فى تاريخه.

قال العلامة ابن علان: فدخلنا الكعبة الشريفة و صلينا ركعتين، فحضر الشيخ تاج الدين النقشبندى، و الشيخ حسين و نائبه مفتى الحنفية، و شيخ الحرم عتاقى زاده، و جمع كثير من الصلحاء و من الأتقياء، و جلسنا فيما يلى الباب عند حذاء مجتمع درفته من وراء العمدة، و دخل كثير من الناس الكعبة، و شرعت من صحيح البخارى من باب ما يجوز من تفسير التوراة و كتب الله بالعربية و غيرها إلى آخر الكتاب، و دعونا أجمعين بالنصر لسلطان الإسلام و المسلمين و بعد تمام القراءة و الدعاء خرجنا إلى خارج البيت مما أطاف به الأخشاب من الجانب الغربى فقسمننا فيه الطيب و البخور و الريحان و كان يوما مشهودا، و ألفت مؤلفا سميته:

"القول الحق و النقل الصريح بجواز أن يقرأ فى جوف الكعبة الحديث الصحيح."

انتهى من تاريخ الغازى عند الكلام على بناء السلطان مراد الكعبة.

و قال الغازى أيضا فى تاريخه: ذكر الشيخ أحمد الشماخ فى ترجمة الشيخ عبد الله البصرى أنه قرأ فى جوف الكعبة صحيح البخارى سنة (١١٠٩) تسع و مائة و ألف و كان فى داخلها عمارة، و كذلك قرأه فى داخلها مرة أخرى سنة (١١١٩) تسع عشرة و مائة و ألف و كان أمر بتجديد بابها مولانا السلطان أحمد و القائم بذلك صاحب جدة و شيخ الحرم. انتهى منه.

نقول: لقد اعترض بعض العلماء المعاصرين لبناء الكعبة فى عهد السلطان مراد العلامة المحقق الشيخ محمد على بن علان لقراءته صحيح البخارى فى جوف الكعبة بعد انتهاء بنائها حيث لم يعمل مثله فيما سبق و أجاز بعضهم قراءته حيث ما هنالك دليل للمنع، فترك فعل الشئ فيما سلف لا يقتضى المنع منه إذا لم يقم للمنع وجه، و قد كان أمير مكة يومئذ مع القائلين بالجواز و أغلظ القول على من منع القراءة و نسبهم إلى الحسد و التعصب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٢٦

و مما لا شك فيه أن قراءة القرآن أو الأحاديث الصحيحة أو الدعاء للمسلمين و ولائهم فى جوف الكعبة على سبيل النادر ليس فيه شئ مطلقا، و ذلك فى بعض المناسبات القوية، أما تدريس القرآن أو الحديث بدون مناسبة قوية فى جوف الكعبة فلا شك فى عدم جوازه و وجوب منعه، حيث يشبه ذلك الكتابات و المدارس، فتقل هيئة الكعبة و هى لم تتخذ لذلك، بل هى للقبلة و الطواف و الالتجاء إلى الله تعالى بأستارها و الدعاء فيها و فى جوانبها و ملتزمها و الله تعالى أعلم بالصواب، و إليه المرجع و المآب، و الصلاة و السلام على النبى الأمى الأواب، و على الآل و الذرية و الأصحاب.

هذا و لقد اقترحنا على بعض كبار المسؤولين عند الشروع فى تجديد سقف الكعبة المعظمة و ترميمها، و ذلك فى سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية أن يجتمعوا مع عامة الناس فى المسجد الحرام عند الكعبة المعظمة بعد الانتهاء من العمل فيها، للدعاء و الاستغفار و التضرع إلى الله تعالى و الالتجاء إليه، و طلب العفو و الغفران و إصلاح الحال و الأحوال و رفع ما نزل من الشدة و البلاء، و نصر المسلمين على أعداء الدين. و لكن مع الأسف الشديد لم يلتفتوا لاقتراحنا هذا، ففرق بين زماننا و الأزمان الماضية، فسبحان مغير الأحوال و مدبر الأمور لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

مقاييس الكعبة المشرفة و حدود المطاف قبل التوسعة السعودية و ما يتعلق بهما "مع بيان ارتفاعات بعض جبال مكة"

إشارة

لقد قمنا فى شهر رجب سنة (١٣٦٧) سبع و ستين و ثلاثمائة و ألف هجرية، عند تأليف كتابنا "مقام إبراهيم عليه السلام" بأخذ

قياسات الكعبة المعظمة و ما حولها من المطاف فأخذناها و وضعنا بيانها في الكتاب المذكور المطبوع بمصر. و اطلعنا أيضا على ما ذكره إبراهيم رفعت باشا مؤلف كتاب "مرآة الحرمين" رحمه الله تعالى عن بعض القياسات المتعلقة بالكعبة و المطاف فقط، و لم نعلم درجة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٢٧

صحته ما ذكره، فقد شككنا فيما ذكره و شككنا أيضا في القياسات التي أخذناها بأنفسنا، لأن كلينا لسنا من المهندسين المختصين. و حيث أنه في زماننا هذا قد أحضرت الحكومة العربية السعودية طائفة من كبار المهندسين المصريين، لعمارة و تجديد سقفي الكعبة المشرفة و لتوسعة المسجد الحرام و توسعة شوارع مكة المكرمة، و حيث أننا أيضا أحد أعضاء اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام، و نحن نشتغل بهذا التاريخ القويم فقد رأينا من الواجب أن نأخذ جميع قياسات الكعبة و المطاف و كل ما يتعلق بهما بل و غير ذلك من مساحة المسجد الحرام و جبال مكة و المسعى و كل ما له اتصال "بمكة" بلد الله الأمين، من قسم المهندسين بمكتب مشروع التوسعة، و بذلك ينقطع الشك باليقين، و نعطي القوس باريها.

فطلبنا من صديقنا المهندس الأستاذ "فؤاد سعيد المصري" أن يعطينا جميع البيانات الخاصة بقياسات الكعبة المشرفة. و هذه البيانات لا توجد في غير هذا الكتاب، و سنذكرها بعد قياسات الكعبة المعظمة في بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام، و بعد قياساتها في بناء قريش، و بعد قياساتها في بناء عبد الله بن الزبير رضی الله تعالى عنهما، و بعد قياساتها في بناء الحجاج بن يوسف الثقفي رحمه الله تعالى. فإن هذه القياسات للبيانات الأربع المذكورة قد أخذناها من تاريخ مكة للإمام الأزرقى رحمه الله تعالى و رضی عنه الذي هو من أهل القرن الثاني.

و إليك قياسات البيئات الأربع للكعبة المشرفة مأخوذة من تاريخ الأزرقى:

قياسات الكعبة المعظمة

في البيئات الأربع المذكورة نقلا عن تاريخ الأزرقى عدد الأذرع قياس الكعبة في بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام

٩ ارتفاع الكعبة من الأرض للسماء.

٣٢ عرض الجدار الشرقي الذي فيه الباب.

٣١ عرض الجدار الغربي.

٢٢ عرض الجدار الذي في حجر إسماعيل.

٢٠ عرض الجدار الذي بين الركن الأسود و الركن اليماني.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٢٨

عدد الأذرع قياس الكعبة في بناء قريش قبل البعثة بخمس سنين

١٨ ارتفاع الكعبة من الأرض للسماء.

٢٦ عرض الجدار الشرقي الذي فيه الباب.

٢٦ عرض الجدار الغربي.

٢٢ عرض الجدار الذي في حجر إسماعيل.

٢٠ عرض الجدار الذي بين الركن الأسود و الركن اليماني.

عدد الأذرع قياس الكعبة في بناء عبد الله بن الزبير رضی الله عنهما

٢٧ ارتفاع الكعبة من الأرض للسماء.

٣٢ عرض الجدار الشرقي الذي فيه الباب.

٣١ عرض الجدار الغربي.

٢٢ عرض الجدار الذي في حجر إسماعيل.

٢٠ عرض الجدار الذي بين الركن الأسود و الركن اليماني.

عدد الأذرع قياس الكعبة في بناء الحجاج بن يوسف الثقفي

٢٧ ارتفاع الكعبة من الأرض للسماء.

٢٦ عرض الجدار الشرقي الذي فيه الباب.

عدد الأذرع قياس الكعبة في بناء الحجاج بن يوسف الثقفي

٢٦ عرض الجدار الغربي.

٢٢ عرض الجدار الذي في حجر إسماعيل.

٢٠ عرض الجدار الذي بين الركن الأسود و الركن اليماني.

لقد انتهينا من ذكر قياسات الكعبة المشرفة في البيانات الأربع المذكورة نقلا عن تاريخ الإمام الأزرقي الذي هو من أهل القرن الثاني للهجرة. و الآن نذكر قياسات الكعبة المشرفة و أبعادها و كل ما يتعلق بها بالأمتار المعروفة المستعملة في زماننا، نقلا عن المهندسين المصريين الذين حضروا إلى مكة المشرفة في عصرنا الحاضر لتجديد سقف الكعبة المشرفة بأمر الحكومة العربية السعودية. و إليك بيانات جميع ذلك بالتفصيل التام:

سنتيمتر / متر / بيان المواضع التي أخذت قياساتها

١٨٤ / ١ / ارتفاع باب الكعبة المعظمة من أرض المطاف.

٣٤ / ٠ / طول القفل الذي على باب الكعبة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٢٩

سنتيمتر / متر / بيان المواضع التي أخذت قياساتها

٨٦ / ٩ / مقدار ما بين أول الحفرة التي كانت عند باب الكعبة إلى أول شباك مقام إبراهيم.

٦٠ / ٥ / مقدار ما بين أول الحفرة المذكورة إلى أول فتحة حجر إسماعيل يعني إلى انتهاء ضلع الكعبة.

٨٠ / ٤ / مقدار ما بين أول الحفرة المذكورة إلى ركن الحجر الأسود.

٦٠ / ٠ / مقدار ما بين أول الحفرة إلى أول عتبة باب الكعبة، و قد سدت الحفرة سنة (١٣٧٧).

١٠٠ / ١ / طول الشاذروان من عند الحجر الأسود إلى جهة الملتزم. و سيأتي الكلام على الشاذروان.

٩٥ / ١٢ / ارتفاع جدار الكعبة من جهة و جهها الذي فيه الباب، من أرض المطاف إلى أعلا السطح.

٩٥ / ١٢ / ارتفاع جدارها الذي بظهرها المقابل للسوق الصغير، من أرض المطاف إلى أعلا السطح.

٩٥ / ١٢ / ارتفاع جدارها الذي فيه الميزاب جهة حجر إسماعيل، من أرض المطاف إلى أعلا السطح.

٩٥ / ١٢ / ارتفاع جدارها الذي هو بين الركن الأسود و الركن اليماني، من المطاف إلى أعلا السطح.

قد يجوز زيادة هذا الارتفاع بضع سنتيمترات و كذلك نقصانه، و ذلك بسبب تغيير رخام أرض المطاف، و مقدار ما يوضع فيه من الطين و النورة قليلا كان أو كثيرا، فتنبه لهذه المسألة.

المسافة بين الركن الأسود و اليماني مثلا:

- ٧١ / ١١ عرض جدار الكعبة من الخارج من جهة وجهها من الشرق، أى من الركن العراقى إلى الركن الأسود بدون الشاذروان.
 ٩ / ١٢ عرض جدارها من الخارج من جهة ظهرها أى من الغرب، أى من الركن الشامى إلى الركن اليمانى بدون الشاذروان.
 ٠ / ١٠ عرض جدارها من الخارج الذى فيه الميزاب، أى من الركن العراقى إلى الركن الشامى بدون الشاذروان.

١٧ / ١٠ عرض جدارها من الخارج الذى بين الركنين، أى من الركن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٣٠

سنتيمتر/ متر/ بيان المواضع التى أخذت قياساتها

اليمانى إلى الركن الأسود بدون الشاذروان.

و المسافة بين الركن العراقى و الركن الشامى بالشاذروان ١١ متر و ٢٠ سم.

و المسافة بين الركن الأسود و الركن اليمانى بالشاذروان ١١ متر و ٣٥ سم.

و المسافة بين الركن الأسود و العراقى بالشاذروان ١٢ متر و ٨٠ سم.

و المسافة بين الركن اليمانى و الشامى بالشاذروان ١٣ متر و ٣٠ سم.

طول المسافة بالسلم بالدرج

٧٩ / ٩ عرض جدار الكعبة من الداخل من جهة وجهها، أى من الركن العراقى إلى الركن الأسود.

١١ / ١٠ عرض جدارها من الداخل من جهة ظهرها من الغرب، أى من الركن الشامى إلى الركن اليمانى.

٩٨ / ٧ عرض جدارها بالسلم من الداخل الذى فيه الميزاب، أى من الركن العراقى إلى الركن الشامى.

١٧ / ٨ عرض جدارها من الداخل الذى بين الركنين، أى من الركن اليمانى إلى الركن الأسود.

٧٣ / ٨ مقدار ما بين طرفى الجدار الدائر بحجر إسماعيل.

٤٧ / ٨ مقدار ما بين وسط جدار حجر إسماعيل و بين جدار الكعبة.

١٢ / ١ مقدار ارتفاع جدار حجر إسماعيل من أرض المطاف.

٥٦ / ١ مقدار عرض جدار حجر إسماعيل "أى سمكه".

٣٢ / ٢ طول السلم.

٥١ / ١ عرض السلم.

٣٢ / ٢ طول جدار درجة الكعبة الداخلية التى فى الركن العراقى.

٥١ / ١ عرض جدار درجة الكعبة الداخلية التى فى الركن العراقى.

٥٠ / ٨ ارتفاع جدار درجة الكعبة الداخلية التى فى الركن العراقى من أرض الكعبة إلى السقف الأول.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٣١

سنتيمتر/ متر/ بيان المواضع التى أخذت قياساتها

١٣ / ١ طول باب درجة الكعبة الداخلية التى فى الركن العراقى (الباب مصراع واحد أى درفة واحدة).

٨٦ / ١ ارتفاع باب درجة الكعبة الداخلية التى فى الركن العراقى.

٢٧ / ١ طول فتحة الدرجة الواقعة بسطح الكعبة.

٤ / ١ عرض فتحة الدرجة الواقعة بسطح الكعبة.

٨٥ / ١ طول غطاء فتحة الدرجة الواقعة بسطح الكعبة.

١٠ / ١ / عرض غطاء فتح الدرجة الواقعة بسطح الكعبة.

١٠ / ٢ / طول فتحة باب الكعبة الشرقى.

٢٠ / ٣ / ارتفاع فتحة باب الكعبة الشرقى.

٢٧ / ١ / مقدار ما بين سقفي الكعبة.

٨٥ / ٠ / ارتفاع الإفريز المحيط بسطح الكعبة و يسمى "بالظنف."

٩٣ / ٠ / عرض جدار الكعبة من جميع الجهات "أى مقدار سمك الجدار."

٥٠ / ٨ / مقدار ما بين أرض الكعبة إلى السقف الأول.

٠٣ / ٧ / طول العمود الأول الذى وضعه ابن الزبير بداخل الكعبة مما يلى حجر إسماعيل.

٠٠ / ٧ / طول العمود الثانى الذى وضعه ابن الزبير بداخل الكعبة و الذى هو بالوسط.

١٢ / ٧ / طول العمود الثالث الذى وضعه ابن الزبير بداخل الكعبة مما يلى الحجر الأسود و المقابل للباب.

٤٤ / ٠ / قطر كل عمود من هذه الأعمدة الثلاثة المذكورة.

٢٠ / ٧ / مقدار ما بين أرض الكعبة إلى رأس كل عمود من الأعمدة الثلاثة المذكورة.

٥٠ / ٠ / ارتفاع كل تاج الذى على رأس كل عمود من الأعمدة الثلاثة المذكورة.

٥٥ / ٠ / عرض أعلا التاج الذى على رأس كل عمود من الأعمدة الثلاثة.

٤٠ / ٠ / عرض أسفل التاج الذى على رأس كل عمود من الأعمدة الثلاثة.

٣٥ / ١ / مقدار ما بين رأس كل عمود من الأعمدة الثلاثة المذكورة إلى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٣٢

سنتيمتر/ متر/ بيان المواضع التى أخذت قياساتها

السقف الأول.

٥٣ / ٢ / طول ميزاب الكعبة الذى يصب على حجر إسماعيل بما هو داخل فى جدار الكعبة.

٢٦ / ٠ / عرض الميزاب المذكور.

٢٣ / ٠ / ارتفاع الميزاب المذكور.

٥٨ / ٠ / دخول الميزاب فى جدار الكعبة.

٥٠ / ٣ / ارتفاع ما هو مكسو من جدار الكعبة بالرخام الأبيض من باطنها هو ٣٥٠ سنتيمترا، أى ثلاثة أمتار و نصف متر، و ما بعد ذلك

إلى السقف فمعمول بالنورة.

*** سنتيمتر/ متر/ حدود المطاف القديم و هو على شكل بيضوى

٥٠ / ١١ / من جدار الكعبة من جهة و جهها الذى فيه الباب إلى آخر حدود المطاف القديم، أى إلى مقام إبراهيم.

٦٥ / ١٦ / من جدار الكعبة من جهة ظهرها المقابل للسوق الصغير إلى آخر حدود المطاف القديم.

٢٠ / ١٥ / من جدار الكعبة الذى هو بين الركنين الأسود و الركن اليمانى إلى آخر حدود المطاف القديم.

٠٠ / ١٢ / من وسط جدار حجر إسماعيل عليه السلام إلى آخر حدود المطاف القديم.

*** سنتيمتر/ متر/ (حدود المطاف الجديد و هو على شكل دائرة)

٨٠ / ٢٦ / من جدار الكعبة من جهة و جهها الذى فيه الباب إلى آخر حدود المطاف الجديد، أى إلى مقام إبراهيم عليه السلام.

٤٠ / ٢٧ / من جدار الكعبة من جهة ظهرها المقابل للسوق الصغير إلى آخر حدود المطاف الجديد.

٧٠ / ٢٦ / من جدار الكعبة الذى هو بين الركن الأسود و الركن اليمانى إلى آخر حدود المطاف الجديد.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٣٣

سنتيمتر / متر / (حدود المطاف الجديد و هو على شكل دائرة)

١٦ / ٦٥ / من وسط جدار حجر إسماعيل عليه السلام إلى آخر حدود المطاف الجديد.

٢ / ٢ / طول الحفرة التى كانت عند باب الكعبة ثم ردمت فى ٢ شعبان سنة ١٣٧٧ هـ.

١ / ١٠ / عمق الحفرة التى كانت عند باب الكعبة ثم ردمت فى ٢ شعبان سنة ١٣٧٧ هـ.

٢٨ / ١٠ / عمق الحفرة التى كانت عند باب الكعبة ثم ردمت فى شعبان سنة ١٣٧٧ هـ.

١ / ٥٠ / مقدار ارتفاع الحجر الأسود و الركن اليمانى عن أرض المطاف.

٢ / ١٠٠ / مقدار عرض الملتزم من أول الركن الأسود إلى أول باب الكعبة.

١ / ٩٢ / مقدار ارتفاع باب الكعبة عن أرض المطاف.

١ / ٩٠ / مقدار طول الحجر المخروق من الوسط لخروج ماء الغسيل داخل الكعبة الذى هو على عتبة بابها.

٣ / ١٠ / مقدار قطر دائرة الخرق الذى بوسط الحجر المذكور.

١٣ / ٢ / مقدار فتحة حجر إسماعيل من الجهة الشرقية التى بها باب الكعبة.

٧٠ / ٢ / مقدار فتحة حجر إسماعيل من الجهة الغربية.

*** سنتيمتر / متر / البيانات

١٢ / ٩٠ / عرض الكعبة المشرفة من الركن الشامى إلى الركن اليمانى مأخوذ مع ستارة الكعبة المشرفة.

٢٠ / ١١ / عرض الكعبة المشرفة من الركن اليمانى إلى ركن الحجر الأسود مأخوذ مع ستارة الكعبة المشرفة.

١٢ / ٩٠ / عرض الكعبة المشرفة من ركن الحجر الأسود إلى الحجر الأسود مأخوذ مع ستارة الكعبة المشرفة.

١١ / ١٠ / عرض الكعبة المشرفة من الركن العراقى إلى الركن الشامى مأخوذ مع ستارة الكعبة المشرفة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٣٤

سنتيمتر / متر / البيانات

١ / ٦٨ / طول مسافة طوفة واحدة أى شوط واحد فقط حول الكعبة المشرفة بالقرب منها.

٥٧ / ٢١ / طول محيط جدار حجر إسماعيل عليه الصلاة و السلام.

١ / ٥٢ / عرض جدار حجر إسماعيل.

٢٣ / ١ / ارتفاع جدار حجر إسماعيل من الداخل (فعرض جدار الحجر أكثر من ارتفاعه).

٦٥ / ٢ / مقدار الفتحة الشمالية لحجر إسماعيل.

٦٥ / ٢ / مقدار الفتحة الغربية لحجر إسماعيل.

٥٥ / ٨ / طول أرض حجر إسماعيل من وسط جداره إلى الكعبة مقابل ميزابها.

٩٠ / ٤ / مقدار عرض فتحة باب بنى شيبه.

٨٠ / ١ / عرض جدار باب بنى شيبه أى عرض الجدار القائم الواحد ٩٠ سنتيمتر.

٧٠ / ٦ / عرض باب بنى شيبه بما فى ذلك الجدار و الفتحة.

٩٠ / ٣٠ / مقدار ما بين جدار الحجر إلى أول ظهر المنبر الذى نقل من محله الحالى فى أواخر سنة (١٣٨٢) ألف و ثلاثمائة و اثنين و

ثمانين هجرية لتوسعة المطاف.

بعض القياسات لمشاعر الحج التي ذكرها إبراهيم رفعت باشا المصري رحمه الله تعالى في كتابه "مرآة الحرمين" متر الأماكن و المواقع

٤٠٥ من الصفا إلى المروة، نقول و هذا غلط و الصحيح ما ذكرناه عن قياسه.

١٠٤٢ من باب بنى شيبه إلى باب مقبرة المعلاة.

٢٣٨٧ من باب مقبرة المعلاة إلى سبيل الست، نقول و هذا السبيل لا وجود له اليوم.

٣١٢٠ من سبيل الست إلى حجرة العقبة.

١١٦ من حجرة العقبة إلى الحجرة الوسطى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٣٥

متر الأماكن و المواقع

١٥٦ من الحجرة الوسطى إلى الحجرة الصغرى.

٣٥٢٨ من حجرة العقبة إلى نهاية وادي محسر.

٣٨١٢ من نهاية وادي محسر إلى أول المأزمين.

٤٣٧٢ من أول المأزمين إلى علمى الحرم من جهة عرفة.

١٥٥٣ من علمى الحرم إلى علمى عرفة.

١٥٥٣ من علمى عرفة إلى سفح جبل الرحمة.

انتهى ما ذكره إبراهيم رفعت باشا في كتابه المذكور عن بعض القياسات، و هي قياسات غير محررة تماما فقد يزيد بعضها بضعة أمتار و قد ينقص عنها بضعة أمتار فقط، و المذكور رحمه الله تعالى معذور في ذلك لأنه أخذ هذه القياسات في موسم الحج وقت ازدحام الحجاج و كثرتهم، فلا يتمكن الإنسان في هذا الازدحام العظيم من أخذ القياسات على الوجه المطلوب.

خط طول مكة شرفها الله تعالى هو (٣٩ درجة و ٤٩ دقيقة و ٣٠ ثانية).

خط عرض مكة شرفها الله تعالى هو (٢١ درجة و ٢٥ دقيقة).

ارتفاع محلة المعابدة بأعلا مكة عن سطح البحر الأحمر هو (٣١١ مترا).

ارتفاع موضع الخروج إلى جدة بجهة جروول بعد القشلة عن سطح البحر الأحمر هو (٢٧٨ مترا).

متر ارتفاع بعض الجبال

٤٢٠ ارتفاع جبل أبى قبيس عن سطح البحر الأحمر.

٦٣٤ ارتفاع جبل حراء "أى جبل النور" عن سطح البحر الأحمر.

٧٥٩ ارتفاع جبل ثور عن سطح البحر الأحمر.

٨٨٣ ارتفاع جبل ثقبه بالمعابدة "أى جبل الرخم" عن سطح البحر الأحمر.

٣٤٠ ارتفاع جبل الرحمة بعرفات، عن سطح البحر الأحمر.

٨٣٦ ارتفاع جبل سعد بشرق شمال عرفات عن سطح البحر الأحمر.

١٧٥٠ المسافة بين مسجد نمرة و جبل الرحمة بعرفات.

٣٥٠٠ المسافة بين مكة إلى أول حجرة العقبة بمنى عن طريق الشيبه.

٩٣٥ طول السد القديم جهة جبل حراء "أى جبل النور".

١٠٣٠ طول السد الجديد جهة جبل حراء.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٣٦

متر ارتفاع بعض الجبال

٣٩٤ المسافة بين الصفا و المروة، أى إلى منتهى حدودهما.

٣٧ المسافة بين الصفا و دار الأرقم "أى إلى بابها."

*** كيلومتر بيان المسافات بين مكة و بعض البلدان الحجازية و المواقع

نذكر هنا المسافات بين مكة و بعض المواقع عن طريق البر بالكيلومتر و هى كما يأتى:

٤٥٠ المسافة من مكة إلى المدينة المنورة.

٧٢ المسافة من مكة إلى جدة.

١٣٥ المسافة من مكة إلى الطائف.

٩٥٧ المسافة من مكة إلى الرياض.

٨ المسافة من مكة إلى منى.

٥ المسافة من مكة إلى مزدلفة.

٧ المسافة من مزدلفة إلى مسجد نمرة.

٢ المسافة من مسجد نمرة إلى عرفات هى (١٧٥٠ متراً) يعنى من مسجد نمرة إلى جبل الرحمة.

٢١٢ المسافة من مكة إلى رابغ.

٤٠ المسافة من رابغ إلى مستورة.

١٩٨ المسافة من مستورة إلى المدينة المنورة.

انتهينا من ذكر القياسات المضبوطة المحررة السليمة إن شاء الله تعالى من الغلط و الخطأ لأن ذلك مأخوذ من بيانات المهندسين

المصريين الذين أحضرتهم الحكومة العربية السعودية لعمارة و تجديد سقفى الكعبة و ترميمها و لبناء المسجد الحرام و توسعته.

لكن لا بأس أن نذكر هنا ما قاله العلامة الفاسى فى كتابه "شفاء الغرام" عن قياس المطاف بالذراع الحديدى فى زمانه، لتظهر المقارنة

بين قياسه بالأذرع و قياسنا بالأمتار. فقد قال رحمه الله تعالى فى كتابه المذكور ما يأتى:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٣٧

و قد اعتبر بعض أصحابنا بحضورى مقدار ما بين منتهى ذلك و بين الكعبة المعظمة من جميع جوانبها فكان مقدار ما بين الحجر

الأسود و عرف البلاط المحاذى له على الاستواء فى الجهة اليمينية خمسة و عشرين ذراعاً إلا ثلث ذراع.

و ما بين الحجر الأسود و طرف البلاط المحاذى لوسط مقام الحنابلة اثنين و عشرين ذراعاً و ثلث ذراع، و ما بين الحجر و جدار زمزم

ثلاثون ذراعاً و ثلثاً ذراع.

و ما بين الركن الشامى الذى يقال له العراقى و آخر تدوير المطاف المسامت له إلى الجهة الشرقية أربعة و عشرون ذراعاً و نصف.

و من الركن الشامى إلى آخر البلاط المحاذى له فى الجهة الشامية سبعة و ثلاثون ذراعاً و ربع ذراع.

و من وسط جدار الحجر إلى آخر البلاط الذى أمام مقام الحنفية اثنان و عشرون ذراعاً.

و ما بين الركن الغربى و آخر البلاط المحاذى له من الجهة الشامية و الغربية ثلاثون ذراعاً.

و ما بين نصف الجهة الغربية من الكعبة و آخر البلاط المقابل لذلك على الاستواء مثل ذلك.

و ما بين الركن اليمانى و آخر البلاط المقابل له من الجهة الغربية تسعة و عشرون ذراعاً إلا ثلث ذراع.

و ما بين الركن اليمانى و آخر البلاط المقابل له من جهته اليمنى سبعة و عشرون ذراعاً و ثلث ذراع، و كذلك ما بين وسط الجهة

اليمانية من الكعبة و آخر البلاط المحاذى له.
و الذراع المحرر به هو الذراع الحديد المتقدم ذكره.
انتهى من شفاء الغرام.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٣٨

مقدار الذراع و الميل و الفرسخ و نحوها

جاء فى أول كتاب قاموس الأمكنة و البقاع المسمى "معجم البلدان" للأستاذ على بهجت عن مقدار البريد و الفرسخ و الميل ما نصه:
(مقدمة) فى تفسير الألفاظ التى يتكرر ذكرها فى هذا القاموس و فى كتاب الفتوح نقلا عن ياقوت و هى البريد و الفرسخ و الميل و الكورة و الإقليم و المخلاف و الأستان و الرشاقة و الطسوج و العرض و الأباذ و السكة و المصر و القهندز و الريض.
قال ياقوت: فأما البريد ففيه خلاف، ذهب قوم إلى أنه بالبادية اثنا عشر ميلا و بالشام أو خراسان ستة أميال، و قيل: السفر الذى يجوز فيه قصر الصلاة أربعة برد ثمانية و أربعون ميلا بالأميال الهاشمية التى فى طريق مكة.
و خبرنى بعض من لا يوثق به لكنه صحيح النظر و القياس، أنه إنما سميت خيل البريد بهذا الاسم أن بعض ملوك الفرس أعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته، فلما جاءته الرسل سألتها عن سبب بطئها فشكوا من مروا به من الولاة، و أنهم لم يحسنوا معوتهم، فأحضرهم الملك و أراد عقوبتهم، فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك، فأمر أن تكون أذنان خيل الرسل و أعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به ليزيحوا عنهم فى سيرهم، فقيل بريد أى قطع، فعرب فقيل خيل البريد.
و أما الفرسخ فقد اختلف فيه أيضا، فقال قوم: هو فارسى معرب، و أصله فرسنك. و قال اللغويون: الفرسخ عربى محض، يقال: انتظرتك فرسخا من النهار أى طويلا، و قد روى فى حديث حذيفة: ما بينكم و بين أن يصب عليكم الشر فراسخ إلا موت رجل (يعنى عمر بن الخطاب)، فلو قيل قد مات صب عليكم الشر فراسخ، قال ابن شميل فى تفسيره: و كل شىء دائم كثير فرسخ.
قال ياقوت: و أنا أرى أن الفرسخ من هذا أخذ لأن الماشى يستطيله و يستديمه، و أما حده و معناه فلا بد من بسط يتحقق به معناه و معنى الميل معا.

قالت الحكماء: استدارة الأرض فى موضع خط الاستواء ثلاثمائة و ستون درجة، و الدرجة خمسة و عشرون فرسخا، و الفرسخ ثلاثة أميال، و الميل أربعة آلاف ذراع، فالفرسخ اثنا عشر ألف ذراع، و الذراع أربعة و عشرون إصبعا و الإصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى ظهور بعض.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٣٩

و قيل: الفرسخ اثنا عشر ذراع بالذراع المرسله بذراع المساحة، و هى الذراع الهاشمية و هى ذراع و ربع بالمرسل تسعة آلاف ذراع و ستمائة ذراع.

و قال قوم: الفرسخ سبعة آلاف خطوة، و لم أر لهم خلافا، فى أن الفرسخ ثلاثة أميال أقول: و قد نظم ابن الحاجب المتوفى فى سنة ٦٤٦ هجرية فى هذا المعنى أبياتا هى:

إن البريد من الفراسخ أربع و لفرسخ فثلاث أميال ضعوا
و الميل ألف أى من الباعات قل و الباع أربع أذرع تستبع
ثم الذراع من الأصابع أربع من بعدها العشرون ثم الإصبع
ست شعيرات فظهر شعيرة منها إلى بطن لأخرى توضع
ثم الشعيرة ست شعرات غدت من شعر بغل ليس عن ذا مدفع

و أما الميل فجزء من ثلاثة أجزاء من الفراسخ، وقيل: الميل ألفا خطوة و ثلاثمائة و ثلاثون خطوة و أما أهل اللغة فالميل عندهم مدى البصر و منتهاه.

قال ابن السكيت: و قيل للأعلام المبنية في طريق مكة أميال، لأنها بنيت على تقدير مدى البصر من الميل إلى الميل، و لا نعى بمدى البصر كل مرثى فإننا نرى الجبل من مسيرة أيام، إنما نعى أن ينظر الصحيح البصر ما مقداره ميل، و هي بنية ارتفاعها عشرة أذرع، أو قريبا من ذلك و غلظها مناسب لطولها، قال ياقوت: و هذا عندي أحسن ما قيل فيه. انتهى من الكتاب المذكور.

سبب تسمية الميل بالميل

و في باب المفعول فيه من حاشية ابن غازي على الألفية "الطيفة" ذكر أبو حيان عن السهيلي عن قاسم بن ثابت قال: سمي الميل ميلا لأنهم كانوا ينصبون على الطرق أميالا- كانوا يعرفون بها الخطى التي مشوها، فيجعلون على رأس كل ثلاثة آلاف ذراع بناء كهية الميل يكتبون فيه العدد الذي مشوه.

و قال هشام لأعرابي كان يسير معه: انظر في الميل كم مشينا و كان الأعرابي أميا لا يقرأ فنظر ثم جاء فقال: فيه مخطف و حلقة و ثلاثة كأطياء الكلبة و هامة كهامة القطا، فضحك هشام و علم أن في الميل خمسة. اه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٤٠

و هذا يدل على عبرهم للطرق و ضبطهم المسافات للذاهب و الجائي، و معقول أنهم ما عرفوا و عبروا بالفرسخ و الميل حتى كتبوا الأعداد و رسموها خشية الغلط.

و انظر المصباح المنير للغيومي، و في الخطط للمقريزي ص ٣٣٩ ج ١ أن عبد العزيز بن مروان كانت له و هو على مصر ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره و كانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل على العجل. اه. و هذا يدل على نجر الطرف و ترصيفها لتجرى فيها العجل.

ابتكارات الرسوم الأربع للكعبة

لقد وفقنا الله تعالى إلى وضع صور و رسوم للبنىات الأربعة الشهيرة للكعبة المعظمة، و وضعنا كل صورة منها بالصفة التي وردت في كتب التاريخ المعتمدة المهمة، فنحن أول من ابتكر هذه الصور للكعبة المشرفة، و لم يسبق لغيرنا أن وضع مثل هذه الصور فله الحمد و الشكر على توفيقاته المتوالي و نعمائه المتتالية علينا، أما بناية السلطان مراد الرابع للكعبة التي كانت في سنة (١٠٤٠) فإننا لم نتعرض لرسمها، لأنها لم تكن بناية مستقلة بصفة خاصة، بل إن بناية السلطان المذكور كانت على صفة ما قبله من البناية و هي بناية الحجاج الثقفي لم تخالفها في شيء مطلقا.

ثم بعد أن وفقنا الله تعالى لابتكار تلك الصور للبنىات الأربعة، وفقنا أيضا عز شأنه و جل جلاله لوضع منظومة لطيفة من بحر الرجز في بيان تاريخ هذه البنىات بصورة مختصرة تكون سهلة الحفظ لطلبة العلم، و كان كل ذلك في أوائل عام (١٣٦٧) من الهجرة.

و لقد طبعنا هذه الصور، و المنظومة المذكورة في بلاد الهند في أواخر السنة المذكورة، ثم كررنا طبعهما في كتابنا "مقام إبراهيم عليه السلام" في السنة التي تلى العام المذكور بمصر القاهرة، ثم كررنا أيضا طبعهما بعد أن نقحناهما وزدنا عليهما من الفوائد مع كتاب تاريخ القطبي المسمى "الإعلام بأعلام بيت الله الحرام" و ذلك في عام (١٣٧٠) من الهجرة.

ثم إننا وضعناهما أيضا في كتابنا هذا بعد إدخال التحسينات و الزيادات و تدقيق النظر فيهما بالتصحيح و العناية حتى اطمئن القلب إلى إكمالهما على الوجه المطلوب الصحيح.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٤١
فسبحان الملمهم للصواب و إليه المرجع و المآب.

شكل الكعبة من الخارج و الداخل

لقد أجاد الأستاذ محمد لبيب البتونى صاحب الرحلة الحجازية رحمه الله تعالى، و وصف شكل الكعبة من الداخل و الخارج. لذلك رأينا نقل كلامه من رحلته المذكورة هنا و هذا نصه:

الكعبة الآن من الخارج على التعديل الذى رجع إليه الحجاج، و هو ما كانت عليه مدة النبى صلى الله عليه و سلم، ذات شكل مربع تقريبا، مبنى بالحجارة الزرقاء الصلبة. و يبلغ ارتفاعها خمسة عشر مترا، و طول ضلعها الذى فيه الميزاب و الذى قبالته عشرة أمتار و عشرة سنتيمترات، و طول الضلع الذى فيه الباب و الذى يقابله اثنا عشر مترا. و بابها على ارتفاع مترين من الأرض، و يصعد إليه بواسطة مدرج يشبه مدرج المنبر. و المدرج الحالى من الخشب المصفح بالفضة أهدها إلى الكعبة أحد أمراء الهند، و لا يوضع فى مكانه منها إلا- إذا فتح بابها للزائرين فى الاحتفالات الكبرى. و هى غالبا لا- تزيد عن خمس عشرة مرة فى السنة. و فيما عدا ذلك ترى هذا المدرج بجوار قبة زمزم من جهة باب بنى شيبه، و يصعدون إليها بسلم صغير من الخشب. و فى الركن الذى على يسار باب الكعبة الحجر الأسود على ارتفاع متر و خمسين سنتيمترا من أرضية المطاف.

و يحيط بالكعبة من خارجها قصة من البناء فى أسفلها، متوسط ارتفاعها خمسة و عشرون سنتيمترا، و متوسط عرضها ثلاثون سنتيمترا، و تسمى بالشاذروان و هى من أصل البيت تركت خارجه عنه فى بناء قريش لها قبل الإسلام لاختصارهم فى بنائها. و الشاذروان معناه ما يحيط بالسلسيل، و كانوا يطلقونه فى العمارات المصرية القديمة على محيط النافورات التى كانت وسط القاعات الكبرى.

و على ظنى أنه هنا من أثر عمارة الحجاج، أقامه ليقى جدار البيت المعظم من تأثير الأمطار و السيول التى كانت و لا تزال تنزل بكثرة إلى المطاف، و دليلنا على ذلك إنما هو لفظه الفارسى الذى لا- بد أن يكون من وضع عمله من الفرس استحضرهم الحجاج بن يوسف لعمارته. و لا يبعد أن يكون ذلك من عهد ابن الزبير، يؤيده ما ورد فى الأغانى من أن ابن سريح سئل عن الغناء على

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٤٢

القاعدة التى كان يغنى عليها مع أنها ما كانت معروفة عند العرب؟ فقال: إنه تعلمها من عمله من الفرس كان ابن الزبير استحضرهم لبناء الكعبة، و كانوا يتغنون بأغنية لطيفة فأخذها عنهم و أضاف نغماتها على النغمات العربية و غنى بها. و على كل حال فالشاذروان و الميزاب لفظان أعجميان و لم يرد ذكرها على مدته صلى الله عليه و سلم. و يسمون زوايا البيت الخارجية بالأركان: فالشمال منها يسمونه بالركن العراقى لأنه إلى جهة العراق، و الغربى يسمونه الشامى لأنه متجه إلى جهة الشام، و القبلى يسمونه اليمانى لاتجاهه إلى اليمن و فيه حجر يسمونه الحجر الأسود، و الشرقى يسمونه بالركن الأسود لأن فيه الحجر الأسود، و هو حجر صقيل بيضاوى غير منتظم و لونه أسود يميل إلى الاحمرار و فيه نقط حمراء و تعاريج صفراء، و هى أثر لحام القطع التى كانت تكسرت منه، و قطره نحو ثلاثين سنتيمترا، و يحيط به إطار من الفضة عرضه عشرة سنتيمترات و المسافة التى بين ركن الحجر و باب الكعبة يسمونها الملتزم، و هو ما يلتزمه الطائف فى دعائه.

و يخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعلاه الميزاب "المزراب" و يقال له ميزاب الرحمة، و هو من عمل الحجاج وضعه على سطحها حتى لا تقف عليه مياه الأمطار، و كان من نحاس فغيره السلطان سليمان القانونى سنة ٩٥٩ هـ بآخر من الفضة، و تجدد فى

سنة ١٠٢١ هـ مدد السلطان أحمد بغيره من الفضة المنقوشة بالميناء الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية. وقد رأيت محفوزا في دار الآثار السلطانية الخصوصية بالآستانة. وفي سنة ١٢٧٣ أرسل إليها السلطان عبد المجيد ميزابا من الذهب وهو الموجود بها الآن. و قبالة الميزاب من الخارج يوجد الحطيم: وهو قوس من البناء طرفاه إلى زوايتي البيت الشمالية والغربية، و يبعدان عنهما بمسافة مترين و ثلاثة سنتيمترات. و يبلغ ارتفاعه مترا و ستمه مترا و نصف و هو مغلف بالرخام المنقوش و في محيطه من أعلاه كتابة محفورة بالخط المعلق فيها آيات قرآنية و تاريخ من قام بعمارتها. و مسافة ما بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار و أربع و أربعون سنتيما، و الفضاء الواقع بين الحطيم و حائط البيت هو ما يسمونه بحجر إسماعيل (بكسر الحاء و سكون الجيم) و قد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريبا في الكعبة في بناء إبراهيم، و الباقي كان زريبة لغنم هاجر و ولدها، و يقال إن هاجر و إسماعيل مدفونان به.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٤٣

أما الكعبة من الداخل: فشكلها مربع مشطور الزاوية الشمالية، و هي التي على يمين الداخل، و بهذه الشطرة باب حقيير اسمه باب التوبة يوصل إلى سلم صغير يصعد به إلى سطحها.

و بوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القاقل، عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزاب من جهة و حائط الحجر الأسود من جهة أخرى و قطر كل عمود نحو ثلاثين سنتيما. و هذه الأعمدة من زمن عبد الله بن الزبير و قيمتها أكبر من أن يقدر لها ثمن و يقال إن عليها كتابة محفورة فيها و لكني لم أرها. و قد ذكر أنه كان بالكعبة قبل الإسلام ستة أعمدة و لا أدري إن كانت من البناء أو من الخشب. و يغطي سقف الكعبة و حوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردى عليها مربعات مكتوب فيها (الله جل جلاله) قد أهداها إليها السلطان عبد العزيز رحمه الله. و في قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلى فيه النبي عليه الصلاة و السلام. و يحيط ببناء البيت من الداخل إزار من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين، و قد وضع في الحائط الغربي ألواح محفور في الأول منها (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت المعظم العبد الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن عمر بن علي رسول، اللهم أيده يا كريم بعزير نصرك و اغفر له ذنوبه برحمتك يا كريم يا غفار يا رحيم). و مكتوب حول هذه اللوحة (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي و علي والدي و أن أعمل صالحا ترضاه لي بتاريخ سنة ثمانين و ستمائة و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم) و إلى جواره لوحة مكتوب فيها (أمر بتجديد سقف البيت الشريف و جميع داخل الحرم و خارجه مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان سنة سبعين و ألف). ثم لوحة أخرى فيها (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، تقرب إلى الله تعالى بتجديد رخام هذا البيت المعظم المشرف العبد الفقير إلى الله تعالى السلطان الملك الأشرف أبو النصر برسباي خادم الحرمين الشريفين بلغه الله آماله و زين بالصالحات أعماله بتاريخ سنة ست و عشرين و ثمانمائة). و في لوحة أخرى (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة البيت المعظم الإمام الأعظم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله أقصى آماله و تقبل منه صالح أعماله في شهور سنة تسع و عشرين و ستمائة و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم). ثم لوحة أخرى منقوش فيها (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت العتيق المعظم الفقير إلى الله سبحانه و تعالى خادم الحرمين الشريفين مؤمن الحجاج في البرين و البحرين السلطان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٤٤

بن السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان خلد الله تعالى ملكه و أيد سلطته في آخر شهر رمضان المبارك المسطر في سلك شهور سنة أربعين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و التحية) و في الجدار الشرقي لوح مكتوب فيه (أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك أبو النصر قايتباي خلد الله ملكه يا رب العالمين، عام أربع و ثمانمائة من الهجرة) و في الجدار الشمالي مكتوب على باب التوبة هذه الأبيات:

قد بدا التعمير في بيت الإله قبله الإسلام و البيت الحرام

أم خاقان الورى مصطفى خان خان دام بالنصر العزيز المستدام
بادرت صدقا إلى التعمير ذإنما كان يالهام السلام
و ارتجت من فضله سبحانه أن يجازيها به يوم القيام
قال تاريخا له قاضى البلدهمته أم سلطان الأتام

بمباشرة أحمد بك فى سنة تسع و مائة و ألف، و بلغنى أن فى البيت حجرا مكتوبا بالكوفى و يقال إنه قديم جدا و أنه من القرن الأول للهجرة، و إن صح ذلك كان من عمل الحجاج بن يوسف و بجانب الباب على يسار الداخل طاولة من الخشب مغطاة بستارة من الحرير الأخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة، و هو من الأطللس الأخضر المزركش بالقصب، يأتى إليها سنويا من مصر مع الكسوة الشريفة. معلق بسقف البيت كثير مما بقى من الذخائر التى أهديت إليه، و من ذلك عدة مصابيح ذهبية و فضية لا تقل عن مائة و منها مصباحان ذهبيان مرصعان بالجواهر أهدهما للكعبة السلطان سليمان القانونى سنة (٩٨٤) انتهى من الرحلة الحجازية للبنونى.

و هو يقول بهامش الرحلة عند هذه الأبيات ما نصه: "من هذا الشعر يمكنك أن تحكم على مقدار تأخر اللغة العربية ببلاد العرب و خصوصا فى القريضة منها حوالى القرن الحادى عشر للهجرة." اه. و نحن نقول كلامه هذا غير صحيح فاللغة العربية لم تتأخر ببلاد العرب مطلقا لا فى النثر و لا فى القريض، و هذه الأبيات لم يقلها أحد من العرب لا من الحجازيين و لا من غيرهم، و إنما هى من قول بعض علماء الأتراك كما لا يخفى ذلك على أهل الذوق، بل يعلم ذلك من صريح عبارة البيت الخامس و هو "قال تاريخا له قاضى البلد" أى قاضى بلدة مكة و قد جرت العادة فى زمن الدولة العثمانية التركية أن يرد قاضيتها من دار السلطنة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٤٥

فغالب علماء غير العرب لا تكون لهم القدرة التامة لقول الشعر البليغ، و ليس هذا مما يقدر فيهم و لا ينقص من مقدارهم، بل إن كثيرا من علماء العرب ليست لهم ملكة كافية لقول الشعر.

وصف الكعبة و المسجد الحرام

قال أمير الشعراء أحمد شوقى بك المصرى المتوفى سنة إحدى و خمسين بعد الثلاثمائة و الألف فى كتابه "أسواق الذهب" فى وصف الكعبة و المسجد الحرام ما نصه:

الساحة الكبرى، و الدار اللوم، و الموسم الحاشر، المتندى و المؤتمر، و متابة الزمر، إبره المجر، و نجم المصحر، قبله البدوى فى قفره، و وجهة القروى فى كفره، حرم الله المطهر و بيته العتيق المستر، الذى وجه إليه الوجوه، و فرض على عباده أن يحجوه، نظرت إليه المساجد فى كل خمس، و قامت إليه قيام الحرياء إلى الشمس، بناه الله بمكة على فضاء زكى لم يتنافس فيه الناس، و خلا إلا من جحر أدكناس، فلا لدينا سحبت عليه غرورها، و لا النفوس نقلت فيه شرورها، و لا الحياة أزارته باطلها و زورها.

لو شاء الله لبنى بيته بمصر على نهر فياض، و واد كله قطع الرياض، و لو شاء الله لا تخذ بيته بالشام، بين الجداول المظلمة، و الربى المكلفة، و الغصون المهذلة، و القطوف المذلة، و لو شاء الله جلت قدرته لرفع بيته على أنوف الجبابرة، ملوك الأعصر الغابرة، و فوق هام آلهتهم و هى ممهدة منضدة، فى الغرف المشيدة و القباب الممردة.

و لكنه تعالى نظر إلى أم القرى، فرأى بها ذلا- لعز سلطانه و افتقارا إلى غناه و إحسانه، و رأى خشوعا يستأنس به الإيمان، و تجردا تسكن إليه العبادة، و رأى انفرادا يجرى فى معنى التوحيد، فأمر إبراهيم حواريه و نبيه، و خليله و صفيه، أن يرفع بذلك الوادى ركن بنيته، و ينصب بين شعبه منار وحدانيته.

بنيان قام بالضعف و القوة، و نهض على كاهل الكهولة و ساعد الفتوة، و اشتركت فيه الأبوة و النبوة، فكنت ترى إبراهيم يزاول، و

إسماعيل بين يديه يناول، حتى بنينا بيتا أعيا المعاول و عجز عنه الذى دمر تدمر و أبلى بابل، فانظر إلى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٤٦

صفائح الباطل كيف باد، و إلى آجر الحق كيف أفنى الآباد، و تأمل عجائب صنع البنية، و كيف ظفرت لبنه التوحيد بصخرة الوثنية. بنى البيت و إذا الجلال حجه و أستاره، و الحق حائطه و جداره، و التوحيد مظهره و مناره، و البنيون بناته و عماره، و الله عز و جل ربه و جاره، اطلعت به مكة اطلاق المشكاة بالمصباح، فزهر فضاء البراح، و انتظم الهضاب و البطاح، أضوا من الشمس ذباله، و أبهر من القمر هاله، فى منازل الشرف و الجلالة، قد حاز الله له من نباهه الذكر و فخامه الشأن، ما لم يحز لتقديم من معالم الحق و لا حديث، بر العبادة، و فضيلة الحج، و شرف البانى و روعة العتق و جلاله التاريخ.

يقول الغواة: لو كانت الكعبة من فضة أو ذهب، و يقولون: لو كانت كبيع النصارى فى عواصم الغرب رفعة بناء، و ديباجة فن و وشى زخرف. و أقول للغواة: لو تركت الكعبة على فطرتها الأولى فلم يطول بناؤها، و لم تزين بالذهب أجزاءها، و لم تتعدد فى الزخرف أشياءها، لكان بعقريتها أليق، و بروحانيتها أشبه و أخلق، فى تقدير قدسها غاية و نهاية. انتهى من كتاب أسواق الذهب.

و للأديب المكي الشهير الأستاذ سراج الخراز فى الكعبة المشرفة:

رمز الخلود و كعبة الإسلام كم فى الورى لك من جلال سام
يهوى البناء إذا تقادم عهده و أراك خالدة على الأيام
فى كل عام حول بابك و قفة للناس من عرب و من أعجام
فإذا الحجيج توافدت أفواجه و تراحمت فى البيت أى زحام
أبصرت ثم عرى الإخاء و طيده و شهدت حقا قوة الإسلام
و إذا الصلاة دنت رأيت صفوفهم بحرا يموج برقع و قيام
متهللين يحوطهم من ربهم نور الهدى الحاص لكل ظلام
فى الركن و الحجر المقدس فى الورى سران قد دقا على الإفهام
كم لأمسى و مقبل لكليهما عن طاعة منه و عن إعظام
و هو الذى تعنو لصرح جلاله صيد الملوك و عليه الحكام
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٤٧

قصيدة أمير الشعراء فى البيت الحرام

قال أمير الشعراء أحمد شوقى بك رحمه الله تعالى فى كتابه دول العرب و عظماء الإسلام فى البيت الحرام ما يأتى:
دار عليها ميسم من القدم حجت على أول خف و قدم
مهد الهدى فى الأولين ركنها و حصنه فى الآخرين صحنها
تلك جباه الرسل فى ترابها و خد إبراهيم فى محرابها
غنية عما كساها أسعد فى الدهر و هو بالثناء أسعد
و كم جلاها فى اليمانى المسبل من قبلت منه و من لم تقبل
لا تلمس و شيها ضريرارب عروس تلعن الحريرا
تواضعت بين شعاب الوادى لم تتخذ تبذخ الأطواد

لم تبين بالصفاح و الصوان و لا علت تعالى الإيوان
لا يد خوفو أرهقت فيها البشر و لا سليمان لها الجن حشر
بل صنع شيخ مقبل مزاول أعين بابتن يافع مناوول
قد رفاعها حجرا فوق حجرو وضعها فيها على اليمن الحجر
الله يوحى و الأمين يشهدو تخشع الأرض و يعلو المعهد
حتى تجلت قبة الإيمان محدودة الظل على الزمان
و ركنها كامن فى أم القرى تطوى القباب و القصور و القرى
دعائم من خشية و تقوى على تطاول الزمان تقوى
و ما بنى الحق له الثبوت و ما بنى الباطل عنكبوت
تقبل الله من الحوارى و اختص بالبيت و بالجوار
و اختار من عباده قبائل ليت يهدو نهم السبيل
أولو الإله الكرماء عهدا النازلوا البيت العتيق مهذا
الراضعو زمزم فى الهواجر و هى تدر من بنان هاجر
غرة آبائهم الذبيح و الأمهات جرهم الصبيح
أبناء إسماعيل حول بكه تضوعت منهم شعاب مكة
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٤٨ يتهمو محبوبه مفاخره أوله نبوة و آخره

موضع الحطيم

قال الأزرقى عن ابن جريج ملخصا: الحطيم ما بين الركن و المقام و زمزم و الحجر، فسمى هذا الموضع الحطيم، لأن الناس كانوا يحطمون هنالك بالأيمان و يستجاب فيه الدعاء على الظالم للمظلوم، فقل من دعا هنالك على ظالم إلا هلك، و قل من حلف هنالك إثما إلا- عجلت له العقوبة، فكان ذلك يحجز بين الناس عن الظلم و يتهيب الناس الأيمان، فلم يزل ذلك كذلك حتى جاء الله بالإسلام فأخذ الله ذلك لما أراد إلى يوم القيامة. انتهى منه.

نقول: يعلم مما ذكر أن الحطيم هو ما كان فى وجه البيت، فيما بين الركن الأسود و حجر إسماعيل طولا، و أما عرضا فإلى زمزم و المقام، و هو جزء من حد المسجد الحرام قديما من الجهة الشرقية.

و هذا معقول: لأن العائد ببيت الله الحرام لا بد و أن يأتيه من قبل وجهه حتى يقف أمامه، و وجه البيت هو ما فيه الباب، و الله تعالى يقول: وَ أَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا.

و قال بعضهم: الحطيم هو الحجر، بكسر الحاء المهملة، لأنه حطم من البيت أى كسر منه، لكن هذا القول ضعيف فإن ما حطم من البيت إنما كان فى بناء قريش الكعبة حيث نقصوا من طولها من جهة حجر إسماعيل، و كان هذا البناء و للنبي صلى الله عليه و سلم من العمر نحو خمس و ثلاثين سنة فكان يحمل معهم الحجارة لبناء الكعبة. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ٢-٣؛ ص ٤٤٨ لقول الصحيح المعتمد هو كلام الإمام الأزرقى المذكور، من أن الحطيم هو ما بين ركن الحجر الأسود و حجر إسماعيل و المقام و زمزم. فهذا الموضع هو الذى كانوا يطلقون عليه الحطيم من زمن الجاهلية قبل بناء قريش الكعبة و قبل أن يحطم من البيت الحرام شىء كما هو صريح كلام الإمام الأزرقى و كفى به حجة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٤٩

موضع خزانة الكعبة

نقل هنا ما ذكرناه في كتابنا "مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام" المطبوع بمصر عن خزانة الكعبة المشرفة فقد قلنا هناك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما بنى الكعبة المشرفة حفر في باطنها على يمين من دخلها حفرة عميقة كالبئر وجعل عمقها ثلاثة أذرع يلقي فيها ما يهدى إليها من المتاع والحلى والذهب والفضة والطيب وغير ذلك، فهذه الحفرة تسمى بخزانة الكعبة وبالجب، وبالغيب، وبالأخسف، وكان يسمى مال الكعبة بالإبرق.

فلما أن بنتها قريش قبل البعثة بخمس سنوات أبقوا جب الكعبة في مكانه ونصبوا عليه هبل، وهو أعظم أصنام قريش، كان عمرو بن لحي قدم به من هيت من أرض الجزيرة، ونصبه على الجب في بطن الكعبة وأمر الناس بعبادته، وذلك قبل بناء قريش، فلما بنتها وضعت هبل على الجب كما كان سابقا.

ولم نر أحدا من المؤرخين ذكر شيئا عن جب الكعبة في بناء ابن الزبير وفي بناء الحجاج هل أبقوه فيها كما كان أم طمروه ودموه؟ والذى نراه والله تعالى أعلم بالغيب أن جب الكعبة ردم بالحجارة في بناء ابن الزبير أو كان كذلك في بناء الحجاج إلى يومنا هذا، لأن أرض الكعبة من الداخل مرتفعة الآن عن أرض المطاف ارتفاعا موازيا لعتبة بابها، فقد كبست بالحجارة التي فصلت من أحجار الكعبة حين بناء الحجاج، وكان أول من فرشها بالرخام الوليد بن عبد الملك.

فلما ردموا جب الكعبة في باطنها، جعلوا خزانتها في دار شيبه بن عثمان بن أبي طلحة، فصارت هدايا الكعبة توضع في هذه الدار التي كانت إلى جنب دار الندوة عند المسجد الحرام.

يقول الأزرقى: دار شيبه بن عثمان هي إلى جنب دار الندوة وفيها خزانة الكعبة وهي دار أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى ابن عثمان بن عبد الدار ولها باب في المسجد الحرام. انتهى.

نقول: وموضع دار الندوة هي باب الزيادة مع الرحبة، وأما باب بنى شيبه قديما فهو باب السلام ومكانه الآن موضع العقد القائم عند مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ولقد استنتجنا ذلك من الحوادث الواردة في كتب التاريخ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٥٠

المعتمدة فمنها: أن ابن الزبير لما هدم البيت، عمد إلى ما كان فيه من حلية، فوضعها في خزانة الكعبة في دار شيبه بن عثمان.

ومنها: أن أحد ملوك التبت حين أسلم بعث بصنمه الذى كان يعبد هدية إلى الكعبة. وكان من الذهب الخالص، وكان مكلا بالجوهر واليواقيت، وكان على سرير من فضة، فوصل كل ذلك إلى مكة، ونصب فيها ثلاثة أيام ليراه الناس، ثم استلمته الحجة فجعلوه في خزانة الكعبة في دار شيبه بن عثمان، وسند ذكر هذه القصة في أواخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

ومنها: أن محمد بن جعفر بن محمد أرسل إلى الحجة فتسلف منهم من مال الكعبة خمسة آلاف دينار، ليستعين بها على فتنة أصحاب المقنع الذين ظهروا بمكة ثم قضاها عنه أمير المؤمنين المأمون، فقبضتها الحجة، وردوها في خزانة الكعبة.

ومنها: أن بنى عبد الدارين قصى بن كلاب كانت لهم دار الندوة، ودار شيبه بن عثمان، وهي إلى جنب دار الندوة، وفيها خزانة الكعبة.

فيعلم مما ذكرناه أن خزانة الكعبة كانت في بئر داخلها من أيام إبراهيم عليه السلام إلى أن بناها ابن الزبير رضى الله عنهما، فقدم الخزانة في بطن الكعبة، ونقلها إلى دار شيبه بن عثمان، فصارت هداياها تحفظ في داره. أما الآن فليس للكعبة مال يحتفظ به، وليس فيها من الهدايا إلا ما هو معلق بسقفها من داخلها، ولم نسمع منذ مدة طويلة أن أحدا أهدى إلى الكعبة شيئا، ونظن أن آخر هداياها كان في سنة أربع وتسعين بعد الألف وهي خمسة قناديل أرسلتها ملكة بندر آشى في إمارة الشريف سعيد بن بركات فعلقت بها، والله تعالى أعلم.

انتهى من كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام.

نقول: يعلم مما تقدم عن خزانه الكعبة و عن بنائها الذى كان فى عهد قريش و فى أيام ابن الزبير رضى الله تعالى عنه، بأنه عند إرادة تجديد بنائها هدموها حتى بلغوا أساس إبراهيم عليه الصلاة و السلام و قواعده، و هى صخر أمثال الخلف من الإبل فبنوا عليه. يعلم من كل ما تقدم أنه لم يبق لخزانه الكعبة من أثر و ليس فيها شىء مدفون، و أن كل ما فى الكعبة من ذهب و أشياء ثمينة إنما هو فى داخلها ظاهر أمام أعيننا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٥١

لكن هنا إشكال لم نفهمه و هو: ورد فى الحديث الذى رواه أبو داود الطيالسى بسند صحيح "يباع للرجل بين الركن و المقام و أول من يستحل هذا البيت أهله فإذا استحلوه فلا- تسأل عن هلكة العرب ثم تجيء الحبشة فيخربونه خرابا لا- يعمر بعده و هم الذين يستخرجون كنزه."

و ورد فى الحديث أيضا الذى رواه أبو داود من حديث عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم "اتركوا الحبشة ما تركوكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة."

فنحن لم نفهم المراد من كنز الكعبة فى الحديث و الحال أنه لا كنز لها مدفون تحتها اليوم.

اللهم إلا إن فسرنا الكنز بما هو معلق فى سقفها من الأشياء الثمينة و ما فيها من الذهب و الفضة المضروبين على مصراعى بابها على ميزابها و على بعض أعمدها الداخلى، و هذا التفسير هو صريح الحديث الذى رواه أحمد من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة و يسلب حليها و يجردها من كسوتها... الحديث" و الله تعالى أعلم.

و على كل حال فقد آتيا بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، نسأل الله الثبات و التوفيق و الهداية إلى أقوم طريق، فإننا لا نملك لأنفسنا نفعاً و لا ضراً، و الله لطيف بعباده يرزق من يشاء و هو القوى العزيز.

أركان الكعبة المعظمة

تقدم الكلام على أن خليل الله و نبيه إبراهيم عليه الصلاة و السلام لما بنى الكعبة جعل لها ركنين فقط "ركن الحجر الأسود و الركن اليمانى" و جعل جدار الكعبة من جهة حجر إسماعيل مدورا ليس فيه ركنان. فلما بناها عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما جعل لها أربعة أركان، ركنين من جهة حجر إسماعيل و ركنين من الجهة المقابلة كما كانا فى السابق.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٥٢

و كثير من الناس يشكل عليه اسم الركنين اللذين جعلهما ابن الزبير، لذلك رأينا أن نتكلم عن أركان الكعبة المشرفة بتفصيل تام و أن نبين محلاتها فى رسم صورتها.

فنقول و بالله التوفيق و عليه الاتكال و هو حسنا و نعم الوكيل و لا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم. و لنبدأ بالأركان بالترتيب على حسب مشروعية الطواف، أى بجعل الكعبة على يسار الطائف بها:

"فالأول: "الركن الأسود، سمي به لأن فيه الحجر الأسود، و يسمى أيضا بالركن الشرقى، و منه يبتدأ الطواف.

"و الثانى: "الركن العراقى، سمي بذلك لأنه إلى جهة العراق و يسمى هذا الركن أيضا بالركن الشمالى نسبة إلى جهة الشمال، و بين هذا الركن و الركن الأسود يقع باب الكعبة.

"و الثالث: "الركن الشامى، سمي بذلك لأنه إلى جهة الشام و المغرب، و يسمى هذا الركن أيضا بالركن البحرى و بالركن الغربى. و بين هذا الركن و الركن العراقى يقع حجر إسماعيل الذى يصب فيه ميزاب الكعبة.

"و الرابع: "الركن اليماني، سمي باليماني لاتجاهه إلى اليمن، وفي صبح الأعشى قال ابن قتيبة: سمي بذلك لأنه بناه رجل من اليمن يقال له ابن أبي سالم والله تعالى أعلم.

وفي شفاء الغرام سمي الركن اليماني فيما ذكره العيني لأن رجلا من اليمن بناه اسمه أبي بن سالم و أنشد:

لنا الركن في البيت الحرام وراثته بقيه ما أبقى أبي بن سالم

ونحن نقول كلام ابن قتيبة بعيد الاحتمال لم نر أحدا ذكره، والأقرب إلى الصحة التسمية الأولى لاتجاهه إلى اليمن، كما أن كل ركن ينسب إلى بقية الجهات. فالركن الأسود يطلق عليه الركن الشرقي لوقوعه جهة الشرق، والعراقي يطلق عليه الركن الشمالي لوقوعه جهة الشمال، والشامي يطلق عليه الركن الغربي لوقوعه جهة الغرب، واليماني لوقوعه جهة اليمن. وكل ذلك مطابق لواقع الحال لا يخفى على أهل مكة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٥٣

وقد يطلق على الركن اليماني والركن الأسود اليمانيان، وعلى الركن الشامي والركن العراقي الشاميان وربما قيل الغربيان على جهة التغليب. وإذا أطلق الركن فالمراد به الركن الأسود فقط.

ولا يخفى أن هذا مبحث نفيس مهم، وقد يقع كثير في الغلط بين اسمي الركنين الواقعين في طرفي جدار حجر إسماعيل "العراقي و الشامي" حتى أن القلقشندي غلط فيهما في كتابه صبح الأعشى بصحيفة ٢٥١ وكلنا يجوز عليه السهو والغلط.

لكن بفضل الله تعالى وتوفيقه قد أوضحنا هنا إيضاحا ليس للشك فيه مجال.

ولم نر لأحد بيانا أوضح من بياننا وعزناه برسم جميع الأركان في الصورة المذكورة فالحمد لله رب العالمين.

أركان الكعبة الأربعة

للكعبة اليوم أربعة أركان وقد كان في العصر الغابر في عهد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حينما بناها جعل لها ركنين فقط الركن الأسود والركن اليماني وجعل مؤخر الكعبة من جهة حجر إسماعيل عليه السلام مدورا على هيئة نصف دائرة. فبقيت الكعبة المعظمة على هذه الهيئة في بناء العمالقة لها وفي بناء جرهم وفي بناء قصي وفي بناء قريش الذي كان قبل بعثته صلى الله عليه وسلم بخمس سنين.

فلما بنى عبد الله بن الزبير الكعبة المشرفة رضى الله تعالى عنهما سنة أربع وستين من الهجرة جعل لها أربعة أركان الركنين الأولين المذكورين والركنين العراقي والشامي اللذين من جهة الحجر، فكانت هذه الأركان الأربعة تستلم في زمانه إلى أن قتل رضى الله تعالى عنه فرجع الناس إلى استلام الركنين الأولين الأساسيين الركن الأسود والركن اليماني.

فما زالت الكعبة المشرفة من عصره إلى يومنا هذا بأربعة أركان، وترتيب هذه الأركان بالنسبة لمن طاف حول الكعبة وجعلها على يساره كما يأتي:

(١) ركن الحجر الأسود وهو قبل باب الكعبة وهو معروف.

(٢) فالركن العراقي وهو بعد باب الكعبة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٥٤

(٣) فالركن الشامي وهو بعد ميزاب الكعبة.

(٤) فالركن اليماني وهو قبل الحجر الأسود وهو معروف أيضا.

الحفرة التي عند باب الكعبة المشرفة

العصر و الشمس في حجرتها قبل أن تظهر.

انتهى.

جاء في صحيح البخارى في كتاب بدء الخلق في باب ذكر الملائكة:

حدثنا قتيبة حدثنا ليث عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخر العصر شيئاً، فقال له عروة: أما إن جبريل قد نزل فضلى أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: أعلم ما تقول يا عروة، قال: سمعت بشير بن أبى مسعود يقول: سمعت أبا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٥٦

مسعود يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: نزل جبريل فأمنى فضليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، انتهى.

هذا الكلام كنا كتبناه في مؤلفنا "مقام إبراهيم عليه السلام" المطبوع عام (١٣٦٨ هـ) لأول مرة بمطبعة مصطفى البابى الحلبي و شركاه بمصر.

ولزيادة التحقق عن هذا المبحث، فقد ذهبنا إلى المسجد الحرام صباح يوم الثلاثاء الرابع من شهر جمادى الأولى سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف، فوقفنا عند باب الكعبة المعظمة و تأملنا نفس الحفرة المذكورة و ما حولها و أخذنا القياس لها و لبعض الأماكن بالمر كما سنبينه، فظهرت لنا الحقيقة عن الحفرة تمام الظهور و وضح ما كان خافياً تمام الإيضاح، و هذا المبحث لا يوجد في كتاب مطلقاً إلا في تاريخنا هذا، فالحمد لله على توفيقاته و نعمه العظمى المتواليه. و إليك بيان ذلك كما يأتي:

إن هذه الحفرة التي عند باب الكعبة المعظمة لم تكن حفرة حقيقة، و إنما كانت في صدر الإسلام من نفس أرض المطاف الترابية، غير أنه كان في موضعها علامة لتدل عليها، كفرشها برملة بيضاء مثلاً- فلما فرشوا أرض المطاف بالحجارة الصخرية، و بالحجارة الرخامية المرمرية، جعلوا هذا الموضع حفرة كالحوض عمقها نحو ثلاثين سنتيمترا حتى لا يندرس هذا المحل.

و قياس هذه الحفرة الرخامية المستطيلة الشكل، و التي تشبه الحوض الصغير هي كما يأتي بالأمتار:

طولها: متران، و عمقها: ثمانية و عشرون سنتيمترا، و بين آخر هذه الحفرة إلى ركن الكعبة من جهة حجر إسماعيل هو خمسة أمتار و ستين سنتيمترا، و ما بين أول الحفرة إلى ركن الحجر الأسود هو أربعة أمتار و ثمانون سنتيمترا. و من أول هذه الحفرة إلى أول شباك مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام عشرة أمتار إلا أربعة عشر سنتيمترا و في هذه الحفرة يمكن أن يصلى أربعة رجال براحة تامة بدون تراحم.

فإن قال قائل: هل كانت مساحة أرض هذه الحفرة في عهد الصحابة رضی الله عنهم كمساحتها اليوم أم لا؟

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٥٧

نقول: المعقول أن تكون مساحة هذه الحفرة في صدر الإسلام كمساحتها اليوم، و ذلك أن هذه الحفرة على مساحتها اليوم يمكن أن يصلى فيها أربعة أشخاص كما تقدم، و هذه الحفرة هي موضع مصلى جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم، و هي أيضا موضع حجر مقام إبراهيم عليه السلام الذي يبلغ طوله ذراع واحد.

فإذا حسبنا أن هذا المقام الذي يبلغ ذراعا واحدا بشخص واحد، و النبي صلى الله عليه وسلم هو الثاني و جبريل عليه السلام هو الثالث، كان الباقي هو مكان الرجل الرابع، و إذا فرضنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى في هذه الحفرة يتقدم أحيانا بخطوة أو خطوتين، أو يتأخر أحيانا كذلك بخطوة أو خطوتين فهذا القدر من التقدم أو التأخر إذا حسبناه بمكان الرجل الرابع، ظهر لنا بوضوح تام أن مساحة هذه الحفرة اليوم هي نفس مساحتها في صدر الإسلام.

فالمتران اللذان هما طول الحفرة يكفيان لصلاة أربعة رجال، و المتر و العشرة السنتيمترات التي هي عرض الحفرة هي مقدار ما يتمكن المصلى من الركوع و السجود.

فعلية تكون مساحة الحفرة في زماننا هي مساحتها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بدون شك ولا ريب، والله تعالى أعلم بغيبه. وإن سأل سائل: هل محل هذه الحفرة كان معروفاً من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام وفي عهد الجاهلية قبل الإسلام أم لا؟

فنقول: إن محل هذه الحفرة لم يكن له ذكر قبل الإسلام مطلقاً، لا في عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ولا في عهد الجاهلية، لأنه لم يكن هناك أمر يوجب إسناد الحفرة ونسبتها إليه، غير أنه كان يعرف في الجاهلية أن حجر مقام إبراهيم كان يوضع أحياناً في شطر من الحفرة كما كان كذلك في عهد النبيين الكريمين إبراهيم الخليل وإسماعيل الذبيح عليهما الصلاة والسلام، وأحياناً كان يوضع داخل الكعبة المعظمة. فلما جاء الإسلام، وفرضت الصلوات الخمس، وصلى جبريل إماماً بالنبي عليه الصلاة والسلام في محل الحفرة ليعرفه كيفيتها، وكان النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً إذا دخل الكعبة وأراد أن يركع خارجها صلى عند باب الكعبة أي في هذا الموضع كما سيأتي بيانه.

حافظ المسلمون على هذا المحل من ذلك الوقت إلى اليوم وصار لها شأن يذكر.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٥٨

وإن قيل: لماذا كان يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في محل الحفرة؟ ولماذا كانوا يجعلون حجر مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذا المحل أيضاً؟

نقول: مما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلى في جميع نواحي الكعبة، ليقتدى المسلمون بفعله صلى الله عليه وسلم، فالكعبة في ذاتها قبله المسلمين كافة أينما كانوا في مشارق الأرض ومغاربها. لكنه عليه الصلاة والسلام كان إذا خرج من الكعبة صلى ركعتين عند باب الكعبة كما جاء ذلك في مسند الإمام أحمد عن ابن عباس أن الفضل بن عباس أخبر أنه دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل في الكعبة ولكنه لما خرج، نزل فصلى ركعتين عند باب الكعبة. اهـ. وجاء في شفاء الغرام: وقال القاضي عز الدين بن جماعة في هذا المعنى فيما أخبرني به خالي عنه قال: -يعني أحمد بن حنبل- حدثنا هشيم قال: أخبرنا عبد الملك عن عطاء قال: قال أسامة بن زيد: دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت فجلس فحمد الله وأثنى عليه وهلل وخرج ولم يصل.

ثم دخلت معه في اليوم الثاني فقام ودعا ثم صلى ركعتين ثم خرج فصلى ركعتين خارجاً من البيت مستقبل وجه الكعبة ثم انصرف وقال: هذه القبلة.

اهـ.

نقول: كان هذا في ثاني يوم الفتح.

وجاء فيه أيضاً: وروى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد أيضاً: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج فلما خرج ركع قبل البيت ركعتين وقال: هذه القبلة.

قوله: قبل البيت: هو بضم القاف والباء، ويجوز إسكان الباء، ومعناه على ما قيل ما استقبلك فيها وقيل مقابلها.

فصلاته عليه الصلاة والسلام عند الكعبة كما ورد كانت في محل هذه الحفرة بدون شك، لأنه كان في محلها مقام إبراهيم، ولأنه في هذا المحل أيضاً صلى به جبريل الصلوات الخمس حين فرضت، ولأن هذا المحل وما بعده إلى جهة حجر إسماعيل هو أصلح محل للصلاة من جهة وجه الكعبة إلى يومنا هذا وبيان ذلك:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٥٩

(١) هو أن الإنسان إذا صلى في مواجهة باب الكعبة تحت عتبتها، فإنه لا يتمكن من الخشوع والخضوع في الصلاة لمرور الناس أمام المصلى ليقفوا على الباب يدعون ربهم تحت عتبة بابه، وهو مكان استجابة الدعاء.

(٢) وإذا صلى عند الملتزم وهو على شمال مستقبل باب الكعبة، وهو المكان الذي بين الباب والركن الأسود، ومقداره متران فقط، فإنه لا- يتمكن المصلي أيضا من الخشوع والخضوع لمرور الناس أمامه ووقوفهم في الملتزم للدعاء والتضرع، وهو مكان الإجابة أيضا.

فعليه يكون أحسن وأصلح مكان للصلاة في وجه الكعبة يتمكن المصلي فيه من الخشوع والخضوع والراحة، هو المكان الواقع على يمين مستقبل باب الكعبة إلى جهة حجر إسماعيل، ففي هذا المكان يقع محل الحفرة وهو قريب من الباب، فما بين أول هذه الحفرة وبين أول الباب إلا ستون سنتيمترا.

ولما كان أيضا هذا المحل يوضع في شطره حجر مقام إبراهيم عليه السلام، وكان أيضا هذا المحل هو موضع صلاة جبريل بالنبي عليه الصلاة والسلام، كان هذا المكان أفضل مكان لصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خروجه من الكعبة.

أما لماذا كانوا يجعلون حجر المقام في شطر هذه الحفرة من قبل الإسلام؟ فعلة ذلك نفس السبب الذي ذكرناه عن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحفرة، فإن هذا مقام كريم وهو من الآيات البينات كما قال الله تعالى: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ خَلِيلُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ لَبَاءَ الْكَعْبَةِ، فينبغي أن يكون محله عند الكعبة. وليس من المعقول أن يوضع عند عتبة باب الكعبة، ولا أن يوضع على يسار الباب عند الملتزم، لأن عتبة الباب وموضع الملتزم هما محل وقوف الناس للدعاء والتضرع ليلا ونهارا على الدوام.

فلو وضع حجر المقام في هذين المحلين لحصل التضييق على الناس، ولكان المقام معرضا للإهانة والتلف تحت أرجل الناس، فوضعه على يمين باب الكعبة في محل الحفرة هو عين الصواب والحكمة. هذا ما كان قبل الإسلام في عهد الجاهلية أما بعد ظهور الإسلام وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يصلوا خلف المقام كما في صريح الآية الكريمة وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ أَنْ يَنْقُلَهُ مِنَ الْحِفْرَةِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٦٠

تعالى عنه فيضعه في محله الآذن بقرب زمزم في مقابل الحفرة أيضا، حتى لا يحصل تشويش على المصلين الذين يصلون خلفه من الطائفين الذين يطوفون حول البيت.

فخلاصة القول: أن هذه الحفرة التي هي عند الكعبة المشرفة، إنما هي موضع مصلى جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم حين فرضت الصلوات الخمس.

وهي أيضا موضع مصلى النبي عليه الصلاة والسلام إذا خرج من الكعبة، وأيضا هي موضع حجر مقام إبراهيم عليه السلام من قبل الإسلام كما قدمنا تفصيل كل ذلك.

فعليه يكون على يمين باب الكعبة محل المقام الذي هو من الآيات البينات، ومصلى نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام ويكون على يسار بابها الملتزم وهو محل استجابة الدعاء بلا ريب، وأما باب الكعبة فهو باب بيت الله الكبير المتعال، فمن وصل إليه بقلب سليم ونية خالصة، فقد دخل في رحمة الله تعالى فليبشر بالقبول والسعادة إن شاء الله.

فافهم هذا المبحث النفيس الذي لا تجده في كتاب غير هذا الكتاب.

فالحمد لله الذي وفقنا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله. وصلى الله على النبي الأُمى وعلى آله وصحبه وسلم.

سد الحفرة وردمها

لقد تقدم الكلام عن الحفرة التي عند باب الكعبة المعظمة بتفصيل تام مع ذكر قياسها طولاً وعرضاً وعمقاً بما لا يوجد في غير هذا الكتاب، والآن نتكلم عن ردم هذه الحفرة وسدها وطمرها حتى تساوت بأرض المطاف، وسبب ذلك وقوع بعض الحجاج فيها

وقت الطواف عند اشتداد الزحام في موسم الحج، فرأت حكومتنا السعودية سد هذه الحفرة و طمرها للسبب المذكور، و ذلك عند الانتهاء من تجديد سقف الكعبة المشرفة.

ففي ضحى يوم الخميس الثاني من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف هجرية الموافق عشرين من شهر فبراير سنة (١٩٥٨) ميلادية، قام بعض العمال المصريين بسدها، فردموها أولا بالنورة القديمة التي أخرجت من سطح الكعبة عند هدمه، ثم وضعوا فوقها الرمل النظيف المغسول بماء زمزم، ثم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٦١

وضعوا فوق الرمل الطين المخلوط بالنورة على صفة العجين اللين، ثم فرشوا فوقه حجارة الرخام البيضاء حتى تساوت هذه الحفرة بأرض المطاف، فالرخامات البيضاء في نفس موضع الحفرة، و قد أحيطت بخط أسود من الرخام ليكون حدا للحفرة، و قد انتهوا من ردمها و سدها قبل صلاة الظهر من اليوم المذكور.

و كان ردم هذه الحفرة بحضور فضيلة العلامة الشيخ عبد الله بن دهب رئيس المحكمة الشرعية الكبرى بمكة و بحضور سعادة الشيخ عبد الله بن خثلان و كيل رئيس اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام، و بحضور سعادة الشيخ عبد الله بن سعيد عضو اللجنة التنفيذية المذكورة و مدير العمل في مشروع التوسعة، و بحضور محمد طاهر بن عبد القادر الكردي الخطاط مؤلف هذا الكتاب و عضو اللجنة المذكورة.

غفر الله تعالى لهم و عاملهم بفضله و رحمته، و سترهم في الدنيا و الآخرة بستره الجميل الذي لا ينكشف أمين، و صلى الله على أبي القاسم الأمين سيدنا "محمد" و على آله و صحبه أجمعين، و الحمد لله رب العالمين.

الحجر المكتوب الذي في داخل الحفرة

و يوجد في جدار الشاذروان في داخل الحفرة، حجر مكتوب طوله سبعون سنتيمترا، و عرضه أربعة و ثلاثون سنتيمترا، و هذا نص ما هو مكتوب فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بعمارة المطاف الشريف، سيدنا و مولانا الإمام الأعظم، المعرض للطاعة على سائر الأمم، أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين، بلغه الله آماله و زين بالصالحات أعماله، و ذلك في شهر سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة، و صلى الله على سيدنا "محمد"."

هذا ما كتب على الحجر الموجود بداخل الحفرة التي عند باب الكعبة المشرفة، و قد أبقينا هذا الحجر في محله بالحفرة عند سدها فلا يزال بها إلى الآن، و أبو جعفر المنصور المذكور في هذا الحجر، ليس هو أبو جعفر المنصور والد أمير المؤمنين محمد المهدي الذي زاد في المسجد الحرام سنة سبع و ثلاثين و مائة من الهجرة، ثم زاد فيه بعده ولده المهدي أيضا، و إنما هو شخص آخر اتفقا في الاسم، فالمذكور في الحجر كان في القرن السابع، و أما والد المهدي فقد كان في القرن الثاني.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٦٢

و ليس أبو جعفر المذكور في الحجر هو أول من أمر بعمارة المطاف و لا هو آخر من بناه، فلقد عمّر المطاف مرارا قبله و بعده، و إنما أهل الزمن الماضي وجدوا هذا الحجر فاحتفظوا به، كما نحن احتفظنا به اليوم فلم نرفعه عن محله عند سد الحفرة. و الله تعالى أعلم بالغيب.

لماذا لم تكن الكعبة قطعة من الجواهر

الكعبة المشرفة بنيت بالحجارة منذ بنائها الأول إلى اليوم كما تبنى سائر بيوت الناس، غير أن بيوتهم مجردة عن كل أمر معنوي، و بيت

الله عليه المهابة والإجلال بحيث تطأطئ له رؤوس الجبابرة والأكاسرة، و تخشع له قلوب القساء والطغاة و تدمع لديه أعين المخبتين والعصاة، كيف لا؟ وقد بنيت بأمر الله، و رفع قواعدها إبراهيم خليل الله فبناية قامت بأمره تعالى و رضائه كيف لا تتوجه إليها قلوب العباد في جميع البلاد، و من الأسرار الدقيقة و الحكم البليغة أن الكعبة المشرفة ما بنيت مرة من المرات إلا و تسابقت على بنائها و الاشتغال برفع حجارته و ترابها الأنبياء و الملوك و الأمراء و العلماء و الصالحون و العظماء بمحبة و إخلاص لا بالقهر و الإكراه تقربا إلى الله عز شأنه و جلت قدرته.

إذا فالكعبة الغراء ليست في حاجة إلى أن تبنى بالفضة و الذهب و لو شاء الله لجعلها قطعة واحدة من الجوهر و لكنه لم يفعل ذلك، بل وضع فيها من الأسرار المعنوية و المهابة و الجلال ما تنجذب إليها أفئدة الناس منذ وضعها الله تعالى إلى أن تقوم الساعة و لقد أراد السلطان أحمد بن السلطان محمد بن مراد بن سليم الثاني من سلاطين آل عثمان أن يهدم الكعبة حينما تصدع جدارها الشرقي و جدارها الغربي و بينها و يجعل حجارتها ملبسة واحدة بالذهب و واحدة بالفضة فمنعه العلماء و قالوا له: هذا يزيل حرمة الكعبة و لو أراد الله لجعلها قطعة من الياقوت فكف عن ذلك. فالمسلمون في مشارق الأرض و مغاربها إنما يعبدون رب هذا البيت فقط لا البيت نفسه، فإذا عظموه و وفدوا إليه و توجهوا إليه في صلواتهم فإنما ذاك امتثالا لأمره سبحانه و تعالى. و لم يسمع قط عن العرب قبل الإسلام أنهم عبدوا نفس الكعبة أو الحجر الأسود أو حجر المقام، مع ما كانوا عليه من عبادة الأصنام و الأحمجار، و لا شك أن ذلك من الحكمة الدقيقة و العصمة القوية من الله سبحانه و تعالى، حتى يسلم كل ذلك من الشائبات، فلو عبد المشركون ذلك،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٦٣

ثم جاء الإسلام باحترامها و تعظيمها لقالوا إن الإسلام جاء بتأييد ما نحن عليه.

و انظر إلى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما قبيل الحجر الأسود "إني أعلم أنك حجر لا تضر و لا تنفع و لو لا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقبلتك ما قبلتك."

تسمية البيت الحرام بالكعبة

ذكر الغازي في تاريخه عن ذلك ما نصه: و في تسمية البيت بالكعبة أقوال، فقيل: لتكعبه أى تربعه يقال: برد مكعب إذا طوى مربعا، و قيل: لعلوه، و منه سمي الكعب كعبا لنتوته و خروجه من جانب القدم يقال: تكعبت الجارية إذا خرج نهداها، و قيل: لانفرادها عن البيوت و ارتفاعها.

و ذكر الأزرقي في تاريخه أن الناس كانوا بينون بيوتهم مدورة تعظيما للكعبة، فأول من بنى بيتا مربعا حميد بن زهير فقالت قريش: ربع حميد بيتا إما حياة و إما موتا. انتهى من الغازي.

نقول: إن كل ما قيل عن تسمية البيت الحرام بالكعبة إنما هو تعليلات و همية، و الذى نراه أن نمشى على القاعدة المعروفة (الأسماء لا تعلق) فالكعبة هى بيت الله الحرام بنص القرآن الكريم **جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ... الآية.**

فلقد أطلق الله عز شأنه الكعبة على بيته المعظم قبل وجود القائلين بهذه التعليلات فى الدنيا.

و كذلك تسمى الكعبة بالبيت العتيق كما فى الآية: **وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** اللهم أعتق رقابنا من النار، و أدخلنا الجنة مع الأبرار، يا عزيز يا غفار، بفضلك و إحسانك و رحمتك يا أرحم الراحمين آمين.

الشمسيات التى كانت توضع على الكعبة

المراد بالشمسية هو شبه مظلة كانت تصنع بشكل مخصوص و تزين بالجواهر النفيسة بما لا يقدر بثمن، و توضع فى وجه الكعبة أى: فى أعلا بابها تعظيما و تجميلا لمنظرها كما سنوضح ذلك فيما يأتى. و هل المراد بالشمسية التى كانت

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٦٤

توضع في وجه الكعبة ما نسميه اليوم ببرقع باب الكعبة أى الستارة المخصوصة الجميلة التى توضع على بابها أم لا؟ الله أعلم بذلك. و إليك ما جاء عن الشمسية:

جاء فى كتاب "المحمل والحج" ما نصه: و جاء فى كتاب "إتعاظ الحنفاء" للمقرزى بعد أن تكلم على الشمسية التى نصبها المعز فى يوم عرفه سنة (٣٦٢) اثنتين و ستين و ثلاثمائة ما نصه: أول من عمل الشمسية للكعبة أمير المؤمنين "جعفر المتوكل على الله" فبعث بسلسلة من ذهب كانت تعلق مع الياقوتة التى بعثها المأمون و صارت تعلق كل سنة فى وجه الكعبة، و كان يؤتى بالسلسلة فى كل موسم و فيها شمسية مكللة بالدر و الياقوت و الجواهر قيمتها شىء كثير، فيتقدم بها قائد يبعث به من العراق فتدفع إلى حجة الكعبة و يشهد عليهم بقيدها فيعلقونها يوم سادس الثمان فتكون على الكعبة ثم تنزع يوم التروية. اه. ص ٩٣. انتهى من كتاب المحمل.

و قد ذكر مؤلف هذا الكتاب جميع الشمسيات التى أهديت إلى الكعبة المعظمة عند الكلام على هدايا الكعبة نلخص من كلامه ما يفى بالغرض التام فى هذا الباب، و إننا نعتمد كثيرا على مؤلف الكتاب المذكور أستاذنا يوسف أحمد رحمه الله تعالى لأنه من كبار الأساتذة المصريين و كان مفتشا للآثار العربية و هو الذى أحيا الخط الكوفى فى مصر، فقد كان يدرسه بكلية الآداب بالجامعة المصرية و يدرسه بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية بالقاهرة فهو لذلك أكثر الناس تحقيقا لمثل هذه الأمور.

و ها نحن نلخص من كتابه المذكور ما يملأ هذا الباب و هو:

بعث عبد الملك بن مروان للكعبة المشرفة بشمسيتين و قد حين من زجاج.

و بعث جعفر المتوكل على الله بشمسية من ذهب مكللة بالدر الفاخر و الياقوت الرفيع و الزبرجد تعلق بسلسلة من الذهب فى وجه البيت كل موسم.

و مما أهدى إلى الكعبة طوق من ذهب مكلل بالزمرد و الياقوت مع ياقوتة كبيرة خضراء زنتها ٢٤ مثقالا، أرسله بعض ملوك السند لما أسلم فى سنة ٢٥٩ هجرية فعرض أمره على "المعتمد على الله" فأمر بتعليقه فى البيت الشريف.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٦٥

و فى سنة ٢٩٤ أرسل الخليفة "المعتمد" إلى الكعبة بهدايا و فى جملتها شمسية جعل فيها جواهر نفيسة فما أن وصلت القافلة التى تحمل الخزائن و الأموال و شمسية الخليفة إلى "فيد" بليدة فى منتصف طريق مكة من الكوفة حتى لاقاهم "زكروية القرمطى" فقالتهم و انتصر عليهم، و لم ينج منهم إلا اليسير، و أخذ حريمهم و أموالهم فندب "المكتفى" لقتاله القائد "وصيفا" و انتهى الأمر بالانتصار عليه و أسره.

و قال ابن زولاق ما ملخصه: وصل المعز لدين الله إلى قصره بمصر فى رمضان من سنة ٣٦٢، و بعدما استقر و قابل الأعيان، و قبل هداياهم، نصب فى يوم عرفه الشمسية التى عملها للكعبة على إيوان قصره وسعتها ١٢ شبرا فى ١٢ شبرا، و أرضها ديباج أحمر، و دورها ١٢ هلال ذهب، فى كل هلال أترجة ذهب مسبك جوف كل أترجة ٥٠ درة كبار كبيض الحمام، و فيها الياقوت الأحمر و الأصفر و الأزرق، و فى دورها كتابة آيات الحج بزمرد أخضر قد فسر، و حشو الكتابة در كبير لم ير مثله، و حشو الشمسية المسك المسحوق يراها الناس فى القصر و من خارج القصر لعلو موضعها.

و قال فى كتاب "الذخائر و التحف": "و قد أدخل من الذهب فى هذه الشمسية الكبيرة ٣٠ ألف مثقال ذهبا، و ٢٠ ألف درهم مخرقة و ٣٦٠٠ قطعة جواهر من سائر ألوانه و أنواعه. اه ٣٨٥ مقرزى.

و جاء فى كتاب "الفاطميون فى مصر" تحت عنوان "الكسوة التى عملها المعز للكعبة" ما نصه:

و يتبين لنا مدى ثروة مصر فى ذلك الوقت من وصف الكسوة التى أمر "المعز" بعملها للكعبة، كما يبين لنا هذا أيضا كيف نافست مصر بغداد، بل كيف تفوقت عليها و على غيرها من المراكز الإسلامية. ففى يوم عرفه أمر المعز بنصب الكسوة التى اتخذها للكعبة

على الإيوان الذى جعله لعقد الجلسات الرسمية.

و كانت هذه الكسوة مربعة الشكل من ديباج أحمر، وسعتها ١٤٤ شبرا، و كانت فى حافاتهما ١٢ هلالا ذهبيا فى كل هلال أترجة ذهبية، و فى داخل كل منها ٥٠ درة تشبه بيض الحمام فى الكبر، كما كان فيها الياقوت الأحمر و الأصفر و الأزرق.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٦٦

و قد نقش فى حافاتهما الآيات التى وردت فى الحج بحروف الزمرد الأخضر و زينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة. و كانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك، و كانت موضوعة فى القصر بحيث يراها جميع الناس من داخل القصر أو خارجه.

و قد قال حضرة الأستاذ المؤلف ما ملخصه: إن هذه الشمسية هى كسوة الكعبة، و أنها مربعة الشكل وسعتها ١٤٤ شبرا، و أن لفظه "شمسية" التى استعمالها المقريزى يريد بها طبعاً الستور التى كانت تكسى الكعبة بها.

و قال نقلا- عن "كتر مير" أن لفظه "شمسية" تطلق على نافذة مربعة فى أعلى الحوائط، كما قال "ابن بطوطة" فى رحلته عن جامع دمشق، و كما جاء فى نفح الطيب عن جامع قرطبة، و عن جامع مراكش.

فإذا علم الإنسان أن مفاص الكعبة التى تكسى بالديباج هى ٩٢ / ٩ م عن الضلع الشمالى، و ٢٥ و ١٠ م عن الضلع الجنوبى، و ٨٨ / ١١ م عن الضلع الشرقى الذى فيه الباب، و ١٥ و ١٢ م عن الضلع الغربى، كما هو وارد فى صفحة ٧٩ من كتابنا هذا، و مجموع أطوالها هو ٢٠ و ٤٤ مترا.

و إذا راجع ما كتبه المقريزى من أن سعة الشمسية ١٢ شبرا فى ١٢ شبرا و مفاص الشبر هو ٢٣ ر. س. م تقريبا فتكون ١٢ شبرا تساوى ٢ / ٧٦ م مع أن الكسوة لا بد و أن يكون مجموع طولها ٢٠ / ٤٤ م.

و إذا أنعمنا النظر فيما قاله المقريزى أيضا من أن بدورها ١٢ هلالا- ذهبا و فى دورها كتابة آيات قرآنية، نجد أن هذه الشمسية مستديرة، أى نصف كرة كما هى الحال فى الشمسيات الموجودة الآن بين ظهرانينا، و هى المظلة.

أما كون الشمسية هى ما يوضع فى نافذة، كما ورد عن جامعى قرطبة و مراكش، فغير معقول أن يكون الشباك مكلل بالذهب و الجواهر، و يكون منسوجا من الحرير!

على أن ما ورد فى نفح الطيب يفهم منه أن الشمسية مكورة كرمائه و هذا نصه ... "و ذكر أن صومعة قرطبة ... و فى أعلى ذروتها" أى الصومعة "ثلاث شمسيات، و يسمونها "رمانه" ملصقة فى السفود البارز فى أعلاها من النحاس الثنتان منها ذهب إبريز، و الثالثة وسطى بينهما من فضة إكسیر، و فوقها سوسنة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٦٧

من ذهب مسدسة فوقها رمانه ذهب صغيرة فى طرف الزج البارز بأعلى الجو " ... و فيه (أى فى جامع مراكش) من شمسيات الزجاج و درجات المنبر و المقصورة ما لو عمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه.

و قد سبق أن قلنا أن (المتوكل على الله) أرسل بشمسية من ذهب مكللة بالدر و الياقوت و الزبرجد، تعلق بسلسلة من الذهب فى وجه البيت فى كل موسم.

و كذلك أرسل الخليفة (المعتضد) فى سنة ٢٩٤ إلى الكعبة شمسية تحوى جوهرا نفيسا.

ثم ذكر صاحب كتاب "المحمل و الحج" ما جاء فى كتاب "إتعاظ الحنفاء للمقريزى" ما نصه:

و قال أيضا: و غدا المعز لصلاة عيد النحر فى عساكره و انصرف فى زيه فلما وصل إلى القصر أذن للناس عليه فدخلوا و الشمسية منصوبة على حالها فلم يبق أحد حتى دخل من أهل مصر و الشام و العراق، فذكر أهل العراق و أهل خراسان و من يواصل الحج أنهم

لم يروا قط مثل هذه الشمسية. و ذكر أصحاب الجوهر و وجوه التجار أنه لا- يثمن ما فيها، و أن شمسية بنى العباس كان أكثرها مصنوعا و شبها و أن مساحتها مثل ربع هذه.

و كذلك كانت شمسية "كافور" التي عملها لمولاه "أو نوجور" ابن الإخشيد و كان يسير بها إلى الحرم. هذا و لقد علق أستاذنا الكبير يوسف أحمد مؤلف كتاب "المحمل و الحج" رحمه الله تعالى على ما جاء في كتاب "الفاطميون في مصر" تحت عنوان الكسوة التي عملها المعز للكعبة، هامش كتابه المحمل و الحج بما نصه:

اللفظ الذي استعمله المقریزی هنا هو "شمسية" و يريد به طبعا الستور التي كانت تكسى بها الكعبة. و قد تناول "كترمير" الكلام على اشتقاق هذا اللفظ في المجلد الثاني من تاريخ "المماليك في مصر" الذي عربيه، كذا عن المقریزی و يعرف باسم كتاب "السلوك في معرفة دول الملوك" و تبعاً لما ذكره "كترمير" نجد هذا اللفظ "شمسية" مستعملاً فيما يأتي:

(١) نافذة مربعة في أعلا الحوائط، تترك مفتوحة عادة، أو تزين بزجاج حسبما يشاء المرء من مرور الهواء أو الضوء فقط "رحلة ابن بطوطة طبع و ترجمه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٦٨

ديفريمرى و سانجيتتى "باريس سنة ١٩١٤ ج ١ ص ١٩٩ و في هذه الرحلة يقول ابن بطوطة في وصفه لجامع دمشق أن به ٧٤ من شمسيات الزجاج. و جاء ذكر شمسيات الزجاج في عبارة "المقرى" عن جامع قرطبة في كتابه "نفع الطيب" ج ١ ص ٢٩٣ و عند كلامه على المسجد الجامع بمراكش ورد في نفس هذا الجزء ص ٢٦٧ ما يأتي:

و في أعلاه ثلاثة شمسيات تسمى رمانات و في كتاب هست المسمى مراكش و فاس صحيفة ٢٦٥ جاء لفظ شمسية و يراد بها النافذة. (٢) مظلة: فقد جاء في تاريخ ابن خلدون أن الخليفة خرج من خيمته و عليه الشمسية، و هنا أقول أن "كترمير" استعمل في هذا الموضوع لفظ PARASOL و معنى هذا المظلة الخاصة بالسيدات، و كان أفضل استعمال لفظ AMBRELLA الدال على المظلات التي يستعملها الرجال لأنها أكبر و أصلح لاستعمال الخليفة.

(٣) الكسوة أو الستور، فقد جاء ذلك في المقریزی في خطه "نقلا- عن ابن ميسر في تاريخ مصر ص ٤٤" و عن الأول أخذ "كترمير" فإننا نجد في المقریزی أن المعز أمر بنصب الشمسية، يراد بها هنا كما قدمنا الكسوة التي معناها الستر التي عملها للكعبة على إيوان القصر. انظر ترجمه "كترمير" لكتاب السلوك للمقریزی المجلد الثاني الجزء الأول ص ٢٨٠ و ٢٨١. اه من التعليقات. انتهى ما نقلناه من كتاب "المحمل و الحج".

هدايا الكعبة و معاليقها و أموالها

تكلما عن بناء سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام للكعبة و أنه حفر في باطنها حفرة عمقها ثلاثة أذرع على يمين من دخلها، و هذه الحفرة هي بمثابة الخزانة لها ليلقى فيها ما يهدى إليها من حلى أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك، و تسمى هذه الحفرة "بالجب" و كانت تسميه جرهم "البئر الأخسف" و قد تكلما على سبب هذه التسمية عند الكلام على جب الكعبة، و تسمى أيضا "بالغيب".

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٦٩

و لم نر في التاريخ عن أول رجل أهدي للكعبة و وضع هديته في هذا الجب بعد بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام، و لكنهم ذكروا أنه كان فيه مال على عهد جرهم.

جاء في تاريخ الكعبة نقلا عن مروج الذهب في أخبار الفرس ما يأتي:

"و كانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالا في صدر الزمان و جواهر، و قد كان ساسان بن بابك أهدي غزالين من ذهب و جواهر و سيوفا و ذهبا كثيرا فدفن في زمزم." اه.

نقول: يجوز أن يكون هذان الغزالان و السيوف هي التي أخرجها من بئر زمزم عبد المطلب بن هاشم لما أمر بحفرها، و يجوز أن

يكون الغزالان والسيوف هي التي دفنتها جرحهم حين خرجت من مكة والله تعالى أعلم، فإن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم وجد فيها غزالين من ذهب، كما وجد فيها أسيافا قلعية و دروعا و سلاحا، فضرب عبد المطلب الأسياف على باب الكعبة و ضرب فوقه أحد الغزالين من الذهب.

ذكر صاحب تاريخ الخميس: أن الغزالين اللذين هما من الذهب، و اللذين وجدتهما عبد المطلب في بئر زمزم حين حفرها فعلقهما بالكعبة قد سرقتهما من الكعبة جماعة من قريش، و ذلك أنهم كانوا في ليلة من الليالي يشربون الخمر و فيهم أبو لهب و معهم القيان و لما فنيت أسباب طربهم عمدوا إلى باب الكعبة و سرقوا الغزالين و باعوهما من تجار قدموا مكة بالخمر و غيرها و اشتروا بثمانهما جميع ما في العير من الخمر بالمرءة و اشتغلوا بالطرب و اللهو شهرا و لم يدر من سرق حتى مر العباس بن عبد المطلب في ليلة من الليالي بباب الدار التي تلك الجماعة فيها فسمع القيان يغنين بقصة سرقة الغزالين من باب الكعبة و بيعهما من أهل القافلة و أخبر بها العباس قريشا فأخذوهم و ضربوهم و قطعوا أيدي بعضهم ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج. انتهى من تاريخ الخميس.

و جاء في تاريخ الكعبة أيضا نقلا عن الفاسي: أن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي القرشي أول من جعل في الكعبة السيوف المحلاة بالذهب و الفضة ذخيرة للكعبة. اه.

و جاء في تاريخ الأزرقى " أن النبي صلى الله عليه و سلم وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من ذهب مما كان يهدى إلى البيت و أن علي بن أبي طالب كرم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٧٠

الله وجهه قال: يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يحركه ثم ذكر لأبي بكر فلم يحركه.

و جاء في تاريخ الأزرقى عن الحسن أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال:

لقد هممت أن لا أدع في الكعبة صفراء و لا بيضاء إلا قسمتها فقال له أمير من كعب: و الله ما ذلك لك فقال عمر: لم؟ فقال: إن الله عز و جل قد بين موضع كل شيء و أقره رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال عمر: صدقت. و جاء فيه أيضا عن شقيق بن سلمة قال: جلست إلى شيبه بن عثمان في المسجد الحرام فقال: جلس إلي عمر بن الخطاب رضى الله عنه مجلسك هذا فقال: لقد هممت أن لا أترك فيها صفراء و لا بيضاء إلا قسمتها يعنى الكعبة قال شيبه فقلت له: إنه قد كان لك صاحبان لم يفعلاه رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر رضى الله عنه فقال عمر: هما المرءان أقتدى بهما.

و جاء في تاريخ الأزرقى أيضا عن بعض الحجبة أنه قال في سنة ثمان و ثمانين و مائة أن ذلك المال بعينه كان في خزانه الكعبة ثم لا أدري ما حاله بعد، و جاء فيه أيضا عن مشيخة أهل مكة و بعض الحجبة أن الحسين بن الحسن العلوى عمد إلى خزانه الكعبة في سنة مائتين في الفتنة حين أخذ الطالبيون مكة فأخذ مما فيها مالا عظيما و انتقله إليه و قال: ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا لا ينتفع به نحن أحق به نستعين به على حربنا.

و جاء فيه أيضا عن مسافع بن عبد الرحمن الحجبى قال: لما بويج بمكة لمحمد بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم في الفتنة في سنة مائتين حين ظهرت المبيضة بمكة " و هم أصحاب المقنع سموا بذلك لتبييضهم ثيابهم " أرسل إلى الحجبة فتسلف منهم من مال الكعبة خمسة آلاف دينار و قال: نستعين بها على أمرنا فإذا أفاء الله علينا رددناها في مال الكعبة فدفعوا إليه و كتبوا عليه بذلك كتابا و أشهدوا فيه شهودا فلما خلع نفسه و رفع إلى أمير المؤمنين المأمون تقدم الحجبة و استعدوا عليه عند أمير المؤمنين فقضاهم أمير المؤمنين عن محمد بن جعفر خمسة آلاف دينار و كتب لهم بها إلى إسحاق بن عباس بن عباد ابن محمد و هو وال على اليمن فقبضتها الحجبة و ردها في خزانه الكعبة. اه.

أما ما علق في الكعبة و ما أهدى إليها من غير التقدين فكما يأتي:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٧١

(١) قرنا الكبش الذى فدى به إسماعيل و الذى ذبحه أبوه إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام. فقد جاء فى تاريخ الأزرقى عن صفية بنت شيبه أن امرأة من بنى سليم ولدت عامتهم قالت لعثمان بن طلحة: لم دعاك النبى صلى الله عليه و سلم بعد خروجه من البيت؟ قال: قال لى: إنى رأيت قرنى الكبش فى البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل مصليا. قال عثمان: و هو الكبش الذى فدى به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. و جاء فيه أيضا عن عمرو بن قيس أنه كان يقول: كان قرنا الكبش فى الكعبة فلما هدمها ابن الزبير و كشفها و جدوها فى جدار الكعبة مطليين بمشق قال: فتناولهما فلما مسهما همدا من الأيدى.

(٢) صحيفة قريش التى علقوها فى الكعبة فى محرم عام سبع من النبوة، و هى الصحيفة التى كتبوا فيها يتعاقدون على بنى هاشم و بنى المطلب أن لا- ينكحوا إليهم و لا- ينكحوهم و لا- يبيعوا منهم شيئا و لا- يتبايعوا منهم ... الخ حينما جمع أبو طالب بنى هاشم و بنى المطلب فأدخلوا رسول الله صلى الله عليه و سلم شعبهم و منعوا قريشا من قتله، كما هو مذكور فى كتب السير.

(٣) هلالان بعثهما عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث بهما إليه من مدائن كسرى حينما فتحها. كما فى تاريخ الأزرقى.

(٤) الصحيفة الخضراء التى بعثها السفاح فعلقت فى الكعبة كما فى تاريخ الغازى.

(٥) الياقوتة التى بعثها المأمون التى كانت تعلق فى كل موسم بسلسلة من الذهب فى وجه الكعبة، كما فى تاريخ الغازى.

(٦) طوق من ذهب مكمل بالزمرد و الياقوت مع ياقوتة خضراء أرسلها ملك السند لما أسلم و ذلك سنة تسع و خمسين و مائتين و عرض ذلك على المعتمد على الله فأمر بتعليقها فى البيت الشريف فعلقتا، كما ذكره الغازى نقلا عن الفاكهى.

(٧) القصبه الفضية التى فيها بيعه جعفر أمير المؤمنين المعتمد على الله، و بيعه أبى أحمد الموفق بالله ابن أخى المعتمد على الله، قدم لها الفضل بن عباس فى موسم سنة إحدى و ستين و مائتين و كان وزن الفضة ثلاثمائة و ستين درهما و عليها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٧٢

خارجا من ذلك ثلاثة أزارير بثلاث سلاسل من فضة فعلقت القصبه مع معاليق الكعبة، ذكره الغازى نقلا عن الإعلام.

(٨) الشمستين و القدحين من قوارير بعثها عبد الملك بن مروان و ضرب على الأسطوانة الوسطى الذهب من أسفلها إلى أعلاها صفائح، ذكره الغازى عن الأزرقى.

(٩) السرير الزينبى و هلالين بعث ذلك الوليد بن يزيد و كتب عليها اسمه.

ذكره الغازى عن الأزرقى.

(١٠) القارورة الفرعونية التى بعثها أبو جعفر. ذكره الغازى عن الأزرقى.

(١١) الصنم الذى من الذهب الذى بعثه ملك من ملوك التبت، و صفة هذا الصنم أنه من ذهب فى صورة إنسان على رأسه تاج من الذهب مكمل بخرز الجواهر و الياقوت الأحمر و الأخضر و الزبرجد و كان على سرير من فضة فرشته الديباج و على أطرافه أزرار من ذهب و فضة مرخاة فى وجه السرير. فلما أسلم ذلك الملك أهدى السرير و الصنم إلى الكعبة فبعث به إلى أمير المؤمنين عبد الله المأمون هدية للكعبة و المأمون يومئذ بمرو من خراسان فبعث به المأمون إلى الحسن بن سهل بواسط و أمره أن يبعث به إلى الكعبة فبعث به إلى نصير بن إبراهيم الأعجمى رجل من أهل بلخ من القواد فقدم به مكة فى سنة إحدى و مائتين فلما حج الناس و صدروا من منى نصب نصير السرير و ما عليه من الفرشة و الصنم فى وسط رحبة عمر بن الخطاب بين الصفا و المروة فمكث ثلاثة أيام منصوبا معهم لوح من فضة مكتوب فيه "بسم الله الرحمن الرحيم هذا سرير فلان بن فلان ملك التبت أسلم و بعث بهذا السرير هدية إلى الكعبة فاحمدوا الله الذى هداه للإسلام" ثم دفعه إلى الحجة و أشهد عليهم بقبضته فجعلوه فى خزنة الكعبة فى دار شيبه بن عثمان فلما حارب يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومى و الى مكة إبراهيم بن موسى أرسل إلى الحجة فأخذ السرير و ما عليه منهم فاستعان به على حرب و ضربه دنانير و دراهم و قال: أمير المؤمنين يخلفه لها و ذلك سنة اثنتين و مائتين و بقى التاج و اللوح فى الكعبة إلى

اليوم أى فى عصر الأزرقى. انتهى باختصار من تاريخ الغازى المنقول من الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٧٣

(١٢) القصبستان اللتان علقهما فى الكعبة هارون الرشيد فى سنة (١٨٦) ست وثمانين و مائة و فيهما بيعه ابنه محمد و عبد الله و ما عقد لهما و ما أخذ لهما و عليهما من العهود، مما هو مذكور بالتفصيل فى كتب التاريخ.

(١٣) الشمس التى بعثها أمير المؤمنين جعفر و هى عملت من الذهب المكمل بالدر الفاخر و الياقوت الرفيع و الزبرجد بسلسلة من ذهب تعلق فى وجه الكعبة فى كل موسم. كما ذكر فى تاريخ الكعبة.

(١٤) القناديل التى بعثها المطيع العباسى كلها فضة خلا قنديلا منها فإنه كان ذهابا زنته ستمائة مثقال و ذلك سنة (٣٥٩) تسع و خمسين و ثلاثمائة. ذكره الغازى نقلا عن الفاسى.

(١٥) القناديل الذهبية و الفضية التى بعثها المنصور صاحب اليمن و ذلك سنة (٣٦٢) اثنين و ستين و ثلاثمائة. ذكره مؤلف كتاب المحمل و الحج.

(١٦) القناديل و المحاريب التى أهداها إلى الكعبة صاحب عمان زنه كل محراب أكثر من قطار و قناديل فى نهاية الأحكام، و سمرت المحاريب فى الكعبة مما يلى بابها. ذكره المرحوم الشيخ باسلامة فى كتابه تاريخ الكعبة، و ذلك سنة (٤٢٠).

(١٧) القناديل الأربعة من الذهب ووزنها عشرة أرتال بثمانية عشر ألف دينار أهداها إلى الكعبة و كساها رجل من التجار يقال له: ابن إمشت الفارسى و ذلك سنة اثنتين و ثلاثين و خمسمائة كما ذكره صاحب تاريخ الخميس، و نظن ابن أمشت هو الذى يقال له رامشت فربما سقطت حرف الراء من المطبعة فى تاريخ الخميس عند الطبع.

(١٨) القناديل الذهب و الفضة التى أهداها الملك المنصور عمر بن على بن رسول صاحب اليمن فى سنة (٦٣٢) اثنين و ثلاثين و ستمائة. كما هو مذكور فى تاريخ الكعبة.

(١٩) الحلقتان اللتان أهداهما الوزير على شاه وزير السلطان أبى سعيد بن خدابنده ملك التتر و ذلك سنة (٧١٨) ثمان عشرة و سبعمائة، و الحلقتان المذكورتان من الذهب مرصعتان بالؤلؤ و البلخس كل حلقة زنتها ألف مثقال فى كل حلقة ست لؤلؤات فاخرات بينهما ست قطع بلخس فاخر فعلقنا على باب

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٧٤

الكعبة زمنا قليلا ثم رفعتا و أخذهما رميئة بن أبى نمى، كما ذكر فى تاريخ الكعبة.

قال فى كتاب المحمل و الحج: البلخس من توابع الياقوت فى القيمة و هو دونه فى الشرف و أنواعه ثلاثة أحمر و يسمى المعقرب و أخضر زبرجدى و أصفر ورسى و الأحمر هو أجودها، و يوجد البلخس فى جزيرة سيلان. راجع نخبة الدهر لشيخ الربوة، و فى فريدة العجائب أنه حجر صلب شفاف كالياقوت فى جميع أحواله و منافعه. انتهى من الكتاب المذكور.

(٢٠) القناديل الكبار التى أرسلها السلطان شيخ أويس بغداد و ذلك فى سنة (٧٧٠) سبعين و سبعمائة فعلقت فى الكعبة زمنا يسيرا ثم أخذها أمير مكة عجلان بن رميئة، و عدد هذه القناديل أربعة، اثنان منها من الذهب و اثنان من الفضة. ما جاء فى تاريخ الكعبة.

(٢١) المصباحان الذهبان اللذان أهداهما السلطان سليمان القانونى سنة (٩٨٤) أربع و ثمانين و تسعمائة، و هما مصباحان ذهبيان مرصعان بالجواهر معلقان بسقف الكعبة. ذكره محمد لبيب البتونى فى الرحلة الحجازية و قال: إنه معلق بسقف البيت كثير مما بقى من الذخائر التى أهديت إليه. انتهى من الكتاب المذكور.

نقول: ذكر صاحب الرحلة الحجازية المذكور أن السلطان سليمان القانونى أهدى المصباحين المذكورين فى سنة ٩٨٤ و هذا التاريخ غلط لأن السلطان سليمان المذكور توفى سنة (٩٧٣) ثلاث و سبعين و تسعمائة فالمعقول أن يكون الإهداء قبل وفاته من هذه السنة مع العلم أن مدة سلطنته ثمانية و أربعون سنة.

و نقول أن الأستاذ محمد لبيب المذكور هو مؤلف الرحلة الحجازية و قد حج بمعية سلطان مصر الخديوى عباس باشا حلمى سنة (١٣٢٧) سبعة و عشرين و ثلاثمائة و ألف، و حيث إنه كان بصحبة سلطان مصر المذكور و كان عازما على تأليف كتاب فى هذه الرحلة فقد تيسر له الوقوف على كثير من الأمور فلذلك رأى بنفسه المصباحين المذكورين و نعتقد أنهما لا يزالان معلقين فى الكعبة إلى اليوم، حيث لم يمض عليهما زمن بعيد.

(٢٢) القناديل التى أرسلها السلطان مراد سنة (٩٨٤) أربع و ثمانين و تسعمائة و عددها ثلاثة قناديل من ذهب مرصعة بالجواهر لتعلق اثنان منها فى سقف الكعبة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٧٥

و الثالث فى الحجرة النبوية تجاه الوجه الشريف، و السلطان مراد هو أول من علق قناديل الذهب فى الحرمين الشريفين من آل عثمان. ذكره الغازى نقلا عن القطبى فى كتاب الإعلام.

نقول: السلطان مراد المذكور هو مراد الثالث بن السلطان سليم خان جلس على تخت الملك سنة (٩٨٢) و توفى سنة (١٠٠٣) رحمه الله تعالى.

(٢٣) القناديل التى أرسلتها ملكة بندر آشى سنة (١٠٩٤) أربع و تسعين و ألف، و عددها خمسة قناديل من الذهب علقت فى الكعبة و ذلك فى إمارة الشريف سعيد بن بركات. ذكره الغازى نقلا عن الطبرى فى الإتحاف.

و من الهدايا القيمة الغربية، ما جاء فى كتاب "المحمل و الحج" ما نصه:

(٢٤) و قال ابن زولاق ما ملخصه: وصل المعز لدين الله تعالى إلى قصره بمصر فى رمضان من سنة (٣٦٢) اثنين و ستين و ثلاثمائة هجرية، و بعدما استقر و قابل الأعيان و قبل هداياهم نصب فى يوم عرفه الشمسية التى عملها للكعبة على أبواب قصره، و سعتها ١٢ شبرا فى ١٢ شبرا، و أرضها ديباج أحمر، و دورها ١٢ هلال ذهب، فى كل هلال أترجة ذهب مسبك، جوف كل أترجة ٥٠ درة كبارا كبيض الحمام، و فيها الياقوت الأحمر و الأصفر و الأزرق و فى دورها كتابة آيات الحج بزمر أخضر قد فسر، و حشو الكتابة در كبير لم ير مثله و حشو الشمسية المسك المسحوق يراها الناس فى القصر و من خارج القصر لعلو موضعها.

اه. و قد ذكر صاحب الكتاب المذكور نقلا عن كتاب الذخائر و التحف: أنه أدخل فى هذه الشمسية ثلاثون ألف مثقال ذهباً و عشرون ألف درهم مخرقة، و ثلاثة آلاف و ستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه و أنواعه. اه. و ذكر أيضا نقلا عن كتاب إتعاظ الحنفاء للمقرزى: أن المعز غدا لصلاة عيد النحر فى عساكره و انصرف فى زيه، فلما وصل إلى القصر أذن للناس عامة، فدخلوا و الشمسية منصوبة على حالها، فلم يبق أحد حتى دخل من أهل مصر و الشام و العراق، فذكر أهل العراق و أهل خراسان و من يواصل الحج أنهم لم يروا قط مثل هذه الشمسية و ذكر أصحاب الجواهر، و وجوه التجار: أنه لا يثنى ما فيها. انتهى.

(٢٥) و قد قال المقرزى فى كتابه "إتعاظ الحنفاء" ما يأتى:

إن أول من عمل الشمسية للكعبة أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله، فبعث بسلسلة من ذهب كانت تعلق مع الياقوتة التى بعثها المأمون و صارت تعلق

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٧٦

كل سنة فى وجه الكعبة، و كان يؤتى بالسلسلة فى كل موسم و فيها شمسية مكللة بالدر و الياقوت و الجوهر قيمتها شىء كثير، فيتقدم بها قائد يبعث به من العراق، فتوضع إلى حجة الكعبة و يشهد عليهم بقيدها فيعلقونها يوم سادس الثمان فتكون على الكعبة ثم تنزع يوم التروية. اه من كتاب "المحمل و الحج".

و المراد بالشمسية المذكورة ستارة من الديباج الأحمر مربعة الشكل مساحتها ١٤٤ شبرا حسب الوصف المذكور، تعلق على باب الكعبة. و قد ذكر صاحب كتاب المحمل و الحج للشمسية ثلاث معان:

(١) تطلق على النافذة المربعة في أعلى الحائط.
 (٢) تطلق على المظلة التي نستعملها في عصرنا للوقاية من الشمس والمطر.
 (٣) تطلق على الكسوة أو الستور، وقد استشهد بما يدل على كل ذلك في كتابه.
 وذكر فيه أيضا: أن جعفرا المتوكل على الله بعث بشمسية من ذهب مكللة بالدر الفاخر، والياقوت الرفيع والزبرجد، تعلق بسلسلة من الذهب في وجه البيت كل موسم. انتهى من كتاب المحمل والحج.
 يقول الشيخ حسين باسلامة رحمه الله تعالى في كتابه تاريخ الكعبة: و يوجد الآن معاليق كثيرة في سقف الكعبة غير أني لا أعلم عن حقيقتها هل هي معمولة من ذهب أو فضة أو نحاس، كما أن آل الشيبى سدنه الكعبة المعظمة لا يعلمون بالضبط عن حقيقتها لقدم عهد تعليقها ولعدم تعهدهم لها بالتمسيح والتنظيف أجيالا وربما أنها من عهد بناء الكعبة الأخير إلى الآن لم تنقل من موضعها "ويقصد بالبناء الأخير الذى كان فى سنة (١٠٤٠) قال: و لذلك تعذر على أن أصفها وصفا صحيحا و الله أعلم بحقيقتها. "اه.
 ونحن نقول أيضا أننا دخلنا البيت الحرام مرارا ولكن لم نتحقق فيما هو معلق بسقفه حيث دخلناه للصلاة فيه و ما كان يخطر ببالنا إذ ذاك أننا نؤلف عنه هذا الكتاب.
 انظر: صورة رقم ٩٦، معاليق الكعبة
 التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٧٧

ما علق من الصحائف فى الكعبة

إشارة

كان معلقا فى جوف الكعبة المعظمة سبعة أنواع من الصحائف و هى:

- (١) المعلقات السبع.
 - (٢) صحيفة قريش.
 - (٣) عهد الأمين و عهد المأمون.
 - (٤) عهد المعتمد لولديه.
 - (٥) شكوى الخليفة العباسى أبى جعفر عبد الله ابن الإمام القادر بالله يشكو إلى الله تعالى أرسلان الفساسيرى. و إليك تفصيل كل ذلك:
- ذكر أستاذنا المرحوم يوسف أحمد مؤلف كتاب "المحمل والحج" و مفتش الآثار العربية و محيى الخط الكوفى بجميع أنواعه بمصر، فى كتابه المذكور عن الصحائف التى علفت فى الكعبة المشرفة ما نصه:
- المعلقات قصائد اختارها العرب من شعر فحولهم و ذهبوا على الحرير، و ناطوها بأستار الكعبة تشريفا لها، و تعظيما لمقامها، و اعترافا بمتانها ألفاظها و حسن سبك معانيها، حتى أصبحت العرب تترنم بها فى نواديبها، و تفخر بها فى حاضرها و باديبها.
- وقد اختلف المؤرخون فى وجه تسميتها بالمعلقات، فقال "ابن عبد ربه" صاحب العقد "الوابن رشيق" صاحب العمدة و "ابن خلدون" صاحب التاريخ، و كثير سواهم، ممن نقل عن الصدر الأول من نقله الأخبار: أن العرب قد بلغ من تعظيمهم إياها أن علقوها بأستار الكعبة فسميت بالمعلقات. و قيل: إن وجه التسمية بذلك لعلوقها بأذهان صغارهم قبل كبارهم و مرؤوسيههم قبل رؤسائهم عناية بحفظها و الاحتفاظ بها. و قد أنكر الأول "أبو جعفر النحاس" و أكبر أمر تعليقها بأستار الكعبة و كما اختلفوا فى وجه التسمية اختلفوا فى عدد أصحابها، فمنهم من يجعلها سبعا، و منهم من يجعلها ثمانى، و من يزيد بها إلى عشر.

و أصحابها جميعا هم:

- (١) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر، مات سنة ٨٠ قبل الهجرة و ٥٦٥ للمسيح.
 - التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٧٨
 - (٢) طرفه بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك، مات سنة (٧٠) قبل الهجرة و ٥٥٠ أو ٥٥٢ للمسيح.
 - (٣) زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني، مات سنة ١٤ قبل الهجرة و ٦٠٨ للمسيح.
 - (٤) عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، مات سنة ٥٢ قبل الهجرة و ٥٧٠ للمسيح.
 - (٥) لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك، مات سنة ٤٠ قبل الهجرة و ٦٦٠ للمسيح.
 - (٦) عنتره بن شداد و قيل أنه عمرو بن شداد، و قيل عنتره بن شداد بن عمرو، مات سنة ٢٢ قبل الهجرة و ٦٠٠ للمسيح.
 - (٧) الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد بن عبد الله، مات سنة ٥٢ قبل الهجرة و ٥٧٠ للمسيح.
 - (٨) الأعشى ميمون بن قيس بن جندل، مات سنة ٧ للهجرة و ٦٢٩ للمسيح.
 - (٩) النابغة الذبياني زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع، مات سنة ١٨ قبل الهجرة و ٦٠٤ للمسيح.
 - (١٠) عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم. مات سنة ٥٦٥ و قيل سنة ٦٠٥ للمسيح.
- و من يجعلها ثمانى، يضيف إلى أصحابها، بعد السبعة الأولين النابغة و من يقول أنها عشر، يضيف إليهم "الأعشى و عبيد" و على ذلك مشى أبو زكريا التبريزى فى كتابه "القصائد العشر الطوال." انتهى من كتاب المحمل و الحج.
- و مما علق فى الكعبة صحيفة قريش التى كتبها لمقاطعة بنى هاشم و بنى المطلب، فقد جاء فى تاريخ الخميس فى الجزء الأول ما يأتى:

و فى المواهب اللدنية: و لما رأت قريش عز النبى صلى الله عليه و سلم بمن معه و عز أصحابه بالحبشة و إسلام عمر و فشو الإسلام فى القبائل أجمعوا على أن يقتلوا النبى صلى الله عليه و سلم فبلغ ذلك أبا طالب فجمع بنى هاشم و بنى المطلب و أدخلوا رسول الله صلى الله عليه و سلم شعبهم و منعه ممن أراد قتله فأجابوه لذلك حتى كفارهم فعلوا ذلك حمية على عادة الجاهلية فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا و ائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم و بنى المطلب: أن لا يناكحوهم و لا يبايعوهم و لا يخالطوهم و لا يقبلوا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٧٩

منهم صلحا أبدا حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه و سلم للقتل، و كتبوا فى صحيفة بخط منصور بن عكرمة بن هشام و قيل بغيض بن عامر فشلت يده و علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبع من النبوة و انحاز بنو هاشم و بنو المطلب إلى أبى طالب و دخلوا معه شعبه إلا أبا لهب فكان مع قريش و أقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا.

و قال أبو سعد: سنتين حتى جهدوا و كانت قريش قد قطعت عنهم الميرة و المادة و كان لا يصل إليهم شىء إلا سرا و كانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم.

و فى المواهب اللدنية: ثم قال رجال فى نقض الصحيفة فأطلع الله نبيه على أمر الصحيفة على أن الأرضة أكلت جميع ما فيها من القطيعة و الظلم فلم تدع إلا اسم الله فقط فأخبرهم أبو طالب بذلك فلما أنزلت لتمزق وجدت كما قال عليه السلام فأخرجوهم من الشعب و ذلك فى السنة العاشرة.

و أورد فى المنتقى تقاسم قريش على معاداة بنى هاشم و بنى المطلب فى السنة الثامنة من النبوة. و فى سيرة اليعمرى حاصره أهل مكة فى الشعب فأقام محصورا دون ثلاث سنين هو و أهل بيته و خرج من الشعب و له تسع و أربعون سنة.

و فى الاستيعاب حصرتهم قريش فى الشعب بعد المبعث بست سنين و مكثوا فى ذلك الحصار ثلاث سنين و خرجوا منه فى أول سنة

خمسین من عام الفیل و توفی أبو طالب بعد ذلك بستة أشهر و توفیت خدیجة بعده بثلاثة أيام و قد قیل غیر ذلك و ولد عبد الله بن عباس فی الشعب قبل خروج بنی هاشم منه، و قیل: إنه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين و كان ابن ثلاث عشرة سنة يوم مات رسول الله صلى الله عليه و سلم. انتهى من تاريخ الخميس.

و قال فی كتاب المحمل و الحج: و مما علق فی الكعبة نقلا عن ذیل تاريخ دمشق ما يأتي:

كان "أرسلان الفساسیری" قد اعتقل الخليفة العباسی القائم بأمر الله أبا جعفر عبد الله بن الإمام القادر بالله فی الحدیثة، فكتب هذا رقعة و أنفذها إلى مكة مستعدیا إلى الله تعالى على الفساسیری، و علق ت هذه الرقعة على الكعبة و لم ترفع عنها إلا بعد أن ورد الخبر بخروجه من الاعتقال و عوده إلى داره و هلاك عدوه "الفساسیری" و قد عنوانها "إلى الله العظيم، من المسكين عبده" و هذه صورة ما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٨٠

كان مكتوبا بها بعد البسملة "اللهم إنك العالم بالسرائر، و المطلع على مكنون الضمائر. اللهم إنك غني بعلمك و اطلاعك على خلقك عن إعلامي، هذا عبد من عبيدك قد كفر نعمتك و ما شكرها، و ألقى العواقب و ما ذكرها أطغاه حلمك، و تجبر بأناتك حتى تعدى علينا بغيا، و أساء إلينا عتوا و عدوا. اللهم قل الناصر، و اعتر الظالم، فأنت المطلع العالم، و المنصف الحاكم. بك نعتر عليه، و إليك نهرب من يديه، فقد تعزز علينا بالمخلوقين، و نحن نعتر بك يا رب العالمين. اللهم إنا حاكمناه إليك، و توكلنا في إنصافنا منه عليك، و رفعنا ظلامتنا هذه إلى حرمك، و وثقنا في كشفها بكرمك فاحكم بيننا بالحق، و أنت خير الحاكمين. و أظهر اللهم قدرتك فيه، و أرنا ما نرتجيه، فقد أخذته العزة بالإثم اللهم فاسلبه عزه و ملكنا بقدرتك ناصيته، يا أرحم الراحمين. و صل يا رب على محمد و سلم و كرم." اه. ذیل تاريخ دمشق ص ١٠٧. انتهى.

و مما علق فی الكعبة أيضا عهد المعتمد لولديه: فقد ذكر صاحب كتاب "المحمل و الحج" بصحيفة ١٩٦ نقلا عن الطبری فی الجزء العاشر ما نصه:

و فی شوال من سنة (٢٤١) إحدى و ستين و مائتين بايع المعتمد بولاية العهد لابنه جعفر و لقبه "المفوض إلى الله" و ولاه المغرب و الشام و الجزيرة و الموصل و أرمينية و طريق خراسان و مهرجا نقذق و حلوان و ضم إليه موسى بن بغا و ولي أخاه "أبا أحمد الموفق" العهد بعد جعفر و ولاه المشرق و بغداد و السواد و الكوفة و طريق مكة و المدينة و اليمن و كسكر و كور دجلة و الأهواز و فارس و أصبهان و قم و الكرج و الدبنور و الري و زنجان و قزوني و خراسان و طبرستان و جرجان و کرمان و سجستان و السند و ضم إليه "مسرورا البلخي".

و عقد لكل واحد منهما لواء من أسود و أبيض، و شرطه إن حدث به حدث الموت، و جعفر لم يكمل للأمر أن يكون الأمر لأبي أحمد، ثم لجعفر و أخذت البيعة على الناس بذلك، و فرقت نسخ الكتاب و بعث بنسخة مع "الحسن بن محمد" ليلقها في الكعبة. انتهى من المحمل و الحج.

و مما علق فی الكعبة عهد محمد الأمين و عهد عبد الله المأمون ولدى هارون الرشيد. فقد جاء في كتاب "المحمل و الحج" ما نصه: كان هارون الرشيد قد عقد لابنه "محمد" ولاية العهد في شعبان سنة (١٣٧) ثلاث و سبعين و مائة و سماه "الأمين" و ضم إليه في سنة (١٧٥) الشام و العراق، ثم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٨١

بايع لعبد الله "المأمون" بالرقعة في سنة (١٨٣) مائة و ثلاث و ثمانين و ولاه من حد همدان إلى آخر المشرق.

و حج هارون الرشيد في سنة (١٨٦) مائة و ست و ثمانين و معه محمد و عبد الله ولداه، و أشخص ولده القاسم إلى "منبج" فأنزله إياها، فلما قضى مناسكه كتب لعبد الله المأمون كتابين أجهد الفقهاء و القضاة آراءهم فيهما. أحدهما على "محمد" بما اشترط عليه

من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولى عبد الله من الأعمال، و صير إليه من الضياع و الفلات و الجواهر و الأموال و الآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة و العامة، و الشروط لعبد الله على "محمد" و عليهم.

و جعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذه البيعة على "محمد" و إشهداه بها الله و ملائكته عليه و من كان في الكعبة معه من سائر ولده و أهل بيته و مواليه و قواده و وزرائه و كتابه و غيرهم و جعل الشهادة بالبيعة و الكتاب في البيت الحرام، و طلب إلى الحجة في حفظهما، و منع من أراد إخراجهما و الذهاب بهما فلما رفع الكتاب ليعلق وقع فقيل إن هذا الأمر سريع انتقاضه قبل إتمامه. ثم ذكر صاحب كتاب المحمل و الحج، نص كتابي الأمين و المأمون، لكننا لم نقل منه ذلك، و إنما نقلناه من تاريخ الإمام الأزرقى. و إليك ما جاء فيه و هو: و شخص أمير المؤمنين هارون الرشيد من الرقة يريد الحج يوم الاثنين لسبع ليال بقين من شهر رمضان سنة ست و ثمانين و مائة فلم يدخل مدينة السلام و نزل منزلا منها على سبعة فراسخ على شاطئ الفرات يقال له: الدارب و قد بنى له بها منزل ثم شخص خارجا و معه الأمين ولى العهد محمد بن أمير المؤمنين و المأمون ولى العهد من بعده عبد الله بن أمير المؤمنين و معه جميع وزرائه و قرابته فعدل إلى المدينة من الربذة و قدمها فأقام بها يومين لم يصنع في الأول منهما شيئا إلا الصلاة في المسجد و التسليم على النبي صلى الله عليه و سلم و جلس في اليوم الثاني في المقصورة حيال المنبر فأمر بالمقصورة فغلقت كلها و دعا بدفاتر العطاء فأخرج يومه ذلك لأهل العطاء ثلاثة أعطيه و بدأ بالعطا بنفسه فبوءى باسمه و وزن له عطاؤه فجعله في كفه ثم فعل ذلك بالأمين و المأمون، ثم بينى هاشم المبدئين في الدعوة على غيرهم فأعطوا كذلك عشيتهم.

ثم قام إلى منزله فأصبح غاديا من المدينة الشريفة إلى مكة المعظمة فلما قدمها عزل العثماني صهره محمد بن عبد الله عن صلاة مكة و ولى مكانه سليمان بن جعفر بن سليمان فلما كان قبل التروية بيوم واحد بعد الصبح صعد المنبر فخطب

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٨٢

خطبة الحج ثم فتح له باب فدخله وحده ليس معه غيره و قام مسرورا على باب البيت و أجيء أحد المصرعين فمكث فيه طويلا في جوف الكعبة ثم دعا بالمأمون عبد الله ففعل به مثل ذلك ثم دعا بسليمان بن أبي جعفر ثم دعا بالفضل بن الربيع ثم بعيسى ابن جعفر و جعفر بن جعفر و جعفر بن موسى أمير المؤمنين فدخلوا عليه جميعا ثم دخل بعدهم الحارث و أبان و محمد بن خالد و عبيد بن يقطين و نظراؤهم و دعا بيحيى بن خالد و لم يكن حاضرا فأتى به معجلا حتى دخل و دعا بجعفر بن يحيى ثم كتب وليا العهد كل واحد منهما على نفسه كتابا لأمر المؤمنين فيما أخذ على كل واحد منهما لصاحبه و توكد فيه عليهما بخط يده.

و حضرت الصلاة صلاة الظهر من قبل فراغهم فنزل أمير المؤمنين فصلى بهم الظهر ثم عاد إلى الكعبة فكان فيها إلى أن فرغوا من الكتابين و أحضروا الناس سوى من سمينا قاضي مكة محمد بن عبد الرحمن المخزومي و أسد بن عمرو قاضي مدينة الشريفة و بعض من حجة البيت ثم حضرت صلاة العصر عند فراغهم فنزل أمير المؤمنين فصلى بهم ثم طافوا سبعا ثم دخلوا منزله من دار العجلة و أمر بحشر من حضر من الهاشميين و غيرهم ليشهدوا على الكتابين و أرسل إلى سليمان بن أبي جعفر و عيسى بن جعفر و جعفر بن موسى و قد كانوا انصرفوا فردوا من منازلهم فجاؤوا متضجرين و أخرج إليهم الكتابين و قد وضع عليهما الطين و ليس من الخواتيم إلا خاتما ولى العهد فقرأ على جميع من حضر ليشهدوا عليه و لم يثبت في الكتابين إلا أسماء من كان في الكعبة حيث كتب الكتبان و لم يختم غيرهم و لم يكن الكتبان طينا و لا طوبا و لا ختما في جوف الكعبة ثم أمر أمير المؤمنين بعد أن شهدوا على الكتابين أن يعلقا في داخل الكعبة قبالة بابها مع المعاليق التي فيها حيث يراها الناس و ضمنهما الحجة و استحلفهم على حفظهما و القيام بهما و أن يصونوهما و يعلقوهما في وقت الحج منشورين و صنع لهما قصبان من ذهب فكلوهما بفصوص الياقوت، و الزبرجد و اللؤلؤ ثم انصرف أمير المؤمنين بعد قضاء نسكه فسار مقتصدا لم يعد المراحل حتى وافى الكوفة. انتهى من الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٨٣

نص الكتاب الذي كتبه محمد بن أمير المؤمنين هارون الرشيد المعلق في جوف الكعبة

ذكر الأزرقي نص الكتاب المذكور في تاريخه و هو هذا:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين كتبه له محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحة من بدنه و عقله و جواز من أمره طائعا غير مكره إن أمير المؤمنين هارون و لآني العهد من بعده و جعل لى البيعة فى رقاب المسلمين جميعا و ولى أخى عبد الله بن أمير المؤمنين هارون العهد و الخلافة و جميع أمور المسلمين بعدى برضاء منى و تسليم طائعا غير مكره. و ولاه خراسان بنغورها و كورها و جنودها و خراجها و طرزها و بريدها و بيوت أموالها و صدقاتها و عشرها و عشورها و جميع أعمالها فى حياته و بعد وفاته فشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين على الوفاء بما جعل له أمير المؤمنين هارون من البيعة و العهد و ولاية الخلافة و أمور المسلمين بعدى و تسليم ذلك له و ما جعل له من ولاية خراسان و أعمالها و ما أقطعه أمير المؤمنين هارون الرشيد من قطيعة و جعل له من عقده أو ضيعة من ضياعه و عقده أو ابتاع له من الضياع و العقد بما أعطاه فى حياته و صحته من مال أو حلى أو جواهر أو متاع أو كسوة أو رقيق أو منزل أو دواب أو قليل أو كثير فهو لعبد الله بن أمير المؤمنين موفرا عليه مسلما له و قد عرفت ذلك كله شيئا شيئا باسمه و أصنافه و مواصفه أنا و عبد الله هارون أمير المؤمنين فإن اختلفنا فى شىء منه فالقول فيه قول عبد الله بن هارون أمير المؤمنين لا- أتبعه بشىء من ذلك ولا- آخذه منه ولا- أنتقضه صغيرا و لا كبيرا و لا من ولاية خراسان و لا غيرها مما ولاه أمير المؤمنين من الأعمال و لا أعزله عن شىء منه و لا أخلفه و لا أستبدل به غيره و لا أقدم قبله فى العهد و الخلافة أحدا من الناس جميعا و لا أدخل عليه مكروها فى نفسه و دمه و لا- شعره و لا بشره و لا خاص و لا عام من أموره و ولايته و لا أمواله و لا قطائعه و لا عقده و لا غير عليه شيئا بسبب من الأسباب و لا آخذه و لا أحدا من عماله و كتابه و ولاة أمره ممن صحبه و أقام معه بمحاسبة و لا أتبع شيئا مما جرى على يديه و أيديهم فى ولايته خراسان و أعمالها و غيرها مما ولاه أمير المؤمنين فى حياته و صحته و من الجباية و الأموال و الطرز و البريد و الصدقات و العشر و العشور و غير ذلك و لا أمر بذلك أحدا من الناس و لا أرخص فيه لغيرى و لا أحدث فيه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٨٤

نفسى بشىء أمضيه عليه و لا ألتمس فيه قطيعة و لا أنقص شيئا مما جعل له هارون أمير المؤمنين و أعطاه فى حياته و خلافته و سلطانه من جميع ما سميت فى كتابى هذا و آخذ له على و على جميع الناس البيعة و لا أرخص لأحد من الناس كلهم فى جميع ما ولاه و لا فى خلعه و لا فى مخالفته و لا أسمع من أحد من البرية فى ذلك قولاً و لا أرضى بذلك فى سر و لا علانية و لا أغمض عليه و لا أتغافل عليه و لا- أقبل من بر من العباد و لا فاجر و لا صادق و لا كاذب و لا ناصح و لا غاش و لا قريب و لا بعيد و لا أحد من ولد آدم عليه السلام من ذكر و لا- أنثى مشورة و لا- مكيدة و لا- حيلة فى شىء من الأمور سرها و علانيتها و حقها و باطلها و باطنها و ظاهرها و لا سبب من الأسباب أراد بذلك إفساد شىء مما أعطيت لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين من نفسى و أوجبت له على و شرطت و سميت فى كتابى هذا و أراد به أحد من الناس أجمعين سوءاً أو مكروها أو أراد خلعه أو محاربتة أو الوصول إلى نفسه و دمه أو حرمه أو سلطانه أو ماله أو ولايته جميعاً أو فرادى مسرين أو مظهرين له أن أنصره و أحوطه و أدفع عنه كما أدفع عن نفسى و مهجتى و دمي و شعري و بشرى و حرمى و سلطاني و أجهز الجنود إليه و أعينه على كل من غشه و خالفه و لا أسلمه و لا أتخلى منه و يكون أمرى أمره فى ذلك واحداً أبداً ما كنت حيا و إن حدثت بأمر المؤمنين حدث الموت و أنا و عبد الله بن أمير المؤمنين بحضرة أمير المؤمنين أو أحدنا أو كنا غائبين عنه جميعاً مجتمعين كنا أو متفرقين و ليس لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين فى ولايته بخراسان فعلى لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين أن أمضيه إلى خراسان و أسلم له ولايتها و أعمالها كلها و جنودها و لا أعوقه عنها و لا أحبس قبلى و لا فى شىء من البلدان دون خراسان و أعجل أشخاصه إلى خراسان واليا عليها و على جميع أعمالها منفردا بها مفوضا إليه جميع أعمالها كلها و أشخص معه جميع من ضم إليه أمير المؤمنين من قواده و جنوده و أصحابه و كتابه، و عماله، و مواليه، و خدمه، و من تبعه من صنوف الناس بأهلهم و أموالهم و لا أحبس عنه

أحدا منهم ولا أشركه معه في شيء منها أحدا ولا أرسل عليه أمينا، ولا كاتباً ولا بنداراً ولا أضرب على يديه في قليل ولا كثير و أعطيت هارون أمير المؤمنين و عبد الله بن هارون على ما شرطت لهما على نفسي من جميع ما سميت و كتبت في كتابي هذا عهد الله و ميثاقه و ذمة أمير المؤمنين و ذمتي و ذمم آبائي، و ذمم المؤمنين، و أشد ما أخذ الله عز و جل على النبيين و المرسلين و خلقه أجمعين من عهوده و موثيقه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٨٥

و الأيمان المؤكدة التي أمر الله عز و جل بالوفاء بها و نهى من نقضها و تبديلها فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت لهارون أمير المؤمنين و لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين و سميت في كتابي هذا أو حدثت نفسي أن أنقض شيئاً مما أنا عليه أو غيرت أو بدلت أو حدثت أو غدرت أو قبلت من أحد من الناس صغيراً أو كبيراً براً أو فاجراً ذكراً أو انثى جماعةً أو فرادى فبرئت من الله سبحانه و من ولايته و من دينه و من محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم و لقيت الله عز و جل يوم القيامة كافراً به مشركاً و كل امرأة هي اليوم لى أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج و على المشى إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجةً نذراً واجبا لله تعالى في عنقى حافياً راجلاً لا يقبل الله منى إلا الوفاء بذلك و كل مال هو لى اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدياً بالغ الكعبة الحرام و كل مملوك هو لى اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحراراً لوجه الله تعالى و كل ما جعلت لأمر المؤمنين و لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين و كتبت و شرطته لهما و حلفت عليه و سميت في كتابي هذا لازماً لى الوفاء به لا أضمر غيره و لا أنوى إلا إياه فإن أضمرت أو نويت غيره فهذه العهود و الموثيق و الأيمان كلها لازمة لى واجبة على و قواد أمير المؤمنين و جنوده و أهل الآفاق و الأمصار و عوام المسلمين براء من بيعتى و خلافتى و عهدى و ولايتى و هم في حل من خلعى و إخراجى و من ولايتى عليهم حتى أكون سوقه من السوق و كرجل من عرض المسلمين لا حق لى عليهم و لا ولاية و لا تبعه لى قبلهم، و لا بيعه لى فى أعناقهم و هم في حل من الأيمان التي أعطوني براء من تبعتها و وزرها فى الدنيا و الآخرة.

شهد سليمان بن أمير المؤمنين المنصور، و عيسى بن جعفر، و جعفر بن جعفر، و عبد الله بن المهدي و جعفر بن موسى أمير المؤمنين، و إسحاق بن موسى أمير المؤمنين، و إسحاق بن عيسى بن على و أحمد بن إسماعيل بن على، و سليم بن جعفر بن سليمان، و عيسى بن صالح بن على، و داود بن عيسى بن موسى و يحيى بن عيسى بن موسى و داود بن سليمان بن جعفر، و خزيمه بن حازم، و هرثمة بن أعين، و يحيى بن خالد و الفضل بن يحيى و جعفر بن يحيى و الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين و العباس بن الفضل ابن الربيع مولى أمير المؤمنين، و عبد الله بن الربيع مولى أمير المؤمنين، و القاسم بن ربيع مولى أمير المؤمنين، و دقاقة بن عبد العزيز العيسى، و سليمان بن عبد الله بن الأصم، و الربيع بن عبد الله الحارثى و عبد الرحمن ابن أبى السمراء الغسانى و محمد بن عبد الرحمن قاضى مكة، و عبد الكريم بن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٨٦

شعيب الحجبي و إبراهيم بن عبد الله الحجبي، و عبد الله بن شعيب الحجبي و محمد بن عبد الله بن عثمان الحجبي و إبراهيم بن عبد الرحمن بن نبيه الحجبي، و عبد الواحد بن عبد الله الحجبي، و إسماعيل بن عبد الرحمن بن نبيه الحجبي، و أبان مولى أمير المؤمنين، و محمد بن منصور، و إسماعيل بن ضبيح، و الحارث مولى أمير المؤمنين، و خالد مولى أمير المؤمنين و كتب فى ذى الحجة سنة ست و ثمانين و مائة. انتهى من الأزرقى.

نص الكتاب الذى كتبه عبد الله بن أمير المؤمنين هارون الرشيد

و ذكر الأزرقى نص الكتاب المذكور فى تاريخه و هو هذا:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين فى صحه من عقله و جواز

من أمره وصدق نية فيما كتب في كتابه و معرفة ما فيه من الفضل و الصلاح له و لأهل بيته و لجماعة المسلمين إن أمير المؤمنين هارون و لآنى العهد و الخلافة و جميع أمور المسلمين فى سلطانه بعد أخى محمد بن هارون أمير المؤمنين و ولانى فى حياته و بعده تغور خراسان و كورها و جميع عمالها من الصدقات و العشر و العشور و البريد و الطرز و غير ذلك و اشترط لى على محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد به من الخلافة و الولاية للعباد و البلاد بعده و ولانى خراسان و جميع أعمالها و لا يعرض لى فى شىء مما أقطعنى أمير المؤمنين أو ابتاع لى من الضياع و العقده و الدور و الرباع أو ابتعت منه من ذلك و ما أعطانى أمير المؤمنين هارون من الأموال و الجواهر و الكساء و المتاع و الدواب فى سبب محاسبه و لا تباع لى فى ذلك و لا لأحد منهم أبدا و لا يدخل على و لا على أحد ممن كان معى و منى و لا عمالى و لا كتابى و من استعنت به من جميع الناس مكروها فى دم و لا نفس و لا شعر و لا بشر و لا مال و لا صغير و لا كبير فأجابه إلى ذلك و أقر به و كتب له به كتابا و كتبه على نفسه و رضى به أمير المؤمنين هارون و قبله و عرف صدق نيته فشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين و جعلت له على نفسى أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين و أطيعه و لا أعصيه، و أنصحه و لا أغشه، و أوفى ببيعته و ولايته، و لا أغدره و لا أنكث، و أنفذ كتبه، و أموره و أحسن مؤازرته و مكافئته، و أجاهد عدوه فى ناحيتى بأحسن جهاد ما و فى لى بما شرط لى و لعبد الله هارون أمير المؤمنين و سماه فى الكتاب الذى كتبه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٨٧

لأمير المؤمنين، و رضى به أمير المؤمنين و قبله و لم يتقصى شيئا من ذلك و لا ينقص أمرا من الأمور التى اشترطها لى عليه هارون أمير المؤمنين و إن احتاج محمد بن هارون أمير المؤمنين إلى جند و كتب إلى يأمرنى بأشخاصهم إليه أو إلى ناحية من النواحي أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقص شىء من سلطانه و سلطانى الذى أسنده هارون أمير المؤمنين إلينا و ولانا أن أنفذ أمره و لا أخالفه و لا أقصر فى شىء إن كتب به إلى و إن أراد محمد بن أمير المؤمنين أن يولى رجلا من ولده العهد و الخلافة من بعدى فذلك له ما و فى لى بما جعل لى أمير المؤمنين هارون فاشترط لى عليه و شرطه على نفسه فى أمرى و على إنفاذ ذلك و الوفاء له بذلك و لا أنقض ذلك و لا أعيره و لا أبدله و لا أقدم فيه أحدا من ولدى و لا قريبا و لا بعيدا من الناس أجمعين إلا أن يولى هارون أمير المؤمنين أحدا من ولده العهد من بعدى فيلزمنى و محمدا الوفاء بذلك و جعلت لأمير المؤمنين و محمد بن أمير المؤمنين على الوفاء بما اشترطت و سميت فى كتابى هذا ما و فى له محمد بن أمير المؤمنين و لمحمد بن أمير المؤمنين هارون بجميع ما اشترط لى هارون أمير المؤمنين عليه فى نفسى و ما أعطانى أمير المؤمنين هارون من جميع الأشياء المسماة فى الكتاب الذى كتبه له عبد الله و ميثاقه و ذمه أمير المؤمنين و ذمتى و ذمم آبائى و ذمم المؤمنين و أشد ما أخذ الله عز و جل على النبيين و المرسلين و خلقه أجمعين من عهوده و موثيقه و الأيمان المؤكدة التى أمر الله عز و جل بالوفاء بها فإن نقضت شيئا مما شرطت و سميت فى كتابى هذا له أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت فبرئت من الله تعالى و من ولايته و من دينه و من محمد رسوله صلى الله عليه و سلم و لقيت الله سبحانه يوم القيامة كافرا مشركا به و كل امرأه هى اليوم لى أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتة طلاق الحرج و كل مملوك لى اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله تعالى و على المشى إلى بيت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين حجة ندرا واجبا على و فى عنقى حافيا راجلا لا يقبل الله منى الوفاء به و كل مال هو لى اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة هديا بالغ الكعبة و كل ما جعلت لعبد الله هارون أمير المؤمنين و شرطت فى كتابى هذا لازم لى لا أضمر غيره و لا أنوى سواه شهد تسمية الشهود فى ذلك الذين شهدوا على محمد بن أمير المؤمنين.

فلم يزل الشرطان معلقان فى جوف الكعبة حتى مات هارون الرشيد أمير المؤمنين و بعدما مات بسنتين فى خلافة محمد بن الرشيد ثم كلم الفضل ابن الربيع

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٨٨

محمد بن عبد الله الحجبى أن يأتية بهما فنزعهما من الكعبة و ذهب بهما إلى بغداد فأخذهما الفضل فخرقهما و أحرقهما بالنار. انتهى

كل ذلك من الأزرقى.

قال صاحب كتاب المحمل والحج: إن هذا مذكور فى كتاب صبح الأعشى فى الجزء الرابع عشر.

عقاب المعتدى على مال الكعبة

لو لم يرض الله عز وجل الغنى عن العالمين الإهداء إلى الكعبة لما حفر خليله عليه الصلاة والسلام فى داخلها حين بناء الجب العميق ليجعل فيه ما يهدى للكعبة من المال والحلى والطيب وغير ذلك، فإذا كان التعدى على مال الغير حرام غير لائق، فإن التعدى على مال الكعبة المعظمة أشد حرمة وأقبح فعلا. روى الإمام الأزرقى فى تاريخه عن عبد الله بن زرارة: أن مال الكعبة يدعى "الأبرق" ولم يخالط مالا قط إلا محقه ولم يرزأ منه أحد قط من أصحابنا إلا بان النقص فى ماله، وأدنى ما يصيب صاحبه أن يشدد عليه الموت، قال: ولم يزل من مضى من مشيخة الحجة يحذرون أبناءهم ويخوفونهم إياه ويوصونهم بالتزهر عنه ويقولون: لن تزالوا بخير ما دمتم أعفءه عنه، وإن كان الرجل ليصيب منه الشىء فيضعه ذلك عند الناس. اه.

وجاء فى تاريخ الأزرقى أيضا: أن النبى صلى الله عليه وسلم وجد فى الجب الذى كان فى الكعبة سبعين ألف أوقية من ذهب مما كان يهدى إلى البيت وأن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال: يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يحركه ثم ذكر لأبى بكر فلم يحركه. اه.

وجاء فيه أيضا: عن أبى وائل شقيق بن سلمة قال: جلست إلى شيبه بن عثمان فى المسجد الحرام فقال: جلس إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه مجلسك هذا فقال: لقد هممت أن لا أترك فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها قال شيبه: فقلت له: إنه قد كان لك صاحبان لم يفعلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه فقال عمر: هما المرءان أقتدى بهما. اه.

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما لم يتصرفوا فى مال الكعبة فيما ينفع المسلمين، فكيف يطيب لغيرهم أن تمتد أيديهم فيه بدون حق، وإذا كان مشيخة الحجة فى القرون الأولى يحذرون أبناءهم من التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٨٩

التقرب فى مال الكعبة وهم القائمون بخدمتها فإن التحذير يكون أكد فى الأزمنة الأخيرة، وما تجرأ أحد فى التصرف بمالها إلا رأى وبال ذلك عليه. فقد روى الأزرقى فى تاريخه أن جرهما جعلت على جب الكعبة رجلا منهم يحرسه فبينا رجل ممن ارتضوه عندها إذ سولت له نفسه فانتظر حتى إذا انتصف النهار وقلصت الظلال وقامت المجالس وانقطعت الطرق ومكة إذ ذاك شديد الحر بسط رداءه ثم نزل البئر فأخرج ما فيها فجعله فى ثوبه فأرسل الله عز وجل حجرا من البئر فحبسه حتى راح الناس فوجدوه فأخرجوه وأعادوا ما وجدوه فى ثوبه فى البئر فسميت تلك البئر الأخسف، فلما أن خسف بالجرهمى وحسه الله عز وجل بعث الله عند ذلك ثعبانا وأسكنه فى ذلك الجب فى بطن الكعبة أكثر من خمسمائة سنة... الخ. اه من الأزرقى. وجاء فيه أيضا عند نصيحة مضاض بن عمرو الجرهمى لقومه حينما استخفوا بأمر البيت والحرم: إنه كان للبيت خزنة بئر فى بطنه يلتقى فيها الحلى والمتاع الذى يهدى له وهو يومئذ لا-سقف له فتواعد له خمسة نفر من جرهم أن يسرقوا ما فيه فقام على كل زاوية من البيت رجل منهم واقتحم الخامس فجعل الله عز وجل أعلاه أسفله وسقط منكسا فهلك وفر الأربعة الآخرون فعند ذلك مسحت الأركان الأربعة، وقد بلغنا فى الحديث أن إبراهيم خليل الله مسح الأركان الأربعة كلها أيضا، وبلغنا فى الحديث أن آدم مسح قبل ذلك الأركان الأربعة، فلما كان من أمر هؤلاء الذين حاولوا سرقة ما فى خزنة الكعبة ما كان بعث الله حية سوداء الظهر بيضاء البطن رأسها مثل رأس الجدى فحرس البيت خمسمائة سنة لا يقربه أحد بشىء من معاصى الله إلا أهلكه الله تعالى ولا يقدر أحد أن يروم سرقة ما فى الكعبة... الخ. انتهى.

هذا ما كان فى عهد جرهم وأما ما حدث فى عهد قريش فقد روى الأزرقى أيضا عن شيبه بن عثمان الذى أسلم يوم الفتح على أصح

الروايات أنه قال:

حضرت الوفاة فتى منا من أصحابنا من الحجة بالبوابة من قرن "في طريق الطائف و نجد "فاشدد عليه الموت جدا فمكث أياما ينزع نزعا شديدا حتى رأوا منه ما غمهم و أحزنهم من شدة كربه فقال له أبوه: يا بني لعلك أصبت من هذا الأبرق يعني مال الكعبة قال: نعم يا أبت أربعمائة دينار فقال أبوه: اللهم إن هذه الأربعمائة دينار على في أنضر مالى أو ديها إليها قال: فسرى عنه ثم لم يلبث الفتى أن مات. انتهى من الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٩٠

و رب قائل يقول: إذا كان الله عز و جل عاقب المعتدين على مال الكعبة فيما مضى، فلم لا يعاقبهم عليه فيما بعد الإسلام؟ فنقول: لقد كانت العقوبة تعجل على من كان قبلنا، و كان ينزل عليهم أنواع البلايا كالجراد و القمل و الضفادع و الصيحة و الخسف و المسخ و غير ذلك، و كانوا يقرضون موضع النجاسة في الثوب أو في البدن، و كانوا يؤاخذون على الخطأ و النسيان، فرفع الله كل ذلك عن أمه محمد صلى الله عليه و سلم و عاملهم بكثير من الفضل و الرحمة و العفو و اللطف في الدنيا و الآخرة فهي أمه مرحومة و خير الأمم و نبيهم محمد خير الأنبياء و خاتمهم صلوات الله و سلامه عليه و على إخوانه الأنبياء و المرسلين و أصحابهم أجمعين. و لنختم هذا الفصل بهذه الآيات البيئات رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

حكم التصرف في مال الكعبة

روى الأزرقى في تاريخه: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم وجد في الجب الذى كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من ذهب مما كان يهدى إلى البيت و أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال: يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يحركه ثم ذكر لأبى بكر فلم يحركه. و روى الأزرقى أيضا عن شقيق بن سلمة قال: جلست إلى شيبه بن عثمان فى المسجد الحرام فقال: جلس إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه مجلسك هذا فقال: لقد هممت أن لا أترك فيها صفراء و لا بيضاء إلا قسمتها- يعنى الكعبة- قال شيبه فقلت له: إنه قد كان لك صاحبان لم يفعلاه رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر رضى الله عنه فقال عمر: هما المرءان أقتدى بهما. انتهى.

قال العلامة ابن ظهيرة القرشى فى كتابه "الجامع اللطيف فى فضل مكة و أهلها و بناء البيت الشريف" عند ذكر كثر الكعبة و الحكم فيه ما نصه: أقول: قال المحب الطبرى لما أخبر شيبه أن النبى صلى الله عليه و سلم و أبا بكر لم يتعرضا للمال رأى عمر أن ذلك هو الصواب و كأنه رأى حيثنذ أن ما جعل فى الكعبة يجرى مجرى الوقف عليها فلا يجوز تغييره، أو رأى ترك ذلك تورعا حين أخبر أنه تركه صاحبه مع رؤيته جواز

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٩١

إنفاقه فى سبيل الله لأن صاحبيه إنما تركاه للعدر الذى تضمنه حديث عائشة رضى الله عنها. انتهى.

و قال الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله تعالى: يحتمل أن يكون تركه صلى الله عليه و سلم لذلك رعاية لقلوب قريش كما ترك بناء الكعبة على قواعد بناء إبراهيم، و يؤيده ما وقع عند مسلم فى بعض طرق الحديث "و لا نفقت كثر الكعبة فى سبيل الله و لجعلت بابها بالأرض" و هذا التعليل هو المتفق عليه فإنفاقه جائز كما جاز لابن الزبير بناؤها على قواعد إبراهيم لزوال سبب الامتناع. انتهى من الجامع اللطيف.

و قال ابن ظهيرة أيضا فى كتابه المذكور، فروع:

(الأول): تختص الكعبة الشريفة بما يهدى إليها و ما ينذر لها من الأموال و امتناع صرف شىء منها إلى الفقراء و المصالح إلا أن

يعرض لها نفسها عماره فيصرف فيه و إلا فلا يغير شيء عن وجهه تبه عليه الزركشى من الشافعية.
(الثاني): إذا نذر شمعا يشعله فيها أو زيتا ونحوه وضعه في مصابيحها و إن كان لا يستعمل فيها بيع و صرف الثمن في مصالحها. صرح به الماوردي. انتهى من الجامع اللطيف و لم نذكر بقية الفروع لعدم تعلقها بهذا المبحث.
و جاء في تاريخ الكعبة ما نصه: قال التقى الفاسي تعليقا على أخذ مال الكعبة: أنه لا يجوز أخذ شيء من حلية الكعبة لا للحاجة و لا للتبرك لأن ما جعل للكعبة و سبل لها يجرى مجرى الأوقاف و لا- يجوز تغييرها من وجوهها أشار إلى ذلك المحب الطبري في القرى. انتهى.

و لقد ذكرنا في مبحث تطيب الكعبة أن الإمام النووي رحمه الله تعالى قال:
لا يجوز أخذ شيء من طيب الكعبة لا للتبرك و لا لغيره و من أخذ شيئا لزمه رده فإن أراد التبرك أتى بطيب من عنده فمسحها به ثم أخذه. انتهى. نقول: فإذا كان لا يجوز أخذ شيء من طيب الكعبة فإنه لا يجوز أخذ شيء من حلي الكعبة أو مالها أو هداياها من باب أولى، لكن لنا نحن في هذا الأمر رأى نحسب أن نذكره بالتفصيل فنقول و بالله التوفيق و المعونة و الحول و القوة:
التصرف فيما يهدى إلى الكعبة من مال و حلي و غيرها للمصلحة جازئ بلا خلاف كما ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى، و كما يفهم ضمنا من تركه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٩٢

صلى الله عليه و سلم ما وجده من الذهب في جب الكعبة و أنه لم يحركه حينما قال له علي بن أبي طالب "لو استعنت بهذا المال على حربك" فلو لم يكن جائزا لبين له رسول الله صلى الله عليه و سلم صراحة حرمة التصرف فيه، و حكمة سكوته عليه الصلاة و السلام حينما قال له علي بن أبي طالب ذلك إما رعاية لقلوب قريش كما ترك بناء الكعبة على قواعد إبراهيم مثلما ذكره ابن حجر، و إما أخذا بالعزيمة و زيادة في التعفف لقوته المعنوية الروحية فإن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام لا يتبعون الرخص إلا لإرشاد أممهم، فإذا كانت الأيدي قد امتدت إلى مال الكعبة و هداياها بينما رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر و عمر رضی الله عنهما لم يتصرفوا بشيء من ذلك، فكيف لو تصرفوا فيها بشيء. نظن أنه ما كان يبقى اليوم في الكعبة شيء حتى الكسوة كانوا يمزقونها و هي عليها.

ثم إن التصرف في مال الكعبة و هداياها و حليها على أربعة أنواع:

الأول: التصرف فيها بدون حق إما للسرقة أو للاغتصاب أو نحوهما فهذا حرام و غير جائز بلا خلاف.

الثاني: التصرف فيها للاضطرار كأخذ سدنتها شيئا للحاجة الشديدة فرأينا جواز ذلك لهم بشرطين أن ينسد جميع أسباب الرزق عليهم، و أن يكون أخذهم منه بالمعروف أي بقدر الضرورة و على سبيل الاقتراض و الأمانة فإذا تيسرت أحوالهم ردوا ما أخذوه في محله.

الثالث: التصرف فيها لمصالح الكعبة نفسها أو لمصالح المطاف و المسجد الحرام فقط من عماره و ترميم، فرأينا جواز ذلك عند خلو بيت مال المسلمين أو عند عدم وجود المال الحلال.

الرابع: التصرف فيها في سبيل المصلحة العامة للمسلمين كعند نشوب حرب أو وجود قحط في البلدة (لا قدر الله ذلك) و الناس في فقر و احتياج، فرأينا جواز ذلك، فإذا كان أكل الميتة جائز عند الاضطرار فالتصرف في مال الكعبة جائز للاضطرار بجميع أنواعه هذا رأينا الخاص في جميع ما ذكرناه و ما رأينا لأحد كلاما فيه، و الله تعالى أعلم.

و نستأنس لكلامنا المذكور بما يفهم مما رواه الإمام الأزرقى في تاريخه عن سعيد بن يسار الخزاعي عن ابن عمر أنه كان في دار خالد بن أسيد بمكة فجاءه رجل فقال: أرسل معي بحلى إلى الكعبة فقال له: ممن أنت؟ قال: من أهل العراق

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٩٣

قال: ما أحقكم يا أهل العراق أما فيكم مسكين أما فيكم يتيم أما فيكم فقير إن كعبة الله لغنية عن الذهب و الفضة و لو شاء الله

لجعلها ذهباً وفضة، قال ابن يسار فكان معي حلى بعثت بها إلى الكعبة فقلت له و أنا مستحى فقال: و أنت أيضاً ثم قال لى كما قال للآخر. انتهى من الأزرقى.

و خالد بن أسيد، بفتح الهمزة هو أخ أمير مكة عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب القرشى الأموى وواه رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة و هو ابن إحدى و عشرين سنة و ذلك عند مخرجه إلى غزوة حنين فى العشر الأول من شوال سنة ثمان من الهجرة فهو أول أمير ولى مكة و لم يزل عتاب بن أسيد أميراً على مكة إلى أن مات و كانت وفاته يوم مات أبو بكر رضى الله عنهما و قيل بل يوم جاء نعى الصديق إلى مكة.

التعدى على أموال الكعبة و هداياها

لو لم يتصرف الناس فى أموال الكعبة بعذر أو بغير عذر على سبيل التعدى من قبل الإسلام و بعده، لكان اليوم فيها من الأموال الطائلة ما لا- يحسب و من الهدايا الثمينة ما لا يقدر، و يظن صاحب كتاب تاريخ الكعبة أن كل ذلك ذهبت فى العمارة التى وقعت سنة (١٠٤٠) أى التى كانت زمن السلطان مراد خان الرابع كما ذكره بصحيفة ٢٠٧ من الكتاب المذكور.

و نحن نرى فى هذه المسألة غير ما رآه و نذهب إلى غير ما ذهب إليه فإنه لا يخفى على من اطلع فى التاريخ أن سلاطين آل عثمان كانوا يعظمون الكعبة المشرفة و جميع المشاعر غاية التعظيم و كانوا يهدون إليها مختلف الهدايا الثمينة، فلا يعقل أن يذهب ما فى الكعبة من الأموال و الهدايا فى عمارة السلطان مراد خان الرابع التى كانت سنة (١٠٤٠). فقد ذكر نفس صاحب تاريخ الكعبة فى كتابه هذا عند الكلام على بناء السلطان مراد خان الرابع أنه لما سقط الجدار الشامى من الكعبة المشرفة و بعض الجدارين الشرقى و الغربى و سقطت درجة السطح و ذلك بعد صلاة العصر من يوم الخميس عشرين شعبان سنة (١٠٩٣) وقع الضجيج العام و الانزعاج فى قلوب الناس فخرج أمير مكة الشريف مسعود بن إدريس من داره فرعا إلى المسجد الحرام و حضر معه السادة الأشراف و فاتح البيت و العلماء و الفقهاء و الصلحاء فأمر الأمير بإخراج ما فى الكعبة خشية عليها من الضياع

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٩٤

فأخرجوا القناديل و كانت عشرين قنديلا من الذهب أحدها مرصع باللؤلؤ و غيرها من المعادن و الميزاب فوضعت فى دار فاتح البيت الحرام بالصفاء بحضور أمير مكة فى مخزن و ختم عليه بختم الأمير و القاضى و نائب الحرم و أجلس عليه حرسا ... الخ و فى تاريخ الغازى بعد ذكر القناديل الذهب قال: و ثلاثة و ثلاثون قنديلا من الفضة و الظاهر أن هذه القناديل الفضة سقطت سهوا من قلم صاحب تاريخ الكعبة قال:

ثم وضعت كل هذه الأشياء فى الكعبة بعد تمام بنائها. فكيف إذا تضيع ما فى الكعبة فى هذه العمارة. و لكننا نرى أن الأحداث التى كانت تتوالى على مكة المشرفة من قديم الزمان و رحى الحرب التى دارت فيها مرارا عديدة هى السبب التى جعلت الأيدى تعبت بأموال الكعبة و هداياها و ها نحن نذكر هنا باختصار بعض تلك الحوادث مما وقفنا عليها فنقول:

(١) جاء فى تاريخ الأزرقى عن مجاهد أنه قال: كان فى الكعبة على يمين من دخلها جب عميق حفره إبراهيم خليل الرحمن و إسماعيل صلوات الله و سلامه عليهما حين رفع القواعد و كان يكون فيه ما يهدى للكعبة من حلى أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك و كانت الكعبة ليس لها سقف فسرق منها على عهد جرهم مال مرة بعد مرة و كانت جرهم ترتضى لذلك رجلا يكون عليه يحرسه بيننا رجل ممن ارتضوه عندها إذ سولت نفسه فانتظر حتى إذا انتصف النهار و قلصت الظلال و قامت المجالس و انقطعت الطرق و مكة إذ ذاك شديدة الحر بسط رداءه ثم نزل فى البئر فأخرج ما فيها فجعله فى ثوبه فأرسل الله عز و جل حجرا من البئر فحسبه حتى راح الناس فوجدوه فأخرجوه و أعادوا ما وجدوا فى ثوبه فى البئر فسميت تلك البئر بالأخسف فلما أن خسف بالجرهمى و حبسه الله عز و جل بعث الله عند ذلك ثعبانا و أسكنه فى ذلك الجب فى بطن الكعبة أكثر من خمسمائة سنة يحرس ما فيه فلا

يدخله أحد إلا رفع رأسه وفتح فاه فلا يراه أحد إلا دعر منه و كان ربما يشرف على جدار الكعبة فأقام كذلك في زمن جرهم و زمن خزاعة و صدرا من عصر قريش حتى اجتمعت قريش في الجاهلية على هدم البيت و عمارته فحال بينهم و بين هدمه حتى دعت قريش عند المقام عليه و النبي صلى الله عليه و سلم معهم و هو يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي بعد فجاء عقاب فاخطفه ثم طار به نحو أجياد الصغير. انتهى من الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٩٥

(٢) و جاء فى تاريخ الأزرقى أيضا: أن الحسين بن الحسن العلوى عمد إلى خزانه الكعبة فى سنة مائتين فى الفتنة حين أخذ الطالبيون مكة فأخذ مما فيها مالا عظيما و انتقله إليه و قال: ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا لا ينتفع به نحن أحق به نستعين به على حربنا. اه منه.

(٣) و جاء فيه أيضا: عن مسافع بن عبد الرحمن الحجبى قال: لما بويع بمكة لمحمد بن جعفر بن محمد بن على بن حسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم فى الفتنة فى سنة مائتين حين ظهرت المبيضة بمكة " و هم أصحاب المقنع " أرسل إلى الحجة فتسلف منهم من مال الكعبة خمسة آلاف دينار و قال: نستعين بها على أمرنا أفاء الله علينا رددناها فى مال الكعبة فدفعوا إليه و كتبوا عليه بذلك كتابا و أشهدوا فيه شهودا فلما خلع نفسه و رفع إلى أمير المؤمنين المأمون تقدم الحجة و استعدوا عليه عند أمير المؤمنين فقضاهم أمير المؤمنين المأمون تقدم الحجة و استعدوا عليه عند أمير المؤمنين عن محمد بن جعفر خمسة آلاف دينار و كتب لهم بها إلى إسحاق بن عباس بن محمد و هو وال على اليمن فقبضتها الحجة و ردها فى خزانه الكعبة. اه منه.

(٤) و جاء فى شفاء الغرام للتحقى الفاسى أنه كتب حجة البيت إلى أمير المؤمنين المعتضد العباسى أن أحد الولاة بمكة قلع أيام الفتنة سنة (٢٥١) ما على عضادتي باب الكعبة من الذهب فضربه دنانير و صرفها على الفتنة و أن عامل مكة سنة (٢٦٨) قلع أيضا أيام الفتنة مقدار الربع من الذهب من أسفل باب الكعبة و ما على أنف الباب من الذهب و استعان به على دفع تلك الفتنة، فأمر المعتضد بإعادة جميع ذلك. اه منه.

(٥) و جاء فى تاريخ الأزرقى: لما حارب يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومى والى مكة إبراهيم بن موسى أرسل إلى الحجة فأخذ السرير الفضة و ما عليه من الفرشة و أزارير الذهب و الفضة المرخاة على وجه السرير و الصنم الذهب الذى فوقه و الذى أرسل كل ذلك أحد ملوك التبت هدية إلى الكعبة المشرفة فاستعان به على حربه و ضربه دنانير و دراهم و قال: أمير المؤمنين يخلفه لها و ذلك سنة (٢٠٢) اثنتين و مائتين. اه منه.

(٦) و جاء فى تاريخ الكعبة: أنه فى سنة (٣١٧) سبع عشرة و ثلاثمائة دخل أبو طاهر القرمطى مكة المشرفة يوم التروية من ذى الحجة و هو اليوم الثامن فدخلوا المسجد الحرام و أسرفوا فى قتل الحجاج و أسرهم و نهبهم. قيل: قتلوا فيه ألفا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٩٦

و سبعمائة. و قيل: ثلاثة عشر ألفا من الرجال و النساء و هم متعلقون بالكعبة و ردموا بهم زمزم حتى ملأوها و فرش بهم المسجد الحرام و ما يليه و صعد أبو طاهر بنفسه على باب الكعبة و أخذ حليها و هتك أستارها و قسم كسوتها بين أصحابه و أمر بقلع ميزابها و كان من الذهب الإبريز و أخذ أموال الناس و أقام هو و أصحابه بمكة أحد عشر يوما ثم انصرف إلى بلده هجر و حمل معه الحجر الأسود و بقى موضع الحجر من الكعبة خاليا يضع الناس فيه أيديهم للتبرك و بقى الحجر عندهم نحو اثنين و عشرين سنة ثم رده إلى الكعبة رده سنبر بن الحسن القرمطى. انتهى منه باختصار و من أراد الوقوف على حادثة القرمطى فعليه بمراجعة كتب التاريخ و نحن إنما ذكرنا هذه النبذة لأخذه أموال الكعبة.

(٧) و جاء فيه أيضا: أنه فى سنة (٤٦٢) أخذ أمير مكة أبو هاشم محمد بن جعفر المعروف بابن أبى هاشم الحسن قناديل الكعبة و

ستورها و صفائح الباب لما لم يصله شيء من جهة المستنصر العبيدي. اه.

(٨) و جاء فيه أيضا: أن الوزير على شاه بعث سنة (٧١٨) حلقتين من ذهب مرصعتين باللؤلؤ و البلخس كل حلقة زنتها ألف مثقال و في كل حلقة ست لؤلؤات فاخرات و بينهما ست قطع بلخس فاخر هدية للكعبة فعلقتا عليها ثم أخذهما أمير مكة الشريف رميثة ابن أبي نمي. اه منه.

(٩) و جاء فيه أيضا: أن السلطان شيخ أويس بغداد أرسل أربعة قناديل كبار اثنان منها ذهب و اثنان فضة و ذلك سنة (٧٧٠) هدية للكعبة فعلقت بها ثم أخذها أمير مكة الشريف عجلان بن رميثة. اه.

(١٠) و جاء فيه أيضا: أن أمير مكة داود بن عيسى بن فليته أخذ ما في الكعبة من أموال و طوقا كان يمسك الحجر الأسود و ذلك سنة (٥٨٦).

(١١) و جاء فيه أيضا: أن أبا الفتوح الحسن بن جعفر العلوي حين خرج عن طاعة الحاكم بأمر الله و دعا لنفسه بالإمامة و تلقب بالراشد أخذ من حلية الكعبة و ضربها دنانير و دراهم و هي التي تسمى الفتحية و أخذ بعد ذلك المحاريب التي أهداها للكعبة صاحب عمان. اه.

أي تلك المحاريب التي زنة كل محراب أكثر من قنطار أهداها صاحب عمان بعد سنة (٤٢٠) من الهجرة كما ذكره أبو عبيد الله البكري في كتابه المسالك و الممالك. اه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٩٧

(١٢) و جاء في كتاب المحمل و الحج: أن شيوخ سدة البيت الشريف كانوا إذا احتاجوا اختلسوا من أموال الكعبة و هداياها ما يسدون به خللهم و يدفع به فقرهم و احتياجهم (قال في هامش الكتاب المذكور) قال القطب الحنفي: أدركنا في أيام الصبا و قد خفت القناديل من شيوخ الكعبة من كان يتهم بذلك لفقره و احتياجه (ثم ساق حكاية لا نحب ذكرها) قال: و افتقد مرة أمير من أمراء جدة قنديلا علقه في البيت قريبا فسأل الشيخ عن ذلك و أراد إهانتة فلم يقدر و تكلم عنه الناس و كان الشيخ يقول: المحافظة على بنية الإنسان أوجب من المحافظة على قناديل معلقة في الكعبة لا ينفعها تعليقها و لا يضرها فقدها و قد وصلنا إلى حد المخمصة فنعذر في ذلك إن وقع فعله منا. انتهى منه.

هذه الحوادث ذكرناها هنا لمعرفة ما كان يقع من السلب و النهب و تمتد أيدي من قل دينه إلى مال الكعبة و هداياها، أو من يتصرف فيها بالأكل منها بالمعروف من سدنتها الفقراء، أو من يضطر إلى أخذها من أمراء مكة لأسباب قهريه. و قد جاء ذكر غالب هذه الأشياء عند الكلام على هدايا الكعبة و معاليقها و أموالها.

فضل النظر إلى الكعبة

قال الطبري رحمه الله تعالى في كتابه "القرى لفاصد أم القرى" ما نصه:

و عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه و سلم: النظر إلى البيت الحرام عبادة، أخرجه صاحب مثير الغرام. و عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

النظر إلى الكعبة محض الإيمان. و عن مجاهد أنه قال: النظر إلى الكعبة عبادة.

و عن سعيد بن المسيب قال: من نظر إلى الكعبة إيمانا و تصديقا خرج من الخطايا كيوم ولدته أمه.

و عن عطاء قال: النظر إلى البيت يعادل عبادة سنة، قيامها و ركوعها و سجودها. و عن ابن السائب المدني قال: من نظر إلى الكعبة إيمانا و تصديقا تحاتت عنه الذنوب كما يتحات الورق من الشجر. أخرجهما صاحب مثير الغرام.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٩٨

و عنه قال: النظر إلى البيت عبادة. و الناظر إليه بمنزلة الصائم القائم الدائم المخبت المجاهد في سبيل الله. أخرج الأربعة الأزرقى، و المخبت: الخاضع الخاشع المتواضع. انتهى من كتاب الطبرى المذكور.

فضل الطواف بالبيت الحرام

روى الإمام الأزرقى فى تاريخه عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (ينزل الله عز و جل على هذا البيت كل يوم و ليلة عشرين و مائة رحمة:

ستون منها للطائفين و أربعون للمصلين و عشرون للناظرين).

قال حسان بن عطية: فظنرنا فإذا هى كلها للطائفين فإن الطائف هو يطوف و يصلى و ينظر. اه.

نقول: و هذا مأخوذ من قوله صلى الله عليه و سلم: "الطواف حول البيت مثل الصلاة إلا أنكم تتكلمون فيه فمن تكلم فيه فلا يتكلم إلا بخير" رواه الترمذى و غيره.

فالأصناف الثلاثة المذكورون هم الذين ينطبق عليهم قوله تعالى: وَ عَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ.

و لقد نظمنا ما ورد فى الحديث المتقدم من تقسيم الرحمة النازلة على البيت الحرام بقولنا:

و جاء فى الحديث ما معناه ينزل الله تعالى الله

ليئته المحفوف بالكرامة فى كل يوم بل و كل ليلة

عشرين رحمة مضافا لمائة ينالها قوم همو خير فئة

منقسم للطائفين نصفها و للمصلين يخص ثلثها

و الناظرون البيت يأخذون عشرين و هو سدسها يقينا

و روى الأزرقى فى تاريخه أن أنس بن مالك قدم المدينة فركب إليه عمر بن عبد العزيز فسأله عن الطواف للغرباء أفضل أم العمرة؟ قال: بل الطواف.

روى الإمام الأزرقى فى تاريخه عن عطاء قال: سمعت ابن عباس يقول: النظر إلى الكعبة محض إيمان، و روى فيه أيضا أن حماد بن أبى سلمة قال: الناظر إلى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٤٩٩

الكعبة كالمجتهد فى العبادة فى غيرها من البلاد، و روى فيه أيضا عن ابن عمر أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: "من طاف بالبيت كتب الله عز و جل له بكل خطوة حسنة و محاه عنه سيئة" و روى فيه أيضا عن مجاهد أنه قال: ما بين الركن و الباب يدعى الملتزم و لا يقوم عبد ثم فيدعو الله عز و جل بشيء إلا استجاب له. و روى فيه أيضا عن ابن عباس قال: من التزم الكعبة ثم دعا استجيب له فليل له: و إن كانت استلامه واحدة قال: و إن كانت أو شكك من برق الخلب. و روى فيه أيضا عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال: طفت مع عبد الله بن عمرو فلما جئنا دبر الكعبة قلت: ألا تتعوذ؟ قال: أعوذ بالله من النار ثم مضى حتى استلم الحجر فقام بين الركن و الباب ثم وضع صدره و وجهه و ذراعيه و كفيه بسطا و قال: هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يفعل. و قال مجاهد:

الصق خديك بالكعبة و لا تضع جبهتك.

فبيت ربنا عظيم القدر و نوره سار كضوء البدر

قد وضع الله من الأسرار فيه فلا تخفى على الأبرار
أحاطه بالبر والإجلال وكيف وهو بيت ذى الجلال
سبحانه من خالق عظيم جل تعالى الله من حلیم
من سلم الأمر إليه سلماو من دعاه مخلصا ما ندما

هبة الكعبة و ما يقال عند النظر إليها

مما لا شك فيه أن الله تعالى قد وضع في بيته الحرام من الأسرار ما لا يعلمها إلا هو، وقد حفها بالأنوار والبركات الظاهرة والباطنة، وبذلك صار لها في قلوب المؤمنين من الهيبة والإجلال ما لا يوصف بالقلم، وأكثر ما يكون ذلك لدى القادم الزائر، فإنه يقف لأول رؤيته لها خاشعا مندهشا، ويختلف الخوف والخشوع والهيبة والإجلال باختلاف أحوال الإنسان كل بحسب معرفته بربه، فموقف العالم العامل غير موقف العالم المهمل، وموقف الجاهل المستقيم غير موقف الجاهل الفاسد، وهكذا موقف كل واحد منهم في جميع العبادات.

قال البتوني في رحلته الحجازية: و من الغريب أن كل من يقع بصره لأول وهلة على الكعبة تراه في دهشة كبيرة، لا لكون بصره وقع على شيء لم يتعود النظر إليه، ولكن ما يعتريه من الخشية والرهبه. فترى هؤلاء المشاهدين تأخذهم التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٠٠

هزة كبيرة من هذا المنظر المهيّب، ومنهم من يقف لحظة في مكان المتأدب المستكين المتصاغر أمام هذه العظمة الكبرى، ومنهم من يصرخ بصوت الخوف ولسانه يلهث بكلمات منفصلة عن بعضها، ومنهم من يجهش بالبكاء فلا تسمع له غير نحيب يختنق معه صوته و تتقطع منه أنفاسه، وعلى كل حال فنسبة خوف الإنسان من ربه على نسبة من قوة دينه و متانة يقينه. انتهى منه.

وكيف لا تكون الكعبة كذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لها بالتشريف والتعظيم والمهابة والتكريم كما سيأتي، ثم هي موضع الرحمة ومستنزل البركات، ومهبط الملائكة ومكان موقفهم، وعندها الملتزم والمتعوذ والمستجار، وهي مقصد الأنبياء والأتقياء، وملجأ الصالحين والأبرار.

و أما ما يقال عند النظر إلى البيت الشريف لأول مرة، فقد ورد في ذلك بعض الأدعية المأثورة ذكرها الإمام الأزرقى في تاريخه و نحن نذكرها بحذف أسانيدنا فنقول:

كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى البيت رفع يديه فقال: "اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه واعتمره تشريفا وتعظيما وبرا."

و كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا رأى البيت يقول: "اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام" و كان بعض الصحابة رضى الله عنه يقول ذلك أيضا.

حدث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ترفع الأيدي في سبع مواطن: في بدء الصلاة، وإذا رأيت البيت، وعلى الصفا والمروة، وعشية عرفة، وبتجمع وهو مزدلفة، وعند الجمرتين، وعلى الميت" انتهى منه.

تعظيم الكعبة في الجاهلية

الكعبة المشرفة معظمة بين الأنعام من حين بنائها الأول وهي كذلك إلى قيام الساعة، وكان الفرس يحترمونها من قديم الزمان و يهدون إليها أموالا وجواهر، وقد كان ساسان بن بابك أهدى إليها غزالين من ذهب وجواهر وسيوف و ذهبها

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٠١

كثيرا فدفن في زمزم، دفنها فيما بعد ملك جرهم مضاض بن عمرو في ليلة مظلمة خوفا عليها من جرهم حيث تهاونوا بحرمة مكة و الحرم حتى أكلوا أموال الكعبة.

و الفرس كانوا يحجون إلى الكعبة، و في ذلك يقول أحد شعرائهم بعد الإسلام:

و ما زلنا نحج البيت قدماو نلقى بالأباطح آمينا

و ساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف دينا

فظاف به و زمزم عند بئر لإسماعيل تروى الشارينا

و قال غيره:

زمزم الفرس على زمزم و ذاك من سالفها الأقدم

و لقد تعبد اليهود في الكعبة على دين إبراهيم و النصرى على دين المسيح عليهما الصلاة و السلام، و قد وضعوا في الكعبة صورة و تماثيل منها صورة إبراهيم و إسماعيل و عيسى و أمه و صور بعض الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ثم أمر بثوب فبل بالماء و أمر بطمس تلك الصور فطمست و أمر بإزالة الأصنام التي على الكعبة.

فلو لا- إجماعهم على قدسية الكعبة و تعظيمهم لها ما وضعوا صور الأنبياء في داخلها فإن الأشياء المقدسة الغالية ما توضع إلا في أشرف موضع و أظهر مكان.

و كان أهل الجاهلية لا يستحلون حرمتها و لا يستخفون بحقها خوفا من أن يهلكهم الله تعالى فكانوا يتواصون بذلك. جاء في تاريخ الأزرقى ما تلخصه:

كانت العماليق هم ولاء الحكم بمكة فضيعوا حرمة البيت الحرام، و استحلوا فيه أمورا عظاما و نالوا ما لم يكونوا ينالون، فقام رجل منهم يقال له عموق فقال: يا قوم ابقوا على أنفسكم فقد رأيتم و سمعتم من هلك من صدر الأمم قبلكم قوم هود و صالح و شعيب فلا تفعلوا، و تواصلوا فلا تستخفوا بحرم الله و موضع بيته، و إياكم و الظلم و الإلحاد فيه، فإنه ما سكنه أحد قط فظلم فيه و ألد إلا قطع الله دابرهم و استأصل شافتهم، و بدل أرضها غيرهم، حتى لا يبقى لهم باقية، فلم يقبلوا ذلك منه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٠٢

ثم إن جرهما قدموا مكة فكان مضاض بن عمرو ملكهم و المطاع فيهم، و كان السמידع ملك قطورا فأقاموا بها مع العماليق و بنوا بمكة البيوت و اتسعوا في المنازل و كثروا على العماليق فنازلوهم فمعتهم جرهم و أخرجوهم من الحرم كله فكانوا في أطرافه لا يدخلونه، فقال لهم صاحبهم عموق: ألم أقل لكم لا تستخفوا بحرمة الحرم فغلبتموني؟

ثم إن جرهما استخفوا بأمر البيت و الحرم و ارتكبوا أمورا عظاما، و أحدثوا فيه أحداثا لم تكن، فقام مضاض بن عمرو بن الحارث فيهم فقال: يا قوم احذروا البغي فإنه لا بقاء لأهله قد رأيتم من كان قبلكم من العماليق استخفوا بالحرم فلم يعظموه و تنازعوا بينهم و اختلفوا حتى سلطكم الله عليهم فأخرجتموهم ففرقوا في البلاد، فلا- تستخفوا بحق الحرم و حرمة بيت الله، و لا- تظلموا من دخله و جاءه معظما لحرمة، أو آخر جاء بايعا لسلعته و راغبا في جواركم، فإنكم إن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا منه خروج ذل و صغار، حتى لا يقدر أحد منكم أن يصل إلى الحرم و لا إلى زيارة البيت الذى هو لكم حرز و أمن و الطير يأمن فيه.

قال قائل منهم يقال له مجذع: من الذى يخرجنا منه، ألسنا أعز العرب و أكثرهم رجالا و سلاحا؟ فقال مضاض بن عمرو: إذا جاء الأمر بطل ما تقولون.

فلما طالت ولاية جرهم استحلوا من الحرم أمورا عظاما و نالوا ما لم يكونوا ينالون و أكلوا مال الكعبة الذى يهدى إليها سرا و علانية، نصب ماء زمزم و ذهب، و قام مضاض بن عمرو و بعض ولده في ليلة مظلمة فحفر في موضع بئر زمزم و أعماق ثم دفن فيه الأسياف و

الغزاليين الذهب اللذين كانا في الكعبة، ثم سلط الله على جرهم عمرو بن عامر بن حارثة ابن ثعلبة الذي يقال له مزقياء بن ماء السماء حيث خرج هو وقومه من مأرب إلى أن وصل مكة يريد الإقامة بها مدة يسيرة، فأبت جرهم عليهم ذلك و قالوا لهم: ما نحب أن تنزلوا فتضيقوا علينا مراتعنا و مواردنا فارحلوا عنا حيث أحببتهم، فاقتتل الفريقان ثم انهزمت جرهم فلم ينفلت منهم إلا الشريد، و كان مضاض بن عمرو قد اعترل جرهما و لم يعن جرهما في ذلك و قال: كنت أحذركم هذا.

ثم أقام بعد ذلك ابن ثعلبة بمكة و ما حولها في قومه و عساكره حولاً فأصابتهم الحمى و كانوا في بلد لا يدرون فيه ما الحمى، فأشارت إليهم طريفة الكاهنة أن يتفرقوا في الممالك و البلدان فتفرقوا فمنهم من لحق بعمان و منهم من لحق بحوران التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٠٣

و بالشام و منهم من لحق بالعراق، و منهم من لحق بيثرب بالمدينة و هم الأوس و الخزرج و هم الأنصار. أما خزاعة فلم ترحل فكانت بالأرايك من بطن مر "أى بقرب مكة" فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر و هو لحي فولى أمر مكة و حجابة الكعبة، فحازت خزاعة بالحجابه و ولاية أمر مكة و فيهم بنوا إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة و السلام، فأقامت خزاعة على ما كانت عليه من ولاية البيت و الحكم بمكة ثلاثمائة سنة، و هى التى قاتلت بعض التبايعه الذين جاءوا لهدم البيت حتى أرجعهم إلى حيث أتوا، ثم كان من أمر قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم مع خزاعة من الحرب ما كان بسبب حيازته حجابة البيت و ولاية أمر مكة من طرف حليل دون خزاعة حتى تداخلت قبائل العرب بالصلح بينهم بأن تكون الحجابه و الولاية لقصي و ألا تخرج خزاعة عن مساكنها من مكة.

و جاء في تاريخ الأزرقي عن ابن جريج قال: الحطيم ما بين الركن و المقام و زمزم و الحجر، و كان إساف و نائلة رجل و امرأة دخلا الكعبة فقبلها فيها فمسحوا حجرتين فأخرجوا من الكعبة فنصب أحدهما في مكان زمزم و الآخر في وجه الكعبة ليعتبرا بهما الناس و يزدجروا عن مثل ما ارتكبا، قال: فسمى هذا الموضع الحطيم لأن الناس كانوا يحطمون هنالك بالأيمان و يستجاب فيه الدعاء على الظالم للمظلوم، فقل من دعا هنالك على ظالم إلا هلك و قل من حلف هنالك، إلا عجلت له العقوبة فكان ذلك يحجز بين الناس عن الظلم و يتهيب الناس الأيمان، فلم يزل ذلك كذلك حتى جاء الله بالإسلام فأخّر الله ذلك - لما أراد - إلى يوم القيامة.

حدثني جدى قال: حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن ابن نجيح عن أبيه أن ناسا كانوا في الجاهلية حلفوا عند البيت على قسامه و كانوا حلفوا على باطل ثم خرجوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق نزلوا تحت صخرة فبينما هم قايلون إذ أقبلت الصخرة عليهم فخرجوا من تحتها يشتدون فانفلقت بخمسين فلقه فأدركت كل رجل منها فلقه فقتلته و كانوا من بنى عامر بن لؤى قال الزنجي: فكان ذلك الذى أقل عددهم فورث حويطب بن عبد العزى عامه رباعهم.

روى معمر عن قتادة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لقريش: إنه كان ولاء هذا البيت قبلكم طسم فاستخفوا بحقه و استحلوا حرمة فأهلكهم الله، ثم وليته بعدهم جرهم فاستخفوا بحقه و استحلوا بحرمة فأهلكهم الله، فلا تهاونوا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٠٤

به و عظموا حرمة، و عن صفوان الوهطى قال: بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:

سكن مكة حى من العرب كانوا يكرون الظلال و يبيعون الماء فأبدلها الله تعالى بهم قريشا فكانوا يظلمون فى الظلال و يسقون الماء. قال الأزرقي: و كانت مكة لا يقر فيها ظالم و لا باغ و لا فاجر إلا نفى منها، و كان نزلها بعهد العماليق و جرهم جابرة فكل من أراد البيت بسوء أهلكه الله فكانت تسمى بذلك الباسه "أى المهلكه" و ما حادثه الفيل بخافية على أحد. انتهى باختصار و تصرف من تاريخ الأزرقي رحمه الله تعالى.

و هذا قريش لما أرادوا أن يبنوا الكعبة بعد أن احترقت هابوا هدمها فقال لهم الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل نريد الإصلاح قال: فإن الله لا يهلك المصلحين، قالوا: من الذى يعلوها فيهدمها. قال الوليد بن المغيرة: أنا أعلوها فأهدمها،

فارتقى الوليد على جدار البيت و معه الفأس فقال: اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح ثم هدم، فلما رأت قريش ما هدم منها و لم يأتهم ما يخافون من العذاب هدموا معه، و لم يبنوها إلا من المال الحلال و من أطيب كسبهم.

و من تعظيمهم للكعبة المشرفة كما ذكره الإمام الأزرقى أن الناس كانوا يبنون بيوتهم مدورة تعظيماً للكعبة، فأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير فقالت قريش: ربع حميد بيتاً إما حياة و إما موتاً. و ذكر أيضاً: أن شيبه بن عثمان كان يشرف فلا يرى بيتاً مشرفاً على الكعبة إلا أمر بهدمه. و ذكر أيضاً: أن عمر بن الخطاب لما قدم مكة رأى حول الكعبة بناء قد أشرف عليها فأمر بهدمه و قال لهم: ليس لكم أن تبنوا حولها ما يشرف عليها.

و ذكر أيضاً: أن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس لما بنى داره التي بمكة على الصيارفة حيال المسجد الحرام أمر القوم ألا يرفعوا بناءها فيشرفوا به على الكعبة إعظاماً لها، و أن الدور التي كانت تشرف على الكعبة هدمت و خربت إلا دار العباس هذه فإنها على حالها إلى اليوم. و ذكر أيضاً عن يوسف بن ماهك قال: كنت جالساً مع عبد الله بن عمرو بن العاص في ناحية المسجد الحرام إذ نظر إلى بيت مشرف على أبي قبيس فقال: أبيت ذلك قلت: نعم. فقال: إذا رأيت بيوتها "يعنى بذلك مكة" قد علت أخشابها و فجرت بطونها أنهاراً فقد أذف الأمر. انتهى كل ذلك من تاريخ الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٠٥

اللهم اغفر لنا تهاوننا و قلة أدبنا في بلدك الأمين و بيتك الحرام المعظم، فأنت الرب العزيز الأكرم الغنى عن العالمين. و بمناسبة عدم تعليه الدور و البيوت في العصور السابقة على الكعبة المشرفة تعظيماً و احتراماً لها نذكر هنا بعض ما يشبه ذلك، فقد جاء في أواخر الجزء الثاني من كتاب "حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة" للإمام السيوطى رحمه الله تعالى، أنه في سنة تسع عشرة و ثمانمائة أمر الملك المؤيد الخطباء إذا وصلوا إلى الدعاء له في الخطبة، أن يهبط من المنبر درجة ليكون اسم الله و سوله في مكانة أعلى من المكان الذى يذكر فيه السلطان، فصنع ذلك الحافظ ابن حجر بالجامع الأزهر و ابن النقاش بجامع ابن طولون، قال ابن حجر: و كان مقصد السلطان في ذلك جميلاً. انتهى منه.

نقول: إن ما ذكر يشبه فعل الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم في صعود منبر النبى صلى الله عليه و سلم للخطبة، فقد كان لهذا المنبر ثلاث درجات كما في صحيح مسلم، فالثالثة العليا تسمى المجلس، و أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يجلس على المجلس و يضع رجله على الدرجة الثانية، فلما ولى أبو بكر رضى الله عنه قام على الدرجة الثانية و وضع رجله على الدرجة السفلى، فلما ولى عمر رضى الله عنه قام على الدرجة السفلى و وضع رجله على الأرض، فلما ولى عثمان رضى الله عنه فعل ذلك ست سنين من خلافته ثم علا إلى موضع النبى صلى الله عليه و سلم.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذا الأدب الرفيع من الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد مماته و مع بعضهم أيضاً، فكل واحد منهم يعرف فضل الآخر و يعترف بمكانته و مقداره، رضى الله تعالى عنهم أجمعين، و انظر أدب الملك المؤيد رحمه الله تعالى كيف أمر الخطباء أن يهبطوا من المنبر درجة حين الدعاء له ليكون اسم الله تعالى و رسوله في درجة أعلى من درجة الدعاء له، و لقد قرأنا في التاريخ أن أحد سلاطين آل عثمان "لا نذكر اسمه الآن" دخل ليلاً في حجرة نومه فرأى مصحفاً معلقاً على الجدار المقابل لنومه فلم ينم و ما زال واقفاً على رجله تأدباً و احتراماً للقرآن العظيم حتى أدركه الصبح "و إنما الأعمال بالنيات".

فهذه الأمور الدقيقة و بهذه الآداب العالية، رفع الله قدرهم و مكانتهم و قوى ملكهم و سلطتهم و أدخل الرعب في قلوب أعدائهم، أما نحن في هذه الأزمنة المتأخرة القريبة من قيام الساعة، فقد أهملنا آداب الدين و الشريعة، بل إننا أهملنا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٠٦

الفروض و تهاوننا بالواجبات، فلم يعبأ الله بنا و سلط علينا الأعداء حتى تكدر عيشنا، فلا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم، اللهم تداركنا برحمتك و حول حالنا إلى أحسن الأحوال بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين آمين.

و من تعظيمهم للكعبة أنه لما فرغت قريش من بناء الكعبة كان أول من خلع الخف و النعل فلم يدخلها بهما الوليد بن المغيرة إعظاما لها فجرى ذلك سنة فكانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء و إنما يضعونها تحت الدرجة، قال عطاء بن السائب:

رأيت سعيد بن جبير رضی الله عنه يطوف فإذا دخل الحجر وضع نعليه على جدر الحجر، و قال عبد الله بن الزبير رضی الله عنهما: إن كانت الأمة من بنى إسرائيل لتقدم مكة فإذا بلغت ذا طوى خلعت نعالها تعظيما للحرم.

و لقد كانت القبائل من عمالق و جرهم و خزاعة و قريش و غيرهم يسكنون في شعاب مكة و يتركون حول الكعبة احترامها لها و تعظيما لشأنها فلا يجترئ أحد أن يبنى بجوارها دارا و لا جدارا، فلما آل الأمر إلى قصي بن كلاب جمع قومه بطون قريش و أمرهم أن يبنوا حول الكعبة بيوتا من جهاتها الأربعة و قال لهم: إن سكنتم حول الكعبة هابتكم الناس و لم تستحل قتالكم و الهجوم عليكم، فبنوا بيوتهم حولها، فكان ذلك أول بدء البنيان حول الكعبة. و سنتكلم إن شاء الله تعالى عن تعظيم الحرم بعد هذا، و هل كان تعظيم الحرم إلا إكراما للكعبة بيت الله الحرام.

و انظر كيف أرسل الله الصاعقة على أهل الشام الذين كانوا يرمون الكعبة بالمنجنيق الذي نصبوه على أخشى مكة أبي قبيس و الأحمـر و هو قيعقان فاحترقت بسبب ذلك، قال الإمام الأزرقى في تاريخه: و كان احتراقها بعد الصاعقة التي أصابت أهل الشام بعشرين ليلة.

قال في الجامع اللطيف لابن ظهيرة ما نصه: روى أن الحجاج بن يوسف لما نصب المنجنيق على أبي قبيس بالحجارة و النيران اشتعلت النار في أستار الكعبة، جاءت سحابة من نحو جدة يسمع فيها الرعد و يرى البرق فمطرت فلم يجاوز مطرها الكعبة و المطاف، فأطفأت النار و أرسل الله عليهم صاعقة فأحرقت منجنيقهم فنداركوه. قال عكرمة: و أحسب أنها احترقت تحته أربعة رجال، فقال الحجاج: لا يهولنكم هذا فإنها أرض صواعق فأرسل الله صاعقة أخرى فأحرقت المنجنيق و أحرقت معه أربعين رجلا و ذلك في سنة ثلاث و سبعين في أيام

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٠٧

عبد الملك بن مروان، قال الجد و الحجاج: ما قصد التسلط على البيت و إنما تحصن به ابن الزبير ففعل ذلك لإخراجه. انتهى من الكتاب المذكور.

و جاء في تاريخ الخميس بصحيفة (٣٠٥) ما يأتي: و في زبدة الأعمال و بعض المناسك: روى أن الحجاج بن يوسف نصب المنجنيق على أبي قبيس و رمى الكعبة بالحجارة و النيران حتى تعلقت بأستار الكعبة و أشعلت فجاءت سحابة من نحو جدة مرتفعة يسمع منها الرعد و يرى فيها البرق و استوت فوق الكعبة و المطاف فأطفأت النار و سال الميزاب في الحجر ثم عدلت إلى أبي قبيس فرمت بالصاعقة و أحرقت منجنيقهم و أحرقت تحته أربعة رجال فقال الحجاج: لا يهولنكم هذا فإنها أرض صواعق فأرسل الله صاعقة أخرى فأحرقت المنجنيق و أحرقت معه أربعين رجلا و ذلك في سنة ثلاث و سبعين في أيام عبد الملك بن مروان فأمسك و كتب بذلك إلى عبد الملك و وهى البيت بسبب ما أصابه من حجارة المنجنيق ثم هدم الحجاج بأمر عبد الملك ما زاد ابن الزبير في الكعبة و بناه. انتهى من الكتاب المذكور.

نقول: و هنا نمسك القلم، ففيما تقدم عبرة و عظة كافيتان لذوى الأبصار، فإذا كان المنتقم الجبار قد أهلك الأمم السابقة الذين تهاونوا بحرمه بيته الحرام، فكيف بنا و نحن قد تهاونوا بحرمه البيت و الحرم، و تهاونوا بأمر ديننا القويم و تركنا سنة نبينا الكريم محمد صلى الله عليه و سلم، فظهر فينا الفساد و كثرت الموبقات و فشا فينا الظلم و الرشوات، و لئن لم ينتقم الله منا و لم يهلكنا كما أهلك الأمم السابقة، فإنه قد سلط علينا الأعداء، و رفع عنا البركة و الرخاء و قضى علينا بأنواع الأمراض و البلاء، و أمات قلوبنا فلا ينفع فيها الوعظ و الإرشاد، و جعل على بصائرنا غشاوة فلا نهتدى إلى ما ينفعنا، و نزع منا الرحمة فلا يرحم بعضنا بعضا، فلا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم و إنا لله و إنا إليه راجعون، اللهم يا رحمن يا رحيم يا حى يا قيوم إليك نلجأ و بك نستغيث و بك نعوذ، فارفع

مقتك و غضبك عنا و عاملنا بما أنت أهله من العفو و الكرم لا بما نحن نستحقه، اللهم ارفع عنا الوباء و البلاء و الغلاء، و أنزل علينا من بركات السماء و أخرج لنا من بركات الأرض، و افتح لنا أبواب الخير و الهداية و الصلاح، و اكشف عن قلوبنا الغشاوة حتى نبصر الطريق القويم و نمشى على صراطك المستقيم، و أصلح جميع أحوالنا و أعمالنا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٠٨

بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين، و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين، و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

تطيب الكعبة

الطيب و هو العطر استعمله الإنسان منذ العصور القديمة و هو من أحسن كماليات الإنسان تستروح به النفس و ينشرح له الصدر، و التعطر و النظافة من أفضل عادة العرب و مثله البخور بالعود و الصندل و اللبان و غيرها، و قد حث الدين الإسلامي على ذلك بأن يستعمله الإنسان في نفسه ولدى حضور الاجتماعات و الجمعة و الأعياد و عند كل مناسبة لطيفة، و السرف في ذلك التحجب و الإقبال و عدم الكراهة و النفور. روى الأزرقى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنها قالت:

"طيبوا البيت فإن ذلك من تطهيره،" و قالت أيضا: "لأن أطيب الكعبة أحب إلى من أن أهدي لها ذبا و فضة" و ذلك لأن الطيب نفعه أكثر فتطيب رائحة الكعبة على الدوام فتستروح الأنفس إليها، كما أن طيبها ينتقل إلى الناس كلما قربوا منها و لمسوها، أما الذهب و الفضة فلا ينتفع بهما سوى سدنيتها فقط.

و لما كانت الكعبة المشرفة لها من التقديس و التعظيم في النفوس، و أن الناس يتلمسونها و يطوفون بها آناء الليل و النهار و يجتمعون عندها للصلاة و الدعاء و التضرع كانت أدعى إلى تطيبها و تبخيرها، فكان في الجاهلية يهدى إليها الخلق و المجرم، و كان العرب يطيبونها داخلا و خارجا بل حتى كانوا يطيبون معها قرني الكبش الذي فدى به إسماعيل و ذبحه إبراهيم صلوات الله و سلامه عليهما فقد كانا محفوظين داخل الكعبة معلقين بالجدر تلقاء من دخلها إلى أن هدمها ابن الزبير فلما أراد أن يتناولهما همدا من الأيدي كما ذكره الإمام الأزرقى.

و ما احترقت الكعبة في أيام قريش قبل البعثة بخمس سنين على أشهر الأقوال إلا من تبخيرها و تجميرها، فإن امرأة من قريش ذهبت تجمر الكعبة فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها و كانت الكسوة عليها ركاما بعضها فوق بعض فاحترقت الكعبة و توهنت جدرانها و تصدعت، فهدمتها قريش و بنتها قويا كما هو مفصل بيانه في محله، و معنى التجمير التبخير.

و هذا عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما فإنه لما فرغ من بناء الكعبة المشرفة خلقها من داخلها و خارجها من أعلاها إلى أسفلها و كساها القباطى كما في

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٠٩

تاريخ الأزرقى، و معنى خلقها: طلاها بضرب من الطيب، فكان ابن الزبير أول من خلق جوف الكعبة.

و روى الأزرقى أن عبد الله بن الزبير كان يجمر الكعبة كل يوم برطل من مجمر و يجمر الكعبة كل جمعة برطلين من مجمر. اه.

و روى الأزرقى أن معاوية رضى الله عنه بعث من الشام إلى شيبه بن عثمان بكسوة من ديباج و قباطى و حبرة و كتب إليه أن يجرد الكعبة و يكسوها و يخلقها، قال: فرأيت شيبه جردها حتى لم يترك عليها شيئا مما كان عليها و خلق جدرانها كلها و طيبها ثم كساها تلك الكسوة التي بعث بها معاوية إليها و قسم الثياب التي كانت عليها على أهل مكة و كان ابن عباس حاضرا في المسجد الحرام و هم يجردونها قال: فما رأيته أنكر ذلك و لا كرهه. اه. قال عطاء بن يسار:

و كانت الكعبة قبل هذا لا تجرد إنما يخفف عنها بعض كسوتها و تترك عليها حتى كان شيبه بن عثمان أول من جردها و كشفها. اه.

جاء في تاريخ القطبي ما يأتي: و ذكر حجة الكعبة المهدى أنه تراكت على الكعبة كسوة كثيرة أثقلتها و يخاف على جدرانها من ثقلها، فأمر بنزعها فنزعت حتى بقيت مجردة، و وجدوا كسوة هشام من الديباج الثخين و كسوة من قبله من ثياب اليمن، فجردت الكعبة منها و على جدرانها من داخلها و خارجها بالغالية و المسك و العنبر.

و صعد الخدم على سطح الكعبة و صاروا يسكبون قوارير الغالية الممسكة المطيبة على جدران الكعبة إلى أن استوعبوها، ثم كسيت ثلاث كساوى من القباطى و الخز و الديباج، و قسم المهدى فى الحرمين الشريفين أموالا عظيمة و هى ثلاثون ألف ألف درهم وصل بها معه من العراق، و ثلثمائة ألف دينار وصلت إليه من مصر، و مائتا ألف دينار وصلت إليه من اليمن و خمسين ألف ثوب فرق جميع ذلك على أهل الحرمين.

جاء فى تاريخ عمارة الكعبة: أن السنجارى روى فى تاريخه أن السلطان قايتباى أمر فى سنة (٨٨٤) أربع و ثمانين و ثمانمائة بغسل الكعبة و تطيبها ظاهرا و باطنا، فحضر شريف مكة الشريف محمد بن بركات و قاضى مكة برهان الدين بن ظهيره، و جردت الكعبة و غسلت ظاهرا و باطنا و طيبت بماء الورد و المسك ثم أعيد ثوبها. انتهى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥١٠

و روى الأزرقى عن أبى نجیح أن معاوية رضى الله عنه أجرى للكعبة وظيفه الطيب لكل صلاة و كان يبعث لها بالمجمر و الخلق فى الموسم و فى رجب و أخدمها العبيد ثم اتبعت ذلك الولاة. اه. و هو أول من أجرى الزيت لقناديل المسجد من بيت المال. و جاء فى تاريخ الغازى: لما حج المهدى العباسى سنة (١٦٠) رفع إليه أنه قد اجتمع على الكعبة ثياب كثيرة حتى أنها أثقلتها و يخشى على الجدران من ذلك فأمر بتجريدتها ثم ضمخها من خارجها و داخلها بالغالية و المسك و العنبر ثم كساها بثلاثة أثواب قباطى و خز و ديباج و هو جالس فى المسجد مما يلى دار الندوة. انتهى.

و فى هذه السنة المذكورة أمر المهدى المذكور بالمسجد الحرام و زاد فيه الزيادة الأولى قال الأزرقى: و أخبرنى عبد الله بن إسحاق الحجبى عن جدته فاطمة بنت عبد الله قالت: حج المهدى فجرد الكعبة و طلا جدرانها من خارج بالغالية و المسك و العنبر قالت: فأخبرنى جدك تعنى زوجها محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الحجبى قال: سعدنا على ظهر الكعبة بقوارير من الغالية فجعلنا نفرغها على جدران الكعبة من خارج من جوانبها كلها و عييد الكعبة قد تعلقوا بالبكرات التى تخاط عليها ثياب الكعبة و يطلون بالغالية جدرانها من أسفلها إلى أعلاها. اه.

قال المرحوم الشيخ حسين باسلامه فى كتابه تاريخ الكعبة المعظمة ما نصه: ثم صار ذلك الطيب يهدى للكعبة من سائر الملوك و السلاطين و الأمراء إلى أن صارت ولاية الحرمين الشريفين تابعة لسلاطين آل عثمان فصار الطيب و البخور يأتى سنويا من القسطنطينية من ضمن المرتبات التى خصصت للحرمين الشريفين و استمر ذلك إلى نهضة الشريف الحسين ثم صار يصرف لرئيس السدنة من صندوق وزارة المالية شيئا من النقود مع مخصص غسل الكعبة المعظمة برسم الطيب و العمل جار على ذلك إلى العصر الحاضر. انتهى.

و نحن بدورنا سألنا فضيلة رئيس سدنة الكعبة المشرفة عن عطر الكعبة فأجابنا بمثل ما ذكره المرحوم الشيخ حسين باسلامه، و قال: إن حكومتنا السعودية تدفع لنا ثمن العطر و البخور مقدار ألفى ريال سعودى سنويا، و قال: تطيب كافة جدران الكعبة من جهاتها الأربعة بعطر الورد بعد خلطه بماء الورد و يطلق البخور فى أثناء ذلك من المجرمة التى توضع فى محل خاص بوسط الكعبة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥١١

هذا ما وقفنا عليه من تطيب الكعبة. و أما حكم أخذ طيب الكعبة فقد ذكر الإمام النووى رحمه الله تعالى بأنه لا يجوز أخذ شىء من طيب الكعبة لا للتبرك و لا لغيره و من أخذ شيئا من ذلك لزمه رده فإن أراد التبرك أتى بطيب من عنده فمسحها به ثم أخذه. و روى عن سعيد بن جبیر أنه كان يكره أن يؤخذ من طيب الكعبة يستشفى به، و قال عطاء: كان أحدنا إذا أراد أن يستشفى به جاء

بطيب من عنده فمسح به الحجر ثم أخذه.

عدم خلو الكعبة من الطائفين

من الأسرار الإلهية العجيبة الدقيقة في بيته الحرام و الكعبة المعظمة المشرفة المكرمة أنها لا تخلو قط من الطواف و الطائفين آناء الليل و أطراف النهار حتى في وقت نزول المطر و هجوم السيل إلى المسجد الحرام و في شدة الحر و البرد و هذا النوع من العبادة فريد في بابه في الحياة الدنيا. قال الحافظ محب الدين الطبري في كتابه "القرى لقاصد أم القرى" ما نصه:

و قد قيل إن الكعبة شرفها الله تعالى منذ خلقها عز و جل شأنه و جل جلاله ما خلت من طائف يطوف بها من إنس أو جن أو ملك، و قال بعض السلف:

خرجت يوما في هاجرة ذات سموم فقلت: إن خلت الكعبة عن طائف في حين فهذا ذلك الحين، و رأيت المطاف خاليا فدنوت فرأيت حية عظيمة رافعة رأسها تطوف حول الكعبة. ذكره ابن الصلاح في منسكه. انتهى من الطبري.

و جاء في شفاء الغرام للفاسي: قال السهيلي: لما ذكر بناء ابن الزبير للكعبة و في الخبر أنه سترها حتى وصل إلى القواعد فطاف الناس بتلك الأستار فلم تخل قط من طائف، حتى لقد ذكر أن يوم قتل ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما اشتدت الحرب و اشتغل الناس فلم ير طائف يطوف بالكعبة إلا جمل يطوف بها.

انتهى منه.

قال العلامة القطبي في تاريخه المسمى "الإعلام بأعلام بيت الله الحرام" في الباب الأول ما نصه: و كنت أشاهد قبل الآن في زمن الصبا خلو الحرم الشريف و خلو المطاف من الطائفين حتى أنى أدركت الطواف و حدى من غير أن يكون معي أحد مرارا كثيرة، أترصده خليا لكثرة ثوابه بأن يكون الشخص الواحد يقوم التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥١٢

بتلك العبادة وحده في جميع الدنيا و هذا لا يكون إلا بالنسبة إلى الإنسان فقط، و أما الملائكة فلا يخلو منهم المطاف الشريف. ثم قال بعد بضعة أسطر: حكى لى والدى رحمه الله أن أحد الصالحين رصد الطواف أربعين عاما ليلا و نهارا ليفوز بالطواف وحده، فرأى بعد هذه المدة خلو المطاف الشريف فتقدم ليشرع في الطواف و إذا بحية تشاركه في ذلك الطواف، فقال لها: من أنت من خلق الله؟ قالت: أنا أرصد ما رصدت قبلك بمائة عام، فقال لها: حيث أنت من غير البشر فإني فزت بالانفراد بهذه العبادة و أتم طوافه.

انتهى من تاريخ القطبي.

أما ما جاء في موطأ الإمام مالك عند الكلام على "الصلاة بعد الصبح و العصر في الطواف" و هو: و حدثني عن مالك عن أبي الزبير المكي أنه قال: لقد رأيت البيت يخلو بعد صلاة الصبح و بعد صلاة العصر ما يطوف به أحد، فإننا لم نفهم هذا الكلام حق الفهم، فإن وقع هذا فهل روى مثله أحد من المحدثين و المفسرين و المؤرخين أم لا، ثم إن وقع ذلك فمن الذى أبطل هذه العادة حتى صار الناس يطوفون بالبيت في كل وقت و حين حتى بعد الصبح و بعد العصر إلى يومنا هذا بل إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى.

جاء في الجامع اللطيف لابن ظهيرة القرشي: و عن مجاهد قال: كان كل شىء لا يطيقه الناس من العبادة يتكلفه ابن الزبير رضى الله تعالى عنه، فجاء سيل فطبق البيت فامتنع الناس من الطواف فجعل ابن الزبير يطوف سباحة، و ذكر القاضى عز الدين بن جماعة عن جده أنه طاف بالبيت سباحة و كان كلما حاذى الحجر الأسود غطس لتقبيله، و ذكر أن بعض المكين أخبره أنه اتفق له مثل ذلك.

انتهى منه.

نقول: مسألة الطواف سباحة لا يزال بعض الناس بمكة إلى اليوم يطوفون سباحة بالكعبة المعظمة عند دخول السيل العظيم إلى المسجد الحرام و ممن طاف سباحة في السيل الكبير الذى دخل المسجد الحرام سنة (١٣٦٠) ستين و ثلاثمائة و ألف صديقنا الفاضل السيد

محمد الهادي بن علوي عقيل من أهالي مكة المشرفة و الساكن بباب الزيادة.

و لقد خلا المطاف من الطائفين بعض الأوقات في عصرنا هذا بعد صلاة الظهر فقط و ذلك عند ضرب الألغام و إثارته عند الصفا لتكسير الجبل لتوسعة المسجد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥١٣

الحرام و الشارع، فإنهم كانوا يخرقون الجبل أولا بالآلات الثاقبة قد يبلغ مائتي ثقب و قد يبلغ ثلاثمائة ثقب، ثم يملأون هذه الثقوب بالديناميت و في كل منها فتيل يكون طرف الفتيلة خارجا عن الثقب ثم يشعلونها و يتعدون عنها فإذا وصلت النار من الفتيلة إلى الديناميت ثار و فجر تلك الثقوب فتكسر الصخور و تتطاير الأحجار إلى مسافة بعيدة في كل جهة.

لذلك قبيل إشعال الفتيل بدقائق ينذر الذين يشتغلون بالألغام الناس لبيتعدوا و يختبئوا في البيوت و تحت السقوف و أن لا يجلس أحد في طاقات و شبائيك منازلهم المطلة على مواضع الألغام خوفا من إصابتهم بالحجارات المتطايرة عند إثارة الألغام، و يكون هناك الجنود أيضا في الشارع يصفرون بصفارات الإنذار بقرب إثارته، و يمنعون الناس من المرور بقربها، فإذا ثارت الألغام خلت الشوارع و الأماكن القريبة منها من الناس.

و لما كان المسجد الحرام قريبا من جبل الصفا و كانت الكعبة بوسط المسجد المكشوف غير المسقوف، فإنه عند إثارة الألغام يهرب الناس من الطواف حول الكعبة و يستترون في أروقة المسجد الحرام و جدرانه، و لا يترك حفظة المسجد الحرام و جنوده أن يطوف أحد بالكعبة و لا أن يقربوا الحجر الأسود و لا أن يمشوا في صحن المسجد خوفا من إصابته أحد بالأحجار المتطايرة عند إثارة الألغام بعد صلاة الظهر مباشرة.

ففي هذا الوقت فقط يخلو المطاف عيانا من الطائفين مدة لا تتجاوز نصف الساعة. و إليك صورة خلو المطاف و صحن المسجد من الناس.

انظر: صورة رقم ٩٧، المطاف خاليا من الناس

و إليك صورة الحجر الأسود و قد وضعت عليه الستارة لوقايتها و حفظه و الستارة عبارة عن سلم خشبي كما تراه في الصورة و هو لا يعنى شيئا فوقاية الله تعالى أعظم و أكمل.

انظر: صورة رقم ٩٨، صحن المسجد خاليا من الناس

و في هذه الحالة تحافظ حكومتنا السنية على الحجر الأسود فقد أمرت أن يوضع عليه فراش مطوي عدة طيات ثم يوضع فوق الفراش لوح من الحديد و يربط بستارة الكعبة من الجانبين بالجبال، لحفظه و صيائه و ذلك خوفا من إصابته بحجارة الألغام التي تتطاير و لكن لم يحصل و لله الحمد أن شيئا منها وصل إلى صحن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥١٤

المسجد و المطاف. و قد تكلمنا أيضا على ستر الحجر الأسود خوفا عليه من الألغام عند الكلام على ستر الكعبة في حرب ابن الزبير. و قد بدأت إثارة الألغام لتكسير جبل الصفا قرب المسجد الحرام من ابتداء العمل في توسعة المسجد الحرام و ذلك من سنة (١٣٧٥) خمس و سبعين و ثلاثمائة و ألف.

الطواف في الجاهلية

كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت سبعا، و كانوا يجعلون الكعبة عن يمينهم حين الطواف، و يستلمون الحجر الأسود في البدء و الختام، و كانوا يفتحون البيت يوم الاثنين و يوم الخميس، و لا يدخلونه بحذاء بل يضعون نعالهم تحت الدرجة تعظيما له، و كانوا يطوفون بالبيت عراة. فقد روى الأزرقى في تاريخه عن ابن عباس رضی الله عنهما أنه قال: فكانت قبائل من العرب من بنى عامر و غيرهم

يطوفون بالبيت عراة: الرجال بالنهار، و النساء بالليل فإذا بلغ أحدهم باب المسجد قال للحمس: من يعير مصونا من يعير معوزا فإن أعاره أحمسي ثوبه طاف به و إلا ألقى ثيابه بباب المسجد ثم دخل للطواف فطاف بالبيت سبعا عريانا، و كانوا يقولون: لا تطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب ثم يرجع إلى ثيابه فيجدها لم تحرك فأخذها و يلبسها، و لا يعود بعد ذلك إلى الطواف عريانا و لم يكن يطوف بالبيت عريان إلا الضرورة من غير الحمس: فأما الحمس فكانت تطوف في ثيابها، إلى آخر ما ذكره الأزرقي من عاداتهم و أحوالهم تفصيلا في تاريخه فراجع إن شئت.

ثم لما جاء الإسلام منع من الطواف بالبيت عريانا، فإنه لما حج أبو بكر بالناس في الحجة التي أمره النبي صلى الله عليه و سلم قبل حجة الوداع أذن يوم النحر في الناس لا يحج بعد العام مشرك و لا يطوف بالبيت عريان. ذكره البخاري في صحيحه في أواخر كتاب بدء الخلق.

جاء في تاريخ الأزرقي رحمه الله تعالى: أن امرأة جاءت يوما لتطوف بالبيت و كان لها جمال و هيئة، فطلبت ثيابا عادية فلم تجد من يعيرها فلم تجد بدا من أن تطوف عريانة فتزعت ثيابها بباب المسجد ثم دخلت المسجد عريانة فوضعت يدها على فرجها و جعلت تقول:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥١٥ اليوم يبدو بعضه أو كله و ما بدا منه فلا أحله قال: فجعل فتيان مكة ينظرون إليها و كان لها حديث طويل و قد تزوجت في قريش. انتهى من الأزرقي.

تقول: و قائلة هذا البيت هي ضباعة بنت عامر بن قرط القشيرية و قد أسلمت و هاجرت رضى الله تعالى عنها و خلاصة قصة طوافها بالبيت عريانة:

أنها كانت عند عبد الله بن جدعان ثم رغب فيها هشام بن المغيرة، فطلبت الطلاق من ابن جدعان لتتزوج، فاشتراط عليها لطلاقها أن تنحر مائة ناقه سوء الحدق، و أن تغزل خيطا يمد بين أخشى مكة، و أن تطوف بالبيت عريانة فعرضت هذه الشروط على هشام فتكفل لها بذلك، و قال لها: أنا أسأل قريشا أن يخلو لك البيت ساعة لتطوف عريانة. فلما ذهبت لتطوف جعلت تخلع ثوبا ثوبا و هي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

حتى نزعت ثيابها ثم نشرت شعرها فغطى بطنها، و ظهرها حتى صار في خلخالها فما استبان من جسدها شيء و أقبلت تطوف بالبيت و هي تقول هذا الشعر.

و قد جاءت ترجمتها و قصتها في كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة" فارجع إليها إن شئت.

جاء في صحيح البخاري في باب مناقب الأنصار في باب أيام الجاهلية: عن قيس بن أبي حازم، قال: دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب، فرآها لا تكلم فقال: ما لها لا تكلم، قالوا: حجت مصمتة، قال لها: تكلمي فإن هذا لا يحل هذا من عمل الجاهلية، فتكلمت فقالت: من أنت، قال: امرؤ من المهاجرين، قالت: أي المهاجرين؟ قال: من قريش، قالت: من أي قريش أنت؟ قال: إنك لسؤول، أنا أبو بكر، قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم قالت: و ما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رؤوس و أشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت:

بلى، قال: فهم أولئك على الناس. انتهى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥١٦

الجلوس في الحجر و المطاف في الجاهلية

كان المطاف و حجر إسماعيل عليه السلام في زمن الجاهلية مجلسا عاما يجتمعون فيهما و يجلسون بفناء الكعبة و ظلها يتذاكرون في مختلف شؤونهم، أما المجلس الخاص الذي يعقده كبار القوم و أشرفهم للنظر في الأمور المهمة فقد كان في دار الندوة. روى الإمام

الأزرقى فى تاريخه عن جده أنه قال: كان المسجد الحرام محاطا بجدار قصير غير مسقف و كان الناس يجلسون حول الكعبة بالفداء و العشى يتبعون الأفياء فإذا قلص قامت المجالس. اه. و قلص الظل بمعنى نقص.

و روى الإمام الأزرقى أيضا فى تاريخه عن ابن جريج أنه قال: كنا جلوسا مع عطاء بن أبى رباح فى المسجد الحرام " و حدوده فى ذلك العهد هو نفس المطاف اليوم " فتذاكرنا ابن عباس و فضله و على بن عبد الله ابن عباس فى الطواف و خلفه ابنه محمد بن على فعجبنا من تمام قامتهما و حسن وجوههما فقال عطاء: و أين حسنهما من حسن عبد الله ابن عباس ما رأيت القمر ليله أربع عشرة و أنا فى المسجد الحرام طالعا من جبل أبو قبيس إلا ذكرت وجه ابن عباس و لقد رأيتنا جلوسا معه فى الحجر إذ أتاه شيخ قديم بدوى من هذيل يهدج على عصاه فسأله عن مسألة فأجابه فقال الشيخ لبعض من فى المجلس: من هذا الفتى؟ فقالوا: هذا عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب فقال الشيخ: سبحان الذى مسح حسن عبد المطلب إلى ما أرى، فقال عطاء: سمعت ابن عباس يقول: سمعت أبى يقول: كان عبد المطلب أطول الناس قامه و أحسن الناس وجها ما رآه قط شىء إلا أحبه و كان له مفرش فى الحجر لا يجلس عليه غيره و لا يجلس معه عليه أحد و كان الندى من قريش حرب بن أمية فمن دونه يجلسون حوله دون المفرش فجاء رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو غلام يدرج ليجلس على المفرش فجدوه فبكى فقال عبد المطلب:

و ذلك بعدما حجب بصره ما لا بنى يبكى؟ قالوا له: إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعه فقال عبد المطلب: دعوا ابنى فإنه يحس بشرف أرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربى قط، قال: و توفى عبد المطلب و النبى صلى الله عليه و سلم ابن ثمان سنين و كان خلف جنازته يبكى حتى دفن بالحجون.

و روى الأزرقى أيضا عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما قالت: لما نزلت تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ جاءت أم جميل بنت حرب بن أمية

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥١٧

امرأة أبى لهب و لها ولولؤه و فى يدها فهر فدخلت المسجد و رسول الله صلى الله عليه و سلم جالس فى الحجر و معه أبو بكر رضى الله عنه فأقبلت و هى تلملم الفهر فى يدها و تقول:

مذمما أئينا، و دينه قلينا، و أمره عصينا، قالت فقال أبو بكر رضى الله عنه: يا رسول الله هذه أم جميل و أنا أخشى عليك منها و هى امرأة فلو قمت، فقال: إنها لن ترانى و قرأ قرآنا اعتصم به، ثم قرأ: وَ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّشْتُورًا قالت: فجاءت حتى وقفت على أبى بكر رضى الله عنه و هو مع رسول الله صلى الله عليه و سلم و لم تره فقالت: يا أبا بكر فأين صاحبك، قال: الساعة كان هاهنا قالت: إنه ذكر لى أنه هجانى و ايم الله إنى لشاعرة و إن زوجى لشاعر و لقد علمت قريش أنى بنت سيدها، قال سفيان قال الوليد فى حديثه: فدخلت الطواف فعثرت فى مرطها فقالت: نفس مذموم، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: ألا ترى يا أبا بكر ما يدفع الله تعالى به عنى من شتم قريش يسمونى مذمما و أنا محمد فقالت لها أم حكيم ابنه عبد المطلب: مهلا يا أم جميل، إنى لحصان فما أكلم، و ثقاف فما أعلم و كلتانا من بنى العم، ثم قريش بعد أعلم.

انتهى من تاريخ الأزرقى.

و معنى قول أبى بكر "يا رسول الله هذه أم جميل و أنا أخشى عليك منها و هى امرأة فلو قمت" أى هذه امرأة لو أساءت إليك نفع فى حرج عظيم، فإننا لا نقدر على ضربها و الانتقام منها لأنها امرأة، و التعدى على المرأة ليس من الشهامة و المروءة، كما أننا لا نصبر على امرأة تتعدى عليك، فلو قمت يا رسول الله و تواریت عنها لاسترحنا من أمرها. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إنها لن ترانى، و بالفعل أنها لما وقفت عليهما ما رأته، فكانت هذه المعجزة ثبتت مكانة رسول الله صلى الله عليه و سلم و قوت عزته و نصره.

اعلم أنه يستحب الدخول إلى الكعبة المشرفة بأدب و خشوع و أن يصلى فيها، و الأفضل أن يقصد مصلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فإذا دخل البيت مصلى حتى يكون بينه و بين الجدار الذى قبل وجهه قريبا من ثلاثة أذرع فيصلى. ثبت ذلك فى صحيح البخارى، و يدعو فى جوانبه و هذا بحيث لا يؤذى أحدا و لا يتأذى هو، فإن حصل الإيذاء له أو لغيره حرم دخوله، فإذا دخل البيت فليكن شأنه الدعاء

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥١٨

و التضرع و لا يشتغل بالنظر إلى ما يليه فإنه فى بيت الله تعالى الذى قال فيه:

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا. و يستحب أيضا أن يكثر من دخول الحجر و يقال له الحطيم فإنه من البيت و دخوله سهل، و الدعاء فيه تحت الميزاب مستجاب، روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: "كنت أحب أن أدخل البيت فأصلى فيه فأخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم بيدي فأدخلني الحجر و قال: "صلى فيه إن أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت" و يستحب الشرب من ماء زمزم و التضلع منه، أى الامتلاء منه. فقد روى عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه و سلم قال "ماء زمزم لما شرب له" و عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال فى ماء زمزم "إنها مباركة و أنها طعام طعم و شفاء سقم" رواه مسلم.

و يستحب لمن أراد الشرب منه أن يستقبل القبلة و يقول: اللهم إن بلغنى أن نبيك محمدا قال "ماء زمزم لما شرب له" و إنى أشربه لتشفينى أو ترزقنى علما أو مالا- أو ذرية أو غير ذلك من الحاجات ثم يسمى الله تعالى و يشرب، و يستحب نقله تبركا، فإن النبى صلى الله عليه و سلم استهدها من سهيل ابن عمرو، و كفا هذا الماء المبارك شرفا أنها تخرج من تحت الكعبة المعظمة و من الصفا و المروة. اه.

و جاء فى تاريخ الأزرقى: عن ابن جريج عن نافع مولى ابن عمر قال: كان ابن عمر إذا قدم مكة حاجا أو معتمرا فوجد البيت مفتوحا لم يبدأ بشيء أول من أن يدخله. اه.

و روى الأزرقى عن جده عن مسلم بن خالد الزنجى أحد فقهاء مكة قال:

رأيت صدقة بن يسار يدخل البيت كلما فتح فقلت له: ما أكثر دخولك البيت يا أبا عبد الله؟ قال: و الله إنى لأجد فى نفسى أن أراه مفتوحا ثم لا أصلى فيه.

انتهى منه.

نقول: إن كثرة الدخول إلى الكعبة المعظمة أو قلتها راجع إلى حال الشخص نفسه، فإن آنس من نفسه الرغبة الشديدة فى دخولها مع مراعاة كامل الأدب فى كل مرة و فى كل وقت تفتح فيه الكعبة، فإنه يطلب له الدخول فى كل مرة مهما تكرر دخوله، و هذه الحالة لا تكون إلا للعلماء الصالحين.

و ما رواه البخارى فى صحيحه بأن ابن عمر رضى الله عنهما كان يحج كثيرا و لا يدخل الكعبة. فهذا أمر يرجع إلى اجتهاد ابن عمر و هو الحريص على تتبع آثار

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥١٩

النبى صلى الله عليه و سلم، فعدم دخوله لا بد أن يكون لحكمه دقيقة، و ربما كانت حتى لا يظن الناس أن دخول الكعبة من مناسك الحج لا يتم إلا بدخولها و الله تعالى أعلم.

و لا ينبغى أن يفهم مما تقدم أن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما لم يدخل الكعبة قط، فقد دخلها رضى الله عنه حال حياة النبى صلى الله عليه و سلم كما يعلم ذلك من كتب الأحاديث و السير، فقد روى البخارى فى صحيحه فى كتاب المغازى فى باب دخول النبى صلى الله عليه و سلم من أعلى مكة: عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أقبل يوم الفتح من

أعلى مكة على راحلته مردفا أسامة بن زيد و معه بلال و معه عثمان بن طلحة من الحجة، حتى أناخ في المسجد فأمره أن يأتي بمفتاح البيت، فدخل رسول الله صلى الله عليه و سلم و معه أسامة بن زيد و بلال و عثمان بن طلحة، فمكث فيه نهارا طويلا ثم خرج، فاستبق الناس فكان عبد الله بن عمر أول من دخل فوجد بلالا وراء الباب قائما، فسأله أين صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأشار له إلى المكان الذي صلى فيه، قال عبد الله: فنسيت أن أسأله كم صلى من سجدة. اه.

أما إذا كان الشخص من العوام ممن لا يأنس من نفسه الرغبة الشديدة في دخوله بل يتساوى لديه الدخول و عدمه، فهذا الأفضل له عدم كثرة الدخول حتى لا يحصل منه التهاون بحرمتها.

و هذا التفصيل يكون أيضا في جميع أنواع العبادات كقراءة القرآن و كثرة الصلاة.

و يصلى الداخل في أي نواحيها شاء، فقد جاء في صحيح البخارى في كتاب الحج عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان إذا دخل الكعبة مشى قبل الوجه حين يدخل و يجعل الباب قبل الظهر، يمشى حتى يكون بينه و بين الجدار الذى قبل وجهه قريبا من ثلاث أذرع، فيصلى يتوخى المكان الذى أخبره بلال أن رسول الله صلى الله عليه و سلم صلى فيه، و ليس على أحد بأس أن يصلى في أي نواحي البيت شاء.

و الأفضل أن يصلى في الموضع الذى فيه صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و قد صلى فيها ركعتين يوم دخلها في فتح مكة، و موضع مصلاه قبل الجدار الغربى بثلاثة أذرع قرب الركن اليمانى و كان باب الكعبة خلف ظهره.

فإذا دخل المرء البيت الحرام و مشى قبل وجهه حتى يكون بينه و بين الجدار الغربى الذى أمامه نحو ثلاثة أذرع و يكون ظهره على باب البيت فقد وقف موقف

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٢٠

رسول الله صلى الله عليه و سلم في صلاته و لا بد أن تقع أعضاؤه في مكان موقفه عليه الصلاة و السلام.

و صلاة النبى صلى الله عليه و سلم في الكعبة كان يوم الفتح لا في حجة الوداع و صلى فيها ركعتين خفيفتين، و قد ذكر التقي الفاسى أن عليه الصلاة و السلام دخل الكعبة أربع مرات بعد الهجرة، و هو يوم الفتح و ثانى يوم الفتح و فى حجة الوداع و فى عمرة القضاء قبل فتح مكة بسنة. قال: و فى كل من هذه الدخولات خلاف إلا الدخول الذى فى يوم الفتح.

و نرى أن الحكمة فى صلاة النبى صلى الله عليه و سلم فى الكعبة حين دخولها أحيانا، و عدم صلاته حين دخوله إليها أحيانا و اكتفائه بالتكبير و التهليل و حمد الله و الثناء عليه، هى أن لا يظن أحد أن الصلاة عند دخولها فى كل مرة واجبة، فإنه صلى الله عليه و سلم كل فعله و حركاته عن حكمة جزاه الله عن أمته خير الجزاء. و قد ذكر الإمام البخارى فى صحيحه الأحاديث الواردة فى دخول النبى صلى الله عليه و سلم الكعبة و صلاته فيها و بوب لذلك أربعة أبواب.

و أما الطواف بالكعبة من داخلها فغير مشروع، بل لا يصح مطلقا لأنه يشترط فى الطواف أن يكون خارج الكعبة و أن يكون خلف جدار حجر إسماعيل عليه السلام، و أما آداب دخولها التى ينبغى مراعاتها فقد بيناها فى المبحث الآتى.

فضل دخول الكعبة المعظمة

يستحب دخول بيت الله الحرام اقتداء برسول الله صلى الله عليه و سلم و بفعل الصحابة و التابعين و من بعدهم، قال الفاسى: و قد اتفق الأئمة الأربعة على استحباب دخول البيت، و استحسّن مالك كثرة دخولها لأن فى مناسك ابن الحاج قال ابن حبيب: و أخبرنى مطرف عن مالك أنه سئل عن الصلاة فى البيت و عن دخوله كلما قدر عليه الداخل، فقال له: ذلك واسع حسن. انتهى. و لقد ورد فى فضل ذلك ما ذكره الفاسى فى شفاء الغرام بما ملخصه: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم؛ ج ٢-٣؛ ص ٥٢٠

ى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: من دخل البيت فصلى فيه دخل فى حسنة و خرج من

سيئة مغفورا له. وفي لفظ: من دخل البيت خرج مغفورا له. و روى الفاكهي أخبارا في فضائل دخول البيت، فقد روى عن هند بن أوس أنه قال: حججت فلقيت ابن عمر فقلت: إنى أقبلت التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٢١ من الفج العميق أردت البيت العتيق، وأنه ذكر لي أن من أتى بيت المقدس يصلى فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فقال ابن عمر: رأيت البيت من دخله فصلى فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. وقال عطاء: لأن أصلى ركعتين في البيت أحب إلي من أن أصلى أربعا في المسجد الحرام. وقال الحسن البصرى في رسالته المشهورة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من دخل الكعبة دخل في رحمة الله عز وجل وفي حمى الله تعالى وفي أمن الله عز وجل، ومن خرج خرج مغفورا له. انتهى من شفاء الغرام.

نقول: إننا نعتقد أن من دخل بيت الله عز وجل تبركا وتعظيما و طلبا لفضله ومغفرته، فإنه يخرج منه مغفورا له مقضى الحاجات إن عاجلا أو آجلا، فإن الله تعالى أكرم من أن يرد داخل بيته المطهر عبده الضعيف الفقير المحتاج بدون إكرام وجائزة، فالله عز شأنه لا تضره المعاصي ولا تنفعه الطاعات، ومهما أعطى لعباده وغفر لهم فلا ينقص من ملكه وفضله مثقال ذرة، فلو دخل مخلوق إلى بيت ملك أو أمير لاجئا أو طامعا فإنه يخرج قرير العين، فكيف بمن يدخل بيت ملك الملوك الكبير المتعال الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فعلى قدر حسن ظن العبد بربه يكون حظه وسعده، وإذا كان الداخل إلى الحرم المكي آمنا بصريح قوله تعالى: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا فالداخل إلى نفس بيت الله الحرام يكون أشد أمنا لأنه واقع في نقطة مركز دائرة الحرم. اللهم إنا لا نستغنى من فضلك وبرك وعافيتك ورحمتك وعفوك وغفرانك لا في الدنيا ولا في الآخرة، فعاملنا بما أنت أهله يا أرحم الراحمين يا أكرم الأكرمين آمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

آداب دخول الكعبة

لا يخفى على كل عاقل ما ينبغى من الآداب لمن يدخل بيوت الملوك والأمراء، فكيف إذا لدخل بيت ملك الملوك ورب الأرباب الخلاق العظيم مالك الملك ذي الجلال والإكرام.

وقبل كل شيء ينبغى لدخل البيت الحرام أن يحسن ظنه بالله وأنه سبحانه وتعالى أكرم من أن يردّه خائبا صفر اليدين، والدنيا كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة، ثم ينبغى له مراعاة كامل الآداب وحبذا لو اغتسل في بيته وتوضأ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٢٢

وتطيب ليدخل الكعبة المعظمة طاهرا نظيفا متطيبا، فالإغتسال والتطيب لكل مجتمع سنة مطلوبة، ودخول الكعبة أولى بذلك لأنها محل اجتماع الناس وازدحامهم للدخول، فإذا دخلها فلا يلتفت إلى يمينه أو يساره ولا إلى ما حوله على سبيل العبث والفضول، إلا إذا أراد التحقق من بحث علمي أو أمر يهمه أو أى شيء يتعلق بالكعبة نفسها من بناء وإصلاح فلا بأس من ذلك مع مراعاة الأدب والخشوع. روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: عجا للمراء المسلم دخل الكعبة كيف يرفع بصره قبل السقف، ليدع ذلك إجلالا لله تعالى وإعظاما، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة فما خالف نظره موضع سجوده حتى خرج منها، أخرجه البيهقي في سننه والحاكم في المستدرک. ولا ينبغى معانقة الأعمدة التي في داخل الكعبة أى أسطواناتها حيث لم يفعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من أصحابه بل إذا دخلها يمشى قبل وجهه حتى إذا كان بينه وبين الجدار ثلاثة أذرع صلى ركعتين خفيفتين ثم يدعو الله ويثنى عليه بما هو أهله ويهلل ويكبر ويستغفر الله ويصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، كما ينبغى له أن لا يكثر من الصلاة والدعاء إذا كان هناك زحام شديد لأن ذلك يذهب بالخشوع واستحضار القلب لمرور الناس حوله وتدافعهم

عليه، و إذا كان واقفا في مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فليصل ركعتين خفيفتين ثم لينتقل إلى محل آخر للدعاء والاستغفار لأن غيره ينتظر فراغه ليصلى في نفس مصلى النبي صلى الله عليه وسلم.

و ينبغي مراعاة الرقق و السهولة في دخول الكعبة حتى لا يحصل منه أذى لغيره، فإن تحقق الضرر و الأذى منه أو له لم يدخل، لأن دخول الكعبة سنة غير مؤكدة، و أما الأذى فحرام، و لا يطلب الإتيان بالسنة بارتكاب المحرم، و ما يحصل من الاندفاع و التراجع الشديد لدخول الكعبة حين فتحها من جهلة الناس فهذا خطأ فاحش و من الصعب إفهام العوام ذلك، على أن لهم نوع عذر و هو التشرف بدخول بيت الله المعظم عسى أن يكونوا من الآمنين يوم القيامة، فنتيهم حسنة لا يقصدون الأذى لبعضهم و إن وقع ذلك اضطرارا و يتحملونه و يصفحون عن بعضهم، و إنما الأعمال بالنيات، فنسأل الله لنا و لهم جميعا العفو و الغفران و الفضل و الإحسان و الموت على الإيمان إنه بعباده لطيف خبير.

أما ما يشاع على ألسنة العوام و الجهال من أن من دخل الكعبة لا يجوز له أن يمشى على الأرض حافيا، و لا أن يحكى ما رآه في الكعبة، و لا أن ينظر إلى سقفها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٢٣

و من نظر إلى سقفها لا بد و أن يحصل له العمى، و نحو ذلك من الأوهام الخيالية، فهذا لا أصل له و هو كلام فارغ و وسواس من الشيطان الرجيم فينبغي التحرز من مثل هذه الأوهام و التخيلات و الله الهادي إلى سواء السبيل.

و من اللطائف المناسبة ذكره هنا: أن الأديب المصري الكبير الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني رحمه الله تعالى ذكر في كتابه "رحلة الحجاز" التي كانت تقريبا سنة (١٣٤٨) ثمان و أربعين و ثلاثمائة و ألف هجرية، أنه لما عاد إلى مصر من الحجاز سألته أمه عن دخوله الكعبة المشرفة بما يأتي:

قالت له: هل دخلت الكعبة؟ قال فقلت لها: "بلى دخلناها بصفة خاصة."

فقلت لي: "طوبى لك، لا تخبر أحدا بما رأيت فيها احذر."

فسألته عن السبب فقلت لي: إن من يرى الكعبة من الداخل لا يقص على غيره ما يرى.

قلت لها: و لكنها خالية و لا شيء فيها، كان فيها أوثان من الجاهلية فأخلاها منها النبي صلى الله عليه وسلم.

فقلت لي: إيوه، خليك على كده، كل من سألك عنها تقول له: لم أر شيئا.

فقلت لها: و لكنها حقيقة خالية.

قالت لي: تمام مضبوط، بارك الله فيك.

فقلت لها: إنى لا أكذب و لا أدعى، هي حقيقة كما أقول خالية.

فقلت لي: إيوه، تمام، أهو كده، الله يزيدك عقلا.

فأمسكت، و لم أرلى حيلة، و ها أنا ذا أقول للقراء إن الكعبة لا شيء فيها، فليصدقوا أو لا يصدقوا، و ليكونوا كأمي، و ليدعوا لي، أو فليضنوا على بالدعاء كما يشاؤون. انتهى محاوره المازني مع أمه.

نقول: ماذا يظن القارئ الكريم أن يكون داخل الكعبة، هل يكون فيها فراش و ثير، أم كراسي مصفوفة مبطنه بالحريز، أم يكون فيها من أدوات الزينة و الصور و الرسوم، ما يلهي المؤمن المسلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٢٤

إن الكعبة المعظمة بيت الله الكبير المتعال، جعلت للعبادة و الدعاء و التفكير، و إظهار الذلة و المسكنة و الانكسار، و الخضوع و البكاء و الاعتبار، فلا ينبغي أن يكون فيها ما يشغل داخلها عما جاء لأجله، فداخلها سعيد مغفور له، و الله تعالى أعز و أجل من أن يرد له دعاء أو يخيب أمه.

قال الفاسى فى شفاء الغرام: و أما ما يطلب فى الكعبة من الأمور التى صنعها النبى صلى الله عليه و سلم فهو: التكبير و التسييح و التهليل و التحميد و الثناء على الله عز و جل و الدعاء و الاستغفار، لأحاديث وردت فى ذلك.

منها: ما روينا عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما دخل البيت دعا فى نواحيه كلها و لم يصل حتى خرج فلما خرج ركع قبل البيت ركعتين و قال: هذه القبلة. أخرجه البخارى و مسلم.

و فى مسلم عن ابن جريج قلت لعطاء ما نواحيه أفى زواياه، قال: بل فى كل قبلة من البيت. و عند النسائى فى هذا الحديث "سبح فى نواحيه و كبر." و قوله:

قبل البيت و هو بضم القاف و الباء الموحدة و يجوز إسكان الباء كما فى نظائره، و معناه على ما قيل ما استقبلك فيها و قيل مقابلها. اه. ثم قال الفاسى بعد بضعة أسطر مما تقدم: و من الأحاديث الواردة فى المعنى الذى أشرنا إليه، ما روينا فى سنن النسائى أيضا من حديث أسامة بن زيد أنه دخل مع النبى صلى الله عليه و سلم البيت فمضى يعنى النبى صلى الله عليه و سلم حتى إذا كان بين الأسطوانتين اللتين تليان باب الكعبة جلس فحمد الله و أثنى عليه و سأله و استغفره ثم قام حتى أتى ما استقبل من دبر البيت فوضع وجهه و خده عليه فحمد الله و أثنى عليه و سأله و استغفره ثم انصرف إلى كل ركن من أركان الكعبة فاستقبله بالتكبير و التهليل و التسييح و الثناء على الله و المسألة و الاستغفار ثم خرج. انتهى باختصار.

قال: و روينا من حديثه أيضا فى سنن النسائى قال: دخلت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم البيت فجلس فحمد الله و أثنى عليه و كبر و هلل ثم قام إلى ما بين يديه من البيت فوضع صدره عليه و خده و يديه ثم هلل و كبر و دعا ثم فعل ذلك بالأركان كلها ثم خرج. انتهى باختصار.

و أخرجه أحمد أيضا عن ابن عباس قال: دخل النبى صلى الله عليه و سلم الكعبة و فيها ست سوارى فقام عند كل سارية فدعا و لم يصل. أخرجه البخارى و مسلم و أحمد بن حنبل. انتهى كل ذلك من شفاء الغرام.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٢٥

و قال الفاسى فى شفاء الغرام أيضا: و أما آداب دخول الكعبة فكثيرة منها:

الاعتسال، لما روينا عن عبد الكريم بن أبى المخارق. و منها: نزع الخف و النعل، لما روينا فى سنن سعيد بن منصور عن عطاء و طاووس و مجاهد، و كره مالك دخولها بالخفين و النعلين و هو قول الحنابلة. و منها: أنه لا يرفع بصره إلى السقف، لحديث فى ذلك روينا عن عائشة أخرجه الحاكم من المستدرک و قال:

صحيح على شرط الشيخين، و قد تقدم هذا الحديث فى الباب التاسع و هو هذا:

"روى الحاكم فى المستدرک و البيهقى فى سننه عن سالم بن عبد الله أن عائشة قالت: دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها."

و إنما كره رفع البصر فى الكعبة لأنه يولد الغفلة و اللهو عن القصد، أشار بذلك المحب الطبرى فى القرى. و منها: أنه لا يزاحم زحمة شديدة يتأذى بها أو يؤذى بها أحدا، أشار إلى ذلك النووى و غيره. و منها: أن لا يكلم أحدا إلا لضرورة أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر. و منها: أن يلزم قلبه الخشوع و الخضوع و عينيه الدموع إن استطاع ذلك و إلا- حاول صورتها، ذكر هذين الأمرين المحب الطبرى و هذا لفظه. و منها: أن لا يسأل مخلوقا لما روينا عن سفيان بن عيينة قال: دخل هشام بن عبد الملك الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال: سألني حاجتك قال: أستحي من الله أن أسأل فى بيته غيره، و ذكر الفاكهى ما يقتضى أن التارك بسؤال هشام فى الكعبة غير سالم ابن عبد الله لأنه قال: حدثنا محمد بن أبى عمر قال: قال سفيان بن عيينة: سمعت بعض من يذكر أن بعض الخلفاء، هشام بن عبد الملك أو غيره دخل الكعبة عام حج فلم يدع فى الكعبة غير منصور الحجى، فقال له هشام: سل حاجتك، قال منصور: ما كنت لأسأل غير الله فى بيته فلم يسأله شيئا، انتهى، و حكم النساء فى دخولهن الكعبة حكم الرجال من غير

خلاف أعلمه في ذلك. انتهى من شفاء الغرام.

الصلاة في داخل الكعبة

قال العلامة ابن ظهيره القرشي الحنفي في كتابه "الجامع اللطيف في فضل مكة و أهلها و بناء البيت الشريف" عند آخر الكلام على كثر الكعبة و الحكم فيه ما نصه: فروع، ثم ذكر الفرع الأول و الثاني و الثالث و نحن لم نذكر هذه الثلاثة التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٢٦ لعدم تعلقها في هذا الفصل لكن نذكر هنا الفرع الرابع و هو المقصود فقد قال رحمه الله تعالى ما نصه: (الفرع الرابع) تصح صلاة الفرض و النفل عندنا في الكعبة من غير كراهة بجماعة و غيرها و تجوز فوق سطحها من غير ساتر مع الكراهة.

و مذهب الإمام الشافعي رحمه الله كمنهنا في جواز الفرض و النفل في باطن الكعبة بل هو الأفضل عنده لكن يشترط في الفريضة ألا يرجو المصلي جماعة خارج الكعبة. قال الشافعي رحمه الله: ما تفوتني فريضة في جماعة فأصلها في موضع أحب إلي من بطن البيت لأن البقاع إذا فضلت بقربها منه فبطنها أفضل منها، و أما صحة الصلاة على سطحها فيشترط أن يكون إمام المصلي شاخص قدر ثلثي ذراع تقريبا من جدار الكعبة و هو الصحيح من مذهبه، و مذهب الإمام مالك رضى الله عنه عدم جواز الفريضة في جوف البيت و كذلك السنن المؤكدة كالعيدين و الوتر و ركعتي الفجر و ما أشبهها على مشهور مذهبه و أما النفل فيجوز و أما الصلاة على سطحها فالمشهور عنده المنع، و مذهب الإمام أحمد رضى الله عنه أن صلاة الفريضة في الكعبة لا تصح و في النافلة خلاف بين أصحابه و الأصح الصحة و كذا الحكم في السطح عندهم في الفريضة و النافلة. انتهى كلام ابن ظهيره.

و هنا نذكر باختصار حكم الصلاة في جوف الكعبة فرضا كانت أو نفلا عن المذاهب الأربعة، جاء في الجزء الأول من كتاب "الفقه على المذاهب الأربعة" للعلامة الشيخ عبد الرحمن الجزيري ما نصه:

"الحنابلة قالوا: "إن صلاة الفرض لا تصح في جوف الكعبة و لا على ظهرها إلا إذا وقف في منتهاها و لم يبق وراءه شيء منها، أو وقف خارجها و سجد فيها، أما صلاة النافلة و الصلاة المنذورة فتصح فيها و على سطحها إن لم يسجد على منتهاها، فإن سجد على منتهاها لم تصح صلاته مطلقا، لأنه يصير في هذه الحالة غير مستقبل لها.

"و المالكية قالوا: "تصح صلاة الفرض في جوفها إلا أنها مكروهة كراهة شديدة، و يندب له أن يعيدها في الوقت أما النفل فإن كان غير مؤكد ندب أن يصله فيها، و إن كان مؤكدا كره و لا يعاد، و أما الصلاة على ظهرها فباطلة إن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٢٧

كانت فرضا، و صحيحة إن كانت نفلا غير مؤكد، و في النفل المؤكد قولان متساويان.

"و الشافعية قالوا: "إن الصلاة في جوف الكعبة صحيحة فرضا كانت أو نفلا، إلا أنها لا تصح إذا صلى إلى بابها مفتوحا، و أما الصلاة على ظهرها فإنه يشترط لصحتها أن يكون أمامه شاخص منها يبلغ ثلثي ذراع بذرار الآدمي.

"و الحنفية قالوا: "إن الصلاة في جوف الكعبة و على سطحها صحيحة مطلقا، إلا أنها تكره على ظهرها لما فيه من ترك التعظيم. انتهى من الكتاب المذكور.

صلاة النبي صلى الله عليه و سلم في الكعبة

روى ابن عباس عن أسامة أن النبي صلى الله عليه و سلم لم يصل في الكعبة، و روى بلال أنه صلى الله عليه و سلم صلى في الكعبة. و هذا البحث تناوله العلماء و الأجلة و رجحوا رواية بلال.

و إليك خلاصة ما ذكروه نقلا عن شفاء الغرام فقد جاء فيه ما يأتي:

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: رواية ابن عمر عن بلال أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في الكعبة، أولى من رواية ابن عباس عن أسامة، أنه لم يصل، لأنها زيادة مقبولة وليس قول من قال من لم يفعل بشهادة... إلى آخر كلامه.

وقال السهيلي في الروض الأنف: و أما دخوله صلى الله عليه وسلم الكعبة و صلاته فيها فحديث بلال أنه صلى فيها، و حديث ابن عباس أنه لم يصل فيها، و أخذ الناس بحديث بلال لأنه أثبت الصلاة و ابن عباس نفاها، و إنما يؤخذ بشهادة المثبت لا بشهادة النافي، و من تأول قول بلال أنه صلى أى دعا فليس بشيء، لأن فى حديث ابن عمر أنه صلى فيها ركعتين، و لكن رواية ابن عباس و رواية بلال صحيحتان، لأنه عليه الصلاة و السلام دخلها يوم النحر فلم يصل، و دخلها فى الغد فصلى فيها، و ذلك فى حجة الوداع، و هو حديث مروى عن ابن عمر بإسناد حسن أخرجه الدارقطني و هو من فوائده. انتهى.

وقال الشيخ محيي الدين النووي: أجمع أهل الحديث على الأخذ برواية بلال لأنه مثبت فمعه زيادة علم فوجب ترجيحه قال: و أما نفى أسامة فيشبه أنهم لما دخلوا الكعبة أغلقوا الباب و اشتغلوا بالدعاء فرأى أسامة النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ثم اشتغل أسامة فى ناحية من نواحي البيت و النبي صلى الله عليه وسلم فى ناحية و بلال قريب منه ثم صلى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٢٨

النبي صلى الله عليه وسلم فرآه بلال لقربه منه و لم يره أسامة لبعده و اشتغاله بالدعاء و كانت صلاته خفيفة فلم يرها أسامة لإغلاق الباب مع بعده و اشتغاله بالدعاء و جاز له نفيها عملا بظنه، و أما بلال فتحققها و أخبر بها و الله أعلم. انتهى من شرح مسلم. و قال فى المجموع و هو شرح المذهب: قال العلماء: الأخذ برواية بلال فى إثبات الصلاة أولى لأنه مثبت و قد على النافى فإن بلالا كان قريبا من النبي صلى الله عليه وسلم حين صلى معه و راقبه فى ذلك فرآه يصلى و كان أسامة متباعدة مشتغلا بالدعاء و الباب مغلق و لم ير الصلاة فوجب الأخذ برواية بلال لأن معه زيادة علم. انتهى.

وقال المحب الطبري: و قد اختلف بلال و أسامة فى صلاة النبي صلى الله عليه وسلم فى البيت و حكم العلماء ترجيح حديث بلال لأنه أثبت و ضبط ما لم يضبطه أسامة و المثبت مقدم على النافى ثم قال: و يحتمل أن يكون أسامة غاب عنه بعد دخوله لحاجته فلم يشهد صلاته و قد روى ابن المنذر عن أسامة أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى صورا فى الكعبة فكنت آتية بماء فى الدلو يضرب به الصور فأخبر أنه كان يخرج لنقل الماء و كان ذلك فى يوم الفتح و صلاته صلى الله عليه وسلم فى الكعبة إنما كانت يوم الفتح لا فى حجة الوداع. قال أبو حاتم بن حبان: و الأشبه عندى أن يحمل الخبران على دخولين متغايرين أحدهما يوم الفتح و صلى فيه و الآخر فى حجة الوداع و لم يصل فيه من غير أن يكون بينهما تضاد. انتهى.

وقال القاضى عز الدين بن جماعة فى هذا المعنى فيما أخبرنى به خالى عنه:

قال:- يعنى أحمد بن حنبل- حدثنا هشيم قال: أخبرنا عبد الملك عن عطاء قال أسامة بن زيد: دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت فجلس فحمد الله و أثنى عليه و كبر و هلل و خرج و لم يصل ثم دخلت معه فى اليوم الثانى فقام و دعا ثم صلى ركعتين ثم خرج فصلى ركعتين خارجا من البيت مستقبل وجه الكعبة ثم انصرف و قال: هذه القبلة. و كذلك رواه أحمد بن منيع فى مسنده و الدارقطني و غيرهم و هو كلام شاف كاف فى الجمع بين الأحاديث، فحمد الله على التوفيق للجمع به فإن ذلك من أجل الفوائد، فإن بعض كبار العلماء قال: يحتمل أن يكون أسامة غاب عنه صلى الله عليه وسلم بعد دخوله لحاجته فلم يشهد صلاته. اه.

ثم قال الفاسى بعد بضعة أسطر من الكلام المتقدم ما يأتى: و مما لعله أن يكون مرجحا لذلك أيضا "أى لحديث بلال" من حيث المعنى على ما ظهر لى،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٢٩

أن الكعبة المعظمة كالمسجد الحرام في استحباب التحية لمن دخلها، و التحية للمسجد الحرام الطواف لمريده أو الصلاة فيه و الطواف بالكعبة من داخلها غير مشروع، فلم يبق لها تحية إلا الصلاة فيها كتحية سائر المساجد، فكيف يدخلها النبي صلى الله عليه و سلم و لا يصلى فيها مع بعد عهده من دخولها، فإنه من حين هاجر إلى المدينة لم يدخلها، و بين هجرته و دخوله هذا ثمان سنين، و مع طول مكثه صلى الله عليه و سلم في الكعبة من دخوله هذا فإن في صحيح مسلم من حديث ابن عمر في قصة دخول النبي صلى الله عليه و سلم الكعبة و من معه، أنهم لبثوا في البيت مليا قال النووي: أى طويلا، و فى البخارى عن ابن عمر من رواية نافع أن النبي صلى الله عليه و سلم مكث نهارا طويلا فى الكعبة حين دخلها يوم الفتح، و طول المكث بمكان يستدعى الجلوس فيه غالبا، و يبعد كل البعد أن النبي صلى الله عليه و سلم لم يجلس فى الكعبة فى دخوله هذا، أو أن يجلس فيها بغير صلاة و قد نهى صلى الله عليه و سلم فيما صح عنه الداخل إلى المسجد عن الجلوس فيه من غير صلاة.

و مما يؤيد كونه صلى الله عليه و سلم صلى فى الكعبة فى دخوله هذا إغلاق الباب عليه فيه كما فى الصحيحين و غيرهما من حديث ابن عمر، للحكمة التى ذكرها العلماء فى إغلاق الباب فى دخوله هذا، و هى لئلا يكثر الناس عليه فلا يتمكن من الصلاة فى الكعبة على ما يريد صلى الله عليه و سلم، و قيل: الحكمة فى ذلك ليصلى صلى الله عليه و سلم إلى كل جهة من الكعبة، فإن الباب إذا كان مفتوحا و ليس أمامه قدر مؤخرة الرحل لم تصح الصلاة إليه، لعدم استقبال شىء من الكعبة، ذكر هذين القولين المحب الطبرى فى القرى، و استظهر القول الأول و ذكر أنه يتأيد بكون النبي صلى الله عليه و سلم لم يصل فى الكعبة أكثر من ركعتين على ما صح عنه. انتهى باختصار من شفاء الغرام للفاسى. و قد أطال رحمه الله تعالى الكلام على هذا البحث، و لكننا رأينا الاقتصار على ما قدمناه أحسن، فخير الكلام ما قل و دل.

عدد دخول النبي صلى الله عليه و سلم الكعبة بعد الهجرة

لم نبث عن عدد دخول النبي صلى الله عليه و سلم للكعبة قبل هجرته إلى المدينة، و المعقول أنه دخلها عدة مرات قبل البعثة و قبل الهجرة أيضا فقد كان الناس يدخلونها قبل الإسلام.

قال الشيخ حسين باسلامة فى كتابه "تاريخ الكعبة المعظمة": "روى ابن سعد فى الطبقات عن عثمان بن طلحة قال: كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٣٠

و الخميس، فأقبل النبي صلى الله عليه و سلم يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظت له و نلت منه فحلم عنى، ثم قال: "يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت" فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ و ذلت قال: "بل عمرت و عزت يومئذ" و دخل الكعبة فوقت كلمته منى موقعا ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح قال: "يا عثمان ائتنى بالمفتاح" فأتيته به، فأخذه منى ثم دفعه إلى و قال: "خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف،" قال: فلما و لیت نادانى فرجعت إليه فقال: "ألم يكن الذى قلت لك" قال: فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة: "لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت" قلت: بلى أشهد أنك رسول الله، انتهى من الكتاب المذكور.

و أما دخوله صلى الله عليه و سلم بعد هجرته إلى المدينة، فقد جاء فى كتاب شفاء الغرام للفاسى عن ذلك ما خلاصته: أما عدد دخول النبي صلى الله عليه و سلم الكعبة بعد هجرته فروينا فى ذلك أخبارا يتحصل من مجموعها، أن النبي صلى الله عليه و سلم دخل الكعبة بعد هجرته أربع مرات و هو: (١) يوم فتح مكة (٢) و فى ثانى يوم الفتح (٣) و فى حجة الوداع (٤) و فى عمره القضية.

و في كل من هذه الدخالات خلاف إلا الدخول الذي في يوم الفتح، و نشير إلى الأخبار الواردة في هذه الدخالات.

(١) فأما دخوله صلى الله عليه و سلم الكعبة في يوم الفتح، فروينا في صحيح مسلم وغيره كما سبق في حديث ابن عمر، و لفظ حديثه عند مسلم: قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم الفتح فنزل بفناء الكعبة و أرسل إلى عثمان بن طلحة فجاء بالمفتاح ففتح الباب، ثم دخل النبي صلى الله عليه و سلم و بلال و أسامة بن زيد و عثمان بن طلحة و ذكر الحديث و لا تضاد بين حديث ابن عمر هذا و حديثه في صحيح مسلم الذي قال فيه: أقبل رسول الله صلى الله عليه و سلم عام الفتح على ناقه لأسامة حتى أناخ بفناء الكعبة ثم دخل عثمان بن طلحة فقال: اثنتى بالمفتاح ... الحديث في صفه دخول النبي صلى الله عليه و سلم الكعبة و صلواته فيها لأن المراد بعام الفتح في هذا الحديث يوم الفتح كما في الحديث السابق لأن الأحاديث تفسر بعضها بعضا و المجمل منها يرد إلى المبين و قد أشار الإمام النووي إلى اتفاق الخبرين لأنه قال في شرح مسلم قوله: قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم الفتح فنزل بفناء الكعبة هذا دليل على أن هذا المذكور في أحاديث الباب من دخوله صلى الله عليه و سلم الكعبة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٣١

و صلواته فيها كان يوم الفتح و هذا لا خلاف فيه و لم يكن يوم حجة الوداع.

انتهى، و في هذا الدخول وقع الاختلاف في كون النبي صلى الله عليه و سلم صلى فيه.

(٢) و أما دخوله صلى الله عليه و سلم في ثاني يوم الفتح، ففي مسند أحمد بن حنبل ما يدل له، لأنه قال: حدثنا هشيم قال: أخبرنا عبد الملك عن عطاء قال: قال أسامة بن زيد دخلت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم البيت فجلس فحمد الله و أثنى عليه و كبر و هلل و خرج و لم يصل، ثم دخلت معه في اليوم الثاني فقام و دعا ثم صلى ركعتين ثم خرج فصلى ركعتين خارجا من البيت مستقبل وجه الكعبة ثم انصرف و قال:

هذه القبلة.

(٣) و أما دخوله صلى الله عليه و سلم في حجة الوداع، فروينا في سنن أبي داود و ابن ماجه و جامع الترمذى و المستدرک للحاكم من رواية إسماعيل بن عبد الملك بن أبي الصغير عن ابن أبي مليكة عن عائشة، و سبق ذلك في الترجمة التي قبل هذه الترجمة مع بيان ما في الحديث من الوهن و الله أعلم بالصواب. اهـ.

نقول: إن لفظ الحديث الذي قال الفاسى عنه أنه سبق في الترجمة عن عائشة رضى الله تعالى عنها هو هذا: قالت "خرج النبي صلى الله عليه و سلم من عندي و هو قرير العين طيب النفس، فرجع إلى و هو حزين، فقلت له فقال: إني دخلت الكعبة و وددت أنى لم أدخلها، إني أخاف أن أكون أتعبت أمتى من بعدى."

(٤) و أما دخوله صلى الله عليه و سلم في عمرة القضية، فذكر المحب الطبرى في القرى عن عروة بن الزبير و سعيد بن المسيب ما يقتضى ذلك، لأنه قال في باب العمرة و هو الباب الثامن و الثلاثون في ترجمة ترجم عليها بما جاء في عمرة الحديبية و عمرة القضية: و عن هشام عن أبيه أن خراش بن أمية حلق رأس النبي صلى الله عليه و سلم عند المروة ثم دخل البيت، و عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما قضى نسكه دخل البيت فلم يزل فيه حتى أذن بلال بالظهر على ظهر الكعبة، و أقام رسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة ثلاثا فلما كان ظهر اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو بن حويطب بن عبد العزى و رسول الله صلى الله عليه و سلم جالس في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة فقال: يا محمد قد انقضى أجلك فاخرج عنا، قال: و ماذا عليكم لو تركتموني فأعرست عندكم و صنعت لكم طعاما؟ و كان قد تزوج بميمونة الهالبيه من طريقه و ذكر مناشدة سهيل النبي صلى الله عليه و سلم في الخروج من مكة و خروج النبي صلى الله عليه و سلم إلى سرف و تعريسه فيه بميمونة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٣٢

و لم يذكر المحب الطبرى من خرج هذا الخبر و لا- الخبر الأول و هما يقتضيان دخول النبي صلى الله عليه و سلم الكعبة في عمرة

القضية، و خبر سعيد ابن المسيب أصرح لما فيه من القضايا التي وقعت في عمرة القضية على ما جاء في غير هذا الخبر و هي تزويج النبي صلى الله عليه و سلم ميمونة و سؤال سهيل بن عمرو النبي صلى الله عليه و سلم في الخروج من مكة و جواب النبي صلى الله عليه و سلم له على نحو ما في هذا الخبر.

و لست واثقا بصحة ما فيه من دخول النبي صلى الله عليه و سلم الكعبة و أذان بلال الظهر عليها و على تقدير صحتها فلائهما يخالفان ما روينا في الصحيحين عن إسماعيل بن أبي خالد قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى: أدخل النبي صلى الله عليه و سلم في عمرته؟ قال لا، انتهى. و المراد بهذه العمرة عمرة القضية على ما قال العلماء كما قال النووي منهم في شرح مسلم و غيره و سيأتي ذكر السبب الذي لأجله لم يدخل النبي صلى الله عليه و سلم في هذه العمرة و لم أر أحدا من أهل العلم قال بدخول النبي صلى الله عليه و سلم الكعبة في عمرة القضية كما هو مقتضى هذين الخبرين و إنما ذكرناهما لغرابتهما، انتهى كل ذلك مختصرا من كتاب شفاء الغرام للفاسي.

منع بعض الناس عن دخول الكعبة

نرى أحيانا سدنة الكعبة يمنعون بعض الناس عن دخول الكعبة عند فتحها و يدفعونهم عن بابها دفعا، و هم معذورون في ذلك، فكل اجتماع و ازدحام لا بد أن يقع فيه تدافع و اشتداد، و الظاهر أن هذه الحالة مأخوذة عن عادة قريش في الجاهلية، و إليك بيان ذلك: لما بنى إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام الكعبة جعل فتحه بابها لاصقا بالأرض، فلما بنتها قريش جعلوا بابها مرتفعا عن الأرض و كبسوها بالحجارة حتى يدخلوا فيها من شأوا و يمنعوا من أرادوا، و حتى لا يدخلها السيل.

ففي تاريخ الأزرقى: لما بنت قريش الكعبة قال أبو حذيفة بن المغيرة: يا معشر قريش ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخل عليكم إلا بسلم فإنه لا يدخل عليكم إلا من أردتم فإن جاء أحد ممن تكروهون رميتهم به فيسقط فكان نكالا لمن رآه ففعلت قريش ذلك و ردموا الردم الأعلى و صرفوا السيل عن الكعبة و كسوها لوصائل.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٣٣

و في رواية: فلما وضعوا أيديهم في بنائها قالوا: ارفعوا بابها من الأرض و اكبسوها حتى لا تدخلها السيول و لا ترقى إلا بسلم و لا يدخلها إلا من أردتم إن كرهتم أحدا دفعتموه ففعلوا ذلك.

و فيه أيضا عند باب ما جاء في فتح الكعبة عن سعيد بن عمرو الهذلي عن أبيه قال: رأيت قريشا يفتحون البيت في الجاهلية يوم الاثنين و الخميس و كان حجابهم يجلسون عند بابه فيرتقى الرجل إذا كانوا لا يريدون دخوله فيدفع و يطرح و ربما عطب- أي هلك- و كانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء يعظمون ذلك و يضعون نعالهم تحت الدرجة. انتهى من الأزرقى.

فعلم مما ذكر أن قسوة بنى شيبه على بعض الناس عند دخولهم الكعبة عادة وراثية مأخوذة من قريش، و بنو شيبه يضطرون أحيانا إلى استعمال القسوة و العنف، و ذلك عندما يتوسمون في الشخص أن الأولى عدم دخوله البيت الحرام لما يظهر عليه من الشدة و القوة بحيث يتحقق منه الأذى لغيره من الضعفاء في داخل الكعبة، أو أنهم يمنعون الناس من الدخول إذا رأوا داخل الكعبة قد امتلأ بهم، فينتظرون خروجهم حتى يسمحوا بدخول غيرهم.

و الازدحام و الاحتكاك في دخول الكعبة عند فتحها أمر ضروري لا بد من وقوعه، خصوصا في زماننا هذا الذي ازدادت مكة المكرمة بالناس و العمران زيادة لم تكن نتصورها منذ ربع قرن، كما يقع التصادم على بابها أيضا بسبب دخول الناس فيها و خروجهم منها في وقت واحد، فلو كان لها بابان للدخول و باب للخروج كما كان في عهد عبد الله بن الزبير رضی الله عنهما لما حصل التصادم و التدافع.

و لا حيلة في منع التصادم و التزاحم في دخول الكعبة، اللهم إلا إذا كثر فتحها و انتظمت المواعيد، كأن تفتح في كل أسبوع مرة أو مرتين يوم الاثنين و يوم الجمعة، كما كان في العهود السابقة، و أن يخصص الدخول كل مرة لطائفة من الناس لا يدخلها غيرهم.

فعندئذ قد يرتاح الناس في دخولهم الكعبة المشرفة، و لكن أنى يكون ذلك.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٣٤

أخذ الأجرة على دخول الكعبة

الكعبة المشرفة هي بيت الله الحرام، وبيت الله غير مملوك لأحد إلا للواحد الأحد جل و علا، فهو إذا بيت عام لكل من آمن بالله ورسوله، فالمسلمون يلجأون إليه طلباً في عفو الله و مغفرته و رحمته و إحسانه، و لكل مسلم الحق في دخول بيت ربه و خالقه، و الوقوف على بابه، و التعلق بأستاره، و من هنا قالوا لا يجوز أخذ الأجرة على دخول البيت الحرام أى على وجه الاشتراط، أما على وجه البر و الصلة و الهدية و الهبة فلا بأس.

و لقد ذكر الفاسي في كتابه "شفاء الغرام" حكم أخذ الأجرة على ذلك بصحيفة ١٢٩ من الجزء الأول منه و هذا نص كلامه: و لنختم هذه الترجمة بحكم سدانة الكعبة و حكم ما يأخذه سدنتها ممن يدخلها، و للمحب الطبري في ذلك كلام شاف فنذكره و نص كلامه: الحجابة منصب بنى شيبه و لاهم رسول الله صلى الله عليه و سلم إيها كما ولى السقاية للعباس ثم قال: و سدانة البيت خدمته و تولى أمره و فتح بابه و إغلاقه و يقال: سدن يسدن سدانة فهو سادن و الجمع سدنة ثم قال العلماء: لا يجوز لأحد أن ينزعها منهم قالوا:

و هي ولاية رسول الله صلى الله عليه و سلم و أعظم مالك أن يشرك معهم غيرهم قلت: و لا- يبعد أن يقال هذا إذا حافظوا على حرمة و لآزموا في خدمته الأدب أما إذا لم يحافظوا على حرمة فلا يبعد أن يجعل عليهم مشرف يمنعهم من هتك حرمة و ربما تعلق الجاهل الغبي البذى المعكوس الفهم بقوله صلى الله عليه و سلم: "و كلوا بالمعروف" فاستباح أخذ الأجرة على دخول البيت و لا خلاف بين الأمة في تحريم ذلك و أنه من أشنع البدع و أقبح الفواحش و هذه اللفظة إن صحت رواية فيستدل بها على إقامة الحرمة لأن أخذ الأجرة ليس من المعروف و إنما الإشارة و الله أعلم إلى ما يقصدون به من البر و الصلة على وجه التبرر فلهم أخذه و ذلك أكل بالمعروف لا محالة أو إلى ما يأخذونه من بيت المال على ما يقومون به من خدمته أو القيام بمصالحه فلا يحل لهم منه إلا قدر ما يستحقونه و الله أعلم ثم قال بعد أن ذكر أحاديث تتعلق بالحجر بسكون الجيم: و فيها ما يقتضى أن سبب رفع قريش لباب الكعبة ليمنعوا من شأوا و فى قوله صلى الله عليه و سلم: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شأوا و يمنعوا من شأوا و قوله: و ألصق بابها بالأرض دلالة على أن الناس غير محجوبين عن البيت و أنه لا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٣٥

يحل منعهم و ما يأخذه السدنة على ذلك لا يطيب لهم إلا بطيب نفس من الدافعين و إنما تجب أجرتهم على ما يتولونه من القيام بمصالحه من بيت المال.

قال أبو العالية الرباحي فى قوله: فَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ قال: السهم المضاف إلى الله تعالى إنما هو لبيت الله تعالى و أكثر أهل العلم على أنه أضاف الخمس إلى نفسه لشرفه و سهم الله و سهم رسول الله صلى الله عليه و سلم واحد. انتهى من شفاء الغرام.

و قال صاحب كتاب التراتيب الإدارية: قال المحب الطبري فى الباب الثامن و العشرين من كتاب القري: ربما تعلق بعض الجهال به فى جواز أخذ الأجر على دخول الكعبة و لا خلاف فى تحريمه و أنه من أشنع البدع، و هذا أى قوله: فكلوا مما يصل إن صح احتمال أن معناه ما يأخذونه من بيت المال على خدمته و القيام بمصالحه و لا يحل لهم إلا قدر ما يستحقونه و ما يقصدون به من البر و الصلة على وجه التبرر بهم، فلهم أخذه و فى ذلك أكل بالمعروف. اهـ.

و حكى على هذا الزرقانى فى شرح المختصر الإجماع، و وجهه: أن أخذ الأجرة إنما يجوز على ما يختص الإنسان بمنفعته و الانتفاع به، و البيت لا يختص به أحد دون أحد، فلا يجوز لهم أخذ الأجرة على فتحه، و إنما لهم الولاية على فتحه و إغلاقه فى الأوقات التى

جرت العادة بفتحها، و لا يجوز لهم إغلاقه و منع الناس دائما، قاله الشيخ أبو عبد الله الحطاب الرعيني المكي المالكي في شرح المختصر.

ثم قال: و الظاهر و إن لم أقف على نص أن حكم فتح المقام و أخذ الأجرة عليه كذلك.

و قال الحطاب في باب النذر من شرح المختصر أيضا: و المحرم إنما هو نزع المفتاح منهم لا منعهم من انتهاك حرمة البيت و ما فيه قلة أدب فهذا واجب لا خلاف فيه، لا كما يعتقد الجهلة أنه ولاية لأحد عليهم و أنهم يفعلون في البيت ما شأوا فهذا لا يقوله أحد من المسلمين. انتهى من التراتيب الإدارية.

المواضع التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم حول الكعبة

جاء في كتاب الجامع اللطيف لابن ظهيرة بعنوان: فصل في ذكر المواضع التي صلى فيها صلى الله عليه و سلم حول الكعبة و بيانها ملخصة كما نقله الفاسي عن القرى للمحب الطبري مع زيادة أدلة ما نصه:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٣٦

الأول: خلف مقام الخليل عليه السلام لما رواه جابر في صفة حجه صلى الله عليه و سلم من قوله: ثم نفر إلى مقام إبراهيم فقرا: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، و جعل المقام بينه و بين البيت ثم صلى الركعتين.

الثاني: تلقاء الحجر الأسود عند حاشية المطاف كما في النسائي من حديث المطلب بن أبي وداعة.

الثالث: قريبا من الركن الشامي مما يلي الحجر، بسكون الجيم كما في سنن أبي داود من حديث عبد الله بن السائب.

الرابع: عند باب الكعبة كما في تاريخ الأزرقى من حديث ابن عباس قال صلى الله عليه و سلم: أمني جبريل عند باب الكعبة مرتين. قال الفاسي و يحتمل ثلاثة وجوه:

(الأول): أن يكون صلى و جاء الباب.

(الثاني): أن يكون في الحفرة المرخمة التي عند باب الكعبة على يمينه.

(الثالث): أن يكون في الملتزم و هو بعيد، و الوجه الأول أقرب لأنه عند الباب حقيقة، و إنما نبهنا على ذلك لأن الشيخ عز الدين بن عبد السلام و الشيخ أحمد بن موسى بن العجيل ذكر أن مصلى جبريل بالنبي صلى الله عليه و سلم في الحفرة المرخمة، و لم أقف على كلام ابن عجيل. و أما كلام ابن عبد السلام فنقله ابن جماعة. انتهى. قال ابن جماعة بعد ذلك عن ابن عبد السلام: و لم أر ذلك لغيره و فيه بعد لأنه لو كان صحيحا لنبهوا عليه بالكتابة في الحفرة، و لما اقتصرنا على من أمر بعمل المطاف و الله أعلم. انتهى.

الخامس: تلقاء الركن الذي يلي الحجر من جهة المغرب جانحا إلى جهة الغرب قليلا بحيث يكون باب المسجد المعروف اليوم بباب العمرة خلف ظهره كما في مسند أحمد و سنن أبي داود و غيرهما من حديث المطلب بن أبي وداعة أنه رأى النبي صلى الله عليه و سلم يصلى مما يلي باب بنى سهم، و الناس يمرون بين يديه، و باب بنى سهم هو باب العمرة المذكور.

السادس: في وجه الكعبة كما في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه و سلم لما خرج من البيت صلى قبل البيت ركعتين، و قال: هذه القبلة كما تقدم. قال المحب الطبري: وجه الكعبة يطلق على بابها و لهذا قيل للمحاذي له خلفها دبر الكعبة، و يطلق على جميع الجانب الذي فيه الباب و هو

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٣٧

المتعارف و الظاهر أن هذا الموضوع تلقاء المقام في فناء الكعبة بحيث يكون المقام خلف ظهر المصلح فيه. ثم قال: و يحتمل على بعد أن يكون الموضوع الرابع يعنى المتقدم عند باب الكعبة، قال ابن جماعة: و قد ورد تفضيل وجه الكعبة على غيره من الجهات، فعن ابن عمر البيت كله قبلة و قبلته و جهة فإن فاتك ذلك فعليك بقبلة النبي صلى الله عليه و سلم تحت الميزاب و مثله عن عمرو بن العاص،

و المراد بقبلة النبي صلى الله عليه و سلم قبلة بالمدينة الشريفة. انتهى.

السابع: بين الركنين اليمانيين ذكره ابن إسحاق في سيرته في قصة طويلة.

قال الفاسي: و لم يعينه المحب. و يحتمل أن يكون عليه السلام صلى إلى وسط الجدار كما نقله ابن سراقه و يكون عند الرخامة التي في الشاذروان المكتوب فيها اسم الملك لاجين أنه عمل المطاف و يحتمل أن يكون مائلا عن الوسط إلى جهة الحجر الأسود أو إلى جهة الركن اليماني.

الثامن: في الحجر للحديث الصحيح بينما النبي صلى الله عليه و سلم يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبه بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه صلى الله عليه و سلم فخنفه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر و أخذ بمنكبه و دفعه عنه عليه السلام و قال: أ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ... الآية قال المحب الطبري: و لا يبعد أن تكون صلاته صلى الله عليه و سلم تحت الميزاب، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: صلوا في مصلى الأخيار و اشربوا من شراب الأبرار، فقيل له: ما مصلى الأخيار و ما شراب الأبرار؟ فقال: تحت الميزاب و ماء زمزم، و هو صلى الله عليه و سلم سيد الأخيار، و لا يبعد أن تكون الإشارة إليه صلى الله عليه و سلم. انتهى كل ذلك من كتاب الجامع اللطيف لابن ظهيرة رحمه الله تعالى.

نقول: و ما جاء في الكتاب المذكور عند الأمر السابع من أن النبي صلى الله عليه و سلم صلى بين الركنين اليمانيين "أى بين الركن الأسود و الركن اليماني" صلى هنا ليستقبل بيت المقدس قبل أن يؤمر باستقبال الكعبة فكان عليه الصلاة و السلام يصلي بين الركنين جاعلا الكعبة بينه و بين بيت المقدس، و لا يخفى أن هذا من كمال عقله و قوة فطنته صلى الله عليه و سلم، و يشبه هذا صلاتنا اليوم عند مقام إبراهيم مستقبلين نفس الكعبة و بيننا و بينها المقام.

قال ابن كثير في تفسيره في الجزء الأول ص ١٨٩ ما يأتي: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلي بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة و هو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٣٨

تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، فاستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرا، و كان يكثر الدعاء و الابتهاج أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك و أمر بالتوجه إلى البيت العتيق، فخطب رسول الله صلى الله عليه و سلم الناس فأعلمهم ذلك. انتهى ملخصا منه.

أول من أدار الصفوف حول الكعبة

الصلاة من أجل العبادات فيها التسيح و التقديس و الدعاء و التضرع، و إليها تسكن قلوب الأنبياء و المرسلين و الصالحين المخلصين قال الله تعالى: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ، و كان عليه الصلاة و السلام "إذا حَزَّ به أمر صلى" رواه الإمام أحمد و أبو داود، و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "حبب إلي من دنياكم النساء و الطيب و جعلت قره عيني في الصلاة" رواه الإمام أحمد و النسائي و غيرهما.

فالصلاة قره كل مؤمن تقى و كل مخلص تقى، و هي عند الكعبة المشرفة أشد قره لهم و أعظم لذة لديهم، فلحظة الصلاة و انتظارها عند بيت الله الحرام لا يعادلها شيء مطلقا، و لا يعرف ذلك إلا الخاشعين ذوى البصائر المنورة و القلوب المفتحة.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده و لا الصبابة إلا من يعانيتها

و كان أول من أدار الصفوف حول الكعبة خالد بن عبد الله القسرى لما ولاه على مكة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان المتوفى في سنة ست و ثمانين من الهجرة، و ذكر ذلك الإمام الأزرقى في تاريخه بالتفصيل و هذا نصه:

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى عن سفيان بن عيينة قال: أول من أدار الصفوف حول الكعبة خالد بن عبد الله القسرى حدثني

جدى قال: حدثني عبد الرحمن بن حسن بن القاسم بن عقبه الأزرقى عن أبيه قال: كان الناس يقومون شهر رمضان في أعلا المسجد الحرام تركز حربئة خلف المقام بربوة فيصلى الإمام خلف الحربئة و الناس وراءه فمن أراد صلى مع الإمام و من أراد طاف بالبيت و ركع خلف المقام، فلما ولى خالد بن عبد الله القسرى مكة لعبد الملك بن مروان و حضر شهر رمضان أمر خالد القراء أن يتقدموا فيصلوا خلف المقام و أدار الصفوف حول الكعبة و ذلك أن الناس ضاق عليهم أعلا المسجد فأدارهم حول الكعبة فقبل له:

نقطع الطواف لغير المكتوبة قال: فأنا أمرهم يطوفون بين كل ترويحتين سبعا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٣٩

فأمدهم فتصلوا بين كل ترويحتين بطوف سبع، فقبل له: فإنه يكون في مؤخر الكعبة و جوانبها من لا يعلم بانقضاء طواف الطائف من مصل و غيره فيتهيأ للصلاة فأمر عبيد الكعبة أن يكبروا حول الكعبة يقولون: الحمد لله و الله أكبر فإذا بلغوا الركن الأسود في الطواف السادس سكتوا بين التكبيرتين سكتة حتى يتهيأ الناس ممن في الحجر و من في جوانب المسجد من مصل و غيره فيعرفون ذلك بانقطاع التكبير و يصلى و يخفف المصلى صلاته ثم يعودون إلى التكبير حتى يفرغوا من السبع و يقوم مسمع فينادى: الصلاة رحمكم الله، قال: و كان عطاء بن أبي رباح و عمرو بن دينار و نظراؤهم من العلماء و يرون ذلك و لا ينكرونه.

حدثني جدى عن مسلم بن خالد الزنجى و سعيد بن سالم قالوا: حدثنا ابن جريج قال: قلت لعطاء: إذا قل الناس في المسجد الحرام أحب إليك أن يصلوا خلف المقام أو يكونوا صفا واحدا حول الكعبة قال: بل يكونوا صفا واحدا حول الكعبة قال: و تلى: وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ. انتهى من الأزرقى.

و هنا جاء في هامش هذه الصحيفة ما نصه: ذكر السنجارى فى بعض أولياته أن الحجاج أول من أطاف الناس حول الكعبة للصلاة و كانوا يصلون صفا. و نقل عن الزركشى أن أول من فعله عبد الله بن الزبير، و يمكن الجمع بين الكلامين بأن ابن الزبير فعله أولا ثم خالد بعد قتله. انتهى من هامش كتاب الأزرقى.

قال الشيخ حسين بن عبد الله باسلامة المكي رحمه الله تعالى فى كتابه "تاريخ عمارة المسجد الحرام" بصحيفة ٢٠ عند هذا الكلام ما نصه: هذا حاصل ما جاء فى كون خالد بن عبد الله القسرى هو أول من أمر الناس بالصلاة حول الكعبة المعظمة صفوفا دائرة، و لم ينكر عليه أحد من فقهاء التابعين فى ذلك العصر المنير بأهل الفضل و العلم مثل عطاء بن أبي رباح، و عمرو بن دينار، و نظراؤهما. و كان ذلك فى الفريضة و التراويح جماعة بإمام واحد، و لم ينكر عليه إلا ما كان من أمر التشويش و عدم علم من كان طائفا أنه قد قامت الصلاة، فعمل ذلك الترتيب الذى يظهر عليه التكليف، و لكن كان ذلك مؤقتا لئبنا يألف الناس ذلك الوضع. و علم من ذلك أيضا أنهم كانوا قبل إمارة خالد القسرى يصلون فى جهة واحدة من المسجد الحرام و هى الجهة الشرقية خلف مقام إبراهيم صلى الله عليه و سلم و أن الجهات الثلاثة الأخرى كانت خالية من المصلين فى الفريضة جماعة، و ظهر من عمل خالد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٤٠

هذا فوائد حسنة و سنة مستحبة لكونه هو الذى سن هذه السنة و عم عموم المسجد الحرام بالمصلين جماعة واحدة بإمام واحد و قد ارتضى عمله كبار الفقهاء من التابعين و غيرهم من علماء السلف الصالح و لو كان فى عمله هذا ما يخالف الشريعة لأنكره العلماء و إذا فرضنا أن الذى منعهم من الإنكار هو خشية بطشه، فقد كان فى وسعهم إنكاره بعد عزله من إمارة مكة. و قد أتيت بهذه الفائدة هنا ليعلم القارئ أول من أدار الصفوف حول الكعبة المعظمة جماعة و السنة التى وضع ذلك فيها و الله أعلم. انتهى من تاريخ المسجد الحرام.

مدة صلاة النبي صلى الله عليه و سلم إلى بيت المقدس

روى البخارى و مسلم فى صحيحهما و اللفظ للبخارى "كان رسول الله صلى الله عليه و سلم صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا

أو سبعة عشر شهرا، و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يجب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله عز و جل: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَتُوجِّهْهُ نَحْوَ الْكَعْبَةِ و قال السفهاء من الناس و هم اليهود: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فصلى مع النبي صلى الله عليه و سلم رجل ثم خرج بعد ما صلى، فمرّ على قوم من الأنصار فى صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال هو: يشهد أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه و سلم و أنه توجه نحو الكعبة فتحرّف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة."

أخرجه البخارى فى أربعة مواضع من صحيحه، و أخرجه مسلم فى كتاب المساجد، و راوى الحديث هو البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه.

بيت المقدس هو بوزن المجلس، أى بفتح الميم و كسر الدال المهملة و هو مصدر كالمراجع أو مكان القدس و هو الظهر أى المكان الذى يطهر العابد من الذنوب أو يطهر العبادة من الأصنام.

و يقال أيضا بيت المقدس، بضم الميم و فتح القاف و تشديد الدال المفتوحة، و يقال البيت المقدس على الصفة و الأشهر بيت المقدس بالإضافة البيانىة كمسجد الجامع.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٤١

و المراد بالصلاة إلى بيت المقدس نفس الصخرة كما هو صريح فى بعض الأحاديث، و قوله "فمر على قوم من الأنصار فى صلاة العصر نحو بيت المقدس" أى يصلون نحو بيت المقدس.

و كان تحول النبي صلى الله عليه و سلم إلى الكعبة فى الصلاة بالمدينة المنورة، فى طبقات ابن سعد أنه عليه الصلاة و السلام صلى ركعتين من الظهر فى مسجده بالمسلمين ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام فاستدار إليه و دار معه المسلمون.

و يقال أنه عليه الصلاة و السلام زار أم بشر بن البراء بن معرور فى بنى سلمة فصنعت له طعاما و حانت الظهر فصلى عليه الصلاة و السلام بأصحابه ركعتين ثم أمر فاستدار إلى الكعبة و استقبل الميزاب فسمى مسجد القبيلتين. قال ابن سعد قال الواقدي: هذا أثبت عندنا.

و لقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقع فى روعه و يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبله أبيه إبراهيم عليه الصلاة و السلام فكان يدعو إلى السماء طلبا للوحى فحقق الله تعالى مطلبه و مناه.

و فى حديث الطبرى من طريق ابن جريج قال: أول ما صلى إلى الكعبة ثم صرف إلى بيت المقدس و هو بمكة فصلى ثلاث حجج ثم هاجر فصلى بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا ثم وجهه الله تعالى إلى الكعبة.

و كان صلى الله عليه و سلم إذا استقبل بيت المقدس فى صلاته بمكة يجعل الكعبة بينه و بينها، أى كان يصلى بين الركن الأسود و الركن اليمانى، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قبلته صلى الله عليه و سلم بمكة كانت بيت المقدس لكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه و بينها. اه.

انتهى باختصار من شرح "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم" و الشرح و المتن كلاهما لشيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى رحمه الله تعالى و جزاه عنا خير الجزاء.

أمر الكسوة الخارجية للكعبة المعظمة

إشارة

قلنا أن إبراهيم الخليل عليه و على نبينا محمد و على جميع الأنبياء و المرسلين الصلاة و السلام، لما بنى الكعبة مع ابنه إسماعيل، بناه

بالرزم حجارة بعضها فوق

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٤٢

بعض بدون جص ولا نورة و لم يجعل لها سقفا ولا بابا يفتح و يعلق بل جعل في جهتها الشرقية مكانا مفتوحا علامة على الباب و على أنه وجه الكعبة و كذلك لم يجعل عليها كسوة. و السبب في ذلك أولا لم يؤمر بذلك، ثانيا من أين يأتي بالقماش أو الجلد، أو الخسف الكثير في ذلك الزمن الذي لم يكن بمكة كلها سوى قبيلة من جرهم. هذا ما نراه و الله تعالى أعلم. فالشئ في ابتداء الأمر يقع على الفطرة ثم يأخذ في التحسين تدريجيا شيئا فشيئا هذا هو سنه الكون، و القصد من تغطية الكعبة بالكسوة تكريمها و تجميلها. و قد اختلفوا في أول من كساها ف قيل إسماعيل عليه الصلاة و السلام، و قيل عدنان بن أدد، و قيل تبع الحميري و هذا القول الأخير هو الشائع و هو ما نذهب نحن إليه أيضا، لأن ما علناه لإبراهيم عليه السلام من عدم وضعه الكسوة على البيت نعلله أيضا لابنه إسماعيل عليهما الصلاة و السلام، و نعلله أيضا لعدنان بن أدد، فإن مكة في تلك العصور الغابرة كانت قليلة السكان لا يرد إليها سوى قليل من المأكولات و اللوازم الضرورية من جهة اليمن، فمن أين لهم القماش أو الحصر الكثير الكافي لستر الكعبة، إذا فالقول القائل بأن تبع الحميري هو أول من كسا البيت هو القول الأصح، و يؤيده ما ذكره الإمام الأزرقى في تاريخه من الروايات الآتية. و الكلام قد يطول بنا عن كسوة الكعبة المشرفة، لذلك جعلنا هذا المبحث في ستة أقسام:

القسم الأول: كسوة الكعبة في العصر الجاهلي

إشارة

(١) كسوة تبع الحميري، و هو أول من كسا بيت الله الحرام على الأصح كما بينا ذلك هنا، لهذا جعلناه الأول في الترتيب ممن كسوا الكعبة.

روى الأزرقى في تاريخه عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه نهى عن سب أسعد الحميري و هو تبع و كان هو أول من كسا الكعبة.

و روى أيضا عن محمد بن إسحاق أنه قال: بلغنى عن غير واحد من أهل العلم أن أول من كسا الكعبة كسوة كاملة تبع و هو أسعد أرى في النوم أنه يكسوها فكساها الأنطاع ثم أرى أن يكسوها فكساها الوصائل ثياب حبرة من عصب اليمن و جعل لها بابا يعلق و قال أسعد في ذلك:

و كسونا البيت الذى حرم الله ملاء معضدا و برودا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٤٣ و أقمنا به من الشهر عشا و جعلنا لبابه إقليدا

و خرجنا منه نؤم سهيلا قد رفعنا لواءنا معقودا

انتهى من الأزرقى. و الإقليد هو المفتاح، و الأنطاع هو الجلود.

و أما العصب فقد قال صاحب كتاب المحمل و الحج فبرود يمانية يعصب غزلها أى يجمع و يشد ثم يصبغ بعضه و ينسج من غير المصبوغ فيأتى موسى.

و أما الملاء فثياب حبرة من عصب، و الوصائل ثياب موصله من صنع همدان باليمن، و قيل أنها ثياب حمر مخططة يمانية. انتهى من الكتاب المذكور.

قالوا: و كساها تبع بالخصف أيضا و هو حصير من خوص النخل، و فى مسالك الأمصار أنها ثياب غلاظ. اه.

و تبع و هو أسعد الحميري هو أحد ملوك اليمن قبل البعثة بزمن بعيد، فهو أول من كسا الكعبة و نحر عندها و أول من جعل لها بابا

يغلق. قال ابن ظهيرة القرشي في الجامع اللطيف نقلا عن القطبي في الإعلام: أنه من يوم موت تبع الحميري إلى اليوم الذي بعث فيه نبينا محمد صلى الله عليه و سلم ألف سنة لا تزيد و لا تنقص. و الله تعالى أعلم.

ترجمة تبع و هو أسعد الحميري

تبع هذا هو أحد ملوك اليمن قبل البعثة بزمن بعيد أى بألف سنة كما سيأتى فى آخر هذا الكلام، و حمير بكسر الحاء و إسكان الميم و فتح الياء قبيلة شهيرة كائنه فى اليمن ورد فى حقهم حديث رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: "رحم الله حميرا أفواههم سلام و أيديهم طعام و هم أهل أمن فإيمان" رواه الإمام أحمد و الترمذى، و سببه أن رجلا قال: يا رسول الله إلعن حميرا فأعرض عنه ثم ذكره. جاء فى الجامع اللطيف نقلا عن القطبي فى الإعلام ما نصه:

أما قصه تبع فذكر "القطبي فى الإعلام" أنه كان من الخمسة الذين دانت لهم الدنيا بأسرها، و كان كثير الوزراء فاختر منهم واحدا و أخرجه لينظر فى ملكه، و كان إذا أتى بلدة يختار من حكمائها عشرة رجال، و كان معه من العلماء و الحكماء مائة ألف رجل هم الذين اختارهم من البلدان و لم يكونوا محسوبين من التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٤٤

الجيش، ثم إنه قصد مكة فلما انتهى إليها لم يخضع له أهلها كخضوع غيرهم و لم يعظموه فغضب لذلك و دعا وزيره و شكى إليه فعلهم، فقال: إنهم عرب لا يعرفون شيئا و لهم بيت يقال له الكعبة و هم معجبون به، فنزل الملك بعسكره ببطحاء مكة و عزم على هدم البيت و قتل الرجال و نهب النساء و سبيهم، فأخذ الصداق و تفجر من عينيه و أذنيه و منخره و فمه ماء متتن فلم يصبر عنده أحد طرفه عين من شدة التن فقال لوزيره: اجمع العلماء و الحكماء و الأطباء فلم يقدروا على الجلوس عنده، و عجزوا عن مداواته و قالوا: نحن نقدر على مداواة ما يعرض من أمور الأرض، و هذا من السماء لا نستطيع له ردا، ثم اشتد أمره و تفرق الناس عنه فلما أقبل الليل جاء أحد العلماء لوزيره فقال: إن بينى و بينك سرا فإن كان الملك يصدقنى فى حديثه عالجت، فاستبشر الوزير بذلك و جمع بينه و بين الملك فلما خلا قال له العالم: أيها الملك أنت نويت لهذا البيت سوءا قال: نعم، فقال له العالم:

أيها الملك نيتك أحدث لك هذا الداء، و رب هذا البيت عالم بالأسرار فبادر و ارجع عما نويت، فقال الملك: قد أخرجت ذلك من قلبى و نويت لهذا البيت و أهله كل خير فلم يخرج العالم من عنده إلا و قد عافاه الله تعالى من علته فآمن بالله من ساعته و خلع على الكعبة سبعة أثواب و هو أول من كسا الكعبة كما سأذكره بعد إن شاء الله تعالى ثم خرج إلى يثرب و ليس بها يومئذ بيت و إنما فيها عين ماء فنزل عند العين ثم إن العلماء و الحكماء أخرجوا من بينهم أربعمائه و هم أعلمهم و تبايعوا أن لا يخرجوا من يثرب و إن قتلهم الملك فلما علم الملك بذلك سألهم عن الحكمة التى اقتضت إقامتهم فى هذه البلدة؟ فقالوا: أيها الملك إن ذلك البيت و هذه البقعة يشرفان برجل يبعث فى آخر الزمان اسمه محمد و وصفوه ثم قالوا: طوبى لمن أدركه و آمن به، و نحب أن ندركه أو يدركه أولادنا فلما سمع الملك بذلك هم بالمقام معهم فلم يقدر على ذلك فأمر بعمارة أربعمائه دار على عدد العلماء و أعطى كل واحد منهم جارية و أعتقها و زوجه بها و أعطاهم مالا جزيلا (ثم كتب) كتابا و ختمه بخاتم من ذهب و دفعه إلى عالمهم الكبير الذى أبراه من علته و أمره أن يدفعه إلى محمد صلى الله عليه و سلم إن أدركه، و أن يوصى بذلك أولاده ثم أولادهم (و كان الكتاب) أما بعد: فإنى آمنت بك و بكتابك الذى ينزل عليك، و أنا على دينك و سنتك و آمنت بربك و بكل ما جاء من ربك من شرائع الإيمان و الإسلام فإن أدركتك فيها و نعمت، و إلا- فاشفع لى و لا- تنسنى يوم القيامة فإنى من أمتك الأولين و قد بايعتك قبل مجيئك و أنا على ملتك و مله إبراهيم أبيك عليه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٤٥

السلام (ثم نقش عليه): لله الأمر من قبل و من بعد و كتب عنوانه: إلى محمد بن عبد المطلب نبى الله و رسوله و خاتم النبيين و رسول

رب العالمين صلى الله عليه و سلم من تبع الأول حمير بن وردع ثم سار من يثرب إلى بلاد الهند فمات بها و كان من يوم موته إلى اليوم الذى بعث فيه النبى صلى الله عليه و سلم ألف سنة لا تزيد و لا تنقص. قال ابن ظهيرة:

و كان الأنصار من أولاد أولئك العلماء و الحكماء (فلما ظهر خبره) صلى الله عليه و سلم بمكة أرسلوا إليه كتاب تبع مع رجل منهم يقال له أبو ليلي إلى مكة فوجد النبى صلى الله عليه و سلم فى قبيلة بنى سليم، فعرفه رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال له: أنت أبو ليلي، فقال: نعم، قال: معك كتاب تبع الأول، قال: نعم، وبقى أبو ليلي متفكرا ثم دفع الكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فدفعه رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى على بن أبى طالب فقراه عليه فلما سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم كلام تبع قال: مرحبا بالأخ الصالح ثلاث مرات ثم أمر أبا ليلي بالرجوع إلى المدينة يبشرهم بقدومه عليه السلام.

قال ابن ظهيرة: فلما هاجر النبى صلى الله عليه و سلم إلى المدينة سأله أهل القبائل أن ينزل عليهم و صاروا يتعلقون بزمام ناقته و هو يقول: خلوها فإنها مأمورة حتى جاءت إلى دار أبى أيوب الأنصارى و كان من أولاد العالم الذى شفى تبع برأيه. انتهى كل هذا من الجامع اللطيف. فقلوه: أن تبع الحميرى أحد الخمسة الذين دانت لهم الدنيا بأسرها، هذا على رأى من يقول: أن من ملك الدنيا كلها خمسة، و قيل هم أربعة: مؤمنان: ذو القرنين و سليمان، و كافران: نمرود و بختنصر. و ذو القرنين هو الإسكندر الرومى.

و ذكر الإمام الأنزرقى فى تاريخه قصة تبع الحميرى فى موضعين "الموضع الأول" فى باب ما جاء فى ولاية قصى بن كلاب البيت الحرام و أمر مكة بعد خزاعة، قال فى هذا الباب ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى جدى قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن ابن جريج و عن ابن إسحاق يزيد أحدهما على صاحبه قالاً: أقامت خزاعة على ما كانت عليه من ولاية البيت و الحكم بمكة ثلاثمائة سنة و كان بعض التبايعه قد سار إليه و أراد هدمه و تخريبه فقامت دونه خزاعة فقاتلت عليه أشد القتال حتى رجع ثم آخر فكذلك. و أما تبع الثالث الذى نحر له و كساه و جعل له غلقا و أقام عنده أياما ينحر كل يوم مائة بدنه لا يرزأ هو و لا أحد من أهل عسكره شيئا منها يردها الناس فى الفجاج و الشعاب فيأخذون منها حاجتهم ثم تقع عليها الطير فتأكل ثم تتناهب السباع إذا أمست لا يرد عنها

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٤٦

إنسان و لا- طير و لا- سبع ثم رجع إلى اليمن إنما كان فى عهد قريش فلبث خزاعة على ما هى عليه و قريش إذ ذاك فى بنى كنانة متفرقة ... الخ.

انتهى ما ذكره الأزرقى عن تبع فى هذا الباب.

" و أما الموضع الثانى "فهو فى باب مسير تبع إلى مكة شرفها الله تعالى فقد قال فيه ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى ابن إسحاق قال: سار تبع الأول إلى الكعبة و أراد هدمها و تخريبها و خزاعة يومئذ تلى البيت و أمر مكة فقامت خزاعة دونه و قاتلت عنه أشد القتال حتى رجع ثم تبع آخر فكذلك، و أما التبايعه الذين أرادوا هدم الكعبة و تخريبها فثلاثة و قد كان قبل ذلك منهم من يسير فى البلاد فإذا دخل مكة عظم الحرم و البيت، و أما التبع الثالث الذى أراد هدم البيت فإنما كان فى أول زمان قريش قال: و كان سبب خروجه و مسيره إليه أن قوما من هذيل من بنى لحيان جاؤوه فقالوا: إن بمكة بيتنا تعظمه العرب جميعا و تفد إليه و تنحر عنده و تحجه و تعتمره و أن قريشا تليه فقد حازت شرفه و ذكره و أنت أولى أن يكون ذلك البيت و شرفه و ذكره لك فلو سرت إليه و خربته و بنيت عندك بيتا ثم صرفت حاج العرب إليه كنت أحق به منهم قال: فأجمع المسير إليه.

قال الأزرقى: حدثنى جدى قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن موسى بن عيسى المدينى قال: لما كان تبع بالدلف من جمدان بين أمج و عسفان دفت بهم دوابهم و أظلمت الأرض عليهم فدعا أجبارا معه من أهل الكتاب فسألهم فقالوا:

هل هممت لهذا البيت بشيء قال: أردت أن أهدمه، قالوا له: خيرا أن تكسوه و تنحر عنده ففعل فانجلت عنهم الظلمة و إنما سمي

الدف من أجل ذلك. ثم رجع إلى حديث ابن إسحاق قال: فسار حتى إذا كان بالدف من جمدان بين أمج و عسفان دفت بهم الأرض و غشيتهم ظلمة شديدة و ريح فدعا أحبارا كانوا معه من أهل الكتاب فسألهم فقالوا: هل هممت لهذا البيت بسوء؟ فأخبرهم بما قال له الهذليون و بما أراد أن يفعل فقالت الأحبار: و الله ما أرادوا إلا هلاكك و هلاك قومك إن هذا بيت الله الحرام و لم يرد أحد قط بسوء إلا هلك قال: فما الحيلة؟

قالوا: تنوى له خيرا أن تعظمه و تكسوه و تنحر عنده و تحسن إلى أهله ففعل فانجلت الظلمة و سكنت الريح و انطلقت بهم ركابهم و دوابهم، فأمر تبع بالهذليين فضربت أعناقهم و صلبهم و إنما فعلوا ذلك حسدا لقريش على ولايتهم البيت ثم التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٤٧

سار تبع حتى قدم مكة فكانت سلاحه بقعيقعان فيقال فبذلك سمي قعيقعان و كانت خيله بأجباد و يقال إنما سميت أجباد أجبادا بجباد خيل تبع، و كانت مطابخه في الشعب الذي يقال له شعب عبد الله بن عامر بن كريز فلذلك سمي الشعب المطابخ، فأقام بمكة أياما ينحر في كل يوم مائة بدنة لا يرزأ هو و لا أحد ممن في عسكره منها شيئا يردها الناس فيأخذون منها حاجتهم ثم تقع الطير فتأكل ثم تتنابها السباع إذا أمست لا يصد عنها شيء من الأشياء إنسان و لا طائر و لا سبع يفعل ذلك كل يوم مقامه أجمع، ثم كسا البيت كسوة كاملة أرى في المنام أن يكسوها فكساها الأنطاع، ثم أرى أن يكسوها فكساها الوصائل ثياب حبرة من عصب اليمن، و جعل لها بابا يغلق و لم يكن يغلق قبل ذلك، و قال تبع في ذلك و في مسيره شعرا:

و كسونا البيت الذي حرم الله ملاء معصبا و برودا

و أقمنا به من الشهر عشرا و جعلنا لبابه إقليدا

و خرجنا منه نؤم سهيلا قد رفعا لواءنا معقودا

و مما تقدم من قوله "بين أمج و عسفان" فقد جاء في هامش تاريخ الأزرقى ما نصه: أمج ذكر السهمودي نقلا عن الأسدي أن أمج بعد خليص بجهة مكة بميلين، قال: و بعده بميل وادى الأزرق و يعرف بعران، و أمج لخزاعة. اه. قلنا: و خليص قرية في وادى فاطمة أما عسفان فهي المرحلة الثانية للقوافل الصادرة من مكة إلى المدينة، و تبعد عن مكة ستة و ثلاثون ميلا. اه.

انتهى كل ذلك من تاريخ الأزرقى المسمى "أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار."

و ما تقدم من أن سلاح تبع كانت بقعيقعان فلذلك سمي بقعيقعان و أن خيله كانت بأجباد فلذلك سمي أجبادا. فقد جاءت علة أخرى لتسميتها بذلك أيضا ففي موضع آخر من تاريخ الأزرقى أن عمرو بن الحارث بن مضاض الجهمي الذي بلغ من العمر عتيا يذكر لأبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي حين اجتمع به قبيل الإسلام أنه سمي أجبادا قال: لأنها جادت بالدماء يوم التقينا نحن و قطورا. و سمي قعيقعان قعيقعان لتقعع السلاح في ظهورنا لما طلعا عليهم منه.

و عمرو بن الحارث المذكور هو القائل:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس و لم يسمر بمكة سامر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٤٨ بلى نحن كنا أهلها فأزالنا صروف العوادي و الجدود العوثر فانظر رحمك الله كيف وضع الله تعالى هيبته بيته الحرام و محبته و تعظيمه في قلوب عباده منذ أقامه في الأرض للعبادة، و لو لم يكن كذلك لما حج إليه الناس من كل فج عميق، فسبحان من بيده مقاليد السموات و الأرض فهو رب هذا البيت و رب كل شيء.

(٢) لم يذكر المؤرخون من كسا الكعبة بعد تبع الحميري الذي هو أول من سن هذه السنة الحسنه، و الذي نعتده أن الناس بعد أن رأوا كسوة تبع على الكعبة لم يتركوها مجردة قط، و هذا هو المعقول.

روى الأزرقى عن ابن أبي مليكة أنه قال: بلغني أن الكعبة كانت تكسى في الجاهلية كسى شتى: كانت البدنة تجلل الحبرة و البرود و

الأكسية وغير ذلك من عصب اليمن و كان هذا يهدى للكعبة سوى جلال. البدن هدايا من كسى شتى خز و حبرة و أنماط فيعلق فتكسى منه الكعبة و يجعل ما بقى فى خزانه الكعبة فإذا بلى منها شىء أخلف عليها مكانه ثوب آخر و لا ينزع مما عليها شىء و كان يهدى إليها خلوق و مجمر و كانت تطيب بذلك من بطنها و من خارجها. اه.

و روى أيضا عن النوار بنت مالك بن صرمه أم زيد ابن ثابت قالت: رأيت على الكعبة قبل أن ألد زيد بن ثابت و أنا به نسيء مطارف خز خضراء و صفراء و كرارا و أكسية من أكسية الأعراب و شقاق شعر. و الكرار الحيش الرقيق. واحدها كر. اه.

و روى أيضا عن عطاء بن يسار عن عمر بن الحكم السلمى قال: نذرت أمة بدنة تنحرها عند البيت و جللتها شقتين من شعر و وبر فنحرت البدنة و سترت الكعبة بالشقتين و النبى صلى الله عليه و سلم يومئذ بمكة لم يهاجر فأنظر إلى البيت يومئذ و عليه كسى شتى من وسائل و أنطاع و كرار و خز و نمارق عراقية أى ميسانية كل هذا قد رأيت عليه. انتهى من الأزرقى.

(٣ و ٤) كسوة قريش و كسوة أبى ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم و كان اسمه فى الجاهلية (بجيرا) فسماه رسول الله صلى الله عليه و سلم عبد الله. كما ذكره صاحب كتاب المحمل و الحج نقلا عن الأغانى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٤٩

روى الأزرقى قال: حدثنى جدى قال: حدثنا عبد الجبار ابن الورد قال:

سمعت ابن أبى مليكة يقول: كانت قريش فى الجاهلية ترافد فى كسوة الكعبة فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قصى بن كلاب حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم و كان يختلف إلى اليمن يتجر بها فأثرى فى المال فقال لقريش: أنا أكسو و حدى الكعبة سنة و جميع قريش سنة فكان يفعل ذلك حتى مات يأتى بالحبرة الجيدة من الجند فيكسوها الكعبة فسمته قريش "العدل" لأنه عدل فعله بفعل قريش كلها فسموه إلى اليوم العدل و يقال لولده بنو العدل. اه من الأزرقى، و الجند بفتحيتين بلد بأرض السكاسك باليمن.

(٥) كسوة خالد بن جعفر بن كلاب، فقد ذكر الحافظ ابن حجر فى فتح البارى روى الفاكهى فى كتاب مكة من طريق مسعر عن جده قال: أصاب خالد بن جعفر بن كلاب لطيمة فى الجاهلية فيها نمط من ديباج فأرسل به إلى الكعبة فنيط عليها، قال الحافظ: فعلى هذا هو أول من كسى الكعبة الديباج ثم قال:

و روى الدارقطنى فى المؤتلف أن أول من كسى الكعبة الديباج نثيلة بنت حبان والدة العباس بن عبد المطلب كانت أضلت العباس صغيرا فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة الديباج و ذكر الزبير بن بكار أنها أضلت ابنها ضرار ابن عبد المطلب شقيق العباس فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت فرده عليها رجل من جذام فكست الكعبة ثيابا بيضاء.

قال الحافظ: و هذا محمول على تعدد القصة. انتهى من تاريخ الكعبة. و معنى اللطيمة العير التى تحمل الطيب و بز التجار و ربما قيل لسوق العطارين لطيمة. اه من مختار الصحاح.

(٦) كسوة نثيلة بنت حبان والدة العباس بن عبد المطلب، و هى التى ذكرنا قصتها فى رقم (٥) قال ابن ظهيرة فى كتابه الجامع اللطيف: و هى أول عربية كستها الحرير.

القسم الثانى: كسوة الكعبة فى الإسلام

(٧) كسوة النبى صلى الله عليه و سلم: فقد كساها الثياب اليمانية و قد كانت كسوتها على عهده الأنطاع و المسوح.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٥٠

(٨) كسوة أبى بكر رضى الله عنه: كساها القباطى و هى جمع قبطية ثوب رقيق أبيض من ثياب مصر كأنه منسوب إلى القبط و الضم

خاص بالثياب و الكسر خاص بالناس، و تسميتها بالقباطى ليس لاحتكار أقباط مصر لهذا النوع من النسيج و لكنه اصطلاح اتفق عليه. كما ذكر فى كتاب المحمل و الحج.

(٩) كسوة عمر بن الخطاب رضى الله عنه: كساها القباطى أيضا من بيت المال من مصر و كان يكتب إلى مصر لتحاك له فيها، قال ابن ظهيره فى الجامع اللطيف: كان عمر بن الخطاب يتزع ثياب الكعبة كل سنة فيقسمها على الحجاج.

(١٠) كسوة عثمان رضى الله عنه: كساها القباطى أيضا و كان يطلبها من مصر كعمر بن الخطاب، رضى الله عن الجميع. قال صاحب كتاب المحمل و الحج: و قد كساها عثمان سنة برودا يمانية أمر عامله على اليمن بعملها و هو يعلى بن منبه. قال: و وضع عثمان على الكعبة كسوتين إحدهما فوق الأخرى و هو أول من فعل ذلك فى الإسلام. اه.

أما على بن أبى طالب رضى الله عنه، فقد قال صاحب كتاب المحمل و الحج: إن التاريخ لم يذكر عنه شيئا و لعل حروبه فى تمهيد أمر الدولة قد شغلته عن ذلك. اه. و نحن نقول و لهذا السبب نفسه لم يحج رضى الله عنه بالناس بعد الخلافة أيضا.

(١١) كسوة عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، فى تاريخ الأزرقى: كان ابن عمر يجلل بدنه بالأنماط فإذا نحرها بعث بالأنماط إلى الحجبة فيجعلونها على الكعبة قبل أن تكسى الكعبة. اه.

و قال ابن ظهيره فى كتابه الجامع اللطيف: و كساها عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضى الله عنهما ما كان يجلل به بدنه من القباطى و الحبرات و الأنماط.

انتهى. الحبرات بكسر الحاء و فتح الباء جمع حبرة كعنبه برد يمان. قال فى المصباح: و الأنماط جمع نمط بفتحتين و هو ثوب من صوف يطرح على الهودج.

قاله فى المنجد و له معان أخر.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٥١

القسم الثالث: كسوة الكعبة فى عصر بنى أمية

(١٢) كسوة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه: فقد كساها كسوتين فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء، و تكسى القباطى فى أواخر شهر رمضان لعيد الفطر.

قال صاحب كتاب المحمل و الحج: و كانت الكعبة تلبس الديباج الأحمر يوم التروية و لا يخاط، و يترك الإزار عليها حتى يذهب الحاج لثلا يخرقونه، فإذا كان يوم عاشوراء علقوا عليها الإزار و أوصلوه بالقميص الديباج فلا يزال عليها إلى يوم ٢٧ رمضان فتكسى الكسوة الثانية و هى من القباطى. اه.

(١٣) كسوة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما: فإنه لما فرغ من بناء الكعبة المشرفة سنة أربع و ستين خلّقها من داخلها و خارجها من أعلاها إلى أسفلها و كساها القباطى و قيل الديباج الخسروانى فكان يبعث بالكسوة إلى مصعب بن الزبير كل سنة فكانت تكسى يوم عاشوراء كما ذكره الأزرقى، لكن عبارة صاحب كتاب المحمل و الحج فقد كان يبعث إلى أخيه مصعب ليرسل إليه الكسوة كل سنة. و فرق بين العبارتين كما لا يخفى.

و يدل على ذلك ما جاء فى كتاب الدرّة الثمينه فى تاريخ المدينة لابن النجار، المطبوع بآخر الجزء الثانى من كتاب "شفاء الغرام" عند الكلام على ذكر الستارة التى كانت على صحن مسجد المدينة ما نصه:

أنبأنا ذاكر بن كامل عن الحسن بن أحمد بن محمد الحداد عن أبى نعيم الحافظ عن أبى جعفر الخلدى، قال: أخبرنا محمد بن عبد الرحمن المخزومى قال: حدثنا الزبير بن بكار قال: حدثنى محمد بن الحسن بن زباله قال: حدثنى حسين بن مصعب قال: أدركت كسوة الكعبة يؤتى بها المدينة قبل أن تصل إلى مكة فتنتشر على الرضراض فى المسجد ثم يخرج بها إلى مكة، و ذلك سنة إحدى و

ثلاثين أو اثنتين و ثلاثين و مائة. انتهى من الكتاب المذكور.

قال في مختار الصحاح: الرضراض "بفتح الراء" ما دق من الحصى، و رضاض الشىء، بضم الراء، فتاته، و كل شىء كسرتة فقد ررضضته.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٥٢

(١٤) كسوة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان: كساها الديق الخسروانى أيضا و يزيد هو الذى أخدم أيضا العبيد للكعبة كما أخدمهم لها قبله أبوه معاوية رضى الله تعالى عنه.

(١٥) كسوة الحجاج بن يوسف الثقفى: كساها الديق الخسروانى أيضا، قال صاحب كتاب المحمل و الحج: و لعله فعل ذلك تكفيرا عما أتاه من رميها بالمنجنيق فى قتاله ابن الزبير.

(١٦) كسوة عبد الملك بن مروان، كساها الديق. قال الأزرقى: فكان يبعث به كل سنة من الشام، فيمر به على المدينة فينشر يوما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم على الأساطين هاهنا و هاهنا ثم يطوى و يبعث به إلى مكة و كان يبعث بالطيب إليها و بالمجمر و إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم.

(١٧) كسوة هشام بن عبد الملك، قال صاحب كتاب المحمل و الحج: كساها هشام ديباجا غليظا و أغلب كسوة من كان قبله من متاع اليمن. قال: و قال الماوردى: و كساها بنو أمية فى بعض أيامهم الحلل التى كانت على أهل "نجران" فى جزيتهم و الديق من فوقها. اه.

القسم الرابع: كسوة الكعبة فى عصر العباسيين

(١٨) كسوة أمير المؤمنين محمد المهدي: قال مؤلف كتاب المحمل و الحج فيه ما نصه:

و فى سنة (١٥٩) أمر المهدي بصنع كسوة من القباطى للكعبة شاهداها الفاكهى و قال عنها "و رأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها بسم الله بركة من الله، مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع فى طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسعة و خمسين و مائة" مقرزى ص ١٨١ و رأى الفاكهى أيضا كسوة أخرى باسم المهدي مصنوعة سنة (١٦٢) قال: و فى سنة (١٦٠) نزع "المهدي" الكسوة التى كانت على الكعبة و كساها كسوة جديدة و ذلك لأن حجة الكعبة أنهوا إليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة فأمر أن يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجردة ثم طلى البيت كله بالخلوق بالغالية و المسك و العنبر ... الخ. اه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٥٣

(١٩) كسوة هارون الرشيد، قال صاحب كتاب المحمل و الحج فيه ما نصه:

و قال الفاكهى: و رأيت أيضا كسوة لهارون الرشيد من قباطى مصر مكتوب عليها "بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونه سنة تسعين و مائة" انتهى من الكتاب المذكور. و هو نقلا عن المقرزى ص ١٨١ و رأى الفاكهى أيضا كسوة أخرى مصنوعة باسم هارون الرشيد سنة (١٩١).

(٢٠) كسوة الفضل بن سهل ذى الرياستين و طاهر بن الحسين: قال صاحب كتاب المحمل و الحج فيه ما نصه "و قال الفاكهى أيضا و رأيت كسوة مما يلى الركن الغربى يعنى من الكعبة مكتوبا عليها "مما أمر به السرى ابن الحكم و عبد العزيز بن الوزير الجروى بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين و طاهر بن الحسين سنة سبع و تسعين و مائة" انتهى من الكتاب المذكور و هو نقلا عن المقرزى ص ١٨١.

(٢١) كسوة المأمون بن هارون الرشيد، قال صاحب كتاب المحمل و الحج فيه ما نصه: ثم إن المأمون بن هارون الرشيد أمر أن تكسى

الكعبة ثلاث مرات "أى فى السنة" تكسى الديباج الأحمر يوم التروية، و القباطى أول رجب، و الديباج الأبيض فى ٢٧ رمضان. ابتداء المأمون سنة (٢٠٦) حين قالوا له: الديباج الأحمر يتخرق قبل الكسوة الثانية فسأل مبارك الطبرى مولاه و هو على بريد مكة و صوافيها عن أحسن ما تكون فيه الكعبة فقال له فى الديباج الأبيض ففعله قال:

و فى مرآة الحرمين أمر أن لا يسدل عليها إلا كسوة واحدة، ثم قال: و قال الفاكهى "و رأيت شقة من قباطى مصر فى وسطها إلا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست و مائتين." اه من كتاب المحمل و الحج و هو نقلا عن المقرزى ص ١٨١.

ثم قال أيضا "ثم رفع إلى المأمون أيضا أن إزار الديباج الأبيض يتخرق و يبلى فى أيام الحج من مس الحجاج قبل أن يخاط عليها إزار الديباج الأحمر فى عاشوراء فزادها إزارا من ديباج أبيض، تكساه يوم التروية فيستر به ما تخرق من الإزار الذى كسيته إلى أن يخاط عليها إزار الديباج الأحمر فى العاشوراء." انتهى كل ذلك من المحمل و الحج. و هذا الكلام و أكثر منه موجود فى تاريخ الأزرقى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٥٤

(٢٢) كسوة أبى السرايا الأصفر، قال فى كتاب المحمل و الحج فيه ما نصه:

و فى سنة (٢٠٠) مائتين قدم مكة حسين بن حسن الأفضس الطالبى و ملكها و دخل الكعبة و جردها من جميع الكسى، و أخذ جميع ما كان عليها و كساها ثوبين رقيقين من قر أحدهما أصفر و الآخر أبيض، كان أبو السرايا بعث بهما إليها مكتوب عليهما "بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على محمد و على أهل بيته الطاهرين الأخيار، أمر أبو السرايا الأصفر بن الأصفر داعية آل محمد بعمل هذه الكسوة لبيت الله الحرام، و أن تطرح عنها كسوة الظلمة من لدى العباس" ثم أخذ أموالا كثيرة من أهل مكة و صادرهم و أبادهم. انتهى من الكتاب المذكور.

(٢٣) كسوة أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله، قال صاحب كتاب المحمل و الحج فيه ما نصه:

ثم رفع إلى جعفر المتوكل على الله فى سنة (٢٤٠) أن إزار الديباج الأحمر يبلى قبل هلال رجب من مس الناس و تمسحهم بالكعبة فزادها إزارين مع الإزار الأول فأذال قميصها الديباج الأحمر و أسبله حتى بلغ الأرض ثم جعل الإزار فوقه فى كل من شهرين إزارا. اه. قال الأزرقى: معنى أذال "بالذال المعجمة: "أسبل. قال صاحب المحمل: ثم نظر الحجة فإذا الإزار الثانى لا يحتاج إليه فوضع فى تابوت الكعبة و كتبوا إلى المتوكل أنه يكفى إزار واحد مع ما أذيل من قميصها، فصار يبعث بإزار واحد فتكسى به بعد ثلاثة أشهر و يكون الذيل ثلاثة أشهر. ثم فى سنة (٢٤٣) أمر المتوكل بإذالة القميص القباطى حتى بلغ الشاذروان الذى تحت الكعبة. قال الماوردى: ثم كسى المتوكل أساطينه الديباج و قد عدت الكساوى التى كسيت بها الكعبة من سنة (٢٠٠) إلى سنة (٢٤٤) فإذا هى مائة و سبعون ثوبا. راجع تاريخ مكة. ثم عاد الخلفاء العباسيون ببغداد إلى شعارهم الأسود فألبسوا الكعبة الديباج الأسود. انتهى كل ذلك من كتاب المحمل و الحج.

و فى سواد كسوة الكعبة المعظمة يقول المهلهل الدمياطى:

يروق لى منظر البيت العتيق إذابدا الطرفى فى الإصباح و الطفل

كأن حلتة السوداء قد نسجت من حبة القلب أو من أسود المقل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٥٥

(٢٤) قال صاحب المحمل و الحج نقلا عن صبح الأعشى فى الجزء الرابع ص ٢٨١ ما نصه: و قد حكى المؤيد صاحب حماة فى تاريخه أن الفاطميين خلفاء مصر فى إمارة أبى الحسن جعفر من السلیمانيين على مكة فى سنة (٣٨١) كسوا الكعبة البيضاء. اه.

(٢٥) قال صاحب كتاب المحمل و الحج نقلا عن المقرزى ص ١٨١ ما نصه:

"وقال المسبحى فى حوادث سنة (٣٨٤): وفى ذى القعدة ورد يحيى بن اليمان من (تنيس) و (دمياط) و (الفرما) بهديته و هى أسفاط و تخوت و صناديق مال و خيل و بغال و حمير و ثلاث مظال و كسوتان للكعبة. "اه.

(٢٦) قال صاحب كتاب المحمل و الحج فيه ما نصه: و فى سنة (٣٩٧) كسى الحاكم بأمر الله الكعبة القباطى البيض و بعث مالا لأهل الحرمين. اه.

(٢٧) و قال فى الكتاب المذكور: و فى سنة (٤٢٣) بعث الظاهر لإعزاز دين الله بكسوة الكعبة فكسيت. اه.

(٢٨) و قال أيضا فى الكتاب المذكور: و فى الفترة التى بين سنى ٤٣٧-٤٤٤ للهجرة عين الكسوة التى على الكعبة "ناصرى خسرو" و كتب عنها فى رحلته فى سوريا و فلسطين و بلاد العرب التى كتبها باللغة الفارسية و ترجمت إلى الفرنسية ما ترجمته ملخصا "كانت الكعبة مضاءة بأربع شبايكك موضوعه فى الزوايا الأربع و مغشاة بزجاج شفاف ليمنع المطر فى تخلله إلى الكعبة، الظاهر من تخلله إلى الشباييك. " و الميزاب موجود فى منتصف الجنب البحرى و طوله ثلاثة أذرع مغشى بكتابات ذهبية.

أما الكسوة فكانت بيضاء مجزعة عليها شريطان بعرض ذراع و ارتفاع الكسوة بين الشريطين نحو عشرة أذرع، و الأجزاء الموجودة فوق و تحت هذه الأشرطة كان لها نفس المقاس و بهذا الوضع كانت تظهر الكعبة كأنها مقسمة إلى أقسام ثلاثة، كل قسم حسب تقديرى الشخصى عشرة أذرع تقريبا، و على وجوه الكسوة الأربع كانت ترى محاريب منسوجة بالحرير الملون و عليها رسومات بالخيط الذهبية، و على كل وجهه ثلاث محاريب مزر كشه، و المحراب الأوسط هو الأكبر، أما الاثنان الآخران المكتنفان له فمقاسهما أقل، و عليه فقد كان عدد المحاريب المرسومة على الأجناب الأربعة اثنى عشر محرابا. اه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٥٦

انتهى من كتاب المحمل و الحج، ثم قال مؤلفه عند هذا الكلام: و زخرفة الكسوة بالمحاريب قد بقيت مستمرة بعد "ناصرى خسرو" المذكور إلى سنة ٥٦١ حيث عاينها "أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى" مؤلف كتاب "ألف باء" و قد قال عنها ما ذكرناه له فى صحيفة ١٨٣ من كتابنا هذا.

نقول: و ما أشار إليه أستاذنا المؤلف المذكور رحمه الله تعالى عما ذكره بصحيفة ١٨٣ من كتابه عن مشاهدة أبو الحجاج يوسف الكعبة و كل ما رآه فى سنة ٥٦١ فإننا ننقل هنا الجزء الخاص عن الكسوة فقط فقد قال ما نصه: و البيت مستور كله بالدبابج إلا موضع الباب و موضع الحجر الأسود و لون أستاره أخضر منسوج فيها صور المحاريب فى كل محراب منها على صفرها مكتوب طرة قد قطعت من الخلدى الأحمر و خيطة على الأستار، حروفها تقرأ على البعد لعظمها مكتوب بعد البسملة: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ...** الآية هذا ما أمر بعمله فلان ابن فلان عام كذا يعنى صاحب بغداد و هو يرسل كسوتها كل عام مع أشياء سوى هذه من الأسباب يطول بذكرها الكتاب قال:

أراها الله رأى العين عبدشديد الشوق للبلد الحرام

فيشفى سقمه بطواف بيت كريم عند زمزم و المقام

قال: و قد ذكرت بعض وصف البيت فى قصيد مطول أقول فيه:

و قد حلوا أعاليه بتبرو قد بسطوا أسافله رخاما

و قد جعلوا له بابا و قفلا و حلوا بابه ورقا و ساما

إلى آخره و هو فوق مائة بيت، انظره فى التكميل.

انتهى ما ذكره صاحب كتاب المحمل و الحج بصحيفة ١٨٣.

(٢٩) كسوة الصليحي صاحب اليمن و مكة. قال ابن ظهيرة: و ذلك فى زمن الحاكم العبيدى و المستنصر العبيدى، قال مؤلف كتاب المحمل و الحج فيه ما نصه: و فى سنة (٤٥٥) دخل "على بن محمد بن على" أبو كامل الصليحي إلى مكة و ملكها و استعمل الجميل

مع أهلها و أمن الحاج في أيامه، و أظهر العدل و الإحسان و طابت قلوب الناس له فأثنوا عليه خيرا و رخصت الأسعار و كان متواضعا، و كسى البيت الحرام بثياب بيض من الحرير الصيني، ورد حلى البيت

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٥٧

إليه و كان بنو أحسن قد أخذوها و حملوها إلى اليمن، فابتاعها الصليحي منهم و أعادها. راجع ابن الأثير، و النجوم الزاهرة. انتهى.

(٣٠) كسوة أبي النصر الاسترابادى سنة ٤٤٦ و كانت بيضاء من عمل الهند. ذكره صاحب المحمل و الحج.

(٣١) كسوة محمود بن سبكتكين. قال صاحب المحمل و الحج نقلا عن النجوم الزاهرة ما نصه: و فى السنة المذكورة أى سنة (٤٤٦) ورد إلى مكة إنسان أعجمى يعرف بسلاار من جهة جلال الدولة ملكشاه و دخل و هو على بغلة بمركب ذهب و على رأسه عمامة سوداء و بين يديه الطبول و البوقات، و معه للبيت كسوة ديباج أصفر و عليها اسم "محمود بن سبكتكين" و هى من استعماله و كانت مودعة بنيسابور من عهد (محمود) المذكور عند إنسان يعرف بأبى القاسم الدهقان، فأخذها الوزير نظام الملك منه و أنفذها مع المذكور. انتهى منه.

(٣٢) كسوة رامشيت. قال صاحب كتاب المحمل و الحج نقلا عن مرآة الحرمين ما نصه:

و كساها فى سنة (٥٣٢) الحبرات و غيرها الشيخ أبو القاسم رامشيت صاحب الرباط المشهور بالمسجد الحرام و كانت كسوته بثمانية عشر ألف دينار مصرية على ما قال ابن الأثير و قيل بأربعة آلاف دينار. اه.

و جاء فى تاريخ الخميس: أن رامشيت هو رجل من التجار فارسى كسا الكعبة لأنه لم يأتها كسوة فى ذلك العام لأجل اختلاف الملوكة، قال: و جعل فى الكعبة أربعة قناديل وزنها عشرة أرطال بثمانية عشرة ألف دينار و صاحب التاريخ لم يذكر اسم الرجل لكنه ذكر له ابن رامشيت الفارسى. انتهى منه.

(٣٣) كسوة أحمد الناصر لدين الله. قال صاحب كتاب المحمل و الحج نقلا عن الإعلام ما نصه:

ثم إن الناصر لدين الله أبا العباس أحمد، كسى الكعبة فى آخر أيامه الديباج الأسود و كانت تكسى الديباج الأبيض من زمن المأمون. اه. قال: و كسيت فى زمنه أيضا كسوة خضراء ثم سوداء. انتهى منه.

(٣٤) كسوة منصور بن ربيعة شيخ الحرم. قال صاحب كتاب المحمل و الحج ما نصه:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٥٨

قال الفاسى: و قد استمرت الكسوة السوداء إلى الآن سنة (٨١٢) إلا أنه فى سنة (٦٤٣) هبت ريح شديدة قطعت الكسوة فكسيت ثيابا سوداء من القطن، كساها بها منصور بن ربيعة شيخ الحرم. انتهى منه.

لكن قال صاحب تاريخ الكعبة اسم الذى كساها منصور بن منعة البغدادى شيخ الحرم، فالظاهر أنه حصل غلط فى كتاب المحمل و الحج بدل أن يقول ابن منعة قال ابن ربيعة. و الله تعالى أعلم.

القسم الخامس: كسوة الكعبة فى عصر المماليك البحرية و الشراكسة

(٣٥) كسوة الظاهر بيبرس. قال صاحب كتاب المحمل و الحج ما نصه: و فى سنة (٦٦٦) ست و ستين و ستمائة كسى الكعبة السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى و عمل لبابها مفتاحا و سير قافلة الحج من البر بدلا عن صحراء عيذاب و لما حج فى سنة (٦٦٧) غسل الكعبة بيده بماء الورد و قد رؤى بباب الكعبة محرما يأخذ بأيدى ضعفاء الرعية ليصعدوا و عمل الستور الديباج للكعبة و للحجرة النبوية. اه.

(٣٦) قال صاحب كتاب المحمل و الحج: و فى عاشر ذى الحجة من سنة (٧٧٥) كسيت الكعبة الشريفة كسوة قصيرة فوق الكسوة الأولى و هى بيضاء و سوداء فلما كان فى سادس عشر الشهر أخرجت الكسوة و كسيت بها الكعبة من داخل. انتهى.

(٣٧) قال صاحب كتاب المحمل و الحج ما نصه: و قال السمهودى فى كتابه "وفاء الوفا" نقلا عن شفاء الغرام: و فى عشر الستين و

سبعمائه في دولة السلطان الصالح إسماعيل بن الملك الناصر "محمد بن قلاوون" اشترى قرية من بيت المال بمصر و وقفها على كسوة الكعبة الشريفة في كل سنة، و على كسوة الحجرة الشريفة المقدسة و المنبر الشريف في كل خمس سنين مرة. اه. هذا ما ذكر في الكتاب المذكور و لم يذكر هل السلطان المذكور كسا الكعبة أم لا، لكن الظاهر أنه كساها ما دام وقف القرية التي اشتراها على كسوة الكعبة. و الله تعالى أعلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٥٩

(٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١ و ٤٢) لقد جمعنا هذه الأعداد الخمسة المتسلسلة في مكان واحد، لأن الكلام الآتي مرتبط بعضه ببعض و منقول من كتاب واحد، فلا يستحسن قطعه و ذكر كل شيء بمفرده و هذا هو، نذكره برمته و لفظه:

قال صاحب كتاب المحمل و الحج نقلا عن صبح الأعشى من الجزء الرابع بصحيفتي ٢٨١ و ٢٨٣ ما نصه:

و الذي جرى عليه الحال في زمننا إلى آخر الدولة الظاهرية "برقوق" (المتوفى سنة ٨٠١) و أوائل الدولة الناصرية ولده (فرج) أن الكعبة تكسى الديباج الأسود مسبله من أعلى الكعبة إلى أسفلها مرقوبا بأعليها طراز رقم بالبياض من أصل النسيج مكتوب فيه **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِنَكَّةٍ مُّبَارَكًا ...** الآية و على الباب برقع من نسبة ذلك مرقوم فيه بالبياض.

ثم في سنة ... و ثمانمائة في الدولة الناصرية فرج بن برقوق غير الطراز من لون البياض إلى لون الصفرة فصار الرقم في السواد بحريز أصفر مقصب بالذهب، و لا يخفى أنه أنفس من الأول، و الثاني أبهج منه لشدة مضادة ما بين البياض و السواد، ثم جعل بعض جوانب الكسوة ديباجا، أسود على العادة و بعضها كمخا أسود بجامات مرقوم فيها بالبياض "لا إله إلا الله و محمد رسول الله."

ثم جعل بعد ذلك برقع البيت من حريز أسود منشورا عليه المخايش الفضة الملبسة بالذهب فزاد نفاسته و علا قيمته. ثم في سنة (٨١٤) جعل وجهه الباب من الكسوة كمخا أزرق بجامات مكتوب فيها ... "و الله العالم ما كان و ما يكون." اه.

و في سنة (٨١٩) جعلت الجامات المصنوعة من الحرير الأبيض في جميع الكسوة من تحت و إلى أسفل بعد أن انقطعت أربع سنين و استمرت الجامات في كسوة الكعبة خمس سنين متواليه بعد هذه، ثم أزيلت و عوض عنها جامات سود في سنة (٨٢٥).

و عمل في سنة (٨١٩) المذكورة لباب الكعبة ستارة عظيمة الحسن لم يسبقها مثلها.

و الذي استقر عليه الحال في زمننا أنها لا تلبس في كل سنة غير كسوة واحدة، و ذلك أن الكسوة تعمل بمصر على النمط المتقدم، ثم تحمل صحبة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٦٠

الركب إلى مكة، فيقطع ذيل الكسوة القديمة على قدر قامه من جدار الكعبة و يظهر من الجدار ما كان تحته و يبقى أعلاها معلقا حتى يوم ... فتخلع الكسوة العتيقة و تعلق الجديدة مكانها، و يكسى المقام من نسبة كسوة الكعبة، و يأخذ بنو شيبه الحجة الكسوة العتيقة فيهدونها للحجاج و لأهل الآفاق و قد زاد رفدهم فيها من حين حصلت المغالاة في كسوة الكعبة و برقعها على ما تقدم.

اللهم زد هذا البيت تشريفا و تعظيما و تكريما و مهابة. انتهى كل ذلك من كتاب المحمل و الحج و هو عن صبح الأعشى.

(٤٣) قال صاحب كتاب المحمل و الحج نقلا عن الإعلام ما نصه: و في سنة (٨٢٦) جدد الأشرف "برسباي" الكسوة الحمراء داخل الكعبة الشريفة، و كساها من داخل، و أزال الكسوة القديمة و كانت للناصر حسن بن محمد بن قلاوون.

و جاءت الكسوة على يد الزيني (عبد الباسط ناظر الجيش صاحب الباسطية التي على باب العجلة عن يسار الداخل إلى المسجد الحرام). اه.

قال في هامش كتاب المحمل و الحج نقلا عن الإعلام بصحيفة ٢٤٨: كان عبد الباسط ناظرا على أوقاف كسوة الكعبة بمصر فعملها و نماها إلى أن فاضت و كثرت في زمانه. و كانت له سحابة للفقراء تنصب لهم في الطريق ليستظلوا تحتها، و كانوا يحملون على جمال

في شقائف أعددها لهم، وكانوا يسقون الماء العذب كلما احتاجوا إليه ويطعمون الخبز الطرى و البقسماط و كان يطبخ لهم في المناهل و يذبح الغنم في الذهاب من مصر إلى مكة و في مدة الإقامة بها و العودة منها إلى مصر مع الإحسان إليهم و إلى غيرهم و أصلح كثير من درب الحجاز. اه.

(٤٤) قال في كتاب المحمل و الحج نقلا عن الإعلام ما نصه: و في سنة (٨٤٨) وصل مع الراكب المصرى رسول سلطان العجم "شاه رخ مرزا" بكسوة للكعبة و صدقة لأهل مكة، فكسيت الكعبة من داخلها بتلك الكسوة من يوم عيد الأضحى، و فرقت الصدقة على أهل الحرمين. انتهى.

و السلطان شاه رخ هو صاحب شيراز.

(٤٥) قال في كتاب المحمل و الحج نقلا عن الإعلام ما نصه: و في سنة (٨٥٢) وصلت إلى مكة كسوة لحجر إسماعيل عليه الصلاة و السلام مع كسوة البيت الشريف لأنه لم تجر بذلك عادة قبل هذا فوضعت في البيت الشريف ثم التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٦١

كسى بها الحجر من داخله في العشر الأخير من ذى الحجة سنة (٨٥٣) بعد أن حفظت في جوف الكعبة سنة كاملة. اه.

(٤٦) قال في كتاب المحمل و الحج نقلا عن الإعلام ما نصه: و في سنة (٨٥٦) وصل إلى مكة أمر من الملك الظاهر "جقمق" يتضمن إخراج ما على الكعبة الشريفة من كسوتها الداخلية المنسوبة إلى الأشرف "برسباى" و الكسوة المنسوبة إلى "شاه رخ مرزا" و إبقاء الكسوة المنسوبة إلى (جقمق) وحدها ففعلوا ذلك. اه.

(٤٧) قال في كتاب المحمل و الحج نقلا عن الإعلام ما نصه: ثم إن الملك الناصر "أبا سعيد خوش قدم" الذى ولى مصر فى شهر رمضان من سنة ٨٦٥ و المتوفى فى سنة ٨٧٢ كسى الكعبة فى أول ولايته على العادة و لكن كانت كسوة الجانب الشرقى أو الجانب الشامى بيضاء بجامات سود، و فى الجامات التى بالشرقى بعض من الذهب. اه.

(٤٨) قال صاحب كتاب المحمل و الحج نقلا عن كتاب ابن إياس فى الجزء الثانى صحيفة ١٤٦ ما نصه: و فى سنة (٨٧٨) وصل الحاج إلى مصر و صحبتهم ابن أمير مكة و القاضى ابن ظهيرة و ولده و أخوه و معهم "رستم" أمير الحاج العراقى و القاضى اللذان بعث بهما "حسن الطويل" و صحبتهما كسوة الكعبة المشرفة و أمر أهل المدينة و مكة أن يخطبوا فيها باسم العادل "حسن الطويل" فسجنهما السلطان فى برج بالقلعة. اه.

(٤٩) قال صاحب كتاب المحمل و الحج نقلا عن كتاب ابن إياس فى الجزء الثالث بصحيفة ٧٧ ما نصه: و فى سنة (٩٢٢) أرسل السلطان قانصوه الغورى الكسوة و الصدقات لأهل مكة و المدينة على يد الطواشى "مرهف" و لم يحج أحد من المصريين قاطبة بسبب فتنة ابن عثمان. انتهى.

القسم السادس: كسوة الكعبة فى عهد الدولة العثمانية

إشارة

(٥٠) قال صاحب كتاب المحمل و الحج و هو نقلا عن كتاب الإعلام و كتاب ابن إياس فى الجزء الثالث ما نصه: فى سنة (٩٢٣) ثلاث و عشرين و تسعمائة أرسل السلطان سليم مع الأمير مصلح الدين بك بالصدقات و كسوة الكعبة الشريفة، و كسوة ضريح النبى صلى الله عليه و سلم، و كسوة ضريح سيدنا إبراهيم الخليل عليه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٦٢

الصلاة و السلام، و صنع للمحمل الشريف كسوة، و قد تباهى فى كسوة الكعبة و زركشة البرقع إلى الغاية و كذلك فى كسوة

المحمل اه.

نقول قوله "و كسوة ضريح سيدنا إبراهيم الخليل " هذا غلط و الصحيح:

" و كسوة مقام إبراهيم الخليل."

فهذا المقام أمام الكعبة المشرفة بجوار زمزم و هو يكسى بكسوة جميلة، و أما ما ذكره من كسوة ضريح سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام فضريحه بالخليل بالقدس. و ربما أراد هذا المعنى. قال مؤلف كتاب المحمل و الحج هنا عند ذكر السلطان سليم بالهامش نقلا عن الإعلام ما نصه: لما انتصر السلطان سليم على قانصوه الغورى و دخل حلب و سمع الخطيب يقول فى تعريفه "ب:خادم الحرمين الشريفين "سجد لله شكرا و قال "الحمد لله الذى يسر لى أن صرت خادم الحرمين الشريفين " و أضمر خيرا كثيرا و إحسانا جميلا لأهل الحرمين، و أظهر الفرح و السرور بتلقيه بخادم الحرمين. انتهى.

ثم قال صاحب كتاب المحمل و الحج بعد أن ذكر كسوة السلطان سليم ما نصه: لما استولت الدولة العثمانية على مصر و الحجاز اختصت بكسوة البيت الداخلى و كسوة الحجر النبوية الشريفة علاوة على الشمع الكبار و الصغار التى تسرح داخل الكعبة و خارجها، و فى مقامات المسجد الحرام و المآثر الشريفة، و كذا طيب الكعبة و بخورها كعطر الورد و ماء الورد و العنبر و الند، و كذلك الحبال التى تلزم لربط أستار الكعبة، كانت كل هذه الأشياء ترسل سنويا مع المحمل الشامى.

قال: و اختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية و بقيت مصر تصنع أقمشة الكسوتين الداخلىة و الخارجىة كلها إلى عام ١١١٨ حيث أمر السلطان أحمد بن السلطان محمد الرابع بحياكة كسوة الكعبة الداخلىة التى ترسل من قبل السلطان عام توليه الملك فى استنبول، فصنعت فيها و أرسلت فى العام التالى إلى مكة عن طريق مصر، فاخصت استنبول من ذلك الوقت بحياكة الكسوة الداخلىة.

قال: و استمر سلاطين آل عثمان فى إرسالها على النحو المذكور إلى عهد السلطان "عبد العزيز بن السلطان محمود الثانى " حيث انقطعت الدولة العثمانية عن إرسال الكسوة الداخلىة و بقيت الكسوة التى أرسلها السلطان المشار إليه عام (١٢٢٧) فى الكعبة إلى يومنا هذا. نقل هذا الكلام صاحب كتاب المحمل و الحج من هامش تاريخ مكة للأزرقى بصحيفة ١٧٢. انتهى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٦٣

نقول: إن هذه الكسوة الداخلىة للكعبة التى أرسلها السلطان عبد العزيز المذكور كانت لا تزال موجودة فى داخل الكعبة من ذلك الزمن إلى سنة (١٣٦٣) ألف و ثلاثمائة و ثلاث و ستين للهجرة، ثم رفعت هذه الكسوة البالية عندما أمر جلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله تعالى بعمل كسوة خاصة لداخل الكعبة المشرفة فوضعت داخلها فى السنة المذكورة.

و لا يخفى على المطلع فى كتابنا هذا عند كلامنا على كسوة الكعبة أننا تركنا تعداد من كساها من بعد رقم (٥٠) أى من بعد إرسال السلطان سليم الكسوة اكتفاء بما تقدم و بما سنذكره الآن، و نحب أن ننبه القارئ الكريم أن لا يظن أن عدد كسوة الكعبة المشرفة يكون بعدد من كساها، كلاب إن كل ملك و سلطان يكسوها كل عام مدة بقائه فى الحكم. فعلى هذا يكون كل منهم يكسوها مرارا عديدة، هذا و الذى سنذكره الآن، هو كلام مفيد مختصر كتبه حضرة صاحب المعالى الأستاذ رشدى ملحس من كبار رجال الديوان فى المملكة العربية السعودية فى الهامش الذى كتبه على تاريخ الأزرقى عند طبعه بالمطبعة الماجدية بمكة المكرمة سنة ١٣٥٢، فإنه قال حفظه الله تعالى فى الجزء الأول بصحيفة ١٧١ فى آخر الكلام على كسوة الكعبة فى الإسلام ما نصه:

" و يضاف إلى ذلك رواية الفاكهى من طريق مسعر عن جسر قال: أصاب خالد بن جعفر بن كلاب لطيمة فى الجاهلية فيها نمط من ديباج فأرسل به إلى الكعبة فنيط عليها فعلى هذا هو أول من كسا الكعبة الديباج. و روى الدارقطنى فى المؤلف أن أول من كسا الكعبة الديباج نتيبة بنت حيان والدة العباس بن عبد المطلب كانت أضلت العباس - و على رواية ضرار شقيق العباس - صغيرا فنذرت إن وجدته أن تكسوا الكعبة الديباج.

قال ابن حجر بعد أن ذكر هذه الروايات جميعها: و حصلنا فى أول من كساها الديباج على ستة أقوال: (١) خالد (٢) أو نتيبة (٣) أو

معاوية (٤) أو يزيد (٥) أو ابن الزبير (٦) أو الحجاج، و يجمع بينها بأن كسوة خالد أو نتيله لم تشملها كلها و إنما كان فيما كساها شيء من الديباج، و أما معاوية فلعله كساها في آخر خلافته فصادف ذلك خلافة ابنه يزيد، و أما ابن الزبير فكأنه كساها ذلك بعد تجديد عمارتها فأوليته بذلك الاعتبار لكن لم يداوم على كسوتها الديباج،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٦٤

فلما كساها الحجاج بأمر عبد الملك استمر ذلك فكأنه أول من داوم على كسوتها الديباج في كل سنة. اه.

قلنا: و قد كسيت في بدء خلافة الناصر العباس كسوة خضراء ثم كسيت في زمنه أيضا كسوة سوداء فاستمر لونها أسود إلى الآن. و لما ضعف أمر العباسيين صارت ترسل الكسوة تارة من اليمن و أخرى من مصر إلى أن استقرت في مصر فصارت ترسل الكسوة الخارجية السوداء إليها سنويا. و كان كلما يتجدد ملك أو سلطان يرسل للكعبة بكسوة داخلية من الحرير الأحمر فلما استولت الدولة العثمانية على مصر و الحجاز اختصت الدولة المشار إليها بكسوة البيت الداخلية و كسوة الحجر النبوية علاوة على الشمع الكبار و الصغار التي تسرح داخل الكعبة و خارجها و في مقامات المسجد الحرام و المآثر الشريفة و كذا طيب الكعبة و بخورها كعطر الورد و ماء الورد و العنبر و الند، و كذلك الحبال التي تلزم لربط أستار الكعبة كانت كل هذه الأشياء الأخيرة ترسل سنويا مع المحمل الشامي.

و اختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية، و بقيت مصر تصنع أقمشة الكسوة الداخلية و الخارجية كلها إلى عام ١١١٨ حيث أمر السلطان أحمد بن السلطان محمد الرابع بحيائه كسوة الكعبة الداخلية التي ترسل من قبل السلطان عام توليه الملك في استنبول، فصنعت فيها و أرسلت في العام التالي إلى مكة عن طريق مصر، فاخصت استنبول من ذلك الوقت بحيائه الكسوة الداخلية، و استمر سلاطين آل عثمان في إرسالها على النحو المذكور إلى عهد السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثاني حيث انقطعت الدولة العثمانية عن إرسال الكسوة الداخلية و بقيت الكسوة التي كان أرسلها السلطان المشار إليه عام ١٢٧٧، في الكعبة إلى يومنا هذا. و لما دخل الإمام سعود الكبير بن عبد العزيز آل سعود الحجاز انقطعت مصر عن إرسال الكسوة الخارجية، فكساها الإمام المشار إليه عام ١٢٢١ من القز الأحمر ثم كساها في الأعوام التالية بالديباج و القيلان الأسود و جعل إزارها و كسوة بابها من الحرير الأحمر المطرز بالذهب و الفضة. و لما استردت الدولة العثمانية الحجاز عادت مصر إلى إرسال الكسوة الخارجية كالسابق.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٦٥

و في عامي ١٣٣٢ و ١٣٣٣ هـ و ذلك عقب إعلان الحرب العامة منعت الحكومة الإنكليزية إرسال المحمل المصري إلى الحجاز بسبب انحياز الدولة العثمانية بجانب ألمانيا و حلفائها، و لكنها، أي إنكلترا كانت تسمح بإرسال الكسوة و الصرة فقط، فقد كان مأمورا المحمل الملكيون و إمامه يحملون الكسوة و الصرة فيأتون بها إلى مرفأ جدة، حيث يسلمونها إلى وكيل أمير مكة ثم يقفلون راجعين إلى مصر. و قد كانت العادة المتبعة إلى عام ١٣٣٢ أن يكتب اسم السلطان العثماني فقط على الحزام، و في عام ١٣٣٣ هـ أضيف إلى جانب اسم السلطان العثماني، هذه العبارة " و الأمر بها السلطان الكامل حسين " إشارة إلى السلطان حسين كامل الذي تولى السلطنة المصرية حينذاك و قد كسيت الكعبة بهذه الكسوة بعد أن نزع عنها الحكومة المحلية في الحجاز العبارة المذكورة. و في السنة التالية، أي عام ١٣٣٤ كان الملك حسين بن علي أعلن الثورة ضد الدولة العثمانية فعادت مصر إلى إرسال المحمل مع الكسوة حسب العادة القديمة و بقيت ترسل الكسوة طيلة هذه السنين إلى عام ١٣٤١ حيث نشب خلاف بين مصر و الحجاز بشأن البعثة الصحية و كان المحمل المصري وصل إلى جدة في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة. و لما رفض الملك حسين قبول البعثة رجع المحمل و معه الكسوة إلى مصر. و كانت الدولة العثمانية أرسلت عام ١٣٣٤ كسوة خارجية للكعبة مع الشريف علي حيدر باشا لإكساء الكعبة عند استرداد مكة، فبقيت الكسوة المذكورة في المدينة المنورة إلى هذا العام، أي ١٣٤١، فجلبها الملك حسين من المدينة و كساها الكعبة و في عام ١٣٤٢ حسم الخلاف بين البلدين و عادت المياه إلى مجاريها فأرسلت مصر الكسوة الخارجية المعتادة.

و في عام ١٣٤٣ دخل جلاله الملك عبد العزيز آل فيصل آل سعود إلى مكة المكرمة فتأخر مجيء الكسوة التي تأتي من الديار المصرية بسبب الحرب التي كانت قائمة بين جيوش جلاله الملك عبد العزيز وبين جيوش الملك علي بن الحسين بين جدة و بحرة فاستعوض عنها بكسوة من صنع الأحساء. و في عام ١٣٤٤ كانت الحرب انتهت بانسحاب حكومة جدة فوردت الكسوة من مصر، و لكنها انقطعت عن إرسالها منذ السنة التالية أي عام ١٣٤٥ هـ بسبب توتر العلاقات بين البلدين فأمر جلاله الملك عبد العزيز أيده الله بإعداد كسوة فاخرة في اليوم الخامس من شهر ذي الحجة فصنعت من الجوخ الأسود الفاخر مبطن بالقلع المتين. و في السنة التالية أي عام ١٣٤٦ أسس جلالته دارا خاصة للكسوة و الصناعة في محله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٦٦

أجباد بمكة المكرمة، فكانت هذه الدار أول مؤسسة شيدت لحياكة الكسوة في الحجاز، و جلب للدار المذكورة عمال من الهنود لعدم وجود من يحسن صناعة الحياكة في داخل البلاد، و بقي هؤلاء في الدار المذكورة إلى هذا العام أي عام ١٣٥٢ هـ حيث حل مكانهم فريق من أهل البلاد حذقوا و تمرنوا خلال المدة الماضية على الحياكة. و قد شرعوا في العمل في هذا الشهر الذي نكتب فيه هذا التعليق. انتهى كلام الأستاذ رشدي ملحس الذي بهامش تاريخ الإمام الأزرقى.

نقول: قوله في نهاية كلام الأستاذ المذكور و هو " و قد شرعوا في العمل في هذا الشهر الذي نكتب فيه هذا التعليق " يعني به شهر شوال عام ١٣٥٢ من الهجرة، و نقول أيضا: و بعد أن زال سوء التفاهم بين المملكة العربية السعودية و المملكة المصرية أعادت الحكومة المصرية كسوة البيت المعظم و ذلك في سنة (١٣٥٥) خمس و خمسين و ثلاثمائة و ألف، و لا زالت الكسوة الخارجية له تأتي من مصر إلى يومنا هذا.

و هنا يستحسن ذكر كسوة الشريف الحسين الذي توفي رحمه الله تعالى في سنة (١٣٤٨) هجرية التي ذكر الأستاذ رشدي ملحس هنا و إليك بيان ذلك بالتفصيل:

كسوة الشريف الحسين بن علي

تقدم الكلام على كسوة الكعبة المعظمة بيت الله الحرام في عهد الجاهلية و الإسلام إلى عصرنا هذا، و نحب أن نذكر أمر الكسوة التي تنسب إلى الشريف الحسين بن علي أمير مكة المشرفة و ملك الحجاز الأسبق رحمه الله تعالى لما في ذلك من الطرافة التاريخية فنقول و بالله التوفيق:

جاء في كتاب "تاريخ الكعبة المعظمة" للمرحوم الشيخ حسين عبد الله باسلامة المتوفى سنة (١٣٥٦) هجرية بصحيفة (٢٨٨) عن ذلك ما نصه:

و أما ما كان من أمر كسوة الكعبة المعظمة أثناء الحرب العامة فإليك تفصيل ذلك:

فلما وقعت الحرب العامة في يوم ٨ رمضان سنة ١٣٣٢ هـ اثنين و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة الموافق لسنة أربع عشرة و تسعمائة و ألف ميلادية،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٦٧

جاءت كسوة الكعبة من مصر على حسب العادة في نهاية السنة المذكورة و ألبست الكعبة بها، ثم لما دخلت الحكومة العثمانية في الحرب العالمية و انضمت مع حزب ألمانيا و النمسا ضد الإنكليز و حلفائها عملت كسوة للكعبة المعظمة ظنا منها أن الحكومة الإنكليزية ستمنع الحكومة المصرية من إرسال كسوة الكعبة بناء على إعلانها وضع الحماية على مصر و كانت الكسوة التي عملتها في غاية الجمال و المتانة و الظرف و الإتقان مع عموم لوازمها و توابعها المزركشة بالأسلاك الفضية المموهة بالذهب و أرسلتها في السكة الحديدية برا من الآستانة إلى المدينة المنورة، غير أن الحكومة المصرية لم تمنع إرسال الكسوة المعتادة بل أنها أرسلتها في

عام (١٣٣٣) ثلاث و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف هجرية و وضعت على الحزام اسم السلطان حسين كامل سلطان مصر مضافا إلى اسم السلطان محمد رشاد خان سلطان تركيا العثمانى، فاتفق أمير مكة المكرمة فى ذلك العصر الشريف الحسين بن على مع والى الحجاز و قومندانة من قبل الحكومة العثمانية غالب باشا على إخراج تلك القطعة التى عليها اسم سلطان مصر، و وضع القطعة القديمة التى عليها اسم السلطان محمد رشاد خان فقط، فقام آل الشيبى بذلك العمل، و بقيت تلك الكسوة التى أرسلت من الآستانة بالمدينة المنورة إلى سنة (١٣٤١) ألف و ثلاثمائة و إحدى و أربعين هجرية.

فلما أعلن أمير مكة الشريف الحسين بن على بن محمد بن عبد المعين بن عون الثورة على الحكومة التركية، باسم استقلال البلاد العربية و فصلها عن حكم الحكومة التركية فى فجر يوم السبت الموافق ٩ من شهر شعبان سنة ١٣٣٤ هـ أربع و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف، الموافق ٤ يوليه سنة ١٩١٤ سنة أربع عشرة و تسعمائة و ألف ميلادية، أرسلت الحكومة المصرية كسوة الكعبة المعظمة حسب المعتاد و استمرت فى إرسالها إلى سنة ١٣٤٠ هـ أربعين و ثلاثمائة و ألف، ثم وقع خلاف بين الحكومة المصرية و بين الشريف الحسين ملك الحجاز سنة ١٣٤١ هـ إحدى و أربعين و ثلاثمائة و ألف، و ذلك لما وصل المحمل المصرى فى باخرة خاصة إلى جدة يصحب معه كسوة الكعبة، و حنطة الجراية و حرس المحمل، و بعثه طبيئة، منع الشريف الحسين دخول البعثة الطبيئة إلى مكة المكرمة فوقع الخلاف و رجع المحمل من ثغر جدة فى مركبه بكل ما معه من حنطة الجراية و كسوة الكعبة و غير ذلك من الضرور و المرتبات و الصدقات، و ذلك فى آخر شهر ذى القعدة من السنة المذكورة، فلما رأى ذلك الشريف الحسين أبرق إلى المدينة المنورة و أمر أميرها بأن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٦٨

يرسل كسوة الكعبة التى أودعتها الحكومة التركية بها إلى ثغر (رابغ) على الفور ثم أرسل إحدى بواخره التى بجدة المسماة (رشدى) إلى ثغر رابغ لنقل الكسوة من رابغ إلى جدة، و فعلا نقلت الكسوة من المدينة إلى رابغ و منها إلى جدة بغاية السرعة، ثم نقلت من جدة إلى مكة و وصلت فى اليوم الذى تكسى فيه الكعبة المعظمة، و هو اليوم العاشر من شهر ذى الحجة سنة ١٣٤١ هـ إحدى و أربعين و ثلاثمائة و ألف، و كسيت بها الكعبة.

و قد حدث من ذلك ضجة عظيمة فى مصر خصوصا فى الصحافة المصرية و صاروا فى حيرة من جراء إحضار تلك الكسوة بتلك السرعة المدهشة لكونهم لم يعلموا أنها كانت حاضرة بالمدينة المنورة منذ بضع سنين، حتى أن بعض الجرائد المصرية ذكرت: بأنها بحثت فى عموم أساطل البحر الأحمر عن معامل تصنع كسوة الكعبة فى ظرف عشرة أيام، يعنى من يوم رجوع المحمل مع الكسوة من ثغر جدة إلى يوم حضور الكسوة من رابغ إلى جدة، فلم يجد فيما هو أعظم من ثغر رابغ معمل يستطيع صنع ذلك بل و لا معامل أوربا لم يكن فى استطاعتها أن تعمل كسوة للكعبة على حسب المعتاد فى مدة عشرة أيام، و إنما هو عمل مدبر، و سبب ذلك أن مكاتب روتر بجدة أبرق بأنه وردت كسوة الكعبة إلى جدة من ثغر رابغ.

ثم بعد ذلك عمل الشريف الحسين كسوة الكعبة من (القيلان) نسجت فى العراق احتياطا لما عساه إذا أتت سنة ١٣٤٢ هـ اثنتين و أربعين و ثلاثمائة و ألف، و لم يحل الخلاف الواقع بينه و بين الحكومة المصرية و امتنعت الحكومة المصرية من إرسال كسوة الكعبة أن يكسوها بها. فلما أتى موعد مجيء الكسوة من مصر فى ذلك العام، جاءت الكسوة كالعادة و كسيت بها الكعبة المعظمة و بقيت الكسوة القيلان محفوظة. فلما كان عام ١٣٤٣ هـ ثلاث و أربعين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة استولى جلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود على مكة المكرمة، و بسبب الحرب الذى وقع بينه و بين الشريف الحسين أولا، ثم بعد تنازل الشريف الحسين عن الملك لابنه الملك على وقعت معه ثانيا، و استمرت إلى منتصف جمادى الآخرة من عام ١٣٤٤ هـ أربعين و أربعين و ثلاثمائة و ألف، امتنعت الحكومة المصرية فى أثناء ذلك عن إرسال كسوة الكعبة العائدة لعام ١٣٤٣ هـ ثلاث و أربعين و ثلاثمائة و ألف، فكساها جلاله الملك عبد العزيز ذلك العام

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٦٩

بالكسوة (القيلان) التي عملها الشريف الحسين بالعراق المتقدم ذكرها. انتهى كل ذلك من تاريخ "تاريخ الكعبة المعظمة".
و يقول الغازي بصحيفة ٣٧٤ من الجزء الثالث من تاريخه: و في صباح يوم عيد الأضحى من عام (١٣٤٣) ثلاث و أربعين و ثلاثمائة و ألف، كسيت الكعبة الشريفه كسوة جديدة من صنع الأحساء في الديار النجدية. انتهى.

فلما كان عام (١٣٤٤) من الهجرة و انتهت الحرب بانسحاب الملك علي بن الحسين من الحجاز و ذلك في يوم الأحد ٤ جمادى الثاني سنة (١٣٤٤) من الهجرة الموافق ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ميلادية، و استتب أمر الحجاز لجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل السعود، أرسلت الحكومة المصرية كسوة الكعبة المعظمة مع المحمل و ما يتبعه من جند و غير ذلك فكسيت بها الكعبة في ذلك العام ثم في موسم ذلك العام وقعت حادثة المحمل بمنى و لطف الله سبحانه و تعالى بحجاج بيته المعظم من شر تلك الحادثة بفضل ما استعمله جلالة الملك عبد العزيز آل سعود من الحكمة و المخاطرة بنفسه في تلك الليلة التي هي ليلة الموقف بعرفة ٩ ذى الحجة سنة (١٣٤٤) هجرية، و كان حجاج بيت الله تعالى مكتظين بين منى و عرفات و كانت مقذوفات حرس المحمل من مدافع و رشاشات و بنادق تمطر نيرانها هنا و هناك، و الحمد لله على لطفه في تلك الليلة.

فلما كان عام (١٣٤٥) من الهجرة و حان وقت مجيء الكسوة من مصر منعت الحكومة المصرية إرسال الكسوة المعتادة للكعبة المعظمة مع عموم العوائد مثل الحنطة و الصرور و ما شاكل ذلك التي هي من أوقاف أصحاب الخير على أهل الحرمين منذ مئات السنين و لم تملك منها الحكومة المصرية شيئاً سوى النظارة عليها بسبب أنها الحاكمة على البلاد. و لم تشعر الحكومة السعودية بذلك إلا في غرة ذى الحجة من السنة المذكورة، فصدرت إرادة جلالة الملك عبد العزيز المعظم بعمل كسوة للكعبة بغاية السرعة، فقام رجال العمل ممن تخصصوا لهذا الأمر و في مقدمتهم وزير المالية الشيخ عبد الله السلیمان الحمدان و عملوا كسوة من الجوخ الأسود الفاخر مبطنه بالقلع القوى و عمل حزام الكعبة بآلة التطريز و كتبت الآيات عليه بالقصب الفضى المموه بالذهب الوهاج مع ستارة الباب "البرقع" و لم يأت اليوم الموعد لكسوة الكعبة و هو يوم النحر عاشر ذى الحجة من عام ١٣٤٥

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٧٠

خمس و أربعين و ثلاثمائة و ألف إلا- و الكعبة المعظمة لاسبء تلك الكسوة التي عملت في بضعة أيام. انتهى كل ذلك من تاريخ الكعبة المعظمة.

جدول بيان الأيام التي كانت تكسى فيها الكعبة المعظمة

العصور/ الأيام

عصر الملك تبع الحميري و ما بعده/ تكسى الكعبة إذا تمزقت الكسوة الأولى سواء كانت من القماش أو الحصير أو الجلود.

عصر النبي صلى الله عليه و سلم و ما قبله/ تكسى يوم عاشوراء.

أيام بنى هاشم/ تكسى يوم التروية "ثامن ذى الحجة" و يعلق عليها الإزار يوم عاشوراء.

عصر ابن عمر/ تكسى يوم النحر "عاشر ذى الحجة".

عصر معاوية بن أبي سفيان/ تكسى يوم عاشوراء و في آخر رمضان.

عصر المأمون/ تكسى أول رجب و في ٢٧ رمضان، و في يوم التروية.

من بعد القرن السادس تقريباً إلى عصرنا الحاضر/ تكسى مرة واحدة و ذلك في صباح يوم النحر من كل عام إلى وقتنا هذا و هو سنة ألف و ثلاثمائة و سبعة و ثمانين هجرية و الله أعلم بما يكون عليه الحال في المستقبل.

جاء عن بنى هاشم المذكورين أعلاه في كتاب "معالم تاريخ الجزيرة العربية" ما يأتي:

و هناك عائلة ثالثة تدعى بالهواشم من الأشراف الحسينيين تداولوا حكم مكة وقتا طويلا مليئا بالفتن و الحروب إلى أن أزيلت دولة العبيديين من مصر على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٩٨ هـ ١١٧٤ م) فزالت باستيلاء صلاح الدين على الحجاز سيطرة الهواشم عن مكة و وليها أمير حسنى من فرع آخر. انتهى منه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٧١

خاتمة مسألة الكسوة

إلى هنا انتهينا من أمر كسوة الكعبة المعظمة، و هذا المبحث و إن طال، فإن الإنسان لا- يمل من قراءته و لا- يسأم من البحث في تفصيلاته، و لقد رأينا أن نختم مسألة الكسوة ببعض الفوائد التي تزيد في معلومات القارئ الكريم فنقول و بالله تعالى التوفيق: اعلم أن سبب وضع الكسوة على الكعبة الشريفة مرتين أو ثلاثا في العام في العصور الماضية هو أن القماش الذي تصنع منه الكسوة لم يكن من القوة و المتانة التامة بحيث يبقى عليها طول العام ثم بعد أن وقف على صنع الكسوة عشر قرى بمصر و بعد أن تقدمت صناعة النسيج و الأقمشة أتقنوا صنع الكسوة بحيث صارت من القوة و المتانة و الثخن ما يجعلها تمكث على الكعبة عاما واحدا بدون أن يحصل عليها التلف اللهم إلا ما تصل إليها أيدي الناس من أسفلها فقد يحصل فيه تمزيق لكثرة لمس الأيدي لها. و الله تعالى أعلم. و حاصل أمر الكسوة كما قال القلقشندى في كتابه صبح الأعشى أن الذي كسيت الكعبة الأنطاع، و حبرات اليمن و البرود و الكرار، و الأنماط و النمارق، و مطارف الخز الأخضر و الأصفر و الأكسية و شقاق الشعر و الوبر، و غير ذلك. انتهى منه.

انظر: صورة رقم ٩٩، الكعبة المعظمة و عليها كسوتها الجديدة

قال الشيخ حسين باسلامة في كتابه "تاريخ الكعبة المعظمة" بصحيفة ٢٦٠ ما نصه:

كسيت الكعبة في مبدء خلافة الناصر العباسى كسوة خضراء و لعلها كانت تكسى ذلك من قبل. و الله تعالى أعلم. و كسيت في زمنه أيضا كسوة سوداء فاستمرت فيما أحسب تكسى الديباج الأسود إلى الآن. انتهى كلامه. و قوله: إلى الآن أى: إلى عصرنا هذا الذى نحن فيه، لأن المذكور كان معاصرا لنا فقد توفى رحمه الله تعالى في ١٦ جمادى الثانية سنة (١٣٥٦) من الهجرة. و الذى يجب أن ننبه إليه الأذهان، إلى أن معرفة عدد المرات التي كسيت الكعبة المعظمة منذ الكسوة الأولى في العصور الغابرة إلى عامنا هذا أمر مستحيل،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٧٢

و لا يتعلق عدد كسوتها بعدد السنين التي مضت، فقد تكسى الكعبة أحيانا في السنة الواحدة مرتين أو ثلاثة كما مر بيانه. و لقد عدت كساوى الكعبة من سنة (٢٠٠) إلى سنة (٢٤٤) فيبلغ عددها (١٧٠) كسوة كما ذكره الإمام الأزرقى في تاريخ مكة، فإذا بلغت كسوتها مائة و سبعين كسوة في أربع و أربعين سنة فقط، فكم يبلغ عددها منذ أن كساها تبع الحميرى لأول مرة إلى عامنا هذا؟ الله أعلم بذلك فليتنبه القارئ الكريم إلى هذه النقطة الدقيقة و ليتنبه أيضا إلى أن كل ما تقدم من أمر كسوة الكعبة إنما هو لكسوتها الخارجية، و أما كسوة الكعبة الداخلية التي تكسى من جوفها، فسيأتى الكلام عنها في مبحث خاص إن شاء الله تعالى. إلى هنا انتهينا من تاريخ كسوة الكعبة المعظمة و لله الحمد.

و قد طال هذا المبحث لكن ماذا نعمل فالحال يقتضى ذلك، و كل مسألة من أمر الكسوة مهمة يلزم معرفتها على الوجه الصحيح.

و لنبدأ الآن فيما يتعلق بأمر الكسوة من ناحية أخرى كالاحتفالات التي كانت تعمل عند وصولها فنقول و بالله التوفيق:

الظاهر بيبرس ملك مصر هو الذى أمر لأول مرة أن يطوفوا بالمحمل و بكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة، و ذلك سنة (٦٧٥) ستمائة و

خمس و سبعين هجرية و كان يوما مشهودا ثم استمر الحال على ذلك إلى يومنا هذا. وهو الذى جعل القضاة أربعة من كل مذهب قاض و لم يعهد ذلك قبله، و هو الذى أمر بإراقة الخمر، و إبطال المفسدات، و إسقاط المكوس، و كانت له صدقات كثيرة، و كان يرتب فى أول رمضان مطابخ لأنواع الأطعمة للفقراء و المساكين، و قد بنى بالقاهرة بالجمالية بقرب باب النصر مسجده العظيم المبارك المعروف باسمه "جامع بيبرس" و له أعمال جليلة و ذكر حسن.

وصف ابن جبير كسوة الكعبة و عدد قطعها

يقول ابن جبير الأندلسى رحمه الله تعالى فى رحلته التى كانت سنة (٥٧٨) ثمان و سبعين و خمسمائة هجرية حينما وصل إلى مكة فى السنة المذكورة عن الكسوة و عدد قطعها ما يأتى:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٧٣

و كسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر حسبما ذكرناه و هى أربع و ثلاثون شقة، فى الصفح الذى بين الركن اليمانى و الشامى منها تسع، و فى الصفح الذى يقابله بين الركن الأسود و العراق تسع أيضا، و فى الصفح الذى بين العراقى و الشامى ثمان، و فى الصفح بين اليمانى و الأسود ثمان أيضا، و قد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الأربعة جوانب و قد أحاط بها من أسفلها تكيف مبنى بالجص فى ارتفاعه أزيد من شبر و فى سعته شبران أو أزيد قليلا فى داخله خشب غير ظاهر و قد سمرت فيه أوتاد حديد فى رؤوسها حلقات حديد ظاهرة و قد أدخل فيها مرس من القنب غليظ مفتول و استدار بالجوانب الأربعة بعد أن وضع فى أذيال مسطور حجر السراويلات و أدخل فيها ذلك المرس و خيط عليه بخيوط من القطن المفتولة الوثيقة و مجتمع السطور فى الأركان الأربعة مخيط إلى أزيد من قامه ثم منها إلى أعلاها تتصل بعرى من حديد تدخل بعضها فى بعض و استدار أيضا بأعلاها على جوانب السطح تكيف ثان وقعت فيه أعالي الستور فى حلقات حديد على تلك الصفة المذكورة فجاءت الكسوة المباركة مخيطة الأعلى و الأسفل وثيقة الأزرار لا تخلع إلا من عام إلى عام عند تجديدها فسبحان من خلد لها الشرف إلى يوم القيامة لا إله سواه. انتهى من رحلة ابن جبير.

و يقول ابن جبير أيضا فى مكان آخر من رحلته ما يأتى:

و فى يوم النحر المذكور سبقت كسوة الكعبة المقدسة من محلته الأمير العراقى إلى مكة على أربعة جمال تقدمها القاضى الجديد بكسوة الخليفة السوادية و الرايات على رأسه و الطبول تهر وراءه و ابن عم الشيبى محمد بن إسماعيل معها لأنه ذكر أن أمر الخليفة نفذ بعزله عن حجاب البيت لهنات اشتهرت عنه و الله يطهر المكرم بمن يرضى من خدامه بمنه و هذا ابن العم المذكور هو أشبه طريقة منه و أمثل حالا و قد تقدم ذكر ذلك فى العزلة الأولى فوضعت الكسوة فى السطح المكرم أعلى الكعبة فلما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور اشتغل الشيبون بإسبالها خضراء يانعاً يقيد الأبصار حسنا فى أعلاها رسم أحمر واسع مكتوب فيه فى الصفح الموجه إلى المقام الكريم حيث الباب المكرم و هو وجهها المبارك بعد البسملة **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ... الآية** و فى سائر الصفحات اسم الخليفة و الدعاء له و تحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صغار بيض فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن و ذكر الخليفة أيضا فكملت كسوتها و شمرت

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٧٤

أذيالها الكريمة صونا لها من أيدى الأعاجم و شدة اجتذابها و قوة تهافتها عليها و انكبابها فلاح للناظرين منها أجمل منظر كأنها عروس جليت فى السندس الأخضر أمتع الله بالنظر إليها كل مشتاق إلى لقائها حريص على المثل بفنائها بمنه. انتهى من رحلة ابن جبير.

يقول ابن جبير الأندلسى رحمه الله تعالى فى رحلته التى كانت سنة (٥٧٨) ثمان و سبعين و خمسمائة هجرية يصف كسوة الكعبة حينما وصل إلى مكة فى السنة المذكورة ما يأتى:

و ظاهر الكعبة كلها من الأربعة الجوانب مكسو بستور من الحرير الأخضر و سداها قطن و فى أعلاها رسم بالحرير الأخضر فيها مكتوب: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِنَكَّةَ ... الآية** و اسم الإمام الناصر لدين الله فى سعتة قدر ثلاثة أذرع يطيف بها كلها قد شكل فى هذه السطور من الصنعة الغريبة التى ببصرة أشكال محاريب راتقة و رسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى و بالدعاء للناصر العباس المذكور الأمر بإقامتها و كل ذلك لا يخالف لونها و عدد السطور من الجوانب الأربعة أربعة و ثلاثون سطرا و فى الصفحين الكبيرين منها ثمانية عشر و فى الصفحين الصغيرين ستة عشر و له خمسة مضاfer و عليها زجاج عراقى بديع النقش أحدها فى وسط السقف و مع كل ركن مضوى و الواحد منها لا يظهر لأنه تحت القبو المذكور بعد و بين الأعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاثة عشر و إحداها من ذهب و أول ما يلقى الداخل على الباب عن يساره الركن الذى خارجه الحجر الأسود و فيه صندوقان فيهما مصاحف و قد علاهما فى الركن بويبان من فضة كأنهما طاقان ملصقان بزواية الركن و بينهما و بين الأرض أزيد من قامة و فى الركن الذى يليه، و هو اليمانى كذلك لكنهما انقلعا و بقى العود الذى كانا ملصقين عليه و فى الركن الشامى كذلك و هما باقيان و فى جهة الركن العراقى كذلك و عن يمينه الركن العراقى و فيه باب يسمى باب الرحمة يصعد منه إلى سطح البيت المكرم و قد قام له قبو فهو متصل بأعلى سطح البيت داخله الأدرج و فى أوله البيت المحتوى على المقام الكريم فنجد للبيت العتيق بسبب هذا القبو خمسة أركان و فى سعة صفحية قامتان و هو محتوى على الركن العراقى بنصفين من كل سطح و ثلثا قنأ هذا القبو مكسوان بسرقة الحرير الملون كأنه قد لف فيه ثم وضع، و هذا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٧٥

المقام الكريم الذى داخل هذا القبو هو مقام إبراهيم صلى الله على نبينا و عليه و سلم. انتهى من رحلة ابن جبير.

وصف صاحب كتاب "المحمل و الحج" كسوة الكعبة المشرفة

قال صاحب كتاب المحمل و الحج المتوفى سنة (١٣٦٢) اثنين و ستين و ثلاثمائة و ألف هجرية فى كتابه ما نصه: هى ثمان ستائر من الحرير الأسود المكتوب بالنسيج فى كل مكان منه "لا إله إلا الله محمد رسول الله" دالات بعضها فى قلب بعض. و طول الستارة منها ١٥ مترا، و كل ستارتين تعلقان على جهة من جهات الكعبة، فتربطان من أعلاهما فى حلقات من الحديد، ثبتت فى سقف الكعبة ثم تربطان إلى بعضهما بواسطة عرى و أزرة، و تثبتان من أسفل فى حلقات وضعت فى الشاذروان، و هكذا كلما وضعت ستارة تثبت فى التى بجوارها بواسطة هذه الأزرة حتى إذا انتهت كلها صارت كالقميص المربع الأسود. ثم يوضع على محيط البيت المعظم، فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الأعلى حزام يسمى "رنكا" مركب من ثمانى قطع مصنوعة من المخيش المذهب، مكتوب فيها بالخط الثلث العربى الجميل آيات قرآنية كتبها مع غيرها من أعمال الكسوة الشريفة المرحوم "عبد الله بك زهدى" فى زمن المرحوم "إسماعيل باشا" الخديوى جد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك "فاروق الأول" حفظه الله. انتهى منه.

ثم ذكر صاحب الكتاب المذكور جميع الآيات القرآنية المكتوبة على الكسوة فى جميع جهات الكعبة.

الاحتفال بوصول كسوة الكعبة من الآستانة إلى مصر القاهرة

قال صاحب كتاب المحمل و الحج نقلا عن الجبرتى فى الجزء الثالث ما نصه: و فى شهر جمادى الثانية من سنة (١٢١٦) ست عشرة و مائتين و ألف وصلت كسوة الكعبة من الآستانة إلى مصر فنادوا بمرورها، فركب الأعيان و المشايخ و الأثاير و عثمان كتحدا أمير الحج، و جميع الجاويشية و العساكر، و القاضى و نقيب الأشراف، و أعيان الفقهاء و ذهبوا إلى بولاق، و أحضروها و هم أمامها، و فردوا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٧٦

قطع الحزام المصنوعه من المخيش ثلاث قطع و الخمسة مطوية، و كذلك البرقع، و مقام الخليل، كل ذلك مصنوع بالمخيش العال، و الكتابة غليظة مجوفة متقنة، و باقى الكسوة فى سحاحير على الجمال و عليها أعطية جوخ أخضر.

ففرح الناس بها و كان يوما مشهودا. و قد استغرقت صناعتها بالقسطنطينية زهاء ٣٠ يوما و قد وصلت من الآستانة إلى اسكندرية فى ١١ يوم فقط. انتهى من الكتاب المذكور.

وصف صاحب كتاب (المحمل و الحج) للاحتفال بمرور الكسوة فى شوارع القاهرة

قال صاحب كتاب المحمل و الحج نقلا عن الجبرتي ما نصه: و فى ٨ من شوال سنة (١٢١٣) ثلاث عشرة و مائتين و ألف نودى فى الأسواق بموكب كسوة الكعبة المشرفة من قرا ميدان، و التنبيه باجتماع الوجاقات و أرباب الأثاير و خلافهم على العادة فى عمل الموكب، فلما أصبح يوم السبت اجتمع الناس فى الأسواق و طريق المرور و جلسوا للفرجة، فمروا بذلك و أمامها الوالى و المحتسب و عليهم القفاطين و البيئات و جميع الأثاير بطولهم و زموهم و كاساتهم ثم برطلمين كتخدا، و أمامه نفر لينكجريه من المسلمين نحو ٢٠٠ أو أكثر و عدة كثير من نصارى الأروام بالأسلحة و الملازمين بالبراقع و هو لابس فروة عظيمة ثم مواكب القلقان، ثم موكب ناظر الكسوة و هو تابع مصطفى كتخدا الباشا و خلفه النوبة التركية. فكانت هذه الركبة من أغرب المواكب و أعجب العجائب لما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال، و تنوع الأمثال و اجتماع الملل، و ارتفاع السفل، و كثرة الحشرات، و عجائب المخلوقات و اجتماع الأضداد، و مخالفة الوضع المعتاد. انتهى من الكتاب المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٧٧

وصف صاحب كتاب (مرآة الحرمين) للاحتفال بالكسوة فى شوارع القاهرة

جاء فى مرآة الحرمين وصف الاحتفال بمصر عند نقل كسوة الكعبة المعظمة من مصنعها بالخرنفش إلى ميدان القلعة فمسجد سيدنا الحسين، و نحن نأتى به هنا للذكرى التاريخية- فقد جاء فيه ما نصه:

فى شهر ذى القعدة من كل سنة كانت تنفق نظارة الداخلية مع نظارة المالية على اليوم الذى يحتفل فيه بنقل الكسوة من ميدان محمد على بعد أن تنقل إليه من مصنعها بالخرنفش إلى المسجد الحسينى و يصدق الخديوى على ذلك اليوم و يصدر الأمر من رئيس مجلس النظار بتعطيل مصالح الحكومة و دواوينها فيه و ينشر ذلك بالجريدة الرسمية و تتناقله الجرائد و تخبر نظارة الداخلية نظارة الحربىة و محافظة العاصمة بذلك ليكون الضباط و الجند و رجال الشرطة على استعداد تام للاحتفال بالكسوة فى ذلك اليوم، و ترسل المحافظة إلى العلماء و الأعيان و كبار التجار تذاكر الدعوة لحضور الاحتفال الذى يكون فى الغالب من الساعة التاسعة صباحا إفرنجى. و فى سنة (١٣٢٢) اثنتين و عشرين و ثلاثمائة و ألف، تأخر إلى الساعة العاشرة لرغبة سمو الخديوى فى ذلك، و قبل أن يحين الموعد بساعة يصطف الجنود بميدان القلعة تجاه المصطبة التى هنالك حاملين أسلحتهم و يتوافد المدعوون و يستقبلهم هنالك وكيل المحافظة و مندوبوها و يجلسون كل فى مجلسه فالعلماء فى الميمنة و خلفهم الأعيان و التجار و المندوب العثمانى و حضرات النظار و الأمراء "البرنسات" و كبار الموظفين بالديوان الخديوى وقتئذ و فى الميسرة خلفهم كبار العسكريين و الملكيين و الكل مرتد لباس التشريفه الكبرى "يتركب من بنطلون" أسود ذى شريط مقصب و ستره سوداء موشاة بالقصب و سيف له علاقة و حزام قصبى و قفاز أبيض و فى الصدر الأوسمة "النياشين" المختلفة هذا لباس الملكيين أما العسكريون فيلبسون لباسهم المعروف و فى الساعة المحددة يحضر سمو الخديوى فى عربته يجرها أربعة جياذ على يساره رئيس النظار و أمامه اثنان من أقدم النظار و خلف عربته عربات نقل مأمورية الياوران و كبار رجال المعية و يحيط به فرسان الحرس الذين يبلغون (١٤٨).

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٧٨

معظمهم عسكر و قليل منهم صف ضباط و بينهم أربعة ضباط واحد منهم عن يمين العرب و آخر عن يسارها و ثالث أمامها يتقدمه " جاويز " فقسم من الحرس و رابع خلف العرب يقود القسم الأ-كبر من الحرس و حينما ينزل سمو الخديوى من العرب تحييه القوة العسكرية و يطلق رجال المدفعية- الطوبجية- ٢١ مدفعا و تصدح الموسيقى بالسلام المعتاد و الخديوى متجه نحو العسكر يحيط به النظارة و رجال المعية رافعا يديه بالتحية ثم يجلس وسط مكان الاستقبال و يحيى الحاضرين و بعد دقائق يأخذ مأمور تشغيل الكسوة بزمام الجمل الذى عليه المحمل و يدور به ثلاث دورات ثم يتجه إلى مكان الاستقبال فيقوم سمو الخديوى من مجلسه و ينزل إلى السلم الأول من المصطبة و الناس محتشدون حوله و إذ ذاك يتقدم إليه مأمور الكسوة بكيس مفتاح الكعبة و قد بسطه على كفيه فيتناوله سموه و يقبله و يتلوه فضيلة قاضى مصر و إذ ذاك يدعو الشيخ السنباطى دعاء المحمل و مقدم هدايا الكسى إلى أربابها دعوات خيريه و جيزة ثم يسير المأمور بعض خطوات و الكيس على يديه ثم يعتلى جواده و يسير من خلفه المحمل على جملة فكسوة الكعبة و كسوة مقام سيدنا إبراهيم الخليل قد بسطت كل قطعة منهما على أنصاف دوائر حديدية ركبت فى قائمين من الخشب يحمل كل قائمين جملة من الخفراء و يمرون بين يدى الخديوى و يذهبون بها إلى المسجد الحسينى مخترقين شارع محمد على فوق السلاح فالدرب الأحمر فباب زويلة المعروف ببوابه المتولى فالغورية فالسكة الجديدة و يصاحب الكسوة "أورطه" من الرجال ليحفظوا النظام و يمنعوا الناس من التزاحم عليها مع رجال الشرطة الذين ينتشرون فى طول الطريق و لا تبرح (الأورطه) مكانها أمام المسجد الحسينى حتى تدخل الكسوة جميعها إليه. و بعد أن تمر الكسوة بين يدى الخديوى بميدان محمد على يستعرض سعادة "السردار" أو نائبه الجيش و يمر من أمام سموه الفرسان فالمدفعية فالرجال فالقسم الطبى و بعد المرور يثنى على الجيش و نظامه و يؤمر بتبليغ ذلك إلى الضباط و العساكر ثم يصافح "السردار" و قاضى مصر و أكابر الحاضرين ثم يركب عربته إلى قصر عابدين مارا بالصليبة فالخضيري فميدان السيدة زينب فشارع الدواوين فشارع الشيخ عبد الله و عند تحرك العرب يضر ب ٢١ مدفعا تحية و إيذانا بانتهاء الحفلة و إذ ذاك ينصرف الحضور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٧٩

و يحضر هذا الاحتفال أمير الحج و أمين الصرة مشاهدين فقط و يتوجهان بعد الاحتفال إلى المسجد الحسينى ليستقبلا الكسوة هنالك و بعد أن تدخل يزوران قبر الحسين، معهما السدنة و رئيسهم ثم يشربان القهوة فى حجرة الرئيس و ينصرفان. الكسوة بالمسجد الحسينى: تبقى الكسوة بالمسجد حوالى نصف شهر فى خلاله يخاط بعض قطعها ببعضها لأنها تصنع قطعاً كثيرة و يحضر كثير من سكان القاهرة ليتبركوا بها و يرى نفسه سعيداً من يخطط جزءاً منها و يتسابق الناس فى تقديم النذور و العطايا إلى المنوطين بخياطتها و قد سمعت أنه لا يسمح لبعض المتبركين بمس الكسوة إلا نظير جعل يدفعونه "كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها".

الإشهاد بتسليم الكسوة: فى شهر ذى القعدة يرسل ناظر المالية إلى قاضى مصر كتاباً رسمياً يطلب فيه إليه انتداب قاض و كاتبين لتحرير إشهاد بتسليم الكسوة فى وقت يعينه الناظر و كذلك يكتب ناظر المالية إلى الأمير و الأمين ليحضرا إلى المسجد الحسينى و يشهدا تحرير الإشهاد فى الموعد المضروب و ساعة اجتماعهم يكتب إشهاد بتسليم الكسوة إلى المحمل الذى يتسلمها بالفعل و توضع فى صناديق أعدت لذلك و من وقت أن يتسلمها تكون فى عهده إلى أن يسلمها بمكة إلى الشيخ الشيبى أمين مفتاح الكعبة و يأخذ منه صكاً بالتسليم. و قد قدمنا لك فى مبتدأ الرحلة الأولى صورة الإشهاد فى صحيفة ٦.

إشهاد تسليم الصرة: و بمثل هذه الطريقة يكتب إشهاد شرعى بتسليم الصرة إلى أمينها يحرر بحجرة ناظر المالية يحضره الأمير و الأمين و صراف الصرة و كاتبها الأول و اثنان من موظفى الوزارة.

إعداد قطر السكة الحديدية للمحمل و ركب و أمتعته:

إشارة

قبل السفر بمدة ترسل مصلحة السكة الحديدية إلى أمير الحج بواسطة الداخلية ليحدد ساعة يحضر فيها إلى المصلحة ليبين ما يلزمه من العربات و يحدد المواعيد التي تقوم فيها القطارات حتى يكون كل ذلك مهياً وقت السفر. و الذي يلزم المحمل و ركبه قطاران يوضع في إحداهما الأمتعة و الحيوانات و الخدم و يسافر في الأكثر عند تمام الساعة الثانية عشرة ليلا و يصل إلى السويس بعد (٩) ساعات. و يقل الثاني المحمل و موظفيه و الحجاج و يقوم عادة في مشرق الشمس أو قبل ذلك حسبما يسمح به نظام سير القطارات و يصل السويس في (٦) ساعات و ١٥ دقيقة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٨٠

و هذان القطاران يحضران إلى العباسية قبل السفر بيوم و يقفان بين الخمس السرايات، و تكنه رجال المدفعية الآن تكنه الفرسان الإنجليز و رجال مدفيعتهم، و كانت الأمتعة كلها توضع في القطارين من محطة العباسية و لكن وردت مكاتبه من جيش الاحتلال إلى محافظة مصر بأن الأهالي يحدثون ضوضاء و جلبه عند وضع الأمتعة بالقطارين و يتفوتون هنالك و طلبوا اختيار مكان آخر تشحن فيه القطارات فأجيبوا إلى ما رغبوا و صارت أمتعة الموظفين و الخدم السائرين و المحمل يشحن بها القطار في محطة مصر. أما أمتعة العسكر ففي العباسية ثم إن السكة الحديدية عملت بعد ذلك رصيفا أمام الثكنة- القشلاق- الحمراء، بالعباسية ينزل منه المحمل و ركبه من ملكيين و عسكريين فقطعت شكوى المحتلين و أراحت الناس.

الاحتفال بخروج المحمل و سفره:

يعين أمير الحج يوم الاحتفال بسفر المحمل و تصدق على ذلك المعية السنية و تخبر نظارة الداخلية نظارتي المالية و الحربية و المحافظة باليوم المعين ليستعد الشرطة و الجند كما سبق و في هذا اليوم تعطل مصالح الحكومة و دواوينها. و الشوارع التي يمر منها المحمل و الكسوة تكون حافلة بالمشاهدين و كذلك الشرفات و الرواش و ظهور المنازل و تسمع منهم الدعوات إلى الله أن يسهل لهم تأدية الحج و زيارة النبي صلى الله عليه و سلم. و قد جرت العادة أنه بعد تعيين أمير الحج و أمين الصرة تحتفل طوائف الضوئية، و العكّامية، و الفراشين و السقاين، و تحضر كل طائفة و معها رئيسها إلى منزل أمين الصرة بالحال التي سيأتي بيانها. انتهى كل ذلك من كتاب مرآة الحرمين. نقول: قوله هنا "بالحال سيأتي بيانها" لم نر نقل البيان الذي ذكره صاحب الكتاب المذكور بعد الكلام المتقدم خوفا من التطويل.

الاحتفال بدخول كسوة الكعبة إلى مكة المشرفة

ذكر الغازي في تاريخه نقلا- عن كتاب "الإتمام على أعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام" للشيخ حسن الشيباني ما نصه: أما احتفال كسوة الكعبة المعظمة فإنه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٨١

يجرى بمصر عند تمام شغل الكسوة فتنتقل أولا بالاحتفال من محل شغلها إلى جامع سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه ثم تنقل ثانيا بالاحتفال من الجامع المذكور إلى محل تبريز جيش المحمل المصري حين السفر إلى الحجاز.

و أما في مكة المكرمة: فما كانوا يجرّون لها احتفالا رسميا إلى سنة إعلان الدستور في الحكومة العثمانية و في سنة إعلان الدستور أمر خديوي مصر عباس حلمي باشا بأن يجرى لها احتفال رسمي عند دخولها في مكة المكرمة فمن سنتها عندما يدخل المحمل مكة المكرمة تدخل الكسوة معه باحتفال المحمل إلى أن تصل للتكية المصرية فيدخلونها هناك و يبقى المحمل في محله بعد أن يخلعوا

ثيابه الرسمية و الجيش يذهب إلى خيامه خارج البلد في حارة جروول و في اليوم الثاني من الصباح يأتي أمير الحج المصري و أمير الجيش و أمين الصرة المصرية و معهم جيوش المحمل خيالة و مشاة معهم الموسيقاة العسكرية و البلدية يصدحان إلى التكية المصرية و يأخذون ثوب الكعبة المشرفة و يحملونه بصناديقه المحترمة بالتكبير و التهليل و الاحترام و يصطف العساكر المشار إليهم خلفه و أمامه و كذا معهم من طرف الحكومة السنية طائفة من البوليس و الجاندرمة و الموسيقتان المذكورتان إلى أن يوصلوه إلى بيت صاحب المفتاح الشيبى شيخ السدنة فيقابلهم الفاتحون مع شيخهم و يتسلمونها منهم و يجلسون أمير الحج المصري و أمين الصرة المصرية و سائر مأمورى جيش المحمل المصرى بالألبسة الرسمية فى بيت مفتاح الكعبة المشرفة عند شيخ السدنة الفاتحين و يقدم لهم الشرايات ثم تتلى الدعوات الشريفة لمقام الخلافة العظمى ثم يقرأون الفاتحة و به تختم المراسم المعتادة. انتهى من تاريخ الغازى.

(الكسوة الداخلية للكعبة المشرفة)

بحمد الله تعالى قد استوفينا الكلام على الكسوة الخارجية للكعبة، و هذا مبحث خاص نعقده للكسوة الداخلية لها و هذه لا تكون إلا نادرا لذلك جعلناها فى مبحث مستقل، بخلاف الكسوة الخارجية فإنها تكون فى كل عام مرة، بل كانت فى حدود القرن الثانى و ما بعده من الإسلام توضع على الكعبة فى العام مرتين أو ثلاثة و سبب ذلك: أن الكسوة الخارجية معرضة للتلف السريع لخفة القماش فى تلك الأزمان و عدم متانته و ثخانتها، كما تؤثر فيه الشمس و المطر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٨٢

و الغبار و الهواء، فإن الكعبة المشرفة فى وسط المسجد الحرام تحت السماء لا يحجبها شىء و لا يقع ظل شىء عليها. أما الستارة الداخلية فهى محفوظة داخل الكعبة فى حرز مكين لا يصل إليها الغبار و لا التراب و لا المطر و لا الشمس، فهى إن ذابت و همدت فإنما ذلك من مفعول مرور الزمن عليها. لهذا لا تحتاج الكسوة الداخلية إلى استبدالها فى كل عام فتكسى بها الكعبة من الداخل كل عدة أعوام مرة لسبب من الأسباب، و قد كان كل سلطان من سلاطين آل عثمان رحمهم الله تعالى يأمر بالكسوة الداخلية للكعبة المشرفة فى عام توليه الملك و جلوسه على تخت السلطنة و كانت تحاك هذه الكسوة الداخلية فى استانبول منذ أمر بذلك السلطان أحمد خان بن السلطان محمد الرابع و ذلك سنة (١١١٨) ألف و مائة و ثمان عشرة إلى زمن السلطان عبد العزيز خان ابن السلطان محمود الثانى حيث انقطعت الدولة العثمانية عن إرسالها و بقيت داخل الكعبة الكسوة التى أرسلها السلطان عبد العزيز المذكور فى عام توليه الملك و هو عام (١٢٧٧) إلى سنة (١٣٦٣) ثلاث و ستين و ثلاثمائة و ألف هجرية، ثم رفعت هذه الكسوة البالية عند وضع الكسوة الداخلية التى أمر بعملها الملك عبد العزيز آل السعود رحمه الله تعالى و وضعها فى الكعبة فى السنة المذكورة. و لم نقف على سبب تأخر الأتراك عن إحضار الكسوة الداخلية للكعبة نحو مائة عام، مع أن بين هذا السلطان و بين خروج الحجاز من أيدي الأتراك سنة (١٣٣٤) نحو أربعة سلاطين أو خمسة و هذه الكسوة الداخلية التى أرسلها السلطان عبد العزيز المذكور كانت حمراء و لم نعلم عن سبب اختيارهم لهذا اللون، لكن المعقول أن يكون لون الكسوة الداخلية لونا مفرحا فاتحا لا غميقا قاتما لأن الكعبة لا نافذة فيها و لا فتحات غير الباب فيلزم أن تكون ستارتها الداخلية بلون يضىء داخلها نوعا ما كالأحمر الوردى و الأصفر الفاقع و البنفسج السماوى.

قال فى الرحلة الحجازية: يغطى سقف الكعبة و حوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردى عليها مربعات مكتوب فيها "الله جل جلاله" قد أهداها إليها السلطان عبد العزيز. اه.

قال الغازى فى تاريخه نقلا عن كتاب "الفتوحات الكوازية": كان وصول هذه الكسوة لمكة سنة ألف و مائتين و تسعين و بعدما كسيت هذه الكسوة أرسلوا الكسوة القديمة الداخلية إلى الآستانة. ثم قال الغازى: قال الشيخ عبد الله أفندى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٨٣

باشا أعيان زاده في رحلته المسماة "بافتوحات الكوازية في السياحة إلى الأراضي الحجازية: "بلغنا في منى يوم الأربعاء عاشر ذي الحجة سنة (١٢٩٠) تسعين و مائتين و ألف أن الكعبة المعظمة كسيت ظاهرا و باطنا و من المعلوم أن كسوتها الظاهرة في كل عام تجدد و أما الكسوة الداخلية فهي من عهد المرحوم السلطان الغازي عبد المجيد خان و قد جدها هذه السنة مولانا السلطان عبد العزيز خان، و في عصر يوم الخميس سلخ محرم ١٢٩١ وصلت في جدة الكسوة القديمة التي كانت داخل الكعبة في عهد المرحوم السلطان عبد المجيد خان فلما سمع بقدمها قائم مقام جدة الأفخم على بك لبس ثيابه الرسمية هو و قاضي جدة و كبار الضباط و المحافظين و المأمورين المخصوصين و جملة من العسكر و خطباء جدة و أئمتها و وجوهها و تجارها و معهم البيارق و الأعلام و الدفوف و صدحت الموسيقى و اصطفت العساكر صفوفًا فأدخلوها بغاية التبجيل و الاحترام و هم يتلون الصلاة على خير الأنام و القائم مقام الأفخم ماسك بيده زمام الجمل الحامل كسوة بيت الله الحرام حتى أدخلوها في الزورق و توجه القائم مقام معها و القاضي و جملة من المأمورين المعبرين فكانوا أربعة زوارق و مضوا بها إلى المركب الذي هو من مراكب النمسا يتوجهون بها لدار السلطنة السنية. انتهى من الغازي.

و لا يخفى على القارئ أن هذه الرواية فيها اختلاف ظاهر فهي تقول أن الكعبة كسيت ظاهرا و باطنا سنة ١٢٩٠ و ذلك بأمر السلطان عبد العزيز خان و التي كانت قبلها هي كسوة السلطان عبد المجيد خان، و نحن نقول الأصح ما روينا من أن السلطان عبد العزيز خان هو الذي أرسل الكسوة الداخلية للكعبة عام ١٢٧٧ و هو عام جلوسه على سرير الملك و تخت السلطنة و هي الكسوة الموجودة بداخل الكعبة إلى يومنا هذا، أما السلطان عبد المجيد خان فعلى حسب عادة السلاطين العثمانيين فقد أرسل الكسوة الداخلية عام توليه الملك سنة ١٢٥٥ فلما توفي تولى بعده السلطان عبد العزيز في العام المذكور. و الظاهر أن مؤلف الفتوحات الكوازية لم يستوثق مما بلغه.

و لإتمام هذا المبحث نقول: إن صاحب كتاب تاريخ الكعبة قال فيه عن الكسوة الداخلية ما خلاصته نقلا عن التقى الفاسي: أرسل السلطان حسن كسوة داخلية للكعبة في سنة (٧٦١) إحدى و ستين و سبعمائة قال: و بلغني أنه كان في جوف الكعبة قبلها كسوة للملك المظفر صاحب اليمن، و الملك المظفر أول من التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٨٤ كسى الكعبة من الملوك بعد انقضاء دولة بنى العباس من بغداد سنة (٦٥٩) و استمر يكسوها عدة سنين مع ملوك مصر و انفرد بكسوتها في بعض السنين و كان المتولى لذلك غالبا. انتهى.

و جاء في كتاب "المحمل و الحج" ما خلاصته: و في سنة ٨٢٦ جدد الأشرف "برسباي" الكسوة الحمراء داخل الكعبة الشريفة، و أزال الكسوة القديمة و كانت للناصر حسن بن محمد بن قلاوون. و في سنة ٨٤٨ وصل مع الركب المصري رسول سلطان العجم "شاه رخ مرزاي" بكسوة داخلية للكعبة فكسيت بها يوم عيد الأضحى.

و في سنة ٨٥٦ كسى الملك الظاهر "جقمق" الكعبة كسوة داخلية و أمر بإخراج ما في داخلها من كسوة الأشرف "برسباي" و كسوة سلطان العجم "شاه رخ مرزاي". انتهى ملخصا من الكتاب المذكور.

و في تاريخ مكة للسباعي بصحيفة ٢٣١ أن السلطان قايتباي كسا الكعبة من الداخل في عام (٨٨٣) من الهجرة. نقول: و بعد هذا التاريخ صار سلاطين آل عثمان رحمهم الله تعالى يرسل كل منهم كسوة داخلية للكعبة من الآستانة في أول جلوسه على تخت السلطنة و الملك كما ذكرنا ذلك في أول هذا الفصل.

ثم بعد زوال حكم آل عثمان الأتراك عن الحجاز و البلاد العربية سنة (١٣٣٤) هجرية، لم يرسل أحد من ملوك المسلمين كسوة داخلية للكعبة المشرفة.

انظر: صورة رقم ١٠٠، الكعبة من الداخل و عليها كسوتها الحمراء المهداة من السلطان عبد العزيز خان العثماني التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٨٥
 انتهى بعون الله تعالى الجزء الثالث و يتلوه الجزء الرابع، و أوله:
 الآيات المكتوبة على حزام الكعبة المشرفة
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٨٧

المحتويات

الموضوع / رقم الصفحة	
عمارات حجر إسماعيل / ٥	
الرخامة الخضراء التي بالحجر / ٨	
نقش أرضية حجر إسماعيل / ١١	
الكتابة التي في أعلى جدار الحجر / ١٣	
الحطيم و حجر إسماعيل و ما كتب عليه / ١٥	
بيان جبهة بيت المقدس / ١٦	
الرخامات الصفر التي على الشاذروان / ١٧	
البنائة الخامسة و السادسة: بناء جرهم و العمالقة الكعبة / ١٨	
الكعبة في عهد خزاعة / ١٩	
البنائة السابعة: بناء قصي بن كلاب الكعبة / ٢٠	
ترجمة قصي بن كلاب / ٢١	
البنائة الثامنة: بناء قريش الكعبة / ٢٤	
وضع رسول الله صلى الله عليه و سلم الحجر الأسود بيده في محلة الكعبة / ٣٣	
الخلاصة في كيفية بناء قريش / ٣٨	
مميزات بناء قريش / ٣٩	
ترجمة الوليد بن المغيرة المنزومي / ٤١	
ترجمة قريش / ٤٣	
ترجمة باقوم الرومي / ٤٤	
البنائة التاسعة: بناء عبد الله بن الزبير الكعبة / ٥٤	
حرب ابن الزبير رضى الله عنه / ٥٤	
حرب ابن الزبير و قتله / ٥٥	
الحرب بالمنجنيق / ٥٧	
الحرب بالدبابات / ٥٨	
بناء ابن الزبير الكعبة / ٥٨	
بكاء عبد الله بن عمرو بن العاص على احتراق الكعبة / ٦٣	

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٨٨

الموضوع/ رقم الصفحة

سبب بناء ابن الزبير الكعبة على قواعد إبراهيم/ ٧١

ما جاء فى صحيح مسلم عن بناء ابن الزبير و الحجاج الكعبة/ ٧٢

ابتداء هدم الكعبة و انتهاء بنائها فى عهد ابن الزبير/ ٧٤

باب الكعبة الغربى/ ٧٤

حكم استقبال القبلة عند هدم الكعبة المشرفة/ ٧٨

الخلاصة فى كيفية بناء ابن الزبير/ ٧٩

مميزات بناء ابن الزبير/ ٨١

أنين الكعبة من ضرب المنجنيق/ ٨٢

ترجمة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما/ ٩٣

اختلاف العلماء فى بعض المسائل الدينية/ ١٠٢

اختلاف الناس فى بعض الأمور الحيوية/ ١٠٥

الاختلاف فى استعمال السكة الحديدية/ ١٠٦

الاختلاف فى استعمال البخار فى الأسطول/ ١٠٦

الاختلاف فى استعمال التدفئة و أنابيب الماء و تشييد المنازل العالية/ ١٠٧

الاختلاف فى استعمال الشوكه و السكين فى الأكل/ ١٠٧

الاختلاف فى لبس البنطلونات/ ١٠٨

الاختلاف فى استعمال النظارات/ ١٠٨

الاختلاف فى استعمال أحواض الاغتسال/ ١٠٨

الاختلاف فى استعمال المطابع/ ١٠٩

الاختلاف فى أكل الملح و الموز و البطاطس و الطماطم/ ١٠٩

الاختلاف فى قبول البنات فى المدارس/ ١١٠

الاختلاف فى استعمال الكهرباء/ ١١٠

الاختلاف فى استعمال السيارات و العربات/ ١١٠

الاختلاف فى استعمال الشمسية/ ١١١

الاختلاف فى استعمال الصابون/ ١١١

الاختلاف فى بناء برج إيفل بباريس/ ١١٢

الاختلاف فى الانتقال من الأحياء القديمة/ ١١٢

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٨٩

الموضوع/ رقم الصفحة

الاختلاف فى تعليم البنات/ ١١٣

البنائة العاشرة: بناء الحجاج الثقفى الكعبة/ ١١٤

- سبب بناء الحجاج الكعبة / ١١٤
- الخلاصة في كيفية بناء الحجاج الثقفى / ١١٦
- ما كان من العمارة في الجدار الذى بناه الحجاج / ١١٧
- وجوب الطواف من وراء جدار الحجر / ١١٧
- مميزات بناء الحجاج / ١١٨
- ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفى / ١١٨
- حكاية الحجاج مع الأعرابى / ١٢١
- نقل الحجاج إلى العراق / ١٢١
- حكاية الحجاج مع الغضبان / ١٢٣
- البنائة الحادية عشرة: بناء السلطان مراد الرابع الكعبة / ١٢٦
- الخلاصة في كيفية بناء السلطان مراد الرابع / ١٢٦
- مميزات بناء السلطان مراد / ١٢٧
- التفصيلات الوافية عن بناء السلطان مراد الرابع للكعبة / ١٢٨
- حزام الكعبة الذى أرسله السلطان أحمد خان / ١٣١
- صورة الاستفتاء الذى قدمه رضوان آغا لعلماء مكة الأعلام / ١٣٥
- جواب الشيخ أحمد بن محمد آق شمس الدين المدرس الحنفى / ١٣٥
- جواب الشيخ خالد بن أحمد المالكى / ١٣٥
- جواب السيد زين العابدين بن عبد القادر الطبرى الشافعى / ١٣٦
- صورة الاستفتاء الذى قدمه رضوان آغا لعلماء مكة / ١٣٧
- جواب الشيخ خالد بن أحمد المالكى / ١٣٨ التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ؛ ج ٢-٣ ؛ ص ٥٨٩
- اب الشيخ عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى / ١٣٨
- جواب الشيخ أحمد بن محمد آق المدرس / ١٣٩
- جواب الشيخ عبد الله بن أبى بكر بن ظهيرة القرشى / ١٤٠
- عدد حجارات الكعبة الظاهرة في هذا البناء / ١٧٦
- قوة بناية السلطان مراد الرابع للكعبة / ١٧٨
- ترجمة السلطان مراد الرابع / ١٧٩
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٩٠
- الموضوع / رقم الصفحة
- بيان بأسماء السلاطين من آل عثمان الذين قاموا بتعمير الحرمين الشريفين / ١٨١
- رفع الراية على قلاع الحرمين / ١٨٢
- الزمن الذى بين بنايات الكعبة / ١٨٣
- الجبال التى أخذت منها الحجارة لبناء الكعبة / ١٨٤
- بقاء الكعبة إلى قيام الساعة / ١٨٧

- الحجارات الرخام المكتوبة داخل الكعبة/ ١٩٠
- الكتابة الموجودة على عقد باب الكعبة/ ١٩٥
- تحلية الكعبة/ ١٩٦
- الكراسى التى كانت موجودة فى الكعبة/ ٢٠١
- الكعبة المشرفة و هندستها/ ٢٠٣
- اختلاف بنايات الكعبة و تعميرها/ ٢٠٧
- صفة أشهر بنايات الكعبة المعظمة/ ٢١١
- كيفية بناء قريش/ ٢١٣
- كيفية بناء ابن الزبير/ ٢١٤
- كيفية بناء الحجاج الثقفى/ ٢١٦
- سبب بناء الحجاج الكعبة/ ٢١٧
- كيفية عمارة السلطان مراد الرابع/ ٢١٨
- منظومة فى صفة أشهر بنايات الكعبة/ ٢٢٢
- الحجر الأسود/ ٢٣٦
- أصل الحجر الأسود من الجنة/ ٢٣٨
- لون الحجر الأسود/ ٢٤٣
- علة تسمية الركن بالحجر الأسود/ ٢٤٦
- تقييل الأيدى عند استلام الركن/ ٢٤٦
- بقاء الحجر الأسود إلى يوم القيامة/ ٢٤٨
- الرد على من يقول بأن الحجر الأسود من النيازك/ ٢٤٩
- الزحام على تقييل الحجر الأسود/ ٢٥٣
- الترغيب فى استلام الركنين/ ٢٥٥
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٩١
- الموضوع/ رقم الصفحة
- ما يقال عند استلام الحجر الأسود/ ٢٥٧
- فضل الملتزم و الدعاء فيه/ ٢٦٠
- الحوادث التى مرت على الحجر الأسود/ ٢٦١
- الرد على من يقول أن القرامطة استبدلوا الحجر الأسود/ ٢٦٦
- أصل القرامطة و مذهبهم/ ٢٧٠
- المقالة فى أصل هذه الدعوة الملعونة و مبدئها/ ٢٨١
- وضع الأطواق على الحجر الأسود/ ٢٨٤
- تطويق الحجر الأسود بالذهب و الفضة/ ٢٨٦
- المحافظة التامة على قطع الحجر الأسود إن كسر منه شىء/ ٢٨٨

- شاذروان الكعبة/ ٢٨٨
- حكم الشاذروان بالنسبة للطواف / ٢٩٣
- عدد مرات بناء الشاذروان و إصلاحه / ٢٩٥
- مقاس الشاذروان و عدد حجارتة و عدد الحلقات به / ٢٩٦
- الرخامات الصفر التي بالشذروان / ٢٩٨
- منظومة السيوطى فى موافقات عمر رضى الله عنه / ٣٠٤
- ذرع ما بين مقام إبراهيم و بين الكعبة و ما حولها / ٣٠٥
- صفة المقام / ٣٠٦
- وصفنا لمقام إبراهيم / ٣٠٨
- موضع المقام / ٣١٣
- أرجح الأقوال فى موضع المقام / ٣١٥
- ما ورد فى كتاب شفاء الغرام عن موضع المقام فى الجاهلية و الإسلام / ٣١٧
- وضع المقام فى مكانه الحالى / ٣٢٢
- ترجمة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه / ٣٢٣
- فضل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه / ٣٢٦
- عمر بن الخطاب و بعض أعماله / ٣٢٨
- قتل عمر رضى الله عنه و ما قاله عند موته / ٣٢٩
- ترجمة المطلب بن أبى وداعة السهمى رضى الله تعالى عنه / ٣٣٢
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٩٢
- الموضوع / رقم الصفحة
- اهتمام عمر رضى الله عنه بأمر المقام / ٣٣٣
- ترجمة عبد الله بن السائب العابدى رضى الله عنه / ٣٣٧
- ذرع مقام إبراهيم / ٣٣٩
- الذهب الذى على مقام إبراهيم / ٣٤٠
- تطويق المقام بالذهب و الفضة / ٣٤٠
- ما ذكره إبراهيم رفعت باشا فى كتابه مرآة الحرمين عن مقام إبراهيم / ٣٤١
- الأحجار الأثرية المفروشة خلف مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام / ٣٤٤
- التحقيق التام عن موضع المقام / ٣٤٥
- كسوة المقام / ٣٥١
- الكسوة العراقية للكعبة / ٣٥٢
- وجوب صون المقام / ٣٥٣
- وضع المقام فى مقصورة / ٣٥٣
- فوائد وضع المقام فى مقصورة / ٣٥٦

- الرد على من يقول: أن المقام كان مدفونا/ ٣٥٧
- اقتراح المؤلف فى مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام/ ٣٥٨
- الأحجار الثلاثة التى صارت معجزة لرسول الله الثلاثة/ ٣٥٩
- أول تفكير فى تاريخ الإسلام لنقل مقام إبراهيم/ ٣٦٢
- وضع زجاج على مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام/ ٣٦٤
- تجديد مقصورة مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام/ ٣٦٧
- المصلّى الجديد بالمسجد الحرام/ ٣٧٩
- قدم أينا آدم عليه السلام/ ٣٨٠
- أقدام إدريس و عيسى عليهما الصلاة و السلام/ ٣٨٢
- تغيير سقف الكعبة و ترميمها فى العهد السعودى/ ٣٨٣
- خلاصة الأمر الملكى للإصلاح/ ٣٨٤
- الأخذ فى الأسباب لإصلاح الكعبة/ ٣٨٤
- فتح الكعبة لأخذ القياسات/ ٣٨٥
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٩٣
- الموضوع/ رقم الصفحة
- البدء فى تجديد السقف الأعلى للكعبة/ ٣٨٦
- استبدال المرابيع الخشبية التى بسطح الكعبة بالحديد/ ٣٩١
- وضع الرخام على سطح الكعبة/ ٣٩٣
- صب الرصاص بين رخام سطح الكعبة/ ٣٩٣
- وضع الرخام فى طنف السطح/ ٣٩٤
- إصلاح فتحة باب الدرج الذى بالسطح/ ٣٩٥
- تجديد السقف الثانى للكعبة مما يلى الأرض/ ٣٩٥
- دهن ما بين السقف بالبوية/ ٣٩٧
- تنقيط جدران الكعبة من الخارج/ ٣٩٧
- العمل فى داخل الكعبة و ترميمها/ ٣٩٩
- حضور جلالة الملك السابق سعود إلى الكعبة المشرفة/ ٤٠١
- إصلاح ميزاب الكعبة/ ٤٠٤
- إصلاح جانبى جدار باب الكعبة و عتبتها/ ٤٠٦
- إصلاح درج الكعبة التى فى داخلها/ ٤٠٦
- دهن أعمدة ابن الزبير التى بجوف الكعبة و وصفها/ ٤٠٧
- فرش أرض الكعبة بالرخام/ ٤٠٩
- الانتهاء التام من عمارة الكعبة/ ٤٠٩
- نقل ما فى حجر إسماعيل من الأحجار و الأتربة و الأخشاب/ ٤١٠

- أسماء المشرفين على العمل و حضورهم يومياً في الكعبة/ ٤١١
- العمال الذين اشتغلوا في عمارة الكعبة/ ٤١٢
- كلمة ختام/ ٤١٣
- الإذاعة تؤدي واجبها من فوق سطح الكعبة المشرفة/ ٤١٣
- الإذاعة السعودية تسأل مؤلف هذا الكتاب/ ٤١٤
- دعاء مؤلف هذا الكتاب المذاع من فوق سطح الكعبة/ ٤١٦
- بعض الآيات و التكميلات التي أذاعها مؤلف هذا الكتاب/ ٤٢١
- قراءة القرآن و الحديث في جوف الكعبة/ ٤٢٣
- مقاييس الكعبة المشرفة/ ٤٢٦
- قياسات الكعبة المعظمة/ ٤٢٧
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٩٤
- الموضوع/ رقم الصفحة
- مقدار الذراع و الميل و الفرسخ و نحوها/ ٤٣٨
- سبب تسمية الميل بالميل/ ٤٣٩
- ابتكارات الرسوم الأربعة للكعبة/ ٤٤٠
- شكل الكعبة من الخارج و الداخل/ ٤٤١
- وصف الكعبة و المسجد الحرام/ ٤٤٥
- قصيدة أمير الشعراء في البيت الحرام/ ٤٤٧
- موضع الحطيم/ ٤٤٨
- موضع خزانة الكعبة/ ٤٤٩
- أركان الكعبة المعظمة/ ٤٥١
- أركان الكعبة الأربعة/ ٤٥٣
- الحفرة التي عند باب الكعبة المشرفة/ ٤٥٤
- سد الحفرة و ردمها/ ٤٦٠
- الحجر المكتوب الذي في داخل الحفرة/ ٤٦١
- لماذا لم تكن الكعبة قطعة من الجوهر/ ٤٦٢
- تسمية البيت الحرام بالكعبة/ ٤٦٣
- الشمسيات التي كانت توضع على الكعبة/ ٤٦٣
- هدايا الكعبة و معاليقها و أموالها/ ٤٦٨
- ما علق من الصحائف في الكعبة/ ٤٧٧
- نص الكتاب الذي كتبه محمد بن أمير المؤمنين هارون الرشيد/ ٤٨٣
- نص الكتاب الذي كتبه عبد الله بن أمير المؤمنين هارون الرشيد/ ٤٨٦
- عقاب المعتدى على مال الكعبة/ ٤٨٨

- حكم التصرف في مال الكعبة/ ٤٩٠
- التعدى على أموال الكعبة و هداياها/ ٤٩٣
- فضل النظر إلى الكعبة/ ٤٩٧
- فضل الطواف بالبيت الحرام/ ٤٩٨
- هيبة الكعبة و ما يقال عند النظر إليها/ ٤٩٩
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٩٥
- الموضوع/ رقم الصفحة
- تعظيم الكعبة في الجاهلية/ ٥٠٠
- تطيب الكعبة/ ٥٠٨
- عدم خلو الكعبة من الطائفين/ ٥١١
- الطواف في الجاهلية/ ٥١٤
- الجلوس في الحجر و المطاف في الجاهلية/ ٥١٦
- استحباب الدخول في الكعبة/ ٥١٧
- فضل دخول الكعبة المعظمة/ ٥٢٠
- آداب دخول الكعبة/ ٥٢١
- الصلاة في داخل الكعبة/ ٥٢٥
- صلاة النبي صلى الله عليه و سلم في الكعبة/ ٥٢٧
- عدد دخول النبي صلى الله عليه و سلم الكعبة بعد الهجرة/ ٥٢٩
- منع بعض الناس عن دخول الكعبة/ ٥٣٢
- أخذ الأجرة على دخول الكعبة/ ٥٣٤
- المواضع التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم حول الكعبة/ ٥٣٥
- أول من أدار الصفوف حول الكعبة/ ٥٣٨
- مدة صلاة النبي صلى الله عليه و سلم إلى بيت المقدس/ ٥٤٠
- أمر الكسوة الخارجية للكعبة المعظمة/ ٥٤١
- القسم الأول: كسوة الكعبة في العصر الجاهلي/ ٥٤٢
- ترجمة تبع و هو أسعد الحميري/ ٥٤٣
- القسم الثاني: كسوة الكعبة في الإسلام/ ٥٤٩
- القسم الثالث: كسوة الكعبة في عصر بني أمية/ ٥٥١
- القسم الرابع: كسوة الكعبة في عصر العباسيين/ ٥٥٢
- القسم الخامس: كسوة الكعبة في عصر المماليك البحرية و الشراكسة/ ٥٥٨
- القسم السادس: كسوة الكعبة في عهد الدولة العثمانية/ ٥٦١
- كسوة الشريف الحسين بن علي/ ٥٦٦
- بيان الأيام التي كانت تكسى فيها الكعبة المعظمة/ ٥٧٠

خاتمة مسألة الكسوة / ٥٧١

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٣، ص: ٥٩٦

الموضوع / رقم الصفحة

وصف ابن جبير كسوة الكعبة و عدد قطعها / ٥٧٢

وصف صاحب كتاب "المحمل و الحج" كسوة الكعبة المشرفة / ٥٧٥

الاحتفال بوصول كسوة الكعبة من الآستانة إلى مصر القاهرة / ٥٧٥

وصف صاحب كتاب (المحمل و الحج) للاحتفال بمرور الكسوة في شوارع القاهرة / ٥٧٦

وصف صاحب كتاب (مرآة الحرمين) للاحتفال بالكسوة في شوارع القاهرة / ٥٧٧

الاحتفال بدخول كسوة الكعبة إلى مكة المشرفة / ٥٨٠

الكسوة الداخلية للكعبة المشرفة / ٥٨١

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥

[الجزء الرابع]

الآيات المكتوبة على حزام الكعبة المشرفة

نذكر هنا نوعين مما يكتب على حزام الكعبة المشرفة بخيوط من الذهب الخالص: فالنوع الأول ما كان يكتب قبل نصف قرن تقريباً، و النوع الثاني مما كتب في عصرنا أي في سنة (١٣٨٧) فالكتابة على حزام الكعبة المشرفة من النوع الأول قال عنه الغازي في تاريخه عند الكلام على كسوة الكعبة و الكتابة التي على حزامها ما نصه:

ثم يوضع على محيط البيت المعظم فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الأعلى حزام مركب من أربع قطع مصنوعة من المخيش المذهب (مكتوب فيه من الجهة الشرقية التي فيها باب الكعبة) بسم الله الرحمن الرحيم. وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُضِلًّا وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَارِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

(و مكتوب في الجهة التي تليها من جهة الحجر الأسود) بسم الله الرحمن الرحيم قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَإِذْ بَوَّأْنَا إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ.

(و مكتوب في الجهة المقابلة للمقام المالكي) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ.

(و مكتوب في الجهة الرابعة و هي التي بها الميزاب) في أيام دولة مولانا السلطان الأعظم ملك ملوك العرب و العجم السلطان محمد الخامس خان ابن السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان الغازي ابن السلطان عبد الحميد خان بن السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان ابن السلطان إبراهيم خان بن السلطان مراد خان بن السلطان عثمان خان خلد الله ملكه. انتهى من تاريخ الغازي.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦

و النوع الثاني، مما كتب (على الحزام) في عصرنا أى في سنة ١٣٨٧ هـ وهو ما يأتي:

من الجهة الشرقية التى فيها الباب: وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

وتحت هذا مكتوب فى سطر واحد فى وسط الثوب: تم صنع هذه الكسوة بالجمهورية العربية المتحدة فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر و أهديت إلى الكعبة المشرفة فى عهد خادم الحرمين الشريفين سعود بن عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية سنة ١٣٧٧ هـ.

و مكتوب من الجهة الشمالية فيما بين الركنين: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ.

و مكتوب على الحزام من الجهة الغربية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْوَأَسَّ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ.

و مكتوب عليه من الجهة الشمالية من جهة حجر إسماعيل:

وَ لِيُؤْفُوا نُدُورَهُمْ وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحِجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَ لَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَ مَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ. يَا حَنَانَ يَا مَنَانَ يَا دِيَانَ يَا سَبْحَانَ. بِسْمِ اللَّهِ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٧

الرحمن الرحيم وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى.

و اعلم بأنه قد جرت العادة ذكر اسم ملك مصر الذى أهديت الكسوة إلى الكعبة المشرفة فى عهده على ستارة الكعبة المشرفة فى الجهة الشرقية أى فوق بابها، و فى عصرنا الحاضر حيث تصنع كسوة الكعبة المشرفة بمكة المكرمة يكتب اسم ملك المملكة العربية السعودية على الكسوة.

انظر: صورة رقم ١٠١، جزء من حزام الكعبة المشرفة و تظهر فيه بعض الآيات القرآنية.

هذا و قد صنعت كسوة الكعبة المشرفة بمكة المكرمة لأول مرة فى سنة ١٣٤٦ هجرية و استمر صنعها بمكة بضع سنوات فلما تحسنت العلاقات بين المملكة العربية السعودية و الحكومة المصرية أقفل المصنع بمكة لتعهد الحكومة المصرية بإرسال الكسوة كالعادة المتبعة ثم حصل سوء التفاهم بين الحكومتين أيضا فانقطع إرسال الكسوة من قبل الحكومة المصرية و فتحت الحكومة السعودية مصنع الكسوة بمكة مرة ثانية فى سنة ١٣٨٢ هـ. و استمر ذلك إلى عامنا هذا أى سنة ١٣٨٧ هـ، و لقد نجح مصنع الكسوة بمكة بعناية و إخلاص سعادة السيد أحمد مجاهد و كيل وزارة الحج و الأوقاف. فلقد أبدى جهودا جبارة و عناية فائقة فى النهضة بهذا المصنع الفريد، زاده الله تعالى توفيقا و نجاحا آمين.

أصلح الله تعالى أحوال المسلمين و نصرهم على أعداء الدين آمين. و قد جاء فى تاريخ الحجاز للشيخ حسين محمد نصيف رحمه الله تعالى أن المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود لما أخذ الحجاز و دخل مكة فى عام (١٣٤٣ هـ) أمر بصنع كسوة الكعبة المشرفة فى أجياد و صنعت بها و أرسلت إلى مكة فكسيت بها الكعبة و ذلك لوجود الحصار و الحرب بينه و بين الشريف الحسين ملك

الحجاز الأسبق رحمهما الله تعالى، و عدم تمكن الحكومة المصرية من إرسال الكسوة تلك السنة.

كتابة أسماء الملوك في كسوة الكعبة

تقدم الكلام على أن أول من كسا الكعبة المشرفة أسعد الحميري وهو تبع، كساها الأنطاع و الوصائل من ثياب حبرة من عصب اليمن، ثم تبعه الناس في كسوتها في الجاهلية و الإسلام، فكانت تكسى بمختلف الأكسية كالحصير و الليف و الملاءة و الوصائل و الأنطاع و الحبرات و القباطى و الخز و الديقاج.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٨

و من المعلوم أن صناعه كسوتها كانت فى رقى و تقدم حسب تدرج الناس فى المدينة و الحضارة إلى أن وصلت فى عصرنا الحاضر بهذا الشكل الجميل. و لم تكن فى الكسوة نقوش و لا كتابة مطلقا فى العصور الأولى لعدم تقدم الصناعات و قلّة معرفة الناس للكتابة، حتى أواخر القرن الثانى للهجرة، فإنه بعد هذا العصر بدأ الناس يكتبون على كسوة الكعبة المشرفة أسماء الأمرين بكسوتها. و لنذكر بعض ما ورد عن ذلك فى التاريخ:

فقد قال صاحب تاريخ الكعبة المعظمة: جاء فى الرحلة الحجازية نقلا عن الفاكهى فى أخبار مكة أنه قال: رأيت كسوة مما يلى الركن الغربى من الكعبة مكتوبا عليها "مما أمر به السرى بن الحكم و عبد العزيز بن الوزير الجرومى بأمر الفضل بن سهل ذى الرآستين، و طاهر بن الحسين، سنة سبع و تسعين و مائة..."

أى من الهجرة.

قال: و رأيت شقة من قباطى مصر فى وسطها مكتوبا فى أركانها بخط رقيق أسود "مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست و مائتين."

قال: و رأيت كسوة من كساوى المهدي مكتوبا عليها "بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع من طراز تنيس على يد الحكم بن عبيد. اثنين و ستين و مائة."

قال: و رأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها "مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع من طراز تنيس كسوة الكعبة، على يد الخطاب بن سلمة عامله. سنة تسع و خمسين و مائة."

قال: و رأيت أيضا كسوة لهارون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها:

"بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله، مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل من طراز تونه. سنة تسعين و مائة. اه."

قال البتونى صاحب كتاب "الرحلة الحجازية: و من أعمال تنيس قرية يقال لها "تونه" كانت تصنع بها كسوة الكعبة أحيانا. اه.

و لقد بعث أبو السرايا من الكوفة كسوتين من قز رقيق إحداهما صفراء و الأخرى بيضاء كسيت بهما الكعبة فى أول المحرم سنة مائتين من الهجرة كتب على كل منهما ما يأتى "بسم الله الرحمن الرحيم، و صلى الله على سيدنا محمد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٩

و على أهل بيته الطيبين الأخيار، أمر أبو السرايا الأصفر بن الأصفر داعية آل محمد صلى الله عليه و سلم، بعمل هذه الكسوة لبيت الله الحرام."

و قال صاحب تاريخ الكعبة أيضا نقلا عن التقى الفاسى: أنه أدرك كسوة الكعبة المعمولة سنة خمس و عشرين و ثمانمائة و قد رأى ما كتب على طرازها "أى على حزامها" من الآيات القرآنية، و قال: لقد كتب عليها من الجهة الشرقية قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ - إِلَى - فَإِنَّ اللَّهَ غَنَّى عَنِ الْعَالَمِينَ و كتب فى الجهة الغربية: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ - إِلَى - إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ و كتب

في الجهة اليمانية: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ - إلى - وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

و كتب في الجهة الشامية اسم صاحب مصر و أمر بعمل هذه الكسوة و هذا الطراز المذكور في نحو الربع الأعلى من البيت. اه. و قال في تاريخ الكعبة أيضا: أن ابن جبير ذكر في رحلته التي كانت سنة ثمان و سبعين و خمسمائة، أنه رأى الكسوة الجديدة التي وضعت على الكعبة المشرفة في اليوم الثالث عشر من ذى الحجة من السنة المذكورة، و أنها كانت خضراء يانعاً، في أعلاها رسم أحمر واسع مكتوب في الصفح الموجه إلى المقام الكريم حيث الباب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ... الآية و في سائر الصفحات اسم الخليفة و الدعاء له، و تحف بالرسم المذكور طرتان حمران بدوائر صغار بيض، فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن و ذكر الخليفة أيضا. اه.

و قال في تاريخ الكعبة أيضا: جاء في كتاب تحصيل المرام أن كسوة الكعبة المشرفة الآن من حرير أسود و بطانتها من قطن أبيض ثم ذكر ما كتب عليها من الآيات القرآنية - قال -: و بين الركن الغربي و الشامي مكتوب "بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر بعمل هذه الكسوة الشريفه العبد الفقير السلطان فلان."

و قال أيضا: و نقل عن تحصيل المرام أنه قال -: و في مدة الوهابية لما استولوا على مكة كانوا يكسونها حرير أسود من غير كتابة، و أميرهم سعود صاحب الشرق نحو سبع سنين. اه.

و جاء في كتاب "الرحلة الحجازية" للبتوني وصف كسوة الكعبة المشرفة و ما هو مكتوب فيها، ثم قال: و مكتوب على حزامها من الجهة التي فيها الباب و كان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٠

ذلك في عصر السلطان محمد رشاد الخامس العثماني. اه. و السلطان المذكور توفي بعد سنة ألف و ثلاثمائة و ثلاث و ثلاثين من الهجرة.

انتهى كل ذلك باختصار من كتاب "تاريخ الكعبة المعظمة."

هذا و لا يزال تكتب أسماء الملوك على كسوة الكعبة الشريفه إلى زماننا و عصرنا، و لما استولى جلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود رحمه الله تعالى على الحجاز و لم تأت الكسوة من مصر حسب العادة لبعض الأسباب، أمر جلالتة بصنع الكسوة في نفس مكة المكرمة فسجوها بها و كتبوا اسم جلالتة عليها من الجهة الشمالية أي من جهة حجر إسماعيل عليه الصلاة و السلام، و كتبوا في الجهات الأخرى الآيات القرآنية، و هذا ما كتب على الكسوة من الجهة الشمالية "هذه الكسوة صنعت في مكة المباركة المعظمة بأمر خادم الحرمين الشريفين جلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية أيده الله تعالى بنصره سنة ألف و ثلاثمائة و ست و أربعين هجرية على صاحبها أفضل التحية و أتم التسليم."

ثم لما حصل الاتفاق بين المملكتين "المصرية و السعودية" في شهر رمضان سنة ألف و ثلاثمائة و خمس و خمسين من الهجرة و رجعت مصر إلى إرسال كسوة الكعبة في كل عام حسب المعتاد، صار يكتب على الكسوة الشريفه ما يأتي "أمر بصنع هذه الكسوة الشريفه لكعبة بيت الله الحرام، صاحب الجلالة ملك مصر فاروق الأول، و أهديت لها في عهد حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية سنة ألف و ثلاثمائة و خمس و خمسين هجرية."

انظر: صورة رقم ١٠٢، الكعبة المشرفة و يظهر فيها ستارة بابها بوضوح تام

هذا ما كان من أمر كتابة أسماء السلاطين و الملوك على كسوة الكعبة المشرفة، و في الحقيقة أن كتابة الأسماء على كسوة الكعبة المعظمة و عدم كتابتها على حد سواء، غير أن كتابتها تكون أفضل من الناحية التاريخية، و ليعلم أن عمل الكسوة منوط بولي أمر المسلمين فهو المطالب بها. نسأل الله تعالى أن يلبسنا في الدنيا ثوب الغنى و العفة و العلم و التقوى و لباس التقوى ذلك خير و أن يكسوننا في الآخرة من حلل الجنة بفضلته و رحمته إنه تعالى كريم عظيم، واسع الفضل و الإحسان. و صلى الله على نبينا محمد و على

آله و صحبه و سلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١١

الإشهاد الشرعي بتسليم كسوة الكعبة

قال مؤلف كتاب المحمل و الحج: جرت العادة أن يكتب إشهاد شرعي بتسليم الكسوة من مأمور تشغيلها إلى المحمل - من في عهدته المحمل و الكسوة - ليوصلها إلى البيت الحرام و يذكر في هذا الإشهاد أجزاء الكسوة و مادتها و أوصافها و هو أثر تاريخي، و هي لا- تختلف في سنه عنها في أخرى إلا- في جودة ما تصنع منه- ثم ساق المؤلف رحمه الله تعالى نص الإشهاد الشرعي بتسليم الكسوة الشريفة نقلا عن مرآة الحرمين - و صورته كما يلي:

هذا نص إشهاد شرعي حرر في سنه (١٣٢١) إحدى و عشرين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة بمحكمة مصر الكبرى الشرعية في يوم الثلاثاء ١٥ ذى القعدة سنه ١٣٢١ الموافق ٢ فبراير سنه ١٩٠٤ إذن فضيلتو قاضي أفندي مصر حالا لحضرة الشيخ محمد ناجي أحد أعضاء المحكمة المذكورة بسماع ما يأتي ذكره فيه و لكاتبه هما الشيخ محمد سعيد و محمد مصطفى أفندي الكاتب كلاهما بالمحكمة المذكورة بكتابة ما يأتي ذكره فيه، فلدى حضرة العضو المومي إليه بحضور الكاتبين المذكورين بالمجلس المنعقد بمسجد سيدنا و مولانا الإمام أبي عبد الله الحسين رضی الله تعالى عنه الكائن بمصر المحروسة بالقرب من خان الخليلي و الجامع الأزهر بقسم الجمالية في الساعة العاشرة صباحا من اليوم المرقوم أشهد على نفسه الحاج محمد أحمد المحاملي الساكن بالدرب الأصفر بالقسم المذكور ابن المرحوم أحمد مصطفى بن مصطفى شهوده الإشهاد الشرعي و هو بأكمل الأوصاف المعبرة شرعا أنه قبض و استلم و استوفى و وصل إليه من حضرة عبد الله فائق بك مأمور تشغيل الكسوة الشريفة حالا الساكن بشارع المحجر بقسم الخليفة بمصر ابن المرحوم إسماعيل بك الحاضر هو معه بهذا المجلس جميع كسوة بيت الله الحرام المشتملة على ٨ أحمه و ٤ رنوك مركبة على حملين من الثمانية أحمال الآتي ذكرها فيه، مزرکشة الثمانية أحمه و الأربعة رنوك بالمخيش الأبيض و الأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود و الأطلس الحرير الأخضر المبطن بالبفت الأبيض و النوار القطن المركبات الثمانية أحمه المذكورة على ثمانية أحمال حرير أسود مكتوب و مبطن بالبفت الأبيض و النوار و القطن، اثنان من الثمانية أحمال المذكورة كل منها تسعة أثواب، كل ثوب منها طوله ٢٦ ذراعا بالذراع البلدى طول كل ذراع منها ٥٧ سم و كسر، و اثنان من الثمانية أحمال

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٢

المذكورة كل منهما ٨ أثواب من الأثواب المذكورة و الأربعة أحمال باقى الثمانية أحمال المذكورة اثنان منها سبعة أثواب و نصف من الأثواب المذكورة، و الاثنان الباقيان كل منهما ستة أثواب و نصف من الأثواب المذكورة، و ستارة لبيت الله الحرام المعبر عنها بالبرقع المزرکشة بالمخيش الأبيض و الأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود و الأطلس الحرير الأخضر و الأحمر المبطنه بالبفت الأبيض و النوار القطن و الأطلس الحرير الأخضر و الأحمر بها خمسة شراريب حرير أسود و قصب و كتير و مخيش و ستة أزررة (كذا) فضة مطلية بالبندقى الأحمر، و ١٢ شرابه صقيرة حرير أحمر و قصب و كتير و ١٢ شمسية مزرکشة على الحرير الأحمر. و كسوة مقام سيدنا و مولانا إبراهيم خليل الرحمن عليه و على نبينا أفضل الصلاة و أتم التسليم المبطنه بالبفت الأبيض المزرکشة بالمخيش الأبيض و الأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود و الأطلس الحرير الأخضر و الأحمر بها أربعة شراريب حرير أسود و قصب و كتير و مخيش و عشر شمسيات مزرکشة بالمخيش الأبيض و الأصفر المطلى بالبندقى الأحمر بها أربعة شراريب من قطن هندی أحمر و أصفر و بها ترتر أحمر. و كيس مفتاح بيت الله الحرام المزرکش بالمخيش الأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الأطلس الحرير الأخضر به ترتر ملون و كتير أصفر مبطن بالأطلس الحرير الأخضر به شرابتان قصب و كتير و قيطان قصب. و ستارة باب سطح بيت الله الحرام المعروف باباب التوبة داخل بيت الله الحرام المزرکشة بالمخيش الأبيض و الأصفر

المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود و الأطلس الأخضر و الأحمر المبطنه بالبفت الأبيض و النوار القطن و الأطلس الحرير الأخضر بها ترتر. و ستاره باب مقصورة سيدنا و مولانا إبراهيم الخليل المشار إليه المزركشه بالمخيش الأبيض و الأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود و الأخضر و الأحمر. بها خمسه أزرة فضة مطليه بالبندقى الأحمر و عشر شمسيات مزركشه بالمخيش الأبيض و الأصفر على الأطلس الحرير الأحمر، بها عشرة شراريب صغيرة حرير و قصب المبطنه بالبفت الأبيض و الأطلس الحرير الأخضر.

و ستاره باب منبر الحرم الشريف المكى المزركشه بالمخيش الأبيض و الأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود و الأخضر المبطنه بالبفت الأبيض و النوار القطن و الأطلس الحرير الأخضر.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٣

و ثلاثة مجاديل أى حبال قطن احتياج تعليق الكسوة الشريفة على بيت الله الحرام. و إحدى و أربعين عصفورة- أى حبل قطن مجدول- احتياج الحلق.

و غلايتين من النحاس مغطاتين مملوءتين بماء الورد الباش احتياج غسل بيت الله الحرام. حسب المعتاد قبضا و تسليما و استيفاء و وصولا شرعيات، حسب اعتراف المشهد المذكور بذلك يوم تاريخه بهذا المجلس، بحضور كل من سعادة إبراهيم رفعت باشا أمير الحج الشريف، و حضرة أحمد زكى بك مدير الأموال المقررة بنظارة المالية المصرية حالا، و أمين الصرة فى هذا العام، و حضرة السيد محمود البيلاوى شيخ مسجد و مقام سيدنا و مولانا أبى عبد الله الحسين رضى الله تبارك و تعالى عنه، و محمد عمر أفندى الكاتب و أمين مخزن مصلحة الكسوة.

العارف كل منهم للمشهد المذكور عينا و اسما و نسا و أنه الحاضر بهذا المجلس و اتصافه بالأوصاف المعترفة شرعا. و على المشهد المذكور الخروج من عهده ذلك جميعه و تسليمه من له ولاية ذلك بمكة المشرفة حسب المعتاد فى ذلك. صدر ذلك بحضور و شهادة من ذكر أعلاه فى يوم الأربعاء و سادس عشر ذى القعدة الموافق ثالث فبراير المرقوم. اه. انتهى صورة الإشهاد الشرعى. و يعطى لمحرر الإشهاد الذى يتدبه القاضى ثلاث جنيهات و مائتين و ثمانين مليما، منها ٨٨٠ مليما نقدية و مائة و أربعين قرشا ثمن فروه ٢ و ١٠٠ قرش ثمن فرجيه جوخ اه. انتهى من كتاب المحمل و الحج.

حكم التصرف فى كسوة الكعبة

اختلف العلماء فى بيع الكسوة القديمة للكعبة المشرفة، فمنهم من أجاز بيعها و منهم من منع. و القول المعتمد الجواز، و نستدل عليه بما يأتى:

روى الأزرقى فى تاريخه: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ينزع كسوة البيت فى كل سنة فيقسمها على الحاج فيستظلون بها على السمر بمكة، و روى أيضا أن شيبه بن عثمان دخل على عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فقال: يا أم المؤمنين إن الكعبة تجتمع عليها الثياب فتكثر فعمد إلى ييار فحفرها و نعمقها فندفن فيها ثياب الكعبة لكى لا تلبسها الحائض و الجنب. قالت عائشة:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٤

ما أصبت و بئس ما صنعت لا تعد لذلك فإن ثياب الكعبة إذا نزع عنها لا يضرها من لبسها من حائض أو جنب، و لكن بعها و اجعل ثمنها فى سبيل الله تعالى و المساكين و ابن السبيل. انتهى من تاريخ الأزرقى.

نقول: قول أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها: "لا يضرها من لبسها من حائض أو جنب" مشروط بخلوها من الكتابات القرآنية و من كلمة التوحيد و من أسماء الله الحسنی. و إذا لم تكن الكسوة من الحرير بالنسبة للرجال.

قال القاضى ابن ظهيرة رحمه الله تعالى فى كتابه "الجامع اللطيف" ما نصه:

"فروع"، "الأول: يجوز بيع ثياب الكعبة عندنا إذا استغنت عنه و قال ابن جماعة من فقهاء الشافعية وغيرهم: و يجوز الشراء من بنى شبيهة لأن الأمر مفوض إليهم من قبل الإمام نص عليه الطرسوسى من أصحابنا فى شرح منظومته و وافقه السبكي من الشافعية ثم قال: و عليه عمل الناس و المنقول عن ابن الصلاح أن الأمر فيها إلى الإمام يصرفها فى بعض مصارف بيت المال بيعا و إعطاء، و استدل بما تقدم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، و فى قواعد صلاح الدين خليل بن كيكلى أنه لا يتردد فى جواز ذلك الآن لأجل وقف الإمام ضيعة معينة على أن يصرف ريعها فى كسوة الكعبة و الوقف بعد استقرار هذه العادة و العلم بها فينزل لفظ الواقف عليها، و استحسّن النووى الجواز أيضا. قال الجد رحمه الله: هذا فى الستور الظاهرة و أما الستور الداخلة فلا تزال بل تبقى على ما هى عليه لأن الكلام إنما هو فى الستور التى جرت العادة أن تغير فى كل عام فلو قدر جريان العادة بمثل ذلك فى الستور الباطنة سلك بها مسلك الظاهرة.

انتهى من الجامع اللطيف.

قال نجم الدين الطرسوسى فى منظومته:

و ما على الكعبة من لباس إرث جاز يبعه للناس

و لا يجوز أخذه بلا شر الأغنياء لا و لا للفقراء

و قال القطب فى كتابه الإعلام: قال الإمام فخر الدين رحمه الله تعالى فى كتاب الوقف من فتاواه: ديباج الكعبة إذا صار خلقا يبيعه السلطان و يستعين به فى أمر الكعبة لأن الولاية فيه للسلطان لا لغيره.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٥

و قال القطب فى الكتاب المذكور أيضا: و الذى يقتضيه القياس أن العادة استمرت قديما بأنها تبدل كل سنة و تأخذ بنو شبيهة تلك العتيقة فيتصرفون فيها بالبيع و غيره. و الذى يظهر لى أن كسوة الكعبة الشريفة إن كانت من قبل السلطان من بيت مال المسلمين فأمرها راجع له يعطيها لمن شاء من الشيبين أو غيرهم، و إن كانت من أوقاف السلاطين و غيرهم فأمرها راجع إلى شرط الواقف فيها فهى لمن عينها له، و إن جهل شرط الواقف فيها عمل فيها بما جرت العوائد السابقة كما هو الحكم فى سائر الأوقاف، و كسوة الكعبة الآن من أوقاف السلاطين و لم يعلم شرط الواقف فيها، و قد جرت عادة بنى شبيهة أنهم يأخذون لأنفسهم الكسوة العتيقة بعد وصول الكسوة الجديدة فيبقون على عادتهم فيها و الله تعالى أعلم. انتهى من الإعلام.

و لنختم هذا الفصل بما ذكره العلامة المحقق الشيخ حسين بن عبد الله باسلامة مؤلف كتاب "تاريخ الكعبة المعظمة" ففيما ذكره يزول كل إشكال عند بعض العلماء. قال رحمه الله تعالى فى كتابه المذكور بعد أن ساق العبارة التى نقلناها هنا من الإعلام ما نصه:

"هذا حاصل ما وقفت عليه من أمر جواز تصرف آل الشيبى فى كسوة الكعبة المعظمة من بيع و إهداء و غير ذلك و أما ما كان يأخذه أمراء مكة من كسوة الكعبة فالذى أعلمه فى العصر الحاضر أن أمراء مكة يأخذون ستارة باب الكعبة و الحزام و ثوب مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام، و آل الشيبى يأخذون كسوة الكعبة و ستارة باب التوبة الذى هو باب الدرجة فى داخل الكعبة المصعدة إلى سطحها و ستارة باب مقام الخليل صلى الله عليه و سلم و ذلك كان فى إمارة الشريف عون الرقيق و الشريف على بن عبد الله و الشريف الحسين بن على فى إمارته و استقلاله، و ربما كان الأمر كذلك فى إمارة من تقدم قبل إمارة من أدركتهم من الأمراء مثل الشريف عبد المطلب و الشريف الحسين بن محمد ابن عون و الشريف يحيى بن سرور و الشريف غالب و غيرهم من أمراء مكة إلى الذى ذكره التقى الفاسى فيما تقدم فى هذا الباب، ثم لما استولى جلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية حفظه الله على الحجاز أنعم على آل الشيبى بجميع كسوة الكعبة من ستارة و حزام و غير ذلك سواء حال مجيء الكسوة من مصر أو الكسوة التى أمر جلالته بعملها فى المعمل الذى أنشأه فى أجياد كما تقدم تفصيله.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٦

فبعمله هذا أزال كل إشكال عند بعض الفقهاء القائلين بأن أمر بيع كسوة الكعبة و تصرف آل الشيبى راجع إلى شرط الواقف أو أمر السلطان. و عليه صارت الكسوة حق من حقوق آل الشيبى يتصرفون فيها كيف شاؤوا و ذلك وفقا لإرادة جلاله الملك المعظم و رأى معظم الفقهاء القائلين بجواز البيع.

و أما تقسيم الكسوة بين آل الشيبى فكلهم فيها سواء الشيخ و الشاب و الطفل و الذكر و الأنثى تقسم بينهم بالسوية ما عدا رئيسهم صاحب المفتاح فله سهمان و ذلك باتفاقهم جميعا و هذه قاعدتهم من قديم الزمان إلى العصر الحاضر على ما علمت و الله تعالى أعلم. انتهى من تاريخ الكعبة المعظمة.

و هنا نبين تواريخ بعض من ذكرهم من الأشراف، فالشريف عون الرفيق توفى سنة (١٣٢٣) بالطائف، فتولى بعده الشريف على بن عبد الله ثم عزل في آخر رمضان سنة (١٣٢٦) فتولى بعده الشريف الحسين بن على من قبل الخليفة السلطان رشاد خان الخامس فى السنة المذكورة فمكث فى الإمارة إلى سنة (١٣٣٤) و فيها قام بثورته المعروفة على الأتراك الموجودين بالحجاز فانتصر عليهم و استقل بالبلاد إلى سنة (١٣٤٣) ف فيها استولى على الحجاز جلاله الملك عبد العزيز آل سعود رحمهم الله جميعا و نكتفى بتواريخ هؤلاء حتى لا نخرج عن المقصود فيطول بنا الكلام.

هذا و نقول: لو مشينا بقول القائل "لا يجوز قطع شىء من كسوة الكعبة و لا بيعه و لا شراؤه و من حمل شيئا من ذلك فعليه رده و لا عبرة بما يتوهمه البعض من أنهم يشتركون ذلك من بنى شبيهة فإنهم لا يملكونه ... " نقول: لو مشينا على هذا القول فأين يضع الشيبون هذه الكساوى المتعددة المتجددة كل عام، و لا يمكن لهم أن يستهلكوا كسوة واحدة فى عام واحد بالاستعمال فهى ليست قليلة بل تبلغ القناطير و على أى وجه يكون استعمالهم لها و كلها مكتوب فيها كلمة التوحيد و الآيات القرآنية. فالحاصل أن جواز بيع الكسوة حكم معتمد و عليه العمل من قديم الزمن.

ثم إن الحكومة السعودية منعت بيع كسوة الكعبة المشرفة و عوضت آل الشيبى عنها بمبلغ من المال سنويا. و ذلك من سنة ١٣٧٨ ألف و ثلاثمائة و ثمان و سبعين هجرية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٧

صورة و قبية السلطان خان على كسوة الكعبة

هذه صورة الوقبية التى وقفها السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان من سلاطين آل عثمان رحمهم الله جميعا التى وقفها على كسوة الكعبة المعظمة و ذلك سنة ٩٤٧ هجرية فقد وقف عشرة من القرى بمصر لينفق ريعها على الكسوة الشريفة فى مكة المشرفة و فى المدينة المنورة. و قد نقلنا هذه الصورة من كتاب "المحمل و الحج" فقد ذكر فيه ما نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذى رفع القبة الخضراء، و وضع بساط الغبراء، و سمك فى سمائه الأفلاك، و ملك فى أرضه الأملاك ففتح مناهج الملك و الدوله الغراء بيمن وقاية السلاطين، و حسن رعاية الأمراء، و جعل الكعبة البيت الحرام لشعائر الدين الزهراء."

فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ.

و استسعد بحجة يوم الجمرات، ثم الصلاة و السلام على سيد الأنبياء محمد أعلم الرسل الأعلام و الأنبياء، و على آله الكرام الأتقياء، و أصحابه العظام الأصفياء، نمقه العبد المحتاج إلى عفو ربه الصمد، محمد بن قطب الدين محمد القاضى بالعساكر المظفرة المنصورة فى ولاية أنطولى.

أما بعد فهذه وثيقة أنيقة بديعة المعانى و البيان، هادية منمقة أنيقة بليغة المبانى و التبيان، توارى عباراتها راحا رحيقا، بل هى أصفى، و تجارى استعاراتها مسكا سحيقا، بل هى أزكى، يشعر عما هو الحق القاطع ما حواه فحواها، و يخبر عما هو الصدق الساطع، ما أده

مؤداها، و هو أنه قد بان لكل ذى عقل سديد، أن الدنيا الدنية فطرة العابرين، و رباط المسافرين، يحل هذا و يرحل ذاك و لا يدرى أحد إلا و يمتطى صهوتى أدهم الليل و أشهب النهار، و يسير مع السائرين إلى منتهى الآجال و الأعمار، و هى للموعظة كما قال سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات:

"استمعوا و عوا من عاش مات، و من مات فات، و كل ما هو آت آت" فلا ريب أن العاقل من اعتبر من الرواحل و اتخذ فيها لرحيله ذخيرة و زادا، و ادخر لمقامه الباقي عدة و عتادا، بالصدقات التى ينال بها النجاة، و يتوسل بها إلى الجنات، على ما نطق به القرآن، و حديث رسول الرحمن، حيث قال عز من قائل: **إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ** و قال عليه الصلوات التامات **"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا**

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٨

من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له **"ألا و هى الوقف.**

فلما تفكر فى جميع ذلك السلطان الأعظم، و الخاقان الأكمل الأكرم ظل الله فى أرضه، و خليفته على خليقته فى رفعه و خفضه، علوى العلاء- من آل عثمان عثمانى المحيا، من سلاطين الزمان سلطان البحرين و البرين العرض، القائم بالسنة و الغرض، عاشر المجددين لدين الإسلام بأحسن المعاشر، و عاشر السلاطين العثمانية كالعقد العاشر، السلطان بن السلطان بن السلطان السلطان سليمان شاه **"ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان"** لا زالت حديقة حقيقة العالمين منضرة بماء حياته و نماء ذاته، و حدقة العالمين منورة بضياء صفاته، و بيضاء سناء حسناته، و بلغ أرواح آبائه و أجداده الرحمة و سقاها بالكوثر و أسبغ عليهم نعم غفرانه و أنذر و رأى منها فى نفسه النفيسة نعم الله تعالى جزيله، لا يسع شكرها على ذاته الكريمة، منه منه جميلة ليس فى طوقه ذكرها أراد استقرارها بالأوقات القارة، و استمرارها بالإدارة الدارة، متفكرا فى قول الملك الخلاق: **ما عندكم ينفد و ما عند الله باق و نظر فى قول **"الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"** و عالما بأن تعظيم الكعبة المستورة بالأستار الشريفة العالية و تشريفها فى الحج يوجب الجنة، و يصير الهدف السائر من العذاب و الجنة، و سائما فى قلبه الفسح من قول الرسول **"من زارنى و جبت له شفاعتى"** أن يستشفع منه بتكريم قبره بالأستار، بل بتشريف مراقده الأتباع و ستر مرآشد الأشياخ، أيضا بالإزار تنزيلا إياه منزلة الزيارة الدائمة، و الخدمة القائمة، على مر الدهور و الأعصار فإن تلك المواضع و إن كانت جرت العادة بسترها لكنها كانت بالأموال المتطرفة، و بالأثمان المتفرقة، فأحب أن يكون ما يصرف إلى هذه الآثار الشريفة، من الأموال المتميزة المتبركة المنيفة، فعين لهذا أجمل أملاكه و أسبابه، و أجمل أمواله و أكسابه، فلذلك قد قال لدى المولى الفاضل، التحرير الكامل، مصباح رموز الدقائق، مفتاح كنوز الحقائق، كشاف المشكلات، حلال المعضلات، الموقع أعلى هذا الكتاب، يسر الله له حسن المآب، بقوله الشريف و لطفه اللطيف العارى عن الاعتساف، الحاوى على الإقرار و الاعتراف، الذى يجوز الشرع لاحتوائه على ما يغير الأصل و الفرع و حكى بأنه قد وقف أوقافا و سبها و حبس أملاكها و كملها، على النمط الأ-كفى الأشمل، و على الطريق المشروع الأكمل، لتكون لهذه المصلحة أوقافا قارة و إدارات دارة، فى الدنيا العاجلة، و مفيدة له فى يوم الجزاء و الآجلة، و تكون عدة**

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٩

معدة لغده عن أمسه رمزية لا تفارقه فى رسمه، و تغيرها جسة من العذاب و جنة يكون جزاءها مثل الحج المبرور الجنة، و تكون باعثة للرفاعة و موجبة للشفاعة، منها جميع القرى الثلاث المسماة بيسوس و أبو الغيث و حوض بقمص الواقعة بالولاية المصرية التى كان حاصل منها فى السنة الواحدة مبلغ (٨٩٠٠٠) درهم و منها جميع القرى السبع الجديدة الواقعة فى الولاية الشرقية بالديار المصرية، أولها:

قرية **"سلحه كان"** حصل منها فى تلك السنة (٣٠٤٩٤) درهما.

ثانيهما: قرية **"سيرو بجنجة"** حاصلها فيها مبلغ (٧١٨٢٠) درهما.

ثالثها: قرية "قريش الحجر" حاصل فيها مبلغ (٥١٣٠٤) درهما.

رابعها: قرية "منايل و كوم رحان" حاصل ما فيها مبلغ (٣٧٨٤٠) درهما.

خامسها: قرية "بجام" حاصل ما فيها (١٤٩٣٤) درهما.

سادسها: قرية "منية النصارى" حاصل ما فيها مبلغ (٦٠٨٥٨) درهما.

سابعها: قرية "بظاليا" و حاصلها فيها (١٠٤٨٤) درهما.

يكون جميع النقود المزبورة في تلك السنة المسفورة مبلغ (٣٦٥١٥٢) درهما فزيا محاذيا بنصف القطعة رايجا في الوقت أيد الله تعالى دولته من سكها باسمه السامى، ورفه رعاياه بعدله المتوفر النامى، وقف جميع القرى المزبورة المستغنية عن التعريف و التحديد، و التبيين و التوصيف لشهرتها في مكانها، عند أهاليها و جيرانها، و لكونها مشروحة و معلومة في الدفاتر السلطانية و المناشير الخاقانية يحمله ما لها من الحدود و الحقوق و ما ينسب إليها بالأصالة و الحقوق، و المراسم و المرافق، و المداخل و الطرائق خلا ما يستثنى منها شرعا من المساجد و المعابد، و المنابر، و المراقد، و المقابر و الأملاك و الأوقاف، و سائر ما يعرف مينا بينه بالأسامى و الأوصاف. و سلم جميعها إلى من ولاه عليها بموجب الشرع المنصوص، و نصبه للخدمة بالأمانة و الاستقامة في هذا الخصوص و تسلمها هو منه للتصرف فيها بالوجه الصداد على ما هو المراد، تسليما و تسلما صحيحين شرعيين.

ثم عين السلطان الفايق على حذافير السلاطين في الآفاق، بالاستهلاك و الاستحقاق و السابق في مضامير التدابير بمكارم الأخلاق، و مراسم الإشفاق لا زالت شمس سعادته أبدية الإشراق، و ما برحت نجوم سلطنته محمية عن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٠

الانمحاق، مما يحصل من تلك القرى الموقوفة المذكورة على حسب التخمين التي مدارها حصل السنة المشروحة المزبورة فالتعيين على هذه النسبة في جميع الأعوام قلت المحصولات أو حلت بتفاوت الشهور و الأيام مبلغ (٢٧٦٢١٦) درهما لأستار ظاهر الكعبة الشريفة شرفها الله تعالى في كل سنة مرة على ما جرت به العادة القديمة في السنين الماضية القديمة طبقا على هذا التخمين بعد الصرف المذكور في السنة مبلغ (٨٨٩٣٦) درهما.

و شرط أن يحفظ ذلك الباقي بحفظ المتولى تمام ١٥ عاما فيكون عدد الجمع في هذا العام على التخمين التام مبلغ ثلاثة عشرة مائة ألف درهم و أربعين درهما (٥٥٢، ٣٠٠، ١) فعين من هذا الباقي في المحفوظ المجموع المستور لأستار المواضع التي تجدد في انقضاء كل ١٥ عاما مرة، و بعد تجديدها المزبور لا تجدد كل سنة بل تروح إلى انقضاء ١٥ عاما آخر، ثم تجدد مرة أخرى كذلك فثم إلى أن ينقض الدهر و يتم لكل مرة من تلك المرات، و في كل كرة من هذه الكرات، بالتخمين المزبور، و التعيين المذكور مبلغ (٧٥٠٣٧٠) درهما فزيا رايجا في الوقت و تلك المواضع التي يصرف إليها هذا المقدار في ١٥ عاما مرة و هي داخل الكعبة الشريفة، و الروضة المطهرة المنيفة، أعنى بها التربة المنورة لسيد الكونين، و رسول الثقلين، نبينا محمد عليه أفضل الصلاة و السلام إلى يوم القيامة، بالمدينة المنورة، و المقصورة المعمورة في الحرم الشريف، و المنبر المنيف فيه و محرابه محراب التهجد، و الأستار الأربعة لنفس الحرم الشريف و محراب ابن العباس و قبره و قبر عقيل بن أبى طالب و حضرة الحسن و حضرة عثمان بن عفان و فاطمة بنت أسد رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، و ما زاد بعد هذا و هو مبلغ (٥٨٢٦٧٠) درهما لاحتمال أن يقع في بعض السنين النقصان بسبب الشراقي و طوارق الحدثان، لأن هذا بالتخمين، و إن لزم في بعض السنين جبر النقصان، فليجير من هذا الفضل ذاك الزمان، و إن وجد في انقضاء المدة و بعد الصرف شىء مما يزيد و يفضل سواء أكان هذا المقدار، أو أكثر منه أو أقل فليستتر بالموجود المزبور الملك المناسب للوقف من العقار، الواقع في موضع الرغبة و الشهارة، ليكثر محصول الوقف، و توفير مواضع الصرف، بإلحاق هذا المشتري و المتاع بسائر الأوقاف و استغلاله معها و صرف غلاته إلى المصارف الميمنة بالأوصاف و تنمية الوقف و تقويته بهذا الكثير و تمشيته و توسعته بذلك التوفير، و هذا بعد رعاية شرط أنه إن وقعت المضايقة في هذا الوقف أو في الوقف الآخر الذى وقفه السلطان أيضا على

مصالح الفقراء الذاهيين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢١

إلى الحجاز، و على حمالهم و على سائر مهماتهم، و كتب له وقفية مستقلة مشتملة على هذه الشروط و القيود، تكون مرعية بالخلود و الأبود، يلزم أن يعين كل واحد الآخر من الجانبين بزوائده، و بفضائل عوائده بإتمام ما يهيم و يلزم له و بتكميله لدفع مضايقته و ضرورته و إسعاده و اجتهاده إقرارا و اعترافا صحيحين شرعيين مصدقين محققين مرعيين، وقفا صحيحا و حبا صريحا مرعيا، حاويا على الحكم بصحته أصلا و فرعا على وجه يقتد به دينا و شرعا، وغب رعايته شرائط الحكم و التبجيل. و فى حصول الوقف و التسبيل لدى المولى الفضل النحرير الكامل الموقع أعلا هذا الصك الدينى، و الحفظ اليقيني، و فتح الله تعالى أبواب الحقوق بمفاتيح أقلامه، و أحكم الأمور بثبوت أحكامه، فصار وقفا لازما مسلسلا متفق عليه على مقتضى الشرع و مرتضى أحكامه بحيث لا يرتاب صحته و ابتراه لوقوع حكم المولى المومى إليه على رأى من رآه من الأئمة الماضيين المجتهدين، رضوان الله عليهم أجمعين. عالما بالاختلاف الجارى بينهم فى مسألة الوقف علم خلوده بخلود السماوات، و أبوده بإبواد الكائنات، إلى أن يرث الله الأرض و من عليها و هو خير الوارثين فلا يحل بعد ذلك لأحد يؤمن بالله و رسوله و اليوم الآخر ينقضه أو يبطله أو يحوله أو يبدله فلا يملك بعد ذلك المؤمن، أو خائفا من الله المهيم، بعدما سمع قول رب العالمين: أَلَا-لَعَنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ و أجر الواقف بعد ذلك على أرحم الراحمين. جرى ذلك و حرر بالأمر العالى الخاقانى، لا زال عاليا فى صف المظفر المنخرط فى سلك شهور سنة سبع و أربعين و تسعمائة من هجرة من لا نبى بعده. و صلى الله عليه و على آله و صحبه الذين و فوا عهده. انتهى من صحيفة ٢٨٥ من مرآة الحرمين نقلا- عن مرآة مكة لحضرة أمير اللواء البحرى العثمانى أيوب صبرى باشا، ثم قال الأستاذ يوسف أحمد صاحب كتاب "المحمل و الحج" ما نصه:

أقول: رجوت حضرت صديقى المؤرخ البحاثه صاحب الغزه محمد رمزى بك المفتش بالماليه سابقا أن يبحث عن أسماء البلاد العشر الواردة فى هذه الوقفيه و هل هى موجوده إلى الآن كلها أو بعضها و هل تغيرت الأسماء؟ ففضل على بهذا البيان الظريف الآتى، فله منى و من جميع المسلمين خالص الشكر و وافر الثناء.

العدد/ اسم القرية/ البيان

١/ بيسوس / هى القرية التى تعرف اليوم باسم "باسوس" بمركز

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٢

العدد/ اسم القرية/ البيان

قلوب مديرية القليوبية.

٢/ أبو الغيث / تعرف باسم "أبو الغيط" بالمركز المذكور.

٣/ حوض بقمص / هو الحوض الذى يعرف اليوم باسم "حوض بقمص" بأراض ناحية مرصفا بمركز بنها بمديرية القليوبية.

٤/ سلكه / هى اليوم إحدى قرى مركز المنصورة بمديرية الدقهلية.

٥/ سرو بجنجه/ صوابه "سرو بججه" و هى القرية التى تعرف اليوم باسم "السرو" بمركز فارسكور بمديرية الدقهلية.

٦/ قريش الحجر / هى القرية التى تعرف اليوم باسم "أويش الحجر" بمركز المنصورة بمديرية الدقهلية.

٧/ منايل و كوم رحان/ هى القرية التى تعرف اليوم باسم المنايل بمركز شيبين القناطر بمديرية القليوبية.

٨/ بجام/ هى اليوم إحدى قرى مأمورية ضواحي مصر.

٩/ منية النصارى/ هى القرية التى تعرف اليوم باسم منية النصر بمركز دكرنس بمديرية الدقهلية.

١٠/ بطاليا/ بالبحث لم أجد بين أسماء البلاد المصرية قديمها و حديثها قرية بهذا الاسم و إنما يوجد اسم قريب منه و هو "طاليا"

إحدى قرى مراكز أشمون بمديرية المنوفية كما أنه كان يوجد قديماً قرية اسمها "بتالى" بولاية الغربية و لم أستدل على موقعها. و على كل حال فهاتان القريتان هما خلاف قرية "بظاليا" المذكورة في الحجّة بأنها من ولاية الشرقية اه. انتهى كل ذلك من كتاب "المحمل و الحج".

كيفية تركيب كسوة الكعبة عليها

غالب الناس يظنون أن كسوة الكعبة المشرفة يصعدون بها إلى سطحها من الدرج التي هي في باطنها وهذا هو المعقول، لكن لما كانت الدرج التي في داخلها ضيقة لا تسع إلا لشخص واحد يصعد أو ينزل، و كانت الكسوة في ذاتها مبطنه التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٣

ثقيلة ثخينه طويلة، فإنه يستحيل و الحالة هذه الصعود بها من الدرجة الضيقة التي في باطن الكعبة.

فكيفية تركيبها عليها هي: أنهم يحضرون الكسوة الجديدة التي جاءت من مصر، فيفرشونها في أرض المسجد الحرام قطعة قطعة، ثم يخيطنون قطع كل جهة من الكعبة وحدها مع خياطة الآيات القرآنية التي على الحزام، حتى إذا انتهت خياطتها طواوا قطع كل جهة وحدها و لفوها لفا محكما، ثم يربطونها بالحبال و يكون رجال على سطح الكعبة يدلون الحبال إلى أرض المطاف، ثم يربطون قطع الكسوة بهذه الحبال ثم يجرونها إلى أعلا سطح الكعبة و يضعون على إفريز جدرانها أى "طرفها" كل قطعة تناسب جهة من الجهات الأربعة و يرتبها تمام الترتيب و يحكمون ربطها على مواسير الحديد الثابتة في إفريز جدران الكعبة، و هذا يكون في اليوم الثامن من ذى الحجّة في كل عام.

فإذا كان صباح العاشر من ذى الحجّة "أى صباح يوم عيد الأضحى" بعد نزول بعض الحجاج من عرفات إلى مكة للطواف و السعى، يصعدون إلى سطح الكعبة فيرخون الثوب القديم إلى أرض المطاف، ثم يسدلون في إثره الثوب الجديد و يأخذون القديم إلى منزل السدنة، ثم بعد ذلك يخيطنون قطع الثوب الجديد و هو على الكعبة شيئاً فشيئاً عدة أيام إلى أن تتم الخياطة. هذه هي كيفية تركيب الكسوة في كل عام، و الكسوة ثمانية قطع، أى لكل جهة من جهات الكعبة الأربعة قطعان منها تخاطان ببعضهما، و كذلك حزام الكعبة فإنه ثمانية قطع أيضاً، و البقش المربعة الفاصلة بين آيات الحزام المكتوب فيها "يا حنان يا منان" و عددها أربعة و توضع مع سطر الحزام بين الآيات القرآنية.

و هناك أربع بقش أيضاً مكتوب في كل واحدة منها سورة الصمد بتمامها، و توضع في أركان الكعبة الأربعة من تحت حزامها، و كل هذه القطع تخاط على الكسوة بعد وضعها على الكعبة المشرفة، بواسطة مقعد من الخشب معمول على هيئة الكرسي يربط بالحبال ثم يدلى من سطح الكعبة إلى موضع الخياطة بعد أن يجلس فوقه الخياط المناط به هذا الأمر.

انظر: صورة رقم ١٠٣، وضع الكسوة الجديدة فوق الكعبة و خياطتها

نسأل الله تعالى أن يكسوننا من حلل الجنة و يزيننا بلباس التقوى بفضل و رحمته و كرمه و إحسانه، إنه تعالى عظيم الفضل و الإحسان.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٤

انظر: صورة رقم ١٠٤، المسجد الحرام و يرى بعض الناس فوق سطح الكعبة المعظمة استعداداً لتليسيها كسوتها الجديدة

برقع الكعبة المعظمة أى ستارة بابها

لم نعلم بالضبط من أحدث برقع الكعبة و لا متى حدث بالضبط و هل برقع الكعبة هو نفس الشمسيات التي كانت توضع في وجه الكعبة و التي جعلنا لها مبحثاً خاصاً أم لا؟ الله أعلم بذلك، و الذى يعلم مما سيأتى أن البرقع حدث في أول القرن التاسع من الهجرة، و الذى يظهر لنا و الله تعالى أعلم أن أهل الجاهلية و القرون الأولى بعد الإسلام إذا وضعوا كسوة على الكعبة تركوا الباب بدون ستارة

فقد كانوا على الفطرة، فلما اتسعت مدارك الناس و تذوقوا حلاوة الدنيا اخترعوا برقع باب الكعبة و تفننوا في تحسينه و تجميله. و برقع الكعبة هو الستارة التي توضع على وجه بابها.

و يكون طولها و عرضها بقدر فتحة الباب طولاً- و عرضاً بل تزيد قليلاً حتى يعمّ ستر الباب تماماً عند إسدالها و إرخائها. و بعض المؤرخين كالشيخ عبد الله الغازي رحمه الله تعالى يسميه عند الكلام عنه في تاريخه "البردة" فيقول: البردة التي توضع على باب الكعبة- و قصده من "البردة" هو البرقع، فقوله "البردة" بفتح الباء الموحدة لا بضمها، و أصل هذه الكلمة تركية، و لكن ينطقها الأتراك بالباء المغلظة المفتوحة التي تحتها ثلاث نقط، لا نقطة واحدة، و معناها عندهم الستارة، و لا يخفى أن العربي إذا نطق بهذه الكلمة يضم الباء المخففة المضمومة و يقصد بها معناها اللغوي و هو "الكساء".

و الذي جعلنا أن نكتب فصلاً خاصاً عن برقع الكعبة و لم نلحقها بكسوتها، لأن لبرقعها شكلاً فريداً يتسم بجماله و دقة رسمه و نقشه، و إليك ما كتبه التاريخ عنه:

قال في تاريخ الغازي ما نصه: و قال في التحصيل: البردة التي توضع على باب الكعبة هي من حرير أسود مكتوبة بالفضة المذهبة و ذلك الكتابة بعض آيات من القرآن و مكتوب أيضاً فيها أمر بعمل هذه البردة السلطان فلان و تسدل على باب البيت ليلة الاثنين و ليلة الجمعة أى من عصر يوم الأحد و عصر يوم الخميس إلى المغرب و يسمونها أهل مكة "البرقع" و لم أعلم متى حدثت و لا من أحدثها،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٥

و ذكرها الفاسي في شفاء الغرام و نصه: و عمل في هذه السنة و هي سنة تسعة عشر و ثمانمائة لباب الكعبة ستارة عظيمة الحسن أحسن من الستائر الأول التي شاهدناها.

قال السهمودي: و في عشر التسعين و سبعمائة اشترى السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون قرية من بيت مال المسلمين بمصر و وقفها على كسوة الكعبة المشرفة في كل سنة و على كسوة الحجر و المنبر النبوي في كل خمس سنين، و ذكرها التقى الفاسي و الزين المراغي إلا أنه قال في كسوة الحجر في كل ست سنين مرة تعمل من الديباج الأسود و مرقوما بالحرير الأبيض و لها طراز منسوج بالفضة المذهبة دائر عليها إلا كسوة المنبر فإنها بتفصيل أبيض. انتهى ما في تحصيل المرام. هذا ما ذكره الشيخ الغازي رحمه الله في تاريخه.

نقول: ظهر من الكلام المتقدم أن برقع الكعبة كان يعمل منذ قرون بشكل مخصوص و يتفننون في تحسين شكله و منظره، و كان البرقع معروفاً قبل سنة (٨١٩) و لكن لم يعرف من أحدثه و لا تاريخ حدوثه بالضبط.

و قد تكلم عن كسوة الكعبة و برقعها مؤلف كتاب صبح الأعشى قال مؤلف كتاب "المحمل و الحج" ناقلاً عن صبح الأعشى من الجزء الرابع صحيفة ٢٨١ و ٢٨٣ ما ملخصه: كانت الكعبة تكسى الديباج الأسود كسوة مسبله من أعلاها إلى أسفلها مرقوما بأعليها طراز رقم بالبياض من أصل النسيج مكتوب فيه: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَيْنَكَ مَبْرَكًا ... الآيات، و على الباب برقع من نسبة ذلك مرقوم فيه بالبياض، و ذلك في آخر الدولة الظاهرية "برقوق" و أوائل الدولة الناصرية ولده "فرج" و الظاهر برقوق توفي سنة ٨٠١ ثمانمائة و واحد.

ثم قال: و في سنة ... و ثمانمائة في الدولة الناصرية فرج بن برقوق غير الطراز من لون البياض إلى لون الصفرة فصار الرقم في السواد بحريز أصفر مقصب بالذهب ... إلى أن قال: ثم جعل بعد ذلك برقع البيت من حرير أسود منشورا عليه المخايش الفضة الملبسة بالذهب فراد نفاسته و علاقيمته. قال: ثم في سنة ٨١٤ جعل وجهه الباب من الكسوة "كمخا أزرق" بجامات مكتوب فيها ...

و الله العالم ما كان و ما يكون "ثم قال: و عمل في سنة ٨١٩ لباب الكعبة ستارة عظيمة الحسن لم يسبقها مثلها. انتهى من كتاب "المحمل و الحج" الناقل من صبح الأعشى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٦

وقد ذكر إبراهيم باشا رفعت صاحب كتاب مرآة الحرمين ما فى برقع الكعبة من الذهب و الفضة و الحرير فليراجع من شاء، كما ذكر فى التاريخ نص الآيات القرآنية التى كتبت فى البرقع ما رأينا من الضرورة ذكرها هنا. و قد تباهى السلطان سليم فى عمل كسوة الكعبة و زر كسوة البرقع للغاية حينما أرسلها لمكة سنة ٩٢٣. انظر: صورة رقم ١٠٥، الكعبة المشرفة و يظهر فيها ستارة بابها بوضوح تام.

ثم لما اختصت مصر بصنع كسوة الكعبة الخارجية و إرسالها سنويا إلى مكة المشرفة و ترقى العلوم و الفنون فيها، و برعوا فى فن الخط العربى و فن الزخرفة و الرسم و النفس، تفننوا فى تجميل الكسوة و البرقع حتى صاروا فى زماننا فى أحسن شكل و أبهى منظر. اللهم زد بيتك المحرم تشريفا و تعظيما و تكريما و مهابة، و أمتنا مسلمين و أدخلنا فى عبادك الصالحين و ارض عنا و أصلح أحوالنا آمين يا رب العالمين و صلى الله على محمد أبى القاسم الأمين و على آله و صحبه أجمعين.

خدم الكعبة و أغوات المسجد الحرام

أول من رتب العبيد لخدمة الكعبة المشرفة معاوية رضى الله تعالى عنه هذا ما ذكره المؤرخون، و الظاهر أنهم كانوا عبيدا أرقاء لا خصيانا، قالوا: و أول من اتخذ الخصيان يزيد بن معاوية.

قال فى المنجد: طوّس الرجل مطل غريمه، الذكر خصاه، و الطواشى الخصى جمع طواشيه (مولد و قيل أعجمى). انتهى منه.

و يطلق على الخصى طواشى كما يطلق عليه فى الحجاز "أغا" فيقولون:

أغوات الحرم، أى طواشيه المسجد الحرام و الآغا، بمد الهمزة عند الأعاجم معناها الرجل الثرى صاحب النفوذ، فربما من هنا أطلق الأعاجم على طواشيه المسجد الحرام كلمة "الأغا" لما كان لهم من السلطة و النفوذ فأخذها عنهم الحجازيون فأطلقوها عليهم حتى صار كالعلم عليهم. و يوجد كتاب اسمه تاريخ الأغوات لإبراهيم الأغا بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، مقيد بها تحت نمرة (١٤٩) فراجع إن شئت. و هو كتاب صغير باللغة التركية و لكنه ليس تاريخا للأغوات بالمعنى الصحيح، و إنما هو عبارة عن مقتطفات فى تراجم بعض الأغوات، و لقد أخذ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٧

سعادة السيد أحمد مجاهد و كيل وزارة الحج و الأوقاف الذى طبع هذا التاريخ على نفقته صورة فوتوغرافية لصفحات الكتاب المذكور.

روى البخارى فى أول كتاب النكاح فى باب تزويج المعسر الذى معه القرآن: عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: كنا نغزوا مع النبى صلى الله عليه و سلم ليس لنا نساء فقلنا: يا رسول الله ألا نستخصى؟ فنهانا عن ذلك.

و روى أيضا فى الباب الذى بعده أى فى باب ما يكره من التبتل و الخصاء:

عن سعد بن أبى وقاص يقول: رد رسول الله صلى الله عليه و سلم على عثمان بن مظعون: التبتل و لو أذن له لاختصينا.

و قد وردت ثلاثة أحاديث أيضا فى هذا المعنى فى الباب المذكور.

جاء فى شرح كتاب "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم" فى آخر الجزء السادس عند حديث "نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن التبتل" ما ملخصه:

إن الصحابة رضى الله عنهم لما قالوا للنبي صلى الله عليه و سلم ... "ألا نختصى" نهاهم عن الاختصاء نهى تحريم لما فيه من تعذيب النفس و التشويه و إبطال معنى الرجولية و تغيير خلق الله و كفر نعمته، لأن خلق الشخص رجلا من النعم العظيمة، فإذا أزال ذلك فقد تشبه بالمرأة و اختار النقص على الكمال.

انظر: صورة رقم ١٠٦، دكة الاغوات بالمسجد النبوي الشريف

قال المهلب: و إنما نهى النبي صلى الله عليه و سلم عن التبتل من أجل أنه مكاثر بهم الأمم يوم القيامة، و أنه فى الدنيا يقاتل بهم طوائف الكفار، و فى آخر الزمان يقاتلون الدجال، فأراد صلى الله عليه و سلم أن يكثر النسل. اه. فالاختصاص فى الآدمية حرام صغيرا كان أو كبيرا. انتهى ملخصا من شرح زاد المسلم.

قال ابن حجر العسقلانى رحمه الله تعالى فى فتح البارى على صحيح البخارى فى كتاب النكاح فى باب ما يكره من التبتل و الخصاء ما ملخصه:

الخصاء هو: الشق على الأنثيين و انتزاعهما، قال و النهى عن ذلك نهى تحريم بلا- خلافاً فى بنى آدم لما تقدم، و فيه أيضا من المفاسد تعذيب النفس و التشويه مع إدخال الضرر الذى قد يفضى إلى الهلاك، و فيه إبطال معنى الرجولية و تغيير خلق الله و كفر النعمة، لأن خلق الشخص رجلا من النعم العظيمة فإذا أزال ذلك فقد تشبه بالمرأة و اختار النقص على الكمال.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٨

قال القرطبي: الخصاء فى غير بنى آدم ممنوع فى الحيوان إلا لمنفعة حاصله فى ذلك كتطيب اللحم أو قطع ضرر عنه. و قال النووى: يحرم خصاء الحيوان غير المأكول مطلقا، و أما المأكول فيجوز فى صغيره دون كبيره، و ما أظنه يدفع ما ذكره القرطبي من إباحة ذلك فى الحيوان الكبير عند إزالة الضرر.

ثم قال: و أخرج الطبرانى من حديث ابن عباس قال: شكا رجل إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم العزوبة فقال ألا نختصى؟ قال: ليس منا من خصى أو اختصى.

انتهى من فتح البارى بتصرف و اختصار.

نقول: ظهر مما تقدم أن الاختصاص فى بنى آدم حرام صغيرا كان أو كبيرا، و كذلك فى الحيوان غير المأكول، لما فيه من قطع نسله و تعذيبه بدون فائدة، و أما فى الحيوان المأكول فيجوز إخصاء صغيره حتى يسمن و يطيب لحمه، و أما الكبير المأكول فيحرم إخصاؤه لما فيه من التعذيب، و لعدم الفائدة من إخصائه، فإن لحم الكبير لا يطيب بالإخصاء.

و حرمة إخصاء الآدمى الصغير تقع على الفاعل لا على المخصى "بفتح الميم" فإن كان الآدمى كبيرا و رضى باختصاصه فالحرمة تقع عليه، و قد يشترك معه فى الإثم الفاعل لأنه أعان على معصيته.

فإن قال الكبير: اختصيت خوف الوقوع فى الزنا مثلا، نقول له: إنك عصيت الشارع صلى الله عليه و سلم الذى نهى عن الاختصاص لما فى ذلك من قطع النسل و التعذيب، و أما الوقوع فى الزنا فقد يغفر الله تعالى لمن تاب و عمل صالحا كما هو الشأن فى كل معصية، فرضاء الله تعالى و عفو لا يتوقفان على الاختصاص و تعذيب النفس.

و نرى أن جميع هؤلاء الطواشى و الأغوات إنما حصل لهم الاختصاص فى حال الصغر و هم لا يعقلون، فالحرمة تقع على من فعل بهم ذلك، و مهما أتوا من المبررات و الأعذار فإنها لا تقبل شرعا، و الحمد لله الذى قلّ عمل ذلك فى زماننا هذا حتى كاد أن يندرس.

جاء فى كتاب "التراتب الإدارية" بصحيفة ٤٤٠ من الجزء الثانى ما نصه:

نقل المنجور فى شرح المنهج عن ابن رشد: أن أول من استخدم الخصيان فى الإسلام معاوية. و وجدت ذلك فى البيان و التحصيل بلفظ، قيل: إن معاوية هو

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٩

أول من اتخذ المقاصير فى الجوامع، و أول من قام على نفسه حرسا، و أول من قيدت بين يديه النجائب، و أول من اتخذ الخصيان فى الإسلام، و أول من بلغ درجات المنبر خمس عشرة مرقاة.

و فى تحفة المحبين و الأحباب فيما للمذنبين من الأنساب لدى كلامه على الأغوات من حرف الألف أول من استخدم الخصيان فى

الإسلام معاوية و قد كان لرسول الله صلى الله عليه و سلم خادما خصيا و الله أعلم أن خصاه كان خلقيا، و قد صرح الجمهور من العلماء بكرهته و أحكامهم مذكورة في كتب الفقه، و قد حررها العلامة عبد القادر الطبري المكي في كتابه نشأة السلافة في شأن الخلافة و أطال فيهم المقال. انظره فإنه كتاب مفيد جدا. و أول من استخدمهم في المسجد النبوي و المسجد المكي بالحرمين الشريفين صلاح الدين الأيوبي ه.

ثم نقل الكلام على أصل استخدامهم من رسالة تحفة المحبين للمجرب في تنزيه مسجد الرسول من كل خصي و محبوب للعلامة جمال الدين القطان، و من التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للحافظ السخاوي فانظر كلامهم في التحفة، و قد وقفت على رسالة للحافظ السيوطي سماها أكام العقيان في أحكام الخصيان و التوصية بهم، عقد فيها فصلا قال فيه ذكر الصحابة منهم و ترجم لمابور و سندرمولى زبناج الجدامي، و ذكر في ترجمته الأخير أنه قال لرسول الله صلى الله عليه و سلم أوصى بي فقال: أوصى بك كل مسلم، ثم جاء إلى أبي بكر فعاله حتى مات، ثم لقي عمر فقال: إن شئت أن تقيم عندي أجريت عليك مالا- فانظر إلى أى المواضيع أحب إليك لأكتب لك فاختر مصر فلما قدم على عمرو بن العاص أقطعه أرضا واسعة و دارا، و عمر سندرمولى إلى زمن عبد الملك بن مروان، و ذكره محمد بن الربيع الجيزي في كتاب الصحابة الذين دخلوا مصر و أن لأهل مصر عند سندرمولى حديثين. اه. انتهى من الكتاب المذكور.

جاء في كتاب "الترايب الإدارية" بصحيفة ٤٤٥ من الجزء الثاني عند باب في المجرب ما نصه:

ترجم في الإصابة لمابور القبطي الخصي قريب مارية القبطية أم ولد النبي صلى الله عليه و سلم قدم معها من مصر، فنقل عن الطبري أنه رضى لمكانته منها أن يجب نفسه فقطع ما بين رجله حتى لم يبق له قليل و لا كثير الحديث، قال الشيخ الطيب في شرح الألفية: لا منافاة بن كونه أهدها خصيا و كونه جب نفسه لاحتمال أنه أهدها فاقد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٠

الخصيتين مع بقاء الذكر و هو الذى قطع، و ترجم في الإصابة لأبى مريم الخصي فقال: له إدراك ذكره ابن منده، و أخرج من طريق الأوزاعي عن سليمان بن موسى قال: قلت لطاؤوس: إن أبا مريم الخصي أخبرنى و قد أدرك النبي صلى الله عليه و سلم فقال: أحلنى على غير خصي. و نحوه في أسد الغابة و قال: أخرج ابن منده و أبو نعيم ه. و فى نور النبى: لا أعلم فى الصحابة خصيا إلا هذا مابور و آخر يقال له سندرمولى.

قال الأزرقى عند "ذكر كسوة الكعبة فى الإسلام": "و كان أول من أخدم الكعبة يزيد بن معاوية و هم الذين يسترون البيت هكذا ذكره الأزرقى و ذكر أيضا أن معاوية هو الذى أخدمها العبيد. و كلتا العبارتان مذكورتان فى صحيفة واحدة من تاريخ الأزرقى فلم نفهم معنى الأولية فى تقديم العبيد لخدمة الكعبة هل هى لمعاوية أو لابنه يزيد، و كيف يمكن الجمع بين الروايتين.

و قال صاحب كتاب "مرآة الحرمن": "أول من رتب الأعوات فى المسجد أبو جعفر المنصور اه و الله تعالى أعلم بالغيب.

و جاء فى تاريخ الخميس أن سليمان بن عبد الملك بن مروان كان شديد الغيرة و هو الذى خصى المخنثين بالمدينة. اه.

و الذى نفهمه أنه كان للكعبة خدم فى الجاهلية، فىكون معنى أول من رتب العبيد للكعبة أى فى الإسلام، أما فى الجاهلية فقد روى الأزرقى أيضا عند الكلام على حج أهل الجاهلية ما نصه ... و كانت الإفاضة فى الجاهلية إلى صوفة "أى كان على الحج" و صوفة رجل يقال له أخزم بن العاص بن عمرو بن مازن بن الأسد، و كان أخزم قد تصدق بآبن له على الكعبة يخدمها، فجعل إليه حبشية ابن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الخزاعى الإفاضة بالناس على الموقف، و حبشية يومئذ يلى حجابة الكعبة و أمير مكة يصطف الناس على الموقف فىقول حبشية: أجز صوفة فىقول الصوفى: أجزوا أيها الناس فىجوزون، و يقال: إن امرأة من جرهم تزوجها أخزم بن العاص بن عمرو بن مازن بن الأسد و كانت عاقرا فنذرت إن ولدت غلاما أن تصدق به على الكعبة عبدا لها يخدمها و يقوم عليها، فولدت من أخزم الغوث فتصدقت به عليها فكان يخدمها فى الدهر الأول مع أخواله من جرهم فولى الإجازة

بالناس لمكانه من الكعبة وقالت أمه حين أتمت نذرهما وخدم الغوث بن أخزم الكعبة:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣١ إني جعلت رب من بتيه ربيطة بمكة العلية

فباركن لي بها إلهو اجعله لي من صالح البرية

فولى الغوث بن أخزم الإجازة من عرفه وولده من بعده فى زمن جرهم و خزاعه حتى انقرضوا. انتهى من تاريخ الأزرقى.

فعلم مما تقدم أن تقديم العيد للكعبة المعظمة كان من أيام الجاهلية الأولى، و أن المراد بالعيد ليس هو الرقيق المملوك و لا من الخصيان كالطواشى المعروفين فى زماننا، بل المراد تقديم أى رجل حر للكعبة يقوم بخدمتها و ربما كان من أبناء الرؤساء و الذوات المحترمين كابن صوفة المذكور الذى كانت له إمارة الحج.

و حبذا لو أن حكومتنا السعودية أحالت هؤلاء الطواشى "أغوات المسجد الحرام" إلى المعاش و أكرمتهم بمعيشة هنيئة مدة حياتهم جزاء لهم على خدماتهم لبيت الله المعظم و استبدلت بهم من فضلاء الناس الأحرار خدما للكعبة المشرفة، و بذلك تكون حكومتنا قد سنت سنة حسنة مدى الدهر، لأن غالب الأغوات من العوام الجهلاء، و فى بعضهم غباوة زائدة و ضعف فى العقل - يقول الإمام القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات: إن الإنسان إذا خصى يضعف بدنه بخلاف كثير من الحيوانات.

و لا نعلم بالضبط متى كان استخدام الطواشى "الخصيان" فى المسجد الحرام بمكة و المدينة، قال صاحب مرآة الحرمين: و أول من رتب الأغوات فى المسجد الحرام أبو جعفر المنصور اه لكن نحن لا نرى أن أبا جعفر المنصور المتوفى فى سنة ١٥٨ قد فعل ذلك و نستدل على كلامنا هذا بأنه لو فعله أبو جعفر المنصور لذكره الإمام الأزرقى فى تاريخه بدون شك فقد توفى فى منتصف القرن الثالث بل قبله بسنوات معدودة، و إنما نرى أن استخدام الأغوات فى المسجد الحرام كان بعد استخدامهم فى المسجد النبوى الذى كان فى أول دولة الأكراد فى زمن السلطان نور الدين الشهيد استنتاجا مما جاء فى تاريخ الغازى المخطوط بخط يده بصحيفة ٦٢٢ من الجزء الأول و هو نقلا عن كتاب "إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن" و هذا ما نصه: و فى سنة (٥٥٧) سبع و خمسين و خمسمائة من الهجرة حسنوا للسلطان نور الدين الشهيد أن يرسل بعض خدم طواشيته إلى المدينة المنورة ليكونوا سدة لقبر رسول الله صلى الله عليه و سلم و الحرم المحترم فاستحسن ذلك، إلا أنه قال: كيف نعمل شيئا ما سبقنا إليه أحد من الخليفة قبلنا فما زالوا به حتى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٢

وافقهم إلى ذلك، فجعل اثنى عشر طواشيا لا غير و شرط أن يكونوا حفاظا للقرآن الكريم و لربع العبادات متعينين لذلك و أن يكونوا حوشا فإن لم يكونوا فأرواما فإن عدموا فتكارنة و إن لم يوجدوا فهنودا، فاستمر الأمر مستقيما مدة ثم ما زال فى فقد شيء بعد شيء حتى صار الآن من الهنود و صاروا عامية ليسوا بأهل علم و كانوا اثنى عشر فعادوا فوق الأربعين، فسبحان من يغير و لا يتغير و أنكر علماء المدينة ذلك و ألفوا فيه تأليف و لكن يد الخلافة لا تطاولها يد. "انتهى من تاريخ الغازى.

فيؤخذ مما تقدم أن الطواشيه لم يكونوا خدما بالمسجد النبوى بالمدينة إلا فى سنة (٥٥٧) هجرية و يشترط فيهم أن يكونوا حفظة للقرآن الكريم و لربع العبادات من الفقه، فقياسا على ذلك يمكن أن نقول و نستنتج أن استخدام الطواشيه لم يكن بالمسجد الحرام بمكة قبل السنة المذكورة و إنما حدث بعدها تقليدا على ما فى المسجد النبوى منهم، و مما يقوى قولنا هذا أن العلامة ابن جبير الأندلسى الذى كان بمكة شرفها الله تعالى سنة (٥٧٩) تسع و سبعين و خمسمائة و حج فيها لم يذكر فى رحلته القيمة المعتره أنه رأى بالمسجد الحرام طواشيه و خصيانا يقومون بالخدمة، مع أنه لم يترك شيئا عن مكة و الكعبة و المسجد الحرام إلا و ذكره، و هو قد مكث بمكة المكرمة للحج ثمانية أشهر. و الرحالة ابن بطوطة الذى وصل إلى مكة فى حجته الأولى سنة (٧٢٥) خمس و عشرين و سبعمائة ذكر فى رحلته خدمة المسجد النبوى و لم يذكر خدمة المسجد الحرام فقال عنهم بصحيفة ٧٣ و خدام هذا المسجد الشريف، أى المسجد النبوى و سدنته فتيان من الأحابيش و سواهم و هم على هيئات حسان و صور نظاف و ملابس ظراف و كبيرهم يعرف

بشيخ الخدام و هو فى هيئة الأمراء الكبار و لهم المرتبات بديار مصر و الشام يؤتى إليهم بها كل سنة ... اه.

على أن اتخاذا الطواشى و الخصيان كان قبل الإسلام فقد ذكر الأستاذ أحمد زكى باشا الملقب بشيخ العروبة فى حاشية على كتاب "الرق فى الإسلام" بصحيفة ٩٩ ما نصه: كان اتخاذا الطواشية قبل الإسلام، فإن نارسييس و هو من أعظم قواد المملكة الرومانية الشرقية كان خصيا، و مثله بوطيفار "قطفور" مولى يوسف عليه الصلاة و السلام، و مثلهما أوريجانس مفسر التوراة الذى ولد بالاسكندرية فى سنة (١٨٧) سبع و ثمانين و مائة ميلادية قد جب مذاكير نفسه لثلاث تكون أخلاقه عرضة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٣

للشك و الريية، و غيرهم كثيرون. اه المترجم. انتهى من حاشية الكتاب المذكور. و جاء فى تاريخ الخميس فى الجزء الثانى: أنه كان فى دار أمير المؤمنين المقتدر بالله الذى قتل سنة (٣٢٠) أحد عشر ألف غلام خصيان غير الروم و الصقالبة و السود. انتهى.

و قد كان للطواشية "الخصيان" نفوذ كبير لدى أسيادهم العظماء، و فى ذلك يقول مؤلف كتاب "الرق فى الإسلام" بصحيفة ٩٨ ما يأتى: و لا يجهل أحد ما كان للطواشية "الخصيان" من الشأن الأكبر و النفوذ المهم فى القسطنطينية و فى مصر القاهرة، ففى بلادنا "أى مصر" كان أعظم القوم و سراهم يتملقون و يتزلفون إلى الماس آغا طواشى والده عباس باشا، و خليل آغا طواشى سعيد باشا، ثم خليل آغا المشهور طواشى والده الخديوى السابق، و كلهم قد جاؤا من بلادهم فى أحقر الحالات و أنكدها، فساق الله لهم السعادة و رزقهم الغنى الوافر و الثروة الطائلة.

انتهى من الكتاب المذكور و المذكورون هنا عباس و سعيد و الخديوى السابق كلهم من سلاطين مصر المتأخرين.

و فى تاريخ الغازى أن السلطان الملك الأشرف برسباى أرسل فى سنة (٨٣٥) إلى السلطان صلاح الدين أبى المظفر محمد بن قندو هدية من القاهرة صحبة بعض الطواشية، فلما وصل إلى السلطان قبلها و عوض عنها بهدية قيمة و لكنه مات فى أثناء ذلك فقام ابنه المظفر أحمد و أمضى هدية أبيه و زاد من عنده هدية أخرى من ضمنها خدام طواشية. انتهى.

و لنذكر هنا أسماء بعض الطواشى الذين عثرنا عليهم فى التاريخ، و هناك كثيرون منهم لكن لم نبحت عنهم فى الكتب لنقيد أسماءهم.

عدد/ اسم الطواشى / الملاحظات

١/ بوطيفار "قطفور" هو مولى نبي الله يوسف عليه الصلاة و السلام.

٢/ نارسييس / كان قبل الإسلام، و كان من قواد المملكة الرومانية الشرقية.

٣/ مابور القبطى / قدم مع مارية القبطية إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم.

٤/ أوريجانس / مفسر التوراة، ولد سنة ١٨٧ / ميلادية.

٥/ منويل الخصى / كان قائد جيش الروم لأخذ الاسكندرية من المسلمين فقتله عمرو بن العاص و فتح الاسكندرية

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٤

عدد/ اسم الطواشى / الملاحظات

مرة ثانية.

٦/ فتح / كان خصيا و هو حاجب يزيد بن معاوية

٧/ كافور الإخشيدي / كان خصيان حبشيا أسود اشتراه إخشيد، فصار فيما بعد ملكا على مصر.

٨/ مؤنس المظفرى / ولى سلطنة العراق.

٩/ ألماس آغا/ هو طواشى والده الخديوى عباس باشا الثانى سلطان مصر و باش آغا السراى الخديوية.

١٠/ كاظم آغا/ هو باب آغا والده الخديوى عباس باشا سلطان مصر.

١١/ خليل آغا/ هو طواشى الخديوى سعيدى باشا سلطان مصر.

١٢/ خليل آغا/ هو طواشى والده الخديوى السابق لمصر "أى إسماعيل باشا ثم توفيق باشا" و كان زعيم الأغوات و كبيرهم و هو صاحب مدرسة خليل آغا الشهيرة بمصر.

١٣/ أبا عبد الله محمد الغرناطى المعروف بالتراس/ جبّ نفسه خوفا من الوقوع فى معصية و صار من خدمة المسجد النبوى كان موجودا فى عهد ابن بطوطة كما ذكره فى رحلته أى فى سنة (٧٢٥) من الهجرة.

١٤/ جوهر آغا/ كان وزير مكة و كان موجودا بها فى عام (١١٠٩) كما ذكره الغازى فى تاريخه بصحيفة ٦٦١ من الجزء الأول و هو الذى أوفدته الدولة العلية العثمانية بالمرسوم الشاهانى بولاية الشريف سعيد بن سعد مكة فاستقبلوه استقبالا عظيما و ذلك سنة (١١١٣) كما ذكره الغازى أيضا بصحيفة ٢٥٣ من الجزء الثانى من تاريخه.

١٥/ درويش آغا/ وزير أمير مكة الشريف أحمد بن سعيد بن زيد فى سنة (١١٨٤) من الهجرة. أى وزيره و عامله على ينبع. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٥

عدد/ اسم الطواشى / الملاحظات

١٦/ رفعت آغا/ هو خليفة خليل آغا طواشى والده الخديوى إسماعيل باشا المذكور، فى إدارة وقفه الكبير بعد موته.

١٧/ بلال آغا/ خليفة رفعت آغا بعد موته.

١٨/ عبد الفتاح آغا/ شيخ الأغوات بالمسجد الحرام بمكة من سنة ١٣٢١ تقريبا.

١٩/ بهرام آغا/ رئيس أغوات قصر يلدز بالآستانه فى زمن السلطان عبد الحميد المتوفى سنة (١٣٢٨) هجرية.

٢٠/ نادر آغا/ رئيس أغوات قصر يلدز بالآستانه فى أواخر زمن السلطان عبد الحميد أيضا المتوفى سنة (١٣٢٨) هجرية.

انظر: صورة رقم ١٠٧، خليل آغا الطواشى المشهور

و الطواشى كثيرون فى كل عصر و لكن لا يذكر التاريخ إلا عظماءهم و من يشار إليهم كمن ذكرناهم هنا، و لقد كان سلاطين آل عثمان و سلاطين مصر و كبار العظماء و الأغنياء يقتنونهم فى قصورهم و منازلهم لاطمئنانهم لهم على النساء حينما كنّ محجبات أما اليوم و قد انتشر السفور بينهن و اختلطن بالرجال زالت دولة الطواشى حتى لا تكاد تذكر.

و هذا الجدول ليس القصد منه حصر جميع أسماء الأغوات، و إنما هذه الأسماء بحسب ما وصل إلى علمنا، و هناك كثير من الأغوات لم نطلع على أسمائهم، فى بعض الأقطار الإسلامية سابقا، و أما اليوم فقد انقرض جنسهم.

و بهذه المناسبة نذكر قصة صغيرة لأحد الأغوات للدلالة على ما كان لهم من السلطة فى قصور أسيادهم، نقلها باختصار عن مجلة المصور التى تصدر بمصر فى عدد ١٥٧٦ بتاريخ ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٧٤ هجرية- و هى:

لما انضم "خليل آغا" إلى حاشية والده إسماعيل باشا خديوى مصر، لم يمض وقت طويل حتى ظفر بثقتها فقربته إليها و منحتة سلطات مطلقة فى الإشراف على تربية الأمراء و الأميرات و تعهد مختلف شؤونهم التعليمية و الأخلاقية، فأصبح ذا سلطان و نفوذ لا يستطيع أحد أن يرد له كلمة أو يعصى له أمرا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٦

و كان خليل آغا حريصا على تنشئة الأمراء و الأميرات نشأة أخلاقية قويمه كريمة، غيرا على أن لا يصاب أحدهم فى كرامته أو تخدش سمعته، حتى لقد بلغ فى غيرته عليهم أن تطاول و صفع مرة إحدى الأميرات لأنها غابت خارج القصر مدة تزيد على المدة التى حددها لها عند خروجها، و ثار لهذا الحادث الأمراء و غضبت الأميرات، و لكن والده إسماعيل باشا وقفت إلى جانبه و دافعت عنه و أيدته فى موقفه، فمرّت العاصفة بسلام.

و لما تولى مصر توفيق باشا انتهزت الأميرة التى صفعها خليل آغا الفرصة وسعت لدى توفيق باشا بإعدامه فأصدر أمره بذلك و ترك

له الخيار في أن يموت بالسيف أو بجرعة السم، فجرع خليل آغا كأسا من السم الزعاف فقضى نحبه.

و خليل آغا هذا هو صاحب و مؤسس المدرسة المشهورة باسمه "مدرسة خليل آغا" التي كانت بأول شارع الدراسة بجوار جامع الأزهر الشريف ثم نقلت إلى جهة أخرى حين تنظيم الشوارع و توسعتها، و كان لهذه المدرسة أكبر الفضل في تعليم كثير من كبار رجال الدولة في الجيل الماضي و لا تزال المدرسة قائمة في تعليم أبناء الأمة إلى اليوم.

و لقد استطاع خليل آغا أن يجمع ثروة كبيرة من الأراضي و البيوت و العمارات، ثم وقفها من بعده على أعمال البر و الفقراء من الأغوات و العتقاء، و بلغت مساحة الأرض التي وقفها ألف و ثمانمائة فدان، و تعدد أوقافاته من الأوقاف الكبيرة ذات الإيراد الكبير الوفير، رحمه الله عليه و جزاه خير الجزاء. انتهى.

و من عجائب ما كان للأغوات من الصولة و المكانة، ما رواه صديقنا الأستاذ أحمد السباعي في كتابه "تاريخ مكة" بصحيفة ٢٥٧ حيث يقول:

و من غرائب ما يذكر أن بشير آغا الطواشي من مماليك السلطان مراد "أى الرابع" حج في عام (١٠٤٩) و كان يحمل تفويضا من السلطان بعزل و تولية من يرى توليته و عزله في البلاد التي يمر بها، فلما انتهى إلى مصر خرج و إليها للقائه في ظاهرها و قبل ركبته و مشى بين يديه إلى أن أذن له بالركوب، فلما انتهى خبر ذلك إلى الشريف زيد في مكة عزّ عليه أن يمشى في ركاب الطواشي، فاستشار الشيخ عبد الرحمن المحجوب، و كان من رجال العلم الصالحين، فقال له: اسأل الله أن يكفيك ذلك فاستجيب دعوته، لأن بشير آغا ما كاد يصل إلى مكة حتى سبقه إليها خبر وفاة السلطان مراد و بذلك بطل مفعول التفويض الذي يحمله،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٧

و دخل بشير آغا فقبله مقابلة عادية و صافحه ثم ركض زيد بفرسه حتى تقدم عليه و عزاه في السلطان فتضاءل بشير آغا لأنه كان يظن أن خبر الوفاة مجهول في مكة. انتهى.

و من غرائب ما وقع في عصرنا مما يكون عظة و عبرة، ما حدثنا به رئيس سدة الكعبة المشرفة صاحب السيادة و السعادة الشيخ محمد ابن الشيخ محمد صالح بن أحمد الشيبى، أنه رأى أن والى الحجاز التركي أحمد راتب باشا يقبل يد شيخ أغوات المسجد الحرام بمكة عبد الفتاح آغا و ذلك سنة (١٣٢٥) تقريبا، ثم رأى أن عبد الفتاح آغا المذكور يقبل يد مدير الشرطة العام بمكة مهدي بك و ذلك في سنة (١٣٤٧) سبع و أربعين و ثلاثمائة و ألف تقريبا أى بعد أن استولى على الحجاز جلاله الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله تعالى فسبحان المعز المذل.

و يذكر الأستاذ السباعي في كتابه أيضا بصحيفة ٢٩١ عن الأغوات ما نصه:

و في عهد مبارك "الذى تولى إمارة مكة في عام ١١٣٢" ثارت فتنة بين أغوات المدينة و رجال حاميتها من المعسكر، و ذلك أن رجلا من توابع الأغوات أراد الانخراط في سلك الجندية فحيل بينه و بين ذلك، فغضب لأجله أغوات المسجد و أغلظ بعضهم القول لرجال الحامية، فثارت الفتنة و تحصن الأغوات بالمسجد، فأراد قاضى المدينة أن يتوسط للصالح فامتنع الأغوات من الحضور إلى المجلس و لعلمهم خافوا ذلك، فاعتبرهم القاضى عصاء للشرع و أمر بقتالهم في المسجد فقاتلوهم فيه و بذلك عطلت صلاة الجماعة، ثم ما لبث الأغوات أن طلبوا الأمان فأبى رجال الحامية إلا بتقديم كبارهم إلى مكة ليرى الشريف مبارك رأى الشرع فيهم فقبلوا ذلك، و تقدم من كبارهم خمسة أو ستة أشخاص اعتقلتهم الحامية و أرسلتهم إلى الشريف مبارك في مكة فثبتت إدانتهم لديه فكتب إلى الخليفة بذلك فجاءت الموافقة بعقوبه بعضهم و نفي الآخرين. و أراد الأغوات أن يثاروا لنفسهم فاتصل بعضهم بعاصمة الخلافة في تركيا و أقنعوا المسؤولين بأنهم كانوا مظلومين و أن أسباب الفتنة كانت سعاية أهل المدينة على رأسهم عبد الكريم البرزنجى و كان من جملة علمائها فصدر الأمر بقتل المذكور و بعض المتهمين معه ففر البرزنجى إلى جدة، فقبض عليه حاكمها و نفذ

فيه حكم الإعدام ودفن "بحارة المظلوم" نسبة إليه. انتهى كل ذلك من "تاريخ مكة" للسباعي.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٨

ولقد كان قديما للأغوات شأن كبير في الدولة العثمانية حتى أنها تنتدب بعضهم للأمور المهمة، فمن ذلك ما ذكر الغازي في تاريخه المخطوط في الجزء الثاني بصحيفة ٢٥٣ أن أمير مكة الشريف سعد عرض على الدولة العلية العثمانية إقامة ولده الشريف سعيد مقامه فأجابته إلى ذلك في شهر ذى القعدة سنة (١١١٣) ثلاث عشرة و مائة و ألف و جاءت المراسيم بولاية الشريف سعيد مع آغا مخصوص فأدخلوه مكة بموكب عظيم، و جلس في الحطيم الشريف سعيد و صاحب جدة و القاضي و المفتي و أعيان الناس، فورد الآغا إلى الحطيم بالأمر السلطاني و التشريف للبس الشريف سعيد و لبس أرباب المناصب على جرى العادة و جلس للتهنئة و مدحه الشعراء بقصائد، و لما كان يوم السبت طلع الآغا الوارد بالفقطان بخلع سمور و كتاب آخر خاص لمولانا الشريف سعيد و ألبسه الفرو الوارد له من الأبواب السلطانية زيادة في الإكرام و العناية. انتهى من تاريخ الغازي.

و جاء في كتاب "الجدول المرضية" أن قطب الدين بن علاء الدين خوارزم شاه المتوفى سنة (٦١٧) سبع عشرة و ستمائة دخل عليه رجل من خدمة حجرة النبي صلى الله عليه و سلم فعظمه و أجلسه بجانبه و صار يأخذ يده و يتبرك و يمر بها على وجهه اه. فهذا الملك عمل على حد قول الشاعر:

أمّر على الديار ديار سلمى أقبل ذا الجدار و ذا الجدارا

و ما حب الديار شغفن قلبي و لكن حب من سكن الديارا

و جاء في العدد (١٩) من روايات الهلال بمصر الخاص بالانقلاب العثماني، الصادر في شهر رمضان عام ١٣٦٩ هـ، الموافق لشهر يولية عام ١٩٥٠ م عند الكلام على "حريم قصر يلدز" بالآستانة و معنى كلمه "يلدز" في اللغة التركية "النجم" و قصر يلدز جنه الدنيا كان هو مقر سلاطين آل عثمان، فقد جاء في العدد المذكور عمن كان في هذا القصر من الخصيان و الأغوات في زمن السلطان عبد الحميد خان الذي كان في حدود سنة (١٣٠٠) ألف و ثلاثمائة من الهجره ما نصه:

و في كل قصر من قصور النساء طائفة من الخصيان و الجوارى و السرارى للخدمة و التدريب، و على الخصيان رئيس يسمونه الباش آغا، و قد تداول هذا المنصب غير واحد في زمن عبد الحميد آخرهم نادر آغا، و صاحب هذا المنصب من

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٩

أكبر أصحاب النفوذ و السطوة لثقة السلطان فيه و ركونه إليه، و قد مر زمن كان الباش آغا فيه أقوى شوكة في الدولة من أكبر الوزراء.

و ذكروا أن زكي باشا أرادت الدولة إرساله قائدا لعساكرها في طرابلس الغرب، فجاء لوداع الباش آغا و هو يومئذ بهرام آغا، فدخل عليه و هو في مجلس حافل فوقف بين يديه و قال: "يا مولاي إن الدولة عيّنت عبدكم قائدا على عساكرها في طرابلس الغرب، و لى أمنيّة ألتمس من عنايتكم تحقيقها لتكون لى حرزا من ريب الدهر، و هى تقبيل يديكم الشريفة" ففقهه بهرام آغا و قال له: "متى وصل قدركم أن يتعدى رجلى إلى يدي."؟

و يذكرون من نوادر هذا الآغا أنه خرج إلى ظاهر السراى فى الوقت الذى وصل الروسون الغزاة فيه إلى سان استفانو، و ساد الفزع الأكبر، و شغل السلطان بتدبير ما يؤول إليه العرش العثماني الذى أورثه إياه آباؤه و أجداده العظام، فدخل عليه الآغا و قال له: "لا يهتم مولانا الأعظم، فقد خرجت إلى ظاهر القصر، و نظرت يمينا و شمالا فوجدت جميع ما انتهى إليه بصرى هو ملك جلالتك فلا تحزن فإنه يكفيننا."

و من أدله نفوذ أولئك الخصيان أن بهرام هذا منع عبد الحميد من إرسال جند عثمان إلى مصر فى أثناء الحوادث العرابية، و كانت إنجلترا قد أوعزت إليه أن يفعل ذلك ليحتل مصر مكانها، فزعم الآغا المذكور أن السلطان إذا أرسل جنودا إلى مصر لم يبق فى يلدز

من يحافظ على حياته.

و يلى الباش آغا من الخصيان طبقة المصاحبين، و اشتهر منهم جماعة كبيرة كان لهم شأن فى زمن عبد الحميد. انتهى من الكتاب المذكور.

هذا و لما كان لأغوات المسجد الحرام فيما سبق شأن كبير، كان تعيين أحدهم شيخا و رئيسا عليهم لا بد أن يكون من قبل السلطان و أن يصدر له بذلك مرسوم سلطاني، و قد ذكر القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى صورة من المراسيم السلطانية بذلك لكنها خاصة بأغوات المسجد النبوى- و نحن نذكر هنا نص كلامه فى كتابه المذكور مع نص المرسوم السلطاني- قال رحمه الله تعالى:

و قد جرت العادة أن يكون له خادم من الخصيان المعبر عنهم بالطواشيء يعين لذلك من الأبواب السلطانية، و يكتب له توقيع فى قطع الثلث "بالمجلس السامى" بالياء، مفتتحا "بالحمد لله."

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٠

و هذه نسخة توقيع شريف من ذلك:

الحمد لله الذى شرف بخدمة سيد الرسل الأقدار، و فضل بالتأهل للدخول فى عداد كرمه بخدمته من اختاره لذلك من المهاجرين و الأنصار، و جعل الاختصاص بمجاورة حرمة أفضل غاية تهجر لبلوغها الأوطان و الأوطار، و عجل لمن حل بمسجده الشريف توبأ أشرف روضة ترددها البصائر و ترودها الأبصار.

نحمده على نعمه التى أكملها خدمة نبيه الكريم، و أفضلها التوفّر على مصالح مجاورى قبر رسوله الهادى إلى الحق و إلى طريق مستقيم، و أجملها الانتظام فى سلك خدمته حرمة لأنها بمنزلة واسطة العقد الكريم العظيم، و نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مزلفة لديه مقربة إليه، مدخرة ليوم العرض عليه، و نشهد أن سيدنا محمدا عبده و رسوله أشرف نبي بعث إلى الأسود و الأحمر، و أكرم من أنار ليل الشرك بالشرع الأقرم، صلى الله عليه و على آله و أصحابه الذين فخرت الحبشة بهجرتهم الأولى، و نجا النجاشى بما اتخذ عندهم من السابقة الحسنه و اليد الطولى، و أولى بلالهم من السبب إلى خدمته أشرف الأنبياء عليه و عليهم أفضل الصلاة و السلام، أفضل ما يولى، صلاة لا يزال شهابها مرشدا، و ذكرها فى الآفاق مغيرا و منجدا، و سلم تسليما كثيرا.

و بعد، فإن أولى ما أعتد عليه من أفاء الله عليه من نعمه و أفاض عليه من ملابس كرمه، و شرف قدره بأن أهله لخدمته سيد الرسل بل لمشيخة حرمة، و خصه برتبة هى أسنى الرتب الفاخرة، و أجمع الوظائف لشرف الدنيا و الآخرة، من رجحه لذلك دينه المتين، و ورعه المكين، و زهده الذى بلغ به إلى هذه الرتبة التى سيكون بها- إن شاء الله تعالى- و جيتها فى الدنيا و الآخرة و من المقربين.

و لما كان فلان هو الذى أدرك من خدمته سيد الرسل غاية سؤله، و زكت عند الله هجرته التى كانت على الحقيقة إلى الله و رسوله، و سلك فى طريق خدمته الشريفة أحسن السلوك، و انتهت به السعادة إلى خدمة رسول الله صلى الله عليه و سلم ليعرض بجوهرها الأعلى عن عرض خدمة الملوك، و فاز من مجاورة الحجره الشريفة بما عظمت عليه به المنه، و حل به مما بين القبر و المنبر فى روضة من رياض الجنة، و أقام فى مقام جبريل، و مهبط الوحى و التنزيل، يتفيا ظلال الرحمه الوارفة، و يتهيا من تلك النعمة بالعارفة بعد العارفة تعين أن يكون هو المحلى بعقود مشيخة ذلك الحرم، و المتولى لمصالح هذه الطائفة التى له فى التقدم عليهم أثبت قدم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤١

فرسم بالأمر الشريف لا- زال ... أن تفوض إليه المشيخة على خدام الحرم الشريف النبوى: للعلم بأن العامل الورع، و الكافل الذى يعرف أدب تلك الوظيفة: من خدمته الرسول صلى الله عليه و سلم على ما شرع، و الزاهد الذى آثر جوار نبيه على ما سواه، و الخاشع الذى نوى بخدمته الدخول فى زمرة من خدمه فى حياته "و لكل امرئ ما نواه."

فليستقر فى هذه الوظيفة الكريمة قائما بأدابها، مشرفا بها نفسه التى تشبثت من خدمته الشريفة بأهدابها، سالكا فى ذلك ما يجب، محافظا على قواعد الورع فى كل ما يأتى و ما يجتنب، قاصدا بذلك وجه الله الذى لا يخيب لراج أملا، و لا يضيع أجر من أحسن

عملا، ملزما كلا من طائفة الخدام بما يقربه عند الله زلفى، و يضاعف الحسنه الواحدة سبعين ضعفا، هاديا من ضل فى قوانين الخدمه إلى سواء السبيل، مبديا لهم من آداب سلوكه، ما يغدو لهم منه أوضح هاد و أنور دليلا، و فيه من آداب دينه ما يغنى عن تكرار الوصايا، و تجديد القضايا، و الله تعالى يسدده فى القول و العمل، و يوفقه لخدمه سيد المرسلين صلى الله عليه و سلم و قد فعل بمنه و كرمه. انتهى من كتاب صبح الأعشى من المجلد الثانى عشر.

و لم نر القلقشندى ذكر فى كتابه المذكور صورة مرسوم سلطاني لأغوات المسجد الحرام، و سببه و الله تعالى أعلم أنه كان للمسجد النبوى أغوات فى زمانه فقد أرسلوا إليه الطواشيه سنه (٥٥٧) كما سبق الكلام عليه، و أما المسجد الحرام و إن كان به خدم لكن لم يكونوا طواشيه، فطواشيه المسجد الحرام حدث فيما بعد ذلك، و القلقشندى صاحب كتاب صبح الأعشى مولود سنه (٧٥٦) فالظاهر إما أنه إلى هذا الوقت لم يكن فى المسجد الحرام طواشيه، و إما أنه لم يعثر على صورة مرسوم سلطاني لهم. و الله تعالى أعلم. و لأغوات المسجد الحرام كثير من الأوقاف المرصوده لهم فى بعض البلدان كبغداد و البصره و الشام و المغرب.

أغوات المسجد الحرام فى عصرنا هذا

عدد أغوات المسجد الحرام فى عصرنا هذا (٢٤) أربعة و عشرون شخصا عليهم شيخ و نقيب. فمن أعمالهم القيام بتنظيف دائره المطاف و ما يليها فقط ليلا و نهارا، و القيام بخدمه الخطيب حال الخطبه على المنبر، و لهم لباس خاص يعرفون التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٢ به، كما لهم نظام مستقلون به، و كل منهم له لقب خاص اصطلحوا عليه فيما بينهم، يحترمون شيخهم و لا يخرجون عن أمره مطلقا. و كنا نرغب أن نأتى بنظامهم و القوانين التى يمشون عليها بدقه تامه، لكن صرفنا النظر عن ذلك حتى لا يطول بنا الكلام.

مبدأ الرق و الاسترقاق

نكتب هذا الفصل بمناسبة ما ذكرنا عن أغوات المسجد الحرام (أى الطواشى) قال فى المصباح المنير ... "و الرق بالكسر العبوديه و هو مصدر رق الشخص يرق من باب ضرب فهو رقيق ... و يطلق الرقيق على الذكر و الأنثى و جمعه أرقاء ... إلخ. "اه. و قال بعضهم فى الرق هو: حرمان الشخص من حريته الطبيعیه و صيرورته ملكا للغير، و فى عرف الفقهاء: عبارة عن عجز حكى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر، و النخاسه بيع الرقيق و الدواب، و النخاس البياع أى الدلال. و مبدأ الاسترقاق يرجع إلى العصور الأولى منذ نشأه الاجتماع الإنسانى، و هو أمر طبيعى للبشر فالتقوى يسخر الضعيف لخدمته، و منذ ظهور الحروب على وجه الأرض و التطلع إلى تملك البلدان و الأقوام اتسع نطاق الاسترقاق و العبوديه. فكان الرق عند قدماء المصريين و الهنود و الأشوريين و الفرس و الصينيين و العبرانيين و اليونانيين "الإغريق" و الرومانيين و غيرهم، و الأرقاء عند هؤلاء الأمم أنواع و أقسام و لهم نظام و قوانين عند كل أمه منهم يعاملونهم بموجبها ذكرها الأستاذ أحمد شفيق بك المصرى فى كتابه "الرق فى الإسلام" و هو كتاب صغير الحجم يقع فى ١١٢ صحيفه، ألفه المذكور باللغة الفرنساويه و ترجمه الأستاذ أحمد زكى إلى اللغة العربيه و قد طبع الطبعة الأولى سنه ١٣٠٩ هجرية الموافق لسنة ١٨٩٢ ميلاديه بالمطبعة الأهليه الأميريه ببولاق بمصر، و الحق أنه كتاب قيم وفق فيه المؤلف أعظم توفيق، و زاد من قيمته التعليقات و الحواشى التى كتبها فيه مترجمه إلى اللغة العربيه الأستاذ أحمد زكى، و نظنه هو شيخ العروبه "أحمد زكى باشا" فيما بعد.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٣

و قد بين المؤلف فى كتابه حكم الاسترقاق فى بعض الديانات و كذلك فى الديانه الإسلاميه التى حثت على حسن معامله الأرقاء و على عتقهم. و يستحسن أن نذكر ما قاله المؤلف المذكور رحمه الله تعالى فى الفرع الخامس بصحيفه ٩٣ عن خلاصه ما تقدم من

كتابه المذكور و هو هذا بنصه:

من الآيات القرآنية الشريفة و الأحاديث النبوية الكريمة و أقوال الأئمة و شواهد التاريخ التي سردناها في المطالب السابقة، يتضح أن الديانة الإسلامية قد حصرت من غير شك و لا وراء حدود الاسترقاق و عملت على إنضاب منبعه، إذ حتمت شروطا و فرضت قيودا لا بد منها لوقوع الاسترقاق، و بينت الطرق و أوضحت الوسائل التي يكون بها الخلاص من ربقة، فإذا اتفق لشخص مع كل هذه الوسائط و وقع القضاء المحتوم عليه فأوقعه في الاسترقاق، فقد رأينا أن الشريعة الإسلامية لا تتخلى عنه و لا تتركه و شأنه، بل تبسط عليه جناح حمايتها و لواء رعايتها فتعتبره جديرا بالشفقة خليقا بالمرحمة لما تراه فيه من الضعف و المسكنة، و لذلك وردت فيها الوصايا التي تفرض على الموالى أن يعاملوا أرقاءهم كما يعاملون أنفسهم، و أن يسعوا في إسعادهم و نعومة بالهم و تأديبهم و تهذيبهم و تعليمهم، و أن لا يزدروا بهم و لا يضيعوا من قدرهم، و أن يزوجهم أو يتزوجوهن تعجيلا لتخليصهم من ربقة الرق و إيرادهم موارد الحرية. هذا و إن العتق الذي جئت فقط على ذكر قواعده العمومية و أصوله المهمة على وجه الإجمال لهو و الحق يقال من أفر ما يفتخر به الإسلام، فإن شريعتنا المحمدية قد سعت في تقويض دعائم الاسترقاق و تدمير معالمه، و لكن كيف العمل؟ هل كان الموافق المبادرة بتحريم أمر امتزجت به عوائد العالم كله منذ ما وجد الاجتماع الإنساني و توالى عليه الأيام و الأعوام و الشهور و الدهور، إلا أن ذلك كان يجزّ وراءه بلا شك انقلابا عظيما في نظام الاجتماع، و فتنه كبيرة في نفوس الأمم و الأقوام. فلماذا جاءت شريعة الإسلام بهذه الغاية من طريق آخر تزول أمامه الصعوبات و تتدلل العقبات، بدلا من تهيج العقول و إثارة الخواطر و الأفكار، بإلغاء الاسترقاق مرة واحدة، فخوطب المسلمون بأن يتقربوا إلى الله تعالى بعتق العبيد المساكين في ظروف كثيرة و أحوال متنوعة. و حث النبي صلى الله عليه و سلم كثيرا على السعى في نوال هذه الغاية الجليلة، و لذلك جاءت قواعد العتق في غاية السعة و نهاية اليسر،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٤

بحيث يتسنى دائما للرقيق أن يجد فيها طريقا يساعده على الخلاص من الاستعباد إذا طلب ذلك بل و لو لم يطلبه.

انتهى من كتاب "الرق في الإسلام" و هو كلام عليه طلاوة و حلاوة كما لا يخفى.

نقول: إن من أهم ما عثرنا عليه صورة العقد الذي أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بكتابتته و يتضمن عتق مولاه أبي رافع رضى الله عنه، و هو صورة فريدة للعتق النبوي أحببنا نقلها هنا. و إليك نص العبارة:

صورة عقد عتق أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم

جاء في كتاب التراتيب الإدارية في الجزء الأول ما نصه: قال القاضي ابن باديس في شرح مختصر ابن فارس نقلا عن العمدة لأبي عبد الله التلمساني:

الصحيح في اسمه أسلم لأجل عقد عتقه و نصه بخط الحكم المنتصر بالله أمير المؤمنين بن عبد الرحمن الناصر المرواني "بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من محمد رسول الله لفتاه أسلم إني أعتقك لله عتقا مبتولا. الله أعتقك و له المنّ على و عليك فأنت حر لا سبيل لأحد عليك إلا سبيل الإسلام و عصمة الإيمان شهد بذلك أبو بكر و شهد عثمان و شهد علي و كتب معاوية بن أبي سفيان كان في الكتاب معاوية. ما كان بخط الحكم."

قال الشيخ أبو عبد الله: كتبه من منقول نقل من خط الحكم ه. فهذا عقد في عتق نبوي بنصه من الذخائر المكنونة و الكنوز الثمينة فتلقه شاكرا و للمغاربة ذاكرة حيث إن كلا من الحكم المنتصر و صاحب العمدة و فوائد الدرر مغاربة، و كأنه لم يقف عليه أحد من أعلام المشرق فلذلك لا تراه في مدوناتهم الأثرية.

و سيأتي في باب الوقف ما يقتضى أن الصحابة كانوا يكتبون أوقافهم و سياق بعض نصوصها فانتظره في محله (ز قلت) انتهى من

كتاب التراتيب الإدارية.

و مما يلحق بهذا الفصل من باب الاستطراد: أنه في سنة (١٢٧١) إحدى و سبعين و مائتين و ألف من الهجرة جاء أمر من دار السلطنة العثمانية إلى الوالى التركى بمكة كامل باشا بمنع بيع الرقيق علنا فى الأسواق تنفيذاً لمعاهدة خاصة بين الدولة العثمانية و بعض الدول الأوروبية فبلغه كامل باشا لدلالى الرقيق فلما علم أهالى مكة بذلك تنادوا بالجهاد و اجتمع طلبة العلم فى بيت رئيس العلماء الشيخ التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٥

جمال شيخ و طلبوا إليه أن لا- يرضخ لما يخالف الشرع و أن ينتقل معهم إلى دار القاضى ليمنع صدور ذلك الأمر، فلما مشت جموعهم فى الشوارع انضم إليهم الجمهور و نادوا بالثورة و اشتبكوا مع الأتراك فى قتال عنيف و امتد القتال إلى المسجد الحرام فقتل فيه عدة أشخاص من الفريقين، فلما انتهت الأخبار إلى الشريف عبد المطلب و كان بالطائف غضب للأمر و جمع جموعه من القبائل لإعانة الأهالى فى مكة ضد الترك، فخف الأتراك إلى جدة و تحصنوا بها و أعلن كامل باشا فى جدة أن المراسيم السلطانية قد وصلت إليه بعزل عبد المطلب و تولية الشريف محمد بن عبد المعين بن عون ... الخ ما ذكره الأستاذ السباعى بصحيفة ٣٧٥ من كتاب "تاريخ مكة." و تؤخذ من هذه الرواية جملة أمور لا تخفى على العاقل اللبيب.

اقتناء الجوارى

جاء فى الجزء الأول من كتاب كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب المطبوع سنة (١٢٨٨) ثمان و ثمانين و مائتين و ألف من الهجرة بالآستانه عن اقتناء الجوارى ما يأتى:

لا يخفى أن تملكك الجوارى السود بالآستانه يعد من النقم لا النعم، فأبين الآن سببه بالتفصيل، و هو أن جميع هؤلاء النساء يعتقدن بالجن و العفريت، و يتشاءمن و يتطيرن، و كل واحدة منهن لها فى الشهر يوم معلوم ينتابها فيه الجن، فإذا زارها طلبت أن تذهب إلى زعيمتها و قدوتها لكي تبخرها و تعزم عليها، و إلا- فإنها تلزم الفراش و تمارض و لا تأتى شيئاً من الأعمال، و متى ذهبت لزمها أن تنقد الزعيمة ريالاً مجيدياً، و إذا كان لصاحب العيلة جارية واحدة استوحشت منه و من عيلته و داره، و طلبت أن تشفع بأخرى لتؤانسها و تحمل عنها أثقال الخدمة، فإذا حضرت الثانية و كانت من غير بلادها و جنسها، وقع بينهما الخصام و النزاع، فأدى ذلك إلى بيع إحدهما، فإن كانت من بلادها و جنسها تألفتا على الشر و الخباثت، و لا سيما إذا كان فى الدار خادم من الرجال، و من عادتتهن أنهن لا يخرجن إلى السوق لشراء ما يلزم لصاحب الدار من نحو المأكولات و المشروبات، فيضطر فى هذه الحالة إلى أن يكون عنده خادم مخصوص لهذا أو أنه يذهب بنفسه و يشتري ما لزمه، فهذه حالة الجوارى السود اللاتى يقع عليهن البيع و الشراء فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٦

الآستانه لكونهن أسيرات، فمن سمع من الإفرنج بأن نوعاً من جنس بنى آدم يباع و يشتري، استعظم ذلك و عده مغايراً للإنسانية، و الحال أنه أسر للمشتري (بكسر الراء) لا للمشتري (بفتح الراء)، فإن الأول هو الذى يشقى و يعنى بوجود الجوارى، فى حالة كونهن منعمات مترفها، لا يخرجن من الديار إلا للتنزه، و لا يأتين من الأعمال إلا ما طاب لهن، و شر ما فى القضية أنه لا بد منهن، إذ لم تجر العادة عند متوسطى الحال من أصحاب العيال، أن يستخدموا نساء من النصارى، و إنما يجوز ذلك لرجال الدولة، و زد على ذلك أن مفتشى الضبطية صاروا الآن يفتشون السفن التى يجلب فيها الجوارى، فإذا ظفروا بطائفة منهن أحضروهن إلى ديوان الضبطية، و هناك يحجز عليهن و يمنعن من البيع، فالظاهر أن الدولة عازمة على منع جلب الرقيق رأساً، و هو من بعض المآثر التى تبديها فى هذه الأيام.

و لكن إذا كان هذا الأمر واجبا عندها و جب أيضاً أن يمنع البيع من بيوت النخاسين، مع أنا نرى النخاسين لا يتحاشون من البيع أصلاً، فالأولى إذا أن تمنع البيع و الجلب معا أو تتركهما معا، و فى الحالة الأولى يقع الناس فى داهية من الحاجة إلى الجوارى، كما وقعوا

في داهية من الحاجة إلى وجود الديار، إذ ليس في الآستانة من الخوادم من يسد مسد الجوارى، فنحتاج والحالة هذه إلى استخدام نساء النصارى أو اليهود، إذ ليس من المحتمل أن يأتينا نساء من الأناضول أو غيرها للخدمة. وسبب ذلك فيما قيل لى أن صاحب العيلة إذا استخدم نساء من البيض، فربما تافت نفسه إلى إحداهن فيتزوجها، فتكون ضرة على زوجته الأولى، فلهذا كان من هم النساء المتروجات هنا أن يقتصرن على الجوارى السود، فكأنهن يزعمن أن الرجال البيض لا يشتون النساء السود، ولعل عدم استخدام نساء النصارى هو أيضا من هذا القبيل، أعنى لكيلا يكون سببا في عشق الرجال لهن فالظاهر أن الرجال هنا لا هم لهم إلا- النزو على النساء، أو أن النساء لما كن لا يفكرن إلا في الرجال لعدم اشتغالهن بشيء من أمور المعاش، يحسبن الرجال مثلهن، و مهما يكن من صحة أحد هذين الاحتمالين، فالمهم الآن أن يتبصر في قضية هؤلاء الجوارى، و في الاستغناء عنهن من قبل أن يقال لنا أن بيعهن صار محظورا، و قد طالما تمنينا أن تكون الآستانة سالمة من هذه المصيبة، كما سلمت تونس بل مصر أيضا قد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٧

أشرفت على السلامة منها، إذ يقال أن الرقيق فيها متى شاء التلخص من الرق ذهب إلى ديوان الضبطية و طلب العتق فيعتق في الحال، مع أن أهل تونس و مصر يمكنهم الاستغناء عن الجوارى السود بنساء الأرياف، أما في الآستانة فلا غنى عنهن، فلا بد لصاحب العيلة العتيق أن يصير أسيرا باستخدام واحدة أو اثنتين من هؤلاء الأسيرات.

فبقى لنا أن نسأل هنا هل تدارك هذا الأمر منوط بالجواب أو بالمجلس البلدى أو بالدولة؟ فإن رجع الأمر إلينا قلنا: أن استخدام النساء بالأجرة أولى من شراء الرقيق، فإن المرأة متى كانت مستأجرة حرصت على أجزتها فقامت بواجب خدمتها أتم قيام، و صانت أمتعة البيت عن الكسر و الابتذال، بخلاف الجوارى فإنهن عفك لا يحسن شيئا من الخدمة، و لا يأتين عملا إلا تكلفا، و لا يزلن في تسخط و دمدمه، ما عدا كونهن مميزات بزيارة الجن، و لكن من أين الحصول على الخوادم بالأجرة، إذا كانت العادة لا- تسوغ استخدام نساء من الأناضول، و لا- من النصارى و لا- من اليهود و لا- من التور- العجر- كما أنها لا تسوغ العمل لصاحبة البيت و لا لبناتها، فإن النساء إنما خلقن هنا للزينة فقط، فقد أعجزتنا الحيلة في أمر هؤلاء الجوارى، كما أعجزتنا في الديار و ترتيب الأسواق، فلم يبق لنا إلا تفويض ذلك إلى المجلس البلدى، جيران سكنى الآستانة في هذه الأوقات صارت أمرا شاقا و تعباً باثقا، إذ على فرض أن يكون الإنسان فيها ذا وظيفة، فلا يجد فيها ما يأكل و لا ما يشرب و لا ما يركب و لا ما يسكن، فأينما توجه في طلب ما يعوزه وجد دونه مصاعب و مشاقا، خلافا لبلاد أوربا، فإن الصعوبة فيها إنما هي في تحصيل الوظيفة، فمتى حصل عليها فقد حصل على كل ما يتمناه و يشتهيه، فما دامت هذه الحال عندنا هكذا، فألف معلم و أستاذ و مترجم، في دار الفنون و مجلس المعارف لا يغنون شيئا، و إنما هي أمانى يتشاغل بها الذين لا شغل لهم، إذ لو كان مرادنا الجد في أسباب التمدن، لوجب علينا أن نفكر بادئ بدء، في أن الآستانة قد خلت عن عشرة آلاف دار في الأقل، و أنه ليس في كل خمسمائة دار قائمة فيها دكان واحد تباع فيه البقول الطيبة أو الفاكهة الناضجة أو الخبز الخاص، و إنما هو سداد من عوز، فأى نفع يحصل من تكثير المكاتب و الكتب و المترجمين، إذا كان بائع الخضراوات ليس عنده عرق من البقول، و قد نرى أن كثيرا ممن ساسوا البلاد وضبطوها أحسن ضبط، لم يكونوا يعلمون بوجود أو ميروس و فرجيل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٨

و راسين و شلر و شكسبير، فأهم ما نحتاج إليه إنما هو الهمة، لا الترجمة و ترتيب الأسواق و الدكاكين و لا تكثير المترجمين. انتهى من الكتاب المذكور.

جاء في الجزء الأول من كتاب كنز الرغائب من منتخبات الجوائب المطبوع سنة (١٢٨٨) ثمان وثمانين و مائتين و ألف من الهجرة بالآستانه عن بيع الرقيق في الآستانه ما يأتي:

قد تقرر في خواطر أصحاب البيوت الموسرين و غير الموسرين بالآستانه، أنه لا بد من شراء الجوارى البيض و السود لخدمتهم أو للتمتع بهن، فتجد في بيت الموسر عدة منهن، و الغالب أن الجوارى السود يخدمن في المطبخ، و أما الجوارى البيض فإنهن يستخدمن في تنظيف الحريم، و الفرش و الخياطة و ما أشبه ذلك، و من العادة أنه متى أراد أحد أن يشتري واحدة من هذه الجوارى أبقاها عنده يومين أو ثلاثة للتجربة، فتظهر الجارية في خلال ذلك غاية الخضوع و الانقياد و الاجتهاد في أشغال البيت و الحرص على تنظيف آنيته و فرشه، و يظن الإنسان أنه قد ظفر بضالته التي يطلبها، حتى إذا أدى ثمنها تخلقت بأخلاق أخرى، فتتقاعس عن العمل، و تأخذ في تعداد محاسن البيت الذي كانت فيه أولاً فتقول إني كنت هناك آكل كذا و أشرب كذا، و كنت أتنزه في الحدائق و أنتعم في الحمام و أخرج إلى الأسواق، و كان لي جارية، مخصوصة لخدمتي، لأن سيدي الأول كان يفضلني على جميع جواريه، بل كان يحبني حتى غارت زوجته مني فخاصمته لأجلي، و حيث كان له منها بنون و بنات لم يسعه إغضابها فباعني، و هو إلى الآن يحبني و يود أني أعود إليه، ثم تأخذ في استعمال حيل و مكائد تستميل بها قلب سيدها الثاني إليها، فتتبعه إلى مواضع خلوته و راحتها، لأنها تعلم أنها إذا علفت منه تعتق، فلذا تجعل أقصى همها و إربها في الحصول على الحرية من هذا الوجه، فإن من يملك جارية لا يعتقها إلا إذا علفت منه، و إذا كان قد مضى عليها في خدمته سبع سنين و ربما أعتقها لوفاء نذر عليه، و ذلك كأن يقول: إني إذا حصلت على منصب أو تزوجت فلانة أعتقت إحدى جوارى، فإذا علمت أن سيدها معرض عنها ملت الإقامة عنده، فتأخذ في كسر آنيته و إتلاف حاجته، و فعل ما يغيظه و يغيظ زوجته رجاء أن يبيعها، فإذا سألتها سيدتها لأي شيء كسرت الحاجة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٩

الفلائية، قالت لها: إن ثمنى أغلى من ثمنها، و إن هي إلا حويجة فما ينبغى أن تشغلي خاطر ك بها، و لا تزال تأتي مثل هذه الأفعال حتى يضطر سيدها أو سيدتها إلى بيعها، و لا- يكون ذلك إلا بخسارة و هي من ألف قرش إلى ألف و خمسمائة هذا في الجوارى السود، أما في الجوارى البيض فأضعاف هذا المبلغ.

و هنا مفسدة قد تواطأ عليها الذين يبيعون الرقيق، و هي أنهم يغرون هؤلاء الجوارى بعدم الإقامة عند من يشتريهن، فإذا عزم أحدهم على بيع واحدة منهن، قال لها: لا تمكثي عند سيدك إلا إذا أرضاك تمام الرضى، فإذا كان لا يرضيك فاطلبى منه أن يبيعك و أنا أرى لك موضعاً آخر يليق بك، و القصد من ذلك منفعه نفسه لا منفعه الجارية، لأن مالك الجارية إذا أراد بيعها فإنما يبيعها في الغالب لمن اشتراها منه، و ذلك لا يكون إلا بوضع من ثمنها الأصلي كما تقدم، و مع أن أقصى مرام هؤلاء الجوارى هو التفريق ما بين الرجل و زوجته، أو إفساد بنيه إن كان له بنون، أو إفساد امرأته حتى يستحوذن عليها، فما أحد من أصحاب البيوت تنبه إلى الآن لاستئصال هذا الشر، فتراهم أبداً مدخلين جارية و مخرجين أخرى، و هذا مع عسر الأحوال في هذه الأوقات من أعجب العجائب، و الظاهر أنه لا- علاج لهذا الداء، لأن النساء الفقيرات من الترك يستكفن من الخدمة بل يحسبها معرة فلا يكون بد و الحال هذه لأصحاب البيوت من شراء هؤلاء الجوارى المفضى إلى خراب بيوتهم، فكم لعمري من بيت خرب بسببهن، إما بتطليق الرجل زوجته و أم أولاده في حب واحدة منهن، و إما بإسرافه عليهن إن رضيت الزوجة بالإقامة معه، و إما أنهن يحرقن البيت بما فيه تشفياً من حنقهن على سيدتهن، و إما لسبب آخر و لا أكثر من الأسباب التي تخرب بها البيوت العامرة.

على أنك إذا تأملت في أصل بيع هؤلاء الجوارى، علمت أنه فاسد لا يسوغه مسوغ سوى العادة، إذ هو مخالف للإنسانية فضلاً عن كونه مغاير للدين أما الجوارى من الجركس، فكل يعلم أن أهلها و أقاربها هم الذين يبيعونها، و ذلك لعدة أسباب:

أحدها: أن الجراكسة في الزمان القديم كانوا يغيرون على أعدائهم و يسبون منهم و كانوا يبيعون السبي، ثم اختلط سبيهم بذرارهم فلم يهمهم تمييز أحدهما عن الآخر.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٠

والثاني: أنهم كانوا يزعمون أن بيع الجواري والغلمان في الممالك العثمانية الإسلامية، أولى من إقامتهم تحت الحكومة الروسية. والثالث: ولعله أعظم الأسباب أنه يبلغهم عن دار الخلافة أنها دار عز وسعادة و ثروة وجاهة، فإذا باعوا ذريتهم لأحد من عظمائها ترجوا أن ذلك يكون في المستقبل مفيدا لهم، فضلا عن فائدة الثمن، حتى أن البنات ليلتمسن من آبائهن بالباح أن يبيعهن، إذ يزعمن أنهم متى جئن إلى دار الخلافة وجدن جميع أبواب الحظ والرفاهية مفتحة لهن، فيلبسن الديباج، ويتحلين بالماس والزمرد والياقوت والدر والمرجان، ويتنعمن في الحمام ويتزهن في الحدائق، ويركبن الكروسات البهية، ويتكئن على الأرائك المزخرفة، ويرقدن على فرش مرفوعة محشوة بريش النعام، ويتلذذن بأفخر الطعام، ويقوم بين أيديهن عدة من الوصائف.

فأين هذه العيشة من عيشة الجبال، ورعاية الماشية و جمع الحطب، وحمل الأحمال الثقيلة، مع التقشف والتردى بأخلاق الشباب، وتحمل حر الصيف وبرد الشتاء، وفي الحقيقة فإن كثيرا من أمانى هؤلاء الجواري قد صح و وقع فعلا، وكثيرا من أولئك الآباء الذين طابت نفوسهم عن بيع ذريتهم قد انتفخوا بغياهم عنهم أكثر من نفعهم بحضورهم عندهم، فإن الأب متى عرف أن بنته استقرت في دار أحد الأمراء وحظيت عنده انتابها حيناً فحيناً، ونال من فواضل سيدها ما يطيب عيشه به، ولقد بلغنا عن كثير من هؤلاء الجواري أنهم يعترفن جهرا بأنهن حرائر، وأن بعض أقاربهم هم الذين باعوهن، لنفع كل من الفريقين، إلا- أنهم يخترن عيشة الأسر على عيشة الحرية، فإنهن في حالة الحرية مجهودات لا يظهرن لهن مع جهدهن حسن ولا جمال، فما يتصين والحالة هذه أحدا من الناس، بخلاف ما إذا ترفهن وتنعمن في حالة الأسر، فإنهن يطمعن حينئذ في أن ينتقلن من دار إلى صرح، ومن غنى إلى أغنى، إلى أن يتمتعن بجميع لذات المعيشة، فبقى لنا أن نسأل أهل الرشد والإنصاف هل يجوز للأب أن يبيع أولاده لأجل هذا النفع، أم يجوز إبقاء هذه العادة الذميمة مراعاة لشهوات الأغنياء القادرين على مشتري الجواري، وهل أحد بذل جهده عند شراء واحدة منهم في تحقيق معرفة حالها ليعلم هل هي حرة أو سبي؟ كلا، وإنما هي نهمه البطرين المترفين على تملك هذا الجيل، لما تقرر في عقولهم من أن وصائف السراية السلطانية منه، فيتهاقون عليهن كيفما اتفق.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥١

لعمري إن من ولد في دار الإسلام مسلما لجدير بأن يكون حرا وإن كان أبوه أو جده أسيرا، ولكن متى كان هذا الأسر و أين الدليل عليه، وكيف أمكن للجرا كسة أن يحفظوا علم ذلك عندهم منذ مائتي سنة، وكثيرا ما ترى أحدهم قادما إلى الآستانه ومعهم أطفال صغار يشبهونه خلقا و هيئه فإذا أشبعته أحدهم باعه في الحال، فكيف يمكن أن يحكم بأن أصل هؤلاء الأطفال أسرى وهم يشبهونه؟ وهب أن أصلهم من السبي فكان من الواجب أن كل من يضع قدمه في أرض الآستانه يصير حرا، ومع أن الدولة العلية قد نهت عن بيع الجرا كسة منذ سنتين فأكثر، وبذلك طبلت جرنالات الإفرنج المنشورة فيها وزمرت، فلم يزل هذا الأمر مباحا لكل واحد، فكل من أراد أن يشتري جارية بكرا كانت أو ثيبه وجدها على طرف الثمام.

و أما تشريف الجواري السود لهذه الأوطان فله سببان:

أحدهما: أن سكان البلاد المجاورة لبلادهم يخطفونهن خطفا، ثم يأتون بهن إلى بعض الجهات التي يروج فيها بيعهن و يبيعهن بثمان بخس.

والثاني: أن قبائل بلاد السودان الذين دأبهم القتال و شن الغارات و النهب، متى ظفرت قبيلة بأخرى باعت نساءها و أولادها و أفنت رجالها.

والذي يفهم من كلام الجواري أن أولئك القبائل مسلمون، فإذا أخذنا بقولهن و اعتبرنا طريقة الخطف حكما بأن بيعهن حرام قطعا، وإذا فرضنا أن تلك القبائل ليسوا على الإسلام، فالسياسة تقتضى منع هذه التجارة الذميمة، فإن الدولة الروسية قد حررت جميع من كان في بلادها على حالة العبودية و كان مقدارهم عظيما، وكذلك دولة أمريكا الشمالية حاربت سكان الجنوب أربع سنين لإبطال

العبودية من أرضها، مع أن أهل الجنوب كانوا من ذوى قرابتهم، و الآن لا يوجد فى روسية و أميركا أحد رقيقا، فكلهم نالوا الحرية التامة، فأجدر بالدولة العلية أن تعتق من فى بلادها من العبيد و الإمام و إننا أجدر الناس جميعا بهذا العمل الخيرى من عدة أوجه: أولها: أن هؤلاء الجوارى لا يحسن الخدمة اللازمة لأصحاب العيال، فإنهن لا يعرفن الخياطة، و لا غسل الثياب، و لا تنظيف الديار، و لا تنضيد فرشها، حتى الطبخ لا يدرين منه شيئا معجبا لذى الذوق السليم، مع أنهن إنما يشتريهن له.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٢

و الثانى: أن عدددهن بالنسبة إلى عبيد أميركا قليل جدا، و إن يكن فى كل دار من ديار الآستانة واحدة منهم أو أكثر، إذ داخل المملكة خال بحمد الله منهم، فلا تكاد ترى لهن هناك عينا و لا أثرا، و إن رأيت فإنما يكون فى بيت أحد المأمورين الذين ساروا من الآستانة إلى بعض المدن فى خدمة ما للدولة، فإنهم إذا استخدموا فى الخارج نقلوا معهم من كان عندهم بالآستانة من العبيد و الجوارى و الأتباع.

و الثالث: أن هؤلاء الجوارى شكسات الأخلاق متكبرات لا يقبلن التأديب و التربيئة، إذ يزعمن أن النبى صلى الله عليه و سلم كان من السود، و هذا مسبب عن أحد أمرين إما لاعتقادهن أن اللون الأسود خير من اللون الأبيض، حتى أنهن ينبزن البيض بحمر الآذان، و إما لأن أهل الآستانة يدعون جنس السود غربا ما عدا الجوارى اللاتى كن فى مكة، و المدينة، فإنهن يعرفن أن هذا الزعم باطل، إلا أنهن يكتمن ما عرفنه من هذه الحقيقة.

و الرابع: إنك لا تكاد ترى واحدة منهم سليمة فى العقل و البدن، أما فى العقل فلأنهن جميعا يعتقدن بوجود روح من الأرواح التى تتولى أفعال بنى آدم فى زعمهن، و يقال له بلغتهن برى، فيزعمن أنه يتتابهن فى المنام و يأمرهن و ينهاهن، فيقول لهن مثلا: لا تمكثن فى هذه الدار فإنكن تبتلين فيها بشر و سوء، فمهما تكن المرأة منهم مستريحة فى الأعمال و الأشغال عند أحد، فإذا رأت الروح ينهاها عن الإقامة عنده طلبت منه أن يبيعها، و لهن يوم معلوم فى السنة يجتمعن فيه و يبدن من الكلام و الحركات ما يعجب منه، فمنهن من تنطق بالمغيبات، و منهن من تلطم صدرها و تبخع نفسها كما تفعل العجم فى يوم عاشوراء، و منهن من تدبج ضحية لوفاء نذر، و منهن من تضرب بالدف أو تغنى، كل ذلك لإرضاء البرى و إيفاء ما اقترحه عليهن، و أما فى البدن فلأن هواء إسلامبول شديد عليهن، فإذا بلغن سن الكهولة لا يصلحن لشيء من الخدمة.

و الخامس: أنه قد صار من العادة فى هذه الأيام الأخيرة، أن ذات المقام من الحرائر تستحى من أن تستصحب إلى الأسواق و الشوارع امرأة سوداء، و إنما تؤثر الجوارى البيض، لأن أصل مشتري السود للمطبخ.

و السادس: أنه يظهر أن الدولة العلية يعينها إبطال العبودية، فقد نهت عن بيعهن فى المزاد، إلا أن النخاسين لما لم يكن عليهم رقيب دائم من طرف

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٣

الضابطية، و كان حب الكسب مستحوذا على قلوبهم من أى وجه كان، لم يكن ليردعهم عن المزاد نهى و لا أمر، فهم يأتونه اليوم كما كانوا يأتونه فى السابق، و عندى أن البيع فى البيوت و فى المزاد على حد سواء كلاهما خبيث.

و السابع: هو أن هؤلاء الجوارى لا يخرجن إلى السوق لشراء ما يلزم لمالكهن من المأكول و المشروب، و إنما يخرجن للتزهر أو للحمام، فإذا لزم للمالك شىء من ذلك تعين عليه أن يذهب بنفسه و يشتريه، أو أنه يستخدم رجلا مخصوصا، و حينئذ تقوم الحيل و المكائد المفضية إلى الفساد بينه و بينهن.

و هناك أسباب أخرى عديدة توجب على كل ذى هممة و مروءة، أن يسعى فى إبطال هذه العبودية من الديار الإسلامية، و فى اتخاذ طريقة تغنى عنها. انتهى من الكتاب المذكور.

نقول: لقد كان بيع الأرقاء من نساء و رجال و أطفال أمرا شائعا فى جميع المملكة العربية السعودية إلى مدة قريبة ثم إنه فى سنة

(١٣٨١) ألف و ثلاثمائة و إحدى و ثمانين هجرية أبطلت الحكومة السعودية بيع كل ذلك و منعت بيع الرقيق بتاتا، و لقد أحسنت في ذلك لأن وجود الرقيق في عصرنا لا يقره ديننا الحنيف لعدم توفر شروط الرق الآن.

الاسترقاق

و يعجبنا ما كتبه السيد رشيد رضا رحمه الله تعالى عن التسرى الصحيح في الإسلام فقال ما نصه: كل ما كانت عليه الأمم القديمة و كل ما عليه الأمم الحاضرة من التسرى و اتخاذ الأخذان فهو في شرع الإسلام من الزنا المحرم قطعاً الذي يستحق فاعله أشد العقاب، و كل من يستبيح هذا الفجور الخفى و ما هو شر منه من السفاح الجلى فهو برىء من دين الإسلام. و أما التسرى الشرعى المباح في الإسلام فهو خاص بسبايا الحرب الشرعية إذا أمر إمام المسلمين الأعظم خليفه الرسول صلى الله عليه و سلم باسترقاقهن، و إنما يكون له أن يأمر بذلك إذا ثبت عنده بمشاوره أهل الحل و العقد، أن المصلحة فيه أرجح من المنّ عليهن بالعتق، و من افتداء أسرى المسلمين و سباياهم بهنّ، إن وجد عند الأعداء سبايا و أسرى منا. فليس الاسترقاق واجبا في الإسلام، لكنه يباح إذا كان فيه المصلحة التي لا يعارضها مفسده راجحة، و لكل حكومة إسلامية أن تمنعه بل منعه من مقاصد الإسلام

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٤

العامه، و الاسترقاق المعهود في هذا العصر للسود و البيض كله باطل في الإسلام، فالتسرى بالنساء اللاتي يختطفهن النخاسون أو يبيعهن الآباء و الأقربون أو يغريهن التجار و القوادون، كله عصيان لله و لرسوله. انتهى كلامه نقلا عن كتاب حاضر العالم الإسلامى.

إحرام الكعبة في موسم الحج

معنى إحرام الكعبة إلباسها الإزار الأبيض من أسفلها إلى ما فوق الحجر الأسود بقليل، و ذلك قبيل الطلوع إلى عرفات بأيام أى في اليوم السابع من ذى الحجة، فلبس الكعبة الإحرام كما يلبسه المحرم بالنسك، و فى ذلك من التجاوز اللفظى ما لا يخفى، إذ ليس من المعقول أن يراد بإحرامها حقيقة الإحرام المراد به شرعا، و سبب إحرام الكعبة فى الموسم هو المحافظة على كسوتها الأصلية حتى لا تصل إليها أيدي الحجاج فتتمزق من كثرة لمسهم بأيديهم كما سيظهر ذلك مما سيأتى.

جاء فى رحلة ابن جبير الأندلسى التى كانت سنة (٥٧٨) ثمان و سبعين و خمسمائة هجرية عن إحرام الكعبة المشرفة ما يأتى:

و فى هذا اليوم المذكور الذى هو السابع و العشرون من ذى القعدة شمردت أستار الكعبة إلى نحو قامه و نصف عن الجدار من الجوانب الأربعة و يسمون ذلك إحراما لها فيقولون: أحرمت الكعبة. و بهذا جرت العادة دائما فى الوقت المذكور من الشهر، و لا تفتح من حين إحرامها إلا بعد الوقفة، فكان ذلك التشمير للسفر، إيذانا بقرب وقت وداعها المنتظر، لا جعله الله آخر وداع و قضى لنا إليها بالعودة و تيسير سبل الاستطاعة بعزته و قدرته.

ثم قال ابن جبير بعد هذا الكلام بسبعة أسطر: و فى يوم إحرام الكعبة المذكور أفلعت عن موضع المقام المقدس - يعنى مقام إبراهيم عليه السلام - القبة الخشبية التى كانت عليه و وضعت عوضها قبة الحديد إعدادا للأعاجم المذكورين، لأنها لو لم تكن حديدا لأكلوها أكلا فضلا عن غير ذلك، لما هم عليه من صحة النفوس شوقا إلى هذه المشاهد المقدسة و تطارحهم بإحرامهم عليها، و الله تعالى ينفعهم بنياتهم بمنه و كرمه. انتهى من رحلة ابن جبير.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٥

و مثل ما تقدم قال ابن بطوطة فى رحلته أيضا عن إحرام الكعبة و كانت حجته سنة (٧٢٨) هجرية و هذا نص كلامه فى اليوم السابع و العشرين من ذى القعدة:

تشم ستارة الكعبة الشريفة إلى نحو ارتفاع قامه و نصف من جهاتها الأربع صونا لها من الأيدي أن تنتهبها و يسمون ذلك إحرام

الكعبة و هو يوم مشهور بالحرم الشريف و لا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضى الوقفة بعرفة.

انتهى. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم ؛ ج ٢-٤ ؛ ص ٥٥

ول: و أما إحرام الكعبة في عصرنا هذا، فإن سدننها يعلقون عليها إزارا من قماش "الفتة البيضاء" يحيط بها من جميع الجهات من أسفلها و يكون ارتفاع القماش نحو قامه أو أكثر بقليل، و ذلك في اليوم السابع من ذى الحجة في كل عام.

و لم نعلم متى كان ابتداء وضع الإحرام عليها و ما سبب ذلك، و الذى نزنه أن ابتداء عمل ذلك كان بعد الإسلام إما في زمن يزيد بن معاوية أو في زمن المأمون، فقد روى الأزرقى عن جده قال: كانت الكعبة تكسى في كل سنة كسوتين كسوة ديباج و كسوة قباطى، فأما الديباج فتكساه يوم التروية فيعلق عليها القميص و يدلى و لا يخاط، فإذا صدر الناس من منى خيط و ترك الإزار حتى يذهب الحجاج لثلا- يخرقونه، فإذا كان العاشوراء علق عليها الإزار فوصل بالقميص، فلا تزال هذه الكسوة الديباج عليها حتى يوم السابع و العشرين من شهر رمضان فتكسى القباطى للفطر.

انظر: صورة رقم ١٠٨، المسجد الحرام و ترى فيه الكعبة المعظمة و قد وضعوا في أسفلها إزارا من القماش الأبيض تشبيها بالإحرام قال: فلما كانت خلافة المأمون رفع إليه أن الديباج يبلى و يتخرق قبل أن يبلغ الفطر و يرقع حتى يسمح فسأل ابن مبارك الطبرى مولاه و هو يومئذ على بريد مكة و صوافيها: أى كسوة الكعبة أحسن فقال له: البياض. فأمر بكسوة من ديباج أبيض فعملت فعلت سنة (٢٠٦) فأرسل بها إلى الكعبة، فصارت الكعبة تكسى ثلاث كسا: الديباج الأحمر يوم التروية، و تكسى القباطى يوم هلال رجب، و جعلت كسوة الديباج الأبيض التى أحدثها المأمون يوم ٢٧ من شهر رمضان للفطر، فهى تكسى إلى اليوم ثلاث كسا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٦

قال: ثم رفع إلى المأمون أيضا أن إزار الديباج الأبيض الذى كساها يتخرق و يبلى في أيام الحج من مس الحجاج قبل أن يخاط عليها إزار الديباج الأحمر الذى يخاط في العاشور، فبعث بفضل إزار ديباج أبيض تكساه يوم التروية أو يوم السابع فيستر به ما تخرق من الإزار الذى كسوته للفطر إلى أن يخاط عليها الديباج الأحمر فى العاشور ... إلى آخر كلام الإمام الأزرقى و لم ننقله كله لأن فيما تقدم كفاية للاستدلال و الاستنتاج.

نقول: نستنتج مما تقدم أن إحرام الكعبة منذ العصور السابقة كان بسبب كثرة مس الحجاج للكسوة و تمسحهم بها فتتخرق و تلتف من ذلك، فصونا لكسوتها الأصلية و محافظة عليها، يعمل للكعبة إزار بقدر قامه واحدة تقريبا يحيط بها من جميع جوانبها، و لون الإزار يكون دائما أبيض كما كان فى عهد المأمون و إلى عصرنا هذا هو كذلك تحرم الكعبة بالإزار الأبيض. و كانت تكسى به يوم ٢٧ ذى القعدة، أو سابع ذى الحجة أو ثامن و هو يوم التروية.

و نستنتج أيضا أن إحرام الكعبة فى موسم الحج لم يكن زمن الجاهلية و إنما حدث بعد الإسلام إما فى زمن يزيد بن معاوية أو فى عهد المأمون كما تقدم الكلام عن ذلك. و الله أعلم بالصواب و إليه المرجع و المآب.

(و الخلاصة) أن سدننه الكعبة المعظمة آل الشيبى الفضلاء، يضعون الإزار الأبيض على الكعبة المشرفة فى صباح اليوم السابع من شهر ذى الحجة فى كل عام إلى اليوم حسب العادة القديمة، فإذا رآها الناس على هذه الصفة قالوا: قد أحرمت الكعبة، و علموا فى يوم إحرامها و وضع الإزار الأبيض حولها من أسفلها أن ذلك اليوم هو اليوم السابع من الشهر بيقين ثابت، و أن تاسع ذى الحجة و هو يوم الوقوف بعرفة سيكون يوم كذا، و يستعدون للخروج إلى عرفات. و سدننه الكعبة و فقهم الله تعالى و أدام عليهم الخيرات لا يحيطونها بالإزار الأبيض من أسفلها إلا بعد غسل داخلها بماء زمزم الممزوج بالعطر فى صباح اليوم السابع من ذى الحجة من كل عام، و هى عادة حسنة جروا عليها من عصور قديمة، ليعلم الناس يوم الوقوف بعرفة على التحقيق فلا يداخلهم الشك و الظنون، و إذا نظرنا أنه لم يكن قد ظهرت الجرائد و المجلات فى البلاد، و لم تكن الإذاعات و الراديو موجودة فى العصور السابقة، علمنا أن وضع الإزار

الأبيض على الكعبة المعظمة فى اليوم السابع

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٧
من ذى الحجة تعيين يوم الوقوف، فسبحان الملهم و الموفق إلى سبيل الخير و الرشاد.

تجريد الكعبة من كسوتها عند تجديدها

ما هناك بأس من تجريد الكعبة المعظمة من كسوتها القديمة لتلييسها كسوة جديدة، فقد كانت في عهد إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام بدون كسوة حتى جاء تبع الحميري فكساها فهو أول من كساها على أشهر الأقوال.

و كان في الجاهلية إذا بلى شيء من كسوة الكعبة يطرح فوقها ثوب آخر، قال في الإعلام: روى الأزرقى عن ابن مليكة قال: كان يهدى للكعبة هدايا فإذا بلى شيء منها جعل فوقه ثوب آخر و لا ينزع مما عليها شيء اه. و لا يخفى الآن أن بقاء الثياب الخلقه الممزقة البالية على بيت الله الجليل ليس من الذوق السليم و لا- يستحسنه أرباب العقول و ذو الألباب، و أهل الجاهلية معذورون بالنسبة لزمانهم، و ما كان إبقاؤهم للثياب البالية على الكعبة إلا عن اعتقاد و حسن نية. فلما جاء الإسلام تنورت الأفكار و ترفت المدارك، فكان أول من جرد الكعبة لتنظيفها و تخفيف ثياب الجاهلية عنها و إلباسها كسوة جديدة مع تطيبها بالعطر الغالى هو شيبه بن عثمان بن أبى طلحة الحجبى الذى ينتهى إليه نسب سدنة الكعبة و هم الشيبون. فقد روى الأزرقى عن عطاء بن يسار قال: كانت قبل هذا لا تجرد- يعنى الكعبة- إنما يخفف عنها بعض كسوتها و تترك عليها حتى كان شيبه بن عثمان فهو أول من جردها و كشفها اه.

و روى الأزرقى فى تاريخه أيضا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ينزع كسوة البيت فى كل سنة فيقسمها على الحاج فيستظلون بها على السمر بمكة، و روى أيضا عن عبد الجبار بن الورد المكى قال: سمعت ابن أبى مليكة يقول:

كانت على الكعبة كسى كثيرة من كسوة أهل الجاهلية من الأنطاع و الأكسية و الكرار و الأنماط فكانت ركاما بعضها فوق بعض فلما كسيت فى الإسلام من بيت المال كان يخفف عنها الشيء بعد الشيء و كانت تكسى فى خلافه عمر و عثمان رضى الله عنهما القباطى يؤتى به من مصر غير أن عثمان رضى الله عنه كساها سنة برودا يمانية أمر بعملها عامله على اليمن يعلى بن منبه فكان أول من ظاهر لها كسوتين، فلما كان معاوية كساها الديباج مع القباطى فقال شيبه بن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٨

عثمان: لو طرح عنها ما عليها من كسى الجاهلية فخفف عنها حتى لا يكون مما مسه المشركون شيء لنجاستهم فكتب فى ذلك إلى معاوية بن أبى سفيان و هو بالشام فكتب إليه أن جردها و بعث إليه بكسوة من ديباج و قباطى و حبرة، قال:

فرايت شيبه جردها حتى لم يترك عليها شيئا مما كان عليها و خلق جدرانها كلها و طيبها ثم كساها تلك الكسوة التى بعث بها معاوية إليها و قسم الثياب التى كانت عليها على أهل مكة و كان ابن عباس حاضرا فى المسجد الحرام و هم يجردونها قال: فما رأيته أنكر ذلك و لا كرهه.

حدثنى محمد بن يحيى عن الواقدى عن ابن جريح عن عبد الحميد بن جبير بن شيبه قال: جرد شيبه بن عثمان الكعبة قبل الحريق فخلقها و طيبها قلت: و ما تلك الثياب؟ قال: من كل نحو كرار و أنطاع و خيرا من ذلك و كان شيبه يكسو منها حتى رأى على امرأة حائض من كسوته فدفنها فى بيت حتى هلكت- يعنى الثياب-.

حدثنى محمد بن يحيى عن الواقدى عن إبراهيم بن يزيد عن ابن أبى مليكة قال: رأيت شيبه بن عثمان جرد الكعبة فرأيت عليها كسوة شتى كرازا و أنطاعا و مسوحا و خيرا من ذلك. حدثنا محمد بن يحيى عن الواقدى عن عبد الحكيم بن عبد الله بن أبى فروة عن هلال بن أسامة عن عطاء بن يسار قال: قدمت مكة معتمرا فجلست إلى ابن عباس فى صفة زمزم و شيبه بن عثمان يومئذ يجرد الكعبة قال عطاء بن يسار: فرأيت جدارها و رأيت خلوقها و طيبها و رأيت تلك الثياب التى أخبرنى عمر بن الحكم السلمى أنه رآها فى حديث نذر أمه البدنة قد وضعت بالأرض فرأيت شيبه بن عثمان يومئذ يقسمها أو قسم بعضها فأخذت يومئذ كساء من نسج الأعراب

فلم أر ابن عباس أنكر شيئاً مما صنع شيبه بن عثمان قال عطاء بن يسار: و كانت قبل هذا لا تجرد إنما يخفف عنها بعض كسوتها و تترك عليها حتى كان شيبه بن عثمان أول من جردها و كشفها. و أخبرني محمد بن يحيى قال: حدثني هشام بن سليمان المخزومي عن ابن جريج عن عبد الحميد بن جبير بن شيبه أنه قال: جرد شيبه بن عثمان الكعبة قبل الحريق من ثياب كان أهل الجاهلية كسوها إياه ثم خلقها و طيها قلت: و ما كانت تلك الثياب؟ قال: من كل، كرارا و أنطاعا و خيرا من ذلك و كان شيبه يقسم تلك الثياب فرأى على

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٩

امراه حائض ثوبا من كسوة الكعبة فرفعه شيبه فأمسك ما بقى من الكسوة حتى هلكت- يعنى الثياب-.

ثم قال الإمام الأزرقى: سمعت غير واحد من مشيخة أهل مكة يقول: حج المهدي أمير المؤمنين سنة ستين و مائة فجرد الكعبة و أمر بالمسجد الحرام فهدم و زاد فيه الزيادة الأولى، و أخبرني عبد الله بن إسحاق الحجبي عن جدته فاطمة بنت عبد الله قالت: حج المهدي فجرد الكعبة و طلى جدرانها من خارج بالغالية و المسك و العنبر قالت: فأخبرني جدك- تعنى زوجها محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الحجبي. قال: صعدا على ظهر الكعبة بقوارير من الغالية فجعلنا نفرغها على جدران الكعبة من خارج جوانبها كلها و عبيد الكعبة قد تعلقوا بالبكرات التي تخاط عليها ثياب الكعبة و يطلون بالغالية جدرانها من أسفلها إلى أعلاها قال أبو محمد الخزاعي: أنا رأيتها و قد غير الجدر الذي بناها الحجاج مما يلي الحجر و قد انفتح من البناء الأول الذي بناه ابن الزبير مقدار إصبع من دبرها و من وجهها و قد رهم بالجص الأبيض- و معنى رهم أى: طلى بالجص-.

و حدثني جدى قال: حج المهدي أمير المؤمنين سنة ستين و مائة فرفع إليه أنه قد اجتمع على الكعبة كسوة كثيرة حتى أنها قد أثقلتها و يخاف على جدرانها من ثقل الكسوة فجردها حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئا ثم ضمخها من خارجها و داخلها بالغالية و المسك و العنبر و طلى جدرانها كلها من أسفلها إلى أعلاها من جوانبها كلها ثم أفرغ عليها ثلاث كسى من قباطى و خز و ديباج و المهدي قاعد على ظهر المسجد مما يلي دار الندوة ينظر إليها و هى تطفى بالغالية و حين كسيت.

ثم لم يحرك و لم يخفف عنها من كسوتها الشىء حتى كان سنة المائتين و كثرت الكسوة أيضا عليها جدا فجردها حسين بن حسن الطالبى فى الفتنة و هو يومئذ قد أخذ مكة ليالى دعت المبيضة إلى أنفسها و أخذوا مكة فجردها حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئا، قال جدى: فاستدرت بجوانبها و هى مجردة فرأيت جدات الباب الذى كان ابن الزبير جعله فى ظهرها و سده الحجاج بأمر عبد الملك فرأيت جداته و عتبه على حالها و عددت حجارتها التى سد بها فوجدتها ثمانية و عشرين حجرا فى تسعة مداميك فى كل مدامك ثلاثة أحجار إلا المدامك الأعلى فإن فيه أربعة أحجار. رأيت الصلة التى بنى الحجاج مما يلي الحجر حين هدم ما زاد ابن الزبير قال: فرأيت تلك الصلة بينه فى الجدر و هى كالمثبرية من الجدر الآخر، قال

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٠

إسحاق: و رأيت جدارتها كلون العنبر الأشهب حين جردت فى آخر ذى الحجة من سنة ثلاث و ستين و مائتين و أحسبه من تلك الغالية، و قال: و كان تجريد الحسين بن الحسن إياها أول يوم من المحرم يوم السبت سنة مائتين، ثم كساها حسين بن حسن كسوتين من قز رقيق إحداهما صفراء، و الأخرى بيضاء مكتوب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على محمد و على أهل بيته الطيبين الطاهرين الأخيار أمر أبو السرايا الأصفر بن الأصفر داعية إلى محمد بعمل هذه الكسوة لبيت الله الحرام، قال أبو الوليد: و ابتدأت كسوتها من سنة المائتين و عدتها إلى سنة أربع و أربعين و مائتين: مائة و سبعون ثوبا، قال محمد الخزاعي:

و أنا رأيتها و قد عمر الجدار الذى بناه الحجاج مما يلي الحجر فانفتح من البناء الأول الذى بناه ابن الزبير مقدار نصف إصبع من وجهها و من دبرها و قد رهم بالجص الأبيض و قد رأيتها حين جردت فى آخر ذى الحجة سنة ثلاث و ستين و مائتين فرأيت جدارتها كلون العنبر الأشهب من تلك الغالية. انتهى كلام الإمام الأزرقى عن تجريد الكعبة المشرفة، و قد نقلنا كلامه كله لما فيه من الفوائد

المتعددة.

ثم رأينا أن الإمام السيوطي رحمه الله تعالى ذكر في كتابه "حسن المحاضرة" أنه في اليوم الثامن عشر ربيع الآخر سنة (٦٤٤) أربع و أربعين و ستمائة هبت ريح عاصفه شديدة بمكة فألقت ستارة الكعبة المشرفة فما سكنت الريح إلا و الكعبة عريانه قد زال عنها شعار السواد و مكثت إحدى و عشرين يوما ليس عليها كسوة. انتهى من الكتاب المذكور.

و الظاهر أن هذه الريح كانت أشد عاصفه بمكة حتى ألقت بستارة الكعبة، و لم تمكث بدون ستارة هذه المدة الطويلة إلا لأنها مزقت تمزيقا بحيث احتاجت إلى إصلاحها مدة طويلة. و الله يعلم كم ألحقت هذه الريح بالناس من الخسارة. نسأل الله السلامة و العافية.

و في تاريخ القطبي أنه في سنة (٨٤٣) ثلاث و أربعين و ثمانمائة حينما أجرى الأمير سودون العمارة بالمسجد الحرام جرد الكعبة من كسوتها لإصلاح سقفها و خشبها فاستمرت مجردة يومين و ليلتين يشاهد الناس أحجارها إلى أن أكمل ترميمها و إصلاحها، ثم أعيدت الكسوة عليها في ضحى يوم الاثنين لثمان بقين من شهر صفر من السنة المذكورة. اهـ.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦١

أما في زماننا هذا فقد بقيت الكعبة الشريفه مكشوفة بدون ستارة و لا ثوب، بسبب تجديد سقفها الذي كان بدؤه في يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رجب سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، و كان انتهاؤه يوم السبت الحادى عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة.

لكن الكعبة لم تظهر للناس مكشوفة منذ بدء عمارتها إلى انتهائها بسبب إحاطتها كلها بالخشب من أرض المطاف إلى ما فوق سطحها بنحو متر و نصف متر، و إنما ظهرت الكعبة مكشوفة للناس تماما منذ إزالة الخشب عنها، بعد انتهاء ترميمها و عمارة سقفيها كما فصلنا ذلك في محله، و ذلك من بعد المغرب من ليلة الأحد الثاني عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة إلى ضحى اليوم المذكور فقط، أى إلى قبل الظهر بساعتين، فإنه في ضحى هذا اليوم ألبسوها ثوبها الأسود فسترت حجارتها عن أعين الناس، و قد تركوها كذلك ليلة واحدة و جزءا من النهار، لينظر الناس إلى عمارتها.

الكلام على من يهدم الكعبة في آخر الزمان

قال الإمام الأزرقي: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدى قال: حدثنا عمرو بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد ابن العاص السعدي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه قال: اخرجوا يا أهل مكة قبل إحدى الصليمن قيل: و ما الصيلمان قال: ریح سوداء تحشر الذرة و الجعل، قيل: فما الأخرى؟ قال: تجيش البحر بمن فيه من السودان ثم يسيلون سيل النمل حتى ينتهوا إلى الكعبة فيخربونها و الذى نفس عبد الله بيده لأنظر إلى صفته فى كتاب الله أفحيح أصيلع قائما يهدمها بمسحاته، قيل له: فأى المنازل يومئذ أمثل؟ قال: الشعف يعنى رؤوس الجبال.

حدثني جدى عن ابن عيينة عن زياد بن سعد عن ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة.

حدثني جدى قال: حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه كان يقول: كأنى به أصيلع أفيدع قائما عليها يهدمها بمسحاته قال مجاهد: فلما هدم ابن الزبير الكعبة جئت أنظر هل أرى الصفة التى قال عبد الله بن عمرو: فلم أراها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٢

حدثني جدى قال: حدثنا ابن عيينة عن هشام بن حسان عن حفصة بنت سيرين عن أبى العالیه عن على بن أبى طالب أنه قال: استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يحال بينكم و بينه فكأنى أنظر إليه حبشيا أصيلع قائما عليها يهدمها بمسحاته.

حدثني جدى قال: حدثنا ابن عيينة عن أمية بن صفوان بن عبد الله ابن صفوان عن جده عبد الله بن صفوان عن حفصة أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

ليؤمن هذا البيت حبش حتى إذا كانوا ببهاء من الأرض خسف بأوسطهم وينادى أولهم آخرهم فخسف بهم فلا يبقى إلا الشريد الذى يخبر عنهم، فقال رجل لجدى: أشهد ما كذبت على حفصة ولا كذبت حفصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أمية: فلما جاء جيش الحجاج لم نشك أنهم هم حبش.

حدثني مهدي ابن أبي المهدي قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله مولى بنى هاشم قال: حدثنا سعيد بن سلمة عن موسى بن جببير بن شيبه عن أبي أمامة بن سهل عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: اتركوا الحبشة ما تركوكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السوقيتين من الحبشة.

حدثني جدى قال: حدثنا ابن عيينة عن موسى بن أبي عيسى المديني قال: لما كان تبع بالدف من جمدان دفت بهم دوابهم وأظلمت عليهم الأرض فدعا الأحبار فسألهم فقالوا: هل هممت لهذا البيت بشيء؟ قال: أردت أن أهدمه قالوا: فانو له خيرا تكسوه وتنحرف عنده ففعل فانجلت عنهم الظلمة قال: وإنما سمي الدف من أجل ذلك.

حدثني جدى قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج أخبرني رجل عن سعيد بن إسماعيل أنه سمع أبا هريرة يحدث أبا قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

يباع للرجل بين الركن والمقام ولن يستحل هذا البيت إلا أهله فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب وتأتى الحبش فيخربونه خرابا لا يعمر بعده أبدا وهم الذين يستخرجون كنزه. انتهى من تاريخ الأزرقى.

ستر الكعبة المشرفة بالأخشاب

الكعبة المشرفة واقعة بوسط المسجد الحرام مكشوفة تحت السماء، لا يسترها شيء عن الشمس والمطر والرياح.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٣

و لم تستر الكعبة كلها بالخشب منذ بناء إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا إلا ثلاث مرات فقط، و تفصيل ذلك كما يأتي:

المرّة الأولى: حين بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما، فإنه لما هدمها حتى ألصقها بالأرض من جميع جوانبها، و ذلك فى يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة أربع و ستين هجرية أرسل إليه عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما و كان غائبا من مكة يقول له: لا تدع الناس بغير قبلة انصب لهم حول الكعبة الخشب و اجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها و يصلون إليها، ففعل ذلك ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما و عن جميع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين.

و المرّة الثانية: حين بناء السلطان مراد الرابع، فإنه وقع مطر عظيم بمكة و ضواحيها لم يسبق له مثل، و نزل معه برد كثير فهجم السيل على مكة و دخل المسجد الحرام فامتألاً بالماء حتى بلغ إلى ما فوق باب الكعبة، أى بلغ ارتفاع الماء أكثر من أربعة أمتار، فانهدم بسببه جدران الكعبة المشرفة كما بينا تفصيله فى محله، و كان ذلك فى التاسع عشر و فى العشرين من شهر شعبان سنة (١٠٣٩) تسع و ثلاثين و ألف هجرية، فشرع المهندس على بن شمس الدين يستر حول الكعبة بأخشاب من جذوع النخل استعدادا لبناء الكعبة و عمارتها، و استمر العمل فى ذلك سبعة عشر يوما- من ٢٦ رمضان إلى ١٣ شوال من السنة المذكورة- ثم ألبست هذه الأخشاب ثوبا صبغ باللون الأخضر.

و المرّة الثالثة: ما وقع فى عصرنا هذا، فإنه لما أمر الملك السابق سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، بتعمير سطح الكعبة المعظمة زادها الله شرفا و مهابة و إجلالا و إصلاح ما فيها من خراب.

قام بمباشرة هذا العمل الجليل المبارك معالي الشيخ محمد بن لادن الحضرمي المكي يساعده في ذلك الشهم الكريم سعادة الشيخ عبد الله بن سعيد، بضم السين المهملة وفتح العين و تشديد الياء المكسورة. فأحضروا قبل كل شيء الخشب و النجارين و جميع ما يلزم من العمال و الأدوات.

فلما كان ليلة السبت لإحدى و عشرين من جمادى الثانية سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف هجري، و لأحد عشر من شهر يناير سنة (١٩٥٨) ثمان و خمسين و تسعمائة و ألف ميلادية، و لعشرين من شهر الجدى سنة (١٣٣٦) ست التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٤

و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف شمسية، قاموا في هذه الليلة بتركيب الأخشاب حول الكعبة المشرفة، و ذلك بعد صلاة العشاء في المسجد الحرام و خروج الناس منه حتى لم يبق فيه إلا قليل منهم، أى في الساعة الثالثة العربية بحسب توقيت مكة التي تغيب فيها الشمس في الساعة الثانية عشرة تماما، فالساعة الثالثة العربية بمكة ليلا توافق الساعة الثامنة الإفريقية.

مع العلم بأن أذان العشاء بمكة يكون بالضبط الساعة الواحدة و النصف، و لا- يختلف ميعاد أذان المغرب و أذان العشاء عن الوقت المذكور بالحجاز مطلقا لا صيفا و لا شتاء. و تختلف أوقات الصلوات الأخرى حسب دوران الفلك.

أما في مصر فأوقات الصلوات فيها تختلف على الدوام بالساعات الإفريقية ما عدا أذان الظهر فإنه يكون عند الساعة الثانية عشرة إفريقية و قد تنقص عنها أو تزيد بضع دقائق بحسب الصيف و الشتاء.

فكان ابتداء وضع الأخشاب حول الكعبة المعظمة في الساعة الثالثة العربية من ليلة السبت المذكور، و قد استمر العمل في تركيب الأخشاب فانتهوا من تركيبها في منتصف ليلة الأربعاء الموافق ٢٥ من الشهر المذكور، فتم ستر الكعبة المعظمة كلها إلى ما فوق سقفها بـ متر واحد و نصف متر بالأخشاب في الوقت المحدد تماما من الليلة المذكورة، ثم قاموا بعمارة سقف الكعبة كما بينا ذلك في غير هذا المحل، فلما انتهوا منها أزالوا جميع الأخشاب المحيطة بالكعبة في ليلة الأحد الثاني عشر من شعبان من السنة المذكورة فما جاء فجر هذه الليلة إلا و قد أزيلت الستارة الخشبية كلها، ثم في ضحى اليوم المذكور ألبسوا الكعبة ثوبها الأسود، زادها الله تعالى تشريفا و تعظيما و مهابة.

جاء في تاريخ الكعبة المعظمة ما يأتي: ذكر الطبرى في الإتحاف أنه في سنة (١٠٧٣) ألف و ثلاث و سبعين من الهجرة، انكسرت خشبة من سقف الكعبة فاقتضى الحال إلى كشف السقف و إزالة تلك الخشبة و عمر السقف عمارة جديدة، و أحاطوا الكعبة بسقاييل الخشب من الأرض إلى السقف و ستروا على المعلمين بالخصف من خارج السقاييل إلى أن تم العمل، و كان ذلك على يد سليمان بك صنجق جدة و قد فوض إليه مشيخة الحرم و نظارة العمارة اه.

و جاء فيه أيضا ما يأتي: ذكر السنجاري في منائح الكرم أنه في يوم الخميس غرة ربيع الثاني سنة (١٠٩٩) ألف و تسع و تسعين من الهجرة، عمّر "محمد بك"

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٥

شيئا من أخشاب الكعبة و طلعوا أرتالا- من جدة جعلوها حول الكعبة من الخارج و ركبوا الكسوة فيها، لتغيير إفريز السطح من التي تربط فيه الكسوة فإنه استأكل فيه، و جددوا رفرق مقام الشافعي لخلل وقع فيه و لم يزالوا إلى أن خلصوا منه. انتهى باختصار من تاريخ الكعبة.

و الحقيقة: أن ستر الكعبة المشرفة بالأخشاب أو بالقماش عن أعين الناس حال تعمیرها و إجراء الإصلاح فيها أمر لازم معقول مطلوب، ففي سترها فائدتان:

الأولى: عدم ظهور شيء من العمارة فيها يشغل قلوب الطائفين و المصلين.

و الثانية: أن في سترها عن أعين الناس وقت العمارة، ضمنا من تقليل هيبته من قلوب الجهلة و العوام، و حفظا من وسوسة الشيطان

لبعضهم بما لا يسوغه الشرع الخفيف.

فستر الكعبة من تمام الأدب و هو عين الصواب و الحكمة، و إذا كان في بعض البلدان يستر المهندسون و العمال بعض الأشغال المهمة كإقامة التماثيل و نحوها بالأخشاب، لثلا يظهر نوع العمل أو يظهر سر المهنة و لثلا يؤدي إلى تشويش القائمين بالعمل من أنظار الناس و لغطهم، حتى ينتهوا منه تماما، ثم يكشفون الستارة.

فبيت الله المعظم أولى و أجدر بالستر حين إجراء العمارة فيه، ليتم العمل بهدوء و طمأنينة، و لثلا ينشغل المصلون و الطائفون بالنظر إلى العمل فتصرف قلوبهم عن الخشوع المطلوب في هذا المكان المقدس. نسأل الله العظيم الحليم أن يسترنا في الدارين، و أن يعمر قلوبنا بالإيمان و التقوى، و أن يوفقنا للأعمال الصالحة، و يختم حياتنا بها "اللهم توفني مسلما و ألحقني بالصالحين" آمين يا رب العالمين، و صلى الله على نبينا "محمد" أبي القاسم الأمين و على آله و صحبه أجمعين، و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

مقدار ما استعمل من الأخشاب و العواميد لستر الكعبة

مما يجب أن نذكر هنا مقدار ما صرف لستر الكعبة المشرفة عند تغيير سقفها في زماننا هذا، من الأخشاب و العواميد و يقال لها "المرايع و العروق" و المسامير و الحبال، من جميع جوانب الكعبة مع السقائل بمشاياتها من أرض المطاف إلى ما

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٦

فوق سقف الكعبة بمترو واحد و نصف المتر، مع العلم بأنه كان بين الكعبة و بين تركيب ألواح الخشب حولها ثلاثة أمتار من الثلاث الجهات، أما من جهة حجر إسماعيل فيبينها و بين الخشب أربعة أمتار. و سبب الزيادة من هذه الجهة أن الناس يصلون إلى الكعبة بكثرة تحت الميزاب فلزم زيادة بعد المسافة من هذه الجهة.

فمقدار ما استعمل لستر الكعبة المشرفة كما أخبرنا بذلك رئيس النجارين المشرف على أعمال المسجد الحرام المسمى "سالم بن عبود" بضم العين و الباء و تخفيفها هو كما يأتي:

استعمل من ألواح الخشب أربعة آلاف لوح تقريبا، و طول بعض هذه الألواح أربعة أمتار و بعضها خمسة أمتار، و عرض بعضها خمسة عشر سنتيمترا و بعضها عشرين سنتيمترا.

و استعمل من العواميد، أي المرايع، التي تركب عليها هذه الأخشاب، ثمانية آلاف عمود تقريبا.

و استعمل من المسامير ستمائة كيلو تقريبا، و الكيلو عبارة عن ثلاثمائة درهم و بضعة دراهم.

و استعمل من الحبال في ربط العواميد و المرايع نحو ألف ربطة، و مقدار الربطة الواحدة بعضها أربعة أمتار و بعضها خمسة أمتار تقريبا.

و قد اشتغل في تركيب هذه الستارة الخشبية حول الكعبة شرفها الله تعالى نحو مائة و ثمانون شخصا من النجارين و العمال، و قد شاهدنا بأنفسنا كل هذه الأعمال، نسأل الله تعالى عفوه و غفرانه إذا أسأنا الأدب في المسجد الحرام و عند بيته المعظم. إنه بعباده لطيف خبير.

عمد نطاق للكعبة المشرفة

الظاهر و الله تعالى أعلم أنه لم يعمل للكعبة زادها الله شرفا و تعظيما، نطاق، بكسر النون، يشد به جدرانها إلا مرة واحدة فقط، و ذلك كما ذكره الأسدي:

أنه حصل في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة تشقق بالجدار الشامي "أي الذي في ناحية حجر إسماعيل" و قد ازداد في عام (١٠١٩)

تسعة عشر و ألف، حيث وقع مطر بمكة جاء على إثره السيل فدخل المسجد الحرام، فانهدت مياه الأمطار

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٧

إلى داخل الكعبة من سطحها، و أصاب الجدران الشرقي و الغربي و جدران الحجر تصدع.

فأراد السلطان أحمد بن السلطان محمد هدم البيت الشريف، و أن يجعل حجارة هذه الجدران للكعبة المعظمة ملبسة واحدا بالذهب و واحدا بالفضة. فمنعه العلماء من ذلك و قالوا له: يمكن حفظها بنطاق يلم هذا الشعث، فعمل لها نطاقا من النحاس الأصفر مغلفا بالذهب، أنفق عليه نحو ثمانين ألف دينار، و جرى تركيبه في أواخر عام (١٠٢٠) و أوائل عام (١٠٢١) اه.

فهذا النطاق هو النطاق الوحيد الذي عمل في العام المذكور لحفظ جدران الكعبة المشرفة من السقوط، فلم يسبق عمل مثله قبل ذلك، و لم يعمل مثله للكعبة بعد ذلك إلى عصرنا هذا.

و الحقيقة أن عمل نطاق للكعبة تحزم به من وسطها، و تشد به جدرانها عند وهنها لا بأس به، لكنه عمل موقت لا يدوم طويلا، لذلك دام هذا النطاق على الكعبة تسعة عشر سنة، فلما كان صباح يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان عام (١٠٣٩) ألف و تسعة و ثلاثين للهجرة، وقع مطر عظيم بمكة دخل على إثره سيل كبير إلى المسجد الحرام و وصل إلى أعلا باب الكعبة، فانهدمت و سقطت جدرانها بسبب ذلك، فقام بتعميرها السلطان مراد خان الرابع ابن السلطان أحمد خان من سلاطين آل عثمان رحمهم الله تعالى، و لم يذكر أحد من المؤرخين من أخذ هذا النطاق حينما هدمت الكعبة المشرفة في هذا السيل الكبير، هل أخذه سدنة الكعبة أم أخذه سلطان ذلك الزمن، الله تعالى أعلم بذلك فهو علام الغيوب ذو الجلال و الإكرام لا إله إلا هو العزيز الغفار.

ستر الكعبة في حرب ابن الزبير

مما لا شك فيه أن الحرب بين عبد الله بن الزبير رضى الله عنه و بين الحصين بن نمير كانت بواسطة المنجنيق و العزادات أى الآلات الحربية لرمى الحجارات و الصخور، فقد فرض الحصين على أصحابه عشرة آلاف صخرة يرمونها كل يوم، فلهذا كان من الواجب على ابن الزبير رضى الله عنه و هو متحصن بالمسجد الحرام و بجوار الكعبة المعظمة أن يحافظ عليها أشد المحافظة، لأنه لا يؤمن من وقوع الحجارة عليها الآتية من أخشى مكة جبل أبي قبيس و جبل قيعقان، فهو لذلك

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٨

قد ستر الكعبة بالواح من خشب الساج و غيرها، كما جاء ذلك في كتاب "الإمامة و السياسة" عند الكلام على غلبة ابن الزبير رضى الله عنهما و ظهوره، و هذا نص ما جاء فيه:

قال: و ذكروا أن أبا معشر قال: حدثنا بعض المشيخة الذين حضروا قتال ابن الزبير قال: لما نزل الحصين بمكة و غلب عليها كلها إلا المسجد الحرام قال: فإني لجالس مع ابن الزبير و معه من القرشيين عبد الله بن مطيع و المختار ابن أبي عبيد و المسور بن مخرمه و المنذر بن الزبير و مصعب بن عبد الرحمن ابن عوف في نفر من قريش قال: فقال المختار بن عبيد: و هبت رويحة و الله إنني لأجد النصر في هذه الرويحة فاحملوا عليهم قال: فحملوا عليهم حتى أخرجوهم من مكة و قتل المختار رجلا و قتل ابن مطيع رجلا قال: فجاءه رجل من أهل الشام في طرف سنان رمحه نار قال: و كان بين موت يزيد بن معاوية و بين حريق الكعبة إحدى عشر ليلة ثم التحمت الحرب عند باب بنى شيبه فقتل يومئذ المنذر بن الزبير و رجلا من إخوته و مصعب بن عبد الرحمن بن عوف و المسور بن مخرمه و كان الحصين قد نصب المجانيق على جبل أبي قبيس و على قيعقان فلم يكن أحد يقدر أن يطوف بالبيت و أسند ابن الزبير ألواحا من الساج إلى البيت و ألقى عليها القذائف و الفرش فكان إذا وقع عليها الحجر نبا عن البيت فكانوا يطوفون تحت تلك الألواح فإذا سمعوا صوت الحجر حين يقع على الفرش و القذائف كبروا و كان طول الكعبة في السماء ثمانية عشر ذراعا و كان ابن الزبير قد ضرب فسطاطا في ناحية من المسجد فكلما جرح أحد من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط. انتهى من الإمامة و السياسة.

و الساج: شجر عظيم صلب الخشب.
 نقول: و يشبه ما تقدم، ما يقع الآن من ستر الحجر الأسود بالفراش الثخين المطوى عدة طيات مع وضع قطعة لوح من الحديد فوق الفراش ثم ربطه بالجبال على أستار الكعبة المشرفة، و ذلك خوفا من الحجارة المتطايرة من جبل الصفا بسبب تكسييره بواسطة الألغام و ذلك لتوسعة المسجد الحرام، ابتداء من سنة (١٣٧٥) خمس و سبعين و ثلاثمائة و ألف، و تسمى بالتوسعة السعودية و قد تقدم الكلام عنها، و الألغام جمع لغم بفتحتين و هو يستعمل لتفجير الصخور و الأحجار العظام و ذلك بأن يثقب عدة ثقوب فى الصخر و الجبل القوى بمثقاب، ثم تحشى هذه الثقوب بالديناميت و المواد المتفجرة، و توضع فى الثقوب فتائل تمتد إلى خارج التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٩

الثقوب قليلا، ثم تشعل هذه الفتائل من طرفها، فتسرى النار فيها إلى أن تصل إلى الديناميت فى الثقوب فتثور الألغام و تنفجر فتطير قطع الصخور و الأحجار من الجبل، و قبل إشعال الفتائل ينذر الناس جنود الشرطة ليتعدوا و يهربوا خوفا من أن تصيبهم الأحجار المتطايرة.

و يكون ذلك فى الغالب بعد صلاة الظهر مباشرة فى المسجد الحرام. و قد تكلمنا على ستر الحجر الأسود فى عصرنا عند توسعة المسجد الحرام فى مبحث عدم خلو الكعبة من الطائفين.

فإن قيل: لماذا لم تستر الحكومة السعودية الكعبة المشرفة خوفا عليها من الحجارة المتطايرة عن إثارة الألغام كما سترها ابن الزبير رضى الله عنه؟

نقول: إن حجارة الألغام فى تكسير الصفا اليوم إنما هى أحجار تتناثر فى جميع الجهات فى جهة الشوارع و المسجد الحرام فى مدة لا تتجاوز الربع الساعة فقط، فلا خوف منها مطلقا على الكعبة المشرفة و إنما ستر الحجر الأسود زيادة فى الاحتياط لحفظه. أما ستر الكعبة المعظمة فى حرب ابن الزبير رضى الله تعالى عنه و عن أبيه، فهو واجب و جوبا أكيدا، لأنه متحصن بنفس المسجد الحرام و خيام جيشه منصوبة بوسطه عند الكعبة، و عدوه الحصين بن نمير قد نصب المنجنيق على جبل أبى قبيس و على جبل قعيقعان "جبل هندی" لرمى الحجارة من الجبلين المتقابلين على موضع ابن الزبير و هو المسجد الحرام و قد فرض على جنوده أن يرموا كل يوم عشرة آلاف صخرة. فلا بد أن هذه الصخور أتت المسجد الحرام و تصيب الكعبة المشرفة، فهنا يجب العمل على وقاية الكعبة المشرفة من صخور المنجنيق بقدر المستطاع فسترها ابن الزبير كما تقدم.

و مع ذلك فقد وهنت الكعبة من حجارة المنجنيق و أصابها أيضا الحريق فهدمها ابن الزبير رضى الله عنه و بناها من جديد كما تقدم تفصيل ذلك. اللهم زد بيتك هذا تشريفا و تعظيما و مهابة، و احفظه و جيرانه فى بلدك الأمين من كل ضرر و أذى، و ارض عنا و استرنا بسترِكَ الجميل فى الدنيا و فى الآخرة بفضلِكَ و رحمتِكَ يا أرحم الراحمين آمين، و صلى الله و سلم على النبى الأمى و على آله و صحبه أجمعين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٧٠

ما وجد فى الكعبة من الكتابات القديمة

نذكر هنا ما وجد فى الكعبة من الكتابات القديمة مما هو قبل ظهور الإسلام.
 جاء فى تاريخ الغازى ما نصه: و وجد قريش كتابا بالسريانية فلم يدروا ما هو حتى قرأه لهم رجل من اليهود فإذا فيه: أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السموات و الأرض و صورت الشمس و القمر و حففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها فى الماء و اللبن.

و وجد فى المقام أى محله كتاب آخر مكتوب فيه: مكة بيت الله يأتيها رزقها من ثلاث سبل. ذكره الحلبي.

و في كلام بعضهم وجد حجر مكتوب فيه ثلاثة أسطر، السطر الأول: أنا الله ذو بكة صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر. و في الثاني: أنا الله ذو بكة خلقت الرحم و شققت له اسما من أسمائي فمن وصله وصلته و من قطعه بتته. و في الثالث: أنا الله ذو بكة خلقت الخير و الشر فطوبى لمن كان الخير على يديه و ويل لمن كان الشر على يديه.

و في تاريخ الأزرقى: وجد في حجر في الحجر كتاب من خلقه الحجر: أنا الله ذو بكة الحرام و صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر و حففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى تزول أخشابها مبارك لأهلها من اللحم و الماء. و عن مجاهد قال: وجد في بعض الزبور: أنا الله ذو بكة جعلتها بين هذين الجبلين و صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر حففتها بسبعة أملاك حنفاء و جعلت رزق أهلها من ثلاثة سبل فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاثة طرق أعلى الوادى و أسفله و كداء و باركت لأهلها في اللحم و الماء. انتهى من تاريخ الغازى. و هذا الذى عثروا عليه فى الكعبة من الكتابات، غير ما كان فيها من الأصنام و الصور التى وضعها المشركون و التى أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بإزالتها يوم فتح مكة شرفها الله تعالى.

فقد جاء فى تاريخ الإمام الأزرقى أنه كانت فى بطن الكعبة صوراً و تماثيل، فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ثم أمر بثوب قبل بالماء و أمر بطمس تلك الصور فطمست. اه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٧١

و فى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت و فيه الآلهة فأمر بها فأخرجت ... الخ. و فى سنن أبى داود أن النبى صلى الله عليه و سلم أمر عمر بن الخطاب و هو بالبطحاء أن يأتى الكعبة فيمحوها كل صورة فيها فلم يدخلها حتى محيت الصور ... الخ اه.

فكان فى الكعبة كما فى الأزرقى صور الأنبياء و صور الشجر و صور الملائكة، فكان فيها صورة إبراهيم خليل الرحمن و إسماعيل، و صورة عيسى بن مريم و أمه، أى تمثال مريم مزوقاً فى حجرها عيسى ابنها قاعداً مزوقاً. و كان فيها أيضاً قرنى الكبش الذى فدى به الذبيح إسماعيل، و كان فيها حمامة من عيدان. انتهى من الأزرقى.

فرش أرض الكعبة بالرخام

قال الإمام الأزرقى فى تاريخه: قال أبو الوليد: و أرض الكعبة مفروشة برخام أبيض و أحمر و أخضر عدد الرخام ستة و ثلاثون رخامة منها أربع خضر بين الأساطين و بين صدرى الكعبة عرض كل رخامة ذراع و أربع أصابع و عرضهن من عرض كراسى الأساطين و من الجدار الذى فيه الباب- باب الكعبة- إلى الرخام الأخضر الذى بين الأساطين ست عشرة رخامة منها ست بيض و سبع حمر طولهن سبعة أذرع و خمسة عشر إصبعا و بين جدار الدرجة و بين الرخام الأخضر ثلاث رخامات منها اثنتان بيضاوان و واحدة حمراء طول كل رخامة منها أربعة أذرع و نصف، و ست عشرة رخامة ثمان بيض و ثمان حمر طول كل رخامة سبعة أذرع و تسع أصابع و أطرافهن فى حد الرخام الأخضر الذى بين الأساطين و الجدرين و أطرافهن فى الجدر الذى يستقبل باب الكعبة منها رخامة بيضاء عرضها ذراعان و إصبعا ذكر أن النبى صلى الله عليه و سلم صلى فى موضعها و هى الثالثة من الرخام البيض من حد الركن اليمانى و طرفها فى الأسطوانة الأولى من حيال باب الكعبة و عند عتبة باب الكعبة رخامتان: خضراء و حمراء مفروشتان. انتهى من تاريخ الأزرقى.

و إن شاء الله تعالى سنذكر فرش أرض الكعبة بالرخام فى عصرنا الحاضر أى فى سنة (١٣٧٧).

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٧٢

صفة المسامير التى كانت فى مال كعبة

قال الإمام الأزرقى فى تاريخه: قال أبو الوليد: وفى الألواح التى تلى الملتزم ثلاثة، وفى الألواح التى بين الركن اليمانى و الركن الأسود و هى التى تلى الركن اليمانى ثلاثة، و منها مسمار فى بطن الكعبة على ثلاثة أذرع و نصف و فى بقية الألواح مسمار أو مسماران و المسامير مفضضة مقبوة منقوشة تدوير كل مسمار سبع أصابع، و المسامير من بطن الكعبة على أربعة أذرع و نصف و فوق الإزار إزار من الرخام منقوش مدار فى جوانب البيت كله و فى نقشه حبل غير منقوش بذهب و بين هذه الإزار الذى فيه الحبل إزار صغير كما يدور البيت منقوش عليه بماء الذهب من تحت الإفريز الذى تحت السقف و الإفريز من فسيفسا منقوش واصل بالسقف.

صفة باب الكعبة فى عهد الأزرقى

قال الإمام الأزرقى فى تاريخه: و ذرع طول باب الكعبة فى السماء ستة أذرع و عشرة أصابع و عرض ما بين جداريه ثلاثة أذرع و ثمانى عشرة إصبعا و الجدران و عتبة الباب العليا و نجاف الباب ملبس صفائح ذهب منقوش، و فى جدار عضادتى الباب أربع عشرة حلقة من حديد مموهة بالفضة متفرقة فى كل جدار سبع حلق يشد بها جوف الباب من أستار الكعبة و فى عتبة باب الكعبة ثمانى عشر مسمارا منها أربعة على الباب و أربعة عشر فى وجه العتبة و المسامير حديد ملبسة ذهابا مقبوة منقوشة تدوير حول كل مسمار سبع أصابع و ملبن باب الكعبة الذى يطأ عليه من دخلها داخل فى الجدار عشر أصابع و الملبن ساج ملبس صفائح ذهب و عرض وجه الملبن عشر أصابع و عرض وجه الآخر أربع أصابع و فى الملبن من المسامير ستة و أربعون مسمار منها سبعة فى أعلا الملبن و هى تلى العتبة، و فى الجانب الأيمن تسعة عشر مسمارا و فى الجانب الأيسر عشرون مسمارا و المسامير مقبوة ملبسة ذهابا منقوشة تدوير حول كل مسمار منها سبع أصابع، و ذرع طول باب الكعبة فى السماء ستة أذرع و عشر أصابع و هما مصراعان عرض كل مصراع ذراع و ثمانى عشرة إصبعا و عود الباب ساج و غلظه ثلاث أصابع فإذا غلقا فعرضهما ثلاثة أذرع و نصف، و فى مصراع ست عوارض و العوارض من ساسم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٧٣

و ظهر الباب من داخل ملبس صفائح فضة، و فى المصراع الأيمن من داخل غلق رومى و أم الغلق ملبسة فضة و طول الغلق أربع عشرة إصبعا و فى المصراع الأيسر حلقة فضة يكون فيها غلق الباب إذا غلق، و فى الباب الأيسر سكرة و وجه الباب ملبس صفائح ذهب منقوشة و صفائح ساذج ما بين المسامير التى فى العوارض صفائح مربعة منقوشة فى كل مصراع خمس صفائح و تدوير حول الصفائح الساذج صفائح منقوشة و فى الباب الأيسر أنف الباب ملبس ذهابا منقوشا طرفاه مربعان و على الأنف كتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم و مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ... الآية محمد رسول الله، و عدد المسامير مائتا مسمار منها مائة كبار منها فى العوارض اثنان و سبعون مسمارا فى كل عارضة ستة مسامير، و فى كل مصراع عشرة مسامير و بين كل عارضتين مسماران فى طرفى الباب و منها حول خرتة الباب التى يدخل فيها الرومى اثنا عشر مسمارا صغارا، و منها فى المصراع الأيمن مسماران من فضة ساذج موهان تدوير حول كل مسمار ست أصابع و بينهما حاجز يفتح فيه الغلق الرومى الداخل و ما بين المسامير تسع أصابع و المسامير مقبوة ملبسة ذهابا و هى منقوشة تدوير كل مسمار سبع أصابع و المسامير الصغار التى فى المصراع الأيسر خمسون مسمارا و هى مضروبة حول الصفائح المربعة المنقوشة التى بين العوارض، حول كل صفيحة عشرة مسامير و المسامير ملبسة ذهابا مقبوة منقوشة و هى على صفائح ساذج عرض الصفائح إصبعا كما يدور حول الصفيحة المنقوشة و رجلا-البابين حديد ملبسان ذهابا و فى المصراعين سلوقتان فضة موهتان و فى السلوقتين لبنتان من ذهب مربعتان و فوق اللبنتين صغيرتان و فى طرف السلوقتين حلقتا ذهب سعة كل حلقة ثمان أصابع و هما حلقتا قفل الباب و هما على ذراعين و ستة عشر إصبعا من الباب.

انتهى من تاريخ الأزرقى.

وجود سقفين للكعبة

للكعبة إلى يومنا هذا سقفان بينهما نحو قامه كما رأينا ذلك بأنفسنا، و لم نعلم لماذا عمل السقف الثاني داخل الكعبة، و من الذى عمله لأول مرة، أما قريش فلم يجعلوا للكعبة سقفين حين بنائها، فالظاهر أنه من عمل عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه عند بنائه لها، و لكن يعرض علينا إشكال، و هو أن ابن الزبير جعل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٧٤

فى سطح الكعبة أربعة روازن "أى فتحات" لدخول الضوء و النور فى جوف الكعبة فعمل السقف الثانى فى داخل الكعبة يمنع دخول الضوء لجوفها، و يمكن أن ندفع هذا الإشكال بأنه جعل فى السقف الثانى أيضا روازن مقابل الروازن التى فى السقف الأعلى لينفذ الضوء منهما إلى جوف الكعبة.

فإن قيل: ما فائدة السقف الثانى من الداخل؟

نقول: ربما كان لوضع بعض أمانات الكعبة و هداياها و بعض الأشياء المتعلقة بها، أو لتزيين وجه السقف الثانى المقابل لأرض الكعبة بالذهب و الفضة و الألوان و الزخارف. و الله تعالى أعلم بذلك.

و نقول أيضا عن السقفين للكعبة: أنه لم يذكر أحد من المؤرخين من أول من عمل سقفين للكعبة المشرفة، غير أن الإمام الأزرقى المولود فى القرن الثانى للهجرة قال "فى باب ذرع البيت من الخارج" ما نصه: "و الكعبة لها سقفان أحدهما فوق الآخر" و قال أيضا فى الباب الذى بعد الباب المذكور ما نصه: "و على الروازن رخام كان ابن الزبير أتى به من اليمن من صنعاء يقال له البلق و بين السقفين فرجة." انتهى كلامه.

فعلم من هنا صريحا بأنه كان للكعبة سقفان أحدهما فوق الآخر، فى عهد ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما بدون شك.

بقى علينا أن نعرف هل كان للكعبة سقف واحد أم سقفان فى بناء قريش الذى كان قبل بناء ابن الزبير، فالظاهر أنه كان للكعبة فى بناء قريش سقف واحد فقط لا غير، أما قبل بناء قريش إلى عهد إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام، فإنه لم يكن للكعبة إلا سقف واحد فقط بدون شك و لا ريب، و أما خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و السلام فإنه حين بناء الكعبة لم يجعل لها سقفا مطلقا كما بينا ذلك فى محله.

فعليه نرى أن السقفين للكعبة كانا من عمل عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما، و نرى أن علته ذلك هى وضع هدايا الكعبة المشرفة بينهما، لأن خزانه الكعبة التى كانت فى أرضها من عصور قديمة قد ردمت عند بناء قريش للكعبة. و الله تعالى أعلم بالغيب.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٧٥

و لقد ذكر الإمام الأزرقى المولود بمكة فى القرن الثانى للهجرة، السقفين للكعبة فى تاريخه. قال عند باب ذرع البيت من الخارج: و الكعبة لها سقفان أحدهما فوق الآخر.

ثم قال فى ذرع الكعبة من داخلها: و ذرع طول الكعبة فى السماء من داخلها إلى السقف الأسفل مما يلي باب الكعبة ثمانية عشر ذراعا و نصف، و طول الكعبة فى السماء إلى السقف الأعلى عشرون ذراعا، و فى سقف الكعبة أربع روازن نافذة من السقف الأسفل للضوء، و على الروازن رخام كان ابن الزبير أتى به من اليمن من صنعاء يقال له البلق، و بين السقفين فرجة، و ذرع التحجير الذى فوق ظهر سطح الكعبة ذراعا و نصف ... الخ انتهى من تاريخ الأزرقى.

نقول: و لقد أسعدنا الله تعالى فى دخولنا بيته الحرام، فقد دخلنا الكعبة المشرفة فى صباح يوم الاثنين الثامن عشر من شهر رجب سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف، مع بعض إخواننا الفضلاء منهم سعادة الشيخ صالح باخطمه و السيد محمد الهادى عقيل و الشيخ عبد الله العقلا و الشيخ محمود نتو و الشيخ إسماعيل جمال و غيرهم، و بعد أن صلينا ركعتين داخلها و دعونا الله تبارك و

تعالى بما ألهمنا به، قمنا بغاية الأدب بكتابه بعض ما فى داخل الكعبة وطلعنا إلى سطحها و دخلنا بين السقفين للتحقق منهما و إليك شىء من وصفهما:

إذا صعد الإنسان من درج الكعبة الداخلى فقبل وصوله إلى السطح بنحو قامه يرى أمامه بابا صغيرا و عن يساره بابا مثله، و كلاهما يدخل إلى ما بين سقفى الكعبة، و مسافة ما بين السقفين (١٢٠) مائة و عشرون سنتيمترا و قد قسنا ذلك بأنفسنا.

و قد نوهنا عن بحث أعواد السقفين فى مبحث "عدد أعواد سقف الكعبة" فليراجع هناك.

و السقف الأول الذى يعلو أرض الكعبة مكسو بالقماش الأحمر المكتوب أى من نفس قماش الكسوة الداخلىة الحمراء للكعبة. أما السقف الثانى الذى فوق السقف الأول فليس مكسو بالقماش و لا بغيره و لا يوجد به نقش و لا زخرفة بل يظهر خشبه و أعواده مجردة من كل زينه، و ذلك عندما يدخل المرء بين السقفين و ينظر إليه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٧٦

و لقد ذكر الإمام الأزرقى عن نقش سقف الكعبة بصحيفة ١٩٧ فى الجزء الأول من تاريخه: و الجوائز منقوشة بالذهب و الزخرف، و سقف الكعبة منقوش بالذهب و الزخرف، و يدور تحت السقف إفريز منقوش بالذهب و الزخرف، و تحت الإفريز طوق من فسيفسا. انتهى كلامه.

و الجوائز جمع جائز و هو خشبة معترضة بين حائطين- قاله فى المنجد- فانظر رحمك الله إلى عناية أهل القرون الأولى ببيت الله الحرام.

كيفية وضع الكسوة على الكعبة الشريفة

يظن الناس أن كسوة الكعبة توضع فى داخلها أولا- ثم ترفع إلى سطحها من درجتها التى فى داخلها، لكن ليس الأمر كذلك، لأن درج الكعبة التى فى داخلها و التى توصل إلى سطحها ضيقة جدا بحيث لا يتسع إلا لمرور رجل واحد فقط، فالطولوع إلى سطحها و النزول منه يكون رجلا رجلا فقط.

و الكسوة كما هى معروفة تشتمل على عشر قطع بما فى ذلك من ستارة باب الكعبة من الخارج و ستارة باب درجتها من الداخل، و كل قطعة منها كبيرة جدا بحيث يستحيل رفعها إلى السطح من الدرجة الداخلىة الصغيرة الضيقة. لذلك يكون رفع الكسوة إلى سطح الكعبة بالكيفية الآتية:

بعد وصول الكسوة من مصر إلى مكة شرفها الله تعالى تنشر فى المسجد الحرام بالحصوة قطعة قطعة، و ترتب قطعها و يخطط ما يحتاج إلى خياطه، ثم تلف كل قطعة و توضع بجوار الكعبة من جميع جهاتها الأربعة، ثم تدلى حبال قوية من سطح الكعبة من كل جانب من جوانبها، فتربط بها كل قطعة وحدها ثم يسحبها الرجال إلى سطحها و توضع فى طرف الجدار، كل قطعة فى المكان المناسب لها من الكعبة من غير أن يحل رباطها. و ذلك فى صباح اليوم الثامن من شهر ذى الحجة.

و تبقى القطع على حالتها فى طرف الجدران من سطح الكعبة إلى اليوم العاشر و هو يوم عيد النحر، ففى صباح هذا اليوم المبارك يطلع بعض الناس إلى سطح الكعبة، فيحلون الأربطة الملفوفة حول قطع الكسوة الجديدة المطوية، كما يحلون أربطة الكسوة القديمة من أماكنها من فوق السطح، فتسقط القديمة إلى أرض المطاف، و فى نفس اللحظة ينزلون الكسوة الجديدة بأثر القديمة من فوقها، فهذه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٧٧

الكيفية لن تكون الكعبة المشرفة عارية عن الكسوة لحظة واحدة حين لباسها الثوب الجديد فى كل عام.

و لا بد من ظهور شىء قليل من جدرانها فى هذا الوقت لعدم استكمال خياطه الثوب الجديد، ثم يشتغلون بضعة أيام بخياطة قطع

الكسوة بعضها ببعض و هي على نفس الكعبة، و الخياط يجلس على كرسى خاص يتدلى من سطحها بالحبال على مواضع الخياطة و ينزل شيئا فشيئا إلى أسفل حتى ينتهي من خياطة القطعتين، فينتقل إلى جهة أخرى لخياطة بقية القطع حول الكعبة. و لا تكون الخياطة إلا من الصباح المبكر كل يوم إلى الضحى العالى حيث تشتد حرارة الشمس، فعندئذ يقف العمل، فالكعبة تقع فى الفضاء معرضة للشمس و العمل عند اشتداد حرارة الشمس متعذر. هذه هي كيفية وضع الكسوة على الكعبة المشرفة فى كل عام. انظر: صورة رقم ١٠٩، وضع الكسوة الجديدة فوق الكعبة و خياطتها

تفرقة الرجال عن النساء فى الطواف و فى المسجد الحرام

جاء فى صحيح البخارى فى كتاب الحج فى باب طواف النساء مع الرجال: و قال عمرو بن على: حدثنا أبو عاصم قال ابن جريج: أخبرنا قال: أخبرنى عطاء إذ منع ابن هشام النساء الطواف مع الرجال، قال: كيف يمنعهن و قد طاف نساء النبى صلى الله عليه و سلم مع الرجال، قلت: أبعدهن الحجاب أو قبل؟ قال: أى لعمري لقد أدركته بعد الحجاب، قلت: كيف يخالطن الرجال، قال: لم يكن يخالطن، كانت عائشة رضى الله عنها تطوف حجرة من الرجال لا تخالطهم، فقالت امرأة: انطلقى نستلم يا أم المؤمنين قالت: عنك، و أبت و كن يخرجن متنكرات بالليل فيطفن مع الرجال و لكنهن كن إذا دخلن البيت قمن حتى يدخلن و أخرج الرجال. و كنت آتى عائشة أنا و عبيد بن عمير، و هي مجاورة فى جوف ثبير، قلت: و ما حجابها؟ قال: هي فى قبة تركية لها غشاء، و ما بيننا و بينها غير ذلك، و رأيت عليها درعا موردا. انتهى.

قال الغازى فى الجزء الثانى من تاريخه: كان الرجال و النساء يطوفون معا مختلطين، حتى ولى مكة خالد بن عبد الله القسرى لعبد الملك بن مروان، ففرق بين

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٧٨

الرجال و النساء فى الطواف، فأجلس عند كل ركن حرسا معهم السياط يفرقون بين الرجال و النساء، فهو أول من فرق بينهما. انتهى من الغازى.

و روى الغازى فى الجزء الثانى من تاريخه: أن على بن الحسن الهاشمى الذى تولى أمر مكة فى خلافة المهدي بن الواثق، هو أول من فرق بين الرجال و النساء فى جلوسهن فى المسجد الحرام، فقد أمر بحبال تربط بين الأساطين التى يقعدن عندها تفصل بينهن و بين الرجال. انتهى.

و نظن أن ذلك كان بعد سنة (٢٥٥) خمس و خمسين و مائتين.

الترغيب فى الحج و العمرة

إشارة

اعلم أن الحج خامس أركان الإسلام، فرض فى السنة السادسة من الهجرة كما هو المشهور، و قيل: فى الخامسة، و قيل: قبل الهجرة. و الحج فرض عين مرة واحدة فى العمر على التراخى، و كذلك العمرة و قد يجبان أكثر من مرة لعارض كندر و هو يكفر الصغائر و الكبائر حتى التبعات على المعتمد.

و قد حج صلى الله عليه و سلم قبل النبوة و بعدها و قبل الهجرة حججا لا يدرى عددها، و حج بعد الهجرة حجة الوداع لا غير بإجماع المسلمين، و كذلك اعتمر قبلها عمرا لا يدرى عددها، و أما بعدها فعمرة فى رجب، و ثلاثا بل أربعا فى ذى القعدة، أى:

في ثلاثه أعوام؛ لأنه في حجة الوداع، كان في آخر أمره قارنا، و عمره في شوال كما صح في أبي داود، و عمره في رمضان كما في البيهقي. و فرضية الحج و العمرة واردة صريحا في الكتاب و السنة، أما الكتاب فقد قال الله تعالى: **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** و قال: **وَأَتِمُّوا الْحِجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ** و قال **أَمْرًا نَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَ أَدِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحِجِّ يَا تَوَكَّ رَجَالًا وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يُذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ** إلى آخر الآيات.

و أما السنة فقد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم "من حج لله فلم يرفث و لم يفسق رجع كيوم ولدته أمه" رواه البخارى و غيره، و روى ابن حبان عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه و سلم قال "إن الحاج حين يخرج من بيته لم يخط خطوة إلا- كتب الله له بها حسنة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٧٩

و حط عنه بها خطيئة. فإذا وقفوا بعرفات باهى الله بهم ملائكته يقول: انظروا إلى عبادى أتوني شعثا غبرا أشهدكم أنى غفرت ذنوبهم، و إن كانت عدد قطر السماء و رمل عاليج. و إذا رمى الجمار لم يدر أحد ما له حتى يتوفاه الله تعالى يوم القيامة، و إذا حلق شعره فله بكل شعرة سقطت من رأسه نور يوم القيامة، فإذا قضى آخر طوافه بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. "اه. و قال عليه الصلاة و السلام "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما و الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" رواه الشيخان، و قال "تابعوا بين الحج و العمرة فإنهما ينفيان الفقر و الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد، و الذهب و الفضة. و ليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة" رواه أحمد و غيره. و قال "من حج عن أبيه أو أمه فقد قضى عنه حجته. و كان له فضل عشر حجج" رواه الدارقطنى. و قال "إذا لقيت الحاج فسلم عليه و صافحه، و مره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته فإنه مغفور له" رواه أحمد. و قال "اللهم اغفر للحاج و لمن استغفر له الحاج." رواه الحاكم، و قال:

صحيح الإسناد. و يستحب الإكثار من العمرة لا سيما في رمضان، لما أخرجه ابن حبان و غيره "عمرة في رمضان تعدل حجة معى" و في رواية البخارى "تقضى حجة، أو حجة معى."

و يستحب أن يحج الإنسان عن نفسه بعد حجة الإسلام ثانية و ثالثة، فقد ورد "من حج حجة فقد أدى فرضه، و من حج ثانية فقد دأين ربه و من حج ثالثة حرم الله جسده على النار."

و فى الحديث القدسى "إن عبدا صححت له جسمه و أوسعت عليه معيشته تمضى عليه خمسة أعوام لا يفد إلى محروم." و هناك أحاديث كثيرة وردت فى هذا الشأن اكتفينا بما ذكرناه بغية الاختصار.

انتهى من كتابنا إرشاد الزمرة لمناسك الحج و العمرة. و إليك صورة بعض الحجج.

انظر: صورة رقم ١١٠، الحجج فى عرفات

و اعلم: أن الأيام المعلومات المذكورة فى سورة الحج هى: عشر ذى الحجة على الأصح، و الأيام المعدودات المذكورة فى سورة البقرة هى: أيام التشريق، و هى الثلاثة الأيام بعد يوم النحر. و يسمى اليوم الثامن من ذى الحجة يوم التروية، و اليوم التاسع من يوم عرفة و اليوم العاشر منه يوم النحر، و اليوم الحادى عشر منه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٨٠

يوم القرّ بفتح القاف و تشديد الراء، و اليوم الثانى عشر منه يوم النفر الأول، و اليوم الثالث عشر منه يوم النفر الثانى.

لذلك كان صبيحة ليلتها هو العيد الأكبر للمسلمين في جميع الأقطار، و كيف لا يكون كذلك و الله عز شأنه يتجلى على هذا الجمع الغفير من الأمة المحمدية بالرحمة و الغفران و الفضل و الإحسان، و العتق من النار، بل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٨٢

حتى يباهى بهم الملائكة، ذلك يوم اختلط العربي بالعجمي، و الأبيض بالأسود، و الحيوان بالبشر، و صار كل واحد يدعو الله مخلصا بقلبه، سائلا له بلسانه و لغته، ساكبا من العبرات و الدموع ما يبلغه أعلى مراتب الخضوع و الخشوع.

كلهم في ذلك اليوم لا يرجون إلا الله، و لا يدعون إلا إياه، نشيدهم الروحي "لييك اللهم لبيك" و شعارهم الديني "لا إله إلا الله و لا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين و لو كره الكافرون"، قد تركوا أوطانهم و فارقوا أولادهم، و كشفوا رؤوسهم، و نزعوا ثيابهم، و أبدلوها بالإحرام الأبيض كالأكفان، و وقفوا في ذلك الصحراء الواسع، امتثالا لأمر الله و ابتغاء لمرضاته.

فمن أسرار الحج أن يكون هذا الموقف العظيم و المحشر الأصغر يوم عرفه، في فضاء متسع و صحراء مترامية الأطراف، مجردة عن الدور و البنيان.

و أن تكون هذه الجموع البشرية في صحة تامة أيام الحج، مع كثرة عددهم و تعرضهم للشمس و الهواء و الغبار و التراب الناشئ من كثرة انتقالهم بشتى وسائل الركوب من سيارات و جمال و دواب أخرى، و مع كونهم يستظلون بالخيام و تحت الهودج و بين الصخور و الأحجار الكبار، و ما ذاك إلا- لأنهم تركوا الوسوس و الأوهام في هذه الأيام، فلا- يهتمهم إلا- الاجتهاد في العبادة و الإخلاص في الدعاء و الشكر و الفرح بأداء هذه الفريضة المقدسة.

و من أدق أسرار الحج أن الرؤيا المنامية في ليالي عرفه و مزدلفه و منى تختلف عنها في بقية الليالي الأخرى، كما يعرف ذلك أرباب البصائر و العلماء العاملين كل واحد بحسب استعداده من حسن نيته و نظافة قلبه و درجة صلاحه.

و إن من أعظم الدليل على فضل يوم عرفه على سائر الأيام نزول هذه الآية الجليلة في أول سورة المائدة و هي: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَإِنهَا نَزَلَتْ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَ كَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ بَعْدَ الْعَصْرِ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ سَنَةِ عَشْرٍ، وَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَاقِفَ بَعْرِفَةَ عَلَى نَاقَتِهِ الْعِضْبَاءِ، فَكَادَ عَضُدُ النَّاقَةِ يَنْقَدُ مِنْ ثِقَلِهَا فَبَرَكَتْ.**

روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرأونها، لو علينا أنزلت معشر اليهود، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: و أي آية قال: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا** فقال عمر: **إني لأعلم اليوم الذي**

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٨٣

نزلت فيه، نزلت على رسول الله صلى الله عليه و سلم بعرفة في يوم جمعة، لفظ مسلم و عند النسائي "ليلة جمعة". نقلنا هذه الرواية من تفسير القرطبي.

و لا يخفى أن هذه الآية الكريمة أعظم بشارة و أكبر فرح للمسلمين لاشتمالها على ثلاث مسائل كل واحدة أعظم من أختها كما هي ظاهرة من منطوق الآية:

(١) أن الله تعالى قد أكمل لنا ديننا الحنيف.

(٢) قد أتم علينا نعمته من جميع الوجوه.

(٣) قد اختار لنا بنفسه دين الإسلام القويم، كل ذلك بمحض فضله و رحمته.

و لما جرت العادة أن البشائر الكبرى، و الأخبار المهمة العمومية، تكون بالإعلان عنها على رؤوس الأشهاد بشتى الطرق و الوسائل، تكرم الله عز شأنه أن يكون نزول هذه الآية الجليلة في يوم عرفه، لاجتماع كافة المسلمين فيه و حضور رسول الله صلى الله عليه و سلم بينهم لينتشر ذلك فيهم بسرعة البرق، فيعم البشر و السرور و الفرح و الجور للمسلمين جميعا في وقت واحد.

و يفهم من هذه الآية قرب انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الدار الآخرة، فما دام الدين الإسلامي قد كمل و أدى النبي رسالته للناس و بلغهم ما أنزل إليه، فليحقق بالرفيق الأعلى، و ليسترح من تعب الدنيا.

و في نزول هذه الآية الكريمة حكمه كبرى، و هي اطمئنان المسلمين إلى أن دينهم قد كمل فلا يحتاج إلى زيادة شيء، فلو لم تنزل هذه الآية، و مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لخطر في البال و جال في الصدور، أن دين الإسلام ربما لم يكمل، و أنه لو لم يمت صلى الله عليه وسلم لتوالى نزول الآيات القرآنية، و ازدادت أحكام الديانة الإسلامية، فلهذه الآية الجليلة موقع عظيم، و معنى دقيق لا يغيب على ذوى الألباب.

و هنا نمسك عنان القلم عن الاسترسال في هذا المعنى، فلو أردنا أن نتكلم عن مزايا الحج و أسرارها، لاحتجنا إلى أن نضع فيه مؤلفا خاصا، و في هذا القدر كفاية للفضلاء. و ما تَوَفِّقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ. انتهى من كتاب إرشاد الزمرة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٨٤

فضل العمرة

قال الطبري رحمه الله تعالى في كتابه "القرى لقاصد أم القرى" ما نصه: تقدم في الباب الأول حديث "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما،" و حديث "تابعوا بين الحج و العمرة،" و حديث "الحاج و العمار و فد الله،" و حديث "من مات حاجا أو معتمرا،" و أحاديث تتضمن الحج و العمرة.

و عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه، أن عمر استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة، فأذن له و قال: لا تنسنا من دعائك و أشركنا في دعائك أخرجه أبو داود.

و أخرجه أحمد بزيادة، و لفظه: عن عمر أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة، فأذن له، و قال: يا أخي لا تنسنا من دعائك. و في لفظ: يا أخي أشركنا في دعائك، قال:

ما أحب أن يكون لي بها ما طلعت عليه الشمس. لقوله "يا أخي" أخرجه كذلك الحافظ السلفي و صاحب الصفوة، و أخرجه ابن حرب الطائي، و لفظه:

أشركنا في صالح دعائك و لا تنسنا.

و عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن العمرة الحج الأصغر. أخرجه ابن الحاج في منسكه. انتهى من كتاب الطبري المذكور.

إتيان العمرة في شهر رجب

إتيان العمرة في شهر رجب من الأمور القديمة بعد الإسلام، قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره عند قوله تعالى:

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ... الآية ما نصه:

و إنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد، و واحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج و العمرة فحرم قبل أشهر الحج شهرا و هو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال و حرم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج، و يشتغلون فيه بأداء المناسك، و حرم بعده شهرا آخر و هو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، و حرم رجب في وسط لأجل زيارة البيت و الاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره، ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا. انتهى من تفسير ابن كثير.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٨٥

و ذكر بعض المؤرخين أن أهل مكة قد اعتادوا إتيان العمرة في شهر رجب، و ذكروا لذلك علّة و هي أن أصل هذه العمرة الرجبية يرجع إلى فراغ عبد الله بن الزبير من بناء الكعبة و كان ذلك في اليوم السابع و العشرين من شهر رجب حيث خرج هو و أهل مكة بعد الفراغ من البناء حتى اعتمروا من التنعيم شكرا لله عز و جل. قالوا: فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة يشار كهم في ذلك بعض القبائل الموالية لمكة مثل بجيلة و زهران و غامد حيث يبادرون بالحضور إلى مكة في شهر رجب لإتيان العمرة فيه و يجلبون معهم الحبوب و الطعام و السمن و العسل و الزبيب و اللوز و نحو ذلك، فينتفع أهل مكة منهم و ينتعش السوق بهم.

هكذا ذكر بعض المؤرخين، و لا ندرى متى بطلت هذه العادة من أهل مكة فقد كانوا يأتون بالعمرة الرجبية إلى ما بعد زمان ابن بطوطة الذي ذكر هذه العمرة في رحلته التي كانت سنة (٧٢٥) هجرية فعليه تكون هذه العادة فيهم إلى ما بعد القرن الثامن. و الله تعالى أعلم متى تركوها.

أما في عصرنا فلم نسمع قط بالعمرة الرجبية بمكة، و إنما العادة عندنا الزيارة الرجبية، فقد كان الركب يمشى إلى المدينة المنورة في شهر رجب و لا تزال هذه العادة إلى اليوم حتى في بعض البلدان النائية كمصر و الشام فإنهم يأتون لزيارة المدينة في شهر رجب، و لم نعلم عن أصل هذه الزيارة الرجبية أيضا شيئا.

و الذي نراه عن أصل العمرة الرجبية هو غير ما ذكره بعض المؤرخين و أرباب الرحلات من أن أصله يرجع إلى إتيان ابن الزبير العمرة في يوم ٢٧ رجب بعد فراغه من بناء الكعبة، فإن اعتمار ابن الزبير كان شكرا لله تعالى على توفيقه لبناء بيته الحرام، و بزوال هذه العلّة و عدم تكرار البناء و الهدم في زمانه لم يبق وجه لإتيان العمرة في رجب.

و نرى أن اعتمار الناس في شهر رجب له سبب غير ما تقدم و هو ما ذكره العلامة الطبري في كتابه "القرى لقاصد أم القرى"، فقد جاء فيه عند الكلام على عمرة رجب ما خلاصته:

عن ابن عمر و ابن عباس رضى الله تعالى عنهم أن النبي صلى الله عليه و سلم اعتمر أربع عمر إحداهن في رجب و قد تقدم الحديثان في فصل عدد عمره صلى الله عليه و سلم، و عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يعتمر في رجب كل عام و يتبع في ذلك فعل عمر و عثمان و كلاهما كانا يعتمران في رجب و يرونه شهرا حراما من أوسط الشهور،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٨٦

و أحق أن يعتمر فيه لتعظيم حرمت الله تعالى. أخرجه أبو ذر في منسكه، و في رواية أنه كان يعتمر في رجب و يهدى قال نافع: و ليس الهدى بواجب إنما كان هدى تطوع.

و عن القاسم عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تعتمر من المدينة في رجب و تهل من ذى الحليفة.

و روى الواقدي عن أشياخه أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه اعتمر في رجب سنة إحدى عشرة و دخل مكة ضحوه النهار فأتى منزله و أبوه أبو قحافة جالس على باب داره فقيل له: هذا ابنك فنهض قائما و عجل أبو بكر أن ينيخ راحلته فنزل عنها و هي قائمة فجعل يقول: يا أبة لا تقم ثم التزمه و قبل بين عيني ابن قحافة و جعل الشيخ يبكي فرحا بقدمه و جاءه و الي مكة عتاب بن أسيد و سهيل بن عمرو و عكرمة بن أبي جهل و الحارث بن هشام فسلموا عليه سلام عليك يا خليفة رسول الله و صافحوه جميعا فجعل أبو بكر يبكي حين يذكرون رسول الله صلى الله عليه و سلم ... إلى آخر كلام الواقدي.

قال ابن الصلاح: و روى الاعتمار في رجب عن جماعة من السلف، و عن أبي إسحاق السبيعي أنه سئل عن عمرة رمضان فقال: أدركت أصحاب عبد الله لا يعدلون بعمرة رجب. و هذا كله لا يعدل الحديث الصحيح في عمرة رمضان.

انتهى كل ذلك من كتاب الطبري المذكور.

نقول: هذا ما نراه أصلا في العمرة الرجبية. و الله تعالى أعلم.

و بمناسبة الكلام على الاعتمار في شهر رجب نذكر ما جاء في رحلة ابن جبير عن كيفية اعتمار أهل مكة في رجب و نذكر أيضا ما

جاء في كتاب الطبري "القرى لقاصد أم القرى" عن عمرة الحريق. و لتكلم عن هذه العمرة أولاً:

قال الإمام الطبري بصحيفة (٥٧٩) من كتابه المذكور ما نصه:

ذكر الإمام أبو عبد الله محمد بن الحاج المالكي في منسكه المترجم بكتاب المنهاج قال الشيخ أبو محمد مكي بن أبي طالب رحمه الله تعالى: كانوا إذا كان ليلة عاشوراء اجتهد الناس في الطواف والصلاة، وأخذ سكان مكة في شعابها في الحريق يوقدون النيران على جيف إبل الحاج ليذهب عنهم ريحها و لو تكلفوا إخراجها لطال عليهم لكثرة الجيف، و يوقدون على الجبال المشرفة على البيت سنة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٨٧

لهم ثم يصبح الناس إلى العمرة فلذلك تسمى "عمرة الحريق" ثم يخرج الناس إلى ثور و هو الجبل الذي فيه الغار الذي ذكره الله تعالى في القرآن و بين ثور و بين مكة ثلاثة أميال. انتهى من الكتاب المذكور.

العمرة الرجبية

أما ما ذكر ابن جبير عن كيفية اعتمار أهل مكة في شهر رجب، فإليك ما جاء في رحلته:

قال ابن جبير الأندلسي عنها في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان و سبعين و خمسمائة ما يأتي:

و هذا الشهر المبارك "أي رجب" عند أهل مكة موسم من المواسم العظيمة و هو أكبر أعيادهم، و لم يزالوا على ذلك قديما و حديثا يتوارثه خلفا عن سلف متصلا ميراث ذلك إلى الجاهلية لأنهم كانوا يسمونه متصل الأسنة و هو أحد الأشهر الحرم و كانوا يحرمون القتال فيه، و هو شهر الله الأصم كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و العمرة الرجبية عندهم أخت الوقفة العرفية لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذي لم يسمع بمثله و يبادر إليها أهل الجهات المتصلة بها فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم إلا الله عز و جل فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدى ذكره غرابه و عجا. شاهدنا من ذلك أمرا يعجز الوصف عنه.

و المقصود منه الليلة التي يستهل فيها الهلال مع صبيحتها و يقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار و ذلك لأننا عاينا شوارع مكة و أزقتها من عصر يوم الأربعاء و هي العشي التي ارتقب فيها الهلال قد امتلأت هودج مشدودة على الإبل مكسوة بأنواع كساء الحرير و غيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها و وفرهم و كل يتأنق و يحتفل بقدر استطاعته فأخذوا في الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهودج في أباطح مكة و شعابها، و الإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين و أشعرت بغير هدى بقلائد رائقة المنظر من الحرير و غيره ربما فاضت الأستار التي على الهودج حتى تسحب أذيالها على الأرض و من أغرب ما شاهدنا من ذلك هودج الشريفه جمائه بنت فليته عمت الأمير مكثر، فإن أذيال ستره كانت تسحب على

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٨٨

الأرض انسحابا و غيره من هودج حرم الأمير و حرم قواده إلى غير ذلك من هودج لم نستطع تقييد عدتها عجزا عن الإحصاء فكانت تلوح على ظهور الإبل كالبواب المضروبة فيخيل للناظر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق و لم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة إلا من خرج للعمرة من أهلها و من المجاورين و كنا في جملة من خرج ابتغاء بركة الليلة العظيمة فكنا لا نتخلص إلى مسجد عائشة من الزحام و انسداد ثياب الطريق و النيران قد أشعلت بحافتي الطريق كله و الشمع يتقد بين أيدي الإبل التي عليها هودج من يشار إليه من عقائل نساء مكة. فلما قضينا العمرة و طفنا و جئنا للسعي بين الصفا و المروة و قد مضى هدو من الليل أبصرناه كله سراجا و نبراسا و قد غص بالساعين و الساعيات على هودجهن فكنا لا نتخلص إلا بين هودجهن و بين قوائم الإبل لكثرة الزحام و

اصطكاك الهودج بعضها على بعض فعائنا ليلة هي أغرب ليالى الدنيا فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجا يحدث به ولا عجا يذكره مرأى الحشر يوم القيامة لكثرة الخلاق فيه محرمين ملبين داعين الله عز وجل ضارعين. والجبال المكرومة التي بحافتي الطريق تجيبهم بصداها حتى سكت المسامع وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع وذابت القلوب الخواشع وفي تلك الليلة ملئ المسجد الحرام كله سرجا فتلاً نوراً وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير أمر بضرب الطبول والذبابد والبوقات إشعاراً بأنها ليلة الموسم. فلما كانت صبيحة الخميس خرج إلى العمرة في احتفال لم يسمع بمثله انحشد له أهل مكة عن بكره أبيهم فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة وجماعة حارة حارة شاكين في الأسلحة فرساناً ورجالاً فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة يتعجب المعان لهم لوفور عددهم فلو أنهم من بلاد جمه لكانوا عجا فكيف وهم من بلد واحد وهذا أول الدلائل على بركة البلد فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها والراجله يتواثبون ويتشاققون بالأسلحة في أيديهم حراباً وسيوفاً وحجفاً وهم يظهرون التضامن بعضهم لبعض والتضارب بالسيوف والمدافعة بالحجف التي يستجنون بها وأظهروا من الحدق بالنقاف كل أمر مستغرب وكانوا يرمون بالحرب إلى الهواء ويبادرون إليها لققاً بأيديهم وهي قد تصوبت أستها على رؤوسهم وهم في زحام لا يمكن فيه المجال وربما رمى بعضهم بالسيوف في الهواء فيتلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم إلى أن خرج الأمير يزحف بين قواده وأبنائه أمامه وقد قاربوا من الشباب والرايات تخفق أمامه والطبول والذبابد بين يديه والسكينة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٨٩

تفيض عليه وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين فلما انتهى إلى الميقات وقضى غرضه أخذ في الرجوع وقد ترتب العسكران بين يديه على لعهم ومرحهم والراجله على الصفه المذكوره من التجاول وقد ركب جملة من أعراب البوادي نجبا صهبا لم ير أجمل منظرا منها وركابها يسابقون الخيل بها بين يدي الأمير رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه إلى أن وصل المسجد الحرام. فطاف بالكعبة والقراء أمامه والمؤذن الزمى يفرد في سطح قبة زمزم رافعا عقيرته بتهنئته بالموسم والثناء عليه والدعاء له على العادة. فلما فرغ من الطواف صلى عند الملتزم ثم جاء إلى المقام صلى خلفه وقد أخرج له من الكعبة ووضع في قبته الخشبية التي يصلى خلفها. فلما فرغ من صلاته رفعت له القبة عن المقام فاستلمه وتمسح به ثم أعيدت القبة عليه وأخذ في الخروج على باب الصفا إلى المسعى وانجفل بين يديه. فسعى راكبا والقواد مطيفون به والراجله الحرابه أمامه.

فلما فرغ من السعى استلت السيوف أمامه وأحدقت الأشياع به وتوجه إلى منزله على هذه الحالة الهائلة مزحفاً به وبقي المسعى يومه ذلك يموج بالساعين والساعات فلما كان اليوم الثاني وهو يوم الجمعة كان طريق العمرة في العمارة قريبا من أمسه راكبين وماشين رجالاً ونساء والنساء الماشيات المتاجرات كثيرا يسابقن الرجال في تلك السبيل المباركة تقبل الله من جميعهم بمنه. وفي أثناء ذلك يلقى الرجال بعضهم بعضاً فيتصافحون، ويتهادون الدعاء والتغافر بينهم والنساء كذلك والكل منهم قد لبس أفخر ثيابه واحتفل احتفال أهل البلاد للأعياد وأما أهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم لهم يعبثون به وله يحتفلون وفي المباهاة فيه يتنافسون له يعظمون وفيه تنفق أسواقهم وصنائعهم يقدمون النظر في ذلك الاستعداد له بأشهر. انتهى من رحلة ابن جبير.

وجاء في تاريخ الغازي المسمى إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام ما يأتي:

قال ابن بطوطة: وأهل مكة يحتفلون بعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله وهي متصله ليلاً ونهاراً، وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة وخصوصاً أول يوم منه. ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين فإنهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهودج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع كل أحد يفعل بقدر استطاعته والجمال مزينة مقلدة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٩٠

بقلائد الحرير وأسناد الهودج ضافية تكاد تمس الأرض فهي كالقباب المضروبة ويخرجون إلى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهودج والجبال تجيب بصداها إهلال المهللين فترق النفوس وتنهمل الدموع. فإذا قضاوا العمرة طافوا بالبيت وخرجوا إلى

السعى بين الصفا و المروة بعد مضي شيء من الليل و المسعى متقد السرج غاص بالناس و الساعيات في هودجهن و المسجد الحرام يتلأأ نورا و هم يسمون هذه العمرة بالعمرة المكية لأنهم يحرمون بها من أكمة أمام مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غلوة على مقربة من المسجد المنسوب إلى علي رضي الله عنه.

و أهل الجهات الموالية لمكة مثل بجبله و زهران يبادرون لحضور العمرة و يجلبون إلى مكة الحبوب و السمن و العسل و الزبيب و الزيت و اللوز فترخص الأسعار بمكة و يرغد عيش أهلها و تعمهم المرافق. انتهى من تاريخ الغازي و هو مخطوط غير مطبوع.

الزيارة الرجبية

لم نقف على علة زيارة الناس للنبي صلى الله عليه و سلم في شهر رجب و تسمى إلى اليوم الزيارة الرجبية، و الظاهر أن هذا حدث تبعا لزيارة البيت الحرام من السابق، فقد قال ابن كثير في تفسيره عن آية: **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ... ما نصه:**

و حرّم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت و الاعتماد به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا اه.

فمن هنا درج الناس على هذا المنوال إلى يومنا هذا، فيأتي بعضهم من جهة العراق و الشام و اليمن إلى مكة المشرفة للاعتبار ثم يذهبون إلى زيارة النبي صلى الله عليه و سلم، كما يقوم بعضهم من نفس مكة و أطرافها إلى المدينة المنورة للزيارة في شهر رجب، و يستعدون لها قبل وقتها بأيام و غالبا يذهبون على الدواب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٩١

وجوب الحج و العمرة

قال الله تعالى: **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** و قال: **وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ.**

اعلم أن الحج و العمرة عند الشافعية و الحنابلة كل واحد منهما فرض عين في العمر مرة واحدة على الفور، أما عند الحنفية فالحج فرض عين في العمر مرة واحدة على الفور عند أبي يوسف و على التراخي عند محمد و العمرة سنة مؤكدة، و أما عند المالكية فالحج فرض عين في العمر مرة واحدة على الفور و العمرة سنة مؤكدة على المعتمد.

قال في شرح الخرشي: و أما العمرة فهي سنة في العمر مرة على المشهور و هي آكد من الوتر، و قيل: فرض كالحج و به قال الشافعي. انتهى.

و لقد حج رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل النبوة و بعدها و قبل الهجرة حججا لا يدرى عددها و حج بعد الهجرة حجة الوداع لا غير بإجماع المسلمين، و كذلك اعتمر قبلها عمرا لا يدرى عددها، و أما بعدها فعمرة في رجب و ثلاثا بل أربعا في ذي القعدة- أي في ثلاثة أعوام لأنه في حجة الوداع كان في آخر أمره قارنا- و عمرة في شوال كما صح في أبي داود و عمرة في رمضان كما في البيهقي.

و الحج يكفر الصغائر و الكبائر حتى التبعات على المعتمد، و قد ورد في الحج و العمرة كثير من الأحاديث. منها ما رواه الشيخان: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما و الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" و منها ما رواه أحمد و غيره: "تابعوا بين الحج و العمرة فإنهما ينفيان الفقر و الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد و الذهب و الفضة و ليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة." إلى غير ذلك من الأحاديث المذكورة في كتب الفقه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، قال: يا أيها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ، وقال: يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك." رواه مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٩٢ إذا حججت بمال أصله سحت فما حججت ولكن حججت العير لا يقبل الله إلا كل صالحاً ما كل حج لبيت الله مبرور

سنن الحج والعمرة في المذهب الشافعي

اعلم أن سنن الحج كثيرة:

منها: الغسل عند إرادة الإحرام بحج أو عمرة أو بهما معاً، فإن عجز عن الغسل تيمم، و يسن الغسل للإحرام حتى الحائض و النفساء و حتى غير المميز.

و منها: التطيب في البدن عند إرادة الإحرام قبل النية و بعد الغسل للذكر و الأنثى غير الصائم، و لا يضر استدامه الطيب بعد الإحرام و لا انتقاله من محل إلى محل آخر بواسطة العرق، أما لو أخذه من بدنه ثم رده إليه لزمته الفدية.

و منها: الغسل لدخول مكة لمحرم بحج أو عمرة أو بهما معاً.

و منها: الغسل للوقوف بعرفة، و الأفضل كونه بعد الزوال من تاسع ذى الحجة.

و منها: الغسل للمبيت بمزدلفة إن لم يغتسل بعرفة.

و منها: الغسل للوقوف بالمشعر الحرام، و هو جبل بطرف المزدلفة، و يسمى قرح.

و منها: الغسل لرمى الجمار الثلاث في أيام التشريق الثلاث، فيغتسل لرمى كل يوم منها غسلًا. أما رمى جمرة العقبة يوم النحر، فلا يغتسل له، إن اغتسل للوقوف بالمشعر الحرام.

و منها: ركعتان سنة الإحرام بعد الغسل له، ثم ينوي بعدهما بالحج أو بالعمرة أو بهما.

و منها: ركعتان بعد أى طواف كان.

و منها: طواف القدوم لحلال أو حاج دخل مكة قبل الوقوف بعرفة. أما المعتمر إذا طاف للعمرة فلا يسن له طواف القدوم.

و منها: المبيت بمنى ليلة التاسع حال ذهابه إلى عرفة لأنه للاستراحة لا للنسك.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٩٣

و منها: أن يجمع بين الليل و النهار في الوقوف بعرفة في اليوم التاسع، فلو خرج من عرفة بعد الزوال من يوم التاسع فقد أدرك الوقوف.

و منها: الأفراد و هو تقديم الإحرام بالحج و الفراغ من أعماله على الإحرام بالعمرة و الإتيان بأعمالها فلو لم يقدم الحج على العمرة لم يكن مفرداً.

و منها: التلبية عند الإحرام أو عند تغاير الأحوال كصعود و هبوط و ركوب و اختلاط رفقته و عقب الصلوات و يكثر منها ما دام محرماً، و يرفع صوته بها إن لم يؤذ غيره. و وقت التلبية من حين إحرامه إلى أن يرمى جمرة العقبة يوم النحر.

و أما سنن العمرة: فإنه يسن لها ما يسن للحج إلا في بعض المسائل التي لا تكون إلا للحج و هي معروفة في كتب الفقه، فلا لزوم لبيانها هنا.

و لفظ التلبية كما يأتي:

لييك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد و النعمة لك و الملك لا شريك لك، يقولها ثلاث مرات، ثم يصلى على النبي صلى الله عليه و سلم بأى صيغة كانت، و الإبراهيمية أفضل، ثم يسأل الله الجنة و يستعيد به من النار، و معنى لبيك: أنا مقيم على طاعتك إقامة بعد إقامة و إجابة بعد إجابة، و سن وقفه لطيفة على الثالثة و على لبيك بعد لا شريك لك، و وقفه على الملك و قبل لا شريك لك.

و سن أن يدعو بعد ذلك بما أحب، كأن يقول: (اللهم إني أسألك رضاك و الجنة و أعوذ بك من سخطك و النار)، و أن يقول: (اللهم اجعلني من الذين استجابوا لك و لرسولك و آمنوا بك، و وثقوا بوعدك و وفوا بعهدك و اتبعوا أمرك، اللهم اجعلني من وفدك الذين رضيت و ارتضيت، اللهم يسر لي أداء ما نويت و تقبل مني يا كريم). و ليحذر الملبى فى حال تلبيته مما يفعله بعض الجهلة من الضحك و اللعب، و ليكن مقبلا على ما هو بصدده، فإن أقبل على الله تعالى بقلبه أقبل الله عليه، و إن أعرض أعرض الله عنه، فالله تعالى غنى عن العالمين.

قصيدة أبي نواس فى التلبية

و من لطائف قول أبي نواس رحمه الله تعالى فى التلبية ما يأتى:

إلهنا ما أعدلكم ليك كل من ملك
لييك قد لبيت لك لبيك إن الحمد لك
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٩٤ و الملك لا شريك لك ما خاب عبد سألك
أنت له حيث سلك لولاك يا رب هللك
لييك إن الحمد لك و الملك لا شريك لك
و الليل لما أن حلكت و السابحات فى الفلك
على مجارى المنسلك كل نبى أو ملك
و كل من أهل لك سبح أو لبي فلك
يا مخطئا ما أغفلك عجل و بادر أجلك
و اختم بخير عملك لبيك إن الحمد لك
و الملك لا شريك لك و الحمد و النعمة لك

هذه القصيدة لو قرأها جماعة من الحجاج بصوت واحد و نغم جميل كان لها تأثير فى نفوس السامعين خصوصا حين الدفع عن عرفات إلى مزدلفة.

و أما التكبير فإنه يسن للحاج أن يكبر عقب الصلوات من ظهر يوم النحر إلى صبح آخر أيام التشريق، و صيغته المسنونة هى:
الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله و الله أكبر، الله أكبر الله أكبر و لله الحمد، الله أكبر كبيرا، و الحمد لله كثيرا، و سبحان الله بكرة و أصيلا، لا إله إلا الله، و لا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين و لو كره الكافرون، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، و نصر عبده، و هزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله، و الله أكبر. انتهى من كتاب إرشاد الزمعة.

[الميقات الزمانى و المكانى]

للحج ميقتان: زمانى و مكانى، فالميقات الزمانى هو شوال و ذو القعدة و عشر ليال من ذى الحجة، أى من أول ليلة عيد الفطر إلى ما قبل فجر يوم النحر بما يسع الوقوف بعرفة فمن أحرم قبل فجره بلحظة و هو بعرفة فقد أدرك الحج، ثم يأتى ببقية أعماله.

والميقات المكناني الذي يجب عنده الإحرام الداخلى حرم مكة معروف فى جميع الأطراف، و هو خمسة مواضع، نظمها بعضهم بقوله:
قرن يللم ذات عرق كلها فى البعد مرحلتان من أم القرى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٩٥ و لذى الحليفة بالمراحل عشرة و بها لجحفه سته فاخبر ترى
فميقات المتوجه من المدينة ذو الحليفة، بضم الحاء وفتح اللام، و هو المعروف بأبار على و هى أبعد المواقيت من مكة، و أقربها إلى
المدينة و قد ترى منها.

و ميقات المتوجه من الشام و مصر و المغرب و السودان من جهة البحر، الجحفه بضم الجيم و سكون الحاء و لما كان السيل أزالها
أبدلت برابغ.

و ميقات المتوجه من تهامة اليمن يللم.

و ميقات المتوجه من نجد الحجاز و نجد اليمن و من الطائف قرن، بفتح القاف و سكون الراء، و يقال لها قرن المنازل، و هى على
مرحلتين من مكة لنجد، و هى تعادل السيل الكبير يحرم منه أهل نجد الآن، و قد توهم بعضهم أن قرن المنازل هو قرن الثعالب، و
ليس ذلك بصحيح، بل هما موضعان، فقرن الثعالب قريب من عرفات، و ليس من المواقيت، و قرن المنازل هو الموازى للسيل الكبير،
و هو الميقات المعروف.

و ميقات المتوجه من المشرق، أى الإقليم الذى تشرق الشمس من جهته، و هو شامل للعراق و غيره ذات عرق، بكسر العين و سكون
الراء، قرية خربة على مرحلتين من مكة أيضا.

و الميقات المكناني للعمرة هو ميقات الحج، و الميقات الزمانى لها جميع السنة.

و الأفضل أن يحرم الشخص من أول الميقات، و يجوز من آخره فلو أحرم حلال بالحج فى غير وقته كأن أحرم به فى رمضان انعقد
عمرة مجزئة عن عمرة الإسلام على الصحيح، سواء كان عالما أو جاهلا لأن الإحرام شديد التعلق و اللزوم، أما لو كان محرما بعمرة ثم
أحرم بحج فى غير أشهره، فإن إحرامه لم ينعقد حجا لكونه فى غير أشهره، و لا عمرة لأن العمرة لا تدخل على العمرة.

و من كان مقيما بمكة مكيا كان أو غريبا، فميقاته للحج و لو بقران: نفس مكة، لا سائر الحرم، فإن فارق بينها و أحرم بالحج أساء و
لزمه الدم لأن ميقاته هو البلد و قد تركه، فإن عاد إليها قبل الوقوف سقط الدم، و قيل ميقاته للحج كل الحرم لأن مكة و سائر الحرم
فى الحرمه سواء و الصحيح هو الأول، و ميقاته للعمرة أدنى الحل، فمن أحرم بالعمرة من مكة و تمم أفعالها و لم يخرج إلى الحل
أجزأه و لزمه الدم، و متى خرج إلى الحل قبل أن يطوف سقط عنه الدم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٩٦

و ميقات العمرة لمن هو خارج الحرم ميقات الحج، و من بالحرم يلزمه الخروج إلى أدنى الحل و لو بخطوة، فإن لم يخرج و أتى
بأفعال العمرة أجزأته فى الأظهر و عليه دم، فلو خرج إلى الحل بعد إحرامه سقط عنه الدم، و قيل لا يجزئه لأن العمرة أحد النسكين،
فيشترط فيها الجمع بين الحل و الحرم كالحج فإنه لا بد فيه من الحل و هو عرفه.

و أفضل جهات الحل لإتيان العمرة: الجعرانة و هى على طريق الطائف، و ماؤها أعذب المياه، فالتنعيم المسمى بمسجد عائشة، و هو
أقرب جهات الحل إلى مكة، و غالب الناس بمكة يأتى بالعمرة منها، فالحدبية و تسمى الآن "بالشميسى" على طريق جدة و هى إلى
مكة أقرب، و سميت حدبية لشجرة حدباء كانت هناك، و عندها حصلت بيعه الرضوان، و من سلك طريقا فى بر أو بحر لا ينتهى
إلى ميقات، فإن حاذى ميقاتا أحرم من محاذاته، أو ميقاتين فالأصح أن يحرم من محاذاه أبعدهما من مكة، و إن لم يحاذ شيئا من
المواقيت أحرم على مرحلتين من مكة.

و من مسكنه بين مكة و الميقات فميقاته مسكنه، و من بلغ ميقاتا غير مريد نسكا ثم أراد فميقاته موضعه و إن بلغه مريدا للنسك، و
إن أراد إقامة طويلة ببلد قبل مكة لم تجز مجاوزته إلى جهة الحرم بغير إحرام، فإن أحرم و لم يعد إليه لزمه الدم و لو كان معذورا.

انتهى من كتاب إرشاد الزمرة.

خطب الحج

اعلم أنه يستحب للإمام أو نائبه أن يخطب في كل خطبة من خطب الحج يخبر الناس بما بين أيديهم من المناسك و يعلمهم الأحكام إلى الخطبة الأخرى، و يسن في الحج أربع خطب:

الأولى: يوم السابع من ذى الحجة بمكة، و يسمى يوم الزينة لتزيينهم فيه هوادجهم، و الثانية: يوم عرفة، و الثالثة: يوم النحر بمنى، و الرابعة: يوم النفر الأول بمنى أيضا، و كل هذه الخطب الأربع إفراد، و بعد صلاة الظهر إلا التي بعرفات فإنها خطبتان و قبل صلاة الظهر و بعد الزوال.

١- فيخطب الإمام أو منصوبه بعد صلاة الظهر في اليوم السابع بمكة يأمر الناس فيها بأن يتأهبوا إلى الذهاب إلى منى في الغد، و هو يوم الثامن المسمى يوم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٩٧

التروية لأنهم يتروون فيه الماء: أى يأخذونه معهم. و يعلمهم المناسك التي بين أيديهم إلى الخطبة المشروعة يوم عرفة بنمرة.

٢- و يخطب خطبتين يوم عرفة بمسجد إبراهيم- و هو مسجد نمره- الخطبة الأولى قبل أذان الظهر، يبين لهم كيفية الوقوف و شرطه و آدابه حتى الدفع من عرفات إلى مزدلفة، و غير ذلك من المناسك التي بين أيديهم إلى الخطبة التي تكون بمنى يوم النحر بعد الزوال، و يحرضهم فيها على الإكثار من الدعاء و التهليل و التلبية و غير ذلك من الأذكار في الموقف، و يخفف هذه الخطبة لكن لا يبلغ تخفيفها تخفيف الثانية، فإن كان فقيها قال: هل من سائل و إن لم يكن فقيها لم يتعرض للسؤال، فإذا فرغ من هذه الخطبة جلس للاستراحة قدر سورة الإخلاص ثم يقوم للخطبة الثانية و يخففها جدا و يأخذ المؤذن في الأذان مع شروع الإمام في هذه الخطبة الثانية بحيث يفرغ منها مع فراغ المؤذن من الأذان، فإذا فرغ من الخطبتين نزل فصلى بالناس الظهر ثم العصر جامعا بينهما، ثم يروح إلى عرفة و يقف.

٣- و يخطب يوم النحر بمنى بعد صلاة الظهر، و يعلم الناس الرمي و الإفاضة و غيرهما من المناسك، و يستحب لكل أحد من الحجاج حضور هذه الخطبة، و يستحب لهم و للإمام الاغتسال لها و التطيب إن كان قد تحلل التحللين أو الأول منهما.

٤- و يخطب بعد صلاة الظهر يوم النفر الأول بمنى أيضا، و هو اليوم الأوسط من أيام التشريق، و يودع الحجاج و يعلمهم جواز النفر و ما بعده و من طواف الوداع و غيره و يحثهم على طاعة الله تعالى، و على أن يختموا حجهم بالاستقامة و الثبات على التقوى، و أن يكونوا بعد الحج خيرا منهم قبله، و تسمى هذه الخطبة خطبة الوداع- بفتح الواو-.

دعاء عرفة

لقد كنا ألفنا رسالته صغيرة في دعاء يوم عرفة و طبعت في سنة (١٣٧١ هـ) و الآن أحببنا نقلها هنا تكملته للفائدة العامة و لنذكر أولا خطبة هذه الرسالة و بعدها نذكر الدعاء إن شاء الله تعالى و هى هذه:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين، أما بعد:

فلما كان يوم عرفة أفضل الأيام و دعاؤه أفضل الدعاء، أحببت أن أجمع في هذه الرسالة من الأدعية الواردة و غيرها ما ينشرح له صدر كل مسلم حينما يدعو ربه عز و جل في يوم عرفة ذلك اليوم العظيم، و وقت الدعاء في يومها يكون من بعد الزوال و بعد صلاة الفريضة، و إذا انشرح صدر الحاج للدعاء فليدع ربه الكريم بما أراد بأى لسان كان فإن ذلك من علامات القبول، و ليجزم بالإجابة

فإن الله أعظم و أجل من أن يرد حاجة عبده المؤمن في ذلك اليوم المشهود، و هو الذى يتجلى فيه على عباده بأنواع البر و الإحسان، و اللطف و الرحمة، و كيف لا- يكون كذلك و هو أرحم الراحمين و الغنى عن العالمين، لا تنفعه طاعتنا و لا تضره معصيتنا، و لقد أعطى و أنفق منذ خلق السموات و الأرض و ما نقص من ملكه مثقال ذرة:

نسأل الله الكريم الحليم رب العرش العظيم العفو و العافية و الصحة التامة و البر و الإحسان و اللطف و الغفران و القبول و التوفيق و الراحة عند الموت و العفو عند الحساب آمين. و صلى الله على النبي الأسمى و على آله و صحبه أجمعين.

رجب ١٣٧١ مؤلفها و كاتبها محمد طاهر الكردى الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم. شهد الله أنه لا- إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم و أنا على ذلك من الشاهدين يا رب. لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد و هو على كل شىء قدير اللهم اجعل فى بصرى نورا و فى سمعى نورا و فى قلبى نورا. اللهم اشرح لى صدرى و يسر لى أمرى اللهم انى أعوذ بك من وسواس الصدر و شتاب الأمر و شر فتنة القبر و شر ما يلج فى الليل و شر ما يلج فى النهار و شر ما تهب به الرياح و شر بوائق الدهر.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٩٩

اللهم لك الحمد كالذى نقول و خيرا مما نقول اللهم لك صلاتى و نسكى و محياى و مماتى و إليك مآبى و لك رب تراثى اللهم انى أعوذ بك من عذاب القبر و وسوسة الصدر و شتات الأمر اللهم انى أعوذ بك من شر ما تهب به الريح.

اللهم لك الحمد حمدا يوافق نعمك و يكافئ مزيدك و كرمك. أحمذك بجميع محامدك ما علمت منها و ما لم أعلم. و أستغفرك من ذنوبى كلها ما علمت منها و ما لم أعلم. الحمد لله على ما أولانا. الحمد لله على ما أعطانا. الحمد لله الذى هدانا لهذا و ما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله. الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا كما يحب ربنا و يرضى. اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا و لا يغفر الذنوب إلا- أنت. يا من لا- تنفعه الطاعة و لا- تضره المعصية هب لى ما لا ينفعك و اغفر ما لا يرضك يا واسع المغفرة. اللهم أذقنى برد عفوك و حلاوة مغفرتك و لذة طاعتك و تقبل منى صالح الأعمال. و اعصمنى عن الخطأ و الزلل فيما بقى من عمرى. و افتح لى أبواب رحمتك و زودنى التقوى و التوفيق. و اجعلنى أتقلب فى رضائك و نعمك ما حييت. و ألبسنى ثوب الصحة و العافية ما بقيت يا أرحم الراحمين و يا خير مسؤول. ربنا آتنا فى الدنيا حسنة و فى الآخرة حسنة و قنا عذاب النار. اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا و إنه لا- يغفر الذنوب إلا- أنت فاعفر لى مغفرة من عندك و ارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم. اللهم اغفر لى مغفرة من عندك تصلح بها شأنى فى الدارين. و ارحمنى رحمة منك أسعد بها فى الدارين. و تب على توبه نصوحا لا أنكثها أبدا. و أزمنى سبيل الاستقامة لا- أزيغ عنها أبدا. اللهم انقلنى من ذل المعصية إلى عز الطاعة. و أغننى بحلالك عن حرامك و بطاعتك عن معصيتك و بفضلك عن سواك. و نور قلبى و قبرى. و أعزنى من الشر كله و اجمع لى الخير كله. اللهم استودعتك دينى و أمانتى و قلبى و بدنى و خواتيم عملى و جميع ما أنعمت به على. فأنت خير حافظا و أنت أرحم الراحمين اللهم انى أسألك إيمانا كاملا.

و يقينا صادقا. و قلبا خاشعا. و لسانا ذاكرا. و رزقا حلالا و اسعيا. و توبه قبل الموت و راحة عند الموت. و مغفرة و رحمة و عفوا عند الحساب. اللهم انى أعوذ بك من الشك و الشرك و الشقاق و النفاق و سوء الأخلاق. و سوء المنظر و المنقلب فى المال و الأهل و الولد. اللهم انى أعوذ بك من زوال نعمتك و تحول عافيتك و فجاءة نعمتك و جميع سخطك. اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى.

و أصلح لى دنياى التى فيها معاشى. و أصلح لى آخرتى التى فيها معادى. و اجعل الحياة زيادة لى فى كل خير. و اجعل الموت راحة لى من كل شر. اللهم اغفر لى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٠٠

خطئى و عمدى و هزلى و جدى و كل ذلك عندى. اللهم اغفر لى ما قدمت و ما أخرت و ما أسررت و ما أعلنت أنت المقدم و أنت

المؤخر و أنت على كل شيء قدير. اللهم إني أسألك رضاك و الجنة و أعوذ بك من سخطك و النار. اللهم إني أعوذ بك من فتنة القبر و من فتنة المحيا و الممات. اللهم إني أعوذ بك من الهم و الحزن و أعوذ بك من العجز و الكسل و أعوذ بك من الجبن و البخل و أعوذ بك من غلبة الدين و قهر الرجال. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع و عمل لا يرفع و دعاء لا يسمع. اللهم فاطر السموات و الأرض ضجت لك الأصوات بصنوف اللغات يمجدونك و يسألونك الحاجات. و حاجتي إليك أن تحيي قلبي و أن تلحقني بالصالحين ممن ذاقوا حلاوة طاعتك و فازوا برضائك و دخلوا في رحمتك و غنموا فضلك و إحسانك و نالوا كرمك و عفوك. يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث فأصلح لي شأني كله و لا تكلني إلى نفسي طرفة عين. لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا-إله إلا-الله رب السموات و رب الأرض و رب العرش الكريم. اللهم حبب إلينا الإيمان و زينه في قلوبنا و كره إلينا الكفر و الفسوق و العصيان و اجعلنا من الراشدين. اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا و بين معاصيك. و من طاعتك ما تبلغنا به جنتك. و من اليقين ما يهون علينا مصائب الدنيا. و متعنا بأسماعنا و أبصارنا و قوتنا ما أحيتنا و اجعله الوارث منا و اجعل ثأرنا على من ظلمنا. و انصرنا على من عادانا. و لا تجعل مصيبتنا في ديننا. و لا تجعل الدنيا أكبر همنا و لا مبلغ علمنا. و لا تسلط علينا من لا يرحمنا.

اللهم استرنا في الدنيا و الآخرة بستر ك الذي لا-ينكشف. و اجعلنا من التوابين المتطهرين الذين تحبهم و ترضى عنهم. و اختم لنا بخاتمة أهل الخير و السعادة. و هون علينا سكرات الموت حتى لا نجد له تعباً و لا نصيباً. و اجعل موتنا عل طهارة و نفاضة و شهادة و هيئة حسنة يا أرحم الراحمين. اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا و ذنبا مغفورا و عملا صالحا مقبولا و تجارة لن تبور. اللهم لا تجعل هذا آخر عهدى من هذا الموقف العظيم و من هذا المشهد المبارك و اجعلني فيه من الفائزين المقبولين. اللهم يا مجيب الدعوات يا قاضى الحاجات يا خالق الأرض و السموات. أنت الله الذى لا إله إلا أنت الواحد الأحد الفرد الصمد. الوهاب الذى لا يبخل و الحليم الذى لا يعجل. لا راد لأمرك و لا معقب لحكمك.

أسألك أن تشرح صدرى و تنور قلبى و تيسر أمرى. و أسألك رضاك و الجنة و الهدى و الرشاد و حسن الخاتمة. اللهم لا تدع لنا فى مقامنا هذا ذنبا إلا غفرته و لا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٠١

هما إلا فرجته و لا كربا إلا كشفته. و لا دينا إلا قضيته و لا عدوا إلا كفيته. و لا فسادا إلا أصلحته. و لا مريضا إلا شفيته و لا شاكيا إلا عافيته. و لا حاجة من حوائج الدنيا و الآخرة إلا قضيتها بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم أعز الإسلام و المسلمين و وفقهم للتمسك بالدين. و ارفع عنهم التنازع و الشقاق و النفاق. و اهدهم إلى الصراط المستقيم و محاسن الأخلاق. و أكثر فيهم من العلماء العاملين. و الأتقياء المخلصين و الأبرار المقربين. و أهلك اللهم الكفرة و المشركين و اجعل بأسهم بينهم إلى يوم الدين. و فرق كلمتهم و شت شملهم و دمر ديارهم يا رب العالمين.

اللهم وفق ملوك المسلمين و وزراءهم و أمراءهم و ولائهم إلى الخير و إلى ما يعود نفعه للرعية. اللهم وفقهم لمعرفة شريعتك و نصره دينك القويم و اهدف فى قلوبهم الخوف منك حتى يتعدوا عن الظلم و الاستبداد. و نور بصائرهم حتى يروا طريق الرشاد فيشتغلوا بما ينفعهم و ينفع العباد و البلاد. و ألن قلوبهم للضعفاء و الفقراء.

و وجههم إلى المصالح العامة و الخاصة. و اجعل المحبة متبادلة بينهم و بين شعوبهم و رعاياهم. و توجههم بتاج العز و الكرامة. و انصرهم نصرا مينا على أعداء الدين يا رب العالمين.

اللهم اغفر لنا و لوالدينا و لمشايخنا فى الدين و لإخواننا فى الله. و لجامع هذه الأدعية و طابعها و ناشرها. و للمؤمنين و المؤمنات و المسلمين و المسلمات. الأحياء منهم و الأموات فى مشارق الأرض و مغاربها آمين.

و صلى الله على سيدنا محمد أبى القاسم الأمين و على آله و صحبه أجمعين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

بحمد الله تعالى و توفيقه و فضله قد تم دعاء يوم عرفه و تليه جملة من الفوائد فى مناسك الشافعى جامعهما و كاتبهما محمد طاهر

الكردى الخطاط سنة ١٣٧١

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٠٢

أنواع النسك

النسك و المناسك جمع منسك، بفتح السين و كسرهما، فبالفتح مصدر و بالكسر اسم لموضع العبادة، مأخوذ من النسيك، و هى الذبيحة المتقرب بها، ثم اتسع فيه فصار اسما للعبادة و الطاعة، و منه قيل للعابد: ناسك، و قد غلب إطلاقها على أفعال الحج لكثرة أنواعها، و لما تتضمنه كثرة الذبائح المتقرب بها. انتهى من كشف القناع.

و اعلم أن الحج و العمرة يؤديان على ثلاثة أوجه:

الأول: الأفراد، و هو: أن يحرم بالحج، و بعد الفراغ من أعماله يخرج من مكة إلى أدنى الحل فيحرم بالعمرة و يأتى بأعمالها.

و الثانى: التمتع، و هو: أن يحرم بالعمرة و يأتى بأعمالها ثم يحرم بالحج و يأتى بأعماله، سواء كانت العمرة فى أشهر الحج أو قبله على المعتمد، لكن الذى يوجب الدم على المتمتع، هو أن يحرم بالعمرة من ليس من حاضرى المسجد الحرام فى أشهر الحج من الميقات، و بعد الفراغ من أعمالها يحرم بالحج من مكة من عامه و إن كان أجيرا فيهما لشخصين، فمن لم يحج من عامه الذى اعتمر فيه لا شىء عليه، و على من حج من عامه لكن عاد إلى ميقات عمرته أو مثل مسافته، و كذا إلى ميقات دون مسافة ميقاته و أحرم بالحج، و كذا لو عاد إلى الميقات محرما به قبل تلبسه بنسك، لأن المقصود قطع تلك المسافة محرما، و لأن المقضى لإيجاب الدم هو ربح الميقات، و قد زال بعوده إليه. و أما حاضروا المسجد الحرام فلا دم عليهم، و هم المستوطنون محلا دون مرحلتين من الحرم، و لا دم على من أحرم بالعمرة فى غير أشهر الحج و إن أتى بأعمالها فيها و حج من عامه كأن أحرم بها فى آخر رمضان و أتى ببقية أعمالها فى شوال. و دم التمتع يجب بالإحرام بالحج، و إذا أراقه بعد الفراغ من العمرة و قبل الإحرام بالحج جاز، لا قبل الفراغ من العمرة، و لكن الأفضل إراقته يوم النحر للاتباع و خروجا من خلاف من أوجبها فيه. و إذا فرغ المتمتع من أفعال العمرة صار حلالا، و حل له الطيب و اللباس و النساء و كل محرمات الإحرام، سواء كان ساق الهدى أم لا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٠٣

و الثالث: القران، و هو: أن يحرم بالحج و العمرة معا فى أشهر الحج أو يحرم بالعمرة و قبل الشروع فى أعمالها يحرم بالحج، فتندرج أعمال العمرة فى أعمال الحج، فيجزئ عنهما، طواف واحد و سعى واحد و حلق واحد.

و إنما يجب الدم على القارن إن لم يكن من حاضرى المسجد الحرام، و إن لم يرجع إلى الميقات الذى أحرم منه بعد دخول مكة و قبل الوقوف بعرفة.

و أفضل هذه الوجوه الثلاثة: الأفراد إن اعتمر من عامه أى مما بقى من ذى الحجة الذى هو شهر حجه، ثم التمتع، ثم القران.

و قد يكون القران أفضل من الأفراد، إذا لم يعتمر بعد الحج فى عامه، فإن تأخير العمرة عن سنة الحج مكروه.

و لا يجب على المكى إذا قرن إنشاء الإحرام من أدنى الحل، كما لو أفرد العمرة على الأصح، بل يحرم من جوف مكة إدراجا للعمرة

تحت الحج فى الميقات كما أدرجت أفعالها فى أفعاله، و مثل المكى الآفاقى إذا كان بمكة و أراد القران.

و لو استوطن غريب مكة فهو حاضر بلا خلاف، و إن استوطن مكى العراق أو غيره فليس بحاضر بالاتفاق.

انتهى من كتابنا (إرشاد الزمرة لمناسك الحج و العمرة). و انظر صورة الحجاج و هم فى عرفات.

انظر: صورة رقم ١١١، الحجاج فى عرفات.

بعض فوائد في المناسك على المذهب الشافعي

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله و الصلاة والسلام على رسول الله و على آله و صحبه أجمعين. اعلم أن من دخل مكة و كان محرما بالحج أو قارنا و سعى بعد طواف القدوم أجزاءه و وقع ركنا و حسب له من سعى الحج فإذا نزل من عرفات فإنه يطوف طواف الإفاضة و يكره له أن يعيد السعى ثانيا.

و يسن الوقوف بعرفة إلى غروب الشمس فلو فارقتها قبل الغروب و لم يعد إليها سن له دم لفوات الجمع بين الليل و النهار فإن عاد و لو ليلا لم يسن له الدم.

و المبيت بمزدلفة واجب فلو تركه لزمه دم و المراد من المبيت بها وجوده فيها لحظة من نصف الليل الثاني.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٠٤

و ينبغي للحاج إذا وصل إلى منى من عرفات أن يقطع التلبية بأول حصة يرميها لجمرة العقبة و يكبر بدل التلبية، فإذا فرغ من الرمي ذبح أضحيته أو هديه أو فديته، فإذا فرغ من النحر حلق رأسه أو قصير و الحلق أفضل، ثم نزل إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة و هذا الترتيب مستحب فلو خالف فقدم بعضها على بعض جاز.

و اعلم أن للحج تحللين فالتحلل الأول يحصل بفعل اثنين من ثلاثة و هي رمي جمرة العقبة و طواف الإفاضة المتبوع بالسعى إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم و الحلق أو التقصير، فيحل له حينئذ محرّمات الإحرام ما عدا ما يتعلق بالنساء من عقد النكاح و المباشرة بشهوة و الوطء.

انظر: صورة رقم ١١٢، المسجد الحرام

و التحلل الثاني يحصل بفعل الثلاثة المذكورة كلها فيحل له حينئذ جميع محرّمات الإحرام حتى ما يتعلق بالنساء و يجب عليه الإتيان بما بقى من الحج و هو الرمي و المبيت بمنى. و أما العمرة فليس لها إلا تحلل واحد و هو يحصل بالفراغ من أعمالها كلها. يدخل وقت ذبح الأضحية و الهدى إذا مضى قدر صلاة العيد و خطبتين معتدلتين بعد الشمس يوم النحر و يبقى إلى غروب الشمس من آخر أيام التشريق و هي الثلاثة المتصلة بعاشر ذى الحجة.

و يدخل وقت ذبح الدم الواجب في الحج بسبب التمتع أو القران أو اللبس أو غير ذلك من حين وجوبها بوجود سببها و لا تختص بيوم النحر و لا غيره لكن الأفضل فيما يجب منها في الحج أن يذبحه يوم النحر بمنى في وقت الأضحية و الحرم كله منحرف حيث نحر منه أجزاءه في الحج و العمرة لكن السنة في الحج أن ينحر بمنى لأنها موضع تحلله و في العمرة بمكة لأنها موضع تحلله أيضا. و لا يجزئ في الفدية أو الأضحية أو الهدى إلا الجذع من الضأن و هو ما له سنة على الأصح و قيل ستة أشهر و قيل ثمانية أشهر. و الثنى من المعز و هو ما له سنتان و قيل سنة. و الثنى من البقر و هو ما له سنتان. و الثنى من الإبل و هو ما له خمس سنين كاملة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٠٥

و يجزئ ما فوق الثنى و الجذع و هو أفضل و يجزئ الذكر و الأنثى و لا يجزئ فيها معيب بعيب يؤثر في نقص اللحم تأثيرا بينا و لا يجزئ ما قطع من أذنه جزء بين و يجزئ الخصى و ذاهب القرن و التي لا أسنان لها إذا لم تكن هزلت.

و تجزئ الشاة عن واحد و البدنة عن سبعة و البقرة عن سبعة سواء كانوا أهل بيت واحد أو أجنب و لو كان بعضهم يريد اللحم و بعضهم يريد الأضحية جاز.

و أفضلها أحسنها و أسمنها و أطيبها و أكملها و الأبيض أفضل و الشاة أفضل من المشاركة بسبع بدنة.

يدخل وقت رمي جمرة العقبة بنصف ليلة النحر بعد الوقوف بعرفة و يبقى إلى آخر أيام التشريق الثلاثة.

و يدخل وقت رمي كل يوم من أيام التشريق بزوال شمس و يبقى إلى آخر أيام التشريق الثلاثة و لا يصح الرمي بعد أيام التشريق

أصلا بل يلزمه دم بترك ثلاث حصيات فأكثر و يجوز الرمي ليلا على المعتمد.

و من ترك رمى يوم أو يومين من أيام التشريق عمدا أو سهوا أو جهلا تداركه في باقي الأيام منها و كذا يتدارك رمى يوم النحر في باقي الأيام إذا تركه و لا شيء عليه في كل ذلك. و كيفية الرمي عما فاته و عن يومه تكون هكذا أن يرمى الجمره الصغرى ثم الوسطى ثم العقبة ثم يرجع لرمى يومه فيبدأ بالصغرى ثم الوسطى ثم العقبة. و من عجز عن الرمي بنفسه لنحو مرض و آيس من القدرة على الرمي في أيام التشريق أن يستنوب من يرمى عنه فالنائب يرمى أولا عن نفسه ثم يرمى عن المستنوب.

اقتراح لمؤلف هذا التاريخ

لا يخفى أن القاصدين إلى بيت الله الحرام لأداء منسك الحج و العمرة، هم جموع زاخرة من الحجاج يأتون من جميع الأقطار و الممالك و البلدان في كل عام، على اختلاف طبقاتهم و مذاهبهم لذلك نقترح على أولى الأمر و السلطة أن يأمرؤا بتشكيل لجنة رسمية من كبار علماء المذاهب الأربعة ليضعوا كتابا مبسطا عن أحكام الحج و العمرة يمكن صلاحته لعامة الناس بدون تعقيد و لا تشويش، و أن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٠٦

يتوخوا فيه اليسر و التسهيل و تقريب المذاهب ما وسعهم الشرع الشريف، رحمة و تخفيفا على عامة الناس و جهالهم. فقد روى الشيخان أحسن الله تعالى إليهما "أنه صلى الله عليه و سلم ما سئل عن شيء يومئذ قدم و لا أخر إلا قال: افعل و لا حرج" و أنه قيل له في الذبح و الحلق و الرمي و التقديم و التأخير فقال: لا حرج، فالتبى صلى الله عليه و سلم يقصد بذلك التيسير و الرحمة بالناس في أعمال الحج الكثيرة، و هو الذى لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه و على آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا. كما نقترح ترجمة هذا الكتاب الذى تضعه هذه اللجنة المعتبرة المحترمة، إلى عدة لغات: أى بعدد لغات أجناس الحجاج و طبعه على نفقة الحكومات الإسلامية. كما نقترح أيضا أن توفد كل حكومة مع حجاجها عددا كافيا من العلماء ليرشدوا عوام الحجاج إلى مناسك الحج و ليعلموهم الأحكام بنفس لغاتهم فيكون ذلك أدعى إلى نشر الدين و التعليم بين كافة طبقات الحجاج و أجناسهم. قال الله تعالى فى أول سورة إبراهيم: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ.

و يعجبنا فى هذا الصدد ما ذكره العلامة شاه ولي الله الدهلوى المتوفى سنة (١١٨٠) هجرية رحمه الله تعالى فى كتابه "عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد و التقليد" ما ملخصه: أن العامى الصرف ليس له مذهب و إنما مذهبه فتوى المفتى، ثم قال: و فى عمدة الأحكام من كشف البزدوى: يستحب للمفتى الأخذ بالرخص تيسيرا على العوام، و فيه أيضا فى كتاب الكراهية: سؤر الكلب و الخنزير نجس خلافا لمالك و غيره و لو أفتى بقول مالك جاز، قال: و فى القنية: ينبغى للمفتى أن يأخذ باليسر فى حق غيره خصوصا فى حق الضعفاء، لقوله صلى الله عليه و سلم لأبى موسى الأشعري و معاذ حين بعثهما إلى اليمن: يسرا و لا تعسرا. انتهى منه.

نقول: هذا كلام حسن جدا و معقول جدا و هو لا يخرج عن حد الشرع الشريف قيد شعرة، فالعامى ليس له مذهب خاص و هو إذا انتسب لمذهب من المذاهب الأربعة إنما هو انتساب صورى لا حقيقى فهو إذا سمع من أبيه أو أخيه أو عمه أو ذويه أنه شافعى أو حنفى مثلا فهو يقلده و يقول مثله، و لا يدرى ما مذهب الشافعى و لا الحنفى و لا المالكى و لا الحنبلى إنما هو يقلد تقليدا أعمى، خصوصا عوام زماننا، فالأفضل للعالم الفاضل و المرشد العاقل إذا سأله أحد من العوام الجهال عن حكم من الأحكام، أن يفتيه بحسب ما يعلم من الحكم الشرعى فى المسألة من غير نظر إلى مذهب السائل، كما عليه أن يفتى بحسب حال السائل

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٠٧

من فقر أو غنى، أى إذا ارتكب السائل شيئا من محظورات الإحرام و أوجب أحد المذاهب عليه الفدية و أوجب مذهب آخر عليه

التصدق من طعام فعلى العالم العاقل أن يفتى بحسب حال السائل فإن كان فقيرا يقول له: تصدق بكذا و إن كان غنيا يقول له: اذبح فدية فالدين يسر لا عسر. وليس من المعقول ولا من المقبول أن نكلف الحاج الفقير بذبح شاة بينما هناك أحد المذاهب الأربعة يجوز له إخراج مد من الطعام مثلا فيكون هذا امتثالا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال:

"يسروا ولا تعسروا. و بشروا ولا تنفروا" رواه الشيخان وغيرهما.

فتيسير الأمور والأخذ بالرخص في أحكام الحج بالنسبة إلى العوام والجهال أمر واجب. خصوصا في زماننا هذا الذي انتشر فيه الجهل وعدم المعرفة في أمور الدين انتشارا فاضحا حتى لدى أهل المدارس العصرية مما لا يدرس فيه الكتاب والسنة على الوجه المطلوب والله الهادي إلى سواء السبيل.

بعض أحكام الحج والعمرة على المذهب الشافعي

قلنا أن الحج خامس أركان الإسلام، فرض في السنة السادسة من الهجرة كما هو المشهور وقيل: في الخامسة وقيل: قبل الهجرة، وهو يكفر الصغائر والكبائر على المعتمد، فرحمة الله واسعة وهو الكريم العظيم قادر على إرضاء أصحاب الحقوق عن خصمائهم يوم القيامة.

فالحج عند الشافعية فرض عين مرة واحدة في العمر على التراخي وكذلك العمرة، وقد يجبان أكثر من مرة لعارض كندر. (و أما عند الحنفية) ففرض عين في العمر مرة واحدة على الفور عند أبي يوسف وعلى التراخي عند محمد، والعمرة سنة مؤكدة. (و أما عند المالكية) فالحج فرض عين في العمر مرة واحدة على الفور، والعمرة سنة مؤكدة على المعتمد. قال في شرح الخرشى: و أما العمرة فهي سنة في العمر مرة على المشهور، وهي آكد من الوتر وقيل: فرض كالحج، وبه قال الشافعي. اه.

(و أما عند الحنابلة) فالحج والعمرة كل واحد منهما فرض عين في العمر مرة واحدة على الفور.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٠٨

واعلم أنه يندب الإكثار من العمرة وتتأكد في شهر رمضان باتفاق الأئمة الثلاثة، وأما المالكية فقالوا يكره تكرار العمرة في السنة مرتين إلا- لمن كان داخلا- مكة قبل أشهر الحج، وكان ممن يحرم عليه مجاوزة الميقات حلالا فإنه لا يكره له تكرارها، بل يحرم بعمرة حين دخوله ولو كان قد تقدمت له عمرة في هذا العام، فإذا أراد دخول مكة في أشهر الحج دخل بحج لا بعمرة، وأما فعل العمرة مرة ثانية في عام آخر فهو مندوب ولا فرق عندهم بين رمضان وغيره فلا تتأكد فيه.

واعلم أنه صلى الله عليه وسلم قد حج قبل النبوة وبعدها وقبل الهجرة حججا لا يدرى عددها، وحج بعد الهجرة حجة الوداع لا غير بإجماع المسلمين، وكذلك اعتمر قبلها عمرا لا يدرى عددها وأما بعدها فعمرة في رجب، وثلاثا بل أربعا في ذى القعدة أى في ثلاث أعوام لأنه في حجة الوداع كان في آخر أمره قارنا، وعمرة في شوال كما صح في أبي داود وعمرة في رمضان كما في البيهقي.

وفرضية الحج والعمرة واردة صريحا في الكتاب والسنة، وأما الكتاب فقد قال الله تعالى: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَقَالَ: وَأَتُمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ وَقَالَ آمرا نبيه إبراهيم عليه السلام: وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا أُوْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ... إلى آخر الآيات.

و أما السنة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه" رواه البخاري وغيره، و

روى ابن حبان عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الحاج حين يخرج من بيته لم يخط خطوة إلا كتب الله له بها حسنة و حط عنه بها خطيئة فإذا وقفوا بعرفات باهى الله بهم ملائكته يقول: انظروا إلى عبادى أتونى شعثا غربا أشهدكم أنى غفرت ذنوبهم، وإن كانت عدد قطر السماء و رمل عالج و إذا رمى الجمار لم يدر أحد ما له حتى يتوفاه الله تعالى يوم القيامة و إذا حلق شعره فله بكل شعرة سقطت من رأسه نور يوم القيامة، فإذا قضى آخر طوافه بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه." اهـ.

قال فى المصباح المنير: رمل عالج جبال متواصلة يتصل أعلاها بالدهناء، و الدهناء بقرب اليمامة و أسفلها بنجد و يتسع اتساعا كثيرا قال البكرى: رمل عالج

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٠٩

يحيط بأكثر أرض العرب اهـ. و قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يباهى ملائكته عشية عرفة بأهل عرفه يقول: انظروا إلى عبادى أتونى شعثا غربا" رواه أحمد و الطبرانى.

و قال عليه الصلاة و السلام: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما و الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" رواه الشيخان و قال: "تابعوا بين الحج و العمرة فإنهما ينفيان الفقر و الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد، و الذهب و الفضة. و ليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة" رواه أحمد و غيره. و قال: "من حج عن أبيه أو أمه فقد قضى عنه حجته و كان له فضل عشر حجج" رواه الدارقطنى. و قال: "إذا لقيت الحاج فسلم عليه و صافحه و مره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته فإنه مغفور له" رواه أحمد. و قال: "اللهم اغفر للحاج و لمن استغفر له الحاج" رواه الحاكم، و قال: صحيح الإسناد.

و يستحب الإكثار من العمرة لا سيما فى رمضان، لما أخرجه ابن حبان و غيره: "عمرة فى رمضان تعدل حجة معى" و فى رواية البخارى: "تقضى حجة أو حجة معى".

و يستحب أن يحج الإنسان عن نفسه بعد حجة الإسلام ثانية و ثالثة فقد ورد:

"من حج حجة فقد أدى فرضه، و من حج ثانية فقد دأب ربه و من حج ثالثة حرم الله جسده على النار."

و فى الحديث القدسى: "إن عبدا صححت له جسمه و أوسعت عليه معيشته تمضى عليه خمسة أعوام لا يفد إلى محروم" و هناك أحاديث كثيرة وردت فى هذا الشأن اكتفينا بما ذكرناه بغية الاختصار.

و اعلم أن وقفه الجمعة لها مزية على غيرها لأن الأعمال تشرف بشرف الزمان كما تشرف بشرف المكان، و يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع فيكون العمل فيه أفضل فقد ورد: "إذا كان يوم عرفة جمعة غفر الله لجميع أهل الموقف" و ورد أيضا: "أفضل الأيام يوم عرفة و إذا وافق يوم جمعة فهو أفضل من سبعين حجة فى غير يوم الجمعة" أخرجه رزين. و قال عليه الصلاة و السلام: "إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم و هو قائم يصلى يسأل الله تعالى فيها خيرا إلا أعطاه إياه" رواه مسلم و أحمد و غيرهما.

و قد كانت وقفته صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يوم الجمعة لأن الله تعالى إنما يختار له الأفضل و لهذا اشتهر وصف الحج بالأكبر إذا كانت الوقفة يوم الجمعة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١١٠

و اعلم أن للحج ميقتين، زمانيا و مكانيا. فالميقات الزمانى: هو شوال و ذو القعدة و عشر ليال من ذى الحجة أى يتدئ من أول ليلة عيد الفطر إلى ما قبل فجر يوم عيد النحر بما يسع الوقوف بعرفة فلو أحرم بالحج قبل هذا الوقت أو بعده فلا يصح حجا و لكن ينعقد عمره.

و الميقات المكانى الذى يجب عنده الإحرام حرم مكة و هو معروف فى جميع الأطراف و سيأتى بيانه.

(و الميقات المكانى للعمرة) هو ميقات الحج و الميقات الزمانى لها جميع السنة فيجوز الإحرام بالعمرة فى كل وقت من غير كراهة و فى يوم النحر و أيام التشريق لغير الحاج. و أما الحاج فلا يصح إحرامه لعمرة ما دام محرما بالحج و كذا لا يصح إحرامه بعد التحليلين

ما دام مقيماً بمنى للرعى فإذا نفر من النفر الثاني أو الأول جاز أن يعتمر فيما بقي من أيام التشريق لكن الأفضل أن لا يعتمر حتى تنقضى أيام التشريق. و من كان مقيماً بمكة فميقاته للحج مكة و ميقاته للعمرة أدنى الحل و قد أقت النبي صلى الله عليه و سلم مواقيت الإحرام فى حجة الوداع كما قاله الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، و حجة الوداع كانت فى السنة العاشرة، و من أحرم بالحج و العمرة معاً فاعمال العمرة تدرج فى أعمال الحج. و طواف الإفاضة هو ما وقع بعد الوقوف بعرفة و يسمى أيضاً طواف الركن، و طواف الزيارة.

و اعلم أن الحج و العمرة يؤديان على ثلاثة أوجه:

الأول: الأفراد و هو: أن يحرم بالحج، و بعد الفراغ من أعماله يخرج من مكة إلى أدنى الحل بالعمرة و يأتي بأعمالها. و الثانى: التمتع و هو: أن يقدم العمرة على الحج، سواء كانت العمرة فى أشهر الحج أو قبله على المعتمد، و يأتي بأعمالها، ثم يحرم بالحج، و يأتي بأعماله.

الثالث: القران و هو: أن يحرم بالحج و العمرة معاً فى أشهر الحج، أو يحرم بالعمرة و قبل الشروع فى أعمالها يحرم بالحج ثم يعمل عمل الحج. و أفضل هذه الأوجه الأفراد ثم التمتع ثم القران.

و اعلم أن بعض الحجاج يقع فى خطأ عظيم بأن يحرم من الميقات بحج أو عمرة متحرراً من ثيابه لابسا ثوبى إحرامه، ثم يبدو له قبل وصوله مكة أو بعد وصوله إليها و قبل الشروع فى أعمال حجه أو عمرته أن يتوجه إلى زيارة المدينة المنورة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١١١

فيفك إحرامه و يلبس ثيابه و قد يأتي النساء و يمس الطيب معتقداً أنه حلال، و أنه لا شىء عليه فى ذلك، ثم بعد الزيارة يستأنف إحراماً آخر بحج أو عمرة معتقداً أن إحرامه الأول صار لاغياً، مع أنه لا يزال باقياً يجب عليه إتمامه و قضاؤه إن أفسده، و لقد أخطأ فى هذا العمل من وجوه:

الأول: إقدامه على رفض ما أحرم به، و إبطاله فى زعمه بدون مسوغ شرعى.

الثانى: ارتكاب ما هو محظور بالإحرام من لبس الثياب، و ترك الواجبات و قد يأتي بما يفسد النسك.

الثالث: إقدامه بعد عودته من الزيارة على إحرام آخر.

فيجب على الحجاج أن يتموا ما أحرموا به من حج أو عمرة، لقوله تعالى:

وَ أَتَمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ حَتَّى يَكُونَ حَجُّهُمْ مَبْرُوراً وَ سَعِيهِمْ مَشْكُوراً، و قد نبه على هذه المسألة العلامة الجليل الشيخ "محمد حسنين مخلوف" رحمه الله تعالى فى كتابه "دليل الحاج".

و اعلم أن فى الحج ثلاثة أطوف: طواف القدوم، و طواف الإفاضة و طواف الوداع، و هذا خلاف طواف التطوع، فطواف القدوم سنة، فلو تركه لم يلزمه شىء و طواف الإفاضة ركن لا- يصح الحج إلا- به و لا- يجبر بدم و لا غيره، و طواف الوداع واجب مستقل على المعتمد، فلو تركه لزمه دم، و محل طواف القدوم عند دخول الحاج مكة، و محل طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفة، و بعد نصف ليلة النحر، و محل طواف الوداع عند إرادة السفر من مكة.

و اعلم أن للحج تحليلين:

(فالتحلل الأول) يحصل بفعل اثنين من ثلاثة و هى: رمى جمرة العقبة و طواف الإفاضة المتبوع بالمسعى إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم و الحلق أو التقصير، فيحل له حينئذ محرمات الإحرام، ما عدا ما يتعلق بالنساء: من عقد النكاح و المباشرة بشهوة و الوطء.

(و التحلل الثانى) يحصل بفعل الثلاثة المذكورة كلها فيحل له حينئذ جميع محرمات الإحرام، حتى ما يتعلق بالنساء و يجب عليه الإتيان بما بقي من أعمال الحج و هى: الرعى و المبيت بمنى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١١٢

و أما العمرة فلها تحلل واحد، و هو فعل أعمالها كلها، و هذا في غيره عمرة الفوات. و أما هذه فلها تحللان:

الأول: يحصل بالطواف المتبوع بالسعى و إن لم يكن سعى أو بالحلق أو التقصير.

و الثاني: يحصل بفعل ما بقي منهما و لا يفسد الإحرام إلا الوطء في الفرج.

و من ترك ركنا من أركان الحج غير الوقوف بعرفة أو ترك ركنا من أركان العمرة لم يحل من إحرامه حتى يأتي به فيستمر محرما و لو سنين، لأن الطواف و السعى و الحلق لا آخر لوقتها.

و من ترك واجبا من واجبات الحج أو العمرة عمدا أو سهوا أو جهلا لزمه دم. و من ترك سنة من سنتهما لم يلزمه شيء.

و الأيام المعلومات المذكورة في سورة الحج: هي عشر ذى الحجة على الأصح، و الأيام المعدودات المذكورة في سورة البقرة هي:

أيام التشريق و هي الثلاثة بعد يوم النحر، و يسمى اليوم الثامن من ذى الحجة يوم التروية، و اليوم التاسع منه يوم عرفة، و اليوم العاشر

منه يوم النحر، و اليوم الحادى عشر منه يوم القر، و اليوم الثانى عشر منه يوم النفر الأول، و اليوم الثالث عشر منه يوم النفر الثانى.

و من أراد زيادة الاطلاع على أحكام الحج و العمرة فعليه بمراجعة كتابنا "إرشاد الزمرة لمناسك الحج و العمرة على المذهب

الشافعى" و هو كتاب مطبوع بمطبعة مصطفى البابى الحلبي و أولاده بالقاهرة، أو عليه أن يطالع كتب الفقه.

معنى الحج لدى الطوائف المختلفة

الحج فى اللغة: القصد، و شرعا: قصد بيت الله الحرام للنسك أى: أعمال الحج من النيء و الطواف و السعى و الوقوف بعرفة و الحلق و

ترتيب معظم الأركان، و ذلك فى وقت مخصوص من كل سنة، هذا هو الحج فى الديانة الإسلامية.

و أمكنة الحج معروفة، ففى مكة المشرفة يكون الطواف و السعى، و فى عرفات يكون الوقوف، و فى مزدلفة يكون المبيت، و فى منى

يكون المبيت و رمى الجمار، و المسلمون فى جميع هذه الأعمال لا يقصدون عبادة الأمكنة و لا الأحجار، و إنما

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١١٣

يقومون بأداء هذه الأعمال امتثالاً لأمر الله عز و جل و اقتداء بعمل نبينا "محمد" صلى الله عليه و على آله و صحبه و سلم.

أما معنى الحج لدى بقية الديانات و الشعوب الأخرى فيختلف عما عليه المسلمون اختلافا عظيما. و قد أوضح كل ذلك مؤلف "

الرحلة الحجازية" فرأينا نقل كلامه للإحاطة و نحمد الله أن هدانا للإسلام و عمّر قلوبنا بالإيمان الكامل و اليقين التام. قال رحمه الله

فى كتابه المذكور بصحيفة (١٥٠) من الطبعة الثانية ما نصه:

الحج فى اللغة: القصد و رجل محجوج أى مقصود، و فى اصطلاح المسلمين:

قصد مكة لأداء المناسك فى زمن مخصوص من كل سنة قمرية، و واحدته حجة، و تطلق على السنة فيقال عمر هذا الصبى سبع حجج

أى سبعة سنين.

و هو سنة قديمة جدا فى الأمم، و الغرض منه على كل حال أمر دينى محض، و إن كان الاجتماع فيه لا يخلو من فائدة دنيوية، تزيد

فى رقى الأمة أدبيا و ماديا.

و قد كان المصريون قبل أربعين قرنا يحجون إلى هيكل معبودهم إيزيس، بمدينة سايس (صا) و فتاح فى منفيس، و آمون فى طيبة.

و اليونان كانوا يحجون قبل المسيح بخمسين قرنا إلى هيكل ديانا فى أفسوس.

ثم انتقلوا فى بدء القرن الثانى قبل المسيح إلى حج معبد مينا رفافى فى أثينا، و جوبيتر فى أولمبيا. و اليابان يحجون من عهد بعيد إلى

هيكل عظيم مشهور فى ولاية أسجى و تجب زيارته عندهم على كل فرد منهم فى عمره و لو مرة واحدة:

فيتوجهون إليه بلباس أبيض على شكل مخصوص، و سوادهم يقصدونه عراة ليس عليهم إلا ما يستر عورتهم، و يقطعون إليه كل

المسافة ركضا. و الصينيون يحجون إلى هيكل المعبود تيان من زمن بعيد جدا. و الهنود لا يزالون يحجون إلى هيكل جاغرنات أو

هيكل الورا في حيدرآباد و هو محفور فى الصخر على طول فرسخين، و كذلك يحجون إلى هيكل بوذا بجزيرة منا قرب سيلان. و هم يكثرون من الطواف حول هياكلهم و لهم بحيرات مقدسة يتبركون بمياهها مثل بحيرة مادن قرب بحر قزوين. و اليهود يحجون من القرن الرابع عشر قبل المسيح إلى المكان الذى به تابوت العهد و كانوا يحجون إليه ثلاث مرات فى السنة. و كان ذلك أكبر سبب لعمار أورشليم حتى أحرقتها الامبراطور طيطوس الرومانى و أجلى اليهود عنها سنة ٧٠ مسيحية، و ما زالوا بعيدين عن مدينة بيت المقدس حتى استولت

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١١٤

العرب عليها سنة ٦٣٦ م (سنة ١٦ هجرية) فأقرهم عمر رضى الله عنه مع النصارى على ما كان لهم فى بيت المقدس. و لما قامت الحروب الصليبية قطعت عليهم طريق حجهم إلى أن استولت دولة بنى عثمان على أورشليم فى سنة ١٥١٧ م فأمنت الطرق و مهدت السبل إلى بيت المقدس، و هم يحجون الآن إلى قطعة من السور القديم لهيكل سليمان فى الجهة الغربية من المسجد الأقصى و يسمونها البراق. أما النصارى فإنهم يحجون إلى بيت المقدس من سنة ٣٠٦ للمسيح، أى منذ سارت هيلانه أم الامبراطور قسطنطين إلى أورشليم و ابنت بها كنيسة القبر المقدس المشهورة باسم كنيسة القيامة و كانوا يخرجون إليه من غرب أوربا باحتفال عظيم، و كان رئيس الجهة الدينى يزود كالا-منهم بعضا و رداء من الصوف الخشن فيلبسه لوقته، و كان لهم على طول طريقهم تكايا و أديرة يأوون إليها مدة سفرهم، و إذا وصل الحاج إلى بيت المقدس، يلتحف برداء يحمله معه ليكون له كفنا عند موته. فلما استولى السلجوقيون على بيت المقدس قلّ حجاج الإفرنج إلى أورشليم و حولوا وجوههم إلى كنيسة القديس بطرس و بولس فى روما، و فى تريف بجرمانيا و يزعمون أن بالأخيرة قميص المسيح الذى كان يلبسه.

و قد بلغ عدد حجاجها سنة ١٨١٤ مليوناً و مائة ألف نفس من الإفرنج و هم يحجون أيضا إلى كنيسة لورد، فى جنوب فرنسا بعد أن شاع فى أوربا أن السيدة مريم العذراء ظهرت لاثنتين من رعاة هذه المدينة و الزائرون لهذه الكنيسة يشربون من ماء ينبع قريبا منها يسمى باسمها و يعتقدون إلى اليوم بأن فيه شفاء للناس و يرسلون منه إلى جميع أقطار المسكونة للتبرك و الاستشفاء. و لم تكثر حجاج بيت المقدس إلا بعد عمل السكة الحديدية إليها من يافا.

و العرب كانت تحج إلى الكعبة قبل الإسلام بنحو خمسة و عشرين قرناً لأنهم كانوا يعتقدون أنها بيت الله على ما كانوا عليه من اختلاف الآلهة و تعدد الديانات و تغاير المذاهب. و كانوا يقصدونها سنويا للطواف بها من غير أن يدعيها لنفسه فريق منهم دون الآخرين، لأنها كانت عندهم بيتا لله الذى هو إله العالمين.

و رغما من شيوع عبادة الأوثان فى سواد قبائل العرب فإنه لم يرد عنهم أنهم عبدوا هيكل الكعبة. انتهى المراد من الرحلة الحجازية، ثم تطرق المؤلف إلى عبادة الأحجار و احترامها أيام الجاهلية أضر بنا عن ذكرها هنا لعدم تعلقها بهذا الفصل.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١١٥

لباس الإحرام فى الحج و العمرة

إشارة

يحرم على كل محرم ذكر بحج أو عمرة لبس ما يحيط بجميع بدنه أو بجزء منه، سواء كان المحيط بخياطة أو بغير خياطة فإن لبس شيئا من ذلك وجب عليه الفدية، فيلبس المحرم إزارا و رداء من أى قماش كان و الأبيض أفضل الألبسة، و الإزار هو: ما يستر نصفه الأسفل، و الرداء هو: ما يوضع على الكتفين فيكون هيئة المحرم كهيئة من هو داخل الحمامات بالفوطه، و يقال لها المنشفة أو البشكير، و لبس الإزار شائع فى بلاد اليمن و فى بلاد السودان فغالبيهم لا يلبس السروال و متزهرهم عبارة عن قطعة من

القماش نحو مترين بدون خياطة يلفونها على نصفهم الأسفل من السرة إلى ما تحت الركبتين، و مثلهم أهل جاوه و بعض الهند فهؤلاء أيضا لا يلبسون السروال و إنما يلبسون إزارا مخيطا يسمونه "الفوطه" و هي مخيطة من الجانب كالكيس لكنها مفتوحة من الرأسين، و هذه لا يصح بها الإحرام كما لا يخفى.

و لننقل هنا باختصار ما ذكره الأستاذ محمد لبيب البتونى رحمه الله تعالى عن اللباس فى كتابه "الرحلة الحجازية" منذ قديم الزمن فقد قال ما ملخصه:

كان الناس قديما يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة جدا، و المصريون كانوا يستعملون فى أول أمرهم المثز ثم البرنس و هو قطعة من القماش تلقى على الأكتاف، و تربط بحزام و ترسل إلى الركبتين فى العامة أو إلى أسفل منها فى الخاصة، حتى إذا ترقى الدولة فى عمرانها أطالوا من ذلك البرنس إلى الكعبين و لبسوا من تحته قميصا لا أكمام له أخذوه عن الأثيوبيين سكان أثيوبيا و هي مملكة قديمة حبشية، و كانوا فى مبدأ أمرهم يلونون ملابسهم بلون واحد "أخضر أو أزرق أو أحمر" ثم انتهوا باستعمال كثير من الألوان فى ثيابهم مع ما كانوا يوشون به دوائرها بالأشرطة المنقوشة.

أما الأشوريون فقد كانوا يشتملون بقطعة كبيرة من القماش و يمرون بها من تحت إبطهم الأيمن و يغطون بها الصدر ثم يرسلونها على الكتف الأيسر حيث يثبت طرفها إما بعقدة أو بمشبك، ثم غيروا هذا الزى بأن لبسوا قميصا صغيرا و من فوقه شىء يشبه العباءة، و الأعجام كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١١٦

و اليونان كانوا يلبسون رداء طويلا واسعا و يمرون به من تحت إبطهم الأيمن بعد أن يلفوا به وسطهم ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كتفهم الآخر ثم صاروا يشملون به الجسم جميعه، ذلك بأنهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل و يربطون طرفيه ثم يدخلون ذراعهم الأيمن مع الرأس من فتحة ما بينهما بحيث تكون العقدة على الكتف الأيسر ثم يلف الجسم بباقي هذه الشملة و يسمونها شيون CHION كما تراه إلى اليوم فى عرب البادية المصرية خصوصا عرب المغرب، و لا شك فى أنهم أخذوا هذا الزى من الرومانين أو القرطاجيين و لبث فيهم على بداوته إلى الآن، و هذا الشكل منه صور كثيرة على الآثار الرومانية. و توجد فى كثير من المتاحف بعض تماثيل بلباسهم القديم.

و كان أبسط تلك الملابس شكلا و نوعا ملابس الأثوريين الذين هم إخوان الكلدانيين الذين خرج منهم سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام لأن كليهما من الجنس السامى، و عليه فلباس الإحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذى كان يلبسه إبراهيم عليه السلام حين أمر الله تعالى بالحج قائلا: وَ أذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ و ما زالت هذه السنة قائمة فى حج بيت الله إلى الآن.

و أما كونه أبيض فلائذ لون البياض شعار الطهارة و النظافة و إلا فالغرض من الإحرام لبس غير المخيط مطلقا إشارة إلى أن الإنسان خرج إلى ربه من زخارف الدنيا و ما فيها إلى بساطة الوجود و بداوته، فهذا الزى يستوى فيه الصعلوك و الملوك و يشترك فيه جميع الطوائف و الأجناس، و بهذا الزى تقريبا يخرج الإنسان من الدنيا و يستقر فى جوف القبر، ففى هذا الزى عبرة و حكمة لا تخفيان على ذوى الألباب. انتهى باختصار من "الرحلة الحجازية".

الحكمة فى لباس الإحرام بالحج أو بالعمرة

قلنا الحج هو: قصد بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج أو العمرة، و من أركان الحج و العمرة الإحرام مع نية الدخول فيهما أو فى أحدهما، حتى يعرف الحاج أو المعتمر بلباس إحرامه و هيئته و شكله من بين سائر الناس.

فإذا نظر الإنسان إلى هذا الحجيج الأعظم فى جبل عرفات يوم الوقوف، يشبه جمعهم بيوم المحشر بعد بعث الناس من قبورهم، و قد

اختلط الأمير بالفقير

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١١٧

والكبير بالصغير والعالم بالجاهل. فالحكمة من لباس الإحرام في النسك إذا هو تشبيه هذا الحجيج. المجموعين في يوم الوقوف بعرفات، ببعث الأموات من قبورهم ليوم المحشر للحساب والجزاء فلباس الإحرام يكون للحجاج بمثابة الأكفان للأموات، فكما أن الأموات إذا كفنوا ووضعوا بجوار بعضهم في ساحة واحدة، لا يتميز بعضهم عن بعض ولا يعرف الأمير من الفقير، ولا الجاهل من العالم، ولا الصالح من الفاسق، كذلك يكون حكمه الإحرام في الحج حتى لا يتميز الرئيس من المرؤوس ولا التابع من المتبوع، ولا الأمير من الصغير، ولا السيد من العبد.

فإن الإنسان إذا نظر في يوم عرفه إلى هذا الحجيج الأعظم، فإنه يرى جميع الناس مجردين من ثيابهم العادية، وكلهم بشكل واحد وهيئة واحدة يرتدون الإزار والرداء، مكشوفى الرؤوس لا يلبسون في أرجلهم سوى نعال خفيفة، فلا يلبسون عمامة أو عقالا على رؤوسهم ولا يلبسون ثيابا مخيطة من الجبة والقفطان، ولا من المشالح "العبايات" فوق الثياب، ولا من السراويل والبنطلونات، وإنما الجميع بلباس واحد وهيئة واحدة، ويدعون كلهم بلسان واحد ليك اللهم ليك، ليك لا شريك لك ليك، إن الحمد والنعمة لك لك والملك لا شريك لك.

فالحج بلباس الإحرام، وترك الطيب والنساء وأطياب الطعام، معناه التجرد من الدنيا وشهواتها، والتفرغ التام لعبادة الملك القدوس السلام، من أداء الفروض والسنن، والتلبية والتهليل والتسبيح والاستغفار للعزير الغفار بصدق وإخلاص والالتجاء إلى الكبير المتعال بالدعاء والتضرع ولزوم باب بيته الحرام، مدة دوام نسك الحج. عسى أن يتقبل الله عز وجل منا هذا التضرع والدعاء في المشاعر العظام، لنسعد بذلك في الدارين بفضلته ورحمته، إنه هو الغفور الرحيم.

فالحج إلى بيت الله الحرام، والوقوف بالمشاعر العظام، بهيئته المخصوصة وهي لباس الإحرام، هو شعار جميع المسلمين، ليميزوا بهذا الركن الخامس العظيم عن أعداء الدين، وليركوا بلباس الإحرام، جميع علامات التمييز الدنيوي وجميع المعاصي والآثام، والله عز وجل أكرم من أن يرد عباده الحجاج الكرام، الذين يقصدون بيت الله الحرام ويتوبون إلى التواب الرحيم، عند بيته الكريم بصدق وإخلاص خائبين صفر اليدين.

فالله تبارك وتعالى هو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين لا إله إلا هو العزيز الغفار.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١١٨

ومما لا يخفى لدى أهل الدنيا أن الإنسان إذا أراد المثل بين يدي الملوكة، لا بد له أن يرتدى لباس التشريف، وهو ثياب خاصة للمثول بين أيديهم، فلا يدخل على الملوكة رجل رث الثياب سقيم الإهاب أشعث أغبر.

أما الوصول إلى بيت الله عز وجل والوقوف على بابه، فله ثياب خاصة، ثياب بسيطة لا تكليف فيها ولا تزيين، ثياب يليق بداخل بلد الله الأمين، ولباس صالح لمن يقف على عتبة باب بيت الله المطهر، وبهيئته يخالف عادات الملوكة ونظم أبواب الدولة، بحيث تكون هذه الهيئة ميسورة للكبير والصغير والجليل والحقير، لأنه لا يمنع أحد عن باب الواحد الأحد، فإنه أرحم الراحمين عظيم الفضل واسع الإحسان.

فحكمته تجرد الإنسان من الثياب التي ألفها وارتدائه لباس الإحرام الأبيض عند دخوله بلد الله أو عند إرادته الحج أو العمرة، هي التجرد من العادات الدنيوية، والتشبه بحال الأموات الذين مضوا إلى لقاء ربهم، والتفكير في البعث والنشور، فإن ذلك مما يلين القلوب ويشرح الصدور ويقرب العبد من ربه، حتى يعود بعد ذلك إلى العمل الصالح وما ينفعه في الدار الآخرة يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

وما أحلى لباس الإحرام على الحجاج وهم داخلون به مكة والمسجد الحرام واقفون به في منى ومزدلفة وعرفات، يدعون الله

تعالى و ينادونه بلفظ "لييك اللهم لييك" و ما أجمل هذا اللباس و هم على عرفات فى صعيد واحد، لا فرق بين الصعلوك و الوزير، و لا بين الغنى و الفقير، و لا بين الكبير و الصغير، و لا بين الأعمى و البصير، و لا بين العربى و الأعجمى، و لا بين الأبيض و الأسود، و لا بين العالم و الجاهل.

اتحد الكل فى الزى و الشكل، كما اتحدوا فى عبادة الحكم العدل، فى هذا البلد الأمين، و فى هذه الصحراء الواسعة، امتثالاً لأمر الله و ابتغاء مرضاته، فيتجلى الله تعالى على هذا الجمع الغفير من الأمة المحمدية بالرحمة و المغفرة و الفضل و الإحسان، و هو الغنى عن العالمين.

هذا هو الدين الإسلامى الحنيف، و هو الدين السامح المعقول المقبول اللطيف، كلما توغل الإنسان فى معرفته و العلم بأحكامه، كلما قوى إيمانه و اطمئن قلبه و ازداد حبا فيه و معرفته بربه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١١٩

فحكمت لباس الإحرام لدى المسلمين عند إرادة النسك، ترمى إلى الاتحاد فى القول و العمل، و إلى ترك الفوارق البشرية حتى لا يزدرى بعضهم بعضا، و حتى يكونوا عباد الله إخوانا، و تشير إلى تذكر الآخرة ليعمل الإنسان لها يوم لا ينفع مالٌ و لا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

فانظر رحمك الله إلى هذه الحكمة الجليلة اللطيفة المعقولة المقبولة، ثم انظر إلى ما اخترعه فى هذا العصر بعض الإفرنج المنبوذين الوقحين من تجردهم من اللباس بالكليّة، فتعروا تماما كما ولدتهم أمهاتهم على زعم أن لا تكون هناك فوارق بين البشر، مع أنهم قد جعلوا بفعلهم هذا القبيح السامح فوارق كبيرة بينهم و بين كافة البشر، فبذمهم الناس و امتنعوا من مخالطتهم، حتى اضطروا إلى أن يتخذوا لهم مدينة خاصة يقيمون فيها ليل نهار حفاة عراء كالحيوانات البهم، فهل هؤلاء يعدون من البشر؟- كلا و الله- فإنهم كالأنعام بل هم أضل، فقد انسلخوا من جميع الأديان كما انسلخوا من جميع العادات البشرية فلا حياء و لا مروءة و لا شهامة، بل لقد حرمهم الله تعالى من متاع الدنيا و زينتها، من الأكل النظيف و الشرب السائغ اللطيف، و من الثياب الفاخرة، و السرور و المقاعد الوثيرة، و الفرش الناعمة و الزينات المتنوعة البهيجة، و من جميع ملذات الدنيا و متاعها، ما حرم الله كل ذلك عليهم، و لكنهم بأنفسهم حرموا أنفسهم، و اختاروا عيشة الهمجية الحيوانية على العيشة الهنيئة البشرية، فهم محرومون من كل متعة فى الدنيا و الآخرة. و إليك ما جاء عنهم:

ذكرت "مجلة المصور" بعدد (١٦٦٠) التى صدرت فى القاهرة فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٧٥ الموافق ٣ أغسطس سنة ١٩٥٦ عن طائفة العراء الذين اتخذوا لهم مدينة خاصة، و قد تعروا حتى لا تكون فوارق بين البشر على زعمهم.

ذكرت هذه المجلة تحت عنوان "الجمال بغير احترام" بقلم الأستاذ صالح جودت ما يأتى:

دخلت مرة إحدى مستعمرات العراء و أعترف- رغم أننى من أضعف الرجال أمام الجمال- أننى خرجت يومئذ و قد فطنت إلى حقيقة كبرى، و هى أن أول شروط الجمال هو احترام المرأة الجميلة لجمالها و أدركت أن المرأة الجميلة، حينما تتعري أمام عيون الناس، تفقد كل شروط الجمال، و أولها الاحترام.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٢٠

تذكرت هذه الحكاية حين قرأت أخيرا أن لأنصار مذهب العراء مستعمرة مساحتها خمسة و عشرين فدانا فى ضاحية و يلاندا، على مقربة من مدينة أونتاريو.

و قد أعلنت جمعية العراء التى تشرف على شؤون هذه المستعمرة أنها ستفتح أبوابها للجماهير لمدة ٢٤ ساعة، و قالت: إن غايتها من هذا العرض العام هى أن تثبت أن جميع الشعوب تستطيع أن تعيش فى سلام... لأن الناس إذا تجردوا من ثيابهم، التى تحمل مظاهر التفرقة و الاختلاف فى الثروات و الطبقات و الجنسيات... أصبحوا جميعا سواسية متشابهين لا يميز أحدهم على الآخر شىء.

ترى ... ألم يجد هؤلاء الأمريكيين سيلا إلى محاولة إزالة الفوارق بين البشر إلا عن طريق جماعة فقدت كل شرائط الجمال و أولها الاحترام. انتهى من المجلة المذكورة.

نسأل الله السلامة و العافية من كل ما ينفر عن الخلق و الخالق، و الحمد لله الذى عافانا مما ابتلى به كثيرا من خلقه. اللهم ثبت قلوبنا على دينك و اختم حياتنا بخير، و متعنا بسمعنا و أبصارنا، و عقولنا و أفكارنا، و نور قلوبنا و بصائرنا، و اشرح صدورنا و أفئدتنا، بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين، و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم.

الأصنام التي كانت فى الكعبة أيام الجاهلية

من عجيب أمر الله تعالى، أن بيته الحرام، كان و لم يزل مقدسا معظما من قديم الزمن، فلم يذكر قط فى التاريخ، أن أحدا من أهل الجاهلية كان يعبد الكعبة، كانوا يحترمونها و يطوفون بها، لكن لا يعبدونها قط، و إنما كانوا يضعون فيها و فيما حولها أصنامهم، التي يعبدونها من دون الله، فلما كان يوم فتح مكة، و قد أظهر الله الإسلام و أعلى كلمته، أمر صلى الله عليه و سلم بتطهير الكعبة من الأصنام و رميها و تكسيها.

و إليك ما ذكره صاحب كتاب "تاريخ الخميس" عن كيفية رمى الأصنام و عددها، فقال ما نصه:

و ذكر ابن هشام أيضا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم دخل البيت يوم الفتح، فرأى فيه صور الملائكة و غيرهم، و رأى إبراهيم مصورا فى يده الأزلام يستقسم بها، فقال:

قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن إبراهيم و الأزلام ما كان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٢١

إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست.

و عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت، و فيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، و أخرجوا صورة إبراهيم و إسماعيل فى أيديهما الأزلام، فقال: قاتلهم الله لقد علموا أنهما ما استقسما بها قط، ثم دخل البيت، فكبر فى نواحي البيت، و لم يصل، و فى رواية: صلى فيه.

و فى الاكتفاء عن ابن عباس، قال: دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة يوم الفتح على راحلته، فطاف عليها و حول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل النبى صلى الله عليه و سلم يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام و هو يقول: جاء الحق و زهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا. فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع ذلك الصنم لقفاه، و لا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقى منها صنم إلا وقع.

و فى رواية: يشير إلى الصنم، بقوس فى يده، و هو آخذ بسيتها و هو يقول:

جاء الحق و زهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا، و قل جاء الحق و ما يبدئ الباطل و ما يعيد، فيقع الصنم لوجهه، و كان أعظمها هبل، و هو و جاء الكعبة حذاء مقام إبراهيم لاصقا بها، و قال تميم بن أسد الخزاعى:

و فى الأصنام معتبر و علم لمن يرجو الثواب أو العقابا

و فى «المواهب اللدنية»: و كان حول البيت ثلاثمائة و ستون صنما، فكلما مرّ صلى الله عليه و سلم بصنم أشار إليه ... الخ، رواه البيهقى.

و فى رواية أبى نعيم: قد أوثقها الشياطين بالرصاص و النحاس.

و فى تفسير العلامة ابن النقيب المقدسى: أن الله تعالى أعلمه أنه قد أنجزه وعده بالنصر على أعدائه، و فتح له مكة، و أعلى كلمته و دينه، و أمر إذا دخل مكة أن يقول: جاء الحق و زهق الباطل، فصار صلى الله عليه و سلم يطعن الأصنام التي حول الكعبة بمحجنه و

يقول: جاء الحق و زهق الباطل، فيخر الصنم ساقطا، مع أنها كلها كانت مثبته بالحديد و الرصاص، و كانت ثلاثمائة و ستين صنما بعدد أيام السنة.

قال ابن عباس: و لما نزلت الآية، يوم الفتح، قال جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه و سلم: خذ مخضرتك ثم ألقها، فجعل يأتي صنما صنما، و يطعن في عينه أو

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٢٢

بطنه بمخضرتة، و يقول: جاء الحق و زهق الباطل، فينكب الصنم لوجهه، حتى ألقاها جميعا، و بقي صنم خزاعة فوق الكعبة، و كان من قوارير أو صفر، و قال:

يا علي، إرم به. فحمله- عليه السلام- حتى صعد و رمى به و كسره، فجعل أهل مكة يتعجبون. انتهى كلام «المواهب اللدنية».

و في "الرياض النضرة": "روى عن علي أنه قال: حين أتينا الكعبة، قال لي رسول الله صلى الله عليه و سلم: اجلس فجلست إلى جنب الكعبة، فصعد على منكبى، فذهبت لأنهب به، فرأى ضعفا منى تحته، قال لي: اجلس فجلست، فنزل عني، و جلس لي رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال لي: اصعد على منكبى. فصعدت على منكبى، فنهض بي، و إنه يخيل إلى أنى لو شئت لنتل أفق السماء حتى صعدت البيت.

و في شواهد النبوة: سأل رسول الله صلى الله عليه و سلم عليا، حين صعد منكب: كيف تراك؟ قال علي: أراني كأن الحجب قد ارتفعت، و يخيل إلى أنى لو شئت لنتل أفق السماء. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: طوبى لك تعمل للحق، و طوبى لي أحمل للحق، أو كما قال. انتهى.

قال: فصعدت البيت و كان عليه تمثال صفر أو نحاس و هو أكبر أصنامهم، و تنحى رسول الله، فقال لي: ألق صنمهم الأكبر، و كان موتدا على البيت بأوتاد حديد إلى الأرض، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إيه إيه عالجه، جاء الحق و زهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا، فجعلت أزاوله أو قال أعالجه عن يمينه و عن شماله و من بين يديه و من خلفه، حتى إذا استكمنت منه، قال لي رسول الله: اقدف به، فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت. و زاد الحاكم: فما صعدت حتى الساعة. و يروى أنه كان من قوارير. رواه الطبراني و قال: خرجه أحمد، و رواه الزرندي و الصالحاني.

ثم إن عليا أراد أن ينزل، فألقى نفسه من صوب الميزاب، تأدبا و شفقة على النبي صلى الله عليه و سلم، و لما وقع على الأرض تبسم، فسأله النبي صلى الله عليه و سلم عن تبسمه، قال: لأنى ألقيت نفسى من هذا المكان الرفيع و ما أصابنى ألم، قال: كيف يصيبك ألم و قد رفعك محمد و أنزلك جبريل؟ انتهى من "تاريخ الخميس".

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٢٣

مشروعية الأذان و كيفيته

إشارة

بمناسبة ما ذكرنا عن مبدأ المساجد و المآذن و المحاريب، يستحسن أن نذكر هنا مشروعية الأذان و مبدئه فنقول و بالله التوفيق: شرع الأذان في السنة الأولى من الهجرة و قيل في الثانية، و الأذان و الإقامة من خصائص هذه الأمة الكريمة المرحومة، و للمؤذن ثواب كثير و أجر كبير، كيف لا و هو يدعو الناس لإقامة الصلوات و يدلهم على الخير، قال صلى الله عليه و سلم: «المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة» رواه مسلم. و قال: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن و لا إنس و لا شيء إلا شهد له يوم القيامة» رواه البخاري. و قال: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان و له ضراط حتى لا يسمع التأذين» رواه البخاري و مسلم.

جاء في كتاب «نور اليقين» للأستاذ محمد الخضرى - رحمه الله تعالى - عن بدء الأذان ما يأتى:

... " و متى حان وقت الصلاة فلا بد من عمل يتبه الغافل، و يذكر الساهى، حتى يكون الاجتماع عاما، فأتمر النبى عليه الصلاة و السلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس. فلم يرضوا بذلك لأنها لا تفيد النائم و لا الغافل، و قال الآخرون: نشعل نارا على مرتفع من الهضاب فلم يقبل أيضا، و أشار آخرون ببوق، و هو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم. فكرهه رسول الله صلى الله عليه و سلم لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود فى عمل ما، و أشار بعضهم بالناقوس، و هو ما يستعمله النصارى، فكرهه الرسول أيضا، و أشار بعضهم بالنداء، فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة و ينادى بها، فقبل هذا رأى. و كان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصارى، فبينما هو بين النائم و اليقظان، إذ عرض له شخص و قال: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة؟ قال:

بلى، فقال له: قل الله أكبر الله أكبر مرتين، و تشهد مرتين، ثم قل حى على الصلاة مرتين، حى على الفلاح مرتين، ثم كبر ربك مرتين، ثم قل لا إله إلا الله. فلما استيقظ توجه إلى النبى صلى الله عليه و سلم و أخبر خبر رؤياه، فقال: إنها لرؤيا حق، ثم قال له: لئن ذلك بلالا، فإنه أندى صوتا منك. و بينما بلال يؤذن، إذ جاء عمر يجرّ رداءه، فقال: و الله لقد رأيت مثله يا رسول الله، و كان بلال أحد مؤذنيه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٢٤

بالمدينة و الآخر عبد الله بن أم مكتوم، و كان بلال يقول فى أذان الصبح، بعد حى على الفلاح، الصلاة خير من النوم مرتين، و أقره الرسول على ذلك.

انتهى المراد من «نور اليقين».

و فى "تاريخ الخميس": " و فى هذه السنة - أى فى السنة الأولى من الهجرة - شرع الأذان، قال ابن المنذر: إن النبى صلى الله عليه و سلم كان يصلى بغير أذان، منذ فرضت الصلاة بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة، و كان الناس بها كما فى السير و غيرها إنما يجتمعون إلى الصلاة لتحين موقيتها من غير دعوة. انتهى.

أذان بلال فوق الكعبة يوم فتح مكة

قال الإمام الأزرقى فى تاريخه: حدثنا أبو الوليد، قال: حدثنى جدى، قال:

حدثنا عبد الجبار بن الورد المكى، عن ابن أبى مليكة، قال: لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على ظهر الكعبة، فقال بعض الناس يا عباد الله ألهذا العبد الأسود أن يؤذن على ظهر الكعبة، فقال بعضهم: إن يسخط الله عليه هذا الأمر يغيره فأنزل الله عز و جل: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى الْآيَةَ. و أخبرنى جدى، عن محمد بن إدريس الشافعى، عن الواقدى عن أشياخه، قالوا: جاءت الظهر يوم الفتح، فأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بلالا - أن يؤذن بالظهر فوق ظهر الكعبة، و قریش فوق رؤوس الجبال، و قد فرّ وجوههم، و تغيّبوا خوفا أن يقتلوا، فمنهم من يطلب الأمان و منهم من قد أومن، فلما أذن بلال رفع صوته كأشد ما يكون، قال: فلما قال: أشهد أن محمدا رسول الله، تقول جويرية بنت أبى جهل قد لعمرى رفع لك ذكرك، أما الصلاة فسنصلى، و والله ما نحب من قتل الأحبة أبدا، و لقد جاء إلى أبى الذى كان جاء إلى محمد من النبوة فردها و لم يرد خلاف قومه.

و قال خالد بن أسيد: الحمد لله الذى أكرم أبى فلم يسمع بهذا اليوم. و كان أسيد مات قبل الفتح بيوم، و قال الحارث بن هشام: و اثكلاه، ليتنى مت قبل أن أسمع بلالا ينهق فوق الكعبة. و قال الحكم بن أبى العاص: هذا والله الحدث الجليل أن يصيح عبد بنى جمح ينهق على بنى أبى طلحة. و قال سهيل بن عمرو: إن كان هذا سخطا لله فسيغيره الله. و قال أبو سفيان بن حرب: أما أنا فلا أقول شيئا، لو قلت شيئا لأخبرته هذه الحصاة. فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه و سلم فأخبره خبرهم، فأقبل حتى وقف

عليهم، فقال: أما أنت يا فلان فقلت كذا، وأما أنت يا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٢٥

فلان فقلت كذا، وأما أنت يا فلان فقلت كذا، فقال أبو سفيان: أما أنا يا رسول الله فما قلت شيئاً، فضحك رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال أبو الوليد: وكان بلال لأيتام من بنى السباق ابن عبد الدار، أوصى به أبوهم إلى أمية بن خلف الجمحي، وأميه الذي كان يعذبه، وكان اسم أخيه كحيل بن رباح. انتهى من الأزرقى.

أذان بلال بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم

جاء في «تاريخ الخميس» ما نصه: قال إبراهيم التيمي: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن بلال و رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقبر، فكان إذا قال، أشهد أن محمداً رسول الله، انتحب الناس في المسجد، فلما دفن قال له أبو بكر: أذن. قال: إن كنت إنما أعتقتني لأن أكون معك، فسيلى ذلك، وإن كنت إنما أعتقتني لله فخلني و من أعتقتني له. قال: ما أعتقتك إلا لله. قال: فإني لا أؤذن لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فذلك إليك. قال: فأقام حتى خرجت بعوث الشام، فخرج معهم، حتى انتهى إليها. و عن سعيد بن المسيب، قال: لما كانت خلافة أبي بكر تجهز بلال ليخرج إلى الشام. فقال له أبو بكر: ما كنت أراك يا بلال تدعنا على هذه الحال، فلو أقيمت معنا فأعنتنا؟ قال: إن كنت إنما أعتقتني لله عز وجل فدعني أذهب إليه، وإن كنت إنما أعتقتني لنفسك، فاحبسني عندك. فأذن له فخرج إلى الشام فمات بها. وقد اختلف أهل السير أين مات. قال بعضهم: بدمشق، وقال بعضهم: بحلب سنة عشرين، وقيل: سنة ثمان عشرة و هو ابن بضع و ستين سنة.

و في «المنتقى»: قال أبو بكر لبلال: أعتقتك، و كنت مؤذناً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، و بيدك أرزاق رسله و وفوده، فكن مؤذناً لي، كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم و كن خازناً لي، كما كنت خازناً له. فقال له. يا أبا بكر صدقت، كنت مملوكك فأعتقتني، فإن كنت أعتقتني لتأخذ منفعتي في الدنيا، فخلني أخدمك. و إن كنت أعتقتني لتأخذ الثواب من الرب، فخلني و الرب. فبكى أبو بكر، و قال: أعتقتك لأخذ الثواب من المولى، فلا أعجلها في الدنيا. فخرج بلال إلى الشام، فمكث زماناً فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال له: يا بلال جفوتنا، و خرجت من جوارنا، فاقصد إلى زيارتنا. فانتبه بلال و قصد المدينة، و ذلك بقرب موت فاطمة. فلما انتهى إلى المدينة، تلقاه الناس، فأخبر بموت فاطمة، فصاح، و قال: بضعة النبي. ما أسرع ما لقيت بالنبي صلى الله عليه وسلم. و قالوا له: اصعد فأذن. فقال: لا أفعل بعدما أذنت

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٢٦

لمحمد صلى الله عليه وسلم. فألحوا عليه فصعد، فاجتمع أهل المدينة، رجالهم و نساؤهم و صغارهم و كبارهم، و قالوا: هذا بلال، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يريد أن يؤذن لنسمع إلى أذانه. فلما قال: الله أكبر الله أكبر، صاحوا و بكوا جميعاً، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله ضجوا جميعاً، فلما قال: أشهد أن محمد رسول الله، لم يبق في المدينة ذو روح إلا بكى و صاح، و خرجت العذارى و الأبكار من خدورهن يبكين، و صار كيوم موت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغ من أذانه، فقال: أبشركم أنه لا تمس النار عينا بكت على النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ثم انصرف إلى الشام، و كان يرجع في كل سنة مرة، فينادى بالأذان إلى أن مات. انتهى من «تاريخ الخميس».

فانظر رحمك الله تعالى، إلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم، لرسول الله صلى الله عليه وسلم، اللهم صل على سيدنا محمد و على آله و أصحابه و ذريته و سلم تسليمًا كثيرًا، و أعطه الوسيلة و الفضيلة و الدرجة الرفيعة و ابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد، و اجزه عنا أفضل ما جازيت نبياً عن قومه و رسولا عن أمته آمين. التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم؛ ج ٢-٤؛

عدد المؤذنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم

جاء في «تاريخ الخميس» في الجزء الثاني، عن عدد المؤذنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما نصه: و أما مؤذنه، عليه الصلاة والسلام، فأربعة: اثنان بالمدينة: بلال بن رباح و اسم أمه حمامة، و هو مولى أبي بكر الصديق، و هو أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، و لم يؤذن بعده لأحد من الخلفاء، إلا أن عمر، لما قدم من الشام حين فتحها، أذن بلال، فتذكر الناس النبي صلى الله عليه وسلم. قال أسلم، مولى عمر: فلم أر باكيا أكثر من يومئذ. و توفي بلال سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة أو عشرين بداريا، بباب كيسان، و له بضع و ستون سنة. و قيل دفن بحلب و قيل بدمشق.

و عمرو بن أم مكتوم القرشي الأعمى، و في «معالم التنزيل» اسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي، و كذا في «الكشاف» و زاد فيه أم مكتوم أم أبيه، هاجر إلى المدينة قبل النبي صلى الله عليه وسلم، و سيجيء موت بلال و ابن أم مكتوم في الفصل الثاني، في الخاتمة، في خلافة عمر بن الخطاب.

و أذن له عليه السلام بقاء سعد بن عائد، أو ابن عبد الرحمن المعروف بسعد القرظي و بالقرظي مولى عمار، بقي إلى ولاية الحجاج، و ذلك سنة أربع و سبعين.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٢٧

و بمكة أبو محذورة و اسمه أوس الجمحي المكي - أبوه معير - بكسر الميم و سكون العين المهملة و فتح التحتية، مات بمكة سنة تسع و خمسين، و قيل تأخر بعد ذلك.

و كان أبو محذورة منهم، يرجع الأذان، و يثنى الإقامة، و بلالا لا يرجع و يفرد الإقامة، فأخذ الشافعي بإقامة بلال، و أهل مكة أخذوا بأذان أبي محذورة و إقامة بلال، و أخذ أبو حنيفة و أهل العراق بأذان بلال و إقامة أبي محذورة، و أخذ أحمد و أهل المدينة بأذان بلال و إقامته، و خالفهم مالك في موضعين: إعادة التكبير و تثنية لفظ الإقامة. انتهى كل ذلك من «تاريخ الخميس».

جاء في «تاريخ الخميس»: و في الصفوة عن قاسم بن عبد الرحمن: أول من أذن بلال بن رباح، مولى أبي بكر، و اسم أمه حمامة، أسلم قديما، فعذبه قومه، و جعلوا يقولون له: ربك اللات و العزى. و هو يقول: أحد أحد. فأتى عليه أبو بكر، فاشتره بسبع أواق، و قيل بخمس، و قيل بسلام أسود، فأعتقه فشهد بدرا و أحدا و المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، و هو أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، و كان يؤذن له حضرا و سفرا، و كان خازنه على بيت ماله.

ثم جاء فيه بعد سطر: قال محمد بن إسحاق: كان أمية بن خلف يخرج بلالا إذا حميت الظهيرة في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد و تعبد اللات و العزى.

فيقول بلال، و هو على ذلك: أحد أحد. و مر أبو بكر يوما على أمية بن خلف، و هو يعذب بلالا، فقال لأمية: ألا تتقي الله عز و جل في هذا المسكين، حتى متى؟

فقال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى. فقال أبو بكر: أفعل، عندى غلام أسود، أجد منه و أقوى على دينك، أعطيكه به. قال أمية: قد قبلت. قال: هو لك. فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك و أخذ بلالا.

و جاء أيضا في كتاب «التراتب الإدارية» في صحيفة ٧٤، من الجزء الأول، عن عدد المؤذنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما نصه: في صحيح مسلم، كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنان، بلال و ابن أم مكتوم. و قال عياض يعني في وقت واحد. و إلا فقد كان له عليه السلام غيرهما، أذن له أبو محذورة في مكة، و رتب لأذانه، و سعد القرظ، أذن بقاء ثلاث مرات، و لكن هذان لازما الأذان بالمدينة. و قلت: و في مختصر ابن يونس الفقهى: قال ابن حبيب: و قد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٢٨

أذن للنبي صلى الله عليه وسلم أربعة: بلال و أبو محذورة و ابن أم مكتوم و سعد القرظ اه بواسطة أبي الحسن على المدون. و فى «السيرة الحلبية» و أذن بين يديه صلى الله عليه وسلم زياد بن الحارث الصدائى و عبد العزيز بن الأصم أذن بين يديه مرة واحدة. قلت: عدّ عبد العزيز بن الأصم من جملة مؤذنيه فيه ما فيه، و إن وقع لجماعة من المتأخرين، و أصله ما فى مسند الحارث بن أبى أسامة، عن ابن عمر: كان للنبي صلى الله عليه وسلم مؤذنان:

أحدهما بلال و الآخر عبد العزيز بن الأصم، و لكن قال فى «الإصابة»: هو غريب جدا، و فيه موسى بن عبيد ضعيف، ثم ظهرت لى علة، و هو أن أبا قرّة موسى بن طارق أخرج مثله، و زاد: و كان بلال يؤذّن بليل يوقظ النائم، و كان ابن أم مكتوم يتوخى الفجر فلا يخطه، فظهر من هذه الرواية أن عبد العزيز اسم ابن أم مكتوم، و المشهور فى اسمه عمرو، و قيل عبد الله بن قيس بن زائدة بن الأصم، فالأصم جد أبيه، نسب إليه فى هذه الرواية. و فى «شرح أنموذج اللبيب» للشمس محمد الرضى المصرى المالكى، روى أصحاب السنن: أن مؤذنيه عليه السلام كان عددهم أربعة.

و عددهم فى «نور النبى» كذلك أربعة، ثم قال: و زيد عليهم أيضا اثنان، فصاروا ستة. و الأربعة: بلال و عبد الله ابن أم مكتوم و سعد القرظ و أبو محذورة أوس، و الاثنان زياد بن الحارث الصدائى فإنه أذن مرة و أقام فى صلاة الصبح، و كان بلال غائبا، فأراد أن يقيم، فقال عليه السلام إن أخا صداء أذن. من أذن فليقم.

و السادس عبد العزيز بن الأصم أذن مرة. اه ما نقله.

قال بعضهم: كان المؤذنون فى زمانه عليه السلام مؤذنين بلال و ابن أم مكتوم. فلما كان زمن عثمان جعلهم أربعة، و زاد الناس بعده، و روى، لما مات عليه السلام ترك بلال الأذان، و لحق بالشام، و لم يؤذن لأحد بعده، عليه السلام، و روى أنه كان يأتى كل عام المدينة لزيارته، عليه الصلاة و السلام، لما أن عاتبه، عليه الصلاة و السلام، فى المنام. و قال له: أنت جفوتنا يا بلال، لم لا تزورنا؟ و لما أن ذهب بلال إلى الشام، أتى بسعد القرظ. كان يؤذن بقاء، ثم صار يؤذن بمسجده، عليه الصلاة و السلام، اه راجع بقية فيه.

(فائدة) أخرج ابن سعد و ابن أبى شيبة، عن القاسم بن عبد الرحمن: أول من أذن، فى الإسلام، بلال. و أخرجه أبو الشيخ، عن ابن عباس، و زاد: أول من أقام عبد الله بن زيد.

و انظر خير البشر بأذان خير البشر.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٢٩

و فى «خطط المقرئى»: قال الواقدى: كان بلال يقف على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعنى بعد الأذان، فيقول: السلام عليك يا رسول الله. و ربما قال السلام عليك، بأبى أنت و أمى، يا رسول الله، حى على الصلاة، حى على الصلاة، السلام عليك يا رسول الله.

قال البلاذرى: و قال غيره: كان يقول: السلام عليك يا رسول الله و رحمة الله و بركاته، حى على الصلاة، حى على الفلاح، الصلاة يا رسول الله. فلما ولى أبو بكر الخلافة، كان سعد القرظ يقف على بابه، فيقول: السلام عليك يا خليفة رسول الله و رحمة الله و بركاته، حى على الصلاة، حى على الفلاح، الصلاة يا خليفة رسول الله.

قلت: ظفرت بمؤذن سابع له عليه السلام، و هو ثوبان، فقد أخرج عبد الرزاق فى مصنفه، عن ثوبان مولى النبي صلى الله عليه وسلم قال: أذنت مرة، فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: قد أذنت يا رسول فقال: لا تؤذّن حتى تصبح. ثم جئته أيضا فقلت: قد أذنت. فقال: لا تؤذّن حتى ترى الفجر، ثم جئته الثالثة، فقلت: قد أذنت. فقال: لا تؤذّن حتى تراه هكذا، و جمع بين يديه ثم فرقهما، انظر «كنز العمال» فهذا مؤذن سابع له عليه السلام و قد ظفرت بمؤذن ثامن فى «خطط المقرئى» "جاء أن عثمان بن عفان كان يؤذن بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المنبر.

اه منها ص ٤٣ من الجزء الرابع طبع مصر سنة ١٣٢٦.

ولم أر من ذكر عثمان ولا ثوبان المذكور في المؤذنين، فإن معظم الأئمة اقتصر على أربعة، ومنهم من عددهم خمسة، وهو المشهور لدى المتأخرين. وأما عددهم سبعة أو ثمانية، كما ذكرنا، فلم أسبق إليه والحمد لله. وقد نظم أسماء خمسة دون عبد العزيز بن الأصم البرماوى، فقال كما في حاشية الرهونى على الزرقانى:

لخير الورى خمس من الغر أذنوا بلال ندى الصوت بدءا يعين
وعمر والذى أم لمكتوم أمه وبالقرظ أذكر سعدهم إذ بين
وأوس أبو محذورة وبمكة زياد الصداء نجل حارث يعلن
ونظمهم الشيخ التاودى ابن سوذة أيضا فقال:

عمر و بلال و أبو محذورة سعد زياد خمسة مذكورة

قد أذنوا جميعهم للمصطفى نالوا بذلك رتبة و شرفا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٣٠

«تنبيه»: أبو محذورة أمره المصطفى عليه الصلاة والسلام بالأذان بمكة عند منصرفه من حنين، فلم يزل يؤذن فيها، وبقى الأذان بمكة في نسل أبى محذورة وأولاده، قرنا بعد قرن، إلى زمن الشافعى. انظر ترجمته في تهذيب النووى. انتهى كل ذلك من كتاب «التراتب الإدارية».

تحسين الصوت بالأذان

كما يسن تحسين الصوت فى قراءة القرآن، يسن تحسينه فى الأذان، لأن الصوت الحسن يحرك القلوب، و يوقظ النفس عن غفلتها، و يطرد الملل و السآمة عن الفؤاد. و نحن فى هذه الأزمان الأخيرة أحوج ما نكون إلى ما يدفعنا إلى العمل، فالصوت الحسن فى قراءة القرآن أو النداء بالأذان أو إلقاء الخطب و المواعظ و التدريس، له مفعول كبير جدا فى إيقاظ النفوس و تنشيط الهمم، و كما يوجد أنكر الأصوات يوجد أرق الأصوات. و هذا رسول الله صلى الله عليه و سلم، لما أخبره عبد الله بن زيد الأنصارى، أن شخصا علمه بين اليقظة و المنام كلمات الأذان، قال له: لئن ذلك بلالا فإنه أندى صوتا منك كما تقدم بيانه.

روى مسلم عن أبى موسى الأشعرى، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال له: «يا أبا موسى لو رأيتنى و أنا أستمع لقراءة تك البارحة؟ فقال: أما والله، لو أعلم أنك تستمع قراءة لحبرتها لك تحبيرا» و فيه قال عليه الصلاة والسلام: «لقد أوتى مزمارا من زمير آل داود» و روى الزهرى عن أبى سلمة «كان عمر إذا رأى أبا موسى، قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده».

و جاء فى الصحيحين، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: ما أذن الله لشيء ما أذن لنبى يتغنى بالقرآن. رواه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه.

قال شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى، رحمه الله تعالى، فى شرحه لكتاب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم» عند هذا الحديث ما ملخصه:

(تنبيه) يستحب تحسين الصوت بقراءة القرآن، دون تكلف، و حكى النووى الإجماع عليه لكونه أوقع فى القلب، و أشد تأثيرا، و أرق لسامعه، فإن لم يكن القارئ حسن الصوت، فليحسنه ما استطاع، هذا إذا لم يخرج عن التجويد المعبر عند أهل القراءات، فإن خرج عنه، لم يف تحسين الصوت، بسبب قبح الأداء،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٣١

فحكم القراءة بالتلحين أى التطريب، الكراهة عندنا معشر المالكية، كما أشار له خليل فى مختصره، بقوله عاطفا على المكروهات، و قراءة بتلحين أى تطريب صوت لا يخرج عن حد القراءة، فإن خرج عن حدها حرم اتفاقا.

قال الأبي: تحسين الصوت به غير قراءته بالألحان، فتحسين الصوت تزيينه بالترتيل و الجهر.

قال القاضي عياض: لم يختلف في أن تحسين الصوت بالقراءة مندوب إليه، والأحاديث في ذلك محمولة على التحزين و التشويق. و اختلف في الترجيع و قراءته بالألحان، فكرهه مالك و الأ-كثر لأنه خارج عن ما وضع له القرآن من الخشبية و الخشوع، و أجازه أبو حنيفة و جمع من السلف، و الأحاديث في ذلك، لأنه لا يزيد النفس رقة و حسن توقع، و قاله الشافعي في التحزين. اهـ.

قال النووي في «الروضة»: و أما القراءة بالألحان، فقال الشافعي في «المختصر»: لا- بأس بها، و في رواية مكروهة، قال جمهور الأصحاب: ليست على قولين، بل المكروه أن يفرط في المد، و في إشباع الحركات، حتى يتولد من الفتحة ألف و من الضمة واو و من الكسرة ياء أو يدغم في غير موضع الإدغام، فإن لم ينته إلى هذا الحد فلا كراهة، فإذا أفرط على الوجه المذكور، فهو حرام يفسق به القارئ، و يآثم به المستمع، لأنه عدل به عن نهجه القويم، كما قاله النووي، و غيره، و قالوا: إنه هو مراد الشافعي.

و نحن نقول: إن كل ما ذكره الأئمة الأجلاء و العلماء الفضلاء، رحمهم الله تعالى، في معنى مثل هذا الحديث المتقدم في حكم قراءة القرآن بالصوت الجميل الحسن، يمكن معرفته و علمه و الإحاطة به بالقارئ و السامع اللذين لهما ذوق حسن و دين و ورع ليحكما بالعدل و الاعتدال، و يميّزا بين الصوت الحسن الجميل بطبيعته، و بين التغنى بالقرآن غناء، فهذا له حكم و ذاك له حكم، و في الحديث الصحيح الحلال بين و الحرام بين و بينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ... إلخ».

و مما لا يختلف فيه الاثنان: أن كل إنسان خلقه الله بصفة و هيئة خاصة حتى لا يشبهه زيد بعمر «و جلّ من لا يشبه له سبحانه و تعالى» فكل إنسان خلقه الله إما جميلا و إما قبيحا، و جعل صوته كذلك إما حسنا جذابا و إما قبيحا منفرا، ثم القبح و الجمال يتفاوتان في الدرجات و الكيفية، فالصوت الحسن الرنان، بطبيعة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٣٢

الخلقة، يزداد حسنا و جاذبية، كلما ازداد صاحبه من العلم و المعرفة و حفظ أصول التجويد و القراءات، فعليه لا يمكن أن ننكر القراءة بكل صوت حسن جميل، و نقبل الصوت الخالي من التأثير في النفوس.

و كما خصّ الله عز و جلّ البشر بالوجه الحسن أو القبيح و بالصوت الحسن أو المنكر خصّ كل جنس منهم بصوت و نغم مخالف للأجناس الأخر، فمثلا، قراءة القرآن في الإذاعة بالراديو من الجنس المصري يكون بصوت و ترتيب، غير قراءته من الجنس العراقي أو الجنس المغربي أو الجنس التكروني- السوداني- أو الجنس اليمني، أو الجنس الشنقيطي أو أى جنس من الأجناس الإسلامية الذين يتكلمون باللغة العربية فقط. و هؤلاء كلهم طبعاً تكون قراءتهم غير قراءة الأعجام كالفرس و الأفغان و التركستان و الهندستان و نحوهم. فكل جنس من النوعين «العربي و الأعجمي» قراءته للقرآن غير قراءة الآخر، و صوته و ألحانه غير صوت و ألحان الآخر، و أن كل جنس منهم لا بد و أن تكون مخارج حروف القرآن غير مخارج الآخر و لو بشيء قليل، و أن كل جنس من هؤلاء الأجناس إذا قرأ القرآن بصوته الطبيعي، فلا- بد من حدوث بعض تغيير عن قواعد علم التجويد المعروفة، لدى علماء الحجاز و مصر و غيرهم، بحكم الاضطرار و الخلقة الأصلية. فهل نحكم على كل من حسن صوته بالقراءة أنه خرج عن القواعد، و نحكم على صفة قراءته إما بالحرمة أو الكراهة أو غير ذلك- كلا- و الله- و هل لا يختار شريعتنا الغراء إلا الصوت الخالي و الخاوي من التأثيرات المرغبة، في الاستماع، و المجردة من كل جاذبية، تجذب النفوس و توقظ القلوب و تشرح الصدور- كلا و الله- كما أن شريعتنا السماوية السمحاء لا تفضل القراءة التي اتخذت للهو و التلذذ النفساني فقط، و لكن خير الأمور الوسط لا إفراط و لا تفريط.

خير الأمور الوسط الوسيطو شرّها الإفراط و التفريط

و نرى أن القراءة المصرية، في الإذاعة و الراديو الآن، في عصرنا هذا، خير القراءات، و أحسنها صوتا، و أجملها وقعا في النفوس، و أشرحها للصدور و أبسطها للأرواح.

و كل ما يقال عن صفة قراءة القرآن الكريم بالصوت الحسن يقال أيضا عن الأذان للصلوات الخمس بالصوت الحسن، لما لذلك من

التأثير البليغ في القلوب، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخبره عبد الله بن زيد الأنصاري أن شخصا علمه بين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٣٣

اليقظة و المنام كلمات الأذان، قال له لقن ذلك بلالا فإنه أئدى صوتا منك. كما تقدم بيانه.

قال الإمام النووي في «كتاب الأذكار»: (فصل): و يستحب ترتيل الأذان و رفع الصوت به، و يستحب إدراج الإقامة و يكون صوتها أخفض من الأذان، و يستحب أن يكون المؤذن حسن الصوت ثقة مأمونا خبيرا بالوقت متبرعا. انتهى منه.

و مما يناسب هذا المبحث، أن عبد الله ذا البجادين المزني، رضى الله تعالى عنه، كان رجلا صيتا. و كان يقوم في المسجد فيرفع صوته بالقرآن، فقال عمر: يا رسول الله، ألا تسمع إلى هذا الأعرابي يرفع صوته بالقرآن فيمنع الناس من القراءة؟ فقال: دعه يا عمر، فإنه خرج مهاجرا إلى الله و إلى رسوله.

و خبر إسلام و موت عبد الله ذى البجادين المذكور في «تاريخ الخميس» و فى غيره، فإنه لما مات، نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم فى حفرة، و أبو بكر و عمر يدلاناه إليه، و هو يقول: أدليا إلى أخاكما، فلما هياها لشقه و وضعه فى اللحد قال: اللهم إني قد أمسيت راضيا عنه فارض عنه. يقول عبد الله بن مسعود: يا ليتنى كنت أنا صاحب هذه الحفرة. و البجاد على وزن كتاب الكساء الغليظ الجافى. انتهى.

الأذان الشرعى

هذا العنوان أى- الأذان الشرعى- أخذناه من «مجلة الاثنين» الآتية، و فيها المقالة المذكورة و ليس هنا أذان شرعى و غير شرعى، فالأذان بمعناه و كلماته المعروفة واحد، ليس فارق فيه إلا باختلاف أصوات المؤذنين بالتحسين و غيره، و فى جميع العالم الإسلامى، لا تتغير كلمات الأذان و لا تتبدل مطلقا، فإن حصل فيه تغيير بزيادة أو نقص فى كلماته فلا يسمى أذانا شرعيا.

و إليك ما ذكرته «مجلة الاثنين»، التى تصدر بمصر، و هذه المقالة كانت بعنوان (الأذان الشرعى)، و مع الأسف، أننا لم نعثر على غلاف المجلة، حتى نكتب تاريخها، و رقم عددها، و ليس ذلك بهمهم، و المقصود نفس المقالة المنشورة، و إليك نصها:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٣٤

قضيت ثلاثة أيام فى قرية، استمتعت فيها، بالفجر الباسم، و لم تكن تعليمات وزارة الأوقاف، عن الأذان الشرعى، قد وصلت إلى مؤذن القرية، و لهذا كان لا يزال صوته الشادى يتسلل، من نافذة غرفة النوم، و هو يعلن للمؤمنين: (الصلاة خير من النوم) و كانت أذنى تتفتح لهذا الصوت الصّادح، و هو يسرى فى سكون الليل، يحمل معه إلى قلبى الخشوع، و خشية الله.

قارنت هذا الأذان بالأذان الذى أمر به اليوم، فأمنت أن ترتيل الصلوات، فى جميع الأديان، لم يكن عبثا. إن التلاوة تنفذ إلى الأذان، و أما الترتيل، بالصوت الحسن، فينفذ إلى القلب، و شتان بين أن تؤمن بسمعك، و بين أن تؤمن بقلبك ...

و قد ذكرنى هذا برجل انكليزى التقيت به فى إنجلترا فى سنة (١٩٥٠) خمسين و تسعمائة و ألف ميلادية، و قدم نفسه لى، على أنه مسلم، و حملنى إثم الظن على التفكير فى أنه أسلم فرارا من زوجته، و لكنه قطع على الاسترسال فى هذا الإثم، لأنه أعلمنى أنه أسلم هو و زوجته و ولده و بنته ... فقلت فى نفسى: لعل قسم المخبرات أخرجته من دينه ليكون عينا من عيون، على الأمم العربية أو رؤساء المسلمين، و رغبت فى أن أخلص من التظن و الوقوف على حقيقة إسلامه، فقص على قصته فقال: كنت قد رحلت إلى القاهرة لعمل استصحبت معى عائلتى ...

و سحرنا الأحياء القديمة فاتخذناها مقاما ... و أرقت ذات ليلة فصحوت، و سمعت مؤذنا ينادى الناس للصلاة ... و كان صوته حسنا و رخيما، و كان النغم شجيا و رهيبا ... و كلما مدّ المؤذن فى ندائه للصلاة كلما شعرت برهبة و خشوع ...

و شاركتنى زوجتى سماعه فى الليالى التالية، التى حرصنا أن لا نضيع منها ليلة ...

و شعرنا أن هذا المؤذن يدفعنا ليلة بعد أخرى إلى الدخول في زمرة المسلمين ... و لم نكن في حاجة إلى الإقناع، فبمجرد أن تعلمنا نظرية التوحيد في الإسلام، أسلمنا ... ثم وقفنا بعد ذلك على أسرار هذا الدين ...» و دعاني الرجل إلى بيته فرأيت أهله يقيمون الصلاة كما يقيمها فقهاء المسلمين ...

كانت لهذه القصة عبرة في نفسى لأنى و أنا حدث لم أطرب لصوت مؤذن القرية، و حداني تفكيرى الساذج أن أطالب «الملا» بالمسجد أن يوقف ذلك المؤذن، و أنا أعطيه كل مصروف الشهر - و كان عشرة قروش - ليخلص الناس من صوته الأجهش!

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٣٥

«الملا» - بضم الميم و تشديد اللام الألف -: العالم المدرس فى لغة غير العرب.

و المقصود هنا إمام و خطيب المسجد.

و ضحك «الملا» من سذاجتى، و شكاني لوالدى، و كانت (علقه) آمنت بعدها أن صوت هذا المؤذن ليس هو أنكر الأصوات! كان الحادثان يتراقصان دائما أمامى، حتى فوجئت يوما بالأذان الجديد ... و تساءل الناس، و تساءلت لماذا لجأنا إلى هذا التجديد؟ فقيل لنا: إن هذا هو الأذان الشرعى، و إننا بقينا طوال القرون الماضية فى بدعة، و كل بدعة فى النار!

و القول بأن الأذان كان يؤدى بهذا الطريق الجديد فى صدر الإسلام قول يمكن التأمل فيه دون نكرانه، لأنه لم يكن هناك طريق بعد لكتابة الألحان أو تصوير الأنغام ... و نحن إن رجعنا لكتاب الأغاني وجدناه وضح كيف كانت تغنى الأصوات. و قد حاول كل ملحن أن يستنبط طريقة التأديء، مما كتب فى الأغاني ففشل، و ذلك لسبب واحد، هو أن تصوير اللحن لا يمكن أن يكون بالألفاظ ... فإذا كان هذا هو الواقع، فالقول، بأن الأذان كان يؤذن منذ ألف و أربعمائة سنة على هذا الوجه، قول يتردد فيه الفكر قبل التسليم به ... و رجعت إلى أنصار هذا التغيير الجديد، فقالوا لى ... يحرم التغنى فى الأذان لأنه ورد فى الحديث أن «الأذان جزم» أى لا مد فيه، و رجعت إلى تفسير هذا الحديث فوجدت فيه أقوالا عدة، أقربها للعقل قولهم «الأذان جزم» أى مقطوع المد، فلا تقول «الله أكبر» بالمد، لأنه استفهام ... ثم قالوا: إن الأذان لا ترجع فيه، و رجعت إلى تفسير هذا، فقالوا: إن الترجيع هو أن يخفض المؤذن صوته بالشهادتين، ثم يرجع فيرفعه بهما.

و هذا هو الذى يحدث الآن، على عكس ما قال الفقهاء، و قالوا إنه لا يحل فيه (التغنى) أى بتغيير كلماته بزيادة حركة أو حرف أو مد. و كل هذا لا يتناول الأذان فى طريقته الأولى، فإن الغناء له طريقته و هى ترديد المقاطع مرات عدة، بألحان مختلفة، يصحبها كثير من «الشخلة» إذا أراد المغنى إثارة عوامل المرح فى السامع ... أو يصحبها كثير من الآهات الحزينة إذا أراد المغنى إثارة عوامل الشجن ... و فى كثير من الأحوال يلجأ المغنى إلى اختيار مقاطع الكلمة الواحدة ليؤديها مرات فى وقفات متعددة. و هذا التغنى الذى يمتنع قطعاً على المؤذن أن يفعله ... و لكن المؤذن كان يرتل الأذان كما يرتل القرآن الآن، فيأخذ بمجامع القلوب و يوحى بالخشية و الخشوع.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٣٦

و مع كل ذلك فإنى أسأل السيد وزير الأوقاف، و هو المهيم على هذا: لقد حرم المتقدمون أخذ الأجر على الأذان و الإمامة، فلماذا أصبحنا و ليس هناك من يؤم الناس أو يؤذن فيهم إلا - أجيأ، و الذى يعين هذا الأجير هو السيد وزير الأوقاف؟ أليس هذا لأن المتأخرين رأوا أنه بمراعاة أوقات الصلاة و الاشتغال بالإمامة أو الأذان يقل اكتسابه عما يكفيه لنفسه؟

و نحن الآن لا نعيش فى البادية التى يذهب فيها الصوت العادى إلى أبعد الحدود، و إنما نعيش فى ضوضاء الآلة الحديثة، التى يقتضى معها أن يمد المؤذن فى صوته، و ينوع نغماته و يطيل فيها، حتى يصل إلى سمع السامعين.

لقد اختار الرسول، عليه الصلاة و السلام، بلالا لصوته الحسن، و ليس لحسن الصوت من وظيفة إلا تأدية النغم، فهذا الاختيار نفسه له دلالة على وجوب تنعيم الأذان و ترتيله.

الحق أنى لا أجد سندا يقنعنى بوجوب هذا التغيير دعونا نعود للتقديم حتى لا نحرم المؤمنين من نعمة الصوت الحسن الذى يذكرنا

بخشية الله، و ليكن الأذان الشرعى بجوار المنبر إيذانا بحلول وقت الصلاة ...

قصة الأذان

و عندما هاجر النبي صلى الله عليه و سلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة «يثرب» حيث استقرت أحوال المسلمين وقويت شوكة الإسلام، و وضع أساس الدولة الإسلامية، جعل المسلمون يقيمون فرائضهم، لا يخافون أذى و لا يخشون فتنه، و كانوا يتحنون أوقات الصلاة فيجتمعون لتأديتها.

و لما كان أمرهم شورى بينهم، اجتمعوا يوما، يتباحثون فى طريقة، لدعوة المصلين لأداء هذه الفريضة فى أوقاتها، فاقترح بعضهم أن يوروا نارا، إذ كانت هذه العادة شائعة عند كرماء العرب، فكانوا يوقدون النار، ليسترشد بها الضال فى الصحراء. و كان الكريم، الذى يوقد مثل تلك النار، يعدها من مفاخره و مساره إذا ما استرشد بها السارى، و من مآثور مفاخرهم فى هذا قول بعضهم:

أوقد فإن الليل ليل قزو الريح يا غلام ريح صر

لعل أن يبصرها المقتران جلبت ضيفا فأنت حر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٣٧

قام فى وجه هذا الرأى اعتراض، يوضح وجه الشبه، بين هذه النار و بين نار الفرس، التى كان لا يخمد أوارها، و التى كان يذهب الفرس للتبرك بها و عبادتها.

ثم أدلى بعضهم بفكرة أخرى و هى: أن يوضع بوق ينفخ فيه فيسمعه المسلمون و هنا ... «كقرن اليهود» و قال ثالث «أو لا تتخذون ناقوسا يسمعه القاصى و الدانى» فقال آخر «كناقوس النصرى» و تعددت الآراء ... و لم يبت فى هذه المسألة، و افترق القوم.

و فى اليوم الثانى اجتمعوا بالنبي صلى الله عليه و سلم، و جاء عبد الله بن زيد و قصص على رسول الله رؤياه فى ليلته، و هى أنه سمع أذانا يدعو للصلاة، فصدقه و أمره بالأذان ففعل، فلما سمع عمر الصوت، و كان منتحيا ناحية من المسجد، أقبل على رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال: «أو لا تبعثون رجلا آخر يصلح له»، فلما فرغ عبد الله بن زيد من أذانه، قال له رسول الله: «قم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها، فإنه أندى صوتا منك».

و لقد جاء فى صحيح البخارى و فى تفسيره عن هذه الرواية صفحة (٧٨) الجزء الأول ما يؤيد ذلك، و هذا نصه:

«حدثنا محمود بن غيلان قال: حدثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا ابن جريح، قال:

أخبرنى نافع أن ابن عمر كان يقول: كان المسلمون، حين قدموا المدينة، يجتمعون فيتحنون الصلاة، ليس ينادى لها، فتكلموا يوما فى ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسا، مثل ناقوس النصرى، و قال بعضهم: بل بوقا، مثل قرن اليهود، فقال عمر: أو لا تبعثون رجلا ينادى الصلاة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يا بلال قم فناد بالصلاة».

فنزلت الآية الكريمة: وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَ لَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ثم أسفر النداء و نزلت فيه الآية الكريمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ.

و كان يسمع الأذان فى المدينة، خمس مرات فى اليوم، يدعو للصلاة فى أوقاتها، يرتل الأذان ترتيلا حسنا و بصوت جميل.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٣٨

و ليس للصلاة- غير المفروضة- أذان، فلقد جاء فى كتاب «الوجيز فى فقه الإمام الشافعى» للإمام الغزالى: «و لا أذان فى غير مفروضة، كصلاة الخسوف، و الاستسقاء، و صلاة الجنائز، و العيدين، بل ينادى لها: الصلاة جامعة».

و للأذان فضل كبير فى التخلص من الشيطان و من شره، فقد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان حتى لا يسمع التأذين فإذا قضى النداء أقبل ... إلى نهاية الحديث».

وله فضل عظيم في حقن الدماء، فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوما لم يكن يغزوهم حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانا كف عنهم وإن لم يسمع أغار عليهم.

ولقد جاء في صحيح البخارى، عن أنس بن مالك أنه قال: «خرجنا إلى خيبر فانتبهنا إليهم ليلا، فلما أصبح ولم يسمع أذانا ركب وركبت خلف أبي طلحة، وإن قدمي لتمس قدم النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم فلما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: محمد والله محمد والخميس، قال فلما رأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الله أكبر، الله أكبر. خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

ولما كان للغناء أثره، وللصوت الجميل وقعه في القلوب، رؤى من القديم أن يكون المؤذن حسن الصوت، جميله، ليكون أدعى إلى أن يستمع إليه الناس، ولا ينفرون من سماعه. ولقد جاء في كتاب "الوجيز" للإمام الغزالي، في صفة المؤذن ما يأتي: "ويشترط في المؤذن أن يكون مسلما عاقلا- ذكرا، فلا- يصح أذان كافر أو امرأة أو مجنون أو سكران مخبط. ويصح أذان الصبي المميز، وليكن المؤذن صيتا حسن الصوت ليكون أرق لسامعه."

وجمال الصوت في الأذان يرجح صاحبه، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم رجح أذان بلال على أذان عبد الله بن زيد، والصوت النكير يزرى بصاحبه، فلقد سمع عمر بن عبد العزيز رجلا يؤذن بصوت أجش فقال له: «أذن أذانا سمحا وإلا فاعتزلنا». وللليل في سكونه وهدوئه عظمته، وللمؤذن في مآذنته جلاله وروعته، يبعث الصوت بأعذب الألحان وأشجى النغمات بأطيب الدعوات والصلوات، فيحملها النسيم إلى الأسماع، ويردها الفضاء، فتبعث النشاط في الأبدان، فتقوى على الإيمان، وتوقن بأن الصلاة خير من النوم، فتهب من رقابها وتهرع إلى المساجد تؤدي الفرائض.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٣٩

وليس أدل على ما للصوت الجميل، في الأذان، من عظيم الأثر، في النفوس، والحث على التقوى، والصلاح والعبادة، من أن تستمع الأذان، بعد منتصف الليل، من على مآذن المساجد الكبيرة، فإن ذلك يبعث في نفسك روعة الحق وجلال الإيمان.

المؤذنون والمؤذنون في المسجد الحرام اليوم

المؤذنون والمكثرون في المسجد الحرام يبلغ عددهم اليوم اثنين وعشرين شخصا، ورئيس المؤذنين في وقتنا الحاضر هو الشيخ الفاضل يعقوب بن يوسف شاكر ويبلغ من العمر نحو السبعين.

وقد اختص بالأذان في المسجد الحرام منذ مائتي سنة خمس عوائل وهم: عائلة شاكر، وعائلة البصنوي، وعائلة بدر، وعائلة جودة، وعائلة البصمجي.

أما التوقيت بالمسجد الحرام، أى معرفته دخول وقت الصلوات الخمس للأذان، سواء كانت بواسطة المزولة أو الساعة الزمنية، فيختص به بيت «الرئيس» فقط بفتح الراء وكسر الياء المشددة.

والقائمون اليوم بالتوقيت من بيت الرئيس رجلان هما: الشيخ رضوان بن عبد السلام الرئيس، والشيخ أسعد بن عبد السلام الرئيس. فإذا دخل وقت الصلاة أذن أحدهما على سطح زمزم قبل هدم المكان الذي كان على بئر زمزم، أو في المكبرية المعمولة الآن فيتبعه كافة المؤذنين على مآذن المسجد الحرام، أما الآن فالمؤذن واحد ويسمع في كافة المكان بواسطة المذياع، كما أنهما كانا ممن يقيمون للصلوات بعد الأذان.

جاء في هامش تاريخ الأزرقى في صحيفه ٧٨، من الجزء الثاني منه، ما يلي:

وكان رئيس المؤذنين يؤذن في منارة باب العمرة في زمن الفاكهي، ويتبعه سائر المؤذنين.

ثم صار رئيس المؤذنين في زمن الفاسى يؤذن، في منارة باب السلام، ثم صار يؤذن الأوقات الخمسة على قبة زمزم إلى هذا اليوم.

انتهى منه.

نقول: و الفاكهي المذكور، هو أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي، توفي في أواخر القرن الثالث أي في سنة (٢٨٠) تقريبا، و له في تاريخ مكة، مؤلف قيم،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٤٠

عليه و على تاريخ الأزرقى يعتمد المؤرخون في نقل الأخبار. و تاريخ الفاكهي توجد منه نسخة في بعض خزائن أوروبا، و تاريخ الأزرقى مطبوع طبع مكة، و أما الفاسي، فهو تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي، توفي في الثلث الأول من القرن التاسع أي في سنة (٨٣٢) و له في تاريخ مكة كتاب جليل عظيم الفائدة اسمه «شفاء الغرام» و قد طبع قريبا.

الكعبة المشرفة

درج الكعبة الخارجية الموصلة إلى بطنها

لما بنت قريش الكعبة، قبل البعثة بخمس سنوات، جعلوا باب الكعبة المشرفة مرتفعا عن الأرض حتى لا تدخلها السيول، و لا يدخلها إلا من أرادوا، و كان بابها قبل ذلك ملتصقا بالأرض.

و لما كان باب الكعبة، يعلو عن الأرض، بنحو مترين، و ليس عليه درجة مبنية من الخارج، فإنه لا يمكن طلوعها إلا بمرقاة، و هي الدرج أو السلم. و المرقاة إليها نوعان في عصرنا الحاضر: نوع يشبه السلم الصغير يرقى منه إلى الكعبة شخصا شخصا، و هذا السلم يستعمل بعد افتتاح الكعبة، بصفة خاصة، فلا يسمح بالدخول فيها، إلا لقليل من الناس. و نوع يشبه الدرج يرقى منه إليها جماعات جماعات، و يوجد من هذا النوع مدرجان بجوار بئر زمزم، فإذا فتحت الكعبة لعموم الناس دفعوا أحدهما، حتى يسندوه إلى باب الكعبة، فيشتد الزحام في الصعود عليها، لكن أحد هذين النوعين قد تلف فلم يبق له من أثر كما سيأتي بيانه.

فدرجة الكعبة الخارجية من النوعين معمول من الخشب السميكة القوى، و هو يشبه منابر المساجد غير أن هذه ثابتة في مكانها، و المدرج يتحرك بعجلات تحته، فيدفع من محله إلى أن يسند إلى باب الكعبة، فيطلع الناس عليها، فإذا أغلق بابها، يدفع المدرج ثانيا، حتى يصل إلى محله الأول. و نحن هنا نذكر عدد مدرج الكعبة من عهد الإمام الأزرقى إلى اليوم و هو كما يأتي:

(١) قال الغازي رحمه الله تعالى في تاريخه، نقلا عن الإمام الأزرقى، أنه قال:

طول درجة الكعبة، التي يصعد عليها الناس إلى بطن الكعبة، من الخارج، ثمانى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٤١

أذرع و نصف، و عرضها ثلاثة أذرع و نصف، و فيه من الدرج ثلاث عشرة درجة و هي من خشب الساج اه.

(٢) و قال أيضا، نقلا عن الطبرى، في الإتحاف: أن في سنة ثمانى عشرة و ثمانمئة أرسل المؤيد الجركسى منبرا حسنا إلى المسجد الحرام، و درجة يصعد عليها إلى الكعبة، و وصل ذلك في الموسم اه.

(٣) و قال أيضا نقلا عن السنجارى، في «المنايح»: و في شهر رمضان سنة ألف و سبع و تسعين جدد شيخ الحرم درجة الكعبة، و جعل لها حاجزا من خشب، و كان أول الدخول عليها يوم الجمعة سادس عشر رمضان اه.

نقول: إن شيخ الحرم المذكور، في ذلك العهد، اسمه أحمد باشا، فهو شيخ الحرم و والى جده من قبل الدولة التركية.

(٤) و قال أيضا: نقلا عن «إتحاف فضلاء الزمن» ما ملخصه: أرسل من الهند حسين حميدان درجة للكعبة، فوصلت إلى جدة عام ستة عشر و مائة و ألف، فامتنع عن قبولها والى جده سليمان باشا، و قال: لا أركبها على الكعبة. فبقيت بجدة إلى سنة سبع و عشرين و مائة و ألف فاشتراها محمد باشا المعمار، والى جده، و بعث بها إلى مكة، فركبها على الكعبة في يوم الخميس رابع عشر جمادى الآخرة

من السنة المذكورة، ورفعوا الدرجة التي كانت قبلها والتي عملها أحمد باشا. ثم في يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة، أمر الشريف برفع الدرجة، التي بعثها محمد باشا المعمار، وإعادة الدرجة القديمة، التي كانت قبلها، لعدم استئذان السلطنة التركية، واستئذان الشريف، فحفظت في بيت الشيخ عبد القادر الشيبى ثم أرسلوا يستأذنون السلطان في تركيبها. وفي افتتاح سنة اثنين و ثلاثين و مائة و ألف أعادوا الدرجة الأولى، التي أرسلها محمد باشا المعمار، ورفعوا القديمة. و قد أمر إبراهيم باشا، والى جدّه، بتلوينها و زخرفتها. انتهى ملخصا.

(٥) و قال الغازى أيضا فى تاريخه: أرسل إلى مكة نواب مدارس محمد منور خان بالهند، درجة للكعبة من خشب الساج، و ذلك فى سنة أربعين و مائتين و ألف و فيها إحدى عشرة درجة. انتهى.

نقول: هذه الدرجة لا تزال إلى اليوم موجودة بالمسجد الحرام، يصعد الناس عليها، عند دخولهم الكعبة المعظمة، و محل هذه الدرجة بجوار جدار بئر زمزم، من جهة مقام إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، و عليها اسم راسلها و التاريخ المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٤٢

و عرض هذا المدرج متران و ارتفاعه عن الأرض إلى سطح الدرجة العليا متران أيضا، و طوله خمسة أمتار. و قد تطرق الخلل فى هذا المدرج، و ظهر فيه القدم، و أصلح مرارا، فقد مرت عليه مائة و أربعون سنة، و لا يزال مستعملا إلى يومنا.

(٦) و قال الغازى أيضا نقلا- عن كتاب «أخبار الصناديد» للشيخ نجم الغنى بن عبد الغنى، نلخصه فيما يأتى: أرسل إلى مكة نواب رامفور كلب عليخان،- و رامفور بلدة بين دلهى و حيدر آباد بالهند- درجة للكعبة المشرفة. من خشب.

و ذلك سنة ثلاثمائة و ألف. و فيها أربع عشرة درجة، لكن لم تستعمل إلا بعد استئذان الدولة العلية التركية، و كانت مخصوصة لصعود النساء إلى الكعبة يوم نوبتهن ثم ترك استعمالها بتاتا. و كانت هذه الدرجة مصفحة بألواح الفضة، و قد بلغت قيمتها، بما فيها من الفضة، (٨٥٣٦٤) خمسة و ثمانين ألفا و ثلاثمائة و أربع و ستين روبيه هندية. اه.

نقول: إن صرف هذا المبلغ الكبير، فى عمل مدرج للكعبة المشرفة، أمر لا يستهان به، خصوصا إذا عرفنا أن قيمة الفضة، فى ذلك الزمن، كانت مرتفعة و هذا المدرج، كان موجودا، إلى ما بعد سنة (١٣٦٥) ثم حصل فيه تلف و خراب، فتصرف آل الشيبى فى فضته و خشبه فلم يبق له اليوم من أثر، و كان محلّه بجوار المدرج السابق.

(٧) و فى ابتداء الشروع فى توسعة المسجد الحرام، أى فى أوائل سنة خمس و سبعين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة، أمر جلاله الملك سعود بن عبد العزيز آل السعود، ملك المملكة العربية السعودية، أدام الله توفيقه، بعمل مدرج فخم لائق بمكانة بيت الله العظيم.

فعمل هذا المدرج بمصر القاهرة، من الخشب القوى المتين، الملبس بصفائح الفضة المزركشة، و فيه من النقوش العربية المذهبة ما يبهر الناظر، فوصل هذا المدرج أو الدرج، أو بعبارة أخرى «السلم» من مصر إلى مكة المشرفة، فى يوم الأربعاء خامس ذى الحجة سنة (١٣٧٦) ألف و ثلاثمائة و ست و سبعين من الهجرة.

و فى صباح يوم الخميس سادس ذى الحجة من السنة المذكورة، استعمل هذا المدرج لأول مرة من صنعه، فصعد عليه جلاله مليكنا المعظم، و معه بعض رؤساء

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٤٣

الوفود القادمة من أنحاء العالم الإسلامى لأداء فريضة الحج، فدخلوا الكعبة المشرفة و قاموا بغسلها ثم خرجوا.

و المدرج المذكور يشتمل على اثنتى عشرة درجة، و هو بديع الصنع، جميل المنظر، يعد تحفة نادرة، و آية من آيات الرسم و الزخرفة.

درج الكعبة الداخلية الموصلة إلى سطحها

تقدم أن بناء إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، الكعبة لم يكن بالطين ولا بالنورة ولا بالجص، بل كان بالرضم حجارة بعضها فوق بعض، ولم يكن لها سقف ولا باب يقفل، فما دام البناء على هذه الصورة لا سقف للكعبة، فلا تحتاج إلى عمل درجة للصعود إلى سطحها.

فلما كان قصى بن كلاب الجد الرابع للنبي صلى الله عليه وسلم وبنى الكعبة، جعل لها سقفا من خشب الدوم، وجرید النخل، وذلك قبل ولادته، عليه الصلاة والسلام، بنحو مائة وخمسين سنة. ثم صارت بعده بلا سقف إلى أن بنتها قريش.

فلما بنتها قريش سقفتها بخشب الدوم، وجرید النخل أيضا، وبتنها بالطين، ولا يزال إلى اليوم، بناء بعض البيوت بالحجاز، تسقف بجرید النخل وشدوعه، وجعلوا درجة من الخشب، في بطنها من الركن الشامي، يصعد منها إلى ظهرها.

وكان بناؤهم لها قبل البعثة بخمس سنين على الأشهر، أي بعد ولادة النبي صلى الله عليه وسلم بخمس و ثلاثين سنة.

ثم لما بنى عبد الله بن الزبير، رضى الله تعالى عنهما، الكعبة سنة أربع وسبعين من الهجرة، جعل في داخلها درجة، في ركنها الشامي، على يمين الداخل يصعد فيها إلى سطحها، جعلها من خشب معرجة.

فلما هدم الحجاج بن يوسف الثقفي ما زاده ابن الزبير في الكعبة، من جهة حجر إسماعيل، كان من ضمن ما هدم الدرجة التي بناها ابن الزبير في تلك الجهة، فلما بناها الحجاج بنى أيضا درجة في باطنها، في ركنها الشامي، على يمين من دخلها أيضا. وقد بقيت عمارة الحجاج للكعبة، إلى زمن السلطان مراد الرابع،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٤٤

ففي عهده هدمت من أثر السيل الكبير، الذي دخل المسجد الحرام، فبناها بناية جديدة محكمة سنة ألف وأربعين من الهجرة وهي العمارة الموجودة في زماننا هذا.

فاعلم مما تقدم، أن عمل الدرجة الداخلية للكعبة، كان منذ عمل السقف لها لأول مرة، كما هو المعقول، وأن موضع درجتها هو الركن الشامي، على يمين الداخل فيها، منذ بناء قريش الكعبة إلى الآن.

ولقد وصف الإمام الأزرقى، المتوفى في منتصف القرن الثالث الهجرى، في تاريخه، درجة الكعبة الموصلة لسطحها التي كانت موجودة في زمانه فقال:

وفي الكعبة، إذا دخلتها على يمينك درجة، يظهر عليها إلى سطح الكعبة، وفي مربعة مع جدرى الكعبة، في زاوية الركن الشامي منها، داخل في الكعبة من جدرها، الذى فيه بابها، ثلاثة أذرع ونصف، وذرع الجدر الآخر الذى يلي الحجر ثلاثة أذرع ونصف، وذرع باب الدرجة في السماء ثلاثة أذرع ونصف، وذرع عرضه ذراع ونصف، و بابها ساج فرد أعسر، وهو في حد جدار الكعبة، وكان ساجه باديا ليس عليه ذهب ولا فضة، حتى أمر به أمير المؤمنين، المتوكل على الله، فضربت على الباب صفائح من فضة، وجعل له غلق من فضة، في المحرم سنة سبع و ثلاثين و مائتين.

وعلى الباب ملبن ساج، ملبس فضة، وفي الباب حلقة فضة، وعلى الباب قفل من حديد فى الملبن، الذى يلي جدار الكعبة، و باب الدرجة عن يمين من دخل الكعبة مقابله، وطول الدرجة فى السماء من بطن الكعبة عشرون ذراعا، و عدد أضفارها ثمانية وأربعون ضفرا، وفيها ثمان مستراحات، و عرض الدرجة ذراع و أربع أصابع، و فى الدرجة ثمانى كواء داخله فى الكعبة، منها أربع حيال الباب، و أربع حيال الأستوانة، التى تلى الجدر الذى يلي الحجر، و على بابها، الذى يلي سطح الكعبة، باب ساج طوله ذراعا و نصف، و عرض ذلك الباب ذراعا.

انتهى من الأزرقى.

ويظهر من الكلام الآتى، أن درجة الكعبة، التى كانت من عمل الحجاج الثقفى، و التى كانت موجودة فى زمن الأزرقى قد تلفت و غيروها بأخرى، فقد قال الغازى فى تاريخه: و من ذلك ما ذكره السنجارى فى حوادث سنة تسع و مائة و ألف: و لما كان يوم

الخميس، سادس محرم منها، طلع مولانا الشريف و القاضي المتولى فى هذه السنة، و جماعة من الفقهاء، و حضرة البيك صاحب جدة، و أشرفوا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٤٥

على سطح الكعبة، و حقق المهندسون خراب السقف، عند القاضى، بموجب الأمر الوارد من الأبواب، و لما كان يوم الأحد، ثالث عشر محرم، شرعوا فى إصلاح سقف الكعبة فأخرجوا السقف المنكسر، و ظهر أن الدرجة الصاعدة إلى السطح محتاجة إلى التعمير، فاستمر العمل فيها و غيروا الدرجة، و جعلوا فيها سبع درج رخام، و الباقى من خشب الساج، و فرغوا منها أوائل ربيع الأول، و ذبح صاحب جدة، يوم فراغ العمارة، نحو من أربعين شاة، و فرقها على المساكين، و فرق شيئاً من الدراهم على فقهاء المكاتب بالحرم و بعض الفقهاء. انتهى من تاريخ الغازى.

عدد درج الكعبة التى بداخلها

لقد أحصينا بأنفسنا درج الكعبة، التى فى بطنها، الموصلة إلى سطحها، فى يوم تغيير سقف الكعبة، و ذلك فى اليوم الثامن عشر من شهر رجب سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف هجرية، فكان عدد الدرج خمس و ثلاثون درجة، بعضها من المرمر، و بعضها من الخشب، فعدد الدرج المرمر ثلاث عشرة درجة، و ما بعدها من الدرج إلى سطحها، فكلها من الخشب الساج القوى الغليظ، و عدد هذه الدرجات الخشبية اثنتان و عشرون درجة. و يختلف عرض الدرج، فبعضها ثلاثة و ستون سنتيمترا، و بعضها خمسة و ستون، و بعضها سبعون، و بعضها خمسة و سبعون سنتيمترا. و أما ارتفاع الدرج فمختلف أيضاً، فبعضها ٢٤ سنتيمترا، إلى ٣٥ سنتيمترا. لذلك كان محل الدرج ضيقاً، فلا يمكن الصعود عليها، إلا رجلا رجلا، و لا لزوم إلى توسعتها، لندرة الصعود عليها، فلا يصعد عليها إلا مرة واحدة فى كل عام، و ذلك لإلباس الثوب على الكعبة وقت الحج، أو إذا احتاج الأمر إلى إصلاح شىء فوق السطح. و صفة درجها تختلف عن صفة درج المنارة، فدرج المنارة حلزونية و دائرة عليها من أعلاها إلى أسفلها، و أما درج الكعبة، فإنك تطلع، على كل بضعة من الدرج باستقامة واحدة، ثم تلف قليلاً و تصعد باستقامة معتدلة أيضاً بضعة درج أخرى، و هكذا حتى تصل إلى سطحها.

و فى الدرج درابزين من الخشب، من بعد البسطة الثالثة إلى السطح، لحفظ الصاعد من الوقوع، و لهذا الدرج باب من داخل الكعبة بمصراع واحد «أى درفة»

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٤٦

واحدة» يسمونه الناس باب التوبة، و على هذا الباب قفل عادى، و مغطى بستارة تشبه ستارة باب الكعبة من الخارج، و على فتحة هذه الدرج، التى هى فوق السطح، غطاء محكم من المعدن، و ذلك لسد الفتحة، صيانة من نزول ماء المطر منها إلى داخل الكعبة. و قبل الوصول إلى السطح من الدرج المذكورة، بنحو قامه، توجد فتحتان صغيرتان: إحداهما أمام الصاعد و الأخرى على يساره، و لكل منهما باب صغير من الخشب، و الفتحتان تدخلان إلى ما بين سقفى الكعبة.

اللهم اعف عنا و اغفر لنا و ارحمنا و نجنا من النار، و ارفع درجاتنا فى الدنيا و الآخرة، و نسألك اللهم الدرجات العلا فى الجنة و نعوذ بك من النار بفضلِكَ و رحمتِكَ يا أرحم الراحمين، و صلى الله على نبينا «محمد» و على آله و صحبه و سلم.

وصف درج الكعبة فى عصرنا

درج الكعبة الداخلىة الموصلة إلى سطحها، واقعة فى الركن، الذى على يمين الداخل للكعبة، أى فى الركن الشمالى مما يلى باب الكعبة، و هذه الدرج محجوبة فى البناء، غير ظاهرة، و لها باب عليه قفل خاص يقفل و يفتح، و ليس فيها شباك أى طاقة و لا منفذ،

لذلك صارت الدرج ظلما، يحتاج الصاعد إلى سطح الكعبة، إلى السراج والضوء، و مسبل على باب الدرج، ستاره حريرية جميلة، مكتوبة و منقوشة بالذهب و الفضة.

فالدرج مبنية على أربعة جدران، اثنان منها أصل جدار الكعبة و هما:

جدار وجه الكعبة، و جدار حجر إسماعيل، و الجداران الآخرا، مبنيان للدرج، من داخل الكعبة، من أرضها إلى سطحها، فعرض الجدار الأول من هذين الجدارين، الذى فيه باب الدرج، متران و خمسة و عشرون سنتيمترا، و عرض الجدار الثانى المتصل به، متر واحد و نصف متر.

و قد أخذنا هذا القياس حينما تشرّفنا بدخول بيت الله الحرام فى صباح يوم الجمعة الموافق للتاسع و العشرين من شهر جمادى الأولى سنة (١٣٧٧) سبع و سبعين و ثلاثمائة و ألف هجرية، نسأل الله تعالى عفوه و عافيته و غفرانه و رحمته

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٤٧

و فضله و إحسانه، إنه بعباده لطيف خبير، و بإجابة دعائهم و قبول تضرعهم لجدير.

و صلى الله على النبي الأُمى «محمد» و على آله و صحبه و سلم.

روازن الضوء فى سطح الكعبة

لم يكن فى سقف الكعبة قبل بناء ابن الزبير، رضى الله تعالى عنهما، روازن، فلما هدمها و بناها من جديد، جعل فيها أربع روازن، يدخل الضوء منها لجوف الكعبة المشرفة، و الروازن جمع روزنة بفتح الراء و الزاى و هى الكوة، و هى معرّبة كما فى مختار الصحاح. قال الأزرقى فى تاريخه: قال أبو الوليد: و فى سقف الكعبة أربع روازن: منها روزنة حيال الركن الغربى، و الثانية حيال الركن اليمانى، و الثالثة حيال الركن الأسود، و الرابعة حيال الأستوانة الوسطى، و هى التى تلى الجدار بين الركن الأسود و الركن اليمانى. و الروازن مربعة، فى أعلاها رخام يمانى، يدخل منه الضوء إلى بطن الكعبة. انتهى من تاريخ الأزرقى.

و قال أيضا فى موضع آخر: و فى سقف الكعبة أربع روازن نافذة من السقف الأعلى إلى السقف الأسفل، و على الروازن رخام كان ابن الزبير أتى به من اليمن من صنعاء يقال له البلق، و بين السقفين فرجة. انتهى منه.

و البلق بفتحيتين سواد و بياض و كذا البلقة بضم الباء و سكون اللام كما فى مختار الصحاح.

نقول: و هذه الروازن الأربعة كانت باقية فى سطح الكعبة إلى سنة (٨٤٣) ثلاث و أربعين و ثمانمائة، ففى هذه السنة المذكورة، عمل الأمير سودون المحمدى، بأمر الملك الأشرف برسباى، بعض تعميرات فى المسجد الحرام، و فى الكعبة المشرفة، فأصلح حجارة داخل الكعبة، و أخرج الروازن الأربعة من السطح، التى كانت تستعمل للضوء، و سدّ محلها من السطح، حتى لا يدخل شىء من المطر إلى جوفها، و جدد سقف الكعبة، فلم يبق بعد ذلك أثر مطلقا للروازن الأربعة إلى اليوم، و قد انتهى من عمل التعميرات و الإصلاحات فى اليوم الثانى عشر من شهر صفر من السنة المذكورة. و قد ذكر هذا فى كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة» بصحيفة (٢٣٥)، و فى كتاب «الجامع اللطيف» لابن ظهيرة القرشى بصحيفة (٤٨).

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٤٨

نقول: و ليس فى سطح الكعبة اليوم روازن تضىء جوف الكعبة مطلقا، ما عدا روزنة واحدة «أى فتحة واحدة» بجهة الميزاب فوق درجتها الداخلية، و لها غطاء محكم، تفتح عند الصعود من الدرجة إلى السطح، فلا يدخل منها الضوء و لا المطر داخل الكعبة؛ لأنها لم تجعل لذلك و إنما جعلت منفذا للسطح فقط.

الأعمدة الثلاثة التى بداخل الكعبة

مما لا يخفى أن الأعمدة توضع في داخل البيوت أو الغرف لحمل سقوفها، وبيت الله الحرام لما بناه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لم يجعل له، سقفا، لأنه بناه بالرضم أي حجارة بعضها فوق بعض، بدون طين ولا نورة، و لم يكن له باب أيضا. إذا ما دامت الكعبة في عهده لا سقف لها فلا تحتاج إلى أعمدة في داخلها.

فلما بنتها قريش و سقفتها سقفا مسطحا. جعلوا فيها ست دعائم في صفين، في كل صف ثلاث دعائم، من الشق الشامي، الذي يلي حجر إسماعيل عليه السلام، إلى الشق اليماني لتحمل سقفيها، و نقصوا من عرضها، من جهة حجر إسماعيل، ستة أذرع و شبرا، لقلّة النفقة الحلال، التي جمعوها لعمارتها، و جعلوا ارتفاع الكعبة، من خارجها، من الأرض إلى أعلاها، ثمانية عشر ذراعا، و كانت قبل ذلك تسعة أذرع، و رفعوا بابها عن الأرض أربعة أذرع و شبرا، ثم كسوها و جعلوا لها سلما يصعد عليه إلى بطنها، كما ذكره الإمام الأزرقى.

فلما بنى الكعبة عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما، بناها على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فجعلها عريضة، أي زاد من جهة حجر إسماعيل ستة أذرع و شبرا، و هذا المقدار كانت نقصته قريش، حين بناء الكعبة، و زاد في ارتفاعها من الأرض إلى أعلاها تسعة أذرع، فصار ارتفاعها سبعة و عشرين ذراعا، و جعل لها بايين لاصقين بالأرض: أحدهما للدخول و الآخر للخروج، و جعل ابن الزبير في الكعبة ثلاث دعائم فقط في صف واحد، و كانت قريش في الجاهلية جعلت فيها ست دعائم في صفين كما ذكرنا ذلك. و لا ندري لماذا لم يجعل ابن الزبير، رضى الله عنهما، في الكعبة ست دعائم في صفين كما جعلتها قريش، بل كان المعقول أن يجعل فيها ثمان دعائم، لأنه زاد في بنيته لها ستة أذرع و شبرا، من جهة الحجر، فهذه الزيادة كانت تحتاج إلى وضع دعامين. الله تعالى أعلم بذلك. و ربما كان سبب وضع ثلاث دعائم داخل الكعبة لقوة البناء و متانته، فقد قيل: إنه بناها،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٤٩

رضى الله عنه، بالرصاص المذاب، و أما قريش فبنتها بالطين، و كانت قبل ذلك مبنية بالرضم.

قال صاحب الرحلة الحجازية: و بوسط الكعبة من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القاقلى، عليها مقاصير، تركز على حائط الميزاب، من جهة، و حائط الحجر الأسود من أخرى، و قطر كل عمود نحو ثلاثين سنتيمترا، و هذه الأعمدة من زمن عبد الله بن الزبير، و قيمتها أكبر من أن يقدر لها ثمن. انتهى.

و معنى العود القاقلى: أي من عود الهيل، و الهيل: حب عطرى حجمه كحجم حب البنّ و هو يطبخ معه فى القهوة فى الحجاز و يوضع فى الطعام، و يمضغه الناس لطيب النكهة، و يسمونه بمصر «حبّهان» و بعضهم يسميه حب الهال، و لما كان الهيل من العطريات فإن عود شجره يكون ثمين جدا.

و قال الغازى: و فى تذكار الحجاز للشيخ عبد العزيز صبرى: إن فى داخل الكعبة ثلاثة أعمدة من العود الماوردى، قطر الواحد منها ٢٥ سنتيمترا، و هى منصوبة صفا واحدا، فى وسط البيت من الشمال إلى الجنوب. انتهى.

نقول: إن ما ذكره صاحب كتاب الرحلة الحجازية، و صاحب كتاب تذكار الحجاز، من أن الثلاثة الأعمدة الموجودة اليوم بداخل الكعبة و التى وضعها عبد الله بن الزبير، رضى الله تعالى عنهما، من العود القاقلى أو من العود الماوردى، قد يكون غير صحيح، و بعيد الاحتمال، فى نظرنا، و ذلك لأمرين:

الأول: من أين يستحضر ابن الزبير هذه الأعمدة العطرية؟ و لا توجد إلا فى بلاد الهند، و لم تكن سبل المواصلات فى ذلك الزمن سهلة كما هى فى عصرنا.

و الثانى: لا- نعلم هل لشجرة القاقولة «الهيل» أو لأشجار الورد أغصان و أصول غليظة طويلة بحيث يمكن استخراج الأعواد منها للسقوف أم لا، و الظاهر أن أشجارهما قصيرة. و الله تعالى أعلم.

و لقد توهم صاحبا الكتابين المذكورين فطنا أن تلك الأعمدة الثلاثة من العود القاقلى أو العود الماوردى لما لها من الرائحة الزكية، و

أما علمنا فإن هذه الرائحة مكتسبة من كثرة تعطير الكعبة المشرفة، من داخلها و خارجها، و الله تعالى أعلم بالصواب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٥٠

و لقد ذكر الإمام الأزرقى، رحمه الله تعالى فى تاريخه، ذرع ما بين هذه الأعمدة الثلاثة التى سماها بالأساطين، فقال فيه ما نصه:
 و ذرع ما بين الجدار، الذى يلى الركن الأسود و الركن اليمانى، إلى الأسطوانة الأولى، أربعة أذرع و نصف، و ذرع ما بين الأسطوانة الأولى إلى الأسطوانة الثانية، أربعة أذرع و نصف، و ذرع ما بين الأسطوانة الثالثة إلى الأسطوانة الرابعة أذرع و نصف، و ذرع ما بين الأسطوانة الثالثة إلى الجدار الذى يلى الحجر ذراعان و ثمانى أصابع، و بين الأساطين من المعاليق سبعة و عشرون معلاقا، و المعاليق فى ثلثى الأساطين، و المعاليق فى عمد حديد، و سلاسل المعاليق فضة، و بين الجدار، الذى بين الحجر الأسود و الركن اليمانى إلى الأسطوانة الأولى، أحد عشر معلاقا، و من الأسطوانة الأولى إلى الأسطوانة الثانية ثمانى معاليق، فيها تاجان، و من الأسطوانة الثانية إلى الأسطوانة الثالثة، ثمان و بقيتها مموهة، ثم أمرت السيدة، أم أمير المؤمنين، فى سنة عشر و ثلاثمائة، غلامها لؤلؤا بأن يلبسها كلها ذهباً، و هذه المعاليق على ما وصفنا إلى سنة تسع و ثلاثين و مائتين.

قال الغازى فى تاريخه المخطوط، بصحيفة (١٥٠) ما نصه: و فى سنة ألف و مائتين و واحدة، أرسل مولانا السلطان عبد الحميد الأول خمسين إقة من الفضة، و أمر أن تجعل صفائح مموهة بالذهب، و يطوّق بها بعض العواميد، التى فى داخل الكعبة المعظمة، ففعلوا ذلك و طوّقوها بحضور الشريف سرور، و حضور الوزير شيخ الحرم المكى، و هو والى جدة، و بقیة المأمورين من رجال الدولة. ذكره السيد أحمد دحلان فى سالنامته. انتهى منه.

نقول: المراد بقوله "و يطوّق بها بعض العواميد التى فى داخل الكعبة المعظمة" نفس الأعمدة الثلاثة التى هى من عهد عبد الله بن الزبير، رضى الله تعالى عنهما، بدون شك، إذ لا يوجد، فى جوف الكعبة، غير هذه الأعمدة الثلاثة الأثرية الباقية من ذلك العهد إلى اليوم.

و لقد حصل فى هذه الأعمدة الثلاثة المباركة ما يقتضى إصلاحها، فأصلحت فى عهدنا الحاضر، كما ذكره الشيخ حسين باسلامة، رحمه الله تعالى، فى كتابه «تاريخ الكعبة المعظمة» حيث قال فيه ما نصه:

و مما حصل من المرمّات المذكورة، أنه وقع فى سنة (١٣٣٢) اثنتين و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف، فى أسفل الأعمدة الخشب الثلاثة، التى بداخل الكعبة المعظمة،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٥١

القائم عليها بساتل سقف الكعبة، أشطاب و تصديع، حصل ذلك من مياه غسيل الكعبة، و من دخول السيول إلى جوفها، لأن هذه الثلاثة الأعمدة هى من عهد الخليفة عبد الله بن الزبير بن العوام، رضى الله تعالى عنهما، فأعلم رئيس السدنة، المرحوم الشيخ محمد صالح الشيبى أمير مكة الشريف الحسين بن على بذلك، فحضر الشريف الحسين المشار إليه إلى الكعبة فى ضحوه يوم الاثنين الموافق ١٣ ربيع الأول من السنة المذكورة، و كان فى استقباله بالكعبة رئيس السدنة المذكورة و السادن الثانى الشيخ عبد القادر بن على الشيبى و بعض السدنة. ثم أحضروا بعض أهل الخبرة من النجارين، و كنت أنا مؤلف هذا الكتاب ممن حضر بمعیه رئيس السدنة المشار إليه، فتقرر عمل أخشاب أشبه بالطاب، على طول القامة، تحاط بأسفل كل عامود من الأعمدة الثلاثة، و تسمر فيها بغاية الإلتقان، فعمل ذلك فعلا، و هى لا تزال على هذه الحالة إلى اليوم، انتهى من كتاب تاريخ الكعبة المعظمة. قوله: «على هذه الحالة إلى اليوم...» أراد المؤلف باليوم عهده و زمانه الذى هو عصرنا هذا فإنه رحمه الله تعالى طبع كتابه المذكور سنة (١٣٥٤) هجرية.

و نقول أيضا: إنه لما أسعدنا الله عز و جل بدخول بيته الحرام فى يوم الاثنين لثمان عشرة خلت من شهر رجب سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف، نظرنا إلى الثلاثة الأعمدة الخشبية الموجودة فى الكعبة المعظمة من عهد عبد الله بن الزبير، رضى الله تعالى عنهما، فوجدناها أنها من الأخشاب الجيدة القوية النادرة، و لا نبالغ إن قلنا: إنه لا يوجد مثلها قط اليوم، بتيّة اللون تميل إلى السواد

قليلا لوجودها داخل الكعبة و عدم تعرضها للضوء و الشمس، و قد ظهر عليها القدم لمرور السنين، و الغالب أنه من الخشب الأبوس، و هو كما قال في المنجد: شجر عظيم صلب العود أسوده، أو أنها من خشب الساج الذى كان يستعمل بكثرة فى ذلك الزمان، قال فى المنجد: الساج شجر عظيم صلب الخشب.

و محيط كل عامود منها متر واحد و نصف المتر، و لكل منها قاعدة مربعة خشبية منقوشة بالحفر على الخشب، و بين كل عامود متران و ٣٥ سنتيمتر، و بين العامود الذى بقرب الجدار من جهة حجر إسماعيل و الجدار متر واحد، و بين الأعمدة الثلاثة، و كذلك ما بينها و بين الجدارين المتقابلين - جدار ما بين الركنين

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٥٢

و الجدار الذى فى جهة حجر إسماعيل عليه السلام - مداد معلق فيه قناديل و مباخر فضية متنوعة، مهداة إلى الكعبة المعظمة. و يمتد على الأعمدة الثلاثة حامل، يمتد طرفاه إلى داخل الجدارين المذكورين، و هو مكسو مثل كسوة السقف و الكسوة الداخلية للكعبة.

و هذه الأعمدة الثلاثة مرتفعة إلى السقف الأول، الذى يلى داخل الكعبة، و لا ينفذ من هذا السقف إلى السقف الأعلى، الذى يلى السماء، و لكن جعلت عدة أخشاب بعضها فوق بعض، على رؤوس هذه الأعمدة الثلاثة، من داخل السقفين، إلى أن تصل إلى السقف الأعلى، فتكون هذه الأعمدة الثلاثة بهذه الصفة حاملة للسقفين المذكورين.

عدد أعواد سقف الكعبة

ذكر الغازى فى تاريخه عند الكلام على بناء السلطان مراد الرابع الكعبة فى سنة (١٠٤٠) ألف و أربعين من الهجرة ما نصه: و فى يوم الأحد شرعوا فى عمل خشب السقف و نشر صفايحه، و أخبرنى شيخ المعلمين للنجارة، أنه أربع فجوات و كل فجوة اثنان و عشرون عودا، فىكون مجموع أعواده ثمانية و ثمانين عودا، عدد ما كان فيها أولا، و على الأعواد صفائح أخشاب مسمره عليها من ظهرها. انتهى ما ذكره الغازى.

نقول: إنه فى صباح يوم الاثنين لثمانى عشرة خلت من شهر رجب سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف، أسعدنا الله تعالى بفضلله و رحمته بدخول بيته الحرام، و تشرّفنا بالصعود إلى سطحه، و دخلنا بين السقفين للكعبة فرأينا أعواد السقف الأول و أعواد السقف الثانى كثيرة، لكن لا ندرى هل هى كما ذكره الغازى أم لا، فإننا ما أحببنا المكث بين السقفين كثيرا لعدّ أعوده، تأدبا و احتراما، و لا يوجد ثقل على السقف الثانى مطلقا، حيث ليس عليه شىء، بخلاف السقف الذى فوقه، المقابل للسماء، فإن الناس يطلعون عليه، لربط الكسوة الجديدة لكل عام، كما أنه مبلط بالرخام الأبيض حتى لا ينفذ منه ماء المطر إلى داخل الكعبة.

و المسافة بين السقفين هى (١٢٠) مائة و عشرون سنتيمترا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٥٣

الإصلاحات و الترميمات فى الكعبة المشرفة

لقد وقع كثير من الترميمات و الإصلاحات فى الكعبة المشرفة، و نحن ننقل ذلك باختصار، من كتاب «مرآة الحرمين» و من كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة» و ذلك من بعد بناء ابن الزبير و الحجاج، فنقول و بالله الحول و القوة:

أرسل الوليد بن عبد الملك، من الشام، الرخام الأحمر و الأخضر و الأبيض، ففرشت به و أزرمت جدرها من الداخل، و لما انفتح الجدار الشمالى، الذى أقامه الحجاج من بقية البناء، رمم ذلك بالجص الأبيض، و كان مقدار الفتح نصف إصبع.

و بعد سنة مائتين، رفعت الفسيفساء، التى كان معمولا بها سطح الكعبة، لأنها ما كانت تمنع مياه المطر أن تتسرب إلى داخلها، و وضع

مكانها المرمر المطبوخ بالجص.

و في سنة إحدى و أربعين و مائتين، في زمن المتوكل، قلعت العتبة السفلى لباب الكعبة، و كانت قطعتين من خشب الساج، اندثرتا من طول الزمان، و أبدل بها قطعة من خشب الساج، و ألبس صفائح الفضة، و كذلك جدد المتوكل رخام الكعبة، و أزرها بالفضة، و ألبس سائر حيطانها و سقفها الذهب.

و في سنة اثنتين و أربعين و خمسمائة أصلح، من قبل الوزير جمال الدين الجواد، سقفها و المدرج، الذي في بطنها، و كذلك أصلح رخامها، حوالي سنة خمسين و خمسمائة من قبل الوزير المذكور أيضا.

و في سنة تسع و خمسين و خمسمائة أصلح الركن اليماني، في عهد الفاطميين، و في سنة تسع و عشرين و ستمائة عمل بعض إصلاحات في الكعبة المستنصر العباسي، و في سنة ثمانين و ستمائة جدد رخامها الملك المظفر صاحب اليمن.

و في سنة أربع عشرة و ثمانمائة أصلح بعض سقفها و روازنها، و ذلك عقب مطر عظيم، و في سنة خمس و عشرين و ثمانمائة، و التي بعدها أيضا، أمر الملك الأشرف برسباي بإصلاحات جزئية في سقفها و روازنها و رخامها و الأخشاب، التي فيها حلق الحديد، التي تربط بها الكسوة، و في سنة تسع و تسعمائة زمن السلطان سليمان حصل ترميم في الكعبة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٥٤

و في زمن السلطان أحمد الأول، الذي تولى السلطنة سنة اثنتي عشرة و ألف، حدث بعض التصدع في جداريها الشرقي و الغربي، و في جدار حجر إسماعيل، فأراد هدمها، فمنعه علماء الروم و أشاروا عليه بعمل نطاق يلم التشعب، فعمل نطاقين من نحاس أصفر مغلف بالذهب، فركب النطاق السفلي على الكعبة، في ليلة السبت ١٢ محرم سنة (١٠٢٢)، و وضعت له أعمدة ثبت أسفلها بالرصاص في الشاذروان، و في ليلة الأحد شرعوا في وضع النطاق العلوي حتى أتموه.

و في سنة تسع و ثلاثين و ألف انهدمت الكعبة، ما عدا الجهة اليمانية، بسبب نزول المطر الغزير، و دخول السيل، إلى المسجد الحرام، فجدد بناءها السلطان مراد خان الرابع، فتم بناؤها سنة أربعين و ألف.

قال صاحب «تاريخ الكعبة المعظمة» ما يأتي:

و أما ما وقع من الترميمات، بعد عمارة السلطان مراد خان، فقد ذكر الطبري المكي في «الإتحاف» أنه في سنة (١٠٤٥) خمس و أربعين و ألف، ورد المعمار رضوان بك، لعمارة سقف الكعبة، و كان الشريف عرض ذلك إلى السلطان، لما أخبره الحجة- آل الشيباني- و المهندسون بذلك، فجاء الأمر بإصلاح ما تحتاج إليه، و أن يحدد بابها، و يرسل بالبواب العتيق إليه. فلما وصل رضوان بك المذكور إلى مكة عقد مجلسا بالحرم الشريف، و حضر البكري و قاضي المدينة حنفي زاده، و حضر أمير مكة و الفقهاء، و بعد أن قرأوا القرآن، قاموا إلى الكعبة و أشرفوا على ذلك، و شرع المعمار الأمير رضوان بك في عمله، في أوائل شهر المحرم من السنة المذكورة، و فرش سطح الكعبة الشريفة بالرخام الأبيض.

و من ذلك ما ذكره السنجاري، في «مناجح الكرم»: أنه في يوم الخميس غرة ربيع الثاني سنة (١٠٩٩) تسع و تسعين و ألف هجرية، عمر محمد بك شيئا من أخشاب الكعبة، و طلعوا أرتالا- من جدة، جعلوها حول الكعبة من الخارج، و ركبوا الكسوة فيها، لتغيير إفريز السطح، من التي تربط فيه الكسوة، فإنه استأكل فيه، و جددوا رفرق مقام الشافعي، لخلل وقع فيه، و لم يزلوا إلى أن خلصوا منه. و روى أيضا، أنه في يوم الجمعة ١٩ محرم الحرام سنة (١١٠٠) ألف و مائة ه طلع الشريف، أمير مكة، سطح الكعبة للإشراف على إفريز الكعبة، التي تربط فيه الكسوة، لإخبار المعلمين له، بأنه استأكل، و يحتاج إلى تغيير. و قد جاء الأمر من السلطان لعمارة ما يحتاج إليه من الكعبة، و إبلاغه ما يصرف على ذلك،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٥٥

فاتفق أن وجبت الجمعة، و دخل الخطيب و هو أي الشريف في الكعبة فصلى في جوفها.

و ذكر أيضا أنه في اليوم السادس من ذي القعدة سنة (١١٠٦) ست و مائة و ألف نزل الشريف أمير مكة، و فتحت الكعبة له، و أشرف على جدار بها، يحتاج إلى ترميم، و تبادل خشبة في الكعبة، فأمر بذلك، و تمت الخشبة يوم ٧ ذي القعدة من هذه السنة. و ذكر في حوادث سنة ١١٠٩ أنه لما كان يوم الخميس ٦ محرم طلع الشريف أمير مكة، و القاضي المتولى في هذه السنة، و جماعة من الفقهاء، و متصرف جدة، و أشرفوا على سطح الكعبة، و حقق المهندسون خراب السقف، عند القاضي، بموجب الأمر العالي، و لما كان يوم الأحد ١٣ محرم شرعوا في إصلاح سقف الكعبة، فأخرجوا السقف المنكسر، و ظهر أن الدرجة المصعدة إلى السطح محتاجة إلى تعمیر، فاستمر العمل فيها، و غيروا الدرجة، و جعلوا فيها سبع درج رخام، و الباقي من خشب الساج. فرغوا منها أوائل ربيع الأول، و ذبح صاحب جدة، يوم فراغ العمارة، نحو من أربعين شاة، و فرقها على المساكين و فرق شيئا من الدراهم على فقهاء المكاتب بالحرم و بعض الفقهاء.

و في يوم الخميس ٢٦ ذي الحجة سنة (١١١٨) ثمانى عشرة و مائة و ألف حضر إيواز بك، من جدة إلى مكة، و اجتمع بشريف مكة و أميرها و القاضي و أمير الحاج غيطاس بك، و فتح لهم الشيخ «محمد الشيبى» الكعبة للنظر فيما تحتاجه من التعمير و الترميم فأجروا جميع الإصلاحات اللازمة.

و في يوم السبت ١٤ ذي القعدة سنة (١١٣٦) ست و ثلاثين و مائة و ألف، ورد أمر سلطاني، يتضمن ترميم الكعبة و المسجد الحرام و المدرسة السلطانية، فدخل الكعبة أمير مكة و قاضيها و بعض العلماء، فرأوا موضع الخراب بها، و أحضروا المعلمين و البنائين، و صاروا يأخذون بأيديهم أواني الجبس و النورة و يناولونها المعلمين ساعة من النهار.

و نقل الشيخ عبد الله غازى، عن بعض علماء مكة، أنه فى سنة (١٢٠١) سنة واحد و مائتين و ألف، أرسل السلطان عبد الحميد الأول خمسين إقه من الفضة، و أمر أن تجعل صفائح مموهة بالذهب، و يطوق بها بعض العواميد، التى فى داخل الكعبة المعظمة، ففعلوا ذلك و طوقها بحضور أمير مكة الشريف سرور، و بحضور الوزير شيخ الحرم المكى، و هو والى جدة و بقية المأمورين و رجال الدولة. انتهى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٥٦

و لم يوجد لهذه الصفائح فى العصر الحاضر أثر و لم أفق على خبر نزعها و متى كان.

و فى سنة (١٢٥٣) ثلاث و خمسين و مائتين و ألف أصلحوا فرش الكعبة، و فرشوا فيها الحجر المرمر، الذى جاء من استانبول، و فى سنة (١٢٥٩) تسع و خمسين و مائتين و ألف أصلحوا الأحجار، التى حول الحجر الأسود، و كذلك بعض أحجار باطن الكعبة، و فى سنة خمس و تسعين و مائتين و ألف فرش سطح الكعبة بالألواح المرمر، و فى سنة سبع و تسعين و مائتين و ألف جدد فرش الكعبة، و غير بعض أخشاب سقفها، و أصلح بعضها، كما ذكره مدير الحرم المكى السابق، أمين أفندى أمصلى «أما سية لى» فى رساله ألفها باللغة التركية، فى بيان خدمات آل عثمان للحرمين الشريفين.

و فى سنة (١٣١٦) ست عشرة و ثلاثمائة و ألف، فى عهد الشريف عون الرفيق، تسرب من سقف الكعبة إلى جوفها شىء من ماء المطر، و مكث فيها حتى ظهرت منها رائحة كريهة بسببه، فلما بلغ ذلك رئيس السدنة الشيخ «محمد صالح الشيبى»، و كان بالطائف، أرسل ابنه، الشيخ محمد، إلى مكة، ففتح الكعبة فأزالوا الماء المستقع، و أصلحوا الرخام المتصدع. فى سطح الكعبة، و سدوا مواقع الخلل سدا محكما، و دام العمل نحو نصف شهر.

و فى سنة (١٣٢٨) ثمان و عشرين و ثلاثمائة و ألف فى عهد الشريف «الحسين بن على بن محمد بن عون» ملك الحجاز الأسبق، حصل وهن فى المربيع الخشب، بسطح الكعبة، التى يعلق فيها ثوب الكعبة، فأبدلوا تلك الأخشاب بأربعة مربيع من خشب، أتوا بها خصيصا لذلك، بواسطة رئيس السدنة، الشيخ «محمد صالح الشيبى» و ذلك لتعذر وجود مثل تلك الأخشاب بالحجاز.

و فى سنة (١٣٣٢) اثنتين و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف حصل فى أسفل الثلاثة الأعمدة الخشب، التى بجوف الكعبة، و التى هى باقية من

عهد «عبد الله بن الزبير»، رضى الله تعالى عنهما، تصدع و تشقق بسبب غسيل الكعبة، و دخول السيول إلى جوفها، فعلم بذلك الشريف «الحسين بن علي» أمير مكة في ذلك الوقت، فحضر إلى المسجد الحرام في ضحوة يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول من السنة التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٥٧

المذكورة، و كان في استقباله رئيس السدنة الشيخ «محمد صالح الشيبى» و بعض السدنة و فتحوا له الكعبة الشريفه، و حضر بعض أهل الخبرة من النجارين، فأحاطوا كل عمود من الأعمدة الثلاثة، من أسفلها بأخشاب طوال، على قدر القامة، و سمروها فيها بغاية الإتقان، فهي لا تزال إلى اليوم على هذه الحالة. انتهى من «تاريخ الكعبة المعظمة».

نقول: و في يوم ٢٦ شعبان سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية قطعوا الرؤوس المزخرفة فقط، لهذه الأخشاب الطوال، التي تحيط بكل من الأعمدة الثلاثة المذكورة، ثم إنه في أوائل شهر شوال من سنة ١٣٧٧، ركبوا تسعة أطواق من الفضة، محيطة بالثلاثة الأعمدة المذكورة، لكل عامود ثلاثة أطواق، زيادة في استمسكها و تقويتها. نقول: و ما يظنه بعضهم بأنه حصل ترميم قليل بأعلى الركن الشرقى للكعبة المشرفة، و ذلك في شعبان سنة ١٣٣٤ هجرية، بسبب وصول شظية من المدفع، الذي رمى من قلعة أجياد، أيام حرب الشريف حسين بن علي مع الحكومة التركية فليس ذلك بصحيح. و إنما وقع هو أنه في عصر يوم ٢٣ شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٣٤) ألف و ثلاثمائة و أربع و ثلاثين هجرية، بينما الحرب دائرة، بين الشريف حسين المذكور و بين الأتراك المتحصنين في القلعة، التي على جبل أجياد، وقعت شظية من المدافع، التي كانت ترمى من القلعة المذكورة على جنود الشريف، في ثوب مكة المعظمة، بقرب حزامها المكتوب من جهة الركن الأسود، فظهر الدخان من الثوب، ففزع الناس و أسرع فضيلة الشيخ محمد بن محمد صالح الشيبى «رئيس سدنة الكعبة» بالحضور إلى المسجد الحرام، و اجتمع الناس عليه، ففتح الكعبة المشرفة، و صعدوا إلى سطحها، و أطفأوا النار، التي على الثوب بالماء، إطفاء تاما، ثم نزلوا، و قد وقف الرمي من العسكرين، لما شاهدوا الحريق في ثوب الكعبة، احتراماً و إجلالاً لها، هذا ما حصل على جزء صغير من ثوب الكعبة في هذه الواقعة بدون قصد.

أما نفس الكعبة المطهرة، فلم يحدث لها أى شىء يحتاج إلى ترميم مطلقاً، إلى سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، ففي شهر رجب من هذه السنة، حصل فيها إصلاحات كثيرة، و تغيير تام لسقفها "الأعلى و الأدنى" و ذلك في عهد الحكومة العربية السعودية في عصرنا الحاضر، و إليك تفصيل ذلك في المبحث الآتى، كما شاهدناه بأنفسنا، و وقفنا على عمارتها خطوة خطوة، و جزءاً

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٥٨

جزءاً، و لله الحمد، نسأل الله الغفور الرحيم، رب هذا البيت الكريم، و رب السموات و الأرض و رب العرش العظيم، أن يجعلنا و ذريتنا من سعداء الدارين بفضل و رحمته آمين، و صلى الله و سلم على النبى الأمى أبى القاسم الأمين و على آله و صحبه أجمعين.

سطح الكعبة و أرضها من الداخل

بحمد الله تعالى، لقد تشرفنا بدخول الكعبة المشرفة، و الصعود إلى سطحها العلوى، و ذلك في ضحى يوم الاثنين الثامن عشر من شهر رجب سنة ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف، و إليك وصف سطحها الشريف:

أرض الكعبة من الداخل مرصوفة بحجارة المرمر، و أما سطحها الأعلى مما يلي السماء فمفروش بالحجر الرخام الأبيض الثخين. و السطح محاط بإفريز ارتفاعه إلى ٨٠ سنتيمتراً، من جهة الميزاب، و فى الجهات الأخرى، أقل من ذلك، تبعاً لانحدار السطح إلى جهة الميزاب، و هذا الإفريز مبلط بالنورة.

و فوق السطح مراعى من الخشب و هى الأعواد الغليظة المربعة الطويلة التي تربط فيها كسوة الكعبة المعظمة، و عددها أربعة أعواد، فى كل جهة عود واحد، كل عود لاصق فى الإفريز المحيط بالسطح من الجوانب الأربعة، و كل عود داخل طرفه فى جدار الإفريز بإحكام

تام، حتى لا يتزحزح من موضعه، إذا ربطت فيه الكسوة الثقيلة، وهذه الأعواد الخشبية الحالية وضعت في سنة (١٣٢٨) ثمان و عشرين و ثلاثمائة و ألف، بدلا من الأعواد، التي كانت قبلها و تلفت، كما ذكره الغازي، رحمه الله تعالى في تاريخه فقد قال فيه ما نصه: قال الشيخ حسين باسلامة في «تاريخ الكعبة المعظمة»: ذكر مدير الحرم المكي السابق، أمين أفندي أمصيلي، في رسالة ألفها باللغة التركية، في بيان خدمات آل عثمان للحرمين الشريفين، أنه في سنة (١٢٥٣) ثلاث و خمسين و مائتين و ألف أصلحوا فرش الكعبة و فرشوا الحجر المرمر، الذي جاء من استانبول. و في سنة (١٢٥٩) تسع و خمسين و مائتين و ألف، أصلحوا الأحجار التي حول الحجر الأسود، و كذلك بعض أحجار باطن الكعبة. و في سنة (١٢٩٥) خمس و تسعين و مائتين و ألف، فرش سطح الكعبة بألواح المرمر، و في سنة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٥٩

(١٢٩٧) سبع و تسعين و مائتين و ألف، جدد فرش الكعبة و غير بعض أخشاب سقف الكعبة و أصلح بعضها اه. و في الفتوحات الإسلامية للسيد أحمد دحلان: و في سنة (١٢٩٩) تسع و تسعين و مائتين و ألف، عمّر السلطان عبد الحميد خان في الكعبة المعظمة و فرش باطنها بالرخام اه، و في سنة (١٣١٦) ست عشرة و ثلاثمائة و ألف، في إمارة الشريف عون الرفيق، وقع خراب في فرش الرخام، الذي على سطح الكعبة، فعمل الصنائع لذلك معجونا من النورة و زلال البيض و الإسمنت و غير ذلك، و أصلحوه، و مكث العمل فيه نحو نصف شهر، و في سنة (١٣٢٨) ثمان و عشرين و ثلاثمائة و ألف، حصل خراب و وهن في مرايع الخشب التي يعلق فيها ثوب الكعبة، بسطح الكعبة، فعمل بدلها أربعة مرايع، من خشب خصيصا لذلك، و لا تزال تلك المرايع على حالها إلى اليوم.

و في كتاب «المحمل و الحج» قال ابن فضل الله العمري في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» ما يأتي:

و لما حججت سنة (٧٣٨) ثمان و ثلاثين و سبعمائة، صعدت أنا و أمراء الركب المصري، لتلييس الكعبة الشريفة، حتى كنا على سطحها، فرأيت مبلطا بالمرمر و الرخام الأبيض، و من جوانبه جدر قصار فيها حلق لربط الستور، تجرّ فيها الكسوة بحبال، ثم تربط في تلك الحلق. انتهى من الكتاب المذكور.

و في سنة (١٣٣٢) اثنتين و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف، وقع في أسفل أعمدة الخشب، التي بداخل الكعبة المعظمة، القائم عليها بساتل سقف الكعبة، أشطاب و تصديع، و هذه الثلاثة الأعمدة هي من عهد الخليفة عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما، فأحضروا بعض أهل الخبرة من النجارين، فتقرر عمل أخشاب أشبه بالطاب، على طول القامة، تحاط بأسفل كل عامود، من الأعمدة الثلاثة، و تسمر فيه، بغاية الإتقان. فعمل ذلك فعلا، و هي لا تزال على هذه الحالة إلى اليوم.

انتهى ما في «تاريخ الكعبة المعظمة» بحذف و اختصار. انتهى منه، و إن شاء الله تعالى سيأتي الكلام في محله على تغيير رخام سطح الكعبة و فرشها برخام جديد في عصرنا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٦٠

وصف رخام الكعبة في عصر ابن جبير

يقول ابن جبير الأندلسي في رحلته، التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان و سبعين و خمسمائة هجرية، يصف أرض الكعبة الشريفة، المفروشة بالرخام، و ذلك حينما دخلها في السنة المذكورة، ما يأتي:

و إذا انفتح باب الكعبة كبر الناس، و علا ضجيجهم، و نادوا بألسنة مستهلة:

اللهم افتح لنا أبواب رحمتك و مغفرتك، يا أرحم الراحمين، ثم يدخلون بسلام آمنين.

و في الصفح المقابل للداخل فيه، هو من الركن اليماني إلى الركن الشامي، خمس رخامات منتصبات طولا، كأنها أبواب تنتهي إلى

مقدار خمسة أشبار من الأرض، و كل واحدة منها نحو القامة، الثلاث منها حمر، و الاثنان خضراوان، في كل واحدة منها تجزيع بياض، لم ير أحسن منظرا منه، كأن فيها تنقيط، فتتصل بالركن اليماني منها الحمراء، ثم تليها بخمسة أشبار الخضراء، و الموضع الذي يقابلها متقهقرا عنها بثلاثة أذرع، هو مصلى النبي صلى الله عليه و سلم، فيزدحم الناس على الصلاة فيه تبركا به، و وضعهن على هذا الترتيب، و بين كل واحدة و أخرى القدر المذكور، و يتصل بينهما رخام أبيض، صافى اللون، ناصع البياض، قد أحدث الله، عز و جل، في أصل خلقته، أشكالا غريبة مائلة إلى الزرقة، مشجرة مقصنة، و في التي تليها مثل ذلك بعينه من الأشكال، كأنها مقسومة. فلو انطبقتا لعاد كل شكل يصفح شكله. فكل واحدة شقة الأخرى لا محالة، عندما نشرت انشقت على تلك الأشكال، فوضعت كل واحدة بإزاء أختها، و الفاصل منها بين كل خضراء و حمراء رخامتان، سعتها خمسة أشبار، لا الأشبار المذكورة أو الأشكال فيها تختلف هيأتها، و كل أخت منها بإزاء أختها، و قد شددت جوانب هذه الرخامات تكافيف، غلظها قدر إصبعين من الرخام المجزع، من الأخضر و الأحمر المنقطين، و الأبيض ذى النحيلان، كأنها أنابيب مخروطية، يحار الوهم فيها، فاعترضت، في هذا الصفح المذكور من فرج الرخام الأبيض، ست فرج، و فى الصفح، الذى عن يسار الداخل، و هو من الركن الأسود إلى اليماني أربع رخامات، اثنتان خضراوان و اثنتان حمراوان، و بينهما خمس فرج، من الرخام الأبيض، و كل ذلك على الصفة المذكورة، و فى الصفح، الذى عن يمين الداخل،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٦١

و هو من الركن الأسود إلى العراقى، ثلاث: اثنتان حمراوان و واحدة خضراء، و يتصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض. و هذا الصفح هو المتصل بالركن، الذى منه باب الرحمة، و سعته ثلاثة أشبار و طوله سبعة و عضادته، التي عن يمينك، إذا استقبلته، رخامة خضراء فى سعة ثلثي شبر، و فى الصفح الذى من الشامى إلى العراقى ثلاث: اثنتان حمراوان و واحدة خضراء. و يتصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض، على الصفة المذكورة، و لكل هذا الرخام المذكور طرتان: واحدة على الأخرى، سعة كل واحدة منهما قدر شبرين، ذهب مرسوم فى اللازوردى، قد خط فيه خط بديع، و تتصل الطرتان بالذهب المنقوش على نصف الجدار الأعلى، و الجهة، التي عن يمين الداخل، لها طرة واحدة، و فى هاتين الطرتين بعض مواضع دارسة، و فى كل ركن من الأركان الأربعة، مما يلي الأرض، رخامتان خضراوان صغيرتان، تكتنفان الركنين، و تكتنف أيضا كل ما بين من الفضة الذين فى كل ركن، كأنهما طاقان عضارتان من الرخام الأخضر، صغيرتان على قدر نقيبها، و فى أول كل صفح من الصفحات المذكورة، رخامة حمراء، و فى آخره مثلها، و الخضراء بينهما على الترتيب المذكور، إلا الصفح الذى عن يسار الداخل، فأول رخامة تجدها متصلة بالركن الأسود رخامة خضراء، ثم حمراء إلى كمال الترتيب الموصوف. انتهى من رحلة ابن جبير.

غسل الكعبة المشرفة

لا يخفى أن كل شىء فى الدنيا معرض للتساخ، و الكعبة المعظمة المشرفة مصانة محفوظة عن الأوساخ فلا نوافذ فيها و لا فتحات سوى الباب، بل هى دائما تعطر، من قديم الزمان جاهلية و إسلاما، و لكن قد يطرأ عليها ما يوجب تنظيفها و غسلها من الغبار الذى تأتى به الرياح، و من ازدحام الناس على زيارتها و الدخول فى باطنها، لذلك هى لا تحتاج إلى تنظيف و غسل سوى مرتين أو ثلاثا فى السنة.

و من المعلوم أن الكعبة، من زمان بانيتها الأول، بعد الطوفان، و هو الخليل سيدنا إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، لا تحتاج إلى غسل و تنظيف، لأنها بنيت بالرضم، حجارة بعضها فوق بعض، بدون طين و لا نورة، و لم يكن لها سقف و لا باب من خشب أو حديد، و كانت أرضها الداخلية رملا أو حصباء، فهى الحالة هذه، لا تحتاج إلى غسل و لا تنظيف و يكفى لغسلها من الأتربة نزول المطر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٦٢

عليها، لكن بعد بنائها بالطين و تسقيفها و جعل الباب عليها لا بد من تنظيفها كما تنظف الدور و البيوت. و كان أول من غسل الكعبة رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقد روى عن ابن عمر، رضى الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما دخل مكة، يوم الفتح، أمر بلالا، فرقى على ظهر الكعبة، فأذن بالصلاة، و قام المسلمون و تجردوا فى الأزر و أخذوا الدلاء، و ارتجزوا على زمزم، فغسلوا الكعبة، ظهرها و بطنها، فلم يدعوا أثرا، من آثار المشركين، إلا محوه و غسلوه. اهـ.

قال صاحب كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة»: و هذا رواه السنجارى فى كتاب منائح الكرم، نقلا عن التقي الفاسى، و هو رواها عن الفاكهى. اهـ.

نقول: فمن هنا، جرت العادة بغسل الكعبة من ذلك التاريخ إلى اليوم، و هى تغسل فى العام مرتين، بماء زمزم، مضافا إليه ماء الورد، ثم يطيبونها بالعطر، و يبخرونها بالعود و العنبر و الند، و غالبا يكون ذلك بحضور ولاة الأمور و كبار رجال الدولة. و قد تشرفنا بغسلها و لله الحمد سنة (١٣٦٧) سبع و ستين و ثلاثمائة و ألف، يوم أن فتحوا لنا مقصورة مقام إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، بأمر جلالة الملك المعظم سعود بن عبد العزيز نصره الله تعالى.

قال الغازى فى تاريخه: ذكر الشيخ حسن بن عبد القادر الشيبى فى كتابه «الإتمام على أعلام الأنام» كيفية غسل الكعبة المعظمة فقال: أما غسل الكعبة المعظمة فى السنة فمرتان، مرة فى أواخر ذى القعدة، و فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول مرة. و كفيته أنه فى صباح اليوم المذكور، بعد الإشراق، يفتح سدنة الكعبة المعظمة، و يأتونه بغلاية فيها ماء الورد، و عطر الورد، و بخور العنبر و الند، الذى يأتى مع المحمل الشامى، و يعتمدون بشيلان، يحضرها شيخ السدنة، و من قبل مراسم الغسل، يعطى شيخ السدنة خبرا إلى مولانا أمير مكة المكرمة و رؤساء المأمورين، و تحضر مكانس، من طرف مديرية الأوقاف الهمايونية، بالحرم الشريف المكى، و يأتى شيخ الزمامة بسطول، و يملأ السقاؤون من بئر زمزم، و يأتون بها إلى تحت باب الكعبة المعظمة، و هناك تملأ السطول، و تناول إلى من هو واقف فى باب الكعبة، و يسلمها للذى فى داخلها، و هناك يمسك سيدنا أمير مكة المكرمة فى يده مكنسه، و كذلك إن حضر أحد من أنجال سيدنا الأمير، يستحضر له مكنسه،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٦٣

و كذلك مولانا قاضى مكة المكرمة، و سائر المأمورين، و يغوطون بشيلان، ثم يتبدأ أولا بصب السطول من عند مولانا أمير مكة و أنجاله، ثم تصب السطول و تملأ فى سائر أطراف الكعبة المعظمة للجمع، و تخرج الفارغة من السطول و تدخل ملائنة، و هكذا إلى أن يتم الغسل، ثم يملأ من العطر و ماء الورد فى طاسات، و يدهن بها جدار الكعبة، مولانا الأمير المشار إليه، و حضرات أنجاله، و يبخر بالعنبر و الند حضرة مولانا القاضى، فكل من أراد كذلك، ثم إن سيدنا الأمير، المشار إليه، أحيانا يقذف من المكانس المغسول بها البيت إلى الحجاج الواقفين عند الباب، بحسب التبرك، ثم يدعو لهم أحد السدنة الشيبين دعاء، ثم تختم مراسم الغسل، و يخرجون منها، ثم إن السدنة ينشّفون المبلول بالإسفنج و يزيدون تعطيرا و تبخيرا و يغلقون الباب. انتهى من الغازى.

و قال صاحب كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة» عند غسل الكعبة المعظمة ما يأتى: أما غسل الكعبة، فى العصر الحاضر، فهو يجرى فى العام مرتين: مرة قبل الحج، و مرة بعد سفر الحجاج من مكة، و غالبا يكون الغسل، فى المرة الأولى، فى أواخر ذى القعدة، و ربما كان فى أول ذى الحجة من سنة، و المرة الثانية غالبا يكون غسل الكعبة فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول.

أما كيفية الغسل فإليك تفصيله: و هو أنه فى صباح اليوم المعين لغسل الكعبة المعظمة، يحضر رئيس سدنة الكعبة المعظمة إلى الحطيم، بعد شروق الشمس بلحظة، و معه السدنة آل الشيبى، فيفتح باب الكعبة المعظمة، ثم يأتى أتباع السدنة بقلال فيها ماء الورد، و قوارير فيها عطر الورد، و بالمباخر و العنبر، و العود، و الند، و يؤتى بالأزر، و هى تكون غالبا من النوع الذى يسمى (بالشال الكشميرى) لأجل الاتزار بها حال غسل الكعبة المعظمة.

و قد جرت العادة أن يدعو رئيس السدنة ولاة الأمر من ملوك أو أمراء، أو ولاة، و وزراء الدولة و القاضى، و رؤساء الدوائر، إلى

غسل الكعبة، وقبل حضورهم بلحظة تكون كل مواد الغسل حاضرة، و تحضر مديرية الأوقاف عادة المكناس، و يحضر شيخ الزمامة الموكلين بسقاية الحاج ماء زمزم، سطولا مملوءة من ماء زمزم، إلى الكعبة، فيستلمها منهم السدنة و أتباعهم و يدخلونها الكعبة المعظمة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٦٤

و بعد استكمال كل ذلك، بداخل الكعبة المعظمة، يحضر المدعوون لغسل الكعبة، بداخل الكعبة، و يأخذ كل واحد منهم إزارا فيرتدى به، ثم يحمل المكنسة و يباشر الجميع غسل الكعبة المعظمة بماء زمزم، مضافا إليه ماء الورد، ثم إتمام غسل أرض الكعبة، و بعض أطراف جدارها السفلى، يباشرون مسح جدارها، إلى ارتفاع قامة الإنسان، بماء الورد أولا، ثم يطيونها بعطر الورد، و يوضع ذلك في طاسات من معدن أبيض أو بلور، و بعد انتهاء عمل الطيب بالعطر يضعون العنبر، و العود، و النّد، في مباخر بديعة فاخرة و تبخر بها عموم أطراف الكعبة و جميع جوانبها، بعد تجفيف أرضها بالإسفننج، و بعد إتمام غسل الكعبة المعظمة و تطييبها، يقسم السدنة تلك المكناس على الناس المجتمعين عند باب الكعبة.

و قد حضر جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود غسل الكعبة المعظمة بنفسه عدة مرات، و باشر غسلها بيده الميمونة، و حضر معه في كثير من المرات غسل الكعبة، ولى عهد المملكة العربية السعودية، صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد العزيز و نائبه العام صاحب السمو الملكي رئيس مجلس الوكلاء الأمير فيصل بن عبد العزيز و أصحاب السمو إخوان جلالته الفخام، و بعض أنجاله المباركين و بعض الأسرة الكريمة، و رجال الدولة، و قضاته. انتهى من الكتاب المذكور.

نقول: و لقد سألتنا رئيس سدنة الكعبة المشرفة في وقتنا الحاضر و هو صاحب السيادة و السعادة الشيخ محمد بن محمد صالح بن أحمد الشيبى حينما كنا بمنزله العامر، تلبية لدعوته لنا للغداء، و ذلك يوم السبت السادس عشر من رجب عام ١٣٧٦ هـ سألنا عن عدد المرات التي تغسل فيها الكعبة في السنة، فقال: تغسل الكعبة مرتين في السنة: إحداهما بعد النصف الثاني من شهر شعبان، إما في اليوم الخامس و العشرين منه أو في السابع و العشرين، و ثانيتهما في اليوم السابع من ذى الحجة.

اللهم اغسل خطايانا و أبدل سيئاتنا حسنات بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين. و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٦٥

تلقى الناس لماء المطر تحت ميزاب الكعبة

و بمناسبة الصلاة في الحجر، تحت ميزاب الكعبة، فإن الناس إلى اليوم يتلقون ماء المطر النازل من ميزاب الكعبة، على سبيل البركة، و نذكر هنا ما جاء في رحلة ابن جبير، التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان و سبعين و خمسمائة، فقد ذكر فيها عن ذلك، ما يأتي:

و مما يجب أن يثبت و يؤثر، لبركة معاينة و فضل مشاهدته، أن في يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى، بعد صلاة العصر، و مع العشى، جاء مطر، و تبادل الناس إلى حجر إسماعيل، فوقفوا تحت الميزاب المبارك، متجردين عن ثيابهم، يتلقون الماء الذي يصبه الميزاب برؤوسهم و أيديهم و أفواههم، مزدحمين عليه ازدحاما عظيما، أحدث ضوضاء عظيمة، كل يحرص على أن ينال جسمه من رحمة الله نصيبا، و دعاؤهم قد علا، و دموع أهل الخشوع منهم تسيل، فلا تسمع إلا ضجيج دعاء أو نشيج بكاء. و النساء قد وقفن خارج الحجر، ينظرون بعيون دوامع و قلوب خواشع، يتمنين ذلك الموقف لو ظفرن به، و كان بعض الحجاج المتأخرين المشفقين بيل ثوبه بذلك الماء المبارك، و يخرج إليهن و يعصره في أيدي البعض منهن، فتلقينه شربا و مسحاً على الوجوه و الأبدان. و تمادت تلك السحابة المباركة إلى قريب المغرب، و تمادى الناس على تلك الحال من الازدحام، على تلقي ماء الميزاب بالأيدى و الوجوه و الأفواه، و ربما رفعوا الأواني ليقع فيها، فكانت عشيبة عظيمة، استشعرت النفوس فيها الفوز بالرحمة، ثقة بفضل و كرمه، و لما اقترن بها

من القرائن المباركة: فمنها أنها كانت عشية الجمعة، وفضل اليوم فضله، و الدعاء فيها يرجى من الله تعالى قبوله، لما ورد فيها من الأثر الصحيح، و أبواب السماء تفتح عند نزول المطر، و قد وقف الناس تحت الميزاب، و هو من المواضع التي يستجاب فيها الدعاء، و طهرت أبدانهم رحمة الله النازلة من سمائه، إلى سطح بيته العتيق، الذي هو حيال البيت المعمور. و كفى بهذا المجتمع الكريم و المنتظم الشريف، جعلنا الله ممن طهر فيه من أرجاس الذنوب، و اختص من رحمة الله تعالى بذنوب، و رحمته واسعة تسع عباده المدنيين، إنه غفور رحيم. انتهى من رحلة ابن جبير.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٦٦

و مما يناسب هذا المقام، ما ورد في تاريخ الأزرقى: أن داود بن عجلان طاف مع أبي عقال، في مطر قال: و نحن رجال، فلما فرغنا من سبعنا، أتينا نحو المقام، فوقف أبو عقال دون المقام، فقال: ألا أحدثكم بحديث تسرون به أو تعجبون به؟ قلنا: بلى قال: طفت مع أنس بن مالك و الحسن و غيرهما في مطر، فصلينا خلف المقام ركعتين، فأقبل علينا أنس بوجهه، فقال لنا: استأنفوا العمل فقد غفر لكم ما مضى، هكذا قال لنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، و طفنا معه في مطر. انتهى منه.

نقول: لا يزال الناس إلى اليوم، إذا جاء المطر يقفون تحت ميزاب الكعبة، يتلقون الماء النازل، من سطح الكعبة، بأجسامهم للتبرك، و للمطر عندنا بمكة فرحة و نشوة يستبشر الناس به كثيرا. جاء في كتاب «الأذكار» للإمام النووي ما نصه: روى الشافعي رحمه الله تعالى، في الأم بإسناده حديثا مرسلًا عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «اطلبوا استجابة الدعاء عند التقاء الجيوش و إقامة الصلاة و نزول الغيث».

قال الشافعي: و قد حفظت عن غير واحد طلب الإجابة عند نزول الغيث و إقامة الصلاة. انتهى.

ورد: «ثنتان لا تردان الدعاء عند النداء و تحت المطر» عند النداء أى: الأذان للصلاة، رواه الحاكم في «المستدرک»، قال العزیزى: إسناده ضعيف لكن له شواهد.

و فى صحيح مسلم، عن أنس، رضى الله عنه، قال: «أصابنا و نحن مع رسول الله صلى الله عليه و سلم مطر، فحسر رسول الله صلى الله عليه و سلم ثوبه، حين أصابه المطر، فقلنا: يا رسول الله لم صنعت؟ قال: «لأنه حديث عهد بربه» قال العزیزى: أى بتكوين ربه إياه، و معناه أن المطر رحمة، و هى قريبة العهد بخلق الله تعالى له فيتبرك بها. انتهى.

قال الشيخ الحفنى فى حاشية على العزیزى عند كلمة «و تحت المطر» أى فلا- بد أن يبرز له، و بعضهم قال الأولى ذلك، و إلا فيستجاب الدعاء وقت نزول المطر أشد إجابة من غيره. انتهى.

نقول: إذا كان الدعاء يستجاب عند نزول المطر مطلقا فى أى موضع كان، فإن الدعاء يكون أكثر إجابة و أرجى قبولًا عند نزوله فى الأوقات المباركة و الأمكنة المقدسة، عند الأذان للصلاة، و بين الأذان و الإقامة و عند التقاء الجيوش، و نزوله بمكة، و فى المسجد الحرام حول الكعبة، و بعرفات عشية الوقوف، و نحو ذلك و فضل الله واسع و رحمته عظيمة، و الله تعالى عند حسن ظن عبده به

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٦٧

و الأعمال بالنيات، و الصدق فى الطلب، و الدعاء و الإخلاص فى التضرع، و الخشوع يوجبان القبول و الإجابة.

ميزاب الكعبة و عدده

لما بنى خليل الله إبراهيم عليه الصلاة و السلام، البيت المعظم، بناه على ربوة بالرضم، حجارة بعضها فوق بعض، بدون طين و لا حص و لا إسمنت، و لم يجعل له بابا يفتح و يغلق، و إنما ترك مكانه فتحة، للدلالة على وجه البيت، كما أنه لم يجعل له سقفًا، و ما دام البيت، لا سقف له، فلا يمكن وضع ميزاب عليه، و فائدة الميزاب جريان ماء المطر منه حتى لا يخرب السقف، و حيث لا سقف و لا باب للكعبة المشرفة، فإن المطر ينزل على أرضها، و يخرج من فتحة الباب، و من شقوق حجارة الجدران، التى بالرضم فلا خوف عليها من

المطر، و لم تبني كذلك إلا على الفطرة الأولى، و لعدم وجود أناس كثيرين بمكة المشرفة.

فلما كثر الناس، و تدرجوا في معرفة بعض الأمور، جعلوا للكعبة المعظمة سقفا و ميزابا و بابا يفتح و يغلق، فأول من جعل لها سقفا، بعد سيدنا إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، قصي بن كلاب، الجد الرابع لنبينا محمد صلى الله عليه و سلم، فإنه سقفها بخشب الدوم و جريد النخل حين بناها، ثم صارت بعده بلا سقف، إلى أن بنتها قريش، فسقفتها بخشب الدوم و جريد النخل أيضا، و لا يزال تسقيف بعض البيوت و المنازل في الحجاز إلى عصرنا، بخشب الدوم و جذوع النخل و جريدها.

فيعلم بالضرورة من تسقيف الكعبة المشرفة أنه لا بد من وضع ميزاب على سطحها.

و اعلم أن تغيير ميزاب الكعبة أو تغيير شيء مما يتعلق بها يكون لأمرين: إما أن يكون الميزاب أو الشيء قد اعتراه ضعف أو خراب، و إما أن يكون ذلك بقصد التشرف بخدمة بيت الله الحرام، رجاء المثوبة، من عند الله عز و جل، في كلا الأمرين الأجر و الثواب، فصاحب الخير لا يعدم الخير.

و هنا نذكر ميازيب الكعبة، منذ العهد القديم إلى اليوم، فنقول:

(١) الميزاب الذي وضعه قصي بن كلاب، الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم، و ذلك حينما بنى الكعبة و سقفها، و لم يذكره المؤرخون، لكن نحن ذكرناه استنتاجا من تسقيفه لها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٦٨

(٢) الميزاب، الذي وضعته قريش، حينما بنت الكعبة، قبل نبينا محمد صلى الله عليه و سلم، بخمس سنين على أشهر الأقوال. فبعد تسقيفها جعلوا لها ميزابا، مصبه على حجر إسماعيل، عليه الصلاة و السلام، و لا يزال إلى اليوم، مكان جميع ميازيب الكعبة، التي توضع عليها، هو مكان الميزاب الذي وضعته قريش فيه.

(٣) الميزاب، الذي وضعه عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما، حينما بنى الكعبة و سقفها، و ذلك سنة أربع و ستين من الهجرة.

(٤) الميزاب، الذي وضعه الحجاج بن يوسف الثقفي، فإنه هدم من الكعبة ما زاده ابن الزبير فيها، و هو من جهة حجر إسماعيل، و بالضرورة فقد أزال جميع جدار الكعبة، الذي من جهة الحجر، و الذي فيه ميزاب ابن الزبير، كما أزال من الجدار الشرقي و الجدار الغربي ستة أذرع، من كل منهما فقط، من جهة الحجر، ثم بناها على أساس قريش. فلا بد إذا أنه وضع ميزابا جديدا، بدل ميزاب ابن الزبير، الذي مضى عليه عشر سنين، و كان بناء الحجاج لها سنة أربع و سبعين من الهجرة.

و لم يذكره المؤرخون أيضا، لكن ذكرناه، استنتاجا من واقع الحال.

(٥) الميزاب، الذي وضعه الخليفة الأموي، الوليد بن عبد الملك بن مروان، فقد بعث إلى و اليه على مكة، خالد بن عبد الله القسري، بستة و ثلاثين ألف دينار، جعلها صفائح من الذهب، فيضرب منها على باب الكعبة، و على الأساطين، التي بداخلها، و على أركانها من الداخل، و على ميازيبها.

فالوليد بن عبد الملك هو أول من ذهب البيت في الإسلام، كما هو أول من حلّى الميزاب بالذهب، و كان ذلك سنة (٩١) إحدى و تسعين هجرية حينما أمر بتوسعة المسجد الحرام.

قال الأزرقي: و طول الميزاب أربعة أذرع، و سعته ثمانى أصابع، في ارتفاع مثلها، و الميزاب ملتبس صفائح ذهب داخله و خارجه. و كان الذي جعل عليه الذهب الوليد بن عبد الملك. اهـ.

و قال مؤلف كتاب "المحمل و الحج" عن ميزاب الوليد بن عبد الملك: إنه في سنة خمس و خمسين و أربعمائة، أخذ بنو الطيب هذا الميزاب، و حملوه إلى اليمن، فابتاعه صاحب اليمن الذي امتلك مكة أيضا في السنة المذكورة وردّه إلى مكانه. انتهى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٦٩

(٦) الميزاب، الذي عمله أبو القاسم إبراهيم، المعروف «برامشت» ابن الحسين الفارسي، صاحب الرباط المشهور، بمكة، وصل به إلى

مكة خادمه مثقال، بعد موته، فركب على الكعبة سنة (٥٣٩) تسع و ثلاثين و خمسمائة.

(٧) الميزاب، الذى عمله الخليفة المقتفى بالله، أبو عبد الله محمد بن أحمد العباسى، فركب على الكعبة، بعد قلع ميزاب رامشت، و ذلك فى سنة (٥٤١) إحدى و أربعين و خمسمائة أو فى التى بعدها.

(٨) الميزاب، الذى عمله الشريف رميثة. قال الغازى فى تاريخه، نقلا عن «تحصيل المرام» و هذا عن القرشى، أنه قال "و عمل الشريف رميثة صاحب مكة ميزابا. "اه و لم يزد على ذلك شيئا، و نحن لم نقف فى تاريخ على ميزاب رميثة، إلا على هذه الجملة التى رواها الغازى. و الشريف رميثة، تولى إمارة مكة عشر سنين، مع أخيه حميضة، و خمس سنين مع أخيه عطفة، و تولاها منفردا نحو خمس عشرة سنة، و كان أول توليته مع أخيه حميضة بعد وفاة أبيهما سنة (٧٠١) و توفى رميثة سنة (٧٤٦) فكانت مدة ولايته على مكة ثلاثين سنة. و الله تعالى أعلم بغيبه، فلا ندرى ميزابه كان فى أى سنة.

(٩) الميزاب، الذى عمله الناصر لدين الله، أبو العباس أحمد العباسى، و عمله من الخشب المبطن بالرصاص، فى الموضع الذى يجرى فيه الماء، أى من باطن الميزاب، و أما ظاهره، مما يبدو للناس، فهو مطلى بصحائف الفضة، و كان عمل هذا الميزاب بمعرفة الأمير سودون باشا، أثناء عمارته للمسجد الحرام، و ذلك سنة (٧٨١) إحدى و ثمانين و سبعمائة.

(١٠) الميزاب، الذى عمله السلطان سليمان القانونى، عمله من الفضة المطلية بالذهب، فركب على الكعبة المشرفة بعد قلع الميزاب السابق، و ذلك سنة (٩٥٩) تسع و خمسين و تسعمائة، و أمر السلطان المذكور بنقل الميزاب القديم إلى خزانة الروم، فتعرض له بنو شيبه، فأعطوا فى مقابل ذلك وزنه فضة من بندر جدة.

(١١) الميزاب، الذى ورد من مصر، و كان من الذهب فوضع بدل الميزاب الفضة، و أخذ الأول إلى الخزنة العالية للترك به، و ذلك سنة (٩٦٢) اثنتين و ستين و تسعمائة، ذكره مؤلف كتاب «المحمل و الحج».

استأذنا الفنان يوسف أحمد، مفتش الآثار العربية، و محيى الخط الكوفى بمصر، و مدرّسه بمدرسة تحسين الخطوط الملكية، و بكلية الآداب بالجامعة المصرية،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٧٠

رحمه الله تعالى، لكن الأستاذ المذكور لم يذكر اسم راسل الميزاب، و الذى استنتجناه، من سياق الكلام، أن هذا الميزاب، الذى ورد من مصر، كان من طرف السلطان سليمان القانونى أيضا، لأن مصر كانت تابعة للدولة العثمانية، فالسلطان المذكور، بعد أن عمل الميزاب السابق، الذى هو من الفضة، رأى أن يبدله بميزاب من الذهب، فإن هذا أكمل بمقامه و هو خليفة المسلمين و أن يحتفظ بالميزاب السابق فى خزنة الدولة، بعد أن مكث على سطح الكعبة ثلاث سنوات.

و السلطان سليمان المذكور، لقب بالقانونى لأنه فى زمانه، وضعت قوانين للحكومة، عينت فيها مراتب الدولة و مناصبها. جلس السلطان سليمان القانونى، على تخت الملك، فى سنة (٩٢٦) و توفى سنة (٩٧٣) و عمره أربع و سبعون سنة.

و كان أعظم ملوك الأرض و دولته أقوى الدول و قد افتتح كثيرا من الأقاليم و البلدان.

(١٢) الميزاب، الذى عمله السلطان أحمد خان الأول، ابن السلطان محمد الثالث، و ذلك لما بلغه حدوث تصدع فى جدار الكعبة المشرفة، بسبب السيل، الذى دخل المسجد، فأرسل نطقا من الفضة المطلية بالذهب، ليشد به البيت الحرام، و ميزابا للكعبة، كما أرسل أيضا صحيفة من الذهب، توضع على وجه باب الكعبة، مكتوب عليها قوله تعالى: **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ...** الآية. و صفائح مطلية بالذهب لأعلى المنبر و غير ذلك، أرسل كل ذلك صحبه حسن آغا المعمر و ذلك سنة (١٠٢١) إحدى و عشرين و ألف، كما هو مكتوب فى حجر أبيض، فى الشاذروان، على يمين الحفرة التى بجانب باب الكعبة.

قال مؤلف كتاب "المحمل و الحج": "هذا الميزاب من الفضة منقوش بالذهب و المينا اللازوردية.

و السلطان أحمد خان الأول، جلس على تخت الملك سنة (١٠١٢) اثنتى عشر و ألف، و كان عمره أربع عشرة سنة، و قد توفى سنة

(١٠٢٦) فكانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة، و هو الذى سن قانون وراثته السلطنة للأكبر والأرشد من آل عثمان.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٧١

١٣) الميزاب، الذى عمله السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان، و هو من الذهب الخالص، و عليه كتابة جميلة جدا من الجهات الثلاث، بقلم الخطاط الشهير عبد الله الزهدى، الذى توفي بمصر سنة (١٢٩٦) رحمه الله تعالى، و قد تم هذا الميزاب مع الكتابة عليه سنة (١٢٧٣) ثلاث و سبعين و مائتين و ألف فى القسطنطينية «الآستانة».

يقول الشيخ حسين باسلامة، رحمه الله تعالى، فى كتابه «تاريخ الكعبة المعظمة» نقلا عن تحصيل المرام: إن هذا الميزاب فيه خمسون رطلا من الذهب بحسب التخمين، و جىء به من الآستانة صحبة الحاج رضا باشا، و ركب على الكعبة سنة (١٢٧٦) ست و سبعين و مائتين و ألف، و والى مكة يومئذ الشريف عبد الله بن محمد عبد المعين بن عون، رحم الله الجميع، و أرسلوا الميزاب القديم إلى الآستانة ليحفظ فى متاحفها.

و يقول الغازى فى تاريخه: كان الشريف عبد الله بن محمد المذكور فى دار السلطنة «أى الآستانة» فلما مات والده، و جهت الدولة العثمانية إمارة مكة للشريف عبد الله المذكور، و ذلك فى شهر رمضان عام (١٢٧٤)، و مكث فى دار السلطنة لقضاء بعض مهماته، إلى أن توجه إلى مكة، فى شهر ربيع الأول سنة (١٢٧٥)، و دخل مكة فى موكب عظيم، و جاء معه بميزاب الكعبة محلى بالذهب، لم ير الراؤون أحسن منه، بعثه السلطان عبد المجيد خان و أرسلوا القديم إلى دار السلطنة. اه.

نقول: هذا الميزاب، الذى أرسله السلطان عبد المجيد خان، لا يزال موجودا، إلى يومنا هذا، و لا تزال صورته الجميلة البديعة باقية على حالته الأصلية، لأنه عمل بنية خالصة، و بالذهب الخالص، فرحم الله الأقدمين، الذين إذا عملوا عملا أتقنوه.

و مما يجب ذكره أنه فى شهر محرم سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف، ثار هواء شديد، ففتق قطعة من ثوب الكعبة الجديد، الذى خيط عليها، قريبا من جهة حجر إسماعيل، فألقى بهذه القطعة على هذا الميزاب المذكور، فالتوى و تعطف منها، لسان الميزاب المتدلى فقط، و لم تحدث هذه القطعة الثقيلة أى ضرر على الميزاب مطلقا، حتى أنه لم يتحرك قيد شعرة عن محله، فانظر رحمك الله إلى قوة البناء و إخلاصهم فى إحكام وضعه، ثم إن مديرية الأوقاف أصلحت

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٧٢

لسان الميزاب المعوج، فى يوم الأربعاء حادى عشر من ربيع الثانى، من السنة المذكورة.

و السلطان عبد المجيد خان صاحب هذا الميزاب البديع، الذى فيه خمسون رطلا من الذهب الخالص، هو الذى أرسل أيضا الطوق الذهبى للحجر الأسود سنة (١٢٦٨) ثمان و ستين و مائتين و ألف، و كان وزن هذا الطوق عشر إقات من الذهب الصافى، و قد كان على الحجر ثلاث عشرة سنة، ثم قلع و وضع بدلا عنه الطوق الفضى، الذى أرسله السلطان عبد العزيز خان سنة (١٢٨١) فرحم الله الجميع و جزاهم خير الجزاء.

و فى تقويم أم القرى التى تصدر بمكة المكرمة، بورقة يوم الجمعة ١٩ شوال عام ١٣٦٦، مذكور أن السلطان عبد المجيد المذكور، كان يمتلك أثنى ساعة، منذ عرفت الساعات، فقد صنعت هذه الساعة، فى لندن سنة ١٨٤٤ ميلادية، من ذهب عيار ٢٢ قيراطا، و كان قطرهما خمس بوصات، و كان ميناؤها من حجر "عين الهر" و هو نوع من أثمان أنواع الأحجار الكريمة، و عقاربها مرصعة بالألماس و اللاكئ، و ظهرها مصنوع من البلور الفاخر، يكشف عن آلتها، و قد حفرت فيه نقوش بديعة، و كان بها جرس يدق كل ساعة، و قد بلغت تكاليفها "١٢٢٠٠" من الجنيهات أى الذهبية. اه.

فإذا كان مثل هذا السلطان ينفق على ساعة واحدة أكثر من اثنى عشر ألف جنيه، فلا نستكثر منه، رحمه الله تعالى، أن يجعل فى سبيل الله ميزاب الكعبة و طوق الحجر الأسود من الذهب الخالص. ففى المثل "و عن الملوك فلا تسلم".

لا نريد أن نتكلم عن بناء الكعبة المشرفة قبل إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، لأن تلك العصور غابرة بعيدة، وإنما نتكلم عن بنائه و بناء من بعده، فنقول: إن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لما بنى الكعبة بناها بالرضم، حجارة بعضها فوق بعض من غير طين ولا نورة، ولم يجعل لها سقفا ولا بابا، وإنما ترك لمكان الباب فتحة في جدارها الشرقى، للدلالة على وجه البيت، وما دام بناؤه لها كان على هذه الصفة فلا ضرورة لوضع باب عليها. ذكر الفاسى، أنه لما انهدم بناء إبراهيم بنت جرهم الكعبة، وجعلوا لها بابا بمصرعين و قفلا، فعلى هذا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٧٣

تكون جرهم بنت الكعبة قبل العمالقة، و روى الأزرقى العكس، والله تعالى أعلم، ونحن رأينا، أن بناء جرهم و بناء العمالقة لا بد و أن يكون على غرار بناء إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، أى بنوها بالرضم، بدون سقف لها، و لا باب، لأن حالة تلك العصور بدائية على الطبيعة الأولى، لذلك ذكرنا هنا، أول من عمل بابا للبيت، تبع الحميرى، والله تعالى أعلم بالغيب.

(١) فأول من جعل للكعبة بابا يغلق أسعد الحميرى، و هو تبع، أحد ملوك اليمن، قبل البعثة بزمن بعيد، و هو أيضا أول من كساها كسوة كاملة و نحر عندها.

(٢) قريش لما بنتها، جعلوا لها بابا مرتفعا عن الأرض، و لم تبق الكعبة بدون باب بعد ذلك، وإنما كان يجدد لها الباب.

(٣) عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما، لما بناها جعل لها بابين لاصقين بالأرض، و جعل لكل منهما مصرعين، و هو كذلك إلى اليوم.

(٤) الحجاج بن يوسف الثقفى، فإنه لما بناها، سد الباب الغربى، و رفع الباب الشرقى عن الأرض، و ذلك سنة أربع و سبعين.

(٥) عمل الخليفة العباسى، المقتدى لأمر الله، بابا للكعبة، بواسطة الوزير جمال الدين، و ذلك سنة خمسمائة و إحدى و خمسين عمله مصفحا بالذهب و الفضة، و قلع الباب القديم، و جعله تابوتا لنفسه، يدفن فيه.

(٦) عمل الملك المظفر، صاحب اليمن، بابا للكعبة، لما حج سنة تسع و خمسين و ستمائة، و جعل عليه صحائف الفضة زنتها ستون رطلا.

(٧) عمل الناصر محمد بن قلاوون، صاحب مصر، بابا للكعبة، و حلاه بخمس و ثلاثين ألف درهم، و ركبته فى الكعبة، ثانى عشر فى الحجة سنة ثلاث و ثلاثين و سبعمائة.

(٨) عمل الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بابا للكعبة، من خشب الساج، و ذلك سنة إحدى و ستين و سبعمائة. و قد أصلحوا تحلية هذا الباب مرارا.

(٩) عمل السلطان سليمان خان القانونى، بابا للكعبة، و حلاه بحلية كثيرة، و ذلك سنة أربع و ستين و تسعمائة.

(١٠) عمل السلطان مراد خان الرابع ابن السلطان أحمد خان، بابا للكعبة، و ذلك بعد عمارته لها بخمس سنين، فركب عليها، بمحفل كبير، و ذلك فى يوم الخميس عشرين من شهر رمضان سنة خمس و أربعين و ألف، و جعل فيه من

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٧٤

الحلية الفضية ما زنته مائة و ستون رطلا، بالذهب البندقى، بما قيمته ألف دينار، و استمروا ثلاثه أيام فى تركيب هذا الباب حتى صار محكما ثابتا.

و نقل الشيخ حسين باسلامة عن السنجارى أنه قال فى تاريخه ما ملخصه: أنه فى آخر ذى القعدة، سنة تسع عشرة و مائة و ألف، قلعوا حدود باب الكعبة، و الطراز الذى من الذهب الخايف، فأصلحوا كل ذلك، و كتبوا على الطراز تاريخا، ذكروا فيه أنه تجديد السلطان أحمد خان، و ذلك بحضور الشريف عبد الكريم، و شيخ الحرم الأمير إيواز بك، و السيد يحيى بن بركات، و قاضى الشرع و بعض

المعلمين. انتهى منه. لكن السنجاري لم يبين أى السلطان أحمد خان يعنيه. فنحن نقول: إن الذى يعنيه السنجاري هو السلطان أحمد خان الثالث، حيث جلس هذا، على تخت الملك، سنة خمس عشرة و مائة و ألف. و إن شاء الله سنذكر بعد هذا المبحث نص الكتابة المنقوشة على الطراز المذهب فى زمن السلطان أحمد.

(١١) عمل الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، رحمه الله تعالى، بابا للكعبة مصفحا بالذهب و الفضة، فركب عليها باحتفال كبير، و ذلك فى يوم ٢٣ من ذى القعدة سنة سبعين و ثلاثمائة و ألف، و قلع الباب القديم الذى كان عمله السلطان مراد خان الرابع، و لم يجعل الملك عبد العزيز قفلا جديدا للباب لصلاحيه القفل القديم. انظر: صورة رقم ١١٣، ستارة باب الكعبة انظر: صورة رقم ١١٤، رأس مفتاح الكعبة المعظمة و قد كتب فى أسفل مصراعى هذا الباب الجديد ما يأتى:

"أمر بصنع هذا الباب جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ملك المملكة العربية السعودية سنة (١٣٦٣) فكان بين صدور الأمر الملكى بصنع هذا الباب للكعبة المشرفة و بين تركيبه سبعة أعوام."

قال بعضهم، فى الالتجاء إلى الله تعالى، عند باب بيته الحرام:

لذذا الباب كلماخفت ضيق المناهج

فهو باب مجرب لقضاء الحوائج

و قال مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردى الخطاط غفر الله تعالى له و لوالديه:

لذرب البيت يا من قد أسأو التزم "بالملتزم" مستأنسا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٧٥ كم أتى فيما مضى من مذنب قام يدعو ربه مما أسأ

دامع العين ذليلا خاشعا جاهرا يدعو و طورا هامسا

كم نبى كم رسول قد أتى يعبد الله تعالى غلسا

كم تقى صالح أو عالم عامل لاذ هنا فاستأنسا

ها هنا يشكو ضعيف ظلمه و هنا يرجو فقير بثسا

و هنا يخضع جبار له سطوة كبرى و ملك أسسا

قم بباب الله و اطلب فضله من رجا ما خاب و أبشر فعسى

إن خير الناس من جا تابعا نذا بالله يرجو قيسا

عمل قفل و مفتاح لباب الكعبة

القفل تابع لنفس الباب، فمتى كان الباب كان القفل و مفتاحه، و القفل يشمل الضبة الخشبية و يشمل القفل الحديد بجميع أشكاله و أنواعه. و قد سبق أن تكلمنا عن تجديد باب الكعبة المعظمة، و هنا نتكلم عن تجديد قفل الباب و مفتاحه، و لا ندرى هل يكون تجديد القفل تابعا لتجديد باب الكعبة أم لا على كل حال نذكر هنا ما وقفنا عليه فى بعض كتب التاريخ فنقول:

(١) تقدم فى البحث السابق أن أسعد الحميرى، و هو تبع، أول من جعل للكعبة بابا يغلق، و معنى هذا أنه وضع عليه قفلا، و هو الضبة الخشبية بالطبع.

(٢) قريش حينما بنوا البيت جعلوا له بابا و كان يغلق و يفتح، و معنى هذا أيضا أنهم جعلوا له ضبة خشبية، و هو قفل زمانهم.

(٣) عبد الله بن الزبير، حينما بنى البيت، كان يغلق بالضبة لقرب عهده بقريش.

(٤) الحجاج بن يوسف الثقفى، لما بنى البيت، كان يغلق بالضبة، كعهد ابن الزبير.

(٥) قال ابن فهد: بعث المعتمد بالله العباسي، سنة تسع عشرة و مائتين، للكعبة، قفلا فيه ألف دينار.

(٦) عمل الملك المظفر صاحب اليمن لما حج سنة خمس و خمسين و ستمائة بابا و قفلا للكعبة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٧٦

(٧) قفل و مفاتيح أهدها إليها الملك الظاهر بيبرس، صاحب مصر، و المظنون أن ذلك كان حينما حج سنة (٦٦٧) سبع و ستين و ستمائة هجرية.

(٨) قال الغازي: لما استتاب الشريف حسن بن عجلان، سنة أربع و ثمانمائة في صفر في الحكم بمكة، الأمير بيسق، لسفره إلى حلي، عمل المذكور بمكة بعض أعمال لم يرض بها الشريف حسن فنقم عليه، منها: أنه عمل قفلا و مفتاحا في جمادى الأولى من السنة المذكورة، لباب الكعبة، و ركه عليها، و أخذ القفل و المفتاح اللذين كانا على الكعبة، فأخذ الشريف حسن منه القفل و المفتاح القديمين و أعادهما إلى الكعبة. انتهى.

(٩) القفل و المفتاح، لباب الكعبة المشرفة، في عصرنا هذا، فقد أمر بصنعهما السلطان عبد الحميد خان في سنة (١٣٠٩) تسع و ثلاثمائة و ألف.

و لقد أسعدنا الله عز و جل بالصعود إلى باب الكعبة المعظمة، في ضحى يوم الأربعاء سابع و عشرين من شهر رجب سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف، و ذلك للتحقق من القفل و المفتاح الموجودين اليوم على باب الكعبة المعظمة. و إليك أيها القارئ الكريم وصفهما:

فالقفل المذكور طويل، مضلع بستة أضلاع، و هو من الحديد، طوله ثمانية و ثلاثون سنتيمترا، و عرض كل ضلع من أضلاعه الستة ثلاث سنتيمترات، فيكون محيط أضلاعه ثمانية عشر سنتيمترا، و في كل ضلع من أضلاعه الستة قطعة رقيقة من النحاس الأصفر، طولها نحو ثمانية سنتيمترات و عرضها نحو سنتيمترين، مكتوب بالحفر في كل منها بالخط الثلث الجميل جدا ما يأتي:

فعلى القطعة الأولى من النحاس الأصفر مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله و على القطعة الثانية منه: نصر من الله و فتح قريب. إنا فتحنا لك فتحا مبينا.

و على القطعة الثالثة منه: أمر بهذا القفل الشريف مولانا السلطان المعظم. و على القطعة الرابعة منه: و الخاقان الأفخم السلطان الغازي عبد الحميد خان. و على القطعة الخامسة منه: خلد الله ملكه إلى منتهى الدوران. و على القطعة السادسة منه: سنة تسع و ثلاثمائة و ألف.

أما مفتاح هذا القفل فإليك وصفه و شكله: فهو طويل يشبه يد الهاون من طرفيه، أما ما بينهما فغلظه كغلظ الإصبع الصغير "أى البنصر"، و طول المفتاح أربعون سنتيمترا و ربما نقص نصف سنتيمتر فقط، و رأسه دائرية كشق الرّحى،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٧٧

و قطر دائرة الرأس ثلاث سنتيمتر و نصف، و سمكها أى غلظها سنتيمتر واحد فقط، و رأس المفتاح مشقوق ثلاث شقوق متساوية.

و من الحكايات المناسبة لقفل الكعبة و مفتاحه ما يأتي:

روى الإمام الأزرقى فى تاريخه: أن عائشة سألت أن يفتح لها باب الكعبة ليلا، فأبى عليها شيبه بن عثمان، فقالت لأختها أم كلثوم، ابنة أبى بكر، انطلقى بنا حتى ندخل الكعبة، فدخلت الحجر، و فى رواية أخرى أن عائشة سألت النبى صلى الله عليه و سلم أن يفتح لها الباب ليلا ف جاء عثمان بن طلحة بالمفتاح إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله إنها لم تفتح بليل قط. قال: فلا تفتحها، ثم قال لعائشة: إن قومك لما بنوا البيت قصرت بهم النفقة، فتركوا بعض البيت فى الحجر، فادخلى الحجر فصلى فيه. انتهى من الأزرقى.

و مما يلحق بهذا، ما رواه الغازي في تاريخه و في سنة ألف و ثلاث و ثمانين أراد إسحاق أفندي، الوارد من جهة الروم، صحبة الحج، و كان من كبار الدولة، أن يدخل الكعبة الشريفه ليلا، فأراد الشيخ عبد الواحد بن محمد الشيبى الحجبى أن يفتح له البيت، فتعسر فتحه، فدعا بحداد، نعت له بالمعرفة، فأمره بفش القفل، فاضطربت يده و ما قدر. قال الشيخ عبد الواحد: فأصغيت، و إذا بالباب كان يدفع من داخل البيت، و أحسست بالدفع و القوة المانع، قال: فصرفت الناس، و قلت:

أيها الناس إن هذا البيت بيد الله، يفتحه لمن يريد. فانصرف الناس و منهم إسحاق أفندي و لم يتيسر له الدخول. اه.
و معنى فش القفل: فتحه بحيلة بغير مفتاح.

و يشبه هذه الحكاية ما رواه لنا رئيس سدة الكعبة المشرفة في وقتنا الحاضر، و هو فضيلة الشيخ محمد بن محمد صالح بن أحمد الشيبى، البالغ من العمر الآن (٨٤) عاما و ذلك حينما كنا بمنزله العامر تلبية لدعوته لنا للغداء، في أواخر شهر رجب سنة ١٣٧٦ هجرية فقد قال:

أمرنى والدى أن أفتح الكعبة ليلا، بعد العشاء بساعه، لدخول ابنه راتب باشا التركي، والى الحجاز، و ذلك فى سنة (١٣٢٢) ألف و ثلاثمائة و اثنتين و عشرين هجرية، فذهبت صحبة محمود بن محمد عيد، و كيل والدى فى الأعمال

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٧٨

الخصوصية، إلى المسجد الحرام، لفتح الكعبة، فلما فتحتها و أرادت دخولها، وقع رجل، كان واقفا بجوارى، يريد الدخول، فوقع من عتبة باب الكعبة إلى الأرض، و لم يحصل له ضرر و لا أذى، ثم نهض و امتنع عن الدخول، و جلس بعيدا عند زمزم، فلما انتهت الزيارة، و قفل باب الكعبة، سألت الرجل عما حصل له، فقال: لما أردت دخول الكعبة أحسست بيد ناعمة دفعتنى فى صدرى، فوقعت على الأرض، و لم يحصل لى أى ألم، و أصابتنى رهبة شديدة، فعلمت أن ذلك كان بسبب أننى ارتكبت أمرا محظورا، قبيل حضورى إلى بيت الله الحرام، و لقد تبت و رجعت إلى الله تعالى، من هذه الساعة، فأسأل الله أن يغفر لى زلتى و يقبل توبتى.

نقول: لا- يستبعد وقوع الحكايتين المذكورتين، لأن بيت الله عز شأنه، فيه من الأسرار ما لا نعلمه، و هو عامر بعبادة خلقه من إنس و جن و ملك فى كل لحظة ليلا و نهارا. فقد جاء فى شفاء الغرام: روى الأزرقى بسنده إلى وهب بن منبه قال: و قرأت فى كتاب من الكتب الأولى ذكر فيه الكعبة فوجد فيه: أنه ليس من ملك بعثه الله إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت، فينقض من تحت العرش محرما مليا حتى يستلم الحجر، ثم يطوف سبعا و يركع فى جوفه ركعتين ثم يصعد. اه.

و جاء فى تاريخ الأزرقى: عن عثمان بن يسار قال: بلغنى و الله أعلم أن الله تعالى إذا أراد أن يبعث ملكا من الملائكة لبعض أموره فى الأرض، استأذنه ذلك الملك فى الطواف بالبيت فهبط الملك مهلا.

و جاء فيه أيضا: عن وهب بن منبه أن ابن عباس أخبره أن جبريل وقف على رسول الله صلى الله عليه و سلم و عليه عصابة خضراء قد علاها الغبار، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ما هذا الغبار الذى أرى على عصابتك أيها الروح الأمين؟ قال: إني زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن، فهذا الغبار الذى ترى مما تثير بأجنتها. انتهى.

و جاء فى كتاب "القرى لقاصد أم القرى" لمحب الدين الطبرى ما نصه:

و عن سعيد بن جبير أن عائشة قالت: يا رسول الله كل نسائك دخل البيت غيرى، قال: فانطلقى إلى قرابتك شبيهة يفتح لك الكعبة. فأنته، فأتى النبى صلى الله عليه و سلم، فقال: و الله ما فتحت بليل قط فى جاهلية و لا إسلام، و إن أمرتنى أن أفتحها فتحتها. قال: لا. ثم قال: إن قومك قصرت بهم النفقة فقصروا فى البنيان، و إن الحجر من البيت فاذهبى فصلى فيه. أخرجه أحمد و سعيد بن منصور و أبو ذر.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٧٩

قال الغازي: و فى سادس عشر ذى الحجة سنة (١١٣٦) ست و ثلاثين و مائة و ألف، طلب عثمان باشا أبو طوق، فتح البيت الشريف

بالليل، فتوقف الشيخ عبد القادر بن عبد المعطى الشيبى، فغضب الباشا، وأرسل يعرف الشريف بذلك، فغضب الشريف على عبد القادر، لعدم اعتناؤه بالوزير، فعزله وولى عمه الشيخ أحمد بن عبد الواحد الشيبى منصبه- والشريف المذكور اسمه الشريف عبد الله بن سعيد- ثم فى الحادى عشر ذى القعدة سنة سبع و ثلاثين و مائة و ألف، عزل باكير باشا أحمد الشيبى، عن حجابة البيت الشريف، و ولاها لابن أخيه عبد القادر الشيبى، و سببه ورود الأمر السلطانى فولاه بمضمون ذلك. اه.

نقل الغازى رحمه الله تعالى، من كتاب "تحاف فضلاء الزمن" ما ملخصه:

أنه فى محرم سنة ألف و مائة و اثنتين و عشرين اجتمع الشيخ سعيد المنوفى بالشلبى حميدان، وزير مكة، و قال له: إن الشريف يأمرك أن تصنع له مفتاحا يضاهى مفتاح الكعبة الشريفة. فأرسل الشلبى عثمان إلى كمال الصايغ، و أخبره بمراد الشريف، و طلب منه عمل المفتاح، فصنعه له على المطلوب، بحيث لا يفرق أحد بين المفتاح الأصلي و المفتاح التقليدى، فوشى بعضهم به إلى الشريف، فأمر بإحضاره و طلب منه المفتاح، فجاء به، فأرسل الشريف إلى الشيخ عبد الواحد الشيبى، و سلمه المفتاح، فتعجب الشيخ عبد الواحد من هذا المفتاح، الذى هو مطابق للمفتاح الأصلي، الذى يحتفظ به، فحينئذ طلب الشريف الشلبى عثمان و سأله عن حقيقة هذا المفتاح، فقال: صنعتة لكم، حيث جاءنى الشيخ سعيد المنوفى، و قال لى: إن الشريف يأمرك أن تصنع مفتاحا يشبه مفتاح الكعبة، فامتثلت الأمر. فأمر الشريف بحل وظائف الشيخ سعيد المنوفى، و إخراجة من البلد، فشفع فيه السيد عبد المحسن بن أحمد بن زيد، فعفا عنه، و كان مقصود الشيخ سعيد أن يرسل المفتاح لسلطان الهند. اه.

و جاء فى الجزء الثانى، من تاريخ الغازى ما خلاصته: أنه لما استولى على مكة الملك سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، صاحب اليمن، أخ السلطان صلاح الدين، و ذلك فى رمضان سنة (٥٨١) إحدى و ثمانين و خمسمائة طلع أمير مكة يومئذ مكثر بن عيسى على جبل أبى قبيس، و أغلق باب بيت الله الحرام، و أخذ المفتاح معه، فأرسل إليه سيف الإسلام يطلب منه المفتاح، فامتنع من إرساله، فقال سيف الإسلام لرسوله: قل لصاحبك إن الله نهانا عن أشياء فارتكبناها، و قال النبى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٨٠

صلى الله عليه و سلم: لا تأخذوا المفتاح من بنى شيبه، فأخذه و نستغفر الله تعالى، فبعث إليه بالمفتاح.

قال الغازى: و ذكر السنجارى أيضا فى "منايح الكرم" قصة أخذ المفتاح، و هذا نصه:

قال صاحب الوقائع أن مكثرا أخذ مفتاح الكعبة، لما صعد قلعة أبى قبيس، فأرسل طغتكين، إلى شيخ السدنة، و قال له: خذ المفتاح و هاته و إلا أخذناه منك، فإن الله أمرنا بأمر فتركتناها، و نهانا عن أمور فارتكبناها، و إن كان المفتاح لكم نأخذه منكم، و نستغفر الله تعالى، فبعث إليه شيخ السدنة بالمفتاح. انتهى من تاريخ الغازى.

و جاء فى "تاريخ الكعبة المعظمة": "و ذكر فى حوادث سنة (٩٧٦) أنه لثلاث بقين من رمضان، فتح الشيخ عبد الواحد الشيبى الكعبة المشرفة للنساء، على جرى العادة، فسرق من حجره مفتاح الكعبة، و هو مصفح بالذهب، فوقع الضجة و أغلقت أبواب الحرم، و فتشت الناس، فلم يظفروا به، ثم وجده سنان باشا باليمن، مع رجل أعجمى، فأخذه و قرره و كبس داره، فوجد عنده المفتاح و غيره من سرقات، أقر بها فقطع رأسه، و أعاد المفتاح إلى الشيخ عبد الواحد، و عبد الواحد الشيبى هذا غير عبد الواحد الذى تقدم ذكره فزمنهما مختلف.

و مما يلحق بهذه الحكاية ما جاء فى رحلة ابن جبير الأندلسى التى كانت سنة (٥٧٨) من الهجرة، أنه لما أراد زعيم الشيبين فتح باب الكعبة المعظمة، لسيف الإسلام الأمير طغتكين بن أيوب، أخى صلاح الدين، بعدما صعدوا إلى سلمها، الذى يوضع أمام الباب، سقط مفتاح من كفه، فى ذلك الزحام، فوقف وقفه دهشة مذعورا، و وقف الأمير على المدرج، لكنهم وجدوه سريعا، ففتحوا الباب و دخلوا الكعبة. انتهى.

ما كنا نظن أنه توجد كتابة بأعلى باب الكعبة، على العقد، من الخارج، لعدم ظهور شيء، بسبب برقع باب الكعبة،- أى الستارة التى عليه- لكن ظهر لنا جزء يسير من الكتابة مصادفة، لانحسار البرقع، عن أعلى الباب قليلا. ولما كان عقد الباب عاليا، أكثر من خمسة أمتار، لم تتمكن من قراءة ما هو مكتوب عليه،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٨١

خصوصا و المطاف مزدحم بالطائفين من الناس، فقد انشغل بالناس كثيرا لمعرفة الكتابة، حتى يسر الله تعالى لنا الوصول إلى ما فوق الباب الشريف فقرأناها بكل هدوء و راحة.

و لقد كانت هذه الكتابة، فى عهد السلطان أحمد خان الثالث، أحد سلاطين آل عثمان، و ذلك حينما جدد حدود باب الكعبة، و الطراز الذهب الخايف، كما سبق بيان ذلك، فى مبحث "عمل باب للكعبة المشرفة."

و إليك تفصيل ما قمنا بتحقيق قراءة الكتابة المذكورة على عقد الباب:

إنه فى يوم السبت خامس عيد الفطر سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف، ذهبنا، قبيل الظهر، إلى المسجد الحرام، و قد أخذنا معنا سلما طويلا، يصل من أرض المطاف إلى أعلى باب الكعبة المشرفة، لقراءة ما هو مكتوب فى أعلى عقد باب الكعبة، بعد استئذان فضيلة الشيخ محمد الشيبى، سادن بيت الله الحرام، فصعدنا السلم، فإذا على عقد الباب مكتوب سطران بخط الثلث الواضح الجميل، على ستة ألواح رقاق من الذهب الخالص النظيف، و الكتابة باللون الأسود، من نفس الذهب لا بالبوية، و هذه الألواح الذهب مسمرة على خشبة ثخينه، ممتدة من أول الباب إلى آخره، أى بمقدار عرض الباب بل أكثر من ذلك، بحيث تزيد على اليمين، بنحو شبر، و عن اليسار مثل ذلك، و داخله فى نفس البناء، أى أن الخشبة غير بارزة خارج البناء، و طول هذه الخشبة نحو مترين و ثلاثين سنتيمترا، و عرضها نحو نصف متر كما قسنا بنفسنا.

(فالسطر الأول): مكتوب على ثلاثة ألواح من الذهب، مسمر كل لوح منها بطرف الآخر بالطول، على خشبة العقد المذكورة، و طول كل لوح منها تسعون سنتيمترا، و عرض كل واحدة منها أربع و عشرون سنتيمترا.

و قد كتب على الثلاثة الألواح التى تمثل السطر الأول ما يأتى:

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٨٢

(و السطر الثانى): مكتوب على ثلاثة ألواح أيضا من الذهب، مسمرة على خشبة العقد المذكورة، طول كل لوح و عرضه مثل ألواح السطر الأول تماما، بدون زيادة و لا نقصان.

و قد كتب على هذه الثلاثة الألواح التى تمثل السطر الثانى ثلاثة أبيات و هى هذه:

لقد رَمَّم الحنكار بابا لبيته له كل مخلوق يصلى و يسجد

و خلف ذخر الأجر من بعد جده بنى ملك عثمان أحمد يحمد

فقل فيه مدحا ما استطعت مؤرخا بتجديده بالبيت قد فاز أحمد

هذا هو نص السطرين المكتوبين على عقد باب الكعبة المشرفة، فى الألواح الستة الذهبية، و ليس فيها تاريخ كتابة هذه الألواح بالأرقام، اكتفاء بالسطر الأخير "بتجديده بالبيت قد فاز أحمد" فإنه يكون على حساب الأبجدية سنة (١١١٨) ثمان عشرة و مائة و ألف. فإن مجموع حساب كلمة "بتجديده" هو ٤٢٨ و مجموع حساب "بالبيت" هو ٤٤٥ و مجموع "قد" هو ١٠٤ و مجموع حساب "فاز" هو ٨٨ و مجموع حساب "أحمد" هو ٥٣ فإذا جمعنا كل هذه الأرقام كان الناتج (١١١٨) و هو عام تجديد حدود باب الكعبة،

في زمن السلطان أحمد خان، ومعنى كلمة "حنكار" في الشطر الأول، من الأبيات، لقب من ألقاب الملوك السابقين. و اعلم أن عقد باب الكعبة مستقيم تمام الاستقامة، ليس فيه تدوير و لا انحناء، كما كان كذلك من سابق الأزمان المتقدمة. و عتبة الباب عبارة عن حجر واحد مستقيم أملس، من حجارات مكة القوية الصماء، طوله كطول الباب مائة و تسعون سنتيمترا، و عرضه تسعة و ثلاثون سنتيمترا، و ارتفاعه سبعة و عشرون سنتيمترا، و في وسط هذه الحجر خرق مدور، قطر دائرته ثلاث سنتيمترات، جعل بمثابة ميزاب يخرج منه الماء، إلى أرض المطاف، عند غسل داخل الكعبة، و من هذا الحجر الذى هو عبارة عن عتبة باب الكعبة، إلى أرض المطاف مائة و اثنان و تسعون سنتيمترا، ثم من عتبة الباب، أى من هذا الحجر، إلى منتهى ارتفاع الباب، ثلاثة أمتار و سبعة سنتيمترات.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٨٣

فيعلم من كل ما تقدم أن الكتابة، التى على عقد باب الكعبة، و التى هى فى الألواح الستة، من الذهب، ترتفع عن أرض المطاف بمقدار خمسة أمتار و نصف متر تماما.

و أما الدرجة الواحدة، التى يقف عليها الناس للدعاء، تحت باب الكعبة، فإنها ترتفع عن أرض المطاف بثمان سنتيمترات فقط. نقول: لم نجد أحدا من المؤرخين اطلع على ما كتب فوق عقد باب الكعبة، و ذكر نص ما هو مكتوب عليه غيرنا و لله الحمد، فلأول مرة يظهر التحقيق التام فى هذا البحث، فالحمد لله على توفيقاته المتواليه و نعمائه المتتاليه، و نسأله المزيد من فضله الواسع، و إحسانه العميم إنه هو العلى الكبير، و صلى الله على النبي الأُمى "سيدنا محمد" و على آله و صحبه و سلم.

انتقال مفتاح الكعبة من شخص لآخر قبل الإسلام

تقدم أن خليل الله إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، لما بنى الكعبة بناها بالرضم، حجارة بعضها فوق بعض من غير طين و لا نورة، و لم يجعل لها سقفا و لا بابا، و إنما ترك لمكان الباب فتحة فى جدارها الشرقى، للدلالة على وجه البيت الحرام. فما دامت الكعبة بنيت بالحجارة فقط، و كانت بدون سقف فلا-تحتاج إلى وضع باب عليها و لا إلى مفتاح، فمتى صار لها باب و مفتاح، كان المفتاح بيد أحد كبار أهل مكة فكان أمينا عليه.

فأول من جعل للكعبة بابا يغلق تبع الحميرى و هو أسعد، أحد ملوك اليمن، قبل البعثة بزمن بعيد، كما أنه هو أول من كساها و نحر عندها. و معنى أنه جعل للكعبة بابا يغلق، أى كان للباب مفتاح، و الله تعالى أعلم، كان فى يد أى رجل، فمن جملة من كان المفتاح بيده قديما خليل بن حبشية ابن سلول الخزاعى، و خليل "بالحاء المهملة" يومئذ يلى الكعبة و أمر مكة، و قد خطب ابنته حبي قصى بن كلاب بن مرة، و هو الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم فعرف خليل نسب قصى، و رغب فيه، فزوجه ابنته حبي، فولدت لقصى عبد الدار، و هو أكبر ولده، و عبد مناف و عبد العزى و عبد بن قصى، فكان خليل يفتح البيت، فإذا اعتل أعطى ابنته حبي المفتاح، ففتحته، فإذا اعتلت أعطت المفتاح زوجها قصيا أو بعض ولدها فيفتحه، و كان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٨٤

قصى يعمل فى حيازته إليه، و قطع ذكر خزاعه عنه، فلما حضرت حليلا الوفاء، نظر إلى قصى، و إلى ما انتشر له من الولد من ابنته، فرأى أن يجعلها فى ولد ابنته، فدعا قصيا فجعل له ولاية البيت، و أسلم إليه المفتاح و كان يكون عند حبي فلما هلك خليل، أبت خزاعه أن تدعه و ذاك، و أخذوا المفتاح من حبي، فمشى قصى إلى رجال من قومه من قريش، و بنى كنانة، و دعاهم إلى أن يقوموا معه فى ذلك و أن ينصروه و يعضدوه، فأجابوه إلى نصره، و أرسل قصى إلى أخيه لأمه، رزاح بن ربيعة، و هو ببلاد قومه من قضاة يدعوه إلى نصره، و يعلمه ما حالت خزاعه بينه و بين ولاية البيت، و يسأله الخروج إليه بمن أجابه من قومه، فقام رزاح فى قومه، فأجابوه إلى ذلك، فخرج رزاح بن ربيعة و معه إخوته من أبيه حسن و محمود و جلهمة بن ربيعة بن حرام، فيمن تبعهم من قضاة،

في حاج العرب مجتمعين، لنصرة قصى و القيام معه، فلما اجتمع الناس بمكة، خرجوا إلى الحج، فوقفوا بعرفة و بجمع، و نزلوا منى، و قصى مجمع على ما أجمع عليه من قتالهم، بمن معه من قريش و بنى كنانة، و من قدم عليه، مع أخيه رزاح من قضاة، فلما كان آخر أيام منى، أرسلت قضاة إلى خزاعة، يسألونهم أن يسلموا إلى قصى ما جعل له حليل، و عظموا عليهم القتال في الحرم، و حذروهم الظلم و البغى بمكة، و ذكروهم ما كانت فيه جرهم و ما صارت إليه، حين ألدوا فيه بالظلم و البغى، فأبت خزاعة أن تسلم ذلك، فاقتتلوا بمفضى مأزى منى قال: فسمى ذلك المكان المفجر، لما فجر فيه و سفك فيه من الدماء، و انتهك من حرمة، فاقتتلوا قتالا شديدا، حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعا، و فشت فيهم الجراحات، و حاج العرب جميعا، من مضر و اليمن، مستكفون ينظرون إلى قتالهم، ثم تداعوا إلى الصلح، و دخلت قبائل العرب بينهم، و عظموا على الفريقين سفك الدماء و الفجور في الحرم، فاصطلحوا على أن يحكموا بينهم رجلا- من العرب، فيما اختلفوا فيه، فحكموا يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن الليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، و كان رجلا شريفا، فقال لهم: موعدكم فناء الكعبة غدا. فاجتمع إليه الناس و عدوا القتلى، فكانت في خزاعة أكثر منها في قريش و قضاة و كنانة، و ليس كل بنى كنانة قاتل مع قصى، إنما كانت مع قريش من بنى كنانة قبائل يسيرة. و اعتزلت عنها بكر بن عبد مناة قاطبة. فلما اجتمع الناس، بفناء الكعبة، قام يعمر بن عوف فقال: ألا إني قد شذخت ما كان بينكم من دم تحت قدمي هاتين، فلا تباعة لأحد على أحد في دم، و إني قد حكمت لقصى بحجابه الكعبة و ولاية أمر مكة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٨٥

دون خزاعة، لما جعل له حليل، و أن يخلي بينه و بين ذلك، و أن لا تخرج خزاعة عن مساكنها من مكة، قال: فسمى يعمر من ذلك اليوم الشداخ، فسلمت ذلك خزاعة لقصى، و عظموا سفك الدماء في الحرم، و افترق الناس، فولى قصى بن كلاب حجابه الكعبة، و أمر مكة، و جمع قومه من قريش من منازلهم إلى مكة، يستعز بهم، و تملك على قومه فملكوه، و خزاعة مقيمة بمكة، على رباعهم و سكناتهم، لم يحركوا و لم يخرجوا منها، فلم يزالوا على ذلك حتى الآن، و قال قصى في ذلك و هو يتشكر لأخيه رزاح بن ربيعة:

أنا ابن العاصمين بنى لؤى بمكة مولدى و بها ربيت

ولى البطحاء و قد علمت معدو مروتها رضيت بها رضيت

و فيها كانت الآباء قبلى فما شويت أخى و لا شويت

فلست لغالب إن لم تأثل بها أولاد قيدير و النبييت

رزاح ناصرى و به أسامى فلست أخاف ضيما ما حيت

فكان قصى أول رجل من بنى كنانة أصاب ملكا، و أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة، و الرفادة، و السقاية، و الندوة، و اللواء، و القيادة، فلما جمع قصى قريشا بمكة سمي مجمعا و فى ذلك يقول حذافة بن غانم الجمحى يمدحه:

أبوهم قصى كان يدعى مجمعاه جمع الله القبائل من فهر

هم نزلوها و المياه قليلة و ليس بها إلا كهول بنى عمرو

يعنى خزاعة. قال إسحاق بن أحمد: و زادنى أبو جعفر محمد بن الوليد بن كعب الخزاعى:

أقمنا بها و الناس فيها قلايل و ليس بها إلا كهول بنى عمرو

هموا ملأوا البطحاء مجدا و سؤددا و هم طردوا عنها غواة بنى بكر

و هم حفروها و المياه قليلة و لم يستق إلا بكد من الحفر

حليل الذى عادى كنانة كلها و رابط بيت الله فى العسر و اليسر

أحازم إما أهلكن فلا تزل لهم شاكر حتى توسد فى القبر

و يقال من أجل تجمع قريش إلى قصى سميت قريش قريشا. انتهى من تاريخ الأزرقي.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٨٦

وجاء في تاريخ القطبي المسمى بالإعلام: لما هلك حليل أوصى بمفتاح البيت الشريف لابنته حبي، فقالت: لا أقدر على السدانة، فجعلت ذلك لأبي غبشان، و كان سكييرا يحب الخمر، فأعوزه في بعض الأوقات ما يشربه من الخمر، فباع مفتاح البيت بزق خمر، فاشتره منه قصي، و سار في الأمثال "أخسر صفقة من أبي غبشان" فلما صار المفتاح إلى قصي تناكرته خزاعة و كثر كلامها عليه، فأجمع على حربهم و إخراجهم من مكة ... الخ القصة. انتهى المراد منه.

وقال الغازي في تاريخه ما نصه: و في "منايح الكرم" فلما دنت وفاة حليل، جعل مفتاح الكعبة إلى ابنته حبي، و أمرها أن تبعث إلى أخيها المحترس، و أشرك أبا غبشان الملكاني معها، في تنفيذ وصايتها، فأعطت حبي المفتاح لأبي غبشان الخزاعي، و هو سليم بن عمرو بن لؤي بن ملكان، و قالت: لست أهلا لخدمتها.

فلما رأى قصي ذلك، قال لولدها عبد الدار: اطلب منها المفتاح، و حمله على ذلك، و أنه أحق بها، لمجدهم. فقالت: و من يكفيني أبا غبشان، فقال قصي: أنا أكفيكه. و كان أبو غبشان سكييرا، فأعوزه الخمر يوما، فباع المفتاح من قصي بزق خمر و كبش، فأشهد عليه قصي، و أخذ منه المفتاح، و أعطاه لعبد الدار، فصار المفتاح بيد قصي و ولده، و ضرب المثل بأبي غبشان في خسران الصفقة، فيقال: "أخسر صفقة من أبي غبشان" فلما آل أمر المفتاح إلى قصي، تناكرت عليه خزاعة، بعد موت حليل، و آذوه بالكلام، فكلم قصي رجلا من قريش، و قال:

إنا معاشر قريش أحق بأمر مكة من خزاعة. نحن فرع إسماعيل، و صريح ولده، فقالوا: صدقت و لكن من يعينك عليهم؟ فكتب إلى أخيه لأمه رزاح بن ربيعة يستنصره، و يطلب منه الإعانة، فأجابه إلى ذلك. انتهى. اه.

قال القطبي في تاريخه المسمى بالإعلام ما ملخصه: و كان قصي أول من ملك من بني كعب، أصاب ملكا أطاعه به قومه، و له كلمات حكم تؤثر عنه، منها:

من لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان، و من طلب فوق قدره استحق الحرمان. و قد اجتمع لقصي ما لم يجتمع لغيره من المناصب، فكان بيده الحجابة و السقاية و الرفادة و الندوة و اللواء و القيادة.

فهذه كلها اجتمعت في قصي، فلما كبرت سنّه و ضعف بدنه، قسمها بين أولاده، و كان عبد الدار أكبر أولاده، و كان عبد مناف أشرف زمان أبيه، فقال قصي لعبد الدار لألحقنك يا بني بالقوم، و إن شرفوا عليك. فأعطاه الحجابة و سلم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٨٧

إليه مفتاح البيت، و قال: لا يدخل رجل منهم الكعبة، حتى تكون أنت تفتحها له، و أعطاه السقاية و اللواء، و قال: لا يشرب أحد إلا من سقايتك، و لا يعقد لواء قريش لحربها إلا- أنت بيدك، و جعل له الرفادة، و قال: لا يأكل أحد في هذا الموسم طعاما إلا من طعامك، و كانت الرفادة خرجا تخرجه قريش من أموالها، في كل موسم، فتدفعه إلى قصي، فيصنع به طعاما للحاج، فيأكله من لم يكن له سعة و لا زاد. و كان قصي فرض ذلك على قريش حين جمعهم.

ثم قال القطبي في تاريخه الإعلام: فجعل قصي، كلما كان بيده من أمر قومه لعبد الدار، و كان قصي لا يخالف و لا يرد عليه شيء صنعه لعظم شأنه و نفاذ سلطانه. قال ابن إسحاق: ثم إن قصيا هلك، فقام على أمر قومه بنوه من بعده، ثم إن بني عبد مناف: هاشما و عبد شمس و المطلب و نوفلا، أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار من الحجابة و اللواء و السقاية و الرفادة، و رأوا أنهم أولى بذلك منهم، لشرفهم عليهم و فضلهم، و تفرقت قريش فكانت طائفة منهم يرون أن بني عبد مناف أحق من بني عبد الدار، و طائفة يرون إبقاء بني عبد الدار على ما جعله قصي لأبيهم.

فأجمعوا على الحرب، ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية و الرفادة لبني عبد مناف، و الحجابة و اللواء و الندوة لبني عبد الدار، و تحالفوا على ذلك. انتهى ما ذكر من الإعلام.

ثم جعل عبد الدار الحجابة إلى ابنه عثمان بن عبد الدار.

وقال بعض المؤرخين: قسّم قصى، أمر مكة، بين ابنه عبد الدار و عبد مناف، فأعطى عبد الدار الحجابة أى السدانة و اللواء و الندوة، و أعطى عبد مناف السقاية و الرفادة و القيادة.

و هذا الاختلاف غير مهم، و الذى يعنينا حجابة الكعبة و سدانتها، و قد أجمعوا على أنها جعلت بيد عبد الدار.

و قصى بن كلاب المذكور بنى أيضا الكعبة المشرفة بناينا قويا، لم بين أحد ممن سبقه مثله، فبناها و سقفها بخشب الدوم الجيد و بجريد النخل، و يكون قصى الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٨٨

هذا ما كان من أمر مفتاح الكعبة قبل الإسلام، و أما ما كان من أمره بعد الإسلام، و بعد فتح مكة، الذى كان صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان سنة ثمان من الهجرة، فقد ورد ذلك مفصلا فى كتب الحديث و التفسير و التاريخ و لنذكر شيئا عن ذلك فقد جاء فى كتاب "تاريخ الكعبة المعظمة" ما نضه:

قال ابن كثير فى تفسيره فى معنى قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** و قد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى شأن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة، و اسم أبى طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب القرشى العبدري حاجب الكعبة المعظمة، و هو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبى طلحة، الذى صارت الحجابة فى نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا فى الهدنة، بين صلح الحديبية، و فتح مكة، هو و خالد بن الوليد و عمرو بن العاص، و أما عمه عثمان بن أبى طلحة، فكان معه لواء المشركين، يوم أحد، و قتل يومئذ كافرا، و إنما نهنا على هذا النسب، لأن كثيرا من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا، و سبب نزولها فيه لما أخذ من رسول الله صلى الله عليه و سلم مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه. انتهى من الكتاب المذكور.

و قال فيه أيضا ما نضه: فروى ابن سعد، فى الطبقات، عن عثمان بن طلحة، قال: كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية، يوم الاثنين و الخميس، فأقبل النبي صلى الله عليه و سلم يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظت له، و نلت منه، فحلم عنى، ثم قال: **"يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت"** فقلت:

لقد هلكت قريش يومئذ و ذلت. قال: **"بل عمرت و عزت يومئذ"** و دخل الكعبة، فوقع كلمته منى موقعا، ظننت يومئذ، أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح، قال: **"يا عثمان اتنى بالمفتاح، فأتيته به، فأخذه منى، ثم دفعه إلى، و قال: خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف."** قال: فلما وليت نادانى فرجعت إليه، فقال: **"ألم يكن الذى قلت لك"** قال: فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة: **"لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت"** قلت: بلى أشهد أنك رسول الله. انتهى من الكتاب المذكور.

و من أراد زيادة التوضيح فليظنر فيما كتبناه فى ترجمة شيبه بن عثمان و عثمان بن طلحة. نقول: و الحقيقة أن حكم الله عز و جل، فى وضع مفتاح بيته الحرام فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٨٩

بنى شيبه، هو عين الصواب و الحكمة، و ذلك حتى لا يحصل فى ذلك نزاع و شقاق بين المسلمين، فلا يطمع فيه سلطان و لا ملك و لا أمير و لا عالم و لا صالح و لا غنى و لا فقير، و ما دام البيت بيت الله فصاحب البيت يضع مفتاحه حيث شاء.

ترجمة شيبه بن عثمان و عثمان بن طلحة

نقل هنا خلاصة ترجمته من كتاب "تاريخ الكعبة المعظمة" للشيخ حسين باسلامة، رحمه الله تعالى و هى: ينتهى نسب سدنة الكعبة المشرفة و هم الشيبون فى عصرنا هذا إلى شيبه بن عثمان بن أبى طلحة. و قد أسلم شيبه عام الفتح على أصح الروايات، و له صحبة و

رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم و شهد حيننا و قيل أسلم بحنين.

قال الزبير: كان شيبه قد خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوم حنين مشركا، يريد أن يغتال رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة، فأقبل يريده، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا شيبه هلم لا أم لك" فقذف الله في قلبه الرعب، و دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم و وضع يده على صدره، ثم قال: "أحسنى عنك الشيطان" فأخذه و نزع فقذف الله في قلبه الإيمان، فأسلم و قاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم و كان ممن صبر معه يومئذ و كان من خيار المسلمين.

و دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، و إلى ابن عمه شيبه بن عثمان بن أبي طلحة، و قال: "خذوها خالدة تالدة إلى يوم القيامة يا بني أبي طلحة لا يأخذها منكم إلا ظالم" قال: فبنوا أبي طلحة هم الذين يلون سدانة الكعبة، دون بني عبد الدار، قال ابن عبد البر: شيبه هذا هو جد بني شيبه، حجة الكعبة إلى اليوم، دون سائر الناس أجمعين، و هو أبو صفيه بنت شيبه، توفي في آخر خلافة معاوية سنة (٥٩) و قيل بل توفي في أيام يزيد، و ذكره بعضهم في المؤلفه قلوبهم، و هو من فضلائهم اه.

و روى ابن سعد، عن هود، عن عوف، عن رجل من أهل المدينة، قال:

دعا النبي صلى الله عليه وسلم شيبه بن عثمان فأعطاه مفتاح الكعبة، فقال: "دونك هذا فأنت أمين الله على بيته" قال مصعب الزبيري: دفع إليه و إلى عثمان بن طلحة، و قال:

"خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم."

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٩٠

و ذكر الواقدي أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه يوم الفتح لعثمان، و أن عثمان ولي الحجابة إلى أن مات فوليها شيبه فاستمرت في ولده. و روى ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، قال: أسلم العباس و شيبه و لم يهاجرا. أقام العباس على سقايته و شيبه على حجابته. و قال يعقوب بن سفيان: أقام شيبه للناس الحج سنة تسع و ثلاثين. قال خليفة: و كان السبب في ذلك أن عليا، رضى الله عنه، بعث قثم بن عباس ليقم للناس الحج، و بعث معاوية، رضى الله عنه، يزيد بن شجرة، فتنازعا، فسعى بينهما أبو سعيد الخدري، رضى الله عنه، و غيره فاصطلحا على أن يقيم الحج شيبه بن عثمان و يصلى بالناس. مات شيبه بن عثمان سنة تسع و خمسين و قال ابن سعد عاش إلى خلافة يزيد بن معاوية.

أما عثمان بن طلحة بن أبي طلحة فقد نزلت آية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا فِي شَأْنِهِ، قال ابن كثير، رحمه الله تعالى، في تفسيره، في معنى هذه الآية: و قد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، و اسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب القرشى العبدري حاجب الكعبة المعظمة، و هو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبي طلحة الذى صارت الحجابة في نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية و فتح مكة هو و خالد بن الوليد و عمرو بن العاص، و أما عمه عثمان بن أبي طلحة، فكان معه لواء المشركين، يوم أحد، و قتل يومئذ كافرا، و إنما تبهنا على هذا النسب لأن كثيرا من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا.

و بعد أن ذكر ابن كثير، رحمه الله، سبب نزول الآية المذكورة، روى من طريق ابن جرير، عن ابن جريج، في الآية، قال: نزلت في عثمان بن طلحة، قبض منه رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة فدخل في البيت يوم الفتح، فخرج و هو يتلو هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا الآية، فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح، قال: و قال عمر بن الخطاب: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكعبة، و هو يتلو هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا فداه أبي و أمى، ما سمعته يتلوها قبل ذلك.

حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثنا الزنجى بن خالد، عن الزهرى، قال:

دفعه إليه، وقال: أعينوه قال: و روى ابن مردويه، من طريق الكلبي، عن أبي

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٩١

صالح، عن ابن عباس، في قوله عز وجل: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا قَالَ: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دعا عثمان بن طلحة، فلما أتاه، قال:

"أرني المفتاح" فأتاه به، فلما بسط يده إليه قام إليه العباس، قال: يا رسول الله بأبي أنت و أمي اجمعه لي مع السقاية. فكف عثمان يده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أرني المفتاح يا عثمان" فبسط يده يعطيه، فقال العباس مثل كلمته الأولى، فكف عثمان يده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عثمان إن كنت تؤمن بالله و اليوم الآخر فهاته" فقال: هاك بأمانة الله. قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم و فتح باب الكعبة، فوجد في الكعبة تمثال إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، معه قداح يستقسم بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما للمشركين قاتلهم الله و ما شأن إبراهيم و شأن القداح" ثم دعا بجفنة فيها ماء، فأخذ ماء فغمسه فيه، ثم غمس به تلك التماثيل، و أخرج مقام إبراهيم، و كان في الكعبة فألقه في حائط الكعبة، ثم قال: "يا أيها الناس هذه القبلة" قال: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت شوطاً أو شوطين، ثم نزل عليه جبريل، فيما ذكر لنا برد المفتاح، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا حَتَّىٰ فَرَّغَ مِنَ الْآيَةِ. هذا ما ذكره عماد الدين بن كثير، في تفسيره، عن سبب رد رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة و أن ذلك كان بأمر الله تعالى.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني، في فتح الباري، و روى ابن عائد من مرسل عبد الرحمن بن سابط، أن النبي صلى الله عليه وسلم دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان فقال: "خذوها خالدة مخلدة إنني لم أدفعها إليكم، و لكن الله دفعها إليكم و لا ينزعها منكم إلا ظالم." و من طريق ابن جريج أن علياً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: اجمع لنا الحجاب و السقاية، فنزلت: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا فُدِعَا عثمان، فقال:

"خذوها يا بني شبيهة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم" و روى الفاكهي من طريق محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، لما ناول عثمان المفتاح، و قال له: "غيبه" قال الزهري: فلذلك يغيب المفتاح اه. قوله: خالدة تالدة، الخالدة كلمة معروفة، و التالدة هي القديم الأصلي و هي ضد الطارف، أي هو لكم مقسوم من الأزل. و معنى "غيبه" أي احتفظ به و لا تهمل شأنه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٩٢

نقول: لو لم يفصل الله عز وجل في أمر مفتاح الكعبة بقوله: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا و أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه لرجل مخصوص و يبقى في ذريته إلى يوم القيامة، لتلاعب الملوك و أمراء مكة في ذلك، بحسب أغراضهم، فكان في كل زمن و عصر يؤخذ المفتاح من فلان و يعطى لفلان. و قد يحدث بسببه من الفتن و التنافس ما لا يتصور، فكان من الحكمة البليغة أن فصل الله أمر المفتاح، و جعله في آل الشيبى إلى يوم القيامة. و بهذا انتهى الخلاف في ذلك بتاتا، فاليوم بيت الله، يعطى مفتاحه لمن يشاء من عباده، فيجب على الشيبين الكرام أن يحمداوا الله عز وجل و يشكروه في كل عصر و أوان، على هذه النعمة الكبرى و المفخرة العظيمة، و أن يكونوا أكثر الناس تعظيماً و احتراماً لهذه الكعبة المشرفة، التي كانت سبباً في عزهم و رفعتهم و كم يكون جميلاً و شريفاً إذا اتسموا بسمات أهل العلم كشيخ السدنة الشيخ علي بن محمد بن أبي بكر الشيبى المولود سنة ٧٥٥، و كالعامة شيخ الحجة محمد بن عمر بن محمد العبدري الشيبى المولود سنة ٥٤٣ فقد ترجم لهما السخاوى في كتابه "الضوء اللامع" كما قال صديقنا الأستاذ الكبير شاعر جلاله مليكنا المعظم الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوى فيما يكتبه بقلمه البليغ بعنوان (مطالعات و تعليقات) بجريدة البلاد السعودية بتاريخ ٦ جمادى الثانية عام ١٣٧٥. نسأل الله لنا و لهم الهداية و التوفيق و السير على أقوم طريق.

ربنا آتنا في الدنيا حسنةً و في الآخرة حسنةً و قنا عذاب النار آمين يا رب العالمين و صلى الله على سيدنا "محمد" أبي القاسم و على آله و صحبه أجمعين.

تاريخ سدانة الكعبة المشرفة

إشارة

و هذا المبحث كتبه لنا سادن بيت الله الحرام، صديقنا النبيل الأستاذ الجليل، فضيلة الشيخ طلحة بن حسن الشيبى وفقه الله تعالى. سدانة الكعبة المشرفة، هى حجابتها، من فتح بابها و غلقه، و تلييسها و سائر خدماتها، متعلق أمرها بسدنتها و حجبها بنى أبى طلحة العبدريين الحجبين. لا- يجوز لأحد المداخله فى أدنى شؤون بيت الله الحرام، لأنها ولاية من الله و رسوله، و لا- تقاس بغيرها من الوظائف. و هذه الوظيفة على موجب ما هو معلوم ثابتة لهم جاهليةً و إسلاماً.

انظر: صورة رقم ١١٥، لوحة موجودة فى دار بنى شيبه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٩٣

السدانة قبل الإسلام

منذ أن رفع سيدنا إبراهيم الخليل، و ابنه إسماعيل، عليهما أجزل صلاةً و تسليم، قواعد البيت، بأمر الله تعالى، كما أخبرنا القرآن الكريم و إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَاَمْنًا وَاَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، و وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَاِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَاَلْعَاكِفِينَ وَاَلرُّكَّعِ السُّجُودِ* و إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَاَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَاَلْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَاَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ و لما انتهى بناء البيت، بقى إسماعيل بمكة يعنى بشؤون البيت، حتى قبض، و يقال إنه دفن بالحجر عليه السلام. ثم توارث أبناء إسماعيل، شرف سدانة الكعبة المشرفة، مدة طويلة. ثم اغتصبها منهم جيرانهم و أخوالهم جرهم، ثم اغتصبها خزاعة من جرهم. ثم استردها منهم قصى بن كلاب و هو من أبناء إسماعيل، و هو الجد الرابع للنبي صلى الله عليه و سلم.

قصى بن كلاب

كان يلى أمر البيت حين ذاك، حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى. و ابن إسحاق قال: ثم إن قصى بن كلاب، خطب إلى حليل بن حبشية ابنته حبي، فزوجه، فولدت له عبد الدار و عبد مناف، و عبد العزى، و عبد قصى. فلما انتشر ولد قصى، و كثر ماله و عظم شرفه، هلك حليل. فرأى قصى أنه أولى بالكعبة و بأمر مكة من خزاعة و بنى بكر. و أن قريشا فرعه إسماعيل بن إبراهيم، و صريح ولده، فكلم رجالا- من قريش و بنى كنانة، و دعاهم إلى إخراج خزاعة و بنى بكر من مكة، فأجابوه. فلما أجابه قومه إلى ما دعاهم إليه، كتب إلى أخيه من أمه،- و كان ببلاد الشام- رزاح بن ربيعة و معه إخوته: حن بن ربيعة، و محمود بن ربيعة، و جلهمة بن ربيعة فجاؤوا، فيمن تبعهم من قضاة، فى حاج العرب، و هم مجمعون لنصرتة. قال ابن إسحاق: و خرجت له خزاعة و بنو بكر فاقتلوا قتالا شديدا بالأبطح، حتى كثرت القتلى فى الفريقين جميعا، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح، و إلى أن يحكموا بينهم رجلا من العرب، فحكموا يعمر بن عوف بن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٩٤

كعب بن عامر، من ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة. ففضى بينهم بأن قصيا أولى بالكعبة و بأمر مكة من خزاعة، و أن كل دم أصابه

قصى من خزاعة و بنى بكر موضوع يشدخه تحت قدميه، و أن ما أصابت خزاعة و بنو بكر من قريش و كنانة و قضاة، ففيه الدينة مؤداة، و أن يخلى بين قصى و بين الكعبة. فعند ذلك آل أمر مكة، و عادت سدانة الكعبة إلى قصى، و كانت عند قريش وظائف فيها العز و الشرف، و هى السدانة و دار الندوة و اللواء و الرفادة و السقاية، و كان قصى حازها كلها دون قومه.

عبد الدار

لما كبر قصى ورق عظمه، جعل ما بيده، من أمر قومه، لولده البكر، عبد الدار. فأقام أمره فى قومه. ثم إن بنى عبد مناف و هاشم و المطلب و نوفلا- أجمعوا على أن يأخذوا ما بيد بنى عبد الدار من الحجابة و اللواء و السقاية و الرفادة، و رأوا أنهم أولى بذلك. فتعاقدوا و تعاهدوا و غمسوا أياديهم فى الطيب، فسّمى حلفهم: حلف المطيبين. و تعاهد بنو مخزوم و بنو سهم و بنو عدى مع بنى عبد الدار، و تحالفوا على عدم تسليم ما بيدهم، فسموا الأحلاف، ثم تداعوا للصلح و تحاجز الناس. و اتفقوا على أن تكون الحجابة و اللواء و دار الندوة لبنى عبد الدار و السقاية و الرفادة لبنى عبد مناف.

السدانة فى الإسلام

أشرفت شمس الإسلام، يوم فتح مكة، و أخذ نبينا، محمد صلى الله عليه و سلم، من عثمان بن طلحة بن أبى طلحة الحجبي، سادن الكعبة، المفتاح، و فتح بابها، و دخل، و طهرها من الأصنام، و غسلها بيده الشريفه (و اسم أبى طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى) فسأله العباس، رضى الله تعالى عنه، أن يضم إليه السدانة مع السقاية، فنزل قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** فرد صلى الله عليه و سلم المفتاح لعثمان بن طلحة، و تلا عليه الآية الشريفه، و أيده بالأحاديث الشريفه، فقال صلى الله عليه و سلم لعثمان و ابن عمه شيبه بن عثمان بن أبى طلحة:

(هاك مفتاحك يا عثمان، غيبوه)، و قال لهما: (خذوها يا بنى أبى طلحة خالدة تالدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم)، و قال: (إنى لم أدفعها لكم و لكن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٩٥

الله دفعها لكم)، و قال: (إن لله بيتا أمّنكم عليه)، و قال: (إن لله بيتا فاحترموه)، و قال: (كل مأثرة تحت قدمى هاتين، إلا سدانة البيت و سقاية الحاج).

روى أن الحكمة فى أخذ المفتاح من عثمان، المقصود منه التشريع، فأخذه صلى الله عليه و سلم، حتى يرد به بأمر الله تعالى لأنه ما ينطق عن الهوى **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**.

(لطيفة): حينما نزلت الآية الشريفه بعد موقعه حنين: **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَى وَ لِتِيَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ** إلى آخر الآية جاء عثمان إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال: يا رسول الله الذى لله لمن؟ فضحك النبى صلى الله عليه و سلم و قال له: لحجبة بيت الله بنى عبد الدار و خمس خمسة من الغنائم و أعطاهها له. ذكره البيضاوى فى تفسيره، و الله أعلم.

عثمان بن طلحة

عثمان بن طلحة، اختلف فى زمن إسلامه، أكان قبل الفتح أم بعده؟ قال العلامة القسطلانى فى "المواهب اللدنية" و فى "الطبقات" لابن سعد: عن عثمان بن طلحة، قال: كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين و الخميس، فأقبل النبى صلى الله عليه و سلم يوما يريد

أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظت عليه و نلت منه فحلم على ثم قال:

يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي، أضعه حيث شئت. فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ و ذلت. قال: بل عمرت و عزت، و دخل الكعبة. فوعدت كلمته منى موقعا، ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح، قال: يا عثمان ائتني بالمفتاح فأتيته به، فأخذه منى ثم دفعه إلي، و قال: خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم. يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت المعروف. قال: فلما وليت ناداني، فرجعت إليه فقال: ألم يكن الذي قلت لك؟ فذكرت قوله لي بمكة، قبل الهجرة "لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت"، فقلت: بلى أشهد أنك رسول الله.

و الصحيح أن إسلام عثمان كان قبيل الفتح. قال ابن إسحاق: حدثني من لا أتهم أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان معهما حينما أسلما- يعني أن عثمان كان مع خالد بن الوليد و عمرو بن العاص حين أتيا إلى النبي صلى الله عليه و سلم بالمدينة مسلمين قبيل التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٩٦

الفتح-. و يروى أن النبي صلى الله عليه و سلم قال حينما أقبلوا عليه بالمدينة: (رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها). و مات عثمان سنة ٤٢ هجرية عقيما لا عقب له.

شبية بن عثمان بن أبي طلحة

قال ابن عبد البر في الاستيعاب: شبية بن عثمان بن عبد الدار بن قصي القرشي العبدري الحنظلي المكي، يكنى أبا عثمان و قيل أبا صفية، و أبوه عثمان بن أبي طلحة يعرف بالأوقص، قتله علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، يوم أحد كافرا، و اسم أبيه أبو طلحة عبد الله بن عبد العزى. أسلم شبية يوم فتح مكة، و شهد حنين، و قيل: بل أسلم بحنين. قال الزبير: كان شبية قد خرج مع رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم حنين مشركا، يريد أن يغتال رسول الله صلى الله عليه و سلم فرأى من رسول الله غرة، فأقبل يريده، فرآه رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قال: يا شبية هلم، لا أم لك، فخذف الله في قلبه الرعب، و دنا من رسول الله صلى الله عليه و سلم، و وضع يده على صدره، ثم قال:

اخسئ عنك الشيطان، فأخذه و نزع في صدره، فخذف الله في قلبه الإيمان فأسلم و قاتل مع رسول الله صلى الله عليه و سلم و كان ممن صبر معه.

و شبية هذا هو جد حجة اليوم، و إليه ينتسب الشيبون، و هو أبو صفية بنت شبية. قال الحافظ ابن حجر في "الإصابة": "قال ابن السكن: أمه أم جميل بنت عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، و هى أخت مصعب بن عمير، قال البخارى، و غير واحد: له صحبة، و أسلم يوم الفتح، و كان أبوه ممن قتل بأحد كافرا، و لبنته صفية، بنت شبية صحبة و رواه. و روى ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة قال: أسلم العباس و شبية و لم يهاجرا. أقام العباس على السقاية و شبية على الحجابة. قال يعقوب بن أبى سفيان: أقام شبية للناس الحج، سنة تسع و ثلاثين، و كان السبب في ذلك أن عليا بعث قثم بن العباس ليقم للناس الحج، و بعث معاوية يزيد بن شجرة، فتنازعا، فسعا بينهما أبو سعيد الخدرى و غيره و اصطلحا على أن يقيم الحج شبية بن عثمان و يصلى بالناس مسافع بن عبد الله بن شبية، و عبد الرحمن بن الزجاج و آخرون. روى شبية عن النبي صلى الله عليه و سلم، و عن أبي بكر و عمر و مات سنة تسع و خمسين، على أصح الروايات، فتولّى أكبر أولاده من بعده و هو مصعب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٩٧

و قد روى الكازرونى فى فتاويه، و البخارى فى تاريخه، قال: إن تقدم السدانة فى أكبرهم سنا من فعله صلى الله عليه و سلم، لأنه دفع المفتاح، فى يوم الفتح، إلى عثمان، لأنه أكبرهم سنا، مع وجود شبية بن عثمان بن أبي طلحة، فلما هاجر عثمان إلى المدينة المنورة، دفع المفتاح إلى ابن عمه شبية، فلما رجع عثمان إلى مكة، أخذ المفتاح منه، و بقى فى يده إلى أن مات.

عبد الله بن شيبه الأعجم

قال الغازي في الجزء الثاني من تاريخه، نقلا عن ابن فهد، ما ملخصه: أن خالد بن عبد الله القسري في ولايته لمكة، عن سليمان بن عبد الملك، أحدث حدثا منكرا، فقام إليه عبد الله بن شيبه الأعجم، فأمره بالمعروف ونهاه عما فعل، فغضب خالد غضبا شديدا، وأخاف الرجل، فخرج إلى سليمان بن عبد الملك، يشكو إليه ويتظلم منه. فشكى إليه أمره. فكتب سليمان إلى خالد أن لا يتعرض له في أمر يكرهه. فلما جاء الكتاب إلى خالد أخذه فوضعه. ثم أرسل بعد ذلك إلى عبد الله بن شيبه يسأله أن يفتح له الكعبة، في وقت لم ير ذلك عبد الله بن شيبه، فامتنع عليه، فدعى به فضربه مائة سوط على ظهره، فخرج عبد الله بن شيبه، هو و مولى له، على راحلتين، فأتى سليمان، فكشف عن ظهره بين يديه، وقال له: هذا الذي أوصيته بي. فقال: إلى من تختار أكتب له؟ قال: إلى خالك محمد بن هشام. قال: فكتب إليه إن كان خالد ضربه بعد أن وصل إليه كتابي وقرأه فاقطع يده. وإن كان ضربه ولم يقرأ كتابي فاقده منه، فقدم بالكتاب على محمد بن هشام، فدعا بالقسري، فقرأه عليه، فقال: الله أكبر، يا غلام أئت بالكتاب. فأتى به مختوما لم يقرأه. فأخرجه محمد بن هشام إلى باب المسجد، وحضره القرشيون والناس، فجردته ثم أمر به أن يضرب، فضرب مائة سوط. فقال الفرزدق في ذلك بعض أبيات لا داعي لذكرها. انتهى.

ذكر ابن حزم وابن عبد البر، جماعة من الشيبين في زمانه، وعاشا إلى بعد نصف المائة الخامسة، وكذا ذكر العلامة القلقشندي في كتابه صبح الأعشى وعاش إلى سنة (٨٢١).

جاء في كتاب التراتيب الإدارية: (و لا دلالة لزعمهم انقراضهم - أي بنى شيبه - في إعدام معاوية عبيدا لأن إعدامها غير ولايته، فتحها، كما هو معلوم،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٩٨

و كثيرا ما يقع، في كلام المؤرخين كالأزرقى والفاكهى، ذكر الحجة، ثم الخدمة، بما يدل على التباين بينهما). انتهى ملخصا.

شجرة النسب

في آخر القرن الثالث عشر من الهجرة، توفي زين العابدين بن محمد بن عبد المعطى، وخلفه ابنه محمد وهو طفل صغير، ولم يوجد من آل شيبه ولد ذكر غيره، وجميع آل شيبه الحاليين، هم من نسله، قال الشيخ حسين بن عبد الله باسلامه، رحمه الله تعالى، في كتابه "تاريخ الكعبة المعظمة" ما نصه: هذه سلسلة آل الشيبى أسردها كما وجدتها في دار المفتاح، الذى جعل فى هذا العصر، مسكنا لرئيس السدنة على لوحة مكتوبة بخط بديع، بماء الذهب. ابتدأت هذه السلسلة من صاحب الفضيلة مولانا المرحوم الشيخ عبد القادر بن على بن محمد بن زين العابدين بن محمد بن عبد المعطى الذى تولى السدانة سنة ١١٠٤ هـ، بن عبد الواحد الذى تولى السدانة سنة ١٠٨٠ هـ، بن محمد جمال الدين بن القاسم بن أبى السعود أبى بكر فخر الدين بن محمد جمال الدين بن عمر بن سراج الدين بن محمد بن على بن غانم بن محمد بن مفرج بن محمد بن يحيى بن عبيدة بن حمزة بن بركات بن شيبه بن عبد الله بن عبد بن شعيب بن جبير بن شيبه بن عثمان بن أبى طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب القرشى. هذه سلسلة النسب و منها يعلم أن آل الشيبى يجتمعون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصى بن كلاب. وقد تولى رئاسة السدنة، للكعبة المعظمة، كثير من آل شيبه ممن لم يذكر اسمه فى سلسلة النسب المقدم ذكره: منهم غانم و على من أبناء غانم بن محمد بن مفرج. و محمد بن على، ينتمى نسبهما إلى يحيى بن عبيدة بن حمزة و أحمد الطيب من أولاد سراج الدين بن على.

محمد بن زين العابدين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ؛ ج ٢-٤ ؛ ص ١٩٨

ل الشيخ حسين بن عبد الله باسلامة، رحمه الله تعالى، في كتابه "تاريخ الكعبة المعظمة" ما نصه: و أما محمد بن زين العابدين بن محمد بن عبد المعطى الشيبى، الذى هو جد آل شيبه الحالىين المعاصرين لنا، فقد توفى والده زين العابدين فى أواخر القرن الثانى عشر فى الهجرة، و هو طفل، و تولى سدانه الكعبة،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ١٩٩

بعد زين العابدين عبد القادر الشيبى ابن عم محمد المشار إليه. و فى سنة ١٢١٠ هـ توفى عبد القادر عقيما. و بذلك آلت السدانه إلى محمد بن زين العابدين و هو يومئذ حديث السن و لم يوجد من آل شيبه ولد ذكر غيره. و كان أمير مكة فى ذلك العصر الشريف غالب بن مساعد، فأخذ الشيخ محمد بن زين العابدين إلى داره و كفله، و اعتنى بتربيته كأولاده، و أكرمه إلى أن كبر و تولى أمر السدانه ثلاثا و أربعين سنة. و كان عالما فاضلا، و له رساله فى مناسك الحج، على مذهب الإمام الشافعى نظما، و توفى سنة ١٢٥٣ هـ، و خلف من الذكور ستة أولاد و هم عبد القادر و سليمان و جعفر و أحمد و عبد الله و على.

فتولى بعد وفاته، رئاسه السدنه أكبر أولاده الشيخ عبد القادر بن محمد سنة ١٢٥٣ هـ، و مكث بيده المشيخه و مفتاح الكعبة، سبع سنين، و توفى سنة ١٢٦٠ هـ. فتولى بعده أخوه سليمان و توفى سنة ١٢٦١ هـ، فتولى بعده أخوه جعفر، و توفى سنة ١٢٦٢ هـ. فتولى بعده أخوه الشيخ أحمد، و توفى سنة ١٢٧٤ هـ. ثم تولى بعده أخوه الشيخ عبد الله، و توفى سنة ١٢٩٦ هـ. و قد توفى الشيخ على بن محمد فى حياة أخيه الشيخ عبد الله المشار إليه، و لم يل السدانه. فهؤلاء الطبقة الأولى من أولاد الشيخ محمد بن زين العابدين.

الطبقة الثانية

أول من تولى رئاسه السدنه، منهم الشيخ عمر بن جعفر، و توفى سنة ١٣٠٤ هـ. ثم تولى بعده رئاسه السدنه الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله، و مكث رئيسا على سدنه الكعبة إلى سنة ١٣١١ هـ. فأخذ منه المفتاح، و عزل من رئاسه السدنه فى تلك السنة. و سبب ذلك أنه وقع بين أمير مكة الشريف عون الرفيق بن محمد بن عبد المعين بن عون و بين والى ولاية الحجاز، فى ذلك العصر عثمان نورى باشا، نزاع و مشاحنات فى السلطه، و دخل فى ذلك النزاع الشيخ عبد الرحمن الشيبى المشار إليه، و انضم إلى حزب والى الحجاز عثمان نورى باشا، كما انضم إلى حزبه مفاتى مكة، و رئيس السادة العلوية، و نائب الحرم، و بعض من لهم شخصيه بارزه من الأشراف، و رفع كل من الشريف عون الرفيق و عثمان نورى باشا الأمر إلى السلطان عبد الحميد خان العثمانى بن عبد المجيد خان، صاحب الولاية و السلطنه على الممالك العثمانية و الحجاز، فى ذلك العصر، و استعان عثمان

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٠٠

نورى باشا على الشريف عون الرفيق بمضبطه من الذوات المتقدمه أسماؤهم ضد الشريف عون الرفيق. فانجلت المعركة بفوز الشريف عون الرفيق على أخصامه، و كان النصر حليفه فى ذلك، فصدر أمر السلطان بعزل والى الحجاز عثمان نورى باشا، و بعزل الذوات الموقعين فى تلك المضبطه، و نفيهم جميعا من الحجاز. و نفذ الأمر و عزل الجميع من وظائفهم، و نفوا من الحجاز، غير أن الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الشيبى، فقد لطف به و لم ينف من الحجاز، و إنما بارح مكة المكرمة، و سكن الهدا، و هى قرية صغيرة واقعه بسفح جبل كرا، الذى هو بشرق مكة، و واقع بين مكة و الطائف، و هو من سلسلة جبال السروات، و يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٢٢٠٠ مترا، و يبعد عن مكة نحو ٣٥ ميلا و بينه و بين الطائف نحو ٨ أميال. و مكث الشيخ عبد الرحمن بالهدا إلى أن توفى سنة ١٣٢٠ هـ، و دفن فيها. و كان شهما كريما محبا للخير، و هو من السدنه، الذين أدركت رئاستهم و عرفتهم شخصا. ثم تولى سدانه الكعبة و رئاسه السدنه، بعده الشيخ محمد صالح بن أحمد بن محمد الشيبى سنة ١٣١١ هـ بعد عزل ابن عمه الشيخ عبد الرحمن الشيبى

المتقدم ذكره، و كان شهما هماما، فقد تولى رئاسة مجلس الشيوخ، في عهد الملك الشريف الحسين بن علي سنة ١٣٣٥ هـ، و كان ذا رأى ثاقب، و فكر واسع، و قد مكث رئيسا للسندنة ٢٤ سنة، إلى أن توفي بمكة يوم النحر، عشر ذى الحجة سنة ١٣٣٥ هـ، و كانت ولادته في أول عام ١٢٧١ هـ، و قد بلغ من العمر ٦٤ سنة.

ثم تولى بعده الشيخ عبد القادر بن علي بن محمد الشيبى، رئاسة السندنة سنة ١٣٣٥ هـ، و كان شهما هماما وديعا سموحا، له إقبال على الناس، محبا للخير، و جيها. و قد باشر عدة وظائف منها رئاسة مجلس الشيوخ، في عهد الملك الشريف الحسين بن علي، و ترأس عدة مجالس في حكومته جلاله ملك المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، و كانت له عند جلاله الملك عبد العزيز آل سعود منزلة عالية، و مكث رئيسا للسندنة ١٦ سنة، إلى أن توفي في اليوم العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٥١ هـ. و كانت ولادته في منتصف سنة ١٢٧١ هـ. و قد بلغ من العمر ثمانين سنة، و بوفاته انتهت الطبقة الثانية الذين هم أحفاد الشيخ محمد بن زين العابدين الشيبى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٠١

و أما الطبقة الثالثة من السندنة، الذين هم أبناء الأحفاد، فهم رئيس السندنة الحالى الشيخ محمد بن محمد صالح بن أحمد بن محمد بن زين العابدين، ولد سنة ١٢٩٣ هـ. و تولى رئاسة السندنة في اليوم الحادى عشر من شهر رمضان سنة ١٣٥١ هـ بعد وفاة المرحوم صاحب الفضيلة مولانا الشيخ عبد القادر بن علي المتقدم ذكره، و هو لا يزال في رئاسة السندنة إلى اليوم. و قد أدركت كثيرا من آل الشيبى ممن لم يتولوا رئاسة السندنة فمنهم من أدركته المنية و منهم من هو على قيد الحياة. أما من أدركتهم و عرفتهم بالذات ممن لم تصل إليهم رئاسة السندنة، و قد أدركتهم الوفاة منهم: الشيخ زين العابدين بن عبد الله بن محمد الشيبى، توفي في بلاد المغرب سنة ١٣٣٠ هـ. ثم الشيخ محمد سعيد بن عبد الله بن محمد الشيبى، توفي سنة ١٢٤٠ هـ. ثم الشيخ عبد الغنى بن عبد الله بن محمد الشيبى، توفي سنة ١٣٤٢ هـ ثم الشيخ جعفر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الشيبى، توفي بالطائف سنة ١٣٤٣ هـ. ثم الشيخ حسن بن عبد القادر بن علي الشيبى، توفي سنة ١٣٤٣ هـ بالطائف.

و أما الموجودون من آل الشيبى في العصر الحاضر الذين هم سدة الكعبة المعظمة فهم رئيس السندنة الحالى الشيخ محمد المتقدم ذكره، و من الطبقة الثالثة الشيخ عبد الله بن عبد القادر بن علي بن محمد بن زين العابدين الشيبى، ولد بمكة المكرمة سنة ١٢٩٧ هـ. و هو السادن الثانى بعد رئيس السندنة الحالى، و قد تقلد عدة وظائف في حكومته جلاله الملك عبد العزيز المعظم، و هو الآن حين تحرير هذا المؤلف، نائب مجلس الشورى الثانى، و رئيس هيئة المطالبة بأوقاف الحرمين الشريفين، و رئيس هيئة الإسعاف الطبى، و هو صاحب جاه و إقبال و مكارم أخلاق و همه في الأعمال و سخاء، و له حرمة و مكانة و له من الأولاد المذكور ... الخ.

انتهى كلام الشيخ عبد الله باسلامة نقلناه بتصرف. ثم قال الشيخ باسلامة:

فهؤلاء السندنة آل شيبى بن عثمان بن أبى طلحة الحجبى، المثبوت نسبهم، المعروفون عند أهل مكة خاصة و عند المسلمين عامة، بأنهم سدة الكعبة المعظمة، جاهلية و إسلاما، في عهد عبد الدار بن قصى إلى عهد شيبى بن عثمان، إلى هذا العصر، الذى نحرر فيه هذا المؤلف، و هم محل تجل و احترام و إكرام و سؤدد و فخار، جاهلية و إسلاما، كما دلت على ذلك الأخبار الواردة في حقهم، في

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٠٢

أصح المصادر، و هم لا يزالون أصحاب و جاهة في هذا العصر، عند عموم الملوك و السلاطين و الأمراء و بالأخص عند كل ممن تولى خدمة الحرمين الشريفين، أو إمارة مكة المكرمة، و عند عموم المسلمين، حيث بيتهم من أشرف بيوت قريش و وظيفتهم من أعظم الوظائف الإسلامية. و لا يزال وجودهم من معجزات رسول الله صلى الله عليه و سلم التى أخبر أمته بها بقوله: خذوها يا بنى أبى طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم. فبقاء آل شيبى، و خلود سدانة الكعبة بأيديهم، و عدم نزاعها منهم أو إسنادها إلى غيرهم،

طيلة هذه القرون، مع تبدل الولاة و الحكام على هذه البلاد، من عهد رسول الله و الخلفاء الراشدين المهديين و خلفاء بني أمية و عبد الله بن الزبير و خلفاء بني العباس و الفاطميين و ملوك الجراكسة و سلاطين عثمان و أمراء مكة من الأشراف، من عهد الشريف قتادة و أبي نمي إلى الملك الشريف الحسين بن علي، و حكم الملك سعود الأول إلى جلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، في العصر الحاضر، بل و في حكم المتغلبين من قرامطة و يمينين و غيرهم. فلا شك و لا شبهة، أنها معجزة من أعظم المعجزات الخالدة للرسول، المحسوسة الظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار. انتهى كلام الشيخ باسلامة.

و نحن نستعين بالله سبحانه و تعالى لنستكمل البقية الآن فنقول: إن الشيخ عبد الله بن عبد القادر بن علي، قد أصبح نائب مجلس الشورى، حيث أن رئيس الشرف لمجلس الشورى حينذاك هو صاحب السمو الملكي الأمير فيصل آل سعود، نائب جلاله الملك المعظم عبد العزيز آل سعود، رحمه الله تعالى. كما منح لقب الوزير المفوض، ثم توفي الشيخ عبد الله في منتصف رمضان سنة ١٣٧١ هـ رحمه الله تعالى. أما الشيخ محمد بن محمد صالح بن أحمد بن محمد بن زين العابدين الشيبى، فقد توفي في الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٨٢ هـ.

و قد لبث في رئاسة السدنة حول ثلاثين عاما، و كان رحمه الله، عذب الحديث، حازما في الأمور، و لم يخلف أولادا، و بوفاته انتهت الطبقة الثالثة. فتولى من الطبقة الرابعة بعده الشيخ أمين بن عبد الله الشيبى سنة ١٣٨٢ هـ و هو السادن الأول، و ناظر وقف آل الشيبى، و عضو مجلس الشورى حاليا. و الشيخ أمين المذكور له اطلاع واسع في الثقافة العامة، صريح محب لمحبيه، أمتعته الله بالصحة و الإقبال ولد سنة ١٣٢٥ هـ و له من الأولاد الذكور الدكتور فيصل أمين الشيبى و عدنان أمين الشيبى و السدنة الموجودون حاليا كلهم من الطبقة الرابعة نذكرهم حسب ترتيب السن و هم:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٠٣

الشيخ أمين المتقدم ذكره و الشيخ عمر بن جعفر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الشيبى، و هو السادن الثانى للكعبة المشرفة، و أولاده محمد سعيد و عبد المحسن و خالد و قد ولد الشيخ عمر سنة ١٣٣١ هـ. ثم الشيخ طه الشيبى، ولد سنة ١٣٣٣ هـ و له من الأولاد عبد القادر و حسن و حسين و عبد الملك و محمد و عادل و ممدوح. ثم الشيخ عاصم الشيبى، ولد سنة ١٣٣٧ هـ و تحصّل على الشهادة العالمية، ثم تحصّل على إجازة التدريس في القضاء العالى من الأزهر و هو الآن من أساتذة الجيل، يساهم بنشاطه في حقل التدريس، و له من الأولاد سعود و محمد علي. ثم الشيخ زين العابدين ولد سنة ١٣٣٩ هـ. و في السادس من شهر ذى الحجة عام ١٣٨٣ هـ أراد القدوم من المدينة إلى مكة للمشاركة في غسل الكعبة المشرفة، مع بقية السدنة في اليوم السابع من ذى الحجة، كما هي العادة سنويا، ولأداء مناسك الحج، ولكنه توفي في الطريق إلى مكة، و هو بملابس الإحرام، قاصدا الحج، و ذلك عقب حادث أليم وقع على سيارته في الطريق، فكان لوفاته حزن عميق لدى محبيه و معارفه، لما اشتهر به من حلو الحديث، و حب الخير للجميع، و له من الأولاد محمد صالح و عبد الوهاب و عبد اللطيف و عبد الله و مصطفى و زينى.

انظر: الصور أرقام ١١٦، الشيخ عبد القادر بن علي الشيبى، و رقم ١١٧ الشيخ عبد الله الشيبى سادن الحرم، و رقم ١١٨ أمين بن عبد الله الشيبى رئيس السدنة، و رقم ١١٩ الشيخ عمر بن جعفر الشيبى السادن الثانى للحرم، و رقم ١٢٠ ثلاثة من آل الشيبى، و رقم ١٢١ عاصم بن عبد الله الشيبى بين ولديه، و رقم ١٢٢ سراج بن عبد الله الشيبى

ثم الشيخ طلحة بن حسن الشيبى ولد سنة ١٣٤٠ هـ. و تحصل على الشهادة التوجيهية عام ١٣٦٣ هـ من مدرسة تحضير البعثات بمكة (العزيرية الثانوية) ثم عكف على الدراسة الخاصة في المسجد الحرام، و هو الآن الوكيل الأول للمدرسة العزيرية الثانوية بمكة، بعد أن قام بالتدريس فيها سنوات طويلة. فقد خدم التعليم حول عشرين عاما، بذل فيها الكثير من الجهد و النصح، و له من الأولاد عثمان و عبد الرحمن و سليمان و عبد الله و إبراهيم و زهير و ناصر و هو صديق عزيز على ساهم في إعداد هذه البحوث، مساهمة تذكر فتشكر، جزاه الله خيرا.

ثم الشيخ سراج الشيبى ولد سنة ١٣٤٤ هـ، و هو من موظفى إدارة الحرم الشريف بمكة، و له من الأولاد عمر و فهد.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٠٤

ثم الشيخ عبد العزيز الشيبى ولد سنة ١٣٤٨ هـ، و هو عضو فى إدارة الحرم الشريف بمكة و هو المشرف على وقف آل الشيبى و له من الأولاد طلال و هشام و محمد و أحمد. و بهذا انتهى ذكر الطبقة الرابعة و أبنائهم.

و يلاحظ أن الجميع هم إخوة، ما عدا الشيخ عمر و الشيخ طلحة، فهم أبناء عمومة لهم.

و عدد أفراد العائلة فى عامنا الحالى عام ١٣٨٤ هـ اثنان و ثمانون شخصا، نصفهم من الذكور تقريبا حسب ما مر.

عادتهم

و قد جرت العادة أن يوضع المفتاح لدى أكبرهم سنا و هو السادن الأول.

و عند فتح الكعبة يشعر السادن الأول جميع السدنة (الكبار منهم طبعاً) بوقت كاف ليتمكنوا من الحضور جميعاً، إن أمكن ذلك، أو بعضهم. و ليس للكعبة الآن مواعيد معينة تفتح فيها، إلا المواعيد التى تغسل فيها من الداخل، و هى تغسل مرتين فى العام: المرة الأولى فى صباح ٢٧ شعبان و الثانية صباح ٧ الحجة من كل عام، فإذا كان يوم غسل الكعبة يحضر جميع السدنة، و يفتح الباب، و ينتظرون وصول ولاة الأمر، و كثيرا ما يجرى هذا الحفل، تحت رئاسة سمو الأمير فيصل المعظم، و عند تشريفه يصلى داخل الكعبة ركعتين، هو و من يكون بمعيته من الأمراء أو الضيوف، ثم يصب ماء زمزم ممزوجاً بماء الورد، ثم تمسح الجدار بعطر الورد أو بعطر العود، و تبخر بالعود و بذلك تنتهى مراسم الغسيل. و غسل الكعبة قديم من عام الفتح، حيث طهر النبى صلى الله عليه و سلم الكعبة من الأصنام و غسلها بيده الشريفه. أما مواعيد فتح الكعبة فى الأزمنة الماضية فقد تكلم عنها البحاث الرحالة ابن جبير.

ترجمة خالد بن عبد الله القسرى المتقدم ذكره

تولى خالد بن عبد الله القسرى ولاية مكة المشرفة مرتين، فى خلافة عبد الملك بن مروان، ثم فى خلافة ابنه سليمان، و كان أيضا قبل ذلك واليا على الشام، و هو

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٠٥

أول من استصبح فى المسجد الحرام حول الكعبة، كما هو أول من فرق بين الرجال و النساء فى الطواف، أجلس عند كل ركن من أركان الكعبة حرساً معهم السياط يفترقون بين الجنسين. و سبب ذلك أنه لما بلغه قول الشاعر:

يا حبذا الموسم من موفدو حبذا الكعبة من مشهد

و حبذا الآتى يزاحمنا عند استلام الحجر الأسود

قال خالد: أما إنهن لا يزاحمنك بعد هذا و أجلس عند كل ركن حرساً بأيديهم السياط يمنعون النساء أن تختلط بالرجال.

و مثل هذا ما حكاه الزمخشري فى خالد: قال لما بلغ خالد ما قاله رجل من موالى الأنصار:

ليتنى فى المؤذنين نهارى إنهم يبصرون ما فى السطوح

فيشيرون أو يشير إليهم بالهوى كل ذات دلّ مليح

أمر بهدم المنائر، و فى هذا هجاه الفرزدق بثلاثة أبيات.

و خالد القسرى هو الذى أدار الصفوف حول الكعبة، فقد كان الناس يصلون التراويح فى رمضان، فى أعلى المسجد الحرام، تركز حربة خلف مقام إبراهيم بربوة، فيصلى الإمام خلف الحربة، و الناس وراءه، فمن أراد صلى مع الإمام، و من أراد طاف و ركع خلف المقام.

فلما ولى خالد القسرى مكة، من قبل عبد الملك بن مروان، و حضر شهر رمضان، أمر خالد الأئمة أن يتقدموا فيصلوا خلف المقام و أدار الصفوف حول الكعبة، لأن أعلى المسجد ضاق بالناس، فقبل له: تمنع بذلك الناس من الطواف.

قال: فإنما أمرهم يطوفون بين كل ترويحتين بطواف سبعا، و قد رتبهم فى صلاة التراويح و الطواف بالبيت، بحيث تنقضى الصلاة مع طلوع الفجر، و قد ذكر الإمام الأزرقى تفصيل ذلك.

و لقد أجرى خالد القسرى من عين ثقبه بجبل ثبير، فى طريق منى ماء عذبا، تجرى إلى المسجد الحرام، و تسكب فى فسقية من رخام بين زمزم و المقام، و أراد بذلك أن يصرف الناس عن شرب ماء زمزم فلم يبلغ بغيته، لأن أهل مكة أعرضوا عن ماء هذه العين و رغبوا فى زمزم، فلما رأى خالد ذلك صعد المنبر يخطب فيهم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٠٦

و يؤنبهم على ذلك فلم يلتفتوا لكلامه. انتهى باختصار و تصرف من تاريخ الغازى و غيره.

و لخالد بعض أعمال مستنكرة: منها ما نلخصه من تاريخ الغازى: و هو أنه لما بعث خالد القسرى سعيد بن جبير بعد أن شدّه وثاقا إلى الحجاج، قال له رجل من أهل الشام: إن الحجاج قد أندر به و أشعر به من قبلك فما عرض له، فلو جعلته بينك و بين الله لكان أذكى من كل عمل يتقرب به إلى الله تعالى. قال خالد، و ظهره إلى الكعبة قد استند إليها: و الله لو علمت أن عبد الملك لا يرضى عنى إلا بنقض هذا البيت حجرا حجرا لنقضته فى مرضاته. و سعيد بن جبير هو أحد الأعلام السابقين أخذ العلم عن عبد الله بن عباس و عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهم، قال له ابن عباس: حدّث، فقال: أحدث و أنت ههنا؟ فقال: أليس من نعمه الله عليك أن تحدّث و أنا شاهد، فإن أصبت فذاك و إن أخطأت علمتك، سعيد بن جبير و قصته مع الحجاج مذكورة فى تاريخ ابن خلكان و غيره.

و منها: أنه أحدث حدثا منكرا، فقام إليه طلحة بن عبد الله بن شيبه من بنى عبد الدار بن قصى. و قيل بل هو عبد الله بن شيبه الأعجم، فأمره بالمعروف و نهاه عما فعل، فغضب عليه خالد غضبا شديدا، و أخاف الرجل، فخرج إلى سليمان بن عبد الملك يشكوه و يتظلم منه، فكتب سليمان إلى خالد أن لا يتعرض له بأمر يكرهه، فلما أخذ خالد الكتاب وضعه، و بعد ذلك طلب من عبد الله بن شيبه أن يفتح له الكعبة فامتنع عليه، فضربه خالد مائة سوط على ظهره، فخرج عبد الله بن شيبه و أتى سليمان فكشف عن ظهره بين يديه و قال له: هذا الذى أوصيته بى.

فكتب سليمان إلى خاله محمد بن هشام أن يقتصّ لعبد الله من خالد القسرى، فأخرجه محمد بن هشام إلى باب المسجد و أمر بضربه مائة سوط بعد تجريده و حضر الناس و القرشيون.

و منها: إيصاله الماء من عين ثقبه بجبل ثبير إلى المسجد الحرام، بين زمزم و المقام، و أراد أن يحمل الناس للشرب منه و ترك ماء زمزم، فلم يمثل الناس أمره و خطب فى أهل مكة و أنبهم فى كلامه على ذلك فلم يلتفتوا إلى كلامه و كان يذم ماء زمزم و يسميها أم جعلان و لا يشرب منها. و تفصيل هذه الحادثة فى تاريخ الغازى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٠٧

و منها: أنه كان يجهر و يأمر بسبّ على بن أبى طالب فوق المنابر، و أثنى على الحجاج ثم أمر بلعنه، و أنه فى سبيل طاعة بنى أمية كان يقول: لو كنت أعلم أن هذه الوحوش لو نطقت و لم تقرّ بالطاعة لأخرجتها من الحرم. انتهى ملخصا من تاريخ الغازى.

هذه الأمور مما يجرح فى خالد القسرى و يؤاخذ بها. لكن صدقنا الأستاذ السباعى فى كتابه "تاريخ مكة" يستبعد وقوع مثل هذه الأعمال من خالد القسرى و يقول ربما أشاعها بعضهم انتقاما منه أو من بنى أمية لأن هذه الجرأة لا تتفق مع الدين.

و لقد كدنا أن لا نصدق كل ذلك فى خالد القسرى، لكن رأينا فى تاريخ ابن خلكان ما يؤيد ذلك و لا سبيل إلى تكذيبه، و نحن نلخص هنا ما ذكره ابن خلكان فى ترجمته فقد جاء فيه: هو خالد بن عبد الله بن يزيد البجلي ثم القسرى، بفتح القاف و سكون السين المهملة و بعدها راء نسبة إلى قسر بن عبقر، و هى بطن من بجيلة، كان أمير العراقيين من قبل هشام بن عبد الملك الأموى، و ولى قبل

ذلك سنة تسع وثمانين للهجرة، و لجدته يزيد صحبة مع رسول الله صلى الله عليه و سلم، و خالد معدود من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة و البلاغة، و كان جوادا كثير العطاء، و كانت أمه نصرانية، و ذكر أبو الفرج الأصبهاني، أن خالدا كان من شق الكاهن، و هو خالد بن عبد الله بن أسد بن يزيد بن كرز، و ذكر أن كرز كان دعيا و أنه كان من اليهود، فجنى جناية فهرب إلى بجيلة فانتسب فيهم، و كرز، بضم الكاف و سكون الراء و بعدها زاء.

قال ابن خلكان: كان شق المذكور ابن خاله سطيح الكاهن المبشر بالنبي صلى الله عليه و سلم، و كان شق و سطيح من أعاجيب الدنيا: فكان شق نصف إنسان و لذلك سمي بشق فكانت له يد واحدة و رجل واحدة، و أما سطيح فكان جسدا ملقى، لا جوارح له، و كان وجهه في صدره، و لم يكن له رأس و لا عنق، و كانت ولادة شق و سطيح في يوم واحد، و فتح عليهما في علم الكهانة ما هو مشهور عنهما و عاش كل واحد منهما ستمائة سنة. اه.

أما خبر وفاة خالد القسري: فقد ذكر الطبري في تاريخه ما ملخصه: أن هشاما ولى خالدا العراق سنة خمس و مائة، ثم عزله و ولى له يوسف بن عمر الثقفي و هو ابن عم الحجاج، و سبب عزل خالد، أن امرأة أخته فقالت: أصلح الله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٠٨

الأمير إني امرأة مسلمة، و إن عاملك فلانا المجوسى و ثب علي فأكرهني على الفجور و غضبني نفسي. فقال لها خالد: كيف وجدت قلفته؟

فكتب بذلك حسان النبطي إلى هشام، فكتب هشام إلى يوسف بن عمر و كان باليمن بولاية العراق و محاسبه خالد عماله، و أمره أن يستخلف ابنه الصيملت على اليمن، فخرج يوسف، في نفر يسير، حتى قدم الكوفة سحرا، ثم أخذ خالدا و عماله و حاسبه و حبسه و عذبه، ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد. قيل إنه وضع قدميه بين خشبتين و عصرهما حتى انقصفتا، ثم رفع الخشبتيين إلى ساقيه و عصرهما حتى انقصفتا، ثم إلى وركيه، ثم إلى صلبه، فلما انقصف صلبه مات، و هو في ذلك لا ينطق و لا يتأوه. و كان ذلك في المحرم سنة ست و عشرين، و قيل في ذى القعدة سنة خمس و عشرين و مائة، بالحيرة و دفن في ناحية منها ليلا. و الحيرة، بينها و بين الكوفة فرسخ، كانت منزلة آل النعمان بن المنذر ملوك العرب. انتهى كل ذلك من تاريخ ابن خلكان.

كيس مفتاح الكعبة و الكراسى التي كانت في داخلها

لم نقف على من أحدث كيسا خاصا لمفتاح الكعبة، و لا متى حدث.

و الظاهر أنه حدث ذلك، عندما اختصت مصر بصنع كسوة الكعبة المشرفة، فعمل كيس المفتاح تبعا لكسوة الكعبة، و كسوة مقام إبراهيم، و ستارة باب الكعبة، و ستارة باب التوبة، أى الباب الموصل لسطح الكعبة من داخلها، و الله تعالى أعلم بغيبه، و زخرفة كيس المفتاح و تحسين منظره تابعا لكسوة الكعبة و كل ذلك يكون في مصر.

قال الغازي في تاريخه نقلا عن الرحلة الحجازية: و بجانب باب الكعبة، على يسار الداخل، طاولة من الخشب، مغطاة بستارة من الحرير الأخضر، موضوع عليها كيس مفتاح الكعبة، و هو من الأطلس الأخضر المزركش بالقصب، يأتي إليها سنويا من مصر مع الكسوة الشريفة.

و صفة هذا الكيس كما ذكره مؤلف مرآة الحرمين، رحمه الله تعالى، حيث يقول: هذا الكيس من الأطلس الساسي الأخضر، الذى مقاسه ذراع و ثمن، و موضوع عليه مخيش فضة، ملبس بالذهب البندقى الأصفر، الذى زنته (٤٥) خمس و أربعين مثقالا و كنتير ششخانة أبيض، و ترتر فضة أبيض مثقالين، و هو

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٠٩

مبطن بالأطلس الساسي الأخضر، و مركب عليه قيطان بشرابتين مصنوعتين من قصب، و مخيش عقادى أصفر، و كنتير ششخانة. و قد

نقش في إحدى جهتيه إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا و فوق ذلك و تحته: أمر بعمل هذا الكيس المبارك مولانا السلطان محمد الخامس، و في الجهة الأخرى في الوسط قوله تعالى: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ و إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ و فوق ذلك و تحته جدد هذا أفندينا عباس حلمي باشا خديوى مصر سنة (١٣٢٧) سبع و عشرين و ثلاثمائة و ألف هجرية. انتهى.

انظر: صورة رقم ١٢٣، كيس من الحرير المطرز من الوجهين لمفتاح باب الكعبة المعظمة

و ما جاء فيما تقدم، من أن كيس المفتاح، يوضع على طاولة من الخشب، مغطاة بستارة من الحرير الأخضر، في جوف الكعبة، على يسار من دخلها، هذه الطاولة أو بعبارة أخرى هذا الكرسي، هو موضوع من قديم الزمان، داخل الكعبة، ربما كان موضوعا فيها قبل الإسلام، فقد روى البخارى في صحيحه في كتاب الحج، عن واصل، عن أبى وائل، قال: جلست مع شبيهة على الكرسي في الكعبة، فقال: لقد جلس هذا المجلس عمر، رضى الله عنه، فقال: لقد هممت أن لا أضع فيها صفراء و لا بيضاء إلا قسمته. قلت: إن صاحبك لم يفعل. قال: هما المرآن أقتدى بهما. اه.

و شبيهة المذكور هنا هو شبيهة بن عثمان بن أبى طلحة الذى ينتهى إليه نسب سدنة الكعبة فى عصرنا و إليه ينسبون فيقال لهم الشيبون، و قد أسلم شبيهة عام الفتح على أصح الروايات و قد ذكرنا ترجمته.

و الظاهر، و الله تعالى أعلم، أن الكرسي الذى كان فى الكعبة قديما كان لجلوس كبير سدنة الكعبة عليه، عند فتحها، و لا بأس من ذلك، ما دام المرء جالسا بالأدب اللائق، ببيت الله الحرام، و بالأخص من كان من سدنته أو خدمه.

و لقد ذكر الأزرقى فى تاريخه، عند الكلام على ذراع الكعبة من داخلها، أنه كان فى الكعبة ثلاثة كراسى، و ذكر وصفها، و لكننا لم نفهم تماما معنى كلامه، و لا بأس أن نسوق عبارته بنصها للإحاطة. قال رحمه الله تعالى: و فى الكعبة ثلاثة كراسى من ساج " و هو ضرب من الشجر " طول كل كرسي فى السماء ذراع و نصف، و عرض كل كرسي منها ذراع و ثمانى أصابع فى مثلها، و الكراسى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢١٠

ملبسة ذهباً و فوق الذهب ديباج و تحت الكراسى رخام أحمر بقدر سعة الكرسي، و طول الرخام فى السماء سبع أصابع، و على الكراسى أساطين متفرقة ملبسة:

الاسطوانة الأولى، التى على باب الكعبة، ثلثها ملبس صفائح ذهب و فضة، و بقيتها مموهة، و ذرع غلظها ثلاثة أذرع، و الاسطوانة الثانية، و هى الوسطى من الأساطين، ملبسة صفائح ذهب و فضة، و ذرع غلظها ثلاثة أذرع، و الاسطوانة الثالثة، و هى التى تلى الحجر، ثلثها ملبس صفائح ذهب و بقيتها مموهة، و ذرع غلظها ذراعان و نصف، و فوق الأساطين كراسى ساج مربعة منقوشة بالذهب و الزخرف، و على الكراسى ثلاث جوائز ساج، أطرافها على الجدر الذى فيه باب الكعبة، و أطرافها الأخرى على الجدر الذى يستقبل باب الكعبة و هو دبرها، و الجوائز منقوشة بالذهب و الزخرف، و سقف الكعبة منقوش بالذهب و الزخرف، و يدور تحت السقف إفريز منقوش بالذهب و الزخرف، و تحت الإفريز طوق من فسيفساء. انتهى كلام الأزرقى.

فنحن لم نفهم معنى كلام الإمام الأزرقى فهما تاما، فهل الكراسى الثلاثة التى ذكرها الأزرقى هى مثل الكراسى المعروفة فى عصرنا، بمعنى أن الكرسي هو ما يقعد عليه، بقطع النظر عن شكله و كيفية صنعه و تعدد أنواعه، أم له معنى آخر فى عرف زمانه، ثم ما معنى وضع الكراسى على رخام أحمر، و أرض الكعبة كانت مفروشة بالرخام فى زمانه، و ما معنى وضع الأساطين على الكراسى و وضع كراسى آخر فوق الأساطين أيضا، و ما معنى وضع الجوائز على الكراسى أطرافها على الجدارين المتقابلين الشرقى و الغربى، فهل معنى الجوائز وضعه أخشاب طوال عرضا على الكراسى ليعلق عليها بعض الأشياء، أم المقصود منها شىء آخر؟

و النتيجة التى فهمناها أن هذه الكراسى لم تكن للجلوس و القعود. و الله تعالى أعلم بالغيب.

أما فى عصرنا الآن: فإنه لا يوجد كرسي فى الكعبة يصلح للجلوس عليه، و لكنه يوجد فيها طاولة كالكراسى و هى من الخشب العودى، بنى اللون، مسدس الأضلاع، طول كل ضلع نحو خمسين سنتيمترا و ارتفاعه من الأرض نحو متر واحد، و على أضلاعه

كتابات محفورة على نفس الخشب، و الظاهر أنه من عهد السلطان عبد الحميد الأول. و هذه الطاولة معمولة لوضع كيس مفتاح الكعبة عليها، و كذلك بعض الأشياء الصغيرة كمبخرة و عطر و نحوهما.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢١١

ثم بعد أيام من كتابة هذا نظرنا إلى الكرسي الموجود الآن في داخل الكعبة المشرفة لتتحقق عنه أكثر. و إليك وصفه بدقة تامة:

وصف الكرسي الذي في الكعبة في وقتنا الحاضر

لقد ذكرنا أنه يوجد الآن في الكعبة كرسي من الخشب، و هنا نذكر وصف هذا الكرسي فنقول: الكرسي الموجود في عصرنا الحاضر في داخل الكعبة المشرفة، عمل سنة (١٢٧٥) هجرية، و هو سداسي الشكل متساوي الأضلاع يشبه كراسي الفوانيس الكبيرة، يضع فيه سدنة الكعبة بعض الأشياء الخفيفة كقفل بابها و مفتاحه و كيس المفتاح و زجاجة العطر و نحو ذلك، و طول كل ضلع من أضلاعه الستة نصف متر، و ارتفاعه ثمانون سنتيمترا، و هو مسدود من جميع جوانبه ما عدا جانب واحد الذي فيه الباب و هو مصراعان " درفتان " و قد كتب بالحفر على نفس خشب الكرسي في كل جانب من جوانبه الستة ما يأتي:

(١) جدد هذا الصندوق في عهد سلطان المسلمين و خليفة.

(٢) رسول رب العالمين مولانا السلطان الغازي عبد.

(٣) المجيد بن المرحوم السلطان محمود خان اللهم انصره.

(٤) نصرا تعز به الدين و كان المباشر يومئذ الحاج.

(٥) رضا فريق باشا الأمور بإيصال ميزاب الكعبة المعظمة غفر الله له.

(٦) و للمسلمين في سنة خمس و سبعين و مائتين و ألف هجرية.

هذا ما كتب على جوانب الكرسي، و يظهر من السطر الأول من جملة "جدد هذا الصندوق" أنه كان في داخل الكعبة كرسي قبل هذا الكرسي حصل فيه خراب من قدم العهد، فرفعوه و عملوا بدلا عنه هذا الكرسي.

مواعيد فتح الكعبة في الجاهلية و الإسلام

لما كانت الكعبة المعظمة بيت الله الحرام، و أقرب موضع لإجابة الدعاء، و إليهما يلجأ الخائف المدعور و المظلوم و المقهور، و الفقير العسير، و المذنب الكسير، و عندها تسكب العبرات، و ينتظر تفريج الكربات من رب البيت الكريم الحليم، و البر التواب الرحيم، ذي الجلال و الإكرام، كان الدخول إليها أكد لراحة الضمير، و أشد اطمئنانا للقلوب، و لو لم يطلب الدخول إلى الكعبة، لم يجعل خليل التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢١٢

الله إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، لها بابا، حينما أقام بناءها، و رفع قواعدها، فإذا كانت بيوت الملوك و الوجهاء محلا للأمن و الإكرام، كان بيت الله، عز شأنه، أفضل مكان للإكرام و الإحسان و العفو و الغفران، و كان بلده الأمين أحسن موقع للأمن و الأمان و الراحة و الاطمئنان، فاقصدوا بلد الله الأمين لأداء فريضة الحج و العمرة تكونوا من الفائزين، و تشرفوا بدخول بيته الحرام و اسكبوا فيه عبرات التوبة و الندم، و اطلبوا من فضله العميم و كرمه العظيم، ينشر لكم ربكم من رحمته و يهيء لكم من أمركم مرفقا، و تكونوا من الآمنين يوم الفزع الأكبر.

فالدخول إلى بيت الله، بالأدب و السكينة، مطلوب مرغوب، و قد جرت العادة بذلك حتى أيام الجاهلية. قال الإمام الأزرقي، في تاريخه: أخبرني محمد بن يحيى، عن الواقدي، عن عبد الله بن يزيد، عن سعيد ابن عمرو الهذلي، عن أبيه، قال: رأيت قريشا يفتحون البيت في الجاهلية يوم الاثنين و الخميس، و كان حجابهم يجلسون عند بابه، فيرتقى الرجل، إذا كانوا لا يريدون دخوله، فيدفع و يطرح،

و ربما عطب، و كانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء، يعظمون ذلك و يضعون نعالهم تحت الدرجة، أخبرني محمد بن يحيى، عن الواقدي، عن أشياخه، قالوا: لما فرغت قريش من بناء الكعبة، كان أول من خلع الخف و النعل، فلم يدخل بهما، الوليد بن المغيرة، إعظاما لها، فجرى ذلك سنة. انتهى من الأزرقى.

و ننقل هنا تفصيل مواعيد فتح الكعبة المشرفة من كتاب "المحمل و الحج" فقد جاء فيه ما نصه:

كانت الكعبة فى الجاهلية تفتح يوم الاثنين، و يوم الجمعة، و قبل يوم الخميس عوضا عن الجمعة و أما فى الإسلام فكانت تفتح يوم الجمعة، و ترك يوم الاثنين، ثم أعيد فتحها فى يوم الاثنين.

و قال ابن جبير فى رحلته سنة ٥٧٩ هـ أنها تفتح يوم الاثنين، و يوم الجمعة إلا فى رجب فتفتح فى كل يوم. اه.

و قد تفتح فى أى وقت لمن يريد زيارتها من الحجاج، نظير أتاوة يتقاضاها أمين المفتاح هناك، و يكون ذلك مسورا فى اليوم العاشر للرجال، و فى الحادى عشر منه للنساء.

و مواعيد فتحها كالاتى:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢١٣

فى يوم ١٠ المحرم للرجال، و فى يوم ١١ منه للنساء.

فى ليلة ١٢ ربيع الأول للدعاء لجلالة الملك ابن السعود، و لا يدخلها الزوار.

فى يوم ١٢ ربيع الأول للرجال، و فى ليلة ١٣ منه للنساء.

فى يوم ٢٠ ربيع الأول لغسلها.

فى أول جمعة من رجب للرجال، و فى اليوم التالى للنساء.

فى ليلة ٢٧ رجب للدعاء لجلالة الملك ابن السعود.

فى يوم ٢٧ رجب للرجال، و فى المساء للنساء.

فى ليلة نصف شعبان للدعاء.

فى يوم ١٥ شعبان للرجال، و فى المساء للنساء.

فى يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال، و فى اليوم التالى للنساء.

فى ليلة ١٧ رمضان للدعاء لجلالة الملك.

فى آخر جمعة من رمضان للدعاء أيضا.

فى نصف ذى القعدة للرجال، و فى اليوم التالى للنساء.

فى ٢٠ ذى القعدة لغسلها.

و تفتح على سبيل الخصوصية لبعض الأعيان، و تفتح لمن يريد الزيارة بعد أن يدفع رايالا لمن يتولى فتح الباب، و إذا كان الزائر غنيا يدفع بضعة جنيهات، و بعض الناس ينتهز فرصة غسل الكعبة و يدخل مع الغاسلين.

فى ٢٨ ذى القعدة تؤزر الكعبة بإزار أبيض فى أسفلها، و هذا اليوم الأخير ليس بيوم دخول عام، و إنما يدخلها القيم و أمير الحج المصرى و أتباعهما المعينون فى ذلك، لتعليق الكسوة الجديدة. و لا ينصب سلم للدخول و إنما يدخل من تكلف الصعود بمعين أو بخفة أعضاء، و على باب أحد خدم الأمير يمنع الناس من الدخول إلا أن الناس يكثرونه، فإن منعوا من جانب، دخلوا من جانب آخر،

و ربما يتعامى عن البعض، و يحصل لكثير من الناس فى ذلك المكان سوء أدب، من ضرب أو شتم، فالأولى عدم الدخول إلا لمن

تيسر له ذلك عفوا. انتهى كل ذلك من كتاب "المحمل و الحج".

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢١٤

و لقد ذكر الأستاذ السباعي حفظه الله تعالى في كتابه "تاريخ مكة" أن الملك المسعود، صاحب مصر، الملك الكامل الأيوبي و كان في اليمن اتصل به الشريف راجح بن قتادة، و استثاره ضد أخيه الحسن و زين له أن يحتل مكة، فذهب المسعود إليها و احتلها في اليوم الرابع من ربيع الأول سنة (٦١٩) تسع عشرة و ستمائة، أو في التي بعدها، و ظل فيها إلى ما بعد فراغه من الحج، ثم توجه إلى اليمن بعد أن أناب أحد قواده. قال السباعي: و سهل المسعود على الحجاج أمر دخول الكعبة، فأمر بجعل بابها مفتوحا ليلا و نهارا، مدة مقام الحج فيها، و أطلق لسدنة الكعبة من بني شيبه مالا لقاء ما كانوا يأخذونه بإغلاق الباب و فتحه لمن أرادوا، و تحاشيا من زحام الناس لقصر المدة التي كانوا يفتحون فيها الباب، و عظم ما يناله الناس من إرهاق و ضرب و موت. انتهى منه.

و نظن و الله تعالى أعلم أن هذه هي أول مرة تفتح الكعبة ليلا و نهارا فلم نسمع بحصول ذلك لا من قبل و لا من بعد.

نقول: لقد سألنا صاحب الفضيلة صاحب مفتاح بيت الله الحرام عن مواعيد فتحه في أيامنا، فأجابنا بأنه ليس هناك تحديد لفتح الكعبة في أيام أو مواعيد مخصوصة إلا بطلب من صاحب الجلالة، أو من أرباب المصالح من شخصيات الحجاج أو تفتح لسبب قوى من الأسباب الداعية لذلك، و الفتح يجرى عادة من رئيس بني شيبه صاحب مفتاح بيت الله الحرام. أما الفتحات و تخصيصها للرجال أو النساء، فقد جرت العادة من السابق أن يكون يوما للرجال و يوما للنساء، و ذلك في الفتحات العامة التي تتلو الفتحات الخاصة عادة.

هذا نص جواب سادن بيت الله الحرام، مع العلم بأن مواعيد فتح الكعبة المشرفة لم يرد فيها أمر شرعي، و إنما هي عادة اصطلاح عليها الشيبون.

وصف فتح الكعبة و دخول الناس فيها

يقول ابن جبير الأندلسي، في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان و سبعين و خمسمائة هجرية، يصف فتح الكعبة و دخول الناس فيها ما يأتي:

و باب الكعبة الكريم يفتح كل يوم اثنين و يوم جمعة، إلا في شهر رجب فإنه يفتح في كل يوم. و فتحه أول بزوغ الشمس. يقبل سدنة البيت الشيبون، فيبادر منهم من ينقل كرسيًا كبيرًا شبه المنبر الواسع، له تسعة أدراج مستطيلة، قد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢١٥

وضعت له قوائم من الخشب متضامنة مع الأرض، لها أربع بكرات كبار مصفحة بالحديد لمباشرتها الأرض، يجرى الكرسي عليها، حتى يصل إلى البيت الكريم، فيقع الأعلى متصلًا بالعتبة المباركة من الباب، فيصعد زعيم الشيبين إليه، و هو كهل جميل الهيئة و الشارة، و بيده مفتاح القفل المبارك، و معه من السدنة من يمسك في يده سترا أسودا، تفتح يديه به أمام الباب، خلال ما يفتحه الزعيم الشيبى المذكور، فإذا فتح القفل، قبل العتبة، ثم دخل البيت وحده، و سد الباب خلفه، و أقام قدر ما يركع ركعتين، ثم يدخل الشيبون و يسدون الباب أيضا، و يركعون، ثم يفتح الباب و يبادر الناس بالدخول، و في أثناء محاولة فتح الباب الكريم، يقف الناس مستقبلين إياه بأبصار خاشعة، و أيد مبسوطة إلى الله ضارعة. و إذا انفتح الباب كبر الناس و علا ضجيجهم، و نادوا بالسنه مستهله:

اللهم افتح لنا أبواب رحمتك و مغفرتك يا أرحم الراحمين ثم يدخلون بسلام آمنين.

و يقول ابن جبير، في مكان آخر، من رحلته ما يأتي: و في هذه الأيام- أى بعد نزول الناس من منى في النفر الثاني و انتهاء أعمال الحج- يفتح البيت الكريم كل يوم للأعاجم العراقيين و الخراسانيين، و سواهم من الواصلين مع الأمير العراقي، فظهر من تراحمهم و تطارحهم، على الباب الكريم، و وصول بعضهم على بعض، و سباحة بعضهم على رؤوس بعض، كأنهم في غدیر من الماء، أمر لم ير أهول منه، يؤدي إلى تلف المهج، و كسر الأعضاء، و هم في خلال ذلك لا يباليون، و لا يتوقفون، بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم، في فرط الطرب و الارتياح كاللقاء الفرائش بنفسه على المصباح، فعادة أحوال السرو اليمنيين، في دخولهم البيت المبارك، على الصفة المتقدمة الذكر، حال تودة و وقار، بالإضافة إلى هؤلاء الأعاجم الأغنام، نفعهم الله بنياتهم، و قد فقد منهم في ذلك المزدهم

الشديد، من دنا أجله، والله يغفر للجميع، وربما زاحمهم، في تلك الحال، بعض نسائهم، فيخرجن وقد نضجت جلودهن طبخا، في مضيق ذلك المعتزل، الذي حمى بأنفاس الشوق وطيّشه، والله ينفع الجميع بمعتقدده وحسن مقصده بعزته.

ويقول ابن جبير، في موضع آخر من رحلته، يصف قبائل السرو من اليمن في الكعبة، ما يأتي: وإذا فتح باب الكعبة، فهم الداخلون بسلام، فتراهم، في محاولة دخولهم، يتسلسلون كأنهم مرتبطون بعضهم ببعض، يتصل منهم على هذه الصفة، الثلاثون والأربعون إلى أزيد من ذلك، والسلاسل منهم يتبع بعضهم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢١٦

بعضا، وربما انفصمت بواحد يميل عن المطلع المبارك إلى البيت الكريم، فيقع الكل لوقوعه، فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدي إلى الضحك، ثم ذكر صلاتهم العجيب. انتهى.

ويقول ابن جبير أيضا عن دخول قبائل السرو من اليمن الكعبة ما يأتي:

فلما كان يوم الاثنين السابع والعشرين من الشهر المذكور، شهر ذى القعدة، فتح البيت العتيق، وتولى فتحه من الشيبين ابن عم الشيبى المعزول، هو أمثل طريقة منه، على ما يذكر، فزادهم السرو للدخول على العادة، فجاءوا بأمر لم يعهد فيما سلف، يصعدون أفواجا حتى يغص الباب الكريم بهم، فلا يستطيعون تقدما ولا تأخرا، إلى أن يلجوا على أعظم شقة، ثم يسرعون الخروج فيضيق الباب الكريم بهم، فينحدر الفوج منهم على المصعد، وفوج آخر صاعد فيلتقيه وقد ارتبط بعضهم إلى بعض، فربما حمل المنحدرون في صدور الصاعدين، وربما وقف الصاعدون للمنحدرين، وتضاغظوا، إلى أن يميلوا، فيقع البعض على البعض، فيعابن النظارة منهم مرأى هائلا، فمنهم سليم وغير سليم، وأكثرهم إنما ينحدرون وثبا على الرؤوس والأعناق، ومن أعجب ما شاهدناه في يوم الاثنين المذكور، أن صعد بعض من الشيبين، أثناء ذلك الزحام، يرومون الدخول إلى البيت الكريم، فلم يقدروا على التخلص، فتعلقوا بأستار حافتي عضادتي الباب، ثم إن أحدهم تمسك بإحدى الشرائط القينية، الممسكة للأستار، إلى أن علا الرؤوس والأعناق، فوطئها و دخل البيت، فلم يجد موثنا لقدمه سواها، لشدة تراحمهم وتراكمهم، وانضمام بعضهم إلى بعض. وهذا الجمع الذي وصل منهم، في هذا العام لم يعهد قط مثله فيما سلف من الأعوام، والله القدرة المعجزة لا إله سواه.

انظر: صورة رقم ١٢٤، دخول الناس في الكعبة المشرفة

أما كيفية دخول النساء الكعبة المشرفة، فلقد ذكر ابن جبير في رحلته ما يأتي:

وفي اليوم التاسع والعشرين من رجب، وهو يوم الخميس أفرز البيت الكريم للنساء خاصة، فاجتمعن من كل أوب، وقد تقدم احتفالهن لذلك بأيام، كاحتفالهن للمشاهد الكريمة، ولم تبق امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم، فلما وصل الشيبون لفتح البيت المطهر، على العادة، أسرعوا في الخروج منه، وأفرجوا للنساء عنه، وأفرج الناس لهن عن الطواف وعن الحجر، ولم يبق

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢١٧

حول البيت المبارك أحد من الرجال، وتبادر النساء إلى الصعود، حتى كاد الشيبون لا يخلصون بينهن، عند هبوطهم من البيت الكريم، وتسلسل النساء بعضهن ببعض، وتشابكن حتى تواقعن، فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهلهة، وظهر من تراحمهن من السرو اليمنيين، مدة مقامهم بمكة، وصعودهم يوم فتح البيت المقدس، وأشبهت الحال، وتمادين على ذلك صدرا من النهار، وانفسحن في الطواف والحجر، وتشفين من تقبيل الحجر، واستلام الأركان. وكان ذلك اليوم عندهن الأكبر، ويومهن الأزهر، نفعهن الله به، وجعله خالصا لكريم وجهه، وبالجملة فهن مع الرجال مسكينات مغبونات، يرين البيت الكريم، ولا يلجنه، ويلحظن الحجر المبارك، ولا يستلمنه، فحظهن من ذلك كله النظر والأسف المستطير مستشعر، فليس لهن سوى الطواف على البعد. وهذا اليوم، الذي هو من عام إلى عام، فهن يرتقبنه أشرف الأعياد، ويكثرن له من التأهب والاستعداد، والله ينفعهن في ذلك بحسن النية والاعتقاد بمته وكرمه. انتهى كل ما ذكر من رحلة ابن جبير.

الطواف و آدابه و شروطه

الأذكار المأثورة في الطواف و آدابها

ذكرنا في كتابنا "إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة" عند الكلام على سنن الطواف، ما نصه: فمن سننه أن يأتي بالأذكار المأثورة فيه، فيقول عند استلام الحجر الأسود في أول طوافه و كذا في كل طوفة: بسم الله و الله أكبر، اللهم إيماناً بك و تصديقاً بكتابك و وفاء بعهدك و اتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه و سلم.

و أن يقول قبالة البيت "اللهم إن البيت بيتك و الحرم حرمك و الأمن أمنك و هذا مقام العائذ بك من النار." و أن يقول بين اليمين أي الركن اليماني و الحجر الأسود "اللهم إني أسألك العفو و العافية في الدين و الدنيا و الآخرة، ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار، اللهم فنعني بما رزقتني و بارك لي فيه و احفظني في كل غائبة يا مجير إنك على كل شيء قدير" و أن يقول في حالة الرمل في الأشواط الثلاثة الأول "اللهم اجعله حجا مبرورا، و ذنبا مغفورا وسعيا مشكورا، و تجارة لن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢١٨

تبور، يا عزيز يا غفور" و إن كان معتمرا قال "اللهم اجعلها عمرة مبرورة و ذنبا مغفورا" ... إلخ. و يقول في الأشواط الأربعة الباقية "رب اغفر و ارحم و تجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم، ربنا آتنا في الدنيا حسنة" ... إلخ. و أن يقول عند الركن العراقي و هو المقابل لباب العمرة "اللهم إني أعوذ بك من الشك و الشرك و الشقاق و النفاق و سوء الأخلاق و سوء المنقلب في الأهل و المال و الولد." و يقول إذا انتهى إلى الميزاب "اللهم أظنني في ظلك يوم لا ظل إلا ظلك، و اسقني بكأس محمد صلى الله عليه و سلم شربة هنيئة مريئة لا أظمأ بعدها أبدا يا ذا الجلال و الإكرام، اللهم إني أسألك الراحة عند الموت و العفو عند الحساب."

روى ابن ماجه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، أن النبي صلى الله عليه و سلم، قال: «من طاف بالبيت سبعا و لم يتكلم إلا بسبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر و لا حول و لا قوة إلا بالله، محيت عنه عشر سيئات و كتبت له عشر حسنات و رفع له بها عشر درجات» الحديث. و أخرج أبو داود، أن النبي صلى الله عليه و سلم، قال "ما مرت بالركن اليماني إلا و عنده ملك ينادى، يقول: آمين آمين، فإذا مررت به فقولوا "اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار." و عن عطاء قال: قيل يا رسول الله، نراك تكثر من استلام الركن اليماني، قال "ما أتيت عليه قط إلا و جبريل قائم عنده يستغفر لمن يستلمه."

و عن مجاهد أنه قال "ما من إنسان يضع يده على الركن اليماني و يدعو إلا استجيب له، و إن بين الركن اليماني و الركن الأسود سبعين ألف ملك لا يفارقونه هم هنالك منذ خلق الله البيت."

جاء في حاشية البجيرمي ما نصه: روى إمامنا الشافعي، رضى الله عنه، عن ابن عمر، رضى الله عنهما، قال "استقبل رسول الله صلى الله عليه و سلم الحجر فاستلمه ثم وضع شفتيه عليه طويلا، و كان صلى الله عليه و سلم إذا استلم الحجر قال: بسم الله و الله أكبر، و قال بينهما: أي بين الركن اليماني و الحجر: ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار" و لم يثبت عنه صلى الله عليه و سلم شيء من الأذكار في غير هذا المحل حول الكعبة و لم يستلم الركنين المقابلين للحجر اه. من الحاشية.

و اعلم أنه لم يكن للكعبة في زمنه صلى الله عليه و سلم غير الركنين: الركن الأسود و الركن اليماني فقط، حيث كان جدارها المقابل لحجر إسماعيل مدورا، فلما بنى عبد الله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢١٩

بن الزبير، رضى الله عنهما، الكعبة جعل لها أربعة أركان فكانت تستلم كلها في زمانه إلى أن قتل رضى الله تعالى عنه. و أما آداب الذكر و الدعاء في الطواف، فلا يخفى ذلك على الإنسان الكامل، و تأتي هنا بشيء على سبيل الذكرى. فمن الآداب: أن

يذكر الله تعالى و هو حاضر القلب، لأنه يناجى الله تعالى، و يدعوه، كما فى الصلاة، و هو مطلع عليه، فقد ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم و غيره الذى أوله "بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل ... إلخ" فهذا الرجل هو جبريل جاء يسأل النبى عليه الصلاة و السلام عن الإيمان و الإسلام و الساعة، فلما سأله أيضا عن الإحسان أجابه رسول الله صلى الله عليه و سلم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

و منها: عدم قطع الذكر ليتكلم مع غيره و هما يطوفان بكلام دنيوى إلا فى حالة الاضطرار. و منها: عدم التشويش على غيره برفع الصوت.

جاء فى شفاء الغرام للفاسى: رويانا فى مسند الدارمى بسند صحيح عن عائشة، قالت: إنما جعل الطواف بالبيت ورمى الجمار و السعى بين الصفا و المروة لإقامة ذكر الله، و رويانا فيه عن عائشة عن النبى صلى الله عليه و سلم نحوه، و أخرجه المحب الطبرى فى القرى عنها مرفوعا و زاد بعد قوله ذكر الله تعالى: و إن لم يقترن بها ذكر بالقول، ثم قال: و ينبغى للذاكر فى الطواف و التالى أن لا يزيد فى رفع صوته على إسماع نفسه لثلا- يشوش على غيره، و استدلل على ذلك بما تقوم به الحجّة، ثم قال: و فى معنى الطائف من كان فى المسجد، قريبا من المطاف، ينبغى له أن لا يرفع صوته بتلاوة و لا ذكر، لثلا يشوش على الطائفين. اه. انتهى من شفاء الغرام.

أما آداب الطواف فكثيرة، و لنذكر ما كتبناه فى كتابنا "إرشاد الزمرة لمناسك الحج و العمرة" و هو: يكره فى الطواف الأكل و الشرب و كراهة الشرب أخف، الكلام إلا لضرورة، و رفع صوته بقراءة أو ذكر، لثلا يشوش على غيره، و تشبيك الأصابع و فرقتها، و جعل يديه وراء ظهره مكتفا، و الضحك و المزاح لأنه خلاف الأدب، و مدّ نظره إلى ما لا يحل له النظر إليه من امرأة و أمرد حسن الصورة، و احتقار من يراه من الضعفاء و العوام إلى غير ذلك مما هو مخالف للأدب فإنه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٢٠

متلبس بعبادة ربه، فى أظهر مكان و أشرف موضع، فينبغى إظهار الحرمة و الخشوع و الخضوع و ملازمة الأدب، فإن الطواف كالصلاة. انتهى.

جاء فى كتاب القرى لقاصد أم القرى، للإمام الطبرى، عند مبحث إباحة الكلام فى الطواف ما نصه:

عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «الطواف بالبيت مثل الصلاة، إلا أنكم تتكلمون فيه، فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير». أخرجه الترمذى.

و عن طاووس، عن رجل أدرك النبى صلى الله عليه و سلم، قال: الطواف بالبيت صلاة، فأقلوا من الكلام. أخرجه أحمد و النسائى. و أخرجه الشافعى عن طاووس، عن ابن عباس، أن النبى صلى الله عليه و سلم قال: الطواف بالبيت صلاة، و لكن الله أحلّ فيه المنطق، فمن نطق فيه فلا- ينطق إلا- بخير. أخرجه سعيد بن منصور أيضا كذلك. و أخرجه عن ابن عباس موقوفا، قال: الطواف بالبيت ... الحديث بنحو الحديث الأول.

و عنه أنه قال: إذا طفت بالبيت فأقلّ الكلام فإنك فى صلاة.

و عن أبى سعيد الخدرى أنه كان يقول لبنيه: إذا طفتم بالبيت فلا- تلغوا و لا تهجروا و لا تقاصوا أحدا إن استطعتم، و أقلوا الكلام. أخرجهما سعيد بن منصور.

و عن ابن عمر، رضى الله عنهما، أنه قال: أقلوا الكلام فى الطواف، فإنما أنتم فى الصلاة. أخرجه النسائى، و أخرجه الشافعى عن عمر، و قال: فى صلاة.

و عن عطاء قال: طفت خلف ابن عمر و ابن عباس، فما سمعت واحدا منهما متكلمتا حتى فرغ من طوافه.

و كان عطاء يكره الكلام فى الطواف، إلا الشىء اليسير منه، إلا ذكر الله تعالى، و قراءة القرآن. أخرجه الشافعى.

و عن عروة بن الزبير قال: حججت مع ابن عمر، فالتقينا فى الطواف، فسلمت عليه، ثم خطبت إليه ابنته، فما ردّ على جوابا، فغمنى

ذلك، وقلت في نفسي: لم يرضني لابنته. فلما قدمنا المدينة جئته مسلماً، فقال لي: ما فعلت فيما كنت ألقيته إلى؟ فقلت: لم ترد عليّ جواباً، فظننت أنك لم ترضني لابنتك. قال:

تخطب إلى في مثل ذلك الموضوع، ونحن نتراءى الله عز وجل. ثم قال: بل قد رضيتك، فزوجني، أخرجه الأجرى في مسألة الطائفين بسنده.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٢١

ثم قال الإمام الطبري في كتابه المذكور بعد ما تقدم: واعلم أن التحدث في الطواف على غير النحو المتقدم في الفصل قبله، خطأ كبير، وغفلة عظيمة، ومن لابس ذلك فقد لابس ما يمقت عليه، خصوصاً إن صدر ممن ينسب إلى العلم والدين، فإنه إذا أنكر على من دونه احتج به، فصار فتنة لكل مفتون. ومن أثر محادثة المخلوق في أمر الدنيا، والإقبال عليه والإصغاء لحديثه، على ذكر خالقه، والإقبال عليه، وعلى ما هو متلبس به من عبادته فهو غيبين الرأي، لأن طوافه بجسده وقلبه لاه ساه، قد غلب عليه الخوض فيما لا يعنيه، حتى استرسل في عبادته كذلك، فهو إلى الخسران أقرب منه إلى الربح، ومثل هذا خليق بأن يشكوه البيت إلى الله عز وجل وإلى جبريل، ولعل الملائكة تتأذى به، وكثير من الطائفين يتبرمون منه، فعلى الطائف أن يبذل جهده في مجانبته ذلك. انتهى من الكتاب المذكور.

و إلى هذا المعنى يشير القائل:

يا من يطوف ببيت الله بالجسد والجسم في بلد و الروح في بلد
ماذا فعلت و ما أنت فاعله مهرج في اللقا للواحد الأحد
إن الطواف بلا قلب و لا بصر على الحقيقة لا يشفى من الكمد

إباحة بعض الأمور في الطواف

يباح بعض الأمور في الطواف لعارض، مما لا يخلّ بآدابه، ومما هو من باب الخير والاضطرار، كالأمر الآتي:

جاء في كتاب "القرى لقاصد أم القرى" للإمام الطبري ما ملخصه:

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه كان يطوف بالبيت، فأقيمت الصلاة فصلّى مع القوم، ثم قام فبنى على ما مضى من طوافه، وعن عطاء أنه كان يقول في الرجل يطوف بعض طوافه، ثم تحضر الجنازة، قال: يخرج يصلى عليها، ثم يرجع، فيقضى ما بقى من طوافه. وعن مجاهد في الرجل يطوف، ثم تقام الصلاة ولم يفرغ من أسبوعه، قال: يصلى، ثم يقضى ما بقى عليه، أخرج جميع ذلك سعيد بن منصور. وعن عطاء وإبراهيم قالوا- فيمن رجع وهو يطوف بالبيت: يخرج فيتوضأ. قال إبراهيم يبنى على طوافه من المكان الذي قطع منه. وقال عطاء: إن فعل ذلك أجزاءه، وأحب أن يستقبل ذلك من الحجر، وعن الحسن أنه كان يقول

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٢٢

فيمن قطع الطواف لأجل الرّعاف: يستقبل طوافه، ولا يعتدّ بما فعل. أخرجه سعيد بن منصور.

وعن حميد بن زيد قال: رأيت ابن عمر يطوف بالبيت، ففعد قبل أن يفرغ من طوافه، من حرّ أخرجه الأزرقي. وأخرجه سعيد بن منصور بزيادة. و لفظه:

رأيت ابن عمر طاف بالبيت ثلاثة أطواف أو أربعة، ثم جلس يستريح و غلام له يروح عليه، فقام فبنى على ما مضى من طوافه.

وعنه قال: رأيت ابن عمر بعدما كبر، طاف فأعيا، فاستراح، ثم بنى على ما مضى من طوافه. أخرجه سعيد أيضاً.

وعن عطاء عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: إذا طاف بالبيت تطوعاً ثم شاء، أن يقطعه قطعه، غير أن لا ينصرف إلا عن وتر: خمس، أو ثلاث، أو شوط. أخرجه سعيد بن منصور.

وعن يزيد بن أبي زياد قال: رأيت أبا جعفر والحسن وعلي بن عبد الله وسعيد بن جبيرة ومجاهدا يتكلمون في الطواف، وبين الصفا والمروة. وعن عبد الملك بن أبي سليمان، قال: كنا نستفتي سعيد بن جبيرة، ونكلمه ونحن نطوف. أخرجهما سعيد بن منصور. وهذا الكلام منه محمول على ما تقدم من أنواع الخير.

وعن إسماعيل بن عبد الملك قال: رأيت سعيد بن جبيرة يتكلم في الطواف ويضحك. أخرجه أبو الوليد الأزرقى.

وهذا محمول على ضحك راجع إلى ما ذكرناه من أنواع الخير، كسرور في طاعة وقربة، أو حسن إقبال على أخ في الله تعالى، لا تفكها وتعجبا، وغفلة عن الله تعالى. والله أعلم. اهـ.

والمراد بالضحك هنا: التبسم لا الضحك المصحوب بالقهقهة.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب في الطواف. أخرجه أبو حاتم والشافعى. وعن أبي مسعود الأنصارى، أن النبي صلى الله عليه وسلم عطش وهو يطوف بالبيت، فقال: على بذنوب من ماء زمزم، فصب عليه، ثم شرب وهو يطوف بالبيت أخرجه الدارقطنى. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه شرب وهو يطوف فجلس على جدار الحجر، أخرجه الشافعى والبيهقى. انتهى من كتاب القرى للطبرى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٢٣

ذكر الله وقراءة القرآن في الطواف

جاء في تاريخ الأزرقى ما نصه: حدثني جدى عن الزنجى، عن ابن جريج، قال: قال عطاء: من طاف بالبيت فليدع الحديث كله، إلا ذكر الله تعالى، وقراءة القرآن. حدثني جدى، قال حدثنا يحيى بن سليم، قال حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل وهو في الطواف: كم تعد يا فلان، ثم قال، تدرى لم سألتك؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: لكى تكون أحصى لعدك. حدثني جدى، عن مسلم بن خالد، عن ابن أبي نجیح، قال: كان أكثر كلام عمر و عبد الرحمن بن عوف، فى الطواف: ربنا آتانا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

حدثني جدى، قال: حدثنا سفيان، عن إبراهيم بن ميسرة، قال: كنت أطوف مع طاووس فسألته عن شيء فقال: ألم أقل لك؟ قال: قلت: لا أدري، قال: ألم أقل لك إن ابن عباس قال: إن الطواف صلاة فأقلوا فيه الكلام.

حدثنا إسحاق، قال حدثنا أبو الوليد، قال حدثني جدى، قال حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، أنه قدم مكة فطاف سبعا، فقرأ فيه بالسبع الطوال، ثم طاف سبعا آخر فقرأ فيه بالمئين، ثم طاف سبعا آخر فقرأ فيه بالمشانى، قال الخزاعى إسحاق بن أحمد: حدثنا أبو عبيد الله، قال حدثنا سفيان بإسناده مثله، وزاد، ثم طاف سبعا آخر فقرأ بالحواميم، ثم طاف سبعا آخر فقرأ إلى آخر القرآن، حدثنا أبو الوليد، قال: حدثني جدى قال، حدثنا سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء، قال: القراءة فى الطواف شىء أحدث.

حدثني جدى، عن سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج، قال: أخبرني زهير بن محمد، عن عبد الله بن عبد الله بن توبة، عن عبد الله بن عمر، أنه قيل له: يا أبا عبد الرحمن، ما لنا نراك تستلم الركنتين استلاما لا نرى أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمهما؟ قال: إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمهما ويقول:

استلامهما يمحو الخطايا، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من طاف سبعا يحصيه كتب الله له بكل خطوة حسنة، و حطت عنه سيئة و رفعت له درجة، ثم صلى ركعتين كان له كعتق رقبة. وقال فى كتابه: و أخبرني يحيى بن سليم، عن إسماعيل بن أمية قال: لئن عشت و طالت بك حياتك لترين الناس يطوفون حول الكعبة و لا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٢٤

يصلون، قال: و سمعت غير واحد من الفقهاء يقولون: بنى هذا البيت على سبع و ركعتين.

حدثني جدي عن سعيد بن سالم، عن طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: حج آدم فطاف بالبيت سبعا، فلقيته الملائكة، فقالوا: برحمتك يا آدم إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام، قال: فما كنتم تقولون في الطواف؟ قالوا: كنا نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

قال آدم: فزيدوا فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله قال: فزادت الملائكة فيها ذلك.

قال: فلما حج إبراهيم، عليه السلام، بعد بنائه البيت، فلقته الملائكة في الطواف، فسلموا عليه، فقال لهم إبراهيم: ماذا تقولون في طوافكم؟ قالوا: نقول قول أبيك آدم سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فأعلمناه ذلك فقال: زيدوا فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله. فقال إبراهيم: زيدوا فيها العلي العظيم. ففعلت الملائكة. انتهى من الأزرقى.

نقول: إن ذكر الله تعالى أو قراءة القرآن حال الطواف بالبيت الحرام إنما هو سنة، فمن طاف ولم يذكر الله تعالى ولم يقرأ شيئا من القرآن صح طوافه سواء كان فرضا أو نفلا، لكن فاتته فضيلة الذكر والقراءة. ومثل الطواف في ذلك السعي.

الدعاء و آدابه

لما كانت مواضع الإجابة هي عند الكعبة المشرفة، وفي الملتزم والحجر والركنين والمقام وغيرها، كان من اللازم أن تأتي بشيء في فضل الدعاء وآدابه، ترغيبا في تقرب العبد الضعيف الآبق، إلى الرب الكريم الجليل الخالق، حتى لا ييأس المذنب من رحمة الله، ولا يقنط المسرف من عفو الله، فالله تعالى، الذي لا تنفعه الطاعات، ولا تضره المعاصي، عند حسن ظن عبده به. فنقول والله الاعتماد:

الدعاء مطلوب من جميع المؤمنين من الطائع والعاصي، والعالم والجاهل، والغني والفقير، قال الله تعالى في كتابه العزيز وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ وَقَالَ عَزَّ شَأْنُهُ: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٢٥

يَرْشُدُونَ. ولا شك أن أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالدعاء هو عين الرحمة والإحسان منه تبارك وتعالى، وعندى أنه أمر عام يشمل البرّ والفاجر، والمسلم والكافر، لأن الكافر وإن لم يؤمن بنبينا "محمد" صلى الله عليه وسلم فإنه يعلم بيقين أن له ربا خلقه فسواه ورزقه وأعطاه، فهو يرجع إليه في كل أموره، والمسلم مهما عظمت خطاياها، فهو أولى وأحرى بالتضرع إلى الله عز شأنه، وتعالى عظمتها، ليكشف عنه سوءه ويرفع عنه البلاء بفضلها ورحمتها، إنه بعباده لطيف خبير، وبإجابة دعائهم لجدير، جل جلاله ولا إله غيره والله أكبر.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدعاء هو العبادة" رواه الترمذى وغيره، وهو حديث حسن صحيح، فالعبد إذا دعا ربه فهو يقتر بروبيته، ويعترف له بعبوديته، ويؤمن بعظمتها وجلالها، ويلجأ إليها بضعفه واحتياجه، ويسأله من خيرى الدنيا والآخرة ما يجعله سعيدا فيهما، فهذا لا شك يعتبر عين العبادة وحقيقة الإيمان.

وكم ورد في القرآن العظيم، من الدعوات المتنوعة، عن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وكم ورد في كتب الحديث من الدعوات المهمة الجامعة، لخيرى الدنيا والآخرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو أردنا جمع الدعوات النبوية، لاحتجنا إلى تأليف كتاب خاص، ونحن هنا في صدد الترغيب في الدعاء وآدابه، حتى يدعو كل إنسان ربه بلغته، ويلجأ إليه كل امرئ بعزمه وحسن نيته، فليسأل المرء ربه كل ما أهمه من الأمور، صغيرها وكبيرها، فإنه تعالى بيده خزائن السموات والأرض، ولقد أنفق ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، ما نقص من ملكه مثقال ذرة، وكيف يتصور النقصان في خزائن من يقول للشئء كن فيكون، جل جلاله ولا إله غيره والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي هذه المعنى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما فى يمينه وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض" رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة، رضى الله عنه.

فسبحان الذى بيده ملكوت السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم، الذى يحتاج إليه جميع الخلق وهو الغنى عن العالمين، فالحمد لله الذى زين قلوبنا بنور الإيمان، وأثار بصائرنا بنور المعرفة، وهدانا إلى الصراط المستقيم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٢٦

واعلم، أنه كما توجد أماكن وأزمان هى أقرب لاستجابة الدعاء، تكون هناك آداب تستدعى استجابة الدعاء أيضاً، لمن رعاها وحافظ عليها، فعلى قدر الهمم تتوالى النعم، وإن رحمة الله قريب من المحسنين. فمن آداب الدعاء، التضرع والخشوع بنية صادقة، والإخلاص والإلتجاء إليه تعالى بإخلاص وحسن ظن، والدعاء بالكلام العادى، فلا يتكلف السجع ومراعاة قواعد النحو أو الصرف، ولا ينتقى الكلمات الفصيحة البليغة، لأن كل ذلك ينافى الخشوع وصفاء المناجاة، مع خالق البرايا، والعليم بما فى صدور العالمين، وأن من علامات تحقيق الإجابة انشراح الصدر، وتوجه القلب إلى الدعاء، فهذه إشارة وبشارة بالقبول من الله الكريم المتعال. وإن أرجى دعاء للاستجابة هو دعاء المضطر، لأنه بلغ إلى حالة قصوى فى الإحتياج والإتباء، فالله سبحانه وتعالى يرفع عنه ما نزل، ويفرج كربته بفضلته ورحمته، لشدة اضطراره واحتياجه إلى غوث الله تعالى، فارج الهم، وكاشف الكرب، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا.**

وكذلك دعاء المظلوم، ودعاء الوالدين، ودعاء السلطان العادل فى رعيته، والعالم بعلمه، والتقى الصالح القائم بعبادته، وكل من التجأ إلى ربه، بقلب سليم ونية صادقة، يرى أثر استجابته دعائه، وكشف الضر والبأساء عنه. وكلما كان المؤمن متقرباً إلى الله تعالى بالعبادة والأعمال الصالحة، كان دعاؤه قريب الاستجابة وكان الله له عوناً فى جميع حالاته.

والحديث الصحيح الآتى أعظم دليل على ذلك، فقد روى أبو هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى قال: من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء، أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألتنى لأعطينه، ولئن استعادنى لأعيدنه" رواه البخارى فى صحيحه.

فهنيئاً لعبد، هذا حاله مع ربه، وهل بعد هذه السعادة سعادة؟ اللهم أرض عنا، واغفر لنا وارحمنا، وعافنا واعف عنا، واجعلنا ممن يقومون بما افترضته عليهم، ويتقربون إليك بالنوافل، حتى تحبنا فتعطينا ما نسأل، وتعيدنا مما نستعيذك منه،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٢٧

وتكون فى عوننا فى الدنيا والآخرة، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله وسلم على أبى القاسم الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

واعلم أن أبلغ الدعاء ما كان عن صمت، أى أن الإنسان، إذا بلغ به الحزن أقصاه، لم يقدر على الإفصاح عنه، لأن لسانه لا يطاوعه بالكلام، وإنما يتضرع إلى الله عز شأنه بقلبه، ويدعوه فى سره، ويشكو بثه وحزنه إلى الله، ويستعين به على كشف بلواه، قال الشاعر:

ويمنعنى الشكوى إلى الله علمه بجملة ما ألقاه قبل أقول

والله تعالى عليم بما فى الصدور، قال تعالى: **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** و إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقنا، وهو السميع البصير، فلا يتوقف فى الإستجابة إلى رفع الصوت والجهر بالدعاء، فهو عز شأنه لا تخفى عليه خافية: **يَعْلَمُ مَا يَلْجِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا**

تَعْمَلُونَ بَصِيرَةً * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

فالحمد لله الذى أذاقنا حلاوة الإيمان و العلم والعمل، و رزقنا حسن الظن به و عظيم الأمل، و أنار لنا طريق الهدى، و أبان لنا الصراط المستقيم، و سلك بنا مسالك أهل النهى و التقى فى الطريق القويم، الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم.

و إن من أعظم أسباب الدعاء، و حصول الخير، و انفراج الكرب و الشدائد، هو أكل الحلال، و اجتناب الحرام و ما فيه الشبهة. و قد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم "إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً"، و إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا وَقَالَ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ، يَطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثُ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ. و مطعمه حرام، و مشربه حرام، و ملبسه حرام، فأنى يستجاب له. رواه مسلم.

اللهم اغنا بحلالك عن حرامك و بطاعتك عن معصيتك و بفضلك عن سواك.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٢٨

و مما ينبغي لنا التنبيه عليه، هو أن الإنسان يجب أن يحسن الظن بربه عز و جل، و أن لا ييأس من رحمته، و لا يقنط من عفوه و غفرانه، فلا يقول فى نفسه كيف أدعور ربى و أنا المنغمس فى الذنوب و المعاصى، فإن ذلك من تلاعب الشيطان به، حتى يبعده عن رحمة الله تعالى، و هل التوبة جعلت إلا لأرباب المعاصى و الذنوب؟

و إن الله تعالى ليفرح بعبده التائب الذى أناب إليه و رجع، و هو التواب الرحيم.

أنا المذنب الخطاء و العفو واسع و لو لم يكن ذنب لما وقع العفو

و ما أحلى قول رسول الله صلى الله عليه و سلم، فى هذا المعنى المروى فى الصحيحين، و هو:

"أن عبداً أصاب ذنباً و قال: ربى أذنبت فاغفره، فقال ربه: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب و يأخذ به، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً فقال:

ربى أذنبت آخر، فاغفر لى، قال: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب و يأخذ به، غفرت لعبدي، ثم أصاب ذنباً فقال: ربى أذنبت آخر فاغفر لى. قال: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب و يأخذ به، قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء." رواه البخارى و مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

فهل بعد هذا الحديث الشريف يتطرق اليأس إلى قلب عبد مؤمن عالم بسعة عفو الله تعالى و عظيم رحمته و لطفه بعباده؟ فالله عز شأنه واسع الفضل عظيم الإحسان، لا تنفعه طاعاتنا و لا تضره معاصينا، اللهم عاملنا بما أنت أهل من اللطف و الكرم، و العفو و الإحسان، بفضلك و رحمتك يا أرحم الراحمين.

هذا، و لقد أردنا أن نذكر كثيراً من الأدعية النبوية الواردة فى كتب الحديث، و لكن ذلك مما يؤدى إلى التلويل، علاوة على ما هى مذكورة فى كتب الأدعية، و لا بأس أن نذكر هنا بضعة من الدعوات النبوية الهامة الجامعة لخير الدنيا و الآخرة، مما لها تناسب مع حياتنا هذه فى هذا الزمن الأخير و هى هذه:

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم "دعوة ذى النون إذ دعا ربه و هو فى بطن الحوت لا- إله إلا أنت سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب له." رواه الترمذى.

و عن أبى أمامة، رضى الله عنه: قال دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً، قلت: يا رسول الله دعوت بدعاء كثير لم يحفظ منه شيئاً، فقال "ألا أدلكم ما يجمع ذلك كله، تقول اللهم إنى أسألك من خير ما سألك منه نبيك

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٢٩

محمد صلى الله عليه وسلم، و نعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك صلى الله عليه وسلم، و أنت المستعان، و عليك البلاغ، و لا حول و لا قوة إلا بالله. " رواه الترمذى.

و عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى، و أصلح لى دنياى التى فيها معاشى." رواه مسلم.

و عن أبى بكر، رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "دعوات المكروب، اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفه عين، و أصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت." رواه أبو داود فى "السنن".

و عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقول، عند الكرب: "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات و رب الأرض و رب العرش الكريم." و فى رواية لمسلم: أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر قال ذلك رواه البخارى و مسلم.

و عن على، رضى الله عنه، أن مكاتبا جاءه، فقال: إني عجزت عن كتابتى فأعنى، قال: ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو كان عليك مثل جبل دينا أداه الله عنك، قل: "اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك و اغنى بفضلك عن سواك." رواه الترمذى.

و عن ابن عمر، رضى الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك و تحول عافيتك، و فجاءة نقمتك، و جميع سخطك." رواه مسلم و غيره.

و عن ابن مسعود، رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اللهم إني أسألك الهدى و التقى و العفاف و الغنى." رواه مسلم و غيره.

و عن عائشة، رضى الله عنها، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك و بمعافاتك من عقوبتك، و أعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك." رواه مسلم و غيره.

و عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أعوذ بك من الهم و الحزن، و العجز و الكسل، و الجبن و البخل، و ضلع الدين و غلبة الرجال." رواه البخارى و مسلم و غيرهما.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٣٠

و عن أبى موسى الأشعري، رضى الله عنه، أن النبى صلى الله عليه وسلم، قال: "اللهم اغفر لى خطيئتي و جهلى و إسرافى فى أمرى و ما أنت أعلم به منى، اللهم اغفر خطيئى و عمدى، و هزلى و جدى و كل ذلك عندى، اللهم اغفر لى ما قدمت و ما أخرت، و ما أسرت و ما أعلنت، أنت المقدم و أنت المؤخر و أنت على كل شىء قدير." رواه البخارى و مسلم.

بعض القوائد فى التضرع

لقد أتينا فيما تقدم ببعض الأدعية النبوية الجامعة لخيرى الدنيا و الآخرة، و هنا نأتى ببعض القوائد فى التضرع إلى الله تعالى، فلكل دعاء ميزة خاصة، و لكل واحد طريقة فى التضرع و الدعاء، كما قال الله تعالى: وَ اٰخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَ قُعُودًا وَ عَلَى جُثُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. و لا- تظن أن الفقير يحمل وحده على كتفيه متاعب الحياة و همومها، كلا و إنما الخلق جميعا فى ذلك سواء، فقد تختلف درجات الهموم و أنواعها:

كل من في الوجود يحمل هماغير أن الهموم مختلفات

فالسُلطان و الأمير، و الإمام و المأموم، و الغنى و الفقير، و العزيز و الحقير، و الجاهل و العالم، و المظلوم و الظالم، و العزيز و الذليل، و الصحيح و العليل، و المشغول و العاطل، كل منهم يحمل في قرارة نفسه من الهم و الحزن ما لا يعلم به الآخر. فهذا يشكو فقره، و ذاك يألم من مرضه، و الآخر يتأفف من صديقه، و الرابع يستجير من رئيسه، و الخامس يبكى فقيدا افتقده، و السادس لا يهنأ بنوم، لكساد تجارته و خسارته، و هكذا حال جميع الناس إلى يوم القيامة، من أول خلقهم إلى يوم القيامة:

كل من لاقيت يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن

لذلك جاء في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال "تعوذوا بالله من جهد البلاء و درك الشقاء و سوء القضاء و شماتة الأعداء" رواه أبو هريرة رضي الله عنه.

و كان صلى الله عليه و سلم يتعوذ من الهم و الحزن، و من العجز و الكسل، و من الجبن و البخل، و من غلبة الدين و قهر الرجال، و من كثير من الأمور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٣١

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يتعوذ من كل ذلك، و يلجأ إلى الله تعالى فيما أهمه، فنحن أحق و أولى بالابتهاج إلى الله الكريم المتعال، فسبحان من أودع في كل قلب ما أشغله، اللهم اشغل قلوبنا فيما خلقتنا له، و لا تشغلنا بما تكفلت لنا به يا أرحم الراحمين، فنحن الضعفاء و أنت القوى العزيز.

إذا كنت في أمر وضقت بحمله و أصبحت في عسر و أمسيت في حرج

تضرع إلى الله الكريم و لا تمل إلى غيره فالله يأتيك بالفرج

و إليك بعض القصائد في التضرع، فإن في ذكرها استئناسا للنفس، و انشراحا للصدر، و اطمئنانا للقلب، و نرجو بذلك استئزال الرحمة و الإحسان، من الله الواحد الأحد، الكبير المتعال، السميع البصير و البر الرحيم الودود، الذي هو بعباده لطيف خبير.
(قال بعضهم في التضرع إلى الله تعالى):

لأبتهلن تحت الظلام بدعوة متى يدعها داع إلى الله يسمع

تغلغل من بين الضلوع نشيجهاله شافع من عبرة و تضرع

إلى فارح الكرب المجيب لمن دعا فزعت بكربى إنه خير مفرع

فيا خير مدعو دعوتك فاستمع و مالى شفيع غير فضلك فاشفع

(و قال بعضهم):

طرقت باب الرجا و الناس قد رقدوا و بت أشكو إلى مولاي ما أجد

و قلت يا أملى في كل نائبة و من عليه لكشف الضر أعتد

أشكو إليك أمورا أنت تعلمها ما لى على حملها صبر و لا جلد

و قد مددت يدي بالذل مفتقرا إليك يا خير من مدت إليه يد

فلا تردنها يا رب خائبة فبحر جودك يروى كل من يرد

(و قال بعضهم):

يا من يرى ما فى الضمير و يسمع أنت المعد لكل ما يتوقع

يا من يرجى للشدائد كلها ما من إليه المشتكى و المفزع

يا من خزائن جوده فى قول كن آمن فإن الخير عندك أجمع

ما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع
 ما لي سوى قرعى لبابك حيلة و لئن رددت فأى باب أقرع
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٣٢ و من الذى أدعو و أهتف باسمه إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
 حاشا لجودك أن تقنط عاصيا الفضل أجزل و المواهب أوسع
 إن كان لا يرجوك إلا محسن فالمذنب العاصى إلى من يرجع
 (و قال بعضهم):

يا رب ما زال لطف منك يشملنى و قد تجدد بى ما أنت تعلمه
 فاصرفه عنى كما عودتنى كرمافمن سواك لهذا العبد يرحمه
 (و قال محمد طاهر الكردي مؤلف هذا الكتاب):

زدنى بفرط الخير منك تشكرا و الطف بما قدرته فيما جرى
 يا من له عنت الوجوه جميعها رحماك فالعبد الذليل تحيرا
 إن لم يكن لى منك لطف شامل أو فضل إحسان على مكررا
 فمن الذى أرجو لكشف بليتى أو من إليه أميل من بين الورى
 و الكل مفتقر إليك وسائل من فيض جودك أن تقطرا
 لا أرتجى أحدا سواك و أنت لى نعم الملاذ و من رجاك استبشرا
 إنى سألتك و الهموم تراكت و الدهر عاند و الزمان تنكرا
 حاشا تخيب من رجاك مؤلامهما جنى أو كان فيك مقصرا

اللهم يا فتاح يا عليم، يا رحمن يا رحيم، يا عزيز يا غفور، يا عالما ما فى الصدور، يا من لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى
 السماء، يا مجيب الدعاء، يا راحم عبدة داود، يا كاشف ضر أيوب، يا مفرج حزن يعقوب، ارفع عنا ما نزل و حقق لنا جميع الأمل، و
 فرج عنا كل هم و غم، فإنك أنت العزيز الأكرم، اللهم إنا نسألك فرجا قريبا، و صبيرا جميلا، و رزقا واسعا، و علما نافعا، و صحة و
 عافية، و الحفظ من جميع البلاء و السلامة من كل شر، و الأمن من كل خوف، و التوفيق للطاعات، و الثبات على الإيمان، و حسن
 الختام، و نسألك رضاك و الجنة و نعوذ بك من النار، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة و فى الآخرة حسنة و قنا عذاب النار، و نسألك اللهم
 أن تصلى و تسلم على نبيك محمد و على آل محمد كما صليت و باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد
 مجيد.

(و ما أحلى قول من قال):

فكم لله من لطف خفى يدق خفاه عن فهم الذكى
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٣٣ و كم يسر أتى من بعد عسرو فرج كربة القلب الشجى
 و كم أمر تساء به صباحا و تأتيتك المسرة بالعشى
 إذا ضاقت بك الأحوال يومافثق بالواحد الفرد العلى
 (و قول بعضهم):

و لرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا و عند الله منها المخرج
 ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت و كان يظنها لا تفرج
 (و قال الآخر):

كن عن همومك معرضا و كل الأمور إلى القضا
 فلربما اتسع المضيق و ربما ضاق الفضا
 و لرب أمر مسخظلك في عواقبه رضا
 الله يفعل ما يشاء فلا تكن متعرضا
 (و لبعضهم):

أترك الفكر في الأمور و دعها فكمما قدّرت تكون الأمور
 كل فكر و كل رأى و حزم غير مجد إذا جرى المقدور
 (و قال آخر):

عسى ما ترى لا يدم و إن ترى له فرجا مما ألمّ به الدهر
 عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر
 إذا لاح عسر فارج يسرا فإنه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر
 (و ما أظرف قول الطغرائي):

لا تجزعن إذا ما الأمر ضقت به ذرعا و نم و توسد فارغ البال
 فبين غفوة عين و انتباهتها يغير الله من حال إلى حال
 (و قال بعضهم):

تصبر إن عقبى الصبر خيرو لا تجزع لنائبة تنوب
 فإن اليسر بعد العسر يأتي و عند الضيق تنكشف الكرب
 و كم جزعت نفوس من أمور أتى من دونها فرج قريب
 (و قال بعضهم):

إذا ما رماك الدهر يوما بنكبة فهىء لها صبورا و أوسع لها صدرا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٣٤ فإن تصارييف الزمان عجيبة فيوما ترى عسرا و يوما ترى يسرا
 (و قال بعضهم):

كل الحوادث قد تمر على الفتى و تزول حتى لا تكون بباله
 فالحمد لله في السراء و الضراء.

و لنختم هذا الباب بالأحاديث الآتية، عسى أن ننتفع بها نحن، و جميع المسلمين، فإن رجاءنا في كرم الله تعالى لعظيم، و إن حسن
 ظننا به، سبحانه و تعالى، لكبير، و الأحاديث الآتية نقلناها من "الأربعين النووية" و هى كما يأتي:

عن أنس، رضى الله تعالى عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول "قال الله تعالى يا ابن آدم إنك ما دعوتنى و
 رجوتنى غفرت لك على ما كان منك و لا أبالى يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك، يا ابن آدم لو
 أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لآتيتك بقرابها مغفرة."
 رواه الترمذى، و قال: حديث حسن صحيح.

و عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه و سلم، قال "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة
 من كرب يوم القيامة، و من يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا و الآخرة، و من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا و الآخرة، و الله فى
 عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، و من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة، و ما اجتمع قوم فى بيت من

بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا- نزلت عليهم السكينة، و غشيتهم الرحمة و حفتهم الملائكة، و ذكرهم الله فيمن عنده، و من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه. " رواه مسلم بهذا اللفظ.

و عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها، كالسورة من القرآن، و يقول: "إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، و أستقدرك بقدرتك، و أسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر و لا أقدر، و تعلم و لا أعلم و أنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى و معاشى و عاقبة أمرى، أو قال: عاجل أمرى و آجله فاقدره لى و يسره لى، ثم بارك لى فيه، و إن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى و معاشى و عاقبة أمرى،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٣٥

أو قال: عاجل أمرى و آجله فاصرفه عنى و اصرفنى عنه، و اقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به، قال: و يسمى حاجته. " و عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، و تعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، و الكلمة الطيبة صدقة، و بكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، و تميظ الأذى عن الطريق صدقة. " رواه البخارى و مسلم.

و عن أبى عبد الله النعمان بن بشير، رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم، يقول: "إن الحلال بين و إن الحرام بين، و بينهما أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه و عرضه، و من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا و إن لكل ملك حمى، ألا و إن حمى الله محارمه، ألا و إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا و هى القلب. " رواه البخارى و مسلم.

و عن أبى حمزة أنس بن مالك، رضى الله تعالى عنه، خادم رسول الله صلى الله عليه و سلم، عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" رواه البخارى و مسلم.

و عن أبى رقية تميم بن أوس الدارى، رضى الله تعالى عنه، أن النبى صلى الله عليه و سلم، قال:

"الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله و لكتابه و لرسوله و لأئمة المسلمين و عامتهم" رواه مسلم.

و عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود، رضى الله تعالى عنه، قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هو الصادق المصدوق، إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه، أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقه، مثل ذلك، ثم يكون مضغة، مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، و يؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، و أجله، و عمله، و شقى أو سعيد. فو الله الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه و بينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، و إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه و بينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها. رواه البخارى و مسلم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٣٦

و عن ابن عمر، رضى الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: "كلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع و هو مسؤول عن رعيته و الرجل راع فى أهله و هو مسؤول عن رعيته و المرأة راعية فى بيت زوجها و هى مسؤولة عن رعيته و الخادم راع فى مال سيده و هو مسؤول عن رعيته و الرجل راع فى مال أبيه و هو مسؤول عن رعيته فكلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته" رواه الشيخان فى صحيحهما و اللفظ للبخارى.

و عن أبى العباس عبد الله بن عباس، رضى الله تعالى عنهما، قال: كنت خلف النبى صلى الله عليه و سلم يوماً فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله، و إذا استعنت فاستعن بالله و اعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، و إن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء

قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام و جفت الصحف. رواه الترمذى و قال حديث حسن صحيح.
 و فى رواية غير الترمذى: احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، و اعلم أنما أخطأك لم يكن ليصيبك و ما أصابك لم يكن ليخطأك و اعلم أن الفرج مع الكرب، و أن مع العسر يسرا.
 و عن أبى ذر الغفارى، رضى الله تعالى عنه، عن النبى صلى الله عليه و سلم، فيما يرويه عن ربه عز و جل، أنه قال: يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى و جعلته بينكم محرما، فلا تظالموا، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل و النهار و أنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى و لن تبلغوا نفعى فتنفعونى، يا عبادى لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا، يا عبادى لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا، يا عبادى لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندى، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادى إنما هى أعمالكم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٣٧

أحصيها لكم، ثم أوفيكهم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. رواه مسلم.
 إلى هنا نكتفى بما تقدم من الأحاديث النبوية الشريفة الجامعة لخيرى الدنيا و الآخرة، و الحمد لله الذى سعدنا بكتابتها و نقلها، و نسعد أيضا، إن شاء الله تعالى بالعمل بها، فإننا نرجو أن يتغمدنا الله تعالى برحمته فى الدنيا و الآخرة، إنه واسع الفضل العظيم الإحسان، و صلى الله على النبى الأسمى و على آله و صحبه و سلم.

الطواف راكبا و دخول المواشى و الدواب المسجد الحرام

لما كان المسجد الحرام و شوارع مكة على غير هذه الصفة، أى كان بشكل يمكن دخول المسجد بالدواب فى سابق العصور، فقد طاف رسول الله صلى الله عليه و سلم فى يوم فتح مكة من السنة الثامنة من الهجرة راكبا و استلم الحجر الأسود بمحجته و هو راكب، و روى الإمام الأزرقي فى تاريخه، عن ابن جريج، قال: و أخبرت أن النبى صلى الله عليه و سلم كان إذا طاف على راحلته يستلم الركن بمحجته ثم يقبل طرف المحجن " و المحجن العصا المنعطفة الرأس ".
 و روى أيضا، عن هشام بن عروة، عن أبيه أن النبى صلى الله عليه و سلم قال لعبد الرحمن بن عوف: كيف فعلت يا أبا محمد فى استلام الركن الأسود؟ قال: كل ذلك أستلم و أترك. قال: أصبت. و إن رسول الله صلى الله عليه و سلم طاف فى حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجته يكره أن يضرب عنه الناس. و فى الصحيحين عن عائشة، رضى الله عنها، أن النبى صلى الله عليه و سلم طاف راكبا كراهية أن يصرف الناس عنه، و فى رواية طاف حجة الوداع حول الكعبة. على بعيره كراهية أن يصرف الناس عنه. أخرجه مسلم.

و روى مسلم فى صحيحه، عن أبى الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله، يقول:

طاف النبى صلى الله عليه و سلم فى حجة الوداع على راحلته بالبيت، و بين الصفا و المروة، ليراه الناس و ليشرف، و لم يطف رسول الله صلى الله عليه و سلم و لا أصحابه بين الصفا و المروة إلا طوفا واحدا. اه، أى لم يسعوا بعد طواف الإفاضة حيث إنهم لما دخلوا مكة محرمين بالحج و طافوا طواف القدوم و سعوا بعد الطواف، فمن دخل مكة و كان محرما بالحج أو قارنا، و سعى بعد طواف القدوم أجزاء ذلك و وقع ركنه، و يكره

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٣٨

له إذا وقف بعرفات، ثم طاف طواف الإفاضة، أن يعيد السعى، لأن السعى ليس من العبادات المستقلة، التي يشرع تكرارها والإكثار منها، بخلاف الطواف فإنه مشروع في غير الحج والعمرة.

جاء في العقد الثمين في فضائل البلد الأمين للحضراوى: أن عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، مرّ على رواحل مناخه بفناء الكعبة، فقال: لو يعلم الركب ماذا يرجعون إليه بعد المغفرة لقرّت أعينهم، ما وضعت خفا ولا رفعت إلا ترفع له درجة و يحط عنه خطيئة. أخرج أبو ذر الهروى فى منسكه. انتهى منه.

و جاء فى كتاب القرى للطبرى عن عمرو بن دينار، قال: طاف رجل على فرس فمنعوه فقال: أتمنعونى أن أطوف على كوكب، قال فكتب فى ذلك إلى عمر، رضى الله عنه، فكتب عمر أن امنعوه. أخرج سعيدين منصور. قال الطبرى: و لعل المنع لما فى الخيل من الخيلاء و التعاضم. انتهى من كتاب القرى.

نقول: إن رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى غاية الصواب و الحكمة، فالطواف و إن كان جائزاً حال الركوب، فإنه غير لائق أن يطوف الإنسان راكباً، و غيره يطوف ماشياً، ثم لو كثر الركبان فى المطاف لتعذر الطواف على المشاة، و ذهب عن قلوبهم الخشوع لالتفاتهم الدائم على الركبان، حتى لا تدوسهم الدواب، و أيضاً لا يلىق الطواف راكباً فى أقدس مكان، و ما كان طواف رسول الله صلى الله عليه و سلم راكباً إلا لبيان جواز ذلك فحكمه حكم الشرب قائماً.

و فى الطبرى، و عن أم سلمة، أنها شكت لرسول الله صلى الله عليه و سلم أنها تشتكى، فقال: طوفى من وراء الناس و أنت راكبة. قالت: فطفت و رسول الله صلى الله عليه و سلم حينئذ يصلى إلى جنب البيت، و هو يقرأ: وَ الطُّورِ* وَ كِتَابٍ مَسْطُورٍ. أخرجاه.

و عند البخارى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، أراد الخروج، و لم تكن أم سلمة طافت بالبيت، و أرادت الخروج، فقال لها صلى الله عليه و سلم: إذا أقيمت صلاة الصبح فطوفى على بعيرك و الناس يصلون ففعلت، فلم تصل حتى خرجت. و عنها أنها قدمت مكة و هى مريضة، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال:

طوفى وراء المصلين و أنت راكبة، قالت: فسمعت النبى صلى الله عليه و سلم و هو عند الكعبة يقرأ: وَ الطُّورِ أخرجاه النسائى. و فى البخارى أيضاً حديث بهذا المعنى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٣٩

و فيه و فيما قبله دلالة على أن صلاته صلى الله عليه و سلم كانت بفناء الكعبة، و أن طوافها وراء المصلين. و الظاهر أنه كان يؤمّ بهم، و أن الصلاة كانت صلاة الصبح. و فيه أن من طاف راكباً يتوخى خلوة المطاف، لئلا يهوش على الطائفين. و فيه أن الركوب إنما يكون لعذر، فإن لم يكن عذر فالأفضل أن يطوف راجلاً.

و عنها أنها قالت: يا رسول الله، ما طفت طواف الخروج. فقال صلى الله عليه و سلم: إذا أقيمت الصلاة فطوفى على بعيرك من وراء الناس. أخرجاه النسائى.

قال الطبرى: هذه الأحاديث كلها تدل على جواز الركوب فى الطواف، و خصه مالك بالضرورة، استدلالاً بحديث أحمد و أبى داود، و بقوله: "ليراه الناس، و ليشرف عليهم." و اختاره الشافعى مطلقاً، مع كراهية. و عند مالك و أبى حنيفة: إن قرب أعاد، و إن بعد فعليه دم، انتهى منه.

و قال الإمام الزرقانى، فى شرحه على موطأ الإمام مالك بن أنس، عند حديث أم سلمة، ما نصه: و فيه جواز طواف الراكب لعذر، و يلحق به المحمول للعذر، أما بلا عذر فمنعه مالك و كرهه الشافعى لقوله تعالى: وَ لِيُطَوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ و من طاف راكباً لم يطف به إنما طاف به غيره، و ركوبه صلى الله عليه و سلم إنما كان للعذر، ففى أبى داود عن ابن عباس: قدم النبى صلى الله عليه و سلم مكة و هو يشتكى فطاف على راحلته، و فى حديث جابر عند مسلم أنه صلى الله عليه و سلم طاف راكباً ليراه الناس و ليسألوه، فيحتمل أنه فعل ذلك للأمرين، و كذا ركوب أم سلمة للعذر... إلخ انتهى من الزرقانى.

و ذكر الغازي في تاريخه: أنه في سنة (٥٨٠) ثمانين و خمسمائة، حج الشيخ أبو بكر بن الشيخ يحيى الغياتي، فطاف بالكعبة راكبا على بغلة، و حوله نحو ثلاثمائة فقيه يمشون و يطوفون بطوافه. انتهى.

و لم نر ترجمة للشيخ أبو بكر المذكور، و الظاهر أنه من كبار العلماء العاملين، بدليل أن ثلاثمائة فقيه يمشون بمشيته و يطوفون بطوافه، و أن له مكانة كبيرة في بلاده، و في غيرها، حتى أذنوا له بالطواف راكبا على بغلة، و لا بد كان له عذر قوى في ركوب البغلة في الطواف، و الله تعالى أعلم بالغيب.

و ذكر الفاسي، في تاريخه شفاء الغرام، في الباب الثالث عشر، ما يأتي: قال:

"أى السهيلي" لما ذكر بناء ابن الزبير للكعبة، و في الخبر أنه سترها، حتى وصل إلى القواعد، فطاف الناس بتلك الأستار، فلم تخل قط من طائف، حتى لقد ذكر أن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٤٠

يوم قتل ابن الزبير اشتدت الحرب، و اشتغل الناس، فلم ير طائف يطوف بالكعبة إلا جمل يطوف بها. انتهى.

و ممن دخل المسجد الحرام راكبا أبو طاهر القرمطي، عامله الله بما يستحق، و ذلك سنة (٣١٧) سبع عشرة و ثلاثمائة من الهجرة، فقد دخل مكة، هو و أصحابه، يوم التروية، و هو اليوم الثامن من ذى الحجة، فأسرفوا في قتل الناس و الحجاج، فكان الناس يطوفون حول البيت و السيوف تأخذهم، و كان أبو طاهر سكران، راكبا فرسا له، و بيده سيف مسلول، فصفر لفرسه فبال عند البيت.

و روى الغازي في تاريخه نقلا عن خلاصة الكلام، ما ملخصه: أنه في سنة (٨١٠) عشر و ثمانمائة، في يوم الجمعة خامس ذى الحجة، حصلت فتنة في المسجد الحرام، انتهكت فيها حرمة المسجد الحرام، لما حصل فيه من القتال بالسلاح، و إدخال الخيل فيه، و طول مقامها و روثها فيه، و إراقة الدماء، و كان القائد الذي وقعت الفتنة بسببه اسمه جراد فلقد هجم في ذلك اليوم جماعة من القواد، و دخلوا المسجد الحرام، من باب إبراهيم، راكبين خيولهم، لابسين لامة الحرب، إلى أن انتهوا إلى المقام الحنفى، فلقبهم الترك و الحجاج و قاتلوهم، إلى أن وصلوا سوق المعلافة، أسفل مكة. و لما كان آخر النهار، أمر أمير الحاج بتسمير أبواب المسجد الحرام، إلا باب السلام، و باب الدريية و باب مدرسة المجاهدية، و أدخل جميع خيله المسجد الحرام، و جعلها في الرواق الشرقي، قريبا من منزله برباط الشرابي، المسمى الآن برباط قايتباي، و باتت الخيل بالمسجد الحرام حتى الصباح، ثم أحمد شريف مكة الفتنة، و نادى في الناس بالأمان فاطمئنوا، قال بعضهم: و لا أعلم فتنة أعظم منها بعد القرامطة. انتهى باختصار من تاريخ الغازي.

و لقد ذكر هذه الواقعة صديقنا الأستاذ أحمد السباعي في كتابه "تاريخ مكة" و قال إنها وقعت في عام (٨١٧)، و الغازي يقول إنها وقعت في عام (٨١٠) و الله تعالى أعلم.

و روى الغازي أيضا في تاريخه نقلا عن الفاسي، ما ملخصه: أنه في سنة (٧٦٦) ست و ستين و سبعمائة، حصل غلاء عظيم بمكة، و تعرف هذه السنة بأمر الجرب، لإصابة المواشى بالجرب، فاستسقى الناس بالمسجد الحرام فلم يسقوا، و قد أحضرت المواشى إلى المسجد للاستسقاء، و أدخلت فيه، و وقفت جهة باب

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٤١

العمرة إلى مقام المالكية، ثم فرج الله تعالى هذه الشدة عن الناس، فضلا منه و رحمة. انتهى.

و ذكر القطبي، في تاريخه، المتوفى سنة (٩٨٨) ثمان و ثمانين و تسعمائة، أن أحد الشيوخ المعمرين الصدوقين من أهل مكة، أخبره بأنه شهد الظباء تنزل من جبل أبي قبيس إلى الصفا، و تدخل من باب الصفا إلى المسجد الحرام، ثم تعود لخلوه من الناس. انتهى.

هذا ما أمكن جمعه مما يتعلق دخول الدواب المسجد الحرام، و إذا اطلعنا على ما يشبه ذلك نلحقه هنا أيضا إن شاء الله تعالى، و الله تعالى الموفق للصواب و إليه المرجع و المآب.

أى قياس شوط واحد حولها قال العلامة حسين بن محمد الديار بكرى الكردى، فى كتابه "تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس" بصحيفة ١٢١ من الجزء الأول: أنه ذرع بنفسه طوفة واحدة حول الكعبة و الحجر فكان مائة و سبعة و أربعون ذراعا و ثلاث أصابع اه. نقول: فيكون على ذلك ذرع الطواف الكامل لسبعة أشواط هو: ألف و تسعة و عشرون ذراعا و إحدى و عشرون إصبعاً، قال فى صحيفة ١١٩: و الذراع أربع و عشرون إصبعاً مضمومة سوى الإبهام، و الإصبع ست شعيرات، و الشعيرة ست شعرات من شعر البغل اه. و لقد كان ذرع المؤلف المذكور للكعبة و أركانها سنة (٩٣١) إحدى و ثلاثين و تسعمائة من الهجرة.

و مما يناسب ما ذكر، ما جاء فى كتاب الطبرى "القرى لقاصد أم القرى" ما نصه: و عن محمد بن فضيل، قال: رأيت ابن طارق فى الطواف و قد انفرج له أهل الطواف، و عليه نعلان مطوقتان، فحرروا أطوافه فى ذلك الزمان، فإذا هو يطوف فى اليوم و الليلة عشرة فراسخ. أخرج أبو الفرج فى مثير الغرام. انتهى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٤٢

نقول: و لقد سألنا، المهندس المصرى، الذى فرش أرض المسجد الحرام بالمرمر الرخام، فى زماننا، قبل التوسعة السعودية ببضع سنوات، عن مقدار قياس طوافه واحدة حول الكعبة بالمتر.

فأخبرنا أنه قاس الجهات الأربع للكعبة المشرفة، و من بعد حجر إسماعيل، أى من خارجه، فكان القياس ستة و ستين متراً.

فهذا هو قياس طوفة واحدة، فإذا ضربنا هذه الأمتار فى سبعة أشواط كان خارج الضرب (٤٦٢) متراً أربعمائة و اثنين و ستين متراً، هذا هو قياس الطواف الكامل لسبعة أشواط.

نقول: إننا قمنا بذرع طوفة واحدة فقط، حول الكعبة، فى الخامس من شوال سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف هجرية، فكان قياسها نحو سبعين متراً، مع العلم بأن الإنسان، كلما قاس قريباً من الكعبة، نقص القياس، و كلما قاس بعيداً عنها، زاد القياس، لذلك قد يختلف قياس الذرع بين شخصين، باختلاف موضع القياس، فى أرض المطاف، كما يختلف القياس بذراع اليد بحسب طولها و قصرها.

و يلزم للإنسان فى إتمام طوافه سبعة أشواط نحو عشرين دقيقة، إذا مشى الإنسان مشياً معتدلاً، و قد تزيد الدقائق أو تنقص، بحسب البطء و الإسراع، و القرب من البيت أو البعد عنه، لذلك فإن قياس طوفة واحدة من آخر حدود المطاف بعد توسعته فى زماننا الحاضر يكون أكثر من كل ما ذكرناه.

قال الفاسى فى الجزء الأول من "شفاء الغرام" عن مقدار الطواف ما نصه:

و أما مقدار الطواف بالكعبة فذكره الأزرقى و سليمان بن خليل، و بينهما فى ذلك اختلاف، لأن الأزرقى ذكر أن طواف سبع بالكعبة ثمانمائة ذراع و ست و ثلاثون ذراعا و عشرون إصبعاً. انتهى. و ذكر سليمان بن خليل، أن ذرع موضع الطواف مائة ذراع و سبعة أذرع. انتهى. و ما ذكره ابن خليل، فى مقدار موضع الطواف، يقتضى أن يكون سبعا بالكعبة سبعمائة ذراع و تسعة، بتقديم التاء على السين، و أربعين ذراعا، و ذلك ينقص عما ذكره الأزرقى فى مقدار ذلك سبعة و ثمانين ذراعا و عشرون إصبعاً، و الله أعلم بالصواب. و ذكر ابن خرداذبة ما يوافق ما ذكره ابن خليل، لأنه قال: و دور البيت مائة ذراع و سبعة أذرع. انتهى. و لعل ابن خليل قلده فى ذلك و الله أعلم. انتهى من كتاب شفاء الغرام.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٤٣

نقول: إن ما ذكره الإمام الأزرقى، من قياس الطواف، و ما ذكره سليمان بن خليل من قياسه أيضاً فيه فرق كبير عن الحقيقة، التى ذكرناها، فيما تقدم قبل قولهما، و هنا خطأ بين واضح، لأن أرض الكعبة، و ما حولها من المطاف، لم يتغير منذ زمن الجاهلية و الإسلام إلى يومنا هذا، و لن يتغير إن شاء الله تعالى أبداً، إلى أن تقوم الساعة. و الظاهر، و الله تعالى أعلم، أن كل واحد منهما غلط فى

حساب الأذرع عند قياسه، أو حصل خطأ من الكاتب عند نقل الكلام، و لو كان هناك فرق قليل بين القياس لم ننظر إليه، لكنه فرق عظيم بين الكلامين في القياس و مكان المطاف هو هو، لم يتغير منذ عهد إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، إلى اليوم، و الله تعالى أعلم، فرضى الله تعالى عنا و عنهم أجمعين.

و اعلم: أن كل ما تقدم من قياس الطوفة الواحدة أو قياس السبعة أشواط، إنما هو بحسب نفس أرض المطاف الأصلي القديم، و أما بعد توسعه المطاف الآن، في وقتنا هذا، فإن مقدار الطوفة الواحدة، و مقدار السبعة أشواط، يكون أكثر إذا طاف الإنسان في توسعه الجديدة من المطاف، لبعدها قليلا عن الكعبة، و توسعه المطاف في وقتنا هذا هو أول توسعه له، و قد كانت هذه توسعه في شهر رمضان من سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية كما تكلمنا عن ذلك بالتفصيل في غير هذا المحل، فكلما قرب الطائف من الكعبة المشرفة نقصت مسافة الطوفة الواحدة، و كل ما بعد عنها زادت المسافة، و هذا أمر يعرفه كل من وقف في الطواف، و نظر إلى المطاف بعين رأسه، فتأمل هذا المبحث، و افهمه جيدا، فإنك لا تجده في كتاب غير هذا الكتاب. و الله تعالى أعلم بالصواب و إليه المرجع و المآب.

عمارة المطاف و فرش

كان المطاف و حجر إسماعيل، عليه الصلاة و السلام، في زمن الجاهلية، مجلسا عاما، يجتمعون بفناء الكعبة و ظلها، يتذكرون في مختلف شؤونهم، و كان لعبد المطلب مفرش، في الحجر، لا يجلس عليه غيره، و كان الندى من قريش "أى الكريم الجواد" حرب بن أمية، فمن دونه يجلسون حوله، دون المفرش، فجاء رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هو غلام يدرج، ليجلس على المفرش، فجدبوه فبكى، فقال عبد المطلب، و ذلك بعد ما حجب بصره، غلاما لابنى يبكى؟ قالوا له: إنه أراد أن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٤٤

يجلس على المفرش فمنعوه، فقال عبد المطلب: دعوا ابني فإنه يحس بشرف، أرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربى قط، و قد توفي عبد المطلب و النبي صلى الله عليه و سلم ابن ثمان سنين و كان خلف جنازته، يبكى حتى دفن بالحجون. اه من الأزرقى. و المطاف و الحجر لم يكونا مفروشين بالرخام أو البلاط، زمن الجاهلية، و إنما كانا ترابا و رملا، من نفس تربة مكة. فأول من حصب أرضية المسجد الحرام عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أى فرشها بالحصاء، و المقام و الحجر داخل فى المسجد الحرام، و كان أول بدئه بذلك بالمسجد النبوى، فقد سئل ابن عمر عن ذلك، فقال: مطرنا ليلة فخرنا لصلاة الغداة، فجعل الرجل منا يحمل فى رداءه من الحصاء، فيفرشه على البطحاء، و يصلى عليه، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم ذلك، قال: ما أحسن هذا البساط، ثم أمر عمر بن الخطاب فى خلافته بتحصيله من وادى العقيق.

قال الغازى، فى تاريخه، نقلا عن درر الفرائد: أول من بلط المطاف عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما، لما بنى الكعبة، و فرغ من بنائها، بقيت معه من الحجارة بقية، ففرش بها حول البيت، نحو من عشرة أذرع، و تبعه غيره ففرش باقى المطاف. اه. و كانت عمارة ابن الزبير للكعبة سنة (٦٤) أربع و ستين.

و قال ابن بطوطة، فى رحلته، التى كانت سنة (٧٢٥) خمس و عشرون و سبعمائة: و المطاف مفروش بالحجارة السود، و يصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحماة، و لقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها، فما يجاوز الموضع، الذى يصب فيه، إلا و يلتهب الموضع من حينه. و أكثر الطائفين فى ذلك الوقت يلبسون الجوارب. انتهى كلامه.

و فى سنة (٨٤٦) ست و أربعين و ثمانمائة أذيب الرصاص، و جعل بالحفر، التى بأرض المطاف.

و ذكر الفاسى فى "شفاء الغرام" فى الجزء الأول، فى أواخر الباب الثانى و العشرين، عن المطاف ما يأتى: المطاف المذكور فى كتب الفقهاء، و هو ما بين الكعبة و مقام إبراهيم الخليل، عليه السلام، و ما يقارب ذلك من جميع جوانب الكعبة، و قد أشار إلى تعريفه، بما

ذكرناه الشيخ أبو محمد الجويني، فيما نقله عنه ابن الصلاح، في منسكه، لأنه قال: قال الشيخ أبو محمد: المطاف المعتاد، الذي

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٤٥

يستنكر و يستبعد مجاوزته، هو ما بين الكعبة و المقام، و في كل جانب في العادة أمارات منصوبة لا يكاد الناس يخرجون عنها. انتهى. قلت: و هذا الموضع مفروش بالحجارة المنحوتة حول الكعبة من جوانبها، و عمل ذلك دفعات، حتى صار على ما هو عليه اليوم، و كان مصيره هكذا في سنة ست و ستين و سبعمائة، و المعمول منه في هذه السنة جانب كبير جدا، و هاتان العمارتان، من جهة الملك الأشرف شعبان، صاحب مصر، و عمر الطواف من ملوك مصر الملك المنصور لاجين المنصوري، و اسمه مكتوب بسبب ذلك في رخامة، بين الركن اليماني و الحجر الأسود، و عمره من الخلفاء المستنصر العباسي، في سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة، و اسمه مكتوب بسبب ذلك في الحفرة، التي عند باب الكعبة، و قد بين الفاكهي، أول من فرش الحجارة، في موضع الطواف، و مقدار ذلك، و ما كان يضع في موضعه، لأنه قال: ذكر فرش الطواف بأى شيء هو، قال بعض المكيين: إن عبد الله بن الزبير، لما بنى الكعبة، و فرغ من بنائها، و خلقها و طلاها بالمسك، و فرش أرضها من داخلها، بقيت من الحجارة بقية ففرش بها حول الطواف كما يدور البيت نحو من عشرة أذرع، و ذلك الفرش باق إلى اليوم، إذا جاء الحاج في الموسم، جعل على تلك الحجارة رمل من رمل الكتيب، الذي أسفل مكة، يدعى كتيب الرمضة، و ذلك أن الحجية يشتركون له رملا كثيرا، فيجعل في الطواف، و يجعل الرمل فوقه، و يرش بالماء حتى يتلبد، و يؤخذ بقية ذلك الرمل، فيجعل في زاوية المسجد، الذي يلي باب بنى سهم، فإذا خف ذلك الرمل، أعادوه عليه، و يرشوا عليه الماء، حتى يتلبد، فيطوف الناس عليه، فيكون ألين على أقدامهم في الطواف، فإذا كان الصيف، و حمى ذلك الرمل، من شدة الحر، أمر غلمان زمزم و غلمان الكعبة، أن يستقوا من ماء زمزم، في قرب، ثم يحملونها على رقابهم، حتى يرش به رمل الطواف، فيتلبد و يسكن حره، و كذلك أيضا يرشون الصف الأول، و خلف المقام، كما يدور الصف حول البيت. انتهى.

نقل الغازي عن ابن فهد: أنه في سنة (٨٨١) إحدى و ثمانون و ثمانمائة عملوا الرصاص بأرض المطاف، حول الكعبة، و غيروا رخام الحجر داخلا و خارجا.

و نقل الغازي عن الإعلام: أنه في سنة (٩٦١) إحدى و ستون و تسعمائة بعد أن فرغ ناظر الحرم أحمد حلي من تجديد سطح البيت الشريف، شرع في تسوية فرش المطاف ببلاط جديد، أى رخام، فإن أحجاره انفصلت، و صارت بين كل التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٤٦

حجرين حفرا، كانت تلك الحفرة تسد تارة بالنورة، و تارة بالرصاص، و تسمر بمسامير الحديد، فأزال ما بين الأحجار من الحفرة، و نحت طرف الحجر إلى أن ألصقه بطرف الحجر الآخر، من جوانبه الأربعة، و استمر في فرش المطاف على هذا الأسلوب، إلى أن فرغ من ذلك، و أصلح أبواب المسجد الشريف و فرش المسجد جميعه بالجص. اه. و كان عمل أحمد حلي، بأمر السلطان سليمان خان، رحمهم الله جميعا. و في شهر صفر سنة (٨٩٤) أربع و تسعون و ثمانمائة أمر ناظر الحرم، قاضى القضاة، جمال الدين أبا السعود بن ظهيرة، بحفر جميع حاشية المطاف، و إصلاحه بإخراج البطحات، التي بها، و ذلك بسبب وقع المطر و دخول السيل إلى المسجد، فحفرت و أخرج منها بطحات كثيرة مخلوطة بالتراب، فغربلت و بطحت الحاشية ببعض البطحات، و فرق باقيها بالمسجد في الأماكن المحتاجة لذلك، و كان إكمال العمل في أوائل شهر ربيع الأول من السنة المذكورة اه. و في يوم الثلاثاء ثالث عشر رمضان سنة (٩١٨) ثمانى عشرة و تسعمائة أمر الأمير الباش بإذابة الرصاص في المسجد الحرام، في أماكن في المطاف، و عند المزولة، فتم ذلك في يوم واحد. و في شهر ذى القعدة سنة ٩٢٠ عشرون و تسعمائة رصص أرض المطاف الخواجة ابن عباد الله، و أصلح مجرى السيل و المسعى، حسب المرسوم، الذي ورد لنائب جدة، بتفويضه ذلك، و أرسل لهذا العمل رصاصا، وصل إلى جدة، قالوا عنه أنه خمسون قنطارا، فوصل بعضه لمكة.

و أول من فرش المطاف بالحجارة الجبلية المنحوتة، هو الوزير الأعظم سنان باشا، و ذلك سنة (٩٨٠) تسعمائة و ثمانين هجرية أو في

التي قبلها أو في التي بعدها.

قال القطبي في تاريخه: فمن آثاره الخاصة بالوزير الأعظم "سنان باشا" في المسجد الحرام هو: تعميره حاشية المطاف، و كانت من بعد أساطين المطاف الشريف، دائرة حول المطاف، مفروشة بالحصى، يدور بها دور حجارة منحوتة، مبنية حول الحاشية بالحجر الصوان المنحوت، ففرشت به في أيام الموسم، و صار محلا لطيفا دائرا بالمطاف، من بعد أساطين المطاف، و صار ما بعد ذلك مفروشا بالحصى الصغار، كسائر المسجد خاص به، ذكره الله بالصالحات و أدام الله له العز و السعادات.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٤٧

و منها تعمير سبيل في التنعيم، أنشأها و أمر بإجراء الماء إليها، من بئر بعيدة عنها، يجري الماء منها إلى السبيل في ساقية، مبنية فيما بينهما بالجص و النورة، و عين لها خادما يسقى من البئر، و يصب في الساقية فيصل الماء إلى السبيل، يشرب منه و يتوضأ به المعتمرون، و الواردون و الصادرون، و يدعون له بالنصر و التأييد، و عين مصاريق ذلك من ريع أوقاف له بمصر. انتهى من تاريخ القطبي.

و في سنة (١٠٠٣) ه ثلاث و ألف قلعوا حجارة المطاف، و كانت من الحجر الصوان، ففرشت في الحاشية، التي تلى المطاف، و فرشوا المطاف بالمرمر.

و في سنة (١٠٠٦) ه ست و ألف فرش جميع أرض المطاف بالرخام الأبيض الناصع الجميل، السلطان محمد خان، من سلاطين آل عثمان، فرش المطاف كله إلى العمدة المطيفة به، و قد قال، في ذلك، العلامة أسعد أفندي، مفتي الديار الرومية، و في مدح سلاطين آل عثمان، قصيدة تقتطف منها ما يخص فرش المطاف بالمرمر للسلطان محمد خان فإنه قال:

فرش المطاف بمرمر بصفاه يحكى المسجد

كالبدر أشرق نوره إذ جن ليل أسود

كالكوكب الدرى فى أوج السعادة يوقد

إلى أن قال:

فلأجل تاريخ له قال ابن سعد أسعد

زان المطاف بمرمر ملك الأنام محمد

و في سنة (١٠٧٢) ه اثنتان و سبعون و ألف زاد في حاشية المطاف، فرش بالحجر المنحوت، زيادة قليلة، سليمان بيك صنجد جده، و المراد بحاشية المطاف هو الخارج من أعمدة المطاف.

ثم إننا لم نبحث عن أصلح المطاف بذلك، و ربما كتبنا عنه في مبحث آخر من كتابنا هذا، لكن لا- نتذكره الآن، فقد حصل إصلاحات و ترميمات بالمسجد الحرام كله بعد السنة المذكورة مرارا. و الله تعالى أعلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٤٨

حدود المطاف بالأعمدة و الأساطين ثم إزالتها بتانا في عصرنا

لا يخفى أن المطاف، كان هو حد المسجد الحرام، في زمن الجاهلية، و صدر الإسلام، إلى أن حصلت التوسعة فيه، و المطاف نسميه الآن "بالصحن:" و هو مفروش بالرخام الأبيض، و قد ذكرنا قياسه بالمتر.

و لم يكن المسجد الحرام، الذى حد نفس المطاف، محاطا بجدار، و إنما كانت الدور محدقة به من كل جانب، و قد جعلوا بين كل دارين طريقا ينفذ منه إلى المسجد، فعليه تكون الإضاءة للطائفتين بوضع المصباح على هذه الدور.

فأول من استصبح لأهل الطواف فى المسجد الحرام، عقبه بن الأزرق بن عمرو الغساني، و كانت داره لاصقة بالمسجد الحرام، من

ناحية وجه الكعبة، والمسجد يومئذ ضيق، فكان يضع على حرف داره أو جدر داره مصباحا كبيرا، يستصبح فيه، فيضيء له وجه الكعبة والمقام وأعلى المسجد، وما زال أولاده يضعون المصباح على حرف الدار، حتى كان خالد بن عبد الله القسري، فمنعهم من ذلك، ووضع هو مصباح زمزم مقابل الركن الأسود، وذلك في خلافة عبد الملك بن مروان، أي في عام (٧٥).

قال الأزرقى: فلم يزل مصباح زمزم على عمود طويل مقابل الركن الأسود، الذى وضعه خالد بن عبد الله القسري، فلما كان محمد بن سليمان على مكة، في خلافة المأمون سنة (٢١٦) ست عشرة و مائتين، وضع عمودا طويلا مقابله، بحذاء الركن الغربى، فلما ولي مكة محمد بن داود، جعل عمودين طويلين، أحدهما بحذاء الركن اليماني، والآخر بحذاء الركن الشامي، فلما ولي هارون الواثق بالله أمر بعمد من الشبه "و هو نوع من النحاس" طوال عشرة، فجعلت حول المطاف يستصبح عليها لأهل الطواف، وأمر بثمان ثريات كبار يستصبح فيها، وتعلق فى المسجد الحرام فى كل وجه اثنتان. اه من الأزرقى.

ثم قال أيضا: قال الخزاعى أخبرنى أبو عمران موسى بن منوية قال: أخبرنى الثقة أن هذه العمدة الصفر كانت فى قصر بابك الخرمى، بناحية أرمينية، كانت فى صحن داره يستصبح فيها، فلما خذله الله وقتل بابك، وأتى برأسه إلى سامرا، وطيف به فى البلدان، وكان قد قتل خلقا عظيما من المسلمين، وأراح الله منه، هدمت داره وأخذت هذه الأعمدة التى حول البيت الحرام فى الصف الأول، ومنها التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٤٩

فى دار الخلافة أربعة أعمدة، وبعث بهذه الأعمدة المعتصم بالله أمير المؤمنين، فى سنة مائتين و نيف و ثلاثين، فهذا خبر الأعمدة الصفر، التى حول الكعبة، وهى عشرة أساطين، وكانت أربع عشرة أسطوانة فأربع فى دار الخلافة بسامرا. انتهى من الأزرقى. وذكر الفاسى نقلا عن الفاكهى: أن أول من استصبح بالسرحة فى المسجد الحرام عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وذلك سنة سبع عشرة من الهجرة.

فاعلم مما تقدم، أن أعمدة المطاف وأساطينه، ما وضعت حوله، إلا لتعليق مصابيح الاستضاءة عليها، وتكون فى الوقت نفسه علامة على حد المسجد الحرام، الذى كان زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، وما وراء ذلك فهو من الزيادات.

قال الغازى نقلا- عن تحصيل المرام، وهذا نقلا- عن القرشى، قال عز الدين ابن جماعة: والأساطين التى حول المطاف الشريف أحدثت للاستضاءة بالقناديل، التى تعلق بينها، بعد العشرين و سبعمائة وكانت من خشب، ثم جعلت من حجارة سنة (٧٤٩) تسع و أربعين و سبعمائة، ثم ثارت ريح عاصفة سنة (٧٥١) إحدى و خمسين و سبعمائة فألقتها ثم جددت فيها. انتهى ما ذكره القرشى.

وقال الغازى نقلا عن ابن فهد، أنه قال: فى حوادث سنة (٧٣٦) ست و ثلاثين و سبعمائة، و فيها جعلت الأساطين، التى حول المطاف، وجعل بعضها بالحجارة المنحوتة الدقيقة، والباقى آجر مجصص، وجعل بين كل من الأساطين خشبة ممدودة، راكبة عليها وعلى المقابلة لها، لأجل القناديل، التى يعلق، لأجل الاستضاءة حول الكعبة، عوض الأخشاب، التى كانت فى هذا المكان على صفة الأساطين. وقال: فى حوادث سنة (٧٤٩) تسع و أربعين و سبعمائة اجتهد الأمير فارس الدين، فى إصلاح المسجد الحرام، و جدد الأعمدة، المتخذة حول المطاف.

انتهى.

وقال الغازى و فى درر الفرائد: أن السلطان سليمان العثمانى غير الأساطين، التى حول المطاف، وكانت من حجارة، بأعمدة من نحاس فى سنة (٩٨٢) اثنتين و ثمانين و تسعمائة، و بينها أخشاب ممدودة لتعلق فيها القناديل حول المطاف، و عدة النحاس ثلاثون، و فى جهة زمزم فى آخر الأساطين عمودا رخام، و فى آخر الأساطين من الجهة الأخرى من جهة المنبر عمودا رخام. انتهى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٥٠

وقال الغازى: قال الصباغ: أقول و قد جدد محمد عزت باشا، فى زمن السلطان عبد المجيد خان، عمودين من رخام، من جهة باب بنى

شبيهة، على حافة الصحن، عليها أعمدة من حديد منقور لها، بين الأساطين، متصله تلك الأعمدة بالأساطين القديمة، وقد غيرت أيضا الأخشاب، التي بين الأساطين، التي حول المطاف بأعمدة من حديد، تعلق فيها القناديل و بين كل عمودين سبع قناديل. انتهى.

و الظاهر أن ذلك كان حوالي سنة (١٢٥٧) سبع و خمسين و مائتين و ألف، حيث حصل في المسجد الحرام، بعض إصلاحات، في زمن السلطان عبد المجيد خان رحمه الله تعالى.

و لم نسمع أنه حصل بعد ذلك شيء في أعمدة المطاف، اللهم إلا من إصلاح بعضها إصلاحا بسيطا لا يذكر، أو من ضربها بالبوية الزيتية.

انظر: صورة رقم ١٢٥، الحجر الأسود و يرى كحدقة العين وسط الكعبة المعظمة و بابها و حجر إسماعيل، و يظهر أيضا أعمدة المطاف القديم التي في حدوده قبل التوسعة

توسعة المطاف لأول مرة في التاريخ

كان المطاف الأول هو نفس المسجد الحرام، من عهد إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، إلى السنة الرابعة من خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، أى إلى السنة السابعة عشرة للهجرة. ففي هذه السنة زاد عمر رضى الله عنه، في المسجد الحرام، و هى أول زيادة حصلت فيه، و بقيت حدود المسجد الحرام، الأول، الذى هو نفس المطاف، محفوظة معلومة إلى عصرنا هذا، رغم تكرار الزيادة في المسجد الحرام، فالمطاف الأول هو هو، لم يفكر أحد من سلاطين المسلمين و ملوكهم أن يوسعوه و يزيّدوا رقعته.

فلما كان في زماننا هذا رأى الملك سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ملك المملكة العربية السعودية، أن يوسع المطاف، حرصا على راحة الحجاج في موسم الحج، فأصدر أمره الكريم بتوسعة المطاف، و هدم المقامات الأربعة، التي في أطراف المطاف. أما هدم المقامات المذكورة فقد تكلمنا عنها في محلها بما فيه الكفاية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٥١

و أما توسعة المطاف: فإنه في الأسبوع الأخير من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين من الهجرة، ابتدوا في قلع الرخامات، التي بعد المطاف، و المحيطة به، و حفروا الأرض المحيطة بالمطاف، لتساوى به، بعد وضع الرخامات عليها، كما أنهم قلعوا في الأسبوع الأول من شهر رمضان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية، الأعمدة الخضراء، التي كانت في حدود المطاف الأول و علامة عليه، ثم بدأوا، بعد حفر الأرض، في فرشها بالإسمنت، ثم في وضع الرخامات عليه حتى تساوى هذا المطاف الجديد، بالمطاف القديم، و صار على سمته و بلصقه، و مقدار مساحة الجديد كمقدار مساحة القديم تقريبا.

و انتهوا من فرش المطاف الجديد بالرخام في النصف الأول من شهر شوال من السنة المذكورة.

فلو تأملنا لوجدنا أن مكان توسعة المطاف أى "المطاف الجديد" هو نفس المكان الذى زاده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، في المسجد الحرام سنة (١٧) سبع عشرة من الهجرة، فلا تنقص هذه التوسعة في المطاف و لا تزيد عن مقدار ما زاده عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، في المسجد الحرام، إلا بمقدار قليل نحو مترين أو ثلاثة فقط لا غير.

فالمطاف الجديد يتدئ من الخط الأسود، الذى يدور حول الكعبة المشرفة، فلقد اقترحنا على القائمين بالتوسعة وضع رخام أسود حول المطاف القديم كله، ليكون فارقا بين المطاف القديم و المطاف الجديد، لبيان كل منهما، و هنا مسألة لا بد من ذكرها، فلقد جاء في كتاب "شفاء الغرام" في الجزء الأول بصحيفة ٣١٨ ما نصه:

و ينبغى للطائف أن لا يخرج عن هذا المكان في طوافه، لأن في الجواهر لابن شاش على مذهب الإمام مالك: لا يطوف من وراء زمزم و لا من وراء السقائف، فلو فعل مختارا أعاد ما دام بمكة، فإذا رجع إلى بلده فهل يجزيه الهدى أم يلزمه الرجوع للمتأخرين

قولان. انتهى. ونحوه لابن بشير و ابن الحاجب في مختصره، و قد بسطنا هذه المسألة في أصل هذا الكتاب، و السقائف أروقة المسجد الحرام.

انتهى من شفاء الغرام.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٥٢

مقدار المطافين القديم و الجديد و شكلهما

المطاف القديم هو على شكل بيضوي، من أصل الوضع الطبيعي في بادئ الأمر، و سببه أيضا وجود حجر إسماعيل، عليه الصلاة و السلام، في جهة واحدة من الكعبة المشرفة، و هي الجهة الشمالية، فالطائف يطوف بلبق الكعبة من الجهات الثلاث، فإذا وصل إلى الجهة الشمالية صار يطوف من وراء جدار حجر إسماعيل، أي مبتعدا عن الكعبة من هذه الجهة بمقدار عشرة أمتار تماما، لأن من شروط الطواف أن يكون من وراء جدار الحجر. فلهذا كان المطاف القديم، على شكل بيضوي، بطبيعة الحال، لا بفعل فاعل. كما ستراه في الرسم الآتي.

و إليك بيان طول المطاف القديم من الجهات الأربع محررا مضبوطا ضبطا تاما بالأمتار.

سنتيمتر / متر / طول المطاف القديم من الجهات الأربع

١١ / ٥٠ / طول المطاف القديم من جدار الكعبة الذي فيه الباب من جهة الشرق إلى أول مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام.

١٦ / ٦٥ / طول المطاف القديم من جدار الكعبة من ظهرها أي من الجهة الغربية.

٢٢ / ٣ / طول المطاف القديم من جدار الكعبة من تحت ميزابها أي من الجهة الشمالية، بما فيه حجر إسماعيل و سمك جداره.

١٥ / ٢٠ / طول المطاف القديم من جدار الكعبة الذي بين الركنين من الجهة الجنوبية.

هذا هو قياس طول المطاف القديم بالأمتار، و هو قياس مضبوط محرر لا يحتمل الشك، لأننا أخذناه من نفس المهندسين المصريين الذين اشتغلوا في توسعة المطاف في زماننا سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية.

و أما المطاف الجديد فهو على شكل دائرة كاملة الاستدارة و قد كان هذا الشكل الدائري من عمل المهندسين المصريين الذين أشرفوا على توسعة المطاف، كما ستراه في الرسم الآتي.

و إليك بيان طول هذا المطاف الجديد من الجهات الأربع محررا مضبوطا تاما بالأمتار:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٥٣

سنتيمتر / متر / طول المطاف الجديد من الجهات الأربع

١٥ / ٣٠ / طول المطاف الجديد من الجهة الشرقية للكعبة، أي من مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام.

١٠ / ٧٥ / طول المطاف الجديد من الجهة الغربية، أي من جهة ظهر الكعبة.

٤ / ٦٥ / طول المطاف الجديد من الجهة الشمالية، أي من جهة حجر إسماعيل عليه الصلاة و السلام.

١١ / ٥٠ / طول المطاف الجديد من الجهة الجنوبية، أي من جهة الركنين الأسود و اليماني.

هذا هو قياس طول المطاف الجديد بالأمتار، و هو قياس محرر مضبوط لا يحتمل الشك، لأننا أخذناه من نفس المهندسين المصريين الذين اشتغلوا في توسعة المطاف في زماننا سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين من الهجرة. و بإضافة مقدار القديم على المطاف الجديد، يظهر مقدار كامل المطافين.

و لقد قسمنا هذه الدائرة إلى أربعة أقسام متساوية كما هو ظاهر في الرسم، لنبين مقدار طول المطاف القديم، و طول المطاف الجديد، من الجهات الأربع، و هو رسم صحيح مضبوط مطابق للحقيقة، أخذناه من المهندسين المصريين الذين اشتغلوا في توسعة المطاف من

وأواخر شهر شعبان إلى أوائل شهر شوال من سنة (١٣٧٧) ألف و ثلاثمائة و سبع و سبعين هجرية، فالحمد لله على التوفيق.
انظر: صورة رقم ١٢٦، المطافين القديم و الجديد.

الحج

الحج في الجاهلية و بعض عادات العرب فيه

جاء في كتاب "مرآة الحرمين" تأليف إبراهيم رفعت باشا، في الجزء الأول، عن حج أهل الجاهلية و بعض عاداتهم، ما يأتي:
من زمن مديد و العرب في جاهليتها تحج إلى بيت الله الحرام و كانوا على دينين "حله و حمس." فالحمس قريش و من والاها من كنانة و خزاعة و الأوس و الخزرج و قضاة و جديلة و غطفان و عدوان و غيرهم من قبائل العرب، سموا بذلك التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٥٤

لتحمسهم في دينهم، و الحماسة: الشجاعة، و الأحمس: الشجاع، أو لأنهم احتموا بالحمساء، و هي الكعبة. و كانت قريش، إذا زوّجت عربيا من بناتهم، شرطوا عليه أن كل من ولدت منه فهو أحمسي، على دينهم و يرون أن ذلك أحفظ لشرفهم و أبسط لسلطانهم. و كانت لهم في العرب ميزة، لم تكن لغيرهم، و منشأ ذلك فضل فيهم، و كمال في أخلاقهم، فقد كانوا حلفاء متآلفين، و بكثير من شريعة إبراهيم متمسكين، و لم يكونوا كالأعراب الأجلاف، و لا- كمن لا- يوقره دين، و لا- يزينه أدب. و كانوا يختنون أولادهم، و يحجون البيت، و يقيمون المناسك، و يكفنون موتاهم، و يغتسلون من الجنابة و تبرأوا من الهربذة، و تباعدوا في المناكح، من البنت و بنت البنت و الأخت و بنت الأخت، غيره و بعدا من المجوسية.

و نزل القرآن، بتوكيد صنيعهم، و حسن اختيارهم. و كانوا يتزوجون بالصدّاق و الشهود و يطلقون ثلاثا، و لذلك قال عبد الله بن عباس و قد سأله رجل عن طلاق العرب فقال: كان الرجل يطلق امرأته تطليقة، ثم هو أحق بها، فإن طلقها اثنتين فهو أحق بها أيضا، فإن طلقها ثلاثا، فلا سبيل له إليها. و لذلك قال الأعشى:

أيا جارتى بينى فإنك طالقك كذاك أمور الناس غاد و طارقة

و بينى فقد فارقت غير ذميمة و موموقة منا كما أنت و امقة

و بينى فإن البين خير من العصاو أن لا ترى لى فوق رأسك بارقة

و كان من عادة الحمس، إذا أحرموا، أن لا- يأتقوا الأقط، و لا- يأكلوا السمن، و لا يسلوه- لا يطبخوه و لا يعالجوه- و لا يمخضوا اللبن، و لا يأكلوا الزبد، و لا يلبسوا الوبر و لا الشعر، و لا يغزلوه أو ينسجوه أو يستظلوا به ما داموا حرما. و ما كانوا كذلك يأكلون شيئا من نبات الحرم، و كانوا يعظمون الأشهر الحرم و لا يخفرون فيها الذمة و لا يظلمون، و كانوا يطوفون بالبيت عليهم لباسهم، و كانوا إذا أحرم الرجل منهم، في الجاهلية و أول الإسلام، فإن كان من أهل البيوت، نقب نقبا في ظهر بيته، فمنه يدخل و منه يخرج. و ما زالوا كذلك، و حتى بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه و سلم فأحرم عام الحديبية، فدخل بيته، و كان معه رجل من الأنصار، فوقف الأنصارى بالباب، فقال له: ألا تدخل؟ فقال الأنصارى: إني أحمسي يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: و أنا أحمسي ديني و دينك سواء فدخل الأنصارى مع رسول الله صلى الله عليه و سلم من الباب. و فى ذلك نزل قوله تعالى:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٥٥

و لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

و قال الحمس لأنفسهم: لا- تعظّموا شيئا من الحل، كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفّت العرب بحرمكم، و قالوا قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفه و الإفاضة منها، و جعلوا موقفهم بطرف الحرم، من جهة نمره،

يظنون به عشية عرفة، و يفيضون منه إلى المزدلفة، فإذا عمت الشمس رؤوس الجبال، وقفوا، و كانوا يقولون: نحن أهل الحرم لا نخرج من الحرم و نحن الحمس. فعلوا ذلك و أقروا سائر العرب على الوقوف بعرفة و الإفاضة منها، و تلك شريعة إبراهيم يعرفونها حق المعرفة، و لكن ترفعهم و مغالاتهم تنكب بهم عن سبيلها، فشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله. و منشأ ذلك الغلو أن الله تعالى، لما أهلك أبرهة الحبشى، صاحب الفيل، و سلط عليه الطير الأبايل - الجماعات - عظمت جميع العرب قريشا و أهل مكة، و قالوا:

أهل الله قاتل عنهم و كفاهم مؤونه عدوهم، فازدادوا في تعظيم الحرم، و المشاعر الحرام، و الشهر الحرام، و قرورها، و رأوا أن دينهم خير الأديان و أحبها إلى الله تعالى.

و قالت قريش و أهل مكة: نحن أهل الله، و بنو إبراهيم خليل الله، و ولاية البيت الحرام و سكان حرمه و قطانه، فليس لأحد، من العرب، مثل حقنا، و لا مثل منزلتنا. و لا تعرف العرب لأحد مثل ما تعرف لنا، فابتدعوا، عند ذلك، أحداثا في دينهم، أداروها بينهم، فكان منها ما تقدم و منها، أنهم ما كانوا يجيزون لأحد من الحلة - من ليسوا بحمس - أن يطوف بالبيت أول طوافه، إلا إذا لبس ثوبا أحمسيا يشتره أو يستأجره أو يستعيره، فإذا ما أتى الواحد منهم باب المسجد، رجلا كان أو امرأة قال: من يعير مصونا، من يعير ثوبا إلخ...؟ فإن وفق لثوب أحمسي لبسه و طاف به، و إن لم يوفق ألقى ثيابه بباب الكعبة من الخارج، ثم دخل للطواف عريانا. فيبدأ بأساف - صنم - ليستلمه ثم يستلم الركن الأسود ثم يأخذ يمينه و يطوف، جاعلا الكعبة عن يساره، فإذا ختم طوافه سبعا، استلم الركن، ثم استلم نائلة - صنم - فيختم بها، ثم يخرج، فيجد ثيابه، كما تركها لم تمس، فيأخذها و يلبسها، و لا يعود بعد ذلك إلى الطواف عريانا، و كانت النساء يلبسن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٥٦

درعا مفرج المقاديم و المآخير. و منهن من تتخذ سيورا، تعلقها في حقوتها، و تستتر بها و تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

و كانت العادة، أن يطوف العرأة، من الرجال نهارا و من النساء ليلا. و كان من له فضل ثياب من الحلة و لم يجد ثوبا أحمسيا يطوف فيه، طاف في ثيابه التي قدم بها من الحل، فإذا ما أتم طوافه نزعها فجعلها لقا يطرح بين إساف و نائلة، فلا يمسه أحد و لا ينتفع بها، حتى تبلى، من وطء الأقدام و الشمس و الرياح و المطر.

قال ورقة بن نوفل يذكر اللقا:

كفى حزنا كرى عليه كأنه لقا بين أيدي الطائفين حريم

و كان من خبر الطواف عريا، أنه جاءت امرأة يوما، و كانت ذات هيبه و جمال، فطلبت ثيابا فلم تجد، و تحتم عليها الطواف عريانه، فنزعت ثيابها بباب المسجد، ثم دخلت عريانه و قد وضعت يديها على فرجها، و جعلت تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ما بدا منه فلا أحله

أختم مثل العقب باد ظله كأن حمى خبير تملّه

فجعل فتیان مكة ينظرون إليها و تزوجت من قريش.

عادة سيئه و بدعه شيعه، أبى الإسلام إلا هدمها و القضاء عليها، فبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم فى سنة تسع على بن أبى طالب إلى أبى بكر، أمير الحج، ليؤذن فى الناس بأربع: لا يطوف بالبيت عريان و لا تدخل الجنة إلا نفس مؤمنه، و لا يجتمع مسلم و مشرك فى الحرم بعد عامهم هذا، و من كان له عند النبى صلى الله عليه و سلم عهد، فعده إلى مدته و من لم يكن له عهد فعدهته أربعة أشهر. و ذلك ما جاء فى الآيات من سورة الأعراف و سورة التوبة فى الأولى: يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد و كلوا و اشربوا و لا تسرفوا إنّه لا يحب المُسرفين * قل من حرم زينته الله التى أخرج لعباده و الطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة

الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَ فِي الثَّانِيَةِ: بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* فَسَيَحْضُرُونَ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ إِلَى أَنْ يَقُولَ: إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَ فِيهَا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٥٧

يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَ قَالَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَاوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ.

وَ كَانَ، مِنْ عَادَةِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، أَنْ يَدْخُلُوا الْكَعْبَةَ لِابْسِينِ أَحْذِيَّتِهِمْ، حَتَّى سَنَّ لَهُمْ، الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ، خَلَعَ الْخُفَّ وَ النَّعْلَ، إِذَا مَا دَخَلُوا. فَاسْتَنَّ الْعَرَبُ بِسُنَّتِهِ إِعْظَامًا لِلْكَعْبَةِ وَ إِجْلَالًا- وَ كَانَ، مِنْ عَادَتِهِمْ أَيْضًا، إِذَا اقْتَرَبَ مَوْسِمَ الْحَجِّ، أَنْ يَخْرُجَ مَرِيدُوهُ، وَ الَّذِينَ يَرْجُونَ إِلَيْهِ تِجَارَةً مِنْ دِيَارِهِمْ، إِلَى عِكَاطٍ، فَيُؤَافِقُوهُ، مُسْتَهْلِ ذِي الْقَعْدَةِ، وَ يَقِيمُوا فِيهِ عِشْرِينَ لَيْلَةً، تَقُومُ فِيهَا أُسُوقُهُمْ، وَ تَنْفَقُ سُلْعُهُمْ، وَ تَنْحَازُ كُلُّ قَبِيلَةٍ إِلَى مَنْزِلِ، أَعْدُوهُ لِلْقَرَى، فَأَقَامُوا عَلَيْهِ الرِّيَاطَ. وَ اسْتَدْعُوا إِلَيْهِ الْأَصْيَافَ، يَسْتَقْبِلُهُمُ الْقَادَةُ مِنْهُمْ وَ الْأَشْرَافَ، فَيَنْزِلُونَهُمْ أَهْلًا وَ سَهْلًا وَ مَرْعَى خَصْبًا. وَ تَخْتَلِطُ الْقَبَائِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ فِي بَطْنِ السُّوقِ مُتَنَاشِدِينَ وَ مُتَبَايِعِينَ.

فَإِذَا مَا مَضَتْ الْعِشْرُونَ، انصَرَفُوا إِلَى مَجَنَّةٍ، فَأَقَامُوا بِهَا عَشْرًا، أُسُوقُهُمْ فِيهَا قَائِمَةٌ وَ تِجَارَتُهُمْ رَائِجَةٌ، فَإِذَا رَأَوْا هَلَالَ ذِي الْحِجَّةِ انصَرَفُوا إِلَى ذِي الْمَجَازِ، فَأَقَامُوا بِهِ ثَمَانِ لَيَالٍ، يَرْوِجُونَ فِيهَا الْبِضَاعَةَ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْ ذِي الْمَجَازِ إِلَى عَرَفَةَ، يَوْمَ التَّرْوِيَةِ، وَ سَمُوهُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَنَادِي بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، بِذِي الْمَجَازِ، أَنْ تَرَوْا مِنَ الْمَاءِ، لِأَنَّهُ لَا مَاءَ بِعَرَفَةَ وَ لَا بِالْمِزْدَلِفَةِ. وَ كَانَ يَحْضُرُ هَذِهِ الْمَوَاسِمَ مِنْ بَيْتِغَى مَعَ الْحَجِّ التِّجَارَةَ، أَمَا مِنْ أَرَادَهُ فَحَسَبَ، فَيَخْرُجُ مَتَى شَاءَ.

وَ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يَخْرُجُونَ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ، بَعْدَ أَنْ يَتَرَوُوا مِنَ الْمَاءِ، فَتَنْزِلُ الْحَمْسُ فِي طَرَفِ الْحَرَمِ مِنْ نَمْرَةَ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَ الْحَلَّةَ تَقِفُ بِعَرَفَةَ، وَ كَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، يَتْرِكُ الْحَمْسَ إِلَى الْحَلَّةِ، وَ كَانُوا لَا يَتَبَايَعُونَ يَوْمَ عَرَفَةَ وَ لَا أَيَّامَ مَنْى، فَمَا أَنْ جَاءَتْ الْحَنِيفِيَّةُ أَحَلَّتْ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ. وَ كَانَتْ الْحَلَّةُ تَفِيضُ مِنْ عَرَفَةَ يَوْمَ عَرَفَةَ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ، وَ الْحَمْسُ يَفِيضُونَ مِنْ نَمْرَةَ، فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ، فَيَلْتَقُونَ جَمِيعًا فِي الْمِزْدَلِفَةِ، وَ يَبْتَغُونَ بِهَا، حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، وَ اخْتَلَطَ بِيَاضُ النَّهَارِ بِظِلَامِ اللَّيْلِ، وَقَفَ الْجَمِيعُ عَلَى قَرَحٍ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، كَأَنَّهَا عِمَائِمُ الرِّجَالِ، فَيَدْفَعُونَ مِنَ الْمِزْدَلِفَةِ إِلَى مَنْى، وَ كَانُوا يَقُولُونَ: أَشْرَقَ ثَبِيرٌ كَمَا نَغِيرُ وَ فِي إِفَاضَةِ الْحَمْسِ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَجَعَلَتِ الْإِفَاضَةَ لِلْجَمِيعِ مِنْ عَرَفَةَ وَ خَطَبَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٥٨

فِي حِجَّةِ الْوُدَاعِ، يَوْمَ عَرَفَةَ، فَكَانَ مِمَّا قَالَ: وَ إِنَّا لَا نَدْفَعُ مِنْ عَرَفَةَ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، وَ يَحِلُّ فِطْرُ الصَّائِمِ، وَ نَدْفَعُ مِنْ مِزْدَلِفَةِ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، هَدِينًا مُخَالَفَ لِهَدَى أَهْلِ الشَّرْكِ وَ الْأَوْثَانِ.

وَ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَرُونَ أَنْ مِنْ أَفْجَرِ الْفَجْرِ الْعَمْرَةَ، فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَ يَقُولُونَ: إِذَا بَرَا الدَّبْرُ وَ عَفَى الْوَبْرُ وَ دَخَلَ صَفْرُ حِلَّتِ الْعَمْرَةَ لِمَنْ اعْتَمَرَ. يَعْنُونَ دَبْرَ الْإِبِلِ، الَّتِي حَجَّوْا عَلَيْهَا، وَ وَبَرَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: دَخَلَتِ الْعَمْرَةَ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَ اعْتَمَرَ عَمْرَهُ كُلُّهَا فِي ذِي الْقَعْدَةِ عَمْرَةَ الْحَدِيبِيَّةِ وَ عَمْرَةَ الْقِضَاءِ وَ عَمْرَةَ مِنَ الْجِعْرَانَةِ.

وَ كَانَ يَعْظُمُونَ الْحَرَمَ وَ الْأَشْهُرَ الْحَرَمَ، فَلَا- يَعِدُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِيهَا، وَ يَلْقَى الرَّجُلُ قَاتِلَ أَخِيهِ وَ أَبِيهِ فَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ بِسُوءٍ، وَ كَانَ الرَّجُلُ، إِذَا أَحْدَثَ الْحَدِيثَ فَقَتَلَ أَوْ لَطَمَ أَوْ ضَرَبَ، اتَّخَذَ مِنْ لِحَا شَجَرِ الْحَرَمِ قِلَادَةً لِصَنْعَتِهِ وَ قَالَ: أَنَا صَرُورَةٌ فَلَا يَقْتَصُّ مِنْهُ، وَ قَدْ أَبْطَلَ الْإِسْلَامَ ذَلِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: لَا صَرُورَةَ فِي الْإِسْلَامِ وَ أَنْ مِنْ أَحْدَثِ حَدَثًا أَخَذَ بِحَدِيثِهِ.

وَ الَّذِي سَنَّ لَهُمْ تِلْكَ الشَّرَائِعَ الْخُرْقَاءَ هُوَ عَمْرُو بْنُ لَحْيِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ عَمْرُو بْنِ عَامِرِ الْخَزَاعِيِّ، الَّذِي غَيَّرَ دِينَ الْحَنِيفِيَّةِ، دِينَ إِبْرَاهِيمَ

عليه السلام، و كان سيدا شريفا مطاعا في قومه، يطعم الطعام، و يحمل المغرم، و كل ما قال فهو دين متبع لا يعصى. و هو الذي جاء بهبل، من أرض الجزيرة، فجعله في الكعبة، و جعل عنده عشرة أقداح يستقسمون بها، في كل قدح منها كتابة يعملون بما تضمنته. فكان مكتوبا في أحدها أمرني ربي و في آخر نهاني و ثالث غفل، فإذا أراد الرجل أمرا أو سفرا أخرج هذه الأقداح الثلاثة فضرب بها، فإن خرج الأولى مضى، و إن كان الثاني نكص، و إن طلع الثالث أعاد الكرة حتى يخرج الأمر أو الناهي، أما السبعة الباقية فمكتوب على أحدها الفعل، و في ثان نعم، و في ثالث لا، و في رابع منكم، و في خامس من غيركم، و في سادس ملصق، و في سابع المياه، فإذا أرادوا أن يختنوا غلاما أو ينكحوا أيما أو يدفنوا ميتا ذهبوا إلى هبل بمائة درهم و جزور، ثم قالوا لغاضرة بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي، الذي إليه أمر القداح:

هذه مائة درهم و جزور و لقد أردنا كذا أو كذا، فاضرب لنا على فلان بن فلان فإن كان كما قال أهله خرج "الفعل" أو "نعم" أو "منكم" فما خرج من ذلك انتهوا إليه في أنفسهم و إن خرج "لا" ضرب على المائة فإن خرج "منكم" كان التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٥٩

منهم وسيطا و إن خرج "من غيركم" كان حليفا و إن خرج "ملصق" كان دعيا نفيا، فمكثوا زمانا و هم يخلطون حتى جاء الإسلام بتحريم ذلك قال تعالى:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ إِلَى أَنْ يَقُولَ: وَ أَنْ تَشْتَقِيَهُمُ بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ وَ قَالَ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

و عمرو هذا، هو الذي غير تلبية إبراهيم، فبينما هو يسير على راحلته، في بعض مواسم الحج، و هو يلبي. إذ تمثل له إبليس، في صورة شيخ نجدى، على بعير أصهب، فسأيره ساعة، ثم لبى إبليس، فقال: لبيك اللهم لبيك. فقال عمرو بن لحي مثل ذلك، فقال إبليس: لبيك لا شريك لك، فقال عمرو مثله، فقال إبليس:

إلا- شريك هو لك، فاستنكر ذلك عمرو، فقال إبليس: بعده ما يصلحه: إلا شريك هو لك تملكه و ما ملكك، فقال عمرو: ما أرى بهذا بأسا. فما زالت كذلك حتى ردها الإسلام إلى ما كانت عليه في شريعة إبراهيم "لبيك اللهم لبيك".

لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد و النعمة لك و الملك. لا شريك لك".

و من عادة العرب في جاهليتهم- كما حكاه الفاكهي- أن الصبيبة، إذا بلغت، ألبسها أهلها من الثياب أحسن ما يجدون، و جعلوا عليها من الحلى ما يقدرون، و دخلوا بها، المسجد الحرام، سافرة الوجه، فتطوف بالبيت، و الأبصار ترنو إليها، و الناس يتساءلون: من هذه؟ فإن كانت حرة قالوا: فلانة بنت فلان، و إن كانت مولىة قالوا: مولىة فلان قد بلغت أن تخدر في بيتها، و أراد أهلها أن تستكن في كنفها، فإذا قضت طوافها خرجت، تشيعها الأبصار العفيفة، فإذا ذاك يرغب في نكاحها إن كانت من الحرائر، و في شرائها إن كانت من الإماء، و بعد أن تصل إلى بيتها تحتجب فيه، فلا تخرج منه إلا إلى بيت زوجها، أو إلى حظيرة سيدها. فكانوا يعطون للخطيب فرصة يتعزف فيها جمال المخطوبة، و جعلوا ذلك في جوار البيت ليأمنوا النظرات الخبيثة.

و كانت الإفاضة في الجاهلية إلى صوفة بن أخزم بن العاص، و كان له ولد تصدق به على الكعبة يخدمها، فجعل إليه حبشية بن سلول الخزاعي، الإفاضة بالناس، من أجل نذره الذي نذر، و كان إلى حبشية حجاب الكعبة، و إمرة مكة.

فحينما يقف الناس في الموقف يقول حبشية:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٦٠

أجز يا صوفة. فيقول صوفة: أجزوا أيها الناس، فيجوزون. و ولى الإفاضة بعده ولده أخزم، الذي نذره للكعبة، و قام بخدمتها مع أخواله من جرهم، و أعقب أخزم على الإفاضة ولده من بعده، في زمن جرهم و خزاعة، حتى انقرضوا، و صارت الإفاضة في عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر، في زمن قريش، في عهد قصي. و كانت من بنى عدوان في آل زيد بن عدوان، يتوارثونها، حتى جاء

الإسلام، و كان عليها أبو سيارة العدواني، الذي أفاض بالمشركين، في سنة ثمان. و أفاض أمير مكة عتاب بن أسيد بالمسلمين. و كان حوضه البيت يكرمون الحجاج في الجاهلية، فروى عن هاشم بن عبد مناف أنه كان يقول لقريش إذا حضر الحاج: يا معشر قريش إنكم جيران الله و أهل بيته، خصكم الله بذلك، و أكرمكم به، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره، فأكرموا أضيافه و زوار بيته يأتونكم شعثا غربا من كل بلد.

و روى مثل هذا عن قصي بن كلاب بن مرة، فكان كل قرشي يخرج خرجا من ماله، في كل موسم من مواسم الحج، يعطيه لمن يقوم بالرفادة- إطعام الحجاج- من قريش، فيصنعه طعاما للحجاج، أيام الموسم بمكة و منى، و بقي ذلك- مدة في عهد الإسلام- حكاة الأزرقى.

إنساء الشهور

(إنساء الشهور: تأخيرها عن أماكنها الفطرية)، و النسئ مصدر من قول القائل: نسأت في أيامك، و نسأ الله في أجلك أى زاد الله في أيام عمرك و مدة حياتك حتى تبقى فيها حيا، و كل زيادة حدثت في شئ فالشئ الحادث فيه الزيادة بسبب ما حدث فيه نسيء، و لذلك قيل للبن إذا أكثر بالماء نسيء و قيل للمرأة الحبلى: نسوء، و نسئت المرأة لزيادة الولد فيها، و قيل: نسأت الناقه و نسأتها إذا زجرتها ليزداد سيرها.

و كان أهل الجاهلية، إذا ما رغبوا في القتال، في شهر المحرم، أخروه إلى صفر، و أحلوا القتال في المحرم، و سموا صفر المحرم، و ربيع الأول صفر. و هكذا حتى يكون ذو الحجة، في نهاية السنة، الشهر المحرم، و كانوا يفعلون هذا سنة و يتركونه سنة، فكان ذو الحجة يعود إلى مكانه لأول بعد أربع و عشرين سنة، و أول من أنسا الشهور من مضر مالك بن كنانة ثم ابنه ثعلبة ثم أخوه الحرث بن مالك المعروف

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٦١

بالقلمس ثم سرير بن الحارث، ثم كانت النساء في بنى فقيم من بنى ثعلبة حتى جاء الإسلام. و كان آخر من نسأ منهم أبو ثمامة جنادة بن عوف ابن أمية بن عبد بن فقيم، و هو الذى جاء في زمن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، إلى الركن الأسود، فلما رأى الناس يزدحمون عليه، قال: أيها الناس أنا له جار فأخروا عنه، فحفظه عمر بالدره ثم قال: أيها الجلف الجافى قد أذهب الله عزك بالإسلام.

و كان، الذى إليه أمر النساء، يقوم ببناء الكعبة، يوم الصدر، و الناس حوله متجمعون فيقول، إذا أراد أن لا يحلوا المحرم: أيها الناس لا تحلوا حرمانكم و عظموا شعائركم فإنى أجاب و لا أعاب و لا يعاب لقول قلته. فهناك يحرمون المحرم ذلك العام، و إذا ما كانت السنة التى يريدون الإنساء فيها يقول: أيها الناس قد أنسأت العام صفر الأول يعنى المحرم- و كانوا يسمونه صفر الأول و صفر صفر الثانى- فيطرحونه من الشهور، و لا يعتدون به، و يتدثون العدة، فيقولون، لصفر و شهر ربيع الأول: صفرين، و يقولون لشهر ربيع الآخر و لجمادى الأولى: شهرى ربيع، و يقولون لجمادى الآخر و لرجب: جمادين و يقولون لشعبان: رجب، و لرمضان:

شعبان، و لشوال: رمضان، و لذى القعدة شوال، و لذى الحجة: ذا القعدة، و لصفر الأول و هو المحرم الذى أنسأه: ذا الحجة فيحججون تلك السنة فى المحرم. و يبطل من هذه السنة شهرا ينسأه. و كانوا ينسئون عاما و يتركون آخر، فكان يقع فى كل شهر من شهور السنة حجتان فى عامين، و كانوا يحلون، فى الأشهر الحرم، دماء المحلين: طيء و خثعم، لأنهم كانوا يعدون على الناس فيها، من بين العرب، فيغزونهم و يطلبون بثأرهم و لا يقفون عن حرمانها، كما كان يفعل سائر العرب من الحله و الحمس، فإنهم ما كانوا يعتدون فى شهر حرام، و لو لقي أحدهم قاتل أبيه أو أخيه، و لا يستاقون مالا إعظاما لحرمة هذه الشهور.

بقى الأمر على هذا المنوال، حتى كانت سنة ثمان من الهجرة، فجااء الحج فى ذى القعدة و حج المسلمون و المشركون، فى هذا العام،

فدفعوا معا. فكان المسلمون، في ناحية، يدفع بهم عتاب بن أسيد، ويقف بهم الموافق لأنه أمير مكة من قبل النبي صلى الله عليه و سلم، و كان المشركون، ممن لهم عهد، و من ليس لهم عهد، في ناحية أخرى، يدفع بهم أبو سيارة العدواني، على أتان له، عوراء رسنها من ليف.

فلما كانت سنة تسع، وقع الحج في ذى الحجة، فأرسل النبي صلى الله عليه و سلم أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، إلى مكة، أميراً على الحج، بعد أن علمه المناسك، و أمره

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٦٢

بالوقوف على عرفه، و على جمع -المزدلفة- ثم نزلت سورة براءة، بعد سفر أبي بكر، إلى مكة بالحجيج، فبعث بها النبي صلى الله عليه و سلم مع علي، رضى الله عنه، و أمره إذا خطب أبو بكر و فرغ من خطبته، قام فقرأ على الناس سورة براءة و نبذ إلى المشركين عهدهم - حسب ما قدمنا- و قال: لا يجتمعن مسلم و مشرك على هذا الموقف بعد عامهم هذا، و كان أبو بكر، رضى الله عنه، يخطب الناس و يصلى بهم و يقف الموافق و يدفع منها بالحجيج.

و مما تضمنته سورة التوبة إبطال النسيء قال تعالى فيه: **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** * إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَ يُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. انتهى من الجزء الأول من كتاب "مرآة الحرمين".

معنى النسيء

تقدم أن من عادات أهل الجاهلية إنساء الشهور، على وجه الاختصار، فأحبنا أن نفصل هنا معنى ذلك بالتفصيل حتى يكون واضحاً كل الوضوح، فنقول و بالله التوفيق و هو حسنا و نعم الوكيل: جاء في الجزء الأول من "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويرى ما نصه: يقال إن عمرو بن لحي و هو خزاعة- و يقال اسمه عمرو بن عامر الخزاعي- هو أول من نسا الشهور، و بحر البحيرة، و سيب السائبة، و جعل الوصيلة، و الحامي.

و هو أول من دعا الناس إلى عبادة هبل، قدم به معه من هيت. و معنى النسيء أنهم ينسئون المحرم إلى صفر، و رجب إلى شعبان. و كان جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم الأشهر الحرم الأربعة، و كانوا يتخرجون فيها من القتال. و كانت قبائل منهم يستبيحونها فإذا قاتلوا في شهر حرام، حرموا مكانه شهراً من أشهر الحل، و يقولون: نسي الشهر.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٦٣

و حكى ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و السلام أن أول من نسا الشهور على العرب، و أحل منها ما أحل، و حرم ما حرم، العلمس.

و هو حذيفة بن ققيم بن عامر بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمه.

ثم قام بعده ولده عباد، ثم قام بعد عباد ابنه قلع، ثم قام بعد قلع ابنه أمية، ثم قام بعد أمية ابنه عوف ثم قام بعد عوف ابنه أبو ثمامة جنادة، و عليه ظهر الإسلام.

فكانت العرب إذا فرغت من حجها، اجتمعت عليه بمنى، فقام فيها على جمل، و قال بأعلى صوته: "اللهم إني لا أخاف و لا أعاف، و لا مرد لما قضيت.

اللهم إني أحلت شهر كذا- و يذكر شهراً من الأشهر الحرم، وقع اتفاقهم على شن الغارات فيه- و أنسأته إلى العام المقبل- أى: أخرت تحريمه- و حرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقى."

و كانوا يحلون ما أحل، و يحرمون ما حرم.

و فى ذلك يقول عمير بن قيس بن جدل الطعان، من أبيات يفتخر:

ألسنا الناسئين على معدشهور الحل نجعلها حراما التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم ؛ ج ٢-٤ ؛ ص ٢٦٣

حكى السهيلي فى كتابه المترجم "بالروض الأنف" أن نسئ العرب كان على ضربين: أحدهما تأخير المحرم إلى صفر، لحاجاتهم إلى شن الغارات و طلب الثأر، و الثانى تأخير الحج عن وقته، تحريا منهم للسنة الشمسية. فكانوا يؤخرونه فى كل عام أحد عشر يوما، حتى يدور الدور فى ثلاث و ثلاثين سنة، فيعود إلى وقته. فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة، حج بالناس أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، فوافق حجه فى ذى القعدة، ثم حج رسول الله صلى الله عليه و سلم فى العام القابل، فوافق عود الحج إلى وقته، فى ذى الحجة، كما وضع أولا- فلما قضى رسول الله صلى الله عليه و سلم حجه، خطب فكان مما قال فى خطبته صلى الله عليه و سلم: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات و الأرض، يعنى أن الحج قد عاد فى ذى الحجة ... انتهى من كتاب نهاية الأرب.

و جاء فى تاريخ الأزرقى عن إنساء الشهور أيضا ما نصه:

قال الكلبي: فكان أول من أنسا الشهور من مضر مالك بن كنانة، و ذلك أن مالك بن كنانة نكح إلى معاوية بن ثور الكندى و هو يومئذ فى كنده، و كانت

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٦٤

النساء، قبل ذلك، فى كنده، لأنهم كانوا قبل ذلك ملوك العرب من ربيعة و مضر، و كانت كنده من أرداف المقاول، فנסأ ثعلبة بن مالك، ثم نسأ بعده الحارث ابن مالك بن كنانة و هو القلمس، ثم نسأ بعده سرير بن القلمس، ثم كانت النساء فى بنى فقيم من بنى ثعلبة، حتى جاء الإسلام، و كان آخر من نسأ منهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن عبد بن فقيم، و هو الذى جاء فى زمن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، إلى الركن الأسود، فلما رأى الناس يزدحمون عليه قال: أيها الناس أنا له جار فأخزوا عنه فخفقه عمر بالدرة ثم قال: أيها الجلف الجافى قد أذهب الله عزك بالإسلام. فكل هؤلاء قد نسأ فى الجاهلية، و الذى ينسأ لهم، إذا أرادوا أن لا يحلوا المحرم، قام ببناء الكعبة يوم الصدر فقال:

أيها الناس لا- تحلوا حرماكم و عظموا شعائركم فإنى أجب و لا أعاب و لا يعاب لقول قلته فهناك يحرمون المحرم ذلك العام. و كان أهل الجاهلية يسمون المحرم صفر الأول و صفر الآخر فيقولون: صفران و شهرا ربيع و جماديان و رجب و شعبان و شهر رمضان و شوال و ذو القعدة و ذو الحجة، فكان ينسأ الإنساء سنة و يترك سنة، ليحلوا الشهور المحرمة، و يحرموا الشهور، التى ليست بمحرمة. و كان ذلك من فعل إبليس، ألقاه على ألسنتهم، فأروه حسنا، فإذا كانت السنة، التى ينسأ فيها، يقول فيخطب ببناء الكعبة. و يجتمع الناس إليه يوم الصدر فيقول: أيها الناس إنى قد أنسأت العام صفر الأول- يعنى المحرم- فيطرحونه من الشهور و لا يعتدون به، و يبتدئون العدة فيقولون لصفر و شهر ربيع الأول: صفرين، و يقولون لشهر ربيع الآخر و لجمادى الأولى: شهرى ربيع، و يقولون لجمادى الآخرة و لرجب جمادين، و يقولون لشعبان رجب و لشهر رمضان شعبان، و يقولون لشوال شهر رمضان، و لذى القعدة شوال، و لذى الحجة ذا القعدة، و لصفر الأول، و هو المحرم الشهر الذى أنسأه، ذا الحجة. فيحجون تلك السنة فى المحرم، و يبطل فى هذه السنة شهرا ينسئه، ثم يخطبهم فى السنة الثانية، فى وجه الكعبة، أيضا فيقول: أيها الناس لا تحلوا حرماكم، و عظموا شعائركم، فإنى أجب و لا- أعاب، و لا يعاب لقول قلته، اللهم إنى قد أحللت دماء المحلين طيء و خثعم، فى الأشهر الحرم، و إنما أحل دماءهم، لأنهم كانوا يعدون على الناس فى الأشهر الحرم، من بين العرب، فيغزونهم و يطلبون بثأرهم، و لا- يقفون عن حرما الأشهر الحرم، كما يفعل غيرهم من العرب. فكان سائر العرب، من الحلمة و الحمس، لا يعدون فى الأشهر الحرم على أحد، و لو لقى أحدهم قاتل أبيه أو أخيه. و لا يستاقون مالا، إعظاما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٦٥

للشهور الحرم، إلا خثعم وطىء، فإنهم كانوا يعدون في الأشهر الحرم. فهنالكَ يحرمون، في تلك السنة، المحرم، و هو صفر الأول، ثم يعدون الشهر على عدتهم التي عدوها في العام الأول، فيحجون في كل شهر حجتين، ثم ينسأ في السنة الثانية فينسأ صفر الأول في عدتهم هذه، و هو صفر الآخر في العدة الثانية، حتى تكون حجتهم في صفر أيضا حجتين. و كذلك الشهر كلها حتى يستدير الحج في كل أربع و عشرين سنة إلى المحرم الذي ابتدأوا منه الإنساء يحجون في الشهر كلها في كل شهر حجتين، فلما جاء الله بالإسلام أنزل في كتابه: **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُتَاطَأَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ.**

فلما كان عام فتح مكة، سنة ثمان، استعمل النبي صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، على مكة. و مضى إلى حنين فغزا هوازن، فلما فرغ منها، مضى إلى الطائف، ثم رجع عن الطائف إلى الجعرانة، فقسم بها غنائم حنين في ذى القعدة ثم دخل مكة ليلا معتمرا فطاف بالبيت و بين الصفا و المروة، من ليلته، و مضى إلى الجعرانة فأصبح بها كبائت، فأنشأ الخروج منها، راجعا إلى المدينة، فهبط من الجعرانة في بطن سرف، حتى لقي طريق المدينة من سرف، و لم يؤذن للنبي صلى الله عليه وسلم في الحج تلك السنة، و ذلك أن الحج وقع تلك السنة في ذى القعدة. و لم يبلغنا أنه استعمل عتابا على الحج، تلك السنة، سنة ثمان، و لا أمره فيه بشيء. فلما جاء الحج حج المسلمون و المشركون، فدفعوا معا، فكان المسلمون في ناحية يدفع بهم عتاب بن أسيد و يقف بهم المواقف لأنه أمير البلد، و كان المشركون ممن كان له عهد و من لم يكن له عهد في ناحية يدفع بهم أبو سيارة العدواني على أتان عوراء رسنها ليف، قال: فلما كان سنة تسع، وقع الحج في ذى الحجة، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، إلى مكة و استعمله على الحج، و علمه المناسك، و أمره بالوقوف على عرفه، و على جمع، ثم نزلت سورة براءة خلاف أبي بكر، فبعث بها النبي صلى الله عليه وسلم مع علي، عليه السلام، و أمره، إذا خطب أبو بكر و فرغ من خطبته، قام على فقرأ على الناس سورة براءة. و نبذ إلى المشركين عهدهم و قال:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٦٦

لا يجتمعن مسلم و مشرك على هذا الموقف بعد عامهم هذا و كان أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، الذي يخطب على الناس و يصلى بهم و يدفع بهم في المواقف، فلما كان سنة عشر أذن الله عز و جل لنبيه صلى الله عليه وسلم في الحج، فحج رسول الله حجة الوداع- و هى حجة التمام- فوقف بعرفة فقال: يا أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات و الأرض فلا شهر ينسأ و لا عدة تخطأ، و إن الحج في ذى الحجة، إلى يوم القيامة. انتهى من تاريخ الأزرقى.

و حديث: (إن الزمان قد استدار كهيئته ... إلخ) مذكور بتمامه في الصحيحين البخارى و مسلم، و قد أتينا به عند الكلام على خطبة حجة الوداع.

ذكر السنين التي يضرب بها المثل

بمناسبة ما تقدم نذكر هنا السنين الهجرية، التي كان يضرب بها المثل، أما ما كان في الجاهلية، كعام الفيل، فلم نتكلم عن ذلك. جاء في الجزء الأول، من نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويرى ما نصه:

الأعوام التي يضرب بها المثل هى:

١- عام الجراد: كان سنة ثمان من الهجرة.

٢- عام الرمادة: كان سنة ثمانى عشرة من الهجرة، فى خلافة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أصاب الناس فيه قحط حتى صارت وجوههم فى لون الرماد من الجوع. و قيل: كانت الريح تسفى ترابا كالرماد لشدة ييس الأرض، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى

فى التاريخ.

٣- عام الرعاف: كان سنة أربع و عشرين من الهجرة، سمي بذلك لكثرة ما أصاب الناس فيه من الرعاف.

٤- عام الجماعة: كان سنة أربعين من الهجرة. فيه سلم الحسن بن على، رضى الله عنهما، الخلافة لمعاوية، فاجتمعت الكلمة فيه.

٥- عام الجحاف: كان سنة ثمانين من الهجرة، وقع بمكة سيل عظيم ذهب بالإبل و عليها الحمول.

٦- عام الفقهاء: و هو سنة أربع و تسعين من الهجرة. فيها مات على بن الحسين زين العابدين، و أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، رضى الله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٦٧

عنهم، و سعيد بن السيب، و عروة بن الزبير و عطاء بن يسار، و سعيد بن زيد بن ثابت. و فيه قتل الحجاج بن يوسف الثقفى سعيد بن جبير.

٧- سنات خالد: يضرب بها المثل فى الجذب. و هو خالد بن عبد الملك ابن الحارث المعروف بأبى مطير. كان قد تولى لهشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين، و توالى القحط فيها، حتى أجلى أهل البوادي.

٨- سنة عشر و مائة: مات فيها قرينان فى الزهد: الحسن البصرى و محمد بن سيرين، و قرينان فى الشعر: جرير و الفرزدق.

٩- سنة ست و خمسين و ثلاثمائة: مات فيها جماعة من الملوك و هم شمكير بن زياد صاحب طبرستان و جرجان و معز الدولة ابن بويه، و كافور الإخشيدى صاحب مصر، و نفقور ملك الروم، و أبو على محمد بن إلیاس صاحب كرمان، و سيف الدولة ابن حمدان، ممدوح المتنبى، و الحسن بن فيرزان صاحب أذربيجان. انتهى من كتاب نهاية الأرب.

أمر الإفاضة فى الجاهلية و الإسلام

جاء فى كتاب مرآة الحرمين ما نصه:

و كانت الإفاضة فى الجاهلية إلى صوفة بن أخزم بن العاص، و كان له ولد، تصدق به على الكعبة يخدمها. فجعل إليه حبشية بن سلول الخزاعى، الإفاضة بالناس، من أجل نذره، الذى نذر. و كان إلى حبشية حجابة الكعبة و إمرة مكة. فحينما يقف الناس فى الموقف يقول حبشية: أجز يا صوفة فيقول صوفة: أجزوا أيها الناس فيجوزون، و ولى الإفاضة بعده ولده أخزم، الذى نذره للكعبة، و قام بخدمتها مع أخواله من جرهم، و أعقب أخزم على الإفاضة ولده من بعده، فى زمن جرهم و خزاعة، حتى انقرضوا، ثم صارت الإفاضة فى عدوان بن عمرو بن قيس بن غيلان بن مضر فى زمن قريش فى عهد قصى. و كانت من بنى عدوان فى آل زيد بن عدوان، يتوارثونها، حتى جاء الإسلام، و كان عليها أبو سياره العدوانى الذى أفاض بالمشركين فى سنة ثمان، و أفاض أمير مكة عتاب بن أسيد بالمسلمين. انتهى من الجزء الأول من كتاب مرآة الحرمين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٦٨

و أما أمر الإفاضة فى الإسلام، فإنه يسن للإمام، إذا غربت الشمس و تحقق غروبها، أن يفيض من عرفات و يفيض الناس معه إلى مزدلفة، و يؤخروا صلاة المغرب، بنىة الجمع إلى العشاء بمزدلفة، بشرطه المعروف فى كتب الفقه. و يسن أن لا يدفع أحد من الحجيج حتى يدفع الإمام أو نائبه، فإن دفع قبله صح لكن كره ذلك.

فإذا وصلوا إلى مزدلفة باتوا بها و جمعوا منها حصيات جمرة العقبة، و بعد صلاة الفجر يقفون بجبل قرح، يذكرون الله تعالى، ثم يدفعون إلى منى قبيل طلوع الشمس، اقتداء برسول الله صلى الله عليه و سلم، و امتثالاً لأمر الله سبحانه و تعالى لقوله:

فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَاِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ.

ذكر من حج من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

لا يعرف عدد الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، منذ أن خلق الله الدنيا، وذلك بنص القرآن الكريم قال تعالى في سورة النساء: وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَا لَهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقُصِّصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا* رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلْمَأَ يُكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.

فأول الأنبياء آدم، عليه السلام، وآخرهم نبينا "محمد" صلى الله عليه وسلم.

فاختلفوا في عددهم، فقيل: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وقيل: ألفا ألف ومائتا ألف وخمسة وعشرون ألفاً، وقيل غير ذلك. و

الرسول منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، والمذكورون منهم، في القرآن الكريم، خمسة وعشرون مجموعون في هذين البيتين وهما:

في "تلك حجتنا" منهم ثمانية من بعد عشر و يبقى سبعة وهموا

إدريس هود شعيب صالح وكذاذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

فقوله "في تلك حجتنا" يشير الناظم، رحمه الله تعالى، إلى الآيات الأربعة، التي في سورة الأنعام، وهي: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا

إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ* وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِن

دُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ

الصَّالِحِينَ*

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٦٩

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ فهذه الآيات الأربعة جمعت أسماء ثمانية عشر من الأنبياء وأسماء سبعة

منهم مذكورة في البيت الثاني، فصار الجميع خمسة وعشرون نبيا وهم المذكورون في القرآن المجيد.

أما عدد أولى العزم منهم فخمسة وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم وعلى جميع إخوانهم الأنبياء والمرسلين

أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقيل هم أكثر من خمسة فهؤلاء الخمسة، من أولى العزم، مجموعون في أول سورة الأحزاب في قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ

مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا صلوات الله وسلامه عليهم، وعلى جميع

الأنبياء والمرسلين، وآل كل منهم وصحابتهم أجمعين.

قال النحويون وجميع أسماء الأنبياء أعجمية أى من أوضاع غير العرب، فهي ممنوعة من الصرف للعلمية والعجمة، إلا أربعة وهم

محمد، وصالح، وشعيب، وهود، فهذه الأربعة عربية ولهذا صرفت، والحق بهذا في الصرف شيث، ونوح، ولوط. وقد نظم ذلك

بعضهم فقال:

إلا أن أسماء النبيين سبعة لها الصرف في إعراب من يتنشد

فشيت ونوح ثم هود وصالح شعيب ولوط والنبي محمد

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والفرق بين النبي والرسول: هو أن النبي إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ ما أوحى الله إليه، والرسول قد يستعمل مرادفا له، وقد

يختص بمن هو صاحب كتاب فيكون أخص من النبي. وقيل النبي إنسان أنزل عليه شريعة من عند الله، بطريق الوحي، تتضمن تلك

الشريعة بيان كيفية تعبد الله تعالى، فإذا أمر بتبليغها إلى الغير يسمى رسولا، وقيل الرسول من بعثه الله تعالى بشريعة مجددة يدعو

الناس إليها، والنبي يعمه، فالنبي أعم من الرسول وكلامنا هنا فيمن حج منهم يشمل النبي والرسول.

واعلم أن أربعة من الأنبياء سريانيون وهم: آدم، وشيت، وإدريس، ونوح وأربعة منهم من العرب وهم: هود، وصالح، وشعيب، و

محمد. أول أنبياء بنى إسرائيل موسى و آخرهم عيسى، صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين. و اعلم أيضا أن إبراهيم الخليل، عليه الصلاة و السلام، هو جد غالب الأنبياء و المرسلين. قال ابن كثير فى تاريخه: فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، و كل كتاب نزل من التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٧٠

السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله و عقبه، خلعه من الله تعالى و كرامه له. انتهى.

و قد ذكرنا أسماء الأنبياء الذين ليسوا من نسل إبراهيم الخليل عند ترجمته. هذا و لما كان آدم، عليه الصلاة و السلام، هو أول من بنى الكعبة المشرفة، صار الحج من الشرائع القديمة، و إن لم يكن بهذه الكيفية، التى أخذناها، من نبينا محمد صلى الله عليه و سلم. فعليه يكون آدم، عليه السلام، هو أول من حج من الأنبياء، فإذا كان الحج فرض على جميع الأنبياء، عليهم الصلاة و السلام، بالكيفية التى أمرهم الله تعالى بها، فقد حج كلهم بلا ريب، و إذا كان مفروضا على بعضهم، فقد حج هؤلاء أيضا، فلما جاء طوفان نوح عليه السلام، و عم الأرض الغرق، لم يبق للبيت الحرام من أثر إلا- مكانه، حيث كان ربوة حمراء، فجاء إبراهيم الخليل، عليه السلام، فبنى الكعبة المعظمة و علمه الله المناسك، و أمره أن يدعو الناس إلى الحج، و إلى هذا تشير الآية الكريمة: **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَ الْآيَةَ الْآخِرَى الَّتِي بَعْدَهَا وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ قَالُوا وَ حَجَّتْ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأُمَمِ، وَ كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَحْجُهُ كُلُّ سَنَةٍ عَلَى الْبِرَاقِ،** روى عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: كانت الأنبياء، عليهم السلام، يدخلون الحرم مشاة حفاة و يطوفون بالبيت و يقضون المناسك حفاة مشاة. اه.

و فى تاريخ الغازى: و عن مجاهد: إن موضع البيت كان قد خفى و درس من الغرق أيام الطوفان، فصار موضعه أكمة حمراء مدورة، لا يعلوها السيل، غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك و لا يثبتونه، و كان المظلوم يأتى من أقطار الأرض و يدعو عنده، فقل أنه من دعا هنالك إلا استجيب له. و عن ابن عمر، رضى الله عنهما إن الأنبياء كانوا يحجون و لا يعلمون مكانه، حتى بوأه الله تعالى للخليل إبراهيم، و أعلمه مكان البيت. انتهى من تاريخ الغازى.

روى عن عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما، أنه قال: حج البيت ألف نبي من بنى إسرائيل، لم يدخلوا مكة، حتى وضعوا نعالهم بذى طوى. و روى عن عبد الله بن ضمرة السلولى أنه قال: ما بين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر سبعة و سبعين نبيًا جاؤوا حجاجا فقبروا هنالك. و روى عن عثمان بن ساج أنه قال:

أخبرنى صادق أنه بلغه عن النبى صلى الله عليه و سلم قال مرّ بفج الروحاء سبعون نبيًا على نوق

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٧١

حمر، خطمهم الليف، لبوسهم العباء، و تلبيتهم شتى. و روى عن مجاهد أنه قال:

حج خمسة و سبعون نبيًا، كلهم قد طاف بالبيت، و صلى فى مسجد منى، فإن استطعت ألا تفوتك الصلاة فى مسجد منى فافعل. قال ابن إسحاق: لم يبعث الله نبيًا بعد إبراهيم إلا و قد حج. و روى عن وهب بن منبه أنه قال: قرأت فى بعض الكتب الأولى، أنه ليس من ملك يبعثه الله تعالى إلى الأرض، إلا- أمره بزيارة البيت، فينقض من تحت العرش محرما مليبا حتى يستلم الحجر ثم يطوف سبعا بالبيت ثم يركع فى جوفه ركعتين ثم يصعد.

و نحن هنا نذكر من حج من الأنبياء، صلوات الله و سلامهم عليهم أجمعين، حسبما وقفنا عليهم، فى كتب التاريخ، و ورد ذكرهم فى الأثر، و هناك كثير منهم حجوا و طافوا بالبيت الحرام. و هنا نقل باختصار ما جاء فى كتاب "القرى لقاصد أم القرى" للإمام الطبرى فنقول و بالله العون و التوفيق:

(١) حج آدم عليه الصلاة و السلام، عن ابن عباس، أن آدم، عليه السلام، حج أربعين حجة من الهند على رجليه. قيل لمجاهد: أفلا كان يركب؟ قال:

و أى شىء كان يحمله؟ و عن عطاء بن أبى رباح: أن آدم هبط بأرض الهند و معه أربعة أعواد من الجنة، فهى هذه التى يتطيب بها الناس. و أنه حج هذا البيت و طاف بين الصفا و المروة و قضى مناسك الحج. و عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى سعيد أن آدم، عليه السلام، حج على رجله، سبعين حجة ماشيا، و أن الملائكة لقيته بالمأزمين فقالوا: برّ حجك يا آدم. لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام. و المأزمان موضع بين عرفه و مزدلفه و هو المضيق فى الجبال.

(٢) و حج نوح عليه الصلاة و السلام، قال عروة بن الزبير: بلغنى أن البيت وضع لآدم، عليه السلام، يطوف به، و أن نوحا قد حجه و جاءه و عظمه قبل الغرق.

٣ و ٤ و ٥) قال وهب بن منبه: خطب صالح فى الذين آمنوا معه، فقال لهم: إن هذه دار قد سخط الله عليها و على أهلها. فاطعنوا منها فإنها ليست لكم بدار، قالوا: رأينا لرأيتك تبع فمرنا نفعل. قال: تلتحقون بحرم الله تعالى و أمنه، لا أرى لكم دونه، فأهلوا من ساعتهم بالحج و أحرموا فى العباء، و ارتحلوا قلصا حمرا مخظمة بحبال الليف، ثم انطلقوا آتئين البيت الحرام، حتى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٧٢

وردوا مكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا، فتلك قبورهم فى غربى الكعبة بين دار الندوة و دار بنى هاشم، و كذلك فعله هود و من آمن و شيعب و من آمن معه.

٦ و ٧ و ٨) و حج إبراهيم و إسماعيل و إسحاق، عليهم الصلاة و السلام، قال محمد بن إسحاق ما ملخصه: أن إبراهيم عليه الصلاة و السلام، حج بإسماعيل و من معه من المسلمين من جرهم، و هم سكان الحرم يومئذ مع إسماعيل و هم أصهاره، و وقف بهم المواقف كما علمه جبريل، عليه السلام، و أراه المناسك، حتى إذا فرغ من الحج كله، انصرف إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، راجعا إلى الشام فتوفى بها. و قال مجاهد: حج إبراهيم و إسماعيل ماشيين و قال أيضا: و حج البيت إسحاق و سارة من الشام.

(٩) و حج يونس عليه الصلاة و السلام، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (من ضمن حديث صحيح): كأنى أنظر إلى يونس على ناقه حمراء، خطام ناقته ليف خلبه، و عليه جبه من صوف، مازا بهذا الوادى مليا. و عن مجاهد قال: حج البيت سبعون نيا فيهم موسى، عليه السلام، عليه عباءتان قطوانيتان، و فيهم يونس يقول: "لييك كاشف الكرب لييك."

(١٠) و حج موسى عليه الصلاة و السلام، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (من ضمن حديث صحيح): ... كأنى أنظر إلى موسى يرمى الجمره على ناقه حمراء خطامها من ليف و عليه جبه من صوف.

و عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: كأنى أنظر إلى موسى بن عمران فى هذا الوادى محرما يلبى بين قطوانيتين. القطوانية عباءة بيضاء و قصيرة الخمل، و يقال كساء قطوانى.

و عن مجاهد قال: حج موسى النبى صلى الله عليه و سلم على جمل أحمر، فمرّ بالروحاء عليه عباءتان قطوانيتان، مؤتزا بإحدهما مرتديا بالأخرى، و طاف بالبيت ثم طاف بين الصفا و المروة، إذ سمع صوتا من السماء "لييك عبدى أنا معك."

(١١) و حج عيسى عليه الصلاة و السلام، قال ابن عباس، رضى الله عنهما: أتى على هذا الوادى عيسى و موسى و صالح، و ذكر غيرهم من الأنبياء على بكرات خطمهم الليف أزرقهم النمار و أرديتهم العباء يحجون البيت العتيق.

و عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: لا تقوم الساعة حتى يمر عيسى بن مريم بطن الروحاء حاجا أو معتمرا يلبى،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٧٣

لييك اللهم لييك- فأيكم لقيه فليقل أبو هريرة يقرئك السلام- و لا يخفى أن نبينا "محمدا" خاتم النبيين، صلوات الله و سلامه عليه و عليهم أجمعين، قد حج مرارا قبل البعثة، كما حج حجة الوداع قبل موته صلى الله عليه و سلم، و سذكرا فيما بعد حجة الوداع.

هذا ما ورد من الأحاديث أو من الأثر في حق بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، الذين حجوا، وهناك كثير منهم حجوا و طافوا بالبيت و لكن لم يرد عنهم شيء.

و في هذا القدر كفاية- ذكرنا كل ذلك من كتاب القرى للطبري باختصار- و يوجد ذلك في تاريخ الأزرقى أيضا.

(١٢) أما نبينا "محمد" صلى الله عليه و سلم فقد ذكر العلماء، أنه قد حج قبل النبوة و بعدها و قبل الهجرة حججا لا يدري عددها، و حج بعد الهجرة حجة الوداع لا- غير بإجماع المسلمين، و كذلك اعتمر قبل الهجرة عمرا لا يدري عددها، و أما بعدها فعمرة في رجب، و ثلاثا بل أربعا في ذى القعدة،- أى في ثلاثة أعوام- لأنه في حجة الوداع كان في آخر أمره قارنا، و عمرة في شوال كما صح في أبى داود و عمرة في رمضان كما في البيهقى.

فكان من حج و اعتمر من الخلائق المكلفين المؤمنين، إنما هو امتثالا لأمر الله سبحانه و تعالى: **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** و كل ذلك حبا في رضائه عز شأنه، بالطواف حول بيته المطهر، و الإقامة ببلده الأمين المقدس.

فالحمد لله الذى جعلنا من هذا الصنف، و نسأله تعالى أن يوفقنا لتعظيم شعائر الله و احترام الأمكنة المقدسة و الأدب فيها.

ذكر من حج بالناس من عام فتح مكة إلى عام ثلاثمائة و خمس و ثلاثين من الهجرة

لقد تقدم ذكر من حج من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، و الخلفاء و أمراء المؤمنين أيضا و نوابهم، أى من كان أميرا على الحج في سنوات متعاقبة، و ذلك من عام فتح مكة المشرفة إلى عام خمس و ثلاثين و ثلاثمائة من الهجرة، و ذلك نقلا عن تاريخ المسعودى المسمى "مروج الذهب و معادن الجوهر" للعلامة أبى الحسن على

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٧٤

ابن الحسين المسعودى، رحمه الله تعالى، الذى كان موجودا في العام المذكور. أما من حج بالناس بعد ذلك فلم نبحث عنه. و قد سرد المسعودى في تاريخه ذلك سردا، و نحن وضعنا ما ذكره بنصه هنا، لكن وضعناه في قالب بديع على صفة الجدول، لتسهيل معرفته و ليصل القارئ الكريم سريعا إلى غرضه.

ففى عام الفتح سنة ثمان من الهجرة حج بالناس عتاب بن أسيد، رضى الله عنه. الذى استعمله رسول الله صلى الله عليه و سلم على مكة، و قيل بل حج الناس أوزاعا ليس عليهم أحد، و فى العام التاسع حج أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، بالناس و قد خرج من المدينة فى ثلاثمائة رجل، و بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم عشرين بدنة هدايا، و ساق أبو بكر معه خمس بدنان، و إليك ما ذكره المسعودى فى تاريخه فى الجدول الآتى، و قد بدأنا بحج رسول الله صلى الله عليه و سلم بالناس سنة عشر من الهجرة. و هو هذا:

عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس/ ملاحظات

١/ ١٠/ رسول الله صلى الله عليه و سلم/ حج بالناس و هذه الحجة هى حجة الوداع

٢/ ١١/ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه/ حج بالناس فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه

٣/ ١٢/ أبو بكر رضى الله تعالى عنه/ حج بالناس

٤/ ١٣/ عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه/ حج بالناس فى خلافة عمر رضى الله عنهما

٥/ ١٤/ عمر بن الخطاب رضى الله عنه/ حج بالناس فى خلافته

٦/ ١٥/...../ لم يذكر المؤلف من حج بالناس فى هذه السنة

٧/ ١٦/ إلى/ عمر بن الخطاب رضى الله عنه/ حج بالناس إلى سنة ثلاث و عشرين ثم قتل آخر ذى الحجة

٨/ ٢٤/ عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه/ حج بالناس، فى خلافة عثمان رضى الله عنه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٧٥

عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس / ملاحظات

٢٥ / ٩ عثمان بن عفان رضى الله عنه/ حج بالناس إلى سنة أربع و ثلاثين ثم توفى بعد منتصف ذى الحجة سنة ٣٥

٣٥ / ١٠ عبد الله بن عباس رضى الله عنهما/ حج بالناس بأمر عثمان و هو محصور

٣٦ / ١١ عبد الله بن عباس رضى الله عنهما/ حج بالناس فى خلافة على كرم الله وجهه

٣٧ / ١٢ عبد الله بن عباس و سحره الرهاوى / حج بالناس عبد الله بن عباس بأمر على بن أبى طالب و سحره الرهاوى بأمر معاوية

٣٨ / ١٣ قثم بن عباس نائب مكة من قبل على / حج بالناس فى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه

٣٩ / ١٤ شيبه بن عثمان/ حج بالناس فى خلافة على رضى الله عنه

٤٠ / ١٥ المغيرة بن شعبة/ حج بالناس عن كتاب يقال أنه افتعله فيما قيل حيث كان النزاع بين معاوية و الحسين

٤١ / ١٦ عتبة بن أبى سفيان/ حج بالناس ثم حج بعده مروان بن الحكم

٤٤ / ١٧ معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه/ حج بالناس

٤٥ / ١٨ مروان بن الحكم/ حج بالناس

٤٦ / ١٩ عتبة بن أبى سفيان/ حج بالناس

٤٧ / ٢٠ عتبة بن أبى سفيان/ حج بالناس

٤٨ / ٢١ مروان بن الحكم/ حج بالناس

٤٩ / ٢٢ سعيد بن العاص/ حج بالناس

٥٠ / ٢٣ معاوية بن أبى سفيان/ حج بالناس

٥٢ / ٢٤ سعيد بن العاص/ حج بالناس عامين

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٧٦

عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس / ملاحظات

٥٤ / ٢٥ مروان بن الحكم/ حج بالناس

٥٥ / ٢٦ مروان بن الحكم/ حج بالناس

٥٦ / ٢٧ عتبة بن أبى سفيان/ حج بالناس

٥٧ / ٢٨ الوليد بن عتبة/ حج بالناس عامين

٥٩ / ٢٩ عثمان بن أبى سعيد/ حج بالناس

٦٠ / ٣٠ عمرو بن سعيد بن العاص/ حج بالناس

٦١ / ٣١ الوليد بن عتبة بن أبى سفيان/ حج بالناس عامين

٦٣ / ٣٢ عبد الله بن الزبير/ حج بالناس إلى سنة إحدى و سبعين، حج بالناس الحجاج و قتل عبد الله بن الزبير

٧٤ / ٣٣ الحجاج بن يوسف/ حج بالناس

٧٥ / ٣٤ عبد الملك بن مروان/ حج بالناس

٧٦ / ٣٥ أبان بن عثمان بن عفان/ حج بالناس إلى سنة ثمانين

٨١ / ٣٦ سليمان بن عبد الملك بن مروان/ حج بالناس

٨٢ / ٣٧ أبان بن عثمان بن عفان/ حج بالناس

٨٣ / ٣٨ هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن مغيرة المخزومي/ حج بالناس إلى سنة خمس و ثمانين

- ٣٩ / ٨٦ / العباس بن الوليد بن عبد الملك / حج بالناس
- ٤٠ / ٨٧ / عمر بن عبد العزيز بن مروان رضى الله عنه / حج بالناس
- ٤١ / ٨٨ / الوليد بن عبد الملك / حج بالناس
- ٤٢ / ٨٩ / عمر بن عبد العزيز / حج بالناس
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٧٧
- عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس / ملاحظات
- رضى الله تعالى عنه
- ٤٣ / ٩٠ / عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه / حج بالناس
- ٤٤ / ٩١ / الوليد بن عبد الملك / حج بالناس
- ٤٥ / ٩٢ / عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه / حج بالناس
- ٤٦ / ٩٣ / عثمان بن الوليد بن عبد الملك / حج بالناس
- ٤٧ / ٩٤ / مسلمة بن عبد الملك / حج بالناس
- ٤٨ / ٩٥ / الوليد بن عبد الملك / حج بالناس
- ٤٩ / ٩٦ / أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم / حج بالناس
- ٥٠ / ٩٧ / سليمان بن عبد الملك / حج بالناس
- ٥١ / ٩٨ / عبد العزيز بن عبد الله بن خالد ابن أسيد بن العاص بن أمية / حج بالناس
- ٥٢ / ٩٩ / أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم / حج بالناس
- ٥٣ / ١٠٠ / أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم / حج بالناس
- ٥٤ / ١٠١ / عبد العزيز بن عبد الله أمير مكة / حج بالناس
- ٥٥ / ١٠٢ / عبد الرحمن بن الضحاك الفهري / حج بالناس
- ٥٦ / ١٠٣ / عبد الله بن كعب بن عمير بن سبع ابن عوف بن نضر بن معاوية / حج بالناس عامين
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٧٨
- عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس / ملاحظات
- النضرى
- ٥٧ / ١٠٥ / إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي / حج بالناس
- ٥٨ / ١٠٦ / هشام بن عبد الملك / حج بالناس
- ٥٩ / ١٠٧ / إبراهيم بن هشام المخزومي / حج بالناس إلى سنة اثنتى عشرة و مائة
- ٦٠ / ١١٣ / سليمان بن هشام بن عبد الملك / حج بالناس
- ٦١ / ١١٤ / خالد بن عبد الملك بن أمية / حج بالناس
- ٦٢ / ١١٥ / محمد بن هشام بن إسماعيل بن الوليد بن المغيرة / حج بالناس
- ٦٣ / ١١٦ / الوليد بن يزيد بن عبد الملك / حج بالناس و هو ولى عهد
- ٦٤ / ١١٧ / خالد بن عبد الملك / حج بالناس
- ٦٥ / ١١٨ / محمد بن هشام بن إسماعيل / حج بالناس

- ١١٩ / ٦٦ / مسلمة بن هشام أبو شاعر و قيل ابن عبد الملك / حج بالناس
- ١٢٠ / ٦٧ / محمد بن هشام بن إسماعيل / حج بالناس إلى سنة أربعة و عشرين
- ١٢٥ / ٦٨ / يوسف بن أبي الحجاج بن يوسف / حج بالناس
- ١٢٦ / ٦٩ / عمر بن عبد الله بن عبد الملك / حج بالناس
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٧٩
- عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس / ملاحظات
- ١٢٧ / ٧٠ / عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز / حج بالناس
- ١٢٨ / ٧١ / عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز / حج بالناس
- ١٢٩ / ٧٢ / عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان / حج بالناس
- ١٣٠ / ٧٣ / محمد بن عبد الملك بن مروان / حج بالناس
- ١٣١ / ٧٤ / عروة بن محمد بن عطية السعدي / حج بالناس بكتاب افتعله على لسان عمه عبد الملك و هو والى الحجاز و اليمن لمروان بن محمد، قال المسعودي "فهذا آخر ما حج بنو أمية"
- ١٣٢ / ٧٥ / داود بن علي بن عبد الملك بن العباس بن عبد المطلب / حج بالناس
- ١٣٣ / ٧٦ / زياد بن عبد الله الحارثي / حج بالناس
- ١٣٤ / ٧٧ / عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس / حج بالناس
- ١٣٥ / ٧٨ / سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس / حج بالناس
- ١٣٦ / ٧٩ / أبو جعفر المنصور / حج بالناس و فيها بويغ لأبي جعفر المنصور
- ١٣٧ / ٨٠ / إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس / حج بالناس
- ١٣٨ / ٨١ / الفضل بن صالح بن علي / حج بالناس
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٨٠
- عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس / ملاحظات
- ١٣٩ / ٨٢ / العباس بن محمد بن علي / حج بالناس
- ١٤٠ / ٨٣ / أبو جعفر المنصور / حج بالناس
- ١٤١ / ٨٤ / صالح بن علي / حج بالناس
- ١٤٢ / ٨٥ / إسماعيل بن علي / حج بالناس
- ١٤٣ / ٨٦ / أبو جعفر المنصور / حج بالناس
- ١٤٤ / ٨٧ / لم يذكر المؤلف من حج بالناس في هذه السنة
- ١٤٥ / ٨٨ / السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب / حج بالناس
- ١٤٦ / ٨٩ / عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن علي بن علي بن عبد الله بن العباس / حج بالناس
- ١٤٧ / ٩٠ / أبو جعفر المنصور و قيل محمد بن إبراهيم الإمام و قتل في ١٤٨ / حج بالناس
- ١٤٩ / ٩١ / عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن علي / حج بالناس
- ١٥٠ / ٩٢ / عبد الصمد بن علي / حج بالناس
- ١٥١ / ٩٣ / محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي / حج بالناس

- ١٥٢/٩٤ / أبو جعفر المنصور/ حج بالناس
- ١٥٣/٩٥ / المهدي محمد بن عبد الله بن محمد بن علي / حج بالناس
- ١٥٤/٩٦ / محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي / حج بالناس
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٨١
- عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس / ملاحظات
- ١٥٥/٩٧ / عبد الصمد بن علي / حج بالناس
- ١٥٦/٩٨ / العباس بن محمد بن علي / حج بالناس
- ١٥٧/٩٩ / إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي / حج بالناس
- ١٥٨/١٠٠ / إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي / حج بالناس
- ١٥٩/١٠١ / يزيد بن منصور بن عبد الله بن شهر بن يزيد بن مثنوب الحميري / حج بالناس
- ١٦٠/١٠٢ / الهادي بن موسى بن المهدي / حج بالناس و هو ولي عهد
- ١٦٢/١٠٣ / إبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر / حج بالناس
- ١٦٣/١٠٤ / علي بن المهدي / حج بالناس
- ١٦٤/١٠٥ / صالح بن أبي جعفر / حج بالناس
- ١٦٥/١٠٦ / صالح بن أبي جعفر / حج بالناس
- ١٦٦/١٠٧ / محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي / حج بالناس
- ١٦٧/١٠٨ / إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي / حج بالناس
- ١٦٨/١٠٩ / علي بن محمد المهدي / حج بالناس
- ١٦٩/١١٠ / سليمان بن أبي جعفر المنصور/ حج بالناس
- ١٧٠/١١١ / هارون الرشيد/ حج بالناس
- ١٧١/١١٢ / عبد الصمد بن علي / حج بالناس
- ١٧٢/١١٣ / لم يذكر المؤلف من حج بالناس في هذه السنة
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٨٢
- عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس / ملاحظات
- ١٧٣/١١٤ / هارون الرشيد/ حج بالناس و خرج محرما من عسكره إلى مكة
- ١٧٤/١١٥ / هارون الرشيد/ حج بالناس إلى سنة ١٧٩ "تسع و سبعين و مائة"
- ١٨٠/١١٦ / موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي / حج بالناس
- ١٨١/١١٧ / هارون الرشيد/ حج بالناس
- ١٨٢/١١٨ / موسى بن عيسى / حج بالناس
- ١٨٣/١١٩ / العباس بن محمد المهدي / حج بالناس
- ١٨٤/١٢٠ / إبراهيم بن المهدي / حج بالناس
- ١٨٥/١٢١ / منصور بن المهدي / حج بالناس
- ١٨٦/١٢٢ / هارون الرشيد/ حج بالناس

١٢٣ / ١٨٧ / عبد الله بن العباس بن علي. و قيل منصور بن المهدي / حج بالناس

١٢٤ / ١٨٨ / هارون الرشيد / حج بالناس

١٢٥ / ١٨٩ / العباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي / حج بالناس

١٢٦ / ١٩٠ / علي بن الرشيد / حج بالناس

١٢٧ / ١٩١ / العباس بن عبيد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور / حج بالناس عامين

١٢٨ / ١٩٣ / داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي / حج بالناس

١٢٩ / ١٩٤ / علي بن الرشيد / حج بالناس

١٣٠ / ١٩٥ / داود بن عيسى بن موسى / حج بالناس

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٨٣

عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس / ملاحظات

١٣١ / ١٩٦ / العباس بن موسى / حج بالناس إلى سنة ثمان و تسعين و مائة

١٣٢ / ١٩٩ / محمد بن داود بن عيسى بن محمد بن علي / وثب ابن الأفطس العلوي من مكة فقبض عليه فتنحى محمد بن داود و لم

يمض إلى عرفه و خرج الناس فوقفوا بغير إمام فلما كانوا بالمزدلفة طلع عليهم ابن الأفطس فأقام لهم باقى حجتهم

١٣٣ / ٢٠٠ / المعتصم بن إسحاق / حج بالناس

١٣٤ / ٢٠١ / إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي / حج بالناس

١٣٥ / ٢٠٢ / إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم / حج بالناس و هو أول طالبى أقام

للناس الحج فى الإسلام على أنه أقام متغلباً عليه لا مولى من قبل خليفة. كان ممن سعى فى الأرض بالفساد و قتل أصحاب إبراهيم بن

عبيد الله الحجبى و غيره فى المسجد الحرام و يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومى و غيره من أهل العبادة.

١٣٦ / ٢٠٣ / سليمان بن عبد الله بن جعفر بن سليمان بن علي / حج بالناس

١٣٧ / ٢٠٤ / عبيد الله بن الحسن بن عبيد الله / حج بالناس عامين

١٣٨ / ٢٠٦ / أبو عيسى بن الرشيد / حج بالناس عامين

١٣٩ / ٢٠٨ / صالح بن الرشيد / حج بالناس و معه زبيدة إلى سنة عشرة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٨٤

عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس / ملاحظات

و مائتين

١٤٠ / ٢١١ / إسحاق بن العباس بن محمد بن علي / حج بالناس

١٤١ / ٢١٢ / المأمون / حج بالناس

١٤٢ / ٢١٣ / أحمد بن العباس / حج بالناس

١٤٣ / ٢١٤ / عبيد الله بن عبد الله / حج بالناس

١٤٤ / ٢١٥ / عبد الله بن عبيد الله / حج بالناس

١٤٥ / ٢١٦ / لم يذكر المؤلف من حج بالناس فى هذه السنة

١٤٦ / ٢١٧ / سليمان بن عبد الله بن علي / حج بالناس

١٤٧ / ٢١٨ / صالح بن العباس بن محمد / حج بالناس عامين

- ١٤٨ / ٢٢٠ / صالح بن العباس / حج بالناس عامين
- ١٤٩ / ٢٢٢ / محمد بن داود بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب / حج بالناس إلى سنة ست و عشرين و مائتين
- ١٥٠ / ٢٢٧ / جعفر المتوكل بن المعتصم بن الرشيد / حج بالناس
- ١٥١ / ٢٢٨ / محمد بن داود بن عيسى / حج بالناس إلى سنة خمس و ثلاثين و مائتين
- ١٥٢ / ٢٣٦ / محمد المنتصر / حج بالناس و معه جدته شجاع
- ١٥٣ / ٢٣٧ / علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور / حج بالناس
- ١٥٤ / ٢٣٨ / عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن / حج بالناس إلى سنة إحدى و أربعين و مائتين
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٨٥
- عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس / ملاحظات
- موسى بن علي بن عبد الله بن عباس
- ١٥٥ / ٢٤٢ / عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام / حج بالناس إلى سنة أربع و أربعين و مائتين
- ١٥٦ / ٢٤٥ / محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام / حج بالناس إلى سنة ثمان و أربعين و مائتين
- ١٥٧ / ٢٤٩ / عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس / حج بالناس
- ١٥٨ / ٢٥٠ / جعفر بن الفضل بن موسى بن عيسى بن موسى و يلقب بساسان / حج بالناس
- ١٥٩ / ٢٥١ / إسماعيل بن يوسف العلوي / حج بالناس و لكن بطل الحج إلا يسيرا لأن إسماعيل هذا طلع على الحاج و هم بعرفة في جموعه فقتل من المسلمين خلقا عظيما حتى زعموا أنه كان يسمع بالليل تلبية القتلى و كان شأنه في الفساد عظيما.
- ١٦٠ / ٢٥٢ / كعب البقر محمد بن أحمد بن عيسى بن جعفر بن المنصور / حج بالناس
- ١٦١ / ٢٥٣ / عبد الله بن محمد بن سليمان بن عبد الله الرس / حج بالناس
- ١٦٢ / ٢٥٤ / علي بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن / حج بالناس عامين
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٨٦
- عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس / ملاحظات
- محمد بن علي
- ١٦٣ / ٢٥٦ / كعب البقر محمد بن أحمد بن عيسى بن جعفر بن المنصور / حج بالناس
- ١٦٤ / ٢٥٧ / الفضل بن العباس بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي / حج بالناس عامين
- ١٦٥ / ٢٥٩ / إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي بن بويه / حج بالناس عامين
- ١٦٦ / ٢٦١ / الفضل بن العباس بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي / حج بالناس إلى ثلاث و ستين و مائتين
- ١٦٧ / ٢٦٤ / هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى / حج بالناس إلى سنة ثمان و سبعين و مائتين "خمس عشر عاما متواليه"
- ١٦٨ / ٢٧٩ / أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن داود بن عيسى بن موسى / حج بالناس إلى سنة سبع و ثمانين و مائتين "تسع حجج متواليه"
- ١٦٩ / ٢٨٨ / محمد بن هارون بن العباس بن إبراهيم بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور / حج بالناس
- ١٧٠ / ٢٨٩ / الفضل بن عبد الملك بن عبد الله بن العباس بن محمد بن علي / حج بالناس إلى سنة خمس و ثلاثمائة

١٧١/ ٣٠٦/ أحمد بن العباس بن محمد/ حج بالناس عامين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٨٧

عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس/ ملاحظات

بن عيسى بن سليمان بن محمد بن إبراهيم الإمام و هو المعروف بأخي أم موسى الهاشمية قهرمانه شغب أم المقتدر بالله

١٧٢/ ٣٠٨/ إسحاق بن عبد الملك بن عبد الله بن عبيد الله/ حج بالناس إلى سنة إحدى عشرة و ثلاثمائة

١٧٣/ ٣١٢/ الحسن بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس/ حج بالناس

١٧٤/ ٣١٣/ أبو طالب عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز بن عبد الله بن العباس بن محمد/ حج بالناس خليفة لعمه الحسن

١٧٥/ ٣١٤/ عبد الله بن عبيد الله بن سليمان بن محمد الأكبر/ حج بالناس

١٧٦/ ٣١٥/ عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد المعروف بأبي أحمد الأزرق/ حج بالناس خليفة الحسن بن عبد العزيز بن

العباس عامين

١٧٧/ ٣١٧/ وفي هذه السنة دخل القرامطة مكة/ دخل سليمان بن الحسن صاحب البحرين مكة، وقد حضر عمر بن الحسن بن عبد

العزيز المقدم نسبه إليه لإقامة الحج خليفة لأبيه فكان من أمر الناس ما كان، و لم يتم حج في موسم سنة سبع و عشرة و ثلاثمائة هذه

من

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٨٨

عدد/ السنة الهجرية/ اسم من حج بالناس/ ملاحظات

أجل حادثة القرامطة لعنهم الله إلا لقوم يسير غدروا فتم حجهم دون إمام و كانوا رجالة.

١٧٨/ ٣١٨/ عمر بن الحسن بن عبد العزيز الهاشمي/ حج بالناس خليفة لأبيه الحسن بن عبد العزيز

١٧٩/ ٣١٩/ جعفر بن علي بن سليمان/ حج بالناس و هو خليفة الحسن بن عبد العزيز

و من ٣٢٠ إلى ٣٣٥/ عمر بن الحسن بن عبد العزيز كما هو موضح ذلك أمام اسمه هنا/ حج بالناس و هو خليفة لأبيه المذكور أيضا.

و لم يزل يحج بالناس إلى سنة (٣٣٥) خمس و ثلاثين و ثلاثمائة و هو على قضاء مكة في هذا الوقت و هو جمادى الآخرة من السنة

المذكورة و هي سنة (٣٣٥) و إليه قضاء مصر و غيرها.

انتهى كل ذلك من آخر الجزء الثاني من تاريخ المسعودي، ببعض تصرف يسير، و من ذلك وضعنا كلامه في هذا الجدول المرتب.

ذكر بعض من حج من الخلفاء والملوك

نذكر هنا بعض من حج من الخلفاء والملوك بعد مبايعتهم للخلافة، أما حجهم قبل الخلافة فلم نتعرض له، و ذلك نقلا باختصار عن

تاريخ الشيخ عبد الله الغازي، رحمه الله تعالى، المسمى "إفادة الأنام بذكر بلد الله الحرام" و هو كتاب مخطوط بخط المؤلف نفسه

غير مطبوع، فقد جاء فيه و في غيره ما ملخصه:

(١) حج بالناس أبو بكر، رضى الله عنه، في سنة اثنتي عشرة من الهجرة.

(٢) و حج بالناس عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، جميع خلافته، إلا السنة الأولى، فقد حج بالناس عبد الرحمن بن عوف، رضى الله

عنه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٨٩

(٣) و حج بالناس عثمان بن عفان، رضى الله عنه، في سنة خمس و عشرين. قال الطبري: فلم يزل يحج إلى سنة أربع و ثلاثين ثم حصر

في داره و حج عبد الله بن عباس بالناس. اه.

- أما على بن أبي طالب، رضى الله تعالى عنه، فلم يتفق له الحج بالناس بعد الخلافة لانشغاله فى الحروب.
- (٤) و حج بالناس معاوية بن أبى سفيان، رضى الله عنه، حج بالناس فى سنة أربع و أربعين و فى سنة خمسين.
- (٥) و حج بالناس عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما، قال الطبرى: لما بويع له حج ثمانى حجج متواليات.
- (٦) و حج بالناس عبد الملك بن مروان فى سنة خمس و سبعين بعد قتل ابن الزبير.
- (٧) و حج بالناس الوليد بن عبد الملك، فى سنة خمس و تسعين، و قال الطبرى: سنة إحدى و تسعين.
- (٨) و حج بالناس سليمان بن عبد الملك، فى سنة سبع و تسعين.
- (٩) و حج بالناس هشام بن عبد الملك، فى سنة ست و مائة.
- (١٠) و حج بالناس الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فى سنة ست عشرة و مائة.
- (١١) و حج بالناس أبو جعفر المنصور، فى سنة أربعين و مائة. قال الطبرى: حج المنصور فى سنة (١٤٠) و فى سنة (١٤٤) و فى سنة (١٤٧) و فى سنة (١٥٢) و فى سنة (١٥٨).
- (١٢) و حج بالناس محمد المهدي بن المنصور، فى سنة ستين و مائة، و فى سنة أربع و ستين و مائة.
- (١٣) و حج بالناس هارون الرشيد بن المهدي تسع حجج متفرقات، أولها سنة (١٧٠) سبعين و مائة و سنة (١٧٣) و (١٧٤) و (١٧٥) و (١٧٧) و (١٧٩) و (١٨١) و (١٨٦) و (١٨٨) من الهجرة.
- (١٤) و حج الملك المعظم عيسى بن العادل بن أبى بكر بن أيوب، فى سنة إحدى عشرة و ستمائة.
- (١٥) و حج الملك المظفر ملك اليمن، فى سنة خمس و خمسين و ستمائة.
- (١٦) و حج الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر، فى سنة سبع و ستين و ستمائة.
- (١٧) و حج الملك المجاهد أنس بن السلطان العادل كتبغا المنصورى صاحب مصر و الشام، سنة أربع و تسعين و ستمائة.
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٩٠
- (١٨) و حج الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثلاث حجج فى سنة (٧١٢) اثنى عشر و سبعمائة، و فى سنة (٧١٩) و فى سنة (٧٣٢) هجرية.
- (١٩) و حج ملك التكرور موسى بن أبى بكر، فى سنة أربع و عشرين و سبعمائة.
- (٢٠) و حج الملك المجاهد صاحب اليمن، فى سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، و فى سنة ٧٥١.
- (٢١) و خرج للحج الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون فى سنة ثمان و سبعين و سبعمائة، لكنه قتل فى أيلة جهة العقبة.
- (٢٢) و حج السلطان قايتباى، فى سنة أربع و ثمانين و ثمانمائة.
- (٢٣) و حج أحد سلاطين الأعاجم، فى سنة ست و سبعين و ألف. فأرسل الشريف سعد رسله إلى جدة يهثونه بالوصول.
- (٢٤) و حجت ملكة بهو بال بالهند سكندر بيكم، فى سنة ثمانين و مائتين و ألف.
- (٢٥) و حجت ملكة بهو بال بالهند سلطان جهان بيكم، فى سنة أحد و عشرين و ثلاثمائة و ألف.
- (٢٦) و حج عباس حلمى باشا خديوى مصر، فى سنة سبع و عشرين و ثلاثمائة و ألف و ذلك فى زمن أمير مكة الشريف الحسين بن على، الذى صار فيما بعد ملك الحجاز فى عصرنا هذا.

انتهى ما نقلناه من تاريخ الغازى بغاية الاختصار جدا، و قد يكون هناك بدون شك من حج من الملوك و لم يذكرهم الشيخ الغازى فى تاريخه، بدليل أنه لم يذكر من حج منهم فى الزمن الذى بين هارون الرشيد و بين الملك المعظم عيسى، و هو أكثر من أربعمائة

سنة.

و في هذا التاريخ مذکور ما عمله كل ملك و سلطان و وزير، قدم للحج في الحرمين الشريفين، من أعمال البر و الخير و الصدقات و الإحسان بتفصيل تام، لم نقل كل ذلك مع ما فيه من الفوائد و الدرس خوفا من التطويل، و لهذا السبب نفسه لم نتعرض لذكر من حج من الأمراء و الوزراء و العلماء و الأعيان و كبار الناس، و لم نذكر أيضا من حج من الملوك و الرؤساء في عصرنا هذا، حيث لم ننتبه لهذا الأمر من قبل حتى نقيده لدينا و نسجله عندنا فنوكل ذلك إلى غيرنا من المؤرخين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٩١

و لقد أتينا بهذه النبذة استنهاضا لهمم الملوك و الرؤساء و الأمراء و الوزراء و الأعيان في المبادرة لأداء فريضة الحج، و الله الموفق و إليه المرجع و المآب.

و لا يفوتنا أن نذكر هنا حج ملك الحجاز الأسبق الشريف الحسين بن علي، رحمه الله تعالى، بالناس، و كذلك الملك عبد العزيز آل سعود، رحمه الله تعالى، حج بالناس بعد أن تولى على الحجاز، ثم حج بالناس بعده ابنه الملك سعود بن عبد العزيز، و كذلك حج بالناس أخوه الملك فيصل بن عبد العزيز و حج بهم قبل أن يكون ملكا، و ذلك في سنة ١٣٨٣ من الهجرة. وفق الله تعالى الجميع لمرضاته و تقبل منا و منهم صالح الأعمال.

حجة الوداع نقلا عن تاريخ الخميس

كانت حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، سميت هذه الحجة بحجة الوداع، لأن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يودع الناس فيها، كما هو صريح لفظ خطبته: "أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفى هذا ... الخ."

و بالفعل فقد ودع صلى الله عليه و سلم هذه الدنيا الفانية و لحق بالرفيق الأعلى، بعد رجوعه من حجة الوداع إلى المدينة، و ذلك يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة، صلى الله عليه و علي آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا. إننا نحب أن نطول الكلام عن حجة الوداع للنبي صلى الله عليه و سلم لما يعود على القارئ الكريم بالمنافع الجمّة، و لقد ورد وصف حجة الوداع- بفتح الواو- في كثير من الكتب، اخترنا أن ننقل ما ورد عنها من كتابين:

(١) تاريخ الخميس، (٢) و مرآة الحرمين. و مع أن كلا منهما أتى في وصفها بالشرح الوافي التام، لم تقتصر في النقل عن أحدهما، بل نقلنا ما جاء فيهما بالحرف و النص، لأن في كل منهما من الفوائد المهمة ما لا يستغنى عنه طلاب العلم، و لا بأس في إطالة الكلام ما دام هناك منافع متعددة و متنوعة. فنقول و بالله التوفيق و عليه الاعتماد و التكلان:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٩٢

جاء في تاريخ الخميس في الجزء الثاني عن حجة الوداع- بفتح الواو- ما نصه:

و في هذه السنة "أى في السنة العاشرة" كانت حجة الوداع، و تسمى حجة الإسلام و حجة التمام و حجة البلاغ، و كره ابن عباس أن يقال: حجة الوداع، و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم أقام بالمدينة يضحى كل عام و يغزو المغازي. فلما كان في ذى القعدة سنة عشر من الهجرة، أجمع على الخروج إلى الحج، قال ابن سعد: لم يحج غيرها منذ تنبأ إلى أن توفاه الله.

و في البخارى، عن زيد بن أرقم، أن النبي صلى الله عليه و سلم غزا تسع عشرة غزوة، و أنه حج بعدما هاجر حجة واحدة و هى حجة الوداع و لم يحج بعدها. قال ابن إسحاق: و أخرى بمكة. و قيل حج بمكة حجتين. و هذا بعد النبوة، و ما قبلها لا يعلمه إلا الله، و أخرج الترمذى، عن جابر بن عبد الله، حج رسول الله صلى الله عليه و سلم ثلاث حجّات: حجتين قبل أن يهاجر و حجة بعدما هاجر معها عمرة. هذا لفظ الدارقطنى و ابن ماجه و الحاكم و صححه على شرط مسلم. قال الشيخ محب الدين الطبرى: لعل جابر أشار إلى

حجتين بعد النبوة. وقال ابن حزم: حج رسول الله و اعتمر قبل النبوة و بعدها، و قبل الهجرة و بعدها، حججا و عمرا لا يعلمها إلا الله. و كذا قال أبو الفرج في كتاب مثير الغرام، و قال السهيلي، في شرح السيرة: لا ينبغي أن يضاف إليه في الحقيقة إلا حجة الوداع. و إن حج مع الناس، إذ كان بمكة، فلم يكن ذلك الحج على سنة الحج و كماله، لأنه صلى الله عليه و سلم كان مغلوبا على أمره، و كان الحج منقولا عن وقته، فقد ذكر أن أهل الجاهلية كانوا ينقلون الحج عن حساب الشهور الشمسية، و يؤخرونه في كل سنة أحد عشر يوما، و قد كان النبي صلى الله عليه و سلم أراد أن يحج مقفله من تبوك، و ذلك إثر فتح مكة بيسير، ثم ذكر أن بقايا المشركين يحجون و يطوفون بالبيت عراة، فأخر الحج حتى نبذ إلى كل ذي عهد عهده، و ذلك في السنة التاسعة، ثم حج في العاشرة بعد إمعاء رسوم الشرك كذا في البحر العميق.

و في الاستيعاب: لم يحج رسول الله من المدينة، غير حجته الواحدة، و هي حجة الوداع، و ذلك في سنة عشر من الهجرة. و في سيرة اليعمرى: حج صلى الله عليه و سلم بعد فرض الحج حجة واحدة، و قبل ذلك مرتين، و اعتمر صلى الله عليه و سلم أربع عمر، كلها في ذي القعدة، إلا التي مع حجته واحدة منهن في ذي القعدة عام الحديبية، سنة ست من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٩٣

الهجرة، و صدوا فيها، فتحلل فحسبت له عمرة، و الثانية في ذي القعدة من العام المقبل و هي سنة سبع و هي عمرة القضاء، و الثالثة في ذي القعدة سنة ثمان، و هي عام الفتح من جعرانه، حيث قسم غنائم حنين، و الرابعة مع حجته الكبرى سنة عشر، و كان إحرامها في ذي القعدة، و أعمالها في ذي الحجة. كذا رواه البخاري في صحيحه، عن أنس و كذا في منهاج النووي. و لما أراد رسول الله صلى الله عليه و سلم حجة الوداع خرج من طريق الشجرة، و عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يخرج من طريق الشجرة و يدخل من طريق المعرس و هو موضع معروف على ستة أميال من المدينة، كذا في منهاج النووي، و هو أسفل من المسجد، الذي يبطن الوادي.

و أن رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا خرج إلى مكة، يصلى في مسجد الشجرة، و إذا رجع صلى بذي الحليفة، يبطن الوادي، و بات حتى يصبح. رواه البخاري، و ذو الحليفة ماء لجشم على ستة أميال من المدينة، قاله النووي، و قال ابن حزم: إنه على أربعة أميال و قيل سبعة، و في شرح مختصر الوقاية للشمني، فسّر ابن شجاع الميل بثلاثة آلاف ذراع و خمسمائة ذراع إلى أربعة آلاف، و في الصحاح الميل من الأرض منتهى مد البصر، عن ابن السكيت، و في شرح الكنتز ثلاث فراسخ أربعة آلاف بذراع محمد بن فرج الشاشي طولها أربعة و عشرون إصبعا، و عرض كل إصبع ست حبات شعير ملصقة ظهر البطن.

و في الينابيع: الميل ثلث فرسخ، و الفرسخ اثنا عشر ألف خطوة، و كل خطوة ذراع و نصف، بذراع العامة، و هو أربعة و عشرون إصبعا. و مسجد ذي الحليفة يسمى مسجد الشجرة، و قد خرب و به البئر، التي تسميها العوام بئر علي، و ينسبون لها إلى علي بن أبي طالب، لظنهم أنه قاتل الجن بها. و هو كذب كذا في تشويق الساجد، و ذو الحليفة هو الميقات لأهل المدينة، و لمن مرّ به من غيرهم، و هو أبعد المواقيت، و هناك منزل رسول الله صلى الله عليه و سلم و اردا و صادرا، فخرج صلى الله عليه و سلم من المدينة مغتسلا مدھنا مترجلا في ثوبين إزار و رداء و ذلك يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة فصلى الظهر بذي الحليفة.

و في المواهب اللدنية، ثبت في الصحيحين، عن أنس: صلينا مع النبي صلى الله عليه و سلم الظهر بالمدينة أربعا و العصر بذي الحليفة ركعتين.

صرح الواقدي: بأن خروجه صلى الله عليه و سلم كان يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة و كان وقت خروجه من المدينة بين الظهر و العصر، و كان أول ذي الحجة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٩٤

يوم الخميس و كان دخوله مكة صبح أربعة إلى رابع ذي الحجة كما ثبت في صحيح حديث عائشة و ذلك يوم الأحد.

و في سيرة اليعمرى: دخل مكة يوم الأحد بكرة. و هذا يؤيد أن خروجه من المدينة كان يوم السبت كما تقدم فيكون المكث في الطريق ثمان ليال، و هى المسافة الوسطى. و خرج معه، عليه السلام، تسعون ألفا و يقال مائة ألف و أربعة عشر ألفا، و يقال أكثر كما حكاه البيهقى.

و كانت الوقفة يوم الجمعة، و أخرج صلى الله عليه و سلم معه نساءه كلهن فى الهودج و أشعر هديه و قلده. و فى سيرة اليعمرى: خرج فى حجة الوداع نهارا بعد ما ترجل و ادهن و تطيب و بات بنى الحليفة، و قال: أتانى الليلة آت من ربى، و قال: صل بهذا الوادى المبارك و قل عمرة فى حجة فأحرم بهما قارنا.

و سئل جابر بن عبد الله عن حجة رسول الله، قال: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم مكث تسع سنين لم يحج ثم أذن فى الناس، فى العاشرة، أن رسول الله حاج، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتهم برسول الله صلى الله عليه و سلم، و يعمل مثل عمله، فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبى بكر، فأرسلت إلى رسول الله كيف أصنع؟ قال: اغتسلى و استغفرى و احرمى فصلّى رسول الله صلى الله عليه و سلم ركعتين، فى مسجد ذى الحليفة، ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به على البيداء كان إلى مد البصر، الناس من راكب و ماش و عن يمينه مثل ذلك و عن يساره مثل ذلك و من خلفه مثل ذلك فأهل بالتوحيد "لييك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد و النعمة لك، و الملك لا شريك لك".

و أهل الناس بهذا و لزم رسول الله تليته، قال: لسنا ننوى إلا الحج و لسنا نعرف العمرة. و عن ابن عمر كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يدخل مكة من الثنية العليا يعنى كداء، و هو المشهور بالمعلاة، و يخرج من الثنية السفلى يعنى كدى - كذا رواه البخارى - و فى سيرة اليعمرى و نزل على الحجون، و فى مناسك الكرمانى روى أن النبى صلى الله عليه و سلم دخل مكة صبيحة اليوم الرابع من ذى الحجة، و أقام بها محرما إلى يوم التروية، ثم راح إلى منى محرما بذلك الإحرام. قال جابر: حتى إذا أتينا البيت معه، استلم الركن، فرمل ثلاثا، و مشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَجَعَلَ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٩٥

المقام بينه و بين البيت، فصلى فيه ركعتين. و كان النبى صلى الله عليه و سلم يقرأ فى الركعتين: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ عَنْ ابْنِ عَمْرٍ، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاها كان كعتق رقبة. رواه الترمذى كذا فى المشكاة. قال جابر: ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا منه قرأ: إِنَّ الصَّفا وَ المَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ وَ قال: أبدأ بما بدأ الله به، فرقى عليه، حتى رأى البيت فاستقبله، فوجد الله و كبره و قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد، و هو على كل شىء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، و نصر عبده، و هزم الأحزاب وحده. ثم دعا، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى انصبت قدماه فى بطن الوادى، حتى إذا صعدنا مشى، حتى أتى المروة، ففعل عليها كما فعل على الصفا، حتى أتم السعى على المروة. و فى سيرة اليعمرى سعى راكبا. انتهى.

قال جابر، قال: لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى، و جعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدى، فليحلّ و ليجعلها عمرة. فقام سراقه بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله ألعامننا هذا أم للأبدى؟ فشبك رسول الله أصابعه واحدة فى الأخرى و قال: "دخلت العمرة فى الحج مرتين لا بل لأبد أبدأ."

و قدم على من اليمن بيدن رسول الله صلى الله عليه و سلم، فوجد فاطمة ممن حل، و لبست ثيابا صبيغا، و اكتحلت، فأنكر ذلك عليها فقالت: أبى أمرنى بهذا.

قال على: فذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم محرشا على فاطمة، للذى صنعت، مستفتيا لرسول الله، فيما ذكرت عنه، فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها، فقال:

صدقت صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال: قلت اللهم إني أهلّ بما أهلّ به رسولك، قال: فإن معي الهدى فلا تحل. و كانت جملة الهدى، الذى قدم به على من اليمن، و الذى أتى به النبى صلى الله عليه و سلم مائة، فحلق الناس كلهم، و قصروا، إلا النبى صلى الله عليه و سلم و من كان معه هدى.

فلما كان يوم التروية، توجهوا إلى منى، فأهلوا بالحج، و ركب النبى صلى الله عليه و سلم فصلى بها الظهر و العصر و المغرب و العشاء و الفجر، و مكث قليلا- حتى طلعت الشمس، و أمر بقبه من شعر تضرب له بنمرة، فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس، أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادى، فخطب الناس فقال: إن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٩٦

دماءكم و أموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، و دماء الجاهلية موضوعة، و إن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل، و ربا الجاهلية موضوعة، و أول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله و استحلتتم فروجهن بكلمة الله و لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك، فاضربوهن ضربا غير مبرح، و لهن عليكم رزقهن و كسوتهن بالمعروف.

و قد تركت فيكم ما أن تضلوا بعده، إن اعتصمتم به، كتاب الله، و أنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت و أدت و نصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء و ينكتها إلى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات، ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، و لم يصل بينهما شيئا، ثم ركب، حتى الموقوف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرة و جعل جبل المشاة بين يديه فوقف مستقبل القبلة، و كان يوم الجمعة و كان واقفا إذ نزل عليه: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ الْآيَةَ. و فى بحر العلوم، فبركت ناقته، من هيبه القرآن.

قال جابر: فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس، و أردف أسامه خلفه و دفع شق القصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك الرحل، و يقول بيده اليمنى:

أيها الناس السكينة السكينة، كلما أتى جبلا من الجبال، أرخى لها قليلا، حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب و العشاء بأذان و إقامتين، و لم يسبح بينهما شيئا، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حين تبيّن الصبح و ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، و دعا الله و كبره و هلله و وحده، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا فدفع، قبل أن تطلع الشمس، و أردف الفضل بن عباس و كان رجلا حسن الشعر أبيض و سيفا، فلما دفع رسول الله صلى الله عليه و سلم، مرت ظعن البحرين، فطلق الفضل ينظر إليهن، فوضع صلى الله عليه و سلم يده على وجه الفضل، فحوّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر، ينظر فحوّل صلى الله عليه و سلم يده من الشق الآخر على وجه الفضل، فصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسر فحرك قليلا.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٩٧

و فى شفاء الغرام، ذكر المحب الطبرى و ابن خليل سمي محسرا؛ لأن فيل أصحاب الفيل حسر فيه أى أعياء. و أهل مكة يسمونه وادى النار، زعموا أن رجلا اصطاد فيه غزاله فتزلت نار فأحرقته و الله أعلم.

و ليس وادى محسر من مزدلفة و لا من منى و هو مسيل ما بينهما و فى المشكاة:

وادي محسر من منى.

ثم قال المصنف، رحمه الله تعالى، بعد بضعة أسطر: و فى المشكاة عن عباس بن مرداس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم دعا لأمتة، عشية عرفه، بالمغفرة، فأجيب بأنى قد غفرت لهم، ما خلا المظالم، فإنى آخذ للمظلوم من الظالم، قال: أى ربى إن شئت أعطيت المظلوم من الجنة، و غفرت للظالم. فلم يجب عشيته، فلما أصبح بالمزدلفة أعاد الدعاء فأجيب إلى ما سأل. قال فضحك رسول الله

صلى الله عليه وسلم أو قال تبسم فقال له أبو بكر وعمر: بأبي أنت وأمي، إن هذه لساعة ما كنا نضحك فيها، فما الذي أضحكك؟ - أضحكك الله سنك - قال: إن عدو الله إبليس، لما علم أن الله عز وجل، قد استجاب دعائي، وغفر لأمتي، أخذ التراب فجعل يحثو على رأسه، ويدعو بالويل والثبور، فأضحكني ما رأيت من جزعه. رواه ابن ماجه والبيهقي في كتاب البعث والنشور.

قال جابر: ثم سلك الطريق الوسطى، التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة، التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات مثل حصي الخذف، يكبر مع كل حصاة منها، من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر بيده ثلاثا وستين بدنه، وأعتق ثلاثا وستين رقبه، عدد سني عمره، ثم أعطى عليا ما بقي إلى تمام المائة. وقد كان صلى الله عليه وسلم أتى ببعضها وقدم على بشيء منها من اليمن.

وفي حياة الحيوان: نحر بيده في حجة الوداع، ثلاثا وستين بدنه، وأعتق ثلاثا وستين رقبه، ثم حلق رأسه بمنى جانبه الأيمن ثم الأيسر، حالقه معمر بن عبد الله العدوي، وقيل اسمه خراش بن أمية بن ربيعة الكلبي.

وفي منهاج النووي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى منى، ثم أتى الجمرة، ولم يزل يلبي حتى رمى، ثم أتى منزله بمنى ونحر، ثم قال للحلاق: خذ، وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس. وفي المناسك للكرمانى: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رمى جمرة العقبة، رجع إلى منزله بمنى، ثم دعا بذبائح فذبح، ثم دعا بالحلاق فأعطاه شقه الأيمن فحلقه، فدفعه إلى أبي طلحة، ليفرقه بين الناس، ثم أعطاه شقه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٩٨

الأيسر فحلقه، ثم دفعه إلى أبي طلحة ليفرقه بين الناس، قيل: أصاب خالد بن الوليد شعرات من شعرات ناصيته صلى الله عليه وسلم. وفي الشفاء: كانت شعرات من شعره، عليه السلام، في قلنسوة خالد، فلم يشهد بها قتالا إلا رزق النصر.

قال جابر: وأشرك صلى الله عليه وسلم عليا في هديه ثم أمر من كل بدنه ببضعه، فجعلت في قدر، فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، ثم ركب صلى الله عليه وسلم فأفاض إلى البيت، وصلى الظهر بمكة، فأتى بنى عبد المطلب، وهم يسقون على زمزم، فقال:

انتزعوا بنى عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم، لنزعت معكم، فناولوه دلو، فشرب منه، وطاف صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على راحلته بالبيت وبالصفا والمروة ليراه الناس وليشرف ويسألوه. فإن الناس قد غشوه.

وكان صلى الله عليه وسلم لا يستلم في طوافه، إلا الحجر الأسود، والركن اليماني. وعن الزبير قال: سأل رجل ابن عمر عن استلام الحجر، قال: رأيت رسول الله يستلمه ويقبله رواه البخاري، وعن ابن عمر، قال: لم أر النبي صلى الله عليه وسلم يستلم من البيت إلا الركنين اليمانيين متفق عليه. وعن ابن عباس، قال: طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجن متفق عليه. وعن أبي الطفيل، قال: رأيت رسول الله يطوف بالبيت على بعير ويستلم الركن بمحجن معه، ويقبل المحجن رواه مسلم.

ذكر الأحاديث الأربعة في المشكاة. انتهى من "تاريخ الخميس".

حجة الوداع نقلا عن كتاب مرآة الحرمين

وجاء في كتاب مرآة الحرمين: تأليف إبراهيم باشا رفعت في الجزء الأول ما نصه: قد رأينا أن نسوق إليك أيها القارئ حجة صلى الله عليه وسلم ثم نردفها بالأحكام الفقهية في شرائع الحج، حسب ما سطر في كتب المذاهب المختلفة، وإنما قدمنا حجة صلى الله عليه وسلم، لأنها السراج الوهاج، الذي اقتبس منه الفقهاء، ولأنها الحكم عند اختلاف الآراء فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما وقد اعتمدنا في ذلك على ما كتبه الإمام ابن القيم المتوفى سنة ٧٥١ في كتابه "زاد المعاد في هدى خير العباد" فإنه خير ما كتب في هذا الموضوع على ما علمنا.

حجة الوداع: لا خلاف أنه صلى الله عليه وسلم لم يحج، بعد هجرته إلى المدينة، سوى حجة واحدة، وهي حجة الوداع، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٢٩٩

و اختلف هل حج قبل الهجرة، فروى الترمذى عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، قال: حج النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث حجج، حجبتين قبل أن يهاجر و حجة بعدما هاجر و معها عمره، قال الترمذى: هذا حديث غريب- تفرد به راو واحد- من حديث سفيان قال: و سألت محمدا- يعنى- البخارى- عن هذا فلم يعرفه من حديث الثورى، و فى رواية لا يعدّ هذا الحديث محفوظا. و لما نزل فرض الحج، بادر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحج، من غير تأخير، فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر، و أما قوله تعالى: وَ أَتَمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنَّهَا وَإِنْ نَزَلَتْ سَنَةً سِتْ عَامٍ الْحَدِيثِ، فليس فيها فريضة الحج، و إنما فيها الأمر بإتمامه، و إتمام العمرة، بعد الشروع فيهما، و ذلك لا يقتضى وجوب الابتداء.

و لما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج، أعلم الناس أنه حاج، فتجهزوا للخروج معه، و سمع بذلك من حول المدينة، فقدموا يريدون الحج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، و وافاه فى الطريق خلائق لا يحصون، فكانوا من بين يده و من خلفه و عن يمينه و عن شماله مد البصر، و خرج من المدينة نهارا بعد الظهر، لست بقين من ذى القعدة، بعد أن صلى الظهر بها أربعاً، و خطبهم قبل ذلك خطبة علمهم فيها الإحرام و واجباته و سننه، قال ابن حزم: و كان خروجه يوم الخميس. قال ابن القيم:

و الظاهر أنه كان يوم السبت- أنظر أدلة كل منهما ب زاد المعاد- و بعد أن صلى و خطب ترجل- مشط رأسه- و ادهن و لبس إزاره و رداءه و خرج بين الظهر و العصر فتزل بذى الحليفة- الخريطة ٥٧- فصلى بها العصر ركعتين ثم بات بها، و صلى بها المغرب و العشاء و الصبح و الظهر، فصلى بها خمس صلوات، و كان نساؤه كلهن معه، و طاف عليهن تلك الليلة، فلما أراد الإحرام اغتسل غسلًا ثانيًا، لإحرامه غير غسل الجماع الأول، ثم طيبته عائشة بيدها بذريعة و طيب، فيه مسك فى بدنه و رأسه، حتى كان و يبص المسك، يرى فى مفارقه و لحيته، ثم استدامه و لم يغسله، ثم لبس إزاره و رداءه، ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج و العمرة فى مصلاه، و لم ينقل عنه أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر، و قلّد قبل الإحرام بدنه نعلين، و أشعرها فى جانبها الأيمن فشق صفحة سنامها و سلت الدم عنها. و قد ساق ابن القيم بضعة و عشرين دليلا كلها صحيحة صريحة فى أنه صلى الله عليه وسلم حج قارنا، و ذكر أنه أخطأ فى عمرة النبي صلى الله عليه وسلم خمس طوائف، و وهم فى حجه خمس طوائف، و غلط فى إحرامه خمس طوائف، و بين آراء كل طائفة، و ساق أدلتها ثم كز عليها بالنقض. و كتابته فى هذا الموضوع أمتع ما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٠٠

كتب فراجعها فى كتابه " زاد المعاد " من صفحة ١٨٣ إلى صفحة ٢٠٢ من الجزء الأول طبع الحلبى بمصر. و ليد رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه بالغسل- بوزن كفل- و هو ما يغسل به الرأس من خطمى و نحوه، يلبد به الشهر، حتى لا ينتشر، و أهل فى مصلاه ثم ركب على ناقته و أهل أيضا ثم أهل لما استقلت به على البيداء. قال ابن عباس، رضى الله عنهما: و ايم الله لقد أوجب فى مصلاه و أهل حين استقلت بن ناقته و أهل، حين علا على شرف البيداء، و كان يهلّ بالحج و العمرة تارة و بالحج تارة، لأن العمرة جزء منه، فمن ثمة قيل: قرن، و قيل: تمتع و قيل: أفرد ثم لبي فقال: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد و النعمة لك و الملك، لا شريك لك، " و رفع صوته بهذه التلبية حتى سمعها أصحابه، و أمرهم بأمر الله له، أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية، و كان حجه على رحل لا فى محمل و لا هودج و لا عمارية و زاملته تحته. و اختلف فى جواز ركوب المحرم فى المحمل و الهودج و العمارية و نحوها على قولين: هما روايتان عن أحمد، رحمه الله، أحدهما الجواز و هو مذهب الشافعى و أبى حنيفة، رحمهما الله، و الثانى المنع و هو مذهب مالك. ثم إنه صلى الله عليه وسلم خيّرهم عند الإحرام بين الأنساك الثلاثة- الحج أو العمرة أو هما معا- ثم نذبهم عند دنوّهم من مكة، إلى فسح الحج و القران إلى العمرة لمن لم يكن معه هدى ثم حتم ذلك عند المروة.

وولدت أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر، رضى الله عنهما، بذى الحليفة محمد بن أبي بكر فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تغتسل وتستنفر وتستر بثوب وتحرم وتهل، وكان في قصتها ثلاث سنن: إحداها غسل المحرم، والثانية أن الحائض تغتسل لإحرامها، والثالثة أن الإحرام يصح من الحائض. ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلبي تلبيته المذكورة، والناس معه يزيدون فيها وينقصون، وهو يقرهم ولا ينكر عليهم ولزم تلبيته.

فلما كانوا بالروحاء، رأى حمار وحش عقيرا، فقال: دعوه فإنه يوشك أن يأتي صاحبه. فجاء صاحبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله شأنكم بهذا الحمار؟ فأمر رسول الله أبا بكر، رضى الله عنه، فقسمه قسمين بين الرفاق. وفي هذا دليل على جواز أكل المحرم، من صيد الحلال، إذ لم يصد لأجله.

و أما كون صاحبه لم يحرم فلعله لم يمر بذى الحليفة، فهو كأبي قتادة في قصته.

وتدل هذه القصة على أن الهبة لا تفتقر إلى لفظ: وهبت لك، بل تصح بلفظ يدل

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٠١

عليها، وتدل على قسمته اللحم مع عظامه بالتحري، وتدل على أن الصيد يملك بالإثبات، وإزالة امتناعه، وأنه لمن أثبت له لا لمن أخذه، وعلى حل أكل لحم الحمار الوحشى، وعلى التوكيل فى القسمة، وعلى كون القاسم واحدا. ثم مضى، حتى إذا كان بالإثابة، بين الرّويثة والعرج، إذا طبى واقف فى ظل شجرة، فيه سهم، فأمر رجلا أن يقف عنده، لا يريه أحد من الناس حتى يجاوزوا. والفرق بين قصة الطبى وقصة الحمار، أن الذى صاد الحمار كان حلالا، فلم يمنع من أكله، وهذا لم يعلم أنه حلال، وهم محرمون، فلم يأذن لهم فى أكله، وكل من يقف عنده لثلا يأخذه أحد حتى يجاوزوا. وفيه دليل على أن قتل المحرم للصيد يجعله بمنزلة الميتة، فى عدم الحل، إذ لو كان حلالا لم تضع ماليته، بل كان للحلال أن ينتفع به. ثم سار حتى إذا نزل بالعرج وكانت زاملته وزامله أبى بكر واحده، وكانت مع غلام لأبى بكر، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى جانبه وعائشة إلى جانبه الآخر وأسماء أختها إلى جانب أبيها، وأبو بكر ينتظر الغلام والزامله، إذ طلع الغلام ليس معه البعير، فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضلته البارحة. فقال أبو بكر: بعير واحد تضلّه، قال: فطفق يضربه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم ويقول: أنظروا إلى هذا المحرم ماذا يصنع، وما يزيد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك ويبتسم، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالأبواء أهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار وحشى، فردّه عليه، فقال: إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم. فلما مرّ بوادى عسفان قال: يا أبا بكر أى واد هذا؟ قال: وادى عسفان، قال: لقد مرّ به هود وصالح على بكرين أحمرين خطمهم الليف وأزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق، وذكره الإمام أحمد فى المسند، فلما كان بسرف حاضت عائشة، رضى الله عنها، وقد كانت أهلت بعمرة، فدخل عليها النبى صلى الله عليه وسلم وهى تبكى، قال: ما يبكيك؟ لعلك نفست، قالت نعم. قال: هذا شىء قد كتبه الله على بنات آدم، افعل ما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفى بالبيت.

وقد جاء فى صحيح مسلم، عن جابر، رضى الله عنه، قال: أهلت عائشة بعمرة حتى إذا كانت بسرف عركت - حاضت - ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة فوجدها تبكى فقال: ما شأنك؟ قالت: شأنى إني قد حضت وقد أحل الناس ولم أحل ولم أطف بالبيت والناس يذهبون إلى الحج الآن، فقال: إن هذا أمر قد كتبه الله على بنات آدم فاغتسلى، ثم أهلى بالحج. ففعلت ووقفت المواقف كلها، حتى إذا طهرت، طافت بالكعبة وبالصفا والمروة، ثم قال: قد حلت من

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٠٢

حجك و عمرتك. قالت: يا رسول الله! إني أجد فى نفسى، أنى لم أطف بالبيت، حتى حججت. قال: فاذهب بها يا عبد الرحمن فأعمرها من التنعيم. وقد تنازع العلماء فى قصة عائشة، هل كانت متمتعة أو مفردة، والصواب أنها كانت متمتعة محرمة بالعمرة فقط. وإذا كانت متمتعة، فهل رفضت عمرتها وانتقلت إلى الأفراد بالحج أو أدخلت عليها الحج وصارت قارئة بإدخاله عليها؟ والصواب

الثاني، و هل العمرة التي أنت بها من التعميم كانت واجبة أو لا؟ و الصحيح أنها كانت نافلة تطيبها لقلبها و جبراً لها. و إلا فطوافها و سعيها وقع عن حجها و عمرتها و كانت متمتعاً، ثم أدخلت الحج على العمرة فصارت قارئة، و اختلفوا هل كان طهرها يوم عرفه أو يوم النحر. و حديث عائشة السابق يؤخذ منه أصول عظيمة من أصول المناسك:

- (١) اكتفاء القارن بطواف واحد و سعى واحد.
 - (٢) سقوط طواف القدوم عن الحائض، كما أن حديث صفيه أصل في سقوط طواف الوداع عنها.
 - (٣) أن إدخال الحج على العمرة جائز كما يجوز للطاهر و أولى المعذورة لأنها محتاجة إلى ذلك.
 - (٤) أن الحائض تفعل أفعال الحج كلها إلا أنها لا تطوف بالبيت.
 - (٥) أن التعميم من الحل.
 - (٦) جواز عمريتين في سنة واحدة بل في شهر واحد.
 - (٧) أن المشروع في حق المتمتع إذا خاف الفوات أن يدخل الحج على العمرة و حديث عائشة أصل فيه.
 - (٨) أنه أصل في العمرة المكية و ليس مع من يستحبها غيره، فإن النبي صلى الله عليه و سلم لم يعتمر هو و لا أحد ممن حج معه من مكة خارجاً منها، إلا عائشة و حدها، فجعل أصحاب العمرة المكية قصة عائشة أصلاً لقولهم و لا دلالة لهم فيها، فإن عمرتها، إما أن تكون قضاء للعمرة المرفوضة عند من يقول: أنها رفضتها، فهي واجبة قضاء لها، أو تكون زيادة محضة و تطيباً لقلبها عند من يقول: أنها كانت قارئة و أن طوافها و سعيها أجزاءها عن حجها و عمرتها، و لنعد إلى سياق حجه صلى الله عليه و سلم.
- فلما كان بسرف قال لأصحابه: من لم يكن معه هدى فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل و من كان معه هدى فلا. و هذه رتبة أخرى، فوق رتبة التخيير، عند

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٠٣

الميقات. فلما كان بمكة أمر أمراً حتماً من لا هدى معه أن يجعلها عمرة و يحل من إحرامه، و من معه هدى أن يقيم على إحرامه، و لم ينسخ ذلك شيء البتة، بل سأله سراقه بن مالك عن هذه العمرة التي أمرهم بالفسخ إليها، هل هي لعامهم ذلك أو للأبد؟ قال: بل للأبد، و أن العمرة قد دخلت في الحج إلى يوم القيامة، و قد روى عنه صلى الله عليه و سلم الأمر بفسخ الحج إلى العمرة أربعة عشر صحابياً و أحاديثهم كلها صحاح (انظر الأحاديث و أعدار المخالفين و الرد عليها في زاد المعاد من ص ٢٠٩ إلى ٢٢٥ ج ١) ثم نهض صلى الله عليه و سلم إلى أن نزل بنى طوى، و هي المعروفة الآن بآبار الزاهر، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة، و صلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه، و نهض إلى مكة فدخلها من أعلاها، من الثنية العليا التي تشرف على الحجون، و كان في العمرة يدخل من أسفلها، و في الحج دخل من أعلاها، و خرج من أسفلها، ثم سار حتى دخل المسجد و ذلك ضحى.

و ذكر الطبراني أنه دخله من باب بنى عبد مناف، الذي يسميه الناس اليوم، باب بنى شيبه، أو باب السلام، ثم استقبل البيت و دعا، و ذكر الطبراني: أنه كان إذا نظر إلى البيت قال: اللهم زد بيتك هذا تشريفاً و تعظيماً و تكريماً و مهابةً. و روى عنه أنه كان عند رؤيته يرفع يديه و يكبر و يقول: اللهم أنت السلام، و منك السلام، حيناً ربنا بالسلام، اللهم زد هذا البيت تشريفاً و تعظيماً و تكريماً و مهابةً، و زد من حجّه أو اعتمره تكريماً و تشريفاً و تعظيماً و براء، و هو مرسل. و لكن سمع هذا سعيد بن المسيب من عمر بن الخطاب، رضی الله عنه، يقوله. فلما دخل المسجد عمد إلى البيت و لم يركع تحية المسجد، فإن تحية المسجد الحرام الطواف.

فلما حاذى الحجر الأسود استلمه و لم يزاحم عليه و لم يتقدم عنه، إلى جهة الركن اليماني، و لم يرفع يديه و لم يقل: نويت بطوافي هذا الأسبوع كذا و كذا. و لا افتتحه بالتكبير كما يكبر للصلاة، كما يفعله من لا علم عنده، بل هو من البدع المنكرات، و لا حاذى الحجر الأسود بجميع بدنه، ثم انفتل عنه و جعله على شقه، بل استقبله و استلمه، ثم أخذ عن يمينه، و جعل البيت عن يساره، و لم يعرف عنه عند الباب، و لا تحت الميزاب، و لا عند ظهر الكعبة و أركانها، و لا وقت الطواف، ذكر معين، لا يفعله و لا بتعليمه بل

حفظ عنه بين الركنين رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. و رمل في طوافه هذا ثلاثة الأشواط الأول، و كان يسرع مشيه و يقارب بين خطاه، و اضطبع بردائه، فجعله على أحد كتفيه، و أبدى كتفه الآخر و منكبه، و كلما حاذى الحجر الأسود، التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٠٤

أشار إليه، و استلمه بمحجنه، و قبل المحجن، و المحجن: عصا محنية الرأس، و ثبت عنه أنه استلم الركن اليماني، و لم يثبت عنه أنه قبله، و لا قبل يده عند استلامه، و لكن ثبت عنه أنه قبل الحجر الأسود، و ثبت عنه أنه استلمه بيده، فوضع يده عليه، ثم قبلها، و ثبت عنه أنه استلمه بمحجن. فهذه ثلاث صفات، و روى عنه أيضا: أنه وضع شفتيه عليه طويلا بيكى. و ذكر الطبراني عنه بإسناد جيد أنه كان إذا استلم الركن اليماني قال: بسم الله و الله أكبر، و كان كلما أتى على الحجر الأسود قال: الله أكبر، و روى عن عمر أنه قبل الحجر و سجد عليه و أن رسول الله صلى الله عليه و سلم فعل ذلك. و روى عن ابن عباس أنه قبل الركن اليماني ثم سجد عليه ثم قبله ثم سجد عليه ثلاث مرات. و لم يستلم صلى الله عليه و سلم و لم يمس من الأركان إلا اليمانيين فقط. فلما فرغ من طوافه جاء إلى خلف المقام فقرأ: وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُضَلًّا فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، و المقام بينه و بين البيت، قرأ فيهما بعد الفاتحة بسورتى الإخلاص، فلما فرغ من صلاته أقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم خرج إلى الصفا من الباب الذى يقابله. فلما قرب منه قرأ: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ أبدأ بما بدأ الله به، و فى روايه ابدأوا على الأمر ثم رقى عليه، حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحد الله و كبره و قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد و هو على كل شىء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك و قال مثل هذا ثلاث مرات.

و قام ابن مسعود على الصيّدع، و هو الشق الذى فى الصفا، فقيل له: ها هنا يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هذا و الذى لا إله غيره مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة.

ذكره البيهقى. ثم نزل إلى المروة يمشى، فلما انصبت قدماه فى بطن الوادى، سعى حتى إذا جاوز الوادى و أصدع مشى - هذا الذى صح عنه فى ذلك اليوم - قبل الميلين الأخضرين فى أول السعى و آخره، و الظاهر أن الوادى لم يتغير عن وضعه. هكذا قال جابر عنه فى صحيح مسلم، و ظاهر هذا أنه كان ماشيا.

و قد روى مسلم فى صحيحه عن ابن الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول:

طاف النبى صلى الله عليه و سلم، فى حجة الوداع، على راحلته بالبيت، و بين الصفا و المروة ليراه الناس، و ليشرف. و لم يطف رسول الله صلى الله عليه و سلم و لا أصحابه بين الصفا و المروة إلا طوافا واحدا، قال ابن حزم: لا تعارض بينهما لأن الراكب إذا انصب به بعيره فقد انصب كله و انصبت قدماه أيضا مع سائر جسده، قال ابن القيم: و عندى وجه آخر للجمع بينهما أحسن من هذا و هو أنه سعى ماشيا أولا، ثم أتم سعيه راكبا،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٠٥

و قد جاء ذلك مصرحا به، ففى صحيح مسلم عن أبى الطفيل قال: قلت لابن عباس أخبرنى عن الطواف بين الصفا و المروة راكبا أسنة هو؟ فإن قومك يزعمون أنه سنة، قال: صدقوا و كذبوا، قال: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم كثر عليه الناس يقولون: هذا محمد، حتى خرج عليه العواتق من البيوت، قال: و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يضرب الناس بين يديه، فلما كثر عليه، ركب و المشى أفضل.

و أما طوافه بالبيت عند قدومه فاختلف فيه، هل كان على قدميه أو كان راكبا؟ و الصحيح أنه طافه على قدميه، لأنه ثبت عنه الزمل فيه، و هو إنما يكون من المشى، و أن الركوب كان فى طواف الإفاضة. و كان صلى الله عليه و سلم إذا وصل إلى المروة، رقى عليها، و استقبل البيت و كبر الله وحده، و فعل كما فعل على الصفا، فلما أكمل سعيه عند المروة، أمر كل من لا هدى معه، أن يحل حتما و لا بد قارنا كان أو مفردا، و أمرهم أن يحلوا الحل كله، من وطء النساء و الطيب و لبس المخيط، و أن يبقوا كذلك إلى يوم التروية، و

لم يحل هو من أجل هديه و هناك قال: لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى و لجعلتها عمرة، و هناك دعا للمحلفين بالمغفرة ثلاثا و للمقصرين مرة و هناك سأله سراقه بن مالك بن جعشم عقيب أمره لهم بالفسخ و الإحلال هل ذلك لعامهم خاصة أو للأبد؟ فقال: بل للأبد. و لم يحل أبو بكر و لا عمر و لا على و لا طلحة و لا الزبير من أجل الهدى، و أما نساؤه صلى الله عليه و سلم فأحللن و كن قارنات إلا عائشة فإنها لم تحل، من أجل تعذر الحل عليها بحيضها، و فاطمة حلت لأنه لم يكن معها هدى، و على، رضى الله عنه، لم يحل من أجل هديه، و أمر من أهل بإهلال كإهلاله صلى الله عليه و سلم أن يقيم على إحرامه، إن كان معه هدى، و أن يحل إن لم يكن معه هدى.

و كان يصلى مدة مقامه بمكة، إلى يوم التروية، بمنزله، الذى هو نازل فيه، بالمسلمين، بظاهر مكة، فأقام، بظاهر مكة، أربعة أيام، يقصر الصلاة يوم الأحد و الاثنين و الثلاثاء و الأربعاء، فلما كان يوم الخميس ضحى توجه بمن معه من المسلمين إلى منى، فأحرم بالحج، من كان أحل منهم من رجالهم، و لم يدخلوا إلى المسجد فأحرموا منه، بل أحرموا و مكة خلف ظهورهم، فلما وصل إلى منى نزل بها و صلى بها الظهر و العصر و بات بها، و كان ليلة الجمعة، فلما طلعت الشمس سار منها إلى عرفه، و أخذ على طريق ضب، على يمين طريق الناس اليوم، و كان من أصحابه الملبى و منهم المكبر و هو يسمع ذلك و لا ينكر على هؤلاء و لا على

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٠٦

هؤلاء، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة بأمره، و هى قرية شرقى عرفات، و هى خراب اليوم، فنزل بها حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت، ثم سار حتى بطن الوادى من أرض عرفه.

فخطب الناس على راحلته، خطبة عظيمة، قرر فيها قواعد الإسلام، و هدم فيها قواعد الشرك و الجاهلية، و قرر فيها تحريم المحرمات، التى اتفقت الملل على تحريمها، و هى: الدماء و الأموال و الأعراض، و وضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه، و وضع فيها ربا الجاهلية كله و أبطله، و أوصاهم بالنساء خيرا، و ذكر الحق الذى لهن و عليهن، و أن الواجب لهن الرزق و الكسوة بالمعروف، و لم يقدر ذلك بتقدير، و أباح للأزواج ضربهن إذا أدخلن إلى بيوتهن من يكرهه أزواجهن، و أوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله، و أخبر أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به ثم أخبرهم أنهم مسؤولون عنه و استنطقهم بما ذا يقولون و بما ذا يشهدون فقالوا: نشهد أنك قد بلغت و أدت و نصحت. فرفع إصبغه إلى السماء و استشهد الله عليهم ثلاث مرات، و أمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم. و سيأتى نص الخطبة فى الكلام على حج الجاهلية، فلما أتمها، أمر بلالا فأذن، ثم أقام الصلاة فصلى الظهر ركعتين، أسرّ فيهما بالقراءة، و كان يوم الجمعة، فدل على أن المسافر لا يصلى جمعة، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضا، و معه أهل مكة، و صلوا بصلاته قصرا و جمعا، بلا ريب، و لم يأمرهم بالإتمام و لا- بترك الجمع و من قال: أنه قال لهم "أتموا صلاتكم فإنما قوم سفر، فقد غلط فيه غلطا بينا، و وهم و هما قبيحا،" و إنما قال لهم ذلك فى غزاة الفتح، بجوف مكة، حيث كانوا فى ديارهم مقيمين.

و لهذا كان أصح أقوال العلماء: أن أهل مكة يقصرون و يجمعون بعرفة كما فعلوا مع النبى صلى الله عليه و سلم، و فى هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يتحدد بمسافة معلومة، و لا بأيام معلومة، و لا تأثير للنسك فى قصر الصلاة البتة، و إنما التأثير لما جعل الله سببا، و هو السفر. هذا مقتضى السنه و لا وجه لما ذهب إليه المحددون.

فلما فرغ من صلاته ركب، حتى أتى الموقف فوقف فى ذيل الجبل، عند الصخرات، و استقبل القبلة، و جعل حبل المشاة بين يديه، و كان على بعيره، فأخذ فى الدعاء و التضرع و الابتهاج، إلى غروب الشمس، و أمر الناس أن يدفعوا عن بطن عرفه و أخبر أن عرفه لا تختص بموقفه ذلك بل قال: وقفت هاهنا و عرفه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٠٧

كلها موقف، و أرسل إلى الناس أن يكونوا على مشاعرهم، و يقفوا بها، فإنها من إرث أبيهم إبراهيم. و كذلك هناك، أقبل ناس من أهل نجد، فسألوه عن الحج، فقال: الحج يوم عرفه من أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج.

أيام منى ثلاثة أيام التشريق فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا - إِنْ تَأَخَّرَ فَلَا - إِنْ تَمَّ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى و كان في دعائه رافعا يده إلى صدره، كاستطعام المسكين، و أخبرهم أن خير الدعاء دعاء يوم عرفة، و ذكر من دعائه صلى الله عليه و سلم في الموقف: اللهم لك الحمد، كالذى نقول، و خيرا مما نقول، اللهم: لك صلاتى و نسكى و محياى و مماتى و إليك مآبى و لك ربى تراثى، اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر، و وسوسة الصدر، و شتات الأمر، اللهم إنى أعوذ بك من شر ما تجيء به الريح. ذكره الترمذى.

و مما ذكر من دعائه هناك: اللهم إنك تسمع كلامى، و ترى مكانى، و تعلم سرى و علانيتى، و لا يخفى عليك شىء من أمرى، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير، و الوجل المشفق المقرّ المعترف بذنوبى، أسألك مسألة المسكين، و أبتهل إليك ابتهاج المذنب الدليل، و أدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبتة، و فاضت لك عيناه، و ذلّ جسده، و رغم أنفه لك، اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا، و كن بى رؤوفا رحима، يا خير المسؤولين و يا خير المعطين. ذكره الطبرانى.

و ذكر الإمام أحمد من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: كان أكثر دعاء النبى صلى الله عليه و سلم يوم عرفة "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد بيده الخير، و هو على كل شىء قدير."

و ذكر البيهقى، من حديث على، رضى الله عنه، أنه صلى الله عليه و سلم قال: أكثر دعائى و دعاء الأنبياء من قبلى بعرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد، و هو على كل شىء قدير.

اللهم اجعل فى قلبى نورا، و فى صدرى نورا، و فى سمعى نورا، و فى بصرى نورا، اللهم اشرح لى صدرى، و يسر لى أمرى، و أعوذ بك من وسواس الصدر، و شتات الأمر، و فتنة القبر، اللهم إنى أعوذ بك من شر ما يلج فى الليل، و شر ما يلج فى النهار، و شر ما تهبّ به الرياح، و شر بوائق الدهر. و أسانيد هذه الأدعية فيها لين، و هناك أنزلت عليه: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٠٨

وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا و هناك سقط رجل من المسلمين عن راحلته، و هو محرم، فمات. فأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يكفن فى ثوبه، و لا- يمس بطيب، و أن يغسل بماء و سدر، و لا يغطى رأسه و لا وجهه. و أخبر أن الله تعالى يبعثه يوم القيامة يلبى. فلما غربت الشمس و استحکم غروبها، بحيث ذهبت الصفرة، أفاض من عرفة، و أردف أسامة بن زيد خلفه، و أفاض بالسكينة، و ضمّ إليه زمام ناقته، حتى إن رأسه ليصيب طرف رحله، و هو يقول: أيها الناس عليكم السكينة، فإن البر ليس بالإيضاع، أى ليس بالإسراع، و أفاض من طريق المأزمين، و دخل عرفة من طريق ضب. و هكذا كانت عادته، صلوات الله و سلامه عليه، فى الأعياد أن يخالف الطريق، ثم جعل يسير العنق، و هو ضرب من السير ليس بالسرير و لا البطيء، فإذا وجد فجوة، و هو المتسع، نصّ سيره أى رفعه، فوق ذلك، و كلما أتى ربوة، من تلك الربا، أرخى للناقّة زمامها قليلا، حتى تصعد، و كان يلبى فى مسيره ذلك لا يقطع التلبية، فلما كان فى أثناء الطريق نزل، صلوات الله و سلامه عليه، فبال و توضأ وضوءا خفيفا، فقال له أسامة:

الصلاة يا رسول الله. فقال: المصلّى أمامك، ثم سار حتى أتى المزدلفة، فتوضأ وضوء الصلاة، ثم أمر المؤذّن بالأذان، فأذن المؤذّن ثم أقام فصلى المغرب، قبل حطّ الرحال، و تبريك الجمال، فلما حطوا رحالهم، أمر فأقيمت الصلاة، ثم صلى العشاء الآخرة، بإقامته بلا أذان، و لم يصل بينهما شيئا، و قد روى أنه صلاهما بأذنين و إقامتين، و روى بإقامتين بلا أذان، و الصحيح أنه صلاهما بأذان و إقامتين، كما فعل بعرفة، ثم نام حتى أصبح، و لم يحيى تلك الليلة و لا صح عنه فى إحياء ليلتى العيدين شىء، و أذن، فى تلك الليلة، لضعة أهله، أن يتقدموا إلى منى، قبل طلوع الفجر، و كان ذلك عند غيبوبة القمر. و أمرهم أن لا يرموا الجمره حتى تطلع الشمس،

فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت، لا قبله، قطعاً بأذان وإقامة يوم النحر، وهو يوم العيد، وهو يوم الحج الأكبر، وهو يوم الأذان ببراءة من الله ورسوله من كل مشرك، ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرع والتكبير والتهليل والذكر، حتى أسفر جداً، وذلك قبل طلوع الشمس، وهنالك سأله عروة بن مضرس الطائي، فقال يا رسول الله: إني جئت من جبلى طيء أكللت راحلتى، وأتعبت نفسى، والله ما تركت من جبل، إلا وقفت عليه، فهل لى من حج؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من شهد صلاتنا هذه، فوقف معنا، حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك، ليلاً أو

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٠٩

نهاراً، فقد تم حجه وقضى تفته. قال الترمذى: حديث حسن صحيح. وبهذا احتج من ذهب إلى أن الوقوف بمزدلفة والمبيت بها ركن كعرفة. وقد وقف صلى الله عليه وسلم في موقفه، وأعلم الناس أن مزدلفة كلها موقف، ثم سار من مزدلفة مردفاً للفضل بن عباس وهو يلبى في مسيره، وانطلق أسامة بن زيد على رجليه، فى سباق قريش، وفى طريقه ذلك أمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات ولم يكسرها، من الجبل تلك الليلة، كما يفعل من لا علم عنده، ولا التقطها بالليل، فالتقط له سبع حصيات من حصى الخذف، فجعل يفضهن فى كفه ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو فى الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين. وفى طريقه تلك، عرضت له امرأة من خثعم جميلة، فسألته عن الحج عن أبيها، وكان شيخاً كبيراً لا يستمسك على الراحلة، فأمرها أن تحج عنه. وجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فوضع يده على وجهه، وصرفه إلى الشق الآخر - وكان الفضل وسيماً - فقيل: صرف وجهه عن نظرها إليه وقيل:

صرفه عن نظره إليها، والصواب أنه فعله للأمرين، فإنه فى القصة جعل ينظر إليها وتنظر إليه، سأله آخر هنالك عن أمه فقال: إنها عجوز كبيرة وإن حملتها لم تستمسك وإن ربطتها خشيت أن أقتلها فقال: رأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيه؟ قال: نعم. قال: فحج عن أمك. فلما أتى بطن محسر، حرّك ناقته، وأسرع السير، وهذه كانت عادته فى المواضع التى نزل فيها بأس الله بأعدائه، فإن هنالك أصاب أصحاب الفيل ما قص الله علينا، ولذلك سمي ذلك الوادى وادى محسر، لأن الفيل حسر فيه، أى أعيب وانقطع عن الذهاب، وكذلك فعل فى سلوكه الحجر، وديار ثمود، فإنه تقنّع بثوبه وأسرع السير، و"محسر" برزخ بين منى وبين مزدلفة لا من هذه ولا من هذه و"عرنة" برزخ بين عرفة والمشعر الحرام، فبين كل مشعرين برزخ ليس منهما، فمنى من الحرم وهى مشعر، ومحسر من الحرم وليس بمشعر، ومزدلفة: حرم ومشعر، وعرنة ليست مشعراً ولا حرماً، وعرفة: حلّ ومشعر. وسلك صلى الله عليه وسلم، الطريق الوسطى، بين الطريقتين، وهى التى تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى منى، فأتى جمرة العقبة، فوقف، فى أسفل الوادى، وجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه، واستقبل الجمرة وهو على راحلته، فرماها راكباً بعد طلوع الشمس، واحداً بعد واحداً، يكبر مع كل حصاة، وحينئذ قطع التلبية. وكان فى مسيره ذلك يلبى حتى شرع فى الرمى، ورمى وبلال وأسامة معه، أحدهما أخذ بخطام ناقته، والآخر يظله بثوب من

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣١٠

الحرم، وفى هذا دليل على جواز استئلال المحرم بالمحمل ونحوه، إن كانت قصة هذا الإضلال فى يوم النحر ثابتة، وإن كانت بعده فى أيام منى، فلا حجة فيها. وليس فى الحديث بيان أى زمان كانت والله أعلم.

ثم رجع إلى منى، فخطب الناس خطبةً بليغة، أعلمهم فيها بحرمه يوم النحر وتحريمه وفضله عند الله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، وقال: لعلى لا -أحج بعد عامى هذا. وعلمهم مناسكهم، وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم، وأمر الناس أن لا يرجعوا بعده كفاراً، يضرب بعضهم رقاب بعض، وأمر بالتبليغ عنه، وأخبر أنه، رب مبلغ أوعى من سامع، وقال فى خطبته: لا يجنى جان إلا على نفسه، وأنزل المهاجرين عن يمين القبلة، والأنصار عن يسارها، والناس حولهم، وفتح الله له أسماع الناس، حتى سمعها أهل منى فى منازلهم، وقال فى خطبته تلك: اعبدوا ربكم، وصلوا

خمسكم، و صوموا شهركم، و أطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنه ربكم، و ودّع حينئذ الناس، فقالوا: حجة الوداع. و هناك سئل عن حلق قبل أن يرمى، فقال: لا حرج، قال عبد الله بن عمر: ما رأيته سئل صلى الله عليه و سلم يومئذ عن شيء إلا قال: افعلوا و لا حرج، قال ابن عباس: إنه قيل له صلى الله عليه و سلم في الذبح و الحلق و الرمي و التقديم و التأخير قال: لا حرج، و قال أسامة بن شريك: خرجت مع النبي صلى الله عليه و سلم حاجا و كان الناس يأتونه فمن قائل يا رسول الله! سعيت قبل أن أطوف أو أخرت شيئا و قدّمت فكان يقول: لا حرج لا حرج، إلا على رجل اعترض عرض رجل مسلم، و هو ظالم، فذلك الذي حرج و هلك، و قوله: سعيت قبل أن أطوف في هذا الحديث ليس بمحفوظ- و المحفوظ: تقديم الرمي و النحر و الحلق بعضها على بعض، ثم انصرف إلى المنحر بمنى، فنحر ثلاثا و ستين بدنه، بيده، و كان ينحرها قائمة معقولة يدها اليسرى، و كان عدد هذا الذي نحره، عدد سني عمره، ثم أمسك، و أمر عليا أن ينحر ما بقي من المائة، ثم أمر عليا، رضي الله عنه، أن يتصدق بجلالها و لحومها و جلودها في المساكين، و أمره أن لا يعطى الجزار في جزارته شيئا منها، و قال: نحن نعطيهم من عندنا، و قال: من شاء اقتطع. و قد نحر صلى الله عليه و سلم بمنحره بمنى، و أعلمهم أن منى كلها منحر، و أن فجاج مكة طريق و منحر، و في هذا دليل، على أن النحر لا يختص بمنى، بل حيث نحر من فجاج مكة أجزأه. كما أنه لما وقف بعرفة، قال: وقفت هاهنا و عرفة كلها موقف، و لما وقف بمزدلفة قال: وقفت هاهنا و مزدلفة كلها موقف. و سئل صلى الله عليه و سلم أن يبني له بناء يظله

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣١١

من الحر؟ فقال: لا، منى مناخ لمن سبق إليه. و في هذا دليل على اشتراك المسلمين فيها، و أن من سبق إلى مكان فهو أحق به، حتى يرتحل عنه، و لا يملكه بذلك.

فلما أكمل رسول الله صلى الله عليه و سلم نحره، استدعى بالحلاق، فحلق رأسه. فقال للحلاق، و هو معمر بن عبد الله، و هو قائم على رأسه بالموسى، و نظر في وجهه و قال: يا معمر! أمكنك رسول الله صلى الله عليه و سلم من شحمة أذنه و في يدك الموسى. فقال معمر: أما و الله يا رسول الله إن ذلك لمن نعمة الله عليّ، و منّه، قال: أجل.

و قال صلى الله عليه و سلم للحلاق: خذ، و أشار إلى جانبه الأيمن، فلما فرغ منه، قسم شعره بين من يليه، ثم أشار إلى الحلاق فحلق جانبه الأيسر، ثم قال: هاهنا أبو طلحة فدفعه إليه، هكذا وقع في صحيح مسلم. و قد دعا صلى الله عليه و سلم للمحلقين بالمغفرة، ثلاثا و للمقصرين مرة، و حلق كثير من الصحابة بل أكثرهم، و قصّير بعضهم. و هذا مع قوله تعالى: لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسِهِمْ وَمُقَصِّرِينَ و مع قول عائشة، رضي الله عنها، طيبت رسول الله، لإحرامه قبل أن يحرم، و لإحلاله قبل أن يحل، دليل على أن الحلق نسك و ليس بإطلاق من محظورات الإحرام.

ثم أفاض صلى الله عليه و سلم إلى مكة، قبل الظهر، راكبا، فطاف طواف الإفاضة، و هو طواف الزيارة، و هو طواف الصدر. و لم يطف غيره، و لم يسع معه. هذا هو الصواب، و قد خالف في ذلك ثلاث طوائف: طائفة زعمت أنه طاف طوافين:

طوفا للقدوم سوى طواف الإفاضة، ثم طاف للإفاضة، و طائفة زعمت أنه سعى مع هذا الطواف لكونه قارنا، و طائفة زعمت أنه لم يطف في ذلك اليوم و إنما أخر طواف الزيارة إلى الليل. - و قد بين ابن القيم منشأ هذه الأقوال و خطأها في كتابه زاد المعاد من ص ٢٣٩ إلى ٢٤٢- و لم يرمل صلى الله عليه و سلم في هذا الطواف، و لا في طواف الوداع، و إنما رمل في طواف القدوم، ثم أتى زمزم بعد أن قضى طوافه و هم يسقون، فقال: لو لا أن يغلبكم الناس لنزلت فسقيت معكم. ثم ناولوه الدلو فشرب و هو قائم فقيل: هذا نسخ لنيه عن الشرب قائما، و قيل: بل بيان منه لأن النهي على وجه الاختيار و ترك الأولى و قيل: بل للحاجة و هذا أظهر. و هل كان في طوافه هذا راكبا أو ماشيا؟ و اختلف أين صلى الله عليه و سلم الظهر يومئذ؟ ففي الصحيحين عن ابن عمر أنه صلى الله عليه و سلم أفاض يوم النحر، ثم رجع فصلى الظهر بمنى، و في صحيح مسلم عن جابر، أنه صلى الله عليه و سلم صلى الظهر بمكة، و كذلك قالت عائشة:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣١٢

وقد رُجِحَ جماعة قول عائشة و جابر و رجح آخرون قول ابن عمر رضى الله عنه أنظر وجوه الترجيح زاد المعاد أول ص ٢٤٣. وقد طافت عائشة في ذلك اليوم طوافا واحدا، وسعت سعيها واحدا، أجزأها عن حجها و عمرتها، و طافت صفيئة ذلك اليوم، ثم حاضت فأجزأها طوافها ذلك عن طواف الوداع، و لم تودع فاستقرت سنته صلى الله عليه و سلم في المرأة الطاهرة، إذا حاضت قبل الطواف أن تقرن و تكتفى بطواف واحد و سعى واحد، و إن حاضت بعد طواف الإفاضة اجتزأت به عن طواف الوداع. ثم رجع صلى الله عليه و سلم إلى منى من يومه ذلك، فبات بها فلما أصبح انتظر زوال الشمس، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار، و لم يركب فبدأ بالجمرة الأولى، التي تلى مسجد الخيف، فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة، يقول مع كل حصاة: الله أكبر. ثم يقدم على الجمرة أمامها حتى أسهل، فقام مستقبل القبلة، ثم رفع يديه، و دعا دعاء طويلا، بقدر سورة البقرة، ثم أتى إلى الجمرة الوسطى، فرماها كذلك، ثم انحدر ذات اليسار، مما يلي الوادي، فوقف مستقبل القبلة رافعا يديه يدعو قريبا من وقوفه الأول، ثم أتى الجمرة الثالثة و هي جمرة العقبة، فاستبطن الوادي، و استعرض الجمرة، فجعل البيت عن يساره و منى عن يمينه، و استقبل البيت وقت الرمي كما ذكره غير واحد من الفقهاء، فلما أكمل الرمي رجع من فورهِ و لم يقف عندها فقيل: لضيق المكان بالجبل و قيل و هو أصح: أن دعاءه كان في نفس العبادة، قبل الفراغ منها، فلما رمى جمرة العقبة فرغ الرمي، و الدعاء في صلب العبادة، قبل الفراغ منها، أفضل منه بعد الفراغ منها. و يغلب على الظن أنه كان يرمى قبل الصلاة ثم يرجع فيصلي.

و مما تقدم، تعلم أن حجة النبي صلى الله عليه و سلم، تضمنت ست وقفات للدعاء: الموقف الأول على الصفا، و الثاني على المروة، و الثالث بعرفة، و الرابع بمزدلفة، و الخامس عند الجمرة الأولى، و السادس عند الجمرة الثانية.

و خطب صلى الله عليه و سلم الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النحر و قد تقدمت، و الخطبة الثانية في أوسط أيام التشريق فقيل: هو ثاني يوم النحر و هو أوسطها، أي خيارها، و احتج لذلك بحديث سري بنت نهبان قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول:

أتدرون أي يوم هذا؟ قالت: و هو اليوم الذي تدعون يوم الرؤوس. قالوا: الله و رسوله أعلم، قال: هذا وسط أيام التشريق، هل تدرون أي بلد هذا؟ قالوا: الله و رسوله أعلم، قال: هذا المشعر الحرام. ثم قال: إني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣١٣

هذا، ألا- و إن دماءكم و أموالكم و أعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا- فليبلغ أدناكم أقصاكم ألا هل بلغت. فلما قدمنا المدينة، لم يلبث إلا قليلا، حتى مات صلى الله عليه و سلم. رواه أبو داود.

و يوم الرؤوس هو ثاني يوم النحر بالاتفاق. و استأذنه العباس بن عبد المطلب أن يبني بمكة ليالي منى من أجل سقايته فأذن له، و استأذنه رعاء الإبل في البيوت، خارج منى، عند الإبل، فأرخص لهم، أن يرموا يوم النحر ثم يجمعوا رمي يومين، بعد يوم النحر، يرمونه في أحدهما، قال مالك: ظننت أنه قال في أول يوم منهما ثم يرمون يوم النحر، و قال ابن عيينة: في هذا الحديث رخص للرعاء أن يرموا يوما، و يدعوا يوما، فيجوز للطائفتين بالسنة ترك المبيت بمنى.

و أما الرمي فإنهم لا- يتركونه بل لهم أن يؤخروه إلى الليل، فيرمون فيه، و لهم أن يجمعوا رمي يومين في يوم، و إذا كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد رخص لأهل السقاية و للرعاء في البيوت، فمن له مال يخاف ضياعه أو مريض يخاف من تخلفه عنه، أو كان مريضا لا تمكنه البيوت، سقطت عنه، بتنبه النص على هؤلاء. و لم يتعجل صلى الله عليه و سلم في يومين، بل تأخر، حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة، و أفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر، إلى المحصب، و هو الأبطح، و هو خيف بنى كنانة، فوجد أبا رافع قد ضرب فيه قبته هنالك، و كان على ثقله توفيقا من الله عز و جل، دون أن يأمره به صلى الله عليه و سلم، فصلى الظهر و العصر و المغرب و

العشاء، و رقد رقدته ثم نهض إلى مكة، فطاف للوداع ليلا- سحرا، و لم يرمل في هذا الطواف، و أخبرته صفيية أنها حائض، فقال: أحابستنا هي؟ فقالوا له: إنها قد أفاضت، قال: فلننفر إذا، و رغبت إليه عائشة تلك الليلة أن يعمرها عمرة مفردة فأخبرها أن طوافها بالبيت و بالصفاء و المروة قد أجزأها عن حجها و عمرتها، فأبت إلا أن تعتمر عمرة مفردة، فأمر أخاها أن يعمرها من التعميم، ففرغت من عمرتها ليلا، ثم وافت المحصب مع أخيها، فأتيا في جوف الليل، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: فرغتما؟ قالت: نعم، فنأدى بالرحيل في أصحابه، فارتحل الناس ثم طاف بالبيت، قبل صلاة الصبح، و قد اختلف في التحصيب أسنّه هو أو منزل اتفاق على قولين. و هاهنا ثلاث مسائل:

هل دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم البيت في حجته أم لا؟ و هل وقف بالملتزم أو لا؟ و هل صلى الصبح ليلة الوداع بمكة أو خارجا عنها؟ و الذي تدل عليه سنّته أنه لم يدخل التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣١٤

البيت في حجته و لا في عمرته و إنما دخله عام الفتح، و أنه لم يقف بالملتزم إلا عام الفتح و أنه صلى صلاة الصبح بمكة عند البيت، و سمعته أم سلمة يقرأ فيها بالطور، ثم ارتحل صلى الله عليه و سلم راجعا إلى المدينة. فلما كان بالروحاء لقي ركبا فسلم عليهم و قال: من القوم؟ فقالوا: المسلمون. فمن القوم؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه و سلم، فرفعت امرأة صبيبا لها من محفة فقالت: يا رسول الله ألهذا حج؟ قال: نعم و لك أجر، فلما أتى ذا الحليفة بات بها، فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات و قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد، و هو على كل شيء قدير، آيون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، و نصر عبده، و هزم الأحزاب وحده، ثم دخلها نهارا من طريق المعرس، و خرج من طريق الشجرة.

هديه صلى الله عليه و سلم في الهدايا: أهدى رسول الله صلى الله عليه و سلم الغنم، و أهدى الإبل، و أهدى عن نساءه البقر، و أهدى في مقامه و في عمرته و في حجته. و كانت سنّته تقليد الغنم دون إشعارها، و كان إذا بعث بهديه و هو مقيم و لم يحرم عليه شيء كان منه حالالا. و كان، إذا أهدى الإبل، قلدها و أشعرها، فيشق صفحة سنامها اليمنى يسيرا حتى يسيل منها الدم. قال الشافعي، رضى الله عنه: و الإشعار في الصفحة اليمنى، كذلك أشعر النبي صلى الله عليه و سلم و كان إذا بعث بهديه أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم رسوله، إذا أشرف على عطب شيء منه، أن ينحره ثم يصبغ نعله في دمه، ثم يجعله على صفحته، و لا يأكل منه هو و لا أحد من رفقته، ثم يقسم لحمه. و منعه من هذا الأكل سدا للذريعة، فإنه لعله ربما قصر في حفظه، ليشارف العطب فينحره و يأكل منه، فإذا علم أنه لا يأكل منه شيئا اجتهد في حفظه، و شرك بين أصحابه في الهدى، فالبدنة عن سبع و البقرة كذلك، و أباح لسائق الهدى ركوبه بالمعروف إذا احتاج إليه، حتى يجد ظهرا غيره، و قال علي، رضى الله عنه: يشرب من لبنها ما فضل عن ولدها.

و كان هديه صلى الله عليه و سلم نحر الإبل قياما، مقيدة معقولة اليسرى على ثلاث، و كان يسمي الله عند نحره، و يكبر، و كان يذبح نسكه بيده، و ربما و كل في بعضه، كما أمر عليا، رضى الله عنه، أن يذبح ما بقي من المائة. و كان إذا نحر الغنم وضع قدمه على صفائحها، ثم سمي و كبر و نحر، و قد تقدم أنه نحر بمنى و قال: إن فجاج مكة كلها منحر، و قال ابن عباس: مناخر البدن بمكة و لكنها نزهت عن الدماء و منى من مكة، و كان ابن عباس ينحر بمكة. و أباح صلى الله عليه و سلم أن يأكلوا من هداياهم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣١٥

و ضحاياهم، و يتزودوا منها، و نهاهم مرة أن يدخروا منها بعد ثلاث، لدافئة دقت عليهم ذلك العام من الناس، فأحب أن يوسعوا عليهم. و روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال في حجة الوداع لثوبان: أصلح هذا اللحم، قال: فأصلحته فلم يزل يأكل منه حتى بلغ المدينة، و كان ربما قسم لحوم الهدى، و ربما، قال: من شاء اقتطع فعل هذا و فعل هذا، و كان من هديه صلى الله عليه و سلم ذبح هدى العمرة عند المروة، و هدى القران بمنى، و كذلك كان ابن عمر يفعل. و لم ينحر هديه صلى الله عليه و سلم قط إلا بعد أن حل و لم ينحره قبل يوم النحر و لا أحد من الصحابة البتة، و لم ينحره أيضا إلا بعد طلوع الشمس و بعد الرمي، فهي أربعة أمور مرتبة

يوم النحر: أولها الرمي ثم النحر ثم الحلق ثم الطواف، و هكذا رتبها صلى الله عليه وسلم ولم يرخص في النحر قبل طلوع الشمس البتة، ولا ريب أن ذلك مخالف لهديه، فحكمه حكم الأضحى إذا ذبحت قبل طلوع الشمس فإنها لا تجزئ. انتهى من كتاب مرآة الحرمين.

ثم ذكر صاحب "مرآة الحرمين" شيئاً من أحكام الحج على المذاهب الأربعة ولم نر نقل ذلك حتى لا يطول بنا الكلام، فإن ذلك من اختصاص كتب الفقه.

ما في حجة الوداع من المعاني الجليلة

إن في حجة الوداع معاني جليلة و أمورا دقيقة، تظهر للمتأمل المتفكر من أولى الأبواب، فمنها: أنه في يوم عرفه من حجة الوداع، نزلت هذه الآية الجليلة، التي في أول سورة المائدة، وهي قوله تعالى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا.**

فقد نزلت هذه الآية الكريمة في يوم جمعة، وكان يوم عرفه، بعد العصر، في حجة الوداع، سنة عشر من الهجرة، و رسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة، على ناقته العضاء، فكاد عضد الناقة ينقذ من ثقلها فبركت.

روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال:

يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تفرؤونها، لو علينا أنزلت، معشر اليهود، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: و أى آية؟ قال: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا.** فقال عمر: إنى لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه، نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة في يوم جمعة، لفظ مسلم و عند النسائي "ليلة الجمعة" نقلنا هذه الرواية من تفسير القرطبي.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣١٦

و لا يخفى، أن هذه الآية الكريمة، أعظم بشارة و أكبر فرح للمسلمين، لاشتمالها على ثلاث مسائل، كل واحدة أعظم من أختها، كما هي ظاهرة من منطوق الآية:

(١) أن الله تعالى قد أكمل لنا ديننا الحنيف.

(٢) قد أتم علينا نعمته من جميع الوجوه.

(٣) قد اختار لنا بنفسه دين الإسلام القويم، كل ذلك بمحض فضله و رحمته.

و لما جرت العادة أن البشائر الكبرى، و الأخبار المهمة العمومية، تكون بالإعلان عنها على رؤوس الأشهاد، بشتى الطرق و الوسائل، تكرم الله عز و شأنه أن يكون نزول هذه الآية الجليلة في يوم عرفه، لاجتماع كافة المسلمين فيه، و حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم، لينتشر ذلك فيهم بسرعة البرق، فيعم البشر و السرور و الفرح و الحبور للمسلمين جميعاً في وقت واحد.

و يفهم من هذه الآية قرب انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الدار الآخرة، فما دام الدين الإسلامى قد كمل و أدى النبى رسالته للناس و بلغهم ما أنزل إليه، فليلحق بالرفيق الأعلى، و ليسترح من تعب الدنيا.

و فى نزول هذه الآية الكريمة حكمه كبرى، و هى اطمئنان المسلمين إلى أن دينهم قد كمل فلا يحتاج إلى زيادة شىء، فلو لم تنزل هذه الآية، و مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لخطر فى البال و جال فى الصدور: أن دين الإسلام ربما لم يكمل، و أنه لو لم يمت صلى الله عليه وسلم لتوالى نزول الآيات القرآنية، و ازدادت أحكام الديانة الإسلامية، فلهذه الآية الجليلة موقع عظيم، و معنى دقيق لا يغيب على ذوى الأبواب. اهـ.

هذا و إن فى حجة الوداع معاني جليلة، و مسائل دقيقة، كما فيها أمور مهمة واضحة، و الباحث عنها فى كتب الفقه و الحديث و التاريخ يجد فيها كثيراً من المسائل الدينية، و الأمور الاجتماعية، و الإنسانية الكاملة، من يوم خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة

إلى يوم رجوعه إليها من حجته هذه.

ولقد كان من معجزاته صلى الله عليه وسلم، وما أكثرها، أن خطبته البليغة الجامعة، في يوم النحر في هذه الحجّة، كان الناس يسمعونها وهم في منازلهم وأماكنهم. فقد روى أبو داود والنسائي، عن عبد الرحمن بن معاذ التيمي، قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بمنى، ففتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣١٧

خطبة حجة الوداع

اعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب في حجته في عرفات، وذلك أنه بعد أن زالت الشمس، خرج من قبته، التي ضربت له بنمرة، فركب ناقته القصواء، و سار حتى أتى بطن الوادي، من أرض عرنة (بالنون)، فخطب الناس وهو على راحلته خطبةً بليغة عظيمة، فلما أتمها أمر بلالا فأذن ثم أقام الصلاة فصلى الظهر ركعتين، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضاً، ومعه أهل مكة، وصلوا بصلاته قصرًا وجمعًا ولم يأمرهم بالإتمام ولا بترك الجمع.

فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف فوقف على بعيره في محل مسجد الصخرات بقرب جبل الرحمة وأخذ في الابتهاج والتضرع والدعاء إلى غروب الشمس.

فلما غربت الشمس، غروبًا تامًا، أفاض عليه الصلاة والسلام، من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه، وأفاض بالسكينة، وضم إليه زمام ناقته، حتى إن رأسه ليصيب طرف رحله، وهو يقول: "أيها الناس عليكم السكينة فإن البر ليس بالإيضاع - أي ليس بالإسراع -". فلما كان في أثناء الطريق، نزل صلى الله عليه وسلم، فبال وتوضأ وضوءًا خفيفًا، فقال له أسامة: الصلاة يا رسول الله فقال: المصلي أمامك، ثم سار حتى أتى الزدلفة، فتوضأ وضوء الصلاة، ثم أمر المؤذن بالأذان، فأذن المؤذن ثم أقام فصلى المغرب، قبل حط الرحال وتبريك الجمال، فلما حطوا رحالهم أمر فأقيمت الصلاة، ثم صلى العشاء الآخرة بإقامة بلا أذان، ولم يصل بينهما شيئًا. وقد روى أنه صلاهما بأذنين وإقامتين، وروى بإقامتين بلا أذان، والصحيح أنه صلاهما بأذان وإقامتين كما فعل بعرفة، ثم نام، فلما طلع الفجر، صلى الصبح بأذان وإقامة، وهو يوم عيد الأضحى، يوم الحج الأكبر، ثم ركب ناقته القصواء حتى أتى المشعر الحرام، وهو موضع معروف بمزدلفة، فاستقبل القبلة، وأخذ في الدعاء والتضرع والتهليل والتكبير والذكر حتى أسفر جدا.

والظاهر والله تعالى أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخطب بمزدلفة لضيق الوقت ولكونه ليلاً، والناس مشغولون بحط الرحال والنوم، حين الوصول إليها من عرفة بعد العشاء، أي في نحو الساعة الثانية العربية، ومشغولون بشد الرحال إلى منى بعد صلاة الصبح، فليست هنالك فرصة للخطبة، ولكنه لما وقف بالمشعر الحرام وهو

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣١٨

جبل قرح للدعاء والذكر قال: "هذا قرح وهو الموقف وجمع كلها موقف" ويعنى بجمع المزدلفة فهو اسم لها.

فلما أسفر الصبح وظهر الضياء بحيث ترى الإبل مواضع خفافها، سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منى، وأردف الفضل بن عباس خلفه، وهو يلي في مسيره، وانطلق أسامة بن زيد على رجليه في سباق قريش، وفي طريقه ذلك أمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار، سبع حصيات، ولم يكسرها من الجبل، ولا التقطها ليلاً.

فلما وصل إلى منى، أتى جمره العقبة، فوقف في أسفل الوادي، وجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه (أي استقبل وجه الجمره والجبل الذي كان خلفها) فرماها وهو على راحلته بعد طلوع الشمس يكبر مع كل حصاة.

ثم إنه صلى الله عليه وسلم رجع إلى منى، فخطب الناس خطبةً بليغة، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر، وحرمة مكة، وعلمهم مناسكهم وفتح الله له أسماع الناس، حتى سمعوا خطبته وهم في منازلهم، وودّع حينئذ الناس فقالوا حجة الوداع.

وقد خطب صلى الله عليه وسلم بمنى خطبتين: إحداهما يوم النحر، والثانية في أوسط أيام التشريق أى ثانى يوم النحر. وفى حجته ست وقفات للدعاء:

(١) على الصفا، (٢) وعلى المروة، (٣) و بعرفات، (٤) و بمزدلفة، (٥) و عند الجمره الأولى، (٦) و عند الجمره الثانية.

ولقد ذكر صاحب "مرآة الحرمين" خطبة حجة الوداع بصحيفة ٣١٨ من الجزء الأول فقال: فلما كانت سنة عشر أذن الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم فى الحج، فحج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، التى أسلفنا لك تفصيلها، وخطب خطبته المشهورة بعرفة، و ذكر فيها النسى و أبطله، و لما تضمنته هذه الخطبة من الشرائع الحكيمه و النصائح القيمه نوردها لك بنصها و فصها كما رواها ابن هشام فى سيرته و هى:

"الحمد لله نعمده و نستعينه و نستغفره و نتوب إليه و نعوذ به من شرور أنفسنا، و من سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له و من يضل فلا هادى له، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدا عبده و رسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، و أحثكم على طاعته، و أستفتح بالذى هو خير، أيها الناس، اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم، بعد عامى هذا،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣١٩

بهذا الموقف أبدا، أيها الناس إن دماءكم و أموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا و كحرمة شهركم هذا، و إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، و قد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، و إن كل ربا موضوع، و لكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون و لا تظلمون. قضى الله أنه لا ربا و أن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، و أن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، و أن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب- و كان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل- فهو أول ما أبدا به من دماء الجاهلية.

أما بعد: أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، و لكنه إن يطع فيما سوى ذلك، فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، أيها الناس إن النسى زيادة فى الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونهم عاما و يحرمونه عاما، ليواطؤوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله و يحرموا ما أحل الله، و إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات و الأرض، و إن عدة الشهور عند الله اثنا عشره شهرا، منها أربعة حرم ثلاث متواليه و رجب مضر الذى بين جمادى و شعبان.

أما بعد: أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا و لهن عليكم حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، و عليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينه، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع، و تضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن و كسوتهن بالمعروف، و استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان لا يمكن لأنفسهن شيئا، و إنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، و استحلتتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت. و قد تركت فيكم، ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا: كتاب الله و سنة نبيه. أيها الناس اسمعوا قولى و اعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم و أن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا- ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت. فذكر لى أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اشهد."

قال ابن إسحاق: حدثنى ليث بن أبى سليم، عن شهر بن حوشب الأشعري، عن عمرو بن خارجة، قال: بعثنى عتاب بن أسيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة، و رسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة فبلغته، ثم وقفت تحت ناقه رسول الله صلى الله عليه وسلم، و إن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٢٠

لغامها ليقع على رأسى، فسمعتة و هو يقول: أيها الناس إن الله قد أدى إلى كل ذى حق حقه و إنه لا تجوز وصية لوارث، و الولد

للفراش و للعاهر الحجر، و من ادعى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا و لا عدلا. انتهى من الجزء الأول من كتاب "مرآة الحرمين".

و ما ورد في هذه الخطبة، من قوله صلى الله عليه و سلم: و إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات و الأرض ... إلى آخر السطرين، هذه الجملة وردت في الصحيحين و هي أول حديث طويل أحببنا ذكره لما فيه من الفوائد، ففي البخارى أوله "الزمان قد استدار ... إلخ" و فى مسلم "إن الزمان قد استدار ... إلخ" و إليك نص الحديث:

"الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات و الأرض، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم و رجب مضر، الذى بين جمادى و شعبان، أى شهر هذا؟ قلنا الله و رسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى. قال: فأى بلد هذا؟

قلنا: الله و رسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى. قال: فأى يوم هذا؟ قلنا: الله و رسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى. قال: فإن دماءكم و أموالكم و أعراضكم عليكم حرام، كحرمه يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، و ستلقون ربكم فىسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا- ليلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، ثم قال: ألا- هل بلغت مرتين." رواه البخارى و مسلم عن أبى بكره، رضى الله عنه.

وقفة الجمعة بعرفات

اعلم أن وقفة الجمعة لها مزية على غيرها لأن الأعمال تشرف بشرف الزمان، كما تشرف بشرف المكان، و يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع فيكون العمل فيه أفضل فقد ورد "إذا كان يوم عرفه يوم جمعة غفر الله لجميع أهل الموقف" و ورد أيضا "أفضل الأيام يوم عرفه، و إذا وافق يوم جمعة فهو أفضل من سبعين حجة فى غير يوم الجمعة" أخرجه رزين.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٢١

و قال عليه الصلاة و السلام: "إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم و هو قائم يصلى يسأل الله تعالى فيها خيرا إلا أعطاه إياه" رواه مسلم و أحمد و غيرهما.

و قد كانت وقفته صلى الله عليه و سلم فى حجة الوداع يوم الجمعة، لأن الله تعالى إنما يختار له الأفضل و لهذا اشتهر وصف الحج بالأكبر إذا كانت الوقفة يوم الجمعة. انتهى من كتابنا "إرشاد الزمرة لمناسك الحج و العمرة."

هذا و من المستحسن المرغوب أن نذكر السنوات التى حصلت فيها وقفة عرفات بيوم الجمعة كما بينها و أحصاها صديقنا الفاضل السيد هاشم نحاس فى رسالته المسماة "فوائد فى أداء نسك الحج و العمرة" و إليك بيانها فى هذا الجدول مع بيان الوقفة فى الأيام الأخرى اعتبارا من عام (١٣٤٩) ألف و ثلاثمائة و تسعة و أربعين هجرية إلى غاية عام (١٣٨٣) ألف و ثلاثمائة و ثلاثة و ثمانين هجرية، كما ذكره صديقنا المذكور فى الرسالة المذكورة و هو هذا البيان:

أيام الوقوف الأعوام

يوم الجمعة فى الأعوام الآتية: ١٣٥٠ و ١٣٥٨ و ١٣٦٣ و ١٣٧١ و ١٣٧٤ و ١٣٧٩ و ١٣٨٢

يوم السبت فى الأعوام الآتية: ١٣٥٥ و ١٣٦٠ و ١٣٦٥

يوم الأحد فى الأعوام الآتية: ١٣٥٢ و ١٣٦٨ و ١٣٧٣ و ١٣٧٦ و ١٣٨١

يوم الاثنين فى الأعوام الآتية: ١٣٤٩ و ١٣٥٧ و ١٣٦٢ و ١٣٧٨

يوم الثلاثاء فى الأعوام الآتية: ١٣٥١ و ١٣٥٤ و ١٣٥٩ و ١٣٦٧ و ١٣٧٠ و ١٣٧٥ و ١٣٨٠ و ١٣٨٣

يوم الأربعاء في الأعوام الآتية: ١٣٥٦ و ١٣٦٤ و ١٣٧٢

يوم الخميس في الأعوام الآتية: ١٣٥٣ و ١٣٦١ و ١٣٦٦ و ١٣٦٩ و ١٣٧٧

هذا ما أحصينا من أيام الوقوف بعرفات في مدى ربع قرن من عصرنا و لم نر أحدا ذكر من ذلك شيئا غير صديقنا السيد هاشم نحاس، جزاه الله تعالى خير الجزاء، و قد علمت مما تقدم أن وقفه رسول الله صلى الله عليه و سلم في حجة الوداع بعرفات كانت يوم الجمعة، و ربما كانت معرفة أيام الوقوف بعرفات ميسورا لدى الباحث عن طريق المحاكم الشرعية، لأنها تتحرى ثبوت هلال ذى الحجة شرعيا في كل عام. و الله الموفق للصواب و إليه المرجع و المآب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٢٢

ذهاب النبي صلى الله عليه و سلم من منى إلى عرفات عن طريق ضب ثم رجوعه منها من طريق المأزمين

لقد ذهب رسول الله صلى الله عليه و سلم في حجة الوداع من منى إلى عرفات عن طريق ضب، و هو يبدأ من مزدلفة إلى حدود عرفات بمعنى أنه صلى الله عليه و سلم خرج من موضع نزوله بمنى، من وسطها في خط مستقيم، إلى أن وصل إلى مزدلفة، فجعل موضع مسجدها اليوم عن يساره فمر مستقيما، حتى وصل إلى عرفات، و هذا هو طريق ضب.

و بعد الوقوف بها و غروب الشمس من ذلك اليوم دفع من عرفات إلى مزدلفة في خط مستقيم جاعلا موضع مسجد نمرة على يساره، فمر عن طريق المأزمين.

و يبدأ هذا الطريق من بعد بستان عرفه الذي يعرف بستان "عين زبيدة" و هذا البستان قبيل مسجد نمرة بقليل للذهاب إلى عرفات، إن هذا البستان يقع في أواخر الحرم بينه و بين مسجد نمرة نحو مائتي متر و من هذا البستان تظهر عرفات. و معنى المأزم المضيق بين الجبلين فيكون طول المأزمين من بعد مسجد نمرة بقليل إلى أول حدود مزدلفة.

قال في مختار الصحاح: "و المأزم المضيق و كل طريق بين جبلين مأزم، و موضع الحرب أيضا مأزم، و منه سمي الموضع الذي بين المشعر و بين عرفه مأزمين، الأصمعي المأزم في سند مضيق بين جمع و عرفه و في الحديث: "بين المأزمين" انتهى منه.

و اعلم بأن المسافة من جمرة العقبة إلى نهاية وادي محسر (٣٥٢٨) مترا، و من نهاية وادي محسر إلى أول المأزمين (٣٨١٢) مترا، و من أول المأزمين إلى علمي الحرم من جهة عرفه (٤٣٧٢) مترا.

فرسول الله صلى الله عليه و سلم ذهب إلى عرفات من طريق ضب و رجع منها عن طريق المأزمين، فعل هذا كفعله حين ذهابه إلى صلاة العيد من طريق و رجوعه منها عن طريق آخر، و ذلك ترويحاً للنفس، و لتعم بركته صلى الله عليه و سلم جميع الأرجاء. و الله تعالى أعلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٢٣

نزول النبي صلى الله عليه و سلم في غار جبل نمرة في الحج

كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا وصل إلى منى، في حجته، يأمر أن تضرب له قبته في نمرة بعرفات، فإذا قام من منى صباح يوم عرفه، متوجها إلى عرفات، نزل في الغار الذي بأصل جبل نمرة، قبيل المسجد، فإذا زالت الشمس نزل من الغار إلى نمرة، ليصلي الظهر و العصر بالناس. يعني أنه صلى الله عليه و سلم كان ينزل أولا بالغار المذكور، ثم يقوم منه فينزل من قبته المضروبة له بنمرة.

فقد ذكر الأزرقي، عن ابن جريج، قال: سألت عطاء، أين كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ينزل يوم عرفه؟ قال: بنمرة، منزل الخلفاء، إلى الصخرة الساقطة بأصل الجبل عن يمينك و أنت ذاهب إلى عرفه، يلقي عليها ثوب يستظل به صلى الله عليه و سلم.

قال الأزرقي: و تحت جبل نمرة غار أربعة أذرع في خمسة أذرع، ذكروا أن النبي صلى الله عليه و سلم كان ينزله يوم عرفه، حتى

يروح إلى الموقف، و هو منزل الأئمة إلى اليوم. و الغار داخل في جدار دار الإمارة، في بيت في الدار، و من الغار إلى مسجد عرفة ألفا ذراع و إحدى عشر ذراعاً، و من مسجد عرفة إلى موقف الإمام عشيّة عرفة ميل، يكون الميل خلف الإمام إذا وقف و هو حيال جبل المشاة. انتهى من الأزرقى.

نقول: أما موقفه صلى الله عليه و سلم، عشيّة عرفة، ففي مسجد الصخرات الذي هو بقرب جبل الرحمة و هو موضع معروف إلى اليوم. و أما كلام الإمام الأزرقى "أن الغار داخل في جدار الإمارة، في بيت في الدار" فهذا الوصف بحسب زمانه، فقد كان وادى عرنة في ذلك الوقت عامراً بالمزارع و البساتين و العيون، و قد مضى على وفاته، رحمه الله تعالى، إلى يومنا هذا، أكثر من "ألف و مائة عام" فلم يبق للدار و الجدار و البيت أى أثر أو علامة مطلقاً، اللهم إلا الغار، فإن الغيران لا تزول حتى تزول الجبال عن مواضعها. و لم نر من تعقب كلام الإمام الأزرقى، من المؤرخين، و لا من بحث عن الغار الذي ذكره أحد من العلماء و الباحثين. لذلك أحببنا البحث عن الغار المذكور، و التحقق التام عنه، لندكره في تاريخنا الذي نضعه عن مكة المشرفة اليوم، و هذا هو التحقق الذي عملناه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٢٤

فلقد يسّر الله تعالى لنا التجوّل، في بعض وادى عرنة- بالنون-، و الجبال القريبة من مسجد نمره، و العلمين القديمين، لبيان حدود الحرم من الحل، للبحث عن الغار نزل فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم عرفة، قبل الزوال، عند مجيئه من منى، و الذي ذكره الإمام الأزرقى هنا. فقد تجولنا ثلاث مرات في المكان المذكور، مع دليلين خبيرين من العرب، يعرفان هذه الأماكن و الغيران، الموجودة فيها، و ذلك بعد النصف الثاني من شهر شوال سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة، فوجدنا ما يأتي:

إذا وصل الإنسان، من منى إلى قبيل مسجد نمره بعرفات، و سار مع الجبل، الذي عن يمينه، و هو جبل كثير الصخور و الحجارة، بعضها فوق بعض، من أصل الخلقة، فمن ذلك تتكوّن المغارات- أى الغيران-. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ٢-٤؛ ص ٣٢٤

بل أن يصل الإنسان إلى منتهى الجبل، الممتد كاللسان في الرمل بنحو (١٦٠) متراً مائة و ستين متراً، يجد على يمينه، على ارتفاع نحو قامتين، مغارة كبيرة في أصل الجبل، من الصخور الكبار، تسع نحو عشرة أشخاص بل أكثر، و في وسط أرض الغار صخرة كبيرة و أخرى أصغر منها متصلتان ببعضهما، و للغار بابان أحدهما صغيرة و هو الذي يقابل القبلة، و عرضه مائة و ثلاثون سنتيمتراً، و الباب الثاني كبير و هو الذي يقابل عرفات و عرضه متران، و أمام هذا الباب صخرة كبيرة نازلة إلى الأرض، بها ثلاثة حفر طبيعية أو أربعة، كل حفرة كدائرة رأس الإنسان، واحدة فوق الأخرى تشبه الدرجة، و من هذه الحفر يسهل الطلوع إلى الغار، على أن الصعود إليه ميسور من البابين، و إن لم تكن هذه الحفر. و سقف هذا الغار يتكون من صخرتين كبيرتين جداً، متصلتان ببعضهما، من وسط السقف، كهيئة الجمelon، على شكل مثلث، و طول هذا الغار ستة أمتار، و سيع من مدخله الكبير، و ضيق من مدخله الصغير، و من وراء هذا الغار، من الجهة المقابلة للجبل، غار آخر كبير، يسع نحو خمسة عشر شخصاً، و الفاصل، بين هذا الغار و بين الغار المذكور، إحدى صخرتي سقفه، التي تلى الجبل، و مدخل، هذا الغار من المدخل الصغير للغار الذي تكلمنا عنه. فهذان الغاران بجوار بعضهما تماماً، و لا يوجد في الجبل أكبر من هذين الغارين المتجاورين، و كلاهما يسع لنحو ثلاثين شخصاً، و تحت هذا الغار مباشرة، جهة الباب الكبير، غار آخر صغير، تتجه فتحته إلى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٢٥

عرفات، و هو غار على وجه الأرض غير مرتفع في الجبل و سقفه صخرة واحدة كبيرة، طوله أقل من ثلاثة أمتار و عرض فتحته متران. و في هذا الجبل غيران كثيرة متعددة و لا يعلم بالتحقيق التام نفس الغار الذي نزله رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم عرفة في هذا الجبل، لكننا نظن، غالب الظن الذي نطمئن إليه، أن هذا الغار الكبير الذي ذكرناه هو الغار الذي نزله رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم عرفة لجملة أمور و هي:

(١) أن وصف هذا الغار الكبير يقرب من وصف الإمام الأزرقى له.

(٢) أن هذا الغار يقع تقريبا أمام العلمين القديمين الدالين على انتهاء حدود الحرم، و لا نستبعد أن ينزل النبي صلى الله عليه و سلم عند مفرق الحل من الحرم، أى عند حدودهما- و الله تعالى أعلم- و البعد بين هذا الغار و بين العلمين المذكورين (٤٣٠) مترا، أربعمائة و ثلاثون مترا، و قد يزيد البعد و قد ينقص عن هذه الأمتار بحسب استقامة أخذ القياس أو انحرافه.

(٣) و البعد بين هذا الغار و بين جدار مسجد نمرة القبلى (١١٣٠) مترا هو ألف و مائة و ثلاثون مترا، و هو قريب مما ذكره الأزرقى، فإن المتر الواحد يساوى ذراعين تقريبا، فقد ذكروا أن ذراع اليد يساوى ثمانية و خمسون سنتيمترا. و قد يزيد البعد و قد ينقص عن هذه الأمتار بحسب استقامة أخذ القياس أو انحرافه.

(٤) أن الجالس فى هذا الغار يرى من مدخله الكبير، أى بابه، مسجد نمرة و جبل عرفات، أى جبل الرحمة، الذى يقف عليه الحجاج، المسمى بـ "القرين" و يرى مسجد الصخرات الذى تحت جبل الرحمة، الذى وقف فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم عشية يوم عرفه، بل يرى ميدان عرفات كله. فكأن النبي صلى الله عليه و سلم جلس فى هذا الغار، ليشاهد جبل عرفات، و مسجد نمرة، و مسجد الصخرات، و حدود الحل من الحرم.

(٥) أن هذا الغار الكبير هو أقرب الغيران إلى مسجد نمرة، و هذا ما يوافق الرغبة النبوية، فإنه صلى الله عليه و سلم، حينما زالت الشمس نزل من هذا الغار، إلى موضع مسجد نمرة، فصلى فيها الظهر و العصر، ثم ذهب إلى عرفات، فوقف فى مسجد الصخرات، حتى غربت الشمس، ثم دفع إلى مزدلفة، و لذلك سمي هذا الجزء الأخير من الجبل بجبل نمرة لقربه من نمرة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٢٦

(٦) أن هذا الغار هو الغار الذى يلائم رسول الله صلى الله عليه و سلم أولا: أنه مرتفع مشرف على ساحة عرفات كلها، ثانيا: أن مدخله الكبير يقابل عرفات و هو بيت القصيد و منتهى الرحلة، و أن مدخله الصغير يقابل مكة و القبلة، ثالثا: أن هذا الغار هو أوسع غار فى الجبل، فإنه يأخذ فى جوفه نحو عشرة أنفس، و النبي صلى الله عليه و سلم لا بد و أن يكون معه نحو هذا العدد من كبار الصحابة، لا يفارقونه فى السفر، و يتشرفون بالقرب منه، كالخلفاء الراشدين الأربعة و غيرهم من كبار الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، رابعا: أن بجوار هذا الغار غار آخر، متصل به، يفصل بينهم الصخرة، التى بوسطهما، و طولهما واحد، و كل منهما يسع بقدر الآخر من الأشخاص، فلو كان مع النبي صلى الله عليه و سلم ثلاثون من الصحابة لاستظلوا فيهما بغاية الراحة و بدون أن يتعدوا عن بعضهم. و من عجيب أمر الغيران فى الجبال أنها تكون فى الصيف فى وقت الظهيرة باردة منعشة، لا يشتد على الجالس فى داخلها و طأة الحر و القيظ.

هذا رأينا فى الغار الذى نزله رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم عرفه قبل الظهر و هذه أدلتنا فى تحقيقه، و لا يعلم الغيب إلا الله الواحد الأحد سبحانه و تعالى، و نزوله صلى الله عليه و سلم فى الغار المذكور لا يمنع من أنه نزل أيضا فى قبته من شعر التى أمر أن تضرب له بنمرة.

و ما نظن أن أحدا قبلنا طرق هذا الباب أو بحث عن هذه المسألة على أنها مسألة لا دخل لها فى المناسك مطلقا، فالحمد لله رب العالمين أولا و آخرا، و هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شىء عليم.

فائدة مهمة

بمناسبة ما تقدم من الكلام على حديث "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات و الأرض ... إلخ" نذكر ما يأتى زيادة و توضيحا لمعنى الحديث الشريف، و هو مبحث مهم جدا قلما يعثر الإنسان عليه فى كتاب و هو هذا:

قال ابن حجر فى حاشيته على إيضاح النووي فى المناسك على المذهب الشافعى عند الكلام على ما يتعلق بوجود الحج، عند قوله:

(فرع): إذا وجدت شرائط وجوب الحج وجب على التراخي ما نصه:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٢٧

(قوله على التراخي): أى لا على الفور، فلمن وجب عليه الحج بنفسه أو نائبه، أن يؤخر بعد سنة الإمكان، لأن الحج فرض سنة ست كما صححه الشيخان فى السير، ونقله فى المجموع عن الأصحاب أو خمس كما جزم به الرافعى هنا، أو ثمان كما قاله الماوردى. وبعث صلى الله عليه وسلم أبابكر، رضى الله عنه، سنة تسع فحج بالناس، وتأخر معه مياسير أصحابه، كعثمان، رضى الله عنه، و عبد الرحمن بن عوف، من غير شغل بحرب، ولا خوف من عدو، حتى حجوا معه صلى الله عليه وسلم سنة عشر، و قيس به العمرة. و نازع فى الاستدلال بذلك ابن الحاج المالكى بما حصله: أن حج، أبى بكر و على و غيرهم، تلك السنة، إنما كان تبررا كحجه صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة، أى فإنه صح أنه حج قبلها حجتين. بل قال فى فتح البارى الظاهر أنه صلى الله عليه وسلم لم يترك الحج مدة مقامه بمكة قبل الهجرة، و بأنه لا مجوز لتقدمهم بحج الفرض قبله مع آية: لا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، و إذا أمر من ضحى قبله بأضحىة أخرى فكيف الحج.

و بقول جمع منهم مجاهد و عكرمة المخزومى أن حجهم تلك السنة صادف القعدة، أى و يؤيده قول السهلى لا ينبغى أن يضاف إليه صلى الله عليه وسلم إلا حجة الوداع و إن حج مع الناس بمكة، لأنه لم يكن على سنة الحج، لما ذكر أنهم كانوا ينقلونه عن وقته على حساب الشهور الشمسية، و يؤخرونه فى كل سنة أحد عشر يوما، و إنما وافقهم و هو بمكة لأنه كان مغلوبا، على أمره، و لما فرض أرادته عند رجوعه من تبوك، بعد فتح مكة، فذكر حج بقايا المشركين و طوافهم عراه، فنبد إليهم عهدهم فى السنة التاسعة، ثم حج فى العاشرة بعد انمحاء رسوم الشرك. انتهى ملخصا.

قال بعضهم: و حينئذ وافق وقوفه تاسع الحجة، فمن ثم أعلمهم فى خطبته "بأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات و الأرض" و أن الأمر عاد إلى ما وضع الله عليه بحساب الأشهر، و بأن أبابكر، رضى الله تعالى عنه، إنما خرج بعده، على ناقه رسول الله صلى الله عليه وسلم، رسولا- لا أميرا للتأذين بسورة براءة فى منى و غيرها إعلاما بنبذ اليهود، إذ جرت عادتهم أنه لا يبلغ ذلك عن العظماء، إلا من هو من جلدتهم و أقاربهم الأدينين، فخطب أبو بكر يوم التروية و علمهم المناسك ثم على

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٢٨

براءة حتى ختمها، ثم فعلا كذلك يوم النحر، ثم يوم النفر الأول، روى ذلك كله النسائى، و بأن المشركين كانوا يحجون فى محرم سنتين و صفر كذلك و هكذا، فكان حج سنة ثمان فى القعدة و أميره عتاب بن أسيد أمير مكة، رضى الله تعالى عنه، و كذا حج سنة تسع و أميره أبو بكر رضى الله عنه، ثم فى العاشر خرج صلى الله عليه وسلم و أصحابه، و فيهم أبو بكر، و على لحقهم بمكة فحجوا لفرضهم، و أخبرهم صلى الله عليه وسلم فى خطبته بما أوجب تأخره من أن الزمان قد استدار، أى وقت الحج استدار إلى وقته الأصلية فى زمن الأنبياء، و هو الحجة، و أن عدم وقوعه فى وقته هو سبب تأخره، فلما صادف وقته لم يتأخر، و لك رد جميع ما قاله بأن الحج فرض سنة خمس أو ست أو ثمان، كما تقر.

و على كل، فإما أن نقول: أنه فرض ابتداء إيقاعه فى الحجة، كما كان قديما، أو فيما يوقعه فيه أهل مكة ثم نسخ فى العاشرة، فإن قال بالأول لزمه أنه صلى الله عليه وسلم أذن فى حج فاسد، لأنهم إذا كانوا يوقعونه فى غير وقته يكون فاسدا، فكيف مع ذلك يأذن فيه سنة ثمان و يؤمر عتابا، و سنة تسع و يؤمر أبابكر، و لا يقاس هذا بحجته صلى الله عليه وسلم فيه قبل الهجرة، لما قدمته عن السهلى، أنه كان مغلوبا على أمره، و لم يكن أنزل عليه صلى الله عليه وسلم فيه شىء، فكان يوافقهم، كما ثبت عنه أنه كان يوافقهم فى صوم عاشوراء، قبل أن ينزل عليه فيه شىء، فلا- يقاس حاله حينئذ بحاله بعد فرضه، و بيان الحكم له و قدرته على عدم موافقتهم بأمر أصحابه، بأن لا يقفوا معهم بل فى وقته صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة سنة ثمان فى رمضان لم يكن يخشى من أحد شيئا بل دانت له العرب بأسرها.

فظهر اندفاع جميع ما قاله ابن الحاج على هذا التقدير الأول، فإن حج أبي بكر و من معه كان فرضاً واقعا في شهر الحجة، و مع ذلك أخر مياسير الصحابة كما مرّ، و إن قال بالثاني اندفع ما قاله أيضا، لأن الحج في القعدة قبل نسخه على ذلك التقدير كان صحيحاً، و مع ذلك أخر المياسير المذكورين، فنتج من ذلك أن الحج على التراخي على كل من التقديرين، و أنه لا يمكن على التقدير الأول الذي هو الظاهر، بل المتعين أن يقال أن حجّ عتاب و أبي بكر و من معهما كان في ذى القعدة، بل الصواب أنه في الحجة، كما يدل عليه خبر ابن مردويه، من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: كانوا يجعلون عاما شهرا و عاما شهرين، يعنى يحجون في شهر واحد مرتين في سنتين، ثم يحجون في الثالث في

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٢٩

شهر آخر غيره، قال: فلا يقع الحج في أيام الحج إلا في كل خمس و عشرين سنة، فلما كان حج أبي بكر وافق ذلك العام شهر الحج فسماه الله الحج الأكبر. انتهى.

و أخرجه الطبراني في أوسطه عنه بنحوه، لكن فيه أنهم كانوا لا يصيرون الحج إلا في كل ست و عشرين سنة مرة واحدة، و هو النسب الذي ذكره الله تعالى في كتابه، و على هذا أعنى أن حج أبي بكر رضى الله عنه، كان في الحجة و أيده طائفة منهم أحمد، و أنكر ما مرّ عن مجاهد و استدلل بأنه صلى الله عليه و سلم أمر عليا فنأدى يوم النحر لا يحج بعد العام مشرك، و في رواية و اليوم يوم الحج الأكبر، و قد قال تعالى:

وَ أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ فسماه يوم الحج الأكبر، فدل على أن هذا الأذان الذي هو نداء على، رضى الله عنه، سنة تسع وقع في ذى الحجة و هو المدعى، و استبعاد ابن الحاج و أهل مذهبه تقدّم غيره صلى الله عليه و سلم عليه في قاعده من قواعد الإسلام، يقيمها الله على يديه، لا وجه لاستبعاده إلا لو كان حج الناس في التاسعة و بغير إذنه صلى الله عليه و سلم، و أما بعد أن أذن لهم و أمر عليهم أفضل أصحابه، و جعله خليفته، إعلاما بأنه الخليفة الأكبر بعده، فلا استبعاد في ذلك، سيّما و القول بعدم وقوع حج أبي بكر و من معه في تلك السنة فرضاً، يلزم عليه المحذور الذي قدمته إن كان عدم وقوعه فرضاً لكونه في ذى القعدة، فإن ادعى أنه لغير ذلك فلا وجه له، فتأمل ذلك فإنه مهم، و به يندفع قول بعض متأخري المالكية صوب أصحابنا أنها لم تكن فرضاً لأنها كانت في ذى القعدة، و استبعدوا أن يتقدم أحد عليه صلى الله عليه و سلم في ذلك، و قياس هذا على التقدم بالأضحى لا وجه له، فإن المضحى ذبح قبل الوقت بغير أمره صلى الله عليه و سلم و لم يوجد ذلك في أبي بكر و من معه، و ما ذكر من أن المشركين كانوا يؤخرون الحج و كان يقع في غير وقته، و كان لا يصادف وقته إلا في ما مرّ، فيما رواه ابن مردويه و الطبراني، و أنه صلى الله عليه و سلم أشار في خطبته بقوله: إن الزمان إلى آخره إلى رد ما كانوا عليه، كل صحيح، لكنه لا يقتضى أن حج أبي بكر كان في ذى القعدة، و لا أن تأخره صلى الله عليه و سلم إلى العاشرة إنما كان لأجل ذلك، لما هو ظاهر أن حج سنة ثمان أو تسع و إن وافق الحجة كما قدمناه أنه الأصح بل الصواب، لكنه صلى الله عليه و سلم أخر عنه إعلاما أن الحج على التراخي أو لعذر لكن الأصل عدمه.

و قوله: إن الزمان إلى آخره ليس لبيان عذره بالتأخير، إذ لا يسلم ذلك إلا و ثبت أن التاسع صادفت ذى القعدة، فإذا ثبت خلاف ذلك لم يجوز أن يكون كذلك، بل لبيان رد ما كانت عليه عادة الجاهلية قبل سنة تسع، بل ثمان، إن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٣٠

ثبت أن الحج فيها كان بأمره صلى الله عليه و سلم، و أنه أمر عتاب عليه، فاشدد بهذا المبحث يديك، فإنه من النفائس التي يتعين أن يعنى بتحقيقها و تحريرها وفقنا الله لذلك و أمثاله آمين.

انتهى من حاشية ابن حجر على إيضاح النووى، رحمهما الله تعالى، و جزاهما و العلماء خير الجزاء، عن الأمة المحمدية، و هذا مبحث دقيق نفيس، ينبغى قراءته بتأن و تأمل.

تنظيف طريق الحج من أشجار الشوك

لقد كانت مكة و الحرم مليئة بأشجار السلم، أى الأشجار الشوكية، خصوصا فى طريق الحج، من مكة إلى عرفات، من قديم العصور و الدهور، و ما زال الناس يقطعونها تدريجيا عن أماكن سكناهم، و عن طريق مرورهم، حتى لم يبق منها إلا القليل، و هى بعيدة عن جادة طريق الحج، و نحن قد أدركنا شيئا من هذه الأشجار الشوكية، فى طريق الحج من بعد منى، و كان تؤذى بعض راكبي الشقاف و الهودج على الجمال، و ذلك فى سنة (١٣٤١) ألف و ثلاثمائة و إحدى و أربعين هجرية.

و لقد ذكر العلامة قطب الدين الحنفى المتوفى سنة (٩٨٨) رحمه الله تعالى، فى تاريخه عن قطع أشجار الشوك من الحرم ما يأتى: ثم عمر الأمير سودون المذكور ما بقى من المواضع المأثورة فى منى، و فى المشعر الحرام بمزدلفة، و مسجد نمره بعرفة، و قطع جميع أشجار السلم و الشوك، الذى كان بين المارين فى طريق عرفه، و كانت تمزق كسوة الشقاف و المحابر، عند مزاحمة جمال الحاج، فى ذلك المحمل، و كانت الحرامية تكمن تحت الأشجار، و تنهب جميع ما تظفر به من الحجاج، و تخطف منهم جميع ما تقدر عليه. فقطع الأمير سودون جميع تلك الأشجار، و أزال الصخار الكبار، و نظف الطريق و وسعها، و شكره الحجاج على ذلك، و دعوا له، حيث كانت تضر فى طريق المسلمين، و إلا فشجر الحرم لا يعضد و لا يقطع، فرحمه الله تعالى و أثابه الحسنى، و كذلك الأمير خوش كلدى، نائب جده فى عصرنا، فى حدود سنة خمسين و تسعمائة، قطع أشجار السلم ما بين المأزمين و كسر الأحجار، فى سفح الجبلين، و مهد و وسع الطريق للحجاج، و رفع بذلك عنه شر السراق الذين كانوا يكمنون خلف تلك الأشجار

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٣١

و الأحجار، و شكره الناس، أثابه الله تعالى. و سيأتى شىء من عماراته فيما بعد إن شاء الله تعالى. انتهى من تاريخ القطبى.

نقول: إن مكة المشرفة ممتلئة بأشجار السلم الشوكية من قبل عهد إبراهيم الخليل، عليه الصلاة و السلام، إلى أوائل عصرنا الحاضر، أما اليوم، فلقد أصلحت الطرقات، و عبت و مهدت بالإسفلت، و جعلت طريقا للسيارات، فسبحان مغير الحال و الأحوال الذى له ملك السموات و الأرض لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

حكم قطع شجر الحرم و نباته

ما زال الناس، جاهلية و إسلاما، إلى يوم القيامة يعظمون الحرم، و يجتنبون قطع شجره. ففى الصحيحين عن أبى شريح، رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «إن مكة حرمها الله و لم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يسفك بها دما و لا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيها، فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله و لم يأذن لكم، و إنما قد أذن لى ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس و ليلغ الشاهد الغائب».

و فيهما أيضا عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات و الأرض، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة، و إنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى، و لم يحل لى إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه و لا ينفر صيده و لا يلتقط لقطته إلا من عرفها و لا يختلى خلاها. فقال العباس بن عبد المطلب: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم و لبيوتهم. فقال صلى الله عليه و سلم: إلا الإذخر».

جاء فى تاريخ الغازى نقلا- عن كتاب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار»: و ما زال الناس فى الجاهلية و الإسلام يعظمون هذا الحرم و يجتنبون قطع شجره. قال الواقدى: لما أرادت قريش البنيان قالت لقصى: كيف نصنع فى شجر الحرم؟ فحذرهم قطعها و خوفهم العقوبة فى ذلك، فكان أحدهم يحرف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون فى منزله.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٣٢

قال: و أول من ترخص في قطع شجر الحرم عبد الله بن الزبير، قال السهيلي:

ابتنى ابن الزبير دور القعيقعان، و ترخص في قطع شجر الحرم، و جعل دية كل شجرة بقرة. و كذلك روى عن عمر أنه قطع دوحه، كانت في دار أسد بن عبد العزى، و كانت أطرافها تنال ثبات الطائفين بالكعبة، و ذلك قبل أن يوسع المسجد، فقطعها و وداها. اه. انتهى من الغازى.

و اعلم أنه يحرم على المحرم و غيره قطع حشيش الحرم أو شجره الرطب الذى ينبت بنفسه، و لا ينبت الناس، عند الأئمة الأربعة إلا اليابس عند الثلاثة، و لا فرق بين الأخضر و اليابس عند مالك.

و يباح التعرض للإذخر و السنا بالقطع و غيره، و يباح رعى الدواب فى حشيش الحرم و شجره، و الانتفاع بما تساقط من ورق الشجر، أو انكسر من غير فعل آدمى عند الأئمة الأربعة، و حرمة قطع الشجر و الحشيش تكون فى حرم مكة و حرم المدينة، أما ضمان ذلك و جزاؤه فهو مختص بحرم مكة فقط، عند الأئمة الأربعة، و كالحرم المدنى فى ذلك وادى و ج بالطائف.

و إليك تفصيل حكم قطع شجر الحرم و نباته فى مذهبنا، نقله من كتابنا «إرشاد الزمره لمناسك الحج و العمرة» على المذهب الشافعى. فقد جاء فيه ما نصه:

لا يجوز لمحرم و لا لحلال، سواء كان من أهل الحرم أم لا، قطع أو قلع شجر الحرمين و نباتهما و مثلهما وادى و ج بالطائف.

و لا يحرم صيد النقيع، و لا يملك نباته، و يضمن ما أتلفه منه، لأنه ممنوع منه.

قال الرافعى: و ضمانه بالقيمة، و هو ليس بحرم بل هو الحمى الذى حماه رسول الله صلى الله عليه و سلم لنعم الصدقة و الجزية.

و جاء فى الجزء الثانى من كتاب «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسهودى ما ملخصه: الحمى لغه الموضوع الذى فيه كلاً يحمى ممن يرعاه. و شرعا موضع من المرات، يمنع من التعرض له، ليتوفر فيه الكلا فترعاه مواش مخصوصه، و النقيع - بالنون المفتوحه و القاف المكسوره -، و حمى النقيع على عشرين فرسخا من المدينة، و هو صدر وادى العقيق، و هو أخصب موضع هناك، و هو ميل فى برید فيه شجر، و يستأجم حتى يغيب فيه الراكب، و فيه مع ذلك كثير من العضاة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٣٣

و الفرقد و السدر و السيال و السلم و الطلح و السمر و العوسج. و فى هذا الكتاب تفصيل كثير من الحمى فراجعه إن شئت. اه.

و قال ابن حجر فى حاشية الإيضاح: و النقيع - بالنون - هو فى ديار بنى مزينة على نحو عشرين ميلا من المدينة. اه.

و جاء فى "المصباح المنير" عند كلمه نقيع. و منه قيل لموضع بقرب مدينة النبى صلى الله عليه و سلم و نقيع، و هو فى صدر وادى العقيق، و حماه عمر، رضى الله عنه، لا بل الصدقة. قال فى العباب: و النقيع موضع فى بلاد مزينة على عشرين فرسخا من المدينة، و فى حديث: حمى عمر غرز النقيع لخيال المسلمين. و قد صحفه المحدثون فقالوا: البقيع بالباء و إنما البقيع بالباء موضع القبور، و الغرز بفتحين: نوع من ثمام بوزن نبت يسمد به خصاص البيوت، الواحدة ثمامة اه من المصباح باختصار.

فالفرق بين العبارتين لا يخفى، فابن حجر يقول: النقيع على عشرين ميلا من المدينة، و المصباح يقول أنه على عشرين فرسخا منها و من المعلوم أن الفرسخ ثلاثة أميال فتأمل. و لقد سألنا بعض الفضلاء من أهل المدينة عن النقيع فقال أنه يبعد عن المدينة إلى جهة الجنوب بنحو مرحلة. اه.

و اعلم أن حرمة قطع شجر حرم مكة و نباته ثبت بالإجماع، و الخبر فى الصحيحين أنه صلى الله عليه و سلم يوم فتح مكة قال: "إن هذا البلد حرام بحرمه الله لا يعضد شجره و لا ينفر صيده" و قيس بمكة باقى الحرم.

و أما حرم المدينة فللقوله صلى الله عليه و سلم: "إن إبراهيم حرم مكة و إنى حرمت المدينة ما بين لابتها، لا يقطع عضاها و لا يصاد صيدها" اللابتان تشبیه لابه، و هى أرض ذات حجارة سود، و هما شرقى المدينة و غربها، فحرمها ما بينهما عرضا، و ما بين جبلها غير واحد طولاً، و عضاها بهاءين جمع عضاها أى شجرها و هو بكسر العين بوزن كتاب كما فى المصباح.

و أما وادى وج الطائف فلقوله صلى الله عليه وسلم: "إلا أن صيد وج وعضاه - يعنى شجره - حرام محرم." رواه البيهقي بإسناده عن ابن الزبير بن العوام، رضى الله عنه، وسمى المكان باسم وج بن عبد الحى من العمالقة، قاله الدميرى، و أما النقيع فلأن النبى صلى الله عليه وسلم حماه لنعم لصدقة و الجزية.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٣٤

و اعلم: أن الضمان مختص بحرم مكة لأنه للنسك، و لا فرق فى الشجر بين ما نبت بنفسه و ما استنبتته الناس كالنخيل، بخلاف النبات فإنه لا يحرم منه إلا ما لا يستنبتته الناس، و الشجر ما كان له ساق، و النبات ما لا ساق له. و محل الحرمة فى الشجر الرطب غير المؤذى، أما اليابس الذى لا يخلف و المؤذى كالشوك و العوسج، و هو ضرب من الشوك، و إن لم يمنع المرور، فلا يحرم قطعه و لا قلعه و لا يتعلق بقطعه ضمان كالحياوان المؤذى.

و لو غرست شجرة حرمية فى حل أو عكسه اعتبر منبتها الأصلى، و لو كان الأصلى فى الحرم و الأغصان فى الحل حرم قطعها لا رمى صيد عليها أو كان الأصل فى الحل و الأغصان فى الحرم حل قطعها لا رمى صيد عليها، و لو نقل شجرة من الحرم إلى الحل لزمه ردها، أو إلى محل آخر من الحرم فلا، فإن جفت بالنقل ضمنها و إن نبتت فى الموضع المنقول إليه فلا ضمان، فلو قلعها قالع، لزم القالع الجزاء ابقاء لحرمة الحرم، و لو غرس فى الحل نواة شجرة حرمية، ثبت لها حرمة الأصل، و كذا كل ما تولد من حرمية، و لو فى الحل، فله حكم الحرمية، و لو غرس فى الحرم نواة أو غصنا من شجرة حلية لم تصر حرمية نظرا للأصل، فلو قلعها هو أو غيره فلا شىء عليه بلا خلاف.

فإن كان أصل الشجرة فى الحرم و أغصانها فى الحل حرم قطع أغصانها و وجب فيه الضمان، و إن كان أصلها فى الحل و أغصانها فى الحرم فلا- شىء فى قطع أغصانها، و لو كان بعض أصل الشجرة فى الحل و بعضه فى الحرم فلجميعها حكم الحرم، و لو انتشرت أغصان شجرة حرمية و منعت الناس الطريق أو آذتهم جاز قطع المؤذى منها، و لو احتاج إلى ما يحرم من شجر الحرم لحفظ محترم، و لم يقم غيره مقامه، فالذى يتجه إباحة ذلك بشرط الضمان لحفظ المعصوم الذى يجوز دخوله الحرم، و لحفظ بناء الكعبة من السقوط لا لغيره من حفظ بستان و دار، و لو كان موقوفا، إلا لاضطرار.

و الحاصل أن التحريم و الضمان عام فى جميع شجر الحرم سواء نبت بنفسه أو زرعه الآدمى كالتين و التفاح و النخل و العنب و السفرجل و سواء كان مثمرا كما ذكرناه أو غير مثمر.

و أما غير الشجر من نبات الحرم فهو نوعان:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٣٥

النوع الأول: ما زرعه الآدمى كالحنطة و الشعير و الذرة و البقول و الخضروات فيجوز لمالكه قطعه و لا جزاء عليه، و إن قطعه غيره فعليه قيمته لمالكه و لا شىء عليه للمساكين، و هذا لا خلاف فيه.

و النوع الثانى: ما لم ينبت الآدمى، و هو أربعة أصناف:

(١) الإذخر و هو مباح فيجوز قطعه و لو للبيع بلا خلاف، لحديث ابن عباس و لعموم الحاجة إليه.

(٢) الشوك فيجوز قطعه و قلعه كما سبق.

(٣) ما كان دواء كالسنا و نحوه فيجوز قطعه و قلعه. و لو لم يوجد المرض بأن ادخره لمرض فى المستقبل فبعضهم جوز أخذه إذا احتاجه للدواء، و لم يخصه الماوردى بل عممه، و جعله مباحا مطلقا كالإذخر.

(٤) الكلا بالهمز يقع على الرطب و اليابس و الحشيش يقع على اليابس و العشب و الخلا: بالقصر اسم للرطب.

فيحرم قطع و قلع الكلا الرطب، فإنه قلعه لزمته الفدية و هو مخير بين إخراجها طعاما و الصيام، هذا إذا لم يخلف المقلوع فإن أخلق فلا ضمان على الصحيح، و أما الكلا اليابس فلا شىء عليه فى قطعه كما سبق فى الشجر اليابس، فلو قلعه و لم يفسد أصله و منبته لزمه

الضمان لأنه لو لم يقلعه لنبت ثانيا، وإن فسد جاز قلعه و أخذه.

و يجوز تسريح البهائم في حشيش الحرم و شجره لترعى، فلو أخذ الحشيش لعلف البهائم جاز على الأصح، و لا شيء عليه، و الظاهر جواز أخذه لعلفها، و لو في المستقبل، و أن من لا بهيمة عنده لا يجوز له أخذه لما سيملكه و يحرم أخذه للبيع أو غيره إلا الإذخر و لو للبيع كما تقدم، و كالإذخر غيره إذا احتاج إليه و لو للتسقيف كما اعتمده الإسوي.

و يجوز قطع و قلع ما ينبت بنفسه إن كان مما يتغذى به كالبقلة و الرجله للحاجة إليه و لأنه في معنى الزرع، و لا يقطع لذلك إلا بقدر الحاجة، و لو يجوز قطعه للبيع لمن يعلق به لأنه كالطعام الذي قدم للضيف أبيع له أكله لا يبعه.

و يجوز أخذ أوراق شجر الحرم، بلا خبط، لئلا يضره بخلافه بالخبط، لأن خبطه حرام، إن ضر الشجرة، بحيث كسر أغصانها، و إلا فلا، و يجوز أخذ ثمره،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٣٦

و إن كانت الأشجار مباحة كالأراك، و يقال لثمره: الكباث،- بفتح الكاف- و نحوه عود السواك لغير البيع. أما للبيع فلا يجوز، مثل السواك و ثمر الشجر في عدم جواز أخذه للبيع أوراق الشجر كما هو الظاهر. قال ابن حجر في حاشيته على الإيضاح: و لو جهل البائع الحرمه عذر، لأنه ذلك مما يخفى على العوام، بل على كثير من المتفقهة، فيجوز الشراء منه، و لكن يجب على من علم منه ذلك بيان تحريمه عليه. اه.

و حرم المدينة و وج الطائف كمكة في حرمة الصيد و الشجر و النبات و نحو التراب دون الضمان لأنهما ليسا محلا للنسك. فكل ما حرم بمكة حرم بالمدينة و وج الطائف غير أنه ضمان فيهما. و أما النقيع- بالنون- فليس بحرم و إنما هو الحمى الذي حماه النبي صلى الله عليه و سلم لنعم الصدقة و الجزية فيحرم إتلاف شجره و حشيشه فإن أتلفه أحد فالأصح أنه تلزمه القيمة، و لا- يحرم صيده بالاتفاق. و جزاء قطع شجر حرم مكة و نباته مذكور في كتب الفقه.

حكم نقل تراب الحرم و أحجاره

ذكرنا في كتابنا "إرشاد الزمرة لمناسك الحج و العمرة" على المذهب الشافعي، عن ذلك ما يأتي:

يحرم نقل تراب، و لو محرقا، من الحرمين أو أحجار، أو ما عمل من طين إحداهما كالأباريق و غيرها، إلى الحل، و لو للحرم الآخر، فيجب رده إلى الحرم و إن انكسر الإناء كما ظاهر، فإن لم يفعل فلا ضمان عليه، و بالرد تنقطع الحرمه كدفن بصاق المسجد. قال البيهقي في حاشيته على الخطيب: و عند أبي حنيفة يجوز تلصق و الأباريق الآن ليست من طين الحرم بل من طين الحل اه. كلامه.

و قال في عمدة الأبرار: و ما وجد في الحرم من الأواني و شكك أهو من ترابه أم لا، فإن غلب على الظن كونه منه حرم، و إلا فلا، كما في التحفة. اه.

و أما نقل تراب الحل و أحجاره إلى الحرم فخلاف الأولى كما في المجموع لئلا يحدث لها حرمة لم تكن، و لا يقال أنه مكروه لأنه لم يرد فيه نهى صحيح صريح و مثل الحرمين فيما ذكر وج الطائف.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٣٧

و أما ماء زمزم فإنه يجوز نقله، بل يسن تبركا به للاتباع "فإن عائشة، رضی الله عنها، حملت من ماء زمزم في قوارير و قالت: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم حمله في الأداوى و القرب" أخرجه الترمذي في جامعه. و عن ابن عباس، رضی الله عنهما "أن رسول الله صلى الله عليه و سلم استهدى سهيل بن عمرو من ماء زمزم فبعث له براويتين" أخرجه الطبراني بسند رجاله ثقات.

و روى أن كعب الأحبار حمل من ماء زمزم اثنتي عشرة راوية إلى الشام.

و الرواية كل دابة يستقى الماء عليها، كذا في المصباح، و في صحيح مسلم، عن أبي ذر، رضى الله عنه "أن النبي صلى الله عليه و سلم قال فى ماء زمزم: إنها مباركة و إنها طعام طعم و شفاء سقم" و روى جابر عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال "ماء زمزم لما شرب له."

و ورد "أن النبي صلى الله عليه و سلم كان إذا أراد أن يتحف الرجل بتحفة سقاه من ماء زمزم" و كيف لا- يكون لماء زمزم من الفضل و البركة، و هى التى تقع فى المسجد الحرام عند الكعبة المشرفة، و لا تبعد عنها إلا بمقدار خمسة عشر مترا تقريبا و تنبع من تحتها، و هى التى أخرجها جبريل لنبي الله إسماعيل و هو طفل رضيع، فماء زمزم ليس كالماء العادى، بل خصه الله تعالى بسر عجيب، فمن شرب منه على الريق، بحيث امتلئت بطنه منه، فإنه لا يضره بل ينفعه ذلك كما هو مجرب.

و من عجيب أمر زمزم أن من شربه من نفس البئر، كان له طعم، و من شربه من الدلو كان له طعم، و من شربه فى الأوانى الطينية كان له طعم، و من شربه بعد تبريده كان له طعم. و أحسن حالات شربه و ألذها و أطعمها و أهونها، أن يشربه الإنسان من الدلو حين إخراجها من البئر.

الحوادث الواقعة فى الكعبة و المطاف

نذكر هنا بعض الحوادث التى وقعت فى الكعبة و المطاف بحسب ما تيسر لنا الوقوف عليها لأنها مما يلفت النظر و يوجب الاهتمام لقدسية البيت و شرف المكان.

فقد روى الطبرى فى كتابه "القرى لقاصد أم القرى" فى الباب الخامس و الثلاثين أن حكيم بن حزام ولد فى الكعبة و لا يعهد أحد ولد فى الكعبة غيره، و كان مولده قبل الفيل بثلاث عشرة سنة أو اثنتى عشرة سنة، و توفى بالمدينة فى خلافة معاوية، رضى الله عنه، سنة أربع و خمسين هجرية، و عاش مائة و عشرين

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٣٨

سنة ستين فى الجاهلية و ستين فى الإسلام، و أسلم عام الفتح، روى أنه لما حج فى الإسلام أهدى مائة بدنة قد جللها بالحبر و كفها عن أعجازها، و أهدى ألف شاة، و وقف بمائة و صيف بعرفة فى أعناقهم الفضة منقوش فيها عتقاء الله عن حكيم بن حزام. اه. بتصرف و اختصار من الكتاب المذكور.

و روى الإمام الأزرقى فى تاريخه، عن عبد الله بن أبى سليمان، عن أبيه: أن فاختة ابنة زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، و هى أم حكيم بن حزام دخلت الكعبة و هى حامل فأدركها المخاض فيها فولدت حكيم فى نطع و أخذ ما تحت مثيرها فغسل عند حوض زمزم و أخذت ثيابها التى ولدت فيها فجعلت لقا. اه منه. و المثير- بفتح الميم و سكون التاء و كسر الباء:- الموضع التى تلد فيه المرأة- و معنى لقا: أى لقاها لا يمسه أحد- فقد كان فى الجاهلية من طاف من غير الحمس بالبيت فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها بعد طوافه بين إساف و نائلة فلا يمسه أحد و لا ينتفع بها حتى تبلى من وطء الأقدام و من الشمس و الرياح و المطر.

نقل الأزرقى فى الجزء الأول من تاريخه فى صحيفة ١٦١ عند ذكر جب الكعبة و مالها، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد قال: كان فى الكعبة على يمين من دخلها جب عميق حفره إبراهيم، خليل الرحمن، و إسماعيل، عليهما السلام، حين رفعا القواعد. و كان يوضع فيه ما يهدى للكعبة من حلى أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك، و كانت الكعبة لها سقف، فسرق منها على عهد جرهم مال مرة بعد مرة، و كانت جرهم ترتضى لذلك رجلا- يكون عليه يحرسه، فبينما رجل ممن ارتضوه عندها، إذ سولت له نفسه، فانتظر حتى إذا انتصف النهار، و قلصت الظلال، و قامت المجالس و انقطعت الطرق، و مكة إذ ذاك شديدة الحر، بسط رداءه ثم نزل فى البئر، فأخرج ما فيها، فجعله فى ثوبه، فأرسل الله، عز و جل، حجرا من البئر، فحبسه حتى راح الناس فوجدوه فأخرجوه و أعادوا ما فى ثوبه فى البئر. فسميت تلك البئر الأخسف، فلما انخسف بالجرهمى و حبسه الله عز و جل، بعث الله عند ذلك ثعبانا، و أسكنه فى ذلك الجب فى

بطن الكعبة أكثر من خمسمائة سنة يحرس ما فيه، فلا يدخله أحد إلا رفع رأسه وفتح فاه، فلا يراه أحد إلا ذعر منه، و كان ربما يشرف على جدار الكعبة، فأقام كذلك في زمن جرهم، و زمن خزاعة، و صدرا من عصر قريش، حتى اجتمعت قريش في الجاهلية على هدم البيت

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٣٩

و عمارته، فحال بينهم و بين هدمه، حتى دعت قريش عند المقام عليه، و النبي صلى الله عليه و سلم معهم و هو يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي بعد، فجاء عقاب فاختطفه ثم طار به نحو أجياد الصغير. اه.

و نقل الأزرقي في الجزء الأول من تاريخه بصحيفة (١٠٦) ما نصه: عن حويطب بن عبد العزى، قال: كانت في الكعبة حلق أمثال لجم البهم، يدخل الخائف فيها يده فلا يريبه أحد، فجاء خائف ليدخل يده فاجتذبه رجل فشلت يده، فلقد رأيت في الإسلام و إنه لأشمل. اه.

الطواف بالبيت عراة

و جاء في تاريخ الأزرقي بعد أن ذكر أن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الخمس ما نصه:

جاءت امرأة أيضا تطوف عريانة، و كان لها جمال، فرآها رجل فأعجبته، فدخل الطواف و طاف في جنبها لأن يمسه، فأدنى عضده من عضدها فالتزقت عضده بعضدها، فخرجا من المسجد من ناحية بنى سهم هاربين على وجوههما، فزعين لما أصابهما من العقوبة، فلقيهما شيخ من قريش خارجا من المسجد فسألهما عن شأنهما، فأخبراه بقصيتهما فأفتاهما أن يعودا فيرجعا إلى المكان الذي أصابهما فيه ما أصابهما فيدعوان و يخلصان إلى أن لا يعودا، فرجعا إلى مكانهما، فدعوا الله سبحانه و تعالى و أخلصا إليه أن لا يعودا، فافتزقت أعضادهما فذهب كل واحد منهما في ناحية. اه.

و جاء في تاريخ الغازي المسمى «إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام»:

ناقلا عن ابن فهد أنه مات في جوف الكعبة من الزحام أربعة و ثلاثون نفسا و ذلك سنة خمسمائة و إحدى و ثمانين هجرية. و ذكر الغازي في تاريخه أيضا أنه في سنة إحدى و ثمانين و ثمانمائة مات من الزحام بالكعبة خمسة و عشرون شخصا. اه. و في سنة ثلاثمائة و سبع عشرة وافي مكة أبو طاهر القرمطي في سابع ذى الحجة و عمل فيها هو أصحابه أمورا منكرا، فمنها أنه أمر بقلع ميزاب الكعبة، و كان من الذهب الإبريز، فطلع رجل يقلعه فأصيب من أبي قبيس بسهم في

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٤٠

عجزه فسقط فمات، و قيل بل وقع على رأسه فمات. و منها غير ذلك ليس هنا محل بيانه.

و جاء في تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: إِنَّ الصَّفاَ وَ المَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ما نصه: قلت: ذكر محمد بن إسحاق في "كتاب السيرة" أن إسافا و نائلة كانا بشرين، فزنيا في داخل الكعبة، فمسخا حجرتين، فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عبدا، ثم حوَّلا إلى الصفا و المروة، فنصبا هنالك فكان من طاف بالصفا و المروة يستلمهما. اه المراد منه.

و قال الإمام الأزرقي في تاريخه: إن جرهم لما طغت في الحرم، دخل رجل منهم بامرأة منهم الكعبة ففجر بها، و يقال: إنما قبلها فيها، فمسخا حجرتين، و اسم الرجل إساف بن بغاء، و اسم المرأة نائلة بنت ذئب، فأخرجا من جوف الكعبة، و عليهما ثيابهما، فجعل أحدهما بلصق الكعبة و الآخر عند زمزم، و إنما نصبا هنالك ليعتبر بهما الناس، فلم يزل أمرهما يدرس حتى جعلوا وثنين يعبدان، و كانت ثيابهما كلما بليت أخلفوا لهما ثيابا، ثم أخذ الذي بلصق الكعبة فجعل مع الذي عند زمزم و كانوا يذبحون عندهما و يتمسحون بهما، و كان الطائف إذا طاف بالبيت يبدأ بأساف فيستلمه، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها، فكانا كذلك، حتى كان يوم الفتح، فكسرهما رسول الله صلى الله عليه و سلم مع ما كسر من الأصنام، و قيل بعدما أخرجنا من الكعبة نصب أحدهما على الصفا و الآخر على المروة للاعتبار، ثم تقادم عهدهما حتى صاروا يمسحان يتمسح بهما من وقف على الصفا و المروة، ثم صاروا وثنين يعبدان فلما

صار أمر مكة و الحجابة إلى قصى بن كلاب حولهما من الصفا و المروة فجعل أحدهما بلصق الكعبة و الآخر فى موضع زمزم، و يقال جعلهما جميعا فى موضع زمزم، و قيل اسم الرجل إساف بن عمرو، و اسم المرأة نائلة بنت سهيل من جرهم. انتهى من تاريخ الأزرقى بتصرف و اختصار.

و ذكر الغازى فى تاريخه ناقلا عن ابن فهد: أنه فى صبح يوم الجمعة ثانى ذى الحجة سنة خمس و أربعين و ثمانمائة مات بالطواف من الزحمة سبعة أنفس.

و فى تاريخ الكعبة المعظمة للشيخ حسين باسلامة جملة حوادث وقعت على الحجر الأسود، فذكر منها ما له علاقة بهذا الفصل. فإنه بينما الناس فى وقت القيلولة و شدة الحر و ما يطوف إلا رجل أو رجلان سنة ثلاثمائة و ثلاث و ستين، التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٤١

فإذا رجل عليه طمران مشتمل على رأسه يسير رويدا، حتى دنا من الركن الأسود، و لا يعلم ما يريد، فأخذ معولا و ضرب الركن ضربة شديدة حتى خفته الخفتة التى فيه، ثم رفع يده ثانيا يريد ضربه، فابتدره رجل من السكاسك من أهل اليمن، حين رآه و هو يطوف، فطعنه طعنة عظيمة حتى أسقطه، فأقبل الناس من نواحي المسجد فأخرجوه من المسجد الحرام و جمعوا حطبا كثيرا و أحرقوه بالنار. و فى عشر التسعين و التسعمائة جاء رجل أعجمى بدبوس فى يده ف ضرب الحجر الأسود فكان الأمير ناصر جاهش حاضرا فوجأ ذلك الأعجمى بالخنجر فقتله.

و ذكر الغازى فى تاريخه، أن والى مكة الشريف أحمد بن محمد الجازانى قتل فى الطواف فى الشوط الثالث، قتله جماعة من الأتراك بمواطأة من أخيه حميضة، و ألقى بالمعجنة التى بجوار الكعبة، فصار الرجال و النساء يأتون إليه و يشتمونه و يذكرون قبائح ما فعله، ثم إن أخاه الشريف حميضة أمر الباشا عبد الله المصرى مشيع الطرحاء أن يدفنه فحمله بحاله إلى المعلى و دفنه على أخيه مهيزع ببعض ثيابه بلا غسل و لا صلاة، و لم يشيعه أحد بل حضر دفنه رجلان فقط. اه.

و أكبر حادثه وقعت فى المطاف و المسجد الحرام حادثه القرامطة. فإنهم لما أتوا مكة فى سابع ذى الحجة سيع عشرة و ثلاثمائة ارتكبوا فيها من الفظائع و المنكرات ما لا يوصف. فقد دخل، عدو الله، أبو طاهر القرمطى، المسجد الحرام مع قومه، و هو سكران، راكب فرسا له، و بيده سيف مسلول، فصفر لفرسه فبال عند البيت، و أسرف هو و أصحابه فى قتل الحجاج. و كان الناس يطوفون حول البيت و السيوف تأخذهم، و كان على بن مايويه يطوف بالبيت و السيوف تأخذه فما قطع طوافه و هو ينشد:

ترى المحيين صرعى فى ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

و قتل فى المسجد الحرام ألف و سبعمائة، و قيل ثلاثة عشر ألفا من الرجال و النساء و هم متعلقون بالكعبة و ردم بهم زمزم حتى ملئوها، و فرش بهم المسجد الحرام و ما يليه، و قيل دفن البقية فى المسجد بلا غسل و لا صلاة... الخ، ما رواه الحافظ ابن فهد القرشى فى إتحاف الورى فى حوادث عام ٣١٧.

و مما يناسب المقام: ما رواه الغازى فى تاريخه، أنه فى سنة ألف و ثلاث و ثمانين أراد إسحاق أفندى الوارد من جهة الروم صحبة الحج، و كان من كبار الدولة، أن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٤٢

يدخل الكعبة الشريفة ليلا، فأراد الشيخ عبد الواحد بن محمد الشيبى الحجبى أن يفتح له البيت فتعسر فتحه فدعا بحداد نعت له بالمعرفة، فأمره بفش القفل - أى بفتحه بأى وسيلة - فاضطربت يده و ما قدر فقال له الشيخ عبد الواحد، فيما أخبرنى الثقة، ما بالك؟ فقال له: ألا تسمع ما أسمع؟ قال الشيخ عبد الواحد، فأصغيت و إذا بالباب كان يدفع من داخل البيت و أحسست بالدفع و القوة المانعة. قال فصرفت الناس، و قلت: أيها الناس إن هذا البيت بيد الله يفتح لمن يريد.

فانصرف الناس، و منهم إسحاق أفندى و لم يتيسر له الدخول. اه منه.

فمما علق في جوف الكعبة:

(١) المعلقات السبع، و هي قصائد من فحول شعراء العرب.

(٢) صحيفة قريش، و فيها شروطهم على مقاطعة بنى هاشم و بنى المطلب سنة سبع من النبوة.

(٣) كتابان لهارون الرشيد، أحدهما بالولاية لابنه الأمين، ثانيهما بالولاية لابنه المأمون و جعلهما بالبيت الحرام حينما حج سنة ١٨٦، و في خلافة الأمين أخذنا من الكعبة إلى بغداد و أحرقا بالنار.

(٤) عهد المعتمد لولديه و ذلك سنة ٢٦١ هجرية.

(٥) استرحام من الخليفة العباسي القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله ابن الإمام القادر بالله في الحديث المتوفى سنة ٤٦٧ يشكو إلى الله تعالى أرسلان الفساسيري حيث اعتقله، فلما هلك هذا رفع الاسترحام من الكعبة الشريفة. اه. انتهى باختصار من كتاب المحمل و الحج.

دخول السيارات إلى المسجد الحرام في زماننا

و مما وقع في المسجد الحرام بمكة في زمننا هذا، أى في الليلة الرابعة من شهر المحرم سنة (١٣٧٨) ألف و ثلاثمائة و ثمان و سبعين هجرية، أنه وقع حريق هائل بمكة المشرفة في الليلة المذكورة، بمحلة قاعة الشفاء، بالقرب من باب العتيق، و من باب الباسطية، حرق فيه نحو أربعون منزلا- بما فيها من الأمتعة، و حرق مثلها أيضا من الدكاكين بما فيها من البضائع المختلفة و مات في هذا الحريق عدة أشخاص، كما

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٤٣

فصلنا بيان هذا في الكلام على سبب بناء المسجد الحرام بالقباب في مبحث خاص بعنوان "الحريق الثانى بقرب المسجد الحرام". وقع هذا الحريق و الناس فى صلاة العشاء، فى الليلة المذكورة، و دام إلى قبل الفجر بساعة واحدة، و قام الناس فزعين لإطفاء هذا الحريق العظيم، و جاء رجال الشرطة و رجال الإطفاء بمكة و انضم إليهم مطافئ جدة و مطافئ المطار بسيارات الإطفاء أى "أوتومبيلات الإطفاء" و أرسلت إدارة عين زبيدة و إدارة القصور و وزارة الدفاع رجالها و ناقلات الماء لحصار النار و إطفائها. و لما كانت الأزقة متلاصقة بجوار المسجد الحرام، اضطروا إلى إدخال سيارات الإطفاء و ناقلات الماء إلى نفس المسجد الحرام و إيقافها بساحته عند باب العتيق و باب الباسطية، أى بجهة المنازل التى تحترق و من السيارات التى بالمسجد الحرام مدوا خراطيم المياه و أخرجوها من باب القطبى و باب الباسطية و باب العتيق لحصار النار، فى محلة قاعة الشفاء، و عدم سريانها إلى الأماكن المجاورة، كما أتت سيارات أخرى للإطفاء من خارج المسجد من جهة الشبيكة و وقفت عند مدخل قاعة الشفاء، و مدوا خراطيم المياه إلى المنازل التى تحترق لإطفاء النار حتى حاصروها و أطفئوها قبل الفجر بساعة واحدة. كما بينا ذلك مفصلا فى محله، و لو لا لطف الله تعالى لا حترق جانب كبير من مكة "إن الله بالناس لرؤوف رحيم". ففى هذه الحادثة تكون السيارات أى "الأوتومبيلات" دخلت المسجد الحرام لأول مرة فى التاريخ و مكثت تتردد فيه أسبوعا واحدا حتى اطمئنوا إلى خمود النار تحت الدمار و الهدميات. و من المصادفات الحسنة، أنه فى هذه الجهة، قامت الهدميات و العمل جار فى توسعة المسجد الحرام، فالطريق ممهد بطبيعة الحال و لم يكن إلا مساعدات قليلة لاجتياز هذه السيارات الضخمة، و لقد دخلت هذه السيارات إلى المسجد الحرام من جهة المسعى بقرب الصفا أى من "باب على" المقابل لبئر زمزم فتمشى بالمسجد حتى تقف بالقرب من باب الباسطية، ثم تمتد منها خراطيم المياه إلى محلات الحريق.

و إن من أعظم لطف الله تعالى و قوف الهواء فى هذه الليلة و قوفا تاما، فلو تحرك الهواء لاشتعلت النار أكثر و امتد الحريق إلى جهات متعددة فى البلدة. فالحمد لله الذى قدر هذا و لطف فيه "إن الله بالناس لرؤوف رحيم".

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٤٤

ذكر بعض الحوادث المتفرقة

ذكر الغازي نقلا عن "تحصيل المرام: "و في سنة (١٠٨١) إحدى وثمانين و ألف يوم الجمعة دخل رجل أعجمي المسجد، و السيف في يده، و الخطيب يخطب، فصرخ على الخطيب، و أشار إليه بالسيف، و قال: أنا المهدي. فدفعه الناس عن الخطيب و ضرب الأعمى حتى مات و حرقوه بالمعلی. انتهى.

و ذكر السنجاری في "منايح الكرم" هذه الحادثة بأبسط من هذا و هذه عبارته: و في سنة (١٠٨١) يوم الجمعة السادس و العشرين من رمضان دخل المسجد رجل أعجمي، بيده سيف، و الخطيب يخطب، و هو ينادي بالفارسية ما معناه أنه المهدي، و جلس في صحن الطواف إلى أن فرغ الخطيب، فلما أراد أن ينزل قصده الأعمى بالسيف، و أراد ضربه، فرد في وجهه باب المنبر، و كان الخطيب ذلك اليوم القاضي محمد بن موسى القليوبي المكي، فتلاحقته العامة من العساكر و المجاورين، فضربوا الأعمى بالسيوف إلى أن أثنوه جراحة، و سحبوه إلى أن أخرجوه من باب السلام، ثم جرت العامة من أولاد السوق إلى المعلاة، و جعلوا عليه قمامة و أحرقوه فيها. و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم.

و فيه أيضا و في سنة (١١٢٣) يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة تعرّض للخطيب رجل من السوق، و في يده جنيبة مسلولة، فعند وصول الخطيب إلى المنبر ضربه بها فتلقى عنه المرقى، و فعل هكذا ثانيا و ثالثا و المرقى يتلقاها، ثم هرب الخطيب و صعد الرجل المنبر، و السكينة في يده، يومى بها إلى من طلع إليه، فطلع إليه رجلا: تركى و عبد زنجى، و مسكوه و أنزلوه من المنبر، ف وقعت فيه العامة ضربا و أخرجوه من المسجد و أثنوه إلى أن مات. انتهى.

و في سنة ألف و مائتين و ثمانية و أربعين خرج بعد العشاء، ليلئ الجمعة، رجل بالمسجد الحرام، و عظ الناس، و أخبر أن المهدي يخرج غدا. فارتجت البلد لذلك.

فلما كان وقت الجمعة، امتنع الخطيب من الخطبة، إلا- أن يحضر الأمير و العساكر حول المنبر، فأجيب لذلك. و كان خطيب تلك الجمعة السيد محمد ميرة، فلما صعد المنبر أتى الشخص المدعى أنه المهدي، فاستقبلته العساكر، و قبضوا عليه و حبسوه إلى أن ينظروا أمره، بعد صلاة العصر. فلما جاء وقت صلاة العصر، لم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٤٥

يجدوه في الحبس، و الحديد الذي كان مربوطا به، محطوط محلّه، كذا في نزهة الفكر للشيخ الحضراوى. انتهى.

و في خلاصة الكلام و في شهر رجب سنة (١٢٠٣) وقعت حادثة بمكة و هي أن يوم الجمعة، كان الخطيب الشيخ عبد السلام الحرشى، فتعرّض له عند المنبر بنقالي، قيل مجنون، قبل الصلاة، و ضربه سكيناً قطع به أمعاه، فكانت هي القاضية. و وقع في المسجد ضجة عظيمة، حتى أشاع بعض العوام أن المهدي المنتظر ظهر بين الركن و المقام، و عما قليل زال الالتباس، و تقدم خطيب آخر فخطب، و صلى بالناس، و أمر مولانا الشريف غالب، أمير مكة، بصلب ذلك القاتل، فصلب. انتهى.

و في تاج تواريخ البشر: و في ثانی جمعة من رمضان من سنة (١٢٩٦) ألف و مائتين و ست و تسعين بينما الخطيب، على المنبر بالمسجد الحرام، إذ جاء رجل سنادى، من ناحية باب الصفا، يشتد و يسعى حتى رقا المنبر، و في يده سيف بحدین، فتلقاه المبلّغ، فضربه الرجل في جبهته، فبرك عليه المبلّغ حتى دحرجه، فوكزه الناس و ضربوه، ثم وصلوا به إلى الديوان، و قد اضطرب المسجد الحرام في تلك الساعة، فقائل هذا المهدي و قائل غير ذلك، و لما قضيت الصلاة ضربوه نحو مائتين من السياط ثم وضعوه في الخشب، و أرسلوه إلى الطائف لأمير مكة المكرمة الشريف حسين بن محمد بن عون، فلما وقف بين يديه، قال له: أنت المهدي؟

قال: لا، و لكنى رجل أقرأ و ردا و إذا قرأتها يصير بى حال، فكتبت بعض المواعظ و قصدي أعطيها للخطيب ليعظ بها الناس فضرّبوني،

و جرح نفسه مكبر الخطيب، فقال أمير مكة: هذا رجل مجنون و وضعه في السجن. انتهى.
قال الغازي في الجزء الأول من تاريخه: و في سنة (١٠١٢) اثنى عشر و ألف، ظهر التبناك و الدخان بأرض الحجاز و مكة و الشام في هذا التاريخ و لم يعرف قبل ذلك، كذا في تحصيل المرام.

ثم قال فيه أيضا: و مما كان في دولة مولانا الشريف مسعود أنه منع الناس من التظاهر بشرب الدخان، فرغ من القهاوى و الأسواق، و صار حاكمه يقبض على من يراه عنده من الأطواق، و كان ذلك في سنة (١١٤٩) تسع و أربعين و مائة و ألف.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٤٦

نقول: في سنة (١٣٣٨) ثمان و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة تقريبا، وجدت أول ما كينة لعمل الثلج بمكة، شرفها الله تعالى، و قبل هذه السنة لا يعرف الثلج بمكة، و إنما كان يبرد الماء بتعرضه للهواء في الأواني الطينية و الفخارية، كالأزيار و القلل المسماة في الحجاز "الشرايب" بكسر الشين المعجمة، و من بعد عام (١٣٥٠)، أى في عصر الحكومة السعودية، كثرت مصانع الثلج بمكة، و جميع المملكة تدريجيا، حتى صار الآن بمكة و حدها عدة مصانع للثلج.

بعض ما حصل بمكة و ما حولها من القتال و النهب

نذكر هنا بعض ما حصل بمكة من القتل و القتال و غيره مما يخل بالأمن و الأمان، و نذكر ذلك من تاريخ الغازي، رحمه الله تعالى، لأنه جامع لأشوات الأخبار، و لا نذكر ما يأتي من قبيل التشهير و النيل من أهل الزمان السابق، غفر الله لنا و لهم، بل نذكره لنقارن بين ما كان سابقا من الخوف و عدم الاطمئنان، و بين ما نحن فيه من الأمن و الأمان، بفضل الله تعالى و رحمته، فتزداد شكرا لله تعالى ليزيدنا من بزه و إحسانه و فضله و رحمته. و قد حصل قتال بين الجن و بين بنى سهم من قريش زمن الجاهلية ذكر ذلك الإمام الأزرقى في تاريخه لكن لا نريد ذكره هنا و ربما نذكره في موضع آخر من الكتاب.

و قد جاء في تاريخ الغازي: أنه في سنة (٢٩٩) تسع و تسعين و مائتين كانت واقعة بين عجب بن حاج و بين الأجناد بمنى، ثانی عشر ذی الحجة و أصابت الحجاج من عودتهم عطش شديد، فمات منهم جماعة، و حكى أن أحدهم كان يبول في كفه و يشربه.
و في سنة (٣٥٥) خمس و خمسين و ثلاثمائة قطعت بنو سليم الطريق على الحجيج من أهل مصر، و أخذوا منهم عشرين ألف بعير بأعمالها، و عليها من الأموال و الأمتعة ما لا يقوم كثيره، و بقى الحجاج في البوادي فهلك أكثرهم، كذا في حسن المحاضرة، ذكره في "تحصيل المرام".

و ذكر ابن فهد أيضا هذه الواقعة في حوادث سنة خمس و خمسين و ثلاثمائة و هذا نصه: و فيها نهبت بنو سليم حاج مصر و الشام، و كانوا عالما كثيرا، و أخذ جميع ما كان معهم من الأموال، و كان ما لا حد له، لأن كثيرا من الناس، من أهل الثغور و الشام، هربوا خوفا من الروم بأموالهم و أهلهم، و قصدوا مكة ليسيروا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٤٧

منها إلى العراق فأخذوا و قتل أمير الركب و هلك من الناس ما لا يحصى و تمزقوا في البرارى و لم يسلم إلا القليل ورد على الحاج بعض ما أخذ منهم في السنة التي بعدها. انتهى.

و قال ابن فهد أيضا في حوادث سنة (٣٩٥) خمس و تسعين و ثلاثمائة و فيها أصاب حاج العراق رياح و أهوال، و طرحت العرب من خفاجة الحنظل في المياه، فهلكوا عطشا ثم أخذوهم و نهبوهم. انتهى.

و في سنة (٤١٠) أربعمائة و عشرة قتل بمكة هادى المستجاشى، و كان ظهر، في آخر أيام الحاكم العبيدى صاحب مصر، و صار يدعو إلى عبادة الحاكم، فحكى عنه أنه سب رسول الله صلى الله عليه و سلم، و بصق على المصحف الشريف، و سار في البوادي، يدعو إلى أن قتله الله تعالى، و ذلك أنه لما وصلها و نزل على أبى الفتوح، و أعطاه الزمام، و صار يطوف بالكعبة، فكلما رآه المجاورون،

مضوا إلى أبي الفتوح، وذكروا له شأنه، وأنه لا يستتاب. فقال: هذا قد نزل على وأعطيته الذمام. فقالوا: لا يصح أن يعطى الذمام. فدافعهم أبو الفتوح، فاجتمع الناس عند باب الكعبة، وضحجوا إلى الله تعالى، وبكوا، ففضى الله تعالى بإرسال ريح سوداء حتى أظلمت الدنيا و صار للكعبة نور كنور الترس و لم يزل كذلك يرى ليلا و نهارا على حالة واحدة، مدة سبعة عشر يوما. فلما رأى أبو الفتوح ذلك، أمر بالغريم و غلام له مغربي، فضربت أعناقهما و صلبا، و لم يزل المغاربة يرجمونهما بالحجارة، حتى سقطا إلى الأرض، فجمعوا لهما حطبا و أحرقوهما. كذا في "درر الفرائد".

و في تاريخ ابن فهد، بعد قوله: و أعطيته الذمام، فقالوا: إن هذا سب و بصق. فسأله عن ذلك فأقر به، و قال: قد تبت، فقال المجاورون: توبة هذا لا تصح، و قد أمر النبي صلى الله عليه و سلم بقتل ابن خطل، و هو متعلق بأستار الكعبة، و هذا لا يصح أن يعطى الذمام، و لا ينبغي إلا قتله. انتهى.

و فيه أيضا و في سنة (٤٨٦) ست و ثمانين و أربعمئة حج الناس من الشام، فلما قضوا حجهم، و عادوا سائرين، أرسل إليهم أمير مكة محمد بن أبي هاشم عسكريا فلحقوهم، بالقرب من مكة، فنهبوا كثيرا من أموالهم و جمالهم، فعادوا مستغيثين به، و أخبروه و سألوه أن يعيد إليهم ما أخذ منهم، و شكوا إليه بعد ديارهم، فلم يغتهم بما فيه كبير جدوى، و أعاد بعض ما أخذوه منهم، فلما يتسوا التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٤٨

منه عادوا من مكة على أقيح صفة، فلما بعدوا عن مكة ظهر عليهم جموع من العرب، في عدة جهات، فضايقوهم على مال أخذوه من الحاج، بعد أن قتل منهم جماعة و افرة، و هلك كثير بالضعف و الانقطاع، و عاد السالم منهم على أقيح صورة في حالة عجيبة. انتهى. و في سنة (٥٣٩) تسع و ثلاثين و خمسمائة نهب أصحاب هاشم بن فليته أمير مكة الحجاج، بالحرم الشريف، و هم يطوفون، و ذلك نصفه كانت بين أمير الحاج و بين هاشم أمير مكة كذا في "تحصيل المرام".

و في سنة (٥٤٤) أربع و أربعين و خمسمائة كان أمير الحاج العراقي قيمان الأرجواني، فلما وصل الحاج إلى مكة، طمع أمير مكة فيهم، و استزرى بقيمان فطمع العرب، و وقفت في الطريق، و بعثوا يطلبون رسومهم. فقال قيمان للحجاج:

المصلحة أن يعطوا و نستكفي شرهم. فامتنع الحاج من ذلك، فقال لهم: فإذا لم تفعلوا فلا تزوروا السنة رسول الله صلى الله عليه و سلم، فاستفتاوا عليه، و قالوا نمضى إلى سنجر، فنشكو منك. فسار بهم إلى أن وصلوا إلى مضيق، بين مكة و المدينة، خرج عليهم العرب، من بنى زغب، بعد العصر، يوم السبت رابع عشر المحرم من سنة خمس و أربعين، فقاتلوهم، فكثرت العرب، و ظهر عجز قيمان عنهم، فطلب لنفسه أمانا، و استولوا على الحجاج، فأخذوا من الأموال و الثياب و الجمال ما لا يحصى، و أخذوا من الدنانير ألوف كثيرة. فتحدث جماعة من التجار أنه أخذ من هذا عشرة آلاف و من هذا عشرون ألفا و من هذا ثلاثون ألفا، و أخذ من خاتون أخت مسعود ما قيمته مائة ألف دينار، و تقطع الناس، و هربوا على أقدامهم يمشون في البرية، فماتوا من الجوع و العطش و العرى، و قيل إن النساء طين أجسادهن لستر العورة، و ما وصل قيمان إلى المدينة، إلا في نفر قليل، و تحملوا منها إلى البلاد، و أقام بعضهم مع العرب، حتى توصل إلى البلاد. كذا في "إتحاف الوري من أخبار أم القرى".

و في سنة (٥٥٦) خمسمائة و ست و خمسين، حج الناس، فحصلت فتنه و قتال، بين صاحب مكة و أمير الحج، فرحل الحجاج و لم يقدر بعضهم على طواف الإفاضة قال ابن الأثير: و كان ممن حج و لم يطف جدته أم أبيه فأتت في العام القابل و طافت و أحرمت بحجة أخرى و أهدت. انتهى ذكره أبو الفرس كذا في "تحصيل المرام".

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٤٩

و في "إتحاف الوري" و في سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة (٥٨٣) وقعت فتنه بعرفة، في يوم عرفة، بين العراقيين و الشاميين، و كان قد اجتمع هذه السنة حاج بالشام من بلاد العراق و الموصل و ديار الجزيرة و خلاط و بلاد الروم و مصر و غيرها، ليجمعوا بين زيارة القدس و مكة، و جعل الأمير عليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك بن محمد، المعروف بابن المقدم، أحد أكابر الأمراء

الصلاحية، بعد طلبه الإذن من صلاح الدين، فساروا إلى عرفات سالمين، وقضوا في ذلك المشاعر وأدوا الواجب والسنة، فلما كان عشية عرفة تجهز هو أصحابه، ليسيروا من عرفات، فأمر بضرب كوسائه، التي هي إمارة الرحيل، فضربها أصحابه، ورفع علم السلطان صلاح الدين، فأرسل إليه أمير الحاج العراقي مجبر الدين طاشتكين، ينهاه عن الإفاضة من عرفات قبله، ويأمره بكف أصحابه عن ضرب كوسائه، وقال: هذا موضع لا يرفع فيه إلا علم الخليفة. فقال ابن مقدم: فالسلطان مملوك أمير المؤمنين، ونحن مماليك السلطان، وليس لي معك تعلق، أنت أمير الحج العراقي وأنا أمير الحج الشامي، وكل منا يفعل ما يراه ويختار. وأمر غلمانهم فأطلعوا العلم وساروا ولم يقف ولم يسمع قوله، فلما رأى طاشتكين إصراره على مخالفته، ركب في أصحابه وأجناده، وتبعه من غوغاء الحاج العراقي، وبطاليتهم وطماعتهم، العالم الكبير والجم الغفير، وقصدوا حاج الشامي مهولين عليه، فلما قربوا منه ركب ابن المقدم أيضا بمن معه من الشاميين، فاقتتلوا وقتل من الفريقين جماعة، وخرج الأمر عن الضبط، وعجزوا عن تلافيه، فهجم جماعة العراقيين على حجاج الشام وفتكوا بهم، وقتلوا منهم جماعة ونهبت أموالهم، وسبى جماعة من نسائهم، إلا أنهم رددت عليهم. وجرح ابن المقدم عدة جراحات، وكان يكف أصحابه عن القتال، ولو أذن لهم لانتصف منهم، وزاد، ولكنه راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم، وأثخن بالجراحة، وأصابه سهم في عينه، فخر صريعا، فأخذه طاشتكين إلى خيمته، وأنزله عنده ليمرضه، وليستدرج الفارط في حقه، وساروا تلك الليلة من عرفات. فلما كان الغد يوم الخميس، يوم عيد الأبر، مات ابن المقدم بمنى، وصلى عليه بمسجد الخيف، وحمل إلى المعلاة، ودفن، ورزق الشهادة بعد الجهاد وشهود فتح بيت المقدس، رحمه الله تعالى، وأخذ طاشتكين شهادة الأعيان، أن الذنب لابن المقدم، وقوى المحضر في الديوان وأقام الحاج الشامي بمنى، على أسوأ حال. انتهى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٥٠

وفي سنة (٦٩٨) ثمان وتسعين وستمائة حصل للحجاج تشويش في سفرهم بالعطش والجوع، وتشويش عظيم بعرفات، وهو شتم في نفس مكة، ونهب خلق كثير، وأخذت ثيابهم التي عليهم، وقتل خلق، وجرح جماعة، وحصل لأبي نمى، صاحب مكة، من الجمال المنهوبة خمسمائة جمل، وكانت تباع لحوم الجمال بعد رحيل الحجاج بمكة، وأكثرهم المجاورين احترزوا من أكل لحوم الجمال، بسبب ذلك النهب. كذا في "درر الفرائد".

وفي سنة (٧٣٠) ثلاثين وسبعمائة في يوم الجمعة وأربع عشر من ذى الحجة قتل الأمير الخازندار سيف الدين ألدمر بن عبد الله الناصري بمكة، وكان من خبر ذلك، أن أمير الركب العراقي، في هذه السنة، كان من أهل توريز، يعرف بمحمد الحجيج، تقرب من أولاد جوبان، فترقى بهم إلى معرفة السلطان أبي سعيد، فعظم أمره وجعله من ندمائه، وبعثه رسولا إلى مصر غير مرة، فأعجب به السلطان، ولاقى بخاطره، إلى أن بلغه أنه يعرض في مجلس أبي سعيد شيء ذكره مما يكرهه السلطان، فتنكر له وأسر ذلك في نفسه، فلما بلغه عنه أنه صار أمير الركب العراقي، كتب إلى الشريف عطيفة بن أبي نمى سرا لأن يتحيل في قتله، فلم يجد بدا من امتثال ما أمره به.

وأطلع ولده مبارك ابن عطيفة ومن يثق به على ذلك. وتقدم إليهم بأعمال الحيلة فيه، فلما قضى الحاج النسك، عاد منهم الأمير علم الدين سنجر الجادلي إلى مصر، ومعهم جماعة، في يوم الأربعاء ثاني عشر ذى الحجة، وتأخر الأمير سيف الدين خاصى ترك أمير الحاج والأمير سيف الدين ألدمر أمير خازندار، والأمير أحمد بن خالة السلطان، ليصلوا بمكة صلاة الجمعة، ومعهم بقية حجاج مصر، فلما حضروا للجمعة، وصعد الخطيب المنبر، أراد الشريف عمل ما رسم به، فأخذ العبيد في إثارة الفتنة بين الناس بذلك، وأول ما بدأوا به، أن عبثوا ببعض حاج العراقي، وخطفوا شيئا من أموالهم، بباب المسجد الحرام، باب إبراهيم. وكان الشريف عطيفة جالسا إلى جانب الأمير خاصى ترك أمير الركب، فصرخ الناس بالأمير ألدمر، وليس عنده علم بما كتب به السلطان إلى الشريف عطيفة، وكان مع ذلك شجاعا حاد المزاج قوى النفس، فنهض ومع أصحابه وجماعة من المماليك، وقد تزايد صراخ الناس، وأتى الشريف رميته، وقبض بعض قواده وأصدقائه، فلاطفه الشريف، فلم يسكن، واشتد صياح الناس، فركب الشريف مبارك بن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٥١

عطيفة في قواد مكة بأله الحرب، وركب جند مصر، فبادر خليل ولد الأمير الدوادار، ليطفئ الفتنة، و ضرب أحد العبيد فرماه العبيد بحربة فقتله، فلما رأى أبوه ذلك اشتد غضبه، و حمل بنفسه لأخذ ثأر ولده فرمى الآخر بحربة فمات.

و يقال بل صدف الشريف مبارك بن رميثة و عمه عطيفة، و قد قصد أمير ركب العراقي، و عليه آله حرب، فقال له: ويلك تريد أن تثير فتنة؟ و هم ضربه بالدبوس، فضربه مبارك بحربة كانت في يده أنفذاها في صدره، فخر صريعا، و قضى، و قضى الله معهما بالشهادة لجماعة آخرين منهم مملوك للأمير أدمر و أمير عشرة يعرف بابن الناجي، و جماعة نسوة. و رمى مبارك بن عطيفة بسهم في يده فشلت، و ركب أهل مكة سطح الحرم و رموا الأمير أحمد و من معه بالحجارة و قد اتفرغ نشابة بين يديه، هو و من معه، و رمى بها، حتى خلص أيضا. و فرّ أمير الركب العراقي، و دخلت الخيل المسجد الحرام، و فيها جماعة من بني حسن ملبسين غيرين، و اختبئ الناس بأسرهم، و تفرق الناس، و ركب بعضهم بعضا، و نهب الناس أموالا كثيرة، و جرت أمور عجيبة و صلى الناس الجمعة، و السيوف تعمل، و خرج الناس إلى المنزلة- المنزلة موضع النزول- و الخيل في أثرهم، يضربون بالسيوف يمينا و شمالا، و ما أن وصلوا إلى المنزلة و في العين قطرة. و دخل الأمراء، بعد الهزيمة، إلى مكة لطلب الثأر، و خرجوا فارين مرة أخرى، ثم بعد ساعة جاء الأمراء خائفين، و بنو حسن و غلمانهم أشرفوا على ثنية كدى من أسفل مكة، و تحير الشريف عطيفة في أمره، و ما زال يدارى الأمر حتى خرج الحاج بأجمعهم من مكة، و أمروا بالرحيل و توجهوا إلى بلادهم. و لو لا سلم الله كانوا أنزلوا عليهم، و لم يبق من الحاج مخبر. و وقف أمير الركب المصريين في وجوههم فأمر بالرحيل. فاخبت الناس و جعل أكثر الناس يترك ما ثقل من أحمالهم و نهب الحاج بعضهم بعضا. ذكره ابن فهد.

و في سنة (٧٤٣) سبعمائة و ثلاث و أربعين كان بعرفة فتنة و قتال عظيم، بين الأشراف و أمير الحج. و قتل من الترك نحو ستة عشر رجلا و من الأشراف نفر يسير. و بعد الوقوف توجهوا إلى مكة، و تحصنوا بها، و تركوا الحضور إلى منى في أيامها، و دخل الحاج مكة قبل النفر الأول، و فوات الكثير من الناس المناسك بسبب هذه الفتنة.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٥٢

و في سنة (٧٤٤) سبعمائة و أربع و أربعين وقعت أيضا فتنة بين أمير الحاج و أهل مكة و قتل جماعة و خمدت الفتنة. و في سنة (٧٨٥) سبعمائة و خمس و ثمانين وقعت فتنة بين حاج التكرور و المغاربي و بين حجاج العراق و اليمن زمن الحج و قتل فيها نحو ألف إنسان. ذكره في "خلاصة الكلام".

و في سنة (٧٩٧) سبع و تسعين و سبعمائة في يوم التروية، حصل في المسجد الحرام جفلة، بسبب مناقرة وقعت بين بعض القوادين المعروفين بالعمرة و بين أمير الركب ابن الزين، فثارت الفتنة و صارت قتال، ظفر فيه القواد و نهب فيه أموال كثيرة للحاج و قتل بعضهم، و نهب الظهران، عرب من هذيل، الحاج في ليله عرفة بطريق عرفة عند المأزمين، و رحل الحاج بأجمعهم من منى في النفر الأول. ذكره ابن فهد.

و في سنة (٨١٠) ثمانمائة و عشرة في يوم الجمعة خامس ذى الحجة، حصل بالمسجد الحرام، فتنة انتهكت فيها حرمة المسجد، لما حصل فيه من القتال بالسلاح، و إدخال الخيل، و إراقة الدماء، و روث الخيل فيه و طول مقامها فيه.

و سبب ذلك، أن أمير الحج المصري أدب بعض غلمان القواد على حمل السلاح لنهيه عن ذلك، و حبسه، فرغب بعض مواليه في إطلاقه، فامتنع، فلما قام الناس، لصلاة الجمعة، من اليوم المذكور، هجم جماعة من القواد و دخلوا المسجد الحرام، من باب إبراهيم، راكبين خيولهم، لابسين لأمة الحرب، إلى أن انتهوا إلى مقام الحنفى. فلقبهم الترك و الحجاج، من باب إبراهيم، راكبين خيولهم، لابسين لأمة الحرب، إلى أن انتهوا إلى مقام الحنفى. فلقبهم الترك و الحجاج، و قاتلوهم إلى أن وصلوا سوق المعلافة، أسفل مكة. و ظهر المصريون و انتهب بعض دور القواد من المصريين، بالسوق المذكور، و سوق المسعى، و بعض بيوت مكة. و لما كان آخر النهار

أمر أمير الحاج بتسمير أبواب المسجد الحرام، إلا باب السلام، و باب الدريبة، و باب مدرسة المجاهديّة، لأن أمير الركب و من معه يدخلون منه. و أدخل جميع خيله المسجد الحرام، و جعلت في الرواق الشرقي، قريبا من منزله برباط الشرايبي، المسمى الآن برباط قايتباي. و باتت الخيل بالمسجد الحرام حتى الصباح، و لم يعلم أن المسجد الحرام انتهك مثل هذه الواقعة، فذهب جماعة من أعيان مكة إلى أمير الحاج المصري، و أخبروه أنه أخطأ في أمساك القائد و ضربه، فأمر بإطلاقه،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٥٣

و التمسوا من الشريف إخماد الفتنة، فبعث ولده الشريف أحمد إلى أمير الحاج، فخرج من عنده، و نادى بالأمان، فطمأنت الناس و أمّنت بعد جراحات كثيرة حصلت للفريقين، قال بعضهم و لا أعلم فتنة أعظم منها بعد القرامطة و كان القائد الذي وقعت الفتنة بسببه يقال له جراد و اتفق أن تلك السنة كانت غلاء فقال بعض الأدباء في ذلك:

وقع الغلاء بمكة و الناس أضحووا في جهاد

و الخير قل فهاهم يتقاتلون على جراد

و فيه تورية لطيفة. كذا في خلاصة الكلام و تحصيل المرام.

و في سنة (٨٧٤) أربع و سبعين و ثمانمائة في ليلة الأحد خامس عشر ربيع الثاني، وجدت سعادة أم الهدى بنت القاضي نور الدين على ابن بركات بن ظهيرة القلاشي مقتولة على فراشها بالخنق، فاتهم بذلك جواربها، فدفنوا إلى الوالي، فأقرت اثنتان منهن بأنهما قتلاها خنقا و أخذتا ذهبا و مصاعا و ثيابا، فأعادتا ذلك، و كانتا قبل ذلك استعانتا بجارية أجنبية، في شراء سم، فأسقياه لستهما في لبن، فتوجعت من ذلك، و كانت معللة به إلى أن حصلت لها الشهادة، رحمها الله تعالى، فلما كان في يوم الثلاثاء السابع عشر، أشهر قطع الوالي الأذن اليمنى، من كل واحدة من جارتيهما إلى الشحمة، و قطع مارن أنفيهما و سمرتتا تسمير عطب على جملين، و بيض وجهيهما بالنورة، و دير بهما غالب شوارع البلد و أزقتها، ثم شنتنا على درب باب المعلاة، و تركنا عليه إلى ثاني تاريخه، ثم دفتنا. و أما الجارية التي اشترت السم فإنه بيض وجهها بالنورة و عزرت مقلوبه على حمار. انتهى كذا في "الإتحاف".

و في "مناخ الكرم"، و في سنة تسعمائة و اثنين و ثلاثين (٩٣٢) ورد من مصر سليمان الرئيس، متوجها إلى اليمن، و معه نحو أربعة آلاف عسكري، جهزهم الوزير أعظم إبراهيم باشا، صاحب مصر، لأخذ اليمن مددا لمن سبق من الباشاوات، فوصلوا جدة في شهر رمضان من السنة المذكورة، و صار العسكر يتعرضون العرب بالنهب، فانقطع الميرة عن مكة، بسبب ذلك، و حصل بها غلاء لذلك، ثم وصلت طائفة من العسكر إلى مكة، و أخرجوا الناس من بيوتهم، و سكنوها، و كثر أذاهم، فتسلطت عليهم العربان، و قتلتهم في طريق جدة، و أينما وجدوهم، إلى أن قتلوا تاجرين عظيمين، من تجار مكة، ظنا بهم أنهم من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٥٤

العسكر، فمنع الشريف حسن العربان بعد القتل، لكن بعدها ألح فيهم القتل و امتلأ طريق جدة منهم. فبعث الشيخ محمد بن عراق جماعة، فدفنوا ما في الطريق من جثث القتلى، و لما كثر العسكر المذكور بمكة نصبوا ييارقهم في المسجد الشريف، من باب السلام إلى باب علي، فشكى الناس ذلك إلى الشيخ محمد بن عراق، فجلس الشيخ في المسجد، و دعا الأمير خير الدين و بعض رؤساء العسكر، و نهزهم، و أمرهم بالخروج من بيوت الناس، فأكبوا على رجله يقبلونها، و قالوا:

مقصودنا الحج و نتوجه. فقال لهم الشيخ: اذهبوا إلى منى فإن بها دورا خالية، فاسكنوها. فامتلأ أمره و خرجوا إلى منى و قتلوا بعض المفسدين منهم، امثالاً لأمر الشيخ محمد. و كان ذلك بإشارة من النبي صلى الله عليه و سلم للشيخ، فإنه كان بالمدينة، فأمر النبي صلى الله عليه و سلم بالمسير إلى مكة، قال له: توجه إلى مكة لإصلاحها. فورد مكة سادس شوال و صادف هذه الفتن و الشيخ محمد بن عراق هذا ترجمه العلامة الفري في أخبار المائة العاشرة و أما سليمان الرئيس فاستولى على محصول جدة فكان نصفه للسُلطنة لأمر مكة، و كان المحصول في ذلك العام تسعين ألف دينار ذهباً. و كان الشريف خرج من مكة و نزل الدكناء، فجاءه الخبر و وصل إليه

أمين جدّه على جاووش، و اعتذر إليه بغلبه سليمان، فقبله و أمره بالرجوع إلى جدّه. انتهى.

و فى سنة (١٠٠١) ألف و واحد حصل للحاج نهب كثير، من شخص من أشرف مكة، كان عاصيا على بنى عمه، بشرذمه معه، يتعرضون للحاج، فأعان الله أمير الحج المصرى على بيك، فقبض عليه و على طائفته، و هم غافلون ليلته تحت بعض الجبال بعيدا عن الطريق المسلوكة، و أحاط عليه بالعساكر و نزل بهم من الجبل إلى الحج، و جلس على كرسيه و نادى كل من ضاع له شىء من الحجاج ليحضر، و أقام يوما بحضرة القاضى فردوا جميع ما أخذ عليهم. ذكره فى "تاريخ البشر."

و فى سنة (١٠٢٩) ألف و تسع و عشرين وقع طرد فى المسجد الشريف، و ذلك أن جليبا من عسكر الشريف، دخل المسجد و ترك سيفه عند هندی، فجاء رجل تركى اختصم معه، و سب الهندی، فثار له الهندی بالسيف، و قتل التركى، و ثارت الناس على الهندی، فطردهم إلى باب الصفا، فلم يزالوا به حتى ضربه بعضهم بإبريق، فزلق فتكاثروا عليه، فضربه بعضهم بسلاح فمات، و أخرج من المسجد هو و التركى مقتولين. كذا فى "منايح الكرم."

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٥٥

و فى سنة (١١١٨) ألف و مائة و ثمانى عشرة فى إمارة الشريف عبد الكريم، لما كان يوم عرفه، حصل بين المحملين مشاجرة فى التقدم عند نفر. أوجبت المراماة بالرصاص، مع أن القانون القديم، أن التقدم لمحمل الحاج المصرى، ثم لما رأى حضرة الشريف ما وقع، أرسل بعض الأشراف إلى الأمراء، لتسكين الفتنة، لحفظ الحجاج و تخلف هو عن وقت نفره المعتاد إلى العشاء، إلى أن سكنت الفتنة، و شد الحاج كله، و لم يبق أحد من أهل مكة و غيرهم. ذكره فى "الإتحاف."

و فى سنة (١٢٧٢) اثنين و سبعين بعد الألف و المائتين ورد التنبيه من كامل باشا الذى كان مقيما بجدّه، لقائم مقامه بمكة، أن يجمع دلالى الرقيق، و يمنعهم من بيع الرقيق، بمقتضى أمر جاء لكامل باشا من الدولة، ففعل قائم مقام الباشا ما أمره به. فصار للناس من ذلك انزعاج و اضطراب، و صاروا يقولون: كيف يمنع بيع الرقيق الذى أجازته الشارع؟ و هاج الناس هيجانا شديدا، فاجتمع جماعة من طلبه العلم عند الشيخ جمال، و كان رئيس العلماء، و قالوا: نذهب إلى القاضى و نذاكره فى ذلك، ليراجع كامل باشا و هو يراجع الدولة فى ذلك، فاجتمع معهم، و هم ذاهبون إلى بيت القاضى، خلق كثير من غوغاء الناس، فلما دخلوا على القاضى، فرغ منهم و هرب، و دخل إلى بيت حريمه، فزاد هيجان الناس و اضطرابهم، و هاج بسبب ذلك بعض العساكر الضابطية، الذين كانوا فى دار الحكومة، و رأوا بعض الناس حاملين السلاح، و يقولون: الجهاد. فثار من ذلك فتنة عظيمة، و صار الرمي بالبندق من الفريقين، و انتشرت الفتنة و رمى البندق فى الأسواق و الطرقات، و صار القتل لكثير من العسكر و غيرهم. و توقف بعض العسكر مع بعض أهل البلد، فى المسجد الحرام، و صاروا يترامون بالبندق، و قتل فى المسجد أناس من ذلك الرمي، ففرغ بعض الناس إلى الشريف منصور بن الشريف يحيى بن سرور، و هو فى داره، و سأله تسكين هذه الفتنة، فأطلق مناديا فى مكة، لمنع الناس من الفتنة، فامتثلوا أمره، و أمن الناس و تحفظ على العساكر الشاهانية، و اطلع كثيرا منهم القلعة، و كذلك الشريف عبد الله بن ناصر أدخل كثيرا من العساكر فى دار الشريف محمد بن عون، و سكنت الفتنة. ذكره فى "خلاصة الكلام."

و فى شهر شوال سنة (١٣٢٦) ألف و ثلاثمائة و ست و عشرين، حدثت بمكة، فتنة كادت أن تفضى إلى محنة عظيمة، و سبب ذلك أن الحكومة أمرت أحمد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٥٦

القبورى أن يعمر الجدار المحيطة بالمقابر، دافعا للروايح الكريهة، الحادثة من أوساخ الناس فى القهاوى الكاينة، ثم فإنهم كانوا يتغوطون هناك، و أمره أيضا أن يعمر القبور المتهدمة، فقال لهم: أنا رجل فقير من أين أعمر ذلك؟ فقالوا: مما تقبضه من أهل الأموات، و إن لم تفعل فقد وجدنا غيرك من يقوم بهذه الخدمة. و كان يأخذ على حفر قبر الميت ما يشاء من غير معارض له، على ذلك، و على الخصوص فى زمن الحج من الحجاج. ثم بعد هذه القضية شرع يطلب الزيادة عن المعتاد، و يشدد فى الطلب من

الفقراء، و شاع بين الناس أن الحكومة أمرت للقبورى أن يأخذ على كل جنازة تدفن في المعلاة خمسة ريالات مجيديات، يأخذ منها واحد لنفسه، و الأربعة الباقية يصرفها في العمارة المذكورة. و اتفق في تلك المدة أن جاءت جنازة فقير من التكرور، فطلب القبورى منهم ما اعتاده في حفر القبر، و قال: إني مجبور على أخذ ذلك. فامتنعوا و تضاربوا، و قصدوا الحميدية، و انضم إليهم جماعة من الذين أشاعوا الخبر المذكور، و هو أن الحكومة أمرت بأخذ خمسة ريالات مجيدى على كل جنازة و صاروا يصيحون: باطل باطل، إلى أن وصلوا عند الوالى، فقال: لم أمر بذلك. فرجعوا من عنده، و لكن أثار الفتنة بعض المفسدين، فهجموا بالسلاح على دائرة الحكومة و على بعض المواقع العسكرية، و رمى بالرصاص فيما بين الصفا و باب الوداع و بالمسجد الحرام، و قتل عدة أنفار من العسكر، و عدة من الرعايا، إلى أن خمدت الفتنة، آخر النهار، بهمة بعض الأشراف، و وكيل الإمارة الشريف محمد بن أحمد بن عبد المجيد الحمودى العبدلى و غيرهم من الأعيان. ثم بعد أيام بحثت الدولة الدولة عن سبب هذه الفتنة و شررها، و قبضت على شيخ الفتنة أحمد القبورى، و نحو عشرين من أعوانه، و من بينهم فى ذلك أيضا محمد على بن عبد الواحد، الذى كان كاتباً للشريف عون أولاد ثم كاتباً للشريف على، فى مدة إمارته، فقبض عليه أيضا و نفوا إلى الآستانة و حبسوا هناك مدة مات فيها محمد على، ثم أرجعوا إلى المحاكمة، ثانيا فى بيروت، ثم أطلق سراحهم، و رجعوا مكة بعد سنة تقريبا. ذكره فى "نزهة الأنظار و الفكر." انتهى كل ما ذكره من تاريخ الغازى.

نقول: إن ما ذكرناه هنا من الأحداث التى وقعت بمكة ليس من باب حصر الوقائع، فلو عددنا كل ما وقع من صدر الإسلام إلى اليوم لاحتجنا إلى مؤلف خاص. و إنما ذكرنا ما تقدم لنقارن بين الزمن الماضى و الزمن الحاضر. و يجب علينا أن نحمد الله تعالى ليل نهار على نعمة الأمن و الأمان الشامل لجميع مملكتنا، و لا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٥٧

نبالغ أن قلنا أنه لا توجد مملكة كالمملكة العربية السعودية فى شمول الأمن لجميع أطرافها، و ما ذلك أولا إلا بفضل الله و رحمته عز شأنه و تقديست أسماؤه، ثم بحسن نية جلاله مليكنا المعظم "سعود بن عبد العزيز آل سعود" و عنايته التامة بجميع مرافق المملكة، أدام الله عليه توفيقاته و أدام عزه و نصره.

الأمن و الأمان فى العهد السعودى

كان الحجاز، فى العهود السابقة، مضطرب الأحوال، من جهة الأمن و الأمان، و ذلك بسبب كثرة الحروب و الخصومات، بين الحكام و الولاة من قديم الزمان، حتى أن الحرب لتكون فى منطقة الحرم، بل تكون أحيانا فى داخل المسجد الحرام، فيموج الناس موجا و يضطربون اضطرابا، إلى أن تسكن الفتنة أو ينتصر أحد الخصمين من حكام مكة.

و أما عن خوف الحجاج، فى موسم الحج، فى كل عام، فحدث عن ذلك ما شئت، فما كان الحجاج يأمنون على أنفسهم و لا على أموالهم، مع ما يدفونه من الأتاوى لمشايخ العربان و رؤسائهم، و مع ما يصحبهم من الجنود و الحرس المسلحين، مع كل ذلك أيضا، كان الحجاج، إذا وصلوا إلى أرض الحجاز، عن طريق البر أو البحر، يعترهم الخوف و الوجل، ما داموا فى طرق الحج و الزيارة، بل كان الحاج إذا أراد الخروج إلى الحج يودعه أهله و داع من لا يعود إلى وطنه ثانيا.

لهذا كله جعلت الحكومات السابقة، منذ القرن الخامس تقريبا، أسوارا بمكة و بجدة و بالمدينة، فقد كان بمكة سور بجهة المعلا، و سور بجهة الشبيكة، و سور بجهة المسفلة، و رب قائل يقول: لماذا هذه الأسوار الثلاثة لمكة، بينما جرت العادة أن تكون البلدة لها سور واحد فقط، يحيط بها من جميع الجهات؟

فنقول: إن الله تعالى أحاط بلده الأمين "مكة" بالجبال من جميع جهاتها، و جعل لها من أصل الخلق ثلاثة منافذ، طريق من جهة المعلا، و طريق من جهة المسفلة، و طريق من جهة الشبيكة، فعلى هذه الجهات الثلاثة جعلت هذه الأسوار، فيكون كل سور مبنى

بالعرض، أحد طرفيه في الجبل الذي عن اليمين و طرفه الثاني في الجبل الذي يقابله عن الشمال، و في كل سور باب يفتح و يقفل. و لقد هدمت هذه الأسوار كلها و لم يبق لها أثر الآن مطلقا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٥٨

ثم إن الحكومة التركية العثمانية، لما كان الحجاز تحت حكمها، بنت فوق التلال الصغيرة، جملة قلاع صغيرة فيما بين جدة و مكة و فيما بين مكة و المدينة و في بعض الطرق التي يجتازها الأعراب، و هذه القلاع تكون أسطوانية الشكل تسع نحو عشرين جنديا فقط، فكان فيما بين مكة و جدة نحو عشر قلاع من هذه القلاع الصغيرة، لم يبق منها الآن شيء ما عدا أطلال قلعة أو قلعتين.

كما بنت الحكومة التركية أيضا ثلاث قلاع كبيرة بمكة:

(١) قلعة أجياد: و هذه لا زالت موجودة إلى اليوم و بها جنود.

(٢) قلعة جبل هندی: و هذه لا زالت أيضا موجودة.

(٣) قلعة فلل أي جبل لعلع: و قد هدمت هذه القلعة و بنى مكانها دارا للأسلحة.

كما بنت الحكومة المذكورة بمكة أيضا قشلاق جرول للجنود، و لا زالت موجودة إلى اليوم عامرة بالجنود، و قشلاق آخر بأجياد. و هذه لا زالت موجودة أيضا، و هي الآن بقرب وزارة المالية و بعض الدوائر الحكومية.

و كان بعض حكام مكة، بينون بجبل أبي قبيس، دورا للحرب، يتحصنون فيها بالرجال و الأسلحة ضد خصومهم، و منذ أن تولى جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، رحمه الله تعالى، على الحجاز، سنة (١٣٤٣ هـ) حصل الأمن فيها بصورة منقطعة النظر، بحيث لا- توجد الآن مملكة على وجه الأرض في الأمن و الأمان مثل المملكة العربية السعودية، فقد بسط الأمن ذراعيه في أطراف المملكة سهلها و جبالها، يمشى المرء وحده في أي بقعة ليلا أو نهارا و هو آمن على نفسه و على ما معه من المال. و تأتي هذه آلاف المؤلفة من الحجيج في موسم كل عام على الحرمين الشريفين، فلا يرون إلا الراحة و الطمأنينة و الأمان.

إن هذا الأمن الواقع بأطراف المملكة العربية السعودية هو حديث الخاص و العام، داخل المملكة و خارجها، و لا يزال إلى اليوم رجالنا المعمرون الذين شاهدوا الحالتين من الحضر و البدو، يتفكّهون في المجالس بما كانت حالة البلاد من الخوف و التعدي على الحجاج، و ما أصبحت الآن من الأمن و الطمأنينة في طول البلاد و عرضها.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٥٩

و لا شك أن ذلك راجع أولا إلى رحمة الله تعالى بعباده و عظيم فضله و إحسانه، ثم إلى يقظة حكومتنا السنية و حرصها على راحة شعبها و رعاياها، و توجد الآن في جميع الطرق بالمملكة مركز متفرقة للشرطة. فبين مكة و جدة توجد نحو عشرة مراكز للشرطة، و هذه المراكز بنيت منذ أربع سنوات على شكل بيوت صغيرة- أو بعبارة أخرى- على شكل "فيلات" جميلة في كل منها بضع من الجنود، و ليست هذه المراكز كالقلاع الصغيرة التي كانت مبنية في الطريق فإن هذه بنيت للحرب مع المعتدين من البدو، و أما هذه المراكز الحديثة فإنها وضعت للمحافظة على الطريق و على المسافرين و مراقبة السيارات، حتى لا تخرج عن حدود السير فتقع من الحوادث ما لا يحمد عقباه.

نسأل الله الكريم أن يجزي عنا حكومتنا السنية خير الجزاء، و أن يؤيد حضرة صاحب الجلالة مليكنا العظيم بالجز و النصر و أن يوفقه لكل ما فيه صالح العباد و البلاد آمين.

بعض الأمور العجيبة التي وقعت بمكة

إن ما نذكره هنا من الأمور العجيبة و الأحوال الغريبة، التي حصلت بمكة المكرمة من الأمطار و السيول و الرياح و الصواعق و أشبهها، إنما هو للعة و الاعتبار و التذكر و الافتقار، فسبحان الذي يلفظ بعباده فيما جرت به المقادير.

و ليس ذكرنا هذه الأمور من قبيل الحصر و التعداد، فقد يكون هناك من الحوادث ما غفل التاريخ عن ذكرها، و إننا لا نتعرض هنا لذكر الحوادث التي وقعت بمكة بسبب الحروب، لأننا أهملنا ذكر جميع الحروب، التي وقعت بمكة، من الأزمنة السابقة، لأن ذلك من اختصاص المؤرخين السياسيين. و الحمد لله الذي عافانا من الاشتغال بالسياسة حتى نتفرغ لما هو الأصلح لمثلنا ففي الصحيحين "كل ميسر لما خلق له" و إن ما نذكره هنا من الأمور العجيبة الواقعة بمكة فقط، فقد نقلناه من تاريخ العلامة الشيخ عبد الله الغازي المكي المتوفى في اليوم الخامس من شهر شعبان سنة (١٣٦٥) خمس و ستين و ثلاثمائة بعد الألف لأين تاريخه كالقاموس المحيط جامع لأكثر كتب التاريخ.

و نحن هنا لا نقل من تاريخه نص كلامه، و إنما نقل منه زبدة مختصرة جدا حتى لا يطول بنا الكلام.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٦٠

فقد جاء في الجزء الأول منه في الباب الثامن، ما ملخصه في هذا الجدول، الذي نحن عملناه و رتبناه لسهولة المطالعة:

السنة الهجرية بالأرقام / السنة بالحروف / الحوادث الخاصة

١٥٤ / أربع و خمسين و مائة / وقعت صاعقة في المسجد الحرام فقتلت خمسة أشخاص.

٥٨١ / إحدى و ثمانين و خمسمائة / مات في جوف الكعبة من الزحام أربعة و ثلاثون شخصا.

٥٩٢ / اثنين و تسعين و خمسمائة / بعد خروج الحاج من مكة هبت ريح سوداء عمت الدنيا و وقع على الناس رمل أحمر، و وقعت من

الركن اليماني و تحرك البيت الحرام مرارا.

٥٩٧ / خمسمائة و سبع و تسعين / نقلا عن كتابه "إتحاف الوري بأخبار أم القرى" حل الوباء بالطائف من أول شهر رجب من السنة

المذكورة إلى أول رمضان، حتى ما بقى بالطائف ساكن، و كان الطاعون الذي نزل بهم إذا ظهرت علامته في أبدانهم لا يتجاوزون

خمس أيام و من جاوزها لم يهلك، و امتلأت مكة بأهل الطائف، و بقيت ديارهم مفتحة، و اقمشتهم مطروحة، و دوابهم في مرعاها، و

كان الغريب في تلك المدة إذا مر بأرضهم فتناول شيئا من أموالهم و دوابهم و طعامهم أصابه الطاعون من ساعته، و إذا مر و لم يأخذ

شيئا سلم من ذلك، فحمى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٦١

السنة الهجرية بالأرقام / السنة بالحروف / الحوادث الخاصة

الله تعالى أموالهم في تلك المدة لمن بقى منهم و لمن ورثهم ... الخ.

٦٠٠ / ستمائة تقريبا / جاء سيل بمكة و وقعت صاعقة على جبل أبي قبيس فقتلت رجلين، و وقعت صاعقة أخرى بمسجد الخيف فقتلت

رجلا واحدا، و وقعت صاعقة ثالثة في الجعرانة قتلت رجلين، و صاعقة هلك بها بعض مؤذني الحرم، و صاعقة بالمسجد الحرام قتلت

خمس أشخاص.

٦١٧ / سبع عشرة و ستمائة / مات بالمسعى من الزحام أناس من الحجاج.

٦٤٤ / أربع و أربعين و ستمائة / هبت ريح عاصفة شديدة بمكة، فألقت ستارة الكعبة المشرفة حتى صارت عريانة، و مكثت كذلك

أحد و عشرين يوما.

٦٦١ / إحدى و ستين و ستمائة / عطش الناس بعرفة و كان يوما شديد الحر، حتى بيعت سخلة الماء بأربعة دنانير، و المراد بالسخلة

القربة الصغيرة جدا.

٦٧٧ / سبع و سبعين و ستمائة / مات بباب العمرة من الزحام ثمانون شخصا، و ذلك أنه، عند خروج الحاج إلى العمرة، بعد صلاة

الصبح، اعترضهم جمل في آخر الزقاق الضيق فزحم بعضهم بعضا فقتل منهم في وقته خمسة و أربعون،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٦٢

السنة الهجرية بالأرقام/ السنة بالحروف/ الحوادث الخاصة

و نقل كثير إلى منزله و مات عند أهله.

٦٩٥/ خمس و تسعين و ستمائة/ وقعت صاعقة على مأذنة باب على في المسجد الحرام، فمات منها الشيخ تاج الدين على بن محمد الكازروني المؤذن.

٧٣٢/ اثنتين و ثلاثين و سبعمائة/ في أواخر ذى الحجة وقعت بمكة امطار و صواعق، منها صاعقة نزلت على أبي قبيس فقتلت رجلا، و أخرى بالخيف فقتلت رجلين، و ثالثة بالجعرانة فقتلت رجلين أيضا.

٧٤٩/ سبعمائة و تسع و أربعين/ وقع بمكة و الطائف و جدة و عامة بلاد الحجاز و بواديهها، و باء عظيم و جافت البلاد و هلك كثير من الجمال، قيل لم يبق بجده سوى أربعة انفاس، و خلت الطائف و لم يبق فيها إلا القليل، و كان يموت من أهل مكة في كل يوم نحو من عشرين نفسا، فدام الحال مدة ثم ارتفع و كان هذا الوباء عاما في جميع البلاد، و بديار مصر كان أعظم.

٧٥٠/ خمسين و سبعمائة/ وقعت بمكة ريح سوداء و مطر و صاعقة، وقعت بسببها جميع الأعمدة، التي حول المطاف، و التي جددها فارس الدين فلم يبق منها غير عمودين.

٧٧١/ إحدى و سبعين و سبعمائة/ في الليلة الثانية من جمادى الأولى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٦٣

السنة الهجرية بالأرقام/ السنة بالحروف/ الحوادث الخاصة

سقطت مئذنة باب الحزورة- أى باب الوداع- في ليلة مطيرة و كفى الله شرّها فلم يحصل منها أى ضرر لأحد، فأمر الملك الأشرف شعبان بن حسين صاحب مصر بعمارتها.

٨٢٥/ ثمانمائة و خمس و عشرين/ في اليوم السابع و العشرين من ذى الحجة هجم سيل على المسجد الحرام و نزلت صاعقة بالطندباوى بأسفل مكة فقتلت أربعة أشخاص.

٨٤٥/ خمس و أربعين و ثمانمائة/ صبح اليوم الثاني من ذى الحجة مات سبعة أشخاص في الطواف من الزحام.

٨٦٠/ ستين و ثمانمائة/ حصل بمزدلفة مطر عظيم، فوقع فيها برد كبار، كل واحدة قدر الحنظلة.

٨٧٦/ ست و سبعين و ثمانمائة/ وقعت صاعقة بالردم من مكة فقتلت امرأة مصرية و رجل مقديشيا.

٨٨١/ إحدى و ثمانين و ثمانمائة/ مات من الزحام بالكعبة خمسة و عشرون شخصا

٨٨٢/ ثمانمائة و اثنين و ثمانين/ و في أوائل هذه السنة وقع بمكة موت عظيم، و كان المرء يمرض يوما أو يومين، مات في هذه الواقعة جماعة من أهل مكة و الغرباء.

و كذلك في هذه السنة وقع بجده طاعون مات من أهلها كثيرون، حتى أغلقت أبواب كثيرة، و كان

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٦٤

السنة الهجرية بالأرقام/ السنة بالحروف/ الحوادث الخاصة

في بعض الأيام يصلى على الستين ميتا في الجامع، و قد بلغ عدد الأموات كل يوم أكثر من مائة.

٨٨٣/ ثلاث و ثمانين و ثمانمائة/ حصل مطر بمكة، فنزلت صاعقة مات منها صايغ كان يتوضأ بداره بالمسئلة.

٨٩٧/ سبع و تسعين و ثمانمائة/ حصل بعرفات مطر و ريح شديدة، و نزلت صاعقة فقتلت رجلين من العرب و كانت ساعة مهولة.

٩٠٥/ خمس و تسعمائة/ وقعت صاعقة بمكة فمات منها شخص نجار و غشى على آخر و أحرقت بعض خشب طاقات من بيت الحلبي.

٩٠٦/ ست و تسعمائة/ وقع بمكة مطر و معه برد بقدر بيض النعام و بقدر البطيخة الصغيرة و أنها وزنت ثلاثة أرطال أو خمسة.

٩٠٨/ ثمان و تسعمائة/ وقع بمكة مطر و ريح قوى، وقع بسببه بالمطاف أسطوانتين من الحجارة و بعض درابزين الدور الثانى من منارة باب السلام.

٩٠٩/ تسع و تسعمائة/ فى التاسع عشر من ذى القعدة حصل بمكة مطر و رعد قوى نزلت منه صاعقه فمرت على مئذنة السلطان قايتباى فوقعت رأسها على رأس جمل فشجته فذبحوه، و انفصلت من الصاعقه جزء فصبوا عليه الماء فلم تنطف بل زادته التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٦٥
السنة الهجرية بالأرقام/ السنة بالحروف/ الحوادث الخاصة
اشتعالا فلما صبوا عليه الخل طفت.

٩٢١/ تسعمائة و إحدى و عشرين/ فى السابع عشر من شوال حصل مطر و سيل بمكة و نزل برد عظيم فوق العمرة فى طريق الوادى حتى صار ركاما، و صار الجمالون يحملونه فى المكاتل و يبيعونه مدة ثلاثة أيام، بل استمر وجود البرد فى ذلك المكان نحو جمعيتين و كان حجمه كالبيضة.

٩٨٩/ تسع و ثمانين و تسعمائة/ بينما الناس و الحجاج بمنى نزلت أمطار غزيرة و انحدرت السيول من كل جانب على الحج الشامى، حتى غرق جميعا، و غرق معه من المصريين من نزل معه، و ذهبت جمالهم و أموالهم فى الأودية، و تخطفها العربان.
١٠٢٣/ ثلاث و عشرين بعد الألف/ وقع بمكة مطر عظيم فنزل فيه برد كبار كل برده أكبر من شربة الماء.
١٠٣٩/ تسع و ثلاثين بعد الألف/ فى آخر يوم الأربعاء تاسع شعبان حصل مطر بمكة، ثم جاء سيل عظيم كبير، فدخل المسجد الحرام و الكعبة المشرفة، و سقطت جدرانها ثم بناها السلطان مراد بناء جديدا.
و قد مات فى هذا السيل نحو ألف إنسان.

١٠٤٣/ ألف و ثلاث و أربعين/ وقع الموت بمكة فى الخيول، حتى فنت، فلم يبق منها بمكة إلا فرس التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٦٦
السنة الهجرية بالأرقام/ السنة بالحروف/ الحوادث الخاصة
واحد، أخذوها لشريف مكة، و صارت الأشراف تركب الحمير.

١٠٥٣/ ثلاث و خمسين بعد الألف/ وقع سيل عظيم بعرفات و استمر من الظهر إلى المغرب، فلما نفر الناس عاقهم السيل المعترض، من تحت العلمين عن المرور، و منعهم من دخول الحرم، فاستمر الناس وقوفا إلى آخر الليل، حتى خف قليلا فقطعوه بغاية المشقة.
١٠٧٩/ تسع و سبعين بعد الألف/ فى صباح اليوم الحادى عشر من ذى القعدة بعد طلوع الشمس بساعتين ظهر فى عين الشمس ضوء هائل كالنجم فامتد إلى جهة المغرب، و حصل على بصر من رآه غشاوة، فارتعدت منه الفرائص و انزعجت منه القلوب، و فى ضوئه زرقة و حمرة و صفرة، ثم ذهب طرفاه و بقى الوسط و اتسع فى العرض، فخرج منه صوت كالرعد و لم يكن فى السماء غيم و لا سحب و استمر ساعة ثم اضمحلّ الباقي من ذلك الشعاع.

١٠٨٠/ ثمانين بعد الألف/ فى اليوم التاسع و العشرين من رمضان وقعت صاعقه بمكة بالشبيكة قتلت رجلا واحدا.
١٠٩١/ إحدى و تسعين بعد الألف/ فى ثانى عشر ذى الحجة، وقع بمكة سيل عظيم، فسالت الأودية،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٦٧
السنة الهجرية بالأرقام/ السنة بالحروف/ الحوادث الخاصة
و خربت منه دور كثيرة، و أتلفت أموال لا- تحصى، و غرق نحو ثلاثمائة نفس، و قد علا- السيل باب الكعبة المعظمة، و دفع جملا محملا فى طريقه، فأدخله المسجد الحرام، حتى صار فوق المنبر، فلم يزل فوقه حتى صبح اليوم الثانى.

١١٣٦/ ست و ثلاثين و مائة و ألف/ فى اليوم التاسع من ذى الحجة و الناس واقفون بعرفات هبت عليهم ريح شديدة مظلمة بحيث

صاروا لا يرون بعضهم بعضا ساعة فلكية، فكانوا كالحيارى، و ألفت الرياح الخيام و نزل مطر شديد يبرد كبار، و أقبلت السيول من الجبال، فهرب الناس و تركوا أثقالهم، فكانت ساعة عظيمة الهول، و بعد أن هدأت الرياح، و كف المطر، و ضعف السيل، نفرت الناس إلى مزدلفة، و قد لحقهم من التعب و المشقة ما لحقهم.

١١٥٩/ تسع و خمسين و مائة و ألف / حصل مطر عظيم بمنى، و الناس بها فى الحج، فجاء سيل كبير، و ذهب بكثير من الأموال و الحجاج، و كان ذلك آخر الليل، و قد أظلمت الدنيا، حتى لم ير الإنسان من بجانبه، فأصبح الناس نافرين إلى مكة و هم فى غاية التعب و المشقة، و كانوا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٦٨

السنة الهجرية بالأرقام / السنة بالحروف / الحوادث الخاصة

يمرون بأشخاص، من ذكور و إناث و أطفال، قد طمهم السيل.

١٢٣٠/ ألف و مائتين و ثلاثين / حصل بجدة طاعون، و مات فيه خلق كثير لا يحصى، حتى قيل إنه بلغ قريبا من ثمانية آلاف نفس، ما بين ذكر و أنثى و حر و عبد و صغير و كبير، حتى حصل إشكال فى أمر الوراثة فى من مات سابقا و من مات بعده و بالأخص فيمن كان غائبا فى الآفاق.

١٢٧٨/ ثمان و سبعين و مائتين و ألف / فى اليوم من جمادى الأولى جاء مطر كأفواه القرب بمكة، ثم هجم السيل، قبل صلاة الصبح، و دخل المسجد الحرام دفعة واحدة، حتى صار كالبحر، و طفحت بثر زمزم، و غرقت الكتب، و غرق أناس داخل المسجد و خارجه، و انحبس الشيخ عبد الرحمن الرئيس فوق قبة زمزم ذلك اليوم.

١٢٨١/ ألف و مائتين و إحدى و ثمانين / حصل و باء بمكة، و كان ابتداءه ثانى يوم النحر، و استمر سبعة أيام، و كثر الموت إلى أن بلغ من يموت فى اليوم نحو ألف نفس، ثم انتقل هذا الوباء إلى بعض البلدان الأخرى البعيدة.

١٢٨١/ إحدى و ثمانين و مائتين و ألف / مات بمنى من الزحام عند الجمره ثلاثة أشخاص.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٦٩

السنة الهجرية بالأرقام / السنة بالحروف / الحوادث الخاصة

١٢٨٦/ ست و ثمانين و مائتين و ألف / فى النصف من صفر انقض كوكب من السماء، بعد العشاء الآخرة، أضاءت منه الدنيا، و سمع لوقوعه مثل رمى المدافع، بقوة ثلاث مرات، حتى فرقعت الجبال لدويها، و قد سمع ذلك من مكة إلى الجعرانة.

١٢٨٨/ ألف و مائتين و ثمان و ثمانين / حصل فى شهر رجب، بالمدينة المنورة، و باء مات منه كثيرا من الناس، فصدرت الأوامر من الأستانة و مصر بإرسال الأطباء، و عمر كرتين بمكة بالزاهر للقادمين من المدينة المنورة، و أمر أمير مكة أربعة من الفقهاء المجدين لحفظ القرآن الكريم، أن يمشوا فى أطراف مكة من وراء العمران، من جهة المصافى بأجباد مازين من أعلى الجبال، إلى جبل حراء، فطريق العشر، فالزاهر، فالحفار، فبركة ماجن بالمسفلة، إلى أن يصلوا إلى المصافى بأجباد و هو موضع ابتداء سيرهم، و أن يختموا القرآن الكريم من أوله إلى آخره من مبتدأ سيرهم إلى انتهاء سيرهم، و ذلك تحصينا لمكة من هذا الوباء، فلما أتموا عملهم جاؤوا إلى حجر إسماعيل، عند الكعبة المشرفة، و قرأوا أيضا بعض سور من القرآن العظيم، الذى فيه شفاء و رحمة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٧٠

السنة الهجرية بالأرقام / السنة بالحروف / الحوادث الخاصة

للمؤمنين. و اجتمع العلماء و الناس و قرأوا صحيح البخارى عند البيت الحرام، و ابتهلوا إلى الله تعالى أن يرفع عنهم و عن سائر المسلمين سوء فتداركهم الله برحمته و حفظهم من الوباء.

١٢٨٨/ ثمان و ثمانين و مائتين و ألف / ليلة الرابع و العشرين من ذى القعدة ظهرت بمكة، فى الساعة الرابعة من الليل، حمرة فى السماء

بين المشرق و الشمال، إلى الساعة السادسة، و كانت مثل لهب النار، حتى فزع الناس و العساكر الشاهانية إلى جهة المعابدة لظنهم أنه من حريق بعض الدور.

١٢٩٠/ تسعين و مائتين و ألف/ في آخر اليوم السابع من رجب جاءت ريح شديدة بمكة منعت رؤية البيت الحرام، فانزعج الناس و ارتجت قلوبهم.

ما وقع بمكة من الرخاء و الغلاء و القحط و الوباء

السنة الهجرية بالأرقام/ السنة بالحروف/ الحوادث الخاصة

٦٤/ أربع و ستين/ في حصار ابن الزبير، رضى الله عنهما، بلغ قيمة الدجاجة بمكة عشرة دراهم، و المد من الذرة بعشرين درهما، مع العلم بأن الدينار في ذلك الزمن يساوى عشرة دراهم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٧١

السنة الهجرية بالأرقام/ السنة بالحروف/ الحوادث الخاصة

٢٥١/ إحدى و خمسين و مائتين/ بلغ الخبز بمكة ثلاثة أواق بدرهم، و رطل اللحم بأربعة دراهم، و شربة الماء بثلاثة دراهم، و بلغ الخبز عشرة أرطال بدينار مغربي، ثم تعذر وجوده، فأشرف الناس و الحجاج على الهلاك، فأرسل الله عليهم من الجراد ما ملئ الأرض ثم يسر الله الأمر على أهل مكة.

٤٥١/ إحدى و خمسين و أربعمائة/ كان بمكة رخص لم يشاهد مثله حتى بلغ مائتي رطل من التمر و الزبيب بدينار.

٥٦٩/ تسعة و ستين و خمسمائة/ كان بمكة غلاء كبير أكل الناس فيه الجلود و العظام و الدم، و مات أكثر الناس ثم فرج الله تعالى عليهم.

٥٧٩/ تسعة و سبعين و خمسمائة/ لحق بأهل مكة جهد كبير، و أضر بهم القحط، و أهلك المواشى الجرب، فحرض القاضى الناس على صيام ثلاثة أيام، ثم اجتمع الناس كافة للإستسقاء بالمسجد الحرام، و فتحت الكعبة، و أخرج مقام إبراهيم من جوفها، و وضع على عتبتها، و أخرج منها مصحف عثمان، رضى الله عنه، و نشر يازاء المقام، فصلى القاضى بالناس صلاة الإستسقاء ثلاثة أيام حتى لطف الله بسكان حرمه و فرج عنهم.

٦١٤/ أربع عشرة و ستمائة/ بيع بمكة مدة شهرين ربع مد من الحب بدينار ذهب، و تعرف هذه السنة بسنة أم لحم.

٦٢٧/ سبعة و عشرين و ستمائة/ بلغ السعر بالطائف عشرين صاعا بدينار و السمن مئتان بدينار ملكى، و التمر ستة أمان بدرهم، و العسل سبعة أمان مكية بدينار ملكى، فإذا رخص السعر بالطائف رخص بمكة أيضا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٧٢

السنة الهجرية بالأرقام/ السنة بالحروف/ الحوادث الخاصة

٦٥١/ إحدى و خمسين و ستمائة/ كثر الحجاج في أيام موسم الحج فعضش الناس عطشا شديدا فبيعت بمكة شربة الماء بدرهم، و الشاه بأربعين درهما، و بيع الشعير و الدخن بالطائف مد و ربع بدينار.

٦٩٥/ خمسة و تسعين و ستمائة/ اشتد الغلاء بمكة حتى بيعت غرارة القمح في مكة بألف و مائتي درهم.

٧٠٧/ سبعة و سبعمائة/ بلغت بمكة غرارة الحنطة ألفا و خمسمائة درهم، و الذرة أكثر من سبعمائة، و الغرارة اللويبة المصرية مقدارها غرارتان مكيتان و نحو نصف غرارة، و يحتمل أن تكون الغرارة المشار إليها هى الغرارة المكية و الله تعالى أعلم، نقله الغازى عن ابن فهد.

٧٢٥/ خمسة و عشرين و سبعمائة/ كان بمكة رخاء بيع أردب القمح المصرى بثمانية عشر درهما كاملية و الشعير باثنى عشر درهما.

٧٣٨/ ثمان و ثلاثين و سبعمائة/ بيعت و يبة الدقيق الفاخر بتسعة دراهم، و السمن خمسة أرتال بدرهم، و العسل أربعة أرتال بدرهم، و اللحم أربعة أرتال بدرهم، و العجوة اثنتى عشر رطلا بدرهم.

٧٤٤/ أربعة و أربعين و سبعمائة/ حصل غلاء عظيم بمكة فبيعت اللويبة من الشعير بدينار، و الرطل البقسماط بثلاث دراهم، و اللويبة من الدقيق بخمسين درهما و الأردب الحب بمائتى درهم.

٧٦٠/ ستين و سبعمائة/ خلت مكة خلوا عظيمًا، و تفرق الناس فى سائر الأقطار من الغلاء و جور الحكام.

٧٦٦/ ستة و ستين و سبعمائة/ كان بمكة غلاء عظيم حصل منه للناس كرب و شدة قال ابن فهد: و عدم الحب حتى لم يوجد فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٧٣

السنة الهجرية بالأرقام/ السنة بالحروف/ الحوادث الخاصة

مكة شىء منه و أقام السوق نحو الشهر لم يوجد فيه حب و لا تمر إلا قليل من اللحم و الخضر، و عز وجود الأقوات بها فهلك جماعة كثيرة جوعا اه.

قيل إن الناس أكلوا الميتة، و ذلك أنه وجد بمكة حمار ميت، و فيه أثر السكاكين، و أصيبت المواشى بالجرب، و تعرف هذه السنة بسنة أم الجرب، و استسقى الناس بالمسجد الحرام فلم يسقوا، و أحضرت المواشى إلى المسجد للاستسقاء، و أدخلت فيه، و وقفت بجهة باب العمرة إلى مقام المالكية، ثم فرج الله هذه الشدة عن الناس. و ذلك أن بعض خواص الأمير بيبفا، المعروف بالخاصكى مدير المملكة بالديار المصرية، عرف ما عليه الناس بمكة من الشدة و التعب، فأمر من فوره بإرسال ألف أردب من القمح الجدى إلى مكة عن طريق البر، و أرسل إليها عن طريق البحر إحدى عشرة ألف أردب أيضا، و فرقت كلها على الناس بمكة أحسن تفرقة و فرحوا بذلك و دعوا له.

٧٨٣/ ثلاث و ثمانين و سبعمائة/ غلت الأسعار بمكة و بلغت و يبة الدقيق إلى خمسين درهما و أكثر، و و يبة الشعير إلى أربعين درهما، و حصل بالحرمين، و غيرهما من بلاد الحجاز فى آخر هذه السنة قحط عظيم، و مات كثير من الأشراف و غيرهم من الجوع و أكلت الجلود.

٨١٥/ خمسة عشر و ثمانمائة/ وقع فى أيام الناصر فرج بن برقوق غلاء عظيم بمكة بحيث بيعت غرارة الحنطة بعشرين دينارا ذهبًا، و الغرارة حمل جمل معتدل، و كان الغلاء عاما فى جميع المأكولات، بحيث بيعت البطيخة الواحدة بدينار ذهب، ثم رفع الله تعالى تلك الشدة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٧٤

السنة الهجرية بالأرقام/ السنة بالحروف/ الحوادث الخاصة

٨٢٢/ اثنتين و عشرين و ثمانمائة/ عم الغلاء بمكة و عدت الأقوات و أكلت القلط و الكلاب، حتى فقدت، فأكل بعض الناس الآدميين، و كثر الخوف منهم، حتى امتنع كثير من النزول إلى ظاهر مكة، خشية أن يؤكلوا، و هلك الفقراء و افتقر الأغنياء، ذكره فى " منائح الكرم."

٩٤٣/ تسعمائة و ثلاث و ستين/ أكل الناس فيها حب الثمام، و جعلوه خبزًا.

و الثمام كما جاء فى " مختار الصحاح " نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص و ربما حشى به و شد به خصائص البيوت، الواحدة ثمامة.

٩٧٨/ تسعمائة و ثمان و سبعين/ اشتد الغلاء بمكة حتى أكلت الموتى و الدواب ثم تدارك الله الناس بلطفه.

١٠٠٧/ ألف و سبعة/ وصل الأردب المصرى من القمح ثمانية عشر دينارا، و فيه أكل الناس لحوم الكلاب و القلط، و كان الفقراء يأخذون دم الشاه و يجعلونه فى إناء على النار ثم يستعملونه.

١٠٣٢/ ألف و اثنين و ثلاثين / وقع غلاء عظيم دام سنة واحدة فبلغت كيله الدخن أحد عشرة محلقة.

١٠٧٢/ ألف و اثنين و سبعين / حصل بمكة غلاء شديد بسبب كثرة الجراد، حتى كسى جدران البيوت فأجمعها و أعقب ذلك وباء عظيم.

١٠٧٩/ ألف و تسع و سبعين / اشتد الغلاء بمكة و الطائف، فاتفق أعيان مكة على طبخه ديشه للفقراء تعطى لهم صباحا و مساء. فكانوا يطبخون يوميا أربع أرداب و تفرق عليهم بالمعلا، و قد اشتد الحال من شعبان إلى ذى الحجة، حتى أكلت الناس الرمم و الدماء و العظام، ثم تدارك الله تعالى، فوردت المراكب المصرية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٧٥

السنة الهجرية بالأرقام / السنة بالحروف / الحوادث الخاصة

١١١٥/ ألف و مائة و خمسة عشر / حصل غلاء فوصلت كيله الحب إلى قرش و كذلك الأرز، و وصل رطل السمن نصف قرش، و ازداد الغلاء شيئا فشيئا حتى وصل أردب الحب إلى عشرين أحمر، إلى أن وصلت كيله الحب المكي نصف ريال، و تساوى سعر الطائف بسعر مكة، و عدم السمن و لحقت بالناس شدة، ثم جاءهم الفرج من الله تعالى بورود المراكب المصرية و فيها سبعة آلاف أردب جراية مقسومة بين مكة و المدينة.

١١١٨/ ألف و مائة و ثمانية عشر / اشتد الكرب بمكة و عز كل شيء من الأقوات و غيرها من الحطب و الفحم و الملح، بسبب قطع الطريق بين جدة و مكة لحصول حرب، بين الشريف و بعض العربان فى الطريق. و قد ذكر هذه الحادثة الشيخ زين العابدين الشماخ فى قصيدة بها خمسة عشر بيتا، نذكر منها:

الحمد لله مبيد الدهور عالم ما يخفى بطى الصدور

مسير الأفلاك فى أفقها و مجرى الفلك بماء البحور

فقد جرى بمكة محنة قد عمت الدنيا و فى كل دور

جرى غلاء ما سمعنا به و لا مضى فى سالفات العصور

قد أذهب الأرواح حتى لقد ضاقت على الموتى فسيح القبور

و قد غدا من عظم أهواله كل فتى منا عديم الشعور

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٧٦

السنة الهجرية بالأرقام / السنة بالحروف / الحوادث الخاصة

إلى أن قال:

و نسأل الرحمن سبحانه يفرج الكرب و يمحو الشرور

و عامنا قد صحّ تاريخه ألا إلى الله تصير الأمور

١١٤٠/ أربعين و مائة ألف / صارت كيله البر الهميس بالطائف بأربعة ديوانية، و النقرة الصافية بسبعة ديوانية، و الشعير بديوانين و نصف، و العسل الرطل بأربعة ديوانية، و التمر بديوانى و نصف، و الزبيب النعمانى بأربعة ديوانية، و الفواكه كثيرة و رخيصة للغاية. و كان صرف القرش بأربعين ديوانية، و الأحمر بقرشين، و المشخص بأربعة قروش، و الريال بقرشين و ثمن. اه.

١١٣٦/ ستة و ثلاثين و مائة ألف / فى تاريخ الغازى: لما تولى القضاء بمكة الشيخ عبد القادر المفتى سنة (١٣٣٦) ستة و ثلاثين و مائة ألف فرض على كتاب المحكمة الشرعية أن يكتبوا الحجة بخمسة ديوانية، و من قبل كانوا يكتبونها بقرش و بقرشين اه.

نقول: حبذا لو فهمنا مقدار القرش و الديوانى و الريال و المشخص الذى كان السابقون يتعاملون بها، و لو أمكننا المقارنة بين عملتهم و عملتنا لبينا الحساب الدقيق هنا، فالريال كان عندهم بقرشين و ثمن، بينما الريال عندنا باثنين و عشرين قرشا فياليت الموازين و

المكاييل و القياسات و النقود كانت في البلدان موحدّة على الدوام، لكن دوام الحال من المحال.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٧٧

السنة الهجرية بالأرقام/ السنة بالحروف/ الحوادث الخاصة

١٢١٩/ ألف و مائتين و تسعة عشر/ وقع غلاء شديد بمكة و اشتد على الناس الجوع و ذلك في أواخر شهر ذى الحجة من السنة المذكورة، ثم دخلت سنة عشرين و الحالة تزداد سوءا في كل يوم، حتى لقد بلغت كيله القمح و الأرز مشخصين، و بلغ الرطل من السكر و الشحم و الزيت ريالين، و الرطل من البن و التمر ريالا، و الرطل من السمن ريالا و نصف ريال، و كيله الزبيب ثلاث ريالات، و رطل اللحم نصف ريال، و لقد باع الناس حليهم و أثاثهم بأبخس الأثمان ليشتروا ما يأكلون، ثم ازداد الحال سوءا حتى عدت الأقوات و أكل الناس بذور العطارين كبنز الخشخاش و زبيب الهوى و بذر التمر الهندي و النوى و الصمغ العربي، و شرب الناس الدم المسفوح و أكلوا الجلود و الكلاب و القطط و كل حيوان يدب، و دام الحال هكذا إلى آخر سنة العشرين ثم تدارك الله الناس بلطفه و جاء الفرج بعد الشدة.

و مما شاهدناه و رأيناه من الأحوال في مكة المكرمة

نقول: إنه في سنة (١٣٣٤) ألف و ثلاثمائة و أربع و ثلاثين هجرية حصل غلاء كبير في مكة المكرمة، بسبب قيام أمير مكة الشريف الحسين بن علي الذي صار فيما بعد ملكا على الحجاز، رحمه الله تعالى، على حرب الدولة العثمانية التركية و إخراج الأتراك من الحجاز. و قد تم له ما أراد، فإنه في هذه السنة المذكورة قلت الأرزاق من مكة المشرفة، بسبب عدم ورود الحبوب و البضائع من البحر، فانعدم السكر من مكة، و انعدمت الحنطة و بعض الأشياء أيضا، فكان الناس يأكلون حب الدخن و حب الذرة- بضم الذال المعجمة و فتح الراء المخففة- و هي حبوب مستديرة بيضاء أكبر من الدخن قليلا، و يسمونها في الحجاز "الضرة"- بضم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٧٨

الضاد المعجمة و فتح الراء المخففة- فهذان النوعان من الحبوب يأتيان مكة من طريق اليمن.

أما شرب الشاي و نسميه بالحجاز "الشاهي" فقد صار الناس يشربونه بأنواع الحلويات كالحلاوة الليمونية و النعناعية و غيرهما، أما المدينة المنورة فكان الناس يشربونه بالرطب أو التمر لكثرة عندهم، و صار بعض الناس يشربون الشاي مرا- كأهل بخارى و يعملونه خفيفا جدا- كل ذلك لعدم وجود السكر في البلاد، و لقد بلغت قيمة أقه السكر أو السكر الرأس المخروطي جنيها إفرنجيا ذهابا، أما والدنا، رحمه الله تعالى، فما كان يعجبه شرب الشاهي بشيء من الحلويات أو التمر، و إنما كان يمزجه بالحليب فقط، و يضع عليه قليلا من الملح. و كان البدو يأتون صباحا بالحليب في ماعون خاص من أطراف مكة كمنى فما دونها فيبيعونه بمكة، و كانت الأغنام رخيصة قد يباع الواحد بريال أو يزيد قليلا، و ذلك لقله الدارهم في أيدي الناس.

أما غاز الاستصباح فقد انعدم من البلاد، و صار وجوده قليلا، فكانت الحكومة العربية الهاشمية، أي حكومة الشريف الحسين بن علي، رحمه الله تعالى، تخصص لكل حارة تنكة واحدة من "الغاز" فكانت أمانة العاصمة، في ذلك الحين، تدفع لكل حارة من حارات مكة تنكة واحدة من الغاز، و لا تباع للشخص الواحد أكثر من ربع أقه أو ثمن أقه فقط، فكان الزحام على مباسط الغاز شديد جدا، و لا يخفى أن تنكة الغاز لكل حارة لا تكفيهم، فاهتدى الناس إلى وسيلة للإضاءة، في غاية الطرافة، مع رخصتها و قلة تكاليفها و في المثل "الحاجة أم الاختراع." فكان غالب الناس يأتون بكاسة شرب الماء التي من الزجاج فيملؤون ثلثيها من الماء، و يملؤون الثلث الباقي بزيت السمسم، ثم يأتون بقطعتين من الصفيح، أي "التنكة" فيقصونهما، بقدر فم الكاسة، و يجعلون أطرافهما معكوفة، حتى تقف فوق الكاسة، و يضعونهما على شكل الصليب أي مثل علامة (+) و يلحمونهما بهض، ثم يخرقونهما من الوسط، فيجعلون في هذا الخرق فتيلة من القماش أو من القيطان، ثم يغمسون الطرف فوقاني في الزيت، و يرمون باقي الفتيلة في بطن الكاسة التي فيها الماء و

الزيت، و يضعون هذه الكاسة فوق كرسي صغير مربع، في وسط الغرفة، و في الغروب، في وسط الغرفة، و في الغروب يشعلون هذه الفتيلة بالكبريت. هكذا كانت الإضاءة في ذلك العام، و لا يخفى أن الزيت إذا اختلط التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٧٩

بالماء علا فوqه. و كانت علب الكبريت في تلك الأيام، في أحجام مستديرة كالأسطوانات الصغيرة، و أعواده لم تكن من الخشب، بل كانت من الفتيلة الرفيعة المشمعة، و كل علبه أعوادها كانت ملونة بعدة ألوان.

فسارت أحوال الناس على هذا المنوال و تعبوا قليلا، لكن لم يدم هذا التعب أكثر من عام واحد بل أقل، ثم انفجرت الأزمة و جاء اليسر بعد العسر حيث انتهت الحرب العالمية الأولى العظمى، فكان الناس، إلى وقت قريب، يطلقون على هذه السنة المذكورة سنة "الضرة" حيث أكلوا فيها دقيق الذرة و دقيق الدخن.

فدوام الحال من المحال.

و مما شاهدناه و رأيناه أيضا من الأحوال في مكة المكرمة

نقول: إنه لما تولت الحكومة السعودية للمرة الثانية على الحجاز في شهر ربيع سنة (١٣٤٣) ألف و ثلاثمائة و أربعون هجرية، و مرت سنوات على ذلك، حدثت أزمة شديدة في البلاد، أي ابتداء من سنة (١٣٥٤) تقريبا، و دامت هذه الأزمة سنوات عديدة إلى سنة (١٣٦٥) تقريبا، فكانت الحكومة السعودية لا تقدر أن تدفع رواتب الموظفين، إلا في كل ثلاث أو أربعة أشهر مرة واحدة، فتعب الناس أشد التعب، و رأوا ألوان الشدائد، لكنهم صبروا صبر الكرام، و فوضوا أمورهم إلى الملك العزيز العلام، حتى انفجرت هذه الأزمة بسلام. فكانت الحكومة السعودية، إذا أمرت بصرف الرواتب كان يوم صرفها يوم عيد و فرح عندهم و إذا سمع الناس الإشاعات حول صرف الرواتب لا يصدقونها أبدا، إلا إذا شاهدوا صرف الرواتب بأعينهم و قبضوها بأيديهم، و لقد مرت على الناس حوادث كثيرة و حكايات عديدة، بسبب هذه الشدة ما زالوا يتناقلونها فيما بينهم، و يتحدثون بها إلى الآن. بعد مرور هذه العاصفة الطويلة، التي دامت سنوات عديدة، أتى الله بالفرج العظيم، و أبدل ذلك العسر بيسر كبير، فتبدلت أحوال الناس، و انتعشت مرافق حياتهم، و صارت الأموال لدى بعضهم بدون حساب و قد صار بعضهم مليونيرا و طبعا هناك طبقة فقيرة، و هي الأكثرية، و هذه سنة الله في خلقه، فالحمد لله على كل حال و سبحان مغير الحال و الأحوال.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٨٠

التسيرة و مقاومة الاحتكار

في هذه الأزمنة المتأخرة في البلاد، كثر جشع بعض التجار، فصار الريح المعقول، بل الكسب المضاعف لا يرضيهم، و لا يقنعوا إلا إذا جاءهم عشرة أضعاف ربح على رأس المال و أصل قيمة البضاعة، و كذلك كثر احتكار الأطعمة في البلدان رجاء زيادة الأسعار في المستقبل، مع علمهم بأن احتكار الطعام حرام شرعا، على أن الله تعالى ينتقم من هؤلاء الجشعين و المحتكرين انتقاما ليس بالفظيع المخيف، و إنما هو انتقام بلطف من وراء ستار، فكم نرى و نسمع من ذهاب أموالهم في غير طريقها، كالحريق و السرقات و كثرة الأمراض التي يضطرون إلى بذل الأموال الكثيرة في المعالجة، و كتبسيط الرطوبة و السوس و الدود، في كل ما هو مخزون من أنواع الدقيق و الحبوب و فساد الأطعمة، و مع ذلك لا ينتهون عن غفلتهم و تهاونهم، بل أنهم يعرفون كيف يصرفون هذه الأطعمة الفاسدة بالبيع على الفقراء و المساكين: و لهم في ذلك حيل هم أدري بها.

و قد ورد النهي و التحذير عن الغش و الاحتكار، فقد قال صلى الله عليه و سلم: "من غشنا فليس منا" رواه مسلم عن ابن عمر و أبي هريرة، رضى الله عنهما.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إحتكار الطعام فى الحرم إحداد فيه" رواه أبو داود. وقال عليه الصلاة والسلام: "إحتكار الطعام بمكة إحداد" رواه الطبرانى.

قال العلامة الحفنى فى حاشيته على الجامع الصغير عند الحديثين المذكورين ما نصه: قوله: "إحتكار... الخ" هو شراء ما يقتات وحبسه إلى الغلاء فهو حرام ولو فى غير الحرم، وخص الحرم لأن الإثم به أشد، أما لو اشترى غير طعام أو طعاما غير مقتات بقصد ادخاره إلى الغلاء لم يحرم، وخرج بالشراء ما لو كان عنده بر مثلا يأكله فادخره إلى الغلاء فلا يحرم، وكذا لو اشتراه بقصد أن يبيعه حالا أو فى زمن الرخاء فلا حرمة. انتهى من الحاشية المذكورة.

ومن المستحسن أن نذكر هنا ما دار فى أحد مجالس الشرع الحنيف فى العصور السابقة من النظر فى أمر التسعيرة ومقاومة الإحتكار، فقد جاء فى كتاب "مثل عليا من قضاء الإسلام" تأليف الأستاذ محمود الباجى والمطبوع بتونس سنة (١٣٧٦) هجرية ما يأتى:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٨١

من قضاة الإسلام البارزين الذى ولى القضاء ببلاد شرق الأندلس، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجى، شهد فيه القاضى عياض بأنه جال ببلاد المشرق نحو ثلاثة عشر عاما، وهو فى درجة واحدة مع القاضيين عياض بن موسى اليحصبى، وأبى بكر بن عبد الله بن العربى. وقد عرف الناس فضل الباجى فى الأدوار الأخيرة من حياته وبعد وفاته، لأنه كان صلبا فى رائه قويا فى معارضاته، لا يخضع إلا للحق ولا يخشى فى سبيله لومة لائم. وقد جر عليه هذا الخلق الأبى، محنا ومقاومات وفتنا، غير أنها لم تنل من نفسه الكبيرة شيئا. ولم تحمله على تغيير سلوكه.

ومن شعره قوله:

إذا كنت أعلم علما يقينا بأن جميع حياتى كساعة

فلم لا أكون ضنينا بهوا أجعلها فى صلاح و طاعة

دخل الحاجب، يستأذن على ابن عبدوس، والى الحسبة، وكان أبو الوليد يطالع كتاب الموطأ، وقد وضعه على محمل من الأبنوس المطعم بالأصداف، فأذن للوالى بالدخول، ولم يدخل الجمهور الذى وفد يتبع الوالى. وكان متألما من باعة الأطمعة والجاليين للأسواق. وبعد إفشاء السلام والتحية، قال الوالى للقاضى: أن سوق المدينة يجتاز أزمات متعاقبة، بسبب اضطراب الأسعار وعدم استقرارها، ويحدث أن ترتفع الأسعار دفعة واحدة، فيطمع الجالبون فى الأرباح وتكثر الواردات، وتهبط الأسعار هبوطا فاحشا، فيخسر الجالبون وتضعف الثقة بالسوق.

وإنى أوشك أن أحمل الناس على سعر موحد، وقد جئت للحصول على الموافقة الشرعية، والرأى الأسد، للمولى القاضى. وعلى الامتثال والطاعة.

فعمد القاضى، أبو الوليد، لتوه، مجلس الاستشارة الشرعية، للبت فى هذا المشكل الشرعى. وبعد بسط نظرية الوالى افتتح المجادلة. فقال شيخ أهل الشورى: "إن مالكا يرى أنه إذا كان للناس سعر غالب وأراد بعضهم أن يبيع بأعلى من ذلك فإنه يمنع. أما إذا أراد أن يبيع بأقل فقد روى عن مالكا رأيان: رأى بالمنع على اعتبار أنه إذا أراد الرجل إفساد السوق فحظ عن سعر الناس فيقال له: إما لحقت بسعر الناس وإما رفعت بضاعتك.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٨٢

وحجة مالكا: ما روى عن عمر بن الخطاب من أنه مر بحاطب بن أبى بلتعنه وهو يبيع زبيبا بالسوق فقال له عمر: إما أن تزيد فى السعر، وإما أن ترفع من سوقنا لأن بعيرا قدمت من الطائف تحمل زبيبا فلو عرفوا السعر الذى تبيع به لقصدوا مدينة أخرى وأعرضوا عن البيع."

وقال ثانى المستشارين: "إنه يجب أن يفرق بين الجلابين، فلا يسعر عليهم شىء مما جلبوه للبيع، وبين التجار أصحاب الحوانيت و

الأسواق، الذين يشترون من الجلابين جملة، و يبيعون بالتفصيل. و هذا الرأي، ذهب إليه عبد الله بن عمر، و القاسم بن محمد و سالم بن عبد الله، الذين يرون أن أصحاب الحوانيت و الأسواق، لا- يتركون على البيع باختيارهم، إذا أغلوا على الناس، و لم يقتنعوا من الربح بما يشبه. و على صاحب السوق أن يعرف ما يشترون به، فيجعل لهم من الربح بما يشبه و ينهاتهم أن يزيدوا على ذلك. و يعاقب من خالف الأوامر."

و قال ثالث المستشارين "أن ابن حبيب، و ابن المسيب، و يحيى بن سعيد، و الليث، و ربيعة، يرون أن التحديد لا يجرى جزافا و إنما يكون مبنيا على تقدير الأرباح المنسبة."

و قال رابع المستشارين "إني على رأى الإمام الشافعى، الذى يحجر التداخل فى التسعير و الأسعار، لأن الناس مسلطون على أموالهم ليس لأحد أن يأخذها أو شيئا منها، بغير طيب أنفسهم، إلا فى المواضع التى تلزمهم، و هذا ليس منها و حجة الشافعى ما روى عن أبى هريرة من أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله سعر لنا: فقال: بل الله يرفع و يخفض، و إنى لأرجو أن ألقى الله و ليست لأحد عندى مظلمة."

بعد التداول بين شيوخ الشورى و القاضى أبى الوليد، و استعراض النصوص العامة و الخاصة، حكم أبو الوليد بما يأتى:
أولا: لما كان المعبر هو السعر الذى عليه الجمهور و الأكثرية العامة من أصحاب الحوانيت و الأسواق، فإن الواحد و العدد اليسير إذا انفردوا بالحط أمروا باللحاق بالسعر العام أو ترك البيع، و إذا انفردوا بالزيادة لم يؤمروا بالحط و لم يؤمر الجمهور بالترفع إلى متوهم، لأن المعبر حال الجمهور، و على نسبة ثمن الجمهور تقوم المبيعات.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٨٣

ثانيا: و لما كان الجالبون هم الممّونون للأسواق، و ليس بهم من الوقت ما يسمح لهم بالاحتكار و التلاعب بالأسعار فهم أحرار فى بيعهم بأى ثمن أرادوا.

ثالثا: و لما كانت الضرورة تدعو إلى تيسير الواردات من القمح و الشعير فإن هذين النوعين لا يخضعان للتسعير الجبرى.

رابعا: و على كل الأحوال، فإن التسعير يتم باجتماع وجوه أهل السوق من كل صنف و غيرهم من الأجانب عن السوق استظهارا على صدقهم، و يقع سؤالهم عن أثمان الشراء و أثمان البيع و على أساس مراعاة المصلحة العامة و الخاصة يتم التسعير مع تجنب الإجحاف و الإكراه.

خامسا: و إذا امتنع الناس من بيع ما يجب عليهم بيعه، فإنهم يؤمرون بالواجب، و يعاقبون على تركه، و كذلك كل من وجب عليه أن يبيع بثمان المثل فامتنع، لأنه يجوز إخراج الشئ من ملك صاحبه قهرا بثمانه، للمصلحة العامة، كما فى الشفعة.

سلم كاتب القضاء صكا، يشتمل على نص الحكم، الذى أصدره القاضى أبو الوليد إلى والى الحسبة ابن عبدوس، فقام بتنفيذه طبق نصح، و استقرت الأسواق و اعتدلت الأسعار و كثرت الواردات، و اختفى شبح الإحتكار، و لم تعد المعروضات مهددة بالإنهيار أو بالغلاء الفاحش.

و بلغ الأمر إلى علم خليفه الأندلس، فوجه إلى قضاء الأقاليم، نسخا من حكم القاضى أبى الوليد، للتأمل منه، سعيا وراء توحيد العمل بما اقتضاه.

هذا مثل أحكام الإسلام، فى نظام البيع و الشراء و العرض و الطلب، و وسائل مقاومة الإحتكار، و التعريف الجبرية و حفظ التوازن بين القدرة على الإستهلاك و التوريد المأمون، و قد عالج الإسلام هذه المشاكل الدقيقة، التى لا يخلو من أخطارها زمان و لا مكان، و وضع لها الحلول الموفقة، و فرض من التدابير الحازمة ما حفظ به استقرار الأثمان، و الربح المناسب للتاجر و الجالب. و بسط الرخاء و جعله فى متناول الجميع.

و التشريع الإسلامى الصالح لكل جيل، و المسابير بمبادئه و نظمه القويمه لكل تطور بشرى، تناول فى نصوصه و أقضيته الروابط التى

تربط الإنسان بنفسه و تربطه بمحيطة العائلي و تربطه بمجتمعه، ثم تربطه بالحياة العامة في جميع مظاهرها و مختلف

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٨٤

نواحي نشاطها، و أى قانون اتسع لأحوال المعاملات كما اتسع لها القانون الإسلامى، و أى قضاء كان له ثراء فى فقهه، و دقة فى تصويره، و عمق فى نظره كقضاء الإسلام.

و إن تعجب فعجب لهؤلاء الذين يسرعون بالإلتجاء إلى أنظمة وضعها الناس، و قواعد اصطلمت عليها العوائد و نظريات لم تمحصها التجارب، و لم تصقلها العقول و الأجيال، و يزهدون فيما خلفه لهم الإسلام من تراث كبير و مجد عريض.

لقد أصدر أبو الوليد الباجى حكمه فى الفترة التى بين أواخر القرن الرابع و أوائل القرن الخامس و فى أزهر عهود الأندلس، و ألمع حقه من تاريخها الحافل، و جاء ذلك الحكم دقيقا فى نصه، حازما فى تدابير، حكيما فى مراميه، و دل على ما كان سائدا من الانسجام بين ديوان القضاء العدلى، و ديوان الحسبة و مقام الخلافة، و على بساطة الاجراء، و سرعة البت. انتهى من الكتاب المذكور.

إبطال المكوس و الجمارك

نقول: بمناسبة ذكرنا للمكوس و العشور، أن بعض الملوك و السلاطين الأتراك كانوا قد رفعوا و منعوا أخذ العشور و المكوس "أى الجمرك" على جميع البضائع و الحاجيات المستوردة إلى بلادهم- فمن جملة ذلك- ما هو ثابت على أحد أعمدة المسجد الحرام بالجهة الغربية، أى أن العمود الرخامى الموجود بين باب الباسطية و باب العمرة مكتوب عليه، بالنقر على نفس الرخامة، أن أحد الملوك قد أمر بإبطال جميع المكوس من الحرمين الشريفين، فممنع أخذ العشور على جميع أنواع ما يرد إلى مكة المشرفة من الحبوب و الأغنام و الدجاج و غير ذلك ... الخ.

و لم نقدر على معرفة تاريخ الكتابة فى هذه الرخامة، كما لم نقدر على معرفة اسم الملك الذى أمر بذلك، لارتفاع الكتابة على الرخامة عن أرض المسجد الحرام، و لم نجد سلما فى تلك الساعة لنصعد عليه و نطلع على كل ذلك حرفيا، فنظن أن ذلك كان من القرن التاسع أو العاشر من الهجرة.

يقول صديقنا الأستاذ أحمد السباعى فى كتابه "تاريخ مكة" و قد حدثنا الدحلان فيما ذكر عن سنى الفتنة فقال: أن قيمة الكيلة من القمح و الأرز كانت تبلغ مشخصين و أن الرطل من السكر و الشحم و الزيت كانت تبلغ قيمته ريالين و لا نعرف فداحة هذا الغلاء إلا إذا قارنا هذه الأسعار بما يورده الدحلان نفسه عن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٨٥

أسعار مثلها فى أيام الرخاء فهو يقول أن الكيلة تبلغ قيمتها خمسة ديوانية و الكيلة تعادل الصاع تقريبا و قيمة الرطل من العسل و الزبيب أربعة ديوانية. و الذى أعرفه فى عهد طفولتى أن الهللة الواحدة و هى ربع القرش الحالى كانت تساوى ثلاثين ديوانيا و كانت العملة الدارجة فى هذا العهد الذى ندرسه هى النقد العثمانى و من أنواعه كما يذكر الدحلان المشخص و يساوى ريالين و الأحمر و يساوى قرشين و القرش الشرك و يساوى أربعين ديوانيا و بذلك كانوا يشترون سبع كيلات من القمح بقرش واحد. و الذى يعرفه المضمرون بضممتين أن القرش نوعان.- قرش الصاغ- و هو (١٢٠) ديوانيا- و القرش الشرك- و هو أربعين ديوانيا، و الريال المجيدى يساوى (٢٠) قرشا صاغا و ٦٠ شركا. و من أغرب ما يروى عن تكاليف العيش فى هذا العهد- إذا استثنينا أيام الغلاء- ما يذكره الغازى نقلا عن الطبرى و السنجارى أن أحد الأئمة فى المسجد لما حجر عليه و قد كبر سنه رتبوا له نفقته اليومية و هى قرشان و فى هذا ما يدل على متوسط نفقة الشخص فى هذا العهد. انتهى منه.

نقول "إن القرش الصاغ و القرش الشرك- بضممتين- هما من اصطلاح الأتراك، فمعنى القرش أى القرش السليم الذى لم ينقص قيمته، لذلك يقال فلان صاغ سليم، أى أنه صحيح سليم معافى، و معنى الشرك "بضممتين" البالى الواهى أى غير سليم، فالقرش

الصاغ قيمته أكثر من القرش الشرك، و اليوم لم يبق لهذه المصطلحات من أثر لزوال حكم الأتراك من جميع البلاد الإسلامية. و لقد أدركنا التعامل بالقرش الصاغ و القرش الشرك و الديوانى و المتاليك و البارة فى طفولتنا، و لكن نسينا اليوم ذلك العهد لطول الزمن فلم يبق فى ذاكرتنا سوى الأسماء.

المراد بالمسجد الحرام و فضل الصلاة فيه

يطلق على المسجد الحرام مسجد الكعبة: فقد جاء فى صحيح البخارى، فى كتاب التوحيد، فى باب قوله: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنى سليمان، عن شريك بن عبد الله أنه قال: سمعت ابن مالك يقول: "ليله أسرى برسول الله صلى الله عليه و سلم من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر " ...إلى آخر حديث الإسراء الطويل.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٨٦

قال العلامة ابن ظهيره القرشى، رحمه الله تعالى، فى كتابه "الجامع اللطيف فى فضل مكة و أهلها و بناء البيت الشريف" ما نصه: اعلم أن الله تبارك و تعالى قد ذكر المسجد الحرام فى كتابه العزيز فى نحو خمسة عشر موضعا. فإذا تقرر هذا، فقد اختلف فى المراد بالمسجد الحرام، الذى تتعلق به المضاعفة فى قوله صلى الله عليه و سلم فى حديث ابن الزبير السابق " و صلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدي."

ف قيل جميع بقاع الحرم، و قيل المراد الكعبة و ما فى الحجر من البيت، و يؤيده ما أخرجه النسائى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه: " صلاة فى مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا الكعبة، " و قيل المراد الكعبة و ما حولها من المسجد.

و جزم به النووى و قال: أنه الظاهر، و قيل: المكان الذى يحرم على الجنب المكث فيه. و نقل، عن الإمام تقى الدين بن أبى الصيف اليمنى، أن المضاعفة تختص بالمسجد المعد للطواف، لأنه المنصرف عند الإطلاق فى العرف. قال: و لا يضير رواية الكعبة، و لهذا قال الغزالى: لو نذر صلاة فى الكعبة فصلى فى إرجاء المسجد جاز. انتهى.

و رجح الطبرى، رحمه الله، أن المضاعفة مختصة بمسجد الجماعة. و قال: أنه يتأيد بقوله، عليه السلام: مسجدي هذا، لأن الإشارة فى حال مسجد الجماعة، فينبغى أن يكون المستثنى كذلك، فإنه قيل: قد ورد، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن حسنات الحرم كلها، الحسنه بمائة ألف، فعلى هذا يكون المراد بالمسجد الحرام، فى حديث الاستثناء، الحرم كله.

نقول، بموجب حديث ابن عباس، أن حسنة الحرم مطلقا بمائة ألف، لكن الصلاة، فى مسجد الجماعة، تزيد على ذلك. و لهذا قال بمائة صلاة فى مسجدي و لم يقل حسنة. و صلاة فى مسجده بألف صلاة، كل صلاة بعشر حسنات، فتكون الصلاة فى مسجد صلى الله عليه و سلم بعشرة آلاف حسنة و تكون فى المسجد الحرام بألف حسنة. و على هذا يكون حسنة الحرم بمائة ألف، و حسنة المسجد الحرام بألف

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٨٧

ألف و يلحق بعض الحسنات ببعض، أو يكون ذلك مختصا بالصلاة خاصة فيها. و الله أعلم. انتهى بنصه.

قال الجد رحمه الله: و حاصل هذه العبارات، مع اختلافها، يرجع إلى ترجيح هذا القول، ثم قال: و هذا التضعيف يحصل بصلاة المنفرد و تزيد الحسنات بصلاة المكتوبة فى جماعة، على ما جاء أنها تعدل سبعا و عشرين درجة، و هذا، فيما يرجع إلى الثواب، و لا يتعدى ذلك إلى الإجزاء عن الفوائت، حتى لو كان عليه صلاتان فصلى فى المسجد الحرام صلاة لم تجزئه عنهما. و هذا لا خلاف فيه، انتهى. و قد اختلف العلماء فى هذا الفضل هل يعم الفرض و النفل أو يختص بالفرض، فمذهبنا، و مشهور مذهب مالك، أنه يختص بالفرض، و التعميم مذهب الشافعى، رضى الله عنه، كما صرح به النووى، رحمه الله تعالى، فإن قيل لا عموم فى لفظ الحديث

لما أنه نكرة في سياق الإثبات، و يؤيده أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة، أوجب بأنه و إن كان نكرة في سياق الإثبات فهو عام لأنه في معرض الامتنان. قال الجدد، رحمه الله، فإن قيل كيف يقال أن المضاعفة تعم الفرض و النفل، و قد تطابقت نصوص الأصحاب و نص الحديث على أن فعل النافلة في بيت الإنسان أفضل، إلا ما استثنى كالعيد و ركعتي الطواف، فالجواب ما قيل لا- يلزم من المضاعفة في المسجد أن يكون أفضل من البيت، إذ فضيلة المسجد المذكور، من حيث التضعيف، و فضيلتها في البيت من حيثها أخرى تربو على التضعيف. انتهى.

أقول: هذا التفضيل بالنسبة إلى الرجال، و أما الإناث، فالصلاة في البيت، مطلقاً، لهن أفضل، لا سيما في هذا الزمان لكثرة الفساد سواء كانت المرأة عجوزاً أم شابة. و نقل الشيخ ولي الدين العراقي، في شرح تقريب الأسانيد، أن التضعيف في المسجد الحرام يختص بالمسجد، الذي كان في زمن النبي، عليه الصلاة و السلام، بل يشمل جميع ما زيد فيه، لأن المسجد الحرام يعم الكل، بل المشهور عند أصحابنا أن التضعيف يعم جميع مكة، بل جميع الحرم الذي يحرم صيده كما صححه النووي.

و أما المدينة فيختص التضعيف بالمسجد، الذي كان في زمنه، عليه السلام، ثم قال لكن يشكل على هذا ما في تاريخ المدينة أن عمر، رضى الله عنه، لما فرغ من الزيادة في مسجد النبي عليه السلام، قال: لو انتهى إلى الجبانة لكان مسجد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٨٨

رسول الله عليه السلام، و في رواية أخرى: لو مد إلى ذى الحليفة لكان منه، و عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: لو زيد في هذا المسجد ما زيد لكان الكل مسجدي. و في رواية أخرى: أو بنى إلى صنعاء، و في أخرى: ما زيد في مسجدي فهو منه و لو بلغ ما بلغ فإن صح ذلك فهو بشرى حسنة. انتهى باختصار. انتهى من الجامع اللطيف لابن ظهيرة.

مقدار فضل الصلاة في المسجد الحرام بالحساب

قال ابن ظهيرة رحمه الله تعالى في كتابه "الجامع اللطيف" ما نصه: فائدتان:

الفائدة الأولى: قد حسب التّفّاش المفسر فضل الصلاة في المسجد الحرام على مقتضى حديث تفضيل الصلاة فيه على غيره بمائة ألف، فبلغت صلاة واحدة في المسجد الحرام، عمر خمس و خمسين سنة و ستة أشهر و عشرين ليلة و صلاة يوم و ليلة. و هي خمس صلوات، في المسجد الحرام، عمر مائتي سنة و سبع و سبعين سنة و تسعة أشهر و عشر ليال. انتهى كلامه.

انظر: صورة رقم ١٢٧، المسجد الحرام و الناس و قوف فيه يصلون حول الكعبة المشرفة من جهاتها الأربعة

الفائدة الثانية: قال الشيخ بدر الدين بن الصاحب الأتاري: إن كل صلاة في المسجد الحرام فرادى بمائة ألف صلاة، كما ورد في الحديث، و كل صلاة فيه جماعة بألفي ألف صلاة و سبعمائة ألف صلاة و الصلوات الخمس فيه بثلاث عشر ألف صلاة و خمسمائة صلاة، و صلاة الرجل منفرداً في وطنه، غير المسجدين المعظمين، كل مائة سنة بمائة ألف و ثمانين ألف صلاة، و كل ألف سنة بألف ألف صلاة و ثمانمائة ألف. فتلخص من هذا أن صلاة واحدة في المسجد الحرام جماعة، يفضل ثوابها على ثواب من صلى في بلده فرادى، حتى بلغ عمر نوح النبي عليه السلام، بنحو الضعف و سلام على نوح في العالمين، و هذه فائدة تساوى دجلة. ثم قال: هذا إذا لم يضاف إلى ذلك شيئاً آخر من أنواع العبادات، فإن صام يوماً و صلى صلوات الخمس جماعة، فعل فيه أنواعاً من البر و قلنا بالمضاعفة فهذا مما يعجز الحساب عن حصر ثوابه. انتهى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٨٩

هل تتضاعف السيئات بالحرم أم لا؟

قال ابن ظهيرة في كتابه "الجامع اللطيف" ما يأتي: قال بعض العلماء: أن السيئات بالحرم تتضاعف كتضاعف الحسنات، و هو مذهب

ابن مسعود و ابن عباس، رضى الله عنهما، قال به مجاهد أيضا و الإمام أحمد بن حنبل و لهذا كان مقام ابن عباس بغير مكة. و الصحيح، عند جماهير أهل العلم، عدم المضاعفة، لكن السيئة فيه أعظم منها في غيره بلا ريب. ثم على قول أن السيئة تتضاعف، فقليل تضعيفها الحسنات بالحرم، و قيل بل كخارجة، و حرر بعض العلماء النزاع في هذه المسألة فقال:

القائل بالمضاعفة أراد مضاعفة مقدارها، أى غلظها، لا كميتها في العدد، فإن السيئة جزاؤها سيئة، لكن السيئة متفاوتة، فالسيئة في حرم الله و بلده، على بساطه أكبر و أعظم منها في غيره، و ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه في موضع بعيد عنه. فإنه قيل يرجع النزاع أيضا إذ لا فرق بين أن تكون السيئة مغلظة و هى واحدة، و بين أن تكون مائة ألف سيئة عددا، فالجواب أنه قد جاء:

من زادت حسناته على سيئاته فى العدد دخل الجنة، و من زادت سيئاته على حسناته فى العدد دخل النار، و من استوت حسناته و سيئاته عددا كان من أهل الأعراف. انتهى كل ما تقدم من الجامع اللطيف لابن ظهير.

انظر: صورة رقم ١٢٨، المسجد الحرام. و انظر: صورة رقم ١٢٩، المسجد الحرام قديما

باب بنى شيبه

باب بنى شيبه، محله هو محل العقد القائم خلف مقام إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، و هو عقد على شكل نصف دائرة، مبنى على عمودين من حجر الرخام المتين، مزين بنقوش بديعة.

و هذا العقد هو محل السكة الضيقة النافذة من بين بيوت قريش إلى المسجد الحرام. فإن قريشا، لما بنت بيوتها حول الكعبة، على قدر حاشية المطاف، جعلوا بين كل دارين من دورهم مسلكا ينفذ منه إلى بيت الله الحرام، فكان هذا العقد هو محل السكة النافذة، و بجواره كانت دار شيبه بن عثمان الحجبي، سادن الكعبة المعظمة، التى دخلت فى توسعة المهدي للمسجد، لذلك نسب الباب إليه، فقليل:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٩٠

"باب بنى شيبه." و يقال له أيضا، باب السلام. فهو قديم، من أيام الجاهلية، و لا يزال موضعه محفوظا إلى الآن. و قد ورد فى كتب الحديث و التاريخ أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يدخل المسجد الحرام من هذا الباب، و يخرج منه، و سبب ذلك، كما ظهر لنا و الله تعالى أعلم، أن النبي صلى الله عليه و سلم كانت إقامته بمكة، إما بدار خديجة رضى الله عنها، بزقاق الحجر أو بدار عقيل، بسوق الليل، أو كان ينزل بالأبطح جهة المعلا. فالآتى من هذه الأماكن لا بد و أن تكون وجهته قبل باب الكعبة، فيدخل المسجد من باب بنى شيبه بطبيعة الحال، و أيضا، فإن هذا الباب مقابل لباب بيت الله الحرام و الله تعالى يقول: وَأَتُوا التَّيُّوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا فَكَانَ الْأَفْضَلُ الدُّخُولَ لِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ. و لذلك يستحب الدخول للمسجد، لكل قادم، من هذا الباب، الذى كان يسمى قديما بباب السلام. فالقادم إذا دخل من أى أبواب المسجد الحرام، و مر للطواف من هذا العقد، أى باب بنى شيبه، فقد أتى بالسنة و عمل بالأدب المطلوب.

انظر: صورة رقم ١٣٠، العقد القائم فى مواجهة الكعبة و هو محله باب بنى شيبه

المسافة بين باب بنى شيبه و جبل الرحمة بعرفات

قال الغازى فى الورقة التابعة لصحيفة (٣٨٦) ما نصه:

فائدة: المسافة بين باب بنى شيبه شرقى المسجد الحرام و جبل الرحمة بعرفة هى ٢١٣٦٧ مترا بهذا التفصيل:

متر

١٠٤٢ من باب بنى شيبه إلى باب مقبرة المعلاة.

٢٣٨٧ من باب مقبرة المعلاة إلى سبيل الست.

٣١٢٠ من سبيل الست إلى جمرة العقبة.

٣٥٢٨ من جمرة العقبة إلى وادي محسر أي طول منى.

٣٨١٢ من نهاية وادي محسر إلى أول المأزمين أي طول المزدلفة، و وادي محسر هو بضم الميم وفتح الحاء المهملة وتشديد السين المهملة و كسرها و يقال له وادي النار.

٤٣٧٢ من أول المأزمين إلى العلمين المحدين للحرم أي طول المأزمين.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٩١

متر

١٥٥٣ من أول العلمين المحدين للحرم إلى العلمين المحدين لأول عرفه من جهة مكة أي طول وادي عرفه.

١٥٥٣ من أول علمى عرفه إلى سفح جبل الرحمة.

٢١٣٦٧ المجموع

ذكره العلامة إبراهيم رفعت باشا، في "مرآة الحرمين" وقال: اعتمدنا في ذكر هذه المسافات على ما ذكره التقى الفاسى، في كتابه "شفاء الغرام" و"الأزرقى"، في كتابه "تاريخ مكة"، و"المسافة مذكورة فيهما بذراع اليد، و تارة بذراع الحديد، المستعمل في قياس القماش بمصر في عهد الفاسى بعد القرن الثامن.

وقد استنتجنا مقدار ذراع الحديد من قياس الفاسى لجدر الكعبة و مقارنته بقياسنا لها و لم يحصل في جدرها تغيير من عهد الفاسى إلى الآن، فكان ذراع الحديد ٥٦١ / ٧ سنتيا، و رأينا الفاسى قاس بعض الأماكن بالذراعين الحديدي و اليدوي، فاستنتجنا مقدار ذراع اليد فإذا هو ٤٩ سنتيا تقريبا. قال: و لا يخفى عليك أن تقدير المسافات في هذه الأمكنة محتمل للنقص و الزيادة باعتبار ما في الأرض من نشوز و انخفاض و استقامة و انثناء، فإن رأيت مخالفا فلا تنكر، فمنشأ الخلاف ما ذكرنا. انتهى.

صلاة الجمعة في المسجد الحرام

قال الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله تعالى، في كتابه "في منزل الوحي" عن صلاة الجمعة، في المسجد الحرام، ما نصه:
"المسجد الحرام مثابة المسلمين الذين يفتدون إلى مكة من أقطار الأرض جميعا في أشهر الحج، و هو مثابتهم، ما أقاموا بأمر القرى: يفتدون إليه لصلاة الفجر و عند الظهر و يعودون إليه لصلواتهم الأخرى و للطواف بالبيت كلما هوت نفوسهم إلى التطوف به. و هم يقضون فيه الساعات الطوال يتحدثون أثناء النهار و يستمعون إلى جماعة من الفقهاء يحدثونهم في الإسلام و يفقهونهم الدين قطعا من الليل. و إن منهم لمن يقضى فيه يومه يجاور البيت، و منهم من ينصرف نهاره إلى شؤون الحياة، فإذا أقبل الظلام قضى بالمسجد ليله يقوم إلا قليلا، يذكر الله كثيرا،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٩٢

و لا ينال من النوم إلا القدر الذى يكفيه لسعى النهار و تهجد الليل. لذلك قل أن يصلى بغير المسجد الحرام أحد من المقيمين بمكة على كثرة مساجدها. و ما رأيت أحدا أقام بهذه المساجد مصليا على كثرة مروى بها و وقوفى عندها، و لا تقام بها صلاة الجمعة مطلقا. و من ذا الذى تطاوعه نفسه و هو بمكة على أن يصلى بمسجد غير المسجد الحرام و الاجتماع منعقد على أن مثوبة الصلاة فيه تزيد على مثوبة الصلاة بغيره أضعافا مضاعفة. و هذا الإجماع صحيح أساسه. فالإسلام دين جماعة و دعوة للجماعة، و لا شىء يمقتة الإسلام كالخروج على الجماعة فى غير حق. و لا تجد الجماعة بمكة مكانا كالمسجد الحرام مقام بيت الله لتقوم بفروض الله فيه.

انظر: صورة رقم ١٣١، الكعبة المعظمة و منظر الحرم المكى فى أوقات الصلاة من الحج.

و صلاة الجمعة بالحرم من أروع مظاهر الإيمان في الجماعة الإسلامية، هذا الإيمان القوى في بساطته، البالغ في قوته، الذي يجمع بين الحرية و النظام جمعا لم أقف على ما يقرب من رفعته في أى من الملل و النحل الحديثة أو القديمة التي اطلعت عليها. و لقد رأيت في أسفارى الكثيرة ببلاد يدين أهلها بغير الإسلام من شعائر العبادة و من نظم الجماعة ما فيه مهابة و رهبة و نظام، و لقد حضرت صلاة الجمعة في بلاد إسلامية شتى، و لكنى لم أر فى شىء من ذلك، ما قد يقرب فى جلال مظهره و قوة روعته، و فى جمعة بين الحرية و النظام، و بين الاعتداد بالذات و الإسلام لله، ما رأيت فى صلاة الجمعة بالمسجد الحرام، و لم يطبع شىء من ذلك كله من الأثر العميق فى نفسى ما طبعته صلاة الجمعة بالمسجد الحرام من أثر بالغ فى عمقه، فما أفتأ كلما أذكره أشعر به متغلغلا فى أطواء روحى يسمو بها إلى ذروة الإيمان و يرقى بها إلى ما فوق مستوى الإنسانية الذى نألفه " ...إلى آخر كلامه، انتهى من كتاب "منزل الوحي".

وحي صلاة الجمعة فى المسجد الحرام

أنظر، رحمك الله تعالى ما توحى به صلاة الجمعة، فى المسجد الحرام، لبعض العلماء و الفضلاء و قادة الفكر، من الأمور المهمة الدقيقة المتصلة بصميم حياة المسلمين اليوم. فهذا هو الدكتور المصرى محمد حسين هيكل، رحمه الله تعالى، يقول فى كتابه "فى منزل الوحي" "بعد أن صلى الجمعة فى المسجد الحرام ما نصه:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٩٣

"أما صلاة الجمعة فى الحرم فقد اهتز لها كل وجودى، و قد أثارت أمام ذهنى صورة مجسمة من المعانى السامية كنت أقدمها من قبل، و لكنى لم أكن ألمسها لمسا ماديا، و لم أكن أراها بارزة بالوضوح الذى رأيتها به أثناء هذه الصلاة و لا إثرها. و لقد جلست مكانى و الناس ينصرفون من المسجد أفكر فيما رأيت فلا أجد من مزيد التفكير فيه إلا مزيدا فى تأثرى به و إكبارى له. و لو لا أن جاء صاحبى يدعونى لمغادرة المسجد إلى الدار لأقمت حيث كنت مسترسلا فى التفكير ملتصقا بالعبارة البالغة منه. و ما أكبرها عبرة و ما أبلغها عظة!

و أبلغ أثر تركته هذه الصلاة فى نفسى هذا النظام الكامل لعشرات ألوف يخطئها العد عن الإسلام به، و إيمان بوجوبه، و حب إياه، و إقبال عليه، فما هى ذى عشرات الألوف تقف وراء الإمام صامتة خاشعة متجهة بكل قلوبها إلى الله مؤمنة إيمانا كاملا بكل كلمة و كل حرف من هذه السبع المثانى التى يتلوها الإمام إذ يتلوا سورة الفاتحة ثم تتلوا هذه السبع المثانى من بعدها لحمد رب العالمين الرحمان الرحيم مالك يوم الدين لا تعبد إلا إياه، و لا تستعين إلا إياه، تستهديه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم فلم يغضب عليهم و لم يضلوا.

و ها هى ذى عشرات الألوف من كل الأجناس و الألوان و اللغات ينتظمها إيمان واحد بهذا الذى تتلو، إيمان لا يتلجلج و لا يكبو، فإذا سمعت التكبير للركوع ركعت جميعا مؤمنة تسبح بحمد ربها العظيم الذى تؤمن به و تقدسه و إذا سمعت التكبير للسجود تسبح بحمده كرة أخرى.

و ها هى ذى تعيد الركعة الثانية حمدها و تسيحها و استغفارها ربها و عبادتها إياه و اسعانتها به فى مثل نظامها فى الركعة الأولى، و تتوجه كل هذه الألوف فى هذا النظام الذى يأخذ بالقلوب و الأفتدة إلى بيت الله من جوانبه الأربع.

أى جيش جيش الإيمان هذا! و أية قوة فى العالم تستطيع أن تغلب هذا الجيش أنه عرف كيف ينظم الحياة مثل نظام الصلاة الجامعة، و أن يجعل الإيمان قواما لنظام الحياة كما أنه قوام هذه الصلاة! ألا لو أن ذلك كان و اجتمع من فى الأرض جميعا لما غلب قوما ذلك إيمانهم و ذلك نظامهم و ذلك سموهم إلى الله و هذه عبادتهم إياه وحده لا شريك له.

الإيمان قوام هذا النظام البالغ فى كماله، الذى جمع الأروبي و الإفريقي و الآسيوي و أهل الأرض جميعا فى صعيد واحد. و الإيمان هو الذى جعلهم اخوة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٩٤

متفاهمين على تباين لغاتهم واختلاف أجناسهم، وإيمانهم له كل هذا السلطان لأنه إيمان تجرد من كل سوى الفكرة السامية، لا تشوبها شائبة ولا تندس إليها غاية من غايات هذه الحياة الدنيا. الفكرة المجردة من كل مطمع ومن كل هوى إلا رضا الله يستعذب المسلمون التضحية بكل شيء في سبيله، التضحية بالهناء والطمأنينة، وبالمال والجاه، وبكل ما في الحياة، بل بالحياة نفسها. وهذه الفكرة السامية يؤمن عشرات الألوف هؤلاء ويؤمن بها المسلمون جميعا، تلخص في كلمتين اثنتين هما أبلغ وأقوى ما عرفت الإنسانية منذ وجدت، ولا يمكن أن تعرف أبلغ ولا أقوى منهما إلى أن بيد الله الأرض وما عليها: الله أكبر. نعم: هاتان الكلمتان هما أبلغ ما عرفت الإنسانية، وما يمكن أن تعرف.

هما مظهر السمو الإنساني على ما يتصل به الإنسان من سائر الكائنات. و هما مظهر سمو النفس وقوتها، فلا يعتريها، ضعف ولا يززع منها سلطان. يكفي أن يحيط الإنسان بمعنى هاتين الكلمتين كاملا، وأن يؤمن به إيمانا صادقا، ليتصل بالله اتصالا صحيحا ويرقى الاتصال فوق الأمل الخادع، وفوق الغرور الكاذب، وفوق كل ما في الحياة الدنيا.

إننا نحن المسلمين لنسمع هاتين الكلمتين ولقولهما في كل يوم عشرات المرات: نسمعها مرات ساعة الأذان، ونسمعها ونقولهما مرات حين الصلاة، ونرددهما في مناسبات كثيرة ونؤمن بهما حقا، لكن الكثيرين منا يؤمنون بهما ولا يحيطون بمعناها إحاطة إدراك تام وشعور متنبه لهذا المعنى.

فما أعظم سلطان المال وما أكبر حكم أصحابه! نعم! لكن الله أكبر، وما أعظم سلطان هذا الملك الحاكم فوق العباد! نعم! لكن الله أكبر، وما كان سلطان رومية وامتداد إمبراطوريتها! نعم! لكن الله أكبر، وما أعظم سلطان الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب الشمس عن أملاكها! نعم! لكن الله أكبر!

وما أعظم سلطان أوربا سلطانا تحكم به الشرق وتتحكم به في مصير العالم كله! نعم! لكن الله أكبر.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٩٥

فإذا أنت اتصلت بالله وحده، وعبدته وحده، واستعنته وحده، لم يكن للمال ولا للملك وللإمبراطورية البريطانية ولا لأوربا ولا لقوة من القوى بالغا ما بلغ كبرها أي سلطان عليك.

وما هذه القوى جميعا وهي لا تساوى عند الله جناح بعوضة! وإن من التجديف حين نذكر أن الله أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم، أن نذكر هذه القوى الضئيلة في حياة الكون والتي تبدو اليوم وتختفى غدا، وتقوى اليوم وتضعف غدا، وتوجد اليوم وتعدم غدا.

يبتلع البحر من الأرض ما شاء الله أن يبتلع، ويذهب الأقوياء فلا يبقى لهم بعد ذهابهم إلا ذكر قوتهم، لكن الأرض إلى يسير عليها هؤلاء يعيشون ويأكلون وإلى ثراها يرجعون، ما أكبرها! لكن الله أكبر. والشمس ما أكبرها! لكن الله أكبر.

والوجود كله من محسوس نشهده وغائب نتوسمه ما أكبره! لكن الله أكبر! وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.

و عبادة الله والاستعانة به تقضيانك علم ما خلق، والسعي في مناكب الأرض، وإدراك أسرار الحياة. وأنت أعظم اتصالا بالله كلما كنت من هذا العلم وهذا السعي وهذا الإدراك أكبر حقا. وإيمانك الحق بهاتين الكلمتين ينقلب إيمانا آليا لا ينفع ولا يضر إذا لم تسع ولم تدرك ولم تتصل بنوره العظيم. إذا علمت هذا وعلمت به ودأبت لتدرك عظمة الله في خلقه مما نرى، وما نحس وما يجاوز إحساسنا، إذن فلن يغلبك غالب وأنت فرد. فأما إن علمته أمه وعملت به آمنت عن إدراك صحيح بأن الله أكبر، فقد حق لها أن تتولى هدى العالم إلى الحق في أسمى صورة وأرقى درجاته، هدى يصل بالإنسانية إلى ما تبغى من مجد الإخاء في الله، إخاء هو

وحده الجدير بالإنسانية حين تبلغ من التقدم درجة حسنى.

ما بال هذه الألوف المؤلفه من المسلمين الذين يصلون الجمعة فى الحرم، ثم ما بال إخوانهم الملايين من المسلمين المنتشرين فى بقاع الأرض جميعا، و هم يؤدون صلاتهم فى هذا النظام البالغ و يسمعون هاتين الكلمتين و يكررون فى صلاتهم: "الله أكبر" مرات و عشرات المرات، ما بالهم فيما هم فيه من ضعف و جمود و خضوع لسلطان الغير و حكمه؟! فكرت فى هذا حين أويت إلى الدار و اعتكفت

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٩٦

فى غرفتى. فكرت فيه متألما نائرا بهؤلاء الذين أتوا أسباب القوة فضعفوا و هانوا، و أتوا سبيل العزة فذلوا و استكانوا. و كيف لا تثور النفس حين ترى هذا النظام البالغ ثم ترى ما هم فيه من هوان و فوضى، و من شأن من ينتظمهم الإيمان السليم به أن يكونوا العزة و القوة. و لم ألق عسرا فى الوقوف على علتهم، فنظامهم هذا ينقصه الروح و لذلك غاضت حياته، فانقلب آليا، فانقلبت على أهله غايته. و هذا هو السبب فيما هم فيه و ما سيظنون فيه، حتى يغيروا ما بأنفسهم ليغير الله ما بهم.

الروح ينقص هذا النظام و لا ريب الروح المستمد من الإيمان الكامل. أليس رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: "لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" و الكثرة من هؤلاء المصلين لا يفكر أحدهم فى أخيه و لا يحب إلا نفسه. هو لم يحضر إلى مكة و لم يفرض الحج و لم يستو مع الناس فى صلاة الجماعة بالحرم ليكون لإخوانه المؤمنين كالبنين المرصوص يشد بعضه بعضا، بل جاء إلى مكة حاجا و حضر صلاة الجماعة ابتغاء المغفرة لنفسه و الثواب لنفسه دون تفكير فى المؤمنين ممن حوله، و ليس هذا شأن المسلمين اليوم و فى هذا العصر الأخير و كفى، بل هو شأنهم "مع الشىء الكثير من الأسف" منذ مئات السنين التى خلت: منذ انتقل الأمر بينهم من الشورى إلى الاستبداد، و من الاجتهاد إلى التقليد و من الاستهانة بالموت إلى حب الحياة، و من عبادة الله وحده إلى عبادة المال و أرباب المال. من ذلك اليوم البعيد عنا، حينما كان تاريخ الأمة الإسلامية ما يزال مزدهرا، بدأت الأثرة تبلغ من المسلمين أن صار أحدهم لا يعرف إلا نفسه و لا يحب إلا نفسه.

و يحسب مع ذلك أنه يستطيع الوصول إلى رضا الله باعتزاز إخوانه المؤمنين، و بالانقطاع عن التفكير فى أمر نفسه. و من يومئذ نسى المسلم أنه إذ يقول و هو يصلى لله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ و إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، أنه يتحدث عن نفسه و عن إخوانه المؤمنين، و كأنما خيل إليه فى غرور أنه بهذه الصيغة يعظم نفسه و هو يخاطب ربه.

و حينما بلغت الأثرة من النفوس هذا المبلغ ضعف إيمانها و تزعزع يقينها و تعلقت بالحياة و أذعنت خاضعة لكل سلطان يملك عليها أسباب المادة فى الحياة.

هنالك تزوى الروح و يضمحل سلطانها على النفس. و هنالك تتهلل أواصر الاتصال بين المؤمنين و تضعف أخوتهم فيضعفوا جميعا. و هنالك تصير حياتهم حياة أفراد تنتهى بالموت لا حياة أمة تتصل على الزمان و لها فى شهادتها و فى موتها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٩٧

أعلام مجد و عزة تتعلق بها و تضحى للاحتفاظ بما شادوا من هذا المجد، و لإكباره و المزيد منه.

انظر: صورة رقم ١٣٢، صلاة الجمعة حول الكعبة المشرفة فى العام ١٣٧٢ هـ

و ذكرت و أنا أفكر فى هذا و فى مثله، أولئك المسلمين الأولين الذين كانوا يجيئون للصلاة عند الكعبة كما نجىء نحن للصلاة عندها اليوم، فيصدهم المشركون و يؤذونهم و يبالغون فى تعذيبهم، لم يكن يومئذ حول الكعبة مسجد معمور تحيط به هيبه الإسلام شأن المسجد الحرام اليوم، بل لم يكن حولها مكان مسور، إنما حرمها متصلا بالطريق و متصلا بالمساكن، اتصال المسعى بين الصفا و المروة فى وقتنا الحاضر. مع ذلك كان المسلمون الأولون يذهبون إلى الصلاة متحدين متضامنين و هم يعلمون أنهم معرضون للأذى و للموت، و أن تحابهم و تضامنهم يجعلانهم أكثر للموت و للأذى تعرضا. و لقد كثر عدد المسلمين بمكة قبل الهجرة، و اعتر الإسلام

بحمزة بن عبد المطلب وبعمر بن الخطاب، وجعل عمر يدفع من أذى المشركين للمسلمين ما يستطيع دفعه، مع ذلك ظل المشركون على عداوتهم للنبي وأصحابه وإيذائهم إياهم، وظل المسلمون على تضامنهم وحبهم بعضهم لبعض في الله، وصبرهم على الأذى في سبيل الحق وإيمانهم بأن النصر لهم ما صبروا، يذهبون إلى حرم الكعبة للصلاة مستهينين بالأذى وبالموت، مؤمنين بأنهم رجل واحد فلا يموتون ما بقي منهم من ينادى مؤمنا: "لا إله إلا الله الله أكبر" محبا إخوانه في الله، موقنا أنه لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

ولم يكن هذا الحب الصادق الذي يكمل به الإيمان حب عاطفة هو جاء، يرى صاحبها في الإلقاء بيده إلى التهلكة استهانة بالموت، بل كان حب تعقل وروية وحرص على معرفة الحياة وما فيها إلى غاية ما يبلغ المرء من معرفتها في ذلك العهد.

كان المسلمون يجتمعون بالرسول في كل يوم يتشاورون، وكانوا ينتظرون أخبار المشركين ليقفوا على دخائل نفوسهم، وكانوا ينافسونهم في العلم بالأمر ليدفعوا حجتهم بالحجة وقوتهم بما يستطيعون من قوة.

لم يكن أحدهم يرى في الإسلام لله والتوكل عليه ما يصرفه عن التفكير ليومه وغده، ولشد أزر وليه ودفع عدوه، بل كانوا يرون في الإيمان بالله والإسلام له سموا على كل إذعان لغير الله، واستهانة بكل مجهود وكل مشقة لبلوغ هذا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٩٨

السمو، وبذلك كانوا حربا على كل ضعف في أنفسهم كما كانوا حربا على قوة خصومهم. من أجل ذلك استلوا من نفوسهم كل سلطان للأثرة عليها، فقوى اعتداد الفرد منهم بنفسه وحبه لإخوانه، وبذلك كانوا الغالبين.

وكان لهذا الاعتداد بالنفس مع انكار الذات أثره في أولى المواهب وأهل الزعامة منهم. لم يكن أحد من هؤلاء يرضى إذا آمن بشيء أن يكتفئ إيمانه مخافة ما يجره إعلان هذا الإيمان عليه من أذى، ولم يكن أحدهم ينتظر حتى يرى أين تكون منفعته ليكيف بوحيا رأيه أو عقيدته، بل كانوا جميعا يؤمنون بأن العقيدة والرأي معا ملك مشاع للجماعة، فيجب أن يطالعا الفرد بما يرى، وأن يحاول اقتناعها به في صراحة وشجاعة وإيمان. لهذا نجم منهم القادة وأولو الرأي، وتوارى من جماعتهم المرأون والمنافقون الذين يريدون أن يتخذوا من كل شيء، حتى من الرأي والإيمان به، مطية أهوائهم ووسيلة منافعهم. ولذلك آمنوا بأن الروح من عند الله وأن الحياة الإنسانية متصلة بكلمة الله، وأن الله خلق الإنسان على صورته، فهو من ثم روح قبل أن يكون مادة، وحياته من ثم فكرة متصلة بالروح، وليست حركة آليته، ولا حركة فطرية كحركة النبات، ولا حركة سليقية كحركة الحيوان.

وحيثما آمن الإنسان بأن الحياة فكرة استهان بالموت في سبيل الفكرة. ومن استهان بالموت عنت له الحياة. وكلما ازدادت الفكرة سموا ازداد صاحبها استهانة بالحياة وسموا لذلك عليها. والجماعة التي تعيش من أجل فكرة إنسانية سامية ولا تخشى الموت في سبيلها، تصل من القوة إلى حيث لا يغلبها غالب. كذلك كان شأن الجماعات الإنسانية في كل العصور، وكذلك كان شأن الجماعة الإسلامية الأولى. كان الإيمان بالوحدانية يملأ نفوس أهلها، حتى ليصغر كل ما في الحياة إلى جانبه. وكانوا يعلنون إيمانهم هذا ولا يكتفون به، لم يكن يصرفهم عنه وعد ولا وعيد، ولم تكن ترد الصادقين منهم تضحية وإن عظمت، وإن بلغت التضحية بالحياة، بذلك نصرهم الله وفتح لهم فتحا مينا.

كيفية الخطبة في المسجد الحرام

لم يرد شيء في حق الخطيب أن يكون على صفة من اللبس والهيئة، غير أنه كما لا يخفى يسن لمن حضر صلاة الجمعة أن يغتسل و يتطيب و يلبس أحسن ثيابه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٣٩٩

ففي الحديث: "من اغتسل يوم الجمعة فأحسن غسله و تطهر فأحسن طهوره و لبس من أحسن ثيابه و مس ما كتب الله له من طيب

أهله ثم أتى الجمعة و لم يبلغ و لم يفرق بين الاثنين غفر له ما بينه و بين الجمعة الأخرى " رواه ابن ماجه.

فإذا كان هذا يطلب من كافة الناس فيكون الخطيب أو الإمام أولى بذلك فقد قال الإمام الشافعي، رحمه الله تعالى، في الأم " و أحب الإمام من حسن الهيئة ما أحب للناس و أكثر منه و أحب أن يعتم فإنه كان يقال إن النبي صلى الله عليه و سلم كان يعتم و لو ارتدى ببرد فإنه كان يقال أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يرتدى ببرد كان أحب إلى " اه.

روى الإمام الشافعي، عن ابن جريج، قال: قلت لعطاء أكان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقوم على عصا إذا خطب؟ قال: نعم، كان يعتمد عليها اعتمادا. و روى ابن ماجه، عن عماره بن سعد، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس و إذا خطب في الجمعة خطب على عصا. اه.

فالمطلوب من الخطيب و الإمام، حسن الشكل، و جمال اللبس المباح، مع الحشمة و الوقار، في حدود التواضع.

و ما كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا خطب يوم الجمعة يدعو لنفسه، كما لم يكن أحد من الخلفاء الراشدين يدعو لنفسه على المنبر. ثم لما كان عصر الخلفاء العباسيين و صار الخطيب غير الخليفة أمر أمير المؤمنين محمد الأمين بن هارون الرشيد أن يدعى له على المنبر. ذكر ذلك كثير من المؤرخين، قال الإمام السيوطي، رحمه الله تعالى، في كتابه "الأوائل" أول من دعى بلقبه على المنبر و كتب به هو الأمين. اه.

هذا، و بمرور الزمن و السنين، تطور الناس و تغيرت الأوضاع، و صارت لهم عادات و تقاليد و مظاهر يتبعونها و يمشون على نظمها، و هنا من اللازم علينا أن نسوق ثلاث روايات عن كيفية خطبة الجمعة و خطبة العيد في المسجد الحرام في عصور مختلفة للإحاطة و العلم بها، ناقلين كل ذلك عن تاريخ "عمارة المسجد الحرام" للشيخ حسين باسلامة، رحمه الله تعالى، فقد قال فيه ما نصه:

١- و ذكر ابن جبير في رحلته و في وصف الكيفية، التي كانت تتبع في خطبة الجمعة، بمكة المكرمة، و كيفية الخطيب، و صعوده على المنبر، و موضع المنبر في عصره، و إليك ما قاله "في يوم الجمعة، يلصق المنبر إلى صفح الكعبة الشريفة، فيما بين الحجر الأسود و الركن العراقي. و يكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٠٠

فإذا خرج الخطيب أقبلا لابسا ثوبا أسود معتمًا بعمامة سوداء و عليه طيلسان أسود، و كل ذلك من كسوة الملك الناصر و عليه الوقار و السكينة و هو يتهدى، بين رايتين سوداوين، يتمسكهما رجلان من المؤذنين، و بين يديه أحد القوم، في يده الفرقة مفتول يفضه في الهواء فيسمع له الصوت عال يسمعه من كان داخل الحرم و خارجه. فيكون إعلانا بخروج الخطيب و لا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر فيقبل الحجر الأسود و يدعو عنده ثم يقصد المنبر و رئيس المؤذنين بين يديه لابسا السواد و على عاتقه السيف ممسكا له بيده، و تركز الرايتان عن جانب المنبر، فإذا صعد أول درجة من المنبر قلده المؤذن السيف، فيضرب بنعل السيف ضربة على الدرج، يسمع بها الحاضرون. و هكذا على سائر الدرج فإذا استوى في علياه استقبل الناس و سلم عليهم، ثم يقعد و يؤذن المؤذن على قبة زمزم، فإذا فرغ من خطبته صلى و انصرف على الوضعية التي أتى بها. ثم يعاد المنبر إلى مكانه ازاء المقام. اه.

هذا ما كان من حالة المنبر و الخطيب في عهد ابن جبير في القرن السادس.

٢- و أما حالة الخطيب، في عهد الدولة العثمانية على الحجاز، فكان يأتي يوم الجمعة، عند الزوال إلى المسجد الحرام، فيدخل المدرسة الواقعة، بين باب بازان و باب على، المسماة "بقبة الساعات" حيث وضعت في ذلك العصر فيها ساعتان كبيرتان للتوقيت. فيصلى فيها ركعتين. و من عادة الخطيب في ذلك العصر أن يرتدى جبة واسعة الأكمات تسمى "الفرجية" و يعتم بعمامة من الشاش الأبيض، على كيفية هندية، مصنوعة من القماش الحرير الملون، و مبطنة بالخيزران اللطيف.

و تلف العمامة الشاش عليها لفا منتظما متراصا بعض الطيات على بعض و تسمى تلك اللفة "بالمدرج". ثم يأتي المرقى، إلى المدرسة المذكورة، يحمل الطيلسان و العصا، التي يعتكز عليها الخطيب، حال صعوده المنبر، و هذه العصا، داخلها سلاح من نوع السلاح

الأبيض، رفيع السلة أشبه بسنان الرمح يسمى "بالغداره" وهذا المرقى، هو من ضمن المبلغين بالمسجد الحرام، قد تخصص لهذه الوظيفة.

فيضع المرقى، الطيلسان على رأس الخطيب فوق العمامة، فيلتف به الخطيب، و يخرج من المرسه المذكوره ميمما نحو المنبر، فإذا بلغ الحصوه الموائيه لرواق المدرسه، التي كان بها، وجد هناك بيرقين أى "رايتين"، من الحرير الأحمر، و نفرين من أغوات الحرم، و نفرين من مشدى الحرم، فإذا وصل إليهم ساروا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٠١

جميعا أمام الخطيب، يتقدمهم المرقى حامل عصا الخطيب، ثم يتبعه حامل-البيرقين "الرايتين"، ثم أغوات الحرم ثم المشديه. و يسيرون على هذه الحالة، إلى أن يصلوا المنبر، فإذا وصلوه ركزوا البيرقين على باب المنبر، و وقف الأغاوان عند باب النبر أيضا، ثم ترفع الستاره الخضراء، المزركشه بأسلاك الفضة المموهه بالذهب، الموضوعه على باب المنبر، و يسلم المرقى العصا إلى الخطيب، فيصعد الخطيب على درج المنبر و خلفه المرقى. فإذا وصل الخطيب أعلى المنبر جلس على مسطبه، و قام المرقى، فى وسط درج المنبر، و أذن أذان الجمعة الثانى، تابعا ذى ذلك رئيس المبلغين من قبه زمزم. فإذا أتم الأذان، قام الخطيب وشع فى الخطبه الأولى. فإذا أتمها جلس. فيقوم المرقى و يصلى على النبى صلى الله عليه و سلم رافعا بها صوته. فمتى أتمها قام الخطيب و ألقى الخطبه الثانيه، حتى إذا بلغ فيها ذكر النبى صلى الله عليه و سلم جهر المرقى بالصلاه عليه، ثم إذا بلغ الخطيب ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم جهر المرقى بالترضى عنهم، فإذا ذكر الخطيب اسم الخليفه أو السلطان أو الملك جهر المرقى بالدعاء له بالنصر و الظفر و التأييد. اه.

هكذا، كانت صفة الخطبه فى عصر سلاطين آل عثمان، و فى عهد الشريف الحسين بن على، ملك الحجاز، أى إلى سنة (١٣٤٣) ثلاث و أربعين و ثلاثمائة و ألف. و كان يوضع فى أعلى المنبر رايتان خضراوان صغيرتان مزركشتان بأسلاك الفضة المموهه بالذهب.

٣- و أما خطبه عيد الفطر فى ذلك العصر، فقد كان الخطيب، الذى تكون عنده نوبه خطبه عيد الفطر، من بين عموم خطباء المسجد الحرام، يستعد فى داره بالشربات و المرطبات لاستقبال الوافدين عليه فى داره فيجلس بعد صلاة فجر ذلك اليوم فإذا صار الإسفار أتاها شيخ الخطباء، مع فريق من خطباء المسجد الحرام، ثم رئيس المؤذنين، مع طائفه منهم، ثم فريق من أغوات الحرم ثم بعض المشديه و جميع من عموم خدم المسجد الحرام. فإذا تم اجتماع هؤلاء، فى دار الخطيب، دارت عليهم كؤوس المرطبات. فإذا أشرقت الشمس خرجوا صفوفا، مع الخطيب، على الترتيب الآتى: المرقى ثم المشديه ثم أغوات الحرم ثم المؤذنون ثم الخطباء حول الخطيب و هو بينهم لابسا "الفرجيه" و العمامه المدرج و عليه الطيلسان على حسب ما وصفنا ذلك فى خطيب الجمعة، ثم يعججون بالتكبير المسنون فى العيدين، و هم سائرون إلى أن يبلغ الخطيب الموضع، الذى يؤم الناس فيه، و هو فى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٠٢

الغالب، يكون عند مصلى جبريل، أمام الكعبه المعظمه، بين باب الكعبه و الركن العراقى، الذى يلى حجر إسماعيل. فإذا وقف الخطيب فى مصلاه أعلن رئيس المبلغين، من قبه زمزم رافعا بها صوته (صلاه العيد أتابكم الله ثلاثا، ثم الصلاه رحمكم الله) و يتبعه المبلغون، اللذين هم فى علو مقام الحنفى، فإذا أتم الصلاة، صعد الخطيب على المنبر و ألقى خطبه العيد على الترتيب، الذى ذكرناه فى خطبه الجمعة. اه.

قال: و أما حالة الخطيب فى عصر جلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود- أى منذ توليه على الحجاز عام (١٣٤٣) ثلاث و أربعين و ثلاثمائة و ألف- فهى فى غاية البساطه، و ذلك أنه، متى فرغ المؤذن من أذان الجمعة الأول، أتى الخطيب وحده إلى المنبر، و عليه رداء و عمامه. ثم صار من عام ١٣٤٩ تسع و أربعين و ثلاثمائة و ألف، اللباس الرسمى، لجميع الموظفين، العباءه و

الغتره و العقال، غير أن أهل العلم، لا يلبسون العقال.

قال: لا فرق بينه وبين سائر أهل العلم في شكل الملابس، لا من جهة النوع ولا من جهة الشكل، فمتى وصل المنبر، وجد هناك اثنين من أغوات الحرم واقفين عند باب المنبر، فيحمل العصا المعتادة للخطابة و يصعد المنبر، فإذا بلغ أعلاه، جلس على مسطبة و قام المؤذن على قبة زمزم في أذان الجمعة الثاني، فإذا فرغ من الأذان، قام الخطيب و ألقى خطبة الجمعة. و لم يكن له مرقى، كما كان سابقا، فهو يصلى على النبي صلى الله عليه و سلم و يترضى عن الصحابة و يدعو للمسلمين عامة بدون أن يذكر اسم جلاله الملك كما كان فى السابق حسبما تقدم، فإذا أتم الخطيب خطبته نزل من المنبر و وقف للصلاة بالناس فيقيم المكبر على قبة زمزم الصلاة، و يتبعها المكبر، الذى فى علو مقام الحنفى، فإذا تم التكبير أحرم الإمام بالصلاة. اهـ.

و هذه الكيفية لا زالت إلى يومنا هذا بمكة و هى خالية من المظاهر و الفخفة التقليدية، و الله الهادى، إلى سواء الصراط.

منبر المسجد الحرام

كان الخلفاء و الولاة يخطبون بمكة المشرفة، منذ عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم فى المسجد الحرام، قياما على أقدامهم، على الأرض، فى وجه الكعبة بلسقها، و فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٠٣

حجر إسماعيل، عليه الصلاة و السلام، إلى خلافة أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان، رضى الله عنه.

و سبب الخطبة فى وجه الكعبة و هو جهة بابها، أن حد المسجد الحرام، فى بدء الإسلام، و ما قبله، هو المطاف المفروش بالرخام الأبيض، المحيط بجوانب الكعبة المشرفة، الذى نسميه الآن بالصحن. و ما دام الناس يتجهون إلى الكعبة، فبالضرورة يكون موقف الخطيب على المنبر، بلسق الكعبة و وجهه إليهم. ثم لما حصلت الزيارات، فيما بعد فى المسجد، جعلوا مكان المنبر فى آخر حدود المطاف، إلى جوار مقام إبراهيم عليه الصلاة و السلام، جهة باب الكعبة أيضا.

قال الأزرقى، فى تاريخه: أول من خطب بمكة على المنبر أمير المؤمنين، معاوية بن أبى سفيان، و هو منبر صغير على ثلاث درجات، قدم به من الشام، لما حج و هو أول من أتى به إلى مكة. ثم قال الأزرقى: و ذلك المنبر، الذى جاء به معاوية، ربما خرب فكان يعمر و لا يزداد، حتى حج هارون الرشيد، فأهدى له منبر منقوش عظيم عال فى تسع درجات، أهداه له عامله على مصر موسى بن عيسى. فكان منبر مكة. و جعل المنبر القديم بعرفة. ثم أمر الواثق العباس، لما أراد الحج، أن يعمل له ثلاث منابر: منبر بمكة و منبر بمنى و منبر بعرفة.

هذا ما ذكره الأزرقى و ذكره الفاكهى أيضا و زاد أن المنتصر بن المتوكل العباسى، لما حج فى خلافة أبيه، جعل له منبرا عظيما فخطب عليه بمكة ثم خرج و خلفه بها. انتهى.

و ذكر القرشى ذلك و زاد قال: ثم جعل بعد ذلك عدة منابر للمسجد الحرام.

اهـ.

و ها نحن نذكر منابر المسجد الحرام، من عهد معاوية، رضى الله عنه، إلى اليوم نقلا عن كتاب الشيخ حسين باسلامة و الشيخ عبد الله غازى، رحمهما الله تعالى، فنقول:

(١) المنبر الذى وضعه أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان، رضى الله عنه، فى المسجد الحرام قدم به من الشام لما حج، لكن لا ندرى هل كان ذلك فى حجته الأولى سنة أربع و أربعين أم فى حجته الثانية سنة خمسين على ما يقال.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٠٤

(٢) المنبر الذى وضعه فيه أمير المؤمنين هارون الرشيد لما حج لكن لا ندرى فى أى حجته جاء بالمنبر، فإنه كان كثير الحج، قال

السنجاري حج بالناس تسع حجيج متفرقة أولها كان سنة سبعين و مائة.

(٣) المنبر الذي وضعه أمير المؤمنين الواصل بالله العباسي لما حج.

(٤) المنبر الذي وضعه المنتصر بن المتوكل العباسي لما حج في خلافة أبيه.

(٥) المنبر الذي عمله وزير المقتدر بالله العباسي و كان منبرا عظيما تكلف عمله ألف دينار، فلما وصل المنبر مكة أحرقه المصريون حتى لا يخطب عليه للخليفة المقتدر بالله و خطبوا لصاحب مصر المنتصر العبيدي.

(٦) المنبر الذي عمل في دولة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر سنة ٧٦٦.

(٧) المنبر الذي بعث به الملك الظاهر برقوق صاحب مصر سنة ٧٩٧.

(٨) المنبر الذي أرسله شيخو صاحب مصر خطب عليه يوم التروية و ذلك سنة ٨١٥.

(٩) المنبر الذي أرسله الملك المؤيد الجركسي صاحب مصر سنة ٨١٨. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم؛ ج ٢-٤؛ ص ٤٠٤

(المنبر الذي ذكره الغازي في تاريخه أنه كان موجودا بالمسجد الحرام قبل سنة ٨٣٠ و كان محله عند مقام إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، و كانت له عجالات فعند وقت الخطبة يجر حتى يسند إلى الكعبة فيقوم عليه الخطيب، ثم في السنة المذكورة جاء مرسوم صحبة الحاج يتضمن جملة أشياء:

منها ترك المنبر في مكانه عند المقام و أن يخطب الخطيب عليه في هذا المكان، فلا- يجر إلى جانب الكعبة، لأنه عند جره على عجالاته يزعج الكعبة إذا أسند إليها.

(١١) المنبر الذي أرسله الملك الناصر خوش قدم صاحب مصر سنة ٨٦٦.

(١٢) المنبر الذي أرسله الملك الأشرف قايتباي الظاهر صاحب سنة ٨٧٧.

(١٣) المنبر الذي وصل إلى مكة فركب في جهة باب السلام و ذلك سنة ٨٧٩.

و عند إلقاء الخطبة يجر المنبر إلى المطاف فيخطب عليه.

(١٤) المنبر الذي عمله السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان من سلاطين آل عثمان، فإنه في سنة ٩٦٦ ست و ستين و تسعمائة بعث السلطان سليمان بهذا المنبر، المصنوع من الحجر الرخام الناصع البياض، و هو رشيق الصورة يقف كالدمية اللطيفة، تتجلى فيه روعة الفن و دقة الصنعة و اتقان التركيب بحيث أنه يعد الآن آية من آيات الفنون الجميلة، و أن أكثر ما يلفت نظر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٠٥

المدقق الخبير بالفنون الجميلة، النقوش العجيبة و الزخرفة البديعة المحفورة في نفس حجر الرخام، كيف أنهم حفروها فيه في ذلك الزمن الذي لم تستكمل فيه الصناعات الدقيقة جميع أدواتها و آلاتها، و لكن ذلك لا يستبعد على دولة آل عثمان و سلاطينهم الفخام، و هذه آثارهم في الحرمين الشريفين و غيرهما شاهدة على ما لهم من التقدم المطرد في الصناعات الدقيقة و الاختراعات العجيبة.

و لا يزال هذا المنبر إلى اليوم، و قد مر عليه أكثر من أربعمائة عام قويا متينا حافظا لرونقه و شكله الجميل، على أنه معرض للشمس و المطر و السيول و الغبار، آناء الليل و أطراف النهار، لأنه واقع قرب المطاف، لا يحجبه سقف و لا جدار، فهو بجوار مقصور مقام إبراهيم، عليه الصلاة و السلام، بينه و بينها أربعة أمتار.

و عدد درجاته، من بابه إلى موضع جلوس الخطيب، أربع عشرة درجة و يبلغ طوله ٥٨٠ سنتيمترا و عرضه ١٨٦ سنتيمترا (هذا القياس أخذناه بأنفسنا).

أما مقدار ارتفاع هذا المنبر، من أرض المطاف إلى هلال قبته، فيبلغ اثني عشر مترا تقريبا، كما قاله الشيخ عبد الله باسلامة في كتابه، رحمه الله تعالى.

و كانت أول خطبة خطبت عليه هي خطبة عيد الفطر خطبها السيد أبو حامد النجاري أما تركيب الهلال عليه فقد كان سنة (١٠٢٠) أرسله السلطان أحمد خان فركب عليه.

انظر: صورة رقم ١٣٣، المنبر الحالي

و من عجب أمر هذا المنبر الجميل ما رواه الغازي، في تاريخه، نقلا عن كتاب "تحصيل المرام" و هذا نقلا عن تاريخ السيد مصطفى بن سنان الشهير بجنابي أنه قال: "لما كانت سنة خمس و ستين و تسعمائة أمر الملك المجاهد، سليمان بن سليم خان، بعمل المنبر، الذي بالمسجد الحرام، و أن يعمل من رخام في طرز بديع.

فلما حفروا مكان الأساس ظهر رجلان ميتان مدفونان بما عليهما من السلاح. و لم يفقد منهما شيء، فاختلف الناس في أمرهما. و أما أنا فلم أشك في كون أحدهما عبد الله بن عثمان، لأنه استشهد مع ابن الزبير و خفي أثره و دفن في المسجد، خوفا أن ينشئه أصحاب الحجاج، و الآخر عبد الله بن صفوان. " و العلم لله. انتهى من الغازي.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٠٦

و الظاهر، و الله أعلم، أنه لم يعمل للمسجد الحرام منبر من حجر الرخام غير هذا المنبر، و كل ما تقدم ذكره من المنابر كانت من الخشب، لذلك كانت تتلف سريعا. و سيقى، هذا المنبر أيضا، إلى ما شاء الله، لأنه من الحجر الرخام القوي، محكم الصنعة، راسخ الأساس. جزى الله واضعه في المسجد الحرام خير الجزاء و غفر لنا و له آمين.

نقول: و قد نقل منبر المسجد الحرام الذي وضعت الدولة التركية العثمانية منذ مدة طويلة من مكانه الأصلي إلى الموضع الحالي و قد أخروه بضعة أمتار، إلى نحو سبعة أمتار تقريبا لتوسعة المطاف و ذلك سنة ١٣٨٣ هـ. و بمناسبة منبر المسجد الحرام نذكر استطرادا اتخاذ منبر لرسول الله صلى الله عليه و سلم بالمدينة المنورة زيادة في الفائدة، و إليك بيان ذلك:

اتخاذ المنبر لرسول الله صلى الله عليه و سلم

بمناسبة ما ذكرناه عن منبر المسجد الحرام، نذكر هنا منبر رسول الله صلى الله عليه و سلم بالمدينة المنورة، و ذلك استطرادا للعلم و المعرفة فنقول و بالله تعالى التوفيق:

جاء في كتاب "التراتب الإداري" بصحيفة ٦٧ من الجزء الأول ما نصه:

روى البخاري، عن جابر بن عبد الله، أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله صلى الله عليه و سلم: يا رسول الله! ألا أجعل لك شيئا تقعد عليه. فإن لي غلاما نجارا، قال:

إن شئت، فعملت له المنبر فلما كان يوم الجمعة قعد النبي صلى الله عليه و سلم على المنبر الذي صنع له.

قال ابن بشكوال في كتاب "ما انبهم من الأسماء" اسم هذا الغلام النجار مينا، قال: و يقال: إن الذي صنع المنبر لرسول الله صلى الله عليه و سلم مولى العاصي بن أمية صنعه من طرفاء ثلاث درجات، فلما قدم المدينة زاد فيه، و قيل صنعه ميمون النجار، و قيل صنعه صباح غلام العباس بن عبد المطلب، و ذكر ابن فتحون قبيصة المخزومي في كتابه و قال هو الذي عمل غلامه منبر النبي صلى الله عليه و سلم.

و في المقدمات لابن رشد، و في سنة سبع، اتخذ النبي صلى الله عليه و سلم المنبر، و قيل في سنة ثمان، عمله له سعد بن عباد، و قيل غلام لامرأة من الأنصار و قيل غلام للعباس بن عبد المطلب. قال ابن رشد: و لعلهم اجتمعوا كلهم على عمله. (زقلت) ترجم

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٠٧

في الإصابة إبراهيم النجار، فذكر عن الطبراني في الأوسط عن جابر أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يخطب إلى جذع فذكر الحديث في اتخاذ المنبر و فيه فدعا رجلا فقال: ما اسمك؟ قال: إبراهيم، قال: جد (خد) في صنعته، استدركه أبو موسى و قال في

رواية أخرى أن اسم النجار باقوم، فيحتمل أن يكون إبراهيم اسمه و باقول لقبه، قال الحافظ: على تقدير الصحة و إلا ففي الإسناد العلاء بن سلمة الرواسي و قد كذبه.

و ترجم في الإصابة به الباقوم المذكور، فذكر أنه بالميم، و يقال باللام، و وصفه بالنجار. ثم نقل أن باقوم النجار كان روميا و هو الذي بنى لقريش الكعبة- انظر ص ١٤١-. و ترجم فيها أيضا لكلاب مولى العباس بن عبد المطلب فذكر أن ابن سعد خرج بسند فيه الواقدي، عن أبي هريرة، قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم الجمعة يخطب إلى جذع في المسجد قائما، فقال: إن القيام قد شق على. فقال له تميم الداري: ألا أعمل لك منبرا كما رأيت يصنع بالشام؟ فشاور المصطفى المسلمين في ذلك فأرأوا أن يتخذه، فقال العباس بن عبد المطلب: أن غلاما، يقال له كلاب، اعلم الناس. فقال: مره أن يعمل. و في صبح الأعشى أول من عمل المنبر تميم الداري، عمله للنبي صلى الله عليه و سلم و كان قد رأى منبر الكنائس بالشام ه.

قال الحافظ السيوطي في التوشيح على قول المصطفى: مر غلامك النجار يعمل لى أعواد ما نصه: هل صانعه ميمون و صحح، أو باقول بلام، أو باقوم بميم، أو صباح بصاد فموحدة كغراب، أو قبيصة أو كلاب مولى العباس، أو تميم الداري، أو ميناء بميم فنون فهمز كميقات، تسعة أقوال و هل في سنة سبع أو ثمان ه.

و أنشد محدث الشام، الشيخ عبد الباقي الحنبلي الأثري، في ثبته "رياض الجنة" لشيخه محدث الشام نجم الدين الغزي الشافعي قوله:

صانع منبر المدينة الذي كان عليه يخطب النبي

صلى و سلم عليه دائما إلهنا المهيمن العلي

قيل اسمه ميمون أو باقول أو باقوم أو تميم الداري

و قيل إبراهيم أو قبيصة و القول الأول هو القوي

قال الشيخ عبد الباقي و زدت متبعا فقلت مينا:

صباح قيصر بأقدمهم كلامهم أرفى هو القوي

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٠٨

ثم قال في التوشيح، و كان ثلاث درجات، إلى أن زاده مروان، في خلافة معاوية، ست درجات، بسبب أن معاوية كتب إليه أن يحمله إليه، فقلعه، فأظلمت طيبة، و كسفت الشمس، حتى رأوا النجوم فخرج مروان فخطب فقال: إنما أمرني أمير المؤمنين لأن أرفعه، فدعا نجارا فزاده الست، فقال إنما زدت به أذكر الناس أخرجه الزبير بن بكار في أخبار طيبة من طرق، قال ابن النجار فاستمر على ذلك إلى أن أحرق المسجد النبوي سنة ٦٥٤ فاحترق، فكان إشارة إلى زوال دولة بني العباس إذ انقرضت عقبه بقليل في فتنه التتر ه.

انظر: صورة رقم ١٣٤، المنبر القديم

و في المنهل الأصفاء، أنه احترق أول ليلة من رمضان عام ٦٥٤، و كان ذلك أعظم المصائب على الناس. و للحافظ محمد بن ناصر الدين الدمشقي تأليف سماه «عرف العنبر في وصف المنبر» ذكره له الروادني في صلته انظره.

(فائدة) في التوشيح للأسيوطي: كان اليهود يسمون الأسبوع كله سبتا و قد وقع ذلك في حديث أنس في الاستسقاء فحدث في الإسلام تسميته جمعة نظرا لليوم الأشرف. (زقلت). جاء في تاريخ الأزرقى ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال:

حدثني جدي، عن الزنجي، عن عمرو بن دينار، قال: رأيت منبر النبي صلى الله عليه و سلم في زمان ابن الزبير ببطن عرفة حيث يصلى الإمام الظهر و العصر عشية عرفة، مبنيا بحجارة صغيرة، قد ذهب به السيل، فجعل ابن الزبير منبرا من عيدان. انتهى.

و جاء في تاريخ الخميس ما نصه: و في هذه السنة، على ما في أسد الغابة، أو السابعة أو التاسعة من الهجرة اتخذ المنبر لرسول الله صلى الله عليه و سلم من أثل الغابة. و في رواية من طرفاء الغابة. روى أنه صلى الله عليه و سلم بنى مسجده سقوفا على جذوع النخل، و كان إذا خطب يقوم إلى جذع من جذوعه، فصنع له منبر. و في خلاصة الوفاء: أشهر الأقوال أن الذي صنع المنبر باقوم بموحدة

وقاف، وهو باني الكعبة لقريش.

وقيل: باقول باللام بدل الميم. و أشبه الأقوال بالصواب ما قاله الحافظ ابن حجر أنه ميمون. وقيل: صباح غلام العباس وقيل: غلامه كلاب وقيل: ميناء غلام امرأة من الأنصار ونقل ابن النجار، عن الواقدي، أنه درجتان ومجلس. وللدارمي في صحيحه، عن أنس، فصنع له منبر له درجتان ويقعد على الثالثة. وفي رواية للدارمي هذه المراقى الثلاث أو الأربع على الشك. وفي صحيح مسلم، هذه الثلاث درجات من غير شك، فأطلق على المجلس درجة. وليحيى عن ابن أبي الزناد أن

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٠٩

النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس على المجلس ويضع رجله على الدرجة الثانية، فلما ولي أبو بكر قام على الدرجة الثانية، ووضع رجله على الدرجة السفلى. فلما ولي عمر قام على الدرجة السفلى، ووضع رجله على الأرض. فلما ولي عثمان فعل ذلك ست سنين من خلافته، ثم علا إلى موضع النبي صلى الله عليه وسلم ولما استخلفت معاوية، زاد في المنبر، فجعل له ست درجات. وكان عثمان أول من كسا المنبر قטיפه، وعن أبي الزناد، قال: فسرت الكسوة امرأة. فأتى بها عثمان، فقال لها: هل سرقت؟

قولي الحق. فاعترفت فقطعها. قالوا: فلما قدم معاوية، عام حج، حرك المنبر، وأراد أن يخرجها إلى الشام، إلى دمشق، فكسفت الشمس يومئذ حتى رؤيت النجوم فاعتذر معاوية إلى الناس وقال: أردت أن أنظر إلى ما تحته، وخشيت عليه من الأرضية. قال بعضهم كساه يومئذ قטיפه أو لينة. وفي رواية، أن معاوية كتب إلى مروان بذلك، فقلعه، فأصابتهم ريح فظلمة، بدت فيها النجوم نهارا ويلقى الرجل الرجل يصكه ولا يعرفه. فقال مروان إنما كتب إلى أن أصلحه، فدعا النجارين فعمل هذه الدرجات. ورفعوه عليها وهي، يعنى الدرجات، التي زاداها ست درجات. ولم يزد فيه أحد قبله ولا بعده. وفي تاريخ الواقدي، أراد معاوية سنة خمسين تحويل منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دمشق الشام فكسفت الشمس يومئذ.

و كلمه أبو هريرة فيه فتركه. فلما كان عبد الملك أراد ذلك فكلمة قبيصة فتركه.

فلما كان الوليد أراد ذلك فأرسل سعيد ابن المسيب إلى عمر بن عبد العزيز فكلمه فتركه فلما كان سليمان قيل له في تحويله فقال لاها الله أخذنا الدنيا ونعمد إلى علم من أعلام السلام نريد تحويله، ذاك شيء لا أفعله. وما كنت أحب أن يذكر هذا عن عبد الملك ولا عن الوليد وما لنا ولهذا. قال ابن النجار، فيما رواه عن أبي الزناد، أنه صار بما زاد فيه مروان تسع درجات بالمجلس. فلما قدم المهدي قال لمالك أريد أن أعيد على حاله فقال له مالك إنما هو من طرفاء الغابة، وقد سمر إلى هذه العيدان، وشد فمتى نزعت خفت أن تتهافت. فانصرف المهدي عن ذلك.

قال ابن زياد وطول منبر النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ذراعان في السماء وعرضه، أي عرض مقعده، ذراع في ذراع، وتربيعة سواء، وعرض درجه شبران، لأن كل درجة شبر، وأن طول المنبر من السماء بعدما زاد فيه أربعة أذرع و صار امتداده في الأرض سبعة أذرع بتقديم السين، بإضافة عتبة الدكة الرخام، التي المنبر فوقها، وتلك العتبة ذراع. فامتداد المنبر بدونها ستة أذرع. انتهى. و عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤١٠

خطب يقوم إلى جذع منها كما مر وكانت امرأة من الأنصار اسمها عائشة، وكان لها غلام نجار اسمه باقوم الرومي، قالت يا رسول الله: إن لي غلاما نجارا أفلا أمره يتخذ لك منبرا تخطب عليه؟ قال: بلى فأمرته، فاتخذ له منبرا. انتهى. من تاريخ الخميس.

جاء في كتاب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» في الجزء السادس بصحيفة (٥٠٥) ما نصه: وقد روى أبو نعيم حليته في ترجمة الإمام مالك أن هارون الرشيد استشار مالكا في أن ينقص منبر النبي صلى الله عليه وسلم ويجعله من جوهر وذهب وفضة فقال له مالك لا أرى أن تحرم الناس أثر النبي صلى الله عليه وسلم. انتهى منه.

جاء في تاريخ الخميس بعد الكلام على اتخاذ المنبر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما نصه:
 وفي رواية سأله رجل عن اتخاذ المنبر فأجابه إليه. وفي هذه الرواية صنع له ثلاث درجات، فلما كان يوم الجمعة خطب على المنبر، قال جابر: سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار. وفي خلاصة الوفاء اضطربت تلك السارية كحنين الناقه الخلوج، أى التى انتزع ولدها. قال عياض: حديث حنين الجذع مشهور والخبر به متواتر أخرجه أهل الصحيح ورواه من الصحابة بضع عشر. وفي رواية أنس حتى ارتج المسجد لخواره وفي رواية أن كائنين الصبى وفي رواية سهل وكثر بكاء الناس لما رأوا به. وفي رواية المطلب، حتى تصدع وانشق، حتى جاءه النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكت. وفي رواية فنزل النبي صلى الله عليه وسلم ويمسحه بيده حتى سكن أو سكت كالصبى، الذى يسكت ثم رجع إلى المنبر وزاد غيره فقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم هذا أبكى لما فقد من الذكر وزاد غيره والذى نفسى بيده لو لم التزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تحزنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفن تحت المنبر. هكذا فى حديث المطلب. وفي حديث أبى بن كعب، فكان إذا صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلى إليه، فلما هدم المسجد وغير، أخذ ذلك الجذع أبى، وكان عنده فى تلك الدار، إلى أن بلى وأكلته الأرضة و عاد رفاتا. وذكر الاسفراينى أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاه إلى نفسه فجاءه يخرق الأرض، فالترمه، ثم أمره فعاد إلى مكانه. وفي حديث بريده قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن شئت أردك إلى الحائط الذى كنت فيه تنبت لك عروكك ويكمل خلقك ويجد ذلك خوصك وتحرك، وإن شئت أغرسك فى الجنة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤١١

فياكل أولياء الله من ثمرك ثم أصغى له النبي صلى الله عليه وسلم يسمع ما يقول فقال: بل تغرسنى فى الجنة فياكل منى أولياء الله فأكون فى مكان لا أبلى فيه يعنى، فى الجنة فسمعه من يليه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد فعلت. ثم قال: قد اختار دار البقاء على دار الفناء.

أورده فى الشفاء وفى خلاصة الوفا اعتمد المطرى فى بيان محل الجذع على ما روى ابن زباله، فقال: وكان هذا الجذع عن يمين مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصقا بجدار المسجد القبلى، فى موضع كرسى الشمعه اليمنى، التى توضع عن يمين الإمام المصلى فى مقام النبي صلى الله عليه وسلم والأسطوانة التى قبلى الكرسى متقدمة على موضع الجذع فلا يعتمد على قول من جعلها فى موضع الجذع.

ترجمة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه

إشارة

بمناسبة ما تقدم ذكره، نأتى بشيء يسير من ترجمته، رضى الله عنه، فقد أسلم معاوية يوم الحديبية و كتم اسلامه عن أبيه و أمه، حتى أظهره يوم فتح مكة.

وقيل بعد الحديبية. وهو من أشرف الصحابة نسبا، جاهلية وإسلاما، فإنه من أكابر قريش و يجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف، لأن عبد مناف له أربعة أولاد وهم: هاشم جد النبي، عليه الصلاة والسلام، والمطلب جد الشافعى، و نوفل، و عبد شمس، جد عثمان و معاوية، رضى الله عنهما. وكان والد معاوية أبو سفيان من أكابر مكة و أشرفها و كان يحب الفخر فى قومه، و من هنا قال صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن» و ذلك زيادة فى تشریفه.

و كان معاوية، رضى الله عنه، أحد كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صح فى مسلم وفى غيره. فقد كان حسن الكتابه، فصيحاً حليماً وقوراً. نقل القاضى عياض، رحمه الله تعالى، أن رجلاً قال للمعاوية بن عمران: أين عمر بن عبد العزيز من معاوية؟ فغضب

غضبا شديدا وقال لا يقاس بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد.

معاوية صاحبه وصهره و كاتبه وأمينه على وحي الله. اه.

روى الترمذى وقال أنه حديث حسن: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لمعاوية فقال:

«اللهم اجعله هاديا مهديا» ولا شك أن جميع أذعيته، عليه الصلاة والسلام، لأتمته، لا سيما لأصحابه، مستجابة.

و أن أم المؤمنين أم حبيبة، رضى الله عنها، زوجة النبي صلى الله عليه وسلم هي أخت معاوية، فصار بذلك صهرا له، عليه الصلاة والسلام، وهو داخل في قوله صلى الله عليه وسلم:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤١٢

«دعوا أصحابي وأصهارى، فإن من حفظنى فيهم كان معه من الله حافظ، ومن لم يحفظنى فيهم تخلى الله عنه، ومن تخلى الله عنه يوشك أن يأخذه». رواه الإمام الحافظ أحمد بن منيع.

ولقد بشّره صلى الله عليه وسلم بالخلافة، فقد روى أبو بكر بن أبى شيبة بسنده إلى معاوية، رضى الله عنه، أنه قال: ما زلت أطمع فى الخلافة منذ قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا ملكت فأحسن». و أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولى معاوية دمشق الشام، فمكث بها مدة خلافته. وكذلك فعل معه أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله تعالى على الجميع. ولقد أقام معاوية مدة طويلة فى عهد عمر و فى عهد عثمان فى إمارته على دمشق الشام، فلم يشك أحد منه ولا اتهمه بظلم مع كثرة شكايه أهل الأقطار من ولايتهم.

و فى سنة إحدى وأربعين من الهجرة تنازل الحسن بن على أبى طالب، رضى الله عنهما، عن الخلافة وسلم الأمر إلى معاوية، رضى الله عنه، تورعا قطعاً للشر وإطفاء للفتنة، فسمى هذا العام، عام الجماعة، لاجتماع الأمة بعد الفرقة على خليفه واحد.

هذا ولقد رأينا أن ننقل ترجمه معاوية، رضى الله تعالى عنه، من كتب الأحاديث، لأنها أصح وأقوى ترجمه من غيرها من الكتب، ولقد وقع اختيارنا فى النقل على كتاب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم» فقد جاء فى الجزء السادس منه عن ترجمته ما يأتى: أما معاوية، رضى الله تعالى عنه، فهو ابن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى، أمير المؤمنين، وأول الملوك فى الإسلام، وقد ولد قبل البعثة بخمس سنين وقيل بسبع وقيل بثلاث عشرة والأول عشرة والأول أشهر، وقد حكى الواقدي أنه أسلم بعد الحديبية، و كتم اسلامه حتى أظهره عام الفتح. و انه كان فى عمره القضاء مسلما، و يعارض هذا ما ثبت فى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: فى العمرة فى أشهر الحج فعلناها.

و هذا يومئذ كافر، يعنى معاوية. و قال الحافظ، فى الإصابة: يحتمل إن ثبت الأول أن يكون سعد أطلق ذلك بحسب ما استصحب من حاله، و لم يطلع على أنه كان أسلم لإخفائه لإسلامه أى عن أبويه. وقد أخرج أحمد من طريق محمد بن على بن الحسين، عن ابن عباس، أن معاوية قال: قصرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المروة،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤١٣

و أصل الحديث فى البخارى من طريق طاوس عن ابن عباس بلفظ قصرت بمشقص و لم يذكر المروة، و ذكر المروة بعين أنه كان معتمرا. لأنه كان فى حجة الوداع حلق بمنى، كما ثبت فى الصحيحين، عن أنس، و أخرج البغوى من طريق محمد بن سلام الجمحى، عن ابان بن عثمان، كان معاوية بمنى وهو غلام مع أمه إذ عثر فقالت: قم لا رفعك الله. فقال لها اعرابى: لم تقولين له هذا؟ والله إنى لأراه سيسود قومه. فقالت: لا رفعه الله أن لم يسد إلا قومه.

قال أبو نعيم: كان من الكتبة الحسبة الفصحاء حلما وقورا، و عن خالد بن معدان، فى صفته، أنه كان طويلا أبيض أجلح. و قد صحب النبى، صلى الله عليه وآله وسلم، و كتب له. و ولاء عمر الشام بعد أخيه يزيد بن معاوية بن أبى سفيان و أقره عثمان. ثم استمر فلم يبايع عليا، ثم حاربه و استقل بالشام. ثم أضاف إليها مصر، ثم تسمى بالخلافة، بعد الحكمين، ثم استقل لما صالح الحسن، و اجتمع

عليه الناس، فمسى ذلك العام، عام الجماعة. و أخرج البغوي من طريق مبارك ابن فضالة، عن أبيه، عن علي بن عبد الله، عن عبد الملك بن مروان قال:

عاش ابن هند، يعني معاوية، عشرين سنة أميرا و عشرين سنة خليفه، و به جزم محمد بن إسحاق، قال الحافظ، في الإصابة: و فيه تجوز لأنه لم يكمل في الخلافة عشرين إن كان أولها قتل علي، كرم الله وجهه، و إن كان أولها تسليم الحسن بن علي له فهي تسع عشرة سنة إلا يسيرا.

و في صحيح البخارى، عن عكرمة قلت لابن عباس: أن معاوية أوتر بركعه فقال: إنه فقيه. و في رواية أنه قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. و حكى ابن سعد، أن معاوية كان يقول: لقد أسلمت قبل عمرة القضية، و لكنى كنت أخاف أن أخرج إلى المدينة، لأذن أمى كانت تقول: إن خرجت قطعنا عنك القوت. و ذكر ابن سعد، عن المدائنى، قال: نظر أبو سفيان إلى معاوية، و هو غلام، فقال: إن ابني هذا لعظيم الرأس و أنه لخليق أن يسود قومه فقالت هند قومه فقط ثكلته أن لم يسد العرب قاطبة.

و قال المدائنى: كان زيد بن ثابت يكتب الوحي، و كان معاوية يكتب للنبي صلى الله عليه وآله و سلم فيما بينه و بين العرب و في مسند أحمد و أصله في مسلم عن ابن عباس قال: قال لى النبي صلى الله عليه وسلم: ادع لى معاوية و كان كاتبه. قال الحافظ ابن عبد البر: ولى عمر، رضى الله تعالى عنه، معاوية على الشام، عند موت أخيه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤١٤

يزيد. و قال صالح ابن الوجيه: فى سنة تسع عشرة كتب عمر إلى يزيد بن أبى سفيان يأمره بغزو قيسارية، فغزاها، و بها بطارقة الروم، فحاصرها أياما، و كان بها معاوية أخوه فتخلفه عليها و سار يزيد إلى دمشق، فأقام معاوية على قيسارية، حتى فتحها، فى شوال سنة تسع عشرة. و توفى يزيد فى ذى الحجة من ذلك العام فى دمشق. و استخلف أخاه معاوية على عمله، فكتب إليه عمر بعهدة على ما كان يزيد يلى من عمل الشام و رزقه ألف دينار فى كل شهر. هكذا قال صالح بن الوجيه و خالفه الوليد بن مسلم.

و نقل ابن عبد البر، فى الاستيعاب، عن أبى إسماعيل محمد بن عبد الله البصرى، قال: جزع عمر على يزيد جزعا شديدا، و كتب إلى معاوية بولايته على الشام.

فأقام أربع سنين و مات عمر، رضى الله تعالى عنه، فأقره عثمان عليها، فى اثنتى عشرة سنة إلى أن مات. ثم كانت الفتنة فحارب معاوية عليا خمس سنين اه.

قال ابن عبد البر: صوابه أربع سنين. و قال غيره: ورد البريد، بموت يزيد، على عمر، رضى الله تعالى عنه، و أبو سفيان بن حرب عنده، فلما قرأ الكتاب بموت يزيد قال لأبى سفيان: أحسن الله عزاءك فى يزيد و رحمه. ثم قال له أبو سفيان: من وليت مكانه يا أمير المؤمنين؟ قال: أخاه معاوية. قال: وصلتك رحم يا أمير المؤمنين. و قال عمر، رضى الله تعالى عنه، إذ دخل الشام و رأى معاوية:

هذا كسرى العرب. و كان قد تلقاه معاوية فى موكب عظيم، فلما دنا منه، قال له: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: مع ما يبلغنى عنك، من وقوف ذوى الحاجات ببابك؟ قال: مع ما يبلغك من ذلك. قال: و لم تفعل هذا؟ قال: نحن بأرض جواسيس العدو بها كثير، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما نرهبهم به، فإن أمرتنى فعلت، و إن نهيتنى انتهيت. فقال لمعاوية: ما أسألك عن شىء إلا تركتنى فى مثل رواجب الضرس، إن كان ما قلت حقا إنه لرأى أريب، و إن كان باطلا إنه لخدعة أديب. قال: فمرنى يا أمير المؤمنين. قال:

لا آمرك و لا أنهاك، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه. قال: لحسن مصادره و موارد جشمناه ما جشمناه. و ذم معاوية عند عمر يوما فقال: دعونا من ذم فتى قريش، من يضحك فى الغضب و لا ينال ما عنده إلا على الرضا، و لا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه. روى جبله بن سحيم عن ابن عمر قال: ما رأيت أحدا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤١٥

فقيل له فأبو بكر و عمر و عثمان و على رضى الله عنهم، فقال: كانوا و الله خيرا من معاوية، و كان معاوية أسود منهم و قيل لنافع: ما بال ابن عمر بايع معاوية و لم يبايع عليا؟ فقال: كان ابن عمر لا يعطى يدا فى فرقة و لا يمنعها من جماعة و لم يبايع معاوية حتى اجتمعوا عليه.

و أخرج أبو يعلى فى مسنده عن سويد بن شعبة بإسناده إلى معاوية، قال:

اتبعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بوضوء، فلما توشأ نظر إلى، فقال:

يا معاوية: إن وليت أمرا فاتق الله و اعدل. فما زلت أظن أنى مبتلى بعمل. قال الحافظ فى الإصابة: و سويد فيه مقال، و قد أخرجه البيهقى فى الدلائل من وجه آخر. اه. و قيل أن النبى صلى الله عليه و سلم قال له: إن ملكك فاعدل، و أخرج ابن سعد عن أحمد بن محمد الأزرقى، عن عمرو بن يحيى بن سعيد، عن جده قال: دخل معاوية على عمر بن الخطاب و عليه حلة خضراء فنظر إليه الصحابة. فلما رأى ذلك عمر، قام و معه الدرّة، فجعل ضربا بمعاوية، و معاوية يقول: الله، الله، يا أمير المؤمنين. فيم فيم؟ فلم يكلمه حتى رجع فجلس فى مجلسه، فقالوا له: لم ضربت الفتى و ما فى قومك مثله؟ فقال: ما رأيت إلا خيرا و ما بلغنى إلا خيرا، و لكنى رأيت، و أشار بيده يعنى إلى ما فوق، فأردت أن أضع منه. و ذكر الحافظ بن حجر فى الإصابة بإسناد قوى، من كتاب الزهد، لابن المبارك أن معاوية خرج إلى الحج مع عمر بن الخطاب، و كان من أجمل الناس فقال له عمر فى مراجعة بينهما: سأحدثك ما بك الطافك نفسك بأطيب الطعام و تصبحك حتى تضرب الشمس متنيك و ذوو الحاجات وراء الباب. قال أسلم، مولى عمر، حتى جئنا ذا طوى فأخرج معاوية حلة فلبسها، فوجد عمر منها ريحا كأنه ريح طيب، فقال:

يعمد أحدكم فيخرج حاجا تفلأ، حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة، أخرج ثوبه، كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما، فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل بهما على عشيرتى، يا عمر و الله لقد بلغنى، إذاك، هاهنا، و بالشام. فالله يعلم أنه لقد عرفت الحياء فى عمر. فنزع معاوية الثوبين و لبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما. و فى تاريخ البخارى، عن معمر، عن همام بن منبه، قال: قال ابن عباس: ما رأيت أحدا أحلى للملك من معاوية. و نسب الحافظ فى الإصابة لابن أبى الدنيا أن عمر بن الخطاب قال: إياكم و الفرقة بعدى فإن فعلتم فاعلموا أن معاوية بالشام. فإذا و كلمتم إلى رأيكم كيف يستبها منكم. انتهى من كتاب زاد المسلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤١٦

نبذة عن عادات معاوية رضى الله تعالى عنه و هو خليفة

جاء فى الجزء الثانى من تاريخ المسعودى المسمى "مروج الذهب و معادن الجواهر" عن بعض أخلاق و عادات معاوية بن أبى سفيان، رضى الله تعالى عنه، ما نصه:

كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن فى اليوم و الليلة خمس مرات. كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر و ينهى، ثم يصلى أربع ركعات، ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم و يحدثونه، و يدخل عليه وزاؤه، فيكلمونه، فيما يريدون من يومهم إلى العشى، ثم يؤتى بالغداء الأصغر و هو فضلة عشائه من جدى باردا و فرخ أو ما يشبهه، ثم يتحدث طويلا ثم يدخل منزله لما أراد، ثم يخرج فيقول: يا غلام أخرج الكرسى. فيخرج إلى المسجد فيوضع فيسند ظهره إلى المقصورة، و يجلس على الكرسى، و يقوم الأحداث، فيتقدم إليه الضعيف و الأعراض و الصبى و المرأة و من لا أحد له، فيقول: ظلمت، فيقول: أعزوه.

و يقول: عدى على. فيقول: ابعثوا معه. و يقول: صنع بى. فيقول: انظروا فى أمره، حتى إذا لم يبق أحد، دخل فجلس على السرير، ثم يقول ائذنوا للناس، على قدر منازلهم، و لا يشغلنى أحد عن رد السلام، فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، فيقول:

بنعمة من الله. فإذا استوتوا جلوسا قال: يا هؤلاء إنما سميتم أشرفا لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس. ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا، فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان. فيقول: افرضوا لولده، ويقول آخر: غاب فلان عن أهله. فيقول: تعاهدوهم، أعطوهم، اقضوا حوائجهم، اخدموهم، ثم يؤتى بالغداء، ويحضر الكاتب، فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له: اجلس على المائدة. فيجلس فيمد يده، فيأكل لقمتين أو ثلاثا، والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمر. فيقال يا عبد الله اعقب فيقوم ويتقدم آخر، حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم.. وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء، ثم يرفع الغداء، ويقال للناس أجزوا فينصرفون. فيدخل منزله فلا يطعم فيه طامع حتى ينادى بالظهر، فيخرج فيصلى ثم يدخل فيصلى أربع ركعات. ثم يجلس، فيأذن لخاصة الخاصة، فإن كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة والخشكانج والأقراص المعجونة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤١٧

باللبن والسكر من دقيق السميد والكعك المنضد والفواكه اليابسة، وإن كان وقت الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة. ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقيه يومهم. ويجلس إلى العصر، ثم يخرج فيصلى العصر، ثم يدخل منزله فلا يطعم فيه طامع حتى إذا كان في آخر أوقات العصر خرج، فجلس على سريره، ويؤذن للناس، على منازلهم، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ولا ينادى له بأصحاب الحوائج. ثم يرفع العشاء وينادي بالمغرب، فيخرج فيصليها ثم يصلى بعدها أربع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخافت أخرى، ثم يدخل منزله فلا يطعم فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلى، ثم يؤذن للخاصة و خاصة الخاصة والوزراء والحاشية، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدرا من ليلتهم، ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياستها لرعيته، وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيته، وغير ذلك، من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطرف الغربية من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة. ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعده، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايده، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، ثم يخرج فيصلى الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم.

وقد كان هم بأخلاقه جماعة بعده، مثل عبد الملك بن مروان وغيره، فلم يدركوا خلقه ولا إتقانه للسياسة، ولا التأنى للأمر ولا مداراته للناس على منازلهم ورفقه بهم على طبقاتهم. انتهى من الكتاب المذكور.

بعض أعمال معاوية رضي الله تعالى عنه بمكة

كتب الأستاذ السيد أحمد على بمجلة الحج بتاريخ شوال سنة ١٣٧٧ هـ عن بعض الأعمال، التي قام بها معاوية، رضي الله تعالى عنه، ببلد الله الأمين "مكة" وفيما يلي نص عبارته:

نظم أمير المؤمنين معاوية في عهد خلافته أمر إمارة الحرم، بتخصيص أموال، من بيت مال المسلمين، لشراء قناديل وزيت وما يلزم لهما.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤١٨

وجاء، سنة حجة، بمنبر صغير للحرم، من الشام، وخطب عليه. فكان أول خطيب خطب بحرم مكة على منبر. وكان الخطباء من قبله يخطبون يوم الجمعة قائمين عند وجه الكعبة على الأرض.

وعمر دار الندوة للنزول فيها إذا حج، ثم صارت مقر نزول الخلفاء الأمويين من بعده إذا قدموا للحج. وأمر بتجديد أنصاب الحرم فكتب إلى عامله بمكة أن يستعين بمحرز بن علقمة، إذا كان حيا، في تحديد معالم الحرم بدقة ففعل.

وخصص، لخدمة الكعبة، عبيدا بعث بهم من الشام. واتخذ الخلفاء من بعده إرسال عدد من العبيد كخدم للكعبة، عادة لهم، ورتب

لها من يقوم بتطبيها عند كل صلاة من الأتياب المختلفة، التي كان يبعث بها من الشام، في موسم الحج و في شهر رجب. وكسيت الكعبة، في عهده، بأمره مرتين في السنة. كسيت بالديباج يوم عاشوراء و بالقباطى في آخر شهر رمضان. و اهتم، رضى الله عنه، بأمر توفير المياه في مكة و أطرافها فأجرى عشر عيون، كلها في أعلى مكة، في المنطقة الممتدة بين حراء إلى الجعفرية المعروفة الآن، و عين واحدة أجزاها بأسفل مكة. و اتخذ عند كل عين منهلا يرده الأهالى و الحجاج و مزرعة كبيرة و نخيلا. و عنى كذلك بأمر العمران فعمر و اشترى في الأرض المرتفعة الواقعة بين المروة و القرارة و السويقة عشر قصور منها: دار البيضاء و سميت بهذا الاسم لأنها طليت بالجص الأبيض، و بجوارها "دار الرقطاء" بهذا الاسم لأنها بنيت بالأجر الأحمر و الجص الأبيض، و دار المراحل مخزنا لحدود عظيمة من صفر، يطبخ فيها الطعام للحجاج في موسم الحج، و في شهر رمضان لفقراء مكة، و دار بالمسقلة، بناها غلام معاوية سعد القصير بحجارة منقوشة فيها صور و أشجار. و يخترق هذه الدار طريق واسع تمر به المحامل و الهوادج، و دار الحدادين، بسوق الليل حيث كانت سوق الفاكهة و الرطب. عرفت باسم دار مال الله، و كانت كالمستشفى مقرا للمرضى، و في المدعا حيث دار أبى سفيان، كانت رحبة واسعة ترد اليهما القوافل القادمة من السراء و الطائف و الناقله للحبوب و السمن و العسل. ثم اقطعها معاوية لزياد بنى فيها دارا.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤١٩

و أمر معاوية بإرسال نفر من النبط الموجودين بمكة إلى عرنة بعرفات، لعمل الأجر لقصوره و بناياته التي شيدها في مكة. و عرفت تلك الأرض فيما بعد "بأضاه النبط."

هذه لمحة تصويرية لناحية من نواحي مكة في عهد الخليفة معاوية، رضى الله عنه، يستطيع الباحث أن يرى من خلالها مكة فيجدها عبارة عن واحات صغيرة انتشرت في أعلاها، و مناهل يردها الناس و كلها بعيدة عن الحرم، و بها أسواق تباع فيها الفاكهة و الحبوب و العسل و السمن، تنقلها القوافل من الطائف و بلاد السراء، و الروائح الزكية تتصاعد عند كل صلاة من عند الكعبة، و قصور تشرف على الحرم من ناحية مرتفعات المروة. و تجلب كميات الأجر الأحمر من وادى عرنة. انتهى من المجلة المذكورة.

عدل معاوية و قوة سلطانه

جاء في كتاب "مثل عليا من قضاء الإسلام" تأليف الأستاذ محمود الباجي عن عدل معاوية، رضى الله عنه، و قوة نفوذ حكمه ما نصه: خرجت الكتيبة الفدائية العاشرة بأمر من الخليفة معاوية، رضى الله تعالى عنه، و طبق خطة وضعتها قيادة السواحل، و كان من بين رجال الكتيبة وضاح بن مسلمة القرشى. و هو بطل من أبطال حرب المكامن و فدائي مغامر لا يستطيب المقام. و لا تغلق دونه الأبواب. و توغل الفدائيون في أرض العدو يغيرون و يجمعون المعلومات الدقيقة عن الاستحكامات و حركات الجيوش. و مضاربيها. و طبيعة الأرض. و مواقعها الهامة. و الحالة الفكرية التي عليها السكان. و مكامن الضعف و القوة في جهاز الدولة. و سرعان ما افتضح أمر هؤلاء الأغرار عن البلاد فأسرع البعض منهم و اختفى الباقون. غير أن فدائيا من الفارين جعل يتتبع حركات إخوته المقبوض عليهم ليقدم بذلك بيانا للقيادة العامة.

مثل الفدائيون العرب أمام ملك الروم. و باشر بنفسه بحثهم و جعل يسألهم عن برامج القيادة العربية العامة، و عن الغاية من حركة التوسع التي يقوم بها الجيش العربى، و عن المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الدولة. و احتدم الجدل بين الملك و بين وضاح بن مسلمة الذى كان يترجم الفرقة المقبوض عليها و اندس الفدائي الفارين بين الحاضرين يستمع إلى ما يدور بين الملك و زعيم الفرقة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٢٠

صرح وضاح فيما صرح به أمام الملك بأن جيش معاوية قائم برسالة إنسانية لا حدود لها. و لا يقف دونها بحر و لا يابسة، و أنه مكلف خاصة بتطهير المجتمع البشرى، من جشع الإقطاع، و عدوان الملوك و رؤساء الكنائس، و كان رئيس البطارقة واقفا إلى جانب

الملك فتحمس و دفعه الغضب إلى الاعتداء على وضاح فلكنه على وجهه لظما مهينا موجعا، و ثارت في الأسير الكريم أريحيته القرشية.

و عزته العربية فصاح قائلا: وا إسلاماه...!!

أين أنت عنا يا معاوية!

أهملتنا و ضيبت ثغورنا. و حكمت العدو فينا.

انقلب الفتى الفدائي الذي كان يشهد هذا الاعتداء عائدا إلى دمشق و أعلم الخليفة بما حدث و أكد له أن وضاحا ما يزال في الأسر. و بادر الخليفة باستدعاء رجل من ساحل دمشق، من مدينة صور، و كان عارفا بالأقاليم المجاورة، كثير الغزوات في البحر، صمل عظيم الحيلة بارع التصرف، يجيد التكلم باللغة الرومية كأحد أبنائها، و جهّز له سفنا تجارية. و أعطاه مالا كثيرا و أوغز له أن يتظاهر بالاتجار مع القسطنطينية. و أن يعمل على إيقاع البطريق الذي اعتدى على الفدائي وضاح في الأسر، و يحمله إلى دار الخلافة من غير إساءة و لا عنف.

بينما كان المبعوث يقوم بدوره اتصل الخليفة معاوية بملك الروم و عرض عليه مبادلة الأسرى، و عين له من بين الأسرى المسلمين وضاحا بن مسلمة، و تمت المبادلة، و دخل وضاح إلى قصر الخلافة فأنعم عليه معاوية بالعطايا و الهدايا و المكافآت، و ظن الفدائي أن خليفته استجاب لندائه و افتداه، و أنعم عليه، و قررت عينه بذلك، و لكنه لم يدر أن الخليفة يهيئ له ترضية أخرى أسمى و أرفع و أرضى من جميع ذلك.

نجح الرائد الصوري في اصطيد البطريق بعد أن تربص به سنة كاملة، و اقتاده في سفينته إلى دمشق، و كان البطريق يرجف خوفا من أن يحكم الخليفة العربي بإعدامه، و ضاقت به السفينة. و أظلمت الدنيا في وجهه، و لم يسكن من روعه تأكيد الرائد له بأن معاوية لا يظلم أحدا و لا يسرف في الاقتصاص.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٢١

مثل البطريق أمام معاوية، و أحضر وضاحا القرشي و الفدائي الذي شهد الاعتداء، و طلب معاوية بمحضر شيوخ الأمة من وضاح أن يقرر دعواه و أن يصف نوع الاعتداء الذي ناله من يد البطريق، و أمر الفدائي أن يشهد بما رأى، و استجوب البطريق فاعترف بالاعتداء، ثم أمر وضاحا بأن يقتص من البطريق الذي لطم وجهه على بساط الملك و انتهك حرمة أميره، و اعتدى على سلطانه و قال: "إننا لم نضيعك أيها الجندي الباسل! و لا أبحنا دمك و عرضك" و عندما اقترب القرشي من البطريق حذره معاوية بأن لا يتجاوز في الاقتصاص القدر الذي ناله من يد خصمه.

و إزاء هذا التحذير اكتفى وضاح بمصافحة غريمه و صرح بالعفو عنه و تقدم بين يدي الخليفة و قال: "ما أضاعك من سودك. و لا خاب فيك أمل من أملك. أنت ملك لا تستصام. تمنع حماك، و تصون رعيتك." انفض الموكب و تمت المحاكمة، و أكرم الخليفة العربي البطريق الأسير و حملة التحف و الهدايا- و قال له: "ارجع إلى ملكك و قل له: تركت ملك العرب يقيم الحدود على بساطك، و يقتص لرعيته في دار مملكتك و سلطانتك. و أبلغ البطريق الرسالة إلى ملك الروم،" فقال الملك:

"هذا و الله أمكر الملوك و أدهى العرب. و لقد استحق أن تقدمه العرب عليها فساس أمورها. و الله لو هم بأخذى لتمت له الحيلة على."

تعليق: أي ملك استطاع أن يوفر العدل لرعاياه كمعاوية بن أبي سفيان؟

و أي مواطن وجد الانصاف الذي وجده وضاح القرشي!!؟ فمن أجل لطمة يصاب بها فدائي يهتم الخليفة هذا الاهتمام البالغ، و يجري حركة مبادلة في الأسرى و يجهز السفن للقبض على المعتدى في منطقة نفوذ خارجة عن ملكه، و ينجح في تدييره فلا يسرف في الانتقام و لا يتعدى الاجراء الجزائي البسيط، ثم يتحدى عدوه بهذا الانعام و حسن المعاملة، و لعل هذا العدل الأموي كان له الأثر

البالغ فيما جد بعد هذه الحادثة من فتوحات باهرة و انتصارات ساحقة و من أجل ذلك لقب معاوية بمربي الدول، و سائس الأمم، و راعي الممالك.

أبواب المسجد الحرام قبل توسعته في زماننا

تقدم أن حد المسجد الحرام قبل الإسلام هو نفس دائرة المطاف، و لم يكن له سور و لا جدار و إنما كانت بيوت قريش تحيط به على دائرة المطاف. و قد جعلوا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٢٢

بين كل بيتين أو ثلاثة ممرا و منفذا يدخل الناس منه إلى المسجد، فلما زاد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أحاط بالمسجد الحرام جدارا، فهو أول من زاد في المسجد و أول من أحاط بالجدار و لم يذكر المؤرخون أنه عمل له بابا و لكن نحن نقول: أنه رضى الله عنه، عمل له بابا حيث يعلم من سياق الكلام بالضرورة، فما كان محاطا بجدار لا بد أن يكون له منفذ و المنفذ هو الباب، ثم على قدر كبر المسجد تتعدد الأبواب. و لما كان المسجد الحرام أكبر مساجد الدنيا كانت له أبواب كثيرة و عددها خمسة و عشرون بابا، و إليك بيان هذه الأبواب:

عدد/ اسم الباب/ ملاحظات

١/ باب السلام/ و لا ندري لماذا سمي بذلك مع أن باب بنى شيبه الذى أمام مقام إبراهيم هو باب السلام قديما.

٢/ باب قايتباي/ و به مئذنة السلطان قايتباي، سلطان مصر سابقا، و كان يقال له "باب القوارير".

٣/ باب النبي/ سمي بذلك لأن النبي صلى الله عليه و سلم كان يخرج منه و يدخل فيه من منزله بزقاق العطارين و هو منزل خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، و يسمى باب الجنائز لأنها كانت سابقا تخرج منه، و يقال له أيضا "باب النساء" و يقال له أيضا باب الحريرين لبيع الحرير فى الدكاكين التى كانت بجواره.

٤/ باب العباس/ و هو ابن عبد المطلب سمي به لأنه يقابل داره التى بالمسعى

٥/ باب على/ و يعرف بباب بنى هاشم، و بباب البطحاء أيضا.

٦/ باب بازان/ و يقال له باب بنى عائذ كما سماه الأزرقى و نحن نسميه باب القره قول أو باب مخفر الشرطة.

٧/ باب البغلة/ و يقال له باب بنى سفيان كما عرفه الأزرقى.

٨/ باب الصفا/ سمي بذلك لأنه يقابله، و يقال له باب بنى مخزوم، و بباب أجياد الصغير.

٩/ باب أجياد/ سمي بذلك لأنه يخرج منه إليه على خط مستقيم.

١٠/ باب الرحمة/ و يقال له باب المجاهدية لأن عنده مدرسه الملك المجاهد صاحب اليمن و يسمى أيضا بباب أجياد.

١١/ باب التكية/ أى التكية المصرية لأنه أمامها، و يقال له باب الشريف

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٢٣

عدد/ اسم الباب/ ملاحظات

عجلان و باب بنى تيم.

١٢/ باب أم هانئ/ و هى ابنة أبى طالب، و يقال له باب الحميدية، و هى دار الحكومة، و يقال له أيضا "باب أجياد الكبير" كما يقال له "باب أبى جهل" و غير ذلك.

١٣/ باب الوداع/ و يقال له باب الحزورة، و باب الحزامية، و باب بنى حكيم بن حزام.

١٤/ باب إبراهيم/ سمي باسم رجل خياط كان عنده اسمه إبراهيم.

- ١٥/ باب صغير/ بمدرسة الشريف عبد المطلب.
- ١٦/ باب الداودية/ سمي به لأنه يدخل إلى المسجد من مدرسة الداودية.
- ١٧/ باب العمرة/ و سمي بذلك لأن المعتمر من التنعيم يرجع من طريق الشبيكة فيدخل المسجد الحرام من هذا الباب غالبا لقربه و يقال باب بنى سهم، و باب بنى جمع.
- ١٨/ باب العتيق/ و يقال له باب السدة و باب عمر بن العاص.
- ١٩/ باب الزمامية/ و هو بين باب العتيق و باب الباسطية.
- ٢٠/ باب الباسطية/ سمي بها لاتصاله بمدرسة عبد الباسط، و يقال له باب العجلة، و سمي بذلك لدار كانت عنده بناها ابن الزبير على عجل فكانت تبنى بالليل و النهار حتى فرغ منها سريعا.
- ٢١/ باب القطبي/ و هو في جانب رحبة باب الزيادة و كان يقال له أيضا باب الزيادة و القطبي المنسوب إليه هو عبد الكريم القطبي.
- ٢٢/ باب الزيادة/ و يقال له باب سويقة لأنه يخرج منه إليه.
- ٢٣/ باب المحكمة/ سمي بذلك لأنه يؤدي إليها.
- ٢٤/ باب الكتبخانه/ و منه يدخل إلى مكتبة المسجد الحرام.
- ٢٥/ باب دريبية/ سمي بذلك لأن به درب صغير ينفذ إلى سويقة.
- نقول: لقد ذكر الغازي في الجزء الأول من تاريخه ما نصه: أن الأمير بيسق حينما ناب عمه الشريف حسن بن عجلان حال سفره في الحكم بمكة، و ذلك سنة (٨٠٤) لأربع و ثمانمائة من الهجرة أمر البوابين بالمسجد الحرام أن يلزموا أبوابه، التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٢٤
- كما أمر بتنظيف الطرقات من الأوساخ و القمام، و نقل الكدر التي كانت بسوق الليل و المعلاة، و أن لا يحمل السلاح بمكة، و أمر بإخراج أهل الفساد منها. انتهى.

بوابو المسجد الحرام

لما اتسع المسجد الحرام و كثرت أبوابه، كان لزاما أن يكون لكل باب من أبوابه المتعددة بواب يحرس المسجد الحرام من دخول الدواب كالقطط و الكلاب، و من ملاحظة بعض الأمور للداخلين و الخارجين، و قد جرت العادة أن يكونوا من الجهلة و من طبقة العوام، لكن من أغرب الأمور التي اطلعنا عليها أن يكون البوابون في المسجد الحرام من الفقهاء و القضاة كما يحكى لنا التاريخ، فقد ذكر رحمه الله تعالى في كتابه المخطوط "إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام" أنه في سنة (٨٣٠) ثلاثين و ثمانمائة وصل إلى مكة مرسوم في موسم الحج صحبه الركب المصري أن تفتح أبواب المسجد الحرام كلها و يعزل البوابون القديمون و كانوا قضاة و فقهاء و يولى على أبواب الحرم بوابون ليس لهم حرفه و لا صناعة و لا شغل فقراء مساكين، فحضر الأمراء و القضاة و قرئ المرسوم و قرر لكل باب بواب و عزل من كان بوابا قبل ذلك من الفقهاء و القضاة و ألزم البواب بملازمة باب الحرم و النوم عليه ليلا و نهارا و أن لا يغيب عنه إلا- لضرورة و أن يتعاهد البواب باباه بالكنس و الرش و التنظيف و منع الكلاب و الجوارى الحاملات لقرب الماء و الحمال من الدخول في المسجد الحرام و استطراره و المرور فيه بغير حاجة، و رسم السلطان أن يقرر لكل بواب عشرة أشرفية معلوما كل عام يحمل له من أوقاف الحرمين صحبه المسافر على مودع الحكم. اه من الغازي.

و هذا المرسوم الذي ينص بفتح أبواب المسجد الحرام كلها كان بناء على مرسوم آخر سبقه في نفس السنة المذكورة ينص فيه بسد أبواب المسجد الحرام بعد انقضاء الموسم إلا- أربعة أبواب: باب السلام، و باب العمرة، و باب إبراهيم، و باب الصفا لا غير، و لم يعرف قط أن أبواب المسجد الحرام أغلقت إلا في هذه الحادثة فصعب على الناس المتعبدون ذلك فالتمسوا من السلطان فتح جميع

أبواب المسجد فجاءه ذلك المرسوم.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٢٥

ثم ذكر الغازي ما قاله الأديب شهاب الدين أحمد بن سعد بن أحمد الحنفى رحمه الله تعالى يخاطب أهل مصر فى غلق أبواب المسجد الحرام و منبر الخطيب و عزل القاضى، و هو هذا:

يا أهل مصر يا كرام الورى ما بالكم جئتم بأمر عجيب
أغلقتم الأبواب عن طائف و عن مصلّ داخل من قريب
و منبر الخطيب أضحى إذامن فرق البيت حزينا كئيب
و منصب الشرع الشريف الذرى شيبتموه قبل وقت المشيب
فبالذى شرفكم دائما بخدمه البيت و قبر الحبيب
مّتوا على سكان أم القرى بعود قاضيهم و قرب الخطيب
و فتح الأبواب التى غلقت حتى يرى ما كان ضنكا رحيب
فضلا فقد أصبح جيرانها فى حيرة عظمى و أمر عصب

يشير الأديب المذكور بقوله و منبر الخطيب، إلى أنه ورد الأمر السلطانى بترك المنبر فى مكانه بجوار مقام إبراهيم فلا يجزّ إلى جانب الكعبة و يسند إليها كما كانت العادة بذلك، و بقوله و منصب الشرع، إلى أنه ورد الأمر أيضا بعزل القاضى.

و لم يذكر الغازي اسم السلطان الذى أصدر أمره بذلك، و الذى نراه أنه الملك الأشرف أبو النصر برسباى من دولة الجراكسة، و كان سلطانا مهابا ذا شهامة و تدبير، تولى السلطنة يوم الأربعاء ثامن من ربيع الآخر سنة (٨٢٥) خمس و عشرين و ثمانمائة و توفى يوم السبت ثالث عشر ذى الحجة (٨٤١) رحمه الله رحمة واسعة.

أما البوابون فى المسجد الحرام فى وقتنا الحاضر فعدددهم ثلاثون شخصا و كلهم من العوام الجهلة و غالبيهم من أهل اليمن، و كان فيهم اثنان من الأكراد من جهة السلیمانیه، أحدهما: اسمه محمود الكردى و هو بواب لباب السلام و لا يزال إلى اليوم. و ثانيهما: اسمه فتح الله الكردى و هو بواب لباب الدريئة الذى بجوار باب السلام. و قد توفى هذا فى شهر شوال عام (١٣٧٥) خمس و سبعين و ألف هجرية رحمه الله تعالى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٢٦

و نرى أن الواجب يقضى أن يكون البوابون للمسجد الحرام من العوام الجهلة لأن هذه الوظيفة من وظائف الخدم ممتنه غير شريفة، يضع الناس لديهم نعالهم و ما يلبسونه فى أرجلهم و بعض حوائجهم، فلا يلقى بهذه المهنة الممتنه العلماء و الفقهاء و القضاة. و لا ندري ما سبب جعل هؤلاء الأعزاء الكرماء بوابين للمسجد الحرام، فرحم الله السلطان الذى أبطل هذه العادة السيئة.

انظر: صورة رقم ١٣٥، المسجد الحرام و قد ضربت فيه الخيام ليستظل تحتها المصلون

نصب الخيام فى المسجد الحرام

لا بأس من نصب الخيام فى المسجد و الجوامع، أو وضع الستائر فيها للوقاية من الشمس و المطر و الرياح، فقد ضرب رسول الله صلى الله عليه و سلم خيمة فى مسجده، كما جاء فى صحيح البخارى، فى كتاب الصلاة فى باب الخيمة فى المسجد للمرضى و غيرهم: حدثنا زكرياء بن يحيى قال حدثنا عبد الله بن نمر قال حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت: أصيب سعد يوم الخندق فى الأكل فضرب النبي صلى الله عليه و سلم خيمة فى المسجد ليعوده من قريب فلم يرعهم و فى المسجد خيمة من بنى غفار إلا الدم يسيل إليهم فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذى يأتينا من قبلكم فإذا سعد يغذو جرحه دما فمات فيها. انتهى.

و لنذكر هنا عدد المرات التي نصبت فيها الخيام في المسجد الحرام بمكة أثناء لفتح الشمس و حرارتها:

ففي السنة الثالثة من دخول الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود إلى الحجاز أي في سنة (١٣٤٥) خمس و أربعين و ثلاثمائة و ألف أمر، رحمه الله تعالى، بوضع سرادقات- الخيام- في المسجد الحرام حتى تقي الحجاج حرارة الشمس، فاستظل تحتها آلاف الحجاج تلك السنة فقط، ثم في السنة (١٣٤٦) ست و أربعين و ثلاثمائة و ألف أمر جللته برفع الخيام لعدم صلاحيتها التامة و أن يعمل بدلا عنها مظلات قوية على حافة الأروقة مما يلي صحن المسجد من جميع الجهات. و ما زالت هذه المظلات القماشية موجودة من ذلك التاريخ إلى ما قبل العمارة الحديثة. و قد حصل فيها كثير من التغييرات و الإصلاحات و كانت أولا من خشب على هيئة جملون مكسوة بالقماش ثم رفعوا الأخشاب و أبدلوا بأعمدة التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٢٧

من الحديد تربط بها أسلاك قوية و متصله بنفس جدار الأعمدة التي تحمل قباب المسجد ثم يثبت القماش فوق هذه الأسلاك. و يحدثنا التاريخ أنه سبق أيضا نصب بالمسجد الحرام، فقد ذكر الأزرقى في تاريخه أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما حينما كان يقاتل الحصين بن نمير تحصن هو و أصحابه في المسجد الحرام و ضربوا فيه خياما و رفاقا يكتنون فيها من حجارة المنجنيق و يستظلون فيها من الشمس فذهب رجل من أصحابه يو قد نارا في بعض تلك الخيام مما يلي الصفا بين الركن الأسود و الركن اليماني فطارت شرارة في الخيمة فاحترقت كسوة الكعبة ... الخ. و روى فيه أيضا عن عثمان بن ساج قال: أخبرتنى عجوز من أهل مكة كانت مع عبد الله بن الزبير بمكة فقلت لها: أخبريني عن احتراق الكعبة كيف كان؟ قالت: كان المسجد فيه خيام كثيرة فطارت النار من خيمة منها فاحترقت الخيام و التهب المسجد حتى تعلقت النار بالبيت فاحترق. انتهى.

و أيضا حصل نصب الخيام في أيام أمير المؤمنين المتوكل على الله، فإنه حينما أمر بعمارة ما يحتاج لعمارة في المسجد الحرام سنة (٢٧١) إحدى و سبعين و مائتين نصبوا سرادقا سترًا للبنائين و العمال من الناس ليشتغلوا بهدوء و راحة.

و ذكر الغازي في تاريخه أنه في سنة (٨١٠) عشر و ثمانمائة أرسل صاحب بنقالة بالهند السلطان غياث الدين أحمد خان أعظم شاه هدية كبيرة إلى أمير مكة الشريف حسن بن عجلان و كان من ضمنها خيام طلب منه إقامتها في صحن المسجد الحرام يستظل الناس و الحجاج تحتها. فنصبت تلك الخيام لكن بعد سفر الحج المصري رفعت من المسجد لأن الناس كانوا يعثرون بأطنابها. انتهى.

و من الأمور المستغربة ما جاء في تاريخ الغازي أيضا أنه كان الباعة يبسطون بضائعهم أيام الموسم في المسجد الحرام و ينصبون فيه الخيام على مصاطب، ثم في سنة (٨٣٠) ثلاثين و ثمانمائة وصل مرسوم صحبه الحاج يتضمن منع الباعة من كل ذلك. و المصاطب جمع مصطبة بالصاد و بالسين و هي المكان الممهّد المرتفع قليلا، و لم نقف في التاريخ على غير هذه الحوادث الأربعة لنصب الخيام في المسجد و الله تعالى أعلم.

و اعلم أنه ورد النهي عن البيع و الشراء و طلب الضالة في المساجد، لأن مثل هذه الأمور محلها الأسواق و المحلات، و اختصت المساجد للعبادة: قال صلى الله عليه و سلم "إذا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٢٨

رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا له: لا أربح الله تجارتك و إذا رأيتم من ينشد فيه ضالته فقولوا: لا ردها الله عليك" رواه الترمذى و الحاكم في المستدرک و هو حديث صحيح. قال العزيرى: زاد في رواية مسلم "فإن المساجد لم تبني لهذا."

و روى الإمام الأزرقى في تاريخه قال: حدثني جدى قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الكريم الجزرى قال: سمع النبي صلى الله عليه و سلم رجلا في المسجد يقول "من دعا إلى الجمل الأحمر قال: لا وجدت" و قال: ألهدنا بنيت المساجد ... و عن الأزرقى أيضا حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن طاووس "أن النبي صلى الله عليه و سلم سمع رجلا ينشد ضالة في المسجد الحرام فقال: لا وجدت" فرحم الله السلطان الذى أصدر مرسوما بمنع البيع و الشراء في المسجد الحرام و جزاه على ذلك خير الجزاء.

و لقد أنعمنا النظر في سبب عرض الباعة بضايعهم في المسجد الحرام، فظهر لنا أن الأرض خارج المسجد لم تكن متساوية و المسعى كان واديا منحدرًا عميقًا حتى أن الساعى إذا كان راكبًا حصانه و بيده رمح ظهر رأس الرمح لمن كان بالمسجد، و من المعلوم أن مكة كلها جبال متصلبة بعضها ببعض فكان جهات المسجد من الخارج فيها نواتئ و ربوات و انخفاضات فلا يتسنى للناس عرض بضايعهم فيها، بخلاف المسجد الحرام الذى أصلح و تساوت أرضه. أما فى زماننا فأطراف المسجد الحرام و نفس مكة كلها أرضها ممهدة و أزقتها و شوارعها متساوية من عمل الناس لا من أصل الخلقة، على أنه لا تزال جميع مكة فيها منخفضات و ارتفاعات طبيعية لكن بنسبة قليلة لا تمنع من سهولة السير و المواصلات المحلية.

وجود المظلات فى المسجد الحرام

لم تكن فى المسجد الحرام مظلات يستظل تحتها المصلون فى وقت الظهيرة فى يوم الجمعة أو فى موسم الحج، فلما كان فى أوائل عهد جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، رحمه الله تعالى، أمر بعمل أشرعة من القماش القوى الثخين، يستظل تحتها المصلون من أهل البلاد و الحجاج فتيهم من حرارة الشمس. و حسنا فعل رحمه الله تعالى و أجزل ثوابه.

و لنذكر فى هذا الموضوع بالتفصيل ما ذكره العلامة الشيخ حسين بن عبد الله باسلامة، رحمه الله تعالى، فى كتابه "تاريخ عمارة المسجد الحرام"، فلقد قال عند

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٢٩

الكلام على "عمل المظلات بالمسجد الحرام" ما نصه: بما أنه قد كثر ورود الحجاج فى سنة (١٣٤٥) هجرية كثرة عظيمة، حتى بلغ عدد الواردين منهم من جهة البحر مائة و أربعين ألفًا، و من جهة البر ما يربو على ثلاثمائة ألف، و هذا العدد سواء كان من جهة البحر أو البر يندر وقوعه فى مواسم الحج الأخرى، و لذلك ضاق المسجد الحرام بالمصلين، فاضطرت الحكومة السعودية أن تضع سرادقات فى حصى المسجد الحرام، لأجل أن يستظل تحتها المصلون من وفود بلد الله الحرام، و يتوقون بظلمتها من ضربة الشمس و حرّ الظهيرة، و نتج من ذلك نفع عظيم لقسم عظيم من المصلين كما هو ظاهر فى الصورة الشمسية بهذا الكتاب، فقد وقت تلك السرادقات و الصواوين أكثر من عشرة آلاف من الحجاج كانوا يؤدون صلاتهم فى حصى المسجد الحرام فى وقت صلاتى الظهر و العصر، و قد مضى ذلك العام على تلك الحالة.

ثم فى سنة (١٣٤٦) صدرت إرادة جلالة ملك المملكة العربية السعودية الإمام عبد العزيز السعود حفظه الله تعالى على وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان الحمدان، بعمل مظلات قوية ثابتة على دائرة الحصوة مما يلى أروقة المسجد الحرام من الجهات الأربعة، ليستظل تحتها المصلون من حجاج بيت الله الحرام و يتقونها من حر الظهيرة من ضربة الشمس، و أن يكون فى غاية المتانة بحيث لا يزعزعا تيار الهواء، لأنه قد ظهر فعلا أن الرياح قد عبثت بالسرادقات التى قد نصبت فى سنة (١٣٤٥ هـ) مرارا.

فقام وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان بعمل مظلات قوية، قوامها من الخشب الجاوى الثخين على شكل جملون، و كسى ذلك الجملون بالقماش القوى الثخين المنسوج بالقطن الأبيض المسمى بالقلع من أعلاه، و نصبت على حافة الأروقة مما يلى الحصى بالمسجد الحرام من جهاته الأربعة، فصارت توضع هذه المظلات بالمسجد الحرام فى أشهر الحج عند كثرة الحجاج و ازدحام المصلين بالمسجد الحرام، و ترفع بعد سفر الحجاج من مكة إلى أوطانهم. و قد حصلت من هذه المظلات منفعة عظيمة للحجاج، فإنها وقتهم من حر الظهيرة مدة إقامتهم بمكة عند أدائهم صلاتى الظهر و العصر إلى سفرهم إلى أوطانهم، حيث قد استظل تحتها بضعة عشر ألف حاج، و أنفق عليها مبلغ لا يستهان به. انتهى من الكتاب المذكور.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٣٢

و نختم هذه المقالة بأن الله عز و جل الذى بيده مقاليد السموات و الأرض و هو رب كل شىء يطيل فى عمر جلالة ملكنا المعظم

حتى يرى المسجد الحرام فى ثوبه الجديد من هذه التوسعة المباركة، و حتى يرى مكة المشرفة تزهر بهذه المشاريع العظيمة، و حتى يرى المسلمين جميعا فى كافة الأقطار قد تيقظوا من نومهم و رجعوا إلى أنفسهم فاستمسكوا بشريعتهم الغراء، و اعتصموا بحبل الله فاتفقت كلمتهم و قويت شوكتهم و أنزل الله عليهم بركات السماء و أخرج لهم من بركات الأرض، فصلح دينهم و صلحت دنياهم. و ما ذلك على الله بعزيز، و نسأله الفضل و الرحمة و الرضا و الغفران و العفو و العافية و التوفيق لكل خير، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة و فى الآخرة حسنة و قنا عذاب النار، و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين.

جاء فى تاريخ القطبى ما مضمونه: أنه فى سنة (٩٨٤) أربع و ثمانين و تسعمائة هجرية، صدر الأمر السلطاني بهدم البيوت و المدارس الملاصقة بجدار المسجد الحرام من جهة باب السلام إلى باب الصفا فما فوق، و ذلك توسيعا لطريق السيل و دفعا لضرر دخوله إلى المسجد الحرام من ذلك الجانب إذا تراكم، فهدمت تلك المنازل و البيوت توسعة للشوارع. اه.

هذا ما ذكره القطبى فى تاريخه، فيفهم منه لا بد أنه قد حصل هدم البيوت و الأماكن فى مكة من جهات متعددة و فى أزمته متفاوتة، و هذا أمر ضرورى يحدث فى كل بلدة و فى كل قطر، و ذلك بحسب ازدياد العمران، و بحسب هندسة و نظام نفس السكان و احتياجهم إلى تعدد الشوارع و المحلات.

و نقول: إن توسعة شوارع مكة المشرفة مع فرشها بالإسفلت أى تبلطها بالزفت و إنارة جميعها بالكهرباء، و عمل عدة نافورات ملونة فى وسط بعض ميادينها، كانت فيما بين سنة (١٣٨١) ألف و ثلاثمائة و إحدى و ثمانين هجرية و ما بعدها أى سنة (١٣٨٢) مع تشجير بعض الميادين أيضا- و بعبارة أخرى إن مكة شرفها الله تعالى و أدام خيرها قد تطورت فى التعمير و التجميل منذ بدء توسعة المسجد الحرام فى سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين هجرية، فسبحان مغير الأحوال و مدبر الأمور، لا إله إلا هو الكبير المتعال.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٣٣

مكتب توسعة المسجد الحرام

لقد أنشئ هذا المكتب للإشراف على توسعة المسجد الحرام و مراقبة الأعمال و العمال، و يتعلق بهذا المكتب جميع المهندسين و البنائين و النجارين و العمال على اختلاف أجناسهم و أعمالهم، و رئيس هذا المكتب هو سعادة الشيخ محمد صالح القزاز و هو من مكة المشرفة، و هو رجل يفيض بالحيوية و النشاط و الذكاء و المعرفة.

و الرئيس العام لهذا المشروع هو معالى المعلم الشيخ محمد بن لادن و هو من حضرموت، و هو القائم بأعمال مشروع التوسعة للمسجدين الحرامين بمكة المشرفة و بالمدينة المنورة، بل هو القائم بجميع المشاريع الكبيرة الحكومية، و مع أنه لا يعرف القراءة و لا الكتابة، شديد الذكاء عظيم النباهة حاضر البديهة، مستقيم الحال ناجح فى الأعمال، فسبحان المعطى الوهاب، و لقد تأسس هذا المكتب فى عام (١٣٧٥) هجرية بمكة المكرمة بعد تأليف اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام.

و لقد تكلمنا عن التعليم فى المسجد الحرام و عن أسماء علمائه و مؤلفاتهم و أسماء أدباء مكة المكرمة بما فيه الكفاية فراجع إن شئت.

توسعة المسجد الحرام فى العهد السعودى

إشارة

لم نستطع أن نكتب شيئا عن توسعة المسجد الحرام فى العهد السعودى الثانى و ذلك لمرضنا الطويل، و هذه التوسعة هى أعظم توسعة وقعت بمكة المشرفة لشوارعها و للمسجد الحرام و قد تركنا هذا المبحث لمكتب توسعة المسجد الحرام يكتبه بالتفصيل التام

بعد انتهاء أعمال التوسعة، لما عندها من المعلومات الوافية و الصور و الرسوم الكثيرة، غير أننا نضع هنا شيئاً من صور توسعة المسجد الشريف و هي هذه.

انظر: الصور أرقام ١٣ مظلة المسعى من الخارج و تبدو فيها عظمة البناء و روعة التصميم، و رقم ١٣٨ الجانب الشرقي من توسعة الحرم المكي الشريف، ١٣٩ منظر آخر للجانب الشرقي من توسعة الحرم المكي الشريف التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٣٦

و ها نحن نتكلم فى هذا المبحث عن بيان هذه الزيادات كلها بالتفصيل التام أولاً، ثم نأتى بخلاصة ذلك لسهولة حفظها و ادراكها، ناقلين عن تاريخ الغازى المسمى "إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام" حيث أن كتابه جامع لأغلب كتب التاريخ، فنقول و بالله التوفيق و عليه الإعتماد و التكلان:

قال الغازى رحمه الله تعالى، فى تاريخه ما نصه: قال العلامة قطب الدين رحمه الله تعالى، فى كتابه "الإعلام: "اعلم أن الكعبة الشريفة لما بناها سيدنا إبراهيم عليه السلام، لم يكن حولها جدار و استمرت كذلك من أيام العمالق و جرهم و خزاعة، لا يتجرأ أحد أن يبنى بمكة داراً و لا جداراً احتراماً للكعبة الشريفة. فلما آل أمر البيت إلى قصى بن كلاب و استولى على مفتاح الكعبة جمع قصى قومه و أمرهم أن يبنوا بمكة حول الكعبة الشريفة بيوتاً من جهاتها الأربع و كانوا يعظمون الكعبة أن يبنوا حولها بيوتاً أو يدخلون مكة على جنابة و كانوا يقيمون بها نهاراً فإذا أمسوا خرجوا إلى المحل فقال لهم قصى أن سكتتم حول البيت هابتكم الناس و لم تستحل قتالكم و الهجوم عليكم و بدأ هو و بنى دار الندوة فى الجانب الثامن و يقال أنها مقام الحنيفة الذى صلى فيه الآن الإمام الحنفى الصلوات الخمس و قسم قصى باقى الجهات بين قبائل قريش فبنوا دورهم و شرعوا أبوابها إلى نحو الكعبة الشريفة. و تركوا للطائفتين مقدار المطاف الشريف بحيث يعنى أن القدر المفروش الآن بالحجر المنحوت إلى حاشية المطاف الشريف الآن و جعلوا بين كل دارين من دورهم مسلماً شارعاً فيه باب يسلك منه إلى بيت الله تعالى.

ثم لما ظهر الإسلام و كثر المسلمون استمر الحال على ذلك الوضع من زمن النبى صلى الله عليه و سلم و زمان خليفته أبى بكر الصديق. و لما زاد ظهور الإسلام و تكاثرت المسلمون فى زمن أمير المؤمنين عمر الفاروق فرأى أن يزيد المسجد الحرام.

الزيادة الأولى: زيادة عمر فى المسجد الحرام

فأول زيادة زيدت فى المسجد الحرام زيادة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فاشترى، رضى الله عنه دوراً حول المسجد و هدمها و أدخلها فى المسجد و بقيت دور احتيج إلى إدخالها فى المسجد و أبى أصحابها من بيعها فقال لهم عمر: أنتم نزلتم بفناء الكعبة و بنيتم به دوراً و لا تملكون فناء الكعبة و ما نزلت الكعبة فى سوحكم و فنائكم. فقومت الدور و وضع ثمنها فى جوف الكعبة، ثم هدمت التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٣٧

و أدخلت فى المسجد، ثم طلب أصحابها الثمن فسلم إليهم ذلك. و أمر ببناء جدار قصير أحاط بالمسجد، و جعل فيه أبواباً كما كانت بين الدور قبل أن تهدم. و جعلها فى محاذة الأبواب السابقة.

الزيادة الثانية: زيادة عثمان فى المسجد الحرام

فلما كثر الناس فى زمان أمير المؤمنين عثمان بن عفان أمر بتوسيع المسجد و اشترى دوراً حول المسجد هدمها و أدخلها فى المسجد و أبى جماعة عن بيع دورهم ففعل كما فعل عمر بن الخطاب و هدم دورهم و أدخلها فى المسجد فضح أصحاب الدور و صاحوا فدعاهم و قال: إنما جرأكم على حلمى عليكم. ألم يفعل ذلك بكم عمر؟ فما ضح به أحد و لا صاح عليه و قد احتذيت حذوه

فضجرت منى و صحتم على ثم أمر بهم إلى الحبس فشفع فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فتركهم. و كانت زيادة عمر بن الخطاب و عمارته للمسجد عقب السيل العظيم سنة سبع عشرة من تخريبه معالم الحرم الشريف يقال لذلك السيل: سيل أم نهشل (استطراد). و فى سنة سبع عشرة أيضا عمل أمير المؤمنين عمر الردم، الذى بأعلى مكة صونا للمسجد، بناه بالصفير و الصخر العظام و كبسه بالتراب، فلم يعله سيل بعد ذلك، غير أنه جاء سيل عظيم فى سنة اثنين و مائتين فكشف عن بعض أحجاره و شوهدت فيه صخار عظيمة كبيرة لم ير مثلها، و الأقدمون يسمون هذا الردم ردم بنى جمح، بضم الجيم و فتح الميم و بعدها حاء مهملة، و هم بطن من قريش نسبوا إلى جمح بن عمرو بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك. و المراد بهذا الردم الموضع الذى يقال له المدعى و هو مكان كان يرى منه البيت الشريف أول ما يرى. و كان الناس خصوصا حين يرد الحج من ثنية كداء و هى الحجون إذا وصلوا ذلك المحل شاهدوا منه البيت الشريف و الدعاء مستجاب عند رؤية بيت الله تعالى و كانوا يقفون هناك للدعاء و أما الآن فقد حالت الأبنية عن رؤية البيت الشريف و مع ذلك يقف الناس للدعاء فيه على العادة القديمة. و عن يمينه و يساره ميلان للإشارة إلى أنه المدعى. و لما ردم هذا المكان صار السيل إذا وصل من أعلى مكة لا يعلو هذا المكان بل كان ينحرف عنه إلى جهة الشمال للبناء الذى بناه عمر فلا يصل هذا السيل إلى المسعى و لا إلى باب السلام إلى الآن. و صارت هذه الجهة من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٤٠

الذهب و على ميزاب الكعبة و على الأساطين التى فى باطنها و على الأركان التى فى جوفها، و يقال أن الحلية التى حلاها الوليد بن عبد الملك للكعبة هى ما كانت فى مائدة سليمان بن داود عليهما السلام من ذهب و فضة و كانت قد احتملت من طليظة من جزيرة الأندلس على بغل قوى فتفسخ تحتها و كانت بها أطواق من ياقوت و زبرجد. انتهى.

الزيادة الخامسة: زيادة أبى جعفر المنصور

الفصل الثانى من ذكر ما زاده العباسيون فى المسجد الحرام: أول من عمّر و زاد فى المسجد الحرام من الخلفاء العباسيين ثانى الخلفاء أبو جعفر المنصور عبد الله. قال فى الإعلام: و فى المحرم سنة ثمان و ثلاثين و مائة و قيل: سنة تسع و ثلاثين أمر أبو جعفر المنصور بالزيادة فى المسجد الحرام فزيد فى شقه الشامى الذى يلى دار الندوة و زاد فى أسفله إلى أن انتهى إلى المنارة التى فى ركن باب بنى سهم.

و لم يزد فى الجانب الأعلى شيئا لاتصاله بمسيل الوادى و لصعوبة البناء فيه و عدم ثباته إذا قوى السيل عليه و لذلك لم يزد فى أعلى المسجد و اشترى من الناس دورهم و هدمها و أدخلها فى المسجد الحرام و كان الذى ولى عمارة المسجد لأبى جعفر أمير مكة يومئذ من جانبه زياد بن عبد الله الحارثى و كان من شرطية عبد العزيز بن عبد الله بن شافع جد شافع بن عبد الرحمن الشيبى و كان زياد أجحف بدار شيبه بن عثمان و أدخل أكثرها فى الجانب الأعلى من المسجد فتكلم مع زياد فى أن يميل عنه قليلا ففعل فكان فى هذا المحل ازورار فى المسجد و أمر أبو جعفر المنصور بعمل منارة هناك فعملت و اتصل عمله فى أعلى المسجد بعمل الوليد بن عبد الملك و كان عمل أبى جعفر طاقا واحدا بأساطين الرخام دائرا على صحن المسجد و كان الذى زاد فيه مقدار الضعف مما كان قبله و زخرف المسجد بالفسيفساء و الذهب و زينه بأنواع النقوش و رخم الحجر، بالحاء المكسورة ثم الجيم و هو أول من رخّمه، و كان كل ذلك على يد زياد بن عبد الله الحارثى والى الحرمين و الطائف، من قبل المنصور. و فرغ من عمل ذلك فى عامين و قيل فى ثلاثة أعوام. و كتب على باب بنى جمح، أحد أبواب المسجد الحرام من جهة الصفا "بسم الله الرحمن الرحيم، محمد رسول الله، أرسله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون. إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا و هدى للعالمين فيه آيات

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٤١

بينات مقام إبراهيم، و من دخله كان آمنا و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا، و من كفر فإن الله غنى عن العالمين: أمر عبد الله أمير المؤمنين المنصور بتوسعة المسجد الحرام و عمارته و الزيادة فيه نظرا منه للمسلمين و اهتماما بأموارهم و الذى زاد فيه الضعف مما كان عليه قبل و فرغ منه و رفعت الأيدي عنه فى ذى الحجة سنة أربعين و مائة و ذلك بتيسير الله على أمير المؤمنين و حسن معونته و كفايته و إكرامه له بأعظم كرامة فأعظم الله أجر أمير المؤمنين فيما نوى من توسعة المسجد الحرام و أحسن ثوابه و جمع له بين خيرى الدنيا و الآخرة و أعز نصره و أيدته."

الزيادة السادسة: زيادة محمد المهدي العباسي

ثم زاد فيه المهدي العباسي ثالث الخلفاء من بنى العباس قال فى الإعلام: و فى سنة ستين و مائة حج أمير المؤمنين المهدي العباسي و قسم فى الحرمين الشريفين أموالا عظيمة و هى ثلاثون ألف ألف درهم وصل بها معه من العراق و ثلثمائة ألف دينار وصلت إليه من مصر و مائتا ألف دينار وصلت إليه من اليمن و مائة ألف ثوب و خمسون ألف ثوب فزق جميع ذلك على أهل الحرمين. و استدعى قاضى مكة يومئذ و هو محمد الأوقص بن محمد بن عبد الرحمن المخزومي و أمره أن يشتري دورا فى أعلى المسجد و يهدمها و يدخلها فى المسجد الحرام و أعد لذلك أموالا عظيمة فاشترى القاضى جميع ما كان بين المسجد الحرام و المسعى من الدور فما كانت من الصدقات و الأوقاف اشترى للمستحقين بدلها دورا فى فجاج مكة و اشترى كل ذراع يكسر فى مثله مما دخل فى المسجد بخمسة و عشرين دينارا و ما دخل فى سيل الوادى بخمسة عشر دينارا فكان مما دخل فى ذلك الهدم دار للأزرق و هى يومئذ لاصقة بالمسجد الحرام من أعلاه على يمين الخارج من باب بنى شيبه.

و كان ثمن ناحية منها ثمانية عشر ألف دينار و كان أكثرها داخل فى المسجد الحرام فى زيادة عبد الله بن الزبير، و دخلت أيضا دار خيرة بنت سباع الخزاعية و كان ثمنها ثمانية و أربعين ألف دينار دفعت إليها و كانت شارعة على المسعى يومئذ قبل أن يوءخر المسعى، و دخلت أيضا دار لآل جبير بن مطعم و دار شيبه بن عثمان اشترى جميع ذلك و هدم و أدخل فى المسجد الحرام. و جعل دار القوارير رحبة بين المسجد الحرام و المسعى حتى استقطعها جعفر البرمكى من الرشيد لما آلت الخلافة التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٤٤

السييل و لا يصل إلى جدار الكعبة الشريفة من الجانب اليماني فكان من جدر الكعبة إلى الجدر اليماني من المسجد المتصل بالوادى تسعة و أربعون ذراعا و نصف ذراع فلما زيدت هذه الزيادة الثانية فيه صار من جدر المسجد أولا إلى الجدر الذى عمل آخره و هو باق إلى اليوم تسعون ذراعا فاتسع المسجد غاية الاتساع و أدخل فى قرب الركن اليماني من المسجد فى أسفله دار أم هانئ و يقال الآن للباب الذى فتح هناك باب أم هانئ لأن دارها كانت بقرب ذلك الباب داخل المسجد الحرام الآن و من هذا الباب يدخل إلى المسجد أمراء مكة سادتنا الأشراف آل الحسن بن على بن أبى طالب و كانت عند دار أم هانئ بئر جاهلية حفرها قصي بن كلاب أحد أجداد النبي صلى الله عليه و سلم فأدخلت أيضا تلك البئر فى المسجد الحرام و حفر المهدي عوضها بئرا خارج الحزورة يغسلون عندها الموتى من الفقراء و استمر البناء و المهندسون فى بناء الزيادة و وضع الأعمدة الرخام، و تسقيف المسجد بالخشب الساج المنقش بالألوان نقرا فى نفس الخشب كما أدركناه. و كان فى غاية الزخرفة و الإحكام باقيا فيه لون اللازورد فى غاية الصفا و الرونق بالنسبة إلى لازورد هذا الزمان و استمر عملهم إلى أن توفى المهدي لثمان بقين من المحرم سنة تسع و ستين و مائة قبل أن تتم عمارة المسجد على الوجه الذى أراده و عقد الأمر لولده موسى الهادي و كان إكمال المسجد الحرام أول شىء أمر به الهادي. و بادر الموكلون بذلك إلى إتمامه إلى أن تصل بعمارة المهدي و بنوا بعض أساطين الحرم الشريف من جانب باب أم هانئ بالحجارة ثم طليت بالجص. و كان العمل فى خلافة الهادي دون العمل فى خلافة المهدي فى الاستحكام و الزينة و الاهتمام لكن كملت عمارة المسجد الحرام على هذا الوجه الذى كان باقيا إلى هذه الأيام و ما زيد بعد ذلك إلا الزيادتان كما نشرحهما إن شاء الله تعالى و هذه

الأساطين الرخام جلبها المهدي من بلاد مصر و الشام و أكثرها مجلوب من بلاد أخميم من أعمال مصر و هي بلدة خراب الآن من بلاد مصر القديمة كثيرة الرخام يجلب منه إلى مصر و إلى غيرها من البلدان الرخام العظيم و الأعمدة اللطيفة المنحوتة و المخروطة من الرخام الأبيض يقال: أن أكثر رخام المسجد الحرام مجلوب منه و الله أعلم.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٤٥

سبب وجود سقفين للمسجد الحرام في عمارة المهدي

لما وسّع أمير المؤمنين محمد المهدي العباسي المسجد الحرام هذه التوسعة العظيمة في سنتي ١٦٠ و ١٦٤ من الهجرة، جعل له سقفين من خشب الساج القوى، و كان ما بين السقف الأول و السقف الثاني نحو ذراعين.

و الذي نراه في جعل سقفين للمسجد الحرام في عمارة محمد المهدي، هو أن فن العمارة و الزخرفة و النقش كان قد تقدم تقدما عظيما في أيام عبد الملك بن مروان، و بتوالي السنين ازداد فن العمارة و الزخرفة حسنا و تقدما كما بينا ذلك في غير هذا المحل، فأراد "المهدي رحمه الله" أن تكون عمارة المسجد الحرام أقوى و أجمل عمارة عربية ببلد الله الأمين، لذلك أمر المهدي أن يسقف المسجد الحرام بسقفين، السقف الأول: الذي يظل أرض المسجد يكون بالخشب الساج القوى و أن ينقش و يزخرف بالألوان و الذهب بالنقر في نفس الخشب يكون آية في الإبداع و الحسن و الجمال، قال الإمام الأزرقي: و السقف الساج مزخرف بالذهب مكتوب في دورات من خشب، فيه قوارع القرآن و غير ذلك من الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم و الدعاء للمهدي. انتهى.

و أما السقف الثاني: الذي يلي السماء فيكون من خشب الدوم اليماني و خشب الدوم ضخم قوى يبلط السطح بالجص و النورة. فيكون السقف الثاني الذي يلي السماء يحفظ السقف الأول الذي فيه النقش و الزخرفة بالألوان و الذهب فلا ينزل عليه ماء المطر و لا تفسد برطوبة مياهه.

و هذه نظرية بعيدة في غاية من الدقة و الإحكام، و إن كانت تستلزم مصاريف زائدة و تكاليف عظيمة، فرحم الله أهل الزمان الأول فقد كانوا إذا عملوا شيئا أتقنوه، و في الحديث الصحيح: "إن الله يحب المتقن عمله".

هذا ما نراه في تعليل وجود السقفين للمسجد الحرام. و الله تعالى أعلم بالغيب.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٤٨

و كانت دار الندوة بعد ظهور الإسلام و كثرة بناء الدور بمكة دارا واسعة ينزل بها الخلفاء إذا وردوا مكة و يخرجون منها إلى المسجد الحرام للطواف و الصلاة و كان له فناء واسع صار سباطة ترمى فيه القمامة فإذا حصلت الأمطار الغزيرة سال من الجبال التي في يسار الكعبة مثل جبل قعيقعان و ما حوله من الجبال سيول عظيمة إلى ذلك الفناء و حملت أوساخه و قمامته إلى دار الندوة و إلى المسجد الحرام و احتيج إلى تنظيف تلك الأوساخ و القمامة من المسجد الشريف كلما سالت سيول هذا الجانب الشمالي و صار ضررا على المسجد الحرام فكتب قاضي مكة يومئذ من قبل المعتضد العباسي القاضي محمد بن عبد الله المقدسي و أمير مكة يومئذ من قبله أيضا عجب بن حاج، مولى المعتضد المذكور مكاتبات إلى وزير المعتضد يومئذ و هو عبيد الله بن سليمان بن وهب يتضمن أن دار الندوة قد عظم خرابها و تهدمت و كثيرا ما تلقى فيها القمامة حتى صار ضررا على المسجد الحرام و جيرانه و إذا جاء المطر سالت السيول من بابها إلى بطن المسجد و حملت تلك القمامة إلى المسجد الحرام و أنها لو أخرج ما فيها من القمامة و هدمت و بنيت مسجدا يوصل بالمسجد الحرام أو جعلت رحبة يصلى الناس فيها و يتسع الحجاج بها لكانت مكرمة لم تنتهيا لأحد من الخلفاء بعد المهدي و الهادي و منقبة باقية و شرفا و أجرا باقيا على طول الزمان و أن بالمسجد خرابا كثيرا و أن سقفه يسيل منه الماء إذا جاء المطر و أن وادي مكة قد انكسب بالأتربة فعلت الأرض عما كانت و صارت السيول تدخل من الجانب اليماني أيضا إلى المسجد الحرام و لا بد من قطع تلك الأراضي و تمهيدها و تنزيلها إلى حد تمر فيها السيول منحدره عن الدخول إلى المسجد الحرام. و وصل أيضا إلى

بغداد سدانة الكعبة و رفعوا أمرهم إلى ديوان الخلافة، أن وجه جدران الكعبة من باطنها قد تشعث، و أن الرخام المفروش في أرضها قد تكسر و أن عضادتي باب الكعبة كانتا من ذهب فوقت فتنه بمكة في سنة إحدى و خمسين و مائتين بخروج بعض العلويين فقلع عامل مكة يومئذ ما على عضادتي باب الكعبة من الذهب فضربه دنانير و استعان به على حرب العلوي الذي خرج عليه يومئذ و صاروا يسترون العضادتين بالديباج.

و وقعت أيضا بعدها فتنه بمكة سنة ثمان و ستين و مائتين فقلع عامل مكة يومئذ مقدار الربع من الذهب الذي كان مصفى على باب الكعبة و من أسفله و ما على الأنف الباب الشريف من الذهب و ضربه دنانير و استعان به على دفع تلك الفتنة و جعل بدل الذهب فضة مموهة على الباب الشريف و على أنف الباب المنيف فإذا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٤٩

تمسح الحجاج به أيام الحج تبركا بذلك المكان الشريف ذهب صبغ الذهب و انكشفت الفضة فيجدر تمويهها كل سنة و المناسب إعادة ذلك ذهبا صرفا كما كان و أن رخام الحجر الشريف قد تكسر و يحتاج إلى التجديد و أن بلاط المطاف حول الكعبة الشريفة لم يكن تاما و يحتاج أن يتمم من جوانبها كلها و أن ذلك من أعظم القربات و أكرم المثوبات و قد رفع ذلك إلى الديوان العزيز المبادرة إلى انتهاز ذلك و الأمر راجع إلى دار الخلافة الشريفة و السلام.

فلما أشرف على هذه المكاتبات كاتب الخليفة المعتضد يومئذ الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب الكاتب و كان من أهل الخير له قدم راسخ في قصد الجميل و فعل الحسنات و نية جميلة في إحراز الأجر و المثوبات بادر إلى عرض ذلك على إسماع الخليفة المعتضد و حسن له اغتنام هذه الفرصة و المبادرة إليها و بذل المقذور فيها فبرز أمر المعتضد إليه و إلى غلامه المؤتمر بالحضرة بعمل ما رفع إليه من ترميم الكعبة الشريفة و الحجر و المطاف و المسجد الحرام و أن تهدم دار الندوة و تجعل مسجد يلحق بالمسجد الحرام و توصل به و أن يحفر الوادي و المسيل و المسعى و ما حول المسجد الحرام و يعمق حفرها إلى أن يعود إلى حاله الأول و يجري ماء السيل فيه و لا يدخل شيء منه إلى المسجد الحرام فيصان المسجد بذلك عن دخول السيول إليه و أن يحكم ذلك غاية الإحكام و يعمر ما تجب عمارته على وجه الإتقان و الاستحكام و أمر أن يحمل من خزائنه مالا عظيما لهذا العمل و أمر قاضي بغداد يومئذ و هو القاضي يوسف بن يعقوب أن يرتب ذلك و يجهز بعمله من يعتمد عليه. و أمر بحمل المال إليه فجهز بعضه نقدا من أيام الحج مع ولده أبي بكر عبد الله بن يوسف و كان مقدما على حوائج دار الخلافة و مصالح طريق الحج و عمارتها و أرسل بباقي المال صحائف سلمها إلى ولده المذكور ليسلمها ممن كتب اسمه في تلك الصحائف و عين معه لهذه الخدمة رجلا يقال له أبو الهياج عميرة بن حيان الأسدي له أمانة و حسن رأى و نية جميلة و سيرة حسنة فوصلا إلى مكة في موسم حج سنة إحدى و ثمانين و مائتين فحلى بالذهب الخالص باب الكعبة الشريفة و حج و تخلف بعد الحج بمكة أبو الهياج المذكور و من معه من العمال و الأعوان و عاد عبد الله بن القاضي يوسف مع الحجاج إلى بغداد ليرسل إليه ما يحتاج إليه من بغداد لتكميل ما أمر من العمارة المذكورة فشرع أبو الهياج في حفر الوادي و ما حول المسجد الحرام فحفره حفرا جيدا حتى ظهر من درج المسجد الحرام الشارع على الوادي اثنا عشر درجة و إنما كان الظاهر منها خمس درجات

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٥٢

سبيل ماء وسط رواقه و كانت لهذه الزيادة منارة ذكرها التقى الفاسي في شفاء الغرام، قلت: أما المنارة فلا أدري من بناها و لا متى هدمت و أما السبيل فكان موجودا إلى سنة ثلاث و ثمانين و تسعمائة فهدم عند وصول العمارة السلطانية إليه و أعيد بناؤه سبيلا كما كان و هذه الزيادة الثانية وقعت في أيام المقتدر العباسي.

انتهى.

انتهى كل ما ذكر من أول الفصل إلى هنا من تاريخ الغازي.

المسجد الحرام و ما أجرى فيه من زيادات فى العهود الماضية و العصر السعودى الزاهر

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بَيْنَكَ مَبَارَكًا.

كان البيت الحرام منذ أن رفع إبراهيم قواعده و إسماعيل قائما فى واد بين جبلين من أرض مكة لم يقم فيه بناء غيره و قد تحاشى الناس البناء بقربه تعظيما له و اتخذوا منازلهم فى شعاب الأودية بعيدا عنه.

البناء حول البيت

ظل الأمر على هذا الحال قرونا عديدة إلى أن آل أمر مكة و خدمة البيت إلى (قصى بن كلاب) فأذن للناس فى البناء بقربه فأقاموا منازلهم حوله فى شكل دائرة تحيط به من جميع الجهات و تركوا مساحة صغيرة حوله هى المعروفة حتى الآن بالمطاف.

بيت الله بعد ظهور الإسلام و توالى الزيادات

بقى المسجد الحرام محدودا فى تلك المساحات الصغيرة حتى بعث الله محمد صلى الله عليه و سلم للناس كافة و انتشر الإسلام و كثر معتنقوه و بدأ عدد الحجاج يتزايد من مختلف الأقطار التى استضاءت بنور الإسلام عندئذ بدأ المسجد يضيق عن استيعاب العدد الكبير من الوافدين الذى يزداد كل عام فبدأت الزيادات فيه تتوالى فكانت:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٥٣

(زيادة الخلفاء الراشدين و السلف)

- ١- زيادة عمر بن الخطاب رضى الله عنه عام ١٧ هـ.
- ٢- زيادة عثمان بن عفان رضى الله عنه عام ٢٦ هـ.
- ٣- زيادة عبد الله بن الزبير رضى الله عنه عام ٦٥ هـ.

(الزيادة و العمارة فى العصر الأموى)

- ٤- عمارة عبد الملك بن مروان عام ٧٥ هـ.
- ٥- زيادة الوليد بن عبد الملك عام ٩١ هـ.

(الزيادة و العمارة فى العصر العباسى)

- ٦- زيادة أبى جعفر المنصور العباسى عام ٢٣٧ هـ.
- ٧- زيادة الخليفة محمد المهدي العباسى عام ١٦٤ هـ.
- ٨- عمارة المعتمد بالله العباسى عام ٢٧١ هـ.
- ٩- عمارة المعتضد بالله العباسى عام ٢٨٤ هـ.
- ١٠- زيادة المقتدر بالله العباسى عام ٣٠٦ هـ.

(عمارة ملوك الشراكسة)

١١- عمارة الناصر زين الدين أبي السعادات فرج برقوق ابن قانسوة الشركسى عام ٨٠٧هـ.

١٢- عمارة السلطان قايتباى عام ٨٨٢هـ.

(عمارة سلاطين آل عثمان)

١٣- عمارة السلطان سليمان خان عام ٩٧٢هـ.

١٤- عمارة السلطان سليم خان عام ٩٨٠هـ.

١٥- عمارة السلطان مراد خان عام ٩٨٤هـ.

و لقد كانت زيادة الخليفة محمد المهدي العباسى من أكبر الزيادات فى تلك العصور إلى أن جاء العصر السعودى الزاهر فضرب المثل الأعلى فى السخاء لتوسعة بيت الله الحرام هذه التوسعة العظيمة التى سوف تخلد أعمالهم المجيدة. و قفت ساحة المسجد الحرام عند الحد الذى بلغته بعد عمارة السلطان مراد خان عام ٩٨٤هـ و لكن البناء حوله لم يتوقف بل ظل يزحف إليه حتى اتصلت به

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٥٦

العمرة و الباقيتان بباب السلام الكبير و هذه الثلاث الأبواب أبواب رئيسية و بالتوسعة الجديدة (٥١) بابا بين صغير و كبير و على جانبى كل باب سيلين لسقيا الحجاج من ماء زمزم مباشرة لتخفيف الضغط على البئر فى موسم الحج و لقد رؤى فى التوسعة الجديدة أنها من طابقين عدا البدروم يصلى فيه الحجاج أيضا أيام الحج، و كذلك فى أعلى السطح و بذلك يبلغ عدد المصلين بالمسجد من ٥٠٠ ألف إلى ٦٠٠ ألف مصل.

تكسية جدار العمارة بالمرمر و الحجر الصناعى

هذا و قد كسيت جميع جدران العمارة الجديدة بالمرمر و الأحجار الصناعية المزخرفة و الأعمدة الرخامية و الموزايكو. و من المفخر التى تعتر بها المملكة أن جميع الرخام و المرمر قد استخرج من داخل المملكة، حيث يقطع الرخام من جبال المملكة أكثرها على مقربة من مكة و تقطع هذه الأحجار الرخامية بالمقاسات المطلوبة و كذلك صب الأحجار الصناعية المنقوشة بنقوش عربية جميلة. و ذلك فى مصنع المرمر الخاص بالمشروع الموجود فى جدة و تنقل الأحجار بالسيارات إلى مكة المكرمة.

المتبقى من المبنى القديم

أما المبنى القديم فقد تقرر إبقاؤه كأثر من الآثار القديمة بتوجيه من صاحب الجلالة الملك فيصل حفظه الله و تم تنسيق ما بين القديم و الجديد من جميع الجهات.

مساحة المسجد الحرام بعد التوسعة و ما صرف عليه

و قد بلغت مساحة الحرم بعد هذه التوسعة حوالى ١٩٠٠٠٠ مائة و تسعون ألف مترا مسطحا. و كانت فى الماضى ٢٩١١٢٧ مترا مسطحا و سوف يتكلف هذا المشروع العظيم ثمانمائة مليون ريال. صرف منها لآن ٦٠٠ مليون ريال قامت الدولة السعودية بصرفها من خزيتها دون مشاركة أى دولة من الدول الإسلامية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٥٧

المطاف

لقد كان المطاف حول الكعبة يضيق بالحجاج وخاصة عند مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام وعند مبنى بئر زمزم ولتوسعة المطاف أزيل المبنى الذى فوق بئر زمزم ليكشف عن الكعبة من الجهة الشرقية ولتوسعة المطاف للحجاج وجعل البئر من أسفل ينزل الحجاج إليه بدرج.

مقام سيدنا إبراهيم الخليل

أما مقام سيدنا إبراهيم الخليل فلقد رأى جلاله الملك فيصل حفظه الله بأن يزال الغطاء الموجود فوق المقام ويعمل بدله غطاء بلورى يغطيه قفص من الحديد المشغول، يكون جميل المنظر وحجمه صغير لتوسعة المطاف. ويتمكن الحجاج من مشاهدة الحجر الذى كان بينى عليه سيدنا إبراهيم الكعبة المشرفة، وعليه آثار أقدامه الشريفة. لأن بعض الحجاج يعتقدون أن سيدنا إبراهيم مدفون فى هذا المكان.

وفى شهر رجب من عام ١٣٨٧ هـ احتفل بانتهاء وضع الغطاء البلورى الجديد الذى صنع من الكريستال النقى وأزاح الستار عن الغطاء الجديد حضره صاحب الجلالة الملك فيصل المعظم يحيط به مندوبون عن بعض البلاد الإسلامية ورجال السلك السياسى العربى الإسلامى وعدد كبير من رجال الدين من مختلف الدول الإسلامية وكبار رجال الدولة والشعب السعودى. وقد نقل أيضا المنبر من مكانه إلى ناحية الشرق وبذلك أصبح المطاف واسعا يستوعب الطائفتين فى سهولة ويسر.

الميادين حول الحرم الشريف

إشارة

ونظرا لهذه التوسعة العظيمة وازدياد عدد الحجاج الوافدين من مختلف البلاد بسياراتهم ووسائل انتقالهم فكان من الضرورى إنشاء ميادين فسيحة لوقوف السيارات لحين انتهاء الحجاج من مناسكهم فقد أنشئت حول الحرم الميادين تحقيقا لهذا الغرض. والحكومة الرشيدة تدرس إنشاء ميادين أخرى حول الحرم الشريف لاستيعاب العدد الضخم من السيارات، وتضاء هذه الشوارع المحيطة بالحرم التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٦٠

الزيادة التاسعة: زيادة صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود

لما كثرت المواصلات وتيسرت سبل الانتقالات فى جميع الأقطار والممالك، فى زماننا هذا كثر قدوم الحجاج والزوار والواردين إلى الحرمين الشريفين، فضاقت المسجده الحرام بمكة المشرفة وضاقت المسجد النبوى بالمدينة المنورة حتى كان الحجاج يصلون فى موسم الحج فى خارج المسجدين المذكورين.

فلما رأى جلاله مليكنا المعظم الملك سعود بن عبد العزيز وفقه الله تعالى ضيق المسجد الحرام وازدحامه الشديد بالحجاج أمر حفظه الله تعالى بتوسعة المسجد الحرام بمكة توسعة عظيمة وتوسعة شوارع مكة وتجميلها بما يتفق ومكاتها لدى جميع العالم الإسلامى، وقد ابتدؤا فى القيام بعمل التوسعة من أول سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة ألف هجرية. وسيأتى بيان هذه التوسعة مفصلا تفصيلا وافيا فى مبحث مستقل، بل سنجعله إن شاء الله تعالى فى جزء خاص مجلد.

كما أن جلالته حفظه الله تعالى أمر بإتمام توسعة المسجد النبوى الذى أمر بتوسعته جلاله والده الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى رحمة واسعة، فتم هذا المسجد الشريف على أحسن ما يرام وقد عمل له احتفال كبير حضره كثير من عظماء المسلمين وعلمائهم و

أعيانهم.

هذا ولقد نظم بعضهم أسماء من وسع المسجد الحرام بمكة فقال:

من زاد مسجد بيت الله جملتهم قالوا ثمانية إمامهم عمر

عثمان و ابن الزبير و الوليد كذا المنصور يتبعه المهدي قد ذكروا

و زاد معتضد باب الزيادة قل و زاد باب خليل الله مقتدر

و نحن نزيد على هذه الأبيات بيتا رابعا يتضمن توسعة الملك سعود المذكور و هو هذا:

سعود آل سعود صار تاسعهم جزاهم الله خيرا كلما ذكروا

و لقد تقدم في أول المبحث ما نظمناه في أسماء هؤلاء.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٦١

خلاصة ما تقدم من الزيادات في المسجد الحرام

تكلّمنا فيما سبق عن الزيادات و التوسعات في المسجد الحرام بصورة مفصلة، ثم رأينا من المستحسن جدا أن نأتى هنا بخلاصة ما تقدم عن الزيادات بدون تطويل لسرعة إدراكها و سهولة فهمها، و هذه الخلاصة هي التي طلبتها منها وزارة المالية و الاقتصاد الوطنى فى أول سنة (١٣٧٦) ست و سبعين و ثلاثمائة و ألف و هذا نصها:

يرتبط المسجد الحرام بالكعبة المعظمة ارتباطا وثيقا منذ بنائها الأول فإن حد المسجد الحرام منذ صدر الإسلام و ما قبله هو نفس المطاف المفروش اليوم بالحجر الرخام الأبيض المحيط بجوانب الكعبة الذى نسميه بالصحن، هذه المساحة الصغيرة هي حد المطاف منذ بناء الكعبة الأول مرة، و هي نفسها أيضا حد المسجد الحرام منذ العصور الغابرة، و إلى حده كانت منازل قريس فكانت منازلهم محيطة بالمسجد كأنها جداره و بينها فتحات توصل إليه و إلى الكعبة، حيث لم يكن للمسجد جدار يحيط به، و من كرامته بيت الله الحرام و أسراره أنه لم يحدث قط منذ العصور الغابرة الأولى أى منذ بناء الكعبة، أن ادعى أحد من خلق الله أن أرض الكعبة أو ما حولها من مساحة المطاف ملك له.

ثم إن المسجد الحرام ضاقت مساحته الصغيرة على الناس فى صدر الإسلام لانتشار الإسلام فحصلت فيه عدة مرات من الزيادات و التوسعة من عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين إلى يومنا هذا، و ها نحن نحصى تلك المرات كما يأتى:

(١) زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة (١٧) هجرية زاد فيه بعد أن انتهى من موضع حجر مقام إبراهيم عليه السلام فى موضعه الموجود فيه اليوم بعد أن ذهب به سيل أم نهشل إلى أسفل مكة، فاشترى أمير المؤمنين دورا من تلك الدور التي تلاصق المسجد الحرام و هدمها و أدخل أرضها فيه، و بذلك توسع المسجد نوعا ما ثم بنى عمر رضى الله عنه حائطا على المسجد دون القامة و جعل فيه أبوابا، فكانت المصاييح التي تضىء بالمسجد توضع على هذا الحائط فكان عمر بن الخطاب رضى الله

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٦٢

عنه أول من وسع المسجد و زاد فيه، و أول من أحاطه بالجدار، و أول من فرش به الحصباء.

(٢) زيادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة (٢٦) هجرية فقد ضاق المسجد الحرام على المصلين، فاشترى عثمان من الدور الملاصقة للمسجد و هدمها و أدخل أرضها فيه، و لما لم يكن للمسجد رواق فإنه رضى الله عنه جعل له أروقة يستظل الناس تحتها و نعماء فعل.

(٣) زيادة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما سنة (٦٥) هجرية فإنه فى خلافته بعد أن انتهى من بناء الكعبة المشرفة عمّر المسجد و زاد فيه زيادة كبيرة بالنسبة للزيادتين السابقتين، فاشترى دورا و هدمها و أدخل أرضها فى المسجد، و من ضمنها بعض دار الإمام الأزرقى

صاحب تاريخ مكة بيضه عشر ألف دينار إذ كانت لاصقه به.

فكانت مساحة المسجد الحرام مع زيادة ابن الزبير تسعة أجرة، وقد سقف المسجد الحرام لكن لم يعلم هل سقفه كله أم بعضه. (٤) زيادة الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة (٩١ هـ) فإنه أمر بتوسيع المسجد الحرام وعمارته عمارة متينة محكمة قوية، وأحضر له أساطين الرخام من مصر والشام وجعل على رؤوسها صفائح الذهب وسقف المسجد بالساج المزخرف، وجعل له شرفات. وجعل في حائطه الطيقان- العقود-، وجعل في أعلى العقود الفسيفساء. فكانت زيادة الوليد من الجهة الشرقية.

(٥) زيادة أبي جعفر المنصور سنة (١٣٧) هجرية في شهر محرم، فإنه أمر عامله على مكة زياد بن عبد الله الحارثي بتوسيع المسجد الحرام فزاد في شقه الشامي الذي يلي دار الندوة وزاد في أسفله إلى أن انتهى إلى منارة باب العمرة ومنها على خط مستقيم من الجهة الغربية إلى ما يلي باب إبراهيم على حد الحصوة كما ذكر المرحوم الشيخ حسين باسلامة. وقد زاد في المسجد كثيرا عما كان عليه من قبل وزخرفه بالذهب والفسيفساء وأبس حجر إسماعيل بالرخام من داخله وخارجه وأعلاه. فكان أبو منصور أول من ألبسه بالرخام والمرمر. وقد استدام هذا العمل ثلاثة أعوام، فقد بدئ فيه في السنة المذكورة وانتهى منه في ذي الحجة سنة (١٤٠) وفي هذه السنة حج أبو جعفر المنصور وبذل الأموال العظيمة رحمه الله.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٦٣

(٦) زيادة محمد المهدي العباسي سنة (١٦٠ و سنة ١٦٤ هجرية) أي وسع المسجد الحرام مرتين، وتوسعته وزيادته في تعادل جميع زيادات من تقدمه حتى صار بضعه الحالي إلى اليوم، ما عدا زيادة باب إبراهيم وزيادة باب الزيادة كما سيأتي تفصيله. (ففي المرة الأولى) لما حج رحمه الله تعالى سنة (١٦٠ هـ) و أتى بالأموال العظيمة التي قدرها المؤرخ بثلاثين ألف ألف درهم- أي بأكثر من ثلاثين مليوناً من الدنانير- استدعى قاضي مكة يومئذ محمد الأوقص المخزومي وأمره أن يشتري دوراً في أعلى المسجد الحرام ويهدمها ويدخل أرضها فيه فاشترى القاضي جميع ما كان بين المسجد الحرام والمسعى من الدور فما كانت من الأوقاف والصدقات "كالأربطة" ويطلق عليها المصريون التكايا "اشترى للمستحقين بدلها دوراً في فجاج مكة، فكان مما أدخل فيه من الدور ما بقي من دار الأزرقى الذي كما ذكرناه من أن ابن الزبير اشترى بعضها وأدخله في المسجد الحرام حينما زاد فيه، وأدخل المهدي في المسجد كثيرا من الدور الشهيرة في الجانب الشرقي.

وكذلك اشترى كثيرا من الدور من الجانب الغربي وأدخلها في المسجد الحرام، وكذلك زاد من الجانب الشمالي، وكذلك من الجانب الجنوبي.

(و في المرة الثانية) لما حج المهدي سنة (١٦٤) رأى أن المسجد الحرام لم يكن مربعاً تمام التربع وأن الكعبة المشرفة لم تقع بوسطه، فجمع المهندسين ومهرة البنائين وأمرهم أن يربعوا المسجد بحيث تكون الكعبة بوسطه تماماً، فاعتذروا باستحالة هذا الأمر وصعوبة تنفيذه لأن الجهة الجنوبية- التي لم يتمكنوا من توسيع المسجد من ناحيتها بها مجرى سيل وادي إبراهيم وخلف المجرى دور منازل، ففي هدم هذه الدور وتحويل المجرى إلى أرضها قد لا يكون من السهل الميسور وربما لا يثبت أساس البناء فأصر أمير المؤمنين محمد المهدي رحمه الله وأحسن مثوبته على تنفيذ رغبته وقال لهم: لا بد من ذلك ولو أنفقت جميع بيوت الأموال وصمم على ذلك تصميماً قويا فلما رأى المهندسون قوة عزم أمير المؤمنين نزلوا على إرادته وعملوا على تنفيذ أمره بهمة ونشاط وشمروا عن ساعد الجد بنية صادقة وإخلاص كبير فقاموا بتحويل مجرى سيل وادي إبراهيم عن موضعه بأن نصبوا الرماح على أسطحه الدور من أول الوادي إلى آخره وبينوا ما يهدم من البيوت والدور وموضع

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٦٤

المسعى ومحل السيل وعملوا كل ما من شأنه أن يربع المسجد وأن تكون الكعبة بوسطه، فلما شاهد المهدي رحمه الله رسم ذلك واطمأن إلى تنفيذ رغبته على الوجه الأكمل توجه إلى العراق وخلف أموالاً عظيمة لشراء البيوت وقيام العمارة. وبذلك صارت هذه

التوسعة أضعاف أضعاف ما تقدم من الزيادات ولا يزال المسجد الحرام على هذه التوسعة المربعة إلى اليوم وما حصل من الزيادتين الصغيرتين في المسجد بعده إنما هما خارجتان من التريع كما سيأتي بيانه.

و محمد المهدي هذا كما أمر بتوسعة المسجد الحرام أمر أيضا بتجديد بناء أنصاب و أعلام الحرم.

(٧) زيادة المعتضد بالله العباسي سنة (٢٨١) هجرية فإنه أمر بإدخال دار الندوة في المسجد الحرام وكانت محلها رحبة باب الزيادة و عمر بأساطين و طاقات و أروقة مسقفة بالساج المزخرف، و فتح لها اثني عشر بابا بستة عقود كبار و بينهم ستة صغار و بنى فيها منارة، و قد فرغ من ذلك في ثلاث سنين.

(٨) زيادة المقتدر بالله العباسي سنة (٣٠٦) هجرية فإنه أمر بتوسعة المسجد الحرام بإدخال رحبة باب إبراهيم و ما يتبعه من الرواق و سمي بذلك باسم خياط كان يجلس عنده. و أيضا جدد المقتدر بالله أنصاب الحرم.

هذه خلاصة أمر توسعة المسجد الحرام و الزيادة فيه ثم لم يحدث منذ أكثر من ألف سنة أن عمل أحد في توسعته أو الزيادة فيه مطلقا، هذا ما كان من أمر التوسعة قديما.

(٩) توسعة جلاله الملك المعظم سعود بن عبد العزيز آل سعود سنة (١٣٧٥) هجرية.

لما أراد الله عز شأنه أن يكمل لجلاله ملكنا المعظم "سعود" ملك المملكة العربية السعودية و أن يسعده سعادة أبدية و أن يقوى دعائم ملكه و فقهه لتوسيع المسجدين الحرامين "المسجد النبوي و المسجد الحرام" فإنه حفظه الله بعد أن أتم توسعة المسجد النبوي أمر فوراً بتوسعة المسجد الحرام توسعة تتفق و مكائنته السامية في قلوب كافة المسلمين. و قد بدأ في تنفيذ رغبته الملكية من ابتداء عام (١٣٧٥) و أحضروا له كافة لوازم البناء و العمارة و قاموا بالهدم و البناء من العام المذكور بعد شراء المنازل و الدور، و أن هذه التوسعة ستكون من جميع جهات المسجد الحرام ليسع الآلاف المؤلفة من الحجيج الوافدين إلى بيت الله الحرام في كل سنة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٦٥

و هذه التوسعة هي أكبر و أعظم من جميع التوسعات التي حصلت في المسجد الحرام فيما مضى أي من (١٠٧٠) عاما فإن توسعته تشمل على جميع الجهات من المسجد ليست بالأمر الهين و لا بالأمر العادي، بل أن هذه التوسعة ستتعدى نطاقها إلى توسعة شوارع مكة المشرفة، سواء الشوارع المتصلة بالمسجد الحرام، أم الممتدة إلى جهات البلدة، حتى تظهر مكة المكرمة "بلد الله الأمين" بالمظهر اللائق بها في هذا العصر الحديث، عصر التقدم في جميع نواحي الحياة.

و ستكون أم القرى و المسجد الحرام إن شاء الله تعالى بعد سنوات قليلة عروسه البلاد الإسلامية، و كما يكون لهما من المنظر الظاهري يكون لهما من المخبر و التمسك بالدين ما تقربه عيون المؤمنين في جميع البقاع و ما ذلك على الله بعزير.

بيان مساحة الزيادات في المسجد الحرام

تقدم الكلام مفصلا و ملخصا عن الزيادات و التوسعات في المسجد الحرام، و هنا رأينا أن نضع مساحة الزيادات بصورة مجمل في جدول خاص مع بيان مساحة كل زيادة بالمتري المربع و هو المسمى «بالمتر المسطح» و بالذراع الهاشمي المربع أيضا، و لقد اشترك معنا في تحقيق مسائل المساحات بالمتري و الذراع المهندس المصري الأستاذ حسين صيام و فقه الله تعالى و سدد خطاه.

مع العلم بأن مساحة المطاف الذي هو المسجد الحرام القديم من قبل الإسلام هي (٢٠٠٠) ألفان من الأمتار المربعة، و ثمانية آلاف ذراع هاشمي مربع. و المطاف بيضاوي الشكل تقريبا. و لا يفوتنا أن ننبه إلى أن معرفه ما زاده عمر بن الخطاب في المسجد وحده، أو ما زاده عثمان بن عفان فهي وحده رضى الله عنهما من المعتذر معرفته معرفة مضبوطة.

و اعلم أن مقدار قياس الذراع الهاشمي هو: (٥٠) خمسون سنتيمترا، و قياس الذراع المعماري هو (٧٥) خمسة و سبعون سنتيمترا، و قياس الذراع الحديدى هو (٥٨) ثمانية و خمسون سنتيمترا.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٦٦

عدد/ اسم من زاد في المسجد الحرام/ السنة التي حصلت فيها الزيادة/ بيان مواضع الزيادات/ مقدار الزيادة بالمتر المربع/ مقدار الزيادة بالذراع الهاشمي المربع

١/ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه/ فى سنة (١٧) من الهجرة/ زاد رضى الله عنه فى المسجد الحرام بعد انتهائه من وضع حجر مقام إبراهيم عليه السلام فى موضعه الحالى الموجود فيه اليوم، وذلك بأن اشترى الدور الملاصقة للمسجد الحرام من أصحابها ثم هدمها و أدخل أرضها فى المسجد، ثم أدار حائطاً عليه طوله دون القامة و جعل فى هذا الحائط أبواباً للدخول إلى المسجد./ (١٤٠٠) ألف و أربعمئة/ (٥٦٠٠) خمسة آلاف و ستمائة

٢/ عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه/ فى سنة (٢٦) من الهجرة/ زاد رضى الله تعالى عنه فى المسجد الحرام و ذلك بأن اشترى الدور الملاصقة له من أصحابها، ثم هدمها و أدخل أرضها فيه و جعل له أروقة يستظل الناس تحتها./ (١٤٧٥) ألف و أربعمئة و خمس و سبعين/ (٥٩٠٠) خمسة آلاف و تسعمائة

٣/ عبد الله بن الزبير رضى/ فى سنة (٦٥) من/ زاد رضى الله تعالى عنه فى المسجد الحرام/ (٣٢٢٥) ثلاثة/ (١٢٩٠٠) اثني عشرة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٦٧

عدد/ اسم من زاد فى المسجد الحرام/ السنة التي حصلت فيها الزيادة/ بيان مواضع الزيادات/ مقدار الزيادة بالمتر المربع/ مقدار الزيادة بالذراع الهاشمي المربع

الله تعالى عنهما/ الهجرة/ بعد انتهائه من بناء الكعبة المشرفة، و كانت زيادته كبيرة بالنسبة للزيادتين السابقتين فاشترى دوراً و هدمها و أدخل أرضها فى المسجد ثم سقفه./ آلاف و مائتين و خمس و عشرين/ ألفاً و تسعمائة

٤/ الوليد بن عبد الملك بن مروان/ فى سنة (٩١) من الهجرة/ زاد فى المسجد الحرام من الجهة الشرقية، و أحضر له أساطين الرخام من مصر و الشام، و جعل على رؤوسها صفائح الذهب و سقف المسجد بالساج المزخرف و جعل له شرفات./ (١٧٢٥) ألف و سبعمائة و خمس و عشرين/ (٦٩٠٠) ستة آلاف و تسعمائة

٥/ أبو جعفر المنصور العباسي/ فى سنة (١٣٧) من الهجرة/ زاد فى المسجد الحرام من الجهة الشامية التي تلى دار الندوة، كما زاد فى أسفله إلى أن انتهى إلى منارة باب الندوة، و من الجهة الغربية إلى ما يلى باب إبراهيم./ (٤٩٥٠) أربعة آلاف و تسعمائة و خمسين/ (١٩٨٠٠) تسعة عشر ألف و ثمانمائة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٦٨

عدد/ اسم من زاد فى المسجد الحرام/ السنة التي حصلت فيها الزيادة/ بيان مواضع الزيادات/ مقدار الزيادة بالمتر المربع/ مقدار الزيادة بالذراع الهاشمي المربع

٦/ محمد المهدي العباسي/ فى سنة (١٦٠) من الهجرة/ زاد فى المسجد الحرام الزيادة الأولى فاشترى دوراً كثيرة و أدخلها فى المسجد، لكنه لم يكن متساوياً من جميع الجهات/ (٨٣٨٠) ثمانية آلاف و ثلاثمائة و ثمانين/ (٣٣٥٢٠) ثلاثة و ثلاثين ألف و خمسمائة و عشرين

٦/ محمد المهدي العباسي/ فى سنة (١٦٤) من الهجرة/ حج المهدي فزاد فيه الزيادة الثانية إذ رأى أن المسجد لم يكن مربعاً تمام الترييح و أن الكعبة المشرفة لم تقع بوسطه، فأصر أن يربعوا المسجد بحيث تكون الكعبة فى وسطه تماماً، و فى سبيل ذلك بذل الكثير من المال فى شراء البيوت و قيام العمارة، و لا يزال المسجد الحرام على هذه التوسعة المربعة إلى اليوم «أى إلى قبل التوسعة السعودية التي حصلت فى زماننا»./ (٦٥٦٠) ستة آلاف و خمسمائة و ستين/ (٢٦٢٤٠) ستة و عشرين ألف و مائتين و أربعين

٧/ المعتضد بالله/ فى سنة (٢٨٠) من/ زاد فى المسجد الحرام فأمر بإدخال دار/ (٢٥٠٠) ألفين/ (١٠٠٠٠) عشرة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٦٩

عدد/ اسم من زاد في المسجد الحرام/ السنة التي حصلت فيها الزيادة/ بيان مواضع الزيادات/ مقدار الزيادة بالمتر المربع/ مقدار الزيادة بالذراع الهاشمي المربع

العباسي/ الهجرة/ الندوة التي محلها باب الزيادة ورحبتها فيه، و عمره بأساطين وطاقات و جعل له أروقة و سقفه بالساج المزخرف و فتح اثني عشر بابا للمسجد./ و خمسمائة/ آلاف

٨/ المقتدر بالله العباسي/ في سنة (٣٠٦) من الهجرة/ زاد في المسجد الحرام فأمر بإدخال رحبة باب إبراهيم و ما يتبعه من الرواق، و هذه آخر توسعة للمسجد حتى سنة (١٣٧٥) هجرية من زماننا هذا./ (٩٨٠) تسعمائة و ثمانين/ (٣٩٢٠) ثلاثة آلاف و تسعمائة و عشرين

٩/ الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود/ في سنة (١٣٧٥) من الهجرة/ أمر جلالة الملك سعود بن عبد العزيز بتوسيع المسجد الحرام و الزيادة فيه من جميع جهاته، ليسع الآلاف المؤلفه من الحجيج الوافدين إلى بيت الله في كل عام، و كان ذلك بعد الانتهاء من توسعة المسجد النبوي في عصرنا أيضا. فهذه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٧٠

عدد/ اسم من زاد في المسجد الحرام/ السنة التي حصلت فيها الزيادة/ بيان مواضع الزيادات/ مقدار الزيادة بالمتر المربع/ مقدار الزيادة بالذراع الهاشمي المربع

التوسعة في المسجد الحرام بلا شك هي أكبر و أعظم من جميع التوسعات السابقة فجزاه الله تعالى خير الجزاء و زاده توفيقا و تأييدا، و أناب جميع من زاد في المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو أجرى عمارة و إصلاحا فيهما ثوبا جزيلا إنه تعالى واسع الفضل و الإحسان و هو الذي لا يضيع أجر من أحسن عملا.

و هنا ينبغي لنا أن نذكر تراجم من زاد في المسجد الحرام، و قد تقدم ذكر بعضهم في المحلات المناسبة، و هنا نضع تراجم من لم يتقدم ذكره، و إليك بيان ذلك.

ترجمة الوليد بن عبد الملك

جاء في تاريخ الخميس عنه ما ملخصه: بويح للوليد، بالخلافة في يوم الخميس منتصف شوال سنة (٨٦) ست و ثمانين و توفي في منتصف جمادى الآخرة سنة ست و تسعين و دفن بدمشق و تولى دفنه عمر بن عبد العزيز، و كان نقش خاتمه: يا وليد إنك ميت و محاسب، و في المختصر الجامع حج الوليد بالناس سنة (٨٨) و سنة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٧١

(٩١) و سنة (٩٤)، و في دول الإسلام كان الوليد يعطى أكياس الدراهم لتقسم في الصالحين، و كان يختم القرآن في ثلاث، قال إبراهيم بن عبله: كان يختم في رمضان سبع عشرة مرة، قال الوليد: لو لا أن الله تعالى ذكر اللواطه في كتابه ما ظننت أحدا يفعله. و كان الوليد ذا سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب، و كان كثير النكاح و الطلاق يقال أنه تزوج ثلاثا و ستين امرأة، و في عهده حصلت فتوحات عظيمة فكان في كل وقت يصل إليه البريد بخبر فتح بعد فتح و يحمل إليه خمس المغانم و امتلأت خزائنه و عظمت هيئته، حتى أن عماله كانوا يكتبون إليه أن بيوت المال قد ضاقت من مال الخمس فيجيبهم أن ابنوا بها المساجد، و في عهده تقدم فن العمارات و البنيات فكان الناس إذا التقوا تساءلوا عن البناء و الصناعات، و هذه قبة صخرة بيت المقدس فإن ما فيها من النقوش و الفسيفساء و القيشاني يدهش عقول الفنانين و أرباب الصنعة، كل ذلك من عهد الوليد و أبيه عبد الملك بن مروان. ثم من بعدهما حصل فيها بعض تعميرات و إصلاحات.

قال صاحب تاريخ الخميس نقلاً عن كتاب دول الإسلام: و الوليد هو الذى بنى جامع دمشق و زخرفه و كان قبله نصفه كنيسة للنصارى و النصف الآخر الذى فيه محراب الصحابة للمسلمين، فأرضى الوليد النصارى بعدة كنائس صالحهم عليها فرضوا ثم هدمه سوى حيطانه، و أنشأ فيه النسرة و القناطر و حلاها بالذهب و أستار الحرير و بقى العمل فيه تسع سنين حتى قيل كان يعمل فيه اثنا عشر ألف مرخم و غرم عليه من الدنانير المصرية زنة قنطار و أربعة و أربعين قنطار بالدمشقى حتى صيره نزهة الدنيا و أمر نائبه على المدينة ابن عمه عمر بن عبد العزيز ببناء مسجد النبى صلى الله عليه و سلم و توسيعه و زخرفته ففعل. و هو أول من اتخذ المارستان للمرضى و دار الضيافة و أقام عمر بن عبد العزيز و الى المدينة سبع سنين و خمسة أشهر، و شيد مسجد النبى صلى الله عليه و سلم، و بنى الأميال فى الطرقات، و أنفذ إلى خالد بن عبد الله القسرى عامله على مكة ثلاثين ألف مثقال ذهباً فصّح باب الكعبة و الميزاب و الأساطين. انتهى من تاريخ الخميس.

و يقال أن الحلية التى حلاها الوليد بن عبد الملك للكعبة هى ما كانت فى مائدة نبى الله سليمان بن داود عليهما الصلاة و السلام من ذهب و فضة، و كانت قد احتملت من طليطيلة من جزيرة الأندلس على بغل قوى فتفسخ تحتها، و كانت بها أطواق من ياقوت و زبرجد اه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٧٢

و نحن لم نبحت عن قصة مائدة سليمان عليه السلام، فالله تعالى أعلم بذلك.

ثم قال: و فى حياة الحيوان قال الحافظ ابن عساكر: كان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم بنى المساجد بدمشق و أعطى الناس و فرض للمخدومين و قال: لا تسألوا الناس و أعطى كل مقعد خادماً و كل أعمى قائداً و كان يبر حملة القرآن و يقضى عنهم ديونهم و بنى الجامع الأموى و هدم كنيسة ما ريوحنا و زادها فيه و ذلك فى القعدة سنة ست و ثمانين و توفى الوليد و لم يتم بناؤه فأتمه سليمان أخوه و كان جملة ما أنفق على بنائه أربعمئة صندوق فى كل صندوق ثمانية و عشرون ألف دينار و كان فيه ستمائة سلسلة ذهب للقناديل و ما زالت إلى أيام عمر بن عبد العزيز، فجعلها فى بيت المال و اتخذ عوضها حفراً و حديداً. و بنى الوليد قبة الصخرة ببيت المقدس، و بنى المسجد النبوى و وسّعه حتى دخلت الحجرة النبوية فيه. و له آثار حسنة كثيرة جدا و مع ذلك روى أن عمر بن عبد العزيز قال: لما أُلحِدَت الوليد أو تكفن فى أكفانه و غلّت يدها إلى عنقه، نسأل الله العفو و العافية من الدنيا و الآخرة. فتحت فى أيام خلافة الوليد الفتوحات العظام، مثل: الهند و السند و الأندلس و غير ذلك. انتهى من تاريخ الخميس.

و قال أيضاً بعد هذا الكلام ما نصه: و قوله: أن الوليد بنى قبة الصخرة فيه نظر، و إنما بنى قبة الصخرة عبد الملك بن مروان فى أيام فتنة ابن الزبير لما منع عبد الملك أهل الشام من الحج خوفاً من أن يأخذ منهم ابن الزبير البيعة، و كان الناس يقفون يوم عرفه بقبة الصخرة إلى أن قتل ابن الزبير. و عن ابن خلكان و غيره لعلها تشعث فهدمها الوليد و بناها و الله تعالى أعلم اه.

انتهى كل ذلك من تاريخ الخميس.

و فى الأزرقى: فلما كان فى خلافة الوليد بن عبد الملك بعث إلى و إليه على مكة خالد بن عبد الله القسرى بستة و ثلاثين ألف دينار فضرب منها على بابى الكعبة صفائح الذهب و على ميزاب الكعبة و على الأساطين التى فى بطنها و على الأركان فى جوفها قال أبو الوليد: قال جدى: فكلما كان على الميزاب و على الأركان فى جوفها من الذهب فهو من عمل الوليد بن عبد الملك و هو أول من ذهب البيت فى الإسلام اه.

ثم قال بعد بضعة أسطر: قال ابن جريج: و عمل الوليد بن عبد الملك الرخام الأحمر و الأخضر و الأبيض الذى فى بطنها مؤزرا به جدرانها و فرشها بالرخام

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٧٣

و أرسل به من الشام و جعل الجزعة التى تلقى من دخل الكعبة من بين يدي من قام يتوحنى مصلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فى

موضعها وجعل عليها طوقا من ذهب فجميع ما فى الكعبة من الرخام فهو من عمل الوليد بن عبد الملك و هو أول من فرشها بالرخام و أزر به جدرانها و هو أول من زخرف المساجد. انتهى من تاريخ الأزرقى.

ترجمة المعتضد بالله

جاء فى تاريخ الخميس ما ملخصه:

المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن ولى العهد الموفق بالله طلحة ابن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هرون الهاشمى العباسى، مولده فى سنة (٢٤٢) اثنتين و أربعين و مائتين، كان شجاعا مقداما مهابا ذا سطوة و حزم و رأى و جبروت. و فى سنة (٢٨٦) ظهرت القرامطة بالبحرين فقاتلهم المعتضد.

مات المعتضد يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة (٢٨٩) تسع و ثمانين و مائتين، قالوا: و من عجيب ما ذكر عنه المسعودى إن صح قال: شكوا فى موت المعتضد فتقدم الطيب فجس نبضه ففتح عينيه و رفس الطيب برجله فدحاه أذرا و مات الطيب ثم مات المعتضد من ساعته. انتهى ملخصا من تاريخ الخميس.

جاء عنه فى كتاب «محاضرات الخضرى» ما نصه: هو أبو العباس أحمد بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المعتصم و أمه أم ولد اسمها ضرار ولد سنة «لم يذكر الخضرى السنة» و كان عضدا لأبيه الموفق فى حوربه و أعماله و ولى العهد بعد وفاة أبيه و بعد خلع المفوض ابن المعتمد سنة (٢٧٩) تسع و سبعين و مائتين و بويح له بالخلافة من اليوم الذى توفى فيه المعتمد على الله لإحدى عشرة بقية من رجب سنة (٢٧٩) تسع و سبعين و مائتين (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) و لم يزل خليفة حتى توفى لثمان بقين من ربيع الآخر سنة (٢٨٩) تسع و ثمانين و مائتين (١٥ إبريل سنة ٩٠٢) فكانت مدته تسع سنوات و تسعة أشهر و ثلاثة أيام.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٧٤

قال الخضرى: كان المعتضد قوى القلب جريئا و لذلك كان للخلافة فى عهده أكثر مما كان فى عهد أبيه من الهيبة و إن كان الأمر فى الحقيقة جل أن يصلح لأبن وراهم عدوا لا ينالهم إفساد ملكهم بما أمكنه و لو أدى ذلك إلى إفساد البلاد كلها. و كان مع شجاعته قليل الرحمة سفاكا للدماء شديد الرغبة فى التمثيل بمن يقتله. و له إصلاحات داخلية جليئة منها: أنه أمر برد الفاضل من سهام الموارث على ذوى الأرحام و أمر بإبطال ديوان الموارث. و كان أصحاب الثركات يلقون من ذلك عناء و منها اهتمامه بكبرى دجيل و هو أحد روافد دجلة و قلع من فوهته صخرا كان يمنع الماء.

قال: و من أهم إصلاحه ما يعرف بالتقويم المعتضدى، و لقد بين هذا التقويم بالتفصيل الأستاذ الخضرى فى محاضراته بصحيفة ٤٤٩ فمن أراد الاطلاع على ذلك فليراجع الكتاب المذكور.

و المعتضد هو الذى ترك سامرا و استبدل بها بغداد فصاعت أبتها و خرجت بعد أن كانت تضارع بغداد، بل لم يكن فى الأرض كلها أحسن منها و لا أجمل و لا أعظم و لا آنس و لا أوسع ملكا منها، و لما استدبر أمرها جعلت تنقض و تحمل أنقاضها إلى بغداد يعمر بها، فقال ابن المعتز:

قد أقفرت سرمراو ما لشيء دوام

فالنقض يحمل منها كأنها آجام

ماتت كما مات فيل تسل منه العظام

انتهى من محاضرات الخضرى.

سياسة المعتضد بالله العباسى فى الحكم

جاء في الجزء الثالث من كتاب "المطالعة الوافية" عن ذلك ما يأتي: اشتهر الخليفة العباسي المعتضد بالحزم والجرأة، فكان يصطنع الشدة في السياسة و يؤثرها على الرفق واللين. و بلغ من حرصه عليها وولوعه بها أنه كان لا يتركها في ظاهر الأمر إذا بدا له أن يتركها في الحقيقة والواقع. لذلك استطاع أن يحفظ للدولة بعض سطوتها و يمسك عليها شيئاً من هيبة السلطان. برغم عوامل الضعف والشر التي كانت تعيث فيها و توهن من قوتها.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٧٥

و في القصة التالية يعرض نديمه عبد الله بن حمدون صورة لأسلوبه في حفظ الأمن و تأديب العابثين به. قال: كان المعتضد يسير بعسكره في بعض النواحي و أنا معه. فصاح رجل في قثاء. فاستدعاه و سأله عن سبب صياحه. فقال: أخذ بعض الجيش شيئاً. فقال: اطلبوهم. فجاءوا بثلاثة أنفس. فسأل الخليفة: أهؤلاء الذين أخذوا القثاء؟ فقال الرجل: نعم فقيدهم في الحال و أمر بحبسهم. فلما كان من الغد ضرب أعناقهم، فأنكر الناس ذلك و تحدثوا به، و حزن قلبهم.

و مضت على ذلك مدة طويلة. فجلست أحادثه ليلة، فقال لي: يا عبد الله، هل تعتب الناس على شيئاً؟ عرفني حتى أزيله. فقلت: كلا يا أمير المؤمنين.

فقال: أقسمت عليك بحياتي إلا صدقتني. قلت: يا أمير المؤمنين أقول و أنا آمن؟

قال: نعم. قلت: إسراعك إلى سفك الدماء. فقال: و الله ما هرقت دماً قط منذ وليت هذا الأمر إلا بحقه.

قال: فأمسكت إمساك من ينكر هذا الكلام. فقال: بحياتي إلا قلت؟

فقلت: يتحدثون عن قتلك أحمد ابن الطيب، و كان خادمك، و لم تكن له جناية ظاهرة. فقال: ويحك إنه دعاني إلى الإلحاد. فقلت له: يا هذا أنا ابن عم صاحب هذه الشريعة. و أنا الآن منتصب منصبه فكيف أأحد؟ و كان يقول لي: إن الخلفاء لا تغضب. و إذا غضبت لم تر حسن. فلم أستحسن إطلاقه.

فسكت سكوت من يريد الكلام. فقال: في وجهك كلام. فقلت: الناس ينقمون عليك أمر الرجال الثلاثة الذين قتلهم للقثاء. فقال: و الله ما كان أولئك المقتولون هم الذين أخذوا القثاء. و إنما كانوا لصوصاً حملوا من موضع كذا و كذا.

و وافق ذلك أمر أصحاب القثاء فأردت أن أهول على الجيش بأن من عاث منهم و أفسد في مثل هذا القدر. كانت هذه عقوبتي له. ليكفوا عما فوقه. و لو أردت قتلهم لقتلتهم في الحال و الوقت و إنما حبستهم. و أمرت بإخراج اللصوص من غد مغطين الوجوه ليقال أنهم أصحاب القثاء.

فقلت: فكيف تعلم العامة. قال: بإخراج الجنود الذين أخذوا القثاء أحياء.

و إطلاقي لهم في هذه الساعة. ثم قال: هاتوا الجنود. فجاءوا بهم و قد تغيرت حالهم. فقال لهم: ما قصتكم؟ فقصوا عليه قصة القثاء. فاستتابهم عن فعل مثل ذلك و أطلقهم فانتشرت الحكاية فزالت التهمة. انتهى من كتاب المطالعة الوافية.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٧٦

و من المصادفات الحسنة التاريخية ما عثرنا في كتاب محاضرات الخضرى بصحيفة ٢٣٨ على بيان دقيق للمصروفات اليومية في قصر أمير المؤمنين المعتضد بالله، هذا هو الكشف كما في الكتاب المذكور:

دينار وجوه الصرف و أنواع النفقات

١٠٠٠ أرزاق أصحاب النبوة من الرجال و من برسمهم من البوابين و من يجرى مجراهم.

١٠٠٠ أرزاق الغلمان الخاصة و فيهم الحجاب و خلفاء الحجاب.

١٥٠٠ أرزاق مماليك المعتضد المعروفين بالمماليك الحجرية.

٦٠٠ أرزاق المماليك المختارين.

- ٥٠٠ أرزاق الفرسان المميزين.
- ١١٠ أرزاق سبعة عشر صنفا من المرسومين بخدمة الدار.
- ٥٠ المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام و الخلفاء عليهم و من يجرى مجراهم.
- ٣٠٠ أثمان أنزال الغلمان المماليك.
- ١ / ٢ ٢٥٣ نفقات المطابخ الخاصة و العامة و المخازن و أنزل الحرم و مخازن السودان.
- ١٠٠ ثمن وظائف شراب الخاصة و العامة و نفقات خزائن الكسوة و الخلع و الطيب و حوائج الوضوء و ما شابه ذلك.
- ٤ أرزاق السقائين بالقرب.
- ١٦٧ أرزاق الخاصة و من يجرى مجراهم من الغلمان و المماليك.
- ١٠٠ أرزاق الحرم من المستخدمين فى شراب العامة و خزائن الكسوة الخ.
- ١٠٠ أرزاق الحرم.
- ٤٠٠ ثمن علوفة الكراع فى الاصطبلات الخمسة.
- ٣ / ٢ ٦٦٢ ما يصرف من ثمن الكراع و الإبل و ما يتناع من الخيل.
- ٣٠ أرزاق الفراشين و من جرى مجراهم.
- ٣ / ٢ ٦٢ ثمن الشمع و الزيت.
- ٥ أرزاق أصحاب الركاب و الجنائب و السروج.
- ١ / ٢ ٤٤١ أرزاق الجلساء و أكابر الملحين.
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٧٧
- دينار وجوه الصرف و أنواع النفقات
- ٣ / ١ ٢٣١ أرزاق المتطيين مع أثمان الأدوية.
- ٧٠ أرزاق أصحاب الصيد و ثمن الطعم و العلاج للجوارح.
- ٣ / ٢ ٦١٢ أرزاق الملاحين.
- ٤ ثمن نפט و مشاقه.
- ١٥ صدقة يومية.
- ٣ / ١ ٣٣١ جارى أولاد المتوكل.
- ٣ / ٢ ١٦٢ جارى ولد الواثق و المهتدى و المستعين و سائر أولاد الخلفاء.
- ٣ / ٢ ١٦٢ جارى ولد الناصر.
- ٢٠ أرزاق مشايخ الهاشميين و الخطباء بمدينة السلام.
- ٣ / ١ ٣٣١ جارى جمهور بنى هاشم.
- ٣ / ١ ٣٣١ رزق الوزير و ابنه.
- ٣ / ٢ ١٥٦٢ أرزاق أكابر الكتاب و سائر من فى الدواوين و ثمن الصحف و القراطيس و الكاغذ.
- ٣ / ٢ ١٦٢ رزق القاضى و خليفته و عشرة فقهاء.
- ٣ / ١ ٣١ خدام المسجدين الجامعين بمدينة السلام.
- ٥٠ نفقات السجون.

١٠ نفقات الجسرين و أرزاق الجسارين.

١٥ نفقات البيمارستان الصاعدي و أرزاق أطبائه و أثمان الأدوية.

١ / ٣ ٦٩٤٦ المجموع

فهذه وجوه الصرف تبين أن جميع المصروفات التي كانت تصرف في الحضرة كل يوم حوالى سبعة آلاف دينار و في الشهر (٢١٠٠٠٠) و في السنة (٢٥٢٠٠٠٠) دينار و هو مقدار قليل إذا قيس بما كان يرد على حضرة الخلافة في عهد المأمون و المعتصم و لا غرابة في ذلك فإن كثيرا من الأقاليم استقل بإدراته و أمواله المتغلبون و ما بقى لبني العباس لم يعمره العدل و الأمن لكثرة الاضطرابات في الجزيرة و بلاد العراق و فارس.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٧٨

وصف قصر الخليفة المقتدر بالله العباسي

جاء في الجزء الثالث من كتاب «المطالعة الوافية» نقلا عن الخطيب البغدادي و هو عن كتاب «رسل الملوك لابن الفراء» بتصرف يسير ما يأتي:

أرسل ملك الروم سفيره في وفد إلى الخليفة «المقتدر العباسي» فلما وافى الوفد كان الخليفة مشغولا بتجميل قصره، و إدخال ضروب من الزينة و الإصلاح عليه. فاستضافهم في أحد قصوره البعيدة حتى يفرغ فلما فرغ استدعاهم بعد أن أمر بوقوف الجنود على جانبي الطريق. من القصر إلى دار الخلافة و سار الوفد بين جند لا يقل عن مائة و ستين ألف فارس و راجل فوق طريق مفروش بالبسط النفيسة و الأنماط الغالية و نوافذه و سطوحه و مسالكة مملوءة بالظارة و دجلة يموج بأنواع السفن و القوارب المزينة بأفضل الزينة إلى دار الخلافة و قد امتلأت الدار بالفرش الجميلة و زينت بالمعدات و الآلات الجليئة النادرة. و رتب الحجاب و خلفاؤهم و الحواشي على حساب طبقاتهم صنفين بالثياب الحسنة تحتهم الدواب بمراكب الذهب و الفضة و قد أظهروا العدد الكثيرة و الأسلحة المختلفة و بعدهم الغلمان بالبزة و السيوف و المناطق المحلاة و دخل السفير فرأى الحاجب فظنه الخليفة.

و داخله من أجله هيبه و روعه حتى علم أنه الحاجب فهدا ثم دخل بعد ذلك دار أحد الوزراء فرأى أكثر مما رآه عند الحاجب فلم يشك أنه الخليفة فقيل له أنه الوزير.

ثم أجلس بين دجلة و البساتين في مجلس حسن إلى أن دعى إلى حضرة الخليفة المقتدر و هو جالس في قصر التاج بعد أن لبس الثياب الدبيقية المطرزة بالذهب على سرير من أبنوس قد فرش بالدبيقى المذهب و على رأسه الطويلة و من يمينه السرير تسعة عقود مثل السبح و من يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر و أعظمها قيمة غلب ضوءها على ضوء النهار، و بين يديه خمسة من ولده: ثلاثة يمينه و اثنان يسره.

فقبل الرسول و ترجمانه الأرض بين يدي الخليفة و وقفا حيث استوقفهما و أديا إليه رسالة ملكهما فاستجاب مما فيها لما رأى أنه الخير ثم خرجا من حضرته بعد أن رسم لهما بالطواف في دار الخلافة و كانت مملوءة من الخدم و الغلمان السود و الحجاب و عدد الخدم سبعة آلاف غلام أسود و فتحت له الخزائن و الأدوات فيها

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٧٩

مرتبة كما يفعل بخزائن العروس و عرضت له جواهر الخلافة و كانت منظمه على درج مغشى بالدبياج الأسود.

ثم دخل دار الشجرة فكثير تعجبه منها إذ رآها شجرة من الفضة تزن خمسمائة ألف درهم عليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفر صفيرا عجيبا كلما جرت حولها حركات خاصة و كان تعجب الرسول منها أوفى من عجبه من كل ما شاهده.

ثم رأى ما علق في قصور الخليفة من الستور و كلها من الدبياج المموه بالطرز المذهبة المصورة بالحامات و الفيلة و الخيل و الجمال و

السباع. و كان عدد الستور الصنعانية و الأرمينية و الواسطية و السواذج النمقوشة و الديقية ثمانية و ثلاثين ألف ستر. و فى جانب الدار يمتد تماثيل خمسة عشر فارسا فوق خمسة عشر فرسا قد ألبسوا الديباج و غيره و فى أيديهم الرماح. ثم دخل القصر المعروف بالفردوس و هو قصر مملوء بالسلاح من الخوذ و الدروع و القسي و الجعاب. و كان الخدم يسقون الناس الماء المبرد بالثلج و الأشربة المختلفة يطوف مع السفير و أتباعه رئيس الثغور الشامية بسيفه و منطقته و قبائه الأسود إذ كان اللون الأسود هو لون الملابس الرسمية فى الدولة العباسية و يرتديه السفراء و الرسل إذا أوفدوا برسالة أو سفروا بين الملوك. انتهى من كتاب المطالعة الوافية.

ترجمة المقتدر بالله

نذكر ترجمة المقتدر بالله بمناسبة ما زاده فى المسجد الحرام كما تقدم بيان ذلك، جاء فى تاريخ الخميس عنه ما ملخصه: هو المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن ولى العهد الموفق طلحة بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد الهاشمى العباسى، بويع بالخلافة بعد موت أخيه المكتفى بالله و هو غير بالغ و عمره أربع عشرة سنة، أى فى سنة (٢٩٥) خمس و تسعين و مائتين و لم يل أمر الأمة صبي قبله، و ضعف دست الخلافة فى أيامه فلم يتم أمره لصغر سنه و تغلب عليه الجند، و اتفق جماعة من الأعيان على خلعه من التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٨٠

الخلافة و تولية عبد الله بن المعتز، و كلموا ابن المعتز فى ذلك فأجابهم بشرط أن لا يكون فيها دم، فإنه كان عالما فاضلا دينيا شاعرا فأجابوه لذلك و خلعوا المقتدر من الخلافة و هو مقيم بالحريم داخل دار الخلافة.

و كانت خلافة المقتدر هذه المرة دون السنة، و فى سيرة مغلطاي ولى أربعة أشهر ثم عزل ثم أعيد كما سيأتى.

ثم بويع بالخلافة عبد الله بن المعتز، فأمر ابن المعتز أن ينصرف المقتدر من دار الخلافة إلى دار محمد بن طاهر كى ينتقل ابن المعتز إلى دار الخلافة، و فى هذه الأثناء قاتل أعوان المقتدر أنصار ابن المعتز و أوقع الله فى قلوب هؤلاء الرعب.

فانتصر المقتدر و أعوانه عليهم، و استفحل أمره و أمسك جماعة ابن المعتز و من قام بنصرته فحبسهم و قتل غالبهم، ثم استقام أمر المقتدر و أعيد للخلافة للمرة الثانية، و لم ينتقل المقتدر من دار الخلافة و لم يغير لقبه و ظفر بأعدائه واحدا بعد واحد، و استمر فى الخلافة إلى سنة (٣١٧) سبع عشرة و ثلاثمائة، ثم خلع ثانيا بأخيه القاهر بالله أبى منصور محمد.

كان القاهر بالله المذكور محبوسا، فوصل فى الثلث الأخير من ليلة الخامس عشر من المحرم من السنة المذكورة أى سنة (٣١٧) فبايعه يونس و الأمراء و لقبوه بالقاهر بالله، ففى يوم السبت أشهد المقتدر على نفسه بالخلع، و فى يوم الأحد جلس القاهر و كتب الوزير عنه إلى الأقطار، و فى يوم الاثنين امتلأت دهاليز الدار بالعسكر يطلبون رزق البيعة و رزق سنة أيضا، ثم ارتفعت أصوات الرجال و هجموا على الحاجب نازل و هو بدار الخلافة فقتلوه و صاحوا يا مقتدر يا منصور، فهرب من دار الخلافة، ثم أخرج المقتدر و حضر إلى دار الخلافة و جلس مجلسه، فأتوا بأخيه محمد القاهر المذكور و جلس بين يدى المقتدر فاستدناه المقتدر و قبل جبينه و القاهر يبكى و يقول: الله الله فى نفسى يا أمير المؤمنين. فقال له المقتدر و الله لا جرى عليك منى سوء أبدا، فطب نفسا. و أقام القاهر عند أخيه المقتدر مبعجلا محترما إلى أن أعيد إلى الخلافة بعد موت أخيه المقتدر.

فلما تولى المقتدر بالله الخلافة للمرة الثالثة، فتح الخزان و بذل الأموال للجند، ثم فى سنة (٣١٧) سیر المقتدر ركب الحاج مع منصور الديلمى فوفاهم يوم التروية عدو الله أبو طاهر القرمطى فقتل الحجيج فى المسجد الحرام قتلا ذريعا و هم محرمون و فى أزقة مكة و قتل أمير مكة «ابن محارب» و عزى البيت الحرام و قلع

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٨١

باب الكعبة و اقتلع الحجر الأسود و أخذه إلى هجر و طرح القتلى فى بئر زمزم و دفن الباقي فى المسجد الحرام و حيث قتلوا بغير غسل

ولا- كفن ولا- صلاة عليهم، و يقال أن القتلى بمكة و بظاهاها في هذه الوقعة كان أكثر من ثلاثين ألف إنسان و سبى من النساء و الصبيان مثل ذلك و كانت مدة إقامته بمكة ستة أيام و لم يحج أحد و لا وقف بالناس أمام سنة سبع عشرة و ثلاثمائة، و كان بين المقتدر و القرامطة حرب مستمرة، و بعد عود القرمطي إلى بلاده «هجر» رماه الله تعالى في جسده و طال عذابه و تقطعت أوصاله و تناثر الدود من لحمه إلى أن مات، و قد تقدم الكلام عن القرامطة.

قال الصولي: كان المقتدر يفرق كل يوم عرفه من الإبل و البقر أربعين ألف رأس و من الغنم خمسين ألف رأس، و يقال أنه أتلّف من الذهب ثمانية ألف ألف دينار في أيامه، قال الذهبي: إنه كان مسرفاً مبذراً للمال ناقص الرأى أعطى جاريه له الدرّة اليتيمة و زنها ثلاثة مثاقيل و ما كانت تقوم.

و قد قتل المقتدر يوم الأربعاء السابع و العشرين من شوال سنة (٣٢٠) عشرين و ثلاثمائة، فكانت خلافته أولاً و ثانياً و ثالثاً خمساً و عشرين سنة إلا أياماً، و عاش نحو ثلاثين سنة، و كان سخياً مبذراً يصرف في كل سنة للحج أكثر من ثلاثمائة ألف دينار، و كان في داره أحد عشر ألف خصيان غير الروم و الصقالبة و السود، و بعد قتل المقتدر تولى الخلافة ثانياً أخوه محمد القاهر المذكور. انتهى من تاريخ الخميس باختصار.

قال الغازي في تاريخه نقلاً- عن ابن فهد ما يأتي: في حوادث سنة ست و ثلاثمائة و في أيام المقتدر بالله و هي من سنة خمس و تسعين و مائتين إلى أواخر سنة عشرين و ثلاثمائة، في وزارة حامد بن العباس رتب على بن عيسى بن الجراح لأن يحمل إلى الحرمين الشريفين و إلى المجاورين بهما و إلى أرباب الوظائف بمكة و المدينة في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار و خمسة آلاف دينار و أربعمائة و ستة و عشرين ديناراً هكذا قال الإمام السروجي في باب زكاة المال من كتاب الغاية شرح البداية و قال سبط ابن الجوزي أبو المحاسن يوسف: كان المقتدر يصرف في كل سنة في طريق مكة و الحرمين ثلاثمائة ألف دينار و نصف و خمسة عشر ألف دينار. انتهى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٨٢

ترجمة أبي جعفر المنصور

كان للمنصور عدة أولاد كما سيأتي بيانهم إن شاء الله تعالى منهم جعفر الأكبر الذي مات قبل وفاة المنصور فلذلك يكنى المنصور بأبي جعفر.

جاء من محاضرات الخضرى عنه ما يأتي:

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي و أمه أم ولد أسماها سلامة ولد بالحميمية سنة (١٠١).

ولما انتقل أبو العباس من الحميمية إلى الكوفة كان في من معه. و لما أفضت الخلافة إلى أبي العباس كان عضده الأقوى و ساعده الأشد في تدبير الخلافة. و في السنة التي توفي فيها أبو العباس عقد العهد لأخيه أبي جعفر، و كان إذ ذاك أميراً على الحج. ثم توفي السفاح و أبو جعفر بالحجاز فأخذ البيعة له بالأنبار ابن أخيه عيسى بن موسى و كتب إليه يعلمه وفاة السفاح و البيعة له فلقبه الرسول بإحدى المنازل عائداً بعد انتهاء الحج.

و قد تمت البيعة له في اليوم الذي توفي فيه أخوه (٨ يونيو سنة ٧٥٤) و استمر خليفه إلى أن توفي يوم الأحد سابع ذى الحجة سنة (١٥٨) ثمان و خمسين و مائة هجرية (٨ أكتوبر سنة ٧٧٥) ميلادية فكانت خلافته (٢٢) سنة هلالية إلا ستة أيام. انتهى من محاضرات الخضرى.

تقدير المنصور للعلماء العاملين و الوعاظ

جاء في الجزء الثالث من كتاب «المطالعة الوافية» عن ذلك ما يأتي: روى إسحاق بن الفضل الهاشمي قال: إنني لعلى باب المنصور يوما و إلى جنبى عماره بن حمزه، إذ طلع عمرو بن عبيد على حمار، فنزل عن حماره ثم دفع البساط برجله و جلس دونه. فالتفت إلى عماره فقال: لا تزال بصرتك ترمينا منها بأحمق. فما فصل كلامه من فيه حتى خرج الربيع و هو ينادى. أبو عثمان عمرو بن عبيد. قال: فوالله ما دل على نفسه حتى أرشد إليه فاتكأه يده ثم قال له: أجب أمير المؤمنين جعلت فداك. فمر متوكئا. فالتفت إلى عماره فقلت. إن الرجل الذى استحمقته قد أدخل و تركنا. فقال: كثيرا ما يكون ذلك. فأطال اللبث. ثم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٨٣

خرج الربيع و هو متوكئ عليه و الربيع يقول: يا غلام هات حمار أبى عثمان. فما برح حتى أتى بالحمار فأقره على سرجه و ضم إليه نشر ثوبه و استودعه الله.

فأقبل عماره على الربيع فقال: لقد فعلتم اليوم بهذا الرجل ما لو فعلتموه بولى عهد كههم لقضيتم ذمامه، قال: فما غاب عنك مما فعل به أكثر و أعجب. قال عماره: فإن اتسع لك الحديث فحدثنا. فقال الربيع: ما هو إلا أن سمع الخليفة بمكانه فما أمهل حتى أمر بمجلس ففرش لبودا ثم انتقل إليه و المهدي معه عليه سواده و سيفه ثم أذن له.

فلما دخل عليه سلم بالخلافة. فرد عليه و ما زال يدينه حتى اتكأه فخذ و تحفى به ثم سأله عن نفسه و عن عياله يسميهم رجلا رجلا و امرأة امرأة. ثم قال: يا أبا عثمان عظنا.

فقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وَ الْفَجْرِ* وَ لَيْالٍ عَشْرِ* وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ* وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسِيرُ وَ مر فيها إلى آخرها و قال: إن ربك يا أبا جعفر لبالمرصاد. قال: فبكى المنصور بكاء شديدا، كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة.

ثم قال: زدنى. فقال: إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها. و اعلم أن هذا الأمر الذى صار إليك إنما كان فى يد من كان قبلك. ثم أفضى إليك. و كذلك يخرج منك إلى من هو بعدك. و انى أحذرك ليله تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة. قال: فبكى أشد من بكائه الأول حتى رجف جنباه، فقال له سليمان بن مجالد: رفقا بأمر المؤمنين فقد أتعبته منذ اليوم. فرفع عمرو رأسه و قال له: من أنت؟ فقال أبو جعفر: أو لا تعرفه يا أبا عثمان؟ قال: لا.

و لا أبالى ألا أعرفه. فقال له: هذا أخوك سليمان بن مجالد. فقال: هذا أخو الشيطان. ويلك يا ابن مجالد. خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين. ثم أردت أن تحول بينه و بين من أراد نصيحته. يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلما لشهواتهم. فأنت كالأخذ بالقرنين و غيرك يحلب فاتق الله. فإنك ميت وحدك.

و محاسب وحدك، و مبعوث وحدك. و لن يغنى عليك هؤلاء من ربك شيئا.

فقال له المنصور: يا أبا عثمان أعنى بأصحابك استعن بهم. فقال له: أظهر الحق يتبعك أهله. قال: بلغنى أن محمد بن عبد الله بن الحسن كتب إليك كتابا.

قال: قد جاءنى كتاب يشبه أن يكون كتابه. قال: فيما ذا أجبته، قال: أو لست

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٨٤

قد عرفت رأى فى السيف أيام كنت تختلف إلينا و إنى لا-أراه. قال: أجل. و لكن تحلف لى ليطمئن قلبى. قال: لئن كذبتك تقيته لأحلفن لك تقيته. قال له: أنت الصادق البار. و قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تستعين بها على زمانك.

فقال: لا حاجة لى فيها. فقال المنصور: و الله لتأخذنها. قال: و الله لا أخذتها.

فقال له المهدي: يحلف أمير المؤمنين و تحلف. فترك المهدي و أقبل على المنصور فقال: من هذا الفتى؟ فقال: هذا ابنى محمد. و هو المهدي، و هو ولى العهد.

فقال: و الله لقد سميت اسم ما استحقه بعمل. و ألبسته لبوسا ما هو من لبوس الأبرار. و لقد مهدت له أمرا أمتع ما يكون به أشغل ما

تكون عنه.

قال المنصور: يا أبا عثمان، هل من حاجة. قال: نعم. قال: ما هي؟ قال: ألا تبعث إلي حتى آتيك. قال: إذا لا نلتقي. قال: عن حاجتي سألتني ثم ودّعه. ونهض فلما ولى اتبعه بصره. و أنسأ يقول:

كلكم طالب صيد كلكم يمشى رويد

غير عمرو بن عبيد انتهى من كتاب المطالعة الوافية.

و جاء في تاريخ الخميس عنه ما ملخصه:

هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس القرشي الهاشمي ثاني خلفاء بني العباس، مولده في سنة (٩٥) خمس و تسعين، و هو أسنّ من أخيه السفاح، و كان المنصور في صغره يلعب بمدرّك التراب و بالطويل أيضا، ثم لقب في خلافته بأبي الدوانيق لبخله و لمحاسبة العمال و الصناع على الدوانيق و الحبات، و كان مع هذا ربما يعطي العطاء العظيم.

كان أسمر نحيفا طويلا مهاجا، خفيف العارضين، معزق الوجه، رحب اللحية، يخضب بالسواد كأن عينيه لسانان ناطقان. تخالطه أبهة الملوك بزى النساك تقبله القلوب و تتبعه العيون. و كان أفحل بني العباس هيبه و شجاعه و حزما و رأيا و جبروتا، و جماعا للمال، تاركا للهو و الطرب، كامل العقل، جيد المشاركة في العلم و الأدب، فقيه النفس. و كان يرجع إلى عدل و ديانة و له حظ من صلاة و تدبّر و كان فصيحاً بليغاً خليقاً للإمارة إلا أنه قتل خلقا كثيرا حتى استقام ملكه ببيع بالخلافه بعد أخيه السفاح أخته البيعة و هو بمكة بعهد السفاح لأنه كان حج في تلك السنة و مكث في الخلافه إحدى و عشرين سنة و أحد عشر شهرا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٨٥

كذا في سيره مغلطى و فيها حج أبو مسلم الخراساني و وقع منه في حق المنصور أمور نقمها عليه و قتله لما ولى الخلافه. و المنصور هذا هو الذي بنى بغداد و قتل أبا مسلم الخراساني و اسمه عبد الرحمن و ضرب أبا حنيفة على أن يلي القضاء فامتنع و مات في حبسه كذا في سيره مغلطى و هو والد جميع الخلفاء العباسيين.

و في سنة (١٤١) إحدى و أربعين و مائة أمر المنصور بعمارة جدار حجر إسماعيل فعملوه بالرخام و كان قبل ذلك مبنيا بحجارة بادية ليس عليها رخام كذا في شفاء الغرام.

و قال خليفة و الهيثم و غيرهما: عاش أربعا و ستين سنة. قال الصولي: دفن ما بين الحجون و بئر ميمون من ذى الحجة سنة ثمان و خمسين و مائة. و في حياة الحيوان: مات ببئر ميمون على أميال من مكة و هو محرم بالحج و كذا في سيره مغلطى و هو ابن ثلاث و ستين سنة و كانت خلافته اثنتين و عشرين سنة و ثلاثة أشهر. قال الذهبي: و سار المنصور للحج فأدركه الموت و هو محرم بظاهر مكة و له ثلاث و ستون سنة و تخلف بعده ابنه المهدي. انتهى من تاريخ الخميس.

اقتصاد المنصور

جاء في محاضرات الخضري ما نصه: عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت بالأموال خزائنه و لذلك ترك لابنه المهدي ثروة جعلته مدة حكمه هادئ البال ينفق عن سعة و لا يخشى نفادا. و لم يكن المنصور يعطي الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف و إنما كانت أعطياته إلى القلة أميل و كان يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون إلى السرف.

و كانت أرزاق العمال أيام المنصور (٣٠٠) درهم و لم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المأمون فكان أول من سن زيادة الأرزاق الفضل بن سهل.

و على الجملة فلم يقيم في بني العباس مثل المنصور في ثيابه و علو همته و شدته على المريب و اهتمامه بأمر العامة و جده في بلاطه. و

كان فوق ذلك كله فصيحاً يبلغ ما يريد من الكلام عند الحاجة. و كانت القوة الإسلامية في يده و طوع أمره

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٨٦

إلا أنها لم تكن عربية خالصة كما كان الحال في الدولة الأموية و كانت قوة العرب لعهد لا تزال راجحة. انتهى من المحاضرات.

اهتمام المنصور بعماله

و جاء في محاضرات الخضرى أيضاً ما نصه:

قال المنصور: ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم. قيل له: يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: هم أركان الملك و لا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى و هى: أما أحدهم فقاض لا- تأخذه فى الله لومة لائم، و الآخر صاحب شرطه ينصف الضعيف من القوى، و الثالث صاحب خراج يستقصى و لا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى، و الرابع ثم عض على إصبعة السبابة ثلاث مرات، يقول فى كل مرة: آه، قيل له: و من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة. انتهى منها.

و جاء فيها أيضاً: و لى رجلا من العرب حضرموت، فكتب إليه والى البريد أنه يكثر الخروج فى طلب الصيد بيزاء و كلاب قد أعدها. فعزله و كتب إليه:

(ثكلتك أمك و عمدتك عشيرتك ما هذه العدة التى أعدتها للنكايه من الوحش إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين و لم نستكفك أمور الوحش، سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان بن فلان و الحق بأهلك ملوما مدحورا).

و ظفر مرة برجل من كبراء بنى أمية فقال: إنى سائلك عن أشياء فاصدقنى و لك الأمان. قال: نعم. فقال المنصور: من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم؟

قال: من تضييع الأخبار. قال: فأى الأموال وجدوها أنفع؟ قال: الجوهر. قال:

فعند من وجدوا الوفاء؟ قال: عند مواليهم. فأراد المنصور أن يستعين فى الأخبار بأهل بيته، ثم قال: أضع من أقدارهم فاستعان بمواليه. انتهى منها.

و جاء فيها أيضاً: و ذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى أن ولاة البريد فى الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته كل يوم بسعر القمح و الحبوب و الأدم و بسعر كل مأكول و بكل ما يقضى به القاضى من نواحيهم و بما يعمل به والى و بما يرد بيت المال و كل حدث و كانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب و يكتبون إليه بما كان من كل ليلة إذا صلوا الغداة فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٨٧

رأى الأسعار على حالها أمسك و إن تغير شىء عن حاله كتب إلى والى و العامل هناك و سأل عن العلة التى نقلت ذاك عن سعره فإذا ورد الجواب بالعلة تلتف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله. و إن شك فى شىء مما قضى به القاضى كتب إليه فى ذلك و سأل من بحضرته عن عمله، فإن أنكر شيئاً عمل به، كتب إليه يوبخه و يلومه. انتهى منها.

حاضرة الخلافة

و جاء فيها أيضاً: لما ولى أبو جعفر انتقل من الأنبار إلى الهاشمية التى أسسها أخوه أبو العباس و أقام بها إلى أن عزم على تأسيس مدينة بغداد، حاضرة بنى العباس الكبرى، و مظهر فخرهم و مدنيتهم. و كان يريد أن يكون بعيداً عن الكوفة فخرج يرتاد مسكناً لنفسه و جنده و بيتنى به مدينة حتى صار إلى موضع بغداد و قال: هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا و بين الصين شىء يأتينا فيها

كل ما في البحر و تأتينا الميرة من الجزيرة و أرمينية و ما حول ذلك و هذا الفرات يجيء فيه كل شىء من الشام و الرقة و ما حول ذلك فنزل و ضرب عسكره على الصراء و هو نهر بين دجلة و الفرات ثم أمر بخط المدينة على مثال وضعه و هى مدورة الشكل تقريبا و جعل لها سورين أحدهما داخل و هو سور المدينة و سمكه من السماء (٣٥) ذراعا و عليه أبرجة، سمك كل برج منها فوق السور خمسة أذرع، و على السور شرف. و عرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعا. و يليه من الخارج فصيل بين السورين و عرضه (٦٠) ذراعا. ثم السور الأول و هو سور الفصيل و دونه خندق .. و للمدينة أربعة أبواب كل اثنين منها متقابلان. و لكل منها باب دون باب، بينهما دهليز و رحبة تدخل إلى الفصيل الدائر بين السورين.

فالأول باب الفصيل و الثانى باب المدينة فإذا دخل الداخل من باب خراسان عطف على يساره فى دهليز أزج معقود بالآجر و الجص عرضه عشرون ذراعا طول ثلاثون المدخل إليه فى عرضه و المخرج منه من طوله يخرج إلى رحبه مادة إلى الباب الثانى طولها (٦٠) ذراعا و عرضها (٤٠) و لها فى جنبتيها حائطان من الباب الأول إلى الباب الثانى فى صدر هذه الرحبة فى طولها الباب الثانى و هو باب المدينة و عن يمينه و شماله فى جنبتي هذه الرحبة بابان إلى الفصيلين. و الأبواب الأربعة على صورة واحدة فى الأبواب و الفصلاان و الرحاب و الطاقات. ثم الباب الثانى و هو باب

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٨٨

المدينة و عليه السور الكبير فيدخل من الباب الكبير إلى دهليز أزج معقود بالآجر و الجص طولها (٢٠) ذراعا و عرضه (١٢) و على كل أزج من أزاج هذه الأبواب مجلس له درجة على السور يرتقى إليه منها، على هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة فى السماء سمكها (٥٠) ذراعا مزخرفة و على رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره و على كل باب من أبواب المدينة الأوائل و الثانى باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان. انتهى منها.

و جاء فيها أيضا: و ابنتى قصره الذى يسمى الخلد على دجلة و كان موضعه وراء باب خراسان. و مد المنصور من نهر دجيل الأخذ من دجلة و قناة من نهر كرخاى الأخذ من الفرات و جرهما إلى المدينة فى عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج و الآجر من أعلاها فكانت كل قناة منهما تدخل المدينة و تنفذ فى الشوارع و الدروب و الأرباط و تجرى صيفا و شتاء لا ينقطع ماؤها فى وقت. و جر لأهل الكرخ أربعة أنهر يقال لأحدها نهر الدجاج و للثانى نهر القلائين و للثالث نهر طابق و للرابع مهر البرازين. و الكرخ هو أسواق المدينة التى نقلها المنصور من مدينته فى الجهة الجنوبية بين الصراء و نهر عيسى بناها المنصور و رتب كل صنف منها فى موضعه و بنى لأهل الأسواق مسجدا يجمعون فيه و لا يدخلون المدينة و سميت الشرقية لأنها شرقى الصراء و لأبى عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفه نفظويه فى الكرخ:

سقى أربع الكرخ الغوادى بديمة و كل ملث دائم الهطل مسبل

منازل فيها كل حسن و بهجة و تلك لها فضل على كل منزل

انتهى منها.

و جاء فيها أيضا: و فى سنة (١٥١) إحدى و خمسين و مائة بنى المنصور الرصافة للمهدى ابنه و عمل لها سورا و خندقا و ميدانا و بستانا و أجرى لها الماء.

و ريع الرصافة يسمى عسكر المهدى لأن المهدى عسكر به عند شخوصه من الرى.

و بنى المنصور قصره و الجامع فى وسط المدينة و كان فى صدر قصر المنصور إيوان طولها ثلاثون ذراعا و عرضه عشرون و فى صدر الإيوان مجلس عشرون ذراعا فى عشرين و سمكه عشرون و سقفه قبة و عليه مجلس فوقه القبة الخضراء و سمكه فى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٨٩

أول حد عقد القبة عشرون ذراعا فصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعا. و على رأس القبة تمثال فرس عليه فارس

بيده رمح.

وقد أنفق المنصور على مدينته هذه ثمانية عشر ألف دينار على ما حكاه ياقوت. و في بعض الروايات أقل من ذلك. و لما تم بناؤها حشر إليها المنصور العلماء من كل بلد و إقليم فأمها الناس أفواجا و لم تزل تتعظم و يزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا و سيدة البلاد و مهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية و أربى سكانها على مليونين. قال الخطيب البغدادي: لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلاله قدرها و فخامه أمرها و كثرة علمائها و أعلامها و تميز خواصها و عوامها و عظم أقطارها و وسعة أطرارها و كثرة دورها و منازلها و دروبها و شوارعها و محالها و أسواقها و سككها و أزقتها و مساجدها و حماماتها و طرقها و خاناتها و طيب هوائها و عذوبة مائها و برد ظلالها و أفيائها و اعتدال صيفها و شتائها و صحة ربيعها و خريفها و زيادة ما حصر من عدد سكانها. و أكثر ما كانت عمارة و أهلا- في أيام الرشيد إذ الدنيا قارة المضاجع دائرة الأمراض خصيبة المواقع موردة المشاريع. انتهى كل ذلك من محاضرات الخضرى.

حكاية المنصور مع معن بن زائدة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ؛ ج ٢-٤ ؛ ص ٤٨٩

من اللطائف ما جاء في محاضرات الخضرى ما نصه:

و من مشهورى قواد العرب: معن بن زائدة الشيباني و هو قائد شجاع كان في أيام بنى أمية متنقلا في الولايات و منقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراقين فلما جاءت الدولة العباسية و حوصر يزيد بن عمر بواسط أبلى معه يومئذ بلاء حسنا، فلما سلم يزيد و قتل خاف معن على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة، حصلت له فيها غرائب، من أظرفها أنه تنكر و ركب جملا يقصد البادية، فبينما هو خارج من باب المدينة تبعه عبد أسود متقلدا سيفا فقبض على خطام جملة، فأناخه و قبض على يدي معن، و قال: أنت طلبه أمير المؤمنين أنت معن بن زائدة فلما رأى الجند منه أخرج عقد جوهر ثمنه أضعاف ما جعله المنصور لمن يأتي بمعن فقال للأسود: خذه و لا تكن سببا لسفك دمي فتأمله الأسود و قال:

لست أقبله حتى أسألك عن شيء فإن صدقتني أطلقتك إن الناس وصفوك بالوجود فهل وهبت مالك كله؟ قال: لا. قال: فنصفه؟ قال: لا. و لم يزل حتى بلغ

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٩٠

العشر، فقال معن: نعم. فقال له الأسود: أنا رزقي من المنصور كل شهر عشرون درهما. و هذا الجوهر قيمته ألوف دنانير، و قد وهبته لك و وهبتك لنفسك و لوجودك المأثورين عند الناس و لتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك و لتحقّر بعد هذا كل جود فعلته و لا- تتوقف عن مكرمة. ثم رمى العقد في حجره و ترك خطام الجمل و ولى منصرفا فقال له معن: قد و الله فضحتني و لسفك دمي أهون عليّ مما فعلت فخذ ما دفعته لك فإنني في غنى عنه فضحك و قال: أردت أن تكذبني في مقالي و الله لا أخذته و لا أخذت لمعروفى ثمنا و مضى لسبيله. و ما زال معن مستترا، حتى كان يوم الهاشمية، يوم أن ثار الرواندية بالمنصور و هم قوم من أهل خراسان منسوبون إلى بليدة قرب قاشان و كانوا على رأى أبى مسلم صاحب دعوة بنى هاشم يقولون بتناسخ الأرواح و بظهور على رغم الروايات المتناقضة أنهم كانوا يريدون الأخذ بثأر أبى مسلم و يقتلون أبا جعفر فاجتمع منهم زهاء ستمائة و قصدوا نحو المنصور فتنادى الناس و غلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد، فخرج المنصور من قصره. و في ذلك الوقت ظهر معن فانتهى إلى أبى جعفر، فرمى بنفسه و ترجل و أدخل خرفة قبائه في منطقتة. و أخذ بلجام الدابة المنصور و قال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين إلا رجعت، فإنك تكفى فلم يرجع. و جاء الربيع ليأخذ بلجام الدابة فقال له معن: ليس هذا من أيامك ثم تكاثر عليهم الناس فقتلوهم جميعا و شفت تلك الفعلة معنا في نظر أبى جعفر حتى سماه أسد الرجال فقال معن: و الله يا أمير المؤمنين لقد أتيتك و أنا وجل

القلب فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم و شدة الإقدام عليهم رأيت أمرا لم أره من خلق في حرب فشد ذلك من قلبي و حملني على ما رأيت مني. و كان ذلك سببا لإعطائه الأمان و وصله بعشرة آلاف درهم و توليه اليمن. فمكث فيها مدة أحسن فيها السيرة في أهلها حتى ردهم إلى الطاعة و الجماعة. ثم ولى في آخر أمره سجستان.

و لما كان سنة (١٥١) إحدى و خمسين و مائة كان في داره صناع يعملون له عملا فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلوه بمدينة بست. و كان معن جوادا ممدحا و شاعره الخصيص به مروان بن أبي حفصة له فيه المدح الرائقة كما له فيه المراثي المشجية و من طرف بدائنه أن معنا دخل على المنصور مرة فقال له: إيه يا معن تعطي مروان ابن أبي حفصة مئة ألف درهم على قوله:

معن بن زائدة الذي زادت به شرفا على شرف بنو شيبان
فقال: كلا يا أمير المؤمنين و إنما أعطيته على قوله:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٩١ ما زلت يوم الهاشمية معلنا بالسيوف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته و كنت وقاءه من وقع كل مهند و سنان
انتهى من المحاضرات.

و لقد حج المنصور رحمه الله تعالى في خلافته خمس مرات، قال الغازي في تاريخه نقلا عن ابن فهد: إن المنصور لما حج بالناس سنة (١٣٦) ست و ثلاثين و مائة قبل أن يستخلف و حج معه أبو مسلم الخراساني و اسمه عبد الرحمن بن سلم، فكان في طريقه يصلح العقبات و يكسو الأعراب في كل منزل و يصل من سألته، و حفر الآبار و سهّل الطريق، و كان الصيت له و كانت الأعراب تقول: هذا المكذوب عليه، و أمر مناديا في طريق مكة برثت الذمة من رجل أوقد ناراً في عسكر الأمير فلم يزل يغذّيهم و يعشّيهم حتى بلغ مكة، و لما وصل الحرم نزل و خلع نعليه و مشى حافيا تعظيما للحرم، و أوقف في المسعى خمسمائة و صيف على رقابهم المناديل يسقون الأشربة من سعى من الحاج بين الصفا و المروة، فلما صدر الناس من الموسم نفر أبو مسلم قبل أبي جعفر كراهة اجتماعهما على الماء فيضر بذلك الناس و التمس بذلك الإرفاق بالناس جميعا. انتهى من الغازي.

صفات المنصور و أخلاقه

جاء في محاضرات الخضرى ما نصه:

كان المنصور أعظم رجل قام من آل العباس شدة و بأسا و يقظة و ثباتا و نحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترسم صورة هذا الرجل العظيم في الأذهان.

كيف كان يقضى وقته

كان شغله في صدر النهار بالأمر و النهي و الولايات و العزل و شحن الثغور و الأطراف و أمن السبل و النظر في الخارج و النفقات و مصلحة معاش الرعية، لطرح عالتهم و التلطف لسكونهم و هدئهم. فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحل أن يسامره. فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور و الأطراف و الآفاق و شاور سماره من ذلك فيما أرب. فإذا أمضى ثلث الليل قام إلى فراشه و انصرف سماره. فإذا أمضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ و ضوّه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٩٢

وصف في محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلى بالناس ثم يدخل فيجلس في إيوانه. انتهى.

وفاة المنصور

جاء في محاضرات الخضرى ما نصه:

فى سنة (١٥٨) ثمان و خمسين و مائة حج المنصور شخص من مدينة السلام متوجها إلى مكة فى شوال فلما سار من منازل الكوفة عرض له وجعه الذى توفى به و لم يزل يزداد حتى وصل بستان بن عامر فاشتد به وجعه ثم صار إلى بئر ميمون و هو يسأل عن دخول الحرم و يوصى الربيع بما يريد و توفى فى سحر ليلة السبت (٦) ذى الحجة سنة (١٥٨).

و لم يحضره عند وفاته إلا- الربيع الحاجب فكنتم موته و منع النساء و غيرهن من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة، و جلسوا مجالسهم فأخذ الربيع بيعتهم للأمير المؤمنين المهدي و لعيسى بن موسى من بعده ثم دعا بالقواد فبايعوا و توجه العباس بن محمد بن على و محمد بن سليمان بن على إلى مكة ليبايعا الناس فبايعوا للمهدي بين الركن و المقام.

ثم أخذ من جهاز المنصور و غسله و كفنه ففرغ من ذلك مع صلاة العصر و جعل رأسه مكشوبا من أجل أنه مات محرما و صلى عليه عيسى بن موسى و دفن بثنية المعلاة بعد خلافة مدتها (٢٢) سنة إلا ستة أيام، رحمه الله.

و كان له من الولد ثمان ذكور و بنت. فالذكور محمد المهدي و جعفر الأكبر و أمهما أروى بنت منصور الحميرية و سليمان و عيسى و يعقوب و أمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله و جعفر الأصغر و أمه أم ولد كردية. و صالح المسكين و أمه أم ولد رومية. و القاسم و أمه أم ولد، و قد مات منهم جعفر الأكبر و القاسم قبل وفاة المنصور و البنت اسمها العالية، أمها امرأة من بنى أمية و قد تزوج العالية إسحاق بن على. انتهى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٩٣

ترجمة أمير المؤمنين محمد المهدي

إشارة

جاء فى تاريخ الخميس عنه ما يأتى:

هو المهدي أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور، هو الثالث من خلفاء بنى العباس، ولد سنة (١٢٦) ست و عشرين و مائة، بويج له بالخلافة بعد موت أبيه المنصور بعهد منه إليه «أى فى سنة ثمان و خمسين و مائة».

كان المهدي جوادا ممدحا مليح الشكل محبا إلى الرعية شجاعا خصاما للزنادقة يتبعهم و يقتلهم فى كل بلد. و بنى جامع الرصافة، و كسا الكعبة القباطى و الخزف و الديباج، و طلى جدرانها بالمسك و العنبر من أسفلها إلى أعلاها. لما شبّ و لاه أبوه على طبرستان و ما يليها و على الرى، و تأدب المهدي و جالس العلماء و تميز، و قيل: إن أباه المنصور غرّم أموالا عظيمة، و تحيل حتى استنزل و لى العهد أخاه عيسى بن موسى عن المنصب و و لاه للمهدي هذا. انتهى من تاريخ الخميس.

و جاء فى محاضرات الخضرى عنه ما نصه:

هو محمد المهدي ابن المنصور و أمه أروى بنت منصور الحميرية و كانت تكنى أم موسى ولد سنة (١٢٦) بالحميمة من أرض الشراة و كانت سنّه إذ جاءتهم الخلافة ست سنوات و لما استخلف أبوه كان فتى سنّه عشر سنوات. و لما بلغ مبلغ الرجال كان أبوه يرشحه لولاية العهد فولاه سنة (١٤١) إحدى و أربعين و مائة، و سنّه ١٥ سنة قيادة الجنود المتوجهة إلى خراسان و أمره أن ينزل الرى حينما وقعت فتنة عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل المنصور على خراسان. و بعد انتهاء تلك الفتنة أمره بغزو طبرستان. ثم انصرف عائدا من خراسان سنة (١٤٤) أربع و أربعين و مائة، فلقبه أبوه بقرمسين و انصرفا جميعا إلى الجزيرة لمراقبة ثغورها و فى هذه السنة بنى المهدي بريطة بنت أبي العباس السفاح.

و فى سنة (١٤٧) سبع و أربعين و مائة، و لاه أبوه العهد و قدمه على عيسى بن موسى. ثم عاد إلى الرى فأقام إلى سنة (١٥١) إحدى و

خمسين و مائة، و فيها قدم على أبيه فبنى له و لجنده الرصافة و هي الجانب الشرقى من بغداد و ولاه الحج سنة (١٥٣) ثلاث و خمسين و مائة. و فى سنة (١٥٥) خمس و خمسين و مائة، أسس مدينة الرافقة على طراز بغداد. و لم يزل يستعين به فى الأعمال حتى توفى فى التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٩٤

التاريخ الذى تقدم ذكره (٦) الحجته سنة (١٥٨) ثمان و خمسين و مائة (٧) أكتوبر سنة (٧٧٥). انتهى.

قال ابن كثير فى تاريخه: و كان مولد المهدي فى سنة ست أو سبع و عشرين و مائة، أو فى سنة إحدى و عشرين و مائة، ولى الخلافة بعد موت أبيه فى ذى الحجة سنة ثمان و خمسين و مائة، و عمره إذ ذاك ثلاث و ثلاثون سنة ولد بالحيمه من أرض البلقاء و توفى فى المحرم من هذه السنة أعنى سنة تسع و ستين و مائة، عن ثلاث أو ثمان و أربعين سنة و كانت خلافته عشر سنين و شهرا و بعض شهر.

و كان أسمر طويلا جعد الشعر على إحدى عينيه نكتة بيضاء قيل على عينه اليمنى و قيل اليسرى. قال الربيع الحاجب: رأيت المهدي يصلى فى ليلة مقمرة فى بهلوله عليه ثياب حسنة فما أدرى هو أحسن أم القمر أم بهوه أم ثيابه فقرا: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ ... الآيات ثم أمرنى فأحضرت رجلا من أقاربه كان مسجونا فأطلقه و لما جاء خبر موت أبيه بمكة كما تقدم كتم الأمر يومين ثم نودى فى الناس يوم الخميس: الصلاة جامعة فقام فيهم خطيبا فأعلمهم بموت أبيه و قال: إن أمير المؤمنين دعى فأجاب فعند الله أحسب أمير المؤمنين و أستعينه على خلافة المسلمين ثم بايعه الناس بالخلافة يومئذ و قد عزاه أبو دلامة و هنأه فى قصيدة له يقول فيها:

عيناى واحدة ترى مسرورة بأمرها جذلى و أخرى تذرِف
تبكى و تضحك تارة و يسوؤها ما أنكرت و يسرها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرما و يسرها إن قام هذا الأراف
ما إن رأيت كما رأيت و له أرى شعرا أرجله و آخر ينتف
هلك الخليفة يال أمه أحمده و أتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله أفضل خلافة و لذاك جنات النعيم تزخرِف

لما اتصل بالمهدي خبر وفاة والده بمكة المكرمة، اشتد عليه الحزن و اغرورقت عيناه بالدموع، و قال: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد بكى عند فراق الأحبة. و لقد فارقت عظيما و قلدت جسيما. و بينما كان المهدي جالسا للتعزية بوالده و التهنته بمبايعته، دخل عليه أبو دلامة فأنشد:

عيناى واحدة ترى مسرورة بإمامها جذلى و أخرى تطرف

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٩٥ تبكى و تضحك مرة و يسوؤها ما أنكرت و يسرها ما تعرف

فيسوؤها موت الخليفة محرما و يسرها إذ قام هذا الأراف

فأجزل له العطاء و كان أول من وصله. انتهى.

بيعة المهدي

قال الخضرى فى محاضراته: بعد أن أخذ الربيع بيعة المهدي على بنى هاشم و القواد الذين كانوا يرافقون المنصور فى حجه و حجه رسولاً إلى مدينة السلام بخبر الوفاة و بعث معه بقضيب النبى صلى الله عليه و سلم و بردته التى يتوارثها الخلفاء و بخاتم الخلافة. فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذى الحجة. و فى ذلك اليوم بايعه أهل مدينة السلام و مكث فى خلافته إلى أن توفى ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم سنة (١٦٩) تسع و ستين و مائة، (٤) أغسطس سنة (٧٨٥) خمس و ثمانين و سبعمائة ميلادية، بما

سبذان فتكون مدته عشر سنين و شهرًا و نصفًا. اه منها.

و قال فيها أيضًا: كانت خلافة المهدي مرفهه عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور، فقد كان المنصور يؤسس ملكا له خصوم فكان يكتفى بالريبه و الظنة فيعاقب بهما، و في مثل ذلك كثير ما يؤخذ البريء بالمذنب و المطيع بالعاصي، فلما جاء المهدي كانت الخلافة العباسية قد توطدت، و أنياب العلويين قد كسرت و إن كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة، فهم لا يحتاجون من الاحتراس منهم إلى مثل ما كان المنصور يحتاج إليه في الشدة، فإن كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد أو الذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الأمير لهم فكانوا يعرضون عليه كل يوم و لذلك كانت حياة المهدي حياة سعيدة لنفسه و لأمته. و هو بعد أبيه يشبه في كثير من الوجوه الوليد بن عبد الملك بعد أبيه.

في أول ولايته أمر بإطلاق من كان في سجن المنصور إلا- من كان قبله تبعه من دم أو قتل و من كان معروفًا بالسعى في الأرض بالفساد أو كان لأحد قبله مظلمة أو حتى فالذين أطلقهم هم من كان جرمهم سياسيا أما أرباب الجنایات و المحبوسون لحقوق مدينة فإنهم ظلوا في حبسهم و كان ممن أطلق يعقوب بن داود الذي سيأتي ذكره في كبار الرجال في عهد المهدي. انتهى منها. و جاء فيها أيضا: و مما أجراه من الإصلاح أمره ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان السفاح بناها في القادسية إلى زباله و أمر بالزيادة من

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٩٦

قصور السفاح و ترك منازل المنصور التي بناها على حالها و أمر باتخاذ المصانع في كل منهل و هي حيطان تبنى و تملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلا على رجال القوافل الذين لا ينقطع مرورهم في تلك الجهات، و أمر بتجديد الأميال و البرك و حفر الركاب مع المصانع و جعل لذلك عاملا- خاصا يقوم به. و أمر أن يجرى على المجذمين و أهل السجون في جميع الآفاق حتى لا يحتاج المجذمون إلى المشى في الطرق و سؤال الناس فيكونون سببا في انتشار المرض و حتى يكون للمسجونين ما يقوم بأودهم فلا يموتوا جوعا إلا من كان له أهل يسألون عنه و أقام البريد بين مدينة رسول الله صلى الله عليه و سلم و مكة و اليمن بغالا و إبلا و لم يبق هنالك بريد قبل ذلك و من آثاره زيادته في المسجد الحرام فأدخل فيه دورا كثيرة مما يحيط به. اه منها.

و جاء فيها أيضا: و كان المهدي يجلس للمظالم و تدخل القصص إليه فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتا له شباك حديد على الطريق يطرح فيه القصص و كان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولا فأولا فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض و كان المهدي مغرى بالزنادقة الذين يرفع إليه أمرهم فكان دائما يعاقبهم بالقتل و لذلك كانت هذه التهمة في زمنه وسيلة إلى تشفى من يجب أن يتشفى من عدو أو خصم. و الذي أغراه بذلك ما كان من فتنة المقنع الخراساني كان في إحدى قرى مرو و كان يقول بتناسخ الأرواح فاستغوى بشرا كثيرا و صار إلى ما وراء النهر فوجه المهدي لقتاله عدة من القواد فيهم مفاذ بن مسلم و هو يومئذ على خراسان ثم أفرد المهدي لمحاربه سعيد الحرشي و ضم إليه القواد فاستعد المقنع للحصار في قلعه كش فحاصره سعيد بقلعته و لما اشتد عليه الحصار و أحس بالهلكة شرب سما و أسقاه نساءه و أهله فمات و ماتوا جميعا و دخل المسلمون قلعته و احتزوا رأسه. انتهى من محاضرات الخضرى.

قال ابن كثير في تاريخه: و في هذه السنة «أى سنة ستين و مائة» حج بالناس المهدي و استخلف على بغداد ابنه موسى الهادي، و استصحب معه ابنه هارون الرشيد و خلقا من الأمراء منهم يعقوب بن داود على منزلته و مكاتته و كان الحسن بن إبراهيم قد هرب من الخادم فلحق بأرض الحجاز فاستأمن له يعقوب بن داود فأحسن المهدي حلتته و أجرله جائزته، و فرق المهدي في أهل مكة مالا كثيرا جدا كان قد قدم معه بثلاثين ألف درهم و مائة ألف ثوب و جاء من مصر ثلثمائة

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٩٧

ألف دينار و من اليمن مائتا ألف دينار فأعطاها كلها في أهل مكة و المدينة، و شكت الحجة إلى المهدي أنهم يخافون على الكعبة

أن تنهدم من كثرة ما عليها من الكساوى فأمر بتجريدتها فلما انتهوا إلى كساوى هشام بن عبد الملك وجدها من ديباج ثخين جدا فأمر بإزالتها وبقيت كساوى الخلفاء قبله وبعده. فلما جردها طلاها بالخلوق و كساها كسوة حسنة جدا، و يقال: أنه استفتى مالكا فى إعادة الكعبة إلى ما كانت عليه من بناءة ابن الزبير، فقال مالك: دعها فإنى أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة فتركها على ما هى.

و حمل له محمد بن سليمان، نائب البصرة الثلج إلى مكة. و كان أول خليفه حمل له الثلج إليها. و لما دخل المدينة وسع المسجد النبوى و كان فيه مقصورة فأزالها و أراد أن ينقص من المنبر عما كان زاده معاوية بن أبى سفيان فقال له مالك: إنه يخشى أن ينكسر خشبه العتيق إذا زعزع. فتركه و تزوج فى المدينة رقية بنت عمرو العثمانية. و انتخب من أهلها خمسمائة من أعيانها ليكونوا حوله حرسا بالطرق و أنصارا و أجرى عليهم أرزاقا غير أعطياتهم و أقطعهم إقطاعا معروفة بهم.

قال ابن كثير فى تاريخه: و ذكروا أنه هاجت ريح شديدة فدخل المهدي بيتا فى داره فألرزق خده بالتراب و قال: اللهم إن كنت أنا المطلوب بهذه العقوبة دون الناس فها أنا ذا بين يديك، اللهم لا تشمت بى الأعداء من أهل الأديان. فلم يزل كذلك حتى انجلت. و دخل عليه رجل يوما و معه نعل فقال: هذه نعل رسول الله صلى الله عليه و سلم قد أهديتها لك فقال: هاتها فناوله إياها فقبلها و وضعها على عينيه و أمر له بعشرة آلاف درهم فلما انصرف الرجل قال المهدي: و الله إنى لأعلم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم ير هذه النعل فضلا عن أن يلبسها، و لكن لو رددته لذهب يقول للناس: أهديت إليه نعل رسول الله صلى الله عليه و سلم فردها على فتصدقه الناس لأن العامة تميل إلى أمثالها و من شأنهم نصر الضعيف على القوى و إن كان ظالما فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم و رأينا هذا أرجح و أصلح. انتهى من ابن كثير.

روى المسعودى و هو من أهل القرن الثالث للهجرة، فى أواخر الجزء الثانى من تاريخه عند ذكر خلافة القاهر بالله - عن العلامة بأخبار بنى العباس محمد بن على العبدى الخراسانى الأخبارى أنه قال: خلا بى القاهر فقال: أصدقنى أو هذه، و أشار إلى بالحرية. فرأيت و الله الموت عيانا بينى و بينه، فقلت: أصدقك يا أمير المؤمنين. فقال لى: أنظر يقولها ثلاثا. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: عما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٩٨

أسألك عنه و لا تغيب عنى شيئا، و لا تحسن القصه و لا تسجع فيها و لا تسقط منها شيئا. قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: أنت علامة بأخبار بنى العباس من أخلاقهم و شيمهم من أبى العباس فمن دونه. فقلت: على أن لى الأمان يا أمير المؤمنين. قال: ذلك لك. فقلت: أما أبو العباس السفاح، فكان سريعا إلى سفك الدماء و اتبعه عماله فى الشرق و الغرب من فعله و استنوا بسيرته ... إلى آخر ما ذكر فى وصف أمراء المؤمنين حتى جاء فى وصف محمد المهدي الذى عمّر المسجد الحرام و زاد فيه هذه الزيادة العظيمة، فقال عنه ما يأتى:

كان المهدي سمحا سخيا كريما جوادا، فسلك الناس فى عصره سبيله و ذهبوا فى أمرهم مذهبه و اتسعوا فى مساعيهم، و كان من فعله فى ركوبه أن يحمل معه بدر الدنانير و الدراهم فلا يسأله أحد إلا أعطاه و إن سكت ابتدأه المفرق بين يديه و قد تقدم بذلك إليه، و أمعن فى قتل الملحدين و المدهنين عن الدين لظهورهم فى أيامه و إعلانهم باعقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى و ابن دميان و مرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع و غيره و ترجمت من الفارسية و الفهلوية إلى العربية و ما صنّف من ذلك ابن أبى العرجاء و حماد عجرد و يحيى بن زياد و مطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانية و الدنساقيه و المرقونية فكثر بذلك الزنادقة و ظهرت آراؤهم فى الناس و كان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين و غيرهم و أقاموا البراهين على المعاندين و أزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين، و شرع فى بناء المسجد الحرام و مسجد النبى صلى الله عليه و سلم على ما هما عليه إلى هذه الغاية و بنى بيت المقدس و قد كان هدمته الزلازل. انتهى من الكتاب المذكور.

قال سعيد بن مسلم: هدر المهدي دم رجل من أهل الكوفة، كان يسعى في فساد سلطنته، و جعل لمن دله عليه أو جاءه به مائة ألف درهم. قال: فأقام الرجل حيناً متوارياً ثم إنه ظهر بمدينة السلام، فكان ظاهراً كغائب، خائفاً مترقباً فبينما هو يمشى في بعض نواحيها، إذ بصر به رجل من أهل الكوفة، فعرفه فأهوى إلى مجامع ثوبه و قال: هذا بغية أمير المؤمنين فأمكن الرجل من قياده، و نظر إلى الموت أمامه فبينما هو على تلك الحالة إذ سمع وقع حوافر من وراء ظهره، فالتفت فإذا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٤٩٩

معن بن زائدة فقال: يا أبا الوليد أجزني أجزرك الله فوقف، و قال للرجل الذي يعلق به: ما شأنك؟ قال: بغية أمير المؤمنين الذي نذر دمه، و أعطى لمن دل عليه مائة ألف. فقال: يا غلام انزل عن دابتك و احمل أخاناً، فصاح الرجل: يا معشر الناس! يحال بيني و بين من طلبه أمير المؤمنين. قال له معن: اذهب فأخبره أنه عندي فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبره الحاجب، فدخل إلى المهدي فأخبره، فأمر بحبس الرجل، و وجه إلى معن من يحضر به فأتته رسل أمير المؤمنين، و قد لبس ثيابه و قربت إليه دابته، فدعا أهل بيته و مواليه فقال: لا يخلصن إلى هذا الرجل و فيكم عين تطرف. ثم ركب و دخل حتى سلم على المهدي فلم يرد عليه. فقال: يا معن أتجير علي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: و نعم أيضاً، و اشتد غضبه فقال معن: يا أمير المؤمنين قتلت في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفاً، و لى أيام كثيرة قد تقدم فيها بلائي، و حسن عنائي، فما رأيتموني أهلاً أن تهبوا إليّ رجلاً واحداً استجار بي؟ فأطرق المهدي طويلاً ثم رفع رأسه و قد سرى عنه.

فقال: قد أجزنا من أجزت. قال معن: فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله، فيكون قد أحياه و أغناه. قال: قد أمرنا له بخمسة آلاف. قال: يا أمير المؤمنين إن صلوات الخلفاء على قدر جنيات الرعية، و إن ذنب الرجل عظيم، فأجزل له الصلة. قال: قد أمرنا له بمائة ألف. قال: فتعجلها يا أمير المؤمنين بأفضل الدعاء، ثم انصرف. و لحقه المال، فدعا الرجل، فقال له. خذ حلتك، و الحق بأهلك، و إياك و مخالفة خلفاء الله تعالى.

شيء من خطب المهدي

و قد قال المهدي يوماً في خطبة: أيها الناس أسروا مثلما تعلنون من طاعتنا تهتك العاقبة و تحمدوا العاقبة و اخفضوا جناح الطاعة لمن ينشر معدلته فيكم و يطوى ثوب الأمر عنكم، و أحال عليكم السلامة و لين المعيشة من حيث أراه الله مقدماً ذلك على فعل من تقدمه و الله لأعفين عمري من عقوبتكم و لأحملن نفسي على الإحسان إليكم قال: فأشرق وجوه الناس من حسن كلامه ثم استخرج حواصل أبيه من الذهب و الفضة التي كانت لا تحدد و لا توصف كثرة ففرقها في

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٠٠

الناس و لم يعط أهله و مواليه منها شيئاً بل أجرى لهم أرزاقاً بحسب كفايتهم من بيت المال لكل واحد خمسمائة في الشهر غير الأعطيات. انتهى من ابن كثير.

و جاء في محاضرات الخضري عنه ما يأتي: كان المهدي لا يشرب النبيذ و إن كان سماره يشربونه في مجلسه و كان يسمع الغناء و كان من خلقه الحياء و العفو فكان إذا وقع أحد من خصومه في يده عفا عنه و كان يتأثر بالقرآن. كان في حبسه موسى بن جعفر العلوي فقرأ مرة في صلاته: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ فَأْتُمْ صلاته و التفت إلى الربيع و أمره بإحضار موسى فلما جرى به قال له: يا موسى إني قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لي أنك لا تخرج علي. فقال: نعم. فوثق له فخلاه.

و كان خليفة عادلاً يجلس للمظالم بنفسه و بين يديه القضاء فيزيل عن الناس مظالمهم و لو كانت قبله و كان إذا جلس للمظالم قال:

ادخلوا على القضاء فلو لم يكن ردى للظالم إلا للحياء منهم لكفى. قال المسور بن مساور: ظلمنى وكيل المهدي و غصبنى ضيعة لى فأتيت سلاما صاحب المظالم و أعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدي و عنده عمه العباس بن محمد و ابن علاثة و عافية القاضي فأمر المهدي بإدخاله و سأله عن مظلمته فأخبره بها فقال له: ترضى بأحد هذين؟

فقال: نعم فقال: تكلم. فقال مساور: أصلح الله القاضي، إن هذا ظلمنى فى ضيعتى، و أشار إلى المهدي فقال القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: ضيعتى فى يدي. فقال مساور: أصلح الله القاضي، سله صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها؟ فقال المهدي: بعد الخلافة. فقال القاضي: أطلقها له. قال: قد فعلت. و العدل و الحلم و العفو فى الخلفاء من الصفات التى تدل على أقدارهم و عظم سلطانهم و هكذا كان المهدي مع ما امتاز به من الجود و فصاحة اللسان و كان أبوه قد علمه تعليما عربيا محضا فى صغره و قد ألف له المفضل الضبي أمثال العرب و جمع له مختارات شعرهم. و كان يقول: ما تقرب إلى أحد بوسيلة و لا تذرع بذريعة هى أقرب من تذكره إياى به أسلفت منى إليه، أتبعها أختها، فأحسن ربها لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل.

و كان المهدي ميالا إلى السنة يحب ألا يخالف سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم فمن ذلك أنه أمر بنزع المقاصير من مساجد الجماعات و تصيير منبرها إلى المقدار الذى عليه منبر رسول الله صلى الله عليه و سلم و كتب بذلك إلى الآفاق فعمل به. اه. التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٠١

من كرم المهدي

نزل المهدي بمنزل «بعيساباد» لما بناها، و أمر أن يكتب له أبناء المهاجرين و أبناء الأنصار، فكتبوا و دعى بنقباثهم و جلس مجلسا عاما لهم، ففرق ثلاثة آلاف ألف درهم فأغنى كل فقير و جبر كل كسير و فرج عن كل مكروب. ثم قامت الخطباء و دخل الشعراء فأنشده، ففرق فيهم خمسمائة ألف درهم. فكثر الداعى له فى الطرقات و البوادي، و قام فى هذا اليوم مروان بن أبى حفصة فأنشده:

ما يلمع البرق إلا حن مغترب كأنه من دواعى شوقه و صب

ما أنسى لا أنسى غيثا ظل و ابله على من راحة المهدي ينسكب

شمنا فما أخلفتنا من مخائله سحابة صوبها الأوراق و الذهب

صدقت يا خير مأمون و معتمد ظنى بأضعاف ما قد كنت أحتسب

أعطيت سبعين ألفا غير متبعها منا و لست بمئان بما تهب

قد لاح للناس بالمهدي نور هدى يضىء و الصبح فى الظلماء يحتجب

خليفة طاهر الأثواب معتمد بالحق ليس له فى غيره أرب

قال الغازى فى تاريخه ما نصه: و فى إتحاف الورى بأخبار أم القرى لابن فهد و فى سنة تسع و خمسين و مائة أو فى التى بعدها، أمر المهدي بنفى كل من بمكة من المغنيين و منع فتيها من الغناء، و أخرج كل من فيها من المشتبهات من النساء بالرجال و المشتبهين من الرجال بالنساء، و منع من لعب الشطرنج و غيره من الأمور التى تجر إلى اللهو و الطرب، و طهرها من كثير من المباحات الملهية عن الصلوات و المشغلة عن اغتنام القرب، و ألزم حجة الكعبة إجلالها و توفيرها و تنزيها، و تطييبها للزائرين و تجميرها و فتح بابها بالسكينة و الخشوع، و زجر النساء عن الخروج إلى المسجد متعطرات. اه.

و قال أيضا: و فى سنة ست و ستين و مائة أمر المهدي بإقامة البريد بين مكة و المدينة فأقيم لذلك بغال و إبل و لم يكن هناك بريد قبل ذلك. انتهى من تاريخ الغازى.

إن المهدي رحمه الله تعالى عمل أعمالا جلية، منها أنه بنى فى سنة (١٥٩) هجرية مسجد الرصافة ببغداد، و بنى خندقها. و لقد كسى الكعبة المشرفة مرتين

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٠٢

أو ثلاثة، و أمر بتضييب مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الثلم الذى حصل فيه، و بعث لذلك بألف دينار، فضيبوا بذلك المقام من أعلاه و أسفله و ذلك سنة (١٦١) من الهجرة و هذا أول ما حلّى به المقام. و قد زاد المهدي في المسجد النبوي من الجهة الشمالية، و كان بدء البناء سنة (١٦١) و الفراغ منه سنة (١٦٥) هجرية كما جدد مقصورة عثمان بن عفان رضى الله عنه و ربما عمل كثيرا من العمارة أيضا بالحرمين الشريفين.

شيء من مروءة المهدي و فضله

جاء في مجلة المصور بمصر، في أحد أعدادها بتاريخ ٢٨ رمضان سنة ١٣٦٦ هجرية الموافق ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ ميلادية، مقالة ممتعة لطيفة بعنوان «تاريخ ما أهمله التاريخ» و أول صندوق للبريد، و ذلك بقلم الأستاذ حبيب جاماتي ما نصه:

أول صندوق للبريد

كان القيظ في ذلك اليوم شديد الوطأة، و الرياح التي هبت على بغداد ساخنة كأنها منبعثة من أفواه البراكين، و الجوقاتما تضيق فيه الصدور و تقبض. و مع ذلك، فإن الخليفة «المهدي بالله» لم يشأ أن يصد الناس عن بابه، بعد أن نادى المنادى في الليلتين السابقتين، أن ذلك اليوم من الأيام التي يستقبل فيها أمير المؤمنين ذوى الحاجات و يصغى إلى مطالبهم و شكواياتهم، فظل الشاكرون و المتذمرون و المحتاجون يروحون و يجيئون من الصباح إلى المساء، و الخليفة ينصف هذا و يعزى ذاك، و ينفخ بالمال هذه و يأمر بإيواء تلك في القصر، فلا يترك أحدا ممن لجؤوا إلى رحابه يغادر المكان إلا راضيا شاكرا.

تلك كانت عادته منذ أن خلف أباه في الملك، عام ١٥٨ للهجرة، الموافق لعام ٧٧٥ للميلاد. فقد كان أبو جعفر المنصور قاسيا لا يلين، عمد في تثبيت دعائم الخلافة لبنى العباس إلى أساليب عنيفة قتل و نفى و شرد الكثيرين بلا شفقة و لا رحمة، حتى تم له ما أراد من توطيد دعائم السلطان. و لكنه حين أشرف على الموت، أخذ على ابنه محمد بن عبد الله «المهدي» عهدا بأن يرد المظالم إلى أهلها

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٠٣

و بأن يتحجب إلى الرعية، و يتسامح مع المسيئين إليه و يبر بالمعوزين و الذين خانهم الحظ في الحياة.

و وقى المهدي بعهد أبيه، ففتح أبواب السجون و بعث منها من دفنهم فيها أبوه و أعاد إليهم أموالهم و أملاكهم التي جردوا منها. و قد بلغت نحو ستمائة مليون درهم و أربعة عشر مليوناً من الدنانير، و أعلن أنه يرغب في استماع شكايات رعاياه دون أن يكون بينه و بينهم وسيط، و أنه في أيام معينة من أيام الأسبوع، يفتح أبواب قصره ليدخلها من يريد بلا استئذان، ليمثل بين يديه، و يخاطبه في الأمر الذى يشكو منه.

و هكذا أحبه الناس و رفعوا أكف الضراعة إلى الله، أن يطيل عهده و يدفع عنه الأذى!

كانت الشمس قد أشرقت على المغيب عندما خرج من القاعة آخر واحد من أصحاب الشكايات في ذلك اليوم الذى اشتدت فيه و طأة القيظ فنهض المهدي متعبا و فى رأسه صداع و فى أذنيه طنين، و توجه لساعته إلى حجرة جاريته المحبوبة «الخيزران» حيث استلقى على الوسائد، طلبا لراحة الجسم و البال.

و أسرع إليه الخيزران تلاطفه و تدلله، و ترطب فمه بالشراب و جبينه بالخطور، مرددةً بلهجة عذبة ما تعودت أن تقوله له كل يوم: إنك ترهق نفسك يا أمير المؤمنين، و تحملها فوق طاقتها .. و هل البرّ بالرعية، و الوفاء بالعهد الذى قطعته لأبيك، يقضيان عليك بأن تنهك قواك إلى هذا الحد، و تصنع فوق ما تستطيع؟

فأجاب المهدي: و من يرفق بالناس إذا لم أعمد أنا إلى الرفق بهم؟

عليك أن ترفق بنفسك أولاً، و أن يحل وزراؤك محللك في الرفق بالناس!

قد يخطئون. و قد يقصرون، و في خطئهم و تقصيرهم إخلال بالعهد المقطوع!

و لكن الخيزران لم تقتنع، و كانت تحب سيدها و تتفانى في خدمته و الترفيه عنه. فاستطردت قائلة:

أتظن يا أمير المؤمنين أن جميع الذين يشكون من ظلم، أو فقر، أو من فاقه، يجروون على المجيء إليك في قصرك، و الدخول عليك في ديوانك، و المثل أمامك بدون أن تتولاهم الرهبة و يعقد الخوف ألسنتهم؟ كلا.. إن القليل يجروون على

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٠٤

هذا، و الكثير لا- يجروون فأنت إذن ترهق نفسك من أجل فريق من الرعية دون الفريق الآخر و لن يكون هناك ما يضير الرعية لو أعطيت نفسك حقها من الراحة و السكون.

أثارت هذه الكلمات هواجس الخليفة، ففكر ملياً، ثم قال:

أتعتقدين حقاً يا خيزران أن هناك من لا يلبى الدعوة و يطرق بابي، عن خوف أو رهبة؟

مولاي: إنني أخاطبك عن معرفة. عندي الآن امرأة رقيقة الحال أعرفها، أراد أصدقاء أسرتها أن يحملوها على الدخول عليك مع الداخلين في «أيام الشكوى» و لكنها لم تفعل، و قد عهدت إلي بأن أرفع إليك هذا الرق الذي ضمنته شكايته.

و دفعت الخيزران إلى الخليفة رقا عليه بضعة سطور خطتها يد مرتجفة لم تألف الكتابة للاستجداء، فسأل المهدي:

من هي تلك المرأة، و لماذا لم تذكر اسمها في الرق؟

إذا أمرت يا أمير المؤمنين، فإنني سأقودها إليك في هذه اللحظة.

علّي بها ..

عادت الخيزران و معها امرأة في مقتبل العمر، عليها ثياب رثة و حرق بالية، و لكنها كاملة القد ممشوقة القوام، يشع الحسن من وجهها النير، و الذكاء من عينيها الكبيرتين فانحنت أمام الخليفة، و تناولت طرف رداءه، و رفعتة إلى شفيتها ...

ما اسمك؟

مزنة!

من أي الناس أنت؟

من نساء بني أمية؟

انتفض المهدي لذكر الأسرة التي جردها العباسيون من سلطانها و أملاكها، و شتتوا رجالها و نساءها و طاردوها في المشارق و المغارب. و لكنه شعر بالشفقة تناسب إلى قلبه، أمام تلك البائسة المعدمه، التي تقبل رداءه و تحاول إخفاء عريها تحت الأسمال!

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٠٥

أي نساء بني أمية أنت؟

أنا امرأة مروان بن محمد الأموي ... إلى هذه الحالة التي تراها يا أمير المؤمنين أوصلنا الدهر الغادر القاسي. فقد أصبحنا لا نأمن أن نخالط الناس، بل نتلمس رزقنا متنكرين خائفين.

فأطرق محمد بن عبد الله المهدي، و تتمم قائلاً:

اللهم إننا نعوذ بك من زوال النعم! ثم التفت إلى الخيزران و قال:

خذي مزنة الأموية إلى دارك فهي منذ الساعة في حماك و حماي، و لتقم عندك معززة مكرمة! و عندما انحنت الأموية ثانية لتلثم طرف الرداء سقطت على يدها دمعاً من عين أمير المؤمنين.

و في اليوم التالي، قال المهدي للخيزران جاريته المحبوبة:

لقد فطنت بالأمس إلى أمر فاتني من قبل. و يعود الفضل في ذلك إليك. فإن مزنة الأموية وجدت من يوصلها إلى الخليفة. و قد يكون في الدولة كثيرون من الرجال و النساء، لا يجدون من يأخذ بيدهم و يقودهم إلى رحاب المهدي، و لذلك فقد عولت على تسهيل الأمر عليهم، بأن أوفر لهم أسباب الاتصال بي بطريق الكتابة. و إنك يا خيزران بما قلته لي أمس، لتساهمين مساهمة فعالة في تطبيق العهد الذي قطعه لأبي، و في توسيع نطاق البر برعيتي المحبوبة.

و أمر المهدي بأن يوضع على كل باب من أبواب القصر، مثبتا إلى الحائط بمسامير، صندوق كبير مثقوب من أعلاه، لكي يضع فيه كل صاحب شكايته شكايته مدونة في رق أو قرطاس، و احتفظ هو بمفتاح تلك الصناديق، فكان يفتحها كل يوم بنفسه ثلاث مرات، و يطلع على الشكايات و يفحصها واحدة واحدة، و ينصف أصحابها بقدر ما يستحقون الإنصاف.

و جلس المهدي على عرش الخلافة عشرة أعوام، و مات في الحادية و الأربعين من العمر، سنة ١٦٩ للهجرة، الموافقة لسنة ٧٨٥ للميلاد.

و هو أول ما أنشأ- فيما أنشأ- «صندوق البريد» في التاريخ.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٠٦

وفاة المهدي

في سنة (١٦٩) تسع و ستين و مائة، أراد المهدي الخروج إلى جرجان فلما وصل إلى ماسندان أدركته هناك منيته ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم في قرية يقال لها السرور و صلى عليه ابنه هارون لأنه كان في صحبته رحمه الله تعالى و أحسن جزاءه، انتهى كل ذلك من محاضرات الخضري.

قال ابن بطوطة: و قبر المهدي و بعض الخلفاء الذين وسّعوا المسجد الحرام ببغداد.

ترجمة هارون الرشيد

إشارة

جاء في محاضرات الخضري ما نصه:

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي و أمه أم الهادي ولد بالري سنة (١٤٥) خمس و أربعين و مائة. و لما شب كان أبوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الأمور.

جعله أمير الصائفة سنة (١٦٣) و سنة (١٦٥) و في سنة (١٦٤) أربع و ستين و مائة، و لاه المغرب كله من الأنبار إلى أطراف أفريقية فكانت الولاة ترسل من قبله و في سنة (١٦٦) ست و ستين و مائة جعله أبوه ولي عهده بعد الهادي. و في سنة (١٦٩) تسع و ستين و مائة، و هي السنة التي توفى فيها المهدي أراد أن يقدمه على الهادي لما ظهر من شجاعته و علو شأنه فحالت منية المهدي دون ذلك. بويج الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادي في ١٤ ربيع الأول سنة (١٧٠) سبعين و مائة هـ (١٤) سبتمبر سنة (٧٨٦) ميلادية، و سنة ٢٥ سنة و لم يزل خليفة إلى أن توفى في ثالث جمادى الآخرة سنة (١٩٣) ثلاث و تسعين و مائة هـ. (٢٤) مارس سنة ٨٠٨ م. فكانت مدته (٢٣) سنة و شهرين و ١٨ يوما و كان سنّه إذ توفى ٤٨ سنة انتهى من الكتاب المذكور.

و جاء في تاريخ ابن كثير رحمه الله تعالى: يقال أنه لما مات الهادي في الليل جاء يحيى بن خالد بن برمك إلى الرشيد فوجده نائما، فقال: قم يا أمير المؤمنين فقال له الرشيد: كم تروعنني! لو سمعك هذا الرجال لكان ذلك أكبر ذنوبي عنده. فقال: قد مات الرجل. فجلس هارون، فقال: أشر عليّ في الولايات.

فجعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسميهم فيولهم الرشيد، فبينما هما كذلك

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٠٧

إذ جاء آخر، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين فقد ولد لك الساعة غلام، فقال: هو عبد الله و هو المأمون. ثم أصبح فصلّى على أخيه الهادى و دفنه بعيساباد، و حلف لا يصلّى الظهر إلا ببغداد. فلما فرغ من الجنازة أمر بضرب عنق أبى عصمه القائد لأنه كان مع جعفر بن الهادى. فزاحموا الرشيد على جسر فقال أبو عصمه: اصبر ووقف حتى يجوز ولى العهد. فقال الرشيد: السمع و الطاعة للأمير فجاز جعفر و أبو عصمه، و وقف الرشيد مكسورا ذليلا، فلما ولى أمر بضرب عنق أبى عصمه، ثم سار إلى بغداد. فلما انتهى إلى جسر بغداد استدعى بالغواصين فقال:

إنى سقط منى ههنا خاتم كان والدى المهدي قد اشتراه لى بمائة ألف، فلما كان من أيام بعث إلى الهادى يطلبه، فألقيته إلى الرسول، فسقط ههنا. فغاص الغواصون وراءه فوجدوه فسر به الرشيد سرورا كثيرا. انتهى من ابن كثير.

و لقد عمل هارون الرشيد كثيرا من الأعمال الجليلة، و لنذكر هنا شيئا من أعماله فى الكعبة المشرفة. فقد قال الإمام الأزرقى عن ذلك ما نصه:

فأما ما كان على الباب «أى باب الكعبة» من عمل الوليد بن عبد الملك من الذهب فإنه رق و تفرّق، فرفع ذلك إلى أمير المؤمنين محمد بن الرشيد فى خلافته، فأرسل إلى سالم بن الجراح عاملا كان له على صوافى مكة بثمانية عشر ألف دينار ليضرب بها صفائح الذهب على بابى الكعبة فقلع ما كان على الباب من الصفائح و زاد عليها من الثمانية عشر ألف دينار فضرب عليه الصفائح التى هى عليه اليوم و المسامير و حلقتا باب الكعبة و على الفياريز و العتب و ذلك كله من عمل أمير المؤمنين محمد بن هارون الرشيد و لم يقلع فى ذلك بابى الكعبة و لكن ضربت عليهما الصفائح و المسامير و هما على حالها، قال أبو الوليد: أخبرنى المثنى بن جبير الصواف أنهم حين فرقوا ذهب باب الكعبة وجدوا فيه ثمانية و عشرين ألف مثقال فزادوا عليها خمسة عشر ألف دينار و أن الذى على الباب من الذهب ثلاثة و ثلاثون ألف دينار و قالوا أيضا: إنه لما قلع الذهب عن الباب ألبس الباب ثوبا أصفر. انتهى من الأزرقى.

و لقد أراد هارون الرشيد أن يجعل منبر النبى صلى الله عليه و سلم من الجواهر و الذهب و الفضة فمنعه الإمام مالك رحمه الله تعالى. فقد روى أبو نعيم فى حليته فى ترجمة الإمام مالك: إن هارون الرشيد استشار مالكا فى أن ينقض منبر النبى صلى الله عليه و سلم و يجعله من جواهر و ذهب و فضة، فقال له مالك: لا أرى أن تحرم الناس أثر النبى صلى الله عليه و سلم. انتهى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٠٨

من الجزء السادس بصحيفة (٥٠٥) من كتاب زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى و مسلم.

روى المسعودى و هو من أهل القرن الثالث الهجرى، فى أواخر الجزء الثانى من تاريخه عند ذكر خلافة القاهر بالله، أن القاهر بالله لما سأل محمد بن على العبدى الخراسانى الأخبارى، أن يصف الخلفاء العباسيين، وصفهم له حتى وصل إلى وصف الرشيد- فقال عنه ما يأتى:

و كان الرشيد مواظبا على الحج و الغزو، و اتخاذ المصانع و الآبار و البرك و القصور فى طريق مكة. و أظهر ذلك بها و بمنى و عرفات و مدينة النبى صلى الله عليه و سلم، فعم الناس إحسانه مع ما قرن به من عدله، ثم بنى الثغور و مدن المدن و حصن فيها الحصون، مثل طرسوس و أذنة و عمر المصيصة و مرعش و أحكم بناء الحرب، و غير ذلك من دور السبيل و المواضع للمرابطين. و اتبعه عماله و سلكوا طريقته و قفته رعيته مقتديا بعمله مستنّين بإمامته، فغطم الباطل و أظهر الحق و أنار الإسلام و برز على سائر الأمم.

ثم قال: و كان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان، و رمى بالنشاب فى البرجاس، و لعب بالأ-كرة و الطبطاب و قزب الحداق فى ذلك، فعم الناس ذلك الفعل. و كان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بنى العباس، و النرد و قدم اللعاب و أجرى عليهم الرزق، فسمى الناس أيامه لنضارتها و كثرة خيرها و خصبها أيام العروس، و كثير ممن يجاوز النعت و يتفاوت فيه الوصف. انتهى من

تاريخ المسعودي.

قال الخضرى فى محاضراته: كان الرشيد خليفة دينا محافظا على التكاليف الشرعية أتم محافظة. فأما صلاته، فكان يصلى فى كل يوم مئة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة. و كان له سمير فكه هو ابن أبى مريم المدنى، كان الرشيد لا يصبر عنه و لا يمل محادثته. سمعه مرة يقرأ فى صلاته: وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فقال ابن أبى مريم: لا أدري و الله فما تمالك الرشيد أن ضحك فى صلاته، ثم التفت إليه و هو كالمغضب فقال: يا ابن أبى مريم فى الصلاة أيضا؟ ثم قال: إياك و القرآن و الدين و لك ما شئت بعدهما.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٠٩

و أما صدقته فقد كان كل يوم يتصدق من صلب ماله بألف درهم سوى العطايا التى كانت تهطل على الناس منه و لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون بعده.

و كان الرشيد يقتفى آثار المنصور و يعمل بها إلا فى بذل المال و كان لا يضيع عنده إحسان محسن و لا يؤخر ذلك فى أول ما يجب ثوابه. و كان يحب الشعر و الشعراء و يميل إلى أهل الأدب و الفقه و يكره المرء فى الدين و يقول: هو شىء لا نتيجة له و بالحرى لا يكون فيه ثواب. و كان يحب المديح و لا سيما من شاعر فصيح و يشتريه بالثمن الغالى. و عطايه للشعراء و الأدباء تكاد تخرج عما يعقل.

انتهى منها.

قال الخضرى فى محاضراته: و لقد كانت قوة المسلمين فى عهد الرشيد ظاهرة ظهورا بيننا على الروم لما كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالى و معه عظماء القواد و كبار رجال الدولة من عرب و موال و خراسانية.

و من شجاعة هارون الرشيد و غيرته الإسلامية ما ذكره الخضرى فى محاضراته حيث قال: كتب نقفور إلى هارون الرشيد ما يأتى: من نقفور ملك الروم إلى الرشيد ملك العرب أما بعد: فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ و أقامت نفسها مكان البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثالها إليها لكن ذلك ضعف النساء و حمقهن فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها و افند نفسك بما يقع به المصادرة لك و إلا فالسيف بيننا و بينك. فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب، حتى لم يمكن أحدا أن ينظر إليه، دون أن يخاطبه. و تفرق جلساؤه خوفا من زيادة قول أو فعل يكون منهم. و استعجم رأى على الوزير من أن يشير عليه أو يستبد برأيه دونه فدعى بدواة و كتب على ظهر الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك و الجواب ما تراه دون أن تسمعه و السلام) ثم شخص من يومه و سار حتى أناخ بباب هرقله ففتح و غنم و اصطفى و أفاد و حرب و حرق و اصطلم فطلب نقفور الموادة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك.

فلما رجع الرشيد من غزوته و صار بالرقعة نقض نقفور العهد و خان الميثاق و كان البرد شديدا فيئس نقفور من رجعتة إليه و جاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥١٠

فما تهياً لأحد إخبار الرشيد بذلك إشفاقا عليه و على أنفسهم من الكره فى مثل تلك الأيام فاحتيل بشاعر يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف فقال:

نقض الذى أعطيته نقفورو عليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أتاك به الإله كبير

فلقد تباشرت الرعية إن أتى بالنقض عنه وافد و بشير

درجت يمينك أن تعجل غزوة تشفى النفوس مكانها مذكور

أعطاك جزيته و طأطأ خده حذر الصوارم و الردى محذور
فأجرته من وقعها و كأنها بأكفنا شعل الغرام تطير
و صرفت بالطول العساكر قافلا عنه و جارك آمن مسرور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت إنك مفلت هببتك أمك ما ظننت غرور
ألفاك حينك في زواجر بحره فطمت عليك من الإمام بحور
إن الإمام على اقتسارك قادر قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام و إن غفلنا غافل عما يسوس بحزمه و يدير
ملك تجرد للجهد بنفسه فعدوه أبدا به مقهور
يا من يريد رضا الإله بسعيه و الله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش إمامه و النصح من نصحائه مشكور
نصح الإمام على الأنام فريضة و لأهلها كفارة و طهور

فلما فرغ الشاعر من إنشاده قال: أو قد فعل نقفور ذلك و علم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك فكر راجعا في أشد محنة و أغلظ
كلفه حتى أناخ بفنائيه فلم يبرح حتى رضى و بلغ ما أراد فقال أبو العتاهية:

ألا نادت هرقله بالخراب من الملك الموقف بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا و يبرق بالمذكرة القضاب
و رايات يحل النصر فيها تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم و أبشر بالغنيمه و الإياب
التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥١١

و لم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك. و في سنة (١٨٩١) حصل فداء بين المسلمين و الروم فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودى
به و هذا أول فداء كان بين المسلمين و الروم فقال مروان بن أبي حفصه يمدح الرشيد:

و فكت بك الأسرى التي شيدت لها محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعياء المسلمين فكاكها و قالوا سجون المشركين قبورها
انتهى من محاضرات الخضرى.

حضارة بغداد في عهد الرشيد

قال الخضرى في محاضراته: وصلت بغداد في عهد الرشيد إلى قمة مجدها و منتهى فخارها. أما من حيث العمارة فقد فاقت كل
حاضرة عرفت لعهدا.

بنيت فيها القصور الفخمة التي أنفق على بناء بعضها مئات الألوف من الدنانير و تألق مهندسوها في إحكام قواعدها و تنظيم أمكنتها و
تشيد بنايتها، و صارت قصور الجانب الشرقى بالرصافة تناوح قصور الجانب الغربى. كان في الشرق قصور البرامكة و ما أنشأه هناك
من الأسواق و الجوامع و الحمامات، و بالجانب الغربى كانت قصور الخلافة التي كانت تبهر الناظرين اتساعا و جمالا و امتدت الأبنية
امتدادا عظيما حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين على جانبي دجلة و استجر العمران فيها لما جاءها من البناء و صار
سكانها نحو ألفى نسمة حتى ازدحمت بساكنيها و كانت متاجر البلدان القاصية تصلها برا و بحرا تجيئها من خراسان و ما وراءها و من

الهند و الصين و من الشام و الجزيرة و الطرق إذ ذاك آمنه السيل مطمئنة و كان الرشيد هو و وزراؤه حريصين على ذلك كل الحرص. انتهى منها.

و أما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبقى من خراج الأقاليم الإسلامية بعد أن تقضى جميع حاجاتها. و قد قدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربع مئة ألف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصرف منه في مرتبات الوزراء و المساعدين له و الباقي يتصرف فيه حسبما يرى، و هو شيء جسيم. و كان الرشيد أسمح خلفاء بني العباس بالمال، يعطى منه عطاء من لا يخشى فقراً للقياد و الشعراء و الكتّاب و المنتجعين. و قد جرى على سنته كبار وزراءه و شيوخ دولته و رؤساء قواده حتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم التي قد

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥١٢

يتردد الإنسان في صحتها و تلك الثروة العظيمة تتداولها الأيدي فتروج التجارة و تقضى الحاجات و تكثر المدنية و على تلك السنة زادت ثروة الناس بتلك المدينة العظمى. و اشتد بهم الترف حتى يقال: أن جعفر بن يحيى بنى قصراً أنفق على بنائه عشرين ألف ألف درهم و تعالى الناس في حاجاتهم و تأنقوا في معيشتهم حتى صارت بغداد تبهر أعين زوارها لما يرونه من بعد الشقة بين ما عندهم و ما يرون من رداؤها و بذخ أهلها و انغماسهم في الملاذ و إعطائهم أنفسهم ما تصبوا إليه من اللهو و الخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة. انتهى من محاضرات الخضرى.

نقول: لقد كان هارون الرشيد من أغفل الخلفاء العباسيين و كان ملكه واسعاً و خزائنه كثيرة عامرة، و كان يقول للسحابة إذا رآها: أمطرى حيث شئت فخراج الأرض التي تمطرى فيها يجيء إلى - رحمه الله تعالى.

و أما العلم فإن بغداد صارت قبله لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية يرحلون إليها ليتموا ما بدؤوا فيه من العلوم و الفنون فهى المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية و العربية على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدّثين و القراء و الفقهاء و حفاظ اللغة و آداب العرب و النحويين و كلهم قائمون بالدرس و الإفادة لتلاميذهم فى المساجد الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لتلقى هذه العلوم و قلما كان يتم الإنسان وصف عالم أو فقيه أو محدّث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد و أخذ عن علمائها و جميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشاً رغداً مما كان يفيضه عليهم الرشيد و البرامكة و من دونهم من الخير الواسع و البر العميم و لم تكن بغداد بالمقصرة فى علوم الدنيا كالتب و الحكمة و غيرها من سائر الصناعات فقد حشد إليها الأطباء و المهندسون و سائر الصناعات من الأقاليم المختلفة فاستفادوا من علوم من سبقهم من الأمم فى المدينة كالفرس و أهل الهند و أهل الروم و الصائبة و غيرهم و زادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية و سرجى الكلام على النهضة العلمية فى بغداد إلى زمن المأمون ... انتهى من المحاضرات.

و قال القطبى فى تاريخه: يروى عن أبى معاوية الضرير قال: أكلت مع الرشيد يوماً ثم صب على يدي من لا أعرفه، ثم قال لى الرشيد: أتدرى من يصب عليك؟ قلت: لا، قال: أنا إجلالا للعلم. اه.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥١٣

حج الرشيد و حبه للوعظ

كان الرشيد رحمه الله تعالى كثير الحج و الغزو، حج بالناس تسع حجج متفرقة. قال الغازى فى تاريخه، نقلا عن السنجارى فى مناقح الكرم: ذكر ابن الأثير أنه حج فى سنة ثلاث و سبعين و مائة و أحرم بالحج من بغداد. و فى سنة تسع و سبعين و مائة مشى على رجله من مكة إلى عرفات، و شهد المشاعر كلها ماشياً. و قيل: كان ذلك فى حجته التي كانت سنة سبع و سبعين و مائة، قال فى درر الفرائد: و كان يطوف بين المغرب و العشاء ثلاثة عشر أسبوعاً لا يطيق ذلك أحد ممن كان معه. انتهى من الغازى.

و قال الغازى أيضاً فى تاريخه نقلا عن ابن فهد: و فى بعض حججات هارون الرشيد دخل الكعبة فرآه بعض الحجة واقفاً على أصابعه و

هو يقول: يا من يملكك حوائج السائلين و يعلم ضمير الصامتين، إن لكل مسلم منك ردا و جوابا حاضرا، و لكل صامت منك علم محيط ناطق بمواعيدك الصادقة و أياديك الفاضلة و رحمتك الواسعة، صلى على محمد و على آل محمد و اغفر لنا ذنوبنا و كفر عنا سيئاتنا، يا من لا تضره الذنوب و لا تخفى عليه العيوب و لا تنقصه مغفرة الخطايا، يا من كبس الأرض على الماء، و سد الهواء بالسماء و اختار لنفسه أحسن الأسماء، صلّ على محمد و على آل محمد و خر لى، من خشعت له الأصوات بأنواع اللغات يسألونه الحاجات، إن من حاجتى إليك أن تغفر لى ذنوبى إذا توفيتنى و صرت فى لحدى و تفرقت عنى أهلى و ولدى، اللهم لك الحمد حمدا يفضل كل حمد كفضلك على جميع خلقك، اللهم صل على محمد و على آل محمد صلاة تكون لنا ذخرا و أجرا عند الجزاء الأوفى، اللهم أحيينا سعداء و توفنا شهداء، و جعلنا سعداء مرزوقين، و لا تجعلنا أشقياء محرومين. انتهى من تاريخ الغازى.

قال الخضرى فى محاضراته: و أما حجه فإنه كان لا يتخلف عنه إلا إذا كان مشغولا بالغزو فهو فى كل عام بين غاز و حاج و قد أقام للناس حجهم تسع مرات فى سنى حكمه و هى السنوات (١٧٠ و ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٥ و ١٧٧ و ١٨٠ و ١٨١ و ١٨٦ و ١٨٨) و كان إذا حجّ معه مئة من الفقهاء و أبناءهم و إذا لم يحجّ أحجّ عنه ثلاثمائة رجل بالنفقة السابعة و الكسوة الباهرة.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥١٤

و كان يسمع و عظ الواعظين و هو عند ذلك رقيق القلب سريع الدمعة، دخل عليه ابن السماك الواعظ فقال له الرشيد: عظى. فقال: يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لا شريك له و اعلم أنك غدا بين يدى الله ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما جنّة أو نار. فبكى هارون حتى اخضلت لحيته. فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك، فقال: سبحان الله و هل يتخالج أحدا شك فى أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنّة إن شاء الله لقيامه بحق الله و عدله فى عباده و فضله. فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله له و لم يلتفت إليه، و أقبل على الرشيد فقال:

يا أمير المؤمنين إن هذا- يعنى الفضل بن الربيع- ليس و الله معك و لا عندك فى ذلك اليوم فاتق الله و انظر لنفسك. فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون و أفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف. و دخل عليه مرة أخرى فينما هو عنده إذ استسقى ماء فأتى بقله من ماء، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها، قال له ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه و سلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكى. قال: اشرب هناك الله. فلما شربها، قال له: أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه و سلم لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها؟ قال: بجميع ملكى. قال ابن السماك: إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه. فبكى هارون. و لا يزال الملوك بخير ما سمعوا الوعظ و تأثروا به و لا تزال الأمة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك و لا يخشى سطوتهم. انتهى من المحاضرات.

و روى: أنه أخلى للرشيد فى بعض حجاته المسعى ليسعى فيه، فتعلق ببغته و هو يسعى، عبد الله بن عمر بن عبد العزيز. فوقف له هارون و أقبل عليه. فصاح به: يا هارون فقال: ليك يا عم، قال: ارق إلى الصفا. فلما رقى قال: ارم بطرفك إلى البيت قال: قد فعلت، قال: كم هى؟ يعنى الحجيج، قال: و من يحصيه إلا الله تعالى. قال: فاعلم أن كل واحد من هذه الخلائق يحاسب عن خاصته نفسه و يسأل عنها وحدها يوم القيامة، و أما أنت وحدك فتسأل عنهم أجمعين فانظر كيف يكون جوابك حين تسأل يوم القيامة، فبكى هارون بكاء شديدا، و خدمته يعطونه منديلا بعد منديل و هو يبيلها بدموعه ثم قال له: و أخرى أقولها لك: إن الرجل إذا أساء التصرف فى ماله حجر عليه، فكيف أنت تسرف فى أموال المسلمين و تسيء التصرف فيها و أنت محاسب عليها بين يدى الله تعالى،

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥١٥

فازداد بكاه و أراد جنده أن يطردوه فكفهم عنه إلى أن فرغ من نصائحه و قام عنه بنفسه، و هارون يبكى و يتضرع و يستغفر. انتهى من تاريخ القطبى.

و جاء فيه أيضا: أن هارون الرشيد رأى النبى صلى الله عليه و سلم فى النوم فقال: إن هذا الأمر قد صار إليك فى هذا الشهر، فاغزو

حج و وسع على أهل الحرمين. ففعل هذا كله في عام واحد أول خلافته. ذكر ذلك الحافظ السيوطي وغيره. وجاء فيه أيضا: أن في سنة سبعين و مائة حج هارون الرشيد بالناس و فرق مالا كثيرا، و كان حجه ماشيا على اللبود، تفرش له من منزل إلى منزل، و قيل:

إن الحججة التي حج فيها ماشيا هي حجته في سنة سبع و سبعين و مائة. انتهى من تاريخ القطبي.

روى ابن عساكر عن إبراهيم المهدي: قال: كنت يوما عند الرشيد فدعا طباخه فقال: أعندك في الطعام لحم جزور؟ قال: نعم ألوان منه، فقال: أحضره مع الطعام. فلما وضع بين يديه أخذ لقمته منه فوضعها في فيه، فضحك جعفر البرمكي، فترك الرشيد مضغ اللقمة و أقبل عليه. فقال: مم تضحك؟ قال: لا- شيء يا أمير المؤمنين. ذكرت كلاما بيني و بين جارتى البارحة. فقال له: بحقى عليك لما أخبرتنى به. فقال: حتى تأكل هذه اللقمة. فألقاها من فيه و قال: و الله لتخبرني، فقال: يا أمير المؤمنين بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور، يقول عليك؟ قال: بأربعة دراهم، قال: لا- و الله يا أمير المؤمنين بل بأربعة ألف درهم، قال: كيف ذلك؟ قال: إنك طلبت من طباحك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده. فقلت: لا يخلون المطبخ من لحم جزور، فنحن ننحر كل يوم جزورا لأجل مطبخ أمير المؤمنين، لأننا لا نشترى من السوق لحم جزور.

فصرف من لحم الجزور في ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمئة ألف درهم، و لم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا- هذا اليوم قال جعفر: فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة فهي على أمير المؤمنين بأربعمئة ألف.

قال: فبكى الرشيد بكاء شديدا و أمر برفع السمات بين يديه و أقبل على نفسه يوبخها و يقول هلكت و الله يا هارون و لم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر فخرج فصلى بالناس ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر و قد أمر بألفي ألف تصرف إلى فقراء الحرمين من كل حرم ألف ألف صدقة و أمر بألفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي و الشرقي و بألف ألف يتصدق بها على

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥١٦

فقراء الكوفة و البصرة ثم خرج إلى صلاة العصر، ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب، ثم رجع فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال: ما شأنك يا أمير المؤمنين باكيا في هذا اليوم؟ فذكر أمره و ما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته، و إنما ناله منها لقمته. فقال أبو يوسف لجعفر: هل كان ما تذبحونه من الجزور يفسد أو يأكله الناس؟ قال: بل يأكله الناس. فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية و بما يسره الله عليك من الصدقة و بما رزقك الله من خشيته و خوفه في هذا اليوم و قد قال تعالى: وَ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ فَمُرَّه الرِّشِيدُ بِأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ ثُمَّ اسْتَدْعَى بِطَعَامٍ، فَأَكَلَ مِنْهُ فَكَانَ غَدَاؤَهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ عِشَاءً. انتهى من تاريخ ابن كثير.

و جاء في تاريخ ابن كثير أيضا: وعظ أبو النصر الجهني المصاب هارون الرشيد مرة بكلام حسن فقال: اعلم أن الله سائلك عن أمة نبيه فأعد لذلك جوابا، و قد قال عمر بن الخطاب: لو ماتت سخلة بالعراق ضياعا لخشيت أن يسألني الله عنها. فقال الرشيد: إنني لست كعمر و إن دهرى ليس كدهره، فقال: ما هذا بمغن عنك شيئا، فأمر له بثلاثمئة دينار، فقال: أنا رجل من أهل الصفة، فمر بها فلتقسم عليهم، أنا واحد منهم انتهى منه.

حكاية

يحكى أن القاضي يحيى بن أكتم قال: دخلت يوما على هارون الرشيد و هو مطرق مفكر فقال: أتعرف قائل هذا البيت يا يحيى:

الخير أبقى و إن طال الزمان بهو الشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقال: يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت لقصة عجيبة يرويها الرواة، فقال:

أخبرني عن هذه القصة قال: يا أمير المؤمنين يزعمون أن أعرابيا قال: كنت في بعض السنين قاصدا مكة في قافلة عظيمة، فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر، سمعت ضجة عظيمة في القافلة ألحقت أولها بآخرها، فسألت عن سبب الضجة فأجبنى رجل من القوم: تقدم تر ما بالناس. فتقدمت إلى أول القافلة فإذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجدع، وهو يخور كما يخور الثور، ويرغو كرها البعير فهالني أمره و بقيت لا أهدى إلى ما أصنع به. فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانية فعلمت أنه لسبب و لم يجسر أحد من القوم أن يقربه.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥١٧

فقلت: أفدى هذا العالم بنفسى و أتقرب إلى الله بخلص هذه القافلة من هذا و أخذت قربة من الماء فتقلدتها و سللت سيفى و تقدمت فلما رآنى قربت منه سكن و بقيت متوقعا منه و ثبه يتلبنى فيه فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة فى فيه و صببت الماء كما يصب فى الإناء فلما فرغت القربة تسبب فى الرمل و مضى فعجبت من تعرضه لنا و انصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه و مضينا لقصدنا.

ثم عدنا فى طريقنا ذلك و حططنا فى منزلتنا تلك فى ليله مظلمة مدلهمة فأخذت شيئا من الماء و عدلت إلى ناحية من الطريق فقضيت حاجتى، ثم جلست بعيدا عن القوم أذكر الله تعالى. فأخذتنى عينى فنمت مكانى. فلما استيقظت لم أجد للقافلة حسا و قد ارتحلت و مكثت منفردا لم أر أحدا و لم أهد إلى ما أفعله و أخذتنى حيرة و جعلت أضطرب و إذا بهاتف أسمع صوته و لا أرى شخصه يقول:

يا أيها الرجل المضل مركبه ما عنده من ذى رشاد يصحبه

دونك هذا البكر منا تركبه و بكرك الميمون حقا تجنبه

حتى إذا ما الليل زال غيبه عند الصباح فى الفلا تسييه

فنظرت فإذا أنا ببكر قائم عندى، و بكرى إلى جانبى، فأنخته و ركبته و جنبت بكرى، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة و انفجر الفجر و وقف البكر، فعلمت أنه قد حان نزولى، فتحولت إلى بكرى و قلت:

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب و من هموم تضل المدلج الهادى

ألا تخبرنى بالله خالقنا من ذا الذى جاء بالمعروف فى الوادى

و ارجع حميدا فقد أوليتنا فننا بوركك من ذى سنام رائح غادى

فالتفت البكر إلى و هو يقول:

أنا الشجاع الذى ألفتينى رمضا و الله يكشف ضر الحائر الصادى

فجدت بالماء لما ضمن حامله تكرا منك لم تسمع بأنكادى

فالخير أبقى و إن طال الزمان به و الشر أخبث ما أوعيت من زاد

هذا جزاؤك منى لا أضن به فاذهب حميدا رعاك الخالق الهادى

فعجب الرشيد و أمر بالقصة و الأبيات فكتبت و قال: لا يضيع جميلا أينما وضع.

انتهى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥١٨

عهد الرشيد بالولاية لابنه المأمون

جاء فى كتاب «الإمامة و السياسة» ما يأتى:

لما اشتدت العلة وتمادى الوجع بهارون الرشيد رحمه الله تعالى ذكر البيعة لابنه عبد الله المأمون و ذلك سنة أربع و تسعين و مائة، فلما سمعت بذلك زبيدة و كان ابنها منه محمد الأمين كرهت منه ذلك و أكرهها حتى ظهر على وجهها أثر الغم، فدخلت على الرشيد يوما تعاتبه في ذلك أشد المعاتبه. فقال لها الرشيد: ويحك إنما هي أمه محمد و رعايه من استرعاني الله تعالى طوقا بعنقي، و قد عرفت ما بين ابني و ابنك، ليس ابنك يا زبيدة أهلا للخلافه و لا يصلح للرعايه. قالت: ابني و الله خير من ابنك، و أصلح لما تريد، ليس بكبير سفيه، و لا صغير فنيه، و أسخى من ابنك نفسا، و أشجع قلبا. فقال هارون: ويحك! إن ابنك قد زينه في عينك ما يزين الولد في عين الأبوين، فاتقى الله، فوالله إن ابنك لأحب إليّ، إلا أن الخلافه لا تصلح إلا لمن كان لها أهلا، و لها مستحقا، و نحن مسؤولون عن هذا الخلق، و مأخوذون بهذا الأنام، فما أغنانا أن نلقى الله بوزرهم، و نقلب إليه يائهم، فاقعدى حتى أعرض عليك ما بين ابني و ابنك، فقعدت معه على الفراش.

فدعا ابنه عبد الله المأمون، فلما صار بباب المجلس سلم على أبيه بالخلافه، فأذن له بالجلوس فجلس، و أمر له فتكلم، فحمد الله على ما من به عليه من رؤيه أبيه، و يرغب إليه في تعجيل الفرج مما به، ثم استأذن في الدنو من أبيه، فدنا منه، و جعل يلثم أسافل قدميه، و يقبل باطن راحتيه، ثم انثنى ساعيا إلى زبيدة، فأقبل على تقبيل رأسها، و مواضع يديها، ثم انحنى إلى قدميها ثم رجع إلى مجلسه. فقال الرشيد: يا بني أريد أن أعهد إليك عهد الإمامه، و أقعدك مقعد الخلافه، فإني قد رأيتك لها أهلا، و بها حقيقا، فاستعبر عبد الله المأمون باكيا، و صاح منتحبا، يسأل الله العافيه من ذلك، و يرغب إليه أن لا يرى فقد أبيه. فقال له يا بني: إني أراني لما بي و أنت أحق، و سلم الأمر لله، و ارض به، و أسأله العون عليه، فلا بد من عهد يكون في يومى هذا. فقال عبد الله المأمون: يا أبتاه، أخى أحق منى و ابن سيدتى، و لا أخال إلا أنه أقوى على هذا الأمر منى، ثم أذن له فقام خارجا، ثم دعا هارون بابنه محمد، فأقبل يجرد ذيله، و يتبختر مشيته، فمشى داخلا بنعليه قد نسي السلام، و ذهل عن الكلام، نخوة و تجبرا، و تعظيما و إعجابا، فمشى حتى

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥١٩

صار مستويا مع أبيه على الفراش. فقال هارون: و ما تقول أى بنى، فإني أريد أن أعهد إليك؟ فقال: يا أمير المؤمنين و من أحق بذلك منى، و أنا أسن ولدك، و ابن قره عينك. فقال هارون: اخرج يا بنى، ثم قال لزبيدة: كيف رأيت ما بين ابني و ابنك؟ فقالت: ابنك أحق بما تريد، فكتب عهد عبد الله المأمون. ثم محمد الأمين بعده فلما كان سنة خمس و تسعين و مائة توفي الرشيد رحمه الله. انتهت منه.

حكاية هارون الرشيد مع الأعرابي

جاء فى كتاب الإمامة و السياسة ما يأتى:

قال: و ذكروا أن أعرابيا قدم على هارون الرشيد مستجديا فأراد الدخول عليه فلم يمكنه ذلك. فلما رأى أنه لم يؤذن له، أتى عبد الملك بن الفضل الحاجب، فقال له: توصل كتابى هذا إلى أمير المؤمنين. و كان الرشيد قد عهد إلى حاجبه أن لا يجيب عنه كتاب أحد قرب أو بعد، فأعطاه الأعرابى كتابا فيه أربعة أسطر، السطر الأول فيه: الضرورة و الأمل قادانى إليك. و الثانى: العدم يمنع من الصبر.

و الثالث: الانقلاب عنك بلا فائدة شماتة الأعداء. و الرابع: فإما «نعم» مثمرة و إما «لا» مريحة. فلما وصل الكتاب إلى الرشيد قال: هذا رجل قد ساقته الحاجة، و وصلت إليه الفاقة، فليدخل. فدخل، فقال له الرشيد: ارفع حاجتك يا أعرابى. فقال الأعرابى: إن مع الحاجة حويجات. فقال له الرشيد: ارفع حاجتك و حويجاتك تقضى كلها. فقال الأعرابى: تأمر لى يا أمير المؤمنين بكلب أصيد به فضحك الرشيد، ثم قال له: قد أمرنا لك بكلب تصيد به. فقال: تأمر لى يا أمير المؤمنين بدابة أركبها. فقال الرشيد: قد أمرنا لك بدابة تركبها. فقال: تأمر لى يا أمير المؤمنين بغلام يخدم الدابة. فقال له الرشيد: قد أمرنا لك بغلام. قال الأعرابى: تأمر لى يا أمير المؤمنين بجارية

تطبخ لنا الصيد، و تطعمنا منه. فقال الرشيد: قد أمرنا لك بجاريتين جارية تؤنسك، و جارية تخدمك. فقال الأعرابي: لا بد لهؤلاء من دار يسكنونها. فقال له الرشيد: قد أمرنا لك بدار. فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين يصيرون فيها عالء على الناس، و على كلالء، لا بد لهم من ضيعة تقيمهم. فقال له الرشيد: قد اقتطعتك مائة جريب عامرة، و مائة جريب غامرة. فقال الأعرابي: و ما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال الرشيد: غير

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٢٠

معمورة تأمر بعمارتها. فقال الأعرابي: أنا أقطعتك ألف ألف جريب من أرض أخوالي بنى أسد بالحجاز، تأمر بعمارتها، فضحك الرشيد و قال: قد أقطعتكها عامرة كلها. ثم قال الرشيد: تمت حويجاتك كلها يا أعرابي. فقال: نعم، و بقيت حاجتي العظمى فقال له الرشيد: ارفعها تقضى. فقال: أقبل رأسك يا أمير المؤمنين. فقال له الرشيد: هذا لا سبيل إليه. فقال الأعرابي: أتمنعني حقا هو لى، و تدفعني عما بذلت لى يا أمير المؤمنين. فقال الرشيد: هذا الأمر لا يكون يا أعرابي، و لا سبيل إلى مثل هذا. فقال الأعرابي: لا بد من أن أصل إلى حقى، إلا أن أغضبه. فقال الرشيد: يا أعرابي أشتري منك هذا الحق الذى و جب لك.

فقال له الأعرابي: هذا الحق مما لا يشتري، و هل فى الأرض من المال ما يكون ثمنا لهذا أو عوضا منه؟ لا و الذى نفسى بيده ما فى الدنيا صفراء و لا بيضاء يشتري بها هذا. فقال الرشيد: تبعه ببعض ما تراه من الثمن، فإنه لا يكون و لا يتوصل إليه. فقال الأعرابي: فإذا قد آبيت فأعطني مما أعطاك الله، فأمر له بمائة ألف دينار، فأتى بها إليه. فقال الأعرابي: ما هذه؟ فقيل له: هذه مائة ألف دينار تأخذها.

فقال الأعرابي: هى للغرماء على، و هم أولى بها منى. فضحك الرشيد، ثم أمر له بمائة ألف أخرى. فقال: ما هذه؟ فقيل له: مائة ألف ثانية، و الأولى للغرماء، و هذه لك. فقال الأعرابي: هذه لضعفاء أهلى يصلهم بها أمير المؤمنين فيما أوسع على نفسى؟ فأمر له الرشيد بمائة ألف ثالثة. فقيل له: هذا مائة ألف ثالثة، و سع بها على نفسك فى معيشتك، أرضيت يا أعرابي؟ فقال: نعم رضيت، فرضى الله عنك يا أمير المؤمنين، و ابنى فضالة يقرأ السلام عليك، و يسألك مائة ألف يستعين بها فى نكاحه، و يتزين بها فى دنياه، و إنه قد جمع القرآن و عرف شرائعه و أحكامه، و علم ناسخه و منسوخه، و تفنن فى ضروب من العلم و أحكم أنواع الأدب، و قد جمع الدوايق و الكتب و تبحر فى فهم الحديث و الأثر، قد أخذ من كل علم أهذبه، و من كل ضرب أمحضه إلى لب اللبيب، و عقل الرصين، و علم ثابت، و نظر عجيب، و فضل و دين، يصوم النهار كله و يقوم الليل أكثره، و قد صارخ كثير من الأهل و العيال و عدد من البنين و الصبيان. فقال الرشيد: أو ليس تذكر يا أعرابي أنه يريد الاستعانة على النكاح، و التوسع فى المعاش، ثم أراك تصفه بكثرة العيال و عدد البنين و الصبيان، فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين إنه ذو ثلاث نسوة من حرائر النساء، و تسعة من سرائر الإماء، و هو ذو خمسة من الولد من كل مرة و ذو سبع بنات من كل أمء، و يبغى نكاح الرابعة الحرة استتماما لما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٢١

أمر الله به فى التنزيل المحكم و أباح فى كتاب الناطق بكلام الصادق. فقال الرشيد:

يا أعرابي قد سألت كثيرا، فهلا سألت مائة ألف درهم فيعطها. قال الأعرابي:

فأعطه يا أمير المؤمنين تسعين ألف دينار أو حططها عنك عشرة آلاف دينار، فقال الرشيد: و الله قد سألت كثيرا و حططت قليلا. قال الأعرابي: إنما سألتك يا أمير المؤمنين على قدرك، و حططت على قدرى، فاختر ما شئت. فقال الرشيد:

يا أعرابي إنما تريد مغالبتى لا غلبتى اليوم. فأمر له بمائة ألف دينار ذهابا. فقال له أمير المؤمنين: أرضيت يا أعرابي. فقال: ما بقى لى شىء يا أمير المؤمنين إلا الحملان و الكسوة و طوائف الكوفة و تحف البصرة و جوائز الضيافة و حقها. فقال الرشيد: و ما يصلح لك من الحملان يا أعرابي، فقال: أقصد ما يكون دابة للجمال و أخرى للحملان، و ثلاثة للاسترحال، و لا بنى مثل ذلك، و من الكسوة ما لا بد منه من ثياب المهنة و الاستشعار و ما لا غنى عنه من الوطاء و الدثار، مع رائع الثياب التى تكون للجمعة و الجماعات و الأعياد، و

لا بنى و بنى ابني مثل ذلك.

فدعا الرشيد بجعفر بن يحيى وقال: أرحنى من هذا و أمر له بما سأل من الحملان و ما أراد من ثياب المهنة و الجمال، و أغدق عليه من التحف و الطرائف ما ترضيه بها، و أخرجه عنى. فخرج جعفر فأمر له بما سأل و أعطاه ما أراد. ثم انصرف الأعرابي راجعا إلى الحجاز بأموال عظيمة لا يوصف أكثرها و لا يعرف أقلها، و كل هذا يقل عندما عرف من جود الرشيد و سخائه و جزيل عطائه.

وفاء هارون الرشيد

جاء فى محاضرات الخضرى عن وفاته ما نصه: خرج الرشيد من بغداد فى خامس شعبان سنة (١٩٢) قاصدا خراسان عندما بلغه استفحال أمر رافع بن الليث بما وراء النهر و استخلف ابنه محمد الأمين بمدينة السلام و خرج معه ابنه عبد الله المأمون و لم يزل الرشيد فى مسيره حتى وافى مدينة طوس فى صفر سنة (١٩٣) ثلاث و تسعين و مائة، و هناك اشتدت به علته و لحق بربه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة (١٩٣) ثلاث و تسعين و مائة، و صلى عليه ابنه صالح لأن المأمون كان قد سبقه إلى مرو حاضرة خراسان و دفن الرشيد بهذه المدينة و كان للرشيد اثنا عشر ولدا ذكرا و أربع بنات فذكور أولاده: محمد الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر، و على من زوجته أمه العزيز أم ولد موسى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٢٢

الهادى، و عبد الله المأمون و القاسم المؤتمن و محمد المعتصم و صالح و محمد أبو عيسى و محمد أبو يعقوب و محمد أبو العباس و محمد أبو سليمان و محمد أبو على و محمد أبو أحمد و هم لأمهات أولاد شتى. و تزوج الرشيد بست زوجات مات عن أربع منهن و هن زبيدة و أم محمد بنت صالح المسكين و العباسة و بنت سليمان بن المنصور و الجرشيبة بنت عبد الله العثمانية. انتهى من محاضرات الخضرى.

و جاء فى تاريخ القطبى: حكى عن الرشيد أنه كان رأى مناما أنه يموت بطوس، فلما وصل إلى طوس، و قد غلب عليه الوعك، عرف أنه ميت، فبكى و اختار لنفسه مدفنا و قال: احفروا لى قبرا فى هذا المحل فحفروا له، فقال: قربونى إلى شفيره، فحملوه فى قبه إلى أن نظر إلى القبر، فسالت عبرته و زادت غيرته.

و قال: يا ابن آدم إلى هذا تصير و لا بد من هذا المصير، و أمر أن ينزل إلى لحده من يقرأ ختمه فيه ففعلوا ذلك. فمات و صلى عليه ابنه صالح و أُلحد فى القبر بطوس، لثلاث مضيّن من جمادى الآخرة سنة إحدى و تسعين و مائة. و تقدم أن مولده بالرى سنة ثمان و أربعين و مائة و كانت مدة ملكه ثلاثا و عشرين سنة و شهرين و نصف رحمه الله تعالى. انتهى من تاريخ القطبى.

ترجمة السلطان سليمان خان

نذكر ترجمته بمناسبة وضعه للمسجد الحرام منبر الرخام الموجود إلى اليوم، هو السلطان سليمان بن السلطان سليم خان، ولى السلطنة بعد وفاة والده فى سنة (٩٢٤) ست و عشرين و تسعمائة، و مولده سنة تسعمائة، و استمر فى السلطنة تسعا و أربعين سنة فكان عمره أربعين و سبعين سنة و شهرين.

كان غازيا افتتح كثيرا من البلدان. كان أدبيا شاعرا له ديوان بالتركى و آخر بالفارسى. كان مستقيم الحال صادق القول سديد الرأى لا يعرف المكر و النفاق و لا يحبهما.

أما أعماله الخيرية و عماراته للمساجد و المدارس و الرباطات «أى التكايا» و إجراء العيون و بناء القلاع فكثيرة لسنا فى صدد حصرها. فمن ضمن أعماله فى مكة شرفها الله تعالى أنه أرسل منبرا من الرخام الأبيض للمسجد الحرام سنة (٩٦٤) و هو منبر جميل الشكل بديع الصنع لا يزال قائما بجوار مقام إبراهيم إلى يومنا هذا. و قد سبق الكلام على هذا المنبر فى محله.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٢٣

وقد عمل أيضا ميزابا لسطح الكعبة محلى بالفضة مطليا بالذهب سنة (٩٥٩) وقد وقف على كسوة الكعبة المشرفة جملة قرى بمصر. و تقدم الكلام على هذه الوقفية.

ومن ضمنها صدقات عظيمة كانت ترسل سنويا لأهل الحرمين، ووقف جملة قرى بمصر اشتراها من بيت مال المسلمين و جعل غلتها و ريعها لأهل الحرمين فكانت ترسل في كل عام ثلاث آلاف أردب من الحنطة لأهل مكة المكرمة و ألفا أردب لأهل المدينة المنورة، و منها صدقات الجوالي و هو جمع جاليه و معناه: ما يؤخذ من أهل الذمة في مقابلة استمرارهم في بلاد الإسلام تحت الذمة و عدم جلائهم عنها فكان يخرجها إلى العلماء و الفضلاء من أهل الحرمين الشريفين و من أهل مصر و من المتقاعدين و غيرهم.

و من ضمن أعماله العظيمة بمكة: إصلاح و تعمير عين حنين و عين عرفات فإنه رحمه الله أمر بتعمير هذه العين و كانت قد خربت و انقطعت، و إيصالها إلى مكة المشرفة. و عين لهذا العمل الجليل ناظرا يتولى شؤونها اسمه «مصلح الدين مصطفى» من المقيمين و المجاورين بمكة. فقام بهذا العمل خير القيام حتى وصل الماء إلى مكة. ثم إنه اشترى عبيدا سودا و جعل لهم جرايات و علوفات من خزائن السلطنة، برسم خدمة العين، من إخراج أتربة العيون و تنظيف القنوات فكانت خدمة العين خاصة بهؤلاء العبيد و بأولادهم من بعدهم طبقه بعد طبقه. و كل ذلك تم سنة (٩٣١) إحدى و ثلاثين و تسعمائة.

ثم إنه وصل الخبر إلى السلطان سليمان أن الماء بمكة قليل و أنه من المستحسن إصلاح و تعمير (عين زبيدة) لأنها أقوى العيون غير أن قنواتها المبنية و دبولها المطوية مختفية تحت الأرض، تحتاج أولا إلى الكشف عنها و الاهتداء إلى أماكنها ثم إصلاحها و تعميرها. فلما سمعت بهذا الخبر «خاتم سلطان» ابنه السلطان سليمان خان المذكور طلبت من والدها أن يأذن لها بالقيام بتعمير و إصلاح «عين زبيدة» على حسابها الخاص فأذن لها في ذلك، فعينت للقيام بهذا العمل الأمير الكبير إبراهيم بن تغرى بردى المهمندار ثم الدفتردار بمصر. فسافر الأمير إبراهيم لخدمة هذا المشروع الجليل، فوصل إلى جدة في أواخر ذي القعدة سنة (٩٦٩) و قد أعطته السلطنة المذكورة أول دفعة للمصروفات خمسين ألف دينار ذهبا. ثم لا يزال يطلب

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٢٤

المصاريف اللازمة من الأبواب السلطانية حتى زاد المصروف على خمسمائة ألف دينار ذهبا. و قد تقدم الكلام على ذلك بالتفصيل. و من ضمن أعمال السلطان سليمان خان بناء أربع مدارس، للمذاهب الأربعة، يدرّس فيها علماء مكة الفقه و علوم الشريعة و العربية. فعين السلطان لهذا الأمر الأمير قاسم أمير جدة. فقام ببناء كل ذلك حول المسجد الحرام، و غير ذلك من البنائات اللازمة للمرافق العامة باسم السلطان سليمان خان. و عين السلطان سليمان خان وظائف للمدرسين و الطلبة من أوقافه بالشام. و عين لكل مدرسة خمسين عثمانية في كل يوم، و عين للمعيد أربع عثمانيات في كل يوم، و لكل مدرّس خمسة عشر طالبا لكل طالب عثمانيتين، و للفراش و للبوّاب نصف ذلك.

يجهزها في كل عام ناظر الأوقاف السلطانية بالشام إلى مكة المكرمة.

إلى غير ذلك من الأعمال السلطانية، فمن أراد استيفاء البحث و التفصيل فليراجع كتب التاريخ و كتاب تاريخ القطبي فإننا كتبنا هذه النبذة من هذا الكتاب.

حكاية سليمان بن عبد الملك مع أبي حازم

جاء في كتاب الإمامة و السياسة ما نصه:

قال لما حج سليمان «أى فى سنة ثمان و تسعين» و دخل المدينة المنورة زائرا و معه ابن شهاب الزهري و رجاء ابن حيوة و أقام بها ثلاث أيام، فقال: أما ههنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم؟ فقيل له: بلى ههنا رجل يقال له أبو حازم

فبعث إليه، فجاءه و هو أقور أعرج، فدخل عليه، فوقف منتظرا للإذن.

فلما طال عليه الإذن، وضع عصيته ثم جلس. فلما نظر إليه سليمان، ازدرتة عينه. فقال له: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء الذى ظهر منك، و أنت توصف برؤية أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم، مع فضل و دين تذكر به؟ فقال أبو حازم: و أى جفاء رأيت منى يا أمير المؤمنين؟ فقال سليمان: إنه أتانى وجوه أهل المدينة و علماؤها و خيارها، و أنت معدود فيهم و لم تأتنى. فقال أبو حازم: أعينك بالله أن تقول ما لم يكن ما جرى بينى و بينك معرفة آتيك عليها. قال سليمان: صدق الشيخ، فقال: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال أبو حازم: لأنكم أخربتم آخرتكم، و عمرتم دنياكم فأنتم تكهون النقلة من العمران إلى الخراب. قال سليمان:

صدقت يا أبا حازم. فكيف القدوم على الآخرة؟ قال: نعم، أما المحسن فإنه يقدم

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٢٥

على الآخرة كالعائب يقدم على أهله من سفر بعيد. و أما قدوم المسىء فكالعبد الآبق، يؤخذ فيشد كتفه فيؤتى به إلى سيد فظ غليظ، فإن شاء عفا و إن شاء عذب. فبكى سليمان بكاء شديدا، و بكى من حوله .. ثم قال: ليت شعرى ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال: أعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله. قال سليمان: يا أبا حازم، و أين أصيب تلك المعرفة فى كتاب الله؟ قال عند قوله تعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ* وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ. قال سليمان: يا أبا حازم، فأين رحمه الله؟ قال: رحمه الله قريب من المحسنين. قال سليمان: يا أبا حازم: من أعقل الناس؟ قال أبو حازم: أعقل الناس من تعلم العلم و الحكمة و علمها الناس. قال سليمان: فمن أحمق الناس؟ فقال: من حطّ فى هوى رجل و هو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره. قال سليمان: فما أسمع الدعاء؟

قال أبو حازم: دعاء المخبتين الخائفين. فقال سليمان: فما أركى الصدقة عند الله؟ قال: جهد المقل. قال: فما تقول فيما ابتلينا به؟ قال: أعفنا عن هذا و عن الكلام فيه أصلحك الله قال سليمان: نصيحة تلقيها. فقال: ما أقول فى سلطان استولى عنوة بلا- مشورة من المؤمنين، و لا اجتماع من المسلمين فسفكت فيه الدماء الحرام، و قطعت به الأرحام، و عطلت به الحدود و نكست به العهود، و كل ذلك على تنفيذ الطينة و الجمع لمتاع الدنيا المشينه، ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها، فيا ليت شعرى ما تقولون؟ و ماذا يقال لكم؟ فقال بعض جلسائه: بئس ما قلت يا أقور، أمير المؤمنين يستقبل بهذا؟ فقال أبو حازم: اسكت يا كاذب، فإنما أهلك فرعون هامان، و هامان فرعون، إن الله قد أخذ على العلماء لبيئته للناس و لا- يكتمنونه، أى لا يبنذونه وراء ظهورهم. قال سليمان: يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح ما فسدنا؟ فقال: المأخذ فى ذلك قريب- يسير يا أمير المؤمنين، فاستوى سليمان جالسا من اتكائه. فقال: كيف ذلك؟ فقال: تأخذ المال من حله، و تضعه و أهله و تكف الأكلف عما نهيت، و تمضيها فيما أمرت به. قال سليمان:

و من يطيق ذلك؟ قال أبو حازم: من هرب من النار إلى الجنة، و نبذ سوء العادة، إلى خير العباد. فقال سليمان: اصحبنا يا أبا حازم و توجه معنا، تصب منا و نصب منك. قال أبو حازم: أعوذ بالله من ذلك. قال سليمان: و لم يا أبا حازم؟ قال: أخاف أن أركن إلى الذين ظلموا، فيذيقنى الله ضعف الحياة، و ضعف الممات. و قال سليمان: فتزورنا؟ قال أبو حازم: إنا عهدنا الملوك يأتون العلماء، و لم يكن العلماء يأتون الملوك، فصار فى ذلك صلاح الفريقين، ثم صرنا

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٢٦

الآن فى زمان صار العلماء يأتون الملوك، و الملوك تقعد عن العلماء، فصار فى ذلك فساد الفريقين جميعا قال سليمان: فأوصنا يا أبا حازم و أوجز، قال: اتق الله ألا يراك حيث نهاك و لا يفقدك من حيث أمرك، قال سليمان: ادع لنا بخير فقال أبو حازم: اللهم إن كان سليمان و ليك فبشره بخير الدنيا و الآخرة، و إن كان عدوك فخذ إلى الخير بناصيته. قال سليمان: زدنى. قال: قد أوجزت، فإن كنت وليه فاغبط، و إن كنت عدوه فاتعظ، فإن رحمته فى الدنيا مباحة، و لا يكتبها فى الآخرة إلا لمن اتقى فى الدنيا، فلا نفع فى قوس ترمى بلا وتر. فقال سليمان:

هات يا غلام ألف دينار. فأتاه بها، فقال: خذها يا أبا حازم. فقال: لا حاجة لى بها، لأنى و غيرى فى هذا المال سواء، فإن سويت بيننا و

عدلت أخذت، و إلا فلا، لأنى أخاف أن يكون ثمنا لما سمعت من كلامى، و إن موسى بن عمران عليه السلام لما هرب من فرعون ورد ماء مدين، و وجد عليه الجاريتين تذودان فقال:

ما لكما معين؟ قالتا: لا. فسقى لهما، ثم تولى إلى الظل. فقال: رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير، و لم يسأل الله أجرا. فلما أعجل الجاريتان الانصراف أنكر ذلك أبوهما. فقال لهما: ما أعجلكما اليوم؟ قالتا: وجدنا رجلا صالحا قويا سقى لنا. قال: ما سمعتهما يقول؟ قالتا: تولى إلى الظل و هو يقول: رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير. فقال: ينبغى لهذا أن يكون جائعا. تنطلق إحداكما فتقول له: إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا. فأتته إحدهما تمشى على استيحاء، أى: على إجلال له. قالت: إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فجزع موسى من ذلك، و كان طريدا فى الفيافي و الصحارى. فقال لها: قولى لأبيك: إن الذى سقى يقول: لا أقبل أجرا على معروف اصطنعته، فانصرفت إلى أبيها فأخبرته. فقال: اذهبي فقولى له: أنت بالخيار بين قبول ما يعرض عليك أبى و بين تركه، فأقبل فإنه يحب أن يراك، و يسمع منك. فأقبل و الجارية بين يديه، فهبت الريح فوصفتها له، و كانت ذات خلق كامل. فقال لها: كوني ورائى، و أرىنى سمت الطريق. فلما بلغ الباب قال: استأذنى لنا، فدخلت على أبيها، فقالت: إنه مع قوته لأمين. فقال شعيب: و بم علمت ذلك؟ فأخبرته ما كان من قوله عند هبوب الريح عليها. فقال: أدخله، فدخل فإذا شعيب قد وضع الطعام، فلما سلم رحب به و قال: أصب من طعامنا يا فتى. فقال موسى: أعود بالله.

قال شعيب: لم؟ قال: لأنى من بيت قوم لا يبيع ديننا بملء الأرض ذهبا. قال شعيب: لا و الله ما طعامى لما تظن، و لكن عادتى و عادة آبائى، نقرى الضيف،

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٢٧

و نطعم الطعام. فجلس موسى فأكل. و هذه الدنانير يا أمير المؤمنين إن كانت ثمنا لما سمعت من كلامى، فإن أكل الميتة و الدم فى حال الضرورة، أحب إلى من أن آخذها. فأعجب سليمان بأمره إعجابا شديدا، فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، إن الناس كلهم مثله. قال: لا. قال الزهرى: إنه لجارى منذ ثلاثين سنة، ما كلمته قط. فقال أبو حازم: صدقت، لأنك نسيت الله و نسيته، و لو ذكرت الله لذكرته. قال الزهرى: تشتمنى؟ قال له سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أو ما علمت أن للجار على الجار حقا. قال أبو حازم: إن بنى إسرائيل لما كانوا على صواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء و كانت العلماء تفر بدورها من الأمراء، فلما رثى قوم من أراذل الناس، تعلموا العلم، و أتوا به الأمراء، استغنت الأمراء عن العلماء، و اجتمع القوم على المعصية، فسقطوا و هلكوا، و لو كان علماؤنا هؤلاء يصونون علمهم، لكانت الأمراء تهابهم و تعظمهم. فقال الزهرى: و كأنك إياى تريد، و بى تعرض؟ قال: هو ما تسمع. قال سليمان: يا أبا حازم عظمى و أوجز، قال: حلال الدنيا حساب و حرامها عذاب، و إلى الله المآب. فائق عذابك أو دع. قال: لقد أوجزت، فأخبرنى ما مالك؟ قال: الثقة بعدله و التوكل على كلمه، و حسن الظن به، و الصبر إلى أجله، و اليأس مما فى أيدي الناس. قال يا أبا حازم: ارفع إلينا حوائجك؟ قال: رفعتها إلى من لا تخذل دونه، فما أعطانى منها قبلت، و ما أمسك عنى رضيت، مع أنى قد نظرت فوجدت أمر الدنيا يؤول شيئين: أحدهما لى و الآخر لغيرى. فأما ما كان لى: فلو احتلت عليه بكل حيلة ما وصلت إليه قبل أو انه و حينه الذى قدر لى. و أما الذى لغيرى: فلذلك لا أطعم فيه فكما معنى رزق غيرى كذلك منع غيرى رزقى، فعلام أقتل نفسى فى الإقبال و الإدبار؟ قال سليمان: لا بد أن ترفع إلينا حاجة نأمر بقضائها. قال: فتقضيها؟ قال: نعم. قال: فلا تعطنى شيئا أسألك، و لا ترسل إلى حتى آتيك، و إن مرضت فلا تعدنى، و إن مت فلا تشهدنى. قال سليمان: أبيت يا أبا حازم أبيت. قال: أتأذن لى أصلحك الله فى القيام فإنى شيخ قد زمنت. قال سليمان: يا أبا حازم مسألة ما تقول فيها؟ قال: إن كان عندى علم أخبرتك به، و إلا فهذا الذى عن يسارك، يزعم أنه ليس شىء يسأل عنه إلا و عنده له علم، يريد محمدا الزهرى فقال له الزهرى: عائذ بالله من شرّك أيها المرء. قال:

أما من شرى فستعفى، و أما من لسانى فلا. قال سليمان: ما

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٢٨

تقول في سلام الأئمة من صلاتهم أواحدة أم اثنتان، فإن العلماء لدينا اختلفوا علينا في ذلك أشد الاختلاف قال: على الخير سقطت، أريك في هذا بخبر شاف.

حدثني عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه سعد، أنه شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة عن يمينه، حتى يرى بياض خده الأيمن، ثم يسلم عن يساره، حتى يرى بياض خده الأيسر، سلاما يجهر به. قال عامر: و كان أبي يفعل ذلك. وأخبرني سهل بن سعد الساعدي: أنه رأى عمر بن الخطاب و ابن عمر يسلمان من الصلاة كذلك. فقال الزهري: أعلم ما تحدث به أيها الرجل، فإن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعب شديد إلا بالثبوت واليقين. قال أبو حازم: قد علمته و رويته قبل أن تطلع أضراسك في رأسك. فالتفت الزهري إلى سليمان قال: أصلحك الله! إن هذا الحديث ما سمعت به من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قط. فضحك أبو حازم. ثم قال: يا زهري أحطت بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كله؟ قال: لا. قال: فثلاثة أرباع. قال: رويت و بلغني. فقال أبو حازم: فهذا من الثلث الذي لم يبلغك، و بقي عليك سماعه. فقال سليمان: ما ظلمك من حاجك. ثم قام مأذونا له. فأتبعه سليمان ببصره، ينظر إليه، و يعجب به. ثم التفت إلى جلسائه فقال: ما كنت أظنه بقي في الدنيا مثل هذا. قال: ثم انصرف سليمان من الحج قافلا إلى الشام. انتهى من كتاب الإمامة و السياسة.

ترجمة الأمير سودون المحمدي

لما تولى السلطنة الملك الظاهر جقمق العاشر من ملوك الجراكسة، التفت أول ما ولى إلى مكة المشرفة، فأرسل خلعا و مراسيم للسيد بركات بن حسن عجلان بولاية مكة، و أرسل إليه سودون المحمدي ليكون أميرا على خمسين فارسا من الترك و يقيم بمكة ليشيد بها العمائر، ثم أضيف إليه نظارة المسجد الحرام و العناية بمرافق الحجاج و غير ذلك. فقام الأمير سودون بما أسند إليه حق القيام بإخلاص و صدق نية.

و لقد ذكر القطبي في تاريخ ما قام به من الأعمال الجليلة نأتي به ملخصا من كتابه، قال: و كان من عمارة الأمير سودون المحمدي بالمسجد الحرام في سنة (٨٤٣) ثلاث و أربعين و ثمانمائة، أنه قلع الرخام الذي على سطح الكعبة الشريفة، و غير جميع أخشابها المتآكلة فجرد الكعبة يومين و ليلتين يشاهد الناس أحجارها إلى التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٢٩

أن أكمل ترميمها و إصلاحها و أعيدت الكسوة عليها. و أصلح أيضا رخام داخل الكعبة و رخام حجر إسماعيل و أصلح مئذنة باب العمرة و مئذنة باب على، و أصلح سقف بعض الجهات من المسجد الحرام، و جعل على كل ميل في المسعى قنديلا بالليل تضىء للناس و كذلك جعل على الصفا و المروة.

و قد عمّر الأمير سودون المذكور بعض المواضع المأثورة في منى و في المشعر الحرام بمزدلفة و مسجد نمره بعرفة، و قطع جميع أشجار السلم و الشوك التي كانت تؤذى المارة في طريق عرفه و تمزق كسوة الشقذاف و التي كانت الحرامية تكمن تحتها. و قد أزال الصخار الكبار و نظف طريق الحج و وسعها، إلى غير ذلك من الأعمال الجليلة في بلد الله الحرام رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

فرش و ترميم المسجد الحرام

فرش المسجد الحرام بالبطاء و غيرها

أول من حصّب أرضية المسجد الحرام- أي فرش به بالحصباء- عمر بن الخطاب رضي الله عنه، و كان أول بدئه بالمسجد النبوي. فقد ورد عن ابن عمر أنه سئل عن ذلك، فقال: مطرنا ليلة فخرجنا لصلاة الغداة، فجعل الرجل منا يحمل في رداءه من الحصباء فيفرشه على

البطحاء و يصلى عليه. فلما رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم ذلك قال: ما أحسن هذا البساط، ثم أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته بتحصيله من وادى العقيق.

و فى كتاب حسن المحاضرة للسيوطى أن مسلمة بن مخلد أمير مصر من قبل معاوية رضى الله عنه لما زاد فى جامع عمرو بن العاص الذى بالفسطاط سنة ثلاث و خمسين فرشه بالحصر و كان مفروشا بالحصبا. اه.

فعلم أن فرش أرضية المسجدين الحرامين بمكة و المدينة كان أولا بالحصبا و البطحاء و كانت أرضهما قبل ذلك ترابا من نفس تراب البلدة، ثم فرشت بالحجارة الصخرية السوداء من نفس جبال البلدة أيضا، ثم فرشت بالمرمر الرخام كما هو الآن، ثم فرش فوق الرخام المفارش الهندية الخفيفة، و بالبسط الثقيلة العجمية. و لم يفرش المسجدين الحرامين بالحصر مطلقا. و قد فرش المسجد النبوى بالمفارش العجمية قبل المسجد الحرام لصغره. أما المسجد الحرام فلم يفرش

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٣٠

بالمفارش العجمية الثقيلة الرومية إلا فى عصرنا الحاضر. و كان ذلك سنة (١٣٧٤) فرشه المحسن الكبير و التاجر الشهير السيد حسن الشربتلى من أعيان جدة. كل ذلك بحسب التطور العمرانى.

أما بقية المساجد فى البلدان الإسلامية، فكانت أرضيتها لأول مرة من نفس تراب البلدة، ثم فرشت بالحصبا تقليدا للمسجدين الحرامين بمكة و المدينة و مسجد عمرو بن العاص، ثم فرشت بالحصر و البسط البلدية أو العجمية، لأن كل ذلك ميسور فى البلدان الأخرى لأنها بلاد زراعية و غنية. و إليك الأدوار التى مرت بفرش المسجد الحرام.

وضع الحصى و البطحاء فى المسجد الحرام

نقل الغازى عن ابن فهد: أنه فى سنة ٨٣٠ جعل شاهين العثمانى و رفيقه سعد الدين الفوى المصرى الحصبا و البطحاء فى المسجد الحرام، و عمل إصلاحات كثيرة فيه، كما هو مذكور فى محل آخر من هذا الكتاب. و كان معهما مراسيم بعمارة المسجد الحرام. يقول ابن جبير فى رحلته التى كانت سنة (٥٧٨) بصحيفة ٦٨ ما نصه:

«و موضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنها الرخام حسنا منها سود و سمر و بيض قد ألصق بعضها إلى بعض و اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطى إلا- فى الجهة التى تقابل المقام فإنها امتدت إليها حتى أحاطت به، و سائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض و طواف النساء من آخر الحجارة المفروشة».

انتهى منه.

و يقول ابن بطوطة فى رحلته التى كانت سنة (٧٢٥) بصحيفة ٨٤ ما نصه:

«و موضع الطواف مفروش بحجارة السود محكمة الإلصاق و قد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطى إلا فى الجهة التى تقابل المقام الكريم فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به، و سائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض و طواف النساء من آخر الحجارة المفروشة».

انتهى منه.

و فى سنة (١٣١٤) أصلحوا الأحجار المرصوفة على أرض الأروقة و المماشى و رموها المنابر و أبواب المسجد.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٣١

و فى سنة (١٣٢٧) دخل المسجد سيل عظيم حصل بسببه خلل فى بلاطه و جداره و ميلان فى بعض أسطواناته، فقاموا بإصلاح كل ذلك و أصلحوا بلاط الأروقة و الأبواب و المنابر.

و كذلك فى سنة (١٣٣٨) و سنة (١٣٤٤) أصلحوا ما خرب من بلاط الأروقة و المماشى و نحو ذلك.

و فى سنة (١٣٤٦) صدر أمر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله تعالى بإصلاح عام للمسجد الحرام فرموا فرش أروقة

المسجد من جهاته الأربعة و غير ذلك مما هو مذكور في محله.

فرش المسجد الحرام بالطباطب و الحجارة و الرخام

في ابتداء سنة (١١٣٤) بدأ المعمار محمد أفندي في ترميم المسجد الحرام و فرش بعض نواحي باب السلام بالحجارة و كان قصده فرش جميع المسجد بالحجر و قلع جميع الطباطب الذي فيه لأن الحجر أبقى و أقوى من الطباطب. ثم في سنة (١١٤٠) فرش المسجد الحرام جميعه بالحجارة المنحوتة. و أزيل ما كان فيه جميع الطباطب. قاله الغازي نقلا عن إتحاف فضلاء الزمن.

و في سنة (١٢٦٦) فرشت رحبة باب السلام من خارج الباب بالرخام الأبيض و كانت قبل ذلك سقاية يباع فيها الماء. و ربما كشف بعض الناس عورته و استنجى فواجه البيت الشريف. و كانوا يوسخون الحرم فأزيل ذلك جزى الله فاعله خيرا. و كان ذلك في أيام السلطان عبد المجيد خان.

و في سنة (١٢٧٩) دخل سيل عظيم للمسجد الحرام حتى وصل إلى قفل باب الكعبة و مات فيه أناس كثيرون و خربت أرضية المسجد و المماشي و حاشية المطاف فورد الأمر من السلطان عبد العزيز خان بإصلاح الحرم الشريف بنظارة الشريف عبد الله ابن المرحوم الشريف محمد بن عون و والى شيخ الحرم الحاج أحمد عزت باشا فشرعوا في تعمييره و أخرجوا جميع ما في الرواقات و المماشي و حاشية المطاف من الطباطب القديم و أبدلوه بطباطب جديد و أتقنوا إصلاح الحرم إصلاحا تاما.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٣٢

دكة باب الزيادة

قال الغازي نقلا من بلوغ القرى في ذيل إتحاف الوري: و في يوم الخميس تاسع شهر ذي القعدة سنة ٩١٧ بنيت دكة ثانية بالزيادة و هي التي تلى باب الزيادة و جعل فيها باقى ما خرج من الحجر و من بئر زمزم و من مقام الحنفى. و في سنة (١٢٥٧) أو في التي بعدها جعلوا ما زاد من الحجارة في العمارة التي وقعت في السنة المذكورة دكة عند باب الزيادة و طبطبوا ظاهرها.

المماشي التي بالمسجد الحرام

نقل الغازي عن منائح الكرم، قال: قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن عيسى المرشدى في بعض مسوداته: و أما المماشي الأربعة، التي أحدها إلى باب السلام و الأخرى إلى باب الصفا و الأخرى إلى باب العمرة و الأخرى إلى باب الحزورة و الجناحان اللذان بجانب مقام الحنفى و الفرش الذي خلفه و الذي تجاه المنبر كل ذلك محدث بعد أن فرش المطاف بالمرمر و ذلك سنة (١٠٠٣) ألف و ثلاثة. فإنهم كانوا كلما قلعوا شيئا من المطاف جعلوه في هذه الأماكن، و كذلك المحل الذي جعل مصلى لشريف مكة بصحن المسجد مما يلي أم هانئ انتهى.

نقول: الذي يظهر من الكلام المذكور أن المماشي التي بالمسجد الحرام لم تكن قبل سنة (١٠٠٣) لأنها أحدثت بعد فرش المطاف بالمرمر و نعتقد أنها أحدثت في عهد السلطان محمد خان الذي أمر بفرش المطاف بالمرمر في السنة المذكورة أو في سنة (١٠٠٦) أو في سنة (١٠١٠) كما ذكرنا ذلك في محله و الله تعالى أعلم.

و يظهر أيضا من الكلام المذكور أن ما قلع من المطاف من الحجارة و التراب و غيرها جعلوه في المماشي و في الجناحين اللذين بجانب مقام الحنفى و في الفرش الذي خلفه و الذي تجاه المنبر.

و في سنة (١١١٢) عمّر إبراهيم بيك بعض المحلات في المسجد الحرام منها إصلاح المماشي.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٣٣

و في سنة (١٢٥٧) أو في التي بعدها، صدر أمر السلطان عبد المجيد خان بإصلاح المسجد الحرام، فشرعوا في إصلاح أشياء كثيرة منها، أصلحوا المماشي، و زيد في ممشي باب الصفا، و أحدثت ممشاه باب علي، و بيضوا جميع الحرم.

تعمير المسجد الحرام في الدولة العثمانية

من ذكر تجديد آل عثمان الحرم الشريف و تغيير سقفه بقب و انتظامه بهذه الحالة الموجودة الآن و عدد أساطينه و قببه و شرفاته و أبوابه و منائره و ذكر ذرعه

قال العلامة قطب الدين رحمه الله في الإعلام: (اعلم) أن هذه العمارة الموجودة الآن وقعت في أيام السلطان سليم خان عليه من الله الرحمة و الرضوان، و سبب الأمر الشريف بتعمير المسجد الحرام أن الرواق الشرقي منه مال إلى ناحية الكعبة الشريفة، بحيث برزت رؤوس أخشاب السقف من محل تركيبها في جدار المسجد. و ذلك الجدر هو جدر مدرسة قايتباي و جدر المدرسة الأفضلية في شرق المسجد و فارق خشب السقف عن محل تركيبه في الجدر المذكور أكثر من ذراع، و مال وجه الرواق إلى صحن المسجد ميلا ظاهرا بينا. و صار نظار الحرم يصلحون المحل الذي فارق الخشب إما بتبديل خشب السقف بأطول منه، أو بنحو ذلك من العلاج. و أما الرواق الذي ظهر ميلا إلى صحن الحرم فترسوه بأخشاب كبار، حفروا لها في أرض المسجد، لأجل أن تمسكه عن السقوط. و استمر الرواق الشرقي متماسكا على هذا الأسلوب في أواخر دولة السلطان سليمان و صدر أمر دولة المرحوم السلطان سليم خان ثم لما كثر ميلان الرواق المذكور عرض ذلك على السلطان المرحوم سليم خان في سنة تسع و سبعين و تسعمائة فبرز الأمر بالمبادرة إلى بناء المسجد الحرام جميعه على وجه الإتقان و الإحكام و أن يجعل عوض السقف قبا دائرة بأروقة المسجد الحرام ليأمن التآكل فإن خشب السقف كان متأكلا من جانب طرفيه بطول العمد و كان يحتاج بعض السقف إلى تبديل خشبه بخشبه أخرى في كل قليل، إذ لا بقاء للخشب زمانا طويلا مع تكسير بعضه.

و كان له سقفان، بين كل سقف فرجة قدر ذراعين بذراع العمل. و كانت الحيات و الدواب تأوى بين هذين السقفين. فكان من أحسن الرأي تبديل السقوف بالقبب لتمكنها، و دفع مواد الضرر عنها. و وصلت أوامر السلطان إلى نائبه بمصر و هو الوزير سنان باشا فعين الوزير لهذه الخدمة الشريفة أحمد بيك

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٣٤

و أضيف إليه بقية عمل دبل عين عرفات من الأبطح إلى أسفل مكة على ما يأتي ذكر ذلك، في ذكر عيون مكة إن شاء الله تعالى و أضيفت إليه صنجقية جده فبعد ورود الأوامر السلطانية إليه أخذ في أهبة السفر و توجه من طريق البحر إلى بندر جدة ثم وصل إلى مكة في أواخر سنة تسع و سبعين و تسعمائة. و كانت الأوامر السلطانية و المتكلم عليها من جانب السلطنة مولانا ناظر المسجد الحرام و مدرس مدرسة أعظم سلاطين الأنام ببلد الله الحرام الشيخ حسين الحسيني المالكي ففرح بهذه الخدمة الشريفة و صارت بين مولانا الشيخ و الأمير أحمد بيك غاية الملازمة و الاتفاق و بذلك حصل المراد و جرت عادة الله أن الخير كله في الوفاق و الشر جميعه في الشقاق و وصل لهذه العمارة الشريفة معمار دقيق الأنظار أجمع المهندسون على تقدمه في هذه الصناعة اسمه المعمار محمد جاويش الديوان العالي فاتفق الناظر و الأمين و المعمار على الشروع في هدم ما يجب هدمه إلى أن يوصلوا الأساس فبدأ بالهدم من جهة باب السلام في منتصف ربيع الأول سنة تسعمائة و ثمانين و أخذت المعاول تعمل في رؤوس شرفات المسجد و طبطابه الذي على سقفه إلى أن ينكشف السقف فتتزل أخشابه إلى الأرض و تجتمع في صحن المسجد و ينظف الأرض من نقض البناء و أتربته و تحمل على الدواب و ترمى في أسفل مكة ثم تمال أساطين الرخام إلى أن تنزل بالرفق إلى الأرض و استمروا على هذا العمل إلى أن نظفوا وجه

الأرض من ذلك من باب السلام إلى باب على و هو الجانب الشرقي من المسجد ثم كشفوا عن أساسه فوجدوه مختلا فأخرجوا الأساس جميعه و كان جدرا عريضا نازلا في الأرض على هيئة بيوت رقع الشطرنج و كان موضع تقاطع الجدران على وجه الأرض قاعدة تركيب الأستوانة على تلك القاعدة فشرعوا أولا في وضع الأساس على وجه الإحكام و الإتقان من جانب باب السلام لست مضين من جمادى الأولى سنة ثمانين و تسعمائة. و اجتمعت من أهالى مكة في ذلك اليوم من الأشراف و العلماء و الصالحين و الفقراء و باشروا من ذلك العمل شيئا تبركا و قرأت الفواتح و ذبحت الأبقار و الأنعام و الأغنام و تصدق بها على الفقراء و الخدام و وضع الأساس المبارك بإعانة الله تعالى و كان يوما مشهودا مباركا و لله الحمد على هذا الإكرام و له الشكر و الثناء و الحسن في المبدأ و الختام و كانت الأساطين المبنية سابقا على نسق واحد في جميع الأروقة فظهر لهم أن ذلك الوضع لا يقوى على تركيب القبة عليها لقله استحكامها إذ القبة يجب أن يكون لها دعائم أربعة قوية تحملها من جوانبها الأربعة فرأوا أن يدخلوا بين أساطين الرخام الأبيض دعائم أخرى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٣٥

تبنى من الحجر الشميسى الأصفر يكون سمكها مقدار سمك أربع أسطوانات من الرخام ليكون مقيما لها من كل جانب فيقوى على تركيب القبة من فوقها و يكون كل صف من أساطين الأروقة الثلاثة في غاية الزينة و القوة ففي أول ركن من الرواق الأول دعامة قوية مبنية من الحجر الشميسى ثم أسطوانة رخام أبيض من أساطين الرواق السابق عليهما عقد ثم أسطوانة رخام كذلك بينها و بين الذى قبلها عقد آخر، ثم أسطوانة رخام كذلك، ثم دعامة من الحجر الأصفر الشميسى، و هكذا إلى آخر الصف الأول ثم الثانى ثم الثالث، و هكذا في جميع الأروقة. ثم بنيت القبة على تلك الدعائم و الأساطين في دور المسجد جميعه.

و شرعوا من ركن المسجد الشريف، من جهة باب السلام كما تقدم، و قاسوا تلك الصفوف بخط مستوى، و أزالوا ما كان قبل ذلك من الازورار و الاعوجاج.

و الحجر الشميسى نسبة إلى شمس تصغير شمس جبل بقرب بئر شميسى، و هى حد الحرم من جانب جدّه به جيالات صفر تكسر منها هذه الأحجار، و تحمل إلى مكة مسافة ما دون ليلة فكان في إدخال هذه الدعائم الصفر ما بين الأساطين البيض حكمه أخرى غير الاستحكام و الزينة و هى أن أساطين الرخام الباقية في المسجد الحرام ما كانت تفى بجوانبه الأربع لأن الجانب الغربى منه احترقت أساطينه الرخام في أيام الجراكسة كما تقدم و بإدخال هذه الدعائم كانت كلها على نسق واحد لأن كل ثلاثة أساطين من الرخام بينها دعامة واحدة من الحجر الأصفر الشميسى، و ذلك في غالب الأروقة من الجوانب الأربعة. فلما كمل الجانبان من المسجد الحرام، و هما الجهة الشرقية و الجهة الشمالية، جاء خبر وفاة السلطان سليم خان عليه سحائب المغفرة و الرضوان. ثم تولى بعده السلطان مراد خان فأول ما بدأ به أن برز أمره الشريف إلى أمير العمارة أحمد بيك و الشيخ حسين و المعمار في إنجاز بقية إكمال المسجد الحرام على ما كانوا عليه من العمل السابق و كان قبل وصول الأمر جاء سيل عظيم سنة ثلاث و ثمانين و تسعمائة و كانت ليلة الأربعاء و عاشر جمادى الأولى حتى بلغ المطاف و وصل إلى قفل البيت الشريف و بقى الماء يوما و ليلة بموجب الطين و التراب الكائن بسبب عمارة المسجد و تعطلت الجماعة سبعة أوقات. فبادر الناظر و شريف مكة و القاضى حسين و المعمار و الفقهاء و الأعيان إلى تنظيف الحرم و غسل الكعبة و شرع المعمار فى قطع مسيل وادى إبراهيم من الجانب الجنوبى إلى أن ظهرت عشر درجات كانت مدفونه. فصار السيل إذا أتى انحدر بسهولة إلى المسفلة. و كذلك قطع من جهة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٣٦

باب الزيادة في الجانب الشمالى و هو ممر سيل قعيقعان و الفلق و القرارة فصار إذا سال سيل قعيقعان و حواليه و جرى إلى باب الزيادة لم يصعد إلى أبواب المسجد بل جعل هناك سردابا واسعا يسمى العنبة- و يسمى مير ياخور لأن الذى قام بعمارته كان مير آخور أى كبير اصطبل لبعض الملوك و جميع البيوت الكائنة ثمة دبولها و مراحيضها مسلطة عليه فتنحدر بها السيول فى الدبول إلى أسفل مكة

من جهة المسفلة و بركة ماجن. انتهى.

ذكره اللبني في شرح رساله ابن زيدون- يجرى الماء فيه إلى أن يخرج من قرب باب إبراهيم فيسيل إلى أسفل مكة مع السيل الكبير و صان الله تعالى المسجد الحرام بذلك و صارت السيول بعد ذلك تسييل و لم تصل إلى باب المسجد و لم تقرب منه و هذا رأى سديد و عمل مهم نافع ينصان به المسجد الحرام عن دخول السيل إليه غير أنه يحتاج إلى أن يتفقد في كل عامين أو ثلاثة أعوام فيقطع ما علا من الأرض ليستمر المسيل منهبطاً دائماً لجريان السيل فيه صونا للمسجد الحرام عن دخول ماء السيل إليه في كل سيل يأتي.

و في تلك المدة وصلت الأوامر السلطانية في بقية إكمال المسجد الحرام على ما كانوا عليه من العمل السابق فشرعوا في ذلك العمل إلى أن أتموا الجانب الغربي و الجنوبي من المسجد الحرام بجميع قبه و شرافاته و درجاته من داخل المسجد الحرام و خارجه في أيام هذا السلطان الأعظم الأكرم و كان ذلك في آخر سنة أربع و ثمانين و تسعمائة فصار المسجد الحرام نزهة للناظر و بغية للخاطر و اخترع الفضلاء لذلك تواريخ عديدة بكل لسان و نظم راقم هذه الأرقام تاريخاً يليق أن يكتب في هذا المقام و هو هذا:

جدد السلطان مراد بن سليم مسجد البيت العتيق المحترم

سّر منه المسلمون كلهم دار منشور اللواء و العلم

قال روح القدس في تاريخه عمر سلطان مراد الحرم

و لشيخ الإسلام و ناظر المسجد الحرام مولانا السيد القاضي حسين القاضى الحسين قاضى المدينة سابقاً تاريخ جعله لهذه العمارة كتب نصفه في الوسط الأعلى من صدر الرواق الشرقي المقابل لجهة الكعبة المشرفة و النصف الآخر كتب في صدر الرواق الغربي المطل على الجهة الغربية و هذا نص ما كتب في الجهة الشرقية: باسمه سبحانه إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله و اليوم الآخر و أقام الصلاة و أتى الزكاة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٣٧

و لم يخش إلا- الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين، شرع في عمارة هذا الحرم الشريف و تجديده من اختاره من خلفائه و عبيده المقدس المرحوم السعيد المبرور المغفور له الشهيد سلطان الإسلام و المسلمين خاقان خواقين العالمين، المستفىء بفضل الله ظلل دار النعيم حضرة الملك الأعظم سلطان سليم، نور الله تعالى ضريحه و روح بروائح الجنان روحه، بناه و أكمله و أتقنه و حسنه و جملة وارث الملك الأعظم الإمام الأفخم و الخليفة الأكبر الفطمم و الملك القاهر العرمم، من ملكه الله شرق البلاد و غربها و جعل طوع يده بلاد عجم الرعايا و عربها و أطلعه سراجاً منيراً في المشارق و المغارب و ملكاً مرفوعاً على هام الكواكب- إلى هنا مكتوب في الجهة الشرقية- و الباقي مكتوب في الجهة الغربية و هذا نصه: و صيره للإسلام حصناً محيطة و جعل ظله المديد على كافة الناس بسيطاً و عدله الفريد جميع الوجود مبسوطاً و قمع لسلطنته الشريفة طوائف الكفر و العناد و جمع له بين الملك في الدنيا و الفوز في المعاد خليفة الله على كافة العباد و رحمه الله الشاملة لجميع البلاد سلطان سلاطين الزمان خلاصة آل عثمان السلطان ابن السلطان ابن السلطان الخنكار الأعظم مراد لا زال الوجود بدوام خلافته عامراً و لا برح الإيمان في أيام سلطنته قويا ظاهراً زاده الله قوة و نصراً و شد بملائكته الكرام أزرا فتاريخ تمامه قد جاء: (أطال الله لمن أتمه عمراً). انتهى.

قال: ثم ورد من الباب الشريف العالى تاريخ لا أعلم من أبدعه و اخترعه و ورد معه حكم سلطاني يتضمن الأمر بكتابتة على بعض أبواب المسجد الحرام.

فكتب هذا التاريخ على باب سيدنا العباس إلى باب على رضى الله عنهما، في الجانب الشرقي خارج المسجد. و نقر له في الحجر الشمس و طلى محل الذهب في ذلك المقام ليقراه الخاص و العام و يبقى ذلك النص في الحجر على صفحات الليالي و الأيام و هو هذا:

الحمد لله الذى أسس بنيان هذا الدين المتين بنبي الرحمة والإرشاد وخصه بمزيد الفضل والكرامة والإسعاد وجعل حرم مكة مطاف لطواف الطائفين الحاجين من أقاصى البلاد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأجلّة والأمجاد، ووفق عبده المعتاد بإحكام الأحكام الشريفة وتشديد أركانها على وجه المراد، المذخر ذخر الآخرة المزيد من زاد المعاد، أدام الله ظله الممدود على مفارق العباد، السلطان ابن السلطان ابن السلطان مراد، جعل الله الخلافة فيه و فى أعقابها إلى يوم التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٣٨

التناد لتجديد معالم المسجد الحرام الذى سواء العاكف فيه و الباد، فتم فى افتتاح سلطنته العظمى لا زال للحرمين المحترمين خادما، و لأساس الجور والاعتساف هادما، بتجديد حرم بيت الله عز وجل بأمره المعزز المبجل و عمر عامر جوده ما تضعع من أركانه بعدما كان ينفذ عوالى جدرانها فجدد جدران البيت العتيق و سوره بأكمل زينته و صونه بعد ما أبلاه الجديدان و أكل عيدان أرضها الأرضة و الديدان، فرغ القباب موضع السطوح المبنية بالأخشاب، و ابتهج لهذه الحسنه الكبرى كل شيخ و شاب، فأذعنوا له بالشرف الباهر و المجد الفاخر تالين قوله تعالى: **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ دَاعِينَ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْجَمِيلِ وَ الذَّخِرِ الْآخِرِ قَائِلِينَ اللَّهُمَّ أَدِّمْهُ فِي سِرِّيرِ الْخِلاَفَةِ مُحْرَسًا يَحْفَظُكَ مِنْ آفَةٍ، وَ ظَافِرًا عَلَيَّ مِنْ يَرِيدِ خِلاَفِهِ، مَشِيدًا لِلْمَسَاجِدِ وَ الْمَدَارِسِ مَجْدِدًا لِكُلِّ مَنْهَدِمٍ وَ دَارِسٍ، وَ اجْعَلْ بَابَهُ لِلرَّاجِينَ حَرَمًا آمِنًا وَ جَنَابَهُ لِلْمُحْتَاجِينَ كَفِيلًا ضَامِنًا يَأْتُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِحَرَمَةِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، تَقْبَلُ اللَّهُ مَعْطَى السُّؤَالِ بِجَاهِ الرَّسُولِ هَذَا الدُّعَاءَ الْحَرِيَّ بِالْقَبُولِ، فَلَمَّا أُسِّسَ بِنِيَابِهِ عَلَيَّ تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ، جَاءَ مَشِيدُ الْأَرْكَانِ، حَاكِيًا رَوْضَاتِ الْجَنَانِ، وَ صَارَ عُنْوَانُ خِلاَفَتِهِ، وَ بَرَاعَةُ اسْتِهْلَالِهِ لِمَنْشُورِ سَعَادَتِهِ فِي أَوَائِلِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَ ثَمَانِينَ وَ تِسْعِمَائَةِ الْهَجْرِيَّةِ وَ كَانَ الْإِبْتِدَاءَ بِذَلِكَ التَّجْدِيدِ، بِأَمْرِ وَالِدِهِ الدَّرَاجِ إِلَى مَدَارِجِ الْمَلِكِ الْمَجِيدِ، السُّلْطَانِ السَّعِيدِ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى بِقَلْبِ سَلِيمٍ، السُّلْطَانِ سَلِيمِ ابْنِ السُّلْطَانِ سَلِيمَانَ ابْنِ السُّلْطَانِ سَلِيمِ ابْنِ السُّلْطَانِ بَايَزِيدِ ابْنِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ ابْنِ السُّلْطَانِ مَرَادِ ابْنِ السُّلْطَانِ أَدْرَخَانَ ابْنِ السُّلْطَانِ عَثْمَانَ مَكْنَهُمُ اللَّهُ عَلَيَّ سِرِّرٍ فِي دَارِ الْجَنَانِ، وَ أَثَلَّ إِخْلَافَهُمْ فِي مَسْنَدِ الْخِلاَفَةِ إِلَى انْقِرَاضِ الزَّمَانِ.**

و كان الشروع فى الرابع عشر من ربيع الأول من شهور سنة ثمانين و تسعمائة فلما سلم السلطان سليم وديعته بأحسن تسليم، و ارتحل من دار القصور إلى ما هيا الله له فى الجنة من القصور، قبل تمام ما رام، من تجديد المسجد الحرام، و أجلس الله على سرير الخلافة نجله النجيب أحسن إجلاس، و جعل حرمه مثابة للناس، يسر الله له الإتمام بطلعة إقباله وجوده الليلالى و الأيام، و أنام الأنام فى مهد عدله إلى قيام الساعة و ساعة القيام، و أخبرنى الأمير المعظم أحمد بيك أن الذى صرفه فى عمارة المسجد الحرام هدمًا و بناء و قطعًا لأرض المسيل من جهة الجنوبى إلى آخر المسفلة و من جهة باب الزيادة إلى آخر مجرى سرداب العنبة من خاصه أموال السلطنة الشريفة نصرها الله تعالى مائة ألف دينار ذهب جديد سلطانى و ذلك غير

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٣٩

ثمن الأخشاب المحمولة من مصر إلى مكة المشرفة و غير ثمن الحديد الصلب لآلات العمارة كالمساحى و المجارف و المسامير و الحديد المحدد رأسه بطول الرواقين و بين الأسطواناتين تحت كل عقد كيلا يجلس طير الحمام و غيره عليه فيلوث المسجد بذرقه و هذا الحديد لتحديد رأسه و تواصله يمنع من جلوس الطير عليه و غير أهله القباب التى عملت بمصر من النحاس و طليت بالذهب و جهزت إلى الحرم الشريف فركبت على أعلى القباب فصار لها منظر حسن و زينته عظيمة. انتهى.

ذكر أساطين المسجد الحرام و قبه و شرفاته و أبوابه و منائره

أما أساطين المسجد الحرام فقال العلامة قطب الدين رحمه الله: اعلم أن أساطين المسجد الحرام قبل هدمها و تجديدها على ما كانت عليه قبل هذه العمارة الشريفة جملتها فى جوانبه الأربعة غير الزيادتين أربعمائة أسطوانة و تسع و ستون أسطوانة و ما على أبوابه سبع و عشرون أسطوانة فتكون جملة أساطين الجوانب الأربعة من المسجد الحرام و أساطين أبوابه الشريفة أربعمائة أسطوانة و ست و تسعين

أسطوانة بتقديم التاء على السين غير ما كانت من أساطين الزياتين.

فكانت في الجانب الشرقي ثمان وثمانون أسطوانة كلها رخام مخروط ما عدا أسطوانة واحدة في الصف الأوسط عند باب على فإنها من الآجر مبنية بالنورة مبيضة بالجص و كان في الجانب الشمالي و يقال له الشامي مائة أسطوانة و أربع أساطين كلها رخام ما عدا أربع عشرة أسطوانة من آخر الصف الأوسط مما يلي باب العجلة إلى باب السدة فإنها حجارة منحوتة و كان في الجانب الجنوبي و يقال له اليماني مائة و أربعون أسطوانة كلها رخام ما عدا خمسا و عشرين أسطوانة في مؤخر هذا الرواق عند باب أم هانئ فإنها كانت حجارة منحوتة و كان في الجانب الغربي سبع و ثمانون أسطوانة كلها حجارة منحوتة قطع دون الذراع منحوتة في شكل نصف دائرة مركبة على اثنتين منها اثنتين إلى أن يطول في شكل أسطوانة الرخام مسبوك بينهما بالرصاص في داخلها و وسطها حديد بطول الأسطوانة منحوت مكانه في وسط الحجر مسبوك عليه بالرصاص عمل ذلك في أيام الملك الناصر فرج بن برقوق لما احترق هذا الجانب الغربي من المسجد الحرام في آخر شوال سنة ٨٠٢ ... كما تقدم شرحه في محله فيكون جميع ما أدر كناه من الأساطين الرخام ثلثمائة و أربعين أسطوانة و جميع ما فيه من الأساطين غير الرخام

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٤٠

مائة و تسعة و عشرون أسطوانة و أما أساطين زيادة دار الندوة فأدر كناها ستا و ستين أسطوانة من جوانبها الأربعة كانت من الحجر الغشيم غير منحوت مطلية بالجص الأبيض من ظاهرها و قد ينكشف عنها الجص فيظهر الحجر الغشيم منها في الجانب الشرقي اثنتا عشرة أسطوانة و في الجانب الشمالي عشرون و في الجانب الغربي إحدى عشرة، و في الجانب الجنوبي ثلاث و عشرون أسطوانة. و أما زيادة باب إبراهيم فقد كان فيها في الرواق سبع عشرة أسطوانة من الحجر المنحوت صفيين متصلين في الرواق القبلي الذي يلي المسجد الحرام اثنتان منها لاصقان برباط رامشت على يمين المستقبل و اثنتان لاصقتان برباط الخوزي على يسار المستقبل. و في الجانب الشمالي ست أساطين و في الجانب الجنوبي ست أساطين إحداها لاصقة بالمنارة التي كانت لهذه الزيادة و لم تكن بالجانب الغربي من هذه الزيادة أساطين.

و أما عدد شرفات المسجد الحرام من داخله فكانت أربعمائة شرافة و سبعة أنصاف شرافات.

و أما الشرافات التي كانت على جدر المسجد من خارجه فهي اثنتان و خمسون شرافة متفرقة على أبواب المسجد الحرام، و فيما بينها دور و ربط و مدارس، متصلة بجدر المسجد الحرام، ليس فيها شرافات. و كانت في زيادة دار الندوة من جوانبها الأربعة التي تلي بطنها اثنتان و سبعون شرافة، و لا شرافة للجهة الخارجة لإحاطة الدور بها. و كانت في زيادة باب إبراهيم، مما يلي بطنها، في ثلاث جهات منها و هي: القبلي و اليماني و الشامي بضع و أربعون شرافة.

و أما أبواب المسجد الحرام فهي تسعة عشر بابا، كانت تفتح على ثمانية و ثلثين طاقا. و هي باقية على حالها ما عدا باب واحد في زيادة دار الندوة. و كان يفتح على طاقين، فزادها الأمير قاسم أمين بناء المدارس الشريفة السلطانية السليمانية طاقا واحدا، و صار على ثلاث طاقات. فصارت طاقات أبواب المسجد الحرام الآن تسعة و ثلاثون طاقا، في كل طاق درفتان. و سيأتي تفصيلها بعد ذكر الأسطوانات المتجددة في عصرنا هذا.

و الذي اشتمل عليه المسجد الحرام الآن من الأساطين الرخام و الأساطين الصفر الشمسي و القبة و الطواجن و شراريف المسجد الحرام فهي ما نذكره فأما الأسطوانات الرخام فعددها ثلثمائة و إحدى عشرة أسطوانة. ففي جهة شرقي

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٤١

المسجد الحرام و هي ما يقابل باب البيت الشريف اثنتان و ستون أسطوانة رخام و في جهة شامية و يقال له الجانب الشمالي و هو ما يقابل الحجر الشريف إحدى و ثمانون أسطوانة رخاما و في جهة غربية و هو ما يقابل المستجار العظيم أربع و ستون أسطوانة منها ست أسطوانات من الحجر الصوان و الباقي من الرخام و في جهة جنوبيه و هو ما يقابل الركنين ثلاث و ثمانون أسطوانة منها إحدى عشرة

من الحجر الصوان و الباقي من الرخام و في زيادة دار الندوة خمس عشرة أسطوانة من تلك واحدة من الحجر الصوان و في زيادة باب إبراهيم ست أسطوانات و أمام الأسطوانات الصفر الشميسى فجملتها مائتان و أربع و أربعون أسطوانة، و هي عبارة عن شكل مثنى أو مسدس أو مربع على حسب ما اقتضاه المكان، و هي في طول الأسطوانة العليا مقدار الثلث من الحجر الصوان المنحوت، و ثلثاها من الحجر الشميسى المنحوت. فمن ذلك في شرقي المسجد الحرام ثلاثون أسطوانة، و في جهة شامية أربع و أربعون أسطوانة، و في جهة غربية ست و ثلاثون أسطوانة، و في جهة جنوبية ست و سبعون أسطوانة و أربع في أركان المسجد، و في زيادة دار الندوة ست و ثلاثون أسطوانة، و في زيادة باب إبراهيم ثمانى عشرة.

و أما القبة فعددها مائة و اثنان و خمسون قبة. فمن ذلك في شرقي المسجد الحرام أربع و عشرون قبة، و في الجانب الشامى ست و ثلاثون قبة و في الجانب الغربى أربع و عشرون قبة و في الجانب الجنوبى ست و ثلاثون قبة و واحدة في ركن المسجد الحرام من جهة منارة الحزورة و في زيادة دار الندوة ست عشرة قبة و في زيادة باب إبراهيم خمس عشرة قبة.

و أما الطواجن فجملتها مائتان و اثنان و ثلاثون طاجنا. ففي الجانب الشرقى ثمانية و ثلاثون طاجنا، و في الجانب الشمالى تسعة و خمسون طاجنا و في الجانب الغربى ثلاثة و أربعون طاجنا و في الجانب الجنوبى أربعة و ستون طاجنا و اثنان تحت مئذنة باب السلام و واحد في ركن المسجد الحرام من جهة باب السلام و واحد في ركن المسجد من جهة باب العمرة و في زيادة دار الندوة أربعة و عشرون طاجنا.

و أما الشرافات فجملتها ألف و ثلثمائة و ثمانون شرافة. فمن ذلك في شرقي المسجد الحرام مائة و اثنان و ستون شرافة، فمن الرخام سبع و عشرون في وسطهن واحدة طويلة، و من الحجر الشميسى مائة و خمس و ثلاثون، و من جهة شامية ثلثمائة و إحدى و أربعون، فمن الرخام ثمانية و سبعون منها ثلاث طوال و الباقي من

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٤٢

الحجر الشميسى، و في جهة غربية مائتان و أربع، فمن الرخام اثنان و عشرون في وسطهن واحدة طويلة و الباقي من الحجر الشميسى، و في جهة جنوبية ثلثمائة و خمس و ثلاثون شرافة، فمن الرخام سبعون في وسطهن واحدة طويلة و الباقي من الحجر الشميسى، و في زيادة دار الندوة مائة و إحدى و تسعون من الحجر الشميسى، و في زيادة باب إبراهيم مائة و ست و أربعون من الحجر الشميسى لا غير. انتهى من تاريخ الغازى.

جدول عام في ذكر أسماء من عمر المسجد الحرام من الخلفاء و السلاطين و الملوك و الكبراء

نذكر في هذا الجدول أسماء بعض من عمّر و بنى و أصلح في المسجد الحرام، من عهد ظهور الإسلام إلى زماننا هذا، بصورة مجملّة. و أما تفصيل ذلك فقد بيناه في غير هذا المحل، و قد ذكرنا هنا أسماء الخلفاء و السلاطين و الملوك و غيرهم، ليعلم مبلغ عنايتهم في تعمير المسجد الحرام و إصلاحه كيف لا، و هو أول مسجد وضع على وجه الأرض و في بلد الله الأمين و فيه يتّنه الشريف الطاهر، و هذا هو الجدول:

عدد/ الأسماء/ نبذة عن أعمالهم في المسجد الحرام/ السنة الهجرية

١/ عمر بن الخطاب رضى الله عنه/ وسّع المسجد الحرام و زاد فيه/ ١٧

٢/ عثمان بن عفان رضى الله عنه/ وسّع المسجد الحرام و زاد فيه/ ٢٦

٣/ عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما/ وسّع المسجد الحرام و زاد فيه/ ٦٥

٤/ عبد الملك بن مروان/ عمّر المسجد و لم يزد فيه شيئا/ ٧٥

٥/ الوليد بن عبد الملك/ عمّر المسجد الحرام و زاد فيه/ ٩١

- ٦/ أبو جعفر المنصور/ وسع المسجد الحرام و زاد فيه / ١٣٧
- ٧/ محمد المهدي/ وسع المسجد الحرام و زاد فيه / ١٦٤
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٤٣
- عدد/ الأسماء/ نبذة عن أعمالهم في المسجد الحرام/ السنة الهجرية
- ٨/ المعتضد العباسي/ وسع المسجد الحرام بإدخال دار الندوة فيه / ٢٧١
- ٩/ المقتدر بالله العباسي/ زاد في المسجد الحرام باب إبراهيم / ٣٠٦
- ١٠/ الأمير فارس الدين/ جدد الأعمدة التي حول المطاف / ٧٤٩
- ١١/ الملك الأشرف شعبان/ ملك مصر و هو الذي بنى منارة باب الوداع حينما سقطت / ٧٧١
- ١٢/ الأمير بيسق الظاهري/ عمّر المسجد الحرام بعد احتراقه عمارة عظيمة قوية / ٨٠٤
- ١٣/ الملك الناصر فرج بن برقوق/ ملك مصر و هو الذي بنى منارة باب السلام حينما هدمت / ٨١٦
- ١٤/ الأمير مقبل القديدي/ عمّر بعض أماكن المسجد الحرام / ٨٢٥
- ١٥/ شاهين العثماني/ حرت جميع المسجد الحرام بالبقر و جعل فيه البطحاء و عمّر فيه بعض الأماكن / ٨٣٠
- ١٦/ الملك الأشرف برسباي/ ملك مصر و هو الذي بنى منارة باب الزيادة عند سقوطها / ٨٣٨
- ١٧/ الملك الظاهر جقمق/ عمّر في المسجد الحرام و في الكعبة بعض الأماكن بواسطة الأمير سودون / ٨٤٣
- ١٨/ الأمير قثم/ عمّر سقف بعض الجهات من المسجد الحرام و أماكن متعددة / ٨٤٦
- ١٩/ بيرم خواجة/ عمّر بعض المحلات في المسجد الحرام / ٨٥٢
- ٢٠/ الأمير بردبك/ عمّر بعض سقوف المسجد الحرام / ٨٥٤
- ٢١/ السلطان قايتباي/ بنى مدرسته و منارته الشهيرة بين باب السلام و باب النبي / ٨٨٤
- ٢٢/ الأمير سنقر الجمالي/ عمّر بعض السقوف و بعض / ٨٨٥
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٤٤
- عدد/ الأسماء/ نبذة عن أعمالهم في المسجد الحرام/ السنة الهجرية
- الأماكن في المسجد الحرام
- ٢٣/ أبو السعود بن ظهيرة/ حفر حاشية المطاف و عمرها مع بعض الأماكن / ٨٩٤
- ٢٤/ محمد بن عباد الله/ عمل بعض الإصلاحات و العمارات و جعل الرصاص في أرض المطاف / ٩١٥ و ٩٢٠
- ٢٥/ الملك قانصوه الغوري/ عمّر بعض الجهات في المسجد الحرام / ٩١٧
- ٢٦/ أحمد حليبي/ جدد سطح الكعبة و أصلح أرض المطاف و فرش المسجد جميعه بالجص / ٩٦١
- ٢٧/ السلطان سليمان خان/ هو أول من عمّر المسجد الحرام من سلاطين الأتراك / ٩٧٢
- ٢٨/ السلطان سليم بن سليمان/ هو الذي عمل عمارة المسجد الحرام كله بالقباب / ٩٨٠
- ٢٩/ سنان باشا/ فرش حاشية المطاف بالحجر الصوان المنحوت بدلا من الجص / ٩٨٣
- ٣٠/ السلطان مراد بن سليم/ هو الذي أكمل عمارة والده بعد وفاته بالمسجد الحرام / ٩٨٤
- ٣١/ السلطان محمد خان/ جدد شاذروان الكعبة و فرش المطاف بالمرمر / ١٠١٠
- ٣٢/ السلطان أحمد بن محمد/ أمر بترميم المقامات الأربعة / ١٠١٥
- ٣٣/ السلطان مراد خان الرابع/ و هو الذي بنى الكعبة المشرفة و عمر بعض أماكن في المسجد الحرام / ١٠٣٩

٣٤/ السلطان محمد خان/ بنى المقام الحنفى بالحجر الصوان و بالحجر الأصفر/ ١٠٧٢

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٤٥

عدد/ الأسماء/ نبذة عن أعمالهم فى المسجد الحرام/ السنة الهجرية

٣٥/ إبراهيم بك/ عمّر أطراف المسجد الحرام و المماشى/ ١١١٢

٣٦/ محمد أفندى المعمار/ رمّم المسجد الحرام و فرش بعض نواحي باب السلام بالحجارة/ ١١٣٤

٣٧/ السلطان عبد المجيد خان/ عمّر بعض أماكن فى المسجد الحرام و نقش عقوده/ ١٢٥٧

٣٨/ الشريف عبد الله بن محمد بن عون/ عمّر بعض أروقة المسجد الحرام و غيرها مما خزّبه السيل/ ١٢٧٩

٣٩/ السلطان عبد العزيز خان/ جدد بناء المقام الحنفى بالحجر الرخام/ ١٢٨٢

٤٠/ السلطان عبد الحميد خان/ نقل المقام الحنبلى من موضعه قرب زمزم إلى محله الآن/ ١٣٠١

٤١/ السلطان محمد رشاد خان/ أمر بتعمير المسجد الحرام كله فعمروه لكنه لم تتم العمارة بسبب قيام الحرب العامة/ ١٣٣٤

٤٢/ الشريف الحسين بن على/ أمر بإتمام عمارة المسجد الحرام بعد استقلاله بملك الحجاز/ ١٣٣٨

٤٣/ الملك عبد العزيز آل سعود/ قام بعمل كثير من الإصلاحات و التعمير فى المسجد الحرام فى سنوات مختلفة/ من عام ١٣٤٤ إلى

قبل وفاته

٤٤/ الملك سعود بن عبد العزيز/ قام بتجديد عمارة المسجد الحرام و توسعته بل و توسعة شوارع مكة و تجميلها/ ابتداء من سنة ١٣٧٥

هذا جدول عام لبيان أسماء من أجرى إصلاحات و تعميمات فى المسجد الحرام بصفة مختصرة، و لقد ذكرنا فى غير هذا المحل

التفصيلات الوافية عن كل ذلك و لا يبعد أننا نسينا ذكر أسماء بعض من عمل فى المسجد الحرام، و القصد من هذا

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٤٦

الجدول بيان عناية خلفاء المسلمين و ملوكهم بالمسجد الحرام الذى تتضاعف الصلوات و الحسنات فيه.

ترجمة عبد الملك بن مروان

جاء فى تاريخ الخميس عنه ما ملخصه:

هو أول من سمى عبد الملك فى الإسلام، بويغ بالخلافة بعد موت أبيه فى رمضان سنة (٦٥) خمس و ستين. كان حازما فى الأمور لا

يكلها إلى أحد و كان قبل الخلافة متعبدا ناسكا عالما فقيها واسع العلم، حتى قيل كان فقهاء المدينة أربعة سعيد بن المسيب و عروة

بن الزبير و قبيصة بن ذؤيب و عبد الملك بن مروان. و فى سنة خمس و سبعين حج أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، و فيها

ضربت الدراهم و الدينار و هى أول ما ضرب فى الإسلام و إنما كانت قبل ذلك رومية و كسروية.

قال: و فى المختصر الجامع و هو أول من نقش الدراهم و الدينار بالعربية، أمر بنقشها و كتب عليها "قل هو الله أحد" و كان عليها

قبل ذلك كتابة بالرومية و على الدراهم بالفارسية.

توفى عبد الملك فى منتصف شوال و قيل لعشر خلون من شوال سنة (٨٦) ست و ثمانين و دفن بدمشق و صلى عليه ابنه و ولى عهده

الوليد. كان أميره على العراق الحجاج بن يوسف الثقفى، و أميره على مصر و المغرب أخوه عبد العزيز بن مروان.

و فى المختصر: و لم يزل ابن الزبير يقيم للناس الحج من سنة (٦٤) إلى سنة (٧٢) و لما ولى عبد الملك بن مروان فى سنة (٦٥) منع

أهل الشام من الحج من أجل ابن الزبير و كان يأخذ الناس بالبيعة له إذا حجوا فضج الناس لما منعوا الحج فبنى عبد الملك الصخرة و

كان الناس يحضرونها يوم عرفه و يقفون عندها، و يقال أن ذلك كان سببا للتعريف فى مسجد بيت المقدس و مساجد الأمصار، و

ذكر الحافظ فى كتاب نظم القرآن: أن أول من سن التعريف فى مساجد الأمصار عبد الله بن عباس. انتهى ملخصا من تاريخ الخميس.

نقول: و بمناسبة ما ذكر هنا وقوف الناس بصخرة بيت المقدس يوم عرفة نقل هنا ما جاء في كتاب «القرى لقاصد أم القرى» للحافظ محب الدين الطبري في

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٤٧

هذه المسألة. فقد جاء فيه بصحيفة (٣٥٠) في عنوان «ما جاء في الوقوف بالمساجد تشبها بالواقفين بعرفة» ما نصه:

عن شعبه، قال: سألت الحكم و حمادا عن اجتماع يوم عرفة في المساجد فقالا: هو محدث، و قال منصور عن إبراهيم: هو محدث، و قال قتادة عن الحسن أول من صنع ذلك ابن عباس رضى الله تعالى عنهما. أخرجه البغوى في شرح السنة.

و عن الأثرم قال: سألت أحمد بن حنبل عن التعريف في الأمصار يجتمعون في المساجد يوم عرفة فقال: أرجو أن لا يكون به بأس، و قد فعله غير واحد الحسن، و بكر، و ثابت، و محمد بن واسع كانوا يشهدون المساجد يوم عرفة. انتهى من الكتاب المذكور.

نقول: إن هذا الحضور إلى المساجد يوم عرفة لمن لم يتمكن من السفر للحج، إنما هو حسن ظن بالله تعالى رجاء أن يغفر الله لهم و يستجيب دعواتهم عندما يطلع على الواقفين بعرفات و يباهى بهم الملائكة فيغفر الله لهم و يتجاوز عن ذنوبهم العظام و يعتقدهم من النار، فمن بقى في وطنه لا بأس به إذا حضر يوم عرفة إلى المساجد للتضرع و العبادة رجاء عفو الله و غفرانه. فقد روى عن ابن عمر، رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: لا يبقى أحد يوم عرفة في قلبه وزن ذرة من الإيمان إلا غفر له. قال رجل: يا رسول الله لأهل عرفة أم للناس عامة؟ قال: بل للناس عامة. اه.

اللهم و اعف عنا و اغفر لنا و ارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

آمين.

و من ضمن أعمال عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى أنه أمر الحجاج الثقفي أن يكسو الكعبة الديباج، كما أمر بعمارة المسجد الحرام عمارة حسنة لكنه لم يوسعه و لم يزد فيه شيئا، و رفع جدار المسجد و سقفه بخشب الساج و جعل على رأس كل أسطوانة خمسين مثقالا من الذهب.

و لقد جلب للمسجد الحرام السوارى فى البحر إلى جدة، و كانت عمارته هذه فى سنة (٧٥) خمس و سبعين هجرية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٤٨

فقد جاء فى كتاب «تاريخ عمارة المسجد الحرام» لباسلامة المكي رحمه الله تعالى من نصه:

لما كانت خلافة عبد الملك بن مروان الأموى، أمر بعمارة المسجد الحرام و لم يزد فيه شيئا غير أنه رفع جداره و سقفه بالساج و عمّره عمارة حسنة و جعل على رأس كل أسطوانة خمسين مثقالا من الذهب. فكانت عمارته منحصرة فى تجديد البناء و رفع الجدار و تسقيفه بالساج الذى هو أفخر أنواع الخشب و أمته و زينه بالذهب الذى جعله على رؤوس الأسطوانات، و لم يزد فيه شيئا عما كان عليه علاوة على زيادة عبد الله بن الزبير.

هذا ما ذكره مؤرخو مكة، و قال العمري فى مسالك الأبصار: إن عبد الملك بن مروان جلب إليه السوارى فى البحر إلى جدة و سقفه بالساج و عمّره عمارة حسنة. و لم يذكر أحد غيره أن عبد الملك جلب إليه السوارى من البحر إلى جدة. كما أنه لم ينف ذلك أحد ممن ذكر عمارة عبد الملك. و سبب عمارة عبد الملك للمسجد الحرام لأنه قد تهدم بعضه من حجارة المنجنيق التى رماه بها الحجاج بن يوسف الثقفى حال حصاره لعبد الله بن الزبير حينما استعصم بالمسجد الحرام. و كانت هذه العمارة بعد عمارة الحجاج للكعبة المعظمة بسنة، و ذلك فى سنة (٧٥) خمس و سبعين هجرية التى توافق سنة (٦٩٤) أربع و تسعين و ستمائة ميلادية و الله أعلم. انتهى من الكتاب المذكور.

و كان رحمه الله تعالى يبعث من الشام كل سنة إلى الكعبة الطيب و المجرم و إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم. جزاه الله عن الإسلام و المسلمين خير الجزاء. و هو الذى أمر الحجاج الثقفى أن يهدم من الكعبة ما زاده فيها ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما و

يعيدها على ما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم و ذلك سنة أربع و سبعين كما تقدم بيان ذلك بالتفصيل في محله. و مما وقع لعبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى، أنه دخل عليه كثير الشاعر فقال عبد الملك: أنت كثير؟ قال: نعم. قال: «أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه». فقال: يا أمير المؤمنين، كل عند محله رحب الفناء شامخ البناء عالي السناء. ثم أنشأ يقول:

ترى الرجل النحيف فتزدريه و في أثوابه أسد هصور

و يعجبك الطير إذا تراه فيخلف ظنك الرجل الطير

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٤٩ بغاث الطير أطولها رقابوا لم تطل البزاة و لا الصقور

خشاش الطير أكثرها فراخا و أم الصقر مقلات نزور

ضعاف الأسد أكثرها زئيرا و أصرمها اللواتي لا تزير

و قد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير

يقوده الصبي بكل أرض و ينحره على التراب الصغير

فما عظم الرجال لهم بزير و لكن زينهم كرم و خير

فقال عبد الملك "لله دره، ما أفصح لسانه، و أضبط جناحه و أطول عنانه، و الله إنى لأظنه كما وصف نفسه. "انتهى من المطالعة العربية.

قال ابن كثير في تاريخه: لما احتضر عبد الملك دخل عليه ابنه الوليد فبكى فقال له عبد الملك: ما هذا؟ أتحنّ حنين الجارية و الأمة! إذا أنا مت فشمّر و اتزر و البس جلد النمر، وضع الأمور عند أقرانها، و احذر قريشا. ثم قال له: يا وليد اتق الله فيما أستخلفك فيه، و احفظ وصيتي، و انظر إلى أخى معاوية فصل رحمه و احفظني فيه، و انظر إلى أخى محمد فأمره على الجزيرة و لا تعزله عنها، و انظر إلى ابن عمنا على بن عباس فإنه قد انقطع إلينا بمودته و نصيحته و له نسب و حق فصل رحمه و اعرف حقه، و انظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه فإنه هو الذى مهد لك البلاد و قهر الأعداء و خلص لكم الملك و شتت الخوارج. و أنهاك و إخوتك عن الفرقة و كونوا أولاد أم واحدة، و كونوا فى الحرب أحرارا، و للمعروف منارا، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها، و إن المعروف يشيد ذكر صاحبه و يميل القلوب بالمحبة، و يذل الألسنة بالذكر الجميل و لله در القائل:

إن الأمور إذا اجتمعن مراميهما بالكسر ذو حنق و بطش مفند

عزت فلم تكسر و إن هى بددت فالكسر و التوهين للمتبدد

ثم قال: إذا أنا مت فادع الناس إلى بيعتك، فمن أبى فالسيف. و عليك بالإحسان إلى أخواتك فأكرمهن و أحبهن إلى فاطمة. و كان قد أعطاه قرطى مارية و الدرّة اليتيمة. ثم قال اللهم احفظني فيها. فتزوجها عمر بن عبد العزيز و هو ابن عمها.

و لما احتضر سمع غسالا يغسل الثياب فقال: ما هذا؟ فقالوا: غسال، فقال:

يا ليتنى كنت غسالا أكسب ما أعيش به يوما بيوم، و لم أل الخلافة ثم تمثل فقال:

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٥٠ لعمرى لقد عمرت فى الملك برهه و دانت لى الدنيا بوقع البواتر

و أعطيت حمر المال و الحكم و النهى و لى سلّمت كل الملوكة الجبابر

فأضحى الذى قد كان مما يسرنى كحلّم مضى فى المزمّنات الغوابر

فيا ليتنى لم أعن بالملك ليله و لم أسع فى لذات عيش نواضر

و قد أنشد هذه الأبيات معاوية بن أبى سفيان عند موته.

و قال أبو مسهر: قيل لعبد الملك فى مرض موته: كيف تجدك؟ فقال:

أجدنى كما قال الله تعالى: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ الْآيَة. و قال سعيد بن عبد

العزیز: لما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره، فلما فتحت سمع قصارا بالوادی، فقال: ما هذا؟ قالوا: قصار، فقال: يا ليتنى كنت قصارا أعيش من عمل يدي، اه. ثم قال ابن كثير في تاريخه بعد خمسة أسطر من هذا الكلام ما يأتي: و يروى أنه قال: ارفعونى فرفعوه حتى شم الهواء فقال: يا دنيا ما أطيبك، إن طويلك لقصير و إن كثيرك لحقير، و إنا كنا بك لفي غرور. ثم تمثل بهذين البيتين: إن تناقش يكن نقاشك يا رب عذابا لا طوق لي بالعذاب أو تجاوز فأنت رب غفور لمسىء ذنوبه كالتراب قالوا: و كانت وفاته بدمشق يوم الجمعة و قيل: يوم الأربعاء و قيل: الخميس في النصف من شوال سنة ست و ثمانين، و صلى عليه ابنه الوليد ولى عهده من بعده، و كان عمره يوم مات ستين سنة و قيل أقل و قيل أكثر و دفن بباب الجابية الصغير. انتهى من تاريخ ابن كثير.

ترجمة المتوكل على الله

جاء في تاريخ الخميس عنه ما ملخصه: هو المتوكل على الله جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون الهاشمي العباسي البغدادي، مولده سنة (٢٠٥) خمس و مائتين، و قيل سبع، بويج بالخلافة بعد موت أخيه الواثق في ذي الحجة سنة اثنتين و ثلاثين و مائتين، و لما استخلف أظهر السنة و تكلم بها في مجلسه و كتب إلى الآفاق برفع المحنة و إظهار السنة و نصر أهلها و أمر بنشر الآثار النبوية.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٥١

و في سيرة مغلطاي أمر المتوكل أهل الذمة بلبس العسلى و الزنابير و ركوب السروج بالركب الخشب و أن لا يعتموا، و غير زى نسائهم بالأزر العسلية، و إن دخلن الحمام كان معهن جلاجل، و أمر بهدم بيعتهم المحدثه، و أن يجعل على أبوابهم صور شياطين خشب، و أن لا يستعان بهم في شيء من الدواوين. انتهى ملخصا من تاريخ الخميس.

و في تاريخ ابن كثير ما ملخصه: كان المتوكل محببا إلى رعيته قائما في نصره أهل السنة، و قد شبهه بعضهم بالصديق في قتله أهل الرده لأنه نصر الحق و رده عليهم حتى رجعوا إلى الدين، و بعمر بن عبد العزيز حين ردّ مظالم بنى أمية. و قد أظهر السنة بعد البدعة و أحمد أهل البدع و بدعتهم بعد انتشارها و اشتهاؤها، و قد رآه بعضهم في المنام بعد موته و هو جالس في نور، قال: فقلت: المتوكل، قال:

المتوكل، قلت: فما فعل بك ربك، قال: غفر لي، قلت: بماذا؟ قال: بقليل من السنة أحييتها- و روى الخطيب عن صالح بن أحمد أنه رأى في منامه ليلة مات المتوكل كأن رجلا يصعد به إلى السماء و قائلا يقول:

ملك يقاد إلى مليك عادل متفضل في العفو ليس بجائر

قال الفتح بن خاقان: دخلت يوما على المتوكل فإذا هو مطرق مفكر، فقلت: يا أمير المؤمنين ما لك مفكر؟ فو الله ما على الأرض أطيب منك عيشا و لا أنعم منك بالا. قال: بلى أطيب مني عيشا رجل له دار واسعة و زوجة صالحة و معيشة حاضرة، لا يعرفنا فتؤذيه و لا يحتاج إلينا فنؤذيه.

قتل رحمه الله تعالى ليلة الأربعاء أول الليل لأربع خلت من شوال سنة سبع و أربعين و مائتين، بالمتوكلي و هى الماحوزية و دفن بالجعفرية، و له من العمر أربعون سنة، و كانت مدة خلافته أربع عشرة سنة و عشرة أشهر و ثلاثة أيام، و كان أسمر حسن العينين نحيف الجسم خفيف العارضين أقرب إلى القصر. و الله سبحانه أعلم. انتهى من تاريخ ابن كثير.

جاء عنه كتاب محاضرات الخضرى ما نصه:

هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد و أمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع ولد في شوال سنة ٢٠٦ ست و مائتين. بقم الصلح و لم يكن بالمرضى عنه في حياة أخيه، حتى كان الواثق قد و كمل به رجلين هما: عمر بن فرج الرخجي و محمد بن العلاء الخادم فكانا يحفظانه و يكتبان بأخباره في كل وقت و قد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٥٢

جر عليه ذلك انحراف الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فكان لا يلقاه لقاء حسنا و كانت صكاك رزقه لا تختم له إلا بعناء حتى أن عمر بن فرج أخذ منه الصك مرة فرمى به صحن المسجد الذي كان عمر يجلس فيه و كان الذي يصلح من شأنه عند الواثق أحمد بن أبي دؤاد. و لما توفي الواثق، و لم يكن عهد إلى أحد، اجتمع كبراء الدولة: أحمد بن أبي دؤاد القاضي، و محمد بن عبد الملك الوزير، و عمر بن فرج، و أحمد بن خالد الكاتبان و إيتاخ و وصف من قواد الأتراك، و تناظروا فيمن يولونه الخلافة، فأشار محمد بن عبد الملك بمحمد بن الواثق. و كاد الأمر يتم له، إلا أنهم لما جاؤا به، و ألبسوه دراعة سوداء و قلنسوة رصافية، قال لهم وصيف:

أما تتقون الله؟ تولون مثل هذا الخلافة و هو لا- تجوز معه الصلاة، ثم أشار ابن أبي دؤاد بجعفر بن المعتصم، فاتفق رأيهم عليه و أحضروه فألبسه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة و عممه و قبله بين عينيه، و قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. و بايعه الحاضرون، و لقب بالمتوكل على الله، ثم بايعته العامة. و تم ذلك كله في اليوم الذي توفي فيه الواثق و هو ٢٤ ذى الحجة سنة (٢٣٢) اثنين و ثلاثين و مائتين (١١ أغسطس سنة ٨٤٧) ميلادية. و استمر خليفه إلى أن قتل ليلة الخميس رابع شوال سنة (٢٤٧) سبع و أربعين و مائتين (١١ ديسمبر سنة ٨٤١) ميلادية فكانت مدته ١٤ سنة و تسعة أشهر و عشرة أيام و كانت سنه إذ قتل ٤١ سنة. انتهى من المحاضرات.

و جاء فيها أيضا: و لقد كان المتوكل ينفر من استعمال أهل الذمة في الدواوين و يكره أن يظهرها في الطريق بمظهر المسلمين و لذلك أصدر أمره في سنة (٢٣٥) خمس و ثلاثين و مائتين، أن يلبسوا زيا خاصا بهم و هو الطيالسة العسليّة و الزنانير و أن تكون لهم سروج خاصة بهم لركوبهم. و نهى أن يستعان بهم في الدواوين و أعمال السلطان التي يجرى فيها أحكامهم على المسلمين. و نهى أن يتعلم أولادهم في كتابات المسلمين، و لا يعلمهم مسلم و كتب منشورا إلى عماله في الآفاق بذلك كتبه إبراهيم بن العباس الصولي في شوال سنة (٢٣٥).

قال المسعودي: و كانت أيام المتوكل في حسننها و نضارتها و رفاهية العيش بها و حمد الخاص و العام لها و رضاهم عنها أيام سراء لا ضراء. كما قال بعضهم:

كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السيل و رخص السعر و أمانى الحب و أيام الشباب ...

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٥٣

و جاء فيها أيضا: و من مناقب المتوكل أنه لما أحضروا بين يديه أبا الحسن على الهادي ابن محمد الجوادى على الرضا بن موسى الكاظم، كان المتوكل يشرب.

فأجلسه إلى جنبه و عرض عليه الكأس فاستعفى فأعفاه، ثم قال له: أنشدنى شعرا، فأنشده:

باتوا على قلل الأجيال تحرسهم غلب الرجال فما أغتتهم القلل

و استنزّلوا بعد عز عن معاقلهم فأودعوا حفرا يا بئسما نزلوا

ناداهم صارخ من بعدها قبروا أين الأسرة و التيجان و الحلل

أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الأستار و الكلل

فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طال ما أكلوا دهرا و ما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

و طالما عمّروا دورا لتحصنهم ففارقوا الدور و الأهلين و انتقلوا

و طالما كنزوا الأموال و ادخروا فخلفوها على الأعداء و ارتحلوا
أضحت منازلهم قفرا معطلة و ساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا
فبكى المتوكل حتى بليت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب و أمر له بأربعة آلاف دينار يقضى بها دينه و رده إلى منزله مكرما. انتهى
كل ذلك من محاضرات الخضرى.

ترجمة الأمير مقبل القديدى

فى أوائل سلطنة الملك الأشرف برسباى ثامن ملوك الجراكسة بمصر أرسل إلى مكة شرفها الله تعالى الأمير مقبل القديدى الأشرف
و ذلك فى حدود سنة (٨٢٤) ست و عشرين و ثمانمائة، و أسند إليه إجراء عمارات و إصلاحات عامة بالمسجد الحرام.
فعمر الأمير مقبل القديدى الرخام المفروش فى باب الكعبة من الداخل و جعل فيه رخاما جديدا، و أصلح الأساطين التى فى جوف
الكعبة الشريفة و أحكمها، و حضر من عمارة الكعبة شيخ الكعبة و القضاة الأربعة و ناظر الحرم و المعمار جمال الدين يوسف، و أيضا
عمر الأمير المذكور باب الجنائز أحد أبواب المسجد الحرام لأنه كان قد سقط ما فوق أحد البابين إلى منتهى المسجد المقابل لرباط
المراعى

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٥٤

"محل مدرسة السلطان قايتباى،" و عمر أيضا أماكن بين باب على و باب العباس و موضع آخر يتصل بباب الأفضلية، و عمر الأمير
مقبل عدة عقود بالمسجد الحرام، و أحكم الأساطين التى عليها العقود و هى سبعة أساطين فى الرواق الأول و ثمانية فى الذى يليه و
ثلاثة فى الذى يليه و سبعة متصلة بجوار المسجد، و جدد بعض أبواب المسجد و أصلح سقفه. انتهى باختصار من تاريخ القطبى.

ترجمة قايتباى ملك مصر

جاء فى كتاب «أخبار الأول فىمن تصرف فى مصر من أرباب الدول» للإسحاقى ما يأتى:

الملك الأشرف قايتباى المحمودى تولى مصر فى سادس رجب سنة (٨٧٢) اثنتين و سبعين و ثمانمائة هجرية، و للسلطان قايتباى
محاسن لا تحصى من خيرات و عمارات و مساجد و رباطات و مدارس و أسبله و غير ذلك منها أنه أمر ببناء مسجد الخيف فبنى بناء
محكما و بوسطه قبة عظيمة و بالمسجد خوخة صغيرة يتوصل منها إلى الجبل الذى فى سفح غار المرسلات و هو الموضع الذى نزل
فيه سورة المرسلات على النبى صلى الله عليه و سلم.

ثم قال رحمه الله: و من أثر عمارة السلطان قايتباى مسجد نمره الذى بجبل عرفات. و من آثاره أيضا أنه أمر تاجره، الخواج شمس
الدين بن الزمن، أن يبنى مدرسة ملاصقة للحرم المكى. فبنى له مدرسة و أحكم بناءها بالرخام الملون و السقف المذهب، و بها
شبابيك مطله على الحرم الشريف، و هى على يسار الداخل من باب السلام. و قرر بها خدمة و طلبه علم للمذاهب الأربعة، و هى باقية
عامرة لم يحصل بها خلل فى أوضاعها و لا بنائها، و ينزل بها أمير الحاج المصرى.

و مما وقع فى زمن السلطان قايتباى من الأمر المهول و الحادث العظيم حريق المسجد الشريف النبوى على ساكنه أفضل الصلاة و
السلام و ذلك فى ثالث عشر رمضان سنة ست و ثمانين و ثمانمائة فأرسل أمير المدينة قاصدا إلى مصر لأجل عرض ذلك للسلطان
قايتباى فتهول لتلك الحادثة العظيمة و توجه إلى عمارة المسجد الشريف و عرف نعمة الله تعالى عليه بتأهيله لهذا الشرف العظيم
فأرسل نحو من ثلثمائة من أرباب الصنائع و كثيرا من البغال و الحمير و سائر مؤنهم و مبلغا نحو مائة ألف دينار أو أكثر، و جهز المؤمن
الكثيرة حتى امتلأت البنادر من الخيرات، و أمر

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٥٥

بعمارة المسجد الحرام و أن تبني له مدرسه ملاصقة للحرم الشريف و لما تمت العمارة أرسل إلى المدينة المنورة خزانه كتب و جعل مقرها بالمدرسه و أرسل عدة مصاحف و وقف عدة قرى بمصر تحمل غلالها إلى جيران رسول الله صلى الله عليه و سلم، و المدرسه باقيه إلى الآن في غاية الانتظام و هي على يسار الداخل إلى الحرم الشريف النبوي و ينزل بها أمير الحاج الشريف المصري، قال بعض الشعراء:

لم يحترق حرم النبي لريبه تخشى عليه و لا هنالك عار
لكنما أيدي الروافض لامست ذاك الضريح فطهرته النار

و حج السلطان قايتباي حجه عظيمه (و عن الملوك فلا تسل) و كان واسطه عقد ملوك الجراكسه و أقربهم ميلا إلى قلوب الرعيه و أكملهم عقلا و عاشت الرعيه في أيامه عيشا رغيدا إلى أن غدر به الزمن الجائر و استيقظت له عيون الليالي الغواير فقدم على ما قدم من عمله و ترك ما جمعه من متاع الدنيا وراء ظهره و أدرج في أكفان عمله، بعدما غسل بدموع فقره و أنزل من سريره إلى قبره. و كان انتقاله إلى رحمه الله تعالى في آخر يوم الأحد لثلاث بقين من شهر ذي القعدة سنه إحدى و تسعمائه و صلى عليه يوم الاثنين و دفن بترتبه، التي أنشأها بالصحراء في حال حياته، و هي في غاية الحسن و بها مساكن للفقراء و أرباب الوظائف و لها أوقاف جاريه. و هي مسكونه معموره إلى الآن، ليس بالصحراء أعمر منها، و كانت مده سلطنته تسعه و عشرين سنه و أربعه أشهر و لم يملك أحد من الجراكسه قدر مدته.

انتهى من الكتاب المذكور.

و الحقيقه أن للسلطان قايتباي بالحرمين خدمات كثيره و خيرات عميمه، و كان موفقا لأعمال البر و خدمه المسلمين فرحمه الله تعالى رحمه واسعه، و جزاه عن أعماله خير الجزاء.

ترجمه الأمير إبراهيم المهندار

هو الأمير إبراهيم بن تغرى بردى المهندار ثم الدفتردار بمصر، كان دفتردار ديوان مصر، و كان فاضلا عالما كاتباً جواداً كريماً، و كان عاقلاً مفكراً مدبراً صادق القول محبا لنظام الأعمال و ترتيبها. انتدبه و أرسلته من مصر إلى مكة، شرفها الله تعالى، ابنه السلطان سليمان خان، من سلاطين آل عثمان، ليقوم بمكه بإصلاح عين زبيده. و أعطته ابنه

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٥٦

السلطان المذكور خمسين ألف دينار ذهبا لهذا العمل. فوصل إلى جدّه لثمان بقين من ذي القعدة سنه (٩٦٩) تسع و ستين و تسعمائه ثم وصل إلى مكة و كان محرما بالحج فقابله أميرها الشريف حسن أبو نمي مقابله تليق بمقامه و مد له سماطا عظيما كبيرا فأكل منه هو و خواصه ثم أذن للفقهاء و الفقراء و عامه الناس فأكل الجميع و زاد شيء كثير فرقوه على المساكين.

ثم بعد أداء مناسك الحج قام الأمير إبراهيم المذكور بهمه و نشاط و إخلاص و أمانه بتنظيف الآبار بمكه التي يستقى منها الناس. و حفرها و أخرج ما فيها من التراب فكثرت المياه بها، ثم التفت إلى دبول عين عرفات أي مجاريها، مبتدئا من أعلا مجرى عين زبيده من وادي نعمان، و أتى بالعمال و البنائين و المهندسين و جلبهم من الآستانه و مصر و الشام و حلب و اليمن و أحضر الحدادين و الحجارين و القطاعين و النجارين و غيرهم ممن يحتاج إليهم، كما أحضر جميع ما يحتاج إليه من الأدوات من مصر من مكاتل و مساحي و مجاريف و حديد و فولاذ و نحاس و رصاص و غير ذلك، و عين لكل طائفة قطعته من الأرض لحفرها و تنظيف الدبول.

و كان الأمير إبراهيم يظن أنه يفرغ من هذا العمل في أقل من عام واحد، و لكن كان الأمر خلاف ما يظن، حيث وصلوا في العمل صخور صلبه و أحجار من الصوان، فكانوا يوقدون عليها النار مقدار مائه حمل من الحطب الجزل، يوقدونه ليله كامله ثم يكسرونها. و

هكذا كل يوم و ليلة إلى أن فرغ الحطب من جبال مكة، فصار يجلب من المسافات البعيدة و غلا سعره، و صار الأمير إبراهيم يطلب من السلطنة في استامبول إمداده بالمصاريف حتى صرف على العمل أكثر من خمسمائة ألف دينار، و حتى تعب الأمير و تعب معه خدمه و أولاده و مماليكه، و لم يتم العمل في حياته بل أتمه غيره، فقد جاءه الأجل المحتوم بمكة في اليوم الثاني من رجب سنة أربع و سبعين و تسعمائة و دفن بالمعلا، و كانت ولادته سنة اثنتين و عشرين و تسعمائة رحمه الله و أحسن إليه.

وجود سقفين للمسجد الحرام قديما

و الظاهر و الله تعالى أعلم أنهم جعلوا للمسجد الحرام السقف الثاني مما يلي أرضه أى السقف الذى تحت سقف السطح، ليزخرفوه بالذهب، و يدلنا على هذا التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم ؛ ج ٢-٤ ؛ ص ٥٥٧ التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٥٧ ما ذكرناه الإمام الأزرقى في كتابه تاريخ مكة، عند ذكر صفة سقف المسجد و هو: و للمسجد الحرام سقفتان أحدهما فوق الآخر، فأما الأعلى منهما فمسقف بالدوم اليماني و أما الأسفل فمسقف بالساج و السيلج الجيد، و بين السقفين فرجة قدر ذراعين و نصف و السقف الساج مزخرف بالذهب، مكتوب في دوارات من خشب فيه، قوارع القرآن و غير ذلك من الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم و الدعاء للمهدى. انتهى كلامه.

فإن قيل: لما ذا لم يكتفوا بسقف واحد للمسجد، و يزخرفوا وجهه الذى يلي الأرض بالذهب، و يكتبوا فيه ما شاؤوا؟ نقول: إن الكتابة و النقش و الزخرفة بالذهب و الفضة و الألوان، تحتاج إلى مدة طويلة و إلى مصاريف عظيمة، و لا بد من المحافظة عليها محافظة تامة فلو جعل ذلك فى السقف الأعلى لتعرض كل ذلك للخطر و التلف عندما يطرأ على السقف خلل يؤدي إلى نزول ماء المطر منه إلى أسفل.

أما عمل سقف ثان تحت السقف الأعلى لأجل الكتابة و الزخرفة، فإنه عين الصواب و الحكمة لتكون الكتابة و النقش و الزخرفة محفوظة إلى ما شاء الله تعالى، فالخلل يسرع إلى السقف الأول قبل الثانى. فانظر رحمك الله إلى بعد نظر أهل القرون الأولى، و عنايتهم بالفنون الجميلة و عنايتهم بالمحافظة عليها.

التعميرات و الترميمات الواقعة فى المسجد الحرام

تقدم الكلام على من زاد فى المسجد الحرام و وسّعه مفصلا، و هنا نتكلم بصورة مختصرة عن بعض من أجرى من التعميرات و الترميمات فى المسجد الحرام، فإن ذكر ذلك مما يدل على ما لهذا المسجد العظيم من المكانة السامية فى قلوب كافة المسلمين فنقول و بالله تعالى التوفيق: نبتدى من عمل الخليفة عبد الملك بن مروان من سنة (٧٥) خمس و سبعين من الهجرة، أما ما كان قبله من عمل الحجاج و قبل هذا من زيادة عبد الله بن الزبير و زيادة عثمان قبله و زيادة عمر قبل الجميع رضى الله تعالى عنهم، فلا نتكلم عن ذلك اكتفاء بما تقدم الكلام عن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٥٨

أعمالهم فى المسجد الحرام جزاهم الله تعالى خير الجزاء عن خدماتهم للإسلام و المسلمين.

فنقول و بالله التوفيق و منه نستمد العون و المدد فهو الفتاح العليم لا راد لفضله الحسى و المعنوى.

لقد عمّر المسجد الحرام أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان سنة (٧٥) خمس و سبعين من الهجرة، أى بعد عمارة الحجاج للكعبة بعام واحد، و لم يزد عبد الملك فى المسجد شيئا غير أنه رفع جداره و سقّفه بالساج «و هو ضرب من الشجر صلب الخشب» و عمّر عمارة حسنة و جعل على رأس كل أسطوانة مثقالا من الذهب.

و عمره أيضا الوليد بن عبد الملك بن مروان في سنة (٩١) أحد و تسعين و نقض عمل أبيه عبد الملك و عمل عملا محكما، و كان إذا عمل المساجد زخرفها. و لقد ترقت الصناعات في زمنه حتى أن الناس إذا التقوا تساءلوا عن البناء و الصناع.

و هو أول من نقل الأساطين الرخام للمسجد الحرام من مصر و الشام، و أزر المسجد بالرخام و جعل له شرافات، و جعل على حائطه الطيقان- العقود- و جعل في وجوه الطيقان من أعلاها الفسيفساء. و هو أول من زين بها. و لقد كان الوليد مغرما ببناء المساجد، ذكر أن عماله كتبوا إليه أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس فكتب إليهم أن ابنوا المساجد، رحمه الله تعالى و أحسن جزاه.

ذكر الغازي في تاريخه نقلا عن الإعلام ما خلاصته: و في أيام المعتمد على الله سنة (٢٧١) إحدى و سبعين و مائتين وقع وهن في بعض جدران المسجد الحرام من الجانب الغربي قبل زيادة باب إبراهيم و كان في نفس الجدار الغربي من المسجد الشريف باب كان يقال له باب الخياطين و كان بقربه دار تسمى دار زبيدة بنت أبي جعفر المنصور فسقطت تلك الدار على سطح المسجد الحرام فانكسرت أخشابه و انهدمت أسطوانتان من أساطين المسجد الشريف و مات تحت ذلك عشرة أنفس من خيار الناس.

و كان عامله بمكة يومئذ هرون بن محمد بن إسحاق و قاضيها يوسف بن يعقوب القاضي فلما رفع أمر هذا الهدم إلى بغداد أمر أبو أحمد الموفق بالله «و هو أخو أمير المؤمنين المتوكل على الله» عامله على مكة هرون المذكور بعمارة ما تهدم من المسجد الشريف و جهز إليه مالا بسبب ذلك فشرع في عمارته و جدد له

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٥٩

سقفا من خشب الساج و نقشه بالألوان المزخرف و أقام الأسطوانتين الساقطتين و بنى عقودهما و ركب السقف و نصب في أيام عمارته سرادقا بين العمال و البنائين و بين الناس يستريحون عن أعين من المسجد إلى أن أكمل ذلك في سنة اثنين و سبعين و مائتين. ثم كتب و نقش على حجرتين تاريخ عمارة المسجد الحرام و وضعهما في جدار المسجد، و قد تقدم نص كلام الغازي عن هذه العمارة في آخر الكلام على زيادة محمد المهدي للمسجد الحرام.

و جاء في تاريخ الغازي في الفصل الثالث عند ذكر ما عمرته ملوك الجراكسة في المسجد الحرام ما نصه:

قال في الإعلام: و في أيام الناصر فرج بن برقوق وقع الحريق في المسجد الحرام في ليلة السبت لليلتين بقيتا من شوال سنة اثنتين و ثمانمائة و سبب ذلك ظهور نار من رباط رامشت الملاصق لباب الحزورة من أبواب المسجد الحرام في الجانب الغربي منه و رامشت هو الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي وقف هذا الرباط على الرجال الصوفية أصحاب المرقعات في سنة تسع و عشرين و خمسمائة فترك بعض سكان الخلاوى سراجا موقودا في خلوته و برز عنها فسحبت الفارة الفويسقة فتيل السراج منه إلى خارجه، فأحرقت في الخلوة و اشتعل اللهب في سقف الخلوة و خرج من شباكه المشرف على الحرم الشريف و اتصل بسقف المسجد الحرام و عجز الناس عن طفيه لعلوه و عدم وصول اليد فعم الحريق الجانب الغربي من المسجد الحرام و استمرت النار تأكل من السقف و تسير و لا- يمكن الناس إطفاءها لعدم الوصول إليها بوجه من الوجوه إلى أن وصل الحريق إلى الجانب الشامي و استمر يأكل من سقف الجانب الشمالي إلى أن انتهى إلى باب العجلة و كان هناك أسطوانتان هدمتهما السيل العظيم المهول الذي دخل المسجد الحرام في اليوم الثامن من جمادى الأولى من هذا العام يعني عام حريق المسجد الحرام و أخرج عمودين من أساطين الحرم الشريف عند باب العجلة بما عليهما من العقود و السقوف فكان ذلك سببا لوقوف الحريق و عدم تجاوزه عن ذلك المكان و إلا لعم المسجد الحرام جميعه من الجوانب الأربعة فاقتصر الحريق إلى باب العجلة و سلم الله تعالى باقي المسجد الحرام.

و كم لله من لطف خفي يدق خفاه عن فهم الذكي

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٦٠

فصار ما احترق من المسجد الحرام أكواما عظاما تمنع من رؤية الكعبة الشريفة و من الصلاة في ذلك الجانب من المسجد.

قال الحافظ السخاوي في ذيله على دول الإسلام للذهبي: و في آخر شوال من سنة اثنتين و ثمانمائة وقع بالحرم المكي حريق عظيم

على نحو ثلث المسجد الحرام، و لو لا العمودان اللذان وقعا من السيل قبل ذلك لاحترق المسجد الحرام جميعه.

واحترق من العمد الرخام مائة و ثلاثون عمودا، صارت كلها كلسا و لم يتفق فيما مضى مثله. و كان وقوع السيل فى جمادى الأولى من هذه السنة بعد مطر عظيم الانسكاب كأفواه القرب ثم هجم السيل فامتأ المسجد حتى بلغ القناديل و دخل الكعبة من شق الباب فهدم من الرواق الذى يلي باب العجلة عدة أساطين و خرب منازل كثيرة و مات فى السيل جماعة.

قال الفاسى: ثم قدر الله تعالى عمارة ذلك فى مدة يسيرة على يد الأمير بسق الظاهرى و كان قدومه إلى مكة لذلك فى موسم سنة ثلاث و ثمانمائة و كان هو أمير الحاج المصرى و تخلف بمكة بعد الحج لتعمير المسجد فلما رحل الحاج من مكة شرع فى تنظيف الحرم الشريف من تلك الأكوام التراب و حفر الأرض و كشف عن أساس المسجد الشريف و عن أساس الأسطوانات فى الجانب الغربى من الحرم الشريف المحترق و بعض الجانب الشامى منه إلى باب العجلة فظهر أساس الأسطوانات مثل تقطيع الصليب تحت كل أسطوانة فبناها و أحكم تلك الأساسات على هيئة بيوت الشطرنج تحت الأرض و بناها حتى رفعها إلى وجه الأرض على أشكال زوايا قائمة و قطع من جبل بالشبيكة على يمين الداخل إلى مكة، أحجار صوان صلبه منحوتة على شكل نصف دائرة يصير على آخر منحوت مثله دائرة تامة فى سمك ثلثى ذراع وضعت على قاعدة مربعة منحوتة على محل التقاطع الصليبي على وجه الأساس المرتفع على الأرض و وضعت عليها دائرة أخرى مثل الأولى و وضع بينهما بالطول عمود حديد منحوت له بين الحجرين المدورين و سبك على جميع ذلك بالرخاص إلى أن انتهى طوله إلى طول أساطين المسجد فيوضع عليه حجر منحوت من المرمر هو قاعدة دينك العمودين من فوق طاق بعقد إلى العامود الآخر و بينى ما بين ذلك بالآجر و الجص إلى أن يصل إلى السقف إلى أن تم الجانب الغربى من المسجد الحرام على هذا الحكم و بقيت القطعة التى من الجانب الشامى إلى باب العجلة فأكملوها بالقطع من عمد الرخام الأبيض موصلة

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٦١

بالصفائح من الحديد إلى أن لاقوا به العمد التى بناها بالحجر الصوان المنحوت لعدم القدرة على العمد الرخام فصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام بعمد الرخام ثلاثة أروقة و الجانب الغربى وحده بالحجر الصوان المنحوت المدور على شكل عمد الرخام و كملت عمارة هذه العمد فى أواخر شعبان سنة أربع و ثمانمائة و لم يبق غير عمل السقف و آخر عمله لعدم وجود خشب يصلح لذلك بمكة إذ لا يوجد غير خشب الدوم و خشب العرعر و ليس لذلك طول و لا قوة و يحتاج إلى خشب الساج و لا يجلب إلا من الهند أو خشب الصنوبر و السرو و نحو ذلك و لا يجلب إلا من الروم فلزم تأخر إكماله إلى إحضار القدر الذى يحتاج إليه من ذلك الخشب و شكر الناس هممة الأمير بسق على سرعة تمام هذا المقدار من العمل فى هذه المدّة اليسيرة و مبادرته إلى تنظيف المسجد إلى أن صلح للصلاة فيه و كان ذا هممة عالية و حسن توجه و كان كثير الصدقة و الإحسان. و حج الأمير بسق فى ذلك العام و عاد إلى مصر لتجهيز ما يحتاج إليه من خشب سقف الجانب الغربى من المسجد الحرام و وصل إلى مصر فى أوائل سنة خمس و ثمانمائة و كان صاحب مكة يومئذ جد ساداتنا أشرف مكة الآن الشريف حسن بن عجلان. و فى سنة سبع و ثمانمائة قدم إلى مكة الأمير بسق لعمارة سقف الجانب الغربى من المسجد الحرام و غيره مما تشعب من سقف المسجد الشريف من كل جانب، فنهض إلى هذه الخدمة و أحضر الأخشاب المناسبة لذلك، و جلبها من بلاد الروم و هياها لعمل السقف و نقشها بالألوان و زوقها و استعان بكثير من خشب العرعر الذى يؤتى به من جبال الحجاز من جهة الطائف لعدم وجود خشب الساج يومئذ فى مكة و بذل همته و اجتهاده إلى أن سقف جميع الجانب الغربى من المسجد الحرام و أكمله بخشب العرعر المذكور. و عمّر معه بعض الجانب الشامى أيضا إلى باب العجلة فتم عمارة المسجد الشريف على تلك الأسطوانات المنحوتة من الحجر الصوان، و علّق فى تلك الأسقف سلاسل من نحاس و حديد لتعليق القناديل فى الرواق الوسطانى من الأروقة الثلاثة، على حكم سائر المسجد الحرام غير أن الجانب الشرقى و اليمانى و أكثر الشامى إلى باب العجلة كان فى كل عقد من العقود التى تلى صحن المسجد الشريف ثلاث سلاسل أحدها فى وسط كل عقد و الثانى عن يمينه

و الثالث عن شماله لتعليق القناديل. و أما هذا الجانب الغربي كانت فيه السلاسل على هذا الحكم فلما احترق هذا الجانب و أعيدت عقوده لم تركب فيها هذه السلاسل. و لا أدري هل كانت هذه السلاسل التي هي خارج عن الأروقة تحت التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٦٢

العقود البرانية منها تعلق فيها القناديل أحيانا أم كانت لمجرد الزينة؟ و لم أطلع على ذكر قناديلها و لا كيف كانت و متى بطلت. و أكملت عمارة سقف الجانب الغربي و ما احترق من الجانب الشامي إلى باب العجلة في سنة سبع و ثمانمائة و عمر مع ذلك الجانب الثلاثة من المسجد الحرام مواضع كثيرة من سقفها كان قد انكسر أعوادها و مال بعضها و كان يسيل منها الماء إلى المسجد الشريف فأصلح الأمير بيسق جميع ذلك بالطباطب و النورة في سطح الأسقف و ذلكها و سواها و أتقن عملها و عمّر ما في صحن المسجد من المقامات الأربع على الهيئة القديمة و بذل في صرف ذلك الأموال العظيمة و شكره الناس على ذلك و كان ذلك في أيام الناصر زين الدين أبي السعادات فرج بن برقوق الجركسي ثاني ملوك الجراكسة. اه. انتهى من تاريخ الغازي.

ثم قال الغازي أيضا عند ذكر عمارة برسباي في المسجد الحرام ما نصه:

قال في تحصيل المرام: و في سنة خمس و عشرين و ثمانمائة تولى السلطان برسباي و كان عامله بمكة الأمير مقبل القديدي، فأمره بعمارة أماكن متعددة في الجرم، قد استولى عليها الخراب. فأحسن بنائها و جدّد كثيرا من سقف المسجد الحرام و أيضا عمّر باب الجنائز و ذلك في سنة ست و عشرين و ثمانمائة. قال النجم عمر بن فهد: و في هذه السنة أي سنة ست و عشرين و ثمانمائة عمر الأمير مقبل القديدي عدة عقود بالمسجد الحرام في الجانب الشامي من الدكة المنسوبة إلى القاضي أبي السعود بن ظهيرة إلى باب العجلة خلف مقام الحنفي و زاد في عرض العقود التي تلي الصحن من هذا الجانب ثلاثة عقود في الصف الثالث، و أحكم الأساطين التي عليها هذه العقود، و هي سبعة في الرواق الأول و ثمانية في الذي يليه و ثلاثة في الذي يليه و سبع متصلة بجدار المسجد، و جدّد من أبواب المسجد الحرام باب العباس و هو ثلاثة طاقات و باب على و هو ثلاثة كذلك، و الباب الأوسط من أبواب الصفا و هو خمسة و باب العجلة و هو واحد و أحد بابي الزيادة و هو الواقع في الركن الغربي من الزيادة و رمم باقي أبواب المسجد و بيض غالبه و أصلح سقفه و كل ذلك على يد الأمير مقبل القديدي و المعمار جمال الدين يوسف. انتهى.

و نقل الغازي عن ابن فهد، أنه في سنة (٨٣٠) ثلاثين و ثمانمائة وصل سعد الدين إبراهيم القبطي الفؤي المصري الشهير بابن المرأة مباشرة للديوان بساحل جدة و ناظرا عليها و صحبتته شاهين العثماني شادا على الديوان و معهما مراسيم بعمارة التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٦٣

المسجد الشريف و ترميمه و جعل الحصباء فيه و بطحه. فحرت بالبقر جميع المسجد الحرام و كوّم التراب جميعه كيما نأثرت ثم رفعت بالفصلة و الحمير إلى أسفل مكة و زال الكرش من المسجد و بطح بطحا مغربلة من ذي طوى بأسفل مكة بوادي الطندباوي. و عمرت ثمانية عقود بالجانب الشمالي مما يلي صحن المسجد الحرام ستة تلي الأسطوانة الحمراء إلى صوب باب العمرة و اثنتان يليان إلى صوب باب بني شيبه. و فرغ من ذلك كله في شعبان، و بيض شاهين المقامات الأربعة و مقام إبراهيم و عقد الصفا، و بني درجا على أبواب المسجد، مردا للسيل عنه، على باب الزيادة و العجلة و الندوة و باب إبراهيم و باب الرحمة و أجياد و الصفا و بقية الأبواب. انتهى.

فقوله: و باب الندوة غلط من الناسخ إذ لا يوجد باب بهذا الاسم، و باب العجلة و كان يقال له باب بني تيم، و هو المسمى الآن بباب التكية المصرية بجوار باب أم هانئ.

و نقل الغازي عنه أيضا: أنه في سنة (٨٣٨) ثمان و ثلاثين و ثمانمائة قلع الأمير سودون المحمدي جميع رخام الشاذروان و عوضه بغيره، ثم شرع في هدم مثذنة باب سويقه، و بناها بناء عاليا. و وصل إليه من القاهرة ستون ذراعا رخاما لمرمة الحجر و شاذروان البيت، و خمسون حملا- من الجبس لبياض أروقة المسجد الحرام، و عشرة قناطير حديد لعمل مسامير، و أربعون قطعة خشب لشد أروقة

المسجد الحرام.

ثم قال الغازي أيضا عن عمارة جقمق الجركسى فى المسجد الحرام ما نصه:

و فى سنة ثلاث و أربعين و ثمانمائة بيض مئذنة باب الحزورة الأمير سودون المحمدى عامل مكة من قبل السلطان جقمق و بيض مئذنة باب السلام و أصلح مئذنة باب العمرة و رمم أسفل مئذنة باب على و أصلح سقف المسجد الحرام من تلك الجهة لخرابه و أصلح الرفرف الدائر الذى كان بالمسجد فى زمنه و بيض علو مقام إبراهيم و مقام الحنفى و عتبة باب إبراهيم أو قبهته، و الأميال التى بالمسعى.

ذكره فى تحصيل المرام. انتهى.

و نقل الغازي عن ابن فهد أيضا: أنه فى سنة (٨٤٦) شرع الأمير تنم فى هدم سقف الرواق الغربى من المسجد الحرام و سقف بعضه، ثم فى سنة (٨٤٨) أكمل تنوير بقية سطح المسجد الحرام من ناحية باب الصفا و كمل سقف جميع الرواق التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٦٤

الغربى من المسجد الحرام و عمّر فيه أماكن و قلع الرخام الذى بأرض حجر إسماعيل جميعه خلا الرخامة الخضراء و أصلحه، و كشف سقف بيت بئر زمزم فأصلحه و سقفه ثانيا.

و نقل الغازي عن مئذع الكرم: أنه فى سنة (٨٥٢) عمّر بيرم خواجه ناظر الحرمين قطعة من المسجد الحرام و رمم فيه. انتهى.

و نقل الغازي عن ابن فهد: أنه فى سنة (٨٨١) غير رخام حجر إسماعيل داخلا و خارجا، و عمل الرصاص بأرض المطاف حول الكعبة. و نقل الغازي عن العلامة عبد العزيز بن عمر بن تقى الدين ابن فهد المكي فى كتابه بلوغ القرى فى ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى فى حوادث سنة (٨٨٥) أنه فى يوم السبت ثالث عشر شهر شوال أو اليوم الذى يليه حضر قاضى القضاة ناظر الحرم الشريف برهان الدين ابن ظهيرة القرشى الشافعى بالمسجد الحرام و حضر الأمير المحتسب سنقر الجمالى و الخواجه كمال الدين الظاهر شاه بندر و كشفوا على أماكن بالرواق الوسطانى من الناحية الغربية من المسجد الحرام و اتفقوا على إصلاح خشبان فيه مكسرين و على إصلاح أماكن فى نواحي من سقف أروقة المسجد الحرام ينزف منها ماء المطر. ففى يوم الثلاثاء سادس عشر الشهر كشفوا عن ثلاثة أماكن فى الرواق المذكور فى مكان ثلاث خشبات و فى مكان اثنين و فى مكان واحدة و خشبهم صنوبر و أعادوا بدلهم خشبا، و كمل إصلاح ذلك فى نحو جمعة ثم عمل الثورة من فوقه.

و نقل الغازي عن بلوغ القرى فى ذيل إتحاف الورى المذكور سابقا: أنه فى شهر صفر سنة (٨٩٤) أربع و تسعين و ثمانمائة شرع فى إصلاح حاشية المطاف بإخراج البطحات التى بها و سببه أنه وقع مطر و سال سيلا يسيرا فدخل من باب العجلة إلى المسجد الحرام و كانت العتبة مسدودة لم تحفر على جرى عاداتها فأمر الناظر قاضى القضاة جمال الدين أبا السعود ابن ظهيرة بحفر جميع حاشية المطاف فحفرت و أخرج منها بطحات كثيرة لكنها مخلوطة بتراب فغربلت و أخرج التراب من المسجد و بطحت الحاشية ببعض البطحات و فرق باقيها بالمسجد فى الأماكن المحتاجة لذلك و حفر أيضا الزقاق المتوصل إلى باب السدة فإنه كان ارتفع عن الطريق و منع السيل من التوصل إلى مجرى العتبة التى عند الباب و توصل إلى باب

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٦٥

العجلة فوجد مجرى العتبة مسدودا فدخل المسجد و لعله وصل إلى المطاف فعمل ذلك لأجل هذا. و كان إكمال العمل فى أوائل شهر ربيع الأول.

و فى شهر جمادى الآخر سنة (٩١٥) عمل الخواجه محمد بن عباد الله الرومى فى المسجد أشياء، منها: إن قبة مقام الحنفى هدت و أعيدت بأخشاب جديدة و نورت و بيضت و جعل لها هلال جديد و غير أخشاب الشباييك التى بزمزم و رخم قبة الفراشين و شد الشباييك التى تلى باب الصفا و هى ثلاثة و الشباييك اللذين يليانها أى الشباييك التى من جهة الصفا من جهة الكعبة و هدم التى من

جهة مؤخر المسجد و بنى بالآجر و النورة و ذلك للخلل الذي قالوه، و كشط الدهان الذي بعلمو مقام الخليل عليه الصلاة و السلام و الساباط المتصل به و أعيد جديدا ثم جعلت القبّة خضراء و أسفلها طراز مذهب و دهن قبّة المقام و الساباط و جعل في القبّة ذهب كثير و كذا في أساطين المقام و خشبة المؤخر و غير الأخشاب التي في الدرابزين و صار ذلك لانتحا لمن يريد الزخرفة. انتهى.

و في آخر شهر ذى الحجة سنة (٩١٥) تسعمائة و خمسة عشر أو قبيله شرعوا في هدم جنباتى باب الدريبة قالوا للخلل في الجدار فهدموا شيئا مما يلي المسجد فقط.

و في يوم السبت رابع شهر محرم سنة (٩١٦) شرع في سقف المسجد من جهة باب الدريبة و هو مدهون بلا ذهب، و في يوم الخميس تاسع شهر ذى القعدة سنة (٩١٧) بنيت دكة ثانية بالزيادة و هي التي تلى باب الزيادة و جعل فيها باقى ما خرج من الحجر و من بئر زمزم و من مقام الحنفى.

ثم قال الغازى أيضا عند ذكر عماره قانصوه الغورى في المسجد الحرام ما نصه:

قال العلامة قطب الدين رحمه الله في الإعلام: و مما عمره السلطان قانصوه الغورى بمكة المشرفة باب إبراهيم بعقد كبير، جعل علوه قصرا، و في جانبه مسكنين لطيفين و بيوتا معدة للكراء، حول باب إبراهيم.

و وقف الجميع على جهات الخير. قال: و لا يصح وقف ذلك القصر لأنه في هواء المسجد، و كذلك المسكنان لأن أكثرهما واقع في المسجد الحرام. و بنى أيضا ميضأة خارج باب إبراهيم، على يمين الخارج من المسجد، هي بطالة الآن، لأن

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٦٦

روائح عفونها قد تصل إلى المسجد، فيتأذى بها المصلون، فأبطل و غلق قريبا في سنة ثمانين و تسعمائة بالأمر الشريف السلطاني. انتهى.

و في موضع آخر من الكتاب المذكور: و في حدود سنة سبع عشرة و تسعمائة، أرسل السلطان الغورى أميرا من أمرائه يقال له خير بك المعمار، لتعمير زيادة باب إبراهيم. فبنى على باب إبراهيم قصرا مرتفعا مع مرافقه، و جعل حول القصر من خارج المسجد منازل و مساكن و بنى خارج ذلك ميضات تشتمل على مراحض و بركة ماء و وقف ذلك جميعه على جهات خير و بنى من داخل باب إبراهيم على يمين الداخل حاصلًا في أرض المسجد و في علوه مسكنا و على يسار الداخل مثله و قرر فيها بعض المستحقين و جعل في الجانب اليماني من هذه الزيادة حاصلًا يشتمل على سبيل ماء و صهريج كبير من ماء المطر من سطح المسجد و أبقى الجانب القبلى و الجانب الشمالى على حالهما، و فرغ الأمير خير بك المعمار من ذلك في حدود سنة عشرين و تسعمائة. انتهى.

قال في تحصيل المرام: و أما الرحبة عن الباب و الثلاثة الدرج التي على السوق فهى حادثه في سنة ألف و مائتين و اثنين و ثمانين في دولة السلطان عبد العزيز لأجل منع السيل عن المسجد الحرام. انتهى.

و في درر الفرائد المنظمة عمر السلطان المرحوم قانصوه الغورى في سنة ستة عشرة و تسعمائة باب إبراهيم و وجد فيه لقيه في قبّة كانت هناك و هى مائتا أشرفى مغربى في صندوق و فيه ورقة فيه: نحن عمرنا و تعبنا و ما ظلمنا و إذا خربت هذه القبّة تبنى بهذا المال و كان وزن الأشرفى قفله و نصف و عليه كتابه بالكوفية.

انتهى.

و في شهر رجب سنة تسعمائة و عشرين وصل من مصر مهندس و معمارية لعمارة ما أخذ بالإجارة من وقف عمارة ناظر الخاص الجمالى يوسف ابن كاتب حكيم عند باب إبراهيم ليوصل بعمارة القصر الذى أحدث للسلطان الأشرف قانصوه الغورى على باب إبراهيم قالوا لأن خونديجا حج في هذا العام، ليجعل ذلك حوش، تدخل فيه المحفة. فهدم و عمّر في هذا الشهر و للذى يليه و رأوه ضيقا لا يحصل المقصود، فخرجوا في الطريق أذرع. ذكره عبد العزيز بن فهد في بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى.

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٦٧

و من آثار الأشرف الغورى أيضا الترخيم الواقع فى حجر البيت الشريف، عمل بأمره فى أيامه و اسمه مكتوب فيه و فرغ من عمله عام سبعة عشر و تسعمائة اه. انتهى كل ذلك من تاريخ الغازى.

ثم ذكر الغازى أيضا فى تاريخه ما وقع من العمارة العظيمة فى المسجد الحرام و من تغيير سقفه الخشبى بالقباب على حسب ما هو موجود فى زماننا هذا و ذلك سنة (٩٨٠) ثمانين و تسعمائة من الهجرة كما ذكرنا ذلك مفصلا فى مبحث خاص بعنوان «عمارة المسجد الحرام بالقباب» فراجعه إن شئت.

و فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رمضان سنة (٩١٨) أمر الأمير الباش برصاص أذيب فى المسجد عند المزولة و عمل فى أماكن فى الطواف و من الظهر بطل ذلك و نقل حطب كثير إلى بيت الأمير فاضل عما اشتغل به و كانوا جاؤا به من باب السلام و لعله من المدعا من الأحمال التى تباع هناك و الله تعالى أعلم.

و فى شهر ذى القعدة سنة (٩٢٠) عشرين و تسعمائة جاء لثائب جده مراسيم و فيها أن الخواجه ابن عباد الله سألنا فى أن يرخص أرض المطاف و يقطع المسعى و مجرى السيل إلى المسجد فأجابه لسؤاله و أرسل إلى جده رصاص، قالوا: إنه خمسون قنطارا. فوصل لمكة بعضه. و أرسل أيضا نائبه الخواجه شمس الدين ابن زين الدين بن أخت الخواجه بن سلامة، فشرع فى ذلك يوم الجمعة ثانى عشر الشهر. انتهى ما فى بلوغ القرى فى ذيل إتخاف الورى.

و نقل الغازى عن الإعلام: أنه سنة (٩٦١) إحدى و ستين و تسعمائة، بعد أن فرغ ناظر الحرم أحمد حلى من تجديد سطح البيت الشريف، شرع فى تسوية فرش المطاف، فإن أحجاره انفصلت و صار بين كل حجرين حفرة. كانت تلك الحفرة تسد تارة بالنورة و تارة بالرصاص و تستمر بمسامير الحديد فأزال ما بين الأحجار من الحفرة و نحت طرف الحجر إلى أن ألصقه بطرف الحجر الآخر من جوانبه الأربعة و استمر فى فرش المطاف على هذا الأسلوب إلى أن فرغ من ذلك و أصلح أبواب المسجد الشريف و فرش المسجد جميعه بالجص. اه.

و نقل الغازى عن مختصر الإعلام للشيخ عبد الكريم القطبى أنه ورد فى موسم سنة (١٠٠٠) ألف من الهجرة فخر الصلحاء المكرمين الشيخ على الخلوتى بأمر شريف سلطانى لا زال نافذا على القاصى و الدانى يتضمن أن سقف مقام إبراهيم الخليل قد أكلته الأرضة و أنه يحتاج إلى إصلاح فلما كشف السقف المزبور

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٦٨

شاهدوا أن الأرضة قد أكلت غالبه و أن المتعين تغيير جميعه و إذا لم يغير سقط فغير جميعه بخشب الساج بشغل مكلف مصنع أحسن من الأول فشرعوا فى العمل المذكور فى جمادى الآخرة سنة واحدة و ألف و تم العمل فى السنة المذكورة. انتهى.

و نقل الغازى عن منائح الكرم: قال العلامة الشيخ عبد الرحمن ابن عيسى المرشدى فى بعض مسوداته، و أما المماشى الأربعة التى أحدها إلى باب السلام و الأخرى إلى باب الصفا و الأخرى إلى باب العمرة و الأخرى إلى باب الحزورة و الجناحان اللذان بجانبى مقام الحنفى و الفرش الذى خلفه و الذى تجاه المنبر كل ذلك محدث بعد أن فرش المطاف بالمرمر و ذلك سنة ألف و ثلاثة فإنهم كانوا كلما قلعوا شيئا من المطاف جعلوه فى هذه الأماكن و كذلك المحل الذى جعل مصلى لشريف مكة بصحن المسجد مما يلى أم هانئ. انتهى.

و نقل الغازى عن منائح الكرم: أنه فى سنة ألف و عشرة (١٠١٠) جدد الشاذروان الملتصق بجدار الكعبة و كان ابتداء عمله فى اليوم السابع من شعبان من السنة المذكورة. و أما ترخيم المقام الحنفى و محرابه فابتدئ فيه من ثالث عشر شوال من السنة المذكورة ثم ترك ترخيم أرضه كذا رأيت من خط الشيخ عبد الرحمن المرشدى، و رأيت فى تاريخ شيخنا السيد محمد الشلى أن فى هذه السنة أعنى سنة ألف و عشرة أمر مولانا السلطان الأعظم محمد خان بترخيم المطاف و أرخ بعض الأروام ذلك بقوله من مثنى

الكامل و هو متروك عند العروضيين:

زان المطاف بمرمر ملك الأنام محمد

نقل الغازي عن كتاب المنهل العذب، المفرد في الفتح العثماني لمصر، و من ولي إيالة تلك البلد، للعلامة محمد علي بن محمد علان المكي، في ذكر السلطان محمد خان. و من أعماله بمكة وضع الرخام لجميع أرض المطاف إلى العمدة المطيفة به. و كان تمام عمل ذلك عام (١٠٠٦) ست و ألف، و جاء في تاريخ ذلك قصيدة أسعد أفندي المفتي بالديار الرومية، منها قوله في مدح الملوك العثمانيين و مدح السلطان محمد خان:

عمروا مساجد ربنا صنعوا ما أثر تحمد

آثار خيرات لهم فيها عليهم تشهد

ملك الوري سلطاننا نجل المراد محمد

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٦٩ و بجده و بجده دين النبي يجدد

فرش المطاف بمرمر بصفاه يحكي المسجد

كالكوكب الدرّي في أوج السعادة يوقد

من طاف مستشهدا يوم القيمة يسعد

الطائفون العاكفون الراكعون السجد

فلأجل تاريخ له قال ابن سعد أسعد

تلك القباب كذا لأساطين إليهم تسند

لا سيما من نسلهم سلطاننا المستمجدوا

لا زال صارم سيفه للظي الضلالة يخمد

الله خلد ملكه و العدل فيه مؤيد

كالبدر أشرق نوره إذ جنّ ليل أسود

نعم المطاف ترابه من غير أرمذ إثم

و يطوف بالليل و الأسحار قوم هجد

الله بارك فرشه مع من بناه يخلد

زان المطاف بمرمر ملك الأنام محمد

انتهى.

و بالتأمل فيما سبق من الكلام نرى أن هناك اختلافا بسيطا في تاريخ فرش المطاف بالرخام، ففي كتاب المنهل العذب المفرد يقول: إن السلطان محمد خان فرش المطاف بالرخام سنة (١٠٠٦) و في كتاب منائح الكرم يقول: إنه فرش سنة (١٠١٠) و فيه أيضا يقول: نقلا عن مسودات الشيخ عبد الرحمن المرشدي: أنه في سنة (١٠٠٣) فرش المطاف بالمرمر. فالاختلاف بين هذه الروايات بسيط كما هو ظاهر، و نحن نميل إلى ترجيح ما جاء بكتاب المنهل العذب المفرد. و يمكن الجمع بين الأقوال بأن فرش المطاف بالرخام أول مرة كان لجزء منه، و ثاني مرة فرش بدون إتقان فحصل فيه خلل اقتضى قلعه جميعه و فرش فرشا جميلا فنيا غاية في الإتقان و الصنعة. و الله تعالى أعلم بالغيب.

و نقل الغازي عن منائح الكرم: أنه في سنة (١٠٧٢) اثنين و سبعين و ألف، ورد سليمان بيك صنجقا على جدة، و فوض إليه مشيخة الحرم، و نظارة عمارته.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٧٠

وورد معه بمال من الآغا محمد كزلاز مولانا السلطان لعمارة المسجد والمشاعر، فشرع في عمارة المسجد وترميمه، وبنى مقام الحنفى بالحجر المنحوت الصوان والأصفر، وغير قبة زمزم و بناها على الصفة الباقية إلى الآن ونقش مقام إبراهيم بالذهب وأنواع الصبوغ ونقش المقامات كذلك وجعل أعلاها مصفحاً بالرصاص عوض الطبطاب الأول وجعل في أعلا مقام الإمام الحنفى رصافتين مطليئة بالذهب وفي بقية المقامات رصافة رصافة وجعل ثلاث رصافات كبار قبل كل مقام وقبل مقام الحنفى أربعة والكل مطليات بالذهب، ورمم المنائر السبعة وزاد في حاشية المطاف فرشاً بالحجر المنحوت زيادة قليلة، ودهن علم المسعى وعين لها ثمانين قنديلا تسرج في الثلاثة الأشهر رجب وشعبان ورمضان منتشرة من الصفا إلى المروة في أماكن متفرقة، وعمر سبيلا إلى المسعى ملاصقة للزيباز التي ترد منها أهل مكة. وعمر غير ذلك من المشاعر نحو مسجد الخيف، ومسجد نمره ومسجد مزدلفة ورمم جميع هذه الأماكن ويصفاها وكتب اسم الكزلاز محمد آغا صاحب هذه الخيرات في حجر بالنقر وأصقه في جدار مقام الحنفى.

ونقل الغازى عن إتحاف فضلاء الزمن: إنه في سنة اثنتي عشر ومائة وألف (١١١٢) عمر إبراهيم بيك أطراف المسجد الحرام وما كان محتاجا للتعمر باطنا وظاهرا وعمرو المماشى وعمرو طبطابا في باب الزيادة ورممو المنارة التي على باب السلام ظاهرا وباطنا وكذلك منارة باب العمرة ومنارة الحزورة التي على باب الوداع والرفرف الذى على باب السلام وجدده بأخشاب جديدة، وعمر مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الذى فيه الحجر الشريف الذى كان يقف عليه خليل الله عند بناء البيت فغير جميع المقام ونقضه وجدده وبنى حول الحجر الشريف بالحجر الرخام والنورة وجدده ما كان محتويا على القدم الشريف بالفضة المطليئة بالذهب الأحمر وصب الرصاص بين الفضة والحجر واستحكموا الفضة بها وشدوا أحجار القدم الشريف وغيروا القبة بأخشاب ساج هندی ورممو بالفضة ما كانت ملبسة على القبة الشريفة وسدد بأنواع الدهانات وأوراق الذهب ورمم الدرجة التي تطلع بها إلى المحل المزبور.

وفي خمسة عشر القعدة من سنة (١١٣٣) ألف ومائة وثلاثة وثلاثين غير المعمار أفندى صندوق مقام الخليل إبراهيم وهو موضع القدم الشريف أبدله بخشب غير خشبه القديم الأول وجلا صفائحه الأول ثم عاودها.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٧١

وفي افتتاح عاشوراء سنة (١١٣٤) ألف ومائة وأربع وثلاثين بدأ المعمار في ترميم الحرم الحرام وفرش بعض نواحي باب السلام بالحجارة والشائع أن قصده يكسر جميع طبطاب الحرم ويبدله بالحجر المفروش فإنها أبقى والطبطاب مرمته أصعب. وفي سنة (١١٤٠) ألف ومائة وأربعين في عشر ربيع الأول فرش الحرم الشريف بالحجارة المنحوتة وأزيل ما كان فيه من الطبطبات جميعه. انتهى ما في الإتحاف.

ونقل الغازى عن تحصيل المرام: أنه في سنة (١٢٥٧) ألف ومائتين وسبع وحمسين أو في التي بعدها حصل ميل لعمودين بين باب البغلة وباب الصفا مما يلي صحن المسجد، فكتب في ذلك إلى الأبواب. وكان إذ ذاك مولانا السلطان عبد المجيد خان، فبرز الأمر بإصلاحها وإصلاح ما كان في المسجد الحرام.

فأصلحت بعد هدم القبة والعقود التي فوقها، ثم أعيدت كما كانت. وكان ابتداء هذه العمارة في ربيع الأول من التاريخ المذكور. وكذلك أصلحوا عمودا وما فوقه من الرواق الذى وراء مقام الحنفى، وأصلحوا المماشى وزيد في ممشى باب الصفا، وأحدثت ممشاة باب على، ويصفا جميع الحرم، وما زاد من الحجر في هذه العمارة جعلوه دكة عند باب الزيادة وطبطبوا ظاهرها.

وفي سنة (١٢٦٢) ألف ومائتين واثنتين وستين أو التي بعدها، يصفا الحرم وأصلحوا طبطابه ونقشوا عقوده، ونقشوا المقامات والمنبر، ومسحوا هلالاتها، وجعل رفراف على باب السلام من الخارج منقش وذلك في زمن والى مكة الشريف محمد بن عون و

شيخ الحرم شريف باشا.

و في سنة (١٢٦٦) ألف و مائتين و ست و ستين فرشت رحبة باب السلام من خارج الباب بالرخام الأبيض و كانت قبل ذلك سقاية يباع فيها الماء و ربما بعض الناس كشف عورته و استنجى فواجه البيت الشريف و كانوا يوسخون الحرم فأزيل ذلك جزاهم الله خيرا. و كل ذلك في أيام السلطان عبد المجيد خان.

و في سنة تسع و سبعين و مائتين و ألف (١٢٧٩) ورد الأمر بترميم المسجد الحرام من مولانا السلطان عبد العزيز خان لأن أرض أروقتة و مماشيه و حاشية المطاف أى التى خارج الأعمدة النحاس التى يوقد فيها المصابيح قد تحفرت بسبب السيل الذى دخل الحرم فى جمادى الأولى لثمان خلت من سنة ألف و مائتين و ثمان التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٧٢

و سبعين و كان دخوله قبل صلاة الصبح و وصل ذلك السيل إلى قفل باب الكعبة المشرفة و غطى مقام المالكي و تعطلت صلاة الجماعة خمسة أوقات و لم يصل فى الحرم فى ذلك اليوم أحد إلا أناس صلوا صلاة العصر على دكة باب الزيادة، و غرقت أناس كثيرة فى الحرم و كذلك غرقت أناس كثيرة خارج الحرم و حصر الذين ماتوا فى السيل فكانوا فوق العشرين فبعد ذلك ورد الأمر من الدولة العلية و كان إذ ذاك مولانا السلطان عبد العزيز خان بإصلاح الحرم الشريف و النظر فى ذلك لحضرة الشريف عبد الله بن المرحوم الشريف محمد بن عون و والى شيخ الحرم الحاج أحمد عزت باشا فعند وصول الأمر شرعوا فى تعميره فأخرج جميع ما فى الرواقات من الططاب القديم و كذا المماشى و حاشية المطاف و عوضوا ذلك بططاب جديد و لم يعمر مثل هذه العمارة منذ بنى الحرم و إنما كانوا يصلحون ما تقلع من الططاب و فى أقل مدة يتقلع، و أما هذه العمارة فأتقنوها غاية الإتقان و كان ابتداء الشروع فى العمل فى ثمانية و عشرين من جمادى الآخرة سنة ألف و مائتين و تسع و سبعين، و أتموا العمل فى غاية ذى الحجة من السنة المذكورة.

انتهى ما فى تحصيل المرام.

و فى سنة (١٣١٤) ألف و ثلاثمائة و أربع عشرة صدر أمر السلطان عبد الحميد خان بن السلطان عبد المجيد خان للوالى أحمد راتب باشا بإجراء ما يلزم للمسجد من عمارة و إصلاح و مرمة و تنظيف و نقوش و ما أشبه ذلك. فقام الوالى المذكور بإجراء كل ما يلزم فعمل أولا نحو خمسين سلما من الخشب الجاوى السميك، و جعل كل سلم على أربعة قوائم بمقاسات مختلفة فى الطول حسب اللزوم فأول ما ابتدؤا به من العمل تنظيف القباب من الغبار و الأوساخ و كذلك تنظيف سطح المسجد الحرام ثم تنظيف الأسطوانات الرخام و عين الوالى لذلك قسما من الجنود التركىة فكانوا يستعملون لتنظيف الأسطوانات قطعاً من الخيش يغمسونها فى الماء ثم يكسونها فى الرمل الناعم و يدلكون بها الأسطوانات دلکا جيدا و ربما استغرق تنظيف الأسطوانة الواحدة أسبوعاً أو أسبوعين حتى تنجلي و يعود لونها إلى حالته الأصلية و هكذا جرى العمل فى تنظيف عموم الأسطوانات الرخام. و أما الأعمدة المبنية بالحجر الصوان و الحجر الشميسى و عموم عقود المسجد الحرام و جداره فصبغوها بالصباغ الأسود و الأحمر العنابي و الأصفر البرتقالى و الرمادى و رخموا بطون القباب و جدار المسجد الحرام و أصلحوا الأحجار المرصوفة على أرض الأروقة و المماشى و رمموا المنائر و أبواب المسجد و دهنوها مع أخشاب المقامات

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٧٣

باللون الأخضر. و مكثت تلك العمارة نحو سنة و كتب تاريخ العمارة تحت طرة بالذهب باسم السلطان عبد الحميد خان بعلو باب النبى. اه.

و فى سنة (١٣٢٧) سبع و عشرين و ثلاثمائة و ألف دخل المسجد الحرام سيل عظيم و حصل بسبب ذلك ميل فى بعض أسطوانات الرخام مما يلى باب العمرة إلى باب الوداع من الجهة الغربية و من باب أم هانئ إلى باب على من الجهة الجنوبية، و حصل أيضا خلل

فى بلاط المسجد الحرام و جداره. فلما كان ابتداء سنة (١٣٣٤) صدر أمر السلطان محمد رشاد خان إلى والى الحجاز غالب باشا، لإصلاح الخراب الواقع فى المسجد الحرام و حضر مهندسان تركيان عن طريق المدينة لهذا الغرض. فأول شىء عمل هو طارات من الخشب الجاوى، على سعة عقود المسجد الحرام لأجل تحميل العقود المركبة على تلك الأسطوانات التى يراد إصلاحها و تعديلها فعملوا نحو عشرين طارة و حملوا عليها العقود المذكورة التى بالجانب الغربى و الجنوبى، و شرعوا فى تبديل إحدى الأسطوانات الأمامية الواقعة بالجهة الغربية على حافة الحصوة مما يلى باب إبراهيم فأخرجوها بعد بذل جهود عظيمة و عملوا بدلا عنها أسطوانة صناعية فنية قوامها من الحديد و الإسمنت و مسحوق الآجر و الشعر ثم كسيت بقطع من المرمر ممزوج بمركب فنى. و استمر العمل فى صنعها نحو شهر ثم أخذوا فى تعديل بعض الأسطوانات المائلة من الجهة الغربية فعدلوا منها نحو عشرة و أصلحوا كثيرا من الخراب الواقع فى الأروقة و الأبواب و المنائر. و بينما هم سائرون فى العمل إذ فاجأهم أمير مكة الشريف الحسين بن على فى فجر يوم السبت تاسع شعبان من السنة المذكورة و هى سنة أربع و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف فأعلن استقلاله بالحجاز و وقع الحرب بينه و بين الأتراك المقيمين فى الحجاز و بسبب ذلك وقف العمل إلى أن انتهت الحرب العامة.

ثم فى سنة (١٣٣٨) صدر أمر الملك الشريف الحسين بإتمام عمارة المسجد الحرام فقام بالعمل ناظر الحرم و وزير الأوقاف محمد أمين أفندى إمبلى فعدلت بقية الأساطين المائلة و رمم عموم الخراب الواقع بالمسجد الحرام. اه.

و فى سنة (١٣٤٤) أربع و أربعين و ثلاثمائة و ألف صدرت إرادة جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بعمارة المسجد الحرام فأصلح كل ما يقتضى إصلاحه من ترميم عموم الخراب الواقع فى جدار المسجد و أرضه و أعمدته، و إصلاح المماشى و حاشية المطاف و عموم و الأبواب، و غير ذلك من الإصلاحات

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٧٤

اللازمة للمسجد الحرام. و تمت هذه العمارة بكمال السرعة لحلول موسم الحج. اه.

ثم فى سنة (١٣٤٦) صدر أمر جلالة الملك عبد العزيز المذكور بإجراء عمارة عموم المسجد الحرام داخلا و خارجا فقاموا بالعمل و رمموا عموم فرش أروقة المسجد الحرام من جهاته الأربعة و جدار المسجد الحرام داخلا و خارجا و نظفوا القباب و أصلحوا مظلة مقام الحنفى و مظلة مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام و مظلة قبة زمزم و كسوها بالمعدن الأبيض المسمى بالتوتوة- و هو الألمنيوم أو الزنك- و طلوا بالدهان الأخضر كما طلوا أساطين النحاس المحاطة بمدار المطاف بلون أخضر و أصلحوا شاذروان الكعبة و فرشوا حصاوى المسجد الحرام بالحصباء ثم رخموا عموم جدار المسجد الحرام داخلا و خارجا و كذلك الأعمدة المبنية بالحجر الصوان و أبواب المسجد الحرام. انتهى ما نقل من تاريخ عمارة المسجد الحرام للشيخ حسين باسلامة.

نقلنا كل ما تقدم من تاريخ الشيخ عبد الله الغازى رحمه الله تعالى المسمى «إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» و فى الحقيقة لم تقف عمارات آل سعود فى المسجد الحرام منذ دخولهم الحجاز، بل أنهم زادوا فى المسجد الحرام هذه الزيادة العظيمة حتى صار المسجد الحرام أعظم مساجد الدنيا فى السعة و الحرمه على الإطلاق، بل أنهم قاموا بإنشاء مساجد كثيرة بمكة و بالمملكة كلها وفقهم الله تعالى للخيرات آمين.

فانظر رحمك الله إلى هؤلاء المؤرخين الفضلاء الأمانه كيف خدموا المسجد الحرام من الناحية العلمية التاريخية، و بينوا كل شىء فى غاية التفصيل و الدقة التامة و لا نعتقد أنه يوجد مسجد أو بلدة على وجه الأرض يكتب عنه ما كتب عن مكة و المدينة و مسجديهما. نسأل القبول و الرضا و العفو و العافية و التوفيق لكل خير و الموت على الإيمان الكامل براحة و نظافة و طهارة و العفو عند الحساب آمين.

جاء في تاريخ الغازي ما نصه: قال في درر الفرائد: أول من بَلَطَ المطاف عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما، فإنه لما بنى الكعبة و فرغ من بنائها بقيت معه

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٧٥

من الحجارة بقية ففرش بها حول البيت نحواً من عشرة أذرع و تبعه غيره ففرش باقى المطاف. انتهى.

و من تحصيل المرام ذكر الفاسى فى شفاء الغرام و عمارة الرخام الذى من المطاف، عمل ذلك دفعات حتى صار على ما هو عليه اليوم. و كان مصيره هكذا فى سنة سبعمائه و ست و ستين. و ممن عمّره المنتصر العباسى سنة ستمائه و إحدى و ثلاثين، و اسمه مكتوب فى تلك الحفرة التى عند باب الكعبة. و ممن عمّره الملك شعبان صاحب مصر و من خيرات السلطان سليمان تغيير بلاط المطاف القديم و تجديده ببلاط جديد أى رخام، على يد أحمد حلبى فى سنة تسع و خمسين و تسعمائه. و ذكره فى درر الفرائد. انتهى ما فى تحصيل المرام.

و فى تاريخ القطبى: و أما عمارة المطاف الشريف فوقع فى سنة إحدى و ستين و تسعمائه، و كنت قد أمرت بتاريخ يكتب على بعض مواضع المطاف. فكتبت بسم الله الرحمن الرحيم إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً و هدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم و من دخله كان آمناً تقرب إلى الله تعالى، بتجديد فرش أحجار المطاف، و تسويتها تحت أقدام الطائفين فى الطواف، و تحلية الباب الشريف و الميزاب المعظم الحنيف خليفه الله تعالى الأ-عظم سلطان الروم و العرب و العجم، من اصطفاه الله تعالى و اجتباه لترميم بيته الحرام و اختاره و ارتضاه بخدمة الركن و المقام السلطان بن السلطان الملك المظفر أبو الفتوحات السلطان سليمان خان، تقبل الله منه صالح الأعمال و بلغه ما يؤمله من السعادة و الإقبال. و لما تم ذلك غرّد بالتاريخ طير الهنا عمّر الله قبلتنا.

و قال ابن فهد فى حوادث سنة ست و أربعين و ثمانمائة: و فيها فى سادس عشر شوال أذيب الرصاص و جعل بالحفر التى بأرض المطاف. انتهى من تاريخ الغازي.

ثم فى زماننا أى فى سنة (١٣٧٥) ألف و ثلاثمائة و خمس و سبعين حصل تعمير فى نفس المطاف و ذلك فى عهد الملك سعود بن عبد العزيز ففرشوا أرضه بالرخام المرمر، بل حصلت تعميرات كبيرة جدا فى جميع المسجد الحرام فى هذا العهد، كما ذكر كل شىء فى محله، من هذا التاريخ فارجع إليه فى فسطانه إن شئت.

لما وسّع القائمون على مشروع التوسعة المطاف، لم يكونوا يرغبون فى وضع حد يفصل بين المطاف القديم و المطاف الجديد، فتجادلنا معهم فى هذا الأمر فوجدناهم مصممين عليه، فاقترحنا فى الجريدة التى تصدر بمكة فى سنة (١٣٧٥)

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٧٦

أو بعدها أن لا بد من وضع حد من الرخام الأسود على حدود المطاف القديم ليكون فاصلاً بينه و بين المطاف الجديد، و للمحافظة على حدود كل شىء كما هو الواجب، فعندئذ عملوا الحد الفاصل بينهما. و لكن فضيلة رئيس المحاكم الشرعية بمكة المكرمة الشيخ عبد الله بن عمر بن دهيش رأى جواز توسعة المطاف و أنه لا حاجة لوضع الحد المذكور و قد دعى الملك سعود إلى داره بمكة المكرمة و ألقى كلمة أمام الملك أوضح فيها جواز توسعة المطاف نشرت بالجريدة الرسمية و قد وسع المطاف و لا زال يوسّع حتى تاريخه لزيادة أعداد المسلمين الحجاج.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٧٧

انتهى بعون الله تعالى الجزء الرابع و يتلوه الجزء الخامس، و أوله:

صيغة الدعاء بالمسجد الحرام لملك الحجاز سابقاً

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٧٩

- الموضوع رقم الصفحة
- الآيات المكتوبة على حزام الكعبة المشرفة ٥
- كتابة أسماء الملوك في كسوة الكعبة ٧
- الإشهاد الشرعى بتسليم كسوة الكعبة ١١
- حكم التصرف في كسوة الكعبة ١٣
- صورة وافية السلطان خان على كسوة الكعبة ١٧
- كيفية تركيب كسوة الكعبة عليها ٢٢
- برقع الكعبة المعظمة أى ستارة بابها ٢٤
- خدم الكعبة و أغوات المسجد الحرام ٢٦
- أغوات المسجد الحرام فى عصرنا هذا ٤١
- مبدأ الرق و الاسترقاق ٤٢
- صورة عقد عتق أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم ٤٤
- اقتناء الجوارى ٤٥
- بيع الرقيق فى الآستانة ٤٨
- الاسترقاق ٥٣
- إحرام الكعبة فى موسم الحج ٥٤
- تجريد الكعبة من كسوتها عند تجديدها ٥٧
- الكلام على من يهدم الكعبة فى آخر الزمان ٦١
- ستر الكعبة المشرفة بالأخشاب ٦٢
- مقدار ما استعمل من الأخشاب و العواميد لستر الكعبة ٦٥
- عمل نطاق للكعبة المشرفة ٦٦
- ستر الكعبة فى حرب ابن الزبير ٦٧
- ما وجد فى الكعبة من الكتابات القديمة ٧٠
- فرش أرض الكعبة بالرخام ٧١
- صفة المسامير التى كانت فى الكعبة ٧٢
- صفة باب الكعبة فى عهد الأزرقى ٧٢
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٨٠
- الموضوع رقم الصفحة
- وجود سقفين للكعبة ٧٣
- كيفية وضع الكسوة على الكعبة الشريفة ٧٦
- تفرقة الرجال عن النساء فى الطواف و فى المسجد الحرام ٧٧
- الترغيب فى الحج و العمرة ٧٨

- أسرار الحج و مزاياه ٨٠
 فضل العمرة ٨٤
 إتيان العمرة فى شهر رجب ٨٤
 العمرة الرجبية ٨٧
 الزيارة الرجبية ٩٠
 وجوب الحج و العمرة ٩١
 سنن الحج و العمرة فى المذهب الشافعى ٩٢
 قصيدة أبى نواس فى التلبية ٩٣
 [الميقات الزمانى و المكانى] ٩٤
 خطب الحج ٩٤
 دعاء عرفة ٩٧
 أنواع النسك ١٠٢
 بعض فوائد فى المناسك على المذهب الشافعى ١٠٣
 اقتراح لمؤلف هذا التاريخ ١٠٥
 بعض أحكام الحج و العمرة على المذهب الشافعى ١٠٧
 معنى الحج لدى الطوائف المختلفة ١١٢
 لباس الإحرام فى الحج و العمرة ١١٥
 الحكمة فى لباس الإحرام بالحج أو بالعمرة ١١٦
 الأصنام التى كانت فى الكعبة أيام الجاهلية ١٢٠
 مشروعىة الأذان و كيفيته ١٢٣
 أذان بلال فوق الكعبة يوم فتح مكة ١٢٤
 أذان بلال بعد موت النبى صلى الله عليه و سلم ١٢٥
 عدد المؤذنين لرسول الله صلى الله عليه و سلم ١٢٦
 تحسين الصوت بالأذان ١٣٠
 التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٨١
 الموضوع رقم الصفحة
 الأذان الشرعى ١٣٣
 قصة الأذان ١٣٦
 المؤذنون و المؤقتون فى المسجد الحرام اليوم ١٣٩
 الكعبة المشرفة ١٤٠
 درج الكعبة الخارجية الموصلة إلى بطنها ١٤٠
 درج الكعبة الداخلية الموصلة إلى سطحها ١٤٣
 عدد درج الكعبة التى بداخلها ١٤٥

- وصف درج الكعبة في عصرنا ١٤٦
- روازن الضوء في سطح الكعبة ١٤٧
- الأعمدة الثلاثة التي بداخل الكعبة ١٤٨
- عدد أعواد سقف الكعبة ١٥٢
- الإصلاحات و الترميمات في الكعبة المشرفة ١٥٣
- سطح الكعبة و أرضها من الداخل ١٥٨
- وصف رخام الكعبة في عصر ابن جبير ١٦٠
- غسل الكعبة المشرفة ١٦١
- تلقى الناس لماء المطر تحت ميزاب الكعبة ١٦٥
- ميزاب الكعبة و عدده ١٦٧
- عمل باب الكعبة المشرفة ١٧٢
- عمل قفل و مفتاح لباب الكعبة ١٧٥
- الكتابة التي بأعلى باب الكعبة ١٨٠
- انتقال مفتاح الكعبة من شخص لآخر قبل الإسلام ١٨٣
- ترجمة شيبه بن عثمان و عثمان بن طلحة ١٨٩
- تاريخ سدانه الكعبة المشرفة ١٩٢
- السدانه قبل الإسلام ١٩٣
- قصي بن كلاب ١٩٣
- عبد الدار ١٩٤
- السدانه في الإسلام ١٩٤
- عثمان بن طلحة ١٩٥
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٨٢
- الموضوع رقم الصفحة
- شيبه بن عثمان بن أبي طلحة ١٩٦
- عبد الله بن شيبه الأعجم ١٩٧
- شجرة النسب ١٩٨
- محمد بن زين العابدين ١٩٨
- عاداتهم ٢٠٤
- ترجمة خالد بن عبد الله القسري ٢٠٤
- كيس مفتاح الكعبة و الكراسي التي كانت في داخلها ٢٠٨
- وصف الكرسي الذي في الكعبة في وقتنا الحاضر ٢١١
- مواعيد فتح الكعبة في الجاهلية و الإسلام ٢١١
- وصف فتح الكعبة و دخول الناس فيها ٢١٤

- الطواف و آدابه و شروطه ٢١٧
- إباحة بعض الأمور في الطواف ٢٢١
- ذكر الله و قراءة القرآن في الطواف ٢٢٣
- الدعاء و آدابه ٢٢٤
- بعض القصائد في التضرع ٢٣٠
- الطواف راكبا و دخول المواشي و الدواب المسجد الحرام ٢٣٧
- قياس طوفة واحدة حول الكعبة ٢٤١
- عمارة المطاف و فرشته ٢٤٣
- حدود المطاف بالأعمدة و الأساطين ثم إزالتها بتاتا في عصرنا ٢٤٨
- توسعة المطاف لأول مرة في التاريخ ٢٥٠
- مقدار المطافين القديم و الجديد و شكلهما ٢٥٢
- الحج ٢٥٣
- إنساء الشهور ٢٦٠
- معنى النسيء ٢٦٢
- ذكر السنين التي يضرب بها المثل ٢٦٦
- أمر الإفاضة في الجاهلية و الإسلام ٢٦٧
- ذكر من حج من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام ٢٦٨
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٨٣
- الموضوع رقم الصفحة
- ذكر من حج بالناس من عام فتح مكة إلى عام ثلاثمائة و خمس و ثلاثين من الهجرة ٢٧٣
- ذكر بعض من حج من الخلفاء و الملوك ٢٨٨
- حجة الوداع نقلا عن تاريخ الخميس ٢٩١
- حجة الوداع نقلا عن كتاب مرآة الحرمين ٢٩٨
- ما في حجة الوداع من المعاني الجليلة ٣١٥
- خطبة حجة الوداع ٣١٧
- وقفه الجمعة بعرفات ٣٢٠
- ذهاب النبي صلى الله عليه و سلم من منى إلى عرفات عن طريق ضب ثم رجوعه منها من طريق المأزمين ٣٢٢
- نزول النبي صلى الله عليه و سلم في غار جبل نمره في الحج ٣٢٣
- تنظيف طريق الحج من أشجار الشوك ٣٣٠
- حكم قطع شجر الحرم و نباته ٣٣١
- حكم نقل تراب الحرم و أحجاره ٣٣٦
- الحوادث الواقعة في الكعبة و المطاف ٣٣٧
- الطواف بالبيت عراه ٣٣٩

- دخول السيارات إلى المسجد الحرام في زماننا ٣٤٢
- ذكر بعض الحوادث المتفرقة ٣٤٤
- بعض ما حصل بمكة و ما حولها من القتال و النهب ٣٤٦
- الأمن و الأمان في العهد السعودي ٣٥٧
- بعض الأمور العجيبة التي وقعت بمكة ٣٥٩
- ما وقع بمكة من الرخاء و الغلاء و القحط و الوباء ٣٧٠
- التسعيرة و مقاومة الاحتكار ٣٨٠
- إبطال المكوس و الجمارك ٣٨٤
- المراد بالمسجد الحرام و فضل الصلاة فيه ٣٨٥
- مقدار فضل الصلاة في المسجد الحرام بالحساب ٣٨٨
- هل تتضاعف السيئات بالحرم أم لا؟ ٣٨٩
- باب بنى شيبه ٣٨٩
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٨٤
- الموضوع رقم الصفحة
- صلاة الجمعة في المسجد الحرام ٣٩١
- وحى صلاة الجمعة في المسجد الحرام ٣٩٢
- كيفية الخطبة في المسجد الحرام ٣٩٨
- منبر المسجد الحرام ٤٠٢
- اتخاذ المنبر لرسول الله صلى الله عليه و سلم ٤٠٦
- حنين الجذع ٤١٠
- ترجمة معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه ٤١١
- نبذة عن عادات معاوية رضى الله تعالى عنه و هو خليفة ٤١٦
- بعض أعمال معاوية رضى الله تعالى عنه بمكة ٤١٧
- عدل معاوية و قوة سلطانه ٤١٩
- أبواب المسجد الحرام قبل توسعته في زماننا ٤٢١
- بوابو المسجد الحرام ٤٢٤
- نصب الخيام في المسجد الحرام ٤٢٦
- وجود المظلات في المسجد الحرام ٤٢٨
- اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام ٤٣٠
- وضع الحجر الأساسى لتوسعة المسجد الحرام ٤٣٠
- مكتب توسعة المسجد الحرام ٤٣٣
- توسعة المسجد الحرام في العهد السعودي ٤٣٣
- الزيادات في المسجد الحرام ٤٣٤

- الزيادة الأولى: زيادة عمر في المسجد الحرام ٤٣٦
- الزيادة الثانية: زيادة عثمان في المسجد الحرام ٤٣٧
- الزيادة الثالثة: زيادة عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام ٤٣٩
- الزيادة الرابعة: زيادة الوليد بن عبد الملك بن مروان ٤٣٩
- الزيادة الخامسة: زيادة أبي جعفر المنصور ٤٤٠
- الزيادة السادسة: زيادة محمد المهدي العباسي ٤٤١
- سبب وجود سقنين للمسجد الحرام في عمارة المهدي ٤٤٥
- ذكر الترميم بالمسجد الحرام في عهد أمير المؤمنين ٤٤٦
- المتوكل على الله ٤٤٦
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٨٥
- الموضوع رقم الصفحة
- الزيادة السابعة: زيادة المعتضد بالله ٤٤٧
- الزيادة الثامنة: زيادة المقتدر بالله ٤٥١
- المسجد الحرام و ما أجرى فيه من زيادات ٤٥٢
- البناء حول البيت ٤٥٢
- بيت الله بعد ظهور الإسلام و توالى الزيادات ٤٥٢
- المسعى قديما ٤٥٤
- التوسعة الكبرى في العهد السعودي الزاهر ٤٥٤
- مجرى السيل ٤٥٥
- وضع الحجر الأساسي للعمارة الجديدة ٤٥٥
- تفاصيل المسعى ٤٥٥
- قبة الصفا و الأبواب و المنارات ٤٥٥
- تكسية جدار العمارة بالمرمر و الحجر الصناعي ٤٥٦
- المتبقى من المبنى القديم ٤٥٦
- مساحة المسجد الحرام بعد التوسعة و ما صرف عليه ٤٥٦
- المطاف ٤٥٧
- مقام سيدنا إبراهيم الخليل ٤٥٧
- الميادين حول الحرم الشريف ٤٥٧
- دورات المياه (المیضاءات) ٤٥٨
- مجارى السيل و نفق وادى إبراهيم ٤٥٨
- نزع الملكيات و هدمها و تعويض أصحابها من أجل التوسعة ٤٥٨
- مكتبة الحرم الشريف ٤٥٩
- إنارة المسجد الحرام ٤٥٩

الجسور ٤٥٩

الزيادة التاسعة: زيادة صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود ٤٦٠

خلاصة ما تقدم من الزيادات في المسجد الحرام ٤٦١

بيان مساحة الزيادات في المسجد الحرام ٤٦٥

ترجمة الوليد بن عبد الملك ٤٧٠

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٨٦

الموضوع رقم الصفحة

ترجمة المعتضد بالله ٤٧٣

سياسة المعتضد بالله العباسي في الحكم ٤٧٤

وصف قصر الخليفة المقتدر بالله العباسي ٤٧٨

ترجمة المقتدر بالله ٤٧٩

ترجمة أبي جعفر المنصور ٤٨٢

تقدير المنصور للعلماء العاملين و الوعاظ ٤٨٢

اقتصاد المنصور ٤٨٥

اهتمام المنصور بعماله ٤٨٦

حاضرة الخلافة ٤٨٧

حكاية المنصور مع معن بن زائدة ٤٨٩

صفات المنصور و أخلاقه ٤٩١

كيف كان يقضى وقته ٤٩١

وفاة المنصور ٤٩٢

ترجمة أمير المؤمنين محمد المهدي ٤٩٣

بيعه المهدي ٤٩٥

بين المهدي و معن بن زائدة ٤٩٨

شيء من خطب المهدي ٤٩٩

من كرم المهدي ٥٠١

شيء من مروءة المهدي و فضله ٥٠٢

أول صندوق للبريد ٥٠٢

وفاة المهدي ٥٠٦

ترجمة هارون الرشيد ٥٠٦

حضارة بغداد في عهد الرشيد ٥١١

حج الرشيد و حبه للوعظ ٥١٣

عهد الرشيد بالولاية لابنه المأمون ٥١٨

حكاية هارون الرشيد مع الأعرابي ٥١٩

- وفاء هارون الرشيد ٥٢١
- ترجمة السلطان سليمان خان ٥٢٢
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٨٧
- الموضوع رقم الصفحة
- حكاية سليمان بن عبد الملك مع أبي حازم ٥٢٤
- ترجمة الأمير سودون المحمدي ٥٢٨
- فرش و تعمير المسجد الحرام ٥٢٩
- فرش المسجد الحرام بالبطحاء وغيرها ٥٢٩
- وضع الحصى و البطحاء فى المسجد الحرام ٥٣٠
- فرش المسجد الحرام بالبططاب و الحجارة و الرخام ٥٣١
- دكة باب الزيادة ٥٣٢
- المماشى التى بالمسجد الحرام ٥٣٢
- تعمير المسجد الحرام فى الدولة العثمانية ٥٣٣
- ذكر أساطين المسجد الحرام و قببه و شرفاته و أبوابه و منائره ٥٣٩
- جدول عام فى ذكر أسماء من عمّر المسجد الحرام ٥٤٢
- ترجمة عبد الملك بن مروان ٥٤٦
- ترجمة المتوكل على الله ٥٥٠
- ترجمة الأمير مقل القديدي ٥٥٣
- ترجمة قايتباي ملك مصر ٥٥٤
- ترجمة الأمير إبراهيم المهمندار ٥٥٥
- وجود سقفين للمسجد الحرام قديما ٥٥٦
- التعميرات و الترميمات الواقعة فى المسجد الحرام ٥٥٧
- التعميرات الواقعة فى نفس المطاف ٥٧٤
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٨٨

ملحق الصور

- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٨٩
- صورة رقم ٧٥
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٩٠
- صورة رقم ٧٦
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٩١
- صورة رقم ٧٧
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٩٢

صورة رقم ٧٨

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٩٣

صورة رقم ٧٩

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٩٤

صورة رقم ٨٠

صورة رقم ٨١

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٩٥

صورة رقم ٨٢

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٩٦

صورة رقم ٨٣

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٩٧

صورة رقم ٨٤

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٩٨

صورة رقم ٨٥

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٥٩٩

صورة رقم ٨٦

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٠٠

صورة رقم ٨٧

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٠١

صورة رقم ٨٨

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٠٢

صورة رقم ٨٩

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٠٣

صورة رقم ٨٩

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٠٤

صورة رقم ٩١

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٠٥

صورة رقم ٩٢

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٠٦

صورة رقم ٩٣

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٠٧

صورة رقم ٩٤

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٠٨

صورة رقم ٩٥

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٠٩

صورة رقم ٩٦

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦١٠

صورة رقم ٩٧

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦١١

صورة رقم ٩٨

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦١٢

صورة رقم ٩٩

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦١٣

صورة رقم ١٠٠

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦١٤

صورة رقم ١٠١

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦١٥

صورة رقم ١٠٢

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦١٦

صورة رقم ١٠٣

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦١٧

صورة رقم ١٠٤

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦١٨

صورة رقم ١٠٥

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦١٩

صورة رقم ١٠٦

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٢٠

صورة رقم ١٠٧

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٢١

صورة رقم ١٠٨

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٢٢

صورة رقم ١٠٩

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٢٣

صورة رقم ١١٠

التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٢٤

صورة رقم ١١١

- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٢٥
صورة رقم ١١٢
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٢٦
صورة رقم ١١٤
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٢٧
صورة رقم ١١٥
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٢٨
صورة رقم ١١٦
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٢٩
صورة رقم ١١٧
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٣٠
صورة رقم ١١٨
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٣١
صورة رقم ١١٩
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٣٢
صورة رقم ١٢٠
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٣٣
صورة رقم ١٢١
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٣٤
صورة رقم ١٢٢
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٣٥
صورة رقم ١٢٣
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٣٦
صورة رقم ١٢٤
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٣٧
صورة رقم ١٢٥
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٣٨
صورة رقم ١٢٦
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٣٩
صورة رقم ١٢٧
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٤٠
صورة رقم ١٢٨
- التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٤١

صورة رقم ١٢٩

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٤٢

صورة رقم ١٣٠

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٤٣

صورة رقم ١٣١

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٤٤

صورة رقم ١٣٢

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٤٥

صورة رقم ١٣٣

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٤٦

صورة رقم ١٣٤

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٤٧

صورة رقم ١٣٥

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٤٨

صورة رقم ١٣٦

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٤٩

صورة رقم ١٣٧

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٥٠

صورة رقم ١٣٨

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج ٢-٤، ص: ٦٥١

صورة رقم ١٣٩

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبَحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهايدة هذه المدينة، الذي قد اشتَهَرَ بِشَعْفِهِ بِأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ (صلواتُ الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)؛ ولهذا سُدِّسَ مع نظره و درايته، في سَنَةِ ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقه لم ينطفيء مصباحها، بل تَتَبَعَ بِأَقْوَى و أَحْسَنِ مَوْقِفٍ كُلِّ يَوْمٍ.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشِطَتَهُ من سَنَةِ ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عِزُّهُ - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميّة و طلاب

الجوامع، بالليل و النهار، في مجالاتٍ شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأدق للمسائل الدينية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلاية المبتدلة أو الردية - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامعة ثقافة على أساس معارف القرآن و اهل البيت عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...
- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.
- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقه و مكتبته، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمة" www.Ghaemiyeh.com و عدة مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الدينية كمسجد جَمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربي (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" و "مفتق" و فاني / بنائه "القائمة"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنّها لا تُوفّي الحجم المتزايد و المتسعّ للامور الدينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركز صاحب هذا البيت (المُسمّى بالقائمية) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجه الشريف) أن يُوفّق الكلّ توفيقاً مترائداً لإعانتهم - في حدّ التمكن لكلّ احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

